مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السَّابِعُ

سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلّد السّابع

سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزءُ الخَامِسُ

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤﴾ [النّساء: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى - في آخر الآية السَّابقةِ - مُضارَّةَ الجَمْعِ بين الأختين من النَّسب أو الرَّضاعِ، أَتْبَعَهُ في هذه الآية بمُضارَّةِ الإغارَةِ عَلى حَقِّ الغير، وهو بيانٌ لآخر المُحرَّمات مِنَ النِّساء - وهُنَّ ستَّة عشَر صنفًا، منهُنَّ خمسة عشَر في الآيتين السَّابقتين، وصِنْفٌ واحدٌ في هذه الآية - ؛ فالمنهيُّ الأوَّلُ جَمْعٌ بَيْنَ المَنْكُوحَيْنِ من أنواع النساء؛ وهَذا الصنف الأخير من المحرَّمات جَمْعٌ بَيْنَ النّاكِحِينِ من الرِّجال[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿۞وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾، ﴿مُّحۡصِنِينَ﴾: الإحصانُ: على وزن إفعال، وهو مصدرٌ مُشتقٌّ من أَحصنَ، يُحصِنُ، إحصانًا، وأصلُه: المَنْعُ، يُقالُ: حَصُنَ المكانُ فهو حَصينٌ: إذا صار مَنيعًا، وامرأةٌ حَصانٌ: عَفيفَةٌ، والمرأةُ تكونُ مُحصَنَةً بمعاني الإحصان، وهي: الإسلامُ، والعَفافُ، والحُرِّيَّةُ، والتَّزويجُ، يُقالُ: أَحصَنَت المرأةُ، فهي مُحصَنَةٌ ومُحصِنَةٌ، وكذلك الرَّجلُ، ويُطلَقُ الإحصانُ على الحِفظِ والحِرزِ، ومنه الحِصنُ: وهو الحِرزُ، وكلُّ مَوضعٍ لا يُوصَلُ إلى ما فيه[2]، ومعنى ﴿۞وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾: ذواتُ الأزواج، ومعنى: ﴿مُّحۡصِنِينَ﴾: عفيفين عن اقترافِ الحرام.

2) ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾: النِّساءُ، والنِّسوان، والنِّسوَة جمعُ المرأة من غير لفظها، كالقَوم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/232، والخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 3/737.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حصن).

جمعِ المَرء، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحُجرات: 11]، والمعنى المحوري لهذا الأصل غيابٌ في الأثناء مع الامتداد فيها، ومنه النِّسوة - بالكسر والضم - حيث يحملن في باطنهن الأجنّةَ ويحتبس الدمُ، ثم يخرجُ هذا وهذا من باطنهنَّ، واللفظُ في أصله خاصٌّ باللاتي بلغن المحيضَ والحَمْل، ولذا لا يُطلق في الذوق العامِّ على الصغيرات قبل الحيض، وهو صحيح، ثم تعمَّم في كل مَنْ شأنُ جِنسهن ذلك، كقوله: ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [يوسف: 30]، وبهذا المعنى جاء كلُّ (نسوة)، (نساء) في القرآن الكريم[1].

3) ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾: المَملوكُ يختصُّ في التَّعارف بالرَّقيق مِنَ الأملاك، قال: ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ [النّحل: 75] وقد يُقال: فلانٌ جَوَادٌ بمملوكه، أي: بما يتملَّكه، والمِلكَةُ تختصُّ بمِلكِ العبيد، ويُقال: فلانٌ حسَنُ المِلكة، أي: الصُّنع إلى مماليكه، وخصَّ مِلك العبيد في القرآن باليمين، فقال: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النّور: 58]، وقوله: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ [النّساء: 3][2].

والمعنى: ما يملك من الجواري بقصد الخدمة، أو الوطء، وهنَّ ما ملكتموهن بالسبي في الجهاد في سبيل الله.

4) ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾: المعنى: وكتَبَ عليكم هذا كتابًا، بمعنى: فَرَضَه، وقَضَى به، وقيل معناه: كتَبَ اللّه تحريمَ ما حرَّم عليكم مِن ذلك وتحليلَ ما حلَّل كتابًا[3].

5) ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾: الحِلُّ: الإباحةُ والإِذنُ والجَوازُ، وضدُّه: الحُرمَة والمَنع، يُقال: حَلَّ الشَّيءُ، يَحِلُّ، فهو حلالٌ، أي: صارَ مُباحًا مَأذونًا فيه بعدَما كان مَمنوعًا[4].

6) ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾: أي: أحلَّ اللّه تعالى لكم نكاحَ ما سوى المُحرَّمات المذكورات مِنَ النِّساء في الآيات السَّابقة، انْفِرادًا وجَمْعًا[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (نسي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نسو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/35، والخازن، لباب التّأويل: 1/361.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (حلل).
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/164، والآلوسي، روح المعاني: 3/6.

7) ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾: الابتغاءُ: طَلَبُ الشَّيءِ، تقول: ابتَغَيتُ الشَّيءَ، وبَغَيتُهُ، أَبغِيهِ بُغيَةً وابتِغاءً، أي: طَلَبتُهُ، والباغي: الطّالِبُ، وأَبغاهُ الشَّيءَ: طَلَبَه له وأعانَه على طَلَبِه، وقيل: الابتغاءُ هو الاجتهادُ في الطَّلَب، وأَصلُه: الإرادةُ والقَصدُ، يُقالُ: ابتَغيتُ الأَجرَ في عملي، أي: قَصَدتُهُ، ويأتي بمعنى الاتّخاذ، تقول: ابتَغيتُ البَيتَ سَكنًا لي، أي: اتَّخَذتُهُ، ومن معانيه: الحاجَةُ والحِرصُ والرَّغبَةُ[1].

والمعنى هنا: أن تطلبوا.

8) ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾: جذر الكلمةِ (سَفَحَ)، يَدُلُّ عَلَى إِرَاقَةِ شَيْءٍ، يُقَالُ سَفَحَ الدَّمَ، إِذَا صَبَّهُ، وَالسِّفَاحُ: صَبُّ الْمَاءِ بِلَا عَقْدِ نِكاحٍ، فَهُوَ كَالشَّيْءِ يُسْفَحُ ضَيَاعًا، والتَّسافُحُ والسِّفاح والـمُسافحة: الزِّنَا والفُجورُ؛ وأَصل ذلك مِنَ الصَّبِّ، تَقولُ: سافَحته مُسافَحةً وسِفاحًا، وهو أَن تُقيمَ امرأةٌ مع رَجُلٍ على فُجورٍ من غير تَزويجٍ صحيحٍ؛ ويُقالُ لابن البغيِّ: ابنُ المُسافِحة، والمُسافِحة: الفاجِرَةُ؛ وقال تعالى: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ [النّساء: 25][2].

والمعنى في الآية: عفيفين عن اقتراف الحرام.

9) ﴿ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ﴾: الاستمتاعُ: على وزن استِفعالٍ من استَمتَعَ بالشَّيءِ، وتَمَتَّعَ به، أي: تَبَلَّغَ به وانتَفَعَ، وأَصلُ الكلمة يدُلُّ على مَنفَعَةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ، والـمَتاعُ في الأصل: كُلُّ شيءٍ يُنتَفَعُ به، ويُتَبَلَّغُ به ويُتَزَوَّدُ، ويأتي الفَناءُ عليه في الدُّنيا[3].

والمعنى هنا: التمتعُ بالنِّساء بالنكاح الصحيح.

10) ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: الأجرُ: العِوَضُ، مَصدرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأجُرُهُ ويَأجِرُهُ، وأَصلُه: الجزاءُ على العمل، ومنه سُمِّيَ الثَّوابُ أَجرًا؛ لأَنّ اللّٰه يجزي العبد عليه[4].

والمعنى هنا: مهورهنَّ فيما يَعُمُّ الْمَالَ وَغَيْرَه[5].

11) ﴿فَرِيضَةٗۚ﴾: الفَرضُ: القَطعُ، ويأتي بمعنى الإلزام، فيُقال: فرَضَ عليه الأمر، أي: أوجَبَه وأَلزَمَه به، ويأتي بمعنى التَّقدير[6].

---

(1) الخليل، العين: (بغي)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي)، وابن منظور، لسان العرب: (بغا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سفح).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(4) ابن عبّاد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/133.
(6) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (فرض).

والمعنى هنا: فرضها اللّه لهنَّ.

12) ﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ﴾: الرَّاء والضَّاد والحرف المُعتلُّ أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على خلاف السُّخط، تقول: رَضِيَ يَرضَى رِضًى، وهو راضٍ، ومَفعولُه مَرضِيٌّ عنه.

والتَّراضي: رِضا كُلٍّ مِن أَفراد جَماعَة بأمرٍ ما اتَّفَقوا معًا عليه[1].

والمعنى في الآية: فيما تمَّ التراضي به بينكم، من الزيادة أو النقصان في المَهْر.

13) ﴿عَلِيمًا﴾: العِلمُ: نقيضُ الجَهلِ، وعَلِم يَعْلَمُ عِلمًا، والعليم: فَعِيلٌ: مِن أَبنية المبالغة، وهو مِن أسماء اللّه ﷻ وصفاته، ومعناه: ذو العِلْم المطلق، والكامل، الذي لم يُسبَق بجهل، ولا يَلْحقُه نسيانٌ، فهو العالم الواسع المحيط بكل شيء جملةً، وتفصيلًا، سواء ما يتعلَّق بأفعاله، أو أفعال خَلْقه، فلا يخرج عن علمه مثقالُ ذرة في الأرض، ولا في السماء[2].

14) ﴿حَكِيمًا﴾: الحكمُ: القَضاءُ والفَصلُ، تقولُ: حَكَمتُ بينهما إذا قَضَيت، ويأتي الحُكمُ بمعنى: الشَّيءِ الحَسَنِ المُتقَن، والإحكامُ: الحُسنُ والإتقانُ، يُقال: أَحكَمتُ صُنْعَ الشَّيءِ، أي: أَتقَنتُهُ، والحَكيمُ من أسماء اللّه وصفاته الحسنى، ومعناه: المُتقِنُ للأُمور، الموصوفُ بكمال الحِكْمة، وبكمال الحُكْم بين المخلوقات[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وحُرِّم عليكم نِكاحُ الـمُتزوِّجاتِ مِنَ النِّساء، إلَّا مَن سَبَيتُم منهنَّ في الجهاد، فإنَّه يَحِلُّ لكم نكاحهنَّ، بعد استبراء أرحامِهنَّ بحيضةٍ، كَتَبَ اللّه عليكم تحريمَ نِكاحِ هؤلاء، وأجازَ لكم نكاحَ مَن سِواهنَّ، ممَّا أَحلَّه اللّهُ لكم، أن تطلبوا بأموالكم العِفَّة عنِ اقتراف الحَرام، فما استمتعتم به منهنَّ بالنِّكاح الصَّحيح، فأعطوهنَّ مُهورهنَّ الَّتي فرضَ اللّه لهنَّ عليكم، ولا إثمَ عليكم فيما تمَّ التَّراضي به بينكم مِنَ الزِّيادة أو النُّقصان في الـمَهر بعد ثبوت الفريضة.

إنَّ اللّه تعالى كانَ ذا عِلْمٍ كاملٍ تامٍّ بأُمور عباده، ذا إتقانٍ في أحكامِه وتدبيره[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رضي).
(2) الخطابي، شأن الدعاء ص: 57، والغزالي، المقصد الأسنى ص: 81، وابن منظور، لسان العرب: (علم).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حكم)، وابن القيم، مدارج السالكين: 2/195.
(4) مجموعة من العلماء، التّفسير المُيَسَّر، ص: 82.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

اللَّفْظُ إذَا تَعَدَّدَتْ مَعَانِيهِ؛ يَتَعَيَّنُ لِأَحَدِهَا بِالْقَرَائِنِ

سَبَبُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بِمَا قَبْلَهُ:

المُراد بالمُحصناتِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ذواتُ الأَزواج، وهنَّ مُحرَّمات على كلِّ أحدٍ إلَّا على أزواجهنَّ؛ لذلك عُطِفنَ على المُحرّمات في الآية الَّتي قبلها، ولا يَصِحُّ حَمْلُ المُحْصَنَات في هذه الآية علَى الحَرائِر، ولا على المُسلِمات، ولا على العَفائف، وإن كان كلٌّ من هذه الثَّلاثِ يُطلق عليه وصفُ المحصنَات؛ وذلك لأنَّ حِلَّ نكاحِ الحرائر أو المسلمات أو العفيفاتِ أمرٌ متقرِّرٌ في الشَّرع إذا لم يمنَعْ من ذلك مانعٌ، فتعيَّن حَمْلُها على الوجْهِ الرَّابع؛ وهي ذاتُ الزَّوْجِ(1).

التَّكامُلُ الدَّلَالِيُّ بَيْنَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

قرأ الجُمْهُورُ ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ - سواء أكانت مُعرَّفة بِاللَّام أم مُنَكَّرة - بفتحِ الصَّاد، وقرأَهَا الكِسائيُّ بكَسرِها في الجَمع، إلَّا قوله ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في رأس الجزء هُنَا؛ فإنَّه وافقَ الْجُمْهُورَ(2).

فأمَّا الفتحُ؛ ففيه وجهان:

أَشهرُهما: أنَّه أَسندَ الإحصان إلى غيرهنَّ، وهو إمَّا الأَزواج أو الأَولياء، فإنَّ الزَّوج يُحصِنُ امرأتَه، أي: يُعِفُّها، والوليَّ يُحصِنُها بالتَّزويج أيضًا، واللّه يُحصِنُها بذلك.

والآخَرُ: أنَّ هذا مفتوح الصَّادِ بمنزلة مَكْسُورِهَا، أي: أنَّه اسمُ فاعل، وإنَّما شَذَّ فتحُ عَيْنِ اسم الفاعل في ثلاثة ألفاظ: أَحصَنَ فهو مُحصَن، وأَلقَح فهو مُلقَح، وأَسهَب فهو مُسهَب.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/434 - 435.
(2) البنَّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 239.

وأمَّا الكسر؛ فإنَّه أَسندَ الإحصان إليهنَّ؛ لأنَّهنَّ يُحصِنَّ أنفسهنّ بعفافهنّ، أو يُحصِنَّ فُروجهنَّ بالحفظِ، أو يُحصِنَّ أَزواجهنَّ، وأمّا استثناء الكسائيِّ الّذي في رأس الجزء في هذه الآيةِ؛ فوجْهُهُ: "أنَّ المُراد بهنَّ المُزَوَّجات، فالمعنى: أنَّ أَزواجَهُنَّ أَحصنُوهنَّ، فهنَّ مَفعولاتٌ"[1].

والقراءَتانِ متكاملتَانِ؛ لأنَّ الزَّوجاتِ محصَناتٌ ومُحصِنَاتٌ، فلا تعارُضَ بين القراءتين.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ (الْمُحْصَنَات) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

الـزَّوَاجُ طَـرِيـقٌ لِإِحْـصَـانِ الزَّوْجَيْنِ

في التّعبير عنِ المُتزوِّجَاتِ بالمُحصَنات في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ تَرْغِيبٌ لِلطّرفين في الزّواج؛ إذِ الزّواجُ هو طريق الإحصان للزّوجين معًا، وهذا ما أشارت إليه القِرَاءتَانِ بفَتْحِ الصّادِ في (المحصَنات) وكَسْرِهَا.

فالـمُحصَنُ: اسم مفعولٍ؛ مِن أَحصَنَ الشَّيءَ؛ إذا مَنعَهُ من الإضاعة واستيلاءِ غَيْرِه عليه، فالزَّوج يُحْصِن امرأته، أي: يَمنَعُها مِنَ الإِهمال واعتداءِ الرِّجَال، ولا يُطلَق وصفُ المُحصَنَات إلَّا على الحرائر المُتزَوِّجات دُون الإِمَاء؛ لعدم صيانتهنَّ في عُرف النَّاس قبلَ الإسلَام[2].

دِلَالَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

لَفْظُ (الْمُحْصَنَاتِ) يَـقَـعُ وَصْـفًـا لِلنِّسَاءِ، وَيَقَعُ وَصْفًا لِلْأَنْفُسِ فَيَعُمُّ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ

لفظُ (المُحصَنات) قد يُرادُ به وصفُ الأَنفُسِ، أي: الأنفُس المحصَنَات، فتُقامُ الصِّفةُ مُقامَ الموصوفِ، وتكون عامَّةً للرِّجال والنِّساء، إلَّا أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يرفعُ هذا الاحتمالَ، فيكونُ احتراسًا جيءَ به لدفعِ توهُّمِ المعنَى غيرِ المرادِ.

والدَّليلُ على أنَّهُ قَدْ يُرَادُ بِـ (المُحصنات) الأَنفس قوله ﴿وَٱلَّذِينَ

(1) الدّانّي، التّيسير، ص: 95، والسّمين، الدّرّ المصون: 3/646.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 18/158.

﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النّور: 4]، فلو أُرِيدَ به النِّساء خاصَّةً لَمَا حُدَّ مَن قَذَفَ رَجُلًا بنصِّ القرآن، وأَجمعوا على أَنَّ حَدَّهُ بهذا النَّصِّ[1].

دِلَالَـةُ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾:

(مَا) تَـدُلُّ عَلَى الْـعُــمُــومِ؛ شَرْطِيَّةً كَانَتْ أَوْ مَوْصُولَةً

تكرَّرت (مَا) في أربَعَة مَواضِع في قولِه ﷻ: ﴿۞وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾.

أوَّلُهَا: في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ﴾ وهي اسمٌ موصولٌ، وهُوَ دالٌّ علَى العموم، فإنَّ مِلْكَ اليمينِ تحلُّ للمسلِم ولو كانت ذاتَ زوجٍ؛ لأنَّ سَبْيَهَا يُبْطِلُ نكاحهَا السَّابق.

ثَانِيها: في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾، و﴿مَا﴾ هنا اسمٌ موصولٌ أيضًا، وهُوَ يُفيدُ العُموم؛ وهو عُمومٌ مَخْصُوصٌ؛ لورُودِ النَّهيِ في الشَّرْعِ عمَّا سِوَى المذكور، كالنَّهْيِ عَنِ الْجَمْعِ بين المَرْأةِ وعمَّتها، والمرأةِ وخَالَتِهَا[2].

ثالثُهَا: في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ﴾، و﴿مَا﴾ هُنَا يجوزُ أن تكون شرطيَّةً أو موصولة، وكلاهما يفيدُ العموم، وهذا العموم أُريدَ به الخُصوص؛ لأنَّه لا يُراد به جميع أفرادِه تناولًا وحكمًا؛ وإنَّما أُريدَ به بَعضُهَا؛ وهو الاستمتاع المأذونُ به شرعًا دونَ ما نُهِيَ عَنْهُ وَقْتًا أَوْ مَكَانًا.

رابِعُها: في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/584، والسّمين، الدّرّ المصون: 3/648، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 6/299.

(2) الزّايديّ، صيغ العموم وأنواعه، ص: 169 - 329.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾، و﴿مَا﴾ هنَا اسمٌ موصولٌ، وهو دالٌّ على استغراقِ أفرادِ ما تراضَيَا عليه، مِنَ الحطِّ أو الزِّيادَةِ.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (الْبَاءِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ﴾:

ذُكِرَ حرفُ الجرِّ (الْبَاء) ثلَاثَ مرَّات في هذه الآية:

تَنَوُّعُ دِلَالَاتِ الْحُرُوفِ بِحَسَبِ سِيَاقَاتِهَا

أُولَاهَا: في قوله تعالى: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُم﴾، وقَد دلَّتِ الباءُ على الِاسْتِعَانَةِ، وهيَ إحدى مَعَانيه الأَصليَّة، والمعنى: فاستَعينوا بأموالكم الَّتي رزقكم اللّه تعالى إيَّاهَا على النِّكاحِ.

وثانيهَا: في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ﴾، وقد أفادتِ الباءُ هنا معنَى السَّببيّةِ، أي: فآتُوهنَّ أُجورهنَّ من أَجله، أي: مِن أَجل ما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ[1].

وثالثُهَا: في قولِهِ تعالَى: ﴿فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ﴾، ودلَّ حرفُ الجرِّ فيه على معنى الاستعلاء المَجازيّ، أي: ما تراضيتم عليه، وَيَحْتَمِلُ فيه معنى السَّببيّة، أي: فيما تراضيتم بِسَبَبِهِ، والأوَّل أظهر.

وللمُتأمِّل أن يَلحظ أنّ معنى الإلصاق مُصاحبٌ تلكَ المعانيَ جميعَها، ولذا ذكرَ جماعةٌ من أهل العلمِ أنَّ الإلصاقَ معنًى لا يُفارِقُ الباءَ، ولذا اقتصرَ سِيبَوَيْهِ عليه[2].

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾:

سَبْيُ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ يُبْطِلُ نِكَاحَهَا السَّابِقَ

الاستثناءُ في قولِهِ تعالَى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ استثناءٌ مُتَّصل؛ لأنَّ المستثنَى منه: نكاحُ المحصَنَاتِ وهُنَّ المتزوِّجَاتُ، والمستثنَى: هو جوازُ وطءِ مِلْكِ اليَمِينِ، دون التَّعرُّضِ لحكم الزَّواجِ بهِنَّ، وإنَّما ذلك واردٌ في الآيةِ بعدهَا، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/36.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 137، والبنَّاني، سورة النّساء دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 179.

يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾، فكان الاستثناءُ في ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ استثناءً منقطعًا، وقد صرَّحَ بذلك السَّمينُ الحلبيُّ(1).

إلَّا أنَّ هذا الاستثناءَ المنقَطِعَ فيه شائبةُ اتِّصالٍ؛ من جِهَةِ أنَّ المستثنَى في الآيةِ هُنَّ الإماءُ المتزوِّجَاتُ، فإنَّ السَّبْيَ يُبْطِلُ نكاحَنَّ السَّابقَ، ويُجَوِّزُ لمن ملكَهَا وَطؤَهَا بعد استبرائِهَا.

نُكْتَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾:

مِنْ أَنْوَاعِ التَّصَرُّفِ فِي الإِمَاءِ جَوَازُ وَطْئِهَا مِنْ مَالِكِهَا

الأَيمَان: جمعُ يَمين، والمرادُ هي اليَدُ اليُمْنَى، وجعلُ الأيمانِ مالكةً في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُه: الجزئيَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ الجُزْءُ وهو اليدُ وأُرِيدَ به الإنسانُ؛ إذْ هو الذي يُوصَفُ بالمِلْكِ، وإنَّما عُبِّرَ باليَمين؛ لأنَّ الغالبَ في الأَخذِ والعطاءِ أنَّهُ يكُونُ بهَا(2)، ففيه إشارةٌ إلى التَّصرُّفِ في المَمْلُوك بأنواعٍ مِنَ التَّصرُّفَاتِ.

دِلَالَةُ الحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾:

نِسْبَةُ التَّحْرِيمِ إِلَى اللهِ تَعَالَى تَوْثِيقٌ لَهُ وَتَوْكِيدٌ

في قولِ اللهِ تعالَى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ حذفٌ لِلْمُسنَدِ، وذلك أنَّ المُسندَ قد يُحذَفُ لِدِلَالَةِ السِّياقِ عليه مِنْ دُونِ قياسٍ خاصٍّ في النَّحو، والَّذي دلَّ على المُسْنَدِ المَحْذُوفِ في الآيةِ نصبُ كَلِمَةِ ﴿كِتَٰبَ﴾، فالعَامِلُ فِيهَا النَّصبُ محذوفٌ لفظًا، وفي تَقْدِيرِهِ وَجْهَانِ، كلُّ واحِدٍ مِنهما يُشِيرُ إلى مَعْنًى مُسْتَقِيمٍ:

أحدُهُمَا: أن يكون ﴿كِتَٰبَ﴾ مَصْدَرًا للفعْلِ (كَتَبَ)، والمعنى: كتبَ اللهُ تعالى التَّحريمَ كتابًا مفروضًا بأحكامهِ عَلَيْكم، فليس لكم أن تَتَخَلّوا عنْهُ.

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 3/647، والقنّوجيّ، فتح البيان: 3/80.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - تفسير سورة النّساء: 1/206.

والآخَرُ: أن يكونَ الـمُرادُ القرآنَ الكريمَ، والمعنى: الزَموا كتابَ اللّه الَّذي هو حُجَّة عليكم إلى يوم القيامة، وهو الَّذي بَيَّن شريعةَ تَحْرِيم الـمُحرَّمات فأطيعوه.

وَكِلَا التَّخريجين يُؤدِّي إلى توثيق التَّحريم وتوكيدِهِ بِنِسْبَتِهِ إلى اللّهِ تَعَالَى، إمَّا باعتبارِهِ كَتَبَه وفَرَضَهُ، وإمَّا باعتبَار أنَّهُ نصَّ عليه في كِتَابِهِ، ولم يَتْرُكْ بَيَانَه لرَسُولٍ أَوْ نَبيٍّ[1].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾:

التَّكَامُلُ الدَّلَالِيُّ لِلْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ معطوفٌ علَى قولِهِ قبلُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، ووُسِّطَ قولُهُ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بينَهما؛ لقصد الْمُبَالَغَةِ في الحَمل على تَرْكِ الـمُحرَّمات المذكُورَة.

وقرأَ نافعٌ وابن كثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عَامرٍ وشعبةُ ويعقوبُ[2]: ﴿وَأَحَلَّ لَكُم﴾ بالبِنَاءِ للفَاعِلِ، والضَّميرُ المستترُ عائدٌ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ من قَوْلِهِ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وأُسنِدَ التَّحليلُ إلى اللّه تعالى إظهارًا للمنَّة، ولذلك خُولِفَ في طَرِيقَة إسنَادِ التَّحريم في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾؛ لأَنَّ في التَّحريم مَشَقَّةً؛ فليس المقامُ مَقَامَ منَّة.

وقرأَ حَمزَةُ والكسائيُّ وحَفصٌ عن عاصم وأَبو جعفَرٍ وخلفٌ البَزَّار: ﴿وَأُحِلَّ﴾ - بضمِّ الهمزة وكَسْرِ الحاء - على البناءِ للمفعولِ؛ مشاكلةً لِقولِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾[3].

نُكْتَةُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾:

أَحْكَامُ اللهِ تَعَالَى مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَصَالِحِ الْعِبَادِ

بينَ قولِ اللّه تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وقولِه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ مقابلةُ مَعْنَيَيْنِ بِمَعْنَيَيْنِ؛ حيثُ قُوبِلَ بينَ فِعْلَيِ التّحريمِ وَالْحِلِّ، وقُوبِلَ

(1) سيبويه، الكتاب: 1/381، وابن السَّرَّاج، الأصول: 1/142، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1638.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/249، والبنَّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 239.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/146، والبروسوي، روح البيان: 2/188، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/7، وابن الجزري، النشر: 2/249.

بين الحرفَيْن: علَى واللَّام؛ فإنَّ في (عَلَى) معنَى المضرَّةِ، وفي اللَّام معنَى النَّفْعِ، والغرضُ مِن هذهِ المقابلَةِ بيانُ سعة رحمةِ اللّٰه تعالى، وعظَمَة شَرْعِهِ؛ إذ إنّ الأصل هو الحلال المباح، والتَّحريم طارئٌ، ولا يثبُتُ إلَّا بنصّ، كما ورد في المُحَرَّماتِ نِكاحُهُنَّ.

وقد أشارتِ المقابلَةُ إلى أنَّ المَنْعَ مِن نِكَاح المحرّماتِ المذكورَاتِ إنَّما هُوَ لِمَصْلَحَةِ العبَادِ، ورَفْعِ الضَّرر عَنْهُم.

سَعَةُ المُبَاحِ فِي الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

نُكْتَةُ المَجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾:

الوَرَاءُ في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ بِمَعْنَى: غَيْر وَدُون، كقول النَّابغة(1):

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً *** ولَيسَ وَراءَ اللّٰه لِلمَرءِ مَذهَبُ

وهو مَجازٌ؛ لأَنَّ الوراءَ هو جهةُ ظَهرِ ما يُضافُ إليه، والكلامُ خرجَ مخرجَ التَّمثيلِ لحالِ المُخاطَبين بحال السَّائر يَترُكُ ما وراءَهُ ويتجاوَزُهُ، والمعنى: أَحَلَّ لَكُم مَا عدَا أُولئكُمُ المُحرَّماتِ(2)، وفيه إشعارٌ بسَعَةِ المبَاحِ.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ الضَّمِيرِ إِلَى اسْمِ الإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾:

الأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ قَدْ يَدُلُّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ الكَرِيمُ بِالْعِبَارَةِ أَوْ بِالْفَحْوَى

في قولِ اللّٰهِ تعالَى: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِنَ المحرَّمات المعدودة، وإيثَارُ التَّعبير باسْم الْإشَارَةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ على التَّعْبِيرِ بالضَّمير، فلم يَرِد نظمُ القرآنُ: (وأُحِلَّ لكُمْ مَا وَرَاءَهُ)، وذلك لأنَّ اسمَ الإشارَة يدلُّ على ذات المُشَارِ إِلَيْهِ ووَصْفِه، بخلافِ الضَّمير فإنَّهُ يدلُّ على الذَّات فقط؛ وفي هذا تذكيرٌ بما في كُلِّ واحدة من النِّساء المحرَّمات مِنَ الصِّفة الَّتي عليها يَدورُ حُكمُ الحُرْمَةِ؛ فيُفهم مُشَارَكَةُ مَن في معناهُنَّ لهنَّ فِيهَا بِطَرِيق الدِّلالة؛ كحُرمَة

(1) النّابغة الذّبيانيّ، ديوان النَّابغة، ص: 72.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/8.

الجَمْعِ بينَ المرأةِ وعَمَّتِها، وبينَ المرأةِ وخَالتِها، فإنَّها ليست بطريق العِبَارَةِ، بل بطريق الدِّلالة(1).

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَالِ مَجْمُوعًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم﴾:

الْأَصْـلُ فِي الْمَهْرِ أَنْ يَكُونَ مَالًا

ذهَب بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ ذِكرَ الأموالِ في قولِه تَعالَى: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ يُشْعِرُ بأنَّ غيرَ المَالِ لا يَصلُح مَهرًا، وأنَّ القَليل لا يكفي مَهرًا، فإنَّ الدِّرهم ونحوه لا يُسمَّى مالًا، ثمَّ هو لا يكون أقلّ من عشَرة دراهم(2).

وهذا وإنْ كان يَحتَمِلُه اللَّفظُ، إلَّا أنَّه غيرُ مرادٍ ههنا؛ لأنَّ السُّنَّةَ دلَّت على أنَّ المهرَ قدْ لا يكونُ مالًا، وإنَّما هو منفعةٌ، كتعليم القرآن الكريم، إلَّا أن يُحمَلَ لفظُ الآيةِ على أنَّ الأصلَ في المهرِ أن يكونَ مالًا، وهو حقٌّ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما أرشدَ الرَّجُلَ إلى جعلِ تعليم القرآنِ الكريمِ مهرًا عِنْدَ تعذُّرِ تحصيلِه المالَ(3).

والظَّاهِرُ أنَّ الجمْعَ يُرادُ به التَّوزيعُ على المخاطَبينَ؛ لأنّ لكلِّ مخاطَبٍ مالًا، لأنَّ الواوَ في ﴿تَبْتَغُواْ﴾ واوُ الجماعةِ، فناسبَ جمعُ المَالِ بعدها في ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾؛ لأنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجمعِ تقتضِي القسمَةَ آحادًا.

مِـنْ أَعْـظَـمِ مَقَاصِدِ النِّكَاحِ تَـحْـصِـيـلُ الْإِحْصَانِ

نُكْتَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾:

الطِّباقُ بينَ لَفْظَتَي ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ و﴿مُسَٰفِحِينَۚ﴾ من قولِه تعالى: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ يدلُّ على أنَّ المُحصَنَ هُوَ الَّذي يمنعُ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/146.

(2) البروسوي، روح البيان: 2/188.

(3) عن سهلِ بن سعدٍ السَّاعديِّ ﵁ «أَنَّ امْرَأَةً عَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله زَوِّجْنِيهَا، فَقَالَ: "مَا عِنْدَكَ؟" قَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ، قَالَ: "اذْهَبْ فَالْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ"، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لَا وَاللهِ مَا وَجَدْتُ شَيْئًا وَلَا خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي وَلَهَا نِصْفُهُ - قَالَ سَهْلٌ: وَمَا لَهُ رِدَاءٌ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "وَمَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ، إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ"، فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى إِذَا طَالَ مَجْلِسُهُ قَامَ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَاهُ - أَوْ دُعِيَ لَهُ - فَقَالَ لَهُ: "مَاذَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ؟" فَقَالَ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا - لِسُوَرٍ يُعَدِّدُهَا - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَمْلَكْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ"، البخاري، الحديث رقم: (5121)، ومسلم، الحديث رقم: (1425).

فَرجهُ، والمُسافحُ الَّذي يَبذله، وهو يُبْرِزُ المَعْنَى ويوضِّحه، مع ما فِيهِ مِنَ التَّأكيد[1]؛ بيانًا لحكمةٍ من حِكَم النِّكاحِ.

وقوله: ﴿مُّحۡصِنِينَ﴾ حالٌ مِن فاعِلِ ﴿تَبۡتَغُواْ﴾، أَي: مُحصنينَ أَنفُسَكم مِنَ الزِّنى، والمُرادُ مُتَزَوِّجينَ على الوَجهِ المَعروفِ، وقولُه: ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ حالٌ ثانيةٌ[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ السِّفَاحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾:

التَّرْغِيبُ فِي النِّكَاحِ، وَالتَّنْفِيرُ مِنَ السِّفَاحِ

السِّفاحُ هُوَ الزِّنى، وأصلُ السَّفحِ: الصَّبُّ، تقول العربُ: سَافَحَ؛ أي: زَنَى وصَبَّ الماءَ باطلًا، بخلاف النِّكاحِ فإنَّ فيه مِن المقاصِدِ والحِكَم شيئًا كثيرًا؛ كَإقامة السُّنَّة، وتكثير عباد اللهِ الصَّالحين، وغيرهما، ولذا لَمْ يكُنْ سِفاحًا.

فالسِّفاحُ ليسَ إلَّا قضاءُ الشَّهوة وصبُّ الماءِ باطِلًا، ولذَا سُمِّيَ بهذا الاسْم[3]، ومنْهُ: السِّفاح والمُسافحة؛ وهو الزّنا والفجور؛ إذْ كلُّ واحدٍ مِنَ المتسافِحَيْنِ سفَحَ ماءَهُ، أي: دَفَقَهُ بلا حُرْمَةٍ أباحَتْ دَفْقَهُ[4].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ(مَا) دُونَ (مَنْ) فِي قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾:

عَظَمَةُ الأَمَانَةِ فِي الزَّوَاجِ

جاءَ التَّعبيرُ بـ (مَا) دون (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ لتفخيم أَمْرِ الاِسْتِمْتَاعِ، وفيه إشارةٌ إلى ما لَهُ مِن حقوقٍ وما عليه مِن واجبات، وإيمَاءٌ إلى ما في المرأة من مُتعة فوق الاِسْتِمْتَاعِ المعهودِ، فـ (مَا) اسمٌ موصولٌ لِغَيْرِ العاقل، مَعدولٌ به عن (مَن) الَّتي يقع في حَيِّزها ذَوُو العِلْم، وهُنَّ النِّساءُ المَرْغُوبُ في الزَّواج منهنَّ.

وفي اختيار النَّظم القرآنيّ لهذا الأُسلوب إعجازٌ مِن إعجازِهِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/607، ومجموعة من الباحثين، المحرّر في التّفسير: 3/154.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/8.

(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/501.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفح).

فإنَّ الَّذي في كلمة (ما) من التَّجهيل والتَّفخيم ما يُلقي إلى شعور الرِّجال إحساسًا بِعظم الأَمانة الَّتي سَيَحملونها بهذا الزَّواج الَّذي هم مُقدِمون عليه، وبأنَّه نِعْمَة عَظِيمَة مِن نِعَم اللّه تعالَى(1).

دِلَالَةُ الاِسْتِمْتَاعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾:

مَنْ أَخْرَجَ النَّصَّ عَـنْ سِـيَاقِـهِ فَـقَـدْ غَـلِـطَ فِي نَظَرِهِ وَغَالَطَ فِي مُنَاظَرَتِهِ

حملَ بعض المُفسِّرين معنى الآية على نِكاح المُتعة، وأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى الثَّمن الَّذي يقدِّمه الرَّجل للمرأة في مُقابل الاستمتاع بها، والآية الكريمة في منطوقها لا تُعطِي هذا المفهومَ، بالإضافةِ إلى أنَّهُ عُنصرٌ دخيلٌ على القضيَّة الَّتي أَمسكَ القرآنُ الكريم بِجَميعِ أَطْرَافِهَا هُنَا، وهي قضية (الزَّواج)، وما أحلَّ اللّه تعالى وما حرَّم على الرِّجال مِنَ النِّساء، فإنَّ السِّياقَ معيِّنٌ للمعاني مُبيِّنٌ لَهَا.

وَفوقَ هذا فإنَّ هذا المفهومَ يُنَاقِضُ قولَه تعالى: ﴿فَرِيضَةٗۚ﴾ الَّذي هو وصفٌ مُلازمٌ لِلْمَهر الَّذي أشارَ إليه سُبحانه بقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾.

كما أنَّه يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾؛ فإنَّ فيهِ إشارةً إلى كَوْنِ القَصد ليس مجرَّدَ قضاءِ الشَّهوة، وحبِّ استفراغ المنيّ، وبناءً عليه فتَبْطُلُ إرادَةُ المُتعةِ بهذا القَيْدِ؛ لأنَّ مقصود المُتمتِّع ليس إلَّا ذاك مِن دُونِ التَّأهل والاِسْتِيلَادِ وحماية النَّسب، كما أنَّ كلمة الاستمتاع تدلُّ على الوَطْءِ والدُّخول، وليس بمعنى المُتعَةِ الَّتي يقول بِهَا الشِّيعةُ(2)، وتحريمُ المُتعَةِ بهذا المَعْنَى معلومَةٌ أدلَّتُهُ في الشَّريعة(3).

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/9، والخطيب، التَّفسير القرآنّي للقُرآن: 3/740.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنّي للقرآن: 3/740.

(3) عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنَّه قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ، وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ يَوْمَ خَيْبَرَ»، البخاري، الحديث رقم: (5115)، ومسلم، الحديث رقم: (1407).

وروى مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1406) عن سَبْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الجهنيّ أَنَّهُ كانَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا».

لُـــزومُ بَـــذْلِ المَـهْـرِ لِـلْـمَـرْأَةِ وَاسْتِحْقَاقُهَا لَهُ

بَلَاغَةُ الاِسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ استعارَةٌ؛ فقد استعِيرَ لفظُ الأُجور لِلْمُهور، بجامِعِ وُقُوعِهِمَا بدلًا عنِ المنافعِ لا عن الأعيانِ[1]، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ، ونكتَتُها الإشعارُ بلزومِ المَهْرِ واستحقاقِ النِّساءِ لَهُ.

وقولُهُ: ﴿فَرِيضَةً﴾ حَالٌ مِن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، أَي: مَفروضةً، أَي: مُقَدَّرَةً بَيْنَكُم، والمَقصِدُ من ذلك قَطعُ الخُصومات في أَعظمِ معاملةٍ يُقصَدُ منها الوثاقُ وحُسنُ السُّمعَة[2].

وُجوبُ التَّسْلِيمِ لِلشَّرْعِ المُنَزَّلِ، فَأَحْكَامُهُ عَيْنُ الحِكْمَةِ

بَرَاعَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

خُتِمَت هذه الآية بقوله سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وهو تذييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ يُرادُ به بيانُ أنَّ ما شَرَّعه هو مُقتضى عِلمه الَّذي أَحاط بكلِّ شيءٍ، ومُقتضى حِكمته الَّتي تضع كلَّ شيءٍ في مَوضِعه، وهي مُقتضى جلالِه تبارك وتعالى، ومُقتضى أُلوهِيَّته، ولذا صُدِّرَت جملةُ التَّذييلِ بالاسم الأحسن (اللّه).

وقد أكَّد اللّه سُبحانه وصفَه بالعِلم والحِكمة بـ﴿إِنَّ﴾، وبـ﴿كَانَ﴾ الدَّالة على الدَّوام والاستمرار، وفيه إعلامُ العبادِ بلازِمِ وصفي اللّه تعالى بالعِلْم والحِكْمَة، وهو التَّسليمُ لأوامر اللّه تعالى ونواهيه؛ إذِ الحكمَةُ ثَمَّ[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

خلف ووراء:

الخَلفُ: كلُّ شَيءٍ يَجِيءُ بعد شَيءٍ فهو خَلفُه، وهو مقيَّدٌ بهذا المعنى، والوراء: بالمدِّ: اسم لَما توارى عنك، أَي: استتر، فالقُدَّام والخلف مُتوارٍ عنك.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/83.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1643.

قال هُدْبةُ بن خشرم[1]:

عسى الكَربُ الَّذي أَمسَيتُ فيه *** يكونُ وَراءه فَرَجٌ قَريبُ

وكلُّ ما كانَ خَلفًا يجوزُ أَن يَنقَلِب قُدَّامًا وبالعكس؛ لأَنَّك مُستقبل المُستَقبل ومُستدبِر الماضي.

و(وَرَاء) يَصلح لمَا قبله ولمَا بعده لا لأَنَّه وضع لكلٍّ منهما على حدة، بل لأَن معناه ما توارى عنك، أَي: استتر، وهو موجود فيهما، وأساسُ استعمالها بمعنى (بعد) و(غير) أنه إذا كان المقصود على مسافة مكانية أو زمانية تقع أو تأتي بعد الموقع، أو الآن الحالي، بحيث لا يُعايَنُ فإنه يكون مستترًا غائبًا، ومن هذا الاستتار يكون مثل الذي هو خلف شيء، ويكون مغايرًا، لأنه ليس هو، وبمجمل هذا قال المفسرون[2].

وممَّا تقدَّم يتوضَّح أن استعمال لفظ (وراء) في الآية الكريمة قد صوّر معنى دقيقًا لسياق الآيات ذات الصّلة بالموضوع.

الرَّغبة والابتغاء:

الابتغاءُ مصدرُ قولهم: ابتَغى الشَّيءَ بمعنى طَلَبَهُ، ويُقالُ أيضًا: بَغَى الرَّجلُ حاجَتَهُ أو ضَالَّتَهُ إذا طلبَها، والبُغية: الطُّلبة، والابتغاء: الاجتهاد في الطَّلب، أو هو الاشتدادُ في طَلَب شيءٍ ما، وأَصلُه مُطلَق الطَّلب والإرادة.

أمَّا أصلُ الرَّغبَة فهو السَّعة في الشَّيء مُطلَقًا، وأنَّ الرَّغب والرَّغبة والرَّغبى: السَّعة في الإرادة، والرَّغيبة: العطاء الكثير؛ إمَّا لكونه مرغوبًا فيه، وإمَّا لسَعته.

والرَّغبة أيضًا: السُّؤال والطَّمع.

وبالنّظر في كلا التعريفين بينَ الرَّغبة والابتغاء يتَّضح أنَّهما مُتقاربان من حيث الدّلالة، بيدَ أنَّه يُلحظ في الرَّغبة معنى الحرص، وفي الابتغاء معنى الشِّدَّة والاجتهاد، وهذا ما ناسب استعماله في الآية الكريمة، وكلاهُما قد يُستعمل - في بعض السِّياقات - استعمال الآخر[3].

(1) سيبويه، الكتاب: 3/159.

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 414 - 419، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ورى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (رغب)، (بغي)، وعدد من المختصين، نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم: 6/2126.

البغاء والزِّنى والسِّفاح:

البِغاء هو الفُجور، من بَغَى في الأرض، أي: فجَرَ فيها، وهو تجاوُزٌ إلى ما ليس له، ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [القصص: 76]؛ لذا يُقال للمرأة: بَغِيٌّ ولا يُقال للرَّجل: بَغِيٌّ، ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم: 28]، ولا يُوصف الرَّجل بالبغيِّ في الزِّنى، فالبِغاء للمرأة وحدها، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: 33]، واشتقاقه اللَّفظيّ من بغَتِ المرأة إذا فجَرَت؛ لأنَّها تجاوزت ما ليس لها.

والزِّنى هو الوَطء من غير عَقدٍ شرعيٍّ، والبغاء استمراءُ الزِّنى، فيصير فجورًا.

أمَّا المُسافحة والسِّفاح يَدُلُّ عَلَى إِرَاقَةِ شَيْءٍ، يُقَالُ سَفَحَ الدَّمَ، إِذَا صَبَّهُ، وَالسِّفَاحُ: صَبُّ الْمَاءِ بِلَا عَقْدِ نِكاحٍ، فَهُوَ كَالشَّيْءِ يُسْفَحُ ضَيَاعًا، وهو أن تُقيمَ امرأةٌ مع رَجُلٍ على فُجورٍ من غير تَزويجٍ صحيحٍ؛ ويُقالُ لابن البغيِّ: ابنُ المُسافِحة، والمُسافِحة: الفاجِرَةُ؛ وقال تعالى: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ [النّساء: 25]، وهذا من أشدِّ صور حدوث الفاحشة، والزِّنى مُشترك بين هذه الثَّلاث، وهو أقلّها(1).

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاءُ أَقوى مِنَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له مُطاوِعٌ بخلاف الإيتاء، تقولُ: أَعطاني فعطوت، ولا يُقالُ: آتاني فأتيت، وإنَّما يُقالُ آتاني فأَخَذتُ، والفعلُ الَّذي له مُطاوِعٌ أَضعفُ في إثباتِ مفعوله ممَّا لا مُطاوِعَ له؛ لأنَّك تقولُ: قَطَعته فانقَطَعَ، فيدلُّ على أَنَّ فِعلَ الفاعِلِ كان مَوقوفًا على قبول المَحلِّ، لولاه ما ثَبَتَ المَفعولُ، ولهذا لا يصحُّ قَطَعته فما انقَطَعَ، ولا يصحُّ فيما لا مُطاوِعَ له ذلك؛ ودليل ذلك في مَواضِع مِنَ القرآن، قال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلكَ شيءٌ عظيمٌ لا يُعطاهُ إلَّا مَن له قوَّةٌ؛ وقال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّه مورود في المَوقفِ مُرتَحَلٌ عنه إلى الجنَّة.

وذهب الزَّبيديّ إلى أنَّ الإعطاءَ أَقوى مِنَ الإيتاء؛ ولذا خصَّ في دفعِ الصَّدقاتِ الإيتاء ليكون ذلك بسهولةٍ من غير تَطَلُّعٍ إلى ما يَدفعه.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سفح)، (زنى)، ومحاضرة للدّكتور فاضل صالح السَّامرائيّ، بتصرف.

وتأمَّل سائرَ ما وَرَدَ في القرآن تجد معنى ذلك فيه، والكوثرُ لَمَّا كان عظيمًا شأْنُهُ غير داخلٍ في حيطةِ قُدرَةٍ بشريَّةٍ استُعمِل الإعطاءُ فيه، وكلامُ الأئمَّة وسياقُهم في الإيتاء لا يُخالِفُ ما ذَكَرنا(1).

ولذلك كان الإيتاء أنسب في مقام إيتاء مهر المرأة؛ لأنّه أقوى في إثبات المفعول، وينبغي أن يُخرِج حقَّها من دون تعسُّفٍ أو مماطلة.

الثَّواب والأَجر:

الأَجرُ يكونُ قبل الفعل المأْجُور عليه، والشَّاهد أَنَّك تقول: ما أَعمل حتَّى آخذ أَجري، ولا تقول لا أعمل حتَّى آخذ ثوابي؛ لأَنَّ الثَّواب لا يكون إِلَّا بعد العمل، هذا على أَنّ الأجر لا يستَحقُّ له إِلَّا بعد العمل كالثَّواب، إِلَّا أَنَّ الاستعمال يجري بما ذكرناه، وأَيضًا فإِنَّ الثَّواب قد شُهر في الجزاء على الحسنات، والأَجر يُقال في هذا المعنى، ويُقال على معنى الأجرة الَّتي هي من طريق المثامنة بأَدنى الأَثمان، وفيها معنى المُعاوضة بالانتفاع(2).

وناسب في الآية الكريمة استخدام الأجر مكان المَهر؛ لكونه مقابل استمتاع الزوج بامرأته.

العليم والخبير:

العَليمُ: هو العالمُ بالسَّرائر والخَفيَّات الّتي لا يُدرِكُها عِلمُ الخَلقِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود: 5]، وجاء على بناء فعيلٍ للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال سُبحانه: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ۝٧٦﴾ [يوسف: 76]، والآدميُّونَ - وإن كانوا يُوصَفونَ بالعِلم - فإن ذلك يَنصَرِفُ منهم إلى نوعٍ مِنَ المعلومات من دون نوع، وعِلمُ اللّه سبحانه عِلمُ حَقيقَةٍ، وكمالٍ ﴿قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: 12]، ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ۝٢٨﴾ [الجنّ: 28].

والخبير: هو العَالِمُ بكُنه الشَّيء، المُطَّلِعُ على حَقيقته، كقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ۝٥٩﴾ [الفرقان: 59]، يُقالُ: فلان بهذا الأمرِ خبيرٌ؛ وله به خبرٌ، وهو أخبَرُ به مِن فلانٍ؛ أي: أعلَمُ، إلَّا أنّ الخُبرَ في صفة المَخلوقينَ إنَّما يُستَعمَلُ في نوع العِلم الَّذي يدخله الاختبارُ، ويُتَوَصَّلُ إليه بالامتحان، والاجتهاد، أمَّا اللّه تعالى الخبيرُ فهو الذي أحاط علمه ببواطن الأشياء، وخفاياها كما أحاط بظواهره(3).

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتي).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 237.

(3) الخطابي، شأن الدّعاء: 1/57 - 63، ابن القيم، الصواعق المرسلة: 2/492.

الحكيم والعَالِم:

يردُ معنى الحكيم على ثلاثة أَوجهٍ، أحدها: بمعنى المُحكِم، مثل: البديع بمعنى المُبدِع، والسَّميع بمعنى المُسمِع، والثّاني: بمعنى مُحكم، وفي القرآن المجيد: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدّخان: 4]، أي: مُحكم، وإذا وصف اللّه تعالى بالحكمة من هذا الوجه كان ذلك مِن صفات فعله، والثّالث: الحَكيم بمعنى العالِم بأحكام الأمور، فالصّفة به أَخصُّ مِن الصّفة بعالِم، وإذا وصف اللّه به على هذا الوجه فهو من صفات ذاته، الدَّالَّةِ على كمال الحكمة، وكمال الحكم بين المخلوقات[1].

المعرفة والعلم:

المعرفة: العلم المُتعلِّق بالمفردات، ويسبقه الجهل، ولذا لم يوصف اللّه تعالى بالمعرفة[2]، ثمّ قد يتجاوَز عن قيد الملامح المحدّدة، وقد يكون الظّاهر عزيزًا، أو رموزًا، أو يوصل منه إلى ما هو أعمق، أمّا العلم فأحكام تتكوّن في القلب من روافد وأسباب محدَّدة ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾ [محمّد: 30]، ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف: 58]، يُلحظ أنّها معرفةٌ بالسِّيما والملامح، ولحن القولِ الذي يُؤخَذ من الألفاظ المسموعة، و"التّعريف: إنشاد الضّالّة"؛ لأنّه يعرّف بصفاتها الظّاهرة[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 96، وابن القيم، مدارج السالكين: 2/195.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/466.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرف).

﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ [النِّساءُ: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ ما يَحِلُّ مِنَ النِّساءِ في حالٍ، ويَحْرُمُ في حالٍ بَعْدَ ذِكْرِ المحَرَّماتِ مِنَ النِّساءِ

لَمَّا بَيَّنَ اللَّه ﷻ مَنْ يَحِلُّ ومَنْ لا يَحِلُّ مِنَ النِّساءِ، وأَتْبَعَهُ تَعْليمَ الحِكْمَةِ في نِكاحِ الإماءِ؛ شَرَعَ في ذِكْرِ ما يَحِلُّ في حالٍ، ويَحْرُمُ في حالٍ أخرى، وعلى أيِّ وجْهٍ يكونُ حلالًا[1]؛ فقال مُبيِّنًا ذلك كُلَّهُ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾، وكَأَنَّ سائِلًا سَأَلَ: هذا حُكْمُ مَنِ اسْتَطاعَ نِكاحَ حُرَّةٍ، فما حُكْمُ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ فَجاءَهُ تَفْصيلُ الجَوابِ.

وفي ذِكْرِ الإِحْصانِ، والتَّنْويهِ بِشَأْنِ العَفافِ، وتَقْبيحِ السِّفاحِ في الآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾، مناسبةٌ مع قَوْلِهِ في هذه الآيةِ: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾، ويظهرُ التَّناسب - أيضًا - في تأْكيدِ وُجوبِ المَهْرِ لِلحَرائِرِ والإماءِ عَلى السَّواءِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، وقَوْلِهِ: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ وفي قَوْلِهِ في الآيَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ هذهِ السُّورَةِ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾.

ومن ناحية أخرى: يتجلَّى التَّناسُبُ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/57، والبِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/235، والسُّيوطيُّ، قَطْفُ الأَزْهارِ في كَشْفِ الأَسْرارِ، ص: 697.

بَعۡضٖ﴾، وَقَوْلِه في مَطلَعِ السُّورَة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النِّساء: 1] فجَميعُكُمْ تَرجِعونَ في أَصلِ نَشأَتِكِمْ إلى آدَمَ وحوَّاءَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَوۡلًا﴾: طالَ يَطولُ طَوْلًا في الإِفْضالِ والقُدْرَةِ[2]، وأَصلُ الطَّوْل: يَدُلُّ على فَضْلٍ وامْتِدادٍ في الشَّيْءِ[3]، والطَّوْلُ: القُدْرَةُ والفَضلُ والسَّعَة، وَفُلانٌ ذو طَوْلٍ، أَيْ: ذو قُدْرَةٍ، ولِفُلانٍ على فُلانٍ طَوْلٌ، أَيْ: فَضْلٌ، والمُرادُ هاهُنا: السَّعَةُ في المالِ، والقُدْرَةُ على المَهْرِ والنَّفَقةِ[4].

2) ﴿يَنكِحَ﴾: نكحَ فلانٌ امرأةً يَنكِحُها نِكاحًا؛ إذا تزوَّجها[5]، والنَّكْحُ: البُضْعُ[6]، والنِّكاح: كِنَايَة عَن الجِمَاع[7]، والمعنى هنا: أن يتزوَّج[8].

3) ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾: أَصْلُ الإِحْصانِ: الحِفْظُ، والحِياطَةُ، والمَنْعُ، ومِنْهُ الحِصْنُ؛ لأَنَّهُ يُمْتَنَعُ بِهِ[9]، وحَصُنَتِ المَرْأَةُ تَحْصُنُ؛ إِذا عَفَّتْ عَن الرِّيبَةِ فَهِيَ حَصَانٌ[10]، والمُحْصَنَةُ: الَّتي حَصُنَتْ بِالتَّزْويجِ، فَالمَرْأَةُ مُحْصَنَةٌ بِالعَفافِ والحُرِيَّةِ، مُحْصَنَةٌ بِالتَّزْويجِ، والمراد هنا: النِّساءُ االحَرائِرُ العَفيفاتُ.

4) ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾: مِلْكُ اليَمينِ يُطْلَقُ، ويُرادُ بِهِ: الأَمَةُ والعَبْدُ المَمْلوكانِ، ولا يُطْلَقُ على غَيْرِ ذَلك[11]، والمُرادُ بِهِ هنا: الإِمَاءُ اللَّاتي مَلَكْتُموهُنَّ بالسَّبْيِ[12]، أو انتقل مِلكُهنَّ إليكم أبًا عن جدٍّ.

---

(1) عَبْدُ اللهِ الغُماريُّ، جَواهِرُ البيانِ في تَنَاسُبِ سُوَرِ القُرآنِ، ص: 29.
(2) القُرْطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/225.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طول).
(4) الراغب، المفردات: (طول)، والقُرطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/225.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (نكح).
(6) ابْنُ عَبَّادٍ، المُحيطُ في اللُّغَة: (نكح).
(7) ابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَة: (نكح).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (عنت).
(9) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (حصن).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابْنُ مَنْظورٍ، لسان العرب: (حصن).
(11) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 188.
(12) أَبو الحَسَنِ الغَزْنَويُّ، باهِرُ البُرهانِ في مَعاني مُشْكِلاتِ القُرْآنِ: 1/361.

5) ﴿فَتَيَٰتِكُمُ﴾: الفتى: الطَّريُّ والكريمُ مِنَ الشُّبَّانِ، والأُنْثى فتاةٌ، يُقالُ: فَتِيٌّ بَيِّنُ الفَتاءِ، أَيْ: طَرِيُّ السِّنِّ، ويُعَبَّرُ بِالفتى والفتاةِ عَنِ العَبْدِ والأَمَةِ[1]، ومَعْنى فَتَياتِكُمْ هنا: إِماؤُكُمْ وجواريكم.

6) ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: أَجَره يَأْجُرُهُ؛ إذا جَزاهُ، وأَثابَهُ، وأَعطاهُ[2]، مُقابِلَ المَنْفَعَةِ المَعْقودِ عَلَيْها[3]، وأَصْلُ الأَجْرِ: الكِراءُ على العَمَلِ[4]، فَهُوَ جَزاءُ العَمَلِ[5]، ويُطلَقُ الأَجْرُ، ويراد به: الثَّوابُ، وَبَدَلُ المَنْفَعَةِ، وَالمَهْرُ، وهُوَ هنا: المَهْرُ والعِوَضُ الَّذي يَدْفَعُهُ الزَّوْجُ لِزَوْجَتِه.

7) ﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: مِنْ سافَحَ مُسافَحَةً وسِفاحًا، وأَصْلُ السَّفْحِ: الصَّبُّ وإراقَةُ الشَّيْءِ[6]، والسِّفاحُ: الزِّنى والفُجورُ؛ وسُمِّي الزِّنى: سِفاحًا؛ لِأَنَّهُ كانَ عَنْ غَيْرِ عَقْدٍ، كَأَنَّه بِمَنْزِلَةِ الماءِ المَسْفوحِ الَّذي لا يَحْبِسُهُ شَيْءٌ، وَكانَ أَهلُ الْجاهِلِيَّةِ إِذا خطب الرَّجُل المرأةَ؛ قَالَ: أَنكِحِيني، فَإِذا أَرادَ الزِّنى؛ قَالَ: سَافِحِيني[7]، والمُسَافِحَةُ: المرأةُ الفاجِرَةُ الَّتي لَا تَمْتَنِعُ عَنِ الزِّنى.

8) ﴿أَخْدَانٍ﴾: جَمْعُ خِدْنٍ، يُقالُ: خِدْنُ المَرْأَةِ وخَدينُها، وأَصْلُ المُخادَنَةِ: مُصاحَبَةٌ خاصَّةٌ[8]؛ إِذْ هِيَ عَلاقَةٌ مُتَغَلْغِلَةٌ في الظَّاهِرِ والباطِنِ مَعَ تَخَفٍّ وسِرِّيَّةٍ[9]، وأَكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ فيمَا يُصاحِبُ شَهْوَةً[10]، والمعنى هنا: أَصْدِقاء وَأَخِلَّاء، أو زَوانٍ سِرًّا[11].

9) ﴿ٱلْعَنَتَ﴾: عَنَتَ فُلانٌ يَعْنَتُ عَنَتًا؛ إذا وَقَعَ في أَمْرٍ يَخافُ مِنْهُ التَّلَفَ، وأَصْلُ العَنَتِ: المَشَقَّةُ[12]، ويُطْلَقُ العَنَتُ، ويُرادُ بِه: الهَلاكُ والمَشَقَّةُ الشَّديدةُ والإِثْمُ[13]، والمَعْنَى هنا: الوُقوعُ في الزِّنى الموجِبِ لِلحَدِّ في الدُّنْيا والعَذابِ في الآخِرَةِ.

(1) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (فتا)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والراغب، المفردات: (فتى).
(2) الزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (أَجَرَ).
(3) عَبْدُ الوَهَّابِ البَغْداديُّ، التَّلْقينُ في الفِقْهِ المالِكيِّ: 2/158.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَجَرَ).
(5) الخليل، العين: (أجر).
(6) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَةِ، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (سفح).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (أَبْوابُ الحاءِ والسِّين) (سفح).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خدن).
(9) الخليل، العَيْنُ: (بابُ الخاءِ والدَّالِ والنُّونِ)، وجبل، المُعْجَمُ الإِشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (خدن).
(10) الرَّاغِبُ، المُفْرَداتُ: (خدن).
(11) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.
(12) الخليل، العَيْن: (بابُ العَيْنِ والتَّاءِ والنُّونِ)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عنت).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة: (بابُ العَيْنِ والتَّاءِ مَعَ النُّونِ)، (عتن)، والجَوْهَريُّ، الصِّحاحُ: (عنت).

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إباحةُ الزَّواج مِنَ الإماءِ المؤمنات؛ لِمَنْ لَمْ يَجِدْ مَهر الحُرَّة؛ خوفًا من الوقوع في الزِّنى

نَبَّهَ اللهُ ﷻ في هذهِ الآيَةِ الكَريمَةِ إلى تَخْفيفِ أَعْباءِ النِّكاحِ على مَنْ لَمْ يَجِدْ سَعَةً للاقترانِ بالحَرائِرِ مِنَ النِّساءِ، فشَرَعَ لَهُ نِكاحَ الإماءِ المَمْلوكاتِ؛ إنْ كُنَّ مُؤْمِناتٍ، وتبدو عليهنَّ علاماتُ الإيمانِ وأماراتُه فيما يَظْهَرُ، واللهُ هو العليمُ بِحَقيقَةِ إيمانِكُمْ وبَواطِنِ أَحْوالِكُمْ، فَكُلُّكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ، فَأَنْتُمْ وهُنَّ سَواءٌ في الدِّينِ والإِنْسانيَّةِ، فلا تَسْتَنْكِفوا عَنِ الزَّواجِ مِنْهُنَّ، فَرُبَّما كانَ إيمانُ أَمَةٍ أَفْضَلَ مِنْ إيمانِ بَعْضِ الحَرائِرِ[1]، والزَّواجُ منهنَّ يكونُ بِإِذْنِ مالِكيهنَّ، وآتوهُنَّ مُهورَهُنَّ حَسَبَ المَعْهودِ بَيْنَكُمْ في حُسْنِ التَّعامُلِ، وَتَوْفِيَةِ الحَقِّ دونَ نَقْصٍ أَوْ مُماطَلَةٍ، هذا إنْ كُنَّ عَفيفاتٍ غَيْرَ زانياتٍ، ولا مُتَّخِذاتٍ أَخِلَّاءَ للزِّنى بِهِنَّ سِرًّا، فَإِذا تَزَوَّجْنَ، ثُمَّ ارْتَكَبْنَ فاحِشَةَ الزِّنى؛ فَحَدُّهُنَّ نِصفُ عُقوبَةِ الحَرائِرِ: خَمْسونَ جَلْدَةً، بِخِلافِ المُحْصَناتِ مِنَ الحَرائِرِ؛ إذا زَنَيْنَ.

ثمّ أَوْضَحَ - جلَّ شأْنُهُ - أَنَّ ذَلِكَ المَذْكورَ مِنْ إباحَةِ نِكاحِ الإِمَاءِ المُؤْمِناتِ العَفيفاتِ رُخْصَةٌ لِمَنْ خافَ على نَفْسِهِ الوُقوعَ في الزِّنى، ولَمْ يَقْدِرْ على الزَّواجِ مِنَ الحَرائِرِ، على أَنَّ الصَّبْرَ عَنْ نِكاحِ الإماءِ مع العِفَّةِ أولى وأفضلُ؛ لِتَجْنيبِ الأَوْلادِ الاسْتِرْقاقَ، واللهُ غفورٌ لِمَنْ تابَ مِنْ عِبادِهِ، رَحيمٌ بِهِمْ، ومِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ شَرَعَ لَهُمْ نِكاحَ الإماءِ حالَ العَجْزِ عَنْ نِكاحِ الحَرائِرِ عِنْدَ خَشْيَةِ الزِّنى؛ تَوْسِعَةً مِنْهُ سُبْحانَهُ على عِبادِهِ[2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

السِّرُّ فِي اسْتِعْمَالِ أَدَاةِ النَّفْيِ (لَمْ) دُونَ غَيْرِهَا:

يُعَدُّ النَّفْيُ مِنْ أَعْلى ضُروبِ البَلاغَةِ؛ لِكَثْرَةِ فَوائِدِهِ وعُذوبَةِ مَوارِدِهِ، وهَذا راجِعٌ لِكَثْرَةِ أَدَواتِهِ وحُروفِهِ وتَنَوُّعِ مَعانيها وخَصائِصِها وأَثَرِها في الكَلامِ، ومِنْ تِلْكَ الحُروفِ: (لَمْ)؛

(1) القُرْطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/233.

(2) عَبْدُ اللهِ الزَّيد، مُخْتَصَرُ تَفْسيرِ البَغَويِّ: 1/175، والمَحَليِّ والسُّيوطيِّ، تَفْسيرُ الجلالَيْنِ، ص: 105، ولَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 112، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 82.

فَمَعَ كَوْنِها تَنْفي الفِعْلَ المُضارِعَ، وتَقْلِبُ مَعْناهُ إلى الزَّمَنِ الماضي، فَهِيَ تَتَمَيَّزُ أَيْضًا بِتَنَوُّعِ التَّأْثيرِ في مَعْناهُ، فَقَدْ تَنْفيه على جِهَةِ الجَزْمِ والتَّأْبيد، فَيَتَّصِلُ نَفْيُها مُطْلَقًا، نَحْوُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: 03]، وقَدْ يَنْقَطِعُ، نحو: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: 1]، أَيْ: لَمْ يكُنْ ثُمَّ كانَ[1]، وَقَدْ تَنْفي الحَدَثَ مِنَ الماضي إلى الحاضِرِ مَعَ إِمْكانِ تَغَيُّرِهِ في الزَّمَنِ الحاضِرِ، كما هُوَ هُنَا في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾، فالسِّياقُ يُعَبِّرُ عَنْ حالٍ مُؤَقَّتَةٍ يُتَوَقَّعُ تَغَيُّرُها عِنْدَما يُوَسِّعُ اللّه تعالَى على عَبْدِهِ، فَيَتَمَكَّنُ مِنَ الاقْتِرانِ بِالمُحْصَناتِ[2]، ولِهَذا خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وَهُوَ المَعْنَى المُنَاسِبُ لِكَرمِ اللهِ وجُودِهِ وتَفَضُّلِه على عِبادِهِ بِالتَّوْسِعَةِ عَلَيْهِمْ بِالفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ، واليُسْرِ بَعْدَ العُسْرِ، كَما قال ﷻ في آيَةٍ أُخْرى تَصِفُ حَالًا قَريبَةً مِنْ هذِهِ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ [النُّور: 33]، فاسْتِعمالُ (لَمْ) في هذا المَوْضِعِ مِنَ الدِّقَّةِ البَلاغيَّةِ بِمكانٍ.

مِنْ كَرَمِ اللهِ تَعالَى وَتَفَضُّلِهِ عَلَى عِبادِهِ التَّوْسِيعُ عَلَيْهِمْ بِالْفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الطَّوْلِ بَدَلَ السَّعَةِ:

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ اسْتُعِيرَ لَفْظُ الطَّوْلِ لِلسَّعَةِ والغِنى في المالِ، بِجامِعِ القُدْرَةِ والتَّمَكُّنِ مِنَ الشَّيْءِ، فالاسْتِعارَةُ هنا: تَصْريحيَّةٌ[3] تَبَعِيَّةٌ[4]، أُخْرِجَ فيها الأَمْرُ المَعْنَوِيُّ - وهُوَ السَّعَةُ - في صورَةٍ حِسِّيَّةٍ جَميلَةٍ، وذلِكَ أَنَّ الطَّوْلَ يَسْتَلْزِمُ المَقْدِرَةَ على المُناوَلَةِ، فيَقولونَ: تطاوَلَ لِكذا، أَيْ: تَمَطَّى، وتَمَدَّدَ؛

إِخْـرَاجُ الأَمْـرِ المَعْنَوِيِّ فِي صُورَةٍ حِسِّيَّةٍ يَزِيدُ فِي تَأْكِيدِ المَعْنَى وَتَقْرِيرِهِ

(1) ابْنُ هِشامٍ، مُغْني اللَّبيبِ، ص: 367.
(2) الشِّنْقيطيُّ، أَضْواءُ البَيانِ: 5/530.
(3) الاستعارة التَّصريحيَّة: هِيَ التي حُذِفَ فيها المُشَبَّهُ، وصُرِّحَ بِالمُشَبَّهِ بِهِ، عَبْدُ العَزيزِ عَتيق، عِلْمُ البَيان، ص: 176.
(4) الاستعارة التَّبعيَّة: هي التي يَكونُ فيها اللَّفْظُ الذي جَرَتْ فيهِ الاستعارةُ مُشْتَقًّا أَوْ فِعْلاً، فَضْل حَسَن عبَّاس، البَلاغَةُ فُنونُها وأَفْنانُها ص: 189.

ليأْخُذَهُ[1]؛ وإنَّما سُمِّيَ الغِنى: طَوْلًا؛ لِأَنَّهُ يُتَوصَّلُ بِهِ إلى الْغَرَضِ الَّذي يَنشُدُهُ صاحبُه، ويُنالُ بِهِ مِنَ المُرادِ ما لا يُنالُ مَعَ الفَقْرِ[2]، وتَتَجلّى فائِدَةُ هذا التَّشْبيهِ: في زِيادَةِ تَأْكيدِ المَعْنى في النَّفْسِ؛ لِما تُوحي به كَلِمَةُ (طَوْلٍ) مِنَ الزِّيادَةِ والسَّعَةِ في المالِ في هذا المَوْضِعِ، ونَظيرُ هَذا ما تُفيدُهُ مِنَ الاعْتِلاءِ بالمالِ وَالعُدَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ [التَّوْبَة: 86]، وما تُفيدُهُ مِنَ الإِنْعامِ والتَّفَضُّلِ في قَوْلِهِ: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافِر: 3]، وَمِن هنا تَتَّضحُ الفائدةُ الَّتي يجنيها القارِئُ من هذِهِ الكَلِمَة بِمَعْنَيَيْها: الحِسِّيِّ والعَقْليِّ، وما تفرَّعَ عنها مِنَ المَعاني والدِّلالات بِحَسَبِ سِياقِ وُرودِها في كُلِّ مَوْضِعٍ.

سَبَبُ تَخْصِيصِ ذِكْرِ الْإِيمَانِ بَعْدَ الْإِحْصَانِ:

وَصْفُ الْإِيمَانِ جارٍ عَلَى الْمَدْحِ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ وَإِرْشَادٌ إِلَى تَحَرِّي الْأَفْضَلِ وَالْأَكْمَلِ

لَمّا بَيَّنَ سبحانه المُحَرَّماتِ مِنَ النِّساءِ، وذَكَرَ مِنْهُنَّ المُحصناتِ مِن النِّساءِ، وكانَتْ مُطْلَقَةً مُحتَمِلَةً للمُؤْمِناتِ والكِتابيَّاتِ؛ أَتْبَعَها بقَوْلِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ إشارةً إلى أَنَّ الإيمانَ هُوَ المَطْلوبُ الأَوْلى، فَطالِبُهُ طالِبُ النَّسْلِ لِلْمَعْرِفَةِ والعِبادَةِ وتعميرِ الأَرْضِ بأَهْلِ الإيمَانِ والصَّلاحِ، ولَيْسَ طالِبَ شَهْوَةٍ فقط، فعَلَيْكُمْ بالإيمانِ حَيْثُ كانَ، مَعَ عَدَمِ إغْفالِ تلبية الحاجة الجسميَّة الفطريَّة - أَيْضًا. كما جاءَ مُشارًا إِلَيْهِ في الآيَةِ بِخَشْيَةِ الوُقوعِ في الزِّنَى والعَنَتِ، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

والَّذي يُؤَكِّد مَدْحَ أَهْلِ الْإيمانِ وتَقْديمَهُم تَكْرَارُ وَصْفِ الإيمان عِنْدَ ذِكْرِ التَّزْويجِ بالإِماءِ أَيْضًا في قَوْلِه: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وقَوْلِهِ بَعْدَها: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ﴾، فهذا تَكْرارٌ[3] وتَأْكيدٌ لِبيانِ شَرَفِ الإيمانِ وفَضْلِ المُؤْمِناتِ[4] عَلى

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/12.
(2) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/84.
(3) أبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/606.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/69.

غَيْرِهِنَّ، فتَخْصِيصُهُنَّ بِالذِّكْرِ لِلبَعْثِ على ما هُوَ أَوْلى، ولَيْسَ لِنَفْيِ ما عَداهُنَّ[1]، وهذا المَعْنى مُتَقَرِّرٌ - أَيْضًا - في قَوْلِه تعالى في سُورَةِ المائِدَةِ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فَقَدَّمَ ذِكْرَ المُؤْمِناتِ عَلى المُحْصَناتِ الكِتابِيَّاتِ لِهَذا المَأْخَذِ.

وفي التَّقْيِيدِ هُنا نَدْبٌ إِلى مُباعَدَةِ الكُفَّارِ، فَلا يُنْكَحُ مِنْهُنَّ إِلَّا لِضَرورَةٍ[2].

دِلالَةُ حَذْفِ فِعْلِ الأَمْرِ المُسْنَدِ في قَوْلِه: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾:

نِكَـاحُ الإِمَـاءِ المُؤْمِناتِ مُبَاحٌ بِشَرْطِهِ، وهو تَوْسِعَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى العِبَادِ

المُسْنَدُ المَحْذُوفُ في قوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ هُوَ فِعْلُ الأَمْرِ، والتَّقديرُ: فانْكِحُوا مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ، والَّذي يدلُّ عليه هو السِّياقُ، ونُكْتَةُ حَذْفِهِ: تَفادي صيغَةِ الأَمْرِ؛ لِئَلَّا يُفْهَمَ مِنْهُ الإِلْزامُ، فالمَسْأَلَةُ مَدارُها على الإباحَةِ والإِرْشادِ، كما أَنَّ تَرْتيبَ الحُكْمِ على الفِعْلِ بِالفاءِ ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ﴾ الرَّابِطَةِ لِجَوابِ الشَّرْطِ، أَوْ خَبَرِ المَوْصولِ في: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾، فيهِ تَنْبِيهٌ على تَعْليلِ الحُكْمِ بِسَبَبِهِ، فَدَلَّ ذلِكَ على أَنَّ سَبَبَ إِباحَةِ نِكاحِ الإِماءِ العَجْزُ عَنْ نِكاحِ الحَرائِرِ[3]، وأَنَّهُ مِمَّا وَسَّعَ اللّه بِهِ على هذِهِ الأُمَّةِ في النِّكاحِ[4].

الأَصْــلُ فِي المُـعَـامَـلَاتِ التَّخْفِيفُ وَرَفْعُ العَـنَـتِ عَـلَى النَّاسِ

والدَّليلُ على هذِهِ التَّوْسِعَةِ تِلْكَ الإِشارَةُ اللَّطيفَةُ في قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ﴾ التي جاءَتْ لِبيانِ المُشارِ إِلَيْهِ، وَهُوَ تِلْكَ الفُسْحَةُ في نِكاحِ الأَمَةِ لِمَنْ عَجَزَ عَنْ نِكاحِ الحُرَّةِ، وخافَ الزِّنى، فالإِشارَةُ إلى نِكاحِ الإِماءِ عَلَّلَت الرُّخْصَةَ فيه.

---

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/681، وهَذا التَّفْسيرُ عَلى قَوْلِ الحنَفيَّةِ وعامَّةِ أَهْلِ الرَّأْيِ، وإلاَّ فَإِنَّ الجُمْهورَ على عَدَمِ جَوازِ التَّزوُّجِ بِالأَمَةِ الكِتابِيَّةِ، قالَ القُرْطُبيُّ: "قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، بَيَّنَ بِهَذا أَنَّهُ لا يَجُوزُ التَّزَوُّجُ بِالأَمَةِ الكِتَابِيَّةِ، فَهَذِهِ الصِّفَةُ مُشْتَرَطَةٌ عِنْدَ مَالِكٍ وَأَصْحابِهِ، وَالشَّافِعِيِّ وَأَصْحابِه، وَالثَّوْرِيِّ وَالأَوْزاعِيِّ وَالحَسَنِ البَصْرِيِّ وَالزُّهْرِيِّ وَمَكْحُولٍ وَمُجَاهِدٍ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مِنْهُمْ أَصْحَابُ الرَّأْيِ: نِكَاحُ الأَمَةِ الكِتَابِيَّةِ جَائِزٌ"، ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/232.

(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/236.

(3) الغَزالِّي، شِفاءُ الغَليلِ في بيانِ الشَّبَهِ والمَخيلِ ومَسالِكِ التَّعْليل، ص: 27 - 28.

(4) الزّمَخْشري، الكَشَّاف: 2/58.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ - أَيْضًا- قَوْلُهُ في خِتامِ الآيَةِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فهُوَ مُؤَكِّدٌ لِمَعْنى الإِبَاحَة، مُؤْذِنٌ بِأَنَّ إِباحَةَ ذلكَ لِأَجْلِ رَفْعِ الحَرَجِ؛ لِأَنَّ اللهَ رَحيمٌ بِعِبادِهِ[1].

وكُلُّ هذا مِمَّا تَمَيَّزَتْ بِهِ سورَةُ النِّساءِ الَّتي عالَجَتْ كَثيرًا مِنْ قَضايا التَّشْريعِ في المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِمِلْكِ الْيَمِينِ بَدَلَ الإِمَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾:

التَّعْبِيرُ عَنِ الإِمَاءِ بِمِلْكِ الْيَمِينِ إِيمَاءٌ لِضَعْفِ حَالِهِنَّ وَحَثٌّ عَلَى التَّلَطُّفِ بِهِنَّ:

إِسْنادُ المِلْكِ إلى اليَمينِ عِنْدَ العَرَبِ: مِنَ المَجازِ العَقْلِيِّ[2]؛ لِأَنَّ اليَمينَ سَبَبٌ وَهْمِيٌّ لِلمِلْكِ، فسَبَبُ المِلْكِ: إِمَّا أَسْرٌ: وَهُوَ أَثَرٌ لِلْقِتالِ بالسَّيْفِ الَّذي تُمْسِكُهُ اليَدُ اليُمْنى، وإِمَّا شِراءٌ: ودَفْعُ الثَّمَنِ يَكونُ باليَدِ اليُمْنى عُرْفًا، فَهِيَ سَبَبٌ وَهمِيٌّ ناشِئٌ عَنِ العادَةِ[3]، فَأَسْنَدَ التَّمَلُّكَ إلى الأَيْدي في قَوْلِه: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾؛ لِأَنَّها سَبَبُهُ، والغَرَضُ من هذا المَجازِ تَصْويرُ هذه الفِئَةِ مِنَ النِّساءِ بِصورَةِ الأَسيرِ الضَّعيفِ الَّذي لا يَمْلِكُ لِنَفْسِه شَيْئًا، بَلْ هُوَ مَمْلوكٌ لِغَيْرِه، وفي هذا حَثٌّ على التَّلَطُّفِ بِهِنَّ والإِحْسانِ إِلِيهِنَّ خُصوصًا، وأَنَّهُ لَيْسَ لَهُنَّ مِنَ الحُقوقِ مِثْلُ ما لِلحَرائِرِ[4]، هذا بِالْإِضافَةِ إلى ما في ذِكْرِ اليَمينِ دونَ الشِّمالِ مِنْ تَيَمُّنٍ وتَفاؤُلٍ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفَتَيَاتِ بَدَلَ الْجَوَارِي وَالْإِمَاءِ:

إِطْلاقُ لفظ (الفتياتِ) على الإماءِ في قَوْلِه تَعالَى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ مِنْ قَبيلِ المَجازِ المُرْسَلِ[5]؛ إِذِ الفَتاةُ

---

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/18.

(2) "هُوَ إِسْنادُ الفِعْلِ أَوْ ما في مَعْناهُ إلى غَيْرِ صاحِبِهِ لِعَلاقَةٍ، مَعَ قَرينَةٍ مانِعَةٍ مِنْ إرادَةِ الإِسْنادِ الحَقيقِيِّ"، ولا يَكونُ إلاَّ في التَّرْكيبِ: عَبْدُ العَزيزِ عَتيق، عِلْمُ البيانِ، ص: 143.

(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 14/215.

(4) خَديجة محمَّد بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: (أُطْروحَةُ دُكْتوراه): 2/449.

(5) المجاز المرسل: "اسْتِعْمَالُ الكَلِمَةِ في غَيْرِ مَعْناها الحَقيقِيِّ، لِعَلاقَةٍ غَيْرِ المُشابَهَة، مَعَ قَرينَةٍ مانِعَةٍ مِنْ إرادَةِ المعنى الحَقيقيِّ"، مِثْلَ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ﴾ [يوسف: 36]، فَالخَمْرُ لا تُعْصَرُ، وإنَّما يُعْصَرُ العِنَبُ الذي يَؤُولُ أَمْرُهُ إلى خَمْرٍ، فَإِطْلاقُ الخَمْرِ وإرادَةُ العِنَبِ مَجازٌ مُرْسَلٌ عَلاقَتُهُ اعْتِبارُ ما سَيَكونُ، أَحْمَدَ الهاشِمي، جَواهِرُ البَلاغَةِ، ص: 254.

إِطْـلاقُ لَـفْـظِ الـفَـتَـيـاتِ عَـلَى الإِمَاءِ: تَرْغِيبٌ فِي الزَّوَاجِ مِنْهُنَّ مَعَ تَكْرِيمِهِنَّ وَمَنْعِ احْتِقَارِهِنَّ

في الأَصْلِ: الشَّابَّةُ، والمُرادُ بها هنا: الأَمَةُ، فَأُطْلِق عَلَيْها فَتاةٌ بِعلاقةِ اللُّزوم؛ لِأَنَّ الأَمَةَ تُعامَلُ مُعامَلَةَ الصَّغيرِ في الخِدْمَةِ وقِلَّةِ المُبَالاةِ[1].

وَمُناسَبَةُ اخْتيارِ هذا اللَّفْظ التَّرْغيبُ في الزَّواجِ مِنْهُنَّ بما يَجْذِبُ انْتِباهَ الرِّجالِ إِلَيهِنَّ؛ كَما أنَّ في ذلك تَكْريمًا لَهُنَّ، وإِرْشادًا لِلْمُسْلِمِين إلى عدم مُنَادَاة الخادِمِ بالعَبْدِ والأَمَة، بَلْ بلَفْظِ الفتى والفَتاةِ[2]، وقَدْ رَوى البُخارِيُّ قَوْلَهُ ﷺ: «ولا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتاي وَفَتاتِي»[3].

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي: ﴿أَيۡمَٰنُكُم﴾ و﴿فَتَيَٰتِكُمُ﴾:

حِرْصُ الشَّرِيعَةِ عَـلَى إِزَالَـةِ مَا عَلِقَ بِالنُّفُوسِ مِن احْتِقَارِ الإِمَاءِ

الإضافَةُ في قَوْلِه: ﴿أَيۡمَٰنُكُم﴾ وقَوْلِه: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾؛ لِلتَّقْريبِ وإزالَةِ ما بَقِيَ في نُفوسِ العَرَبِ مِن احْتقارِ العَبيدِ والإماءِ، والتَّرفُّعِ عَنْ تزويج العبيد وإِنْكاحِهِمْ، والتَّزوُّجِ منَ الإماء أو إنكاحهنَّ لِمَنْ يطلبُهنَّ.

كما أَشارَتِ الآيَةُ إلى أَنَّ نِكاحَ المَمْلوكَةِ يَكونُ لِغَيْرِ مالِكِها؛ لِأَنَّ مالِكَها لا يَحْتاجُ ذلِكَ، فَهُوَ يَسْتَطيعُ الاسْتِمْتاعَ بها مِنْ غَيْرِ نِكاحٍ؛ لِأَنَّها مِلْكُ يَمينِه.

وفي قَوْلِه: ﴿أَيۡمَٰنُكُم﴾ و﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ خِطَابٌ لِلْمُؤْمنين على أَنَّهُمْ وحْدَةٌ بُنْيانِيَّةٌ، ونَظائِرُهُ في القُرْآنِ الكَريم كثيرةٌ، كَقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحُجُرات: 11]، أَيْ: لا تَلْمِزُوا غَيْرَكُمْ، وقالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النُّور: 61]، فاللهُ ﷻ يُريدُ بِالتَّشْريعِ أَنْ يَجْعَلَ المُؤْمنينَ كالجَسَدِ الواحِدِ[4].

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/14.
(2) مُحَمَّدُ الأَمين الهَرَري، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 6/16.
(3) صَحيحُ البُخارِيِّ، كِتابُ العِتْقِ، بابُ كَراهيةِ التَّطاوُلِ على الرَّقيقِ، برقم: (2552).
(4) الشّعراويّ، تَفْسيرُ الشَّعْراويِّ: 4/2121.

المُسْلِمونَ يَتَعامَلُونَ بِالظَّواهِرِ، وَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى القُلُوبَ وَالسَّرَائِرَ

فَائِدَةُ ذِكْرِ الْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾:

قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾ اعتراضٌ[1]، وهو مِنْ ضُروبِ الإِطْنابِ[2] في الكَلامِ، وقَد قَيَّدَ ما سَبَقَ؛ حَتَّى لا تَحولَ الشَّهْوَةُ والعَجَلَةُ دونَ تَحْقيقِ شُروطِ اللهِ تعالَى، فأحالَهُمُ اللهُ على إيمانِهِم، وهو المُطَّلِعُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ دونَ ما سِواهُ، وهذا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَقْديمُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿وَٱللَّهُ﴾.

أَيْضًا فَإِنَّ تقديمَ المُسنَدِ إليه يَدُلُّ من ناحيةٍ أخرى على التَّخْصيصِ الَّذي يُثْبِتُ الحُكْمَ لِلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، ويَنْفيه عَنْ غَيْرِه، حَتَّى لا يَسْتَريبَ مُتَحَيِّرٌ بإيمانِ بَعْضِ الإماءِ، كقَريبَةِ عَهْدٍ بِسَبْيٍ، أَوْ خَرْساءَ وما أَشْبَهَ ذلك، فَإِنَّ حُكْمَ إيمانِها للّهِ تعالَى الَّذي يَعْلَمُ السَّرائِرَ[3].

فَلَكُ المَصَالِحِ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ يَدُورُ حَوْلَ رَحَى الإِيمَانِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِلأَحْسَابِ وَالأَنْسَابِ

في هذِهِ الجُمْلَةِ الاعْتِراضِيَّةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾ أيضًا: تأْنيسٌ لَهُمْ بِنِكاحِ الإماءِ وتَرْكِ الاسْتِنْكافِ مِنْهُ، بِبَيانِ أَنَّ مَناطَ التَّفاضُلِ ومَدارَ التَّفاخُرِ هُوَ الإيمانُ دونَ الأَحْسابِ والأَنْسابِ، وهذا كَقَوْلِهِ في سورَةِ الحُجُراتِ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجُرات: 13]، فاللهُ تعالى أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِمَراتِبِكُمْ في الإيمانِ الَّذي بِهِ تَنْتَظِمُ أَحْوالُ العِبادِ، وعَلَيْهِ يَدُورُ فلَكُ المَصالحِ في المَعاشِ والمَعادِ، ولا تَعَلُّقَ لَهُ بِخُصوصِ الحُرِّيَّةِ والرِّقِّ، فَرُبَّ أَمَةٍ يَفوقُ إيمانُها إيمانَ الحَرائِرِ[4]، فَلا يَنْبَغي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَطْلُبَ الفَضْلَ والرُّجْحانَ إِلَّا بِاعْتِبارِ الإيمانِ والإِسْلامِ لا بِالأَحْسابِ والأَنْسابِ.

التَّذْيِيلُ لِتَأْكِيدِ الِاعْتِرَاضِ السَّابِقِ وَالتَّوْطِئَةِ لِلْأَمْرِ اللَّاحِقِ:

أَمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾؛ فَهُوَ تَذْييلٌ[5] مُؤَكِّدٌ

(1) الاعتراضُ: هُوَ أَنْ يُؤْتى بِجُمْلَةٍ مُعْتَرَضَةٍ في كَلامٍ مُتَّصِلٍ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَضل حَسَن عَبَّاس، البَلاغَةُ فُنونُها وأَفْنانُها، ص: 490.
(2) الإطناب: زِيادَةُ اللَّفْظِ على المَعْنى لِفائِدَةٍ، ومُقْتَضاهُ: المُبَالَغَةُ في إيرادِ المَعاني، ابنُ الأثِيرِ، المَثَلُ السَّائِر: 2/120.
(3) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/15.
(4) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/59، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/681.
(5) التّذييل: هُوَ تَعْقيبُ الجُمْلَةِ بِجُمْلَةٍ أُخْرى تَشْتَمِلُ على مَعْناها لِلتَّأْكيدِ، الإسفَرَايِينيّ، الأَطْوَلُ شَرْحُ تَلْخيصِ مِفْتاحِ العُلوم: 1/70.

النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ: بَنُو الْحَرَائِرِ وَبَنُو الإِمَاءِ، وَلَا مَعْنَى لِتَهْجِينِ وَلَدِ الأَمَةِ؛ إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا

لِلاعْتِراضِ السَّابِقِ، فَأَنْتُمْ وأَرِقّاؤُكُم مُتَناسِبونَ، نَسَبُكُمْ مِنْ آدَمَ، ودينُكُمُ الإِسْلامُ، فَأَنْتُمْ سَواءٌ: بَنو الحَرائِرِ وبَنُو الإِماءِ، وهذِهِ تَوْطِئَةٌ لِنُفوسِ العَرَبِ الَّتي كانَتْ تَسْتَهْجِنُ وَلَدَ الأَمَةِ، فَلَمَّا جاءَ الإِسْلامُ بِجَوازِ نِكاحِها؛ عَلِموا أَنَّ ذلكَ التَّهْجينَ لا مَعْنى لَهُ(1).

ولا يخفى أنَّ هذه المعاني تُوطِّدُ الأَصْلَ العامَّ للسُّورَةِ في تَنْظيمِ المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ وبِنَاءِ عَلاقَاتِهِ، وحِفْظِ الحُقوقِ تَحْتَ مِظَلَّةِ التَّقْوى: بامْتِثالِ المَأْمورِ واجْتِنابِ المَحْظورِ.

دَلالَةُ الأَمْرِ فِي الفِعْلَيْنِ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ و﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾:

بَيَانُ وُجُوبِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَالتَّنْبِيهُ عَلَى رِعَايَةِ حَقِّ الأَمَةِ الضَّعِيفَةِ:

إذا تَأَمَّلْنا فعلَي الأَمْرِ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ و﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾؛ وَجَدْنا أنَّهما جارِيانِ على أصلِهِمَا في إفادَةِ الإِلْزامِ بالفِعْلِ، ويَدلُّ على ذلك ثلاثةُ أوجهٍ:

أَوَّلُهَا: الفِعْلانِ وردَا على جِهَةِ العُلُوِّ؛ فالأمرُ مِنَ اللهِ - ﷻ - إلى عِبادِهِ، مَعَ ما يَتْبَعُ هذا مِنَ التَّعْظيمِ والتَّبْجيلِ المُوجِبِ لِلامْتِثالِ التَّامِّ.

ثانيهِمَا: اشْتَمَلَتِ الآيَةُ على أسبابِ الوُجوبِ ودَواعِيهِ، مِنْ صيانَةِ حَقِّ الضَّعيفِ المَمْلوكِ، وهِيَ مِنْ مُمَيِّزاتِ الأُسْلوبِ القُرْآنيِّ في خِطابِ النُّفُوسِ والعُقولِ؛ لِيَصِلَ بالسَّامِعِ إلى الانْقيادِ والطَّاعَةِ بِنَفْسٍ راضِيَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ.

ثَالِثُها: أنَّ الأمرَ لَمَّا كانَ مُرَتَّبًا على ما قَبْلَهُ، صُدِّرَ بالفاءِ ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾، أَيْ: فَإِذا وقَفْتُمْ على جَلِيَّةِ الأَمْرِ؛ فَانْكِحوهُنَّ.. إلخ، فَأُعيدَ الأَمْرُ - مَعَ فَهْمِهِ من السِّياقِ قَبْلَهُ - لِزِيادَةِ التَّرْغيبِ في نِكاحِهِنَّ، ولِإِفادَةِ الوُجوبِ(2) في شُروطِ النِّكاحِ بَعْدَ تَقْريرِ الإِباحَةِ في أَصْلِه.

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/38.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/11.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْأَهْلِ دُونَ السَّيِّدِ فِي قَوْلِه: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾:

رِعَايَةُ حُقُوقِ الْمَالِكِينَ وَالْإِشْعَارُ بِأَهَمِّيَّةِ الْعِنَايَةِ بِالْمَمْلُوكِينَ

لَفظُ (الْأَهْلِ) في قَوْلِه تعَالَى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ بِمَعْنى: السَّادَةِ المالكِينَ، وهُوَ إِطْلاقٌ شائعٌ على سادَةِ العَبيدِ في عُرْفِ الشَّرْعِ، والأَمَةُ تُنْكَحُ بإِذْنِ مَوْلاها وُجوبًا، وشُرِطَ الإِذْنُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ سِرًّا وَزِنًى، وَلِأَنَّ نِكاحَهُنَّ دونَ ذلِكَ اعْتِدَاءٌ على حُقوقِ أَهْلِ الإِماءِ[1]، ولِأَنَّها بالزَّواجِ تَقْتَطِعُ جُزءًا مِنْ وَقْتِها وخِدْمَتِها لِزَوْجِها، فَلا بُدَّ أَنْ يُسْتَأْذَنَ سَيِّدُها؛ لِيَكونَ أَمْرُ انْقِطاعِها إِلى الزَّوْجِ في بَعْضِ خَدَماتِهِ مِمَّا هُوَ مَعْلومٌ لِأَوْلِيائِهِنَّ[2].

فِي عِبَارَةِ ﴿بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ تَلَطُّفٌ بِالإِمَاءِ، وَتَنْبِيهٌ لِلْأَزْوَاجِ بِأَنَّ لِلْإِمَاءِ مَنَعَةً

والتَّعبيرُ بِالْأَهْلِ يُعَدُّ مِنْ مُصْطَلَحاتِ القُرْآنِ الدَّقيقَةِ؛ تَلَطُّفًا بالْعَبيدِ، وفيهِ إِشْعارٌ بِأَنَّ مَنْ تَحتَ يَدِهِ فَتاةٌ بِمِلْكِ اليَمينِ، عَلَيْهِ أَنْ يُعامِلَها بِلُطْفٍ وإِحْسانٍ، كمُعامَلَةِ الأَهْلِ، لِيُعَوِّضَها عَمَّا فَقَدَتْهُ عِنْدَ أَهْلِها هناكَ، وَلِتَشْعُرَ الأَمَةُ أَنَّها في حَضانَةِ الإِسْلامِ، مِثْلَما كانَتْ في حَضانَةِ أَهْلِها وآبائِها أَوْ أَكْثَر، كما أَنَّ فيهِ تَنْبيهًا للزَّوْجِ بِأَنَّ لِلْأَمَةِ مَنَعَةً وأَهْلًا يَحوطونَها، ويُدافِعونَ عَنْ حُقوقِها، ويَمْنَعونَ ظُلْمَها مِنْ قِبَلِه.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْأَجْرِ بَدَلَ الْمَهْرِ، وَنُكْتَةُ تَقْيِيدِه بِالْمَعْرُوفِ:

تَقْوِيَةُ حَقِّ الْإِمَاءِ فِي الْمُهُورِ وَتَمْكِينُهُنَّ مِنَ الِانْتِفَاعِ مِنْهَا

لَفْظُ (أَجْر) في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ من قبيلِ الاسْتِعَارَةِ التَّصْريحِيَّةِ الأَصليَّةِ[3]، فالأَجْرُ المَذْكورُ: هو لفظٌ مُسْتَعَارٌ لِلْمَهْرِ، والأَجْرُ يَدُلُّ عَلى عَمَلٍ، والمُسْتعارُ مِنْهُ مَعْنى الأَجْرِ: هو تَمْكينُ المَرْأَةِ مِنَ الانْتِفاعِ بمهرِهَا، كَأَنَّهُ أَجْرٌ تَقاضَتْهُ على عَمَلٍ تَعْمَلُهُ[4]، والمُسْتَعارُ لَهُ: المُهورُ، وَلَوْ كَانَتِ المُهُورُ أُجورًا حَقيقَةً؛ لَوَجَبَ تَحْديدُ مُدَّةِ الانْتِفاعِ ومِقْدارِه، وَذلِكَ مِمَّا تُنَزَّهُ عَنْهُ عُقْدَةُ النِّكاحِ[5].

---

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/15.

(2) الشعراوي، تَفْسِيرُ الشَّعْراوِيِّ: 4/2124.

(3) الاستعارة الأصليَّةُ: هي الّتي يَكونُ اللَّفظُ المُستَعارُ فيها اسمًا جامِدًا.

(4) أبو حيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 3/607، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/27.

(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/124.

تَأْكِيدُ الاهْتِمامِ بِمَهْرِ الأَمَةِ؛ لِئَلَّا يَتَهاوَنَ النَّاسُ فِي حَقِّهَا:

وَقَوْلُه: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ترشيحٌ للاستعارة؛ لِأَنَّ لَفْظَ المَعْروفِ في مَهْرِ الأَمَةِ يدُلُّ على قَدْرٍ زائِدٍ مِنَ الاهْتِمام، لِكَوْنِها ضَعيفَةً يَتَهاوَنُ النَّاسُ في حَقِّها، فَقَوَّتْ هَذِه الكَلِمَةُ هَذا الحَقَّ.

ولفظُ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وإنْ لَمْ يَكُنْ مُخْتَصًّا بالمشبَّه بِه في أَصْلِ اللُّغَة، إلَّا أنَّ لَفظَ المَعْرُوف كَثُرَ اسْتِعْمالُه في حالاتِ العِشْرَةِ الزَّوْجِيَّة، فكانَ لَفْظُ المَعْرُوفِ أَلْصَقَ بالمُشَبَّه به مِنْهُ بالمُشَبَّه، ولِذَا جُعِلَ تَرْشِيحًا لِلاسْتِعارَة.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾ دُونَ (آتُوهُمْ):

المَهْرُ حَقٌّ لِلْمَرْأَةِ حُرَّةً كَانَتْ أَوْ أَمَةً

في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ إشعارٌ بأنَّ المهرَ حقٌّ ثابتٌ من حقوق المرأةِ مطلقًا، حرَّةً كانتْ أو أمَةً، ويَدُلُّ على هذا الفعل: ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾، مَعَ أَنَّ الإذْنَ والإيتاءَ لِمَواليها، فحُذِفَ المُضافُ هنا، وخَصَّهُ بِهِنَّ؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ لَهُنَّ دونَ غَيْرِهِنَّ، فَنُكْتَةُ ذِكْرِ ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾ بَدَلَ (آتوهُمْ) تَأْكيدُ إيجابِ المَهْرِ، وأَنَّهُ حَقُّهُنَّ مِنْ هذِهِ الجِهَة[1].

كما أَنَّ اخْتِيارَ الأَجْرِ بَدَلَ المَهْرِ في هذا المَقام؛ لِمَا في مَادَّةِ الكلِمَة مِنْ مَعانٍ ساميَةٍ وما تَحمِلُهُ مِنْ دَلالَات، مثل: الثَّوابِ والجَزاءِ والعَطاءِ والذِّكْرِ الحَسَن[2].

بَلَاغَةُ الاسْتِعَارَةِ فِي لَفْظَيْ: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ و﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾:

تَلْوِينُ الصُّورَةِ بِالاسْتِعَارَةِ تَأْكِيدٌ لِفَضِيلَةِ العَفَافِ وَتَنْفِيرٌ مِنَ الفَاحِشَةِ:

كَلِمَةُ: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: حالٌ مِنْ مَفْعولِ ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾، أَيْ: فانكحوهنَّ حالَ كَوْنِهِنَّ عَفائِفَ عَنِ الزِّنى، ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: حالٌ مُؤَكِّدَةٌ، أَيْ: غَيْرَ مُجاهِراتٍ بِهِ، تَأْكيدًا وتَنْبيهًا على مَسْأَلَةِ العِفَّةِ والطَّهارَةِ في بابِ النِّكاحِ؛ حِفْظًا لِلْأَنْسابِ وَبُعْدًا عَنِ الفَواحِشِ ومَواطِنِ الرِّيَب.

(1) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/69، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/11.
(2) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَبِ: (أجر).

والتَّعْبيرُ بِلَفْظِ الإِحْصانِ الَّذي هُوَ وَصْفٌ لِلْحَرائِرِ في الأَصْلِ - إِذِ الحُرَّةُ يُسْتَبْعَدُ مِنْها الفُجورُ - يُرادُ بِه التَّأْكيدُ على مَسْأَلَةِ العَفافِ في حَقِّ الإِماءِ، لِضَعْفِهِنَّ وكَوْنِهِنَّ مَظِنَّةً لِلانْتِقالِ مِنْ يَدٍ إِلى أُخْرى، فَلَمْ تُمَرَّنْ نُفوسُهُنَّ على الاخْتِصاصِ بِرَجُلٍ واحِدٍ، كما أَنَّ الزِّنى كانَ غالبًا في الجاهِلِيَّةِ على الإِماءِ، فَقَدْ كانُوا يَشْتَرونَهُنَّ لِلاكْتِسابِ بِبِغائِهِنَّ، حتَّى إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ كانَ يُكْرِهُ إِماءَهُ على البِغاءِ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمْنَ، فَنَزَلَ في ذلِكَ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النُّور: 33]، فاشْتَرَطَ على مَنْ يُريدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَمَةً أَنْ يَتَحَرَّى فيها العِفَّةَ في السِّرِّ والجَهْرِ[1].

تَنْوِيعُ الأَسَالِيبِ فِي التَّنْفِيرِ مِنْ فَاحِشَةِ الزِّنَى

بَرَاعَةُ الاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾:

اسْتُعيرَ لفظُ (السِّفاح) في قولِه تَعالَى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ للدَّلالة على كَثْرَةِ الزِّنى؛ إِذِ السَّفْحُ: صَبُّ الماءِ بِتَدَفُّقٍ وسُرْعَةٍ، فَدَلَّ بالأَمْرِ المَحْسوسِ عَلَى المَعْنى المَعْقولِ، وشَبَّهَ الزِّنى بِصَبِّ الماءِ في الأَنْهارِ والعُيونِ؛ لِأَنَّ الزَّاني لا غَرَضَ لَهُ إِلَّا صَبُّ النُّطْفَةِ فَقَط لا النَّسْلُ[2].

شَتَّانَ بَيْنَ المُؤْمِنَةِ المُحَافِظَةِ عَلَى عِرْضِهَا كَأَنَّهَا تُحَصِّنُهُ تَحْصِينًا، وَبَيْنَ المُسَافِحَةِ الَّتِي تَبْذُلُ عِرْضَهَا رَخِيصًا لِلطَّالِبِينَ

جَمالِيَّةُ الطِّبَاقِ بَيْنَ لَفْظَتَيْ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ و﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾:

مِمَّا يَخْدِمُ تَأْكيدَ التَّبايُنِ بَيْنَ المُحْصنةِ والمُسافِحة: الطِّباقُ[3] بينَ لَفْظَتَيْ ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ و﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾؛ لِأَنَّ التَّقابُلَ بَيْنَ اللَّفْظَتينِ مُشْعِرٌ بِمَزيدِ تَأْكيدٍ على أَنَّ المُحْصَنَةَ هِيَ الَّتي تَمْنَعُ فَرْجَها، والمُسافِحَةَ هي الَّتي تَبْذُلُه.

نُكْتَةُ نِسْبَةِ الإِحْصَانِ إِلَى الإِمَاءِ تَارَةً وَإِلَى الرِّجَالِ تَارَةً أُخْرَى:

مِنْ لَطائِفِ الإِشاراتِ في هذا البابِ: أَنَّ اللهَ تعالَى قَدْ فَرَضَ الإِحْصانَ والعِفَّةَ على كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ، لَكِنْ جَعَلَ الإِحْصانَ وعَدَمَ

(1) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/18.
(2) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/607.
(3) الطِّباقُ، ويُقالُ: المُطابَقَةُ والتَّضادُّ، وهُوَ الإِتْيانُ بِالنَّقيضَيْنِ والضِّدَّيْنِ، يَحْيى العلَويّ، الطِّرازُ لِأَسْرارِ البَلاغَةِ وعُلومِ حَقائِقِ الإِعْجازِ: 3/198.

السِّفاحِ في نِكاحِ الإماءِ مِنْ قِبَلِ النِّساءِ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾؛ لِكَوْنِهِ كَثيرَ الوُقوعِ مِنْهُنَّ، فَناسَبَ جَمْعَ المؤَنَّثِ بالإِحْصانِ، وفي نِكاحِ الحَرائِرِ جَعَلَهُ مِنْ قِبَلِ الرِّجالِ، فَقالَ: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النِّساءُ: 24]، وقالَ في سُورَةِ المائِدَةِ: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائِدَةُ: 5]؛ لأَنَّ الحَرائِرَ وُصِفْنَ بالإِحْصانِ ابْتِداءً، ولأَنَّهُنَّ - ولاسِيَّما الأَبْكارُ مِنْهُنَّ - أَبْعَدُ مِنَ الرِّجالِ في بابِ الفاحِشَةِ، وَأَقَلُّ انْقِيادًا لِطاعَةِ الشَّهْوَةِ، كما أَنَّ في ذِكْرِ إِحْصانِ الرِّجالِ - أَيْضًا- تَسْوِيَةً بَيْنَهُما؛ لِأَنَّهُ مَطْلوبٌ فيهِما مَعًا[1].

الْحَرَائِرُ أَبْعَدُ مِنَ الرِّجَالِ فِي بَابِ الْفَاحِشَةِ وَأَقَلُّ انْقِيَادًا لِطَاعَةِ الشَّهْوَةِ

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ ذِكْرِ المُسَافِحَاتِ عَلَى مُتَّخِذَاتِ الأَخْدَانِ:

جاءَ تَقْديمُ ذِكْرِ المُسافِحاتِ على المُتَّخذاتِ الأَخْدانَ في قَوْلِه تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾؛ لأَنَّ المُسافِحَةَ أَظْهَرُ في المُجْتَمَعِ، وأَجْرَأُ على المَعْصِيَةِ، وأَقَلُّ حَياءً مِنَ المُتَّخِذَةِ أَخْدانًا، فالمُسافِحَةُ بِمُجاهَرَتِها بالمَعْصِيَةِ تُريدُ أَنْ تَشيعَ الفاحِشَةُ في المُجْتَمَعِ، حتَّى لا تَكونَ مُنْفَرِدَةً بِشَناعَةِ مَعْصِيَتِها، ثُمَّ هِيَ بِكُلِّ ذلِكَ أَبْعَدُ عَنِ التَّوْبَةِ النَّصوحِ أَوْ تَرْكِ الزِّنى اكْتِفاءً بِزَوْجِها؛ إِنْ تَزَوَّجَتْ.

الـزِّنَى بِجَمِيعِ صُـوَرِهِ قَبِيحٌ، إِلَّا أَنَّ الْمُسَافِحَةَ أَكْـثَرُ ضَـرَرًا وَأَعْظَمُ خَطَرًا

كما أَنَّ المُسافِحاتِ - وهُنَّ اللَّواتي يبذُلْنَ أَنْفُسَهُنَّ، ويَمْتَهِنَّ الزِّنى - يَزْنينَ مَعَ غَيْرِ مُعَيَّنٍ، فَهُوَ يَقَعُ مِنْهُنَّ عَلَنًا، وكانَتِ العَرَبُ تَمْقُتُ هذا، وتُسَمِّيهِ سِفاحًا، أَمَّا مُتَّخِذاتُ الأَخْدانِ؛ فَهُنَّ اللَّواتي يَصْحَبْنَ واحِدًا واحِدًا، ويَزْنينَ خُفْيَةً، فَهُنَّ لا يَزْنينَ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ، بَلْ تَتَّخِذُ الواحِدَةُ منهنَّ خَليلًا تَخْتَصُّ بِهِ لا تَأْلَفُ غَيْرَهُ، فَهَذا يَقَعُ سِرًّا، وكانوا في الجاهِلِيَّةِ لا يَحْكُمونَ على المُخادِنَةِ بِكَوْنِها زانِيَةً، فَيَقولونَ: أَمَّا ما ظَهَرَ مِنْهُ؛ فَهُوَ لُؤْمٌ، وأَمَّا ما خَفِيَ؛ فلا بَأْسَ بِذلِكَ[2]، وهَذا النَّوْعُ الثَّاني، وَإِنْ كانَ يُشْبِهُ النِّكاحَ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ التَّعَدُّدِ، فَإِنَّهُ يُخالِفُهُ

السِّفَاحُ مُجَاهَرَةٌ بِالْفَاحِشَةِ، وَهُوَ مَذْمُومٌ مُسْتَشْنَعٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ

(1) ابنُ جماعَةَ الحَمَويُّ، كَشْفُ المعاني في المُتَشابِهِ مِنَ المثاني، ص: 137.
(2) جَواد عَلي، المُفَصَّلُ في تاريخِ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلام: 9/141.

مِنْ جِهَةِ العِفَّةِ وجَهْلِ النَّسَبِ وَخَلْعِ بُرْقُعِ المُرُوءَةِ؛ ولِذَلِكَ عَطَفَهُ عَلى قَوْلِه: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ سَدًّا لِمَداخِلِ الزِّنى كُلِّهَا[1]، وهذا نَصٌّ في تَحْرِيم السِّفاحِ والمُخادَنَةِ كِلَيْهِما، فَهُما في الحُكْمِ سَواءٌ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ صُورَةُ أَحدِهما عَن صورة الأُخْرى؛ وفي هَذا تَجْرِيمٌ للزِّنى بجميع صُوَرِه، وَسَدٌّ لِجَميع مَداخِله.

نُكْتَةُ عَدَمِ ذِكْرِ صِفَةِ اتِّخَاذِ الْأَخْدَانِ فِي جَانِبِ الرِّجَالِ الْأَحْرَارِ:

في عَدَمِ ذِكْرِ اتِّخاذِ الأَخْدانِ في قَوْلِه: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النِّساء: 24]، وَذِكْرِهِمْ في قَوْلِه: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ هُنا، وَفي المَائِدَة: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائِدَة: 5]؛ لِأَنَّ الحُكْمَ في الأُولى وَقَعَ في حَقِّ الأَحْرارِ المُسْلمينَ، فاقْتَصَرَ على لَفْظِ ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، تَنْبِيهًا على حُرْمَةِ الحَرائِرِ المُسْلِماتِ؛ لِأَنَّهُنَّ إِلَى الصِّيانَةِ أَقْرَبُ ومِنَ الخيانَةِ أَبْعَدُ، ولِأَنَّهُنَّ لا يَتَعاطَيْنَ ما يَتَعاطاهُ الإِماءُ والكِتابِيَّاتُ مِن اتِّخاذِ الأَخْدانِ[2].

عِظَمُ حُرْمَةِ الْمُسْلِمَاتِ الْحَرَائِرِ؛ إِذْ هُنَّ إِلَى الصِّيَانَةِ أَقْرَبُ وَمِنَ الْخِيَانَةِ أَبْعَدُ

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾:

إِطْلاقُ لفظ (الإِحْصان) عَلى النِّسَاءِ اللَّاتي يَتَزَوَّجُهُنَّ الرِّجَالُ: استعارَةٌ، حيثُ شُبِّهَ الزَّواجُ بالحِصْنِ الَّذي يُحْتَمَى بِه، وذلكَ عَلى جِهَةِ الاسْتِعارَة التَّصْرِيحِيَّة التَّبعِيَّة، فالنِّسَاءُ المُحْصَناتُ كَأَنَّهُنَّ في مَكانٍ حَصينٍ بالتَّزْوِيج.

الزَّوَاجُ إِحْصَانٌ لِلْمَرْأَةِ وَسَتْرٌ لَهَا وَتَكْرِيمٌ وَرِفْعَةٌ:

واخْتِيارُ تَسْمِيَتِهِنَّ بِذلكَ تَكْرِيمٌ لَهُنَّ وَرِفْعَةٌ، وتَنْوِيهٌ بما يُتَوَقَّعُ مِنَ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ دائِمًا[3].

وهذا يَدُلُّ عَلَيْهِ - أَيضًا- حَذْفُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ (الفاعل) بِبِناءِ الفِعْلِ لِلمَفْعولِ في ﴿أُحْصِنَّ﴾، وهُوَ مُشْعِرٌ بِصَرْفِ الهِمَّةِ إِلى حَدَثِ التَّزْوِيجِ،

المُهِمُّ فِي الإِسْلَامِ إِيقَاعُ حَدَثِ التَّزْوِيجِ الَّذِي هُوَ حِصْنٌ لِلْحُرَّةِ وَالأَمَةِ كِلْتَيْهِمَا:

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/16، والزّمَخْشري، الكَشّاف: 2/60، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/682، وإسْماعيل حَقّي، روح البيان: 2/190.
(2) الكَرمانيّ، البُرْهانُ في تَوْجيهِ مُتَشابِهِ القُرْآن: ص: 96.
(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/16.

وَيُصَوِّرُ لنا الرِّفْعَةَ الَّتي تَنالُها الأَمَةُ بِهِ، فَهِيَ في حِصْنٍ مُرْتَفِعٍ ومَقامٍ كَريمٍ يصونُها، ويُحَصِّنُها.

نُكْتَةُ التَّغايُرِ بَيْنَ أَداتَي الشَّرْطِ (إِذَا) و(إِنْ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ﴾:

فَضِيلَةُ الزَّوَاجِ فِي تَحْصِينِ النَّفْسِ وَالبُعْدِ عَنِ الوُقُوعِ فِي الفَوَاحِشِ

مِنَ المُتَقَرَّرِ في عِلْمِ البَلاغَةِ أَنَّ (إذا) تُسْتَعْمَلُ لِما هُوَ مُحَقَّقُ الوُقوعِ، وتَدُلُّ على اليَقينِ والكَثْرَةِ والتَّأْكيدِ[1]؛ لِذا جاءَتْ كَثيرًا في بَيانِ الأَحْكامِ الشَّرْعيَّة، وأَمَّا (إِنْ) فَتَكُونُ لِما يُخالِطُهُ الشَّكُّ[2]، وما يَتْبَعُهُ مِنَ التَّقْليل.

وَيَلْحَظُ القارِئُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾، أَنَّ اللهَ سُبحانه ذَكَرَ الْإِحْصانَ في الآيَةِ وصَدَّرَهُ بـ (إذا) وأَكَّدَ وُقوعَهُ بِالْفِعْلِ الماضي الَّذي يُفيدُ الوُقوعَ أَصالَةً مَعَ بِنائِهِ لِلْمَفْعولِ؛ زِيادَةً في تَأْكيدِ التَّأْكيد، وفي المُقابِلِ قَلَّلَ احْتِمالَ الْإِتْيانِ بِالفاحِشَةِ على هَذِهِ الحالِ، فأَتى بَعْدَها بـ"إِنْ"؛ إيماءً إِلى كَوْنِ الفاحِشَةِ غَيْرَ مُتَوَقَّعَةٍ مِمَّنْ هذه حالُهُ، وهذا مِنْ رَوْعَةِ البيانِ القُرآنيِّ الَّذي يُعْرَفُ بالضَّبْطِ في سياقِ الآياتِ ومَعانيها، فـ (إِذا) جاءَتْ مَعَ (أُحْصِنَّ) وهَذا هُو الأَكْثَرُ، أَمَّا (إِنْ) فَجاءَتْ مَعَ اللَّواتي يَأْتينَ بِفاحِشَةٍ، وهُوَ نادِرُ الوقوعِ مِنَ المُحْصَنَاتِ.

لَفْظُ (المُحْصَنَاتِ) يُطْلَقُ عَلَى المُتَزَوِّجَاتِ، وَالحَرَائِرِ، وَالعَفِيفَاتِ، وَالسِّيَاقُ يُعَيِّنُ المُرَادَ:

دِلَالَةُ التَّجْنيسِ في مُشْتَقَّاتِ لَفْظِ (الإِحْصانِ):

مِنْ رَوْعَةِ البَديعِ في الآيَةِ الكَريمَةِ عُمومًا، وفي هذا المَقْطَعِ خُصوصًا: ظاهِرَةُ التَّجْنيسِ[3] بِتَقْليباتِهِ المُخْتَلِفَةِ[4] في لَفْظِ (الإِحْصانِ)، وهذا مِنْ شأنه أنْ يُوَلِّدَ تَنْويعًا فَريدًا لِلْمَعاني:

---

(1) القَزْوينيُّ، الإيضاحُ في عُلومِ البَلاغَة: 2/117.

(2) بهاء الدِّين السُّبكي، عروس الأفراح: 1/323.

(3) التَّجْنيسُ أوِ الجِناسُ: هُوَ تَشابُهُ لَفْظَيْنِ في النُّطْقِ، واخْتِلافُهُما في المَعْنى، أَحْمَدُ الهاشِمي، جَواهِرُ البَلاغَةِ، ص: 326.

(4) في لَفْظَةِ ﴿أُحۡصِنَّ﴾ مَعَ لَفْظَةِ ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ جِناسُ اشْتِقاقٍ، وهُوَ أنْ تَجْتَمِعَ الكَلِمتانِ في أَصْلِ الإِشْتِقاقِ، نَحْوُ: ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾، وَيُسَمَّى المُقْتَضَبَ أَيْضًا، السُّيوطِيُّ، الإِتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 3/312.

فَتارَةً يُطْلَقُ على الحَرائِرِ ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، وتارَةً على العَفيفاتِ ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾، وتارَةً على المُتَزَوِّجاتِ ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾، في انْتِقالٍ لِلْمَعْنى لا يَتَّفِقُ لِلْبليغِ مِنَ النَّاسِ إلَّا على نُدْرَةٍ وقِلَّةٍ، وفي نِظامٍ يَقَعُ مَوْقِعَهُ مِنَ الحُسْنِ عِنْدَما يَكُونُ المَعْنى هُوَ الَّذي اسْتَدْعاهُ وساقَهُ؛ حتَّى تَكونَ كَلِمَتُهُ مِمَّا لا يَبْتَغي السَّامِعُ بها بَدَلًا، وَلا يَجِدُ عَنْها حِوَلًا.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْعَنَتِ بَدَلَ الوُقُوعِ فِي الزِّنى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾:

مِنْ مَقاصِدِ الشَّريعَةِ رَفْعُ العَنَتِ وَالْمَشَقَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِ؛ وَلِذَا أُبيحَ الزَّواجُ بِالإِماءِ المُؤْمِناتِ بِشَرْطِهِ

تَنَوَّعَتْ مَعاني العَنَتِ في اللُّغَةِ بَيْنَ: الهَلاكِ، والمَشَقَّةِ الشَّديدَةِ، والفُجورِ، والزِّنى، والإِثْمِ، وخَوْفِ التَّلَفِ، وَالانْكِسارِ، وَكُلُّها دائِرَةٌ في فَلَكِ الضَّرَرِ والفَسادِ، وَأَشَدُّ الفَسادِ على الإنسانِ فَسادُ دينِه، وَأيُّ ضَرَرٍ أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرِ القَلْبِ بِمُواقَعَةِ الفُجورِ؛ لِذا جاءَ التَّعْبيرُ هنا بِالعَنَتِ عَنِ الزِّنى؛ كِنايَةً[1] عَنِ الخَوْفِ مِنَ الوُقوعِ فيه، ولِشِدَّةِ مُكابَدَتِهِ أَمْرَ الشَّهْوَةِ، وإنَّما سُمِّيَ الزِّنى عَنَتًا؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ المَشَقَّةِ بِالحَدِّ في الدُّنْيا والعُقوبَةِ في الآخِرَةِ[2]؛ لِأَجْلِ هذا أَشارَتِ الآيَةُ إلى إباحَةِ زواجِ الإِماءِ عِنْدَ شِدَّةِ الرَّغْبَةِ في النِّكاحِ، مَعَ عَدَمِ اسْتِطاعَةِ التَّزَوُّجِ مِنَ الحَرائِرِ.

فَفي قولِه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ كنايةٌ عَن موصوفٍ، وهو الزِّنَى، فإنَّ الزِّنَى يُوصَفُ بِكَونِه عنتًا، ويجوزُ أن يُخرَّجَ ذلك على المَجازِ المرسَلِ، وعلاقَتُه المُسَبَّبِيَّة؛ إذْ أُطْلِقَ المُسَبَّب: وهو العنتُ والهلكَةُ والشِّدَّة، وأُريد السَّبَبُ: وهُوَ الزِّنى.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ التَّعْبِيرِ بِالْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾:

﴿وَأَن﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ تعالَى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾ مصدَرِيَّة تُسْبَكُ مَعَ مَا بَعْدَهَا بِمَصْدَرٍ، والتَّقديرُ: وَصَبْرُكُم خيرٌ لَكُم، ونُكْتَةُ العدُولِ عَن

(1) الكِنايَةُ: لَفْظٌ أُطْلِقَ، وأُريدَ به لازِمُ معناهُ مَعَ جَوازِ إرادَةِ المَعنى الأَصْليِّ، عَبْدُ المُتعال الصَّعيديُّ، بُغْيَةُ الإيضاحِ لِتَلْخيصِ المِفْتاحِ: 3/538.

(2) إسْماعيل حَقِّي، روحُ البَيان: 2/191.

التَّعبيرِ بِصَريحِ المَصْدَرِ مع أنَّه أَخْصَرُ إلى التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ المُؤَوَّلِ: أنَّ الفعلَ المُضَارِعَ دالٌّ على التَّجدُّدِ الاسْتِمْرَارِيِّ، وهو مناسبٌ لِذِكْرِ خَشْيَةِ الوقُوعِ في العَنَتِ؛ وذلكَ أنَّ مُقْتَضَياتِ الصَّبْرِ مُتَجَدِّدَةٌ وَقْتًا بعدَ وَقْتٍ، فكانَ التَّعْبيرُ بالْفِعْلِ المُضَارِعِ أَنْسَبَ لِهَذَا المَعْنَى.

الـصَّـبْرُ: هُـوَ الْـحَـالُ الْـكُـمْلَى اللَّائِقَةُ بِالْمُؤْمِنِ تَـجَـنُّـبًـا لِـمَـآلَاتِ نِكَاحِ الْأَمَةِ:

وفي تَوجيهِ المُؤْمِنينَ إلى التَّحلِّي بخُلُقِ الصَّبْرِ بَدَلَ المُسارَعَةِ إلى نِكاحِ الأَمَةِ إشارةٌ إلى ما في الصَّبْرِ مِنْ تَرْبيةِ قُوَّةِ الإرادَة، وتَنْمِيَةِ مَلَكَةِ العِفَّة، وتَغْليبِ العقْلِ على عاطِفَةِ الهَوى، ولِما في نِكاحِ الأَمَةِ مِنْ إتْباعِ الوَلَدِ لأُمِّهِ في الرِّقِّ، ولِثُبوتِ حَقِّ المَوْلى فيها وفي اسْتِخْدامِها كَيْفَمَا يُريدُ في السَّفَرِ والحَضَرِ، وعلى بَيْعِها لِلْحاضِرِ والبادي، ولأَنَّها مُمْتَهَنَةٌ خَرَّاجَةٌ ولَّاجَةٌ، فلا تَخْلُصُ لِلزَّوْجِ خُلوصَ الحَرائِرِ، وذَلِكَ كُلُّهُ نُقْصانٌ يَرْجِعُ على النَّاكِحِ بِنَوْعِ مَهانَةٍ، فلا يَنْتَظِمُ أَمْرُ بَيْتِه، والعِزَّةُ هِيَ اللَّائِقَةُ بالمُؤْمنينَ[1].

بَرَاعَةُ الْمَقْطَعِ فِي التَّذْيِيلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

خَتْمُ الآيَةِ بالمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ فيهِ بَراعَةُ مَقْطَعٍ، وهُوَ مُناسِبٌ لِما سَبَقَ مِنْ بيانِ تلكَ الأَحْكامِ التَّشْريعيَّةِ في الآياتِ السَّابِقَةِ، وفيه إشارَةٌ إلى كَوْنِ هذِهِ الأَحْكامِ مَبْنِيَّةً على الرَّحْمَةِ مِنَ اللهِ لِعِبادِهِ المُؤْمنينَ.

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييلٌ جارٍ مجْرَى المَثَل؛ لاسْتِقْلالِه بالإفادَة، وعدَمِ افْتِقارِه إلى ما قَبْلَه في الكَشْفِ عَنْ أَصْلِ مَعْنَاه.

اللهُ غَـفُـورٌ لِمَـنْ صَـدَرَتْ مِـنْـهُ الْـهَـفَـوَاتُ، كَاحْتِقَارِ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ، رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ بِإِبَاحَتِهِ لَهُمْ نِكَاحَ الْإِمَاءِ دَفْعًا لِلْعَنَتِ:

واللهُ ﷻ ﴿غَفُورٞ﴾، أَيْ: كَثيرُ المَغْفِرَةِ لِمَنْ صَدَرَتْ مِنْهُ الهَفَواتُ، كاحْتِقارِ الإماءِ المُؤْمِناتِ، وعَدَمِ الصَّبْرِ على مُعاشَرَتِهِنَّ بالمَعْروفِ، وسُوءِ الظَّنِّ بِهِنَّ[2]؛ ﴿رَّحِيمٞ﴾ بِعبادِه، حَيْثُ رَخَّصَ لَهُمْ فيما رَخَّصَ فيهِ بِإِباحَتِهِ لَهُمْ نِكاحَ الإماءِ، وإنْ كان يُؤَدِّي إلى إرْقاقِ الوَلَدِ، مَعَ أَنَّ هذا يَقْتَضي المَنْعَ لاحْتياجِهِمْ إلَيْهِ، فكانَ ذلِكَ مِنْ بابِ المَغْفِرَةِ

(1) الزَّمَخْشري، الكَشَّاف: 2/60، وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/39.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/12.

والرَّحْمَةِ[1]، مَعَ ما في الجُمْلَةِ الاِسْمِيَّةِ مِنَ التَّأكِيدِ والدَّلالةِ على الثُّبوتِ والاِسْتِقْرارِ، وما في إِظْهارِ الاسْمِ الجَليلِ مِنْ تَرْبِيَةِ المَهابَةِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الأَسَالِيبِ المُلَائِمَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

قال اللّه تعالى هُنا: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وقال في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، ووجهُ المغايرَةِ بَيْنَهُما: أنَّ آية النِّساء تقدَّمها قولُ اللّه تعالى: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾، فلمَّا انتهى الكلامُ، وأُريد استئنافُ جملةٍ جديدةٍ، وكان الخطابُ موجَّهًا للمؤمنين حثًّا لهم على الرُّسوخ في الإيمانِ، وهُمْ غيرُ متردِّدين ولا منكِرين؛ ناسبَهُ عدمُ التَّوكيدِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، بخِلافِ آيَةِ الأَنْفالِ فَقَدْ صُدِّرت بقولِهِ تَعالَى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [الأنفال: 69]، فلمَّا أُريد تعليلُ الحُكْمِ، وكان الخِطَابُ لِمَنْ عاتَبَهُمُ اللّه تعَالَى من أَهْلِ الإيمانِ؛ ناسبَ ذلك فصلَ الجملةِ وتأكيدَ الخبرِ بـ (إِنَّ)؛ طمأنةً لهم، فقالَ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّكاح والزَّواج:

النِّكَاحُ: هُوَ عَقْدُ الزَّواجِ، ويُستعارُ لِلْجِمَاعِ، والزَّواجُ: يَدُلُّ على مُطْلَقِ الاقْتِرانِ:

الأصل في النِّكاحِ: البِضَاعُ، وَامْرَأَةٌ نَاكِحٌ في بَنِي فُلَانٍ، أَيْ: ذَاتُ زَوْجٍ مِنْهُمْ، وَالنِّكَاحُ قد يَكُونُ بالْعَقْدِ دُونَ الْوَطْءِ[2]، ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49]، أَيْ: عَقَدْتُمْ عَلَيْهِنَّ، أو أنَّ أصل النِّكاح للعقد، ثم استُعير للجماع[3]، ومحال أن يكون في الأصل للجماع، ثم استعير للعقد؛ لأنَّ أسماء الجماع كلَّها كنايات لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه، ومحال

(1) الهَرَري، حَدائِقِ الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 6/18.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكح).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (أبوابُ الحاءِ والكافِ)، (حكن).

أن يستعير من لا يقصد فحشًا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾ [النّور: 32]، وهو بذلك حقيقة في العَقْد لحلِّ المخالطة بعد الإعلان، ومجاز في الوطء؛ لأنَّه سببه[1]، أمَّا كَلِمَةُ الزَّواجِ؛ فَتَدُلُّ على مُطْلَقِ الاقْتِرانِ، فَكُلُّ ما قُرِنَ بِشَيْءٍ؛ فَهُوَ زَوْجٌ، وَهُما زَوْجانِ[2]، فَهُوَ أَشْمَلُ وَأَعَمُّ مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ، فَيُقالُ: تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ، أَيْ: أَصْبَحَتْ زَوْجَةً لَهُ، ومِنْهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: 37]، وتُطْلَقُ على المُزاوَجَةِ والاقْتِرانِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، كَقَوْلِه: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨﴾ [ص: 58]، أَيْ: أَلْوانٌ وأَنْواعٌ مِنَ العَذابِ[3]، فَبَيْنَهُمَا عُمومٌ وَخُصوصٌ: فالنِّكاحُ مَخْصُوصٌ بِالعَقْدِ الَّذي يَكُونُ بَيْنَ الرَّجُلِ والمَرْأَةِ، والزَّواجُ عَامٌّ، وقد يكون النِّكاحُ التَّزوُّجَ، وهو أخذُ الرَّجل المرأة للمخالطة التَّامَّة؛ لأنَّها مخالطة يعرفها النَّاس، ويشهدون بها، أي: ليس اتِّصالًا خفيًّا، وهو الأنسب في تعبير الآية الكريمة في اتِّخاذ الأمة المسلمة بدلًا من الحُرَّة.

الأَجْر والثَّواب:

الأَجْرُ: جَزاءُ العَمَلِ بِعَقدٍ أو شِبْهِهِ، والثَّوابُ: مَشْهورٌ فِي الجَزاءِ على الحَسَناتِ

الأَجْرُ: هُوَ جَزاءُ العَمَلِ الَّذي يَكُونُ فيهِ عَقْدٌ أَوْ ما يَجْري مَجْراهُ، وَالشَّاهِدُ أَنَّك تَقُولُ: مَا أَعْمَلُ حَتَّى آخُذَ أَجْري، وَلَا تقولُ: ثَوابي، أَمَّا الثَّوابُ؛ فَقَدِ اشْتَهَرَ في الجَزاءِ على الحَسَناتِ[4]، وَالأَجْرُ: يُقالُ في هذَا المَعْنى، ويُقالُ في ما مَعْناهُ: المُعاوَضَةُ بِالانْتِفَاعِ، ومِنْها المَهْرُ[5]، وناسب في الآيةِ الكريمةِ استخدام الأجر مكان المَهر؛ لكونه مقابل استمتاع الزَّوج بامرأته، وهو في معنى المعاوضة.

(1) الراغب، المفردات، وجبل: المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نكح).
(2) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظِ: 2/152.
(3) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب: (زوج).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 17.
(5) الزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (أجر).

العَذاب والعِقاب:

العِقابُ: يُنْبِئُ عَن اسْتِحقاقٍ، وَسُمِّيَ بذلكَ؛ لِأَنَّ الفاعِلَ يَسْتحِقُّهُ عقيبَ فِعْلِه، وَيجوزُ أَنْ يكونَ العَذابُ مُسْتَحَقًّا وغَيْرَ مُسْتَحَقٍّ؛ فَالْعِقابُ يَقْتَضي بِظاهِرِهِ الجَزاءَ عَلى فِعْلَةِ المُعاقَبِ عَقِبَ فِعْلِه، والعَذابُ لَيْسَ كَذلِكَ، فَبَيْنَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ[1].

العِقابُ: يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، والعَذابُ: قد يكونُ مُسْتَحَقًّا وغَيْرَ مُسْتَحَقٍّ

والنَّاظرُ في مواضع ورود (العقاب) في القرآن الكريم - وهي تصل إلى نحو عشرين موضعًا - يلحظ استخدامه فيما معناه: المآلُ والعاقبة في الجزاء؛ ولذا استُخدم في مقام الوعيد والتخويفِ والتهديد، وبيانِ ما حصل للمكذِّبين من الأمم مع رسلهم، وفي مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ.

أمَّا (العذابُ)؛ فلوحظ فيه معنى وقوع الجزاء وملازمته للفاعل؛ لذا ذُكر بأنَّ أصله "الضَّرْب"، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِ زُهَيْرٍ:

وَخَلْفَهَا سَائِقٌ يَحْدُو إذا خَشِيَتْ *** مِنْهُ الْعَذَابَ تَمُدُّ الصُّلْبَ وَالْعُنُقَا

ثُمَّ اسْتُعِيرَ ذَلِكَ فِي كُلِّ شِدَّةٍ[2]؛ ولذلك استُخدم في مناسبات عديدة - مواضع وروده في القرآن تزيد على (300) موضعٍ - منها: تأكيد وقوعه على الكفَّار وغيرهم في الدُّنيا والآخرة، وفي طلب المؤمنين صرف عذاب النَّار عنهم، وفي مقام تنفيذ الحدود الشَّرعيَّة، كحدِّ الحرابة - وهو قطع الطَّريق على النَّاس، وإشهار السِّلاح عليهم - وحدِّ الزَّاني غير المُحصَن، وحدِّ الأمَة؛ إذا زنت، كما في الآية الكريمة هنا، لذلك كان التَّعبير بالعذاب مناسبًا وبليغًا في سياق الآية.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 364.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦﴾ [النِّساء: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ ما يُريدُهُ اللهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الهِدايَةِ والإِكْرامِ بَعْدَ ذِكْرِ التَّشْرِيعاتِ والأَحْكامِ

لَمَّا فَصَّلَ اللهُ ﷻ أَحكامَ المُحَرَّماتِ مِنَ النِّساءِ، وَبَيَّنَ حُكْمَ العاجِزِ عَنْ نِكاحِ الحَرائِرِ مِنَ المُحْصناتِ، والرُّخْصَةَ لَهُ في نِكاحِ الإِماءِ بالشُّروطِ الشَّرْعِيَّةِ والآدابِ المَرْعِيَّةِ؛ أَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ هذا يُعَدُّ بَيانًا وَهُدًى لِأُمَّةِ الإِسْلامِ، حتَّى لا تكونَ شَريعَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ دونَ شَرائِعِ مَنْ سَبَقَها مِنَ الأُمَمِ، بَلْ تفوقُها في انْتِظامِ أَحْوالِها[1]، فَجاءَ التَّعْقيبُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾؛ لِيُبَيِّنَ ما يُريدُهُ اللهُ ﷻ لِهَذِهِ الأُمَّةِ بِهَذِهِ الأَحْكامِ والتَّشْريعاتِ والتَّنْظيماتِ، فَإِرادَتُهُ تعالى أَنْ يُبَيِّنَ لنا الحَلالَ والحرامَ، وأَنْ يَدُلَّنا على السُّنَنِ الحَميدَةِ لِمَنْ قَبْلَنا مِنَ الأَنْبياءِ والمُرْسَلينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ.

كَما أَنَّهُ ﷻ لَمَّا ذَكَرَ الحَلالَ والحَرامَ مِنْ تِلْكَ الحُدودِ والأَحْكامِ في الآيَةِ السَّابِقَةِ، وخَتَمَها بِصِفَةِ المغفرةِ والرَّحْمَةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ ما أَرادَ بِها مِنْ مُوجِباتِ الرَّحْمَةِ تَذْكيرًا بِالنِّعْمَةِ لِتُشْكَرَ، وتَحْذيرًا مِنْ أَنْ تُنْسى، فَتُكْفَرَ، فَقالَ تَعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾[2].

ومِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى: فإِنَّ ذِكْرَ التَّوْبَةِ: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾ مُناسِبٌ لِخِتامِ الآيَةِ الَّتي قَبْلَها: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لِأَنَّ شَريعَةَ اللهِ مَبْنِيَّةٌ على الرَّحْمَةِ في الأَحْكامِ والمَقاصِدِ، فاللهُ الغفورُ الرَّحيمُ يُريدُ بِنا الرَّحْمَةَ في الأَحْكامِ والمَغْفِرَةَ والتَّوْبَةَ عِنْدَ العَجْزِ والتَّقْصيرِ.

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/18.
(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/540 - 541.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُرِيدُ﴾: أَرَادَ الشَّيْءَ: شاءهُ، وأَحبَّه، وعُنِيَ بِهِ[1]، يُقالُ: أرَاد يُريد إرَادَة[2]، والمراد من الإرادة هنا: الإرادةُ الشَّرعيَّةُ: وهي المتضمِّنةُ محبَّةَ اللّه، ورضاه، وهي الأوامر الشَّرعيَّة، الَّتي يحبُّها اللّه، ويرضاها[3].

2) ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: البَيْنُ والبَوْنُ: وُضوحُ الشَّيْءِ وجَلاؤُهُ بامْتِدادٍ أَوِ اتِّساعٍ أَوِ انْقطاعٍ[4]، وأَصْلُ (بين): بُعْدُ الشَّيْءِ وَانْكِشافُهُ[5]، ومِنْهُ البَيانُ والتَّبيينُ بِمَعْنى: الإيضاح والإفْهام.

3) ﴿سُنَنَ﴾: جَمْعُ سُنَّةٍ، وهِيَ الطَّريقَةُ المَسْلوكَةُ، والسِّيرَةُ، ويَغْلِبُ إطْلاقُها على الطَّريقَةِ المُسْتَقيمَةِ المَحمودَةِ[6]، وهِيَ في الأَصْلِ: جَرَيانُ الشَّيْءِ وَاطِّرَادُهُ في سُهُولَةٍ[7]، والمَعْنى هُنا: طَرائِقُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكِمْ ومناهِجُهم.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

مِنْ تَمامِ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبادِهِ، هِدايَتُهُ لَهُمْ بِبَيانِ طَريقِ الحَقِّ، وتَوْبَتُهُ عَلَيْهِمْ مَعَ تَقْصيرِهِمْ

يُريدُ اللّه سُبْحانَهُ - بِتَشْريعِهِ هَذِهِ الأَحْكامَ لَكُمْ، فمرادُ اللّه فيها محبوبٌ له - أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ مَعالمَ شَرْعِهِ ودينِه، وَما يَحِلُّ لَكُمْ، وَما يَحْرُمُ عَلَيْكُمْ مِمَّا فيه مَصالِحُكُم الدُّنْيَوِيَّةُ والأُخْرَوِيَّةُ، ويُريدُ أَنْ يُرْشِدَكَمْ إلى شَرائِعِ الأَنْبياءِ مِنْ قَبْلِكِمْ في التَّحليلِ والتَّحْريم، وشَمائِلِهِم الكَريمَةِ، وسِيَرِهِمُ الحَميدَةِ لِتَتَّبِعُوهُمْ، ويُريدُ جلَّ شأْنُهُ أَنْ يَرْجِعَ بِكُمْ عَنْ مَعْصيَتِهِ إلى طاعَتِه، واللّه عَليمٌ بما فيه مَصْلَحَةُ عبادِهِ في أَمْرِ دينِهِمْ ودُنْياهُمْ، حَكيمٌ في تَشْريعِهِ وتَدْبيرِهِ لِشُؤونِهِمْ[8].

(1) ابن سيده، المحكم: (رود).
(2) ابْنُ الأثِير، النِّهايَةُ في غَريبِ الحَديثِ والأَثَر: (ريد).
(3) ابْنُ تيمية، مجموع الفتاوى: 8/188.
(4) الراغب، المفردات: (خدن)، (بين)، وجبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (بون، بين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بون، بين).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ العَرَب: (سنن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سنن)، وجبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (سنن، سنسن).
(8) القُرْطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/244، والمَحَليِّ والسُّيوطيُّ، تَفْسيرُ الجَلالَيْن، ص: 105، والمُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 82.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ الِاسْتِئْنافِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾:

تَقْريرُ ما سَبَقَ مِنَ الأَحْكامِ، وبَيانُ كَوْنِها جارِيَةً على مناهِجِ المُهْتَدينَ مِنَ الأَنْبياءِ والصَّالِحينَ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئْنَافًا بيانيًّا؛ إذْ هذه الجملةُ واردة جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا سبقَ؛ كأنَّ سائلًا سَأل: ما الحِكْمَةُ مِن تَشْرِيع تلك الأَحْكَامِ؟ فجاء الجَوابُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾.

وهَذِهِ الجُمْلَةُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ بِمَنْزِلَةِ التَّذييلِ الشَّامِلِ لِما سَبَقَ، والمرادُ منه إيناسُ المُؤْمنينَ واسْتِنْزالُ نُفوسِهِمْ إلى امْتِثالِ الأَحْكامِ المُتَقَدِّمَةِ مِنْ أوَّلِ السُّورَةِ إلى هنا؛ فَإِنَّها أَحْكامٌ جمَّةٌ، وأَوامِرُ ونَواهٍ[1] يَسْمو بها المُجْتَمَعُ المُسْلِمُ، ويَتَخَلَّصُ بها مِنْ ظُلُماتِ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ وشَهَواتِهِمْ[2]، ويَرفَعُ بها مُسْتواهُ الإيمانيَّ إلى القِمَّةِ السَّامِقَةِ الوَضيئَةِ بِهِدايَتِهِمْ إلى سُنَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ من الأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَهذا الخِطابُ يَرْفَعُهُمْ إلى مَرْتَبَةٍ عُلْوِيَّةٍ تُؤَهِّلُهُمْ إلى هِدايَتِهِ لَهُمْ وتَوْبَتِهِ عَلَيْهِمْ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ المُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾:

إِفَادَةُ التَّجَدُّدِ وَالاسْتِمْرارِ فِي الانْتِفاعِ بِالْبَيَانِ وَالْهِدَايَةِ وَالتَّوبَةِ، وَبَيَانُ صَلَاحِ هَذَا الدِّينِ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ:

جاء التَّعبيرُ بِصيغَةِ المُضارِعِ في الأفعالِ الأربعةِ: ﴿يُرِيدُ﴾ و﴿لِيُبَيِّنَ﴾ و﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ﴾ و﴿وَيَتُوبَ﴾ في هذا السِّياقِ؛ لِلدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ الانْتفاعِ بهذا البَيانِ واسْتِمرارِهِ، فَإِنَّ نَفْعَ هَذِهِ التَّشْريعاتِ والهِداياتِ والرَّحماتِ مُتَجَدِّدٌ مُسْتَمِرٌّ، فَتَكونُ بِذلكَ مِنْحَةً لِلْمُخاطَبينَ ولِمَنْ جاءَ بَعْدَهُمْ، ولِلدَّلالَةِ على أَنَّ اللهَ تعالَى يُبْقي بَعْدَها بيانًا وهَدْيًا مُتعاقِبًا[3] صالِحًا لِكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ، ومُواكِبًا لِجَميعِ البيئاتِ وسائِرِ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/18.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/684.
(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/18.

الأَحْوالِ ومُناسِبًا لِجَميعِ الأَجْيالِ، كَما كان امْتِدادًا لِما سَبَقَها مِنْ شَرائِعَ إلهيَّةٍ، فَشَريعَتُه شَريعَةٌ سَمْحَةٌ غَرَّاءُ، جَمَعَتْ، فَأَوْعَتْ، فَهِيَ عَريقَةُ الأُصولِ مورِقَةُ الفُروعِ وارِفَةُ الظِّلالِ يانِعَةُ الثِّمارِ على تَجَدُّدِ الجَديدَيْنِ؛ كَما أَنَّ تَوالي العَطْفِ بَيْنَ هَذِه الأَفْعالِ يُشْعِرُ بِتَوالي رَحماتِ اللهِ في شَرْعِهِ وحُكْمِه، وعِنايَتِه بِخَلْقِه تَعَطُّفًا وتَكَرُّمًا.

في تَنَوُّعِ دِلالاتِ الحُروفِ إثْراءٌ لِلْمَعاني وتَكْثيرٌ لَها

دَلالَةُ اللّامِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ بَيْنَ التَّأْكيدِ والمُبالَغَةِ:

مِثْلُ هَذا التَّرْكيبِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ وَقَعَ في كَلامِ العَرَبِ قَديمًا، وقَدِ اخْتَلَفَ النُّحاةُ في مَعْنى اللّامِ الدَّاخِلَةِ على الفِعْلِ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ وعَمَلِها، وفي تَقْديرِ مَفْعولِ الفِعْلِ ﴿يُرِيدُ﴾ قَبْلَها، وقَدْ خَرَّجوا المَسْأَلَةَ على مَذاهِبَ: فَمَذْهَبُ سيبَوَيْه وجُمْهورِ البَصْرِيِّينَ أَنَّ مَفْعولَ ﴿يُرِيدُ﴾ مَحْذوفٌ، واللَّامِ لِلتَّعْليلِ، والتَّقْديرُ: يُريدُ اللهُ تَحْليلَ ما أَحَلَّ، وتَحْريمَ ما حَرَّمَ؛ لِأَجْلِ التَّبْيينِ لَهُمْ بِهِداياتِهِمْ[1]، فَمُتَعَلَّقُ الإرادَةِ غَيْرُ التَّبْيينِ وما عُطِفَ عَلَيْه، وَلا يَجوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكونَ مُتَعَلَّقُ الإرادَةِ التَّبْيينَ؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلى تَعَدِّي الفِعْلِ إِلى مَفْعولِه المُتَأَخِّرِ بِوَساطَةِ اللّامِ، وَإِلى إِضْمارِ (أَنْ) بَعْدَ لامٍ لَيْسَتْ لامَ الجُحودِ، وَلا لامَ كَيْ، وَكِلاهُما لا يَجوزُ عِنْدَهُمْ[2].

وَمَذْهَبُ الكوفِيِّينَ: أَنَّ مُتَعَلَّقَ الإرادَةِ هُوَ التَّبْيينُ، وَاللّامُ: هِيَ النَّاصِبَةُ بِنَفْسِها، لا بِـ (أَنْ) مُضْمَرَةٍ بَعْدَها، وأَنَّها تَقومُ مَقامَ (أَنْ) في فِعْلِ الإرادَةِ والأَمْرِ، فَيُقالُ: أَرَدْتُ أَنْ تَذْهَبَ، وأَرَدْتُ لِتَذْهَبَ، وأَمَرْتُكَ أَنْ تَقومَ، وأَمَرْتُكَ لِتَقومَ، وَعليه قوله تَعالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [التَّوْبَةُ: 32]، وَقالَ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [الصَّفُّ: 8]، وَقالَ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾ [غَافِرُ: 66]،

(1) القَيْرَوانيّ، النُّكَتُ في القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 189، وإسماعيلُ الأَصبهانيُّ، إعرابُ القرآنِ، ص: 89.
(2) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/600.

وَقَالَ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشّورى: 15][1]، فَإذا جاؤوا باللَّام أَشْبَهَتْ لَامَ التَّعْلِيلِ، فَقَدَّرُوا (أَنْ) بَعْدَ اللَّامِ المؤَكِّدة.

وَمِنْ أهلِ الْعِلْمِ مَنْ قَرَّرَ قَوْلَ سِيبَوَيْهِ بِخِلافِ ما سَبَقَ؛ بِأَنَّ الْمَفْعُولَ الْمَحْذُوفَ دَلَّ عَلَيْهِ التَّعْلِيلُ الْمَذْكُورُ، فَيُقَدَّرُ: يُرِيدُ اللَّه الْبَيَانَ لِيُبَيِّنَ، ويكونُ الْمَصْدَرُ الْمُنْسَبِكُ مَفْعُولَ (يُرِيدُ)، والمَعْنَى: يُرِيدُ اللَّه الْبَيَانَ لَكُمْ وَالْهُدَى وَالتَّوْبَةَ، فَيَكُونُ الْكَلامُ مُبَالَغَةً بِجَعْلِ الْعِلَّةِ نَفْسَ الْمُعَلَّلِ، فَكَانَ أَصْلُ الاسْتِعْمَالِ ذِكْرَ (أَنْ) الْمَصْدَرِيَّةِ، وَلِذَلِكَ فَاللَّامُ هُنَا لِتَوْكِيدِ مَعْنَى الْفِعْلِ الَّذِي قَبْلَهَا[2].

وذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّامَ ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ، هُوَ خَبَرٌ عَنِ الْفِعْلِ السَّابِقِ، وَذَلِكَ الْفِعْلُ مُقَدَّرٌ بِالْمَصْدَرِ دُونَ سَابِكٍ، أَيْ: إِرَادَةُ اللَّه كَائِنَةٌ لِلْبَيَانِ عَلَى حَدِّ: (تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ)[3]، ويَكونُ الْكَلَامُ عِنْدَهُمْ مَحْمُولًا عَلَى الْمُبَالَغَةِ، كَأَنَّ إِرَادَةَ اللَّه انْحَصَرَتْ فِي ذَلِكَ[4].

وتَنَوُّعُ هذهِ المَعَانِي إِثْرَاءٌ لِلنَّصِّ القُرآنيِّ وتَكْثِيرٌ لِلْمَعَانِي؛ إِذِ القرآنُ الكريمُ حمَّالُ وُجُوهٍ، بعضُهَا يُكمِّلُ بَعْضًا، وَيُقَوِّيه.

سِرُّ التَّرْتِيبِ بَيْنَ الْبَيَانِ وَالْهِدَايَةِ وَالتَّوْبَةِ فِي تَعَلُّقِ كُلٍّ مِنْهَا بِمَا قَبْلَهُ:

الْهِدَايَةُ ضَرْبَانِ: هِدَايَةُ إِرْشَادٍ وَبَيَانٍ، وَهِدَايَةُ تَوْفِيقٍ وَإِلْهَامٍ

الهدايَةُ هدايَتان: هدايَةُ بيانٍ ودلالَة، وهدايَةُ تَوْفيقٍ وإِلْهام، وهِيَ تكونُ بَعْدَ هدايَةِ البَيانِ، فَإذا حَصَلَ البيانُ والتَّعْرِيفُ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ هدايَةُ التَّوْفِيقِ؛ ولأَنَّ مِنَ الأُمورِ ما قَدْ يُهْدَى المَرْءُ إِلى أَصْلِهَا دونَ تَفْصيلِها، فَهُوَ مُحْتاجٌ إِلى هِدايَةِ تَفاصيلِها، وأُمورٌ قَدْ هُدِيَ إِلَيْها مِنْ وَجْهٍ دُونَ وجهٍ، فَهُوَ مُحْتاجٌ إِلى تَمامِ الهدايَةِ فيها، لِتَتِمَّ لَهُ الهدايَةُ،

(1) الرازي، أُنموذَج جَليل، ص: 67، والسَّايس، تَفْسيرُ آياتِ الأَحْكام، ص: 268.

(2) الفيروزابادي، بَصائِرُ ذَوِي التَّمْييز: 4/411، وابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/18.

(3) (تَسْمَعُ بالْمُعَيدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أنْ تَرَاهُ)، ويروى: (لأَنْ تَسْمَعَ بالْمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أنْ تَرَاهُ)، وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ خَبَرُه خَيْرٌ من مَرْآه، قالَ المُفَضَّلُ: "أَوَّلُ مَنْ قال ذَلِكَ المُنْذِرُ ابْنُ ماءِ السَّماءِ"، الميداني، مَجْمَعُ الأَمْثال: 1/129.

(4) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/19.

ويزدادَ هُدًى إلى هُداهُ، ولا يَكونُ ذلك إلَّا بالتَّفصيلِ والبَيانِ، ولَمَّا كان العَبْدُ مُفْتَقِرًا إلى الهدايَةِ في ظاهِرِهِ وباطِنِهِ في جَميعِ ما يَأْتيه، ويَذَرُهُ مِنْ أُمورٍ قَدْ فَعَلَها على غَيْرِ الهِدايَةِ عِلْمًا وعَمَلًا وإرادَةً، أَوْ قَصَّرَ في الإتْيانِ بها على وَجْهِها؛ فَهُوَ مُحتاجٌ بَعْدَها إلى التَّوْبَةِ مِنَ التَّفْريطِ والتَّقْصيرِ.(1)

إذًا، فَهذا هُوَ التَّرْتيبُ الطَّبْعِيُّ، فَإِنَّهُ قُدِّمَ البَيانُ على هِدايَةِ السُّنَنِ؛ لِأَنَّ البيانَ مُقَدَّمٌ على الهِدايَةِ، فالهِدايَةُ تَكونُ بَعْدَ البَيانِ، وإِلَّا فَإِلى أَيِّ شَيْءٍ يَهْديه؟ وأَمَّا التَّوْبَةُ؛ فَهِيَ بَعْدَ البَيانِ والهِدايَةِ، فَإِنَّها تَكونُ بَعْدَ التَّقْصيرِ في الاتِّباعِ، وارْتِكابِ الذُّنوبِ والمَعاصي.

دِلالَةُ حَذْفِ الْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾:

الشَّرِيعَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَا فِيهِ نَفْعُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَفَلَاحُهُمْ فِي الْآخِرَةِ

مَفْعولُ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ مِن قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ مَحْذوفٌ بِدَليلِ السِّياقِ، وتَقْديرُهُ: يُريدُ اللهُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ ما هُوَ خَفِيٌّ عَنْكُمْ مِنْ مَصالِحِكُمْ وأَفاضِلِ أَعْمالِكُمْ، أَوْ ما تَعَبَّدَكُمْ بِهِ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ(2)، فَحُذِفَ إيجازًا لِشِدَّةِ ظُهورِهِ، فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ أَوْضَحَ بَيانٍ وأَوْفاهُ كُلَّ ما يُصْلِحُ النَّاسَ في مَعاشِهِمْ، ويَنْفَعُهُمْ في مَعادِهِمْ، وهذا أَمْرٌ مُؤَكَّدٌ لا رَيْبَ فيه، دَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّامُ المُؤَكِّدَةُ لِإرادَةِ التَّبْيينِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾(3).

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ العِلْمِ عَلَى الْحِكْمَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

أَحْكَامُ اللهِ تَعَالَى نَاشِئَةٌ عَنْ كَمَالِ الْعِلْمِ وَكَمَالِ الْحِكْمَةِ

سِياقُ الآياتِ السَّابِقَةِ كُلُّهُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ العِلْمِ بِأَحْكامِ المُحَرَّماتِ مِنَ النِّساءِ وما يَحِلُّ مِنْهُنَّ، فَكانَ المُقْتَضى أَنْ تُقَدَّمَ صِفَةُ العِلْمِ، مَعَ مُلاحَظَةِ المُبالَغَةِ في الوَصْفِ بِالعِلْمِ بِالأَشْياءِ الَّتي مِن جُمْلَتِها ما شَرَعَ اللهُ - جلَّ شَأْنُهُ - لِلْمُؤْمِنينَ مِنَ الأَحْكامِ، كَما فيه مُبالَغَةُ

---

(1) ابْنُ القَيِّمِ، مَدارِجُ السَّالِكِين: 1/32، وابْنُ القَيِّمِ، الصَّلاةُ وأَحْكامُ تارِكِها، ص: 144.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/684.

(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 2/60، والبَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/70، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/684.

في وصْفِهِ بِمُراعاةِ الحِكمَةِ والمصْلَحَةِ في جَميعِ أَفْعالِه سُبْحانَهُ، مَعَ مَا في الجمعِ بين الوَصْفَيْنِ مِنَ الكَمالِ والجَلالِ[1]، وقُدِّمَ العِلْمُ عَلَى الحِكْمَة؛ لأَنَّ الإِتْقَانَ نَاشِئٌ عَنِ العِلْمِ[2].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **وَقَوْلِهِ:** ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

تَـنَـاسُـبُ مَـقَـاطِـعِ آيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِمَضَامِينِهَا

قال اللّهُ سُبْحَانَهُ في الآيةِ السَّابقة: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال في هذه الآيَةِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ونُكْتَةُ اخْتِصَاص كُلِّ آيةٍ بما فيها مِنَ الأَسماءِ الحُسْنَى أنَّ الآية السَّابقة تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾، فلمَّا كان اللّهُ سُبْحَانَهُ قَد أباحَ التَّزوُّجَ بالإمَاءِ - بِشرْطِهِ - رفعًا لِلْحَرجِ ودفعًا لِلْمَشقَّة، وكان ذلك دالًّا على أنَّ اللّه تعالى رَحيمٌ بِعبادِه، غفُورٌ لَهُم بالتَّجَاوُزِ عمَّا كان الأَصلُ فِيهِ التَّحريم؛ ناسَب أن تُخْتَمَ الآيةُ بذِكْرِ الاِسْمَيْنِ الدَّالَّيْنِ على هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ، فقَال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

بخِلَافِ هذه الآيةِ، فقد صُدِّرت بقولِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾، فلمَّا كان سببُ ذَلِك أنَّ اللّه تعالى عَلِيمٌ بأحْوَالِهِم، حَكِيمٌ فيما يَشْرَعُ لهم ممَّا فيهِ صَلَاحُهم، ناسَبَ ذَلِكَ خَتْمُ الآيةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[3].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَيان والهُدى:

البيانُ إظْـهـارُ المَعْنى لِلنَّفْسِ كـائِنًا ما كـانَ، والـهُـدى بَـيانُ طَـريـقِ الـرُّشْـدِ لِيُسْلَكَ

البيانُ إِظْهارُ المَعْنى لِلنَّفْسِ كائِنًا ما كانَ، فَهُوَ في الحَقيقَةِ مِنْ قَبيلِ القَوْلِ، وهو الكلامُ الفصيحُ البليغُ الَّذي فيه يظهر المعنى،

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/684.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/247.
(3) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 366.

ويوضِّح ما كان مستورًا قبله للمخاطب[1]، أمَّا الهُدى؛ فهو الإرشادُ والدَّلالةُ بلُطْفٍ إلى ما يُوصِلُ إلى المَطْلوبِ، يُقال: هَداه هُدًى وهَدْيًا وهِدايَةً وهِدْيَةً، وهَداهُ للدِّين، أي: أَرْشَدَهُ إليه، وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، فهو بيانُ طَريقِ الرُّشْدِ لِيُسْلَكَ دونَ طَريقِ الغَيِّ[2]؛ لذلك جاء بعد توضيح الأحكام الشَّرعيَّة ذكر الهداية، وهي: الإرشادُ والدِّلالة لما فيه التَّوفيق، والفلاح، وجاءَ وَصْفُ القُرْآنِ بِهِما جَميعًا في قَوْلِه تَعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: 138]، أَيْ: بَيَانٌ لِلنَّاسِ عامَّةً، يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ الحقَّ مِنَ الباطِلِ، وهُدًى لِقُلوبِ المُتَّقين مِنَ الضَّلالَةِ[3].

(1) السيوطي، البيان والمعاني والبديع، ص: 63، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 01/684.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (هدى)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 109.
(3) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: 2/110.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النِّساءُ: 27 - 28]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

بيانُ عِلَلِ التَّخفيفِ وأسبابِهِ في تزوُّجِ الإماءِ، عَقِبَ ذكرِ أحكامِ الزَّواجِ مِنْهُنَّ

لَمَّا قرَّرَ ﷻ إرادتَهُ لِصلاحِ عبادِهِ المؤمنينَ، ورغَّبَ في اتِّباعِ الهدى بِعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، عَطَفَ بِالتَّذْكيرِ بِأَنَّهُ لا يَزالُ مُراعِيًا رِفْقَهُ بِهذِهِ الأُمَّةِ، وإرادَتَهُ بِها اليُسْرَ دونَ العُسْرِ، كَما بَيَّنَ طَريقَةَ أَهْلِ الزَّيْغِ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ في تَعامُلِهِمْ مَعَ أَحْكامِ اللّهِ، بِالتَّبْديلِ والتَّغْييرِ[1]، لِنَحْذَرَ مِنْ مُشابَهَتِهِمْ في ذلِكَ، والمَقْصِدُ بِهذِهِ الآيَةِ تَخْفيفُ اللّهِ تَعالى بِإِباحَةِ نِكاحِ الإماءِ، وكانَ إِخْبارُهُ عَنْ ضَعْفِ الإِنْسانِ، انطلاقا من علمه بِضَعْفِ الرِّجالِ عَنِ الصَّبْرِ عَنِ النِّساءِ، فيسّر لهم بِإِباحَةِ ذلك[2]، فَجاءَتْ هاتانِ الآيَتانِ وما قَبْلَهُما لبيانِ الإرادَةِ الشَّرْعيَّةِ، بِالتَّخْفيفِ عَلَيْنا، بالأمر بِإِباحَةِ الزّواجِ بالإِماءِ، وفي ذلك إِشارَةٌ واضِحَةٌ إِلى أَنَّ المُجْتَمَعَ الإِسْلاميَّ يخلو منَ الزِّنا والفاحِشَةِ[3]، ثمّ إنَّ اللّهَ تعالى ذَكَرَ أَحْكامَ النِّكاحِ بَيانًا وإِسهابًا، وأعقبها بذكر عِلَلِها وأَحْكامِها، لِيَكونَ في ذَلِكَ طُمَأْنينَةٌ لِلْقُلوبِ، وسُكونٌ لِلنُّفوسِ، فَتُقْبِلَ عَلَيْها وهِيَ عالِمَةٌ بِأَنَّ لها في هَذِهِ الأَحْكامِ سَعادَةً في دُنْياها وأُخْراها[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: شَهِيَ الشَّيْءَ، وشَهاه يَشْهاهُ شَهْوَةً، أَحَبَّهُ وَرَغِبَ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 05/22.
(2) ابْنُ عَطِيَّةَ، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 02/40.
(3) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 10/55.
(4) الهَرَري، حَدائِقُ الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 6/28.

فِيهِ[1] وأَصْلُ الشَّهْوَةِ: نُزوعُ النَّفْسِ إلى ما تُريدُهُ[2]، والمَعْنى هُنا: اللَّذَّاتُ المُحَرَّمَةُ كالزِّنا ونَحْوِهِ[3]، "واتّباع الشّهوات مُرْدٍ، وطاعتُها مُهلكةٌ، وفي الحديث: «حفّت الجنّة بالمكاره، وحفّت النّار بالشّهوات»، حيث الجنّة لا تنال إلّا بقطع مفاوز المكاره، وأنّ النّار لا منجى منها إلّا بفطام النّفس عن الشّهوات[4]، والنّأي عن دواعيها في الخلوات والجلوات.

2) ﴿تَمِيلُواْ مَيْلًا﴾: مَالَ عَنِ الشَّيْءِ: عَدَلَ، وانْحَرَفَ[5]، يُقالُ مالَ يَميلُ مَيْلًا ومَيَلانًا، والمَيْلُ أَيْضًا الجَوْرُ والحَيْفُ، ومِنْهُ المَيْلُ في الحُكْمِ[6]، أَي: الجَوْرُ، وأَصْلُ كَلِمَةِ (مَيِلِ) تَدُلُّ على انْحِرافٍ في الشَّيْءِ[7]؛ والمَعْنى هنا تَنْحَرِفوا عَنِ الدِّينِ وتَضِلُّوا، "وقال ابن السّكّيت: الأميلُ عند الرّواة: الّذي لا يثبت على ظهور الخيل، إنّما يميل عن السّرج في جانب، فإذا كان يثبت على الدّابة قيل: فارس، وإن لم يثبت، قيل: كفل، والجمع ميل، قال جرير:

لَمْ يَرْكَبُوا الْخَيْلَ إِلَّا بَعْدَمَا هَرِمُوا *** فَهُمْ ثِقَالٌ عَلَى أَكْتَافِهَا مِيلُ"[8]

3) ﴿ضَعِيفًا﴾: الضَّعْفُ: ضِدُّ القُوَّةِ، ويَكونُ في البَدَنِ وَالرَّأْيِ، وأَصْلُ الضَّعْفِ يَدُلُّ على خِلَافِ القُوَّةِ، وضَعْفُ الإِنْسانِ لِكَثْرَةِ حاجاتِهِ التي يَسْتَغْني عَنْهَا المَلَأُ الأَعْلَى ومَعْنَى ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾: أَي يَسْتَميلُه هَواهُ[9]، وقد خلق الله الإنسان ضعيفًا أمام غرائزه وميوله، فلا فكاك له منها، ولا منأى له عنها، فيناسبه من التّكاليف ما فيه يسرٌ وسعةٌ، وذلك هو ما يكلّف الله به عباده، فضلاً منه ورحمة، وتيسيرا عليهم ونعمة[10].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تؤكّد الآية للمؤمنين أنّ اللهَ يُريدُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْهِمْ، ويَتَجاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، ويُريدُ الّذينَ يَسيرونَ خَلْفَ مَلَذَّاتِهِمْ، أَنْ يبْعُدوا عَنْ طَريقِ الاِسْتِقامَةِ بُعْدًا شَديدًا فَيكُونُوا

(1) ابن سيده، المحكم: (شهو).
(2) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (شها).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/221.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/28.
(5) الجَوْهَرِيُّ، الصِّحاحُ: (حرف)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (ميل).
(6) الخليل، العَيْنُ: (عول)، والرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (جنف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَيَلَ).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (مَيَلَ).
(9) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، ومُرْتضى الزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف)
(10) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 113.

مِثْلهمْ، ثمّ يخاطبهم قائلا: يُريدُ اللّه أَنْ يُسَهِّلَ عَلَيْكُمْ في أَحْكام الشَّرْعِ، فَلا يُكَلِّفُكُمْ ما لا تُطيقونَ؛ لِأَنَّهُ عالِمٌ بِضَعْفِ الإِنْسانِ في خَلْقِهِ، وعدم اتّزانه في خُلُقِهِ[1]، فراعى له تلك الخصوصيّة، وعامله بلطفه وإحسانه.

كُلَّما كَثُرَ دُعاة الشَّهوات جاء لطفُ اللَّطيفِ؛ وكُلَّما طفت الشِّدَّةُ جاء التَّخفيف

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ تَقْديمِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ في: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

تأكيدُ حُكْمِ الإِسْنادِ وتَقْويَتُه، وبَيانُ خُصوصيَّةِ التَّوْبَةِ وأَهَمِّيَّتِها

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾: تأكّد مضمونُ الجملة بمجيءِ الجملةِ اسميَّةً، ولمّا وردَ الخبرُ جملةً فعليَّةً أفادَ تقويةَ الإسنادِ بتكرُّرِ المسندِ، مرةً بمجيئِهِ اسمًا ظاهرًا، وأخرى بمجيئِهِ ضميرًا مستترًا في ﴿يُرِيدُ﴾، فكأنَّ الإسنادَ تكرّرَ مرَّتينِ للمبالغة.

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على أسلوبِ الجملةِ الاسميّةِ:

لَمّا كانتِ التَّوبةُ لها خصوصيَّةٌ وردَ الكلامُ على أسلوبِ الجملةِ الاسميّةِ، فخالفَ ما سبقَ في قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ﴾ ولِحاقِهِ في قَوْلِهِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾، وفي تَكْمِلَةِ الآيَةِ نَفْسِها ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ فَجَميعُها وردَ على أسلوبِ الجملةِ الفعليَّةِ، فخالفَ في التَّعبيرِ في قوله ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لِمَا تفيدُهُ الجملةُ الاسميَّةُ مِنَ الإشعارِ بالحصرِ، فاللهُ وحدَهُ هو الذي يريدُ أَنْ يتوبَ عليكم، ولِمَا تفيدُهُ مِنْ تقويةِ الحكمِ وتأكيدِهِ؛ لِأهميّةِ تقريرِ المعنى في نفوسِ المخاطبينَ، والغرضُ هو التَّحريضُ عَلى التَّوْبَةِ وَالإِقْلاعِ عَنِ المَعاصي[2].

(1) الزَّيد، مُخْتَصَرُ تَفْسيرِ البَغَويِّ: 1/175، والمحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْنِ، ص: 105، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 83.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/21.

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ في الخطاب بقولِه ﴿يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ووقولِه ﴿يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾:

التّوبةُ تشملُ كلَّ المسلمين

لَمّا كانَ الخطابُ يقتضي توجيهَ الكلامِ إلى حاضرٍ، وهوَ لا يكونُ إلَّا شاهدًا معيَّنًا كانَ تركُهُ إلى غيرِ معيّنٍ؛ ليفيدَ العمومَ مِنْ إخراجِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ، وهوَ مِنْ قبيلِ وضعِ المضمَرِ موضعَ الظّاهرِ كذلكَ، فحُمِلَ هنا قوله ﴿عَلَيۡكُمۡۗ﴾ و﴿تَمِيلُواْ﴾ و(عَنكُم) على عمومِ المؤمنينَ؛ قصدًا إلى تعظيمِ أمرِ التَّوبةِ وتحصيلِها، وأنّها تشملهمْ جميعًا، فلا تختصُّ بمخاطَبٍ دونَ مخاطَبٍ، بلْ كلُّ مؤمنٍ له مدخلٌ في هذا الخطابِ، كما أنَّ في الخطابِ مِنَ المواجهةِ بالتّودُّدِ والتّحبُّبِ والتّكريمِ والاهتمامِ ما لايخفى، وَلِيُنَبِّهَ بهذا الخِطابِ أَسْماعَهُمْ، فَتَهْتَزَّ نُفوسُهُمْ؛ لِلشُّعورِ بِعِظَمِ مَكانَتِهِمْ عند اللّهِ تعالى[1].

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾، ﴿يَتُوبَ﴾:

أفادَ مجيءُ الفعلين بصيغةِ المضارع استمرارَ إرادةِ اللّهِ لأَنْ يتوبَ على المؤمنينَ المذنِبينَ، واستمرارِ قبولِ توبتِه على المؤمنين

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ:

لمْ يأتِ المصدرُ بصيغةِ الصّريحِ، فلمْ يقلْ (يريدُ التّوبةَ عليكم)؛ لإفادةِ تطاولِ زمنِ إرادةِ التّوبةِ وامتدادِه؛ ليشملَ الحالَ والمستقبلَ الممتدَّ بقرينةِ السِّياقِ، ولِتصويرِ حالةِ حبِّ اللّهِ لِتوبةِ عبادِهِ المؤمنينَ، وأيضا لِبيانِ أنَّ الغرضَ هو تحصيلُ مطلقِ التّوبةِ من غيرِ تقييدٍ بوصفٍ، ترغيبًا في تحصيلِ أصلِ التّوبةِ والإسراعِ فيها.

مناسبةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ﴾:

عبّرَ بالاسمِ الموصولِ لفوائدَ هي:

أوّلاً: أفادَ الاسمُ الموصولُ العمومَ ليشملَ كلَّ متّبعٍ للشّهواتِ من أهلِ الباطلِ وطلّابِ الفواحشِ وغيرِ ذلك ممّا حرَّمه اللّهُ[2]

---

(1) الإسفراييني، الأَطْوَلُ: 1/295.

(2) ابن جرير جامع البيان، وابن عطية، الوجيز: 2/40.

ثانيًا: للتوسّلِ إلى الصِّلةِ التي تدلُّ على أنّ المؤمنينَ يعرفونَ الَّذينَ يتّبعونَ الشَّهواتِ لِمَا تُشعِرُ بهِ جملةُ الصِّلة مِنْ أنّها معلومةُ الانتسابِ عندَ المخاطبينَ إلى مشارٍ إليهِ معلوم.

ثالثًا: كما أنَّ في ذِكْرِ الصِّلَةِ تَشْنيعًا لِحالِ أَصحابِ الشَّهوات، وإيماءً إلى أنَّ اتّباعَ الشَّهواتِ موصِلٌ إلى العدولِ عنِ القصدِ والاستقامةِ[1]

بلاغةُ العدولِ عن الجملةِ الاسميَّةِ إلى الجملة الفعليَّة:

كَمالُ المُبايَنَةِ بَيْنَ إِرادَةِ اللهِ وإِرادَةِ مُتّبعي الشَّهَواتِ

في العدولِ عن الجملةِ الاسميَّةِ إلى الفعليَّةِ فوائدُ هيَ:

أوّلًا: في الآيةِ الكريمةِ مُباينةٌ عجيبةٌ بينَ كمالِ منفعةِ ما أَرادهُ اللّه تعالى مِنْ رحمةٍ وتخفيفٍ، وكمالِ مضرَّةِ ما يريدُهُ الفجرةُ، فقُدّمَتْ إرادةُ اللّهِ وغُيّرَ الأُسلوبُ إلى الجملةِ الاسميَّة توطئَةً لإظهارِ فسادِ متَّبِعِي الشَّهواتِ، ودلالَةً على دوامِ الإرادةِ الإلهيَّة.

ثانيًا: بدأَ بصيغةِ الفعلِ في قولِهِ ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ﴾ لِلْإشارَةِ إلى تجدّدِ حدوثِ إرادتِهم في كلِّ وقتٍ، ولِلْإيماءِ إلى كمالِ المُباينةِ بَينَ مَضمونَي الجملتَيْنِ[2].

ثالثًا: عَطْفُ ذِكرِ إرادةِ مُتّبعي الشَّهواتِ بَعدَ ذِكرِ إرادةِ اللّهِ على جهةِ التَّقابلِ والتَّضادِّ المُتدرِّجِ الواقعِ في المَوقف، لِلتَّبصِرةِ والعِظَةِ بِما تُنتجهُ المُقارنةُ مِنْ تَفاوتٍ بَينَ الإرادتَيْنِ؛ فَالمَظنونُ في هذهِ المُقابلَةِ أَنْ يَقولَ: (واللّه يُريدُ أَنْ تَسْتَقيموا) مَثَلًا أَوْ (أَنْ تُطيعوهُ)، فَإنَّ الاستقامةَ تُقابلُ المَيلَ، فلمّا قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ذَكَرَ ما هُوَ أَخَفُّ، وأشعرَ بأنَّ في التّوبةِ الاستقامةَ.

رابعًا: في ذِكْرِ إرادةِ اللّهِ في مُقابلِ ما يُريدُهُ الذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ يَظهَرُ كَمالُ رَحمةِ اللّهِ وحبِّهِ للمؤمنينَ.

(1) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/70، والسّكاكي، مفتاح العلوم/182، والقونَويُّ، حاشيةُ على تفسير البيضاوي: 7/124، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/21.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/40، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/684.

مناسبةُ تأخيرِ المسندِ إليهِ في قولِه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ﴾:

ليسَ أَصْحابُ الشَّهَواتِ وحدَهم الَّذينَ يُريدونَ ميلَ المسلمِينَ ميلًا عظيمًا

تَأخيرُ المسندِ إليهِ في الجملَةِ الثَّانيةِ مِنَ الآيَةِ يَدُلُّ على أَنَّ أَصحابَ الشَّهواتِ مِنَ الزُّناةِ والعُصاةِ[1]، لَيْسوا وحدَهُمُ الذينَ يُريدونَ لِلْمسلمينَ أَنْ يَميلوا مَيْلًا عَظيمًا، بَلْ هناكَ غيرُهُمْ مِمَّنْ يريدُ ذلكَ مِنَ المُنافِقينَ وأَهْلِ الكِتابِ لذا تَأَخَّرَ المُسْنَدُ هُنا، وخَصَّهم بالذِّكرِ هنا لِمناسبةِ المقام

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه ﴿يَتَّبِعُونَ﴾:

عبّر بالاتّباع لِما فيه من معنى اقتفاءِ الشّهواتِ ولحاقِها وتطلّبِها أينما كانت، فهيَ أمامَهُ، وهو تابعٌ لها معَ موافقته عليها، ورغبته فيها[2]

بلاغةُ الاستعارة التّمثيليّة في قوله ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

تصويرُ انهماكِ أصحابِ الشّهواتِ فيها لِلمبالغةِ في التّحذيرِ منهم

لمّا كانَ الاتّباعُ عنْ أمرٍ مِنَ المتبوعِ، وكانَ هؤلاءِ يدورونَ معَ شهواتِ أنفسِهم مِنْ غيرِ تحاشٍ عنها، ويلحقُونَها أينما كانتْ، دلَّ على أنَّ انهماكَهمْ فيها بمثابةِ أنْ تكونَ الشّهواتُ هي التي أَمرتهم باتّباعِها فامتثلوا أمرَها واتّبعوها، فهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ للمبالغةِ في التّحذيرِ منهمْ[3].

نُكْتَةُ تَأْكيدِ الفِعْلِ بِالْمَصْدَرِ ووَصْفِهِ بِالْعِظَمِ في قولِه: ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾:

بَيانُ شِدَّةِ حِرْصِ أَصْحابِ الشَّهَواتِ على إِضْلالِ النَّاسِ وعِظَمِ خَطَرِهِمْ عَلَيْهِمْ

فقد أَكَّدَ فعلَ المَيلِ بالمَصدرِ على سبيلِ المبالغة، ولَمْ يكتفِ حتَّى وصفَهُ بالعِظَم، على معنى غايةِ الميلِ عن الحقِّ ومُنتهاهُ، وذلكَ أَنَّ الميولَ قدْ تختلفُ، فقدْ يَتركُ الإنسانُ فعلَ الخَيرِ لِعارِضِ شُغلٍ أَوْ لِكسلٍ أَوْ لِفِسقٍ يَستلذُّ بِهِ، أَوْ لِضَلالَةٍ بِأَنْ يَسبِقَ لَهُ سُوءُ اعتقادٍ،

---

(1) علَى قَوْلِ مَنْ فَسَّرَ اتِّباعَ الشَّهَواتِ هُنا بِالزِّنى ونِكاحِ المَحارِمِ: يُنْظَرُ: الزَّمَخْشري، الكَشَّاف: 2/61، وابْنُ عَطِيَّةَ، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 02/40.

(2) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: 1/89، والراغب، المفردات، ص: 162.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/15.

وَيتفاوَتُ رُتَبُ مُعالجةِ هذهِ الأَشياءِ، فبعضُهَا أَسهَلُ مِنْ بَعضٍ، فَوُصِفَ مَيلُ هَؤُلَاءِ بِالْعِظَمِ، إِذْ هو أَبعدُ المُيولِ مُعالجةً وَهو الكُفرُ[1].

بلاغةُ التَّعريض في الآية:

في الآية تعريضٌ بالمُسْلمينَ؛ لِتنبيهِهم إِلى دَخائِلِ أَعدائِهِمْ، لِيَعلموا الْفَرقَ بَينَ مُرادِ الله مِنَ المؤمنينَ، وَمُرادِ أَعوانِ الشَّياطينِ الذِينَ يَتَّبِعونَ الشَّهواتِ[2].

دَلَالَةُ الِاسْتِئْنافِ والفَصْلِ في: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾:

بَيانُ ظُهورِ تمَامِ النِّعَمِ الإِلَهيَّةِ عَلى هَذِهِ الأُمَّةِ

استأنفَ في الكلامِ؛ لِبيانِ حُكمٍ دائمٍ مستمرٍّ؛ لِيكونَ حكمًا عامًّا كليًّا؛ لِبيانِ مَزيدِ أَلطافِهِ بهذهِ الأمَّةِ وتفضُّلِهِ عليها؛ لأَنَّها تتناولُ كلَّ ما خفَّفَ اللّه تعالى عن عبادِهِ[3]، وكأَنَّهُ أرجعَ التّخفيفَ إلى أمرينِ: أحدهما تخصيصُ هذهِ الأمّةِ بهِ؛ لِمَزيدِ العِنايَةِ بهم وتكريمًا لهم، والثاني لِكَوْنِ الضَّعفِ العَامِّ في نَوْعِ الإِنْسانِ سَببًا مُقتضيًا لِلتَّخفيفِ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ (عَنْ):

التَّخفيفُ عن الأُمَّةِ تَكْرِيمًا لِرسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ

أفادَ حرفُ الجرِّ في قولِهِ ﴿عَنكُمْۚ﴾ المُجاوَزَةَ المَعْنَوِيَّةَ؛ لِلإِشعارِ بأنَّ التّخفيفَ هو نوعٌ من المجاوزةِ؛ تَكْريمًا لِرسولِ اللّه مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ، وهَذا نظيرُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: 185][4].

حُسنُ التَّذييلِ في قَوْلِهِ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾:

الإِسلامُ أليقُ الأديانِ بالإنسانِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ لِمزيةِ التَّخفيفِ المُناسِبِ فيهِ

في جملةِ التّذييلِ فوائدُ لغويّةٌ وبلاغيَّةٌ، هي:

أوّلاً: أشعرتْ جملةُ التَّذييلِ بتعليلٍ آخرَ سوى إرادةِ اللّهِ التّخفيفَ؛

(1) أَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/603.
(2) أَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/603، والآلوسيّ، روحُ المعاني: 03/15، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 3/92، وابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/21.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/41، والقونويُّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 07/125.
(4) أَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/603.

لخَصوصيَّة الأمّة المحمّديّة كما تقدَّم، فهي تَذْييلٌ مَسوقٌ لِتَقْريرِ ما قَبْلَهُ مِمّا خفّفه اللّهُ على هذهِ الأمّةِ وتعليلٌ له، ومنه الرُّخصةُ في نكاحِ الإماءِ.[1]

ثانيًا: فيها إشارَةٌ وتَعْليلٌ لِمَا سَبَقَ في الآياتِ مِنْ قَبيلِ الائْتلافِ وَتَشابُهِ الأَطْرافِ[2] فَلِضَعْفِ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ أَنْعَمَ اللهُ تعالى عَلَيْها بِإِرادَةِ أَرْبَعَةِ أَشْياءَ، أَوَّلُها: التَّبْيينُ، وهُوَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهمْ صِراطَهُ المُستقيمَ، وثانيها: الهدايةُ بِأَنْ يَهديَهمْ إليهِ بالعِيانِ بعدَ البيانِ، وثالِثُها: التَّوبةُ عليهِمْ، وهي أَنْ يَرجِعَ بهِمْ إلى حَضرتِهِ، ورابِعُهَا: التَّخفيفُ عَنهُمْ وهو إيصالهم إلى حضرته بِالمعونةِ، وتَخفيفِ المؤُونَةِ[3].

ثالثًا: كما أَنَّ هذا التَّذييلَ خرجَ مَخرجَ المثلِ المُستقِلِّ بالفائدةِ والذِّكرِ، فالإنسانُ ضَعيفٌ باعتبارِ أَصلِهِ وما يؤُولُ إليهِ حالُهُ[4].

رابعًا: في هذا التَّذييلِ إظهارٌ لِمَزِيَّةِ هذا الدِّينِ وَأَنَّهُ أَليَقُ الأَديانِ بِالنَّاسِ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وَلِذلكَ فمَا مضى مِنَ الأَديانِ كانَ مُراعًى فيهِ حالٌ دونَ حَالٍ، ومِنْ هذا المَعنَى قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ [الأنفال: 66][5].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرادَةُ والمَشِيئَةُ:

المَشِيئَةُ حُكْمٌ قَدَرِيٌّ في ما أَحَبَّهُ اللهُ، وفيما لا يُحِبُّهُ فَهِيَ تَتَعَلَّقُ بِالْقَضاءِ والقَدَرِ، فَمَشيئَتُهُ سُبْحانَهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ الكَوْنِيِّ، فَمَا شاءَ اللهُ كانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ [البقرة: 253]، وَقَوْلُهُ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم: 27]، أَمَّا الإرادَةُ فَتَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: إرادَةٌ بِمَعْنى المَشيئَةِ فَتَتَعَلَّقُ بِالْقَدَرِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ [الأنعام: 125]، وقَوْلُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة: 1]، وَإرادَةٌ بِمَعْنى المَحَبَّةِ، وتَتَعَلَّقُ بِالشَّرْعِ، كَقَوْلِهِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/685.

(2) وهُوَ ائْتِلافٌ مَعْنويٌّ يُسَمَّى تَشابُهَ الأَطْرافِ ويُطْلَقُ عَلَيْهِ مُراعاةُ النَّظيرِ أَيْضًا: وهُوَ أَنْ يَخْتِمَ الكَلامَ بِمَا يُنَاسِبُ ابْتِداءَهُ في المَعنى، يُنْظَرُ: الإسفراييني، الأَطْوَلُ: 02/382.

(3) البروسوي، روحُ البَيان: 2/193.

(4) أبو حيّانَ، البحر المحيط: 3/607.

(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/22.

تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البَقَرَة: 185] وقَوْلُه ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [النِّساء: 26] فَهَذِهِ بِمَعْنى المَحَبَّة، فَالمَشِيئَةُ قِسْمٌ واحِدٌ وهِيَ مَشِيئَةٌ كَوْنِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ؛ والإِرادَةُ قِسْمانِ: شَرْعِيَّةٌ دينِيَّةٌ بِمَعنى المَحَبَّةِ، وقَدَرِيَّةٌ كَونِيَّةٌ بِمَعْنى المَشِيئَةِ[1]، و"اللّه تعالى صاحب الإرادة والمشيئة المطلقة، وبيده الأمر كلّه، يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، ويفعل عادة ما فيه الخير والمصلحة للعباد"[2]، وقال الرّاغب: "الإرادة قد تكون بحسب القوّة التّسخيريّة، والفكريّة والحسيّة، ولذلك تستعمل في الجماد، نحو: ﴿جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77]، وفي الحيوان، وفي العقلاء، والمشيئة لا تكون إلّا مع اختيار، ولذلك لا يقال إلّا للعالم والمتفكّر"[3].

الهوى والشَّهْوَة:

الْهَوى مُخْتَصٌّ بِالآرَاءِ وَالاعْتِقَادَاتِ، مِثالُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى﴾ [القَصَص: 50] وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المَائِدَة: 77] وأَمَّا الشَّهْوَةُ فَمُخْتَصَّةٌ بِنَيْلِ اللَّذَّةِ، مُبَاحَةً كانَتْ كَقَوْلِهِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ [آلُ عِمرَان: 14]؛ أَوْ مُحَرَّمَةً كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ [الأعرَاف: 81]، وقيلَ إنَّ الهوى هُوَ الشَّهْوَةُ المَذْمومَةُ إذا اسْتَتْبَعَتْها الفِكْرَةُ[4]، فَصَارَت الشَّهْوَةُ مِنْ نَتَائِجِ الْهَوَى وَهِيَ أَخَصُّ، وَالْهَوَى أَصْلٌ هُوَ أَعَمُّ[5]، فآدم عليه السلام لم يكن معصومًا من تدبير نفسه بالخلود في الجنّة، فدخل عليه البلاء، من غلبة الهوى والشّهوة على العلم والعقل، وعلى البيان ونور القلب، وذلك لسابق القدر من اللّه تعالى، حتّى انتهى كما أثر عن الحارث المحاسبيّ فيما ذكره صاحب حلية الأولياء في الإشارة إلى ذلك المعنى، في رواية عطاء السّليمي، قال: (بلغنا أنّ الشّهوة، والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان)[6].

(1) ابْنُ القَيِّم، شِفَاءُ العَليل، ص: 48.
(2) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 2/1491.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/152.
(4) صالِحُ بْن حميد وآخرون، نَضْرَةُ النَّعيم: 9/3753.
(5) الماوَرْديُّ، أَدَبُ الدُّنْيا والدِّين، ص: 33.
(6) التُّستري، تفسير التّستريّ، ص: 29، وكذلك: أبو نعيم، حلية الأولياء: 6/224.

المَيْل والزَّيْغ:

الزَّيْغُ اسْمٌ لِمَيْلٍ مَكْروهٍ، ولا يَكُونُ إِلَّا في المَيْلِ عَنِ الحَقِّ، يُقَالُ: فُلانٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ، ويُقالُ: زاغَ عَنِ الحَقِّ، ولا يُقالُ: زاغَ عَنِ البَاطِلِ؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آلُ عِمْران: 8] وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آلُ عمران: 7]، أَمَّا المَيْلُ: فَهُوَ عَامٌّ في المَحْبوبِ والمَكْروه[1]، فَالمَيْلُ أَعَمُّ مِنَ الزَّيْغ، وذكر القرطبيّ لفظًا جامعًا لهما، وهو العوج، قال: "والعوج: الميل والزّيغ (بكسر العين)، في الدّين والقول والعمل، وما خرج عن طريق الاستواء"[2].

الضَّعف والوَهن والِاسْتِكانَة:

الضَّعْف ضِدُّ القُوَّة؛ والوهن هُوَ أَن يفعل الْإِنْسَانُ فِعْلَ الضَّعِيف، يُقال وَهُوَ في الْأَمر يَهِنُ وَهْنًا واهِنٌ، إِذا أَخذ فِيهِ أَخذ الضَّعِيف، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آلُ عمران: 139] أَي لَا تفعلُوا أَفعَال الضُّعَفَاء وأَنْتم أقوياء على مَا تَطْلُبُونَهُ بتذليل اللّه إِيَّاه لكم[3]، والوَهَنُ أَيْضًا الضَّعْفُ في الْعَمَلِ وَعلى النُّهوض في الْأَمر، وَيكون كَذَلِكَ في العَظْم وَنَحْوِه، يُقالُ وَهَنَ الْعَظْمُ وَالبدن[4]؛ ومثّل القرآن للوهن ببيت العنكبوت، وعلله النّسفيّ بقوله: " لما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله لا حال أحقر منها وأقل، ولذلك تجعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقل من الذّباب وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً، لم يستنكر "[5]، وَأَمَّا الاستكانة فهِيَ إِظْهارُ الضَّعْف والخُضوع عن ذُلٍّ: قَالَ اللّه تَعَالَى ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ [آلُ عمران: 146]، أَي لم يَضْعُفوا بِنُقْصَان الْقُوَّة وَلَا اسْتَكَانُوا بِإِظْهَار الضَّعْفِ عِنْدَ الْمُقاوَمَة[6].

(1) العَسْكَرِيُّ، الفروق اللغوية، ص: 269.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/154، وكذلك ذكره الشّوكانّي، فتح القدير: 1/420.
(3) العَسْكَرِيُّ، الفروق اللغوية، ص: 115، والمُصطفوي، التَّحْقيقُ فِي كَلِماتِ القُرآنِ الكَريم: 13/214.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (وهن)، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 04/118.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/74.
(6) النَّيْسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ: 1/210.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: 29 - 31]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ كَيْفِيَّة التَّصَرُّفِ فِي الأَمْوَالِ المحوزة، بعد ذكر التَّخفيف بجواز نكاح الإماء

بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ اللهُ ﷻ في الآياتِ السَّابِقَةِ أَحكامَ النِّكاحِ وشَرَحَ كَيْفيَّةَ التَّصرُّفِ في النُّفُوسِ بِسَبَبِه ذَكَرَ بَعْدَهُ كَيْفيَّةَ التَّصرُّفِ في الأَمْوَالِ المُوصِلَةِ إلى النِّكاحِ ومِلْكِ اليمين؛ وأَنَّ المُهورَ والأثمانَ المبذولةَ في ذلك لا تكونُ ممَّا مُلِكَت بالباطِلِ[1] فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

كما أَنَّهُ لَمَّا كانَ غالِبُ ما مَضى مِنَ السُّورَةِ في مُعامَلَةِ اليَتامى والأَقارِبِ والنِّساءِ، وسائِرِ النَّاسِ، مِنْ أَحكامٍ في المَواريثِ والنِّكاحِ وما يُفرَض للنِّساءِ وما يَجِبُ مِن إيتائِهِنَّ أُجورَهنَّ، وكان مَدارُ الكَلامِ في تِلْكَ المُعامَلاتِ على المالِ، ذكَرَ بَعْدَ كُلِّ هذا قاعِدَةً عامَّةً للتَّعامُلِ الماليِّ وتشريعًا عامًّا في الأَمْوالِ والأنفُس.

فَهِيَ حَلَقَةٌ في سِلْسِلَةِ التَّربيَةِ، مُصاحِبَةٌ لِسِلْسِلَةِ التَّشْريعِ والأَحْكامِ، والتَّربِيَةُ والتَّشْريعُ في المَنْهَجِ الإِسْلاميِّ مُتَلازِمانِ ومُتَكامِلانِ في الخِطابِ القُرْآنيِّ ويُنْظَرُ فيها دَوْمًا إلى رَبْطِ القَلْبِ باللهِ، وإِشْعارِهِ بِمَصْدَرِ هذا المَنْهَجِ المُتكامِلِ مِنَ التَّشْريعِ والتَّوْجيهِ[2].

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 10/56، وأبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/609.

(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/258، ورضا، تَفْسيرُ المنارِ: 05/33، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 05/23.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾: الأَكْلُ تَناوُلُ المَطْعوم بِالفَمِ وبَلْعُهُ[1]، قال الرّمانيّ والأكل حقيقة بلع الطّعام بعد مضغه، فبلْعُ الحصاة ليس بأكل[2]، و(الأكلة) بالفتح المرّة الواحدة حتّى تشبع، وبالضّم اللّقمة الواحدة، وكلّ (مأكول) أكلٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرّعد: 35][3]، وأَصْلُ الأَكْلِ التَّنَقُّص، ويُطْلَقُ مَجازًا على حِيازَةِ الشَّيءِ والانْتِفاعِ بِهِ[4] والمَعْنى هُنا: صَرْفُهُ إلى ما يُنافيهِ الحَقُّ[5]، ويقال: أكلت النّار الحطب، وائتكلت: اشتدّ التهابها، كأنّما يأكل بعضها بعضا، ومن المجاز: (لعن آكل الرّبا ومؤكله)[6].

2) ﴿عُدۡوَٰنٗا﴾: مِنْ عدا عَلَيْهِ، يَعْدو عَدْوًا وعُدُوًّا وعُدْوانًا، إذا جارَ[7]، وتَجاوَزَ قَدْرَهُ[8]، وأَصْلُ العُدْوانِ يَدُلُّ عَلَى تَجاوُزٍ في الشَّيْءِ[9]، والمَعْنى هُنا: تَجاوُزُ ما أَحَلَّ اللّهُ إِلى ما حَرَّمَ بِمُواقَعَةِ المَحْظورِ وارْتِكابِهِ[10]، وقيل: العدوان أسوأ الاعتداء في قوّة أو فعل أو حال؛ ومنه ما ورد في قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشّعراء: 166]، أي معتدون[11]، وقولهم: عدا على الضُّعفاء: ظلمهم وجار عليهم، افترى عليهم، وتجاوز الحدَّ، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النّحل: 115]، وقال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2][12].

3) ﴿نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾: نُدْخِلُهُ فيها، ونَشْويه بها، ومِنْهُ صَلَيْتُ اللَّحْمَ، أَيْ شَوَيْته، وأَصْلاهُ النَّارَ وصَلاهُ صَلْيًا أَدْخَلَهُ إيّاها وأَثْواهُ فِيهَا، وَأَصْلُ الصَّلَى لإِيقادِ النَّارِ؛ والمَعْنى هُنَا: نُدْخِلُهُ

---

(1) الرّاغِبُ، المُفْرَداتُ: (أكل)، وجبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ: (أكل).
(2) ا الفيّوميّ، المصباح: (أكل).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أكل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أكل).
(5) جبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ: (أكل).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أكل).
(7) ابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ: (دعو).
(8) ابْنُ عَبَّادٍ، المُحيطُ: (عدو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).
(10) جبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ: (عدو).
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عدو).
(12) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عدو).

فيها فيُلاقي حَرَّها وشِدَّتَها[1]، قال أبو زَيْدٍ: يقال: صَلِيَ الرَّجلُ النَّارَ يَصْلاهَا صَلًى وصلاءً، وهُوَ صَالِي النَّارِ، وقوم صالون وصلاء، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ١٦٣﴾ [الصّافات: 163] وقال: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ٧٠﴾ [مريم: 70][2]، ومعنى اللّفظ في السّياق: "فَسَوْفَ نُصْلِيهِ جَوابُ الشَّرْطِ، أَيْ: نُدْخِلُهُ نَارًا عَظِيمَةً"[3]، والله لا يعجزه شيء، فهو قادر على إصلائه.

4) ﴿نُكَفِّرْ﴾: نَغْفِرْ، ونَسْتُرْ ونَمحُ، وَقَدْ كَفَرْتُ الشَّيْءَ أَكْفِرُهُ كَفْرًا، أَيْ سَتَرْتُهُ، وَأَصْلُ الكَفْرِ: السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ[4]؛ والمَعْنى هُنا: نَغْفِرْ لَكُمُ الصَّغائِرَ؛ إنِ اجْتَنَبْتُمُ الكَبائِرَ[5]، ومعنى هذا اللّفظ ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ في السّياق: نغطّي ونستر، فلا نطالب بها، ولا نؤاخذ عليها[6].

المَعْنَى الإجْمَاليّ:

الإرشـــاد إلى حِفْظِ الأَنْفُسِ والأمـــوال، والتَّحذير من الكبائر وطرق أهل الضَّلال

يخاطب السّياق الّذين صَدّقوا الله ورَسُولَهُ وعَملُوا بِشَرْعِه، بأن يتعفّفوا عن أخذ بَعْضِهِمْ مالَ بَعْضٍ بِغَيْرِ حَقّ، إلَّا أَنْ تَكونَ الأَمْوالُ المَأْخوذَةُ تِجارَةً صادِرَةً عَنْ تَراضي المُتَعاقِدينَ، وَطيبِ أنفسهم بما يتبادلونه، فَيَحِلُّ لَهُمْ أَكْلُها والتَّصَرُّفُ فيها، ونهاهم عن قتل بَعْضِهِمْ بَعْضًا، أوقتل أنفسهم، رحمة من الله الرّحيم بهم، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ المنهيّ عَنْهُ، فَسَيُدْخِلُهُ الله نارًا يصطلي بحَرِّها، وَيُقاسي عَذابَها، وهو أهون ما يكون عَلى اللهِ القدير، ثمّ يؤكّد لهم بأنّهم إنْ يبْتَعِدوا عَنْ فِعْلِ الكَبائِرِ، كالشِّرْكِ بِاللهِ، وَقَتْلِ النَّفْسِ، وَأَكْلِ الرِّبا؛ فإنّ الله

(1) الخليل، العين: (وصل) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (صلا)، السَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظِ: (صلي)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (صلي)، والرَّاغِبُ، المُفرداتُ: (صلا).
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 6/205.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/527.
(4) الجَوْهَريُّ، الصِّحاحُ: (كفر)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(5) القُرْطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 06/406.
(6) الجزائريّ: أيسر التّفاسير: 1/468.

سوف يتجاوَز عنهم ما يرْتَكِبونَهُ مِنْ صَغائِر، بِمَغْفِرَتِها ومَحْوِها، ويُدْخِلهُمْ مدخلا رضيًّا لديه، في جنّات النّعيم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَراعَةُ تَصْديرِ الخِطابِ بِالنِّداءِ في قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

إِظْهارُ كَمالِ العِنايَةِ بِمَضْمونِ الخِطابِ وفَحْواهُ

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾.

هَذا المَضْمونُ الذي يحملُ بيانًا واضِحًا في حرمةِ الأَموالِ والأَنْفُسِ؛ إثرَ بَيانِ الحُرُماتِ المُتَعَلِّقَةِ بالنِّساءِ، ولِذا جاءَ الكَلامُ مُسْتَأْنَفًا[2] بالنِّداءِ بِحَرْفِ الياءِ التي هِيَ لِلتَّعْظيم، مَعَ أَداةِ التَّنْبيه (أَيُّها)، لطلبِ إقبالِ المؤمنينَ على أمرٍ ذي شأنٍ.

دلالةُ مجيءِ الاسمِ الموصولِ:

الإيمانُ يقتضي الامتثالَ اللّائقَ للهِ ولرسولِهِ

عبَّرَ بالاسم الموصولِ؛ للتوسُّلِ إلى جملةِ الصِّلةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ المعلومة الانتسابِ إلى المُشارِ إليه، وهمُ المؤمنونَ باللّهِ ورسولِهِ؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ كونَهم مؤمنينَ يقتضي الامتثالَ اللّائقَ بأهلِ هذا الوَصفِ الشَّريفِ؛ لِما يُطلَبُ منهم؛ تلبيَةً لِندائِهِ في اجتنابِ أكلِ الأموالِ بالباطِلِ وقتلِ المؤمنينَ بغيرِ حقٍّ.

مناسبةُ تَقْديمِ النَّهْيِ عَنْ أَكْلِ الأَمْوالِ عَلى النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الأَنْفُسِ في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾:

قدّم النّهي عن أكلِ الأموال على النّهي عن قتل الأنفس مع أنَّ الثانيَ أخطرُ؛ لأنَّ أَكْلَ الأَمْوالِ أَسْهَلُ، والنّاسُ أَشَدُّ اسْتِخْفافًا بِهِ مِنْهُمْ بِقَتْلِ الأَنْفُسِ، ولكثرةِ وقوعِهِ، ولِأَنَّهُ يَقَعُ في مَواقِعِ الضَّعْفِ

---

(1) المحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْن، ص: 105، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 83، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 83.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/23.

التَّحذيرُ مِنْ تَساهُلِ النّاسِ في شَأْنِ الأَمْوالِ لِخَفاءِ خُطورَتِهِ

غالبًا حَيْثُ لَا يَدْفَعُ صَاحِبُهُ عَنْ نَفْسِه، كَالْيَتِيم وَالْمَرْأَةِ وَالزَّوْجَةِ، فَآكِلُ أَمْوَالِ هَؤُلَاءِ في مَأْمَنٍ مِنَ التَّبِعَاتِ بِخِلَافِ قَتْلِ النَّفْسِ، فَإِنَّ تَبِعَاتِهِ لَا يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ، وَإِنْ بَلَغَ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْعِزَّةِ في قَوْمِهِ كُلَّ مَبْلَغٍ، [1] ولأن أكل الأموال بالباطل داعٍ غالبا إلى قتل الأنفس، ومِمَّا يَزِيدُ هذا النَّهْيَ قُوَّةً وتَأْكِيدًا مُراعَاةً ما قُيِّدَ بِهِ الأَكْلُ بِوَصْفِهِ بِالْبَاطِلِ، مَعَ ما فيه مِنَ الاسْتِعلاءِ الذي يَجْعَلُهُ إِلْزامِيًّا.

بلاغةُ المجازِ المرسَلِ في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾:

بَيانُ أَشْهَرِ مَصارِفِ المالِ وأَشْنَعِ صُوَرِ التَّعَدِّي فيه

جاء التّعبير على طريقة المَجازِ المُرْسَلِ[2] بِعَلاقَةِ اللُّزُومِ حَيْثُ عَبَّرَ عَنْ أَخْذِ المالِ والاستيلاء عليه بالأَكْلِ؛ لِأَنَّهُ أَهَمُّ الحَوائِجِ، وَبِهِ يَقَعُ إِتْلَافُ أَكْثَرِ الأَمْوالِ، وهُوَ أَشْهَرُ لَوازِمِه ومَصارِفِه عِنْدَ النَّاسِ[3]، كما عَبَّرَ بالأَكْلِ هُنا لِمَا فيه مِنْ فَناءِ المادَّةِ المَأْكولَةِ وإِخْفائِها عَنِ العُيُونِ نِهائِيًّا، فَجَعَلَ اللّه تعالى المَالَ بمثابة الطَّعامِ يَلْتَهِمُهُ الظَّالِمُ، لِيُبَيِّنَ شِدَّةَ حِرْصِهِ على أَخْذِهِ دُونَ تَرْكِ شَيءٍ مِنْهُ ودُونَ إِرْجاعِهِ إلى أَصْحابِهِ، وَهذا المَجازُ صارَ كالحَقِيقَةِ[4]، في ظُهُورِهِ وشيوعِهِ وكَثْرَتِهِ وشَنَاعَةِ حالِ فاعِلِهِ؛ ونَظِيرُ هَذِهِ الصُّورَةِ في القُرْآنِ الكَريمِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: 188] وقَوْلُهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠﴾ [النِّساءُ: 10].

دَلالَةُ الاِسْتِثْناءِ المُنْقَطِعِ في قَوْلِهِ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمْۚ﴾:

بَيانُ اخْتِلافِ التِّجارَةِ عَنْ غَيْرِها في الحُكْمِ، وإِباحَةِ أَكْلِ المالِ الزّائِدِ فيها

الاستثناءُ هنا مُنْقَطِعٌ، لِأَنَّ التِّجَارَةَ لَيْسَتْ مِنْ أَكْلِ الأَمْوالِ بِالْبَاطِلِ، والمَعْنَى: لَكِنْ كَوْنَ التِّجَارَةِ غَيْرَ مَنْهِيٍّ عَنْها، ومناسبة

(1) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 03/17، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/23.

(2) تَعريفُهُ في تَفْسيرِ الصَّفْحَةِ الأُولى مِنْ هذا الجُزْءِ.

(3) أَبو حَيّان، البحر المحيط: 3/610، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 3/93.

(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/23.

استدراك التجارة دونَ غيرها هي أنّ التِّجارةَ لَمّا كانت أَشَدَّ أَنْوَاعِ أَكْلِ الْأَمْوَالِ شَبهًا بِالْبَاطِلِ، إِذِ التَّبَرُّعَاتُ وَالْمُعَاوَضَاتُ عن طيب نفسٍ، وَأَمَّا التِّجَارَةُ فَلِأَجْلِ مَا فِيهَا مِنْ أَخْذِ الْمُتَصَدِّي للتجارة مَالًا زَائِدًا عَلَى قِيمَةِ مَا بَذَلَهُ لِلْمُشْتَرِي قَدْ تُشْبِهُ أَكْلَ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ فَلِذَلِكَ خُصَّتْ بِالِاسْتِدْرَاكِ[1].

فائدةُ الاستدراكِ في الاستثناءِ المنقطِعِ:

التّجارةُ الشّرعيّةُ محمودةٌ ممدوحةٌ

أشعرَ الاستدراكُ أنَّ التّجارةَ التي تكون عنْ تراضٍ، وفيما بيّنَهُ اللّهُ تعالى محمودةٌ ممدوحَةٌ، وَحِكمةُ إباحةِ أكلِ المالِ الزَّائدِ فيها أَنَّ عليهَا مدارَ رواجِ السِّلَعِ الحاجِيَّةِ والتَحسينيَّة، ولولَا تَصدِّي التُّجَّارِ وَجلبُهُمُ السِّلَعَ لَمَا وجدَ صاحبُ الحاجةِ مَا يَسدُّ حاجتَهُ عِندَ الاحتياجِ[2].

نُكتةُ التّقييدِ بالصّفةِ في قولِه ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾:

جوازُ أكلِ مالِ التّجارةِ الّتي تكونُ عن مسامَحةٍ وطِيبِ نفسٍ

شِبْهُ الجملةِ هنا صفةُ ﴿تِجَٰرَةً﴾، ولمَّا كانَ الموصوفُ نكرةً كانت الصّفةُ قيدًا لهُ، والمعنى جوازُ أكلِ مالِ التّجارةِ بقيدِ التّراضي والتّسامحِ وطِيبِ النّفسِ من المُتعاقِدَين[3].

دلالةُ حرفَي الجرِّ (عَنْ، مِنْ) في قولِه ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾:

يدلُّ ﴿عَن﴾ على معنى المُجاوزة، والمعنى أنْ يتجاوزَ الرِّضا عن التّجارةِ كلّ طَرَف منَ المُتعاقِدَين إلى الآخر، والمرادُ تجارةٌ صادرةٌ عن تراضٍ منكم، أي بينَ المتبايعَين، بِمَا يَدُلُّ عليهِ مِنْ لفظٍ أَو عُرف[4]، ودلَّ الحرفُ (مِن) على أنَّ ابتداءَ التّراضي يصدرُ من كلِّ واحدٍ من الطَّرفين، لِلإشعارِ بأنَّ رضا غيرِ الطّرفينِ لا يُعتَدُّ به، والمعنى يبتدئُ الرّضا مِنَ الطّرفِ الأوّلِ ويتجاوزُهُ إلى الثّاني، ثمَّ يبتدئُ الرِّضا مِنَ الثَّاني ويتجاوزُهُ إلى الأوَّل، فيحصلُ التّبايعُ.

---

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 5/23.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1204، ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/24.
(3) أبو حيّانَ، البحر المحيط: 3/610، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 03/16، والهَرَري، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 6/34.
(4) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/502، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/24.

بلاغة قوله ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم﴾ و﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾

بينَ الحقيقةِ وَالاستعارةِ والمجازِ المرسَلِ:

شُمولُ الخِطابِ لِجِنْسِ المؤْمنينَ بِحِفْظِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الهَلَكاتِ وإِشْعارٌ لَهُمْ بِأَنَّ ذِمَّتَهُمْ واحِدَةٌ

يحتملُ الكلامُ أنْ يكونَ على الحقيقةِ؛ لِيتناولَ اللَّفظُ في ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾ و﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ﴾ النَّهيَ عنْ أَنْ يَأكلَ مالَ نَفْسِهِ بِالْبَاطِلِ، وَهُوَ: إِنفاقُهُ في معاصِي اللهِ تعالى، والنَّهيَ عنْ قتلِ النَّفسِ بِقَصدٍ منهُ لِلقتلِ، أَو بِأَنْ يحملَها على غَرَرٍ أو حسرةٍ، أو يُعَرِّضَها لِمَا يُوجِبُ الحَدَّ بِالقتلِ كالرِّدةِ والزِّنى مع الإحصانِ أو يُعَرِّضَها لِمَا يجلِبُ لَها الهَلَكَةَ، فَهذا كُلُّهُ يتناولُه النَّهيُ[1].

ويحتملُ أَنْ يكونَ مجازًا بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبَعيَّة، إِذْ جعلَ مالَ الغيرِمالَه نفسَهُ، وجعلَ الغيرَ نفسَه؛ لِمناسبةِ الاتّصالِ بالدِّينِ، والقرينةُ مخاطبتُهم بوصفِ الإيمانِ، فإذا أكلَ المؤمنُ مالَ غيرِه المتَّصلِ بالدّينِ بالباطلِ فكأنَّما أكلَ مالَهُ بالباطلِ، وإذا قتلَ المؤمنُ أخاه المتَّصلَ به في الدِّينِ فكأنَّما قتلَ نفسَهُ، ومبنَى الاستعارةِ على الضَّميرِ في ﴿أَمۡوَٰلَكُم﴾، ﴿أَنفُسَكُمۡۚ﴾، والمعنى النَّهيُ عن أكلِ أموالِ النّاسِ بالباطلِ، وأنْ يقتلَ بعضُ النَّاسِ بعضَهم، والغرضُ مِنْ مجيءِ الكلامِ على الاستعارةِ هو التَّنبيهُ على تَكَافُلِ الْأُمَّةِ في حقوقِها وَمصالحِها بإقامةِ الدّليلِ وإظهارِ الحجَّةِ على المدّعَى، كَأَنَّهُ يقولُ: إِنَّ مالَ كُلِّ واحدٍ منكمْ هو مالُ أُمَّتِكُمْ، فَإِذَا استباحَ أَحدُكُم أَنْ يَأكُلَ مالَ الآخَرِ بالباطِلِ أَو قتلَهُ كَانَ كَأَنَّهُ أَبَاحَ لِغيرِهِ أَكلَ مَالِهِ وَهَضمَ حقوقِهِ أو قتلَه وإتلافَ روحِه، ففيهِ من المبالغةِ في الزَّجرِ عَنْ أكلِ الحرامِ والقتلِ بغيرِ حَقٍّ وتَصويرِهِ بِصورةِ ما لا يكادُ يَفعلُهُ عاقِلٌ[2].

ويحتملُ أَنْ يتناولَ اللَّفظُ المعنى الحقيقيَّ المذكورَ أَوّلًا والمعنى المجازيَّ، معًا، وهو أوجهُ الأقوالِ وأظهرُها من حيثُ اللَّفظ؛ لِيشملَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/42، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/71، وأبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/610.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/610، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/170، ورضا، تفسير المنار: 5/33.

اللّفظُ النَّهيَ عنْ أكلِ أموالِ النّاسِ بالباطلِ وعنْ أكلِ مالِهِ بالباطلِ بصرفِهِ في المعاصي والنَّهيَ عنْ قتلِ غيرِهِ وعنِ قتلِ نفسِهِ[1]؛ لِذا احتجَّ عمرُو بنُ العاصِ بهذِهِ الآيةِ حينَ امتنعَ مِنَ الاغتسالِ بالماءِ البارِدِ خوفًا على نفسِهِ منهُ، وَقرَّرَهُ رسولُ اللّهِ ﷺ على احتجاجِهِ[2]. وجاءتْ جملةُ التّذييلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ مؤكِّدةً لِهذا المعنى؛ فإِنَّ تَعْليلَ النَّهيِ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِالرَّحْمَةِ أَوْفَقُ وأَنْسَبُ كما لَا يَخْفى[3].

ويحتملُ أنْ يكونَ مَجازًا مُرسَلًا مِنْ إطلاقِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ على معنى إذا أكلَ مالَ غيرِهِ بالباطلِ ضَمِنَ بالتّعدّي، فيكونُ سببًا لأخذِ مالِهِ لِردِّهِ إلى مَنْ أُكِلَ مالُه، وإذا قَتَلَ غيرَهُ فَكَأَنَّما قَتَلَ نفسَهُ؛ لأنَّه يُقتَصُّ منهُ[4].

دلالةُ الجَمْعِ في الطلبِ بَيْنَ حِفظِ النَّفسِ والمالِ: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾ و﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾:

بَيانُ سَبَبِ قِوامِ الأنْـفُـسِ وأنَّ صلاحَها يَكُونُ بالمالِ

فَالمالُ عديلُ الرُّوحِ مِنْ حَيثُ إِنَّهُ سَبَبُ قِوامِها، وقدْ نُهينا عَنْ إتلافِهِ بالباطلِ، كنهيِنا عنْ إتلافِ النَّفسِ؛ لِكَونِ أَكثرِ إتلافِهِمْ لَها بالمغامراتِ؛ لِنَهبِ الأموالِ، وما كانَ مُتَّصِلًا بها، ورُبَّمَا أَدَّى ذلِكَ إلى الفِتَنِ التي ربَّما كانَ آخِرَها القَتلُ[5].

حسنُ التَّذييلِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾:

أوّلاً: لَمّا كانَ التّعبيرُ بـ ﴿إِنَّ﴾ في هذهِ الجملةِ يصحِّحُ ماقبلَه، ويُحتَجُّ له، ويبيّنُ وجهَ الفائدةِ في النّهيِ دلَّ على أنَّها تفيدُ العِلِّيَّةَ[6]؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/42.، أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/611، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/399، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/687.
(2) ابنُ عَطِيَّة، الُمحَرّرُ الوَجيزُ: 2/42.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/687.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/612.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/686، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/195، والهَرَري، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 6/37.
(6) الجرجاني، دلائل الإعجازص: 323/أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/687.

فبسببِ رحمته بكم نهاكم عن أكل الأموالِ بالباطل وعن قتل النفس، فنهاكم عمّا يضرُّكم عاجلًا وآجلًا؛ لِيكونَ التّعليلُ داعيًا إلى محبَّتِهِ سبحانَه وإلى شُكرِه على ما نهاهمْ عنهُ(1).

تَعْليلُ النَّهيِ السَّابِقِ وبيانُ حِكمتِهِ في الأَمرِ والنَّهيِ وكَمالِ رَحمةِ اللهِ بِهذهِ الأُمَّةِ

ثانيًا: أفادت ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملة لتقريرِ المعنى وتثبيتِه.

ثالثًا: أكّد الكلامَ بـ ﴿إِنَّ﴾؛ لِلإشعارِ بأنّكم قد تظنُّون أنَّ النّهي عن أكلِ المالِ الحرامِ وعن إتلافِ النُّفوسِ ليسَ في مصلحتِكم، وليسَ فيه رحمةٌ بكم، فالظَّنُّ الَّذي قدْ كانَ منكمْ ينبغي أنْ لا يكونَ، فأكّدَ الكلامَ بـ ﴿إِنَّ﴾؛ ليكونَ بمثابةِ الإنكارِ على ما قد يظنّونه(2).

رابعًا: قدّم الجارَّ والمجرورَ ﴿بِكُمْ﴾ على ﴿رَحِيمًا﴾؛ لِلاهتمام ولِلاعتناء بالمؤمنين لا للتّخصيصِ، وإنّما كانَ التّقديمُ للاهتمامِ لِلحثِّ على الامتثالِ للنَّهي.

خامسًا: أفاد أسلوب ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ استمرارَ اتّصاف اللّه تعالى بكونِه رحيمًا ودوامَ رحمتِه بالمؤمنين، وظهورَ آثارِ رحمتِه بهم.

دَلالَةُ اسمِ الإشارَةِ في قولِه: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾:

التَّـهْـويـلُ والتَّخْويفُ مِنْ قَـتْـلِ الأَنْـفُـسِ وأَكْـلِ الأَمـوالِ بِالباطِلِ

قَولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: عبّر بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى القتلِ خاصَّةً؛ لأنّه أجازَ أكلَ أموالِ التِّجارةِ عن تراضٍ، وبقيَ الإجمالُ في النَّهي عن القتلِ، أو إشارةً إلى أكلِ الأموالِ بالباطلِ والقتلِ؛ لأَنَّ النَّهيَ عنهما جاءَ متَّسِقًا مسرودًا، أو إشارةً إلى كلِّ ما حرّمَ اللّه مِنْ نكاحِ المحرَّماتِ، وعَضْلِ المُحرَّمِ وأكلِ المالِ بالباطلِ، وقتلِ المحرَّمِ قتلُهُ منَ المؤمنينَ، فعبّرَ باسمِ الإشارةِ؛ لِلإيجازِ في الكلامِ، ولبيانِ المشارِ إليهِ وتمييزِهِ أكملَ تمييزٍ، ولمّا ذكرَ ما يكونُ إشارةً إلى البعيدِ كانَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/610، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/400.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 327.

إيذانًا ببُعدِ منزلَتِهما في الفسادِ؛ لِبيانِ عِظَم الخَطْبِ، وَأَنَّ فاعِلَهُمَا قدْ أَبعدَ، وبلغَ الغايةَ في الجُرم.(1)

دلالةُ قولِهِ ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ بينَ التَّعليلِ والحاليَّةِ:

يحتملُ أنْ يكونَ انتصابُ ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ على المفعولِ لأجْلِهِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ نيّةَ الاعتداءِ والظُّلم حاضرةٌ وقتَ البدءِ بأكلِ الأموالِ بالباطلِ وبالقتلِ مستمرَّة معهما، ويحتملُ أنْ يكونَ انتصابُهما على الحاليَّةِ، فيكونَ المعنى على اقترانِ العُدوانِ والظُّلم بالفعلِ المذكورِ(2).

سبب تَقْييدِ الفعلِ بالعُدْوانِ والظُّلْم:

إخْـراجُ مـا كـان مِـنَ الأَخْـذِ والقَتْلِ على وَجْهِ حَقٍّ أَوْ سَهْوٍ أَو خَطَأٍ

لَمّا كان العدوانُ والظُّلمُ قيدين لاستحقاق الوعيدِ أفاد الكلام أنَّ ما كان خطأً أو سهوًا أو كانَ بحقٍّ كالقصاصِ وسائر الحدودِ الشّرعيَّة لا يدخل ضمن الوعيد(3).

مناسبةُ الجمعِ بيَن العُدوانِ والظُّلمِ في قولِه ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾:

لَمّا كانَ العطفُ يقتضي المغايرةَ دلَّ على أنَّ العدوانَ غيرُ الظّلم، وليسَ مرادفًا لهُ، فإذا كانَ العدوانُ بمعنى الإفراطِ في التَّجاوزِ عن الحقِّ، والظّلمُ بمعنى الإتيانِ بما لا يستحقُّهُ، فيشملُ العدوانَ وغيرَهُ كانَ الظُّلمُ أعمَّ، فيكونُ مِنْ عطفِ العامِّ على الخاصِّ، فقدَّم العدوانَ الذي هو أخصُّ مِنَ الظُّلم؛ تنبيهًا على أنَّ مَن ارتكبَ صغيرةً، ولم يقمعْ نفسَهُ عنها جرَّتْهُ إلى ما هو أعظمُ منها، فنبَّه أنَّ مِنْ حقِّ الإنسانِ أنْ يحفظَ نفسَهُ عنِ الصَّغيرةِ خشيةَ أنْ يقعَ فيما هو أعظمُ منها.

وإذا كانَ العُدوانُ بمعنى التَّسلُّط بِشدَّةٍ، الذي يكون بِظُلم غالِبًا، وقد يكونُ بحقٍّ، كما قالَ تَعالَى: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: 193]، فيكونُ الظُّلمُ أخصَّ منه، فيكونُ مِنْ عطفِ الخاصِّ على

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/231، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/42.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/613.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/400.

العامِّ، وهو الغالبُ في الكلامِ، فإنَّ حكمَ العامِّ والخاصِّ إذا اجتمعا أنْ يقدَّمَ العامُّ على الخاصِّ، وعلى كلا التّوجيهين يدلُّ العطفُ على التَّأكيدِ، لتضمُّنِ العامّ معنى الخاصِّ.

أو أنْ يكونَ العُدوانُ هو أن يتجاوزَ إلى حقِّ غيرِهِ، والمرادُ مِنَ الظُّلم ظلمُ النَّفسِ بتعريضِها لِلعقابِ، فيكونُ بينهما تغايرٌ تامٌّ، ويكونُ المعنيُّ بالظُّلم غيرَ المعنيِّ بالعُدوانِ، فبيّنَ أنَّ مَنْ جمعَ بينَ الأمرينِ فقدْ ظلمَ نفسَهُ، وظلمَ غيرَهُ، فهو مستوجِبٌ لإصلائِهِ في النَّارِ(1).

مناسبة العطفِ في الشرط في قوله ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾:

لمّا كانَ الشَّرطُ في مقامِ السَّببِ لِوقوعِ الجزاءِ دلَّ عطفُ الظُّلم على العُدوانِ اشتراطَ حصولِهما معًا؛ لِتحقُّقِ الجزاءِ ووقوعِه، فَإِذَا وُجِدَ أَحدُهمَا دونَ الآخرِ لَا يستَحِقُّ هذا الوعيدَ الشَّديدَ(2).

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَسَوۡفَ﴾:

عبّرَ بحرفِ الاستقبالِ ﴿فَسَوۡفَ﴾؛ لإفادةِ تأكيدِ الوعيدِ وتثبيتِه، وأنَّهُ واقعٌ لا محالةَ(3)، وإنْ كانَ بعيدًا في ظنّهم.

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِه ﴿نَارٗاۚ﴾:

أفادَ التَّنكيرُ التَّعظيمَ، والمعنى: فسوفَ نُصليه نارًا عظيمةً شديدةً يستحقُّها على فعلِه الشَّنيعِ.(4)

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾:

وردَ الكلامُ على طريقِ الالتفاتِ، ففيه عدولٌ عنِ الغَيبةِ إلى التَّكلّم في قولِه: ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾ ثمَّ رجوعٌ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، فيكونُ الكلامُ الحسنُ أكثرَ تطريةً لِنَشاطِ السَّامع، ولِيكونَ السّامعُ أكثرَ إصغاءً لِموضعِ الوعيدِ؛ لِمَا في نونِ التّعظيمِ في قولِه ﴿نُصۡلِيهِ﴾ مِنَ الرَّهبةِ والمهابةِ تأكيدًا لِشِدّةِ العذابِ وتعظيمًا له.

---

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1207، البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/71، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/25.

(2) رضا، تفسير المنار: 5/38.

(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/583.

(4) أبو حَيّان، البحر المحيط: 3/613، والسمين، الدر المصون: 3/664، والبروسوي، روحُ البَيانِ: 2/195.

نكتةُ العدولِ إلى الاسمِ الظّاهرِ في قولِه ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾:

ذكرُ الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ الوعيدِ

رجعَ الكلامُ إلى أسلوبِ الغَيبةِ؛ للتّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ الأحسنِ (اللّهِ)، لِما في إظهارِه مِنْ تربيةِ المهابةِ وتأكيدِ الوعيدِ.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ **على قولِه** ﴿يَسِيرًا﴾:

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ الاهتمامَ بِهِ كما أفادَ التَّخصيصَ، وعبّرَ بالاسمِ الجليلِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ إدخالَه النّارَ وإصلاءَه فيها يسيرٌ لا عُسرَ فيهِ على اللّهِ وحدَهُ، بمقتضى ألوهيّته ﷻ.

قَوْلُه تَعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النِّساء: 31].

مناسبةُ التّعبيرِ بـ (إنْ) في قولِه ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾:

بَيَانُ فَضِيلَةِ اجْتِنابِ الكَبائِرِ، والبُعْدِ عَنْها، لِشِدَّةِ دواعيها وخَطَرِ الوُقوعِ فيها

عبَّرَ بأداةِ الشَّرطِ (إنْ)؛ للإشعارِ بالشَّكِّ مِنْ جهةِ المخاطَبينَ في اجتنابِهِمُ الْكبائرَ وندرةِ هذا الاجتنابِ، ولِهذا اقترنَ بها فعلُ المضارعِ ﴿تَجۡتَنِبُواْ﴾ الدالُّ على الاستقبالِ، فدلَّ على أنَّ هذا الاجْتنابَ مَطْلَبٌ عَزيزٌ لا يَكونُ إلا بعد مُجاهدةٍ كبيرةٍ لِلنَّفس وصَبرٍ عظيمٍ على دواعي الوُقوعِ فيها.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَجۡتَنِبُواْ﴾:

الاجتهادُ في الابتعادِ عن الكبائرِ وتركِها جانبًا

عبّرَ بصيغةِ (افْتَعَلَ)؛ للإيذانِ بأنَّ تركَ الكبائرِ فيهِ اجتهادٌ وطلبٌ في البعدِ عنها، كما تتضمَّنُ الصِّيغةُ معنى المبالغةِ في معنى الفعلِ وهو البعدُ الشَّديدُ، فاجتنابُ الكبائرِ على معنى المباعدةِ عنها وتركِها جانبًا، بِأَنْ يكونَ في جانبٍ، والكَبائِرُ في جانبٍ آخرَ، وفي هذا ثناءٌ على مُجتنِبِ الكبائرِ ببيانِ فضيلةِ مجتنِبِها وجزائِهِ بتكفيرِ السِّيّئاتِ، ودُخُولِ الجنَّاتِ، فمعنى ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ﴾ إنْ تَتركوا الكبائرَ نِهائيّاً[1].

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/45، والواحدي، التفسير الوسيط: 2/39.

مُناسَبَةُ الاعْتِراضِ بَيْنَ الأَوامِرِ والتَّوجيهاتِ لِأَهْلِ الإيمانِ في:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

فَإِنَّ هذا الاعْتِراضَ نَاسَبَ ذِكْرُهُ بَعْدَ ذِكْرِ ذَنْبَيْنِ كَبيرَيْنِ: وَهُمَا قَتْلُ النَّفْسِ، وَأَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَقَبْلَ مُواصَلَةِ سِلْسِلَةِ الأوامِرِ والنَّوَاهِي في: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ﴾ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ في التَّفَنُّنِ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَى أُسْلُوب، وَفي انْتِهَازِ الْفُرَصِ في إِلْقَاءِ التَّشْرِيعِ عَقِبَ الْمَوَاعِظِ وَعَكْسِه، فَإِنَّهُ ﷻ لَمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ عَلَى فِعْلِ بَعْضِ الْكَبَائِرِ، ذَكَرَ الْوَعْدَ عَلَى اجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ[1].

التَّفَنُّنُ في ذِكْرِ الوَعْدِ بَعْدَ الوَعيدِ، والتَّنويعُ بَيْنَ الوَعْظِ والتَّشْريعِ:

براعةُ الكلامِ بيَن الحذفِ والذّكرِ في قَوْلِهِ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾:

لَمَّا كانَ مُجرَّدُ الاجتنابِ عَنِ الكبائِرِ لا يوجِبُ دُخولَ الجنَّةِ، بَلْ لا بُدَّ معهُ مِنَ الطَّاعَاتِ، كان التَّقديرُ: إِنْ أَتيتُمْ بجميعِ الواجباتِ، وَاجتنبتُمْ جميعَ الكبائِرِ كَفَّرْنَا عَنْكُم السَّيِّئَاتِ أي الصَّغائرَ، وَأَدخلناكُمُ الجنَّةَ، فالعاملُ لا يَكُونُ مَحْمُودًا بِمُجَرَّدِ اجْتِنابِ النَّواهي حَتّى يجمعَ معهُ امتثالَ الأوامِرِ[2]، فحذفَ المعلومَ من السّياقِ؛ للإشعارِ بأنَّه واضحٌ وبيِّنٌ.

التَّنْبيهُ إلى امْتِثالِ الأَوامِرِ وتَعْظيمُ الأَمْرِ والنَّهْيِ جَميعًا

وقد يقال إنَّ فعلَ الواجباتِ داخلٌ في ضمنِ اجتنابِ الكبائِرِ، فإنَّ تركَ الصَّلاة مثلًا من الكبائرِ، وهو منهيٌّ عنه، فاجتنابُ تركِ الصّلاة هو فعلُها، وتركَ صيامِ رمضانَ من الكبائرِ، وهو منهيٌّ عنه، واجتنابُ تركِ صيامِ رمضانَ هو صومُه، ولهذا عبّر بقولِه ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ولم يقلْ (إنْ تجتنِبُوا فعلَ كبائرِ)، فلا حذفَ في الكلامِ؛ لشمولِ اجتنابِ الكبائرِ فعلَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/613، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/25.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/64.

الواجباتِ أيضًا، فيكونُ الجزاء ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ مرتَّبًا على فعلِ الواجباتِ وتركِ المنهيَّاتِ.

نكتة التّعبير بصيغة المبني للمفعول في قوله ﴿تُنۡهَوۡنَ﴾:

حُذِفَ الفَاعِلُ وهو الاسْمُ الأَحْسَنُ (اللّه) لِلْعِلْم بِهِ؛ ولِبيانِ عَظَمَتِهِ ﷻ، ولِتَفْخيم شَأْنِ غُفْرانِهِ والمدخل الكريم جِيء بِفِعْلِ الجَزاءِ (نُكَفِّر) وما عطف عليه (ندخلكم) مُصَدَّرَين بِنون العَظَمَةِ على طَريقِ الالْتِفات[1].

نكتةُ العطفِ في جزاءِ الشّرطِ في قوله ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾:

لَمَّا كانَ الشّرطُ سببًا للجزاءِ دلَّ على أنَّ اجتنابَ الكبائرِ سببٌ لتكفيرِ السَّيِّئاتِ[2]، ولَمّا كانَ دخولُ الجنَّةِ لا يكونُ حتَّى يكونَ تكفيرُ السَّيِّئاتِ دلَّ على أنَّ تكفيرَ السَّيِّئاتِ سببٌ لِدخولِ الجنَّةِ، وإنّما كانَ الشَّرطُ وهو اجتنابُ الكبائرِ سببًا لدخولِ الجنّةِ من أجلِ كونِهِ سببًا في تكفيرِ السَّيِّئاتِ، أي فلمّا كانَ المعطوفُ لا يقعُ حتَّى يكونَ المعطوفُ عليه وكانَ الشَّرطُ سببًا في الجزاءِ أفادَ أنَّ الشَّرطَ سببٌ في المعطوفِ كذلكَ بوساطةِ كونهِ سببًا في الأوّلِ[3].

مناسبةُ الإضافةِ في قوله ﴿سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾:

الصّغائرُ ملابِسَةٌ للمؤمنينَ، وتكفيرُها باجتنابِ الكبائرِ

أضافَ السَّيِّئَاتِ التي هي الصّغائرُ إلَى ضَميرِ المُخاطَبينَ ولم يُضِفِ الكبائرَ إليه، إيذانًا بلطفِ اللّهِ تعالى بهم، وإشعارًا بأنَّ السَّيّئاتِ ملابسةٌ لهم، فهم غيرُ منفكّينَ عنها على عكسِ الكبائرِ التي يستطيعونَ اجتنابَها.

بلاغةُ مجازِ الإسنادِ في قوله ﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾:

كرمُ المنزل يُفضي إلى كرمِ صاحبِه وإكرامِ ضيفه

بيّنَ اللّه تعالى في هذهِ الجملةِ ما وعدَ بهِ من الثّوابِ العظيم، فأشارَ إلى جميعِ منازلِ الثَّوابِ على اختلافِ مراتبِها، ونبَّهَ أنَّ كلَّ مدخلٍ لا يَخرجُ عنْ كونِهِ كريمًا في نفسه؛ لِيكونَ على مجازِ الإسنادِ للمبالغةِ في الوصفِ، والمعنى مُدخَلًا مُكرّمًا، ويقتضي كرمَ الفضيلةِ ونفيَ العيوبِ، وذهبَ بعضُ المفسّرين إلى أنّهُ على طريقة العرب

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/687، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/18.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/615.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 234.

في الكلامِ، فيقولونَ: أَرضٌ كريمةٌ وأَرضٌ مُكَرَّمَةٌ: أَي طيِّبةٌ جيِّدةُ النَّباتِ، وَفِي التَّنزِيلِ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾ [الشعراء: 57، 58]، فعلى هذا لا مجازَ فيه(1).

القراءاتُ القرآنيَّةُ وتنوّعُ المعنَى:

المبالغةُ في إكرامِ الدَّاخلِ إلى الجنّةِ لِكَرَمِ المُدخِلِ

قَرَأَ نَافِعٌ: ﴿مَّدْخَلًا﴾ بفَتْحِ المِيم، وَرُوِيَتْ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عن عاصم، وقرأ باقي السبعة ﴿مُّدْخَلًا﴾ بالضم وعلى القراءتين يحتمل المكان أو المصدر، فإذا كانَ المرادُ المكانَ وهو مَوْضِعُ الدُّخُولِ، أشعرَ وصفُه بالمبالغةِ في الكرمِ، بسببِ مجيئِه على طريقِ المجازِ كما تقدّمَ، بمعنى المَكَانِ الَّذِي يُكرَمُ بِهِ مَنْ يدخلُه وَيُقيمُ فيه، وإذا كانَ المُرادُ المَصدَرَ وَهُو الإدخالُ، فالمعنى: وَيُدخِلْكُمْ إدخَالًا كَرِيمًا، فوَصفَ الإدخالَ بالكرمِ معَ أنّهُ حدثٌ؛ للإيذانِ بأَنَّ ذَلِكَ الإدخالَ يَكونُ مَقرونًا بالكرمِ، فهوَ إدخالٌ حَسَنٌ مَرضِيٌّ لا عيبَ فيهِ، وعلى كلا التّوجيهين يُشعِرُ الكلامُ بالمبالغةِ في إكرامِ الدَّاخلِ وكرمِ المُدخِلِ(2).

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظُّلم والعُدْوان:

الظُّلمُ مُجاوَزةُ الحُدودِ وتَعَدِّيها بِغَيْرِ حَقٍّ بِالكُلِّيَّةِ، كَأَخْذِ مالٍ بِغَيْرِ اسْتِحْقاقٍ لِشَيْءٍ مِنْهُ، وقتْلِ نَفْسٍ لا يَحِلُّ قَتْلُها، وأَمَّا العُدْوَانُ: فَهُوَ التَّسَلُّطُ بِشِدَّةٍ، وهُوَ أيضًا مُجاوزةٌ فيما أَصْلُهُ مُباحٌ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ لَهُ على أَحَدٍ حَقٌّ مِنْ مالٍ أَوْ دَمٍ أَوْ عِرْضٍ، فَيَسْتَوْفِي أَكْثَرَ مِنْهُ، فَهذا هُوَ العُدْوانُ، فَيَأْخُذُ ما لَهُ أَخْذُهُ وما لَيْسَ لَهُ أَخْذُهُ، ويَكونُ بظُلْمٍ غالِبًا، وَقَدْ يَكُونُ بحَقٍّ، إِنْ كان مِنْ قَبيلِ المُجَازاةِ(3)، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣﴾ [البقرة: 193]، وإضافة إلى ما سلف، فإنّ الفرق

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/1214، ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/44، ورضا، تفسير المنار: 5/47.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 1/305، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/64.
(3) ابنُ رَجَب، شَرْحُ حَديثِ لَبَّيكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ، ص: 103، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/25.

بين لفظي الظّلم والعُدوانِ يرتكز على أنَّ الظُّلمَ: ما كانَ تصرّفًا بغيرِ حقٍّ بالكليَّة، كأخذ مالٍ بغير استحقاقٍ لشيءٍ منه، سوى الظّلم والجور، وقتلِ نفس لا يحلُّ قتلُها، اعتداء على حدود اللّه، في حرمة السّطو على الأرواح، وأمَّا العُدوانُ: فيذكرون بأنّه مُجاوزةُ الحدودِ وتعدّيها، فيما أصلُه مباح، مثل أن يكونَ له على أحدٍ حقّ من مالٍ أو دم أو عرضٍ، فيستوفي أكثرَ من ذلك الحقّ المستحقّ، فهذا هوالعُدوانُ، وهو تجاوزُ ما يجوزُ أخذُه، فيأخذُ ما لَهُ أخْذُهُ وما ليس له أخْذُهُ[1].

الإِثْم والعُدْوان:

الإِثْمُ: الجُرْمُ كائِنًا ما كانَ، والْعُدْوانُ: هُوَ مُجَاوزَةٌ فيما أَصْلُهُ مُباحٌ[2]، فَالإِثْمُ أَعَمُّ مِنَ العُدْوانِ[3]، قال تَعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: 62]، وقد أمر اللّه المؤمنين بالتّعاون الإيجابيّ على البرّ والتّقوى، على أنّ البرّ هو اسمٌ لكلّ خير، والتّقوى: هي تركٌ لكلّ شرّ، ونهاهم عن التّعاون السّلبيّ على الإثم الّذي تقترفه الجوارح، والعدوان الّذي يطال النّاس من المعتدي، وقد جمعهما اللّه في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2][4]، قال القتبي: العدوان على وجهين: عدوان في السّبيل، كقوله: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: 193]، وكقوله: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ [القصص: 28]، والثّاني عدوان في الظّلم، كقوله: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المجادلة: 9][5]، والمعنى المستفاد من هذه الآية، يفضي إلى الفرق بين الإِثْمِ والعُدْوانِ، قال عطاء: يريد: معاصي اللّه، والتّعدّي في حدوده[6]، وقيل: الْإِثْم: الْكفْر، والعدوان: الْبِدْعَة، وَقيل: الْإِثم الْكفْر، والعدوان: الظُّلم[7]، وقيل الإثم ترك المأمور، والعدوان فعل المحظور، ويجوز أن يراد العموم لكلّ إثم وعدوان[8].

---

(1) ابن رجب، روائع التّفسير: 1/323.
(2) أبو حَيّان، البحر المحيط: 1/469.
(3) الرَّاغِبُ، المُفردات: (إثم).
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 3/443.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/367.
(6) الواحديّ، الوسيط: 2/150.
(7) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/8.
(8) النسفي، مدارك التّنزيل: 1/425.

الِاجْتِناب والتَّرْك:

اجْتِنابُ الشَّيْءِ وتَجَنُّبُهُ البُعْدُ عَنْهُ[1]، ويَكُونُ بِإرادَةٍ واخْتِيارٍ مِنَ الإنْسانِ، وبِدافِعٍ مِنْهُ، بَيْنَما التَّرْكُ قَدْ يَكُونُ لِدافِعٍ داخِلِيٍّ، أَوْ خارِجِيٍّ كَمَنْ يَتْرُكُ الشَّيْءَ لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْهُ، فَالاجْتِنابُ أَبْلَغُ مِنَ التَّرْكِ في بَابِ النَّهْيِ عَنِ الشَّيْءِ[2]، لِهَذا وَرَدَ الاجْتِنابُ عِنْدَ ذِكْرِ الكَبائِرِ ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحَجّ: 30]، والتّعبير بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: 90] أبلغ دلالة في النّهي والتّحريم من لفظ (حرَّم) ذاته، لأنّ معناه البعد عنه بالكليّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: 32]، لأنّ القرب منه محرّم، فيكون الفعل مُحرّمًا من باب أولى، وقد جاء التّعبير بلفظ الاجتناب، لتأكيد بشاعة الفعل وخطورته، ومثاله قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحجّ: 30]، باعتبار الإشراك بالله، أعظم الجرائم خطرا، وأكبر الموبقات ضررًا[3].

الفَرْقُ بَيْنَ عبارتي (مَغْفِرَةِ الذُّنوب) و(تَكْفِير السَّيِّئَات):

لَفْظُ المَغْفِرَةِ يَتَضَمَّنُ الوِقايَةَ والحِفْظَ، ولَفْظُ التَّكْفيرِ يَتَضَمَّنُ السَّتْرَ والإزالَةَ، وعِنْدَ اقْتِرانِ الذُّنوبِ والسَّيِّئَاتِ يَنْصَرِفُ مَعْنَى الذُّنُوبِ إلى الكَبائِرِ، ومَعْنَى السَّيِّئاتِ إلى الصَّغائِرِ، وعَلَيْهِ تَكُونُ المَغْفِرَةُ لِلذُّنوبِ، والتَّكْفيرُ لِلسَّيِّئَاتِ[4]، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عِمران: 193] فَالمَغْفِرَةُ أَكْمَلُ مِنْ لَفْظِ التَّكْفيرِ ولِهذا كانَ مَعَ الكَبائِرِ، والتَّكْفيرُ مَعَ الصَّغائِرِ؛ وعِنْدَ الانْفرادِ يَدْخُلُ كُلٌّ مِنْهُما في مَعْنَى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزُّمَرَ: 53]، مع ملاحظة أنّ السّياق القرآنيّ، يذكر تكفير السّيئات، إذا اجتنب المذكور الكبائر، ونأى عن العظائم والجرائر، ولا يذكر الحكم إذا لم يجتنبها؛ فليس فيه أنّه إذا لم يجتنب لا يكفر، فهو في مشيئة الله: إن شاء [غفر]، وإن شاء عذّب؛ على ما ذكرنا: وأنّ وجوب الحكم، لا يوجب إيجاب ذلك الحكم، في حال أخرى، حظرًا كان أو إحلالا[5].

---

(1) ابن سيده، المحكم: (جنب).

(2) الرَّاغِبُ، المُفرداتُ: (جنب).

(3) مضمون فتوى بعنوان: (الاجتناب آكد في التّحريم من مجرّد لفظ حرّم)، موقع إسلام ويب، فتوى: 20849 (الشّابكة)، منشورة بتاريخ: 8 جمادى الآخر 1423 هـ - 16 - 8 - 2002 م.

(4) ابْنُ القَيِّم، مَدارِجُ السَّالِكِين: 1/317.

(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 1/317.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢﴾ [النِّساء: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

النَّهي عن تمنِّي حيازة أموال الآخرين، لأنَّه سبب في أكلها بالباطل المهين

لَمَّا نَهى اللّه ﷻ عَنِ القَتْلِ، وعَنِ الأَكْلِ بِالباطِلِ بِالْفِعْلِ، نَهَى عَنِ التَّمَنِّي الذي هُوَ مُقَدِّمَةُ الأَكْلِ، لِيَكونَ نَهْيًا عَنِ الأَكْلِ بِطَريقِ الأَوْلى، وَكانَتِ المُبادَرَةُ إِلَى النَّهْيِ عَنِ المُسَبِّبِ آكَدَ لِفَظاعَتِهِ ومَشَقَّتِه، فَبَدَأَ بِهِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِالنَّهْيِ عَنِ السَّبَبِ حَسْمًا لِمَادَّةِ المُسَبِّبِ، وَلِيُوَافِقَ العَمَلُ القَلْبِيُّ العَمَلَ الخَارِجِيَّ، فَيَسْتَوِي البَاطِنُ وَالظَّاهِرُ في الامْتِناعِ عَنِ الأَفْعالِ القَبيحَةِ(1)، فكانَ النّهيُ عَنْ تَمَنِّي ما فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَ النَّاسِ على بَعْضٍ، مِنَ الجاهِ والمالِ؛ لِأَنَّ ذلكَ التَّفْضيلَ قِسْمَةٌ مِنَ اللّهِ، صَادِرَةٌ عَنْ حِكْمَةٍ، وتَدْبيرٍ، وعِلْمٍ بِأَحْوالِ العبادِ(2)، مع اليقين بأنّ الدّنيا دار اختبار، وأنّ متاعها إلى فناء واندثار، وأنّ التّنافس والتّكاثر، يؤدّي إلى الغرور والتّفاخر، والأولى بالمؤمن الحصيف، أن يترك الدّنيا بزخرفها المبهج، وصراعها المزعج، وأن يلجم نفسه عن الأماني الطّامحة، والأطماع الطّافحة، ليعيش في هناء وسعادة وأمان، وأن يسأل اللّه من الأفضال، لأنّه العليم بالواقع والمآل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ﴾: من الأماني: "جمع أمنية، يقال تمنّى الشّيء، إذا أحبّ أن يكون له، وإن لم يتّخذ له أسبابه، والتّمنّي: تقدير شيء في النّفس وتصويره فيها، سواء أكان عن تخمين وظنّ، أم كان عن

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/616.
(2) الزّمخشري، الكَشّاف: 2/64.

رؤية وبناء على أصل، ولكنّه يغلب فيما يبنى على الحدس والتّخمين، وما لا حقيقة له"[1]، وفي لفظ الأماني وجهان: العرب تقول هذه أمَانٍ وأمَانيٌّ، بالتّشديد والتّخفيف، فمن قال أمانيَّ بالتّشديد، فهو مثل أحْدُوثة وأحاديث، ومن قال أمانٍ بالتّخفيف، فهو ممّا اجتمعت فيه الياءان أكثر لثقل الياء[2]، والأمانيّ جمع أمنية، وهو ما يأمل المرء تحقيقه خيرا كان أو شرّا، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: 123]، قال طرفة بن العبد:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ، فَإِنْ أَمُتْ *** فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ[3]

2) ﴿ٱكْتَسَبُواْۖ﴾: من كَسَبَ: والكسب، وهو طلب الرّزق، وفي لسان العرب: "قال ابن جنيّ: قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: 286]، عبر عن الحسنة بكسبت، وعن السّيئة باكتسبت؛ لأنّ معنى كسب دون معنى اكتسب، لما فيه من الزّيادة، وذلك لأنّ كسب الحسنة، بالإضافة إلى اكتساب السّيئة، أمر يسير ومستصغر، وذلك لقوله ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: 160][4]، قال الشّاعر:

يُعَاتِبُنِي فِي الدَّيْنِ قَوْمِي وَإِنَّمَا *** دُيُونِي فِي أَشْيَاءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدَا[5]

والكسب: العمل، وهو ما يحصله المرء بسعيه، يقول الشّاعر:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ حُرٌّ يُعِينُنِي *** وَلَمْ يَكُ لِي كَسْبٌ فَمِنْ أَيْنَ أُرْزَقُ؟[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نَهيُ المؤمن عن حسد أولي النّعم، وإرشادُه إلى سُؤال الله ذي العطاء والكرم

الآية خطاب للمؤمنين، كيلا يتمَنَّوا ما فَضَّلَ اللّه بِهِ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ؛ فَلا يَتَطَلَّعُ الرِّجَالُ إلى مَا حلّى اللّه بِهِ النِّساءَ، ولا النِّساءُ إِلى ما حَبَا اللّه بِهِ الرِّجالَ، لِئَلَّا يُؤَدّي ذلك إلى السُّخْطِ والحَسَدِ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 5/156.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/159.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 10/219.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/139.
(6) الثّعالبيّ، التّمثيل والمحاضرة، ص: 124.

والشّنآن، ذلك أنّ اللّه قد خصّ كلّ فَريقٍ بنصيب مكتوب، ورزق محسوب، وثواب مضمون، وعطاء مأمون، وطلب منهم أن يسألوا اللّه مِن فَضْلِه الواسع الرّحيب؛ فهو العليم المجيب(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ التَّعبيرِ في قولِه ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ﴾:

المـظـنـونُ في التمَنّي أنَّه بعيدٌ ولا يَقَعُ

عُبِّر بالنَّهي عن تمنّي ما فضَّلَ اللّهُ به بعضَكم على بعضٍ؛ لِمَا في معنى التَّمنّي من تشهّي حصولِ الشَّيءِ ومحبَّتِهِ والرّغبةِ فيه، وفي التّعبيرِ بالتّمنّي إشعارٌ ببُعدِ تحصيلِه والمظنونُ أنَّهُ لا يكونُ(2).

مناسبةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾:

ما تفضّلَ اللهُ بـه مِـنْ شأنِ الألـوهـيَّـةِ فلا يَليقُ تمنّيه

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾؛ ليُفيدَ النّهيَ عنْ عموم ما تفضَّلَ اللّهُ بهِ صغيرًا أو كبيرًا ممّا يجري فيه التّنافسُ، وللتّوسّل إلى جملةِ الصِّلةِ؛ لبيانِ وجهِ النَّهيِ عنِ التّمنّي؛ للإشعارِ بأنَّ ما تفضَّلَ اللّهُ بهِ هو مِنْ شأنِ الألوهيَّةِ، فاللّهُ تعالى هو الذي وضعَ لكلٍّ نصيبَه عن تدبيرٍ لائِقٍ بأحوالِ العبادِ مترتِّبٍ على الإحاطةِ بجلائِلِ شؤونِهمْ ودقائقِها.

براعةُ الإيجازِ في قولِه ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾:

فيه إِيجَازٌ عجيبٌ، فهوَ يَشملُ مَا فضَّلَ اللّهُ بِهِ بعضَ الرِّجالِ عَلَى بعضٍ، وَمَا فضَّلَ بعضَ النِّسَاءِ عَلَى بعضٍ وَما فضَّلَ بِهِ جنسَ الرِّجَالِ عَلَى النِّساءِ، وَمَا فضَّلَ بِهِ جنسَ النِّساءِ عَلَى الرِّجالِ، مِنْ حيثُ إنَّ الْخُصُوصِيَّةَ فضلٌ، أَيْ: زيادَةٌ في صاحبِهَا على غيرِه، وَمَا فضَّلَ بِهِ بعضَ الرِّجَالِ على بعضِ النِّسَاءِ، وَما فضَّلَ بِهِ بعضَ النِّساءِ على

(1) المحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْن ص: 106، ولَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، الْمُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 113، ونخبة من أساتذة التفسير، التّفسير الميسّر، ص: 83، وجماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، الْمُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 83، (باختصار وتصرّف).

(2) البروسوي، روح البيان: 2/198.

بعضِ الرِّجالِ، فلا إيجازَ أبدعُ مِنْ هذا في وصفِ أنواعِ التَّفاضُلِ بينَ الرّجالِ والنّساءِ[1].

فائدةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ في: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ و﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾:

لـكـلِّ فـريـقٍ مـن الـرّجـال والنِّساءِ نصيبُه مـن الاجـتـهـاد والـعـمـل في ما خصَّه الله به

قدّمَ المُسندَ ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ عَلى المُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿نَصِيبٌ﴾؛ لإفادةِ تخصيصِ نصيبِهِمْ بهِمْ، على سبيلِ الإثباتِ والاستحقاقِ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ سببَ التَّخصيصِ هوَ وصفُ الرّجولةِ، ومثلُه تقديمُ ﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾على ﴿نَصِيبٌ﴾، فسببُ تخصيصِ نصيبِهنَّ بهنَّ هو كونُهنَّ نساءً، فلكلِّ فريقٍ نصيبٌ مُختَصٌّ به، فَما كانَ خاصًّا بالرِّجالِ لَهُمْ نَصيبٌ مِنْ عملِه والاجتهادِ فيه لا يُشارِكُهُمْ فيه النِّسَاءُ، وما كانَ خاصًّا بالنِّساءِ لَهُنَّ نَصيبٌ مِنْ عملِه والاجتهادِ فيه لا يُشارِكُهُنَّ فيهِ الرِّجالُ، وذِكرُ الرِّجالِ والنّساءِ هنا هو بقصدِ تعميمِ النّاسِ كما هو ظاهرُ اللَّفظِ، فَفَصَّلَ لما يترتّبُ على ذكرِ النّوعِ من بيانِ سببِ التّخصيصِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ في قولِهِ ﴿ٱكۡتَسَبُواْۖ﴾، ﴿ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾:

تقريرُ اختصاصِ كـلِّ فـريـقٍ من الرّجالِ والنِّساءِ بنصيبِه بحيثُ لايـتـخـطّاه إلى غيرِهِ

عُبّرَ عنِ النَّصيبِ المعيَّنِ المقدارِ في الإرثِ بالاكتسابِ، على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، إذْ شبَّهَ اقتضاءَ حالِ كلِّ فريقٍ لِنصيبِهِ باكتسابِهِ إيَّاهُ، على طريقةِ الاجتهادِ والطَّلَبِ، بما تُفيدُهُ صيغةُ (الافتعالِ)؛ تأكيداً لاستحقاقِ كلٍّ منهما لنصيبِهِ وتقريرًا لهُ، فما يجتهدُ فيه الرِّجالُ ويطلبونَهُ مختصٌّ بهمْ وما يجتهدُ فيه النِّساءُ ويطلبونَهُ مختصٌّ بهنَّ، كما أفادتِ الاستعارةُ تقويةَ اختصاصِ كلِّ فريقٍ بنصيبِه بحيثُ لا يتخطَّاهُ إلى غيرِه، فإنَّ ذلكَ مما يوجبُه الانتهاءُ عنِ التَّمنِّي المذكورِ[3].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 5/49.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/31.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العقْل السّليم: 2/172.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ ﴿ٱكۡتَسَبُواْۖ﴾، ﴿ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾:

توجيهُ الأنظارِ إلى العملِ والكسبِ لا إلى التَّمنّي والكسلِ

لَمَّا كانَ الاكتسابُ بمعنى الاجتهادِ في العملِ وطلبِه ممّا هو مقدورٌ عليه، فيَدْخُلُ في النَّهْيِ تَمَنِّي كُلِّ مَا هو منَ الأُمورِ الخِلقيَّةِ كَالجمالِ والعَقلِ إذْ لا فَائدةَ في تمنِّيها لِمَنْ لَمْ يُعطَهَا، والمعنى وجِّهوا أَنظارَكُمْ إلى مَا يقعُ تَحتَ كسبِكُمْ ولا تُوجِّهُوهَا إلى ما ليسَ في استِطَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّمَا يُنَالُ الفضلُ بالأَعمالِ الكَسبيَّةِ والكلفةِ فيها فلا تَتمَنَّوْا شيئًا بِغَيرِ كسبِكُمْ وعملِكُم ممّا تُثيرُهُ البِطَالَةُ مِنْ أَمَانيِّ النَّفسِ، ففي الكلامِ إرشادٌ إلى المُبَالَغَةِ والتَّكَلُّفِ في طلبِ الزِّيادةِ مِنَ المالِ والجاهِ وكُلِّ ما يتفاضَلُ فيهِ النَّاسُ بِأَعمالِهِمْ بشرطِ التزامِ الحقِّ[1].

بديعُ المقابَلَةِ في قولِهِ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾:

تأكيدُ اختصاصِ كلِّ فريقٍ بنصيبِهِ

قابلَ بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ في النَّصيبِ، فَصَرَّحَ بذكرِ نصيبِ النّساءِ؛ لإفادةِ تأكيدِ الأمرِ وتقريرِه للفريقينِ، إذْ دلَّ تخصيصُ نصيبِ الرِّجالِ على أنَّ للنِّساءِ نصيبًا مختصًّا بهنَّ لمقابلتهنَّ بهم، ودلَّ تخصيصُ نصيبِ النِّساءِ على أنَّ للرِّجالِ نصيبًا مختصًّا بهمْ لمقابلتهم بهنَّ، فالكلامُ على تقديرِ التّكريرِ لكلِّ جملةٍ.

دلالةُ (مِنْ) بين التَّبعيضِ والابتداءِ:

بعضُ أنواعِ الاكتسابِ يشتركُ فيه الرِّجالُ والنّساءُ

تحتملُ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ أنْ تكونَ لِلتَّبعيضِ، بمعنى ليسَ كلُّ ما يكتسِبُهُ الرِّجالُ أو النِّساءُ ممَّا يختصُّ به بعضُهم على بعضٍ، للإشعارِ بأنَّ بعضَ الاكتسابِ ممَّا يشتركُ فيهِ الرِّجالُ والنِّساءُ، وتحتملُ أنْ تكونَ ابتدائيَّةً، والمعنى استحقَّ الرِّجالُ نصيبَهم مِنْ

(1) رضا، تفسير المنار: 5/49 - 50.

عملِهم، واستَحقَّ النِّساءُ نصيبَهم مِنْ عملِهم، فَلَا فائِدَةَ في تَمَنِّي فريقٍ أَنْ يعملَ عملَ فريقٍ آخَرَ[1]

أثرُ الفَصْلِ بَيْنَ المُتعاطِفَيْنِ بقَوْلِهِ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾:

تَعْليلُ النَّهْيِ السَّابقِ وقَطْعُ عُذْرِ المُتَمَنِّينَ

هَذِهِ الجُمْلَةُ اعتراضيَّةٌ تفيدُ تأكيدَ طلبِ الانتهاءِ على ما تفيدُهُ الجملُ الاعتراضيَّةُ[2]، وتفيدُ كذلكَ تعليلًا لِطلبِ الانتهاءِ، وتتضمَّنُ ترغيبًا في الامتثالِ للأمرِ في قولِه ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، كأنَّه قيلَ: لاتتمنَّوا ما يَختصُّ بغيرِكمْ مِنْ نصيبِهِ المكتَسبِ لهُ، واسألوا اللّه تعالى مِنْ خزائنِ نعَمِهِ الَّتي لا نفادَ لها، فالجملةُ مَسوقَةٌ مَساقَ التَّعْليلِ لِلنَّهيِ عنِ التَّمَنِّي قَطعًا لِعُذرِ المتمَنِّينَ، وتأنيسًا بالنَّهيِ[3].

نكتةُ حذفِ المفعولِ في قولِه ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾:

سَلُوا اللهَ ما تريدونَ فإنَّ اللهَ يُعطيكُمُوه

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَسۡـَٔلُواْ﴾؛ لإفادةِ عمومِ المسألةِ، أيْ واسألوهُ ما تريدونَ، فإنَّه تعالى يُعطيكُموه[4]

مناسبةُ العطفِ في قولِه ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾:

اطلبُوا الفضلَ مِنَ اللهِ تعالى بالعملِ لا بالحسدِ والتَّمنِّي

عطفَ طلبَ الأمرِ في قولِه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ على طلبِ النَّهيِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ﴾؛ لِمشاركةِ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ في الطَّلبِ والجهةِ الجامعةِ، والمعنى: لَا تَتَمَنَّوا ما في يدِ الغيرِ ممَّا يَختصُّ بغيرِكم مِنْ نصيبِهِ المكتَسَبِ له، وَاسأَلُوا اللّه مِنْ فضلِه، فَإِنَّ فضلَ اللّه يَسعُ الإنعامَ على الكُلِّ[5]، فَنهاهُمْ عنِ الخطَأِ وأَمرَهمْ بالصَّوابِ، وأَجازَ ابنُ عاشورٍ أنْ يكونَ عطفًا على قولِه ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ﴾[6].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/32.
(2) التّفتازاني، المطول، 500.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/172، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/31.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/172.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/689، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/32.
(6) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/32.

حسنُ التّذييلِ في قولِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾:

براعةُ التّذييلِ في عمومِ المَعنى وتنوّعِه

في جملةِ التَّذييلِ فوائدُ لغويَّةٌ وبلاغيَّةٌ، هي:

أوّلاً: أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ علم اللّه بكلِّ شيءٍ ودوامه.

ثانيًا: كما أفادت ﴿إِنَّ﴾ تعليل جميع ما تقدّمها في الآية، لتدلَّ على تعليلِ النّهي عنِ التّمنّي المذكورِ، وتعليلِ تخصيصِ كلٍّ من الرِّجالِ والنِّساءِ بما قدّرَ اللّه لهمْ، وتعليلِ طلب سؤالِ اللّهِ مِنْ فضلِه.

ثالثًا: لَمَّا كانَ التّمنِّي مُتَعَلِّقًا بعملِ النَّفسِ لا يُراقبُهُ فيهِ إلّا اللّه تعالى ناسبَ تذييلَ الآيةِ بإحاطةِ علم اللّهِ بكلِّ الأشياءِ(1).

رابعًا: ناسبتْ جملةُ التّذييلِ ما تقدّمَها؛ للإشعارِ بأنَّ الإنسانَ يجهلُ ما يحتاجُهُ، واللّهُ تعالى هو العليمُ بهِ، وبمنافعِه وحاجاته.

خامسًا: دلَّ تعبير ﴿كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ على استمرارِ علم اللّهِ بكلِّ شيءٍ ودوامِه، وظهورِ آثارِ علمه تعالى في المؤمنينَ.

سادسًا: أفادَ تقديمُ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على ﴿عَلِيمٗا﴾ الاهتمامَ بعلمِ اللّهِ بعمومِ الأشياءِ، وتخصيصَ العلم بها باللّهِ تعالى، فلا يعلمُ كلَّ شيءٍ إلّا اللّه تعالى

سابعًا: لَمّا كانتْ الجملةُ على معنى العمومِ والكلّيّةِ كانت بمثابةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّمَنِّي والتَّرَجِّي:

التَّمَنِّي هُوَ الرَّغْبَةُ في حُصولِ الشَّيْءِ المُسْتَحيلِ، كَقَوْلِ الكافِرِ عِنْدَ مُعايَنَةِ العَذابِ ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفَجْر: 24]، أَوْ ما في حُكْمِ المُسْتَحيلِ مِمَّا يُمْكِنُ وُقوعُهُ، مِثْلَ قَوْلِ الّذينَ يُريدُونَ الحياةَ الدُّنْيا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القَصَص: 79] وَيُعَبَّرُ عَلَيْهِ غالِبًا بالأَداةِ لَيْتَ، وأَمّا التَّرَجِّي فَهُوَ رَغْبَةٌ في حُصولِ أَمْرٍ مُمْكِنِ الحُدوثِ كَقَوْلِ مُوسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص: 22]؛ وَتُسْتَخْدَمُ فيهِ الأَداةُ

---

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/32.

(لَعَلَّ) غالبا، فَكُلٌّ مِنْهُما يَشْتَمِلُ على مَعْنى الطَّلَبِ إِلَّا أَنَّ التَّمَنِّي يَكُونُ في المُسْتَحيلِ والمُمْكِنِ القريب مِنْهُ والرَّجاءُ يَخْتَصُّ بِالمُمْكِنِ[1]، وقد فَرَّقَ النّاسُ بين التّمني والتّرجّي: بأنَّ الترجِّيَ لا يكونُ إلاّ في الممكنِ، عكسَ التّمنّي، فإنّه يكونُ فيه، وفي المستحيلِ كقولِه:

لَيْتَ الشَّبَابَ هُوَ الرَّجِيعِ عَلَى الْفَتَى *** وَالشَّيْب كَانَ هُوَ البَدِيء الْأَوَّلُ[2]

وفي الإتقان قال في عروس الأفراح: "والأحسن ما ذكره الإمام وأتباعه من أنّ التّمنّي والتّرجّي والنّداء والقسم، ليس فيها طلب، بل هو تنبيه، ولا نزاع في تسميته إنشاء"[3].

الكَسْب والاِكْتِساب:

الكَسْبُ الْفِعْلُ العَائِدُ على فَاعِلِه بِنَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ، ويَشْتَمِلُ على ما هُوَ خَيْرٌ كَقَوْلِهِ: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: 158]، وفي ما هُوَ شَرٌّ كَقَوْلِهِ: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البقرة: 81] ويَكُونُ لِنَفْسِهِ ولِغَيْرِه، والاِكْتِسابُ المُبالَغَةُ والاِعْتِمالُ في الكَسْبِ، ويَكونُ لِنَفْسِه خاصَّةً؛ فَفي الاِكْتِسابِ مَزِيدُ أَعْمالٍ، وتَصَرُّفٍ؛ أَمَّا إذا جاءَ الكَسْبُ مُجْتَمِعًا مَعَ الاِكْتِسابِ، فَإِنَّ الكَسْبَ هُنا لا يَعْني إِلَّا ما هُوَ خَيْرٌ، والاِكْتِسابُ يَعْني ما هُوَ شَرٌّ؛ قال تَعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286] وعِنْدَ الاِفْتِراقِ يَحْتَمِلُ الاِكْتِسابُ المَعْنَيَيْنِ، كما هُوَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾، أَيْ لِلرِّجالِ نَصيبٌ مِنْ ثَوابِ اللهِ وَعِقابِهِ مِمَّا اكْتَسَبُوا، فَعَمِلوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ مِنْ ذَلِكَ[4]، قيل: إنّ الكسب والاكتساب واحد في اللّغة، وقيل: إنّ الاكتساب أخصّ، واختلفوا في توجيهه، واختار الأستاذ الإمام محمّد عبده، ما قاله الزّمخشريّ، وقال: إنّه الصّواب، وهو أنّ الفرق بينهما، كالفرق بين عمل واعتمل، فكلّ من اكتسب واعتمل يفيد الاختراع والتّكلّف، فالآية تدلّ على أنّ فطرة الإنسان مجبولة على الخير، وأنّه يتعوّد الشّرّ بالتّكلّف والتّأسّي، والمعنى: أنّ لها ثواب ما كسبت من الخير، وعليها عقاب ما اكتسبت من الشّرّ، وفي هذا المضمار أفاض صاحب المنار، لتبيان الخلاف، وهو مبسوط من قبل في آخر سورة البقرة[5].

---

(1) العَسْكَرِيُّ، الفروق اللغوية، ص: 74.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 9/483.
(3) التّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: (التّمنّي)، والسّيوطيّ، الإتقان: 3/279.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/669.
(5) رضا، تفسير المنار: 3/121.

﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٣٣﴾ [النساء: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حـــقـــوق المستحقّين من الورثة في المالِ، بعد ذكرهم على سبيل الإجمال

لَمَّا أَنْهى اللهُ ﷻ حُكْمَ أَكْلِ أَمْوالِ النَّاسِ بِالبَاطِلِ، ونَهى عَنْ تَمَنِّي ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَ النَّاسِ عَلى بَعْضٍ، مِنْ تَمَنِّي النِّساءِ ما لِلرِّجالِ، والرِّجال ما للنّساء، عَطَفَ عَلَيْها مذكّرا بأنّه جعل لكلّ ميّت ورثة يرثون ممّا ترك الوَلِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ، بِاعْتِبارِها قَاعِدَةً عامَّةً لِمَعْنى النَّهْيِ عَنِ الطَّمَعِ في مَالِ صاحِبِ المَالِ، والمَقْصودُ مِنْها اسْتِكْمالُ تَبْيِينِ مَنْ لَهُمْ حَقٌّ في المالِ[1]، حيث نبّه إلى حقوق من كانوا يتبنّون من الموالي، فأمر الله تعالى أن يجعل لهم نصيب في الوصية، وردّ الميراث إلى الأقارب[2]، بصورة نهائيّة ناسخة لما كان من قبل.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَوَالِيَ﴾: جَمْعُ مَوْلى: وهُوَ الوارِثُ والسَّيِّدُ، والمَمْلوكُ، والحَليفُ، وَابْنُ العمِّ، وَالأَوْلى بالشَّيْءِ، والصَّاحِبُ المُعِينُ[3]، وأَصْلُ الوَلْيِ: لُزومُ الشَّيءِ غَيْرَهُ مَعَ القُرْبِ مِنْهُ[4]، والمَوالي هُنا وَرَثَةُ الرَّجُلِ وعَصَبَتُهُ[5]، والمقصود بالموالي هنا: "الّذين عقد المتوفّى لهم عقدًا، مقتضاه أن يرثوه إذا مات، من غير قرابة، وينصروه إذا احتاج إلى نصرتهم، في مقابل ذلك"[6].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/33.
(2) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/314.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ولى)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (ولي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي)، وجبل، الْمُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ: (ولي).
(5) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 125.
(6) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/303.

2) ﴿عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾: المُعاقَدَةُ: المُعاهَدَةُ وَالْمِيثاقُ؛ قال الرّاغب: "العَقْدُ: الجمع بين أطراف الشّيء، ويستعمل ذلك في الأجسام الصّلبة كعقد الحبل، وعقد البناء، ثم يستعار ذلك للمعاني، نحو: عَقْدِ البيع، والعهد، وغيرهما"[1]، قال رشيد رضا: " إنّ ما فسّر به الرّاغب العقد لم يوضّحه، فليس كلّ جمع بين طرفين عقدا، وقد يكون العقد في غير الأطراف، فهو كما قال في لسان العرب: نقيض الحلّ، فعقد الأيمان توكيدها، بالقصد والغرض الصّحيح، وتعقيدها المبالغة في توكيدها، فهو كعقد الشّيء لشدّه، أو ما يعقد على الشّيء من خيط أو حبل ليحفظه"[2]، والأَيْمانُ: جَمْعُ يَمِينٍ، وهو القَسَمُ أَوِ اليَدُ[3]، وأَصْلُ عَقَدَ: يَدُلُّ على شَدٍّ، وشِدَّةِ وُثوقٍ[4]. ومَعْنى عَقْدِ اليَمينِ: تَوْثيقُها بِاللَّفْظِ مَعَ العَزْمِ عَلَيْها[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حيازة الثّروة إمّا بالوصيّة للموالي، أو بالإرث للقرابة الغوالي

تقرّر الآية واقعًا معيشا، مفاده أنّ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ، جَعَلْنا لَهُ عَصَبَةً يَرِثونَ مِمَّا تَرَك الوالِدانِ والأَقْرَبونَ مِنْ ميراثٍ، والَّذينَ تَحالَفْتُمْ مَعَهُمْ بِالأَيمانِ المُؤَكَّدَةِ على الحِلْفِ والنُّصْرَةِ، فَأَعْطوهُمْ نَصيبَهُمْ مِنَ الميراثِ، وكانَ هذا الميراثُ بِالتَّحالُفِ في صَدْرِ الإِسْلامِ، ثُمَّ نُسِخَ، إِنَّ اللهَ كانَ مُطَّلِعًا على كُلِّ شَيْءٍ، حاضِرًا مَعَكُمْ، يَشْهَدُ ما تَتَصَرَّفونَ بِهِ، وسَيُجازيكُمْ على ذلِكَ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ في: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾:

قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَلِكُلّٖ﴾ الذي هو في موضعِ نصبٍ مَفعولٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (عقد).
(2) محمّد رشيد رضا: تفسير المنار: 6/98.
(3) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (عقد)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (عقد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقد).
(5) الكَفَوِيُّ، الكُلِّياتُ، ومعنى قوله تعالى: "﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ أي: حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة، على النّصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذلك، وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان الموالي يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفردا"، ينظر: السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/176.
(6) المحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْنِ ص: 106، ولَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 113، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 83، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 83.

ثانٍ لـ ﴿جَعَلۡنَا﴾؛ لِتأكيدِ الشُّمولِ ودَفْعِ تَوَهُّمِ تَعَلُّقِ الجعلِ بِالْبَعْضِ دونَ البَعْضِ، [1]، ونَظيرُ هذا التَّقديمِ قَوْلُهُ تعالى في سُورَةِ المائِدَةِ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائِدَةُ: 48].

تَقْريرُ ما سَبَقَ مِنْ أحْكامٍ، وتَأكيدُ ما سَيَلْحَقُ مِنْ تَشْريعٍ وإِلْزامٍ

إفادةُ التَّقديمِ القَصرَ:

لَمّا قدَّمَ المَفعولَ الذي هُو شِبهُ الجُملَةِ (لِكُلٍّ) عَلى مُتَعَلِّقِه دلَّ على قَصْرِ الحَدَثِ عَلَيْه، وهُوَ قَصْرُ صِفَةٍ على مَوْصوفٍ قَصْرًا إضافِيًّا[2]، والغَرَضُ مِنْهُ التَّنْبيهُ على أَهَمِّيَّةِ هذا الجَعْلِ، وإِلْزامِهِمْ بِحُكْمِهِ مَعَ ما يَحْمِلُهُ مِنْ تَأْكيدٍ وإيجازٍ.

التَّنبيهُ على عَلاقَتِهِمْ بِالمَوْروثِ، والتَّعْليلُ لِاسْتِحْقاقِهِمُ الإِرْثَ:

دَلالَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾

فالمَوالي جَمْعُ مَوْلًى وَهُوَ مَحَلُّ الوَلْيِ، أَيْ لُزومُ أَحدِهما لِلآخَرِ مَعَ القُرْبِ مِنْهُ، [3]، وهُوَ مَحَلٌّ مَجازِيٌّ وَقُرْبٌ مَجازِيٌّ[4]؛ فَهُوَ إِذَنْ مَجازٌ مُرْسَلٌ[5] عَلاقَتُهُ المَحَلِّيَّةُ، فذكرَ المحلّ وأراد الحالَّ، وذِكْرُهُ هُنا مَجازٌ عَنِ الأَقْرِباءِ الذينَ يَؤولُ إِلَيْهِم الميراثُ، وفيهِ تَنْبيهٌ على قربهم ومَكانَتِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إلى المُورِثِ، وتَعْليلٌ لِاسْتِحْقاقِهِمُ الإِرْثَ مِنْهُ.

دلالةُ لفظِ العمومِ ﴿وَلِكُلّٖ﴾:

إفادةُ (كلّ) الاستغراقَ والإحاطةَ بأفرادِ المضافِ إليه

تدلُّ (كُلّ) هنا على الاستغراقِ والإحاطةِ بجميعِ أفرادِ ما تُضافُ إليه[6]، ولَمَّا كانَ المضافُ إليه هنا مَحذوفًا، فالمرجعُ إلى قرينةِ السّياقِ في تقديرِ المحذوفِ، فيُحتمَلُ أنْ يكونَ المضافُ إليه (قومًا) أو ما في معناه، والتّقدير: ولكلِّ قومٍ (أو لكلِّ أحدٍ) من الرِّجالِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/690، والبروسوي، روحُ البَيانِ: 2/200.

(2) القصر: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص والإضافي منه أن يختص المقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر مُعَين، لا لجميع ما عداه، نحو: ما خليل إلا مسافر، فإنك تقصد قصر السفر عليه بالنسبة لشخص غيره، كمحمود مثلًا، وليس قصدك أنه لا يوجد مسافر سواه، يُنْظَرُ: الهاشِمي، جَواهِرُ البَلاغَةِ، ص: 170.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/33.

(5) تَعْريفُهُ في تَفْسيرِ الصَّفْحَةِ الأُولى مِنْ هذا الجُزْءِ.

(6) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/212.

والنِّساءِ جعلنا مواليَ؛ لإفادةِ استغراقِ أفرادِ الرّجال والنّساءِ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ المضافُ إليه (شيءٍ) بمعنى المال أي التّركَةِ، والتَّقديرُ: ولكلِّ شيءٍ من المالِ، على معنى استغراقِ أنواعِ المالِ وأفرادِه[1].

دلالةُ حرفِ الجرِّ (مِن) في قولِه ﴿مِّمَّا﴾:

(مِن) هنا بيانيّة، فهي تبيينٌ للإجمالِ في (كلّ)[2].

اختلافُ المعنى باختلافِ موضعِ الوقفِ القرآني:

إذا كانَ الوقفُ على ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ﴾، - وهو الرَّاجحُ؛ لأنَّ الوقفَ عليهِ حسنٌ[3] - فالمعنى له توجيهانِ بالنَّظرِ إلى تقديرِ المضافِ إليه في ﴿وَلِكُلّٖ﴾ كما تقدّمَ، فإمّا أنْ يكونَ المعنى: وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ جَعَلْنَا عُصبةً يُعطَون ممَّا تَرَكَ الوالدانِ وَالأَقربون، فيكونُ الوالدانِ وَالأقربونَ هُمُ المُوَرِّثينَ، وإمّا أنْ يكون المعنى: ولكلِّ شيءٍ ممَّا تركَ الوالدانِ وَالأقربونَ منَ المالِ جعلنا مواليَ ورَّاثًا يَلونَه ويُحرِزونَه.

وإذا كانَ الوقفُ على ﴿تَرَكَ﴾ فيكونُ المعنى: ولكلٍّ جعلنا ورثةً ممّا تركَ، وَيَكُونُ (مَا) بِمعْنَى مَنْ، وفاعلُ ﴿تَرَكَ﴾ ضميرًا عائدًا على ﴿وَلِكُلّٖ﴾، ثُمَّ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَنْ هَؤُلَاءِ الورثةُ؟ فقِيلَ: هُمُ الوالدانِ وَالأقربونَ، ليكونَ على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ، وعلى هذا القولِ الوالدانِ وَالأقربونَ هُمُ الْوَارِثُونَ، وفي هذا التّوجيهِ تفكيكٌ للنَّظمِ الكريمِ وانخرامٌ لانتظامِ المعنى، وذكرنا هذا التّوجيهَ هنا لِتوالي المفسِّرينَ على ذكرِه[4].

بلاغةُ المجازِ في قولِه ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾:

تَعظيمُ شَأْنِ العُقودِ وبيانُ أَهَمِّيتِها

الأَيْمَانُ جَمْعُ يَمِينٍ: إِمَّا بِمَعْنَى اليَدِ، إذ أُسْنِدَ العَقْدُ إِلَى الأَيْدِي مَجازًا؛ لِأَنَّهَا تُقارِنُ الْمُتَعاقِدِينَ فَهُمْ يَضَعُونَ أَيْدِيَ بَعْضِهِمْ فِي أَيْدِي الْآخَرِينَ، عَلامَةً عَلى انْبِرامِ العَقْدِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُمِّيَ العَقْدُ صَفْقَةً أَيْضًا لِأَنَّهُ يُصَفِّقُ فِيهِ الْيَدُ عَلَى الْيَدِ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ ﴿أَوۡ مَا

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/46.

(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/504، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/172.

(3) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/597.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 1/609، والزّمَخْشري، الكشاف: 1/504، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/67، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/173، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/35.

﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النّساء: 3] وَإِمَّا بِمَعْنَى الْقَسَمِ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَصْحَبُهُ قَسَمٌ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُمِّي حِلْفًا، وَصَاحِبُهُ حَلِيفًا، وَإِسْنَادُ الْعَقْدِ إِلَى الْأَيْمَانِ بِهَذَا الْمَعْنَى مَجَازٌ أَيْضًا لِأَنَّ الْقَسَمَ هُوَ سَبَبُ انْعِقَادِ الْحِلْفِ(1).

وعَلى كِلا التَّقْديرَيْنِ فَإِنَّ المجازَ هُنا عَقْلِيٌّ عَلاقَتُهُ السَّبَبِيَّةُ؛ فاليَمينُ سَبَبُ العَقْدِ ولَيْسَتِ الفاعِلَ الحَقيقِيَّ، لِأَنَّ الفاعِلَ هُمُ المُتَعاقِدونَ، والغايَةُ مِنْ هذا المَجازِ تَعْظيمُ شَأْنِ العُقودِ وبيانُ أَهَمِّيَّتِها.

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظَّاهر:

لَمَّا كانتِ الفاءُ في قولِه ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾، فصيحةً؛ لإفصاحِها عن كلامٍ مقدَّرٍ سبقَها، كانَ الكلامُ على تضمينه معنى الشّرطِ والجزاءِ، فيكونُ قولُه ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ مبتدأً ضُمِّنَ معنى الشَّرطِ، فوقعَ خبرُهُ ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ معَ الفاءِ، والتَّقديرُ (إنْ عَقَدتُمُ الأيمانَ فآتوهمْ نصيبَهمْ)، فتكونُ جملةُ ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ جملةً مسبَّبَةً عن عقدِ الأيمانِ مؤكِّدَةً لها(2)، وجاءَ الكلامُ على طريقةِ المبتدأِ والخبرِ؛ للإشعارِ بتقريرِ الخبرِ، فكأنّه واقعٌ وثابتٌ.

حسنُ التّذييل في قولِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾:

غَــرْسُ مراقبةِ اللـهِ ومهابتِهِ لِلامْتِثالِ وحُسْنِ الاِسْتِجابَةِ

في جملةِ التّذييلِ فوائدُ لغويّةٌ وبلاغيَّةٌ، هي:

أوّلاً: في جملةِ التّذييلِ التفاتٌ، حَيْثُ انْتَقَلَ مِنْ صيغَةِ الخِطابِ إلى صيغَةِ الغَيْبَةِ، والدَّاعي إلى هذا الاِلْتِفاتِ حاجَةُ السِّياقِ إلى ذِكْرِ الاِسْمِ الأَحْسَنِ الجامعِ لِصِفاتِ الجَلالِ والكَمالِ، كما أَنَّ المَقامَ يَقْتَضي المُراقَبَةَ والرَّهْبَةَ(3) لذا أَخْبَرَ تعالى أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ المُجازي بِهِ، وَفِي ذَلِكَ تَهْدِيدٌ لِلْعاصِي، وَوَعْدٌ لِلْمُطيعِ، وَتَنْبيهٌ عَلى أَنَّهُ شَهيدٌ عَلى المُعاقَدَةِ بَيْنَكُمْ فَأَوْفُوا بِالعَهْدِ(4).

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/35 - 36.
(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/504، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/72، والسبكي، عروس الأفراح: 1/597.
(3) ابْنُ عَطِيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 2/47.
(4) أَبو حَيّان، البحر المحيط: 3/622.

ثانيًا: أفادَ تصديرُ الجملةِ بـ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ وتقريرها

ثالثًا: أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تعليلَ جميعِ ما تقدّمَها في الآية، والمعنى: لِأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ أوفوا بالعهدِ مراقبةً ورهبةً، وأدّوا الحقوقَ إلى أهلِها ولاتظلموهم.

رابعًا: لمَّا تقدّمَ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، الذي هو معمولُ الخبرِ ﴿شَهِيدًا﴾ دلَّ على العنايةِ بهِ وعلى تخصيصِهِ، والمعنى إنَّ اللهَ وحدَه - وليس غيرُهُ - شهيدٌ على كلِّ شيء، فالتَّخصيصُ شاملٌ الخبرَ ومعمولَهُ.

خامسًا: أفادتْ جملةُ التّذييلِ التّهديدَ والوعيدَ لِمَن يمنعُ نصيبَ مَنْ يستحِقُّه[1]

سادسًا: لمَّا أفادتْ الجملةُ العمومَ والكليَّة كانتْ بمثابةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثُّلِ بها كما تقدّمَ غيرَ مرَّة.

سابعًا: أفادَ أسلوبُ ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ استمرارَ اتّصافِ اللهِ بكونِه شهيدًا على كلِّ شيءٍ، ودوامَ هذه الصّفةِ، وظهورَ آثارِها.

القراءاتُ القرآنيَّةُ وتعدّدُ المعنى:

توكيدُ اليمين وحفظُها أمرٌ ثابتٌ ومقرّرٌ

قَرَأَ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ: ﴿عَقَدَتْ﴾ بِغَيْرِ أَلِفٍ وَبِالتَّخْفِيفِ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿عَاقَدَتْ﴾ بِالْأَلِفِ وَالتَّخْفِيفِ:

فأمّا قراءةُ ﴿عَقَدَتْ﴾ فقد أَضَافَتِ الْعَقْدَ إِلَى وَاحِدٍ، ويكونُ مفعولُ ﴿عَقَدَتْ﴾ محذوفًا، وتقديرُ الكلام: عقدَتْ أَيمانُكُم حلفَهم أو ذمَّتَهم، فيفيدُ تقديرُ المفعولِ تقييدَ عقدِ الأيمانِ وبيانَهُ.

وعلى قراءةِ ﴿عَاقَدَتْ﴾ تكونُ الصِّيغةُ على معنى المفاعلة، أي يكونُ عَقْدُ الْحَلِفِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، فيُعاقدُ أحدُهما الآخرَ، والمعنى: أيمانُ هؤلاءِ عاقَدَتْ أولئكَ، وفيه تقويةُ المعاقدةِ وتقريرُها، واختارَ الفخرُ الرّازي هذهِ القراءةَ لقوّةِ المعنى، والمعنى على القراءتين هو التّوكيدُ لليمينِ[2]

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/72.

(2) ابن مجاهد، السبعة/233، والأزهري، معاني القراءات: 1/306، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/46، والرّازي، مفاتيح الغيب: 10/68.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَلِيّ والمَوْلى:

الولي والمولى: متقاربان، لكن الوليَّ من الأسماء المتضايفة، ويقتضي أنّ من واليته مواليك[1]، والمولى: هُوَ السَّيِّدُ، والمَمْلوكُ، والحَليفُ، وَابْنُ العَمِّ، وَالأَوْلى بالشَّيْءِ، والصَّاحِبُ المُعينُ[2]، فَهُو مِنَ المُشْتَرَكِ اللَّفْظيِّ الّذي يَدُلُّ على عِدَّةِ مَعانٍ، وهُوَ أَيْضًا مِنْ مُصْطَلَحاتِ الأَضْدادِ الّذي يَدُلُّ على الشَّيْءِ وضِدِّهِ، كما في السَّيِّدِ والمَمْلوكِ، فَتُسْتَعْمَلُ لِلْفاعِلِ والمَفْعولِ فَيُقالُ مَوْلى فُلانٍ، ويُقالُ اللّهُ مَوْلانا والمَعْنى في حَقِّ اللّهِ المُعينُ الّذي تَرْكَنُ إِلَيْهِ، وتَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وتَحْتَمي بِهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والوَلِيُّ في أَسْماءِ اللّهِ تعالى خاصٌّ بالمُؤْمنينَ؛ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البَقَرَة: 257] أَمَّا المَوْلى فَيُطْلَقُ على المَعْنى الخاصِّ بالمُؤْمنينَ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمَّد: 11]، ويُطْلَقُ أَيْضًا بالمَعْنى العامِّ، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [يُونُس: 30]، ولا تَعارُضَ بَيْنَ الآيَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ؛ إِذْ معنى كَوْنِهِ مَولى الكافِرينَ، أَيْ مَالِكُهُمْ والمُتَصَرِّفُ فيهم بما شَاءَ، ومَعْنى كَوْنِه مَوْلى المُؤْمنينَ دونَ الكَافِرينَ: أَيْ وِلايَةُ مَحبَّةٍ وتَوْفيقٍ[3]، وأصل الوليّ جعل الثّاني بعد الأوّل من غير فصل، من قولهم هذا يلي ذاك وليا، وولّاه الله كأنّه يلي أمره، ولم يكله إلى غيره، وولّاه أمره وكله إليه، كأنّه جعله بيده، وتولى أمر نفسه قام به من غير وسيطة[4]، قال الزّجاج (الولي) هو فعيل، من الموالاة، والوليّ الناصر، قَالَ الحَلِيمِيُّ: الْوَلِيُّ هُوَ الْوَالي، وَمَعْنَاهُ مَالِكُ التَّدْبِيرِ، وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْقَيِّمِ عَلَى الْيَتِيمِ: وَلِيُّ الْيَتِيمِ، وَلِلأَمِيرِ الْوَالي، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: وَالْوَلِيُّ أَيْضًا النَّاصِرُ يَنْصُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، أمّا المولى فقد ورد في القرآن الكريم في عدّة آيات، منها قوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 78][5].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/382.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ولى)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (ولي).
(3) الشِّنْقيطي، دَفْعُ إيهامِ الإضْطِراب: 1/89.
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 578.
(5) المهدي، صيد الأفكار: 2/255.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النِّساءُ: 34]

❁ مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط أنصبة النِّساء بعلل المفاضلة بين الجنسين، وطرائق علاج النُّشوز

لَمَّا نَهى اللَّهُ ﷻ كُلًّا مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ عَنْ تَمَنِّي ما فضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ، وأَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْتوا الوارِثينَ أَنْصِبَتَهُمْ، وفي هَذِهِ الأَنْصِبَةِ يَسْتَبِينُ تَفْضيلُ الرِّجالِ على النِّساءِ؛ ذَكَرَ هُنا أَسْبابَ التَّفْضيلِ(1)، فبَيَّنَ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ فضَّلَ الرِّجالَ على النِّساءِ في الميراثِ؛ لِأَنَّ الرِّجالَ قَوَّامونَ على النِّساءِ، بما دفعوا إِلَيْهِنَّ من مَهْرٍ، وما درُّوا عَلَيْهِنَّ من نفَقَةٍ، فصارَتِ الزِّيادةُ مِنْ أَحَدِ الجانِبَيْنِ مُقابَلَةً بالزِّيادَةِ مِنَ الجانِبِ الآخَرِ(2)، وقَدْ ذُكِرَ عَقِبَ ما قَبْلَهُ لِمُناسَبَةِ الأَحْكامِ الرَّاجِعَةِ إِلَى نِظامِ العائِلَةِ، لا سِيَّما أَحْكامُ النِّساءِ(3)، كما أبانت الآية حكمة اللَّه في معالجة نشوز الزَّوجات، للمحافظة على الرَّابطة الزَّوجيَّة، دون بغي ولا حيف.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿قَوَّٰمُونَ﴾: جَمْعُ قَوَّام، مُبالَغَةٌ مِنَ القِيام، فيُقالُ: قَيِّمٌ وقَوّامٌ، والقائِمُ: هوَ الَّذي يَقومُ على الشَّيْءِ، ويَرْعاهُ، ويَحْفَظُهُ، ويُصلِحُ مِنْ شَأْنِه، والقَوّامُ: كَثيرُ القِيامِ(4)، أَوْ سَريعُهُ، أَوْ شَديدُهُ، أَوْ نَحْوُ ذَلِك

(1) ابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/47، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/622، والمَراغيُّ، تَفْسيرُ المَراغيِّ: 5/26 - 27، والزحيلي، التَّفْسيرُ المُنِيرُ: 5/54.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/70.
(3) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/37.
(4) ابنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (قوم)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (قوم).

مِمَّا يُتَصَوَّرُ فيهِ المُبالَغَةُ، وأَصْلُ (قَوَمَ): يَدُلُّ عَلى انْتِصابٍ أَو عَزْمٍ[1]، والرَّجُلُ قَوَّامٌ على المَرْأَةِ، أَيْ: رَئيسُها وكَبيرُها والحاكِمُ عَلَيْها، القائِمُ على صَلاحِ أَمْرِها بِالتَّدْبيرِ والتَّأْديبِ، بِما خَصَّهُ اللّه بِهِ مِنَ المُكْنَةِ والمالِ والجاهِ والقُوَّةِ[2]، ومعنى اللَّفظ في سياقه: "الرِّجال أهل قيام على نسائهم، في تأديبهنَّ، والأخذ على أيديهن، فيما يجب عليهن للّه ولأنفسهم "[3].

2) ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: خاضِعاتٌ، دائِماتٌ على ذَلِكَ[4]، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعَةِ مَعَ الخُضوعِ[5]، وأَصْلُ (قَنَتَ): يَدُلُّ على طاعَةٍ وخَيْرٍ في دينٍ[6]، والمَعْنى هُنا: قائِماتٌ بِحُقوقِ أَزْواجِهِنَّ[7]، ينقسم في كلام العرب على أربعة أقسام: يكون القنوت: الطَّاعة، كما قال ﷺ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: 116]، معناه: كلٌّ له مطيعون، ويكون القنوت: الصَّلاة كما قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي﴾ [آل عمران: 43]، ويكون القنوت: طول القيام، قال جابر بن عبد اللّه: «سُئل النَّبيُّ: أيُّ الصَّلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت»، معناه: طول القيام، ويكون القنوت: السُّكوت، يروى عن زيد بن أرقم أنَّه قال: (كنَّا نتكلَّم في الصَّلاة، يكلِّم أحدنا الَّذي يليه، حتَّى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: 238]، فأمسكنا عن الكلام)[8].

3) ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾: أَيْ: يَحْفَظْنَ عَهْدَ الأَزْواجِ عِنْدَ غَيْبَتِهِمْ، فلا يوطِئْنَ فُرُشَهُنَّ غَيْرَهُمْ، ولا يَفْعَلْنَ في غَيْبَةِ الزَّوْجِ ما يَكْرَهُهُ، وقيل: المعنى: طائعات لأزواجهنَّ، ما غاب عنهم من سرِّهنَّ وشأنهنَّ، وقال النَّبيُّ ﷺ: «خيرُ النِّساء امرأةٌ إذا نظرت إليها؛ سرَّتك، وإذا أمرتها؛ أطاعتك، وإذا غبت عنها؛ حفظتك في مالك ونفسها»، ثمّ قرأ رسول اللّه ﷺ: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ "[9]، وذهب ابن عطيَّة إلى أنَّ المعنى: "حافظات للغيب بطاعة

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَوَمَ).

(2) الفيروزابادي، بَصائِرُ ذَوِي التَّمْييز، تح: مُحَمَّد النَّجار، المَجْلِسُ الأَعْلى لِلشُّؤونِ الإِسْلامِيَّةِ، القاهِرَةُ، د. ط، 1412ه: 4/309، والسَّمينُ الحَلَبِيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (فضل)، والنَّيْسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ عَنْ مَعاني القُرْآنِ، تح: حَنيف القاسمي، دارُ الغَرْبِ الإِسْلاميِّ، بَيْروتُ، ط: 01، 1415 ه: 33/238.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/687.

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 472.

(5) الراغب، المفردات: (قَنَتَ).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَنَتَ).

(7) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظِ، (قنت)، والنَّيْسابوريُّ، إيجازُ البَيان: 1/238.

(8) الأنباريُّ: الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/68، وذكرها ابن الأثير في النّهاية: 4/111 نقلًا عنه.

(9) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 2/1313.

وخوف، وبرٍّ ودين، حفظ الله في أوامره حين امتثلنها"[1]، وقال الزَّجَّاج: " حافظات للغيب بالشَّيء الَّذي يحفظ به أمر الله"[2].

4) ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: نُشوزُ المرأة: استِعصاؤُها على زَوْجِها، ونَشَزَتِ المَرْأَةُ على زَوْجِها نُشوزًا، أَيْ: عَصَتْهُ وخالَفَتْهُ[3]، ونُشوزُ المَرْأَةِ أَيْضًا: بُغْضُها لِزَوْجِها[4]، وأَصْلُ النُّشوزِ الارْتِفاعُ، يُقالُ: نَشَزَتِ المَرْأَةُ: تَرَفَّعَتْ على زَوْجِها، فرَفَعَتْ نَفْسَها عَنْ طاعَتِه، وعَيْنَها عَنْهُ إلى غَيْرِه[5]، والمَعْنى هنا: مَعْصيَتُهُنَّ وتَعاليهِنَّ عَمَّا أَوْجَبَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِنَّ مِنْ طاعَةِ الأَزْواجِ[6].

5) ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: الوَعْظُ: التَّذْكيرُ بِالخَيْرِ فيما يَرِقُّ لَهُ القَلْبُ[7]، والوَعْظُ كذلك: نُصْحٌ وتَذْكيرٌ بِالعَواقِبِ[8]، وأَصْلُ الوَعْظِ: تَذْكيرٌ بِالخَيْرِ مَعَ تَخْويفٍ[9]، يقال: (السَّعيد من وعظ بغيره، والشَّقيُّ من اتَّعظ به غيره)[10]، ومَعْنى ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾هُنا: ذَكِّروهُنَّ بِحَقِّ الزَّوْجِ، وأَنَّ رِضا الزَّوْجِ سَبَبٌ في رِضا اللهِ.

6) ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾: لا تَجْنُوا عَلَيْهِنَّ الذُّنوبَ[11]، وأَصْلُ البَغْيِ: الظُّلْمُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ[12]، والمَعنى هُنا: إِنْ أَطَعْنَكُمْ؛ فلا يَبْقى لَكُمْ عَلَيْهِنَّ طريقٌ، إِلَّا أَنْ يَكونَ بَغْيًا وجَوْرًا[13]، والمعنى: إِذا أَطاعَتْكَ؛ فَلا تَتَجَنَّ عَلَيْها العِلَلَ، أي: لا تعلَّلوا عليهنَّ بالعيوب[14]، ويقال: "إنَّ الله مع علوِّه يتجاوز عن عباده، فأنتم - أيضًا- تجاوزوا، ولا تطلبوا العلل"[15].

(1) ابن عطية، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 2/47.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التّفسير: 1/402.
(3) نَشْوانُ بن سعيد، شَمْسُ العُلومِ ودَواءُ كَلامِ العَرَبِ مِنَ الكُلومِ، والأزهري، تهذيب اللغة: (نَشَزَ).
(4) الراغب، المفردات: (نَشَزَ).
(5) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 126، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (نشز)، والرَّاغِبُ، والْمُفْردات: (نَشَزَ).
(6) السِّجِسْتانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 472.
(7) الخليل، العَيْنُ: (وعظ).
(8) الجَوْهَريُّ، الصِّحاح: (وعظ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ)، والراغب، المفردات: (وَعَظَ).
(10) الرازي، مختار الصِّحاح، ص: 342.
(11) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 126.
(12) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (بغا).
(13) ابْنُ الأَثيرِ، النِّهايَةُ في غَريبِ الحَديثِ والأَثَرِ، تح: طاهِرِ الزّاوي ومَحْمودُ الطَّناحي، المَكْتَبَةُ العِلْميَّةُ، بَيْروتُ، دط، 1399هـ: 1/144.
(14) النِّيسابوريُّ، كتاب تفسير القرآن: 2/694.
(15) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/300.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

واجبُ الرَّجُلِ الإنْفاقُ والتَّأديبُ، وواجبُ الزَّوْجَة حِفْظُهُ في الحضور والمغيب

الرِّجالُ لَهُمْ حَقُّ رعايَةِ النِّساءِ، والقيامِ بِشُؤُونِهِنَّ؛ بِسَبَبِ ما خَصَّهُمُ اللّٰه بِهِ مِنْ خَصائِصِ القِوامَةِ والتَّفْضيلِ، وبِسَبَبِ ما يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ المُهورِ والنَّفَقاتِ، فالصَّالِحاتُ مِنَ النِّساءِ مُطيعاتٌ لِرَبِّهِنَّ ولِأَزْواجِهِنَّ، حافِظاتٌ لَهُمْ في غَيْبَتِهِمْ بِسَبَبِ تَوْفيقِ اللّٰهِ لَهُنَّ، والزَّوْجاتُ اللَّاتي تَخْشَوْنَ عِصْيانَهُنَّ وتَرفُّعَهُنَّ عَنْ طاعَتِكُمْ في قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، فابْدَؤوا - أيُّها الأَزْواجُ - بِتَذْكيرِهِنَّ وتَخْويفِهِنَّ مِنَ اللّٰهِ، فإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْنَ؛ فاهْجُروهُنَّ في الفِراشِ، فإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْنَ؛ فاضْرِبوهُنَّ ضَرْبًا لا ضَرَرَ فيهِ، فإِنْ رَجَعْنَ إلى الطَّاعَةِ؛ فلا تَعْتَدوا عَلَيْهِنَّ بِظُلْمٍ أَوْ مُعاتَبَةٍ، إنَّ اللّٰه كانَ ذا عُلوٍّ على كُلِّ شَيْءٍ، كَبيرًا في ذاتِهِ وصِفاتِهِ، فخافوهُ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستئناف البيانيِّ في قولِه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾:

الـرَّجُـلُ قـائِـمٌ بِحُقوقِ الإنْفاقِ والرِّعـايَةِ، فلَهُ حَقُّ التَّفْضيلِ في الميراثِ والوِلايَةِ

وَقَعَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ في جَوابِ سُؤالٍ يُفْهَمُ مِمَّا قَبْلَها، فكان ذكرُ ما سبقَ من استحقاقِ الرِّجالِ التَّفضيلَ في الجهادِ وفي الميراثِ غالبًا ممَّا يحرِّكُ السَّامعين من النِّساءِ والرِّجالِ أنْ يعرفوا السَّببَ، ويشوِّقُهم أنْ يسألوا: ما سَبَبُ اختصاصِ الرِّجالِ في ما اختُصُّوا به؟ فوقعَ قولُه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ جوابًا للسُّؤالِ الَّذي هو مقتضى الحالِ بِطريقِ الاستئنافِ البيانيِّ مُبَيِّنًا السَّببَ العامَّ.[2]

دلالةُ مجيءِ الكلامِ على طريقةِ الجملةِ الاسميَّةِ:

سلكَ في الكلامِ طريقَ الجملةِ الاسميَّةِ؛ لبيانِ ثبوتِ استحقاقِ القِوامةِ واستمرارِهم في الولايةِ، وللإيذانِ بعراقةِ الرِّجالِ في

---

(1) عَبْدُ اللهِ الزَّيد، مُخْتَصَرُ تَفْسيرِ البَغَويّ: 1/179، ولَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 114، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 84، وجماعةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 84.
(2) السَّكّاكي، مفتاح العلوم/262، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/172، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/55.

الاتِّصافِ بما أُسندَ إليهم ورسوخِهم فيه، أي: شأنُهم المعروفُ المعهودُ القيامُ عَلَى النِّسَاءِ بِالحِمايةِ وَالرِّعايةِ وَالوِلايةِ وَالكفايةِ، فالإخبارُ مِنْ قبيلِ بيانِ الواقعِ، أي: شأنُهم أنْ يكونوا قوَّامين على النِّساءِ[1].

ثبوتُ استحقاقِ القوامةِ للرِّجالِ واستمرارُهم في الولايةِ

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ في قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾:

فالاستِعارَةُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ تَمثيليَّةٌ[2]؛ أَيْ: يَقومونَ عَلَيْهِنَّ آمِرينَ ناهينَ، كَما يَقومُ الوُلاةُ على الرَّعايا؛ لِأَنَّ شَأْنَ مَنْ يَهْتَمُّ بِأَمْرٍ أَنْ يَقومَ لِقَضائِه، فشُبِّهَتْ هَيْئَةُ الحَريصِ المُهْتَمِّ بِأَمْرِ نِسائِه بِهَيْئَةِ القائِمِ لِقَضاءِ أَمْرٍ يَهُمُّهُ، بِجامِعِ الاِهْتِمامِ والحِرْصِ في كلٍّ مِنْهُما، والقَرينَةُ حاليَّةٌ؛ لِأَنَّ الحَريصَ على أَمْرِ نِسائِه لا يَجِبُ عَلَيْه القيامُ دائِمًا، وإنَّما شُبِّهَ المُهْتَمُّ بِالقائِمِ لِلْأَمْرِ على طَريقَةِ التَّمْثيلِ[3].

بَيانُ رُسوخِ الرِّجالِ وعَراقَتِهِمْ في وصْفِ القيامِ بِشُؤونِ النِّساءِ

نكتة التَّعبير بـ ﴿ٱلرِّجَالُ﴾:

عبَّر بِلَفْظِ الرِّجالِ دونَ الذُّكورِ لما يُوحِيه وصْفُ الرُّجولَةِ من اتِّساقِ صِفاتِ الشَّهامَةِ والمُروءَةِ والحزمِ والنَّخوَةِ اللَّاتي تَقْتَضي قِيامَةَ الرِّعايَةِ والحِمايَةِ، فربَّ أنثى فضلَتْ ذكرًا[4].

وصفُ الرُّجولَةِ يوجبُ اتِّساقَ صِفاتِ الشَّهامَةِ والمُروءَةِ والحزمِ والنَّخوَةِ

دلالةُ (ال) في لفظي: ﴿ٱلرِّجَالُ﴾ و﴿ٱلنِّسَآءِ﴾:

(الـ) في الموضعين: جنسيَّةٌ، والمعنى: هَذَا الجنسُ قوَّامٌ على هذا الجنسِ، فهو إخبارٌ عن جنسِ الرِّجالِ وجنسِ النِّساءِ، وَلمْ يتعَرَّضْ فيهِ إلى اعتبارِ أفرادِه.[5]

الإخبارُ عن الجنسِ وليس عن الأفرادِ

(1) رَشيد رضا، تَفْسيرُ المَنار: 5/56.
(2) الاِسْتِعارَةُ التَّمْثيليَّةُ: هيَ اسْتِعارَةٌ يَكونُ اللَّفْظُ المُسْتَعارُ فيها لَفْظًا مُرَكَّبًا، وهَذا اللَّفْظُ المُرَكَّبُ يُسْتَعْمَلُ في غَيْرِ ما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلاحِ التَّخاطُبِ، لِعَلاقَةِ المُشابَهَةِ بَيْنَ المَعْنى الأَصْليِّ.
(3) القونويُّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 7/145، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/38.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/622.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/622.

دلالة التَّعبير بصيغة المبالغة ﴿قَوَّٰمُونَ﴾:

تحمُّلُ القوامةِ مستمرٌّ ومتجدِّدٌ في كلِّ حين

لَمَّا كانَ ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ على صيغةِ فَعَّالٍ؛ دلَّ على المبالغةِ، فالقوَّامُ هنا بمعنى: كثيرِ القيامِ على الزَّوجِ بالاجتهادِ في حفظِها، وكثرةِ تحمُّلِ حقوقِها، وأيضًا يدلُّ على تنوُّعِ مهامِّ القوامةِ وأضرُبِها، ولَمَّا كانتْ صيغةُ المبالغةِ مشتقَّةً من الفعلِ المضارعِ؛ أفادتْ أنَّ قوامةَ الرَّجلِ مستمرَّةٌ في حينٍ بعدَ حينٍ إلى أنْ يأتيه اليقين(1).

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ وقولِه: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾:

الـولايـةُ إنَّـما تُـسْـتَـحَـقُّ بـالـفـضـلِ، لا بـالـتَّـغـلُّـبِ والاسـتـطـالـةِ والقَهرِ، وبإنفاقِ الـرِّجـالِ على النِّساء

لَمَّا جاءتِ الآيةُ على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ، فكانتْ بيانًا لسببِ زيادةِ استحقاقِ الرِّجالِ على النِّساءِ في الإرثِ وغيرِه، فجعلَ الرِّجالَ قوَّامينَ على النِّساءِ زادَ هذا السَّببَ بَيانًا وإيضاحًا بتعليلِ سببِ القوامة، فجاءتِ الباءُ في الموضعين سببيَّةً، والمعنى: بسببِ تفضيلِ اللهِ بعضَهم، وهمُ الرِّجالُ، على بعضٍ، وهم النِّساءُ، ولَمَّا كانَ الكلامُ على طريقةِ العطفِ دلَّ على لزومِ اجتماعِ سببِ المعطوفِ وسببِ المعطوفِ عليه، ففيه دليل على أنَّ الولايةَ إنَّما تستحقُّ بالفضلِ، لا بالتَّغلُّبِ والاستطالةِ والقهرِ، وبإنفاقِ الرِّجالِ على النِّساء(2).

إذا تخلَّف أحدُ سببَيِ القِوامةِ لم يكن قوَّامًا عليها

ولَمَّا كانَ السَّببُ بمنزلةِ الشَّرطِ، وكانَ اجتماعُ السَّببين واجبًا بدلالةِ العطفِ؛ فُهِمَ منه أنَّهُ إذا تخلَّف أحدُ السَّببين؛ لم يكن قوَّامًا عليها، ومن بابِ أولى إذا تخلَّفَ السَّببانِ معًا.

مناسبةُ تكريرِ الباءِ في قولِه: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾:

الـتَّـفـضـيـلُ: سـبـبٌ وهـبـيٌّ، والإنفاقُ: سببٌ كسبيٌّ

كرَّرَ الباءَ لتأكيدِ السَّببِ الثَّاني لإثباتِ قوامةِ الرِّجالِ على النِّساء، وهو الإنفاقُ، وللإشعارِ بأنَّ كلَّ سببٍ قائمٌ بنفسِه، للمغايرةِ بينَ السَّببين، فالتَّفضيلُ: سببٌ وهبيٌّ بما أعطاهم من القوَّةِ، والإنفاقُ:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/47، والقِنَّوْجيُّ، فتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآنِ: 3/105، والقونويُّ، حاشيةُ القونويِّ عَلى البَيْضاويِّ: 7/144.

(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/505، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/623.

سببٌ كسبيٌّ، فيما يقومُ بهِ الرِّجالُ ممَّا يحتاجُه النِّساءُ مِنَ النَّفقةِ والكِسوةِ والمَسكنِ[1].

مناسبةُ قولِهِ: ﴿بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾:

بعضُ النِّساءِ أفضلُ من بعضِ الرِّجالِ في العلمِ والعملِ

عَدَلَ عَنِ الضَّميرَين، فَلَمْ يَأْتِ (بِمَا فَضَّلَهم اللهُ عَلَيهِنَّ) مع أنَّه أخصرُ، لنُكتتين:

إحداهما: لِمَا في ذِكْرِ ﴿بَعۡضٖ﴾ مِنَ الْإِبْهَامِ الَّذِي لَا يَقْتَضِي عُمُومَ الضَّميرِ، فبعضُ النِّساءِ أفضل، فَكَمْ مِنِ امْرَأَةٍ تَفْضُلُ زَوْجَهَا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بَلْ فِي قُوَّةِ الْبِنْيَةِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْكَسْبِ.

المَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ، وَالرَّجُلُ مِنَ المَرْأَةِ بِمَنْزِلَةِ الأَعْضَاءِ مِنْ بَدَنٍ واحدٍ

الثَّانيةُ: إِفَادَةُ أَنَّ الْمَرْأَةَ مِنَ الرَّجُلِ، وَالرَّجُلَ مِنَ الْمَرْأَةِ بِمَنْزِلَةِ الْأَعْضَاءِ مِنْ بَدَنِ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ، فَالرَّجُلُ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ، وَالْمَرْأَةُ بِمَنْزِلَةِ الْبَدَنِ، وتَفَضُّلُ بَعْضِ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ عَلَى بَعْضٍ إِنَّمَا هُوَ لِمَصْلَحَةِ الْبَدَنِ كُلِّهِ، لَا ضَرَرَ فِي ذَلِكَ عَلَى عُضْوٍ مَا، وَإِنَّمَا تَتَحَقَّقُ وَتَثْبُتُ مَنْفَعَةُ جَمِيعِ الْأَعْضَاءِ بِذَلِكَ، ويحتمل أن يكون العدول عن الضَّميرين للإشعار بغاية ظهورِ الأمرِ في تفضيل الرِّجالِ على النِّساءِ وعدمِ الحاجةِ إلى التَّصريح بالمفضَّل والمفضَّل عليه أصلًا[2].

دلالة ﴿بِمَا﴾ في قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ و﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ بين المصدريَّةِ والموصولةِ:

في التَّعبيرِ مِن بديعِ الإعجازِ تكثيرُ المعنى بلفظٍ واحدٍ

تحتملُ (ما) أنْ تكونَ مصدريَّةً في الموضعينِ، وهو الرَّاجحُ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ يُرَجِّحُونَ الْأَفْعَالَ عَلَى الْأَسْمَاءِ فِي طُرُقِ التَّعْبِيرِ، والتَّقدير: (بسببِ تفضيلِ اللهِ الرِّجالَ على النِّساءِ فيما اختُصُّوا بهِ وبسببِ إنفاقِ الرِّجالِ مِنْ أموالِهم على النِّساءِ في مُهورِهنَّ وقوتِهنَّ وفيما يحتاجونَه)، وتحتملُ أنْ تكونَ مصدريَّةً في الموضعِ الأوَّلِ، وموصولةً

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/173.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/623، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/173، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/56.

في الثَّاني؛ لِبيانِ أنَّ تفضيلَ اللهِ أمرٌ ثابتٌ، وإنفاق الرِّجالِ على النِّساءِ بما هو معلومٌ وظاهرٌ في العاداتِ، وتحتملُ أنْ تكونَ موصولَةً في الموضعينِ؛ لبيانِ أنَّ المعنى بسبب ما يعلمُه النَّاس من أنَّ الله فضَّلهم عليهنَّ وممَّا يجري في عمومِ العاداتِ من إنفاقِ الرِّجالِ عليهنَّ، والضَّميرُ العائد على الاسم الموصولِ في الموضعين محذوفٌ، معَ ضعفِ التَّقديرِ في جملةِ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ لاقتضائه تقديرَ الضَّميرِ معَ حرفِ الجرِّ، وجوازِه في جملةِ ﴿أَنفَقُواْ﴾ للعلم به من السِّياقِ[1].

وفي التَّعبيرِ مِن بديعِ الإعجازِ تكثيرُ المعنى بلفظٍ واحدٍ؛ لِصَوْغِ قَوْلِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ في قَالَبٍ صَالحٍ للمصدريَّةِ وللموصوليَّةِ؛ لِيَصْلُحَ الْخِطَابُ لِلْفَرِيقَيْنِ: للجاهلِ بتفضيلِ اللهِ وبالإنفاق وللعالمِ بمضمونِ الصِّلةِ بما جرَى به العرفُ والعادةُ، وثبتَ في الواقعِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل في قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ و﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾:

تصويرُ الحدثِ بصيغةِ الفعلِ لتقريرِ المعنى وتثبيتِه

لَمَّا كان الرَّاجح أن تكونَ (ما) مصدريَّةً في الموضعينِ؛ اقتضى بيانَ نكتةِ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّل دونَ الصَّريح، وبيانُه أنَّ في الْإِتْيَان بـ﴿بِمَا﴾ مَعَ الْفِعْلِ عَلَى تَقْدِيرِ احْتِمَالِ الْمَصْدَرِيَّةِ جَزَالَةً لَا تُوجَدُ في قَوْلِنَا: بِتَفْضِيلِ الله وَبِالْإِنْفَاقِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ يُرَجِّحُونَ الْأَفْعَالَ عَلَى الْأَسْمَاءِ في طُرُقِ التَّعْبِيرِ؛ لِما في التَّعبيرِ بالفعلِ من تصويرٍ للحدثِ، فيتقرَّرُ المعنى، ويثبتُ في النَّفسِ.[3]

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾:

إنفاقُ الرِّجالِ على نساءِ العائلةِ مِن أزواجٍ وبناتٍ أمرٌ قد تقرَّرَ في المُجتمَعاتِ الإنسانيَّةِ مُنذُ القِدَمِ

عبَّر بصيغةِ الماضي في قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ للإيذانِ بأنَّ التَّفضيل أمر قد تمَّ وهو مقطوعٌ به، لنسبته إلى الله تعالى، وعبَّر بصيغةِ الماضي كذلك في قولِه: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ للإيماءِ إِلَى أنَّ ذَلِك

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/506. البيضاويُّ، أنوار التنزيل: 2/72، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/623، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/173، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/56.

(2) ابن عاشور: 5/39.

(3) ابن عاشور: 5/40.

أَمْرٌ قَدْ تَقَرَّرَ في المُجْتَمَعاتِ الإِنْسانيَّةِ مُنْذُ القِدَمِ، فالرِّجالُ هُمُ العائِلونَ لِنِساءِ العائِلَةِ مِنْ أَزْواجٍ وبَناتٍ، فهذهِ حُجَّةٌ خِطابيَّةٌ؛ لِأَنَّها تَرْجِعُ إِلَى مُصْطَلَحِ غالِبِ البَشَرِ، لاسيَّما العَرَبُ[1].

دلالة حذف المفعولِ في قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾:

حذفَ المفعولَ؛ ليَدُلَّ على عُمومِ النَّفَقَةِ[2].

دلالةُ لفظِ ﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ بينَ أنْ يكونَ للتَّبعيضِ وللبيانِ:

النَّفقةُ تجبُ مِنْ بعضِ أموالِ الرِّجالِ

يحتمل حرف الجرِّ ﴿مِنْ﴾ أنْ يكونَ لِلتَّبعيضِ؛ لِلإيذانِ بأنَّ النَّفقةَ تجبُ مِنْ بعضِ أموالِهم، ويحتمل أنْ يكون لبيانِ الجنسِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ المنفَق هو من الأموالِ، وليس شيئًا آخر.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾:

الإنفاقُ من مالِ الرَّجلِ لا من مالِ المرأةِ، والحميَّةُ تقتضي ذلك

وأُضيفَتِ الأَمْوالُ إِلَى ضَميرِ الرِّجالِ؛ لِأَنَّ الاكْتِسابَ مِنْ شَأْنِ الرِّجالِ في الأَصْلِ والغالِبِ، وللإشعارِ بأنَّ قيامَ الرَّجلِ عليها إنَّما يكونُ تامًّا؛ إذا أنفق من ماله لا من مالها، والحميَّة تقتضي ذلك، وفيه إشعار كذلك بأنَّ مالَ المرأة حقٌّ لها[3].

دلالة الفاء بين الاستئنافيَّة والفصيحة والتَّفصيليَّة في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾:

فضيلتا المرأةِ: قيامُها بما يلزمُها في بيت الزَّوجيَّة، وحفظُها بوصيَّةِ الزَّوجِ بها وتسخيرُهُ للقيامِ بمراعاتها

تحتملُ الفاءُ أن تكونَ استئنافيَّةً، وهي بمنزلة التَّفريعِ على ما تقدَّمَ مِنْ ذكرِ ما اختصَّ به الرِّجالُ مِنَ التَّفضيلِ والإنفاقِ، فبيَّنَ هنا فضيلتَي المرأةِ، وإحداهما: قيامُها بما يلزمُها من طاعةِ الأزواجِ - فيما حدَّدهُ الشَّرعُ - وحفظِ غيبِهم، وتحصينِ ما سلَّموهُ إليهنَّ، والثَّانيةُ: إسبالُ اللهِ سترَ رحمتِه عليها وحفظِها بوصيَّةِ الزَّوجِ بها، وتسخيرِهِ للقيامِ بمراعاتها[4].

(1) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/39.
(2) السَّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمنِ في تَفْسيرِ كَلامِ المَنّانِ، تح: عَبْدِ الرَّحمنِ اللّويحق، ص: 177.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/146.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1222، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/208.

لكلِّ صنفٍ من الرِّجالِ والنِّساءِ واجباته وحقوقُه

وتحتمل أن تكون فصيحة؛ لتفصِحَ عن شرطٍ تقديره: إذا كانَ الرِّجال قوَّامين على النِّساء بتفضيل اللّه وبنفقتهم على النِّساء؛ فالواجبُ على النِّساء أن يكنَّ صالحاتٍ قانتاتٍ حافظاتٍ للغيب، أي: إِذَا كَانَ الرِّجَالُ قَوَّامِينَ عَلَى النِّسَاءِ؛ فَمِنَ الْمُهِمِّ الإفصاحُ عن أَحْوَالِ الْأَزْوَاجِ مِنْهُنَّ وَمُعَاشَرَتِهِنَّ أَزْوَاجَهُنَّ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ؛ لبيانِ أنَّ لكلِّ صنفٍ من الرِّجالِ والنِّساءِ واجباته وحقوقه.

مِـنْ صِـفَـةِ الـصَّـالِـحَـاتِ دوامُ الـطَّـاعـةِ والاسـتـقـامـةِ وحـفـظُ الـغـيـبِ بما حفظَ اللهُ

وتحتمل أن تكونَ تفصيليَّةً، لِتَفصِيلِ حالِ النِّسَاءِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَنْزِلِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ المرأةُ فِيهَا تَحتَ رِيَاسَةِ الرَّجُلِ، فأشعرَ أَنَّهُنَّ فِيهَا قِسمَانِ: صَالِحَاتٌ وَناشزاتٌ، وَأَنَّ مِنْ صِفَةِ الصَّالِحَاتِ دوامَ الطَّاعةِ والاستقامةِ وحفظَ الغيبِ بما حفظَ اللّهُ[1].

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾:

يتنوَّع المعنى على وفقِ التَّوجيهِ البلاغيِّ، وفيه احتمالان:

كُلُّ امْرَأَةٍ تَكُونُ صَالِحَةً، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَانِتَةً مُطِيعَةً حافظةً للغيب

أحدهما: أنْ يقالَ: لَمَّا كانت (الـ) في ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ تُفِيدُ الِاسْتِغْرَاقَ، وكانَ الوصفُ باسم الفاعلِ بمنزلة الوجهِ الَّذي بُنِيَ عليه الخبرُ؛ دلَّ التَّعبيرُ على أَنَّ كُلَّ امْرَأَةٍ تَكُونُ صَالِحَةً، لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ قَانِتَةً مُطِيعَةً حافظةً للغيب[2]، فأفاد أنَّ صلاحَ النِّساءِ سببٌ لقنوتهنَّ وحفظهنَّ للغيب، فالكلام على معنى الشَّرط، أي: إذا أرادتِ المرأةُ أنْ تكونَ قانتةً حافظةً للغيبِ؛ فلا بدَّ أنْ تكونَ صالحةً، فعدلَ عن أسلوبِ الشَّرطِ إلى أسلوبِ الإخبارِ بالمبتدأ والخبر؛ لِلإيذانِ بأنَّه أمرٌ ثابتٌ واقعٌ.

الأَمرُ بطاعةِ الله وحفظِ موجبات الغيب

الثَّاني: أنْ يقالَ: لَمَّا كان المرادُ قصدَ التَّفاؤلِ بأنَ يكونَ النِّساءُ صالحاتٍ قانتاتٍ حافظاتٍ للغيبِ، أو قصدَ المبالغةِ في الطَّلبِ، حتَّى كأنَّ المخاطَباتِ سارعنَ في الامتثالِ وتحصيلِ المطلوب؛ عبَّر بالجملة

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 5/58، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/40.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/71.

الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الوقوعِ والثُّبوتِ بطريقِ الإخبارِ، والمرادُ منهُ الأَمرُ بطاعةِ اللهِ وحفظِ موجباتِ الغيبِ[1]، فالكلامُ على الاحتمالينِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر.

دلالةُ حرفِ الجرِّ اللّامِ في قولِه: ﴿لِّلۡغَيۡبِ﴾:

تأكيدُ الأمرِ بحفظِ النِّساءِ لغيبِ الرِّجالِ

لَمَّا كانَ ﴿حَٰفِظَٰتٞ﴾ يتعدَّى بنفسِهِ إلى المفعولِ؛ دلَّ مجيءُ اللَّامِ على تقويةِ تخصيصِ حفظِ غيبِ الرِّجالِ بالنِّساءِ وتأكيدِهِ.[2]

دلالة (ال) في قوله ﴿لِّلۡغَيۡبِ﴾:

حفظُ غيبِ الزَّوجِ حالَ حُضورِه وحالَ غَيبتِه

(الـ) هنا عوضٌ عن المضافِ إليه، بمعنى: حافظات لِغيبِهم، أي: غيبِ الزَّوجِ، وَالِاسْتِغْنَاءُ عن الإضافةِ بهَا كثيرٌ، كقولِهِ: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، أي: رأسي، فعدلَ عنِ الضَّميرِ إلى (الـ)؛ لِيفيدَ حفظَهُنَّ لِكُلِّ ما غابَ عنْ عِلمِ زوجِهَا مِمَّا استتَرَ عنهُ، وذلكَ يَعُمُّ حالَ غَيبَةِ الزَّوجِ، وحالَ حُضورِه[3].

نكتةُ تقديمِ قولِه: ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ على قولِهِ: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾:

التَّلازمُ بينَ طاعةِ اللهِ وحفظِ حقِّ الأزواجِ

لَمَّا كانَ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ بمعنى: دائماتٍ على طاعةِ اللهِ، وكانَ ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾ بمعنى: قَائِمَاتٍ بِحُقُوقِ الزَّوْجِ جمعَ بينهما؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَلَازُمِ طاعةِ اللهِ وَحفظِ حَقِّ أَزواجِهِنَّ، وقَدَّمَ قَضَاءَ حَقِّ اللهِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِقَضَاءِ حَقِّ الزَّوجِ، وأيضًا لَمَّا أرادَ أنْ يستوعِبَ حالَ المرأةِ مَعَ زوجِها؛ عبَّرَ بحالِها عِندَ حُضُورِ الزَّوجِ أَو عِندَ غَيبتِهِ: أَمَّا حَالُهَا عِنْدَ حُضُورِ الزَّوجِ؛ فقدْ وصفَهَا اللهُ بأَنَّهَا قَانتةٌ، وأمَّا حالُها عِندَ غَيبةِ الزَّوجِ؛ فقدْ وصفَهَا اللهُ تَعَالَى بقولِهِ: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾، بمعنى: حافظاتٍ لِمواجِبِ الغيبِ؛ إذا كانَ الأزواجُ غيرَ شاهدينَ لهنَّ من الفروجِ والبيوتِ والأموالِ[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/71، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/170، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/40.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 3/74.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/47، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/624.
(4) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/506، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/71، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/40.

بلاغة المجاز العقليّ في قوله: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾:

هــذه العــبــارةُ مــن أبــلــغِ ما فــي الــقــرآنِ من دقــائــق كــنــايــاتِ الإيماءِ

عُلِّقَ الحِفظُ بالغيبِ على سبيلِ المجازِ العقليِّ، فجُعِلَ مَفْعُولًا لِلْحِفْظِ عَلَى التَّوَسُّعِ؛ لِأَنَّهُ في الْحَقِيقَةِ ظَرْفٌ لِلْحِفْظِ ووقتٌ له، فَأُقِيمَ مَقَامَ الْمَفْعُولِ، ونكتةُ العدولِ إلى المجازِ: أنَّه - بدلًا من أنْ يذكرَ مفعول الحفظِ، فيقولَ: حافظاتٌ مالَ أزواجهنَّ وقتَ الغيبةِ وعِرضَهم وبيتَهم، فيعدِّدَ كلَّ ما من شأنِه أنْ تقومَ الزَّوجةُ بحفظِه وقتَ غيبةِ زوجِها - أقامَ الغيبَ مقامَ المفعولِ، فقالَ: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾، أي: لغيبِهم؛ لِيَشملَ كُلَّ مَا هو مَظَنَّةُ تَخَلُّفِ الْحِفظِ في مُدَّةِ غيبتِه: مِنْ كُلِّ مَا شَأْنُهُ أَنْ يحرسَهُ الزَّوجُ الحاضِرُ مِنْ أحوالِ امرأتِهِ في عِرضِهِ وَمَالِهِ وغيرِهما، ويشمل كذلكَ وجوبَ كتمانِ ما يكونُ بَينَهُنَّ وَبينَ أَزواجِهِنَّ في الخلوَةِ، ولا سِيَّما حديثُ الرَّفَثِ، فَحصلَ بِإنابةِ الظَّرفِ عَنِ الْمفعولِ إيجازٌ بَدِيعٌ وتعميمٌ في المعنى، وهَذِهِ العبارَةُ مِن أبلغِ مَا في الْقُرآنِ مِنْ دقائِقِ كِناياتِ النَّزاهَةِ، تَقْرَؤُهَا خَرَائِدُ الْعَذَارَى جَهرًا، وَيَفْهَمْنَ مَا تُومِئُ إليهِ مِمَّا يَكونُ سِرًّا.(1)

دلالةُ قولِه: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾:

تذكيرُ الزَّوجاتِ بأنْ يكونَ حفظهنَّ الغيبَ حِفْظًا مُطَابِقًا لِأَمْرِ الله تَعَالَى

تحتملُ ﴿بِمَا﴾ أنْ تكونَ مصدريَّةً، والباءُ: إمَّا لِلملابسةِ، وإمَّا لِلسببيَّةِ، فإذا كانت للملابسة؛ فالمعنى: بِملابسةِ حِفظِ اللّٰه، أي: حافظاتٌ للغيبِ حِفظًا مُطابِقًا لِأمرِ اللّٰه تَعالَى لا يتجاوزْنَهُ إلى المعصيةِ، أو المعنى: حافظاتٌ للغيبِ بملابسةِ حفظِ اللّٰه إيَّاهُ بِصلاحِهِنَّ، مِنْ مُراقبةِ اللّٰه تَعَالَى وتقواهُ مَا يجعلُهَا محفوظَةً مِنَ الخيانةِ، قَوِيَّةً عَلَى حِفظِ الأَمانةِ، وإذا كانت لِلسَّببيَّةِ؛ فالمعنى: حافظاتٌ للغيبِ بسببِ حفظِ اللّٰه.

وتَحتملُ (ما) أنْ تكونَ موصولةً، والمعنى: بالَّذي حفِظَ اللّٰهُ

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 5/59، وابن عاشور: التحرير والتنوير: 5/40.

لهنَّ عليهم، ممَّا هو معلومٌ بينَ النَّاسِ مِنْ حقوقِهِ، فاللَّفظُ واحدٌ، والمعنى متعدِّدٌ.

حفظ غيبِ الزَّوجِ من الحقوقِ المعلومةِ بيْنَ النَّاسِ

بديعُ المقابلةِ بالعطفِ في قولِه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾:

عطفَ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ على قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ على سبيلِ المقابلةِ؛ ليكونَ النُّشوزُ مقابلًا لصلاحِهنَّ وقنوتِهنَّ وحفظِهنَّ أزواجهنَّ في غيبتِهم، ولَمْ يُعَدِّدْ لَهُنَّ معَ النُّشوزِ صِفاتِ السُّوءِ الَّتي تُقابلُ الصِّفاتِ الحَسَنَةَ؛ لأَنَّ لفظةَ النُّشوزِ كافيَةٌ في الوصفِ المقابِلِ للصِّفاتِ المحمودَةِ في النِّساءِ مِنْ جِهَةٍ؛ لجِماعِ معنى السُّوءِ فيها، ولِملاحَظَةِ تغليبِ صِفةِ الصَّلاحِ فيهِنَّ مِنْ جهةٍ أُخرى، فلمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعالى الصَّالِحاتِ وصِفاتِهِنَّ؛ ذَكَرَ بعدَهُ غيرَ الصَّالِحاتِ[1].

لفظةُ النُّشوزِ جامعةٌ لمعاني السُّوءِ للمعاملةِ في العلاقةِ الزَّوجيَّة

مناسبةُ مجيءِ الاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾:

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الأمرَ بالموعظةِ أو الهجرانِ أو الضَّربِ مبنيٌّ على الخوفِ من نشوزهنَّ، فيكونُ في مقامِ السَّببِ لوقوعِ المسبَّبِ، وإذا انتفى السَّببُ؛ انتفى الأمرُ بالموعظةِ وما بعدها، كما أشعرَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ بتوجيهِ ذهنِ السَّامعِ إلى ما سَيُخبرُ به عن اللَّاتي تخافونَ نشوزهنَّ؛ ليكونَ منتظرًا الخبرَ مترقِّبًا به، حتَّى يأخذَ منهُ مكانَهُ؛ إذا سمعَهُ[2].

إذا انتفى خوفُ النُّشوزِ؛ انتفى الأمرُ بالموعظةِ وما بعدها

دلالة لفظ ﴿تَخَافُونَ﴾ بينَ تحقُّقِ النُّشوزِ وتوقُّعِه:

يحتملُ اللَّفظُ أنْ يكونَ بمعنى العلمِ بتحقُّقِ النُّشوزِ وحصولِه، لورودِه بهذا المعنى في كلامِ العربِ، ودلَّ مجيءُ الفاءِ العاطفةِ على ترتُّبِ الحُكمِ على محذوفٍ، وتقديرُ الكلامِ: (واللَّاتي تخافونَ نشوزَهنَّ، فنشَزْنَ، فعِظوهُنَّ)، فتكونُ الموعظةُ وما بعدَها مرتَّبةً

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/71.

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 182.

على تحقُّقِ النُّشوزِ، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾، ومثلُه في الحذفِ قولُه تعالى: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ﴾، فتَقْدِيرُهُ: فضربَهُ، فَانفجرَتْ؛ لِأَنَّ الانفجارَ لَا يَتَسبَّبُ عَنِ الْأَمرِ، إِنَّمَا هو مُتَسَبِّبٌ عَنِ الضَّربِ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ظهورَ أماراتِ النُّشوزِ سببٌ لِوعظِهنَّ أو هجرِهنَّ أو ضربِهنَّ لِظاهرِ السِّياق؛ لأنَّ الخوفَ هو توقُّع حصولِ المكروه؛ لِيكونَ قطعًا للأمرِ قبلَ حصولِ النُّشوزِ، ولِلتَّعرُّف بمراتبِ التَّأديبِ على أحوالهن وتحقُّقِ أمرِهنَّ في النُّشوزِ، وأيضًا لِلإشارةِ إلى ضرورةِ المُبادرةِ بِعِلاجِ النُّشوزِ بمجرَّدِ ظُهورِ أماراتِه[1]

مناسبة الجمعِ بين المعطوفات في قولِه: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾:

العِظةُ والهجرُ والضَّربُ مراتبُ، إنْ وقعتِ الطَّاعةُ عند إحداها لمْ يتعدَّ إلى سائرِها

دلَّ السِّياقُ والقرينةُ العقليَّةُ على مجيءِ الأوامرِ على التَّرتيبِ في التَّأديبِ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، إِذْ لَو عُكِسَ؛ كَانَ استغناءً بِالأَشدِّ عَنِ الأَضعفِ، فلا يكُونُ لِهذا فائِدةٌ، كما أنَّ الواوَ العاطفةَ - وإنْ كانتْ لا تفيدُ التَّرتيبَ، لكنَّها بدخولِها على أمورٍ مختلفةٍ في الشِّدَّةِ وَالضَّعْفِ، مُرَتَّبَة في الذِّكرِ على أَمرٍ مُدرَجٍ - أشعرتْ بالتَّرتيبِ، والسِّياقُ يؤيِّدُهُ؛ ولذا قالَ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 158]: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»، فَبَدَأَ بِالصَّفَا[2]، فإنْ وَقعَتِ الطَّاعةُ بالوعظِ بِلِينِ القولِ أو بخَشِنِه؛ لَمْ يتَعدَّ إلى سائِرِها، فدلَّ الكلامُ والسِّياقُ على أنَّه مهما حَصلَ الغرضُ بِالطَّرِيقِ الأَخفِّ؛ وجبَ الاكتِفاءُ بِهِ، ولمْ يَجُزِ الإِقدامُ على الطَّرِيقِ الأَشقِّ[3]

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/298، والزَّمَخشري، الكشاف: 1/507، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/48، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/628.

(2) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث: 1218.

(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/507، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/48، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/72، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/628.

مجيء أفعال الأمر على خلافِ مقتضى الظَّاهر في قولِه: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾:

العناية بشأنِ الأسرةِ والحذرُ من وقوعِ الضَّررِ فيها

جاءتْ أفعالُ الأمر هنا على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ الأمرَ هنا على سبيلِ الإرشاد، وليس على سبيلِ الوجوب، ونكتةُ التَّعبير بفعلِ الأمرِ هو العناية بشأنِ الأسرةِ، والحذرُ من وقوعِ الضَّررِ فيها، وإنَّما قلنا: إنَّ الأمرَ ليسَ للوجوبِ؛ لِمَا ذهبَ إليهِ الشَّافعيُّ - رحمهُ اللّٰه - مِنْ أنَّ الضَّربَ مُباحٌ، والأولى تركُه.[1]

بلاغة الكنايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾:

الإرشادُ إلى أدَبِ الكَلامِ ومُراعاةِ الحَياءِ في الخِطابِ

جاءَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فلمْ يُصرِّحْ بالمرادِ؛ إكرامًا للمرأةِ وأدبًا في التَّعبير، ولَمَّا كانَ قولُه: ﴿فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ ظرفًا لقولِه: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ﴾؛ كانَ الكلامُ على طريقِ الكنايةِ، إذْ ذكرَ اللَّازمَ، وأرادَ به المَلْزومَ، فيحتملُ أنْ يكونَ كنايةً عنِ الجماع، وهو الظَّاهرُ؛ لِكونِهِ أكثرَ تأثيرًا في رجوعِ المرأةِ إلى رُشدِها، وأليقَ بالسَّترِ عليها، كما أنَّه هو المتبادرُ في عرفِ الاستعمالِ اللُّغوي لهذهِ الكلماتِ، ويحتملُ أنْ يكونَ كنايةً عن المراقدِ، والمعنى: فلا تُدْخِلوهنَّ تحتَ اللُّحفِ، ولا تباشِروهنَّ، فيكون كنايةً عن الجمع، كما يحتملُ أنْ يكونَ ذكرُ المضاجعِ كنايةً عن البيوتِ، والمعنى: اهجروهنّ في البيوتِ[2].

نكتة مجيء الشَّرطِ في قولِه: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾:

الاكتفاء بإظهارِ الطَّاعةِ مِنَ الزَّوجِ في الظَّاهرِ دونَ التَّفتيشِ عن ما في قلبِها

عبَّر بـ ﴿فَإِنۡ﴾ الشَّرطيَّة الدَّالَّة على الشَّكِّ في الوقوعِ؛ للإشعارِ بأنَّ الطَّاعَةَ الكامِلَةَ مِنَ الزَّوجةِ مَظِنَّةُ الشَّكِّ، فيُقبَلُ منها مسمَّى الطَّاعة، ولهذا صرَّح المفسِّرونَ بأنَّ المرادَ إظهارُ الطَّاعةِ في الظَّاهر

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/72، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 6/365.

(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1224، أبو حيّان، البحر المحيط: 3/726، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/148 أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/174، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/60.

دونَ التَّفتيشِ عن ما في قلبِها، فإنَّ المحبَّة بالقلب، فليس من فعلها، فتُؤخَذُ به.[1]

السِّرُّ في التَّعبيرِ بالخَوفِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾:

المُبادَرَةُ إلى حَلِّ النِّزاعاتِ الزَّوْجيَّةِ عِنْدَ ظُهورِ بَوادِرِها

فَلَمْ يَقُلْ: "واللَّاتي يَنْشُزْنَ"، أو "واللَّاتي نَشَزْنَ"؛ لِلإشارَةِ إلى ضَرورَةِ المُبادَرَةِ بِعِلاجِ النُّشوزِ بِمُجَرَّدِ ظُهورِ أَماراتِه[2]، فلَمْ يَشَأْ أَنْ يُسْنِدَ النُّشوزَ إلى النِّساءِ إسْنادًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ شَأْنِه أَنْ يَقَعَ مِنْهُنَّ فِعْلًا، بَلْ عَبَّرَ عَنْ ذلِكَ بِعِبارَةٍ تُومِئُ إلى أَنَّ مِنْ شَأْنِه أَلَّا يَقَعَ؛ لِأَنَّهُ خُروجٌ عَنِ الأَصْلِ الَّذي يَقومُ بِهِ نِظامُ الفِطْرَةِ، وتَطيبُ بِهِ المَعيشَةُ، ففي هَذا التَّعْبيرِ تَنْبيهٌ لَطيفٌ إلى مَكانَةِ المَرْأَةِ، وما هوَ الأَوْلى في شَأْنِها، فَرَتَّبَ الحَقُّ الحُكْمَ على مُجَرَّدِ الخَوْفِ مِنَ النُّشوزِ، لا على حُدوثِ النُّشوزِ بالفِعْلِ، وهَذِهِ لَفْتَةٌ للمبادرة في الإصلاحِ قبل وقوعِ النُّشوزِ؛ بأَنْ يَتَلافَى الأَسْبابَ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ؛ لِأَنَّها إِنْ وقَعَتْ رُبَّما اسْتَعْصى عَلَيْهِ تَدارُكُها.[3]

دلالة جزاء الشَّرط في قوله: ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾:

إنْ وعظَ الزَّوجُ زوجَتَهُ على نُشوزِها، أو هَجَرَها، أو ضَرَبَها بعدَ ظهورِ طاعتِها؛ فهو ظالمٌ لها

لَمَّا كانَ الشَّرطُ بمنزلة السَّببِ لوقوعِ الجزاءِ، وكان مقترنًا بِهِ في الوقوعِ؛ أفادَ ذكرُ الجزاءِ أنَّ ظهورَ الطَّاعةِ منَ الزَّوجةِ يمنعُ الزَّوجَ من البغيِ عليها، وأكَّدهُ بتصديرِ الجزاءِ بالفاءِ المُنْبِئة عنْ سببيَّةِ ما قبلَها لِمَا بعدَها؛ للإشعارِ بأنَّه إنْ وعظَها على نشوزِها، أو هَجَرَها، أو ضَرَبَها بعدَ ظهورِ طاعتِها، سيكونُ ظالِمًا لها.

دلالةُ لفظِ البغيِ في قولِه: ﴿فَلَا تَبۡغُواْ﴾:

يحتملُ لفظُ ﴿تَبۡغُواْ﴾: أنْ يكونَ بمعنى: تطلبوا، من قولهم: بَغَيْتُه،

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1225.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، ورَشيد رضا، تَفْسيرُ المنار: 5/59، وسْماعيل حَقّي الإسْتانْبولي، روحُ البَيان: 2/202، والقِنَّوْجيُّ، فتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/106.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، ورَشيد رضا، تَفْسيرُ المنار: 5/59، وإسْماعيل حَقّي الإسْتانْبولي، روحُ البَيان: 2/202، والقِنَّوْجيُّ، فتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/106.

أي: طلبتُه والمعنى: لَا تَطلُبوا عليهِنَّ الضَّربَ والهِجرانَ طرِيقًا على سَبيلِ التَّعنُّتِ والإيذاءِ، أو فلا تَطلُبوا طرِيقًا لِإجراءِ تِلكَ الزَّواجِرِ عليهِنَّ، ويحتمل أنْ يكونَ بمعنى: تَظلمُوا، والمعنى: لَا تجنُوا عليهِنَّ بِقولٍ أو فِعلٍ أو بأيِّ سبيلٍ يقعُ بِهِ الأذى عليهِنَّ، وهذا نَهيٌ عَنْ ظُلمِهِنَّ، ومآلُ الاحتمالينِ واحدٌ، وهو طلبُ الكَفِّ عنِ التَّعرُّضِ لهنَّ، بأنْ يجعلَ الأزواجُ ما كانَ منهنَّ كأنْ لم يكنْ، فإنَّ التَّائبَ منَ الذَّنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ(1).

طلبُ الكَفِّ عنِ التَّعرُّضِ للأزواجِ بعدَ ظهورِ الطَّاعةِ، بأنْ يجعلُوا ما كانَ منهنَّ كأنْ لم يكنْ

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾:

قدَّم ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾، وهو حالٌ من ﴿سَبِيلًاۗ﴾؛ لأنَّه في الأصلِ صفةُ النَّكرةِ قُدِّمَ عليه، وفائدةُ التَّقديمِ: تأكيدُ النَّهيِ عنْ ظلمِهِنَّ، والاهتمامُ بهِ.

تأكيدُ النَّهيِ عن ظلمِ الأزواجِ بعدَ ظهورِ طاعتِهنَّ

براعةُ التَّضمينِ في قولِه: ﴿سَبِيلًاۗ﴾:

لَمَّا كانَ لفظُ السَّبيلِ يتعدَّى بـ (إلى) بأنْ يُقالَ لا سبيلَ إليه؛ كان التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ؛ لِتضمينِ ﴿سَبِيلًاۗ﴾ معنى: الحكمِ والسُّلطانِ، فتضمَّنَ اللَّفظُ معنى: الطَّريقِ، ومعنى: السُّلطانِ، والتَّقديرُ: فلا تَبْغُوا سلطانًا عليهنَّ، تصِلونَ بهِ إلى أذيَّتِهِنَّ.(2)

النَّهيُ عن اتِّخاذِ أيِّ طريقٍ لِلتَّسلُّطِ على الأزواجِ للوصولِ إلى أذيَّتِهنَّ

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِه: ﴿سَبِيلًاۗ﴾:

لَمَّا جاءَ الاسم ﴿سَبِيلًاۗ﴾ نَكِرَةً في سِيَاقِ النَّفْيِ، أفادَ عمومَ النَّهْيِ عَنِ الْأَذَى بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أو إشارةٍ أو أيِّ سبيلٍ يتوصَّل به الزَّوجُ إلى أذى الزَّوجةِ أو ضررِها.(3)

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/73، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/173، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/174.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/42.

(3) أَبو حَيّان، البحر المحيط: 3/628.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾:

سلك في الكلام طريق الاستعارة؛ إذ استعار السَّبيل الَّذي حَقِيقَتُهُ الطَّرِيقُ، وَأُطْلِقَ هُنَا مَجَازًا عَلَى التَّوَسُّلِ وَالتَّسَبُّبِ وَالتَّذَرُّعِ إِلَى أَخْذِ الْحَقِّ[1]، على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لتأكيدِ النّهي والمبالغةِ فيه، وللإشعارِ بأنَّ بعضَ الأزواجِ قد يتَّخذونَ الأذى طريقًا إلى ظُلمِ أزواجِهم بدعوى الإصلاحِ.

مجيءُ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ في الخطابِ:

أصلُ الخطابِ أنْ يكونَ معَ مخاطبٍ معيَّن، وقُصِدَ به هنا: العمومُ، فالْخِطَابُ صَالِحٌ لِكُلِّ مَنْ جُعِلَ لَهُ سَبِيلٌ عَلَى الزَّوْجَاتِ في حَالَةِ النُّشُوزِ، وليس مختصًّا بالمخاطبين وقت نزولِ القرآن؛ لِيكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، وأتى على طريقةِ الخطابِ؛ لأنَّهُ أكثرُ تأثيرًا في المخاطَبين، وأحرى بهم أنْ يمتثلوا لَهُ[2].

حسنُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾:

التَّهديدُ والوَعيدُ على العُلوِّ ومُجاوزَة الحدِّ في العُقوبَة

في جملة التَّذييل وتضمُّنها هاتين الصِّفتين الجليلتين فوائد بديعة هي[3]:

أوّلًا: أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ وصفِ اللهِ بكونِه عليًّا كبيرًا.

ثانيًا: كما أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تعليلَ جميعِ ما تقدَّمها في الآيةِ؛ لتكونَ بمنزلة التَّعليلِ لكلِّ ما أخبرَ اللهُ بهِ في هذهِ الآيةِ.

ثالثًا: دلَّ تعبيرُ: ﴿كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ على استمرارِ كونِ اللهِ عليًّا كبيرًا، وظهورِ آثارِ اتِّصافِهِ تعالى بهاتين الصِّفتينِ الجليلتينِ.

رابعًا: أفادتْ جملةُ التَّذييلِ تَهْدِيدَ الْأَزْواجِ بسببِ ظُلمِ النِّسوانِ، وتحذيرَهم، والمعنَى: أَنَّهُنَّ إِنْ ضَعُفْنَ عَنْ دَفعِ ظُلمِكُمْ، وَعَجزْنَ عَن

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/42.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/42.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/73، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/628.

الِانتصافِ مِنكمْ، فاللّه سبحانَهُ عَلِيٌّ قَاهِرٌ كَبِيرٌ قَادِرٌ ينتصفُ لَهُنَّ مِنكُمْ، ويستَوفي حَقَّهُنَّ منكمْ، فلا ينبغِي أَنْ تَغتَرُّوا بِكونِكُمْ أَعلى يَدًا مِنْهُنَّ، وَأَكبَرَ درجةً مِنْهُنَّ.

خامسًا: لَمَّا كَانَ في تَأديبِهِنَّ بِمَا أَمرَ تَعالى بِهِ الزَّوجَ اعتلاءٌ لِلزَّوجِ على المرأةِ؛ خَتمَ تعالى الآيةَ بِصفةِ العلوِّ والكِبَرِ، لِيُنَبِّهَ العبْدَ على أَنَّ الْمُتَّصِفَ بذلكَ حقيقةً هُو اللّه تعالى، وإِنَّما أَذِنَ لكمْ فيما أَذِنَ على سبيلِ التَّأديبِ لهُنَّ، فلا تستَعلُوا عليهنَّ، ولا تتكبَّرُوا عليهِنَّ.

سادسًا: لا تبغُوا عليهِنَّ؛ إذا أَطعنَكُمْ لِعلُوِّ أَيديكُمْ، فَإِنَّ اللّه أَعلى منكمْ وَأَكبرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، وهو مُتعالٍ عَنْ أَنْ يُكلِّفَ إِلَّا بالحقِّ.

سابعًا: أَنَّهُ تعالَى معَ عُلُوِّهِ وكِبريائِهِ لا يُكَلِّفُكُمْ إِلَّا ما تُطيقونَ، فكذلكَ لا تُكَلِّفوهُنَّ محبَّتكمْ، فَإِنَّهُنَّ لا يقدرْنَ على ذلكَ.

ثامنًا: أنَّه على علوِّ شأنِه سبحانَه يتجاوزُ عن سيِّئاتِكم، ويتوبُ عليكم، فأنتمْ أحقُّ بالعفوِ عن أزواجِكم.

تاسعًا: أَنَّهُ تعالى معَ عُلُوِّهِ وكبريائِهِ اكتفَى مِنَ العبدِ بِالظَّواهِرِ، وَلَمْ يهتِكِ السَّرائِرَ، فَأَنتُمْ أَولى أَنْ تَكتفوا بِظاهِرِ حَالِ المرأَةِ، وَأَلَّا تقعوا في التَّفتيشِ عَمَّا في قلبِها وضميرِها من الحبِّ والبغضِ.

عاشرًا: في جملةِ التَّذييلِ إيذانٌ للرِّجالِ والنِّساءِ أنَّه سبحانه يتعالى من أنْ يظلمَ أحدًا، أو يَنقُصَ حقَّهُ.

الحادي عشر: لَمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى: العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانتْ بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القِوامَة والوِلايَة:

يقال: قام على الشَّيء؛ إذا كان يرعاه، ويحفظه، ويتولَّاه بعنايته والمحافظة عليه، والرِّياسة تسمَّى: قوامة؛ إذا كان الرَّئيس يقوم على رعاية المرؤوس، والمحافظة على حقوقه وواجباته، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فإنَّ المعنى:

أنَّ الرِّجال يقومون على شؤون النِّساء، بالحفظ والرِّعاية والكلاءة والحماية[1]، والقوامةُ: تَكونُ على النَّفْسِ والمَرْأَةِ والصَّغيرِ والسَّفيهِ والمَجْنونِ، والقوامةُ على المالِ، أَمَّا الوِلايَةُ؛ فقَدْ تَكونُ خاصَّةً: كالقِيامَةِ على النَّفْسِ والزَّوْجَةِ والمالِ، وقَدْ تَكونُ عامَّةً: كَوِلايَةِ السُّلْطانِ على الأُمَّةِ، كَما أَنَّ في الوِلايَةِ مَعْنى الحُبِّ والنُّصْرَةِ والإِعانَةِ، فالوِلايَةُ أَعَمُّ مِنْ هذهِ الجِهَةِ[2]، وليست القوامة على النِّساء سلطة وتحكُّمًا، ولكنَّها إرعاء وتفهُّم[3]، أمَّا الولاية؛ فقد اختار الطَّبريُّ أن يكون: ﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة: 51] بمعنى: أنصار بعض، قال ابن عبَّاس: كانت هذه الولاية في الميراث، فكان المهاجرون والأنصار يرث بعضهم بعضًا بالهجرة دون القرابة، حتَّى نزلت بعده: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ [الأنفال: 75]، فنسخت مواريث المهاجرين والأنصار بعضهم من بعض[4].

الخُشوع والقُنوت:

الخُشوعُ: خُضوعُ القَلْبِ، والقُنوتُ: دَوامُ الطَّاعَةِ، والخُشوعُ: لينُ القَلْبِ وخُضوعُهُ ورِقَّتُهُ وسُكونُهُ، وحُضورُهُ وقْتَ تَلَبُّسِهِ بالطَّاعَةِ، فتَتْبَعُهُ جَميعُ الجَوارِحِ والأَعْضاءِ[5]، وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: الْخُشُوعُ: الْخَوْفُ الثَّابِتُ فِي الْقَلْبِ، وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: الْخُشُوعُ: غَضُّ الْبَصَرِ وَخَفْضُ الْجَنَاحِ[6]، "الخشوع علانيَة: وهو الوقوف بين يدي الله تعالى على الإقامة على شروط آداب الآمر، وهو تخليص الحركات والسُّكون عمَّا سواه، وأصل ذلك الخشية في السِّرِّ، فإذا أعطي الخشية؛ ظهر الخشوع على ظاهره"[7]، وقيل: الخشوع في الصَّلاة: هو جمع الهمَّة، والإعراض عمَّا سواها، والتَّدبُّر فيما يجري على لسانه من القراءة والذِّكر[8]، أَمَّا القُنوتُ؛ فيَرِدُ في القُرْآنِ على قِسْمَيْنِ: القِسْمُ الأَوَّلُ: قُنوتٌ عامٌّ لِجَميعِ المَخْلوقاتِ، بِمَعْنى: الخُضوعِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الرُّوم: 26]، والمَعْنى:

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1667.

(2) مَجْموعَةُ باحِثِين، المَوْسوعَةُ الفِقْهيَّةُ الكُوَيْتيَّةُ، وزارَةُ الأَوْقافِ والشُّؤونِ الإِسْلاميَّةِ، الكوَيْت، ط: 2، 1427هـ: 45/139.

(3) الحجازيّ، محمّد محمود، التّفسير الواضح: 1/370.

(4) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/2897.

(5) ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَليُّ، الذُّلُّ والانْكِسارُ لِلْعَزيزِ الجَبّارِ، تح: طارق حِجازيّ، دارُ الرِّسالَةِ، القاهِرَةُ، ط: 01، 1420هـ، ص: 35.

(6) يحيى بن سلاّم، تفسير يحيى بن سلام: 1/392.

(7) التُّستري، تفسير التّستريّ، ص: 109.

(8) البغويّ، معالم التّنزيل في تفسير القرآن: 3/359.

الكُلُّ عَبيدٌ خاضِعونَ لِرُبوبيَّتِهِ وتَدْبيرِهِ ﷻ، لا مَعْبودَ بِحَقٍّ سِواهُ، والقِسْمُ الثَّاني: القُنوتُ الخاصُّ: وهوَ دَوامُ الطَّاعَةِ للّٰهِ على وجْهِ الخُشوعِ، وهوَ الأَكْثَرُ في القُرْآنِ الكَريم، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزُّمَر: 9]، ونَحْوُ ذَلِكَ[1]، والخشوع: ثمرة العبوديَّة للّٰه، يخبت به القلب، ويستريح به الضَّمير، ويجد به للعبادة مذاقًا خاصًّا، يزداد به المؤمن إيمانًا مع إيمانه، ويمتح به من موائد العرفان، ما يضمن له الأيلولة إلى متعة الجنان، وأمَّا القنوت

الحِفْظ والرِّعايَة:

الحِفْظُ: صَرْفُ المَكارِهِ عَنِ الشَّيْءِ لِئَلَّا يَهْلِكَ، والرِّعايَةُ: فِعْلُ السَّبَبِ الَّذي يَصْرِفُ المَكارِهَ عَنْهُ، فالرِّعايَةُ سابِقَةٌ لِلْحِفْظِ، ومِنْ ثَمَّ يُقالُ: فُلانٌ يَرْعى العُهودَ بَيْنَهُ وبَيْنَ فُلانٍ، أَيْ: يَحْفَظُ الأَسْبابَ الَّتي تَبْقى مَعَها تِلْكَ العُهودُ، ومِنْهُ راعي المَواشي لِتَفَقُّدِهِ أُمورَها، ونَفْيِ الأَسْبابِ الَّتي يَخْشى عَلَيْها الضَّياعَ مِنْها، فكُلُّ حافِظٍ راعٍ، فالحِفْظُ أَعَمُّ، والرِّعايَةُ أَسْبَقُ[2]، وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْهُما على الآخَرِ في حَقِّ اللّٰهِ، فيُقالُ: في رِعايَةِ اللّٰهِ تعالى، أَيْ: في حِفْظِهِ[3]، والمعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾ [المائدة: 12] معيَّة مجازيَّة، بمعنى: الحفظ والرِّعاية والنُّصرة[4]، وكذلك قوله على لسان النَّبيِّ ﷺ لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التَّوبة: 40]، بيان لما أحاط اللّٰه به نبيَّه من مظاهر الحفظ والرِّعاية[5]، وفي الحديث المشهور: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ، وَالْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ»، أراد بالضَّمان هاهنا: الحفظ والرِّعاية، لا ضمان الغرامة؛ لأنَّه يحفظ على القوم صلاتهم[6].

البَغْي والظُّلْم:

الظُّلْمُ: مُجاوَزَةُ الحُدودِ وتَعَدِّيها بِغَيْرِ حَقٍّ بالكُلِّيَّةِ، وقد كَثُرَ وُرُودُهُ في القُرْآنِ الكَريم، وتَعَدَّدَتْ مَعانيهِ بِحَسَبِ السِّياقاتِ، ومِنْهُ ظُلْمٌ بَيْنَ الإِنْسانِ وبَيْنَ اللّٰهِ تَعالى، وأَعْظَمُهُ الكُفْرُ

(1) السّعْدي، تَيْسِيرُ اللَّطيفِ المَنّان: 1/311.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 205.
(3) الحِميَرِيّ، شَمْسُ العُلوم: 4/2547.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 4/80.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/292.
(6) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 3/102.

والشِّرْكُ والنِّفاقُ، كَما في الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13]، وفي قَوْلِه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: 18]، ومِنْهُ ظُلْمُ الإِنْسانِ لِلْإِنْسانِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: 42]، ويُطْلَقُ البَغْيُ على التَّرَقِّي في الفَسادِ، وشِدَّةِ الطَّلَبِ لما لَيْسَ بِحَقٍّ[1]، وقَدْ ورَدَ لفظُ البَغْيِ ومُشْتَقّاتُهُ في آياتٍ كَثيرَةٍ، ومِنْ ذلِكَ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ﴾ [البقرة: 90]، و﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33]، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ [البقرة: 194]، يشار إلى أنَّ البغي، والظُّلم، والعدوان.. كلُّها وجوه منكرة من وجوه المنكر، ومطلوب من كلِّ مؤمن بالله، أن يدفع المنكر بكلِّ ما ملكت يده، ووسع جهده[2]، وفي الحديث عن ابن عبَّاس رضى الله عنه: «لَوْ بَغى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ؛ لَدُكَّ البَاغِي»[3]، وقد قيل في هذا المضمار:

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ *** فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ الْمَرْءِ أَعْدَلُهُ

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ *** لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ[4]

(1) الكفوي، الكُلِّيَّاتُ، ص: 247، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 232.

(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/1043.

(3) هذا الحديث، أخرجه البخاري في الأدب، عن ابن عبّاس: (رضى الله عنهما) موقوفا، ورواه ابن المبارك في الزّهد عن مجاهد مرسلا، ورواه البيهقيّ في الشّعب، ورواه ابن مردويه عن أنس: (رضى الله عنه)، وأخرجه ابن حبّان في الضّعفاء.

(4) البيتان كان المأمون العبّاسي يتمثّل بهما في حربه مع أخيه الأمين، ولم نعثر لهما على قائل.

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ [النِّساءُ: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربـــط الأمـــر بـمـعـالَـجَـةِ الزَّوج للنُّشوزِ، بمشاركة حكمي الأســرتــين في الإصلاح

لَمَّا ذكَرَ اللّٰه ﷻ الحالَ الأوَّلَ، وهوَ إذا كانَ النُّفورُ والنُّشوزُ مِنَ الزَّوْجَةِ، وأَنَّ الزَّوجَ يعِظُها، ثمَّ يَهْجُرُها، ثمَّ يَضْرِبُها، مِنْ غيرِ قَسْوَةٍ ولا عنف ولا طُغْيانٍ؛ ذَكَرَ الحالَ الثَّاني، وهوَ إذا كانَ النُّفورُ مِنَ الزَّوْجَيْنِ، وبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَعْدَ كُلِّ هذا إلَّا المُحاكَمَةُ إلى مَنْ يُنْصِفُ المظلومَ من الظَّالم[1]، حَيْثُ يَخْرُجُ أَمْرُ مُعالَجَةِ الخِلافِ مِنْ مُحيطِ الأُسْرَةِ الصَّغيرَةِ إلى مُحيطِ الأُسْرَةِ الكَبيرَةِ، وذلك إذا "تفاقمت الخصومة بينهما، وصارت تهدِّد بالانفصال؛ بعث القاضي ثقة من أهل الزَّوجة، وثقة من أهل الزَّوج؛ ليجتمعا، وينظرا في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة ممَّا يريانه من التَّفريق أو التَّوفيق"[2]، فبَيَّنَ بِذلِكَ الطَّريقَ السَّوِيَّ الَّذي يُتَّبَعُ عِنْدَ حدوثِ النِّزاعِ وخَوْفِ الشِّقاقِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شِقَاقَ﴾: الشِّقاقُ: التَّباعُدُ والفِراقُ والمُخالَفَةُ والعَداوَةُ[4]، والشِّقاق: المنازعة، يقال: شقَّ العصا، أي: فارق الجمع، وشاقَّ القوم: صار كلُّ نفر في شقٍّ، ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: 13]، أي: صاروا في شقٍّ غير شقِّ أوليائه[5]، وأَصْلُ الشِّقاقِ: يَدُلُّ عَلَى انْصِداعٍ في الشَّيْءِ[6]،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/95، وابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآن العظيم: 2/296.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 528.
(3) أَحْمَدُ مُصطفَى المَراغيُّ، تَفْسيرُ المَراغيِّ: 5/31، ومُحَمَّد أبو زهرة، زَهْرَةُ التَّفاسير: 3/1564.
(4) الراغب، المفردات: (شقَّ)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (شقق)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظِ: (شقق).
(5) الرَّاغِبُ، تفسير الرّاغب: 1/323.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَقَّ).

والمَعْنى هُنا: فِراقُ بَيْنِهما في الاخْتِلافِ والخُصومَةِ، حَتَّى شَقَّ أَمْرُ أَحَدِهما عَلى الآخَرِ[1]، قال الطَّبريُّ: "وأصل (الشِّقاق) عندنا - واللّه أعلم - مأخوذٌ من قول القائل: (شَقَّ عليه هذا الأمر)؛ إذا كرَبه وآذاه، ثُمَّ قيل: (شاقَّ فلانٌ فلانًا)، بمعنى: نال كلُّ واحد منهما من صاحبه ما كرَبه وآذاه، وأثقلته مَساءَته[2]، والشِّقاق غاية العداوةِ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ [الحجّ: 53]، ومنه قول الأخطل:

أَلَا مَنْ مُبَلِّغٌ قَيْسًا رَسُولًا *** فَكَيْفَ وَجَدْتُمُ طَعْمَ الشِّقَاقِ[3]

2) ﴿يُوَفِّقِ﴾: مِنَ المُوافَقَةِ، وهيَ: المُطابَقَةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ[4]، ووَفْقُ الشَّيْءِ: ما لاءَمَهُ، والمُوافَقةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ كالالتِحامِ[5]، وأَصْلُ (وفق): يدُلُّ عَلَى مُلاءَمَةِ الشَّيْئَيْنِ[6]، والمَعْنى هُنا: يُيَسِّرُ اللّه عَوْدَ مُعاشَرَتِهما إلى أَحْسَنِ حالٍ، وقوله: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾، يحتمل وجهين: أحدهما: يوفِّق اللّه بين الحكمين في الإصلاح بين الزَّوجين، والثَّاني: يوفِّق اللّه بين الزَّوجين بإصلاح الحكمين[7]، ومقصد العبارة في دلالة السِّياق: "أنَّ من أصلح نيَّته في أمر يتحرَّاه؛ أصلح اللّه مبتغاه، كما رُوِيَ في الخبر أنَّ: (مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، أَصْلَحَ اللّهُ عَلَانِيَتَهُ)"[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نِيَّةُ الإِصْلاحِ والسَّعْيُ في الوِفاقِ، سَبَبُ الوِفاقِ وزوالِ الشِّقاقِ

وإِنْ عَلِمْتُمْ - يا أَوْلِياءَ الزَّوْجَيْنِ - أَنْ يَصِلَ الخِلافُ بَيْنَهُما إلى العَداوَةِ والتَّدابُرِ؛ فأَرْسِلوا رَجُلًا عَدْلًا مِنْ أَهْلِ الزَّوْجِ، ورَجُلًا عَدْلًا مِنْ أَهْلِ الزَّوْجَةِ؛ لِيَحْكُما بما فيه المَصْلَحَةُ مِنَ التَّفْريقِ أَوِ التَّوْفيقِ بَيْنَهُما، فإِنْ أَرادَ الحَكَمانِ أَوِ الزَّوْجانِ أَوْ غَيْرُهُما الإِصْلاحَ، وسَلَكَ كلٌّ مِنْهُما الأُسْلوبَ الأَمْثَلَ إِلَيْهِ؛ يُوَفِّقِ اللّه بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، ويَرْتَفِعِ الخِلافُ

(1) الكفوي، الكُلّيّاتُ، ص: 543.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/116.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/498.
(4) الراغب، المفردات: (وفق).
(5) جبل، المُعجَمُ الاِشتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (وفق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفق).
(7) الماوردي، النّكت والعيون: 1/484.
(8) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1228.

بَيْنَهُما، إنَّ اللّه كانَ مُطَّلِعًا على ظَواهِرِ العِبادِ وبَواطِنِهِمْ، لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ عِبادِهِ[1]، ومتى صدقت الإرادة، وصحَّت العزيمة؛ فإنَّ اللّه كفيل بالتَّوفيق[2]، والآية "فيها معنى الحثِّ على الإصلاح، والتَّأميل في توفيق اللّه إليه، مع عدم إغفال إرادة الزَّوجين ممَّا هو متِّسق مع التَّقريرات القرآنيَّة، في أهليَّة المرء للإرادة والاختيار الَّتي أودعها اللّه فيه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة تصدير الآية بالوصلِ والشَّرط:

انْتقالُ الخطابِ إلى الأَوْلياءِ أو الحُكَّامِ لِعِلاجِ الشِّقاقِ وجَبْرِ الفِصام

لَمَّا ذكرَ اللّه تعالى الطَّائعةَ والنَّاشزةَ؛ طوى ذكرَ الَّتي ترجعُ طواعيةً إلى زوجها؛ لأنَّه هو المقصودُ من الآيةِ، وذكر القسمَ الآخرَ، فالآيةُ أشعرتْ بتقسيمِ النِّساءِ تقسيمًا عقليًّا؛ لأنَّها: إمَّا طائعةٌ، وإمَّا ناشزةٌ، والنَّاشِزُ: إمَّا مَنْ يرجعُ إلى الطَّواعيَةِ، وإمَّا مَنْ يحتاجُ إلى الحَكَمَين، ولهذا انتقلَ الكلامُ مِنْ خِطابِ الأَزْواجِ إِلَى خِطابِ الأَوْلياءِ أو مَنْ لَهُ الحُكْمُ والفَصْلُ بَيْنَ النَّاسِ[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بأداة الشَّرط (إنْ) في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾:

بعثُ الحَكَمَيْنِ لإزالةِ الشِّقاقِ ومنعِ استمراره

لَمَّا كانَ الشَّرطُ على معنى الاستقبالِ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ هو الخوفُ مِنْ بقاءِ الشِّقاقِ واستمرارِه، فإنَّ وُجودَ الشِّقاقِ بالحالِ مَعلومٌ، ومِثلُ هذا لا يحصلُ منهُ خوفٌ؛ لِمَا يُشعرُ به لفظُ الخَوفِ مِنْ توقُّعِ مكروهٍ عن أَمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، فدلَّ على أنَّ الخوفَ إنَّما هو في بقاءِ الشِّقاقِ في المستقبلِ واستمرارِه، ففائِدَةُ بَعثِ الحَكَمَينِ ليستْ إزالةَ الشِّقاقِ الثَّابِتِ، فإنَّ ذلِكَ مُحالٌ، بَلِ الفائِدَةُ إزالَةُ ذلكَ الشِّقاقِ في

---

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، الْمُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 114، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 84، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 84.

(2) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 5/31.

(3) دروزة محمّد عزّت، التّفسير الحديث: 8/111.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/49، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/629.

المستقبل[1]، ويَحتمل أَنْ يكونَ المعنى أَيضًا: وإِنْ خِفتُمْ حُدوث شِقاقٍ بينهُما بِرُؤيةِ أَسبابِه وبوادرِه ومُقَدِّماته؛ فأَسرعوا بِإِزالَةِ أَسبابِه، وعلاجِ بوادِرِه ومُقدِّماتِه، فابعثوا الحَكَمَيْن.

مجاز التَّعبير في قوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾:

حصولُ الانشقاق تفريقٌ بينَ متآلفين حسًّا أو معنًى

عبَّر عن المخالفةِ بالشِّقاق؛ لأَنَّه لَمَّا كانَ الشِّقاقُ يفيدُ أَنْ يكونَ كلُّ واحدٍ منهما في جانبٍ وشِقٍّ غيرِ شقِّ الآخر؛ اقتضى أَنْ يكونا متخالِفَين متباعِدَين حِسًّا أو معنًى، فعبَّر باللَّازم ﴿شِقَاقَ﴾ عن الملزوم (المخالفة) مجازًا، ويُحتمَلُ أَنْ يكونَ الشِّقاقُ من شقِّ العصا، فيكون كنايةً عن العداوة[2]، كما أَنَّ التَّعبيرَ بالشِّقاقِ يومئ إلى أَنَّ الزَّوجين بمنزلة الشَّيء الواحدِ؛ لأَنَّ الشِّقاقَ يشعرُ بأُلفةٍ أو موافقةٍ سبقتْه، فحصولُ الانشقاق تفريقٌ بينَ متآلفين حسًّا أو معنًى.

مناسبةُ العدولِ إلى المجازِ بالإضافةِ في قولِه: ﴿شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾:

تعميمُ معنى الشِّقاقِ؛ ليتناولَ كلَّ شؤونِ الزَّوجين وأحوالِهما

أَصلُ المعنى: وإِنْ خِفتمْ شقاقًا بينهما، فعدلَ عنهُ، وأُضيفَ الشِّقاقُ إلى البَيْنِ على طريقِ الاتِّساع[3]: إمّا لإجرائِه مُجرى المفعولِ؛ للمُلابَسَةِ بَيْنَ الظَّرفِ ومظروفِه للمُبالغة في الشِّقاق، كَأَنَّهُ سَرى منهُما إلَى مكانِهما، مثلَ قولِهِمْ: يا سارِقَ اللَّيلةِ أَهلَ الدَّارِ، أو مجرى الفاعِلِ، كَقَولِهِمْ: نَهارُكَ صائِمٌ؛ ليَكونَ البَيْنُ كَأَنَّهُ فاعِلُ الشِّقاقِ، وبما أَنَّ البَيْنَ في الأَصلِ مِنَ الظُّروفِ المَكانيَّة، وهُنا وما يُماثلُهُ مُستعارٌ للمَحَلِّ المعنويِّ؛ كانَتِ النِّسبةُ الإضافيَّةُ هُنا مجازيَّةً في كِلا الحالَيْنِ، وهِيَ مِنْ قَبيلِ المَجازِ الحُكميِّ (العقليِّ)، ولَمَّا كانَ الشِّقاقُ مِنَ المُفاعَلَةِ، وكان كُلٌّ مِنْهُما فاعِلًا ومَفْعولًا؛ جازَ هُنا احْتمالانِ،

(1) البَغَويُّ، مَعالِمُ التَّنْزيل، تح، مهدي: 1/613، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، وابْنُ عادِلٍ، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتابِ: 6/367، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/694.

(2) الراغب، المفردات: (شقا)، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/150.

(3) الإتِّساعُ هوَ: العُدولُ عَنِ الحَقيقَةِ إلى المَجازِ لِغَيْرِ مُشارَكَةٍ بَيْنَ المَنْقولِ إلَيْهِ، ومِنْ هذا القَبيلِ قَوْلُ الرَّسولِ ﷺ عَنْ جَبَلِ أُحُدٍ: "هَذا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ" فإضافَةُ المَحَبَّةِ إلى الجَبَلِ مِنْ بابِ التَّوَسُّعِ، إذْ لا مُشارَكَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الجَبَلِ الذي هوَ جمادٌ، يُنْظَرُ: ابْنُ الأَثيرِ الكاتِبُ، المَثَلُ السّائِرُ: 1/350.

وفائدةُ العدولِ إلى المجازِ: هو التَّعميم، بمعنى: (شقاقًا) في حالهما أوعشرتهما أوصحبتهما أو في كلِّ ما يلابسهما؛ لِسَعَةِ ظرفِ المكانِ أنْ يكونَ مظروفًا لكلِّ شؤونِهما وأحوالِهما، معَ ما في التَّعبيرِ من الإيجازِ البَديعِ الَّذي يَدُلُّ فيهِ الظَّاهِرُ على المُقَدَّرِ[1].

عودُ الضَّمير في: ﴿بَيۡنِهِمَا﴾:

الحثُّ على السِّترِ وقتَ خوفِ الشِّقاقِ

لم يَجرِ ذكرُ ما يعودُ إليه الضَّميرُ (هما)؛ لِجري ذكرِ ما يدلُّ عليهما في السِّياقِ، وهو الرِّجالُ والنِّساءُ، وأيضًا لِدلالة النُّشوزِ: الَّذي هو عصيانُ المرأةِ زوجَها، فما يعودُ عليه الضَّميرُ هو في حكم المذكورِ، والقرينةُ سياقيَّةٌ؛ فعبَّرَ بالضَّميرِ؛ إيجازًا في الكلامِ ورعايةً لِنَسَقِ النَّظمِ، وإيماءً إلى الحثِّ على السِّترِ وقتَ خوفِ الشِّقاقِ بينهما وما بعدَه، لما في الضَّمير من معنى الاستتار والإبهام.[2]

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾:

المبادرةُ إلى الإصلاحِ بالإسراعِ في بعثِ الحَكَمَيْنِ

عبَّر بلفظِ البعثِ دونَ الإرسالِ؛ لأنَّه لَمَّا كانَ البعثُ هو الإرسالَ مضمَّنًا معنى: إثارةِ المرسَلِ من مكانٍ يلزمُهُ بقوَّةٍ، فيندفعُ ناهضًا إلى ما يرسَلُ إليهِ[3]؛ أفادَ التَّعبير بلفظِ ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾ إلى إثارةِ الحكمين وإرسالِهما بطريقِ الاندفاعِ؛ للمبادرةِ إلى الإصلاحِ، ثمَّ إنَّه زادَ مِنْ تأكيدِ المبادرة إلى الإصلاحِ باقتران فعل الطَّلب بالفاء المعقِّبة الدَّالَّة على الإسراعِ في بعثِ الحكمين.

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾:

على الحكَمَين أنْ يكونَ لهما مزيدُ اختصاصٍ ومعرفةٍ بالإصلاحِ بينَ الزَّوجين

لَمَّا كان الحَكَمُ بمعنى: الَّذي يَضْبط أمر كلٍّ من الزَّوجين وَيفْصِل بينهما، بأن يكونَ مانعًا مِن أن يدخل أيٌّ منهما على الآخرِ في

---

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/72، وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/49، وابْنُ بَطّال، النَّظم المُسْتَعْذَبُ، تح: مُصْطَفى سالِم: 2/156، والبَيْضاويُّ، أنْوارُ التَّنْزيل: 2/73، والقونويُّ، حاشيةُ القونويّ: 7/150.
(2) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/508.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).

حقِّهِ[1]، وكانَ التَّنكيرُ على معنى الشُّيوعِ وانتفاءِ التَّعيينِ؛ أفاد مجيءُ ﴿حَكَمًا﴾ نكرةً بأنَّ الشَّرطَ أنْ يكونَ متَّصِفًا بصفة الحَكَم، بأنْ يكونَ لهُ مزيدُ اختصاصٍ ومعرفةٍ بالإصلاحِ بينَ الزَّوجينِ وأنْ يكونا حكمينِ اثنينِ: أحدَهما مِنْ أهلِهِ، والآخرَ مِنْ أهلِها، وحرفُ الجرِّ ﴿مِّنْ﴾ على معنى: التَّبعيض.

نكتة التَّفصيلِ في ذكر الأهل:

مِنْ تَمامِ العَدْلِ والحِكْمَةِ أنْ يكونَ حَكَمٌ مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمٌ مِنْ أَهْلِها

وقَدْ جاءَتِ الإضافَةُ مُكَرَّرَةً لِلطَّرَفَيْنِ ﴿أَهۡلِهِۦ﴾ ﴿أَهۡلِهَآ﴾، فلَمْ يَقُلْ: "حَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِهِما"، مَعَ أَنَّهُ أَخْصرُ؛ فجاء بطريق التَّفصيل والإطناب؛ لِلإيضاحِ والبيانِ؛ لِأَنَّ المُرادَ أَنْ يَكونَ كُلُّ واحدٍ مِنَ الحَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ، وهذا مِنْ تَمامِ العَدْلِ والحِكْمَةِ[2].

مناسبة اتِّصاف الحكمين بأن يكونا من أهله ومن أهلها:

الأَقارِبُ أَعْرَفُ بِبَواطِنِ الأَحْوالِ، وتَسْكُنُ إِلَيْهِم نُفوسُ الزَّوْجَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ

لَمَّا كانتِ الصِّفَةُ قيدًا للموصوفِ دلَّ على اشتراطِ أنْ يكونَ الحَكَمانِ بالوصفينِ المذكورين، وإنَّما كانَ بَعْثُ الحَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِ الزَّوْجَيْنِ؛ لِأَنَّ الأَقارِبَ أَعْرَفُ بِبَواطِنِ الأَحْوالِ، وأَطْلَبُ لِلصَّلاحِ، وتَسْكُنُ إِلَيْهِمْ نُفوسُ الزَّوْجَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، ويَبْرُزُ إِلَيْهِمْ ما في ضَمائِرِهِما مِنَ الحُبِّ والبُغْضِ، وإرادَةِ الصُّحْبَةِ والفُرْقَةِ، وموجِباتِ ذلِكَ ومُقْتَضياتِهِ، وما يَزْوِيانِهِ عَنِ الأَجانِبِ ولا يُحِبَّانِ أَنْ يَطَّلِعوا عَلَيْهِ[3].

براعةُ المقابلةِ بين قولِه: ﴿شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ وقولِه: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾:

الشِّقاقُ شرٌّ والتَّوفيقُ خيرٌ

لَمَّا كانَ الشِّقاقُ بمعنى المُخالفة، وفيه معنى: الشَّرّ، وكانَ التَّوْفيقُ بمعنى المُوَافَقةِ والمطابقةِ بينَ الشَّيئينِ، وهو مُختصٌّ بالخيرِ دونَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حكم).
(2) أبو العَبّاسِ البَسيليُّ، نُكَتٌ وتَنْبيهاتٌ في تَفسيرِ القُرْآنِ المَجيد، تح: مُحَمَّد الطَّبراني، وزارَةُ الأَوْقافِ والشُّؤونِ الإسْلاميَّةِ، الدّارُ البَيْضاء، ط: 01، 1429 هـ: 2/163.
(3) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/72، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/629.

الشَّرِّ؛ [1] ناسبَ أنْ يكونَ قولُه تعالى: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ مُقابلًا للشِّقاقِ؛ ليكونَ على سبيلِ الضِّدِّ، ولمَّا كانَ التَّوفيقُ خيرًا كلَّه أسنده اللهُ سبحانَه إلى نفسِه.

مناسبةُ ذكرِ الإصلاحِ في الآيةِ:

تنبيهُ الحَكمَينِ إلـى أنْ يكونا حَريـصَيـنِ على الإصلاحِ

لمَّا كانَ التَّفريقُ مذمومًا، وكانَ الاهتمامُ بشأنِ الإصلاحِ؛ لأنَّهُ مرغوبٌ فيه، لَمْ يَذْكُرِ اللهُ تعالى إلَّا الإصلاحَ في مُهِمَّةِ الحَكَمَيْنِ، ولَمْ يَذْكُرِ التَّفريقَ إشارَةً إلى تنبيهِ الحكمَينِ إلى أنْ يكونا حريصَينِ على الإصلاحِ[2].

براعة التَّعبير بالضَّمير؛ لتكثيرِ المعنى في قوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾:

عُـمـومُ الـنَّـفْـعِ بِصلاحِ المَقاصِدِ والنِّياتِ، وأَثَرُهُ في صَلاحِ الحالِ

يحتملُ الضَّميرُ في قَولِه: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾ أنْ يكونَ لِلْحَكَمَيْنِ، وفي قولِه: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ لِلزَّوْجَيْنِ، والمَعْنى: إنْ قَصَدَ الحَكَمانِ إصْلاحَ ذاتِ البَيْنِ، وكانَتْ نِيَّتُهُما صَحيحَةً؛ يوفِّق اللّه بينَ الزَّوجين[3]، أَوْ أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿يُرِيدَآ﴾ و﴿بَيۡنَهُمَآ﴾ لِلْحَكَمَيْنِ، والمَعْنى: إنْ قَصَدا إصْلاحَ ذاتِ البَيْنِ، والنَّصيحَةَ لِلزَّوْجَيْنِ؛ يُوَفِّقِ اللّه بَيْنَهُما، فيَتَّفِقا على الكَلِمَةِ الواحِدَةِ، ويَتَساندا في طَلَبِ الوِفاقِ، حَتَّى يَتِمَّ المُرادُ، أَوْ أن يكونَ الضَّميرُ ﴿يُرِيدَآ﴾ للزَّوْجَيْنِ، و﴿بَيۡنَهُمَآ﴾ لِلْحَكَمَيْنِ، أَيْ: إنْ يُرِدِ الزَّوْجانِ إصْلاحَ ما بَيْنَهُما؛ يوَفِّقِ اللّه بَيْنَ الحَكَمَيْنِ اخْتِلافَهُما، حَتَّى يَعْمَلا بِالصَّلاحِ، ويحتمل أن يكون الضميرانِ لِلزَّوْجَيْنِ، أَيْ: إنْ أَرادَ الزَّوجانِ الإصْلاحَ وطَلَبَ الخَيْرِ، وأَنْ يَزولَ عَنْهُما الشِّقاقُ؛ يُلْقِ اللّه بَيْنَهُما الأُلْفَةَ، ويُبْدِلْهُما بِالشِّقاقِ الوِفاقَ، وبِالبَغْضاءِ المَوَدَّةَ، وذهبَ أبو البقاء إلى أنَّ الضَّميرَ في:

(1) الراغب، المفردات/878، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/75.

(2) الزحيلي، التَّفسيرُ المُنير: 5/61.

(3) القاسِميُّ، مَحاسِنُ التَّأويل: 3/100.

﴿بَيۡنِهِمَآ﴾ عائدٌ على الزَّوجين فقط، سواءٌ قيل بأنَّ ضميرَ ﴿يُرِيدَآ﴾ عائدٌ على الحَكَمينِ أم الزَّوجَين[1]، فإذا كانَ الضَّميرُ الأوَّلُ عائدًا إلى الحكمين، والضَّميرُ الثَّاني إلى الزَّوجينِ؛ كانَ التَّعبيرُ من بديع الاستخدام.

وفيهِ تَنْبيهٌ إلى أَنَّ مَنْ أَصْلَحَ نيَّتَهُ فيما يَتحرَّاه؛ أَصْلَحَ اللّٰهُ تَعالى مُبْتَغاه[2]، وعلى قَوْلِ مَنْ قالَ: إنَّ المُخاطَبينَ بهذا هُمُ الحُكَّامُ، فإنَّ في الآيَةِ تَلْوينًا وتَنْويعًا لِلْخِطابِ؛ لِأَنَّ تَوْجيهَهُ إلى الحُكَّامِ وارِدٌ، ويَكونُ ذَلِكَ في حالِ المُخاصَمَةِ والمُرافَعَةِ إِلَيْهِمْ[3].

حسنُ التَّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾:

أوّلاً: دلَّ مجيءُ الجملةِ الاسميَّةِ على ثبوتِ اتِّصافِ اللّٰهِ بهذينِ الوصفينِ الجليلينِ.

ثانيًا: أفادَ مجيءُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ اتِّصافِ اللّٰهِ بكونِه عليمًا خبيرًا.

ثالثًا: كما أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تعليلَ جميعِ ما تقدَّمها في الآيةِ؛ لتفيدَ تعليلَ طلبِ الحَكَمين والإصلاحِ بينَ الزَّوجين.

رابعًا: دلَّ قولُه تعالى: ﴿كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ على استمرارِ اتِّصافِ اللّٰهِ بهذينِ الوصفينِ الجليلينِ، وظهورِ آثارِهما في الواقعِ.

خامسًا: أفادتْ جملةُ التَّذييلِ التَّهديدَ والوعيدَ لِلْحَكَمَيْنِ؛ إذا ما سَلَكا طَريقًا يُخالِفُ الحَقَّ والعَدْلَ، فَهوَ عَليمٌ بِظَواهِرِ الأُمورِ وبَواطِنِها، خَبيرٌ بِأَحوالِ النُّفوسِ وطُرقِ عِلاجِها، لا يخفى عليهِ شيءٌ مِنْ تَصرُّفاتِ النَّاسِ وأَعمالِهِمْ، وسيُحاسِبُهُمْ عليها.[4]

سادسًا: ناسبَ ذكرُ الوصفين ﴿عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ ما ذَكَرَ مِنْ إرادَةِ الإِصْلاحِ[5]، فَهوَ يعلَمُ كيفَ يُوَفِّقُ بينَ المختلفَين، ويجمعُ بينَ المُفترقَيْنِ.[6]

سابعًا: لَمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى: العموم والكلِّيَّة في معناها، لِثبوتِ الأوصافِ الجليلةِ للّٰهِ تعالى ودوامِ الاتِّصافِ بها؛ كانتْ بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/355، والنَّسَفيُّ، تَفسيرُ النَّسَفيِّ: 1/356، والسمين الحلبي، الدر المصون: 3/674.
(2) الشِّربينيُّ، السِّراجُ المُنير، مَطْبَعَةُ بولاق، القاهِرَةُ، د. ط، 1285 هـ: 1/301، والثَّعالِبيُّ، الجَواهِرُ الحِسان: 2/232.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/693.
(4) طنطاوي، التَّفْسيرُ الوَسيط: 1/143.
(5) الثَّعالِبيُّ، الجَواهِرُ الحِسان: 2/232.
(6) الزّمَخْشري، الكشاف: 2/73.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوْف والخَشْيَة:

الخَوْفُ: انْفِعالٌ في النَّفْسِ يَحْدُثُ عِنْدَ تَوَقُّعِ حُلولِ مَكْروهٍ، أَوْ فواتِ مَحْبوبٍ[1] عَنْ أَمارَةٍ مَظْنونَةٍ، أَوْ مَعْلومَةٍ[2]، وفي التَّنْزيلِ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأَحْزَابُ: 19]، والخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشوبُهُ تَعْظيمُ المَخْشيّ، مَعَ المَعْرِفَةِ بِهِ[3]، كما أَنَّ الخَوْفَ يتَعَلَّقُ في الغالِبِ بِالمَكْروهِ نَفْسِه، أَمَّا الخَشْيَةُ؛ فتتَعَلَّق بِمَنْزِلَةِ المَكْروهِ[4]، ولِهَذا جاءَ التَّفْريقُ بَيْنَهُما بِحَسَبِ هذا المَعْنى في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرَّعْدُ: 21]، فالخَشْيَةُ: تَكونُ مِنْ عِظَمِ المُخْتَشَى، وإِنْ كانَ الخاشي قَويًّا، والخَوْفُ: يَكونُ مِنْ ضَعْفِ الخائِفِ، وإِنْ كانَ المَخوفُ أَمْرًا يَسيرًا، ولِذا ورَدَتِ الخَشْيَةُ غالِبًا في حَقِّ اللّه تَعالَى، نَحْو: ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 74]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطِرٌ: 28][5]

وَعلَيْهِ تكونُ الخَشْيَةُ أَخَصَّ مِنَ الخَوْفِ، فهيَ خَوْفٌ مَقْرونٌ بِمَعْرِفَةٍ وتَعْظيمٍ[6]، وفي لطائف الإشارات: "الخوف من شرط الإيمان، ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: 175]، والخشية من شرط العلم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28][7]".

الحَكَم والحاكِم:

الحاكِمُ: مَنْ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البَقَرَةُ: 188]، والحَكَمُ: المُتَخَصِّصُ بِذَلِكَ، فهوَ أَبْلَغُ، قال اللّه تَعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأَنْعامُ: 114][8]، فالفَرْقُ بَيْنَ الحاكِمِ والحَكَمِ أَنَّ الحَكَمَ يَقْتَضي أَنَّهُ أَهْلٌ أَنْ يُتَحاكَمَ إِلَيْهِ، والحاكِمُ الَّذي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْكُمَ، فالصِّفَةُ بِالحَكَمِ أَمْدَحُ، وذَلِكَ أَنَّ صِفَةَ حاكِمٍ جارِيَةٌ عَلَى الفِعْلِ، فقَدْ يَحْكُمُ الحاكِمُ بِغَيْرِ الصَّوابِ؛ أَمَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ الصِّفَةَ بِالحَكَمِ؛ فلا يَحْكُمُ إِلَّا

(1) الجُرْجانيُّ، التَّعْريفاتُ، ص: 101، والأحمد نكري، جامِعُ العُلومِ في اصْطِلاحاتِ الفُنون: 2/66.
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) السُّيوطيُّ، مُعْجَمُ مَقاليدِ العُلومِ في الحُدودِ والرُّسومِ، ص: 204، والمَناويُّ، التوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 155.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 241.
(5) السُّيوطيُّ، الإِتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 2/364.
(6) ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزيَّةِ، مَدارِجُ السّالِكين: 1/508.
(7) القول للدَّقاق شيخ القشيريّ، الرّسالة القشيريّة، ص: 65، عن القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/455.
(8) الراغب، المفردات: (حَكَم)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (حكم).

بِالصَّوابِ؛ لِأَنَّها صِفَةُ تَعْظيمٍ ومَدْحٍ[1]، ونقل الرَّازيُّ عن الواحديِّ قوله: "الحَكَمُ وَالْحَاكِمُ وَاحِدٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ قَالَ: الْحَكَمُ أَكْمَلُ مِنَ الْحَاكِمِ؛ لِأَنَّ الْحَاكِمَ كُلُّ مَنْ يَحْكُمُ، وَأَمَّا الْحَكَمُ؛ فَهُوَ الَّذِي لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى حَكَمٌ حَقٌّ، لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ، فَلَمَّا أَظْهَرَ الْمُعْجِزَ الْوَاحِدَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، فَقَدْ حَكَمَ بِصِحَّةِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ، وَلَا مَرْتَبَةَ فَوْقَ حُكْمِهِ، فَوَجَبَ الْقَطْعُ بِصِحَّةِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ"[2]، وقال القرطبيُّ: وقد يكون الحكم والحاكم في اللُّغة واحدًا، وكأنَّهم يريدون الكاهن وما أشبهه، من حكَّام الجاهليَّة، فيكون المراد بالحكم الشِّيوع والجنس، إذ لا يراد به حاكم بعينه"[3]، وقيل: "الفرق بين الحكم والحاكم: أنَّ الحَكم: هو الَّذي يكون أهلًا للحكم، فلا يحكم إلَّا بحقٍّ، والحاكم: قد يكون من غير أهله، فيحكم بغير حقٍّ، فصار الحكم من صفات ذاته، والحاكم من صفات فعله، فكان الحكم أبلغ في المدح من الحاكم"[4].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 190.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 13/124.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/216.

(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/159.

﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النِّساء: 36]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

الأَمْرُ بِالإِحْسانِ لِعُمومِ النَّاسِ بَعْدَ تَخْصيصِ الزَّوْجاتِ بذلك

لَمَّا كانَ الكَلامُ عَنِ الإرْشادِ إلَى كَيْفيَّةِ مُعامَلَةِ النِّساءِ، والإحْسانِ إلَيهِنَّ في كُلِّ الأحْوالِ؛ ناسَب بَعْدَها التَّذْكيرُ بِحُسْنِ مُعامَلَةِ الخالق بِالإخْلاصِ لَهُ في الطَّاعَة، وثَنَّى بالإحْسانِ إلَى الوالِدَيْن، وأنَّ المُؤْمِنَ لا يَكْتَفي مِنَ التَّكاليفِ الإحْسانيَّةِ بما يَتَعَلَّقُ بِزَوْجَتِه فقط، بَلْ عَلَيْه غَيْرُها مِنْ بِرِّ الوالِدَيْن وغَيْرِهما، وافْتَتَحَ التَّوصُّلَ إلَى ذَلِك بالأَمْرِ بإفْرادِ اللّه تعالَى بالعِبادَة؛ إذْ هيَ المَبْدَأُ الأَوَّلُ الَّذي تَتَرَتَّبُ الأَعْمالُ الصَّالِحَةُ عَلَيْه[1]، فقال: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فأرْشَدَ إلى العِبادَة الخالِصَةِ الَّتي هيَ الإحْسانُ في العلاقة بالخالِق، ثُمَّ أمر بالإحْسانِ في مُعامَلَةِ الخَلائِق، بِصنوف الأَخْلاقِ الحِسان، وبذل ما لا بدَّ منه من عوارف الإحسان، فجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ تحثُّ عَلى ألوان البرِّ والملاطفة، للأقارب الأدنين، والأباعد من الجنسين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾: أَيِ: الغَريبِ الَّذي جاوَرَكَ مِنْ قَوْمٍ آخَرينَ[3]، وأَصْلُ الجِوارِ: المَيْلُ[4]، وسُمِّيَ الجارُ: جارًا؛ لِمَيْلِه إلى جارِه[5]، وسُمِّيَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/631.
(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/275، وابْنُ عادِلٍ الحَنْبليُّ، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتاب: 6/369، (بتصرّف).
(3) الرازي، مُخْتارُ الصِّحاح، تح: يوسُف محمَّد، المَكْتَبَةُ العَصْريَّةُ، بَيْروتُ، صَيْدا، ط05، 1420هـ، ص: 62.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَوَرَ).
(5) ابْنُ الهائِمِ، التِّبيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.

جُنُبًا لِبُعْدِهِ؛ إِذِ الأَصْلُ في (تَجانَبَ): تَباعَدَ[1]، والمَعْنى هُنا: الجارُ الغَريبُ الَّذي لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ جارِهِ صِلَةُ قَرابَةٍ[2]، والجار الجنب: هو الَّذي يبعد منك، لا قرابة بينك وبينه، و"﴿ٱلْجُنُبِ﴾ البعد، ومنه اجتنب فلان فلانًا إذا بعد منه، ومنه قيل للجنب: جنب لبعده من الطُّهر والصَّلاة حتَّى يغتسل، ومنه قيل: رجل أجنبيٌّ، أي: بعيد غريب، فمعنى ذلك: والجار المجانب للقرابة، أي: البعيد منها"[3].

2) ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾: أَي: المُلازِم لِلمَرْءِ، وهوَ: المَرْأَةُ أَوِ الرَّفيقُ في السَّفَرِ[4]، وأَصْلُ صَحِبَ: يَدُلُّ عَلَى مُقارَنَةِ شَيْءٍ ومُقارَبَتِهِ[5]، والمَعنى هُنا: المُنْقَطِعُ إِلى الرَّجُلِ الَّذي يُلازِمُهُ رَجاءَ نَفْعِهِ[6]، و"فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّه الرَّفيق في السَّفر، وهو قول ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والثَّاني: أنَّها زوجة الرَّجل الَّتي تكون في جنبه، وهو قول ابن مسعود، والثَّالث: أنَّه الَّذي يلزمك، ويصحبك؛ رجاء نفعك، وهو قول ابن زيد"[7]، وقيل: "والصَّاحب بالجنب، أي: الرَّفيقِ في أمر حسنٍ، كتعلُّم وتصرُّف، وصناعةٍ وسفرٍ، فإنَّه صحِبَك، وحصل بجانبك، ومنهم من قعد بجنبك في مسجد أو مجلسٍ أو غيرِ ذلك، من أدنى صحبةٍ التَأَمَتْ بينك وبينه، وقيل: هي المرأةُ"[8].

3) ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المُسافِرُ البَعيدُ عَنْ مَنْزِلِه، والضَّيْفُ[9]، والسَّبيلُ: هوَ الطَّريقُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدادِهِ[10]، والمعنى هُنا: المُسافِرُ والضَّيْفُ المُنْقَطِعُ بِالسَّبيل، وإِنْ كانَ لَهُ مالٌ في بَلَدِهِ، قَالَ الشَّافِعِيُّ (رَحِمَهُ اللهُ): ابْنُ السَّبيلِ المُسْتَحِقُّ لِلصَّدَقَةِ، وَهُوَ الَّذي يُريدُ السَّفَرَ في غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، فَيَعْجِزُ عَنْ بُلُوغِ سَفَرِهِ إِلَّا بِمَعُونَةٍ[11]، وقيل: ابن السَّبيل اسم جامع

(1) أَبو بَكْرٍ الأَنْباريُّ، الزّاهِرُ في مَعاني كَلِماتِ النّاسِ: 1/429.
(2) أَبو بَكْرٍ السِّجِستانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، تح: مُحَمَّد أديب جمران، دار قُتَيْبَةَ، سوريا، ط: 1، 1416هـ، ص: 173، وابْنُ الهائِمِ، التِّبيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 2/1321.
(4) ابْنُ الهائِمِ، التِّبيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صَحَبَ).
(6) ابْنُ جَريرٍ، جامع البيان: 7/15.
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/485.
(8) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/176.
(9) ابْنُ الجَوْزِيّ، تَذْكِرَةُ الأَريبِ، ص: 141.
(10) الرازي، مفاتيح الغيب: 16/87.
(11) الرازي، مفاتيح الغيب: 16/87.

جعل للمسافر[1]، وسمِّي: "ابن السَّبيل، كما قيل لطائر يلازم الماء: ابن ماء، ولمن مرَّت عليه دهور: ابن اللَّيالي والأيَّام، وقيل: سمِّي ابن سبيل؛ لأنَّ السَّبيل تبرزه، شُبِّه إبرازها له بالولادة، فأطلقت عليه البنوَّة مجازًا"[2].

4) ﴿مُخۡتَالٗا﴾: ذو الخُيَلاءِ والكِبْرِ، والمزْهُوُّ المُعْجَبُ بنَفْسِه[3]، فالخُيَلاءُ: الكِبْرُ والعُجْبُ[4]، والمُختالُ: مِنْ خالَ الرَّجُلُ، فهوَ خائِلٌ ومُختالٌ[5]، وأَصْلُ (خيَلَ): يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ في تَلَوُّنٍ؛ لِأَنَّ المُخْتالَ في مِشْيَتِهِ يَتَلَوَّنُ في حَرَكَتِهِ أَلوانًا[6]، والمَعْنى هُنا: مُتَكَبِّرٌ يَسْتَنْكِفُ عَنْ أَقارِبِهِ وجيرانِهِ وأَصْحابِهِ[7]، يعني بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿مَن كَانَ مُخۡتَالٗا﴾: إنَّ اللّه لا يحبُّ من كان ذا خُيَلاء، و(المختال): المُفْتَعِلُ، من قولك: خَالَ الرَّجُلُ، فهُوَ يَخُولُ خَوْلًا وخَالًا"[8]، وقيل: "المُختال: الصَّلِفُ التيَّاه الجهولُ، وإنَّما ذُكر الاختيالُ في هذه القصَّة؛ لأنَّ المختال يأنف من ذوي قرابَاته؛ إذا كانوا فقراءَ، ومن جيرانه؛ إذا كانوا كذلك، فلا يُحْسنُ عِشْرتَهم"[9].

5) ﴿فَخُورًا﴾: من الفَخْرِ، وهو المُباهاةُ في الأَشْياءِ الخارِجَةِ عَنِ الإِنْسانِ كالمالِ والجاهِ[10]، والتَّفَخُّرُ: التَّعظُّمُ والتَّكبُّرُ، والتَّمَدُّحُ بالخِصال، وعَدُّ القَديمِ مِنَ الفِعال[11]، وأَصْلُ فخَرَ: يَدُلُّ عَلَى عِظَمٍ وقِدَمٍ[12]، والمعْنى هنا: كَثيرِ الافْتِخارِ عَلَى النَّاسِ بِمَناقِبِه، يُعدِّدُها كِبْرًا وتَطاولًا[13]، وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه: " ثَلاثٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَدَعُهُنَّ النَّاسُ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالأَنْوَاءِ"[14].

(1) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التّنزيل: 1/106.
(2) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التّنزيل: 1/106.
(3) ابْنُ سيده، المُخَصَّص: 3/400.
(4) ابْنُ الأَثِير، النِّهايَةُ في غَريبِ الحَديثِ والأَثَر: 2/93.
(5) الجَوْهَرِيُّ، الصِّحاح: (خيَلَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَيَلَ).
(7) الكفوي، الكُلّيّاتُ، ص: 885.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 8/349.
(9) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/51.
(10) الراغب، المفردات: (فَخَرَ).
(11) الجَوْهَرِيُّ، الصّحاح: (فَخَرَ)، وابن سيده، المحكم: (فَخَرَ).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فَخَرَ).
(13) ابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139، ومُحَمَّد الخضيري، السِّراجُ في بَيانِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 32.
(14) يحيى بن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 1/486، وص: 32.

مِـنَ الإِحْـسـانِ مُعامَلَةُ الخالِقِ بـالـعـبـوديَّـة، ومُـعـامَـلَـةُ المَـخْـلـوقـات بالإنسانيَّة

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تؤكِّد الآية على عبادة اللّه وحْدَهُ بالانْقيادِ لَهُ، ولا تَعْبُدوا مَعَهُ سِواهُ، وأَحْسنوا إلى الوالدَيْن بإكْرامِهما وبِرِّهِما، وأَحْسنوا إلى الأقارِبِ واليَتامى والفُقَراءِ، وأَحْسنوا إلى الجارِ القريب، والجارِ الغريب، وأَحْسِنوا إلى الصَّاحِبِ المُرافِقِ لَكُمْ من زوجة مرافقة في الحياة، أو أيِّ مصاحب في الأعمال والأسفار وأداء الواجبات، وأَحْسِنوا إلى المُسافِرِ الغَريبِ الَّذي انْقَطَعَتْ بِهِ السُّبُلُ، وإلى المَماليكِ مِنْ فِتْيانِكُمْ وفَتَياتِكُمْ، إنَّ اللّه لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُعْجَبًا بِنَفْسِه، مُتَعاليًا على النَّاسِ، كَثيرَ التَّمَدُّحِ لنَفْسِه[1]، مُبالغًا في المفاخرة، ومُوغلًا في المكاثرة.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الجمعِ بين الأمر والنَّهي في قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

الأَمْرُ بالعِبادَةِ والنَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ بِطَريقٍ يُشْبِهُ القَصْرَ لتَرْسيخِ التَّوْحيدِ وتَجْديدِ مَعْناهُ في نُفوسِ المُسْلِمينَ.

فلمَّا كانَ الخِطابُ لِلْمُؤْمنينَ، وكانَ الغرضُ تجديدَ العبادة ودوامَها والثَّبات عليها؛ قَدَّمَ الأَمْرَ بعبادةِ اللّه عَلَى النَّهْيِ عَنِ الإِشْراكِ به سبحانَه، فهو بمنزلةِ الأمرِ بالإخلاصِ في العبادة؛ لِأَنَّ مَنْ عَبَدَ مَعَ اللّه غَيْرَهُ كَانَ مُشْرِكًا، وَلَا يَكُونُ مُخْلِصًا.

نكتةُ العدولِ من الإيجاز إلى الإطناب في قولِ تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

مَجْموعُ الجُمْلَتَيْنِ في قُوَّةِ صيغَةِ القَصْرِ؛ لاشتمالهما على مَعْنى إثْباتٍ ونَفْيٍ، كَأَنَّهُ قيلَ: لا تَعْبُدوا إِلَّا اللّه، وعَدَلَ هُنا عَنِ أُسْلوبِ

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهرِ، المُنْتَخبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 114، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 84، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 84.

الأمرُ بتجديدِ عبادةِ الله والاستزادةِ منها، والنَّهي عنِ الإشراكِ بالله مطلقًا

القَصْرِ إلى الإطنابِ؛ لِأَنَّ المَقامَ مقامُ خِطابٍ لِأَهْلِ الإيمانِ، فالغَرَضُ الأَوَّلُ: هوَ طلبُ تجديدِ العبادةِ وتوثيقِها والاستزادةِ منها، ثُمَّ قصدَ بَعْدَ ذَلِكَ إفرادَه حينَ لا يشركون معه في التَّذلُّل شيئًا، أي: نَفيَ الحُكْم عَمَّا عدا المُثْبَتَ لَهُ، كما أنَّه بسببِ مقام الإطنابِ أفاد حصول الأمرِ بالعبادة، والنَّهي عن الإشراكِ مرَّتين، بالمطابقة وباللُّزوم، ففيه معنى: التَّأكيدِ والتَّقرير، فإنَّه يلزمُ من الأمر بعبادةِ اللّه النَّهيُ عن الإشراكِ به، كما يلزمُ من النَّهي عن الإشراكِ باللّه الأمرُ بعبادته، وإذا جِيْءَ بِالقَصْرِ؛ كانَ المَقْصِدُ الأَوَّلُ هو نَفيَ الحُكْم عَمَّا عَدا المَذْكورَ، وذَلِكَ على خلافِ مُقْتَضَى المقامِ هُنا، ولِأَجْلِ ذَلِكَ لَمَّا خُوطِبَ بَنو إِسْرائيلَ بِنَظيرِ هَذِهِ الآيَةِ خُوطِبوا بِطَريقَةِ القَصْرِ في قَوْلِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83] الآيَةَ؛ لِأَنَّ المَقْصودَ الأَوَّلَ إيقاظُهُمْ إِلَى إِبْطالِ عِبادَةِ غَيْرِ اللّه؛ لِأَنَّهُمْ قالوا لِموسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، ولِأَنَّهُمْ عَبَدوا العِجْلَ في مُدَّةِ مُناجاةِ موسَى رَبَّهُ، فأَخَذَ عَلَيْهِمُ الميثاقَ بِالنَّهْيِ عَنْ عِبادَةِ غَيْرِ اللّه[1].

براعةُ التَّرتيب في المعاطيف في الآية:

الـــوالـــدانِ أولـــى الـنَّـــاسِ بالإحسانِ

لَمَّا أمر اللّه بعبادته، والنَّهي عن الإشراكِ به، فصارَ المأمورُ بذلك مخلِصًا في عبادته؛ أمرَه بالإحسانِ في خلافته، وبدأ بأولى النَّاس بذلك، وهو مَنْ جعلَه سببًا لإيجاده، فقالَ مشيرًا إلى أنَّه لا يرضى له مِنْ ذلك إلَّا درجةَ الإحسانِ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ثمَّ ذكرَ أهلَ الصِّلةِ، وبدأ بقولِه: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ لتأكُّدِ حقِّهم بمزيدِ قربِهم، ثمَّ أتبعَ ذلكَ مَنْ تجبُ مراعاتُه للّهِ، أو لمعنى: تفسُدُ بالإخلالِ به ذاتَ البَينِ، وبدأ بما للّه؛ لأنَّه إذا صحَّ؛ تَبِعَهُ غيرُهُ، فقال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: لأنَّ له حقَّين: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، أي: الجارِ الَّذي لا

(1) البسيلي، نكت وتنبيهات: 2/163، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/48.

قرابةَ لهُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾، فذكرَ الرَّفيقَ والصَّاحبِ بالجنبِ ممَّنْ له مخالطةٌ في أمرٍ من الأمورِ الموجبَةِ لامتدادِ العشرةِ، ثمَّ ذكرَ الغريبَ الَّذي لا معرفةَ لكَ بهِ، فقالَ: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: المسافر لِغربتِهِ وقلَّةِ ناصره ووحشتِهِ، ثمَّ قال: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أي: من العبيدِ والإماءِ وغيرِهما كذلكَ، فإنَّ الإحسانَ إليهم طاعةٌ عظيمةٌ[1].

مناسبةُ التَّنكيرِ في سياقِ النَّهيِ في قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾:

النَّـهْـيُ عَـن الشِّرْكِ مِنْ كُلِّ نَواحيهِ وبِشَتَّى طُرُقِهِ

لَمَّا كانَ ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرةً في سياقِ النَّهيِ؛ دلَّ على العمومِ، والمعنى يتنوَّعُ على وفقِ دلالةِ ﴿شَيْـًٔا﴾ في السِّياقِ، فإذا كان منصوبًا عَلَى المَفعوليَّةِ لـ﴿تُشْرِكُوا۟﴾، فالمعنى على النَّهيِ عن الإشراكِ باللهِ أيَّ أحدٍ ممَّا يعبَدُ صَغيرًا كانَ أَوْ كَبيرًا، عَظيمًا أَوْ حَقيرًا، مِنْ غَيْرِ فرْقٍ بَيْنَ حَيٍّ ومَيِّتٍ وجَمادٍ وحَيَوانٍ، فيتناولُ كلَّ ما يطلقُ عليه شيءٌ: الَّذي هو من الألفاظِ الَّتي تجري على كلِّ الذَّواتِ، لا يغادرُ منها شيءٌ، فيَكونُ بِهذا المَعْنَى كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: 2]، وإذا كانَ منصوبًا عَلى المَصْدَرِيَّةِ لِلتَّأْكيدِ؛ فالمعنى: لاتشركوا أَيَّ شَيْءٍ مِنَ الإِشْراكِ خَفِيًّا كانَ أَوْ جَلِيًّا، مِنْ غَيْرِ فرْقٍ بَيْنَ شِرْكٍ أَكْبَرَ وأَصْغَرَ[2].

بلاغة التَّعبير في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾:

الاهـتِـمـامُ بِشَأْنِ الوالِدَيْنِ وتَعْظيمُ بِرِّهِما

أفادت الجملة الأمر عن طريق المصدر النَّائب عن فعل الأمر، وقدَّره بعضهم بـ (وأحسنوا إلى الوالدين إحسانًا)، ولو جاء على هذا النَّظم؛ لم يدلَّ على الأمر بتمام الإحسانِ إليهما، فإنَّ تقديم ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ - سواءٌ أكانَ عن تأخير في أصلِ وضعه أم أنَّه في أصل وضع العبارة لا يكون إلَّا مقدَّمًا - يفيدُ الاهتمامَ والتَّخصيصَ بمعنى: وَأَحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا تَامًّا لَا تُقَصِّرُوا فِي شَيْءٍ مِنْهُ،

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/276 - 277.
(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/276، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/154.

فيكونُ الإحسانُ إلى الوالدين فيه مزيد اهتمامٍ وتخصيصٍ بأنواعِ الإحسانِ ومراتبه حتَّى يصلَ إلى التَّمام، ولمَّا كان الإحسان يتعدَّى إلى متعلَّقه بـ (الباءِ واللَّامِ وإلى)؛ إذْ يُقَالُ: أَحْسَنَ بِهِ، وَأَحْسَنَ لَهُ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ، كانت التَّعدِيةُ بالباء الَّتي للإلصاق أَبْلَغ؛ لِإِشْعَارِهَا بِإِلْصَاقِ الْإِحْسَانِ بِمَنْ يُوَجَّهُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ إِشْعَارٍ بِالْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُحْسِنِ، وَالتَّعْدِيَةُ بِـ (إِلَى أو باللَّام) تُشْعِرُ بِطَرَفَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ يَصِلُ الْإِحْسَانُ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ، كما أنَّ الإِحْسانَ إذا عُدِّيَ بالباءِ دَلَّ على مُعامَلَةِ الذَّاتِ وتَوْقيرِها وإِكْرامِها، وهوَ مَعْنَى البِرِّ، كَقَوْلِه: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾، وإذا أُريدَ بِهِ إيصالُ النَّفْعِ المالِيِّ عُدِّيَ بِـ "إلى"، فيُقالُ: أَحْسَنَ إِلَى فُلانٍ، إذا وصَلَهُ بمالٍ ونَحْوِه، والتَّعدية بالباء فيها معنى العطف، ويحتمل أنْ تكونَ التَّعدية بالباء على تضمين الإحسانِ معنى البِرِّ؛ ليكونَ من تكثيرِ المعنى، وأفاد تنكير ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ التَّعظيم.(1)

نكتة تخصيصِ الوالدين في الذِّكرِ من سائر الأقارب:

أقربُ القراباتِ قرابةُ الوالدَيْنِ وبسببِهما تنشأُ سَائِرُ القراباتِ

لَمَّا كانَ الْوَالِدَانِ مِنَ الْأَقَارِبِ -أَيْضًا- أفادَ أَنَّ تخصيصَهما في الذِّكرِ وتقديمهما، فيه نكتةٌ، وهي أنَّه لَمَّا كَانَتْ قرابةُ الوالدين مَخْصُوصَةً بِكَوْنِهَا أَقْرَبَ الْقَرَابَاتِ، وَكَانَتْ مَخْصُوصَةً بِخَوَاصَّ لَا تَحْصُلُ في غَيْرِهَا، فمنهما تنشأ سائر القراباتِ - لَا جَرَمَ - مَيَّزَهَا اللَّه تَعَالَى فِي الذِّكْرِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ، فَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَرَابَةَ الْوالِدَينِ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقَرَابَةِ الرَّحِمِ(2).

دَلالَةُ التَّعْريفِ بِالإضافَةِ في: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾:

التَّنْويهُ بِشَأْنِ جَميعِ الأَقارِبِ وتَأْكيدُ الإحْسانِ إِلَيْهِمْ

أتى بـ (ذي) ليشمل جَميعَ الأَقارِبِ، لنكتة الإضافة إلى المصدر، فكلُّ من له صلة القربى داخِلٌ في وُجوبِ الإِحْسانِ لَهُ على الإِطْلاقِ، وفيه اختصار عن تَفْصيلِ ذِكْرِهِمْ وأَنْواعِ قَرابَتِهِمْ، فأفاد الاختصار التَّعميمَ.

---

(1) ابنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/154، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/68، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/48.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/76، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/695، وابنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/154.

دلالةُ إعادةِ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

تأكيدُ الإحسانِ لذي القربى

يحتمل أنْ تكونَ إعادةُ حرفِ الجرِّ؛ لتأكيدِ الإحسانِ لذي القربى، لِما قد يقعُ من بعضِهم من الاستخفافِ بالقريب؛ لأنَّه قريبُه، فيصرفُ بِرَّه وإحسانَه إلى الأباعد؛ ليستكفيَ شرَّهم، أو ليُذكَرَ بينَ النَّاسِ بالذِّكرِ الحسَنِ، ويحتمل أنْ يكونَ لإفادةِ التَّنويع، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ بِالْوَالِدَيْنِ غَيْرُ الْإِحْسَانِ بِالْأَقْرَبِينَ؛ إِذْ يَجِبُ لِلْوَالِدَيْنِ مِنَ الرِّعَايَةِ وَالتَّكْرِيمِ وَالْخُضُوعِ مَا لَا يَجِبُ لِغَيْرِهِمَا، وأيضًا لِلْإشارَةِ إلى أَنَّ الإِحْسانَ إلى القَرابَةِ مُسْتَقِلٌّ، بمعْنى: أنَّهُ لَوْ فُرِض أَنَّ الرَّجُلَ لَيْس لَهُ والِدانِ، فحَقُّ القَرابَةِ ثابِتٌ، ولَيْسَ مَبْنِيًّا على حَقِّ الوالِدَيْنِ، وتابِعًا لَهُ؛ لِأَنَّ الوالِدَيْنِ قَدْ يَكونانِ ميِّتَينِ، فحَقُّ القَرابةِ باقٍ(1).

مناسبةُ تكريرِ الباءِ في هذهِ الآيةِ دونَ آية البقرة:

وقَدْ تَكَرَّرَ حَرْفُ الجَرِّ هنا، ولَمْ يَتَكَرَّرْ في حكايَةِ وَصِيَّةِ بني إِسْرائيلَ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البَقَرَة: 83]، للتَّوْكيدِ والمُبالَغَة، فبُولِغَ في هَذِهِ الآيَةِ؛ لِأَنَّها في حَقِّ هَذِهِ الأُمَّةِ، ولَمْ يُبالَغْ في حَقِّ تِلْكَ؛ لِأَنَّها في حَقِّ بَني إِسْرائيلَ، والاعْتِناءُ بِهَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُ مِنَ الاعْتِناءِ بِغَيْرِها؛ إِذْ هِيَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، ولأَنَّ الإِسْلامَ أَكَّدَ أَواصِرَ القَرابَةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِه(2).

تأكيدُ المناسبةِ في تقْديمِ اليَتامى على المَساكينِ في قولِه: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾:

الأَوْلَوِيَّةُ لليَتامى على المَساكينِ في بابِ الإحْسانِ

قدَّمَ اللّه اليَتيمَ على المِسْكينِ؛ لِأَنَّهُ أَضْعَفُ، وبالإِحْسانِ والرِّفْقِ أَوْلى؛ لِأَنَّهُ يَضْعُفُ عَنْ دَفْعِ حاجَتِه ورَفْعِها إلى غَيْرِه لِصغَرِ سِنِّه(3)، أَمَّا المِسْكينُ؛ فيُمْكِنُهُ أَنْ يَعْرِضَ حالَ نَفْسِه على غَيْرِه، فيَجلِبَ بِه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/631، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/74، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/49.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/631، والقِنَّوْجيُّ، فتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآنِ: 3/112.
(3) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/276.

نَفْعًا، أَوْ يَدْفَعَ بِهِ ضَرَرًا[1]، كما أَنَّ اليَتيمَ لِانْكِسارِ نَفْسِهِ بِفَقْدِ والِدِهِ أَحْوَجُ مِنَ المِسْكينِ إلى الإِحْسانِ والمعامَلَةِ الرَّقيقَةِ.

دلالةُ المغايرةِ في التَّعبيرِ بين قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾:

لَمَّا كان الجارُ الأَجْنَبِيُّ الَّذي لا قَرابَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ جارِهِ يَحْتاجُ إلى مَزيدِ عِنايَةٍ؛ حَذَفَ المُضافَ، فلَمْ يَقُلْ: (ذي الجُنُبِ)؛ لِيَكونَ وصْفًا عَلَى سَبيلِ المُبالَغَةِ، فجَمَعَتْ هذهِ الجُمْلَةُ بَيْنَ إِطْنابٍ وإيجازٍ في سياقٍ واحِدٍ، فأذنت بتَعْظيمِ حَقِّ الجارِ، والِاعْتِناءِ بِهِ، والِاهْتِمامِ بِشَأْنِهِ.

دلالة الباء في قوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾:

تفيد الباء معنى: الملابسة، والكلامُ على الكناية؛ ليشمل كلَّ من له صحبةٌ أو رفقةٌ في أمر حسنٍ كتعلُّم وتصرُّفٍ وصناعةٍ وسفرٍ، فإنَّه صحِبَك، وحصل بجانبك، ومنهم من قعد بجنبِك في مسجدٍ أو مجلسٍ أو غيرِ ذلك مِنْ أدنى صحبةٍ التَأَمَتْ بينك وبينه.[2]

السِّرُّ في التَّعْبيرِ بِابْنِ السَّبيلِ بَدَلَ الغَريبِ في: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

التَّلَطُّفُ به ومُراعاةُ حالِهِ وحاجَتِهِ

فابْنُ السَّبيلِ في الغالِبِ يَكونُ مُحْتاجًا، فإِنْ قُدِّرَ انْتِفاءُ حاجَتِهِ بِغِناهُ، ولَمْ يَكُنْ فقيرًا، فهوَ مُحْتاجٌ إلى مَنْ يَدُلُّهُ على ما فيهِ مَصالِحُهُ لِغُرْبَتِهِ وعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِالْبِلادِ الَّتي نَزَلَ بِها، كإِرْشادِهِ والتَّرَفُّقِ بِهِ وتَلْيينِ القَوْلِ لَهُ وتَأْمينِ رَوْعَتِهِ ومُساعَدَتِهِ في حاجِيّاتِهِ، فالإِحْسانُ إِلَيْهِ باقٍ.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

تَسْمِيَتُهُ بِابْنِ السَّبيلِ لِمُلازَمَتِهِ الطَّريقَ، مِثْلَ: لُزومِ الوَلَدِ لِوالِدَتِهِ، وهذا مِنَ المَجازِ العَقْلِيِّ، ووَجْهُهُ وعَلاقَتُهُ مِنْ بابِ تَسْمِيَةِ الحالِّ بِاسْمِ المَحَلِّ، وذَلِكَ لِكَوْنِ المُسافِرِ مَوْجودًا في السَّبيلِ[3]، ولَعَلَّ في نِسْبَتِهِ إلى السَّبيلِ بَيانًا لِخِفَّةِ مُؤْنَتِهِ، فهوَ ضارِبٌ في الأَرْضِ، ولَيْسَ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/76.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/176، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/156.
(3) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/311.

قاصِدًا المُكوثَ والتَّطْويلَ في المَوْضِعِ الَّذي نَزَلَ فيهِ، وهَذا مَعْنًى يُنَشِّطُ النُّفوسَ لِخِدْمَتِهِ والعِنايَةِ بِهِ، واللهُ أَعْلَمُ.

السِّرُّ في التَّعْبيرِ بِمُلْكِ اليَمينِ بَدَلَ العَبيدِ والإِماءِ في: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾:

بَيانٌ لِضَعْفِ حالِهِم وحَثٌّ على مَزيدِ التَّلَطُّفِ بِهِم:

فَإِسْنادُ المُلْكِ إلى اليَمينِ عِنْدَ العَرَبِ مِنَ المَجازِ العَقْليِّ[1]، والغَرَضُ مِنْ هذا المَجازِ تَصْويرُ هذهِ الفِئَةِ مِنَ النَّاسِ بِصورَةِ الأَسيرِ الضَّعيفِ الَّذي لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا، بَلْ هوَ مَمْلوكٌ لِغَيْرِهِ، وفي هذا حَثٌّ على التَّلَطُّفِ بِهِم والإِحْسانِ إِلَيْهِمْ.

دلالة (ما) في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾:

جاء بـ (ما) الَّتي لغير العاقل حملًا على الأنواع والأوصاف.[2]

حسنُ التَّذييل في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾:

الإِشْعارُ بِذَمِّ الفَخْرِ والخُيَلاءِ ومَنِ اتَّصَفَ بِهِما

أوّلًا: في جملة التَّذييل تهديدٌ ووعيدٌ لمن يتَّصف بهذين الوصفين القبيحين.[3]

ثانيًا: أفادت ﴿إِنَّ﴾ تأكيد مضمونِ الجملة لرعايةِ الاهتمامِ بمضمونِ الإسناد.

ثالثًا: كما أفادت ﴿إِنَّ﴾ المبادرةَ إلى الامتثال للإحسانِ لجميعِ من تقدَّمها؛ لأنَّها جاءت في مقام التَّعليل[4] ببيان أنَّ من لم يمتثلِ إنَّما هو لكونه مُختالًا فخورًا، فدلَّ على منافاة الإحسان لِلاختيالِ والتَّفاخُرِ.

رابعًا: دلَّت الجملةُ الاسميَّةُ على ثباتِ مضمونِ الجملةِ ودوامِهِ.

خامسًا: لمَّا جاءَ الخبرُ فعلًا في قولِه: ﴿لَا يُحِبُّ﴾؛ أفادَ تقوية

(1) سَبَقَ التَّعْريفُ بِه.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 3/676.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/51.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/176.

الحكمِ وتأكيدَه؛ ليجتمع معَ تأكيدِ ﴿إِنَّ﴾، ومجيءِ الجملة اسميَّةً، كما دلَّ الإخبارُ بالفعلِ على تجدُّدِ انتفاءِ حبِّه تعالى، كلَّما اتَّصفَ بهما أحدٌ، أو ظهرت آثارُ الاتِّصافِ بينَ النَّاس.

سادسًا: أفادَ النَّفيُ بـ﴿لَا﴾ استمرارَ انتفاءِ حبِّ اللّهِ تعالى لِمَنْ يتَّصفُ بهذينِ الوصفينِ.

سابعًا: أفادَ التَّعبير بـ ﴿مَن﴾ المبالغةَ في العمومِ؛ ليشملَ انتفاءَ محبَّةِ اللّهِ لكلِّ مَنِ اتَّصفَ بهذينِ الوصفينِ، وإنْ كانَ الاتِّصافُ قليلًا.

ثامنًا: دلَّ التَّعبير بالاسمِ الموصول ﴿مَن﴾ على أنَّ الاتِّصافَ بالاختيالِ والافتخارِ هما سببُ انتفاءِ محبَّةِ اللّه.

تاسعًا: أفادَ تعبيرُ ﴿كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ذمَّ الوصفينِ وقبحَهما وذمّ الاستمرارِ في الاتِّصاف بهما، وظهور آثارهما في النَّاس.

عاشرًا: جمعَ بينَ وصفينِ هما: ﴿مُخْتَالًا﴾و ﴿فَخُورًا﴾، ولمَّا كانَ المختالُ هو المُتَكَبِّرَ الَّذي تمكَّنتْ من نفسِه ملكَةُ الكِبر، وجاء على صيغةِ اسمِ الفاعلِ بمعنى: أنَّه وصفٌ ثابتٌ؛ أشعرَ بأنَّه مذمومٌ في أصلِه وفي الزِّيادةِ عليه، ولمَّا كانَ ﴿فَخُورًا﴾ صيغةَ مبالغة؛ أشعرَ أنَّه مذمومٌ على جهةِ المبالغةِ؛ إذا خرجَ عن حدِّه، أي: بأنْ يتفاخرَ على أقاربه وعلى النَّاسِ، وأنْ يعدِّدَ مناقبَه كِبرًا، وبما ينافي الإحسانَ المأمورَ به، فإنْ عدَّها اعترافًا كان شكورًا، ولهذا جازَ الفخرُ على سبيلِ التَّحدُّثِ بالنِّعَمِ[1].

الحادي عشر: تشعرُ جملةُ التَّذييلِ بأنَّ مَنِ اتَّصفَ بالإحسانِ قد يَجِدُ في نَفْسِه زَهْوًا وَخُيَلَاءَ، وَافْتِخَارًا بِمَا صَدَرَ مِنْهُ، فَأَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُنَبِّهَ عَلَى التَّحَلِّي بِصِفَةِ التَّوَاضُعِ، وَأَلَّا يختالَ عَلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْه، وَأَلَّا يَفْخَرَ عَلَيْه، أي: وَلَا تَخْتَالُوا، وَتَفْخَرُوا عَلَى مَنْ أَحْسَنْتُمْ إِلَيْهِ[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

الثاني عشر: جمعَ بينَ المختالِ والفخورِ مِنْ دونِ عطفٍ، ولمْ يَرِدَا في القرآنِ إلَّا كذلكَ للإشعارِ بمقاربةٍ في معنى الوصفينِ وفي آثارِهما، وبأنَّ الاختيالَ سببٌ في الافتخار.

الثالث عشر: لمَّا كانَتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/357، والنيسابوري، غرائب التفسير: 2/402.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/634.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِبادَة والطَّاعَة:

الطَّاعَةُ: هيَ الفِعلُ الواقِعُ عَلى حَسَبِ ما أرادَهُ المُرِيدُ، مَتى كانَ المُرِيدُ أَعلَى رُتْبَةً مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِك، وتكونُ لِلْخالِقِ والمَخْلوقِ[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّساءُ: 59]، والعِبادَةُ: هيَ تَعْظيمُ اللهِ تَعالَى بأَمْره، بِشَرْطِ النِّيَّةِ ومَعْرِفَةِ المَعْبودِ، ولا تَكونُ إلَّا لِلْخالِقِ، قال تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، فالعِبادَةُ حَقُّ اللهِ وحْدَهُ،، أَمَّا الطَّاعَةُ: فهيَ مُطْلَقُ امْتِثالِ الأَمْرِ والنَّهْي، فالطَّاعَةُ أَمْرُها واسِعٌ[2]، وما ثبت بالتَّواتر أنَّ عيسى - عليه السلام - كان عظيم الرَّغبة في العبادة والطَّاعة للّه - تعالى - ولو كان إلهًا؛ لاستحال ذلك؛ لأنَّ الإله لا يَعْبُدُ نفسه"[3]، وَالدِّينُ: الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ، وَرَأْسُهَا تَوْحِيدُ الله، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ[4]، وهو تعالى "لا معبود بحقٍّ سواه، فهو الإله الحقُّ الَّذي تتعيَّن أن تكون جميع أنواع العبادة والطَّاعة والتَّألُّه له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه"[5].

الإِحْسان والبِرّ:

الإِحْسانُ: إِعْطاءُ الحَسَنَةِ وفِعْلُ الخَيْرِ، قالَ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النَّحْلُ: 90]، وقالَ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ [الأَحْقافُ: 15]، يقال: رجل حسن، وامرأة حسنة، يقال: صدق فلان وبرَّ، وبرَّت يمينه: صدقت، وأبرَّها: أمضاها على الصِّدق، ومن هذا الباب قولهم: يبرُّ قرابته، وأصله: الصِّدق في المحبَّة، يقال للرَّجل: بارٌّ، وبررت والدي، وبررت في يميني[6]، والبِرُّ: الاِتِّساعُ في الإِحْسانِ وفِعْلِ الخَيْرِ[7]، فالبِرُّ: أَعْلى دَرَجَةً مِنَ الإِحْسانِ، قال تَعالى في وصْفِ نَبيِّهِ يَحيى عليه السلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ [مريمُ: 14]، وفي وصْفِ عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مَرْيَمُ: 32]، وقوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 212]، " يَعْنِي: أَنَّ

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 221.
(2) زَكَرِيّا الأَنْصاريُّ، الحُدودُ الأَنيقَةُ والتَّعْريفاتُ الدَّقيقَةُ، ص: 77.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/246.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 4/515.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان: 1/110.
(6) مناهج جامعة المدينة العالمية، التفسير الموضوعي، ص: 45.
(7) الراغب، المفردات: (بَرَرَ).

أَصْلَ الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ عَامٌّ، في حَقِّ كُلِّ الْعِبَادِ، وَذَلِكَ هُوَ الْإِحْسَانُ بِالْحَيَاةِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، وَإِعْطَاءِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الرِّزْقِ، وَدَفْعِ أَكْثَرِ الْآفَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ عَنْهُمْ، فَأَمَّا مَرَاتِبُ الْعَطِيَّةِ وَالْبَهْجَةِ؛ فَمُتَفَاوِتَةٌ مُخْتَلِفَةٌ"(1).

الصَّاحِب والصَّديق:

الصَّاحِبُ: مِنَ الصُّحْبَةِ في الزَّمانِ والمَكانِ، وقَدْ تكونُ صُحْبَتُهُ مُؤَقَّتَةً في الطَّريقِ، مِثْلَ: العَبْدِ الصَّالِحِ مَع موسى: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ [الكَهْفُ 76]، أَوْ في مَكانٍ، مِثْلَ: يوسُفَ مَعَ صاحِبَيْهِ في السِّجنِ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسُفُ 39]، وفي الجاهليَّة قال الشَّاعر امرؤ القيس:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ *** وَأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا *** نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا(2)

وقَدْ تكونُ الصُّحْبَةُ مُؤَبَّدَةً، مِثْلَ: الوالِدَيْنِ، قال تعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لُقمانُ 15]، ومِثْلَ: الزَّوْجَةِ الَّتي تَصْحَبُ الزَّوْجَ طِيلَةَ عُمُرِه، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ [عَبَسَ: 36]، أَمَّا الصَّديقُ؛ فمِنَ الصَّداقَةِ: وهِيَ اتِّفاقُ الضَّمائِرِ وصِدْقُ الاعْتِقادِ على المَوَدَّةِ(3)، وفي التَّنْزيلِ جوازُ الأَكْلِ مِنْ بَيْتِ الصَّديقِ، وَعَدُّهُ مِنَ الأَقارِبِ، قال تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ [النُّورُ 61]، وقالَ تعالى يَصِفُ حالَ المُشْرِكينَ، وهُمْ في النَّارِ يَصْطَرِخُونَ، ويتَحَسَّرُونَ على فَقْدِ الأَصْدِقاءِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ۝١٠١﴾ [الشُّعَراءُ 101]، فمُصْطَلَحُ الصَّاحِبِ أَعَمُّ مِنَ الصَّديقِ، والصَّداقَةُ مِنْ دَرَجاتِ الصُّحْبَةِ.

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

الطَّريقُ: هوَ كُلُّ ما يَطْرُقُهُ الطَّارِقُ مِنَ النَّاسِ، مُعْتادًا كانَ أَوْ غَيْرَ مُعْتادٍ(4)، قال تعالى:

(1) الرازي: مفاتيح الغيب: 8/246.

(2) البيتان لامرئ القيس، من ديوانه، ص: 65، من قصيدته الَّتي رويت عنه حال سفره الطَّويل إلى قيصر الرُّوم، مستنصرًا به بعد قتل أبيه، وصاحبه المذكور، هو عمرو بن قميئة اليشكريُّ، وهو الَّذي صحبه إلى قيصر، والدَّرب المشار إليه، هو الطَّريق ما بين طرسوس وبلاد الرُّوم، والمشهور أنَّ قيصر أهداه حلَّة مسمومة مات لمَّا لبسها، وسمِّي ذا القروح لذلك، ينظر ديوان امرئ القيس، ص: 65، وابن جرير، جامع البيان: 16/540، وهامش التّحقيق.

(3) الراغب، المفردات: (صَدَقَ)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 285.

(4) الكفوي، الكُلِّيَّاتُ، ص: 513.

﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]، والطَّريق: كلُّ ما يطرقه طارق، معتادًا كان أو غير معتاد، فهو الطَّريق، "والطَّريق الموصل إلى البلد يسمَّى: عدلًا، وما لا يوصل إليه يسمَّى: جائرًا، والطُّرق: جمع طريق جمع تكسير، وطرقات: جمع طريق جمع سلامة"[1]، أَمَّا السَّبيلُ؛ فهوَ الطَّريقُ السَّهلُ؛ وأَغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِّ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾، [الأنعام: 55]، وأَمَّا الصِّراطُ: فهوَ السَّبيلُ الَّذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ، فالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسّبيلِ: أَنَّ الطَّريقَ لا يَقْتَضي السُّهولَةَ واعْتِيادَ السُّلوكِ[2]، أَمّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ؛ فهوَ السَّهلُ المُعْتادُ، والفَرْقُ بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ: أَنَّ الصِّراطَ لا اعْوِجاجَ فيهِ[3]، قالَ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: 161]، فالصِّراطُ أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[4]، وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنهما على الآخرِ تَوَسُّعًا.

الِاخْتيال والفَخْر:

الاخْتيالُ: مِشْيَةُ البَطَرِ، والفَخْرُ: ذِكْرُ المَناقِبِ للتَّطاوُلِ بها على السَّامِعِ، فمادَّةُ الاخْتِيالِ أَكْثَرُها يَدورُ على زَهْوِ الحَرَكَةِ؛ لِذا سُمِّيَ الحِصانُ: خَيْلًا؛ لِأَنَّهُ يَخْتالُ في مَشْيِهِ، وعِنْدَما يَرْكَبُهُ الفارِسُ يَتَبَخْتَرُ بِهِ، فكَلِمَةُ الخُيَلاءِ مِنْ هَذِهِ، فهِي حَرَكَةٌ مَرْئِيَّةٌ، قال تَعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان: 18]، أَمَّا الفَخْرُ؛ فهوَ حَرَكَةٌ مَسْموعَةٌ، وهوَ أَنْ يَتَعاظَمَ الإِنْسانُ بِكَلامٍ مُبالَغٍ فيه، فيَحْكيَ عَمَّا فعَلَهُ، ويُمَجِّدَهُ ويُعْلِيَ مِنْ شَأْنِهِ[5]، فالمُخْتالُ: مُتَكَبِّرٌ بالفِعْلِ فقَطّ، والفَخُورُ: مُتَكَبِّرٌ بالقوْلِ، أَوْ بالقَوْلِ والفِعْلِ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾؛ لأنَّ الاختيال والفخر من الأوصاف النَّفسيَّة المذمومة[6].

(1) الكفوي، الكليات، ص: 581.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 298.
(3) الكفوي، الكُلِّيّات، ص: 513.
(4) المناوي، التوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 215.
(5) مُحمَّد الخضيري، السِّراجُ في بَيانِ غَريبِ القُرآنِ، ص: 32.
(6) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 2/207.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ
ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ
وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾

[النِّساءُ: 37 - 39]

❁ مُناسَبةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ الأَخْلاقِ الذَّميمَةِ الحامِلَةِ على الفَخْرِ والخُيَلاءِ الوارِدينَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ

لَمَّا ذكَر اللّه تعالى الأمرَ بعِبادَتِه، والإحسانَ إلى عِبادِه، وذَمَّ المُخْتالَ الفَخورَ الَّذي يَمْنَعُهُ اخْتيالُهُ وفَخْرُهُ مِنْ هذا الإحْسانِ(1)؛ شرَعَ في بَيانِ جُمْلَةٍ مِنَ الأَخْلاقِ الرَّديئَةِ والصِّفاتِ الذَّميمَةِ الحامِلَةِ على الاخْتيالِ والفَخْرِ(2)، وأَنَّ مَرَدَّها إلى صِفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، هُما: البُخْلُ والرِّياءُ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾، أي: يوقِعونَ البُخْلَ بما حَمَلَهُمْ مِنَ المَتاعِ الفاني على الفَخارِ، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، فأَتْبَعَهُ ذَمَّ المُسْرفينَ المبَذِّرينَ، فَبَيَّنَ في كُلِّ هذا أَنَّ الذين لا يُحْسِنونَ على الوَجْهِ المَأْمورِ به - فيمَنْ تقدَّمَ الأَمْرُ بالإحسانِ إِلَيْهِمْ - فِرْقَتانِ: فِرْقَةٌ يَمْنَعونَ النَّفَقَةَ أَصْلًا، وهُمُ البُخلاءُ خَوْفًا مِنْ زَوالِها، وفِرْقَةٌ يَمْنَعونَ وصْفَها، ويَفْعَلونَها رياءً، فَيُعْدِمونَ بذلِكَ روحَها(3).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾: أَعْتَدَ الشَّيءَ: أَعَدَّه، وأَصْلُهُ: أَعدَدْنا، أُبدِلَتِ الدَّالُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/19، وابنُ كَثيرٍ، تَفْسيرُ القرآنِ العظيم: 2/301، والسِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمنِ، ص: 178.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/21، وابنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ)، 1/316.
(3) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/278.

تاءٌ[1]، والعَتادُ والعُدَّةُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قَبلَ الحاجَةِ إليْه، كالإعْدادِ[2]، وأَصلُ (عَتَدَ): يَدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ[3]، فـ"أعتَدْتُ الشَّيءَ: هيَّأته، وأعددته، وهو من إحضاره"[4]، ومعْنى اللَّفظة في الآية: هَيَّأْنا، وأَحْضَرْنا[5].

2) ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: مُراءاةً، مِن راءى فُلانٌ النَّاسَ يُرائيهِمْ مُراءاةً ورِئاءً[6]، وأَصلُ (رَأَى): يَدُلُّ عَلَى نَظَرٍ، وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصيرَةٍ[7]، ويُحملُ عليه المراءاةُ بالعمل؛ وذلك أن ينفق ماله في ما يَرَى النَّاسُ في الظَّاهر أنَّه يريد الله تعالى، فيَحْمَدونه، ويُثْنون عليه، وهو في الحقيقة غيرُ مريدٍ به الله ولا طالبٍ منه الثَّواب[8]، وهو معنى اللَّفظة في الآية.

3) ﴿قَرِينًا﴾: القَرين: صاحبك الَّذي يُقارنُك، ويُلاصِقُك، ويتَّصِلُ بك[9]، وهو مِن: قَرَنْت الشَّيء بالشَّيء؛ إذا وصَلْتَه[10]، ويُطلق القَرينُ كذلك على: المُصاحِب، وأصل (القَرْن): جمعُ شيءٍ إلى شيء[11]، والمراد هنا: الشَّيطانُ المَقْرون بالإنسانِ لا يُفارقُه[12].

❖ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الَّذينَ يَمْنعونَ ما أَوْجَبَ اللهُ عَلَيهِمْ مِنَ الإنفاقِ مِمَّا أَعْطاهُمْ مِن رِزْقِه، ويَأْمرون غَيْرَهُمْ بالإمْساكِ أَيضًا، ويَجْحَدون ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه مِنَ الرِّزْقِ والعِلْمِ وغَيْرِه، ولا يُبَيِّنون لِلنَّاسِ الحَقَّ، بَلْ يَكْتُمونَه، ويُظْهِرون الباطِلَ، وهذِه الخِصالُ من خِصالِ الكُفْرِ، وقَدْ هَيَّأْنا لِلْجاحِدينَ عَذابًا مُخزِيًا، وهَيَّأْنا العذابَ المُخْزيَ - أيْضًا- لِلَّذينَ يَبْذُلون أموالهم من أجل أَنْ يَراهُمُ النَّاسُ، ويَمْدَحوهُم، وهم لا يُصَدِّقونَ باللَّه، ولا بيوم القيامة، وهذه الأعمال السَّيِّئَةُ مِمَّا يدعو إليْها الشَّيْطانُ، ومَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ له صاحبًا مُلازمًا؛ فساءَ صاحبًا.

(1) ابن سيده، المحكم: (العين والدال والتاء).
(2) الراغب، المفردات: (عَتَدَ)، المناوي، التوقيف على مهمّات التّعاريف، 236.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَتَدَ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عتد).
(5) الرّاغِبُ، المُفْردات: (عَتَدَ)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظِ: (عتد).
(6) الجَوْهَرِيُّ، الصِّحاح: (رَأَى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رَأَى).
(8) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ: (رَأَى)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظِ: (رأي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رأى).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرن).
(10) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (قَرَنَ).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَرَنَ).
(12) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (قَرَنَ).

مَـــنْ يَـبْـخَـلُ بِـالإِحْـسـانِ شُـحًّـا، ومَـنْ يَجودُ بِهِ رِياءً: سيَّانِ، وكِلاهُما مَحرومٌ مُهانٌ

وماذا يَضُرُّ هؤلاء؛ لو أَنَّهُم صَدَّقوا باللّه وبيوم القيامة اعْتِقادًا وعملًا، وبذَلوا مِمَّا أَعْطاهُمُ اللّه باحتِسابٍ وإخلاص، واللّهُ عالِمٌ ببَواطِنِ عبادِهِ وظَواهِرِهم، لا يَخْفَى عَلَيْهِ حالُهم، وسَيُجازي كلًّا بعَمَلِه؟[1]، وترشدُ الآية الكريمة إلى "أنَّ قرناء السُّوء يفسدون الأخلاق؛ لأنَّ عدوى الأخلاق تصل بالمجاورة، كما تصل عدوى الأمراض"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ بالِاسْتِئْنافِ الابتدائيِّ:

البَخيلُ بما آتاهُ اللهُ مِنْ مالٍ أَوْ عِلْمٍ حَقيقٌ بِكُلِّ مَلامَةٍ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذابِ والمَهانَةِ

الكلامُ اسْتِئْنافٌ ابتدائيٌّ جيءَ بِهِ عَقِبَ الأَمْرِ بالإِحْسانِ لِمَنْ جَرَى ذِكْرُهُمْ في الجُمْلَةِ السابقة، كَأَنَّهُ قيلَ: الَّذين يَبْخَلون، ويفعلون، ويَصْنَعون، أَحِقَّاء بكلِّ ملامة[3]، ودَلَّ عَلى هذا الخبر قَوْلُهُ: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾، وقُصِدَ العُدولُ عَنِ العَطْفِ؛ لِتكونَ مُسْتَقِلَّةً، ولِما فيهِ مِنْ فائِدَةِ العُموم، وفائِدَةِ الإِعْلامِ بِأَنَّ هَؤُلاءِ مِنَ الكافِرينَ، فالتَّقْديرُ: الَّذينَ يَبْخَلونَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابًا[4].

وإِرْدافُ التَّحْريضِ على الإِحْسان بالتَّحْذيرِ مِنْ ضِدِّهِ، وما يُشْبِهُ ضِدَّهُ مِنْ كُلِّ خلق غَيْرِ صالِحٍ، من قبيل مقابلة الخُلُقِ - الَّذي دَعاهُمُ اللّه إِلَيْهِ - بِأَخْلاقِ أَهْلِ الكُفْرِ وحِزْبِ الشَّيْطانِ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ ما في خِلالِ هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنْ ذِكْرِ الكافِرينَ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ باللّه ولا باليَوْمِ الآخر، فَيكون قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ مُبْتَدَأً حُذِفَ خَبَرُهُ، وتكون الجُمْلَةُ منقطعةً عَمَّا قبلها جيءَ بها لحكاية صفات من يمنع الإحسان[5].

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 115، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 85.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1682.
(3) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/74، وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/52.
(4) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/52.
(5) ابنُ التَّمْجيد الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيد على البَيْضاويّ: 7/157، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/52.

توجيه عطف جمل وجوه البخل:

فــي العطـف حسنُ تقسيمٍ لأحـوال البخل إحاطةً بوجوهه المذمومة

ذكر تعالى في هذه الآية من أحوال البُخْلِ المذمومة ثلاثًا: أولها: كون الإنسان بخيلًا، وثانيها: كونهم آمرين غيرهم بالبُخْلِ، وهذا هو النِّهاية في حُبِّ البُخْلِ، وثالثها: قوله: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾، فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعْسار مع اليَسَار، والعَجْز مع الإمكان، ثم إنَّ هذا الكتمان قد يقع على وجه يُوجب الكفر، مثل أن يظهر الشِّكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حدِّ الكفر، فلذلك قال: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[1].

فـــي حسـن الـتَّـقـسـيـم بالعطف بيانٌ لمنتهى السُّوء في الطَّبع والخصال

يُلمح في حسن التَّقسيم توصيف البخل، وصفة البخيل، وتوسيع دائرة وصفه بالشُّحِّ في نفسه طبعًا متجسِّدًا في الفعال، والأمر بالبخل، ثم كتْم الفضل؛ وذلكم منتهى السُّوء في الطَّبع، والتَّمادي في رديء الخصال.

براعة الالتفات في الآية:

ضمير التَّكَلُّم مع الالـتـفـات لـبَـيـانِ شِـدَّةِ التَّهديدِ وهَـوْلِ الوَعيد

الالتِفاتُ مِنَ الغَيْبَةِ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ إلى التَّكَلُّم في: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾، وهذه النُّونُ الَّتي تَدُلُّ على العظَمَةِ أتَتْ بِغَرَضِ التَّهْويل والتَّعْظيم؛ لِأنَّ عذابَ العَظيم عَظيمٌ، وغضَبَ الحليم وخيمٌ[2].

وقَد نَزَلَت هذهِ الآيةُ في شأن اليهودِ الَّذين كتَموا صِفَةَ رسولِ اللّه ﷺ وكانوا يأمرون الأَنْصارَ بالبُخْلِ[3]، فكما تَكَبَّروا على عباد اللّه، ومنَعوا حقوقَه، وتَسَبَّبوا في مَنْعِ غَيْرِهِم مِنَ البُخْلِ وعدم الِاهْتِداء، أهانَهُم بالعذابِ الأليم والخِزْيِ الدَّائم[4]، ولهذا تغيَّر الأَسلوبُ إلى

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/79.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/30.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 08/353، وابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/52.
(4) السِّعْدي، تَيْسيُر الكَريمِ الرَّحْمنِ ص: 177.

صيغَةِ التَّكَلُّم؛ إشعارًا بعِظَم هذا العذاب لذَلِكَ الذَّنْبِ الكبير، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ بنونِ العَظَمَةِ تَعْلو نَبْرَةُ الوعيد؛ لِتَمْلَأَ الأُفُقَ؛ لأنَّ العتيدَ هو الحاضر المُهَيَّأ[1]، واقترانُه بضمير العظيم المُتعال لا شَكَّ يضاعف مِن عظم هذا العذاب المُهين المُعَدِّ مِن قِبَلِه ﷻ.

ونتيجَةً لِعِنادِ الجاحدين وإصرارهم على باطِلِهم جابَهَهُمُ اللهُ ﷻ بالضَّمير نفسه في آيات كثيرة، مُتَوَعِّدًا إيَّاهم بسوءِ المصير، منْها قولُه تعالى في هذه السُّورة أيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النساء: 151].

علَّة وضع الظَّاهر موضع المُضْمر:

في الإظهار تقريرٌ برسوخ الكفر فيهم، وأنَّه شأنُهم الَّذي استحقُّوا عليه العذاب

ولِتَقْرير مَعْنى مقابلة عذابهم بجنس أعمالهم وضَعَ الظَّاهِرَ - أي: لَفْظَ الكافرينَ - مَوْضِعَ المُضْمَرِ في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾؛ إشْعارًا بأنَّ مَنْ هذا شأنُه، فَهوَ كافرٌ بنِعْمَةِ اللهِ، ومَن كان كافرًا بنِعْمَةِ اللهِ؛ فلَهُ عذابٌ يُهِينُه، كما أَهانَ النِّعْمَةَ بالبُخْلِ والإخْفاءِ[2]؛ إذِ الضَّمير كِنايَةٌ عَنِ الذَّاتِ غير مُتَعَرِّض للصِّفات، فالبُخْلُ والإخْفاءُ مِنَ الكُفْرِ بنِعْمَةِ اللهِ، ومَن كانَ كافِرًا بنِعَمِه؛ فَلَهُ عَذابٌ مُهينٌ يُهينُهُ، كما أَهانَ النِّعَمَ بالبُخْلِ والإخْفاء[3].

ذَمُّ المُرائي بَعْدَ البَخيلِ لِاشْتِراكِهِما في قُبْحِ الفِعْلِ والطَّويَّة وسوء المُنْقَلَب

عَطَفَ على جملة: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾، ومتعاطفاتها على جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، ووَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ الأَوَّلين قد فَرَّطوا بالبُخْلِ وبأَمْرِ النَّاس به، وبِكَتْمِ ما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِه، وهؤُلاءِ أَفْرَطوا بِبَذْلِ أَمْوالِهِمْ في غَيْرِ مَواضِعِها لِمُجَرَّد الرِّياء والسُّمْعَةِ، ولِيُقال: ما أَسْخاهُم! وما أَجْوَدَهم! كَما يَفْعَله مَن يُريد أَنْ يَتَسامَعَ النَّاسُ بأنَّه كَريمٌ، ويَتَطاوَلَ على غَيْرِه بذلِكَ، ويَشْمَخَ

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/636، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 13/169.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/696، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/87.

(3) القونَويُّ، حاشيةُ القونَويِّ على البَيْضاويّ: 7/158.

بأَنْفِه عَلَيْهِ، مَعَ ما ضَمَّ إلى هذا الإنْفاقِ الَّذي يعود عَلَيْهِ بِالضَّرَرِ مِن عَدَمِ الإيمان باللّهِ واليَوْمِ الآخر[1].

فَقَد أَنْفَقوا إنْفاقًا لا تَحْصُلُ بِه فائِدَةُ الإنْفاقِ غالبًا؛ لِأَنَّ مَنْ يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءً لا يَتَوَخَّى بِهِ مَواقِعَ الحاجَةِ، فَقَدْ يُعْطِي الغَنِيَّ، ويَمْنَعُ الفَقيرَ[2]، فالمُرائي بخيل في الحقيقة؛ إذ هو إنَّما يبذُلُ المالَ لِمَن لا حَقَّ لَهُمْ عنده، ويَبْخَلُ على أَرْبابِ الحُقوقِ كالزَّوجة والوَلَدِ والخادِمِ والأقربين كالوالِدَيْنِ، ولا يتحَرَّى في إنْفاقِهِ النَّفْعَ العامَّ ولا الخاصَّ، وإنَّما يَتَحَرَّى مَواطِنَ التَّعْظيم والمَدْح، وقَدْ يكونُ الإنفاقُ ضارًّا، كالمُساعَدَةِ على فِسْقٍ أَوْ فِتْنَةٍ، فَهو تاجِرٌ يَشْتَري تَعْظيمَ النَّاسِ لَهُ، وتَسْخيرَهُمْ لِلْقيامِ بِخِدْمَتِه[3].

فالحاصِلُ: أَنَّ مانعي الإحسانِ مِنْ أَهْلِ الفَخْرِ والخُيَلاءِ فَريقانِ: فَريقٌ يَبْخَلونَ، ويكتُمونَ فَضْلَ اللّهِ عَلَيْهِمْ، وفَريقٌ يَبْذُلُ المالَ؛ لا شُكْرًا للّه على نِعَمِه، ولا اعْترافًا لِعبادِه بِحَقٍّ، بل يُنْفِقونَها مُرائين النَّاسَ، أي: يَقْصِدونَ أَنْ يَرَوْهُم، فيُعَظِّموا قَدْرَهُمْ، ويَحْمَدوا فِعْلَهم، فَهُما في الحكم سواءٌ، فتَشاركا في الذَّمِّ والوَعيدِ؛ لِأَنَّ البُخْلَ والسَّرفَ - الَّذي هو الإنْفاقُ لا على مَنْ يَنْبَغي - مِنْ حَيْثُ إنَّهما طَرَفا إفْراطٍ وتَفْريطٍ سواءٌ في القُبحِ واسْتِجْلابِ الذَّمِّ[4]، فَإنْفاقُ هَذِهِ الفِئَةِ مِثْلُ إمساكِ تِلْكَ.

سرُّ وصْفِ العَذابِ بِالمُهِين:

مُقابَلَتهم بالجزاءِ مِن جِنْسِ أعمالِهِم، وتَبْشيع ما هُم عَلَيْهِ مِنَ الكُفْر

جُمْلَةُ: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ اعْتِراضٌ تَذْييليٌّ لِما قبلها[5]، ورُبَّما كانَ اخْتيارُ الإهانَةِ - وهيَ نَقيضُ الإكْرامِ - لِيُقابِلَ ما كانَ مِنْ أَمْرِ هَؤُلاءِ مِنَ الكِبْرِ والخُيَلاءِ اللَّذَيْنِ يَكْرَهُهُما المَوْلَى ﷻ، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحَجّ: 18]. "فإذا كانوا قد استكبروا، وطغوا، واستعلوا، واختالوا في الدُّنيا، وهي متاعٌ قليلٌ، فالذُّلُّ الدَّائم، والهوان المستمرُّ لهم في الآخرة"[6].

---

(1) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/119.

(2) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/53.

(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/88.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/696، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/88.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 3/30.

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1681.

فضلًا عن أنَّ في البخل إهانة للنَّفس الَّتي كرَّمها اللّه بمديد عطاياه، وابتذالًا لها واحتقارًا، بمنعها من طيِّبات ما أحلَّ لها شُحًّا، وحرصًا، وقترًا، فناسب العذابُ تلكم الإهانة.

سِرُّ تَقْديمِ البَخيلِ عَلى المُرائي:

شِــدَّةُ الأثَــرِ الــسَّـيِّـئ على الفَرْدِ والمُجْتَمَعِ أكْثَرَ ما يَكونُ مِنَ البخيل

قدَّم البُخْلَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ على المراءاة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ البَخيل أَشَدُّ ضَرَرًا بِنَفْسِهِ وبِالمُجْتَمَعِ مِنَ المُرائي؛ إذِ البَخيلُ يَحْرِمُ نَفْسَهُ أَجْرَ إنْفاقِ المالِ، ويَحْرِمُ نَفْسَهُ مَحَبَّةَ اللّهِ ومَحَبَّةَ النَّاسِ، ويوجِبُ لِنَفْسِهِ العَذابَ المُهينَ، ويَحْرِمُ الفُقَراءَ مِنَ الانْتِفاعِ بِالمالِ، وأَمَّا المُرائي؛ فَإنَّهُ مَعَ حِرْمانِ نَفْسِهِ أَجْرَ إنْفاقِ المالِ، ومَحَبَّةَ اللّهِ ومَحَبَّةَ النّاسِ، ومَعَ إيجابِ العَذابِ المُهينِ لِنَفْسِهِ، لَكِنَّهُ مَعَ ريائِهِ يَنْتَفِعُ بِمالِهِ الفُقَراءُ والمُحْتاجونَ، ولَعَلَّ اللّهَ أَنْ يُصْلِحَ نِيَّتَهُ.

فائدَةُ تَكْرارِ اللّامِ والباءِ:

وجْـهُ الـتَّـكـرار انـتِـفـاءُ الإيـمـان بِـكُـلِّ واحـدٍ مِـنَ الـمَـذْكـوراتِ على حِدَةٍ

تَكَرَّرَتْ (لا) وكَذلكَ (الباءُ) في قوله: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾؛ إشْعارًا بأَنَّ الإيمان بكُلٍّ مِنْهُما مُنْتَفٍ على حِدَتِه، فلو قُلْتَ: لا أَضْرِبُ زيدًا وعَمْرًا؛ احتمَلَ نَفْيَ الضَّرب عنِ المجْموعِ، ولا يلزم مِنْهُ ضربُ كُلِّ واحد على انْفرادِهِ، واحْتَمَلَ نَفْيَهُ عَنْ كُلِّ واحدٍ بِانْفرادِهِ؛ فَإذا قُلْتَ: ولا عَمْرًا؛ تعيَّن هذا الثَّاني[1]؛ لذا تَنَوَّعَت عباراتُ المُفَسِّرينَ في تحديد مَن نزَلَت فيهِ الآيةُ: فَقيلَ: نزلَتْ في اليهود، وقيل: في المنافقين، وقيل: في مُشْرِكي مكَّة[2].

براعة التَّشبيه في الجمع بين صورتَي الرِّياء ومُصاحبة الشَّيطان:

عَبَّرَ السِّياقُ عَنْ صورَةِ المُشابَهَةِ بين الرِّياء وملازمة الشَّيطان

(1) سُلَيمان الجَمَل، الفُتوحاتُ الإلَهيَّةُ، تح: إبراهيم شَمْس الدِّين: 2/53، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/88، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/119.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/356، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/320.

في التَّشبيه الضِّمنيِّ تَبشيعُ صورَةِ الرِّياءِ في النَّفْسِ والمُبالَغةِ في ذمِّ المتَّصِف به

بِطَريقِ التَّشْبيه الضِّمْنيِّ[1] بين المُشَبَّه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ والمُشَبَّه به: الجملة المُعْتَرِضَة: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ الَّتي سيقت؛ لِتَرُدَّ على اسْتِفْسارات مُثارَةٍ في الذِّهْنِ تَتَعَلَّق بالجُمْلَةِ الواقِعَةِ مُشَبَّهًا: لماذا يَتَكَبَّدونَ عَناء الإنْفاقِ وكُلفتَهُ مع عَدَمِ الأَجْرِ والثَّوابِ، وهُمْ يَعْلَمونَ ذلِكَ؟ فهُم أَدْرَى النَّاسِ بِما انطوتْ عَلَيْهِ دخائِلُهم.

فَتَأْتي صورة المُشَبَّه به؛ لِتوَضِّح العلَّة، وتُبَرْهِنَ الحُجَّة: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾، فَهو المُسَيْطِر عَلَيْهِمْ، وداعيهِمْ إلى هَذِهِ المَعْصيَةِ المُؤَدِّيةِ إلَى النَّارِ[2]، فَشَبَّهَ حالَ مَن يُنْفِقون رِئاءَ النَّاس - وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهم في تَخَبُّط وخُسْرانٍ - بِحالِ مَن يُقارِنُهُ الشَّيطانُ، ويُمْلي عَلَيْهِ مَنْهَجَ السُّوءِ، ويَجُرُّه إلى الجحيم، فَكُلٌّ مِنْ رُكْنَي التَّشْبيه مَعْنًى قائمٌ بِذاتِه، ولَكِنْ بينَهُما علاقةٌ ضِمْنِيَّة قائِمَةٌ على أَنَّ المُشَبَّه به حُجَّة ودَليلٌ وتَعْليلٌ لِلْمُشَبَّه[3].

زادَ التَّوكيدُ تصويرَ مُصاحبة الشَّيطان ومُخالَطتهِ، ونتائِجِ هذه المُلازَمَة

ومِمَّا زاد هذا التَّشْبيهَ قوَّةً وتأكيدًا وتقريرًا مَجيءُ اللَّامِ في ﴿لَهُۥ﴾ الَّتي أَعْطَتْ معنى (معه)، ومجيء المُشَبَّه به على هيئة الاعتراضِ وبصيغة الشَّرْطِ وجوابه؛ لِتُصَوِّرَ تِلْكَ المُلازَمَة، فإنَّ هَذِهِ الصِّفاتِ الَّتي عَدَّدها اللَّه - تَبارَكَ وتَعالى - لِهَذِهِ الفِئَةِ مِن نَتائجِ مُقارَنَةِ الشَّيطان ومُخالَطَتِهِ ومُلازَمَتِه لِلْمُتَّصِفِ بِذلِكَ؛ لِأَنَّها شَرٌّ مَحْضٌ؛ إذْ جَمَعَت بين سوءِ الاِعْتِقادِ الَّذي صَدَرَ عَنْهُ الإنفاقُ رِئاءً وسائِرِ الأوصافِ المَذْمومَة[4].

(1) التَّشْبيهُ الضِمْنيُّ: هوَ ما لَمْ يُصَرَّحْ فيه بِأَرْكانِ التَّشْبيهِ على الطَّريقَةِ المَعْلومَةِ، بَلْ يُفْهَمُ من مَعْنى الكَلامِ وسِياقِ الحَديثِ، فَهذا النَّوْعُ مِنَ التَّشْبيهِ لا يَحْتاجُ إلى أَداةِ رَبْطٍ مِثْلَ المُؤَكِّدِ، ولَكِنَّ العَلاقَةَ فيه تَقومُ على إعْمالِ الفِكْرِ لِلرَّبْطِ بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، ولِذا فَإمْتاعُ العَقْلِ فيه أَكْثَرُ، لِأَنَّ الشَّيْءَ الذي يَحْصُلُ بَعْدَ جُهْدٍ يَكونُ أَغْلى عَلَى النَّفْسِ مِنْ غَيْرِه، ويُحْدِثُ مُتْعَةً ودَهْشَةً، ينظر: أَحمد المراغي، عُلومُ البَلاغَةِ، ص: 234.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/30.

(3) خَديجة محمَّد بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/408 - 409.

(4) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/683، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/53.

بلاغة الإيجاز في جملة مصاحبة الشَّيطان:

ذكر أبو زهرة أنَّ في قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ " إيجازًا بالحذف معجزًا، إذ المعنى: وقد دفع هؤلاء - إلى الرِّياء في إنفاقهم وإلى البخل والكتمان - قرناء السُّوء من شياطين الإنس والجنِّ، والقرين: هو الصَّاحب الملازم الَّذي يخلط نفسك بنفسه، ويقرنها بها، حتَّى تصيرا كأنَّهما شيء واحد"[1].

الشَّيطان قرين سوء للمُذعِن له بسوء عمله، وقبيح فعله

علَّة تقديم أحوال البخل:

لكون الاتِّصاف بالبُخْل والأمر به، وكتمان فضل اللّٰه تعالى، والإنفاق رئاءً، شرًّا محْضًا؛ إذ جمعتْ بين سوء الاعتقاد الصَّادر عنه الإنفاق رئاء، وسائر تلك الأوصاف المذمومة؛ قدَّم تلك الأوصاف، وذكر ما صدرتْ عنه، وهو انتفاء الإيمان باللّٰه واليوم الآخر، ثُمَّ ذكر أنَّ ذلك من نتائج مقارنة الشَّيطان، ومخالطته، وملازمته[2].

مصاحبةُ الشَّيطان أصلُ صفات البُخل ومآلهُ إلى إنكار الإيمان

بديع السَّجع في فواصل الآي:

السَّجعُ في: ﴿مُّهِينٗا﴾، ﴿قَرِينٗا﴾، وهو سَجْعٌ مُتَوازٍ[3] طَويلٌ بِحروفٍ مُتَماثِلَةٍ، فَهاتانِ الكَلِمتانِ ورَدَتا في فاصِلَتَي جُمْلَتَيِ الاعتراض التَّذْييليِّ في الآيتين:

فخُتِمَتِ الأولى بـ ﴿مُّهِينٗا﴾، والمُهينُ: هو العَذابُ الجامِعُ بينَ الألَمِ والذِّلَّة؛ جزاءً وِفاقًا على ما اقْتَرَفوا، وسَمَّاهم اللّٰه كفَّارًا؛ لِلْإيذانِ بِأَنَّ هذه أخلاقٌ وأعمالٌ لا تَصْدُرُ إلَّا مِنَ الكَفور، لا مِنَ المُؤْمِنِ الشَّكورِ[4].

السَّجْعُ في الفَواصِلِ لإثارَةِ السَّامِعينَ وتَنْبيهِهِمْ إلى تَلازمِ جَزاءِ الكافرين بِملازَمَتِهِم لِلشَّيطانِ القرينِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1682.
(2) أبو حيّان، تفسير البحر المحيط: 3/258.
(3) السَّجْع المُتَوازي: هوَ السَّجْعُ الذي تَكونُ فيهِ آخِرُ كَلِمَةٍ في الفِقْرَتينِ مُتَوافِقَتَيْنِ في الوَزْنِ العَروضيِّ والقافيةِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣﴾ [الغاشية: 13]، وهوَ مِنَ المُحَسِّناتِ اللَّفْظيَّة. عَبْدُ العزيز عَتيق، عِلْمُ البَديعِ، ص: 219.
(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/87.

أمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿فَسَآءَ قَرِينٗا﴾؛ فلِأَنَّه يَدعوه إلى المَعْصيَةِ المؤَدِّيَة إلى النَّارِ وإلى العَذابِ المُهين، فاخْتيارُ القرينِ دونَ الصَّاحِبِ أَوِ الخَليلِ يَدُلُّ على شِدَّةِ التَّلازُمِ والاقْتِرابِ الَّذي لا يَتَخلَّله انْفِصالٌ، وهو تَأْكيدٌ على إيفاءِ السَّجْعِ بِتِلْكَ المعاني المُرادة، كما أنَّ هذا التَّماثُلَ يُعْطي سِرًّا لِهاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ في بِنائها، وفْقَ نَغَم يَهْطُلُ على مَسامِعِ القارِئ؛ لِيُثيرَ القارِئَ والمُسْتَمِعَ؛ ويُساعِدَهُ على تَرْسيخِه وتوضيحه بِسُهولَةٍ ويُسْرٍ.

سرُّ العَطْفِ على ما سَبَقَ بالِاسْتِفْهام:

في الاستفهام إنْكارٌ لتخلُّفهم عَنِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وتَوْبيخُهُم على ذلك

الاسْتِفْهامُ الوارد في قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إنْكاريٌّ تَوْبيخيٌّ[1]، وتَقْديرُ الكَلام: لَوْ آمَنوا ما الَّذي كانَ يُتْعِبُهُمْ، ويُثْقِلُهُمْ، أيْ: لَكانَ خَفيفًا عَلَيْهِمْ ونافِعًا لَهُمْ، فخرج إلى معنى الاسْتِنْكار والتَّوبيخ والتَّعجُّب[2] من أُناسٍ كان بمقدورهم أَنْ يَكْسِبوا رضا اللّٰه وعفوَه بإنفاقِ أموالِهم في سَبيلِه بَعْدَ إيمانهم باللّٰه واليوم الآخِرِ، ولكنَّهمْ اسْتَحَبُّوا العمَى على الهدى، فَأَيُّ تَبِعَةٍ ووبالٍ عَلَيْهِمْ في الإيمانِ والإنْفاقِ في سبيل اللّٰه، وإلَّا فكُلُّ مَنْفَعَةٍ ومَفْلَحَةٍ في ذلك، وهذا كما يُقال لِلْمُنْتَقِم: ما ضَرَّك؛ لو عَفَوْتَ، ولِلْعاقِّ: ما كان يَرْزَؤُك؛ لو كُنْتَ بارًّا، وقَدْ عَلِمَ أنَّه لا مَضَرَّة ولا مَرْزَأَةَ في العفو والبِرِّ، ولكنَّه ذمٌّ وتوبيخ وتجهيل بِمكانِ المَنْفَعَة[3].

والمَلامُ هنا مُتَوَجِّهٌ إلى الْفَريقَيْنِ: الَّذينَ يَبْخَلونَ، والَّذينَ يُنْفِقونَ رِئاءً؛ لِقَوْلِه: ﴿لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ عَلَى عَكْسِ تَرْتيبِ الكَلامِ السَّابِقِ[4].

(1) مُجيرُ الدّينِ العُلَيْميُّ، فَتْحُ الرَّحْمنِ في تَفسيرِ القُرْآنِ، تح: نورُ الدّين طالب: 2/127، والقونَويُّ، حاشيةُ القونَويِّ على البَيْضاويّ: 7/161.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/53.

(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/511 وابن عطية، المُحَرَّر الوَجيز: 2/53، وابنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيد على البَيْضاويّ: 7/161.

(4) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/54.

في الاستفهام إرشادٌ للانْقيادِ للإيمان والإنفاق وتشجيعُهم للإقْبالِ عَلَيْه

"أصل استعمال (ماذا عليك): أن يوقع في أمر يجب على المخاطب أن يفعله لما فيه نفعه ومصلحته، فيجعله المتكلِّم مظنَّة للوبال، والتَّبعة؛ إرخاءً للعنان موبِّخًا له على التَّكاسل، كما تقول للمنتقم: ما ضرَّك لو عفوت؟"[1]، وهذا أسلوبٌ بديعٌ استعملَتْهُ العربُ كثيرًا في كلامها، ومِن ذلك قَوْلُ مَنْ قال:

ما كانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ ورُبَّما *** مَنَّ الفتَى وهوَ المغيظُ المُحْنَقُ[2]

قال الرَّاغب: "قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ﴾ استدعاء لطيف إلى تحرِّي الإيمان والإنفاق على ما يجب؛ لأنَّ لفظه استخبار يستدعي جوابًا، ولا يمكن جواب المستخبر عنه المشتبه إلَّا بعد التفكُّر فيه، والتفكُّر فيما ذكره تعالى يؤدِّي إلى أن ليس على متحرِّي ذلك ضير، بل له كلُّ خير"[3]، وفيه توجيههم إلى صَرْفِ الفِكْرِ لِتَحْصيل الجواب، لَعَلَّه يُؤَدِّي بِهِمْ إلى العِلْم بما في ذَلِكَ مِمَّا هو أَجْدَى، وتَنْبيهُهُم على أَنَّ المَدْعوَّ إلى أَمْرٍ لا ضررَ فيه ينبغي أن يُجيب احْتياطًا، فكيف إذا تَدَفَّقَت مِنْهُ المنافع[4]؟

نُكْتة تقديم الإيمان هنا، وتأخيرِه في الآية السَّابقة:

تقديمُ الإيمانِ هنا حَضٌّ عَلَيْهِ وعنايةٌ به، وتعليلُ الإنفاق رياءً بعدمِ الإيمانِ فيما سَبَقَ

قَدَّم الإيمان على الإنفاق في قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، وأخَّره في: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ القَصْدَ بذِكْرِهِ التَّحريض هاهنا والتَّعليل هناك[5]، فتَقْديم الإيمان باللَّه واليوم الآخِر هنا؛ لأهمِّيَّتِهِ في نفسه،

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 4/542.

(2) هَذا البَيْتُ مِنْ قَصيدَةٍ لِقُتَيْلَةَ بِنْتِ الحارِثِ تَرْثي أَخاها النَّضْرَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ بِقَتْلِهِ بِسَبَبِ مُحارَبَتِهِ للهِ ودينِهِ وأَذيَّةِ رَسولِهِ ﷺ، ينظر: ابْنُ هِشامٍ المُعافِرِيُّ، سيرَةُ ابْنِ هِشامٍ، تح: طه سعد، شَرِكَةُ الطِّباعَةِ الفَنيَّةِ المُتَّحِدَةِ، القاهِرَةُ، دط، دت: 2/285، وابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الأَنْدَلُسيُّ، العِقْدُ الفَريدُ، دارُ الكُتُبِ العِلْميَّةِ، بَيْروتُ، ط: 1، 1404 ه: 6/128، والآلوسي، روح المعاني: 3/31.

(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1239.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/696.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74.

ولِعَدَمِ الاعْتِدادِ بالإنفاقِ بدونه، وأمَّا تَقْديمُ إنفاقِهم رِئاءَ النَّاسِ على عدمِ إيمانِهم بهما مع كَوْنِ المؤخَّرِ أقبحَ من المقدَّم؛ فَلِرعايَةِ المُناسبةِ بين إنفاقِهم ذلك وبينَ ما قَبْلَهُ من بُخلهم وأمرِهم النَّاسَ به[1].

وإنَّما قُدِّمَ الإيمانُ هاهنا، وأُخِّر في الآيةِ المتقدِّمة؛ لِأَنَّه ثَمَّة ذكرٌ لِتَعْليلِ ما قبله من وقوعِ مصارفهم في دُنْياهم في غيرِ مَحَلِّها، وهُنا للتَّحْريض، فيَنْبَغي أن يُبْدَأ فيه بالأَهَمِّ فالأهَمِّ، ويُمْكِنُ أَنْ يُقالَ: أُخِّر الإيمانُ هناك، وقُدِّم الإنفاقُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الإنْفاقَ كان بِمَعْنى: الإِسْرافِ الَّذي هوَ عَديلُ البُخْلِ، فأُخِّر الإيمان؛ لِئَلَّا يكونَ فاصلًا بين العَديلَيْن[2].

فَكانَتْ فائِدَةُ تَقْديمِ الإيمانِ: أَنَّهم لَوْ آمَنوا؛ لَكانَ إنْفاقُهُمْ لِخالِصِ وجْهِ اللَّه لا لِلرِّياءِ؛ والرِّياءُ لِكَوْنِه شِرْكًا خَفيًّا لا يُجامِعُ الإيمانَ باللَّه واليومِ الآخِرِ؛ فَإنَّ التَّوحيدَ مُضادٌّ لِلتَّشْريك، فَلا يَجْتَمِعانِ[3].

قال الرَّاغب: "لَمَّا قصد في الأولى إلى ذمِّهم بالإنفاق رياءً لكونهم غير مؤمنين، قدَّم ذكره، وجعل قوله: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في موضع الحال؛ تنبيهًا أنَّ ذلك منهم لكونهم غير مؤمنين، ولَمَّا حثَّهم في هذه الآية على ما يجب أن يتحرَّوه؛ ابتدأ بذكر الإيمان؛ تنبيهًا أنَّ إنفاقهم غير معتدٍّ به إلَّا بعد الإيمان بهما"[4].

قـدَّم الإنـفـاق في الآيـة الأولى لذمِّهم، وأخَّره هنا تنبيهًا على أنَّ إنفاقهم غير معتدٍّ به إلَّا بعد الإيمان

توجيهُ التَّذْييلِ بِقَوْلِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾:

فهاهُنا خَبَرٌ يَتَضَمَّن وعيدًا وتَنْبيهًا على سوءِ بَواطِنِهِمْ، وأَنَّه تَعالى مُطَّلِعٌ على ما أَخْفَوْهُ في أَنْفُسِهِمْ، فيُجازيهم بِهِ، فلا يَنْفَعُهُم كَتْمٌ مَعَ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِهِمْ[5]، فـ"القصد إلى الرِّئاء إنَّما يكون

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/697.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/31.
(3) ابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/162.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 3/1240.
(5) ابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 2/53، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/120.

باطنًا غير ظاهر، فبيَّن تعالى أنَّه عليم ببواطن الأمور كما هو عليم بظواهرها، فإنَّ الإنسان متى اعتقد ذلك؛ صار ذلك كالرَّادع له عن القبائح من أفعال القلوب: مثل داعية النِّفاق والرِّياء والسُّمعة"[1].

علـمُ العبد أنَّ الله تعالى عليم بالظَّواهر والبواطن رادعٌ لـه عـن قبائح الأفعال

في جملة الفاصلة إشارَةٌ إلى إثابَتِهِ تَعالى إيَّاهُمْ؛ لَوْ كانوا آمنوا، وأَنْفَقوا، فهوَ عَليمٌ بِأَحْوالِهِمُ المحقَّقَةِ والمَفْروضَة، فَيُعاقِبُ على الأولى، ويُثيبُ على الثَّانيَةِ[2]، وفي ذَلِكَ تَعْريضٌ بِالتَّهْديدِ والجَزاءِ عَلَى سوءِ أَعْمالهم[3].

في جملة الفاصلة تعريضٌ بسوء أعمالهم استحقَّ التَّهديد والجزاء

فَيَنْبَغي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكْتَفيَ بِعِلْمِ اللّه في إنْفاقِهِ، ولا يُبالي بعِلْمِ النَّاس، فَهوَ الَّذي لا يَنْسَى عَمَلَ العامِلينَ، ولا يَظْلِمُهم مِن أَجْرِهِم شيئًا، وفي هَذِهِ الآياتِ الكَريمَةِ الهِدايَةُ الكافيَةُ في مُعامَلَةِ النَّاسِ لربِّهم ولِبَعْضِهِم بعضًا[4].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُخْل والشُّحّ:

البُخْلُ: ثَمَرةُ الشُّحِّ

البُخْلُ: هوَ مَنْعُ ما في اليَدِ مِنْ مال، قال تَعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [محمد: 38]، أمّا الشُّحُّ؛ فهو أن يَأْكُلَ المرءُ مالَ الآخرين بغير حقٍّ[5]، كما أَنَّ في الشُّحِّ شدَّةً في الحرص على الشَّيْءِ وطَلَبِه، وجَشَعِ النَّفس عَلَيْه، والبُخْلُ: منعُ إنفاقِهِ بعد حصوله، وحُبُّه،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/80.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/31.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/177، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/55.

(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/90.

(5) وبِهَذا عَرَّفَهُ الصّاحبيُّ الجَليلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ ، لمَاَّ سُئِلَ عَنْ تَفْسيرِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾، في قَوْلِهِ: وإنَّ الشُّحَّ الذي ذَكَرَهُ الله في القُرآنِ: أَنْ تَأْكُلَ مال أَخيكَ ظُلْمًا، رَواهُ ابْنُ أَبي شَيْبَةَ والطَّبرانيُّ، والحاكم، وقال الحاكم: صَحيحٌ على شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، ولم يُخَرِّجاهُ، أَبو بَكْرِ بِنْ أبي شَيْبَةَ، المُصَنَّفُ في الأَحاديثِ والآثارِ، تح: كمال الحوت، رقم: (26611)، والطَّبَرانيُّ، المُعْجَمُ الكَبيرُ، تح: حمدي السَّلفي، رَقْم: (9060)، وأبو عبد اللهِ الحاكِمُ، المُسْتَدْرَكُ على الصَّحيحَيْنِ، تح: مصطفى عطا، رقم: (3815).

وبِمَعنًى قَريبٍ فَسَّرَهُ أَيْضًا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ بِقَوْلِهِ: إنَّما الشُّحُّ أَنْ تَطْمَحَ عَيْنُ الرَّجُلِ إلى ما لَيْسَ لَهُ، أَبو مُحَمَّدٍ البَغَويُّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 8/78، والسُّيوطيُّ، الدُّرُّ المَنْثورُ في التَّفْسيرِ المأْثورِ، دارُ الفِكْرِ، بَيْروت: 8/108.

وإمساكِه، فَهوَ شَحيحٌ قَبْلَ حُصولِه، بَخيلٌ بَعْدَ حُصولِه، فالشُّحُّ يَدْعو إلى البُخْلِ، والشحُّ كامِنٌ في النَّفْسِ، فمَنْ بَخِلَ؛ فقد أطاعَ شحَّه، ومَن لَمْ يَبْخَل؛ فقد عَصَى شُحَّه، ووُقيَ شرَّه، وذَلِك هوَ المُفْلِحُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 9]، فالبُخْلُ ثَمرةُ الشُّحِّ(1) ومؤدَّاه؛ ولذلك عبَّر به في الآية، ونقل أبو حيَّان عن الرَّاغب: أنَّ البخل لم يُرد به المالُ حسبُ، بل جميع ما فيه نفع للآخر(2)، وهذا سببٌ - أيضًا - في إيثار البُخْلِ في الآية لعمومه، وشموله المال وغيره، فهو أدعى إلى تقبيح الفعل.

الكِتْمان والإخْفاء:

الكِتْمانُ يَخْتَصُّ بِالمعَاني، والإخْفاءُ أعَمُّ

الكِتْمانُ: هوَ السُّكوتُ عَنِ المَعْنى، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]، أي: يَسْكُتونَ عن ذِكْرِه، والإخْفاءُ يَكونُ في المَعاني، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران: 154]، وفي غَيْرِه مِنَ الأُمورِ الحِسِّيَّة، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: 91]، والشَّاهِدُ أنَّك تَقولُ: أَخْفَيْتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوب، ولا تَقولُ: كَتَمْتُ(3)، فالإخْفاءُ يَكونُ في الأُمورِ الحِسِّيَّة، والكِتْمانُ يَخْتَصُّ بالمعاني كالأَخْبارِ والأَسْرارِ، ولذلك قُصد إلى التَّعبير به؛ لكونهم لا يبيِّنون للنَّاس ما فضَّل اللّه به عليهم.

القَرين والصَّاحِب:

في الصُّحْبَةِ مَزيدُ انْتِفاعٍ وحِفْظٍ

الصُّحْبَةُ: تُفيدُ انْتِفاعَ أَحَدِ الصَّاحِبَيْنِ بالآخَرِ(4)، وأَكْثَرُ ما تُسْتَعْمَلُ مَعَ الآدَميِّينَ، وقد يُطْلَقُ الصَّاحِبُ، ويُرادُ به الحافظُ، يُقالُ: صَحِبَكَ اللّه، وسِرْ مُصاحَبًا، أَيْ: مَحْفوظًا، وفي القُرْآن: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ٤٣﴾ [الأنبياء: 43]، أَيْ: يُحْفَظونَ.

---

(1) ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزيَّةِ، الوابِلُ الصَّيِّبُ مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ، تح: سيد إبراهيم، ص: 33.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/256، ولم أقف عليه في مؤلفات الرّاغب المطبوعة.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 287.

(4) تَعْريفُ الصّاحِبِ والفَرْقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الصَّديقِ في تَفْسيرِ الصَّفْحَةِ الثّالِثَةِ مِنْ هذا الجُزْءِ.

وأمَّا المُقارَنَةُ؛ فهيَ أَنْ يقومَ أَحَدُ القَرينَيْنِ معَ الآخر، ويَجْري على طَريقَتِهِ؛ وإنْ لَمْ يَنْفَعْهُ، بَلْ وإنْ ضَرَّهُ، كَما جاءَ في الآيَةِ: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾، ومِنْ ثَمَّ قيل: إذا قامَ أحدُهما مع الآخر؛ فَهُما قَرينانِ[1]، ولاشتماله على صفة الضُّرِّ أُوثِرَ استعمالُه في الآية؛ لكونها حديثًا عن مضرَّة الشَّيطان، وشرور وساوسه، واستطالة أذى مرافقته.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 283.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء: 40 - 42]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

كُلُّ ما سَبَقَ يُعَدُّ تَوْطِئَةً لِذِكْرِ الجَزاءِ على الحسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ

لَمَّا أَمَرَ اللّه تَعالى بِعِبادَتِهِ وبالإحْسانِ إلى الوالدَيْنِ ومَن ذُكِر مَعَهُم - ثمَّ أَعْقَبَ ذَلك بذمِّ البُخلِ والأوصافِ المَذْكورَةِ مَعَهُ، ووَبَّخ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ، ولم يُنفِقْ في طاعةِ اللّه، وأراهُمْ تَفْريطَهُمْ مَعَ سُهولَةِ أَخْذِهِمْ بالحَيْطَةِ لأَنْفُسِهِمْ؛ لَوْ شاؤوا - كان هذا كُلُّه تَوْطِئَةً لِذكرِ الجَزاءِ على الحسَناتِ والسَّيِّئاتِ، فَأخبَرَ تعالى بِصِفَةِ عَدْلِه، وأنَّه ﷻ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ القَليلِ، بَلْهَ الظُّلْمِ الشَّديدِ، فَلا يَظْلِمُ أَدْنى شَيءٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِصِفَةِ الإحْسانِ[1]، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾.

التَّرْغيبُ في الإيمانِ والطَّاعَةِ بَعْدَ الوَعيدِ على الكُفْرِ والرِّياءِ

وثَمَّةَ مُناسَبَةٌ أُخْرى، وهيَ أَنَّهُ تعالى بَعْدَ أَنْ وصَفَ حالَهُم - وأَقامَ الحُجَّةَ عَلَيهِمْ، وأَراهُمْ تَفريطَهُمْ مَعَ سُهولَةِ أَخْذِهِمْ بالحَيْطَةِ لأَنْفُسِهِمْ؛ لَوْ شاؤوا - بَيَّنَ أَنَّ اللّه مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ القَليلِ، بَلْهَ الظُّلْمِ الشَّديدِ، فَبَيَّنَ ﷻ أَنَّه لا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنَ العامِلينَ بِتِلْكَ الوَصايا، قَليلًا أَوْ كَثيرًا، بَلْ يوفِّيهِ حَقَّهُ بالقِسْطاسِ المُسْتَقيمِ[2]، فَماذا على مَنْ آمَنَ بِهِ، وهو بِهَذِهِ الصِّفَةِ العُظْمى[3]، فَفي هَذِهِ الآيَةِ تَرْغيبٌ في الإيمانِ والطَّاعَةِ بَعْدَ الوَعيدِ على الكُفْرِ والرِّياءِ[4].

(1) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/642، وابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/55.
(2) مُحَمَّد رَشيد رضا، تَفْسيرُ المَنار: 5/85.
(3) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/281.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/80.

فضلًا عن أَنَّ مُناسَبَةَ ذِكْرِ الإيمانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ وإتْباعَهُ بِإظْهارِ العَدْلِ الإلَهيِّ الَّذي يَتَجَلَّى فيهِ؛ كانَ سَبَبًا لِلسُّؤالِ عَنْ حالِ أَهْلِ الكُفْرِ في ذَلِكَ اليَوْمِ، فَجاءَ البيانُ[1]: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، أي: زِنة ذَرَّة، يُقال: هذا على مِثقال هذا، أي: على وزْن هذا[2]، والمثقال: ما يوزن به[3]، وأصل الثِّقَل: ضدُّ الخفَّة[4]، وهوَ انْجذابُ الشَّيْءِ إلى أَسْفَلَ بِسُرْعَةٍ تُناسِبُ وزْنَهُ[5]، والذَّرَّة: النَّمْلَةُ الصَّغيرَةُ[6]، أَوْ بَيْضُها، فالذَّرَّةُ "تُطْلَقُ عَلَى بَيْضَةِ النَّمْلَةِ، وعَلَى ما يَتَطايَرُ مِنَ التُّرابِ عِنْدَ النَّفْخِ، وهَذا أَحْقَرُ ما يُقَدَّرُ بِهِ"[7]، وتُطْلَقُ كذلك على ما لا وزْنَ لَهُ يُذكَرُ، وما يرفعُه الرِّيحُ من التُّراب، ولِلْمُنْبَثِّ في الهَواءِ مِنَ الهَباءِ في شُعاعِ الشَّمْسِ مِنْ كوَّةٍ ونَحْوِها[8].

2) ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾، أي: من عِنْدِه[9]، أَوْ لَدَيْه[10]، فَلَدُنْ: ظَرْفٌ، بِمَعْنَى: عِنْدَ[11]، وهوَ يَدُلُّ على ابْتِداءِ غايَةِ مَكانٍ أَوْ زَمانٍ أَوْ مَنْزِلَةٍ ومَكانَةٍ، وهوَ أَبْلَغُ مِنْ (عِنْدَ) و(أَخَصُّ)، و(لَدُنْ) كَذلِكَ أَقْوى مِنْ (عِنْدَ) في الدَّلالَةِ على القُرْبِ[12].

3) ﴿بِشَهِيدٍ﴾، أي: شاهِد، أو مُشاهِد للشَّيء، والشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن عِلم حصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصَر[13]، وأصلُ شهد: حضورٌ، وعِلم، وإعلام[14]، ومعناه هنا: الشَّاهد الصَّادق الَّذي يشهد بالأمر العظيم على بيِّنةٍ منه.

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/283.
(2) ابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآنِ ص: 127.
(3) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (ثقل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثَقَلَ).
(5) جبل، المُعجَمُ الإشْتِقاقيُّ المُؤَصَّلُ: (ثقل).
(6) السِّجِسْتانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 455.
(7) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/55.
(8) ابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139، أساس البلاغة، الزّمَخْشري، تح: محمد عيون السود: 1/311، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (ثقل).
(9) تَهْذيبُ اللُّغَة: (لدن).
(10) الكفوي، الكُلّيات، ص: 801.
(11) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (لدن).
(12) الخَليلُ، العَيْن: (الدّال واللّام والنّون)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لدن)، والرّاغِبُ، المُفْردات: (لدن).
(13) الرّاغِبُ، المُفْردات: (شهد)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (شهد).
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

4) ﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ﴾: يَسْتَوونَ مع الأرْضِ، فَيكونونَ معها سَواء[1]، وأَصْلُ (سوي): استِقامةٌ واعْتدالٌ بين شيئين[2]، والمعنى هنا: لو يُدخَلون في الأرضِ، فَتَلْتئم عَلَيْهِمْ، [3] حتَّى يَصيروا وهي شيئًا واحدًا[4].

المَعْنَى الإجْمَاليّ:

مِنْ تمامِ عَدْلِ الله مَعَ عِبادِهِ أنَّهُ لا يَظْلِمُهُمْ في ذَرَّةِ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ فَعَلوها، وألَّا يُعذِّبَهُمْ حتَّى يُشْهِدَ عَلَيْهِمْ أشْرَفَ خَلْقِهِ

إنَّ اللهَ تَعالى عَدْلٌ لا يُنقِصُ أحدًا مِنْ جَزاءِ عَمَلِهِ مِقْدارَ أنملة صغيرة، ولا يَزيدُ في سَيِّئاتهم شيئًا، وإنْ تَكُنْ زِنَةُ الذَّرَّةِ حَسَنَةً؛ يُكَثِّرْها لِصاحِبِها فَضْلًا منه، ويُعْطِهِ مِنْ عِنْدِهِ مَعَ المُضاعَفَةِ ثوابًا عَظيمًا.

فَكَيْفَ يَكونُ حال النَّاسِ يَوْمَ القيامَةِ حينَ نَجيءُ بِكُلِّ نبيٍّ شَهيدًا على قَوْمِهِ بما عَمِلوا، ونَجيءُ بك - أيُّها الرَّسولُ ﷺ - على أُمَّتِكَ شاهِدًا أنَّكَ بَلَّغْتهم رِسالَةَ ربِّكَ، يَوْمَ يَكونُ ذَلِك، يَتَمَنَّى الَّذينَ كَفَروا باللهِ، وعَصَوا رَسولَهُ، لَوْ يَجْعَلُهُمُ اللهُ والأرْضَ سَواءً، فَيَصيرون تُرابًا، حَتَّى لا يُبعَثوا، وهُمْ لا يَسْتَطيعونَ أنْ يُخْفوا عَنِ اللهِ شَيْئًا؛ لأنَّ اللهَ يَخْتِمُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، فَلا تَنْطِقُ، ويَأْذَنُ لِجَوارِحِهِمْ، فَتَشْهَدَ عَلَيْهِمْ بِعَمَلِهِمْ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاِسْتِئْنافِ مَعَ التَّأْكيدِ:

كَمالُ العَدْلِ الإلَهِيِّ مَعَ العِبادِ تَفَضُّلُهُ على المُحْسِنينَ مِنْهُمْ

في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ اسْتِئْنافٌ، ذُكِرَ فيه المُسْنَدُ إلَيْهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُؤَكَّدًا بإنَّ واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ مَعَ تَقْديمِه، وذَلِكَ أقْوَى وأبْلَغُ مِنْ أنْ يُقالَ: لا يَظْلِمُ اللهُ مِثْقالَ ذَرَّة، وكُلُّ ذَلِكَ يُنْبِئُ بأنَّ اللهَ وحْدَهُ هو الَّذي لا يَقَعُ مِنْهُ جِنْسُ الظُّلْمِ، ولا أقَلُّ القَليلِ مِنْهُ سُبْحانَهُ جَلَّ شَأْنُهُ.

(1) ابْنُ سيده، المُخَصَّصُ: 03/317، والنيسابوري، إيجازُ البَيانِ عَنْ مَعاني القُرْآن: 1/240.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 2/934.
(4) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 127.
(5) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 115، ونُخْبَةٌ مِنْ أساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 85.

في جملة المطلع تَعْرِيضٌ بالوَعِيدِ لِمُخالِفِ الأَوامِـرِ والنَّواهي

وفي هذا التَّركيبِ تَعْريضٌ بوَعيدٍ مَحْذوفٍ هوَ مِنْ جِنْسِ العِقابِ، وأَنَّهُ في حَقِّهِمْ عَدْلٌ؛ لِأَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوهُ بِكُفْرِهِمْ، وقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ المُقَدَّرِ -أَيْضًا- مُقابَلَتُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾؛ ولَمَّا كانَ المَنْفِيُّ الظُّلْمَ عَلَى أَنَّ: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ تَقْديرٌ لِأَقَلِّ ظُلْمٍ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ المُرادَ أَنَّ اللّه لا يُؤاخِذُ المُسيءَ بِأَكْثَرَ مِنْ جَزاءِ سَيِّئَتِهِ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمِثْقالِ بَدَلَ المِقْدارِ:

في لفظ المثقال بَيانٌ لِكَمالِ كَرَمِ اللهِ عَلى عِبادِهِ وسَعَةِ رَحْمَتِهِ بِهِمْ

استعملَ لفظَ المثقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾؛ "تنبيهًا أنَّ ذلك يعظم جزاؤه وإن صَغُر قدره"[2]، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾، أي: وإِنْ يَكُنْ مِثْقالُ الذَّرَّةِ حَسَنَةً[3]، ولَمْ يُعَبِّرْ سُبْحانَهُ بِالمِقْدارِ ونَحْوِهِ، بَلْ عَبَّرَ بِالمِثْقالِ لِلْإِشارَةِ إلى ما يُفْهَمُ مِنْهُ مِنَ الثِّقَلِ الَّذي يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الكَثْرَةِ والعِظَمِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦﴾ [القارعة: 6] فَهو، وإِنْ كانَ حَقيرًا؛ فَهوَ بِاعْتِبارِ جُزْئِهِ عَظيمٌ عِنْدَ اللّه[4].

الإضْمـارُ لِبيانِ فَضْلِ الله على عِبـادِهِ المُؤمنينَ وعِنايَتِهِ بِهِمْ

وَيَدُلُّ عَلَى هَذا التَّفَضُّلِ والعِنايَةِ ضَميرُ الغائِبِ في: ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾، وكَذا ﴿لَّدُنۡهُ﴾، فالضَّميرُ في ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾ يُؤَكِّدُ مَضمونَ مُضاعَفَةِ الحَسَنَةِ، وهوَ أَمْرٌ ثابِتٌ عَنْهُ سُبْحانَهُ بِالنُّصوصِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وأَمَّا الضَّميرُ في ﴿لَّدُنۡهُ﴾، أَيْ: مِنْ عِنْدِهِ سُبْحانَهُ؛ فَيُؤَكِّدُ تَفَضُّلَهُ وعِنايَتَهُ سُبْحانَهُ بِعِبادِهِ المُؤْمِنينَ؛ وإِنْ قَلَّ عَمَلُهُمْ، أَوْ ذَهَبَ جُلُّهُ مُقابِلَ سَيِّئاتِهِمْ، فالمَسْأَلَةُ مَحْضُ تَفَضُّلٍ مِنَ اللهِ ابْتِداءً وانْتِهاءً[5].

---

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/55.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1241.
(3) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/75.
(4) شِهابُ الدّين، الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/31.
(5) خَديجة محمَّد بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/65.

لَطيفَةُ التَّصْويرِ البَيانيِّ فِي التَّشْبيهِ التَّمْثيليِّ(1):

المُبالَغَةُ في نفي الظُّلمِ عَنِ اللهِ والحَثُّ على طاعَتِهِ واجْتنابِ مَعْصيَتِهِ

صورَةُ التَّشْبيهِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾، أَيْ: إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ ظُلْمًا كَمِقْدارِ ذَرَّةٍ، "وضرب تعالى الذَّرَّة مثلًا للشَّيء الصَّغير؛ تقريبًا للمخاطب""(2)، ومُبالَغَةً في نَفْيِ الظُّلْمِ عَنْهُ سُبْحانَهُ مَهْما تَضاءَلَ وزْنُهُ وقَلَّ، وقَدْ أَثْبَتَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ بِتَمْثيلِها بِشَيْءٍ حِسِّيٍّ يَعْرِفُهُ الْمُخاطَبونَ بِالقُرْآنِ، وهوَ الذَّرُّ الْمُتناهي في الصِّغَرِ.

والظُّلْمُ - وهوَ الْمُشَبَّهُ - شَيْءٌ مَعْنَويٌّ لا يُقاسُ بِالمَوازينِ في دُنْيا الْمُخاطَبينَ بِالقُرْآنِ الْكَريمِ، ولَكِنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الذَّرَّةِ - وهيَ أَقَلُّ شَيْءٍ مِمَّا يَدْخُلُ في وهْمِ الْبَشَرِ - أَخْرَجَ الْمَعْنَى الْعَقْليَّ بِصورَةٍ حِسِّيَّةٍ، والجامِعُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الْأَثَرُ النَّفْسيُّ الَّذي يَتْرُكُهُ نَقْصُ الْوَزْنِ - وإنْ قَلَّ - لأَنَّ النَّفْسَ جُبِلَتْ عَلَى الشُّحِّ في حُقوقِها، وأَيُّ نَقْصٍ في تِلْكَ الْحُقوقِ يُؤْلِمُها، ويَجْعَلُها في اِضْطِرابٍ، وفي ذَلِكَ حَثٌّ عَلَى الْإيمانِ والإنْفاقِ، بَلْ إرْشادٌ إلَى أَنَّ كُلَّ ما أُمِرَ بِهِ مِمَّا يَنْبَغي أَنْ يُفْعَلَ، وكُلُّ ما نُهِيَ عَنْهُ مِمَّا يَنْبَغي أَنْ يُجْتَنَبَ(3).

براعة الإيجاز بالحذف في ﴿تَكُ﴾:

لا يغفل قاضي السَّموات والأرض عن أجور الأعمال وإن تناهت في صغرها

حُذِفتِ النُّونُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ "من غير قياسٍ؛ تشبيهًا بحروف العلَّة وتخفيفًا لكثرة الاستعمال"(4)، وحذف النُّون مناسبٌ لخفَّة مثقال الذَّرَّة، وإشعارٌ بمدى تناهيها في الصِّغَر، فإنَّها لا تغيب عن قاضي السَّموات والأرض، وليناسب إفراد الحسنة دلالة على قلَّتها.

(1) التَّشْبيهُ التَّمثيليُّ: ما كانَ وجهُ الشَّبهِ فيه صورَةً عَقْليَّةً تَحْتاجُ إلى تَأَوُّلٍ، سَواءٌ أكان مُفْردًا أم مُرَكَّبًا، أَسْرارُ البلاغَةِ، عَبْدُ القاهِرِ الجُرْجانيُّ، تح: مَحْمود محمد شاكر، ص: 65.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1241.

(3) شِهابُ الدّينِ، الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/32.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/177.

دَلالَةُ تَأْنيثِ الفِعْلِ ﴿تَكُ﴾ والضَّميرِ في ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾:

فالأَصْلُ في الضَّميرِ أَنْ يُذَكَّرَ؛ لِأَنَّ التَّذْكيرَ هوَ الأَصْلُ، ولِأَنَّهُ يَعودُ في الآيةِ على مُذَكَّر، وهوَ لَفْظُ ﴿مِثۡقَالَ﴾، وإنَّما أُنِّثَ الضَّميرُ لِتأْنيث الخَبَرِ ﴿حَسَنَةً﴾، أَوْ لِإضافَةِ المِثْقالِ إلى مُؤَنَّث ﴿ذَرَّةٍ﴾[1]، وإنَّما آثَرَ التَّأْنيثَ هُنا مَعَ جَوازِ التَّذْكيرِ؛ لِأَنَّ التَّعْبيرَ بِالتَّأْنيثِ فيه دَلالَةٌ على الضَّعْفِ والنَّقْصِ، والتَّعْبيرُ بالتَّذْكيرِ فيهِ دَلالَةٌ على القوَّةِ والكَمالِ، وأنَّ الإثابة، ومضاعفة الأجْرِ بفضل الله، ومَنِّه.

في التَّأنيث بيانٌ لضَعْفِ الإنسان ونقْصِه، وأنَّ مضاعفةَ الأجْرِ بفضل الله

نكتة التَّعبير عن مضاعفة الأجر بالمضارع:

عبَّر عن مضاعفة الحسنات بالمضارع في قوله: ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾؛ ليؤدِّي معنى أنَّه: "يضاعف ثوابها؛ لاستحقاقها عنده الثَّواب في كلِّ وقت من الأوقات المستقبلة غير المتناهية"[2].

عطاء الله لا ينفد، وثوابه لا حدَّ له زمانًا، ومقدارًا

علَّة إسناد المضاعفة إلى الحسنة:

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾، أي: يُضاعفُ ثوابَها، وجعل ذلك مضاعفةً للحسَنةِ نفسها؛ تنبيهًا على كمال الاتِّصالِ بين الحَسَنة، وثوابها كأنَّهما شيءٌ واحد، وذلك بوصفها سبيلَ تحصُّله[3].

الحسنات سبُلُ تحصُّل الخيرات ثوابًا وأجرًا

فائدة التَّعبير بالظَّرف (لدن) دون (عند):

(لدن) ظرفٌ بمعنى: (عند) إلَّا أنَّ (لدن) أكثر تمكينًا من (عند)، وأقرب مكانًا، وأخصُّ منه، يقول الرَّجل: عندي مالٌ؛ إذا كان ماله ببلد آخر، ولا يقال: لديَّ مالٌ، ولا لدنِّي، إلَّا ما كان حاضرًا، وتقول: لي عند فلان مال، أي: في ذمَّته، ولا يقال ذلك في (لدن)، فإنَّ (عند) تقع على المكان وغيره[4]، و" فائدة قوله: ﴿مِن لَّدُنۡهُ﴾ أنَّ

نسبة الهبات إليه تعالى تعظيمٌ لشأنها، وتشريفٌ للموهوب

(1) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/75.

(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/511.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/177.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/83، والطيبي، فتوح الغيب: 4/543.

كلُّ ما أريد تعظيمه ينسب إلى اللّه، فيقال: (مِنْ عِنْدِ اللّه)، و(مِنْ لَدُنْهُ)، و(له)، و(بيت اللّه)، و(نَاقَةُ اللّه)، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝﴾"[1]، وفي الجملة تشريفٌ لمن يوهبُ هذا الأجر بوصفه من عند اللّه تعالى، ولذلك وصفه بالعِظَم، وذكر الرَّاغب أنَّ "وصْفَ الأجر بالعظيم اعتبارٌ بالأجور الدُّنيويَّة"[2].

توجيه المجاز في لفظ (الأجر):

الإثابة بالأجر تفضُّلٌ من الله تعالى على عباده

"سمَّاه ﴿أَجْرًا﴾؛ لأنَّه تابع للأجر لا يثبت إلَّا بثباته""[3]، " أي: هو مجاز عن التَّفضُّل؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ ومضاعفة الحسنة هي الأجر؛ لأنَّها جزاء الحسنة، وقال بعده: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا﴾، فوجب حمله على معنى زائد على الأجر، وليس ذلك إلَّا التَّفضُّل... وتسمية التَّفضُّل بالأجر تسمية للشَّيء باسم مجاوره"[4].

وجه التَّفريق بين مضاعفة الحسنات، وإتيان الأجر من لدنه:

من فضله تعالى الجمعُ في الثَّواب بين السَّعادة الجسمانيَّة، والسَّعادة الروحانيَّة

ذهب الرَّازيُّ أنَّ ثمَّة فرقًا بين الإثابتين، تحريره: "أنَّ ذلك التَّضعيف يكون من جنس ذلك الثَّواب، وأمَّا هذا الأجر العظيم؛ فلا يكون من جنس ذلك الثَّواب، والظَّاهر أنَّ ذلك التَّضعيف يكون من جنس اللَّذات الموعد بها في الجنَّة، وأمَّا هذا الأجر العظيم الَّذي يؤتيه من لدنه، فهو اللَّذة الحاصلة عند الرُّؤية، وعند الاستغراق في المحبَّة والمعرفة، وإنَّما خصَّ هذا النَّوع بقوله: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾؛ لأنَّ هذا النَّوع من الغبطة والسَّعادة والبهجة والكمال، لا ينال بالأعمال الجسمانيَّة، بل إنَّما ينال بما يودع اللّه في جوهر النَّفس القدسيَّة من الإشراق والصَّفاء والنُّور، وبالجملة فذلك

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1243.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1243.
(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/512.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 4/543 - 544.

التَّضعيف إشارة إلى السَّعادة الجسمانيَّة، وهذا الأجر العظيم إشارة إلى السَّعادة الروحانيَّة"[1].

بلاغةُ الاِسْتِفْهامِ في الآية:

قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾.

التَّعبير بالاستفهام لتَهويلِ حالِ الكافِرينَ يَومَ القيامَةِ وتَوْبيخِهِمْ وتَقريعِ قُلوبِهِمْ

السُّؤالُ بـ (كَيْفَ) في قوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ عَنِ الحالِ الْمُتَوَقَّعَةِ في ذَلِكَ المَوْقِفِ العَظيم، وهَذِهِ الْحالَةُ الَّتي دَلَّ عَلَيْها الاِسْتِفْهامُ الْمُسْتَعْمَلُ هُنا في التَّعْجيبِ، وهوَ يُؤْذِنُ بحالَةٍ مَهولَةٍ لِلْمُشْرِكينَ تُنادي عَلَى حَيْرَتِهِمْ ومُحاوَلَتِهِم التَّمَلُّصَ مِنَ الْعِقابِ بِسُلوكِ طَريقِ إِنْكارِ أَنْ يَكونوا أُنْذِروا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ مَجيءُ شَهيدٍ عَلَيْهِمْ، ولِذَلِكَ حُذِفَ الْمُبْتَدَأُ الْمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ، وقُدِّرَ بنَحْوِ: كَيْفَ أولَئِكَ، أَوْ كَيْفَ الْمَشْهَدُ؟ لِأَنَّ في الْكَلامِ دَليلًا عَلَى ما حُذِفَ، ولا يُقَدَّرُ بكَيْفَ حالُهُمْ؟ خاصَّةً؛ إذْ هيَ أَحْوالٌ كَثيرَةٌ، ومَهْما اتَّسَعَ الْخَيالُ؛ فَلا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ ما هُمْ عَلَيْهِ؛ لِذا، فَهيَ تَحْمِلُ مَعْنَى الدَّهْشَةِ والتَّعَجُّبِ والتَّهْويلِ الْمُصاحِبِ لِهَذا الْمَوْقِفِ العَظيم[2].

والقُرْآنُ يُخاطِبُ الْعَرَبَ بِما اعْتادَتْهُ في لُغَتِها، فَقَدْ كانَ مِنْ عادَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ يَقولونَ في الشَّيْءِ الَّذي يَتَوَقَّعونَهُ: كَيْفَ بِكَ؛ إذا كانَ كَذا وكَذا، وإذا فَعَلَ فُلانٌ كَذا، وإذا جاءَ وَقْتُ كَذا؟ لِيُثيرَ هَذا السُّؤالُ صوَرًا كَثيرَةً واحْتِمالاتٍ شَتَّى، فَكَيْفَ هُنا: لَفْظُها لَفْظُ الاِسْتِفْهامِ، ومَعْناها: مَعْنَى التَّوْبيخِ والتَّقْريعِ[3].

سِرُّ اسْتِعْمالِ ضَميرِ التَّكَلُّمِ لِلْمُعَظِّمِ نَفْسَهُ:

التَّعْبيرُ بِضَميرِ الْمُتَكَلِّمِ في قوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/83.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/57.

(3) الزَّجاجُ، مَعاني القُرْآنِ وإعْرابُهُ، تح: عَبْدُ الجَليلِ شَلَبي: 2/53، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/644.

بَيانُ عَظَمَةِ اللهِ الَّتي تَتجلَّى خُصوصًا في مَوْقِفِ الحَشْرِ

بِشَهِيدِ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؛ لِلتَّعْظيم، وهَذا الْغَرَضُ كَثيرًا ما يُصاحِبُ نونَ الْعَظَمَةِ الَّتي تَرِدُ في حَقِّ اللّه ﷻ في الْقُرْآنِ الْكَريم، خُصوصًا في هَذا الْمَوْقِفِ الْعَظيم في ساحَةِ الْعَرْضِ الْكُبْرَى، فَكُلُّ أُمَّةٍ حاضِرَةٌ، وعَلَى كُلِّ أُمَّةٍ شَهيدٌ بِأَعْمالِها، وكَيْفَ يَكون ذَلِك الْحُكْمُ الْعَظيمُ الَّذي جَمَعَ أَنَّ مَنْ حَكَمَ بِهِ كامِلُ العِلْم، كامِلُ الْعَدْلِ، كامِلُ الْحِكْمَةِ، بِشَهادَةِ أَزْكَى الخَلْق، وهُمُ الرُّسُلُ، عَلَى أُمَمِهِمْ مَعَ إِقْرارِ الْمَحْكومِ عَلَيْهِ؟ فَهَذا - واللّه - الْحُكْمُ الَّذي هوَ أَعْظَمُ الأَحْكام وأَعْدَلُها[1].

ثُمَّ يَجيءُ الْمَلِكُ الْواحِدُ الْأَحَدُ بِرَسولنا الْحَبيب الرَّؤوف الرَّحيم ﷺ شاهِدًا عَلَى الْجَميع، فَأَيُّ مَشْهَدٍ هَذا؟ وأَيُّ تَكْريمٍ لِلْخَليلِ الْمُصْطَفَى - صَلَواتُ اللّه وسَلامُهُ عَلَيْهِ - ولِذا دَمَعَتْ عَيْناهُ الشَّريفَتانِ عِنْدَما تُلِيَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآياتُ[2]، ومِمَّا زادَ ضَميرَ الْعَظَمَةِ هَيْبَةً لَفْظُ الاِسْتِفْهام الَّذي قَدْ تَصَدَّرَتِ الْآيَةُ بِهِ ﴿فَكَيْفَ﴾ الَّذي يوحي بِالتَّعَجُّبِ والرَّهْبَةِ.

علَّة تكرار لفظ ﴿جِئْنَا﴾:

في التَّكرار تَشريف لِمَقامِ النَّبيِّ باختصاصه بمجيءٍ خاصٍّ

كرَّر لفظ ﴿جِئْنَا﴾ في قوله تعالى في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدِ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ مَرَّةً ثانيَةً مَعَ نونِ الْعَظَمَةِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى اخْتِصاصِ الْمُسْنَدِ بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، فَكانَ ضَميرُ الْعَظَمَةِ بِذَلِكَ خَيْرَ ما يُمَثِّلُ هَذا الْمَشْهَدَ النَّاطِقَ بِالهَيْبَةِ الَّتي مَلَأَتْ صَدْرَ الرَّسولِ ﷺ حَتَّى فاضَتْ عَيْناهُ حينَما تُلِيَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآياتُ.

دَلالَةُ تَقديمِ المَعْمولاتِ:

تَقْديمُ الْمَعْمولاتِ بَعْضِها عَلَى بَعْضٍ كَثيرٌ جِدًّا في هذه السُّورَةِ، ومِنْ ذَلِك قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ في هَذا الْمَقْطَعِ مِنَ الآيَةِ نَرى الْجارَّ والْمَجْرورَ ﴿بِكَ﴾، وكَذا ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾

(1) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريم الرَّحْمن، ص: 179.
(2) ابن عطية، الْمُحَرَّرُ الوَجيز: 2/55.

الاهْتِمامُ بِشأنِ النَّبيِّ ﷺ وتَعظيمُ قَدْرِه ومَنْزلَتِهِ وتَشْريفُ أُمَّتِهِ

قُدِّمَ عَلَى كَلِمَةِ ﴿شَهِيدًا﴾ الْواقِعَةِ حالًا، وذَلِكَ لِشِدَّةِ تَعَلُّقِ هَذا الْمُقَدَّمِ بِالحَدَثِ، وكَذا لِلَفتِ الانْتِباهِ إلَيْهِ وحَصْرِ الاهْتِمامِ بِهِ.

بلاغة الإضْمارِ في مقامِ الإظْهارِ:

في التَّعبير بالخطاب إتمامٌ لتشريف النَّبيِّ ﷺ:

الإضْمارُ في ﴿بِكَ﴾ مقامَ الإظْهارِ في قوله: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ هو مِنْ بابِ ذِكْرِ الْخاصِّ بَعْدَ الْعامّ عَلَى سَبيلِ الْإِطْنابِ، فَخصَّهُ ﷺ بِمَجيءٍ لَيْسَ كَمِثْلِهِ مَجيءٌ؛ تَنْويهًا بِمَكانَتِهِ وشَرَفِهِ ونَفْعِه لِكُلِّ الْأُمَمِ، والذي جاءَ بَعْدَ السُّؤالِ عَنْ حالِ النَّاسِ، إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ؛ فالنَّاسُ بَيْنَ مُسْتَبْشِرٍ ومُتَحَسِّرٍ، وعلى هذا يَكونُ الإضْمارُ في ﴿بِكَ﴾ واقِعًا مَوْقِعَ الاسْمِ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى هَذا أَنْ يَكونَ الكَلامُ مَسوقًا لِجَميعِ الأُمَّةِ، فَيَقْتَضي أَنْ يُقالَ: وجِئْنا بِالرَّسولِ عَلَيْهِمْ شَهيدًا، فَعدَلَ إِلَى الخِطابِ تَشْريفًا لِلرَّسولِ ﷺ بِعِزِّ الحُضورِ والإقْبالِ عَلَيْهِ[1]، وكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْمُؤَثِّراتِ النَّفْسِيَّةِ - في تَقْديمِ الْمَعْمولاتِ والإضْمارِ مَوْقِعَ الْإِظْهارِ - داعَبَتْ خَواطِرَ النَّبيِّ ﷺ حَتَّى أَوْصَلَتْهُ إِلَى الْبُكاءِ.

سِرُّ إضمارِ مَنْ تَعودُ إلَيْهِ الإشارَة:

في الإضمار شُمولٌ لِلخِطابِ لِكُلِّ المُخالِفينَ وتَصْويرُهُمْ بِصورَةِ المُشاهِدِ المُعايِنِ

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾، إشارَةٌ إلَى الَّذينَ دَعاهُمُ النَّبيُّ ﷺ لِحُضورِهِمْ في ذِهْنِ السَّامِعِ عِنْدَ سَماعِهِ اسْمَ الإشارَةِ، وأَصلُ الإشارَةِ يَكونُ إِلَى مُشاهَدٍ في الوُجودِ أَوْ مُنَزَّلٍ مَنْزِلَتَهُ، وقَدِ اصْطَلَحَ الْقُرْآنُ عَلَى إِطْلاقِ إشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُرادًا بِها الْمُشْرِكونَ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ الإشارَةُ إلَى ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾، وهُمُ الْمُشْرِكونَ والمُنافِقونَ؛ لِأَنَّ تَقَدُّمَ ذِكْرِهِمْ يَجْعَلُهُمْ كالحاضِرينَ، فَيُشارُ إلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لِكَثْرَةِ تَوْبيخِهِمْ ومُجادَلَتِهِمْ صاروا كالمُعَيَّنينَ عِنْدَ الْمُسْلِمينَ[2]، وفي التَّعبيرِ عنهم

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/56.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/58.

باسم الإشارة الدَّالِّ على القرب دلالة قدرة اللّه على سوقهم جميعًا، والإتيان بهم بين يدي رسول اللّه ﷺ وقد كانوا يظنُّون أنَّهم بعيدون عن العذاب؛ لعدم إيمانهم باليوم الآخر.

في تقديم اسم الإشـارة تقبيحٌ لأفعالهم، وفي تـأخيره بيـانٌ لفضلِ النَّبيِّ ﷺ

بلاغة المتشابه اللَّفظيِّ:

المُلاحَظُ في هذه الآية تَقْديمُ اسْمِ الْإشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ عَلَى الشَّهيدِ، في حينِ نَجِدُ في سورَةِ النَّحْلِ تَأْخيرَهُ في قَوْلِهِ: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النحل: 89].

فَفي سورَةِ النَّحْلِ قُدِّمَتْ كَلِمَةُ ﴿شَهِيدًا﴾؛ لِبَيانِ فَضْلِ النَّبيِّ ﷺ وعَظَمَتِهِ بِغَضِّ النَّظَرِ مَن هُمُ الْمَشْهودُ عَلَيْهِمْ، فالآية في مقام تشريف النَّبيِّ ﷺ ولذلك أردفها - في الآية نفسها - بجملة: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أمَّا هذه الآية: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؛ فالكلام فيها على الكافرين، فناسب تقديمُ الْمَشْهودِ عَلَيْهِمْ؛ لِبَيانِ مَدَى جُرْمِهِمْ، وقُبْحِ فِعالِهِمْ حَيْثُ أَشْرَكوا، وغَيَّروا، وحَرَّفوا[(1)].

في الـتَّـعـبـير بالعلِّيَّة تهديدٌ للكافرين بكون الشَّهادة عليهم

فائدة التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

"ذكر متعلَّق ﴿شَهِيدًا﴾ الثَّاني مجرورًا بـ ﴿عَلَىٰ﴾؛ هو لتهديد الكافرين بأنَّ الشَّهادة تكون عليهم؛ لأنَّهم المقصود من اسم الإشارة"[(2)]، أو"كانت التَّعدية بـ ﴿عَلَىٰ﴾ للإشارة إلى معنى المحافظة على أصول الشَّرائع السَّابقة لاشتمال القرآن الكريم عليها، ونشرها خالصة سائغة واضحة بيِّنة للأجيال"[(3)].

بلاغة الإيجاز بالحذْفِ في المطلع:

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾: في لفظ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ من قوله:

---

(1) سامي القَدّومي، التَّفسير البياني لِما في سورة النَّحل من دقائق المعاني: 179.
(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/58.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1687.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تَنْوينُ عِوَضٍ عن جملةٍ؛ إذ حُذِفَتِ الجُمْلَةُ السَّابِقَةُ، وعوِّضَ عَنْها هَذا التَّنْوينُ، والتَّقْديرُ: يَوْمَ إذْ جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ، وجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهيدًا؛ يَوَدُّ الَّذين كَفَروا، وعَصَوُا الرَّسولَ"[1].

في الحذف بَيانٌ لِشِدَّةِ حالِ المُشارِ إِلَيهِمْ مِن قَبلُ، وفَظاعَتِهِم

بلاغة الفصل في الآية:

الجُمْلَةُ اسْتِئْنافٌ بيانيٌّ؛[2] لِبَيانِ حالِهِمْ الَّتي أُشيرَ إِلَى شِدَّتِها وفَظاعَتِها بِقَوْلِه تَعالَى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾؛ لِأَنَّ السَّامِعَ يَتَساءَلُ عَن هذه الحالَةِ المُبْهَمَةِ، ويَطْلُبُ بَيانَها، فَجاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُبَيِّنَةً لِبَعْضِ تِلْكَ الحالَةِ العَجيبَةِ، وهوَ حالُ الَّذينَ كَفَروا حينَ يَرَوْنَ بوارِقَ الشَّرِّ: مِنْ شَهادَةِ شُهَداءِ الأُمَمِ عَلَى مُؤْمِنِهِمْ وكافِرِهِمْ، ويوقِنونَ بِأَنَّ المَشْهودَ عَلَيْهِمْ بالكُفْرِ مَأْخوذونَ إِلَى العَذابِ، فَيَنالُهُمْ مِنَ الخَوْفِ ما يَوَدُّونَ مِنْهُ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ[3].

وجهُ الفصل بيانُ حالِ الكافرين القاسية في هذا المشهد

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول:

التَّعْبيرُ عَنِ الذين كفروا بِالمَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ﴾، بَعْدَما أشارَ إِلَيهِمْ بِـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لِذَمِّهِمْ والإِشْعارِ بِعِلَّةِ ما اعْتَراهُمْ مِنَ الحالِ الفَظيعَةِ والأَمْرِ الهائِلِ وما سَيَحُلُّ بِهِم مِنَ الخِزْيِ والفَضيحَةِ والعَذابِ[4].

في التَّعبير عنهم بالموصول ذمٌّ لهم، ومزيدُ تقبيحٍ لأفعالهم

بلاغة الِالتفاتِ في الآية:

فائدةُ الِالتفاتِ المَقْصودِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ إلى الغَيْبَةِ بَعْدَ المواجَهَةِ بِالخِطابِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ﴾ في الآيَةِ

أورد الاسْمَ الظَّاهِرَ بَعْدَ الإِضْمارِ تَشْريفًا للرَّسولِ ﷺ وللتَّهْويلِ مِنْ أمرِ تكذيبه وعِصيانِهِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/644.
(2) هَذا على القَوْلِ بِأَنَّ الفاءَ لِلتَّفْريعِ، ويُمْكِنُ أَنْ تَكونَ هي الفاءَ الفَصيحَةَ، وتَدُلُّ عَلَى شَرْطٍ مُقَدَّرٍ نَشَأَ عَنِ الكَلامِ السابِقِ، والتَّقْديرُ: إذا أَيْقَنْتَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ حالُ كُلِّ أولَئِكَ، إذا جاءَ الشُّهَداءُ، وظَهَرَ موجَبُ الشَّهادَةِ عَلَى العَمَلِ الصّالِحِ وعَلى العَمَلِ السيِّئِ، وعَلَى هَذا، فَلَيْسَ ضَميرُ (بك): إِضْمارًا في مَقامِ الإِظْهارِ، ينظر: ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/56.
(3) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/58.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/698، وطنطاوي، التَّفْسيرُ الوَسيط: 3/154.

السَّابقَة: إيرادُ ذِكْرِهِ ﷺ بِعُنْوانِ الرِّسالَةِ تَشْرِيفًا لَهُ وزيادَةً في تَقْبيح حالِ مُكَذِّبيه، فَإِنَّ حَقَّ الرَّسولِ ﷺ أَنْ يُؤْمَنَ بِه، ويُطاعَ، لا أَنْ يَكْفُرَ بِهِ ويُعْصى[1]، فتَسْمِيَتُهُ ﷺ بِهَذا الاسْمِ تَعْليلٌ كافٍ لِوُجوبِ طاعَتِهِ ولِعِظَمِ جُرْمِ مَن عَصاهُ، وفيهِ تَهْويلٌ لِأَمْرِ عِصْيانِهِ[2].

بلاغة الإطناب في الآية:

عـلَّـة الـكـفـر عصيان الرَّسول ﷺ وعـــدم طاعته

في الإطْنابِ بِذِكْرِ الخاصِّ بَعْدَ العامِّ في قَوْلِه: ﴿كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ دليلٌ على تَشْريفِ الرَّسولِ والتَّنْويهِ بالرِّسالةِ الَّتي هِيَ أَشْرَفُ ما تَحمَّلَها الإنْسانُ مِنَ اللهِ تعالَى؛ إذْ هِيَ سَبَبُ السَّعادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّة؛ لِأَنَّ كُفْرَهُمْ يَدْخُلُ فيه عِصْيانُهُمْ لَهُ ﷺ، فَلو أَطاعوهُ؛ ما كَفَرُوا، ولَكِنَّهُ ذَكَرَ الخاصَّ: وهوَ عِصْيانُهُمْ لِلرَّسولِ، بَعْدَ العامِّ: وهوَ كُفْرُهُمْ؛ تَشْريفًا لَهُ ﷺ وكَأَنَّ عِصْيانَهُمْ لَهُ يُعادِلُ كُلَّ كُفْرِهِمْ؛ لِبَيانِ عِظَمِ مَكانَتِهِ وخَطَرِ مُخالَفَتِهِ.

فـي الـعـطـف بـيـانٌ لـعـدم المحاسبة على الـكـفـر حـسـبُ، بـل عـلـى جميع مـشـمـولاتـه ومنه عصيانهم الرَّسول

وَمِمَّا يَدُلُّ على خَطَرِ العِصْيانِ عَطْفُ جُمْلَةِ: ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾، على جُمْلَةِ صِلَةِ المَوْصولِ: ﴿كَفَرُواْ﴾، بِطَريقِ الْوَصْلِ بِجامِعِ كَوْنِهِما خَبَرِيَّتَيْنِ، وفِعْلاهُما ماضِيانِ، وأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ الْجامِعُ الْمَعْنَوِيُّ، حَيْثُ يُبَيِّنُ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - دِقَّةَ حِسابِ هَؤُلاءِ الْكافِرينَ، فَلا يُحاسَبونَ عَلَى كُفْرِهِمْ فَقَطْ، بَلْ حَتَّى عَلَى فُروعِه، وأَهَمُّها عِصْيانُهُمْ لِلرَّسولِ ﷺ فَهوَ كُفْرٌ أَوْ نَوْعٌ مِنَ الإِثْمِ يُعادِلُ الْكُفْرَ؛ لِهَذا عُطِفَتْ جُمْلَةُ ﴿وَعَصَوُاْ﴾ عَلَى جُمْلَةِ ﴿كَفَرُواْ﴾، وقَدْ حَسَّنَ الْعَطْفَ أَنَّهُما مِنْ قَبيلِ الإِخْبارِ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا[3].

دَلالَةُ الكِنايَةِ عَنِ النِّسْبَةِ في الآيَة:

تَصِفُ الآيَةُ الْكَريمَةُ: ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ

(1) أبو حيان، البَحرُ المُحيط: 3/644 - 645.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/698، والآلوسي، روح المعاني: 3/34.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/645، والبِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/283.

﴿حَدِيثًا﴾ الْأَحوالَ النَّفسيَّةَ لِطُغاةِ الدُّنيا وعُصاتِها يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنونَ، فَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كانوا تُرابًا مِثْلَ الْأَرْضِ، أَوْ لَوْ دُسُّوا فيها، ولَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَثَرٌ عَلَى سَطْحِها، حَتَّى تَكونَ مُسْتَويَةً تَمامًا بِهِمْ، فَيَخْتَفي أَثَرُهُمْ، ونِسْبَةُ أُمْنيَتِهِمْ في التَّسْوِيَةِ بِالأَرْضِ نِسْبَةٌ كِنائيَّةٌ؛ لِأَنَّ ما يَهُمُّهُمْ هوَ تَسْوِيَةُ أَجْسادِهِمْ بِها، كَما جاءَ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ٤٠﴾ [النبأ: 40]، فَسَلَكَ الْأُسْلوبُ طَريقَةَ الْكِنايَةِ عَنْ صَيْرورَتِهِمْ تُرابًا بِالكِنايَةِ الْمَطْلوبِ بِها نِسْبَةٌ، كَقَوْلِهِمْ: الْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ[1]، ومِمَّا يَزيدُ هَذِهِ الكِنايَةَ وُضوحًا مَجيءُ ضَميرِ الْغائِبِ في ﴿بِهِمُ﴾ الَّذي يُشْعِرُ بِعُمْقِ صِلَةِ هَؤُلاءِ النَّادِمينَ بِتَسْوِيَةِ الْأَرْضِ، حَتَّى شاعَ مِنْهُ مَعْنًى: الْحَسْرَةِ والأَلَمِ والخُسْرانِ والنَّدَمِ.

في الكِنايةِ بيانٌ لشدَّة خَوْفِ الكافِرينَ وحَسْرَتِهِمْ ونَدَمِهِم على التَّفْريطِ في الإيمانِ

توجيه القراءات في ﴿تَسَوَّىٰ﴾:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿تُسَوَّىٰ﴾ بضمِّ التَّاء وتخفيف السِّين مبنيًّا للمفعول، وهو مضارع سوَّى، وقرأ نافع، وابن عامر: بفتح التَّاء وتشديد السِّين، وتشديد الشين: ﴿تَسَّوَّىٰ﴾ وأصله: تتسوَّى، فأدغمتِ التَّاء في السِّين، وهو مضارع تسوَّى، وقرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿تَسَوَّىٰ﴾ بفتح التَّاء وتخفيف السِّين، وذلك على حذف التَّاء؛ إذ أصله: تتسوَّى، وهو مضارع تسوَّى، فعلى قراءة من قرأ ﴿تَسَوَّىٰ﴾، و﴿تَسَّوَّىٰ﴾ فتكون الأرض فاعلة، أي: يتمنَّون لو تنشقُّ الأرض، ويكونون فيها، وتتسوي هي في نفسها عليهم، والباء بمعنى: على[2].

لهول ما يرونه يتمنَّون أنْ يعودوا أمواتًا وتسوَّى عليهم الأرض

أو المعنى: يتمنَّون لو تسوَّى هي معهم في أنْ يكونوا ترابًا كالبهائم، فجاء اللَّفظ على أنَّ الأرض هي المسوِّية معهم، والمعنى: إنَّما هو أنَّهم يستوون مع الأرض، وعلى قراءة من قرأ: ﴿تُسَوَّىٰ﴾ مبنيًّا للمفعول،

ويحتمل تمنِّيهم أن يختلطوا بالأرض، فيكونوا مادَّة التَّسوية ترابًا، أو غيره

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/59.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/263.

فالمعنى: أنَّ اللّه يفعل ذلك على حسب المعنيين السَّابقين، وقيل: المعنى: لو دفنوا؛ فتسوَّى بهم الأرض، كما تسوَّى بالموتى، ومعنى هذا القول هو معنى القول الأوَّل، وقيل: المعنى: لو تعدَّل بهم الأرض[1]، فالتَّعبير بـ (الباء) دون (على) للدَّلالة على تمنِّيهم أن يختلطوا بالأرض، فيكونوا مادَّة التَّسوية، لا أن تسوَّى عليهم فقط؛ وذلك لهول ما يرونه من عذاب.

بلاغة التَّعبير عن الفاصلة بجملة التَّمنِّي:

تمنِّي الخفاء تسويةً بالأرض منتهى صور الحسرة والنَّدامة

عُطِفَتْ جُمْلَةُ الفاصلة: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ عَلَى الْجُمْلَةِ الِاسْتِئْنافيَّةِ الْأُولَى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِكُلِّ ما فيها وفي صِلَةِ فاعِلِها، حَيْثُ تَمَنَّوْا أَنْ يُخْفَوْا، ولا يُظْهَروا، حَتَّى لا يُسْأَلوا، فَلا يَضْطَرُّوا إِلَى الِاعْتِرافِ الموبِقِ إِلَى الْكِتْمانِ الْمُهْلِكِ[2]، فالْمُناسَبَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ الَّتي بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ: الِاتِّحادُ في "الْخَفاءِ"، خَفاؤُهُمْ مِنْ حَيْثُ الْأَجْسادُ، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، وخَفاؤُهُمْ مِنْ حَيْثُ الْكَلامُ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾، ومن حُسْنِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ أَنَّ كِلْتَيْهِما مِنْ قَبيلِ التَّمَنّي.

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإِعْطاءِ

لا يَكادُ أَهْلُ اللُّغَةِ يُفَرِّقونَ بَيْنَ الْإيتاءِ والإِعْطاءِ، لَكِنْ نَجِدُ في الِاسْتِعْمالِ الْقُرْآنيِّ بَعْضَ الْفُروقِ الدَّقيقَةِ الَّتي توحي بِبَلاغَةِ الْقُرْآنِ وعَظَمَتِه، وذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْإيتاءَ أَقْوَى مِنَ الْإِعْطاءِ في إِثْباتِ مَفْعولِه؛ لِأَنَّ الْإِعْطاءَ، لَهُ فِعْلٌ مُطاوِعٌ، تقولُ: أَعْطاني، فَعَطوتُ، ولا يُقالُ في الْإيتاءِ: آتاني، فَأَتَيْتُ، وإِنَّما يُقالُ: آتاني، فَأَخَذْتُ، والفِعْلُ الَّذي لَهُ فِعْلٌ مُطاوِعٌ أَضْعَفُ في إِثْباتِ مَفْعولِهِ مِنَ الَّذي لا مُطاوِعَ له[3].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/263.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/60.

(3) السُّيوطيُّ، الإتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 2/367 - 368، والكَفَويُّ، الكُلِّيَّاتُ، ص: 212.

فالإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قالَ تَعالَى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لِأَنَّ المُلْكَ شَيْءٌ عَظيمٌ لا يُعْطاهُ إلّا مَنْ لَهُ قوَّةٌ، وكَذا: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 269]، والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظيمٌ أَيْضًا، وقال: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]؛ لِعِظَمِ القُرْآنِ وشَأْنِه(1).

في الإيتاءِ: وُجوبٌ والتِزام، وفي الإعْطاءِ: تَفَضُّلٌ وإكْرام

ومِنَ الْفُروقِ أَيْضًا: أَنَّ الْإيتاء فيهِ مَعْنَى: الْوُجوبِ والالتِزامِ، أَمَّا الْعَطاءُ؛ فَفيهِ مَعْنَى: التَّفَضُّلِ والإِكْرامِ، فَبَعْدَ أَنْ أَسْعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنينَ بِدُخولِ الْجَنَّةِ؛ قالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾ [هود: 108]، وقال: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾ [النبأ: 39]، ومِنَ الْفُروقِ أَيْضًا: أَنَّ العَطاءَ يَكونُ في الْأَشْياءِ الْمادِّيَّة، ويُفيدُ التَّكْرارَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُرْبُكَ - يا مُحَمَّدُ ﷺ - كَثيرًا مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]، أَيْ: سَيَكونُ عَطاءُ اللهِ لَكَ مُكَرَّرًا، حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ الرِّضا(2).

أَمَّا الإيتاء؛ فَفي الأَشْياءِ المادِّيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ، قال سُبْحانَهُ: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20](3).

الإعْطاءُ دَليلُ التَّمَلُّكِ

ومِنَ الْفُروقِ أَيْضًا: أَنَّ الْإعْطاءَ دَليلُ التَّمَلُّكِ دونَ الْإيتاءِ(4)، فالإيتاءُ: يَشْمَلُهُ النَّزْعُ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَيْسَ تَمْليكًا، ولَكِنَّ الْعَطاءَ تَمْليكٌ، والإيتاءُ: لَيْسَ بِالضَّرورَةِ تَمْليكًا؛ لِأَنَّ الْإعْطاءَ: هوَ إيصالُ الشَّيْءِ إلَى الْآخِذِ لَهُ، وكَثُرَ اسْتِعْمالُ الْإعْطاءِ، حَتَّى صارَ لا يُطْلَقُ إلَّا عَلَى التَّمْليكِ، فَيُقالُ: أَعْطاهُ مالاً؛ إذا مَلَّكَهُ إيَّاهُ.

ومن هنا: فاختيار لفظ الإيتاء المتضمِّن معنيي: القوّة، والوجوب

(1) السُّيوطيُّ، الإتْقانُ في عُلومِ القُرْآنِ: 2/367، والكفوي، الكُلِّيَّاتُ، ص: 212.
(2) الكفوي، الكُلِّيَّاتُ، ص: 212، والسُّيوطيُّ، الإتْقانُ في عُلومِ القُرْآنِ: 2/367.
(3) صَلاح لاشين، مِنْ أَسْرارِ التَّعبيرِ في القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 71 - 77.
(4) الكفوي، الكُلِّيَّاتُ: 1/360، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.

في قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يناسب سياق الآية الدَّالِّ على قوَّة الأجر الممنوح، ووجوبه لمستحقِّيه، والالتزام بذلك، ويرسِّخه لفظا: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾، و﴿عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ كلَّ عطايا ربِّنا عظيمة متحقِّقة الوقوع.

(لَدُنْهُ)، و(عِنْدَهُ)، و(لَدَيْهِ):

(عِنْدَ) لِلْحُضورِ الزَّمانيِّ والمَكانيِّ، وهيَ أَوْسَعُ الظُّروفِ

عِنْدَ: اسْمٌ لِمَكانِ الحُضورِ الحسِّيِّ، نَحْو: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النَّمْل: 40] والمَعْنَويِّ، نَحْو: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النَّمْل: 43]، وتَأْتي أَيْضًا لِزَمانِه، نَحْوُ: جِئْتُكَ عِنْدَ طُلوعِ الشَّمْسِ، ولِلْقُرْبِ كَذٰلِكَ، نَحْو: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥﴾ [النَّجْم: 15] ولا تَقَعُ إلَّا ظَرْفًا أَوْ مَجْرورَةً بِمِنْ، وهي أَوْسَعُ الظُّروفِ.

وَتُعاقِبُ (عِنْدَ) كَلِمَةُ (لَدُنْ)؛ إذا كانَ المَحَلُّ مَحَلَّ ابْتِداءِ غايَةٍ، نَحْوُ: جِئْتُ مِنْ لَدُنْهُ، وقَدِ اجْتَمَعَتا في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ٦٥﴾ [الكَهْف: 65].

وَتَفْتَرِقُ (لَدُنْ) عَنْ (عِنْدَ) مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

أَوَّلًا: إذا كانَ المَحَلُّ لَيْسَ مَحَلَّ ابْتِداءِ غايَةٍ؛ فَلا يَصِحُّ أَنْ يُقالَ: (جَلَسْتُ لَدُنْهُ)؛ لِعَدَمِ مَعْنَى الابْتِداءِ هُنا.

ثانِيًا: أَنَّ (لَدُنْ) مَبْنِيَّةٌ عَلَى السُّكونِ في لُغَةِ الأَكْثَرِينَ.

ثالِثًا: أَنَّ (لَدُنْ) لا تَقَعُ إلَّا فَضْلَةً، يَعْني: لا تَقَعُ عُمْدَةً، فَلا يُقالُ: (السَّفَرُ مِنْ لَدُنْ زَيْدٍ)، بِخِلافِ (عِنْدَ)؛ فَإنَّها تَقَعُ عُمْدَةً، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ٤﴾ [ق: 04][1].

(لَدُنْ) لِلْمُلاصِقَةِ وشِدَّةِ الاقْتِرانِ، وهيَ أَخَصُّ مِنْ (عِنْدَ)

خامِسًا: لَدُنْ تُفيدُ المُلاصَقَةَ وشِدَّةَ الاقْتِرانِ؛ لِذا تَرِدُ في القُرْآنِ مُقْتَرِنَةً كَثيرًا بِالدُّعاءِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ٨﴾ [آل عِمران: 8]، وقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

(1) ابْنُ هِشام، مُغْني اللَّبيب، ص: 206 - 209، وخالِدُ الأَزْهَرِيُّ، شَرْحُ التَّصْريحِ على التَّوْضيح: 1/714، والكَفَويُّ، الكُلِّيّاتُ، ص: 633، 634.

إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آلُ عِمْرانَ: 38] وكَقَوْلِهِ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مَرْيَمُ: 5].

فَبِهَذِهِ الاعْتِباراتِ تَكونُ (لَدُنْ) أَخَصَّ مِنْ (عِنْدَ).

فَيَتَحَصَّلُ مِمَّا سَبَقَ: أَنَّ (لَدُنْ) أَبْلَغُ مِنْ (عِنْدَ) وأَخَصُّ، و(لَدُنْ) كَذلِكَ أَقْوى مِنْ (عِنْدَ) في الدَّلالَةِ على القُرْبِ، ولِذلكَ اختيرَ لفظًا في الآية.

(لَدَى) أَمْكَنُ مِنْ (عِنْد)

أَمَّا (لَدَى)؛ فَهِيَ مِثْلُ (عِنْد) مُطْلَقًا إِلَّا أَنَّ جَرَّها مُمْتَنِعٌ، بِخِلافِ جَرِّ (عِنْد)، فـ (عِنْد) تَدْخُلُ عَلَيْها (مِنْ)، فَتَجُرُّها، وأَمَّا (لَدَى)؛ فَلا، وأَيْضًا (عِنْد) أَمْكَنُ مِنْ (لَدَى)، مِنْ وجْهَيْنِ:

أَوَّلًا: أَنَّها تَكونُ ظَرْفًا لِلْأَعْيانِ والمَعاني، تَقولُ: (هَذا القَوْلُ عِنْدي صَوابٌ)، ويَمْتَنِعُ ذَلِكَ في (لَدَى)، فَلا يُقالُ: (هَذا القَوْلُ لَدَيَّ صَحيحٌ)، وإنَّما يُقالُ: عِنْدي.

ثانيًا: أَنَّهُ لا يُشْتَرَطُ الحُضورُ في (عِنْد)، فَتَقول: (عِنْدي مالٌ)؛ وإِنْ كانَ غائِبًا عَنْكَ، بِخِلافِ (لَدَى)، فَإِن قُلْتَ: لَدَيَّ مالٌ، لا بُدَّ أَنْ يَكونَ حاضِرًا في جَيْبِكَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، قَريبًا مِنْكَ[1].

المجيء والإِتْيان:

المَـجـيءُ إِتْـيـانٌ مُحَقَّقٌ

الإِتْيانُ: مَجيءٌ بِسُهولَةٍ، وهوَ بِدايَةُ المَجيءِ[2]، فَإِذا اكْتَمَلَ، وبَلَغَ مَقْصَدَهُ مِنْ مَكانٍ أَوْ زمانٍ أَوْ شَخْصٍ؛ أَصْبَحَ مَجيئًا، فالمَجيءُ: هوَ إِتْيانٌ مُحَقَّقٌ بَعيدٌ عَنْ عَوامِلِ النَّقْصِ، قالَ تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ [الأَعْرافُ: 129]، فالإِتيانُ: بِدايَةُ المَجيءِ زَمانيًّا أَوْ مَكانيًّا، وقَدْ لا يَتِمُّ، فَلا يَكونُ مَجيئًا، أَمَّا المَجيءُ؛ فَهوَ إِتْيانٌ

(1) ابْنُ الشَّجَرِيِّ، أَمالي ابْنِ الشَّجَرِيِّ، تح: مَحْمود الطَّناحي: 1/224، والسُّيوطيُّ، الأَشْباهُ والنَّظائِرُ: 2/185.
(2) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ، ص: 283.

مُحقَّقٌ قَريبٌ زَمانيًّا ومَكانيًّا[1]، وبه تتكشَّف علَّة اختيار لفظ المجيء في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ بوصفه وجهَ تشريفٍ للنَّبيِّ ﷺ ومن قبله الشُّهداء على الأمم قبله، لكمال المقصد منه، وبعده عن عوامل النَّقص المناسب لصفات الأنبياء والرُّسل عليهم السلام.

الشَّهيد والشَّاهِد:

الشَّاهِدُ يَشْهَدُ انطِلاقًا مِنْ خِبْرَتِهِ ومَعْرِفَتِهِ، والشَّهيدُ يَشْهَدُ انْطِلاقًا مِنْ سَمْعِهِ ورُؤْيَتِهِ

الشَّهادَةُ في أَصلِ اللُّغَةِ، مَعْناها: الحُضورُ، وفي الاصْطِلاحِ: هيَ خَبَرٌ قاطِعٌ، صادِر عَنْ عِلْمٍ حَصَلَ بِمُشاهَدَةِ بَصَرٍ، أَوْ بَصيرَةٍ[2]، وتَنْقَسِمُ مِنْ حَيْثُ الطَّرَفُ الَّذي يُؤَدِّيها قِسْمَيْنِ: شَهادَةَ شاهِدٍ وشَهادَةَ شَهيدٍ، والفَرْقُ بَيْنَهُما:

أَنَّ شَهادَةَ الشَّاهِدِ: هيَ شَهادَةُ مَعْرِفَةٍ وخِبْرَةٍ مُكْتَسَبَةٍ، ومِثالُها قَوْلُهُ تَعالَى في قِصَّةِ يوسُفَ عليه السلام: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ [يوسُف: 26 - 27]، فَهَذا الَّذي شَهِدَ مِنْ أَهْلِ امْرَأَةِ الْعَزيزِ لَمْ يَشْهَدِ الْواقِعَةَ بِنَفْسِهِ حَتَّى يَكونَ شَهيدًا عَلَيْها، ولَكِنَّهُ شَهِدَ مِنْ واقِعِ خِبْرَتِهِ بِالأَدِلَّةِ، ومَعْرِفَتِهِ بِكَيْفِيَّةِ سَيْرِ الأُمورِ، ومَنْطِقِيَّةِ الأَحْداثِ بِنَتائِجِها[3]، أَمَّا شَهادَةُ الشَّهيدِ؛ فَهِيَ شَهادَةٌ حُضورِيَّةٌ، تَعْتَمِدُ عَلَى السَّمْعِ والبَصَرِ، ومِثالُها قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ [البَقَرَة: 282]، فَنُلاحِظُ هُنا: أَنَّ

---

(1) جبل، المُعجَمُ الاشتِقاقيُّ المُؤَصَّل: 264/1. وأودُّ التنبيه على أنَّ مَنْ تَكَلَّمَ عَنْ صِفَةِ المَجيءِ والإتيانِ في بابِ الأَسْماءِ والصِّفاتِ مِنْ مُحقِّقي أَهلِ السُّنَّةِ، يَجْعَلُهُما بِمَعْنى واحِدٍ، ويَسْتَدِلَّ لَهُما بالأَدِلَّةِ نَفْسِها دونَ تَفْريقٍ، فالفَرْقُ المذكور في المتن غَيْرُ وارِدٍ في بابِ الصِّفاتِ، فَقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأَنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفَجْر: 22].

(2) الراغب، المفردات: (شهد).

(3) وهَذا أَحَدُ وُجوهِ تَفْسيرِ وصْفِ الشَّاهِدِ في القِصَّةِ مِنْ أَقْوالِ المُفَسِّرينَ، قال القُرطُبيُّ لمَّا ذَكَرَ تَحْديدَ هَذا الشَّاهِدِ: وهو الصَّحيحُ في البابِ، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 321/6.

الَّذي طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَشْهَدَ عَلَى عَقْدِ المُدايَنَةِ والمُبايَعَةِ هوَ حاضِرُ العَقْدِ، فَهوَ شَهيدٌ، ولَيْسَ بِشاهِدٍ(1)، وقيلَ أَيْضًا: إنَّ الشَّاهِدَ بِمَعْنَى: الحُدوثِ، والشَّهيدُ بِمَعْنَى: الثُّبوتِ، فَإِنَّهُ إذا تَحَمَّلَ الشَّهادَةَ؛ فَهوَ شاهِدٌ بِاعْتِبارِ حُدوثِ تَحَمُّلِهِ، فَإذا ثَبَتَ تَحَمُّلُهُ لَها زَمانَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ؛ فَهوَ شَهيدٌ(2).

ويَتَحَصَّلُ مِمَّا تَقَدَّمَ: أَنَّ الَّذي يُؤَدِّي شَهادَتَهُ انْطِلاقًا مِنْ خِبْرَتِهِ ومَعْرِفَتِهِ: هوَ شاهِدٌ، ولَيْسَ بِشَهيدٍ، وأَنَّ الَّذي يُؤَدِّي شَهادَتَهُ؛ انْطِلاقًا مِنْ سَمْعِهِ ورُؤْيَتِهِ: هوَ شَهيدٌ، ولَيْسَ بِشاهِدٍ؛ ولذلك اختيرَ لفظُ الشَّهيد في الآية لما يتضمَّنه من مبالغة في الشَّهادة بوصفها مبنيَّة على السَّمع والرُّؤية، وهو يناسب مقام رسول الله ﷺ ثبوتًا للصِّفة فيه، وقوَّة تحقُّق، فضلًا عن كونه عاش بين ظهراني قومه، فسمع، وشهد كلَّ شيء بدر منهم إيمانًا أو كفرًا.

---

(1) الماتُريديُّ، تَأْويلاتُ أَهْلِ السُّنَّة: 2/278.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 292.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النِّساء: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ الطَّهارَةِ الحِسيَّةِ بَعْدَ الإشارَةِ إلى الطَّهارَةِ المَعْنَويَّةِ

لَمَّا وصَفَ الْوُقوفَ بَيْنَ يَدَيْهِ في يَوْمِ الْعَرْضِ، وبَعْضَ الأَهْوالِ الَّتي تَكونُ فيهِ، وتَضَمَّنَ وصْفُهُ أَنَّهُ لا يَنْجو فيهِ إلَّا مَنْ كانَ طاهِرَ الْقَلْبِ والجَوارِحِ بالإيمانِ بِهِ والطَّاعَةِ لِرَسولِهِ ﷺ؛ وصَفَ الوُقوفَ بَيْنَ يَدَيْهِ في الدُّنْيا في مَقامِ الأُنْسِ وحَضْرَةِ القُدْسِ المُنْجي مِنْ هَوْلِ الْوُقوفِ في ذلِكَ الْيَوْمِ، أَمَرَ بِالطَّهارَةِ فيهِ عَنِ الْخَبائِثِ الحِسِّيَّةِ[1]، فَقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿جُنُبًا﴾، أي: إنْ أصابتكم الجَنابةُ، والمُراد بالجنابة: إنزال المَنيِّ أو بالتقاء الختانَيْن، ونحو ذلك[2]، وسمِّيت بذلك؛ لكونها سببًا لتجنُّب الصَّلاة شرعًا[3]؛ إذ أنَّ أصل (جَنَبَ) مَعْنيانِ: النَّاحيَةُ، والبُعد[4]، وكَوْنُ الأَصْلِ أَحَدَ جانِبَي الشَّيْءِ أَقْرَبُ، والنَّاحيةُ مُتَفرِّعَةٌ عَلَيْهِ، والبُعْدُ مَأْخوذٌ مِنْ (أَجْنَبَ): تَرَكَ الجَنْبَ، فَتَكونُ الهَمْزَةُ لإزالَةِ القُرْبِ مِنَ الجَنْبِ، وسُمِّي الإنْسانُ: جُنُبًا؛ لِأَنَّهُ نُهيَ أَنْ يَقْرَب

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/284.
(2) الرَّاغِبُ، المُفْرَدات: (جنب).
(3) ابن سيده، المحكم: (جنب)، والكفوي، الكُلّياتُ، ص: 355، ومَحْمود عَبْد المُنْعِم، مُعْجَمُ المُصْطَلَحاتِ والأَلْفاظِ الفِقْهيَّة: 1/541.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).

مَواضِعَ الصَّلاةِ؛ ما لَمْ يَتَطَهَّرْ[1]، والمعنى هنا: أصابتكم الجنابة، وذلك بإنزال المنيِّ أو بالتقاء الختانَيْن.

2) ﴿عَابِرِى سَبِيلٍ﴾، أي: مارِّين في المساجدِ[2]، أو مُجتازين غيرَ مُقيمين ولا مُطمئنِّين[3]، أو المسافِرينَ[4]، وأَصلُ العُبورِ: النُّفوذُ والمُضيُّ في الشَّيْءِ[5]، والمعنى هنا: جائزو طريقٍ في المسجد غيرَ مُريدينَ الصَّلاةَ[6].

3) ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾: الحدَث، وأَصلُ الغائطِ: المطمئنُّ مِن الأرض[7]، وكانَ الرَّجُلُ، إذا أَرادَ التَّبَرُّزَ؛ ارْتادَ غائطًا من الأَرْضِ، يَغيبُ فيهِ عَن أَعْيُنِ النَّاسِ، ثمَّ قيلَ للبُرازِ نفسِهِ، وهوَ الحَدَثُ: غائطٌ كِنايَةً عَنهُ؛ إذا كانَ سَبَبًا لَهُ[8].

وأَصلُ الغَوطِ: اطمئنانٌ وغَوْرٌ[9]، ومعنى ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ هنا، أَيْ: مِنْ قَضاءِ الحاجَةِ[10].

3) ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾: كِنايَةٌ عَنِ الجِماعِ[11]، وقيلَ: اللَّمْسُ من غير جماع[12]، وأَصلُ اللَّمْسِ: تطلُّبُ شيءٍ ومَسيسُهُ أيضًا[13]، والمَعْنى هُنا: جامَعْتُمْ[14].

4) ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾: تعمَّدوا، واقصدوا، وتوخَّوا[15]، يُقال: تَيَمَّمته، وتأَمَّمْته تَيَمُّمًا، بِمَعْنى واحِد، أَي: توخَّيْته، وقَصَدْتُه، [16] وأَصلُ اليَمِّ: قَصْدُ الشَّيْءِ وتَعَمُّدُهُ[17]، ثمَّ كثر اسْتِعْمالُهم

(1) ابنُ الأثِيرِ، النِّهايَةُ في غَريبِ الحَديثِ والأَثَر: 1/302.
(2) الزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (عبر).
(3) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 127.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: 2/230.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبر).
(6) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: 3/23.
(7) الخليل، العين: (باب العين والذال والرّاء).
(8) الزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (غوط).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوط).
(10) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: 3/181.
(11) الخليل، العين: (باب العين والجيم والميم معهما).
(12) النَّيْسابوريُّ، إيجازُ البَيان: 1/241.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمس).
(14) الأزهري، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، تح: مسعد السعدني، ص: 36.
(15) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 127، والجَوْهَريُّ، الصِّحاح: 5/2064.
(16) الأزهري، تهذيب اللغة: (بابُ اللَّفيفِ من حَرْفِ الميم).
(17) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يَمَّ).

لِهَذِهِ الكَلِمَة حتَّى صار التَّيَمُّم اسْمًا عَلَمًا للطَّهارة التُّرابيَّة الَّتي تشتمل على مسح الوجه واليدين بنيَّة[1].

5) ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، أَيْ: تُرابًا نَظيفًا، والصَّعيدُ: التُّرابُ ووَجْهُ الأَرْضِ[2]، والطَّيِّبُ: خلاف الخبيث، [3] والطَّيِّبُ: الحَلالُ النَّافِعُ الَّذي تَسْتَطيبُهُ النَّفْسُ، والمعنى هنا: ترابٌ لا نجاسة به[4].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تُحَرَّمُ الصَّلاةُ حالَ السُّكرِ إلَّا بِزوالِهِ، وعِنْدَ الحَدَثِ إلَّا بَعْدَ الطَّهارَةِ المائيَّةِ أوِ التُّرابيَّةِ

يا أَيُّها الَّذينَ صَدَّقوا باللّه، واتَّبَعوا رَسولَهُ، لا تُصَلُّوا، وأَنْتُمْ في حالِ سُكْرٍ، حَتَّى تَصْحوا مِنْ سُكْرِكمْ، وتَفْقَهوا ما تَقولون، وكانَ هَذا قَبْلَ تَحْريمِ الْخَمْرِ مُطْلَقًا، ولا تُصَلّوا؛ إنْ أَصابَكُمُ الْحَدَثُ الْأَكْبَرُ، ولا تَدْخُلوا الْمَساجِدَ أَيْضًا إلَّا مُجْتازينَ دونَ اسْتِقْرارٍ فيها، حَتَّى تَتَطَهَّروا بِالاغْتِسالِ، وإنْ أَصابَكُمْ مَرَضٌ لا يُمْكِنُ اسْتِعْمالُ الْماءِ مَعَهُ، أَوْ كُنْتُمْ مُسافِرينَ، يَشُقُّ عَلَيْكُمْ وُجودُ الْماءِ، أَوْ أَحْدَثَ أَحَدُكُمْ، أَوْ جامعتم النِّساءَ، فلم تجدوا ماءً؛ فاقصدوا ترابًا طاهرًا، إنَّ اللّه كانَ كَثيرَ الْعَفْوِ، يَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِكُمْ، ويَسْتُرُها عَلَيْكُمْ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

في النِّداءِ تنبيهٌ عـلى صـفـةِ الإيمانِ، وعِنايَةٌ بـهـا بـوصـفـهِ امـتـثـالًا لـلأَمْرِ واجْتنابًا للنَّهي

بلاغةُ تَصْديرِ خِطابِ المُؤْمنينَ بالنِّداء:

في قَوْلِه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نِداءٌ لِلتَّنْبيه، ولا يُنَبَّهُ إلَّا عَلَى شَيْءٍ مهمٍّ، وإذا وجَّهَ الْخِطابَ لِلْمُؤْمنينَ؛ فهوَ للإغْراءِ والحَثِّ، كَأَنَّهُ يُناديهِمْ بِصِفَةِ إيمانِهِمْ الَّذي يَحْمِلُهُمْ عَلَى امْتِثالِ الْأَمْرِ واجْتِنابِ النَّهْيِ، وأَنَّ الالْتِزامَ بِهَذا مِنْ مُقْتَضَياتِ الْإيمانِ، فالكَلامُ خاصٌّ بِكُم

---

(1) مَحْمود عَبْد الْمُنْعِم، مُعْجَمُ الْمُصْطَلَحاتِ والْأَلْفاظِ الفِقْهيَّة: 1/500، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (أمم).

(2) ابنُ عُزَيْرٍ السِّجِسْتانِيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 298.

(3) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 127، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طَيَبَ)، وابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139.

(4) الرّاغِبُ، الْمُفْرَدات: (طيب).

(5) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، الْمُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ ص: 116، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ الْمُيَسَّرُ ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، الْمُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 85.

- يا أيُّها المؤمنون - فتَنَبَّهوا أن يَشوبَ دينَكُم شائِبَةٌ، وأَنَّ الْمُخالَفَةَ فيهِ مِمَّا يُنْقِصُ الإيمانَ[1].

فَصُدِّرَ الْكَلامُ بِحَرْفي النِّداءِ والتَّنْبيهِ؛ لِلْمُبالَغَةِ في حَمْلِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِموجِبِ النَّهْيِ[2]؛ ولِذا قالَ الصَّحابيُّ الْجَليلُ عَبْدُ اللّه بْنُ مَسْعودٍ ﵁: "إذا سَمِعْتَ اللّه يَقولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ فَأَرْعِها سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ"[3].

سرُّ النَّهي عن القرب دون الفعل:

النَّهْيُ عَنْ قُرْبانِ الصَّلاةِ حالَ السُّكْرِ للمُبالَغَةِ في النَّهْيِ عَنْ ذلِكَ، ولِلْإشارَةِ إلى ذَمِّ الخَمْرِ

في هَذا النَّهْيِ مَعْنَى التَّنْفيرِ، وفي اخْتيارِ الْفِعْلِ ﴿تَقْرَبُوا۟﴾؛ لِدُخولِ النَّهْيِ عَلَيْهِ دونَ "لا تُصَلُّوا"، ونَحْوُهُ؛ إشارَةٌ إلَى أَنَّ تِلْكَ حالَةٌ مُنافيَةٌ لِلصَّلاةِ، وصاحِبُها جَديرٌ بِالِابْتِعادِ عَنْ أَفْضَلِ عَمَلٍ في الْإِسْلامِ، وهوَ عَلَى هَذِهِ الْحالِ، بَلْ هوَ مُطالَبٌ بالابْتِعادِ حَتَّى مِنْ مَواضِعِها مِنَ الْمَساجِدِ والْمُصَلَّياتِ[4]، فَبالَغَ في النَّهْيِ عَنْ أَنْ يُصَلِّيَ الْمُؤْمِنُ - وهوَ سَكْرانُ - بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾؛ لِأَنَّ النَّهيَ عن قربانِ الصَّلاةِ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ: لا تُصَلُّوا، وأَنْتُمْ سُكارَى، ومِنْ أَمْثالِ هَذا الْأُسْلوبِ في الْقُرْآنِ الْكَريمِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: 32]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأنعام: 151]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: 151]، فَتَوْجيهُ النَّهْيِ إلَى قُرْبانِ الصَّلاةِ مَعَ أَنَّ الْمُرادَ هوَ النَّهْيُ عَنْ إقامَتِها؛ لِلْمُبالَغَةِ في النَّهْيِ[5].

(1) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 3/410.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/699.

(3) أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، الزُّهْدُ، تح: مُحَمَّد شاهين، ص: 130، وجَوَّدَ أَحْمد شاكر إسْنادَهُ. ينظر: أحمد محمَّد شاكر، عُمْدَةُ التَّفْسيرِ عَنِ الحافِظِ ابْنِ كَثير: 1/619، وأَوْرَدَهُ ابْنُ كَثير في تَفْسيرِهِ مَأْثورًا عَنِ ابْنِ مَسْعودٍ وغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ ينظر: ابْنُ كَثيرٍ، تَفْسيرُ القُرْآنِ العَظيم: 1/200.

(4) عَلى قَوْلِ مَنْ قالَ مِنْ أَهْلِ التَّفْسيرِ: إنَّ الصَّلاةَ هُنا يُرادُ بِها المَسْجِدُ، أَبو الحَسَنِ الواحِديُّ، الوَجيزُ في تَفْسيرِ الكِتابِ العَزيزِ، تح: صَفْوان داوودي، ص: 265، والشَّوكانيُّ، فَتْحُ القَديرِ: 1/541.

(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/699، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/648، وإسْماعيل حَقّي الإسْتانْبولي، روحُ البَيان: 2/212.

فائدة التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

أكَّدَ تعالى النَّهْيَ عن القربان بمَجيء الْجُمْلَةِ الاسْميَّة الْحاليَّة: ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، المصدَّرة بضمير الخطاب (أنتم) الَّتي أكَّدت التَّحْذيرَ من عدَم الْقُرْب، والنَّهْيَ عَنْ تلْك الْحالِ الْمُنافيَة؛ لِتَمام الْعَقْل والمَشاعِر؛ لِأَنَّ السُّكْرَ عِلَّةٌ تَلْحَقُ الْعَقْلَ[1]، وصاحِبُها جَديرٌ بِالابْتِعاد عَنْ أفْضَلِ الْأَعْمالِ، ومِنْ هُنا كانَتْ مُؤْذِنَةً بتَغْيير شَأْنِ الْخَمْرِ والتَّنْفير مِنْها؛ لِأَنَّ الْمُخاطَبينَ يَوْمَئِذٍ هُمْ أَكْمَلُ النَّاسِ إيمانًا، وأَعْقَلُهُمْ بالصَّلاةِ، فَلا يَرْمُقونَ شَيْئًا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الصَّلاةِ إلَّا بِعَيْنِ الْاحْتِقارِ[2].

النَّـــهـــي عن المـــلـــذَّات من الموبقات يتطلَّب مزيدَ المؤكِّدات

براعة التَّدرُّج في النَّهي:

وفي هذا النَّهي تَدْريبٌ عَلَى تَرْكِها، ولِهَذا أَتْبَعها بِقَوْلِه: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾؛ إشارَةً لِذَمِّ الْخَمْرِ والتَّنْفير مِنْها، وتَدْريجًا في تهيئَة النُّفوس لِتَرْكِها، فَحالُ الثَّمِلِ كَحالِ الْمَجْنون، فَلَمْ يَشَأِ الرَّبُّ الرَّحيمُ التَّشْديدَ عَلَى الْمُؤْمنينَ في أَوَّلِ أَمْرِ تَحْريم الْخَمْرِ - كَما هوَ مَعْلومٌ - وذَلِك لِعَدَمِ الاسْتِطاعَة، بَلْ جَعَلَ ذَلِك بِالتَّدْريج، وذَلِك بِالتَّمْرين عَلَى تَرْكِها في أَوْقاتِ الصَّلَوات، وهوَ تَعْريضٌ بِالنَّهْي عَن السُّكْرِ بِالْكُلِّيَّة؛ لِكَوْنِهِمْ مَأْمورينَ بِالصَّلاةِ في الْأَوْقات الْخَمْسَةِ مِنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ[3]، وهَذِه دَرَجَةٌ مِنْ تِلْكَ الدَّرَجات، أَتَى النَّهْيُ فيها عَلَى جِهَةِ الْوَعْظِ والإرْشاد بِتَعْليل سَبَبِ النَّهْي، وإنَّما نَفَّرَهُمُ اللهُ مِنْ هَذا الْوَضْع تَهْيِئَةً لَهُمْ لِاجْتِنابِها وتَرْكِها عِنْدَ تَحْريمِها.

من رحمة الله تـعـالى بعباده التَّدرُّج في النَّهي دفعًا للتَّشديد

نكتة إيثار لفظ القول على الكلام والفعل:

قوله: حتى تعلموا ما تقولون غاية للنَّهي وإيماء إلى علَّته، وخصَّصَ (القولَ) في: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ دون الكلام، ولم

---

(1) الزّمَخْشري، الكشاف: 2/81، وابن عطية، الُمحَرَّرُ الوَجيز: 2/57.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/61.

(3) ابْنُ كَثيرٍ، تَفْسيرُ الْقُرْآنِ العَظيم: 2/310.

إيثار اللَّفظ الدَّالِّ على العموم؛ لأنَّ المغيَّب بالسُّكر يتلفَّظُ بما يُفهم، وما لايُفهم

يَقُلْ: (حتى تعلموا ما تتكلَّمون)؛ وذلك لعموم القول؛ إذ يُطلق على اللَّفظ المركَّب، والمفرد، فيتناول المفردات كلَّها[1]، فيندرج تحته كلُّ لفظٍ مفهوم، وغير مفهوم، وهو يناسب حالة السَّكران، وهذيانه بما يعلم من الكلام وما لا يعلم، "واكتفى بقوله: ﴿تَقُولُونَ﴾ عن (تفعلون)؛ لظهور أنَّ ذلك الحدَّ من السُّكر قد يفضي إلى اختلال أعمال الصَّلاة؛ إذ العمل يسرع إليه الاختلال باختلال العقل قبل اختلال القول[2].

دَلالَةُ تقديم المُستثنى قبل تمام الكلام:

في تقديم المُستثنى بَيانٌ للرُّخصةِ عِنْدَ الحاجَةِ مَعَ وُجودِ المانِع

الاسْتِثْناءُ في قَوْلِه: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ اسْتِثْناءٌ مِنْ عُمومِ الْأَحْوالِ الْمُسْتَفادِ مِنْ وُقوعِ ﴿جُنُبًا﴾، وهوَ حالٌ نَكِرَةٌ في سياقِ النَّفْيِ، و﴿عَابِرِى﴾: مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَبْرِ: وهوَ القَطْعُ والِاجْتيازُ، و﴿عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ مارِّينَ في طَريقٍ، والْمُرادُ مِنْهُ: طَريقُ الْمَسْجِدِ، فَيَكونُ في الْآيَةِ رُخْصَةٌ في مُرورِ الْجُنُبِ في الْمَسْجِدِ؛ إذا كانَ قَصْدُهُ الْمُرورَ لا الْمُكْث، وفيهِ مُراعاةٌ لِحاجَةِ النَّاسِ ودَفْعٌ لِلْحَرَجِ عَنْهُمْ، فَفي تَقْديمِ الْمُسْتَثْنى ﴿عَابِرِى﴾ قَبْلَ تَمامِ الْكَلامِ الْمَقْصودِ قَصْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، والغَرَضُ مِنْهُ: الِاهْتِمامُ بِهِ[3].

في الصِّفة إباحة قربان الصَّلاة للجُنب عند طرآن السَّفر

ويجوز في ﴿جُنُبًا﴾ أن يكون صفة، وتكون (إلَّا) بمعنى: (غير)، والفرق بين أن يكون حالًا وأن يكون صفة: هو أنَّه - على الحال - يفيد أنَّه لا يجوز قربان الصَّلاة في حال الجنابة قطُّ؛ إلَّا أن يكون مسافرًا؛ فدلَّ الحصر على أنَّ العذر غير متعدِّد، ثُمَّ مجيء قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يبطل معنى: الحصر، بخلافه إذا جعل صفة، فيكون المعنى: لا تقربوا الصَّلاة جنبًا مقيمين، فيحسن: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؛ لجواز ترادف القيد... فدلَّ مفهوم

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/28.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/61.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/665، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/65.

الوصف على جواز قربان الصَّلاة للجنب عند طرآن السَّفر... والمعنى: لا تقربوا الصَّلاة مع هذا القيد حتى تغتسلوا، إلا أن تكونوا مسافرين، فإنَّ الحكم حينئذٍ غير ما ذكر، وهو جواز قربان الصَّلاة مع كونه جنبًا فاقدًا للماء"[1].

سرُّ العدول من الجمع إلى الإفراد:

العُـدولُ إلى الإفْـرادِ بَـعْـدَ مُـخـاطَـبَـةِ الجَمْعِ؛ للإشارَةِ إلى الـتَّـسَـتُّـرِ الـفِـطْـرِيِّ لـدى قَضاءِ الحاجَةِ

الآيَة تَحمِلُ نِداءً لِجَماعَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنينَ، وتُخاطِبُهُمْ بِصيغَةِ الْجَمْعِ في كافَّةِ التَّفاصيلِ الَّتي حَمَلَتْها عَدا نُقْطَةً واحِدَةً في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾، إِسْنادُ الْمَجيءِ مِنْهُ إلَى واحِدٍ مِنَ الْمُخاطَبينَ دونَ الجَميعِ، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: (أَوْ جِئْتُمْ) ونَحْوُهُ؛ لِلتَّفادي عَنِ التَّصْريحِ بِنِسْبَتِهِمْ إلَى ما يُسْتَحيا مِنْهُ، أَوْ يُسْتَهْجَنُ التَّصْريحُ بِهِ[2]، فالسِّياقُ الْقُرْآنيُّ لا تَفوتُهُ كَبيرَةٌ ولا صَغيرَةٌ في مُطابَقَةِ الْواقِعِ، والواقِعُ الْمَلْموسُ لِلْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ يُؤَكِّدُ الْحاجَةَ إلَى الانْفِرادِ في هَذا الْمَوْطِنِ، ولِذا سَمَّتْهُ العَرَبُ: بَيْتَ الْخَلاءِ.

في الالـتـفـات تـرسيـخ لمعنى عـدم نسبة ما يستحيا منه، ويُستقْذر إليهم

وَمِمَّا زادَ هَذا الْمَعْنَى وُضوحًا: ذَلِكَ الالْتِفاتُ اللَّطيفُ مِنَ الْخِطابِ إلَى الْغَيْبَةِ، فالخِطابُ في: ﴿كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، أَوْ ﴿لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، والغَيْبَةُ في: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ﴾؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَنَّى عَنِ الْحاجَةِ بِالغائِطِ؛ كَرِهَ إِسْنادَ ذَلِكَ إلَى الْمُخاطَبينَ، فَنَزَعَ بِهِ إلَى لَفْظِ الْغائِبِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ﴾، ولَمَّا كانَ الْمَرَضُ والسَّفَرُ ولَمْسُ النِّساءِ لا يُفْحِشُ الْخِطابُ بِها؛ جاءَتْ عَلَى سَبيلِ الْخِطابِ[3].

نكتة العُدولِ عَنِ التَّصريحِ إلى الكِنايَةِ:

جاءَتِ الكِنايَةُ في قولِه: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ عَنِ البَوْلِ ونَحوِهِ، مِمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ بالغائِطِ في قوله: ﴿مِّنَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 5/8.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/699، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/60.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/654.

﴿ٱلْغَآئِطِ﴾؛ إذ أَصْلُ الغائِطِ: المَكانُ المُطْمَئِنُّ المُنْخَفِضُ مِنَ الأَرْضِ، فَفيهِ تَسْمِيةُ الشَّيءِ بِاسْمِ مَكانِه، وكان الرَّجلُ، إذا أَرادَ قَضاءَ الحاجة؛ طَلَبَ غائِطًا مِنَ الأَرْضِ يحجُبُه عَنْ أعيُنِ النَّاس، ثمَّ سُمِّي الحَدَثُ نفسُه بهذا الاسم[1]، فَفيهِ التَّجوُّزُ بِإطْلاقِ المَحَلِّ على الحالِّ فيه[2]، وفي هَذا إرْشادٌ لِلنَّاسِ بِأَنْ يُراعوا حُسْنَ التَّعْبيرِ وأَدَبَ الْخِطاب.

في الكناية إرْشادٌ إلى أَدَبِ الكَلامِ ومُراعاةُ الحَياءِ في الخِطابِ

توجيه الكناية في صيغة الملامسة:

آثَرَ الكنايةَ في قَوْلِهِ بَعْدَها: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: عَلَى التَّصْريحِ بِالجِماعِ[3]؛ لعلَّة مراعاة أدب الخطاب؛ فـ"عن ابن عباس أنَّه قال: إنَّ اللّه حييٌّ كريم يعفُّ، ويكنِّي، فعبَّر عن المباشرة بالملامسة"[4]، أو أنَّ المراد باللَّمس هاهنا: التقاء البشرتين، سواء كان بجماع أو غيره[5]، على سبيل المشاركة في فعل اللَّمس المُعبَّر عنها بصيغة المفاعلة.

إن الله حييٌّ كريم يعفُّ عن الذِّكر في مواطن الاستحياء، ويكنِّي

علَّة الجمع بحرف العطف بين أسبابٍ مختلفة:

المذكورات الأربعة: (السَّفر والمرض، والمجيء من الغائط، وملامسة النِّساء) أسبابٌ لأشياء مختلفة، وجمعها بحرف النَّسق مع أنَّ الجهة الجامعة مفقودة؛ لأنَّ المسبِّبات، وإن اختلفت، لكن جمعها حكمٌ واحد، وهو الرُّخصة في التَّيمُّم؛ لأنّ الخطاب بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لجميع الأمَّة الَّذين وجب عليهم التَّطهُّر، وأعوزهم الماء لأعذار جمَّةٍ من المرض، والسَّفر، والخوف من العدوِّ والسَّبُع، والحبس، وغير ذلك ممَّا يدخل تحت هذا المعنى[6].

جامع المسبِّبات واحدٌ هو الرُّخصة في التَّيمُّم لمن أعذر

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/85، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/653.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/665.
(3) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيلِ: 2/76، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/665، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/703.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/89.
(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/89.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 5/11.

سرُّ تقديم السَّفر والمرض:

أشيع مسبّبات العذر وقوعًا عند البشر السَّفرُ، والمرضُ

أقدم المسبِّبات في استحقاق الرُّخصة وأغلبها وقوعًا: السَّفر والمرض؛ لشدَّة الحاجة إلى الماء سفرًا، أو تجنُّبها مرضًا، ولذلك خصَّهما بالذِّكر أوَّلًا بقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ثم عطف عليهما ما هو مظنَّة الإقامة وتوافر الماء: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ على إرادة أنَّهما مشتملان على سائر ما يدخل تحت العذر على طريقة قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87] عطف القرآن - وهو مجموع التَّنزيل - على قوله: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾: وهو الفاتحة؛ ليؤذن بتقدُّمها على مزيد شرفها[1].

نكتة إدخال الباء على (الوجوه):

من لطف الله على عباده أنَّه لايجمع عليه التَّشديد في مواضع الرُّخَصِ

ولَمَّا كان التَّراب لكثافته لا يتمكَّن من جميع العضو، ولا يصل إلى ما يصل إليه الماء بلطافته، وإن اجتهد الإنسان في ذلك؛ أدخلَ الباء في قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمۡ﴾ قصرًا للفعل، وإشارة إلى الاكتفاء بمرَّة والعفو عن المبالغة، أي: أوقعوا المسح بها، سواء عمَّ التراب منبت الشَّعر أم لا[2].

توجيه فاصلة الآية الكريمة:

ختم الآية بالتَّذييل، والكناية لِلتَّقرير والتَّعليل والتَّيسير والتَّسهيل

ففي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ تَذْييلٌ؛ لِتَقْرِيرِ حُكْمِ الرُّخْصَةِ؛ إِذْ عَفا اللَّه عَنِ الْمُسْلِمينَ، فَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ الغُسْلَ أَوِ الْوُضوءَ عِنْدَ الْمَرَضِ، ولا تَرَقُّبَ وُجودِ الماءِ عِنْدَ عَدَمِهِ، حَتَّى تَكْثُرَ عَلَيْهِمُ الصَّلَواتُ، فَيَعْسُرَ عَلَيْهِمِ القَضاءُ[3].

فإنَّ مَنْ عادَتِهِ - ﷻ - الْمُسْتَمِرَّةِ أَنْ يَعْفوَ عن الخاطئينَ، ويَغْفرَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 5/12.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/287، و6/36.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/71.

للمُذنبينَ، لا بُدَّ أن يكونَ مُيسِّرًا لا مُعسِّرًا، وقيلَ: هوَ كِنايَةٌ عَنِ التَّرْخيصِ والتَّيْسيرِ؛ فإنَّ التَّرفيهَ والمُسامحةَ مِن رَوادِفِ العَفْوِ وتَوابعِ الغُفرانِ[1]، فإنَّ "من كان من عادته أنَّه يعفو عن المذنبين، فبأن يرخِّص للعاجزين كان أولى"[2].

سرُّ اقتران وصفي العفو والغفران في الفاصلة:

"في تخصيص الوصفين إدماجٌ لشدَّة إيجاب الطَّهارة في الصَّلاة، وأنَّ أصل الأمر ألَّا يؤتى بها إلَّا بالطَّهارة الكاملة؛ لأنَّها مثولٌ بين يدي جبَّار السَّماوات والأرض، وأن التَّرخيص بالطَّهارة بالتُّراب بابٌ من العفو والغفران، وإذا كان حال الطَّهارة الظَّاهرة إلى هذه المثابة، فما بال الطَّهارة الباطنة؟!"[3].

المثول بين يدي الله تعالى يستحقُّ كمال الطَّهارة ظاهرًا وباطنًا

بلاغة التَّوكيد في جملة الفاصلة:

أكَّد سبحانه وصفي: (العفو، والغفران) بثلاثة أمور: أوَّلها: ﴿إِنَّ﴾ فهي من أقوى ألفاظ التَّوكيد، وثانيها: ﴿كَانَ﴾ الدَّالَّة على وقوع عفوه، ومغفرته سبحانه، وتحقُّقهما واستمرارهما، وثالثها: (الجملة الاسميَّة)، فلها فضل توكيد في المعنى الَّذي اشتملت عليه ثبوتًا، ودوامًا[4].

صفات الله راسخة متحقِّقة الوقوع ترغيبًا وحثًّا على طاعته

سرُّ التَّشديد في مقدِّمات الصَّلاة:

و"في مثل هذا التَّشديد في مقدِّمات الصَّلاة إيذانٌ بعلوِّ منزلتها ورفعة مرتبتها، وكيف لا وهي أعظم العبادات الَّتي ما خلقت الكائنات إلَّا لها؟"[5]، وهي عمود الدِّين، ومقياس صلاح الأعمال، وأوَّل ما يُحاسَبُ عليه يوم العرض عليه.

الصَّلاة عمود الدِّين، والتَّشديد في مقدِّماتها إيذانٌ بمكانتها في الشَّريعة منزلةً ورفعةً

---

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/85، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/91، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/657، وابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/71.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/91.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 5/11.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1697.

(5) الطيبي، فتوح الغيب: 5/11.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(لَمَسَ) و(مَسَّ) و(لامَسَ):

اللَّمس: إدْراكٌ بظاهِرِ الْبَشَرَةِ كالمَسِّ، ويُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الطَّلَبِ، والمَسُّ: يَكونُ باليَدِ وبغَيْرِها(1)، فالمَسُّ: يُكَنَّى بِهِ عَنِ الْجِماعِ ومُقَدَّماتِهِ، وعَلَى هَذا حُمِلَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، كَما يُكَنَّى بِهِ عَنِ الْجُنونِ وعَنْ كُلِّ ما يَنالُ الْإِنْسانَ مِنَ الْأَذَى، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: 275]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ [البقرة: 80]، وقوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214].

اللَّمْسُ: شُعورٌ حِسِّيٌّ بِواسِطَةِ اليَدِ، والمُلامَسَةُ: فِعْلٌ مُتَبادَلٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، والمَسُّ: أَعَمُّ

فاللَّمْسُ: الشُّعورُ الْحِسِّيُّ بواسِطَةِ الْيَدِ، فَهوَ أَخَصُّ مِنَ الْمَسِّ قالَ تَعالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧﴾ [الأنعام: 7].

وَأَمَّا لامَسَ؛ فَتَعْني: فِعْلًا مُتَبادَلًا بَيْنَ طَرَفَيْنِ، مِثْلَ: قاتَلِ ولاعِبِ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النِّساء: 43]، فالْمُلامَسَةُ في النَّصِّ، تَعْني: تَبادُلَ اللَّمْسِ مَعَ الْمَرْأَةِ بِشَهْوَةٍ دونَ حائِلٍ سَواءٌ أَنْزَلَ أَم لَمْ يُنْزِلْ(2)، وبه تتبيَّن نكتة إيثارِهِ في الآية الكريمة بصيغة ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ الدَّالَّة على خصوصه بوصفه شعورًا حسِّيًّا، وفعلًا متبادلًا يتشارك فيه الزوجان.

(1) الراغب، المفردات: (لمس).
(2) الحِمْيَرِيُّ، شَمْسُ العُلومِ: 9/6112، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 4/2002.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْــرُ تحريف القلب واللِّسان بالتَّدليس، بعد ذِكْـرِ تحريف اللِّسان بالسُّكْرِ

لَمَّا نهى اللّه ﷻ المؤمنين عن قُربان الصَّلاة، وهم سكارى؛ وكان حال السَّكران داخل في من حرَّف في الصَّلاة بلسانه فقط، لا عن عَمْدِ الكلم عن واضعه؛ أتبعها التَّصريح بالتَّعجيب من حال المُحَرِّفين بالقلب واللِّسان عمدًا وعدوانًا اجتراءً على اللّه ﷻ، مُلَوِّحًا إليهم بأنَّهم يُريدون لنا الضَّلال عمَّا هُدينا إليه من سُنَنِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصِيبًا﴾، أي: حظًّا، والنَّصيب: الحظُّ المنصوب، أي: المُعَيَّنُ، من نَصَبَ الشَّيء، أي: وَضَعَهُ وَضْعًا نَاتئًا كنَصْبِ الرُّمح والبِناء والحَجَرِ، وجمعه: أَنْصِباءُ، وأصل (نَصَبَ): يَدُلُّ عَلَى إِقَامَةِ شَيْءٍ وَإِهْدَافٍ في اسْتِوَاءٍ، وَالنَّصِيبُ: الْحَظُّ مِنَ الشَّيْءِ، يُقَالُ: هَذَا نَصِيبِي، أَيْ: حَظِّي، وَهُوَ مِنْ هَذَا، كَأَنَّهُ الشَّيْءُ الَّذِي رُفِعَ لَكَ وَأَهْدَفَ، والمعنى هنا: الذين أُعطوا حَظًّا من كتاب اللّه[2].

2) ﴿ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾: الضَّلال: ضِدُّ الهدَى، يُقَال: ضَلَّ في الأمر إذا لم يَهْتَدِ لَهُ، ورَجُلٌ مُضَلَّل: لا يُوفَّقُ لِخيرٍ، ويوصَفُ الإنسانُ بالضَّلال، فيُقال: هو ضالٌّ، وأصل الضَّلال: ضَياعُ الشَّيْءِ وَذَهابُهُ في غَيْرِ حَقِّهِ، والضَّالُّ ضَرْبَانِ: أحدُهما: مَن سلك طريق الضَّلالة عَنْ عَمْدٍ،

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/289.

(2) الجَوْهَريُّ، الصِّحاحُ، والرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب)، والحِمْيَرِيُّ، شَمْسُ العُلوم: (باب النُّون والصَّاد، النَّصيب)، والكفوي، الكليّات، ص: 906، وابن جرير، جامع البيان: 8/427.

والآخر: مَن سَلك طريق الضَّلالة عَنْ غير عَمْدٍ، يَسْتَبْدِلُونَ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى[1]، والمعنى هنا: الضَّلال ضدُّ الهدى.

3) ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: السَّبيل: الطَّريق، وجَمْعُهُ سُبُل، وأصل سَبَلَ: يدلُّ عَلَى امْتِدَادِ شَيْءٍ، والسَّابلةُ: المختلفةُ في الطُّرُقات للحوائج، والمعنى هنا: سَبِيلُ اللهِ، وهو طريقُ الهدى ومحجَّة الحقِّ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التَّعجيب من حال اليهود في استبدالهم الضَّلالة بالهدى وتَمَنِّيهم إضلال غيرهم

ألم تَعْلَمْ - أيُّها الرَّسُول ﷺ - وتَتَعَجَّبْ من حال اليهود الَّذين آتاهُمُ اللّه حَظًّا من عِلْمِ التَّوراة، يستبدلون الضَّلال بالهدى، ويَتَمَنَّوْنَ لكم - أيُّها المؤمنون المهتدون - أن تَنْحرفوا، وتبعدوا مثلهم عن الحقِّ، وهو صراط اللّه المستقيم[3].

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الاستفهام على العِلْمِ بالرُّؤية في مقام الخطاب:

تقرير الرُّؤية في ذهن المخاطب بجعلها في منزلة الشَّيء المُشاهَد مع توبيخ اليهود وفعلهم

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، دخل حرف الاستفهام على النَّفي (لم) وهو استفهامٌ مسُوقٌ لتعجيب[4] المؤمنين من سوء حالهم الَّتي بلغت درجة كبيرة من الشَّناعة[5].

وهذا التَّعجيب مع ما يُوحي به من التَّوبيخ، والاستقباح ناشئ عن تقرير الرُّؤية الواقعة في حيِّز الاستفهام، فدَلالة هذا الاستفهام أصلًا هي التَّقرير بالنِّسبة إلى المخاطب ﷺ ومن يَصِحُّ خطابه، أمَّا التَّوبيخ وما أشبهه؛ فهذا بالنَّظر إلى المُتحدَّث عَنهم، وهم اليهود[6].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس: مقاييس اللُّغة: (ضَلَّ)، وابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل)، والهرويّ، الغَرِيبَيْن في القرآن والحديث: 4/1137، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/91.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبل - سنبل)، وابن جرير، جامع البيان: 8/429.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسِيرِ القُرآنِ الكَرِيمِ، ص: 116، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسِيرِ، التَّفْسِيرُ المُيَسَّرُ، ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسِيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، ص: 85.

(4) التَّعجيب حمل المُخاطب على التَّعجب، وإيقاعه في التَّعجُّب منه.

(5) أبو السُّعود: إرشاد العقل السَّليم: 2/181.

(6) تفسير أبي السُّعود: 2/194.

في الاستفهام بالرُّؤية وجه استعارةٍ عن العِلْم اليقينيّ:

ذكرَ الرَّازيُّ أنَّ العلمَ اليقينيَّ يشبه الرُّؤية، فيجوز جعل الاستفهام عن الرُّؤية في الآية استعارةً عن مثل هذا العلم، والمعنى: ألم ينتهِ علمك إلى هؤلاء؟[1]

بلاغة تعدية الفعل (رأى) بـ ﴿إِلَى﴾:

استعمال (إلى) يتناسب مع عمق الرُّؤية التَّعجُّبيَّة تشهيرًا بالمُتَعَجَّبِ من حالهم

معنى الآية: ألم تر بقلبك - يا محمَّد - عِلْمًا[2]، و(رأى) هنا عِلْمِيَّةٌ وضُمِّنت معنى ما يتعدَّى بـ (إلى)، فلذلك لم يتعدَّ الحرف إلى مفعولين، وكأنَّه قيل: ألم ينته علمك إلى كذا؟ وتكون الإجابة بالإثبات في هذا المقام، أي: بلى رَأَيْتُ، والخطاب لكلِّ من يتأتَّى منه الرُّؤية من المؤمنين[3]، و(رأى) يتعدَّى بنفسه دون الجارِّ، لكن لمَّا استعير قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لمعنى: أَلَمْ تَنْظُر؛ عُدِّي تعديته، وقلَّما يُستعمل ذلك في غير التَّقرير، فَضِمَنَ العامل معنى: يُناسب التَّعدِّي بـ (إلى)، وقد تكرَّر هذا الأسلوب في سورة النِّساء في خمسة مواضع، واستعمال ﴿إِلَى﴾ هُنا يتناسب معنويًّا مع عمق الرُّؤية التَّعجُّبيَّة حتَّى تَصِلَ بالمخاطَب إلى أقصى الغايات، وهو من باب التَّشهير بهؤلاء المُتَعَجَّبِ من حالهم، فَجُعِلوا عبرةً لكلِّ مُتَّعظٍ وذلك؛ لأنَّ (رأيت) إذا عُدِّيَ بـ (إلى) أفاد معنى: النَّظَرِ المؤدِّي إلى الاعتبار[4]، فتعدَّت تعديتها للإشارة إلى أنَّ هذا الأمر قد بلغ من الوضوح والظُّهور والتَّحقُّق مَبْلَغَ الشَّيء المحسوس المُشاهد الَّذي تُبصرُه العينان، ولا يُمكن إنكارُه[5].

سِرُّ الإطناب بوصف علماء اليهود:

تأكيد التَّعجيب من حال من أوتي الكتاب، ولم يهتدِ به

جاء الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصِلَتُهُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على هذا التَّركيب الطَّويل في وصف علماء اليهود تأكيدًا

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/91.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/427.
(3) أبو السُّعود: إرشاد العقل السَّليم: 2/181، والآلوسي: روح المعاني: 3/44.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/560، وخديجة بناني، سورة النِّساء دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 1/186.
(5) محمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/475.

للتَّعجُّبِ مِنْ حَالِهم؛ إذ كان ينبغِي لَن أوتِيَ نَصيبًا من الكتاب؛ ألَّا يفعل ما ذُكِرَ، مع ما بيَّن لهم في ذلك الكتاب من الأحكام والعلوم الَّتي من جملتها ما علموه من نعت النَّبيِّ ﷺ[1].

علَّةُ تقييد الصِّلة بالنَّكرة:

في تقييدِ الصِّلة بالنَّكرة (نصيبًا) تهوينٌ لشأنِ علمائهم

في تقييد الصِّلَة بإيتاء (نصيب من الكتاب)، وهو هنا - التَّوْرَاة - لاخْتِصَاصه بعُلمائهم[2]، وجاءت لفظة ﴿نَصِيبًا﴾ مُنكَّرة لإفادة النَّوعيَّة، لا للتَّعظيم؛ لأنَّ المقام مقامُ تهاون بِهِمْ[3]؛ " لأنَّهم لم يأخذوا الكتاب كلَّه، بل تركوا كثيرًا من أحكامه، لم يعملوا بها، وزادوا عليها، والزِّيادة فيه كالنَّقص منه"[4].

دلالةُ الفَصْل بعد الوصف بإيتاء الكتاب:

في الاستئناف تنبيهٌ على شناعة فعْلِهم وقُبْحِهِ، وفقدانهم بوصلة اتِّباع الحقِّ

لَمَّا ابتدأت هذه الآية بالاستفهام التَّقريريِّ الَّذي يُقصد به التَّعجُّب من شأن أهل الكتاب، فكأنَّه قيل: ما شأن هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب؟ وماذا يفعلون؟ فقال: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، فهو استئناف مُبَيِّنٌ لمناط التَّشنيع ومدار التَّعجيب المفهومين من صدر الكلام[5]، ويكون الغرضُ البلاغيُّ لهذا الفصل التَّنبيهَ على شناعة فعلهم؛ إذ المَرْجُوُّ ممَّن أوتي نصيبًا من الكتاب أن يهتدي به، وأن يبحث عن الحقِّ، ويَتِّبِعَهُ، لا أن يَطلب الضَّلالة، ويدعو إليها.

فائدة حذف شِبْه الجُملة:

حصر الاهتمام في شراء الضَّلالة كونها وسيلتهم في إضلال غيرهم

المُشترى به في قوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، محذوفٌ، أي: بالهدى، كما صرّح به في مواضع[6]، مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦﴾

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/44.
(2) القونويُّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/186.
(3) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/209.
(4) رضا، تفسير المنار: 5/112.
(5) أبو السُّعود: إرشاد العقل السَّليم: 2/181، والآلوسي: روح المعاني: 3/44.
(6) السَّمين الحَلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 3/693.

[البقرة: 16]، ولعَلَّ عِلَّةَ الحذف في الآية - موضع الدِّراسة - هو حصر الاهتمام في شراء الضَّلالة؛ لأنَّها وسيلتُهم النَّاجعةُ في محاولة إضلال غيرهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ تنبيهًا للمُخاطَبين على سُوء نِيَّات عدُوِّهم ووسائله الخبيثة(1).

مــن يـعـتـادُ الباطلَ سلوكًا؛ يصبح الضَّلال مطلبه، ومبتغاه

في ذكر المطلوب: وهو الضَّلالة من غير ذكر المتروك: وهو الهدى، أو ذكر المبيع من غير ذكر الثَّمن، ما يدلُّ على أنَّهم يطلبون الضَّلالة في ذاتها، فالبعد عن الحقِّ مطلبٌ لهم وغاية؛ لأنَّهم مَرَدُوا على الباطل لا يستمرئون غيره، ولا يبتغون سواه"(2).

سرُّ استعارة لفظ الاشتراء:

تصويرُ سخافة عقولهم وسوء اختيارهم في صورة السَّاعي لطلب السلعة الرَّديئة؛ مبالغة في ذمِّهم

قولُه: ﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، أي: يستبدلونها بالهُدى، والضَّلالة هي البقاء على اليهوديَّة بعد وضوح الآيات لهم على صحَّة نبوَّة رسول الله - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم(3) - وإنَّه هو النَّبيُّ العربيُّ المُبَشَّرُ به في التَّوراة والإنجيل، فشبَّه فعلهم هذا بالاشتراء على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، بجامع الرَّغبة؛ مُبالغةً في وضوح إصرارِهم على الضَّلالة، وتَعَمُّدِهم اختيارها، مع علمهم التَّامِّ بنقيضها، وفيه من التَّسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغاية ركاكة آرائهم ما لا يخفى حيث صوَّرت حالهم بصورة ما لا يكاد يتعاطاه أحدٌ ممَّن له أدنى تمييز، والاشتراء مجازٌ في الاختيار والسَّعي لتحصيل الشَّيء؛ لأنَّ المشتري هو آخذ الشَّيءِ المرغوب فيه من المُتَبَايِعَيْن(4).

دلالة الوصل بين الجُمْلتَيْن:

رَبَطَ أسلوب القرآن الرَّائع بين قوله تعالى: ﴿يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾،

(1) خديجة بناني، سورة النِّساء دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 21/243.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1699.
(3) الزّمَخْشري، الكشَّاف: 1/515.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/182، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 5/72.

التَّشنيع على اليهود والتَّعجُّب من حالهم في جمعهم الضَّلال، والإضلال

وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ بواو العطف، والمعطوف شريكٌ للمعطوف عليه فيما سبق له، في بيان محلِّ التشنيعِ والتَّعجُّبِ، والمعنى: أنَّهم لا يكتفون بضلال أنفسهم، بل يريدون بما فعلوا من تكذيب النَّبيِّ ﷺ وكتم نعوته النَّاطقة بها التَّوراة أن تكونوا - أنتم أيضًا - ضالِّين الطَّريق المستقيم الموصل إلى الحقِّ، ففي هذا الوصل تنبيهٌ لاتِّصافهم بالجمع بين الضَّلال والإضلال، ولا أسوأ ولا أقبح مِمَّن جَمَعَ بينهما[1].

سِرُّ التَّعبير عن أفعال اليهود بالمضارع ضلالًا وإضلالًا:

استمرار اليهود على الضَّلال والإضلال تشنيعٌ عليهم

صيغةُ المضارعِ في ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، و﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾، للدِّلالة على الاستمرار التَّجدُّديِّ، فإنَّ تَجَدُّدَ حُكمِ اشترائِهم المذكورِ وتَكَرُّرَ العملِ بموجبه في قوَّة تجدُّدِ نفسِه وتكرُّرِه، وفي ذلك أيضًا من التَّشنيع ما لا يَخْفى[2]، ورسَّخ شدَّة طلبهم للإضلال بالعدول من المصدر الصَّريح إلى المصدر المؤوَّل: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾.

دلالة (ال) التَّعريف في ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾:

صراط العزيز الحميد معروفٌ، ولا يوصلُ إلى الحقِّ سبيلٌ غيره

(الـ) في لفظ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ عهديَّة، وليست للاستغراق، فالسَّبيل الحقُّ معروف بيِّن لا عوج فيه، وهو وحده الموصل إلى الحقِّ، لأنَّه الطَّريق المستقيم، ولأنَّه صراط العزيز الحميد"[3].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّصِيب والحظّ:

النَّصيب: هو الحظُّ، والقِسْمُ من كُلِّ شيءٍ[4]، فيكون النَّصيب في المحبوب والمكروه، يُقال: وفَّاه اللّٰه نصِيبه من النَّعيم أو من العذاب،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/91.
(2) تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم: 2/182، وتفسير الآلوسي، روح المعاني: 3/45.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1699.
(4) ابن مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَبِ، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (نصب).

الحظُّ: نصيبٌ مُــقــدَّرٌ مِــنَ الفَضْل والخيْر، والنَّصيب: يَعُمُّ المحبوبَ وَالمكْرُوهَ

والحظُّ: هو النَّصيبُ المُقَدَّرُ من الفضل والخيْر(1)، فلا يُقال: حظُّه من العذاب إلَّا على استعارة بعيدة؛ لأنَّ أصل الحظِّ: هو ما يحظه اللّٰه تعالى للعبد من الخير، والنَّصيب: ما نصب للعبد لِيناله، سواء أكان محبوبًا أم مكروهًا، ولهذا كان الحظُّ اسمًا لما يرتفع به المحظوظ، فيُذكر على جهة المدح، فيُقال: لفُلانٍ حظٌّ، وهو محظوظ، وفي التَّنزيل: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القَصَص: 79]، والنَّصيبُ: ما يُصيب الإنْسَانَ من مُقاسمةٍ، سواء ارْتَفع به شأنه أم لا، ولهذا يُقال: لفُلان حَظٌّ في التِّجارة، ولا يُقال: له نصيب فيها؛ لأنَّ الرِّبحَ الَّذِي يَنالهُ فيها ليس عن مُقاسَمَةٍ(2)، وسياق الآية حديثٌ عن ضلالة، وإضلال؛ فناسبَهُ لفظ النَّصيب.

الضَّلال والغواية:

الضَّلال: عامٌّ، وهــو فـقـدان الطَّريق الموصل، والـغــوايـة: الـعــدول عن الطَّريق القويم تَقَصُّدًا

الضَّلال: فقدان ما يُوصِلُ إلى المطلوب، وقيل: هو سلوك طريق لا يُوصل إلى المطلوب(3)، وكل عدُول عَن النَّهج عمدًا أَو سَهوًا قَلِيلًا كَانَ أَو كثيرًا(4)؛ فَهُوَ ضلال، وفي باب الحقِّ والباطل يكون الضَّلال عدولًا عن الطَّريق المستقيم(5)، وقد يكون عن قصد أو عن غير قَصْد: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: 104]، أمَّا الغواية؛ فهي جهل من اعتقادٍ فاسد(6)، فلَا يكون للغاوي مَقْصِدٌ إلى الطّريق المُستَقيم(7)، والغواية أيضًا: إمعان في الضَّلال، كما أنَّ الضَّلال عامٌّ(8) يكون للعاقل وغيره، فيُقال: ضلَّت الدَّابَّة، ولا يُقال:

(1) الخليل، العين: (حظظ)، والأزهري، تهذيب اللغة: (حظ).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 165.
(3) الجرجاني: التَّعريفات، ص: 138.
(4) الكفويُّ، الكليات، ص: 567.
(5) المناويُّ: التوقيف، ص: 223.
(6) الرَّاغب، المفردات: (غوى).
(7) الكفويُّ، الكليات، ص: 576.
(8) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/199.

غوت الدَّابَّة، أمَّا الغواية؛ فهي للعاقل المُكلَّف، والضَّلال نقيضُ الهُدى، قال اللّٰه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: 8] وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: 79]، والغِوايَةُ: نقيض الرُّشْدِ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146] وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

فالضَّلال: أعمُّ، وهو ألَّا يَجِدَ السَّالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغِواية: ألَّا يكون له إلى المَقْصَدِ طريقٌ مستقيم(1)، وهي اللَّفظة المناسبة لقوَّة سعي الشَّيطان في الآية، ومبتغاه من الوسوسة، وهو فقدان الوجْهة، وضياع السَّبيل إلى المقصد.

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

الطَّريق: ما يُسْلَك، والسَّبيل: أسْهَلُه، والصِّراط: أقْوَمُه

الطَّرِيقُ: هو كُلُّ ما يطرُقُهُ الطَّارِق من النَّاس، مُعْتادًا كانَ أو غَيْرَ مُعْتادٍ(2)، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه: 77]، أَمَّا السَّبيلُ؛ فهُوَ الطَّرِيقُ السَّهْلُ؛ وأَغْلَبُ ما يقع في الخيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِّ، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٥٥﴾، [الأنعام: 55]، أَمَّا الصِّراطُ: فَهُوَ السَّبيلُ الَّذي لا اعْوِجاج فيهِ ولا الْتِواء.

فَالفرقُ بين الطَّريقِ والسَّبيلِ: أَنَّ الطَّريقَ لَا يقتضي السُّهولةَ واعتيادَ السُّلوكِ(3)، أَمَّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ؛ فهو السَّهْلُ المُعتاد. والفرقُ بين السَّبيلِ والصِّراطِ: أَنَّ الصِّراطَ: لا اعوجاجَ فيهِ(4)، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: 161]، فالصِّراطُ: أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/199، والتهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: 2/1119.
(2) الكفوي، الكُلِّيات، ص: 513.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 298.
(4) الكفوي، الكُلِّيات، ص: 513.

﴿مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ: أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ(1)، وقد يطلق كُلٌّ منها على الآخَرِ توسُّعًا.

وغاية جهد الشَّيطان، ومنتهى مقصده: الإضلال عن الوجهة اليسيرة، والزيغ عن الدَّرب السَّهل الواضح البيِّن؛ لأنَّ من لا يقاوم وساوسه في اليسير من الأمور؛ يصعب عليه عسيره، وهذا مبلغ قوَّته، وسعة تمكُّنه في الإضلال؛ ولذلك اخْتيرَ لفظ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ الدَّال على الطَّريق السَّهل المُعتاد.

(1) المناوي، التوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 215.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ
ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا
وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ
قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن
لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾﴾ [النِّساء: 45 - 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكر أحوال الكفَّار وعقوباتهم بعد ذكر العبادات؛ ترغيبًا في الاتِّباع، وترهيبًا من المُخالفة والابتداع

لَمَّا ذكر اللّه تعالى أنواعًا كثيرةً من التَّكاليفِ والأحكام الشَّرعيَّة؛ انتقل إلى ذِكْر أحوال أعداءِ الدِّين، وأقاصيص المتقدِّمين؛ ليكون ذلك مُرغِّبًا في تَقَبُّل ما مَرَّ من التَّكاليف لِيُسْرِه ولرجاء الثَّواب، مُرَهِّبًا من تَركِها خَوْفًا من العقاب، ولِيَصيرَ الكلام حُلْوًا رائقًا بتفصيل نَظْمِه تارة بأحكام، وتارة بأقاصيصَ عِظام، فالانتقالُ من نوعٍ من العلوم إلى نوع آخر يُنَشِّطُ الخاطرَ، ويدفَع ما يُكدِّره، ويقوِّي القريحةَ[1]، وتلك عادة القرآن الحكيم.

ولَمَّا وَفَّرت هذه الآيات الدَّواعي على تَعْيينِ هؤلاء الَّذين يُريدون الإضلال، قال بيانًا بعد الاعتراض بما بَيْنَ المُبَيِّنِ والمُبَيَّن من الجُمَلِ لمزيد الاهتمام به: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾[2]، فهي بَيَانٌ لِقَوْلِه: ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيّٗا﴾: الوليُّ النَّاصر الَّذي يَلِي أُمورَ أوليائِه بالحياطةِ لهم والحراسة، وأصْلُ (وَلِي): يدلُّ على القُرْبِ والدُّنوِّ، سَواء مِن حيث:

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/91، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/289.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/292.
(3) أَبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/660.

المكانُ، أم النِّسبةُ، أم الدِّين، أم الصَّداقة، أم النُّصرة، أم الاعتقاد، وحَقيقتُهُ تَوَلِّي الأَمْر، وكُلُّ مَن وَلِي أَمْرَ آخَرَ؛ فهو وَلِيُّه[1]، وهذه المعاني محتملة في لفظة ﴿وَلِيًّا﴾ الواردة في الآية.

2) ﴿هَادُواْ﴾: الهَوْدُ: التَّوْبةُ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾، أي: تُبْنا إليك، والهُودُ: اليهود، هادوا يَهُودون هَوْدًا، وأصلُ الهَوْدِ: إِرْوَادٌ وَسُكُونٌ، يَقُولُونَ: التَّهْوِيدُ: المَشْيُ الرُّوَيْدُ، وسُمِّيتِ اليهود اشتقاقًا من هادوا، أي: تابوا، ورجعوا، أخذًا من قول موسى على نبيِّنا وعليه الصَّلاة والسَّلام في دعائه الله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: 156]. كأنَّهم رجعوا عن شيء إلى شيء، وكان اسم مَدْحٍ، ثُمَّ بعد نَسْخِ شريعتهم أصبح لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح، كما أنَّ النَّصارى في الأصل من قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 52]، ثُمَّ صار لازمًا لهم بَعْدَ نَسْخِ شريعتهم، ويُقالُ: نُسبوا إلى يهوذا، وهو أَكْبَرُ وَلَدِ يعقوبَ، فَأَدْخلوا الأَلف واللَّامَ فِيهَا على إِرادَةِ النَّسَب، وَتُسُوهِل في الإعجام بالإهمال؛ لِمَا أَنَّ الدَّال والذَّال يتعاوران في الكلام، فإذا بالدَّال موضع الذَّال، ومعنى هادوا هُنا: تَهَوَّدُوا، أَي: صَارُوا يهودًا[2].

3) ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: التَّحريفُ: إمالة الشَّيءِ عن جهته وصَرْفُهُ، ومنه تحريف الكَلِم، وتَحَرَّفَ فُلانٌ عن فلان، وانحَرَف، واحرَوْرَفَ: واحدٌ، أَيْ: مالَ، وأَصْلُ الحرف: العُدُولُ والِانْحِرَافُ عَنِ الشَّيْءِ، والتَّحريفُ في القرآن: تَغْيِيرُ الكَلِمَةِ عن معناها، ومعنى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾: يُقَلِّبونَهُ، ويُغَيِّرونَهُ[3]. ويميلونه عن مواضعه الَّتي وضعه الله فيها بإزالته عنها، وإثبات غيره فيها، أو يؤوِّلونه على ما يشتهون، فيميلونه عمَّا أنزل الله فيه[4].

4) ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: أي: لا سَمِعْتَ، أَوْ مَدْعوًّا عليك بِصَمَمٍ أو مَوْتٍ، أو غيرَ مُجابٍ إلى ما تَدْعو إِلَيْه أو كلامٍ تَرْضاهُ[5].

---

(1) الجَوْهَريّ، الصِّحاح: (ولي)، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (ولي)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 89، وابن جرير، جامع البيان: 7/101.

(2) الخليل، العَيْن، وابْنُ سيدَه، المُحْكَم، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (هود)، وغريب القرآن لابن قُتَيْبَة، ص: 173، وابنُ عُزَيز، غريبُ القُرْآن، ص: 490.

(3) الخليل، العَيْن، وابْنُ سيدَه، المُحْكَم، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (حرف)، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 531.

(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/77.

(5) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (سمع)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 128، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 65، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 883.

5) ﴿وَرَٰعِنَا﴾: من رعيتُ الرَّجُلَ؛ إذا تَأَمَّلْتُهُ، وتعرَّفْتُ أحواله، يُقال: أَرْعَيْتُه سَمْعِي، أي: أَصْغَيْتُ إِلَيْه؛ وراعاه يُراعيه؛ إذا تَعَهَّدَهُ؛ وكان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ: رَاعِنَا، وأَرْعِنا سَمْعَكَ، وكان اليهود يقولون: رَاعِنَا، وهِيَ - بسوء نيَّتهم وفَسَاد طويَّتهم - سَبٌّ لرسول الله ﷺ بالرُّعُونَةِ؛ وأَصْلُ رَعَنَ بهذا المعنى: يَدُلُّ عَلَى هَوَجٍ وَاضْطِرَابٍ، يُقال: رَعَنَ الرَّجل يَرْعَنُ رَعْنًا؛ فهو أَرْعَنُ، أي: أهوجُ، والمرأة رَعْناءُ، والأَرْعَنُ: الأهوج في مَنْطِقه المُسْتَرْخي، فالمعنى هُنا: يُحرِّفون، ﴿وَرَٰعِنَا﴾: من طريق المُراعاة والاستمهال إلى السَّبِّ بالرُّعونَةِ[1].

6) ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: تَحْريفًا بالكذب، واستهزاءً ومُحاكاةً؛ وأَصْلُ لَوِيَ: يَدُلُّ عَلَى إِمَالَةِ لِلشَّيْءِ، يُقالُ: لَوَيْتُ الحبْلَ: فَتَلْتُهُ، ولَوى الرَّجُلُ رأسه، وأَلْوَى برأسه: أَمال، وأَعْرَضَ، ولَوى لِسانَهُ بكذا: كِنايَةٌ عن الكذب وتخرُّصِ الحديث، أي: يُحرِّفونه، ويُغَيِّرون أحكامه[2].

7) ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾: قَدْحًا فيه، يُقال: طَعَنَ فُلانٌ على فلان في أمره طَعْنًا؛ إذا أَدْخَلَ عليه العَيْبَ، وذكره بقبيحٍ، وأَصْلُ الطَّعْنِ: النَّخْسُ في الشَّيْءِ بِمَا يُنْفِذُهُ، فالطَّعْنُ: الضَّرْبُ بالرُّمْحِ وبالقَرْنِ وما يجري مجراهما، وتطاعنوا، واطَّعنوا، واسْتُعِيرَ للوَقيعَةِ، ومعنى طَعْنهم في الدِّين: أنَّهم عابوه، وثَلَبُوه قَدْحًا بالاستهزاء والسُّخْرِيَةِ[3].

8) ﴿وَٱنظُرْنَا﴾: أي: أَفْهِمْنا، أَوِ انْظُرْ إِلَيْنا، أو انتظرنا نَفْهَمَ ما تعلَّمنا، وَنَظَرهُ، وانْتَظَره، وتَنَظَّرَه: تَأَنَّى عَلَيْه، وأَصْلُ النَّظَرِ: تَأَمُّلُ الشَّيْءِ وَمُعَايَنَتُهُ، والمَعنى هُنا: قالوا: انْتَظِرنا، مكان راعنا، تقول: نظرتك، وانتظرتُك: بمعنى واحدٍ[4].

9) ﴿وَأَقْوَمَ﴾: أَيْ: أَخْلَصَ، وأَسَدَّ، يُقال: فلانٌ أقوَمُ كلَامًا من فلانٍ، أَي: أعدَلُ كلامًا، وأقامَ الشَّيءَ، أَيْ: أَدامَهُ، وأصل قَوَمَ: مُراعاةُ الشَّيءِ وحِفظه، وكذلك الانتصاب والعزم[5].

(1) ابْنُ سيدَه، المُحكَم، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (رعن)، وابن قُتَيْبَة، غَريبُ القُرآن، ص: 60.

(2) الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (لوى)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 139، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 801.

(3) الخليل، العَين، وابْنُ دُرَيْد، جَمْهَرَةُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (طعن)، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/184.

(4) ابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (نظر)، والغَزْنَويّ، باهِرُ البُرْهان: 1/120، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرآن، ص: 128.

(5) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (قوم)، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 423، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 160.

10) ﴿لَّعَنَهُمُ﴾: جمَعَ عليهم كلَّ معاني اللَّعن؛ فَذَمَّهم، وطَرَدَهُمْ، وأَبْعَدَهُمْ، ولعَنَه يَلْعَنه لَعْنًا: أَبْعَدَهُ، وأَصْلُ اللَّعْنِ: يَدُلُّ عَلَى إِبْعَادٍ وَإِطْرَادٍ على سبيل السَّخَطِ، يُقالُ: الرَّجُلُ الطَّرِيدُ لَعِينٌ، واللَّعْنُ: الإِبْعادُ والطَّرْد مِنَ الخَيْرِ، والمعنى هُنا: أَبْعَدَهُمْ من رَحْمَتِهِ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

المُستعانُ على مَكْرِ الأعداء هو الله وحده، فهو العالم بعداوتهم، والنَّاصر لأوليائه

مِنَ اليَهود قَوْمُ سوءٍ يغيِّرون الكلام الَّذي أنزله الله، فيُؤَوِّلونه على غير ما أنزل الله لَفْظًا بالتَّصحيف، ومعنًى بالتَّزييف، وكلاهما تحريف، ويقولون للرَّسول ﷺ حين يأمرهم بِأَمْرٍ: سمعنا قَوْلَكَ، وعصينا أمرك، ويقولون مُسْتَهْزِئِينَ: اسمع ما نقول، لا سَمِعْتَ؛ ويُوهمون بقولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أنَّهم يُريدون: راعنا سَمْعَكَ، وإنَّما يريدون الرُّعونة حَسَبَ لُغتهم، يَلْوون بها ألسنتهم، يُريدون الدُّعاء عليه ﷺ، ويقصدون القدح في الدِّين، ولو أنَّهم قالوا: سمعنا قولك، وأطعنا أمرك، بَدَلًا من قولهم: سَمِعْنا قولك، وعصينا أَمْرَكَ، وقالوا: اسمع، بدل قولهم: اسْمَعْ، لا سَمِعْتَ، وقالوا: أَوْلِنا من سماحتك الطَّيِّبة لكَ نَظرًا وأَنَاة نَفْهَمُ عنك ما تَقُول، بدل قولهم: راعنا؛ لكان ذلك خيرًا لهم مِمَّا قالوه أوَّلًا، وأعدل منه؛ لِمَا فيه من حسن الأَدَبِ اللَّائِق بجناب النَّبيِّ ﷺ ولكنَّ الله ذَمَّهُم، وطردهم من رحمته، بسبب كُفْرِهِمْ أبدًا، فالله ﷻ أَعْلَمُ منكم - أيُّها المؤمنون - بِعَداوَةِ هؤلاء اليهود لكم، فأخبركم بهم، وبيَّن لكم عداوتهم، ووَلايَةُ الله تَحْميكم، وتَكْلَؤُكُمْ، وتَكْفيكم، فلا تطلبوا وَلايَةً غَيْرَ وَلايَتِه، وتَكْفيكم نُصْرَتُهُ، فلا تستعينوا بسواه[2].

---

(1) الأَزْهريّ، تَهْذيبُ اللُّغة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب: (لعن).
(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 116، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 86.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الاعْـتِراضِ بَيْنَ ذِكْرِ البَيانِ والمُبَيَّنِ

إنّ اشتراء غيرنا الضَّلالة لنفسه هو أحد جناحيّ عداوته لنا، وهو كإرادته لنا التخبُّط في مهامِهِ الحيرة، والتقلُّب في ظلمات الضَّلالة من وثنيَّة وأهواء، على حدٍّ سواء، ذلك أنَّنا أصحاب قِيَمٍ وهدايات نابعة من دينٍ حقٍّ، نعيش لأجلها، ونموت في سبيلها، إرادة أن يفيء إليها، وأن ينعم بها - مثلنا - الآخرون وهكذا، فوجود الأمَّة المسلمة على الأرض ضرورة حياتيَّة وضرورة إنسانيَّة، وهو وجود أغلى من الحياة ذاتها، إن خلت منهم، فإنَّما الأغلى من الحياة للَّذي لا تطيب الحياة إلّا به، كما أنَّ شرًّا من الموت، كلُّ ما يُتَمَنَّى الموت من أجله.

تقرير ما سَبَقَ من إرادة اليهود إضلال المؤمنين مُبالغة في التَّحذير من مَكْرِهِمْ والتَّنْفيرِ منهم

جُمْلَةُ ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾ مُعْتَرِضَةٌ، مُقَرِّرَةٌ لما سَبَقَ، وإِرَادَتهُمُ الضَّلَالَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ ناتجة عَنْ عَدَاوَةٍ وَحَسَدٍ وبغضاء[1]، فَقَدْ أخبر في الآيةِ السَّابقة أنَّ اليهود يَشْتَرُونَ الضَّلالة، وَيُرِيدُونَ أن يَضِلَّ المؤمنون السَّبيل، وجيء فيهما بالْمُضارع: ﴿يَشۡتَرُونَ﴾ و﴿وَيُرِيدُونَ﴾ [النساء: 44]؛ للدَّلالةِ على الاستمرار التَّجدُّديِّ؛ فناسب أن يَجيءَ بهذه الجُمْلَةِ المعترِضَةِ لِتَقْريرِ إرادَتِهِم المذكورة[2].

توجيه الإخبار بجملة الاعتراض:

أعْلَميّة اللهِ تعالى محسومة، وفي الخبر تهديدٌ للمُشركين، وتحذيرٌ منهم

قولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾ خَبَرٌ، في ضِمْنِهِ التَّحذيرُ منهم[3]، وإلَّا؛ فأعْلميَّة اللّه تعالى مَعْلومَةٌ[4]، وفيه - أيضًا - تهديدٌ للمُشركين وتحذيرٌ لهم[5]؛ إذ اللّه يَعلمُهم، ويعلمُ ما يَفعلون، مع التَّأكيد على الاكتفاء بوِلاية اللّه ﷻ ونُصْرَتِهِ وعدمِ المُبالاة بهم[6]؛

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/72.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/182.
(3) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/61.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(5) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ): 1/364.
(6) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.

لذا توسَّطت هذه الجملة بين البَيَانِ والمُبَيَّن على سبيل الاعتراض[1]، مبالغةً في التَّحذير منهم، فَوَسَّطَ بَيْنَهُما ما وَسَّط لمزيد الاعتناء ببيان مَحَلِّ التَّشْنيعِ والتَّعْجيبِ والمُسارَعَةِ إلى تَنْفيرِ المؤمنين عنهم[2].

بلاغة التذييل بالجملتين الاعتراضيّتين

وقد عطفت على جملة الاعتراض الأولى - تتمَّة لها - جملتان اعتراضيَّتان هما: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، وهما خبرٌ بما لا يجوز ادِّعاؤه من حيث تعلُّقه بالمؤمنين، من غير توقيف من الموحِي سبحانه، أو من جهة السَّمعيَّات، من حيث إنَّه كلام عن الله ﷻ، ولا أحد أعلم بالله من الله سبحانه، فناسب أن يتوقَّف استقبال مثل هذه الإفادات على مجيئها وحيًا منه، وعلى ذلك؛ فالمقصود من الخبر الفائدة، ومن حيث إنَّ أسبابه بأيدي المؤمنين، كما قال في الولاية: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 31]، وقال في النَّصر: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [الحجّ: 40]، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمّد: 7]، جاز أن يدَّعى في الخبرين لازم الفائدة؛ لما أنَّ شواهد الفائدة وأماراتها قد امتلأ بها كيانهم، ووقرت في أنفسهم، وصدَّقتها أعمالهم، وكان إخبارهم به وحيًا لذَّة لهم ونِعْمة عليهم، وتحصَّل من هذا أنَّ الاعتراض بين قوليه: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤﴾ [النساء: 44] بالآية السَّابقة أوَّلًا، و﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بالآية اللَّاحقة تاليًا، قد حصل بثلاث جمل: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، قال أبو حيَّان: إذا كان الفارسيُّ قد منع الاعتراض بجملتين؛ فما ظنُّك بثلاث؟ قال الحلبيُّ: وفيه نظر، فإنَّ الجُمل هنا متعاطفة، والعطف يصيِّر الشَّيئَيْن شيئًا واحدًا[3].

(1) الزَّمَخْشَريّ، تَفْسيرُ الكَشّاف: 1/516.

(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45، والقاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/139.

(3) السُّيوطيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/160.

من رحمة الله تَطْمينُ المؤمنين وحثُّهم على الثِّقة به تعالى والاكتفاء بوَلايَتِه ونُصْرَتِه

والجملتان تذْييلٌ لِتطْمين نُفُوس الْمُؤْمنِينَ بنَصْرِ اللَّه؛ لِأَنَّ الْإِخْبَارَ عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ ضَلَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُلْقِيَ الرَّوْعَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ كَانَ الْيَهُود المجاورون لِلْمُسْلِمِينَ ذَوِي عَدَدٍ وَعُدَدٍ، وَبِيدِهِمُ الْأَمْوَالُ، ولهم مكْرٌ وخديعةٌ وحقْدٌ وتربُّص وكيْدٌ بالغ، وَهُمْ مَبْثُوثُونَ فِي الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا: مِنْ قَيْنُقَاعَ وَقُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَخَيْبَرَ، فَعَدَاوَتُهُمْ وَسُوءُ نَوَايَاهُمْ، لَيْسَا بِالْأَمْرِ الَّذِي يُسْتَهَانُ بِهِ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ مُنَاسِبًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: 44][1]. فَبَيَّن أنَّ اللّه تعالى وليُّ المُسلمين وناصرُهم، ومن كان اللّه وَلِيًّا له وناصرًا؛ لَمْ تَضُرَّه عداوة الخلْق[2]، فاكْتفوا بوَلايَتِه ونُصرته، ولا تُبالوا بهم، ولا تكونوا في ضَيْق ممَّا يَمْكُرون[3]، ففيها اهتمامٌ بحَثِّهِمْ على الثِّقة باللّه تعالى والاكتفاء بوَلايَتِه ونُصْرَتِه[4].

وفي هذا التَّذييل تَحذيرٌ للمؤمنين من مُوالاة الكافرين ومَحبَّتِهِمْ، فَإذا كان اللّه وليًّا لكم - وهو أعلم منكم بالأعداء - فلَا تتخذوا عَدوّي وعدوّكم أَولياء.

دلالةُ تكرار جملة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

في تَكْرار الاعتراض دلالة على الانتقام الشَّديد والتَّسْلية العامَّة

في الكلام تسليةٌ لِرَسُولِ اللّه ﷺ ووَعْدٌ على نُصْرَتِه، وقهرٌ لأعدائه، فكان قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ اعتراضًا مُؤَكِّدًا لما سبق، وفي تَكْرِير الاعتراض دلالة على الانتقام الشَّديد والتَّسْلية العامَّة[5]، فالتَّكرار في مثل هذا المقام يكون أَشَدَّ تأثيرًا في القلب وأكثر مُبَالَغةً[6].

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/72 - 73.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45، والقاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/139.
(5) السُّيوطيّ، حاشية السيوطي على البَيْضاويّ: 3/160.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93.

نكتة إظهار اسم الله الأعظم:

ذُكِرتْ جملةُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ للتَّبرُّكِ، وللثِّقة بعلمه تعالى، وكفايته في الجمل الثَّلاث: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، و﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، فهو للاستئناس به، واستحضار حوله وقوَّته، وقوَّة غلبته، وشدَّة قهره، وللاستنصار به، ومطامنة النَّفس، وتوطين الثِّقة، وإلهام الدُّعاء، واستشعار الغنى والقوَّة، وأنَّه العزيز الحكيم، الفعَّال لما يريد، ولطمأنة المؤمنين ليأووا إليه، ويتوكَّلوا عليه، ويلتمسوا العزَّة منه، ولا يخشوا كيد عدوِّهم ومكره، ما داموا مكبِّرين اللّٰه على ما هداهم، مطيعين لرسالة نبيِّهم، وآخذين ما آتاهم.

التـبرُّك بذكر الاسم الجليل، وتأكيدُ كفايتِه ﷻ في كلٍّ من الولايةِ والنُّصرة

وفي إظهارِ اسم الجّلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾ في مقام الإضمار في الجملتين - لا سيَّما في الثَّانية - تقويةٌ لاستقلالهما المُناسِبِ للاعتراض، وتأكيدٌ لكفايتِه ﷻ في كلٍّ من الولايةِ والنُّصرةِ(1).

إنّ الله غنيٌّ عن الولاية، وعن النّصرة، ولن يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء

المغزى البلاغيُّ من زيادة حروف الجَرّ:

الباءُ في فاعل ﴿وَكَفَىٰ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأكيد الاتِّصال الإسناديِّ بالاتِّصال الإضافيِّ(2)، أي: تأكيدُ النِّسبة الاتِّصاليَّة، وهي الْفَاعليَّة بالنِّسبة الإضافيَّة، فإنَّ المُضَاف إليه ما نُسِبَ إليْهِ الْمُضَافُ بواسطة حرف الجرِّ لفظًا أو تقديرًا(3)، فَجيءَ بالباء المزيدة تأكيدًا للنِّسبة بما يُفيد الاتِّصال، وهو الباءُ الإلصاقيَّةُ(4).

تأكيد الكفاية يناسبُ مقام الذّات الإلهيّة العليّة، وفيه تشويقٌ لما أُجمِلَ، وتمكينٌ للمَعنى في الذِّهْنِ

وفي هذا التَّركيب زِيادةُ تشويقٍ إلى معرفة تفصيل ما أُجْمِلَ في نسبة الفعل إلى فاعله؛ لأنَّ الفعل يَطْلُبُ فاعلًا، ولا بُدَّ أن يصل إليه، فتأتي (الباء) بما فيها من معانٍ - منها الإلصاق - تُؤَكِّدُ اتِّصال

(1) أبو حَيَّان، البَحْرُ المُحيط: 3/665، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/182، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/527، والبَيْضاويّ، أنوارُ التَّنْزيل: 2/76، والآلوسّي، روحُ المعاني: 4/45.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/180.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.

الأوَّل بالثَّاني؛ لِيَتَمَكَّنَ المَعْنَى في ذِهْنِ السَّامِعِ(1). وثَمَّةَ فائدة أخرى، وهي أنَّ زيادة حرف الجرِّ تُبَيِّنُ معنى الأمر في لفظ الخَبَرِ، أي: اكْتَفُوا بالله، فالباء تَدُلُّ على المُرادِ من ذلك(2).

علّةُ إيثارِ فعل الكفاية:

الكفايةُ من الله تعالى ليست كالكفاية من غيره، فهي مؤكّدةٌ متحقّقةٌ

الفِعْلُ ﴿وَكَفَىٰ﴾ في قَوْلِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ مُسْتَعْمَلٌ في تَقْوِيَةِ اتِّصافِ الفاعل بِوَصْفٍ يَدُلُّ عليه التَّمييزُ المَذْكُورُ بَعْدَهُ، أَيْ: إنَّ فَاعِلَ ﴿وَكَفَىٰ﴾ أَجْدَرُ مَنْ يَتَّصِفُ بِذَلِكَ الوَصْفِ؛ وغَلَبَ في الكَلَامِ إِدْخَالُ (بَاءٍ) عَلَى فَاعِلِ فِعْلِ ﴿وَكَفَىٰ﴾؛ لتأكيدِ اتِّصال الفعل بلفظ الجلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾، وتَقْوِيتِه(3)، فالباء مزيدة في فعل الكفاية لتوكيدها، وفيها إيذان بأنَّ الكفاية فيما زيدت فيه، متحقِّقة على النَّحو المقصود البالغ شأوًا بعيدًا منها(4).

بيانُ المتشابه اللفظي:

تعلّق السّياق بالربوبيّة، وبالشّكوى من الضّالين يستوجب ذكر الهداية

اكتفى هنا بذكر لفظ ﴿نَصِيرًا﴾، وزاد في [الفرقان: 31] لفظة ﴿هَادِيًا﴾، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾ [الفرقان: 31]. وبيان ذلك أنّ آية النساء بُدِئَت بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾؛ ولأنّ السّياق متعلّقٌ بالألوهية، وكانت الولاية مقدَّمة للنصرة؛ ناسبه قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾. أما آية الفرقان فيسبقها قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: 30]؛ فلما كان السياق متعلقًا بالربوبية، وبشكوى الرّسول ﷺ ممّن ضلّوا عن سبيل الهداية؛ ناسبه تبشيره بكفاية ربه له هداية، ونصرة بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾ [الفرقان: 31].

---

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/73.
(2) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/61، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(3) ابْنُ هِشام، مُغْني اللَّبيب: 1/109.وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/73.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93، وابْنُ عادِل، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتاب: 6/403 – 404.

فائدة بيان صفات اليَهودِ تَفْصيلًا بَعْدَ ذِكْرِ عَداوتِهِمْ إجْمالًا:

في بيان الصّفات تَفْصيلٌ لفنون ضلالهم وتحذيرٌ مِنْ أَشَدِّ الأعداء على المسلمين خَطَرًا وأعظمِهِمْ شَرًّا

جملة: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بَيَانٌ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وقد تكونُ جملتها بَيَانًا لـ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾[1]، وكلتا المبيَّنتين متقدِّمة، فيسوَّغ الاحتمال، غير أنَّ الثَّانية منهما أحقُّ بالبيان وأوعى للغرض، وعلى كلا القولين؛ فإنَّه لَمَّا كان ذِكْرُ الأَعْداءِ بِشَكْلٍ عامٍّ - في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المُشْتَمِلِ على الفريقين: اليهود بالأصالة والتَّقدُّم والأوَّليَّة، والنَّصارى بالتَّبعيَّة والمحاكاة - مُشْعِرًا بتَهْديدٍ عظيم ووعيد شديد لِبَعْضٍ منهم على سبيل الإبهام؛ بَيَّنَ بِقَوْلِه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ذلك البعض المُبْهَم، والآية تَنْظُرُ إلى معنى قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: 82][2].

في الإجمال إعمامٌ يشمل اليهود وغيرهم، وفي التَّفصيل كمالُ الإيضاح لفنون ضلالهم

حاصلُ مَعْنَى قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: وهُمُ الَّذينَ هادوا، أي: تَهَوَّدُوا؛ يُقال: هادَ، وتَهَوَّدَ؛ إذا دَخَلَ في اليَهُوديَّة، فالذِّكْرُ مُجْمَلٌ أوَّلًا؛ فإنَّها تحتملهم وغيرهم، ومآلُهُما واحدٌ، والتَّفْصيل ثانيًا؛ لكمال الإيضاح[3]، فهو تَفْصيلٌ لفنون ضلالهم، فقد رُوعِيَتْ في النَّظْم الكريم طريقة التَّفسير بعد الإبهام، والتَّفصيل إثر الإجمال؛ رَوْمًا لزيادة تقريرٍ يقتضيه الحال[4]؛ تحذيرًا مِنْ أَشَدِّ الأعداء على المسلمين خَطَرًا، وأعظمِهِمْ شَرًّا، وهُمُ اليَهُودُ، وتَنْبِيهًا على شِدَّةِ خَطَرِهِمْ على الإسلام والمسلمين وعَداوتِهِمْ لرسول رَبِّ العالمين.

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/529، والآلوسيّ، روحُ المعاني: 5/45.
(2) السُّيوطيّ، حاشية السُّيوطيِّ على البَيْضاويّ: 3/160.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/181.
(4) القاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأويل: 3/139.

النُّكتة في حذف المبتدأ:

في الحذف تحقيرُ اليهودِ ببيان صفاتهم الدَّالَّة عليهم وعلى عداوتهم ومكرهم

يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مستأنفًا، على أنَّ الجارَّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ واقعٌ خبَرًا لمُبتدأ محذوفٍ، تقديره: قَوْمٌ مِنَ الذين هادُوا، دلَّ على هذا المُبتدأ جملةُ: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، الواقعة صفة له[1]، وَحَذْفُ المبتدأ في مِثْلِ هَذَا شَائِعٌ في كَلَامِ الْعَرَبِ؛ اجْتِزَاءً بِالصِّفَةِ عَنِ الْمَوْصُوفِ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمُبْتَدَأُ مَوْصُوفًا بِجُمْلَةٍ أَوْ ظَرْفٍ، وَكَانَ بَعْضَ اسْمٍ مَجْرُورٍ بِحَرْفِ ﴿مِّنَ﴾، وَذَلِكَ الاِسْمُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُبْتَدَأ، وَمِنْ كَلِمَاتِ الْعَرَبِ الْمَأْثُورَةِ قَوْلُهُمْ: "مِنَّا ظَعَنَ، وَمِنَّا أَقَامَ"، أَيْ: مِنَّا فَرِيقٌ ظَعَنَ، وَمِنَّا فَرِيقٌ أَقَامَ، وَقَدْ دَلَّ ضَمِيرُ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ على أَنَّ هَذَا صَنِيعُ الموصوفين، وعلى أنَّ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّة، فهم فَرِيق مِنْهُمْ[2]، وفيه تحقيرٌ لهم؛ فإنَّ أهل الكتاب لَيْسُوا على صفة واحدة، قال تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾ [آل عمران: 113].

شرُّ اليهود مستطيرٌ في كلّ زمان، وأفعالهم على الدّوام متشابهة

علّةُ حذف المُبتدأ - في وجهٍ - ألَّا تتمحَّضَ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّة، ويقوى ظهورها بيانيَّة، فتتناول جميع المكلَّفين ولا تقف عند مجموعهم، وأثر ذلك على المعنى: الدّلالة على أنَّهم على قلب رجل واحد في الشَّرِّ، فمن لم يباشره منهم؛ تمنَّى أنْ لو كان باشره، وأنَّ الأخلاف ليسوا بأقصر يدًا في ذلك من الأسلاف، وعلى ذلك براهين؛ منها: انسحاب دلالة (الماضي) في آيات الإخبار عنهم على (المضارع) بشقَّيه: الحاضر والمستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: 111]، وانسحاب دلالة (المضارع) في مثل ذلك على ماضيهم كلِّه منذ بعثة النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: 120].

---

(1) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/516، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/75.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/74.

ومَنْ أجْلَى ذلك وأوضَحَهُ إخبارُه عن أبشع جرائمهم الماضية المنقضية بالمضارع، كما قال مفيدًا بفعل الكون الاستمرار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21].

خفاء المسمّى مظنّة اتّساع التقدير، واستحضار الحَذَر

فائدة الحذف ألَّا تنحصر دلالته في مُسمّى؛ فتذهب النَّفس في تقديره كلَّ مذهب، فيكون ذلك داعية للحذر والاحتياط منهم جميعًا، وذلك أنأى عن خُلُوص الشَّرِّ، وأنجى من مغبَّته، وأبعد عن مواقعته، وأدنى إلى السَّلامة منه؛ إذ الذِّكر تقييد، والحذف إطلاق.

خفاء المبتدأ لظهور معناه سبيلٌ لتقوية التعلّق بالله تعالى

قوَّة ظهور المبتدأ، وشدَّة وضوحه، وعدم مؤدّاه إلى الإلباس على السَّامع والمُتَلَقّي سببٌ لخفائه، وعلّةٌ لحذفه. وفي ذلك تقويةٌ لتعلُّقهم بالله؛ عياذًا به، ولياذًا إليه، وتوكُّلًا عليه، في كفايتهم عدوَّهم وحفظهم من غائلته ووقايتهم من خطره وضرره، فلا يخشون غيره، ولا يرهبون سواه؛ ولذلك كلّه كان الحذف أبلغ من الذِّكر.

بلاغة تعليل العداوة على سبيل الاستئناف:

تصوير تعليل العداوة على سبيل الاستئناف بطريق السؤال وجوابه أثبت في النفس وأوقع

علَّل النَّظم الكريم العداوة على سبيل الاستئناف بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ كأنَّ سائلاً سأل: لمَ تَفرَّدت اليهود بعداوة النَّبيِّ ﷺ؟ فقيل: لأنَّهم حَرَّفوا اسمه وَوَصْفَهُ من التَّوراة، وكَتَموا الحقَّ، وأخذوا على ذلك الرِّشا، وأظهروا على سبيل ذلك المُشْتَبِهَ بقولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾؛ إخفاءً لأمره وحطًّا لمنزلته[1]، مع علمِهم أنَّه نبيُّ آخر الزَّمان، وأنَّ رسالته الأخيرة الباقية إلى أبد الآباد، ودهر الدُّهور، حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها، ولازم ذلك أنَّها كاشفة لزيغ الأمم قبلها، مظهرة انحرافهم عن شرائعهم نصحًا لمن ينظر إليهم في

---

(1) السُّيوطيّ، حاشية السُّيوطي على البَيْضاويّ: 3/160.

دينهم، كاشفة عن لِيِّهم في متابعة أنبيائهم، وغلوِّهم في دينهم غير الحقِّ، ولازم شريعة النَّبيِّ محمَّد - صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم - أنَّها لا تقرُّ غير الحقِّ، كما لا تسكت عن باطل.

إظهارُ جرائمِ الذين هادُوا لاستنكارها، والحَذَر منها

كان الَّذين هادوا قتلة الأنبياء، وهم الأوفى حظًّا ونصيبًا من هدم الرِّسالات باتِّباع الأهواء الشَّيطانيَّة والحيل الإبليسيَّة، وقد أخرج القرآن جرائمهم هذه للعلن؛ لتلقى استنكارًا عامًّا وتنديدًا مُستحقًّا، وحذَّر منها، ونفَّر عنها أعمَّ تحذير، وأتمَّ تنفير، فسقط في أيديهم، ورأَوا أنَّهم قد ضلُّوا، وحوصروا بضلالهم، وكعهدهم، فلم يرجعوا، ولم يراجعوا، بل ازدادوا إثمَ الإصرار، وتمنَّى الأخلاف أن: لو كانوا بمكان الأسلاف؛ لفعلوا فعلهم في التّكذيب وقتل النَّبيِّين، ولزادوا في الشَّناعة عليهم.

وليس بعد الكفر ذنب، ولا بعد قتل النَّبيِّين ثلبٌ، وأنَّ أدلَّ دليل على تقدُّم الأخلاف على الأسلاف في الكفر والفجور لتكذيبهم أضوأ الرسالات، وأسطع النُّبوَّات، وأظهر المعجزات: رسالة النَّبيِّ محمَّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، ونبوَّته، ومعجزة كتابه، وهم على علم بها، وقد نبَّأهم اللّه فيما أوحى إلى موسى بها وبأهلها وترك لهم وصاة عنها.

دلالة معنى التَّحريف بَيْنَ الحقيقة والمجاز:

بيانُ جمعهم تحريفَ الألفاظ والمباني والمقاصد والمعاني

التَّحْرِيفُ: الْمَيْلُ بِالشَّيْءِ إِلَى الْحَرْفِ: وَهُوَ جَانِبُ الشَّيْءِ وَحَافَّتُهُ، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي الْمَيْلِ عَنْ سَوَاءِ الْمَعْنَى وَصَرِيحِهِ إِلَى التَّأْوِيلِ الْبَاطِلِ، كَمَا يُقَالُ: تَنَكَّبَ عَنِ الصِّرَاطِ، وَعَنِ الطَّرِيقِ؛ إِذَا أَخْطَأَ الصَّوَابَ، وَصَارَ إِلَى سُوءِ الْفَهْمِ أَوِ التَّضْلِيلِ، فَهُوَ عَلَى هَذَا تَحْرِيفُ مُرَادِ اللَّهِ فِي التَّوْرَاةِ إِلَى تَأْوِيلَاتٍ بَاطِلَةٍ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ فِي تَحْرِيفِ مَعَانِي الْقُرْآنِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يكون التَّحريف مُشْتَقًّا مِنَ الْحَرْفِ: وَهُوَ الْكَلِمَةُ وَالْكِتَابَةُ، فَيَكُونُ مُرَادًا

بِهِ تَغْيِيرُ كَلِمَاتِ التَّوْرَاةِ وَتَبْدِيلُهَا بِكَلِمَاتٍ أُخْرَى؛ لِتُوَافِقَ أَهْوَاءَ أَهْلِ الشَّهَوَاتِ فِي تَأْيِيدِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ فَاسِدِ الْأَعْمَالِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ قَدِ ارْتَكَبَهُ الْيَهُودُ فِي كِتَابِهِمْ، فَعَلَى الِاحْتِمَالِ الْأَوَّلِ: يَكُونُ اسْتِعْمَالُ ﴿عَن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ مَجَازًا، وَلَا مُجَاوَزَةَ وَلَا مَوَاضِعَ، وهي استعارة، والمُراد بها أنَّهم يُنَكِّسون الكلام عن حقائقه، ويُزيلونه عن جهة صوابه؛ حَمْلًا له على أهوائهم، وعَطْفًا على آرائهم، وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ حَقِيقَةً؛ إِذِ التَّحْرِيفُ حِينَئِذٍ نَقْلٌ وَإِزَالَةٌ[1]. وكلُّ ما يدلُّ النَّصُّ عليهم باقترافه واجتراحه بإجرامهم ودناءتهم وكفر قلوبهم ومحادَّتهم اللّٰه ورسله وأنبياءه؛ فهو حقٌّ وصدق، وهم أهل إجرامه، واقتحامه.

توجيه المتشابه اللفظيّ:

جمعَ اليَّهودُ ذكر التَّأويلات الفاسدة من الكتاب، ومن عند أنفسهم

قال تعالى هاهُنا: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وقال في المائدة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]، فأمّا ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ فعلى ما فُسِّرَ أنَّ التَّحريف عن مواضعه الَّتي أوجبت حكمة اللّٰه وضعه فيها؛ بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه بالتَّأويلات الباطلة، فَهُمْ يذكرون التَّأويلات الفاسدة لتلك النُّصوص، وليس فيه بيان أنَّهم يخرجون تلك اللَّفظة من الكتاب، وأمَّا ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]؛ فالمعنى: أنَّه كانت له مواضع هو قَمِنٌ بأن يكون فيها، فحين حرَّفوه؛ تركوه كالغريب الَّذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارِّه، فهي دالَّةٌ على أنَّهم جمعوا بين الأمرين، فكانوا يذكرون التَّأويلات الفاسدة، وكانوا يُخْرِجُون اللَّفظ - أيضًا - من الكتاب، فقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾؛ إشارة إلى التَّأويل الباطل، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]؛ إشارة إلى إخراجه عن الكتاب[2]، فاختيار الأوَّل هُنا، والثَّاني في

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/75.

(2) الزَّمَخْشَريّ، تَفْسيرُ الكَشَّاف: 1/517، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95.

المائدة: مَبْنِيٌّ عَلَى رعاية المناسبة بما قبله وبما بَعْدَهُ[1]، فالَّذي في المائدة أَدَلُّ على ثبوت مَقارِّ الكلم واشتهارها ممَّا هُنا؛ لأنَّ الظَّرف يَدُلُّ على أنَّه بعد ما ثَبَتَ المَوْضِعُ، وتقرَّر؛ حَرَّفوه عَنْه[2].

سرُّ العَطْفِ بعد الوصف:

بيان سُوء أقوال اليهود بعد ذِكْرِ سُوء فِعالِهِمْ

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، فَذَكَرَ سُوءَ أَقْوَالهم بَعْدَ ذِكْرِ سُوءِ أَفْعَالِهِمْ، وَأَقْوَالهم هِيَ الَّتِي يُوَاجِهُونَ بهَا الرَّسُول ﷺ على حين يستخفون بأفعالهم ومن إظهارها: يَقُولُونَ سَمِعْنَا دَعْوَتَك، وَعَصَيْنَاكَ؛ إظهارًا لِتَمَسُّكِهِمْ بِدِينِهِمْ غير الحقِّ، فتًّا في عضده، وتأييسًا له، بالتَّكذيب والإصرار؛ لِيَزُولَ طَمَعُ الرَّسُولِ في إيمَانِهِمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَرَوْا في قَوْلِهِمْ هَذَا أَذًى لِلرَّسُولِ بالغًا به حدَّ ما في أنفسهم، مشبعًا ما فيها من دونيَّة وانحطاط واستخفاف بمشاعر النَّبيِّ المطهَّر المقدَّس الَّذي لم يألُ نصحًا، ولا فتر دعاءً إلى خير عاجل وفضل آجل وتزكية لازمة، فَأَعْقَبُوهُ بِقَوْلِهِمْ لَهُ: وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ؛ إِظْهَارًا لِلتَّأَدُّبِ مَعَهُ[3]؛ خداعًا ومواربة، استخفافًا واستهزاءً، فقد ردُّوا بذلك أسفل سافلين، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾ [الزخرف: 76].

فقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف عَلَى ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، والجهة الجامعة: خياليّ؛ إذ عند حكاية جسارتهم التَّحريف يخطر بالبال أنَّهم يَتَجاسَرُون على مثل هذا المثالب، كالمُوَاجَهَة بالعصيان والطُّغيان[4].

فائدة استعمال ضمير التَّكلُّم:

تَنْعى الآية على اليهود بعض جرائمهم المُتَوَارَثَة، فلم يَكْفِهِمْ تحريف ما في شَرْعِهِمْ - ومنه صفةُ النَّبيِّ ﷺ - بل هم - أيضًا -

(1) حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/182.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/46.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/75، (بتصرف).
(4) ابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/182.

بيان تواطؤهم على العناد واجتماعهم على العصيان

يُجاهرون بالعناد والمعصية بقولهم: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾، أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك[1]، مُعبِّرين بذلك عن تبجُّحهم، وما انطوت عليه دخائلهم بالضَّمير (نا) الدَّالِّ على المتكلِّمين، مُوهِمين بذلك أنَّهم يُريدون أنَّ ذلك حكاية ما وقع لأَسلافهم قديمًا، وإِنَّما يُريدون أنَّهم هم سمعوا ما يقول، وخالفوه عمدًا؛ لِيَظُنَّ من سَمِعَ ذلك أنَّهم على بصيرة في المخالفة بسبب ما عندهم من العلم الرَّبَّانيِّ؛ لِيُوَرِّثَهُ ذلك شكًّا في أمره وحَيْرَةً في شأنه[2].

وكان ذلك آية شاهدة على جُرمهم الجَماعيِّ، وتَحامي بعضهم ببعض حين يَسْخَرُون بالدِّين وبالرَّسول ﷺ لهذا استحقُّوا لعنة الله ﷻ على ما انطوت عليه ضمائرهم، وأعلنت عنه أَلسنَتُهم من العدول عن الخير إلى الشَّرِّ، وعن الإيمان إلى الكُفْر، والذَّمِّ، وإرادة السُّوء أقرب احتمالاً باعتبار معهودهم، والمدح وإرادة الثَّناء أقرب منالًا باعتبار معهوده هو عليه أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام.

بديع التَّوجيه في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا﴾:

من سوء أدب اليهود إظهارُ التَّوقير في الخطاب والاحترام، وإضمارُ الشَّتيمة، والإهانة نيّةً

الموضع الأوَّل من التَّوجيه[3] هو قولهم: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾، وهو حال من المخاطب، أي: اسمع، وأنت غير مُسْمَعٍ، وهُوَ قولٌ ذو وجهين: يَحْتَمِلُ الذَّمَّ، أي: اسمع مِنَّا مَدْعوًّا عليك بلا سمعت؛ لأنَّه لو أُجيبتْ دعوتهم عليه؛ لم يَسْمَعْ، فكان أَصَمَّ، أو اسمع غير مُجاب إلى ما تدعو إليه، ومعناه: غَيْرَ مُسْمَعٍ جوابًا، فكأنَّك لم تسمع شيئًا،

(1) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/263.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/263.
(3) هو إيراد الكلام محتملاً وجهين مُتضادَّين، كالمدح والهجاء أو الذَّمِّ والثَّناء، ولا بدَّ أن يكون هذا الاحتمال على حدٍّ سواء، فلو كان أحد الوجهين متبادرًا إلى الذِّهن، لم يكن توجيهًا، ينظر: السَّكَّاكيّ، مِفْتاحُ العلوم، ص: 202، والقَزوينيّ، الإيضاح، ص: 328، وهو أسلوبٌ يجعل صاحبه في مأمن من المؤاخذة والعقاب، لأنَّه يقول كلامًا يحتمل وجهين، فإذا شاء، مال به إلى الذَّمّ، فينال من مذمومه، وإذا شاء، مال به إلى المدح، فينجو من المؤاخذة، ويبرأ من الإثم، ينظر: بسيوني، علم البديع: 2/63.

أو اسمع غير مسمعٍ كلامًا ترضاه، فسمعك عنه نَابٍ[1]، أو اسمع غير مُسْمَعٍ مكروهًا؛ من باب قولهم: أسمعه فلان؛ إذا سبَّه، وإنَّما قالوا ذلك نفاقًا[2].

فقد كانوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ عِنْدَ مُرَاجَعَتِهِ فِي أَمْرِ الْإِسْلَامِ: اسْمَعْ مِنَّا، وَيُعَقِّبُونَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ، يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا الظَّاهِرَ الْمُتَبَادِرَ مِنْ قَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ، أَيْ: غَيْرَ مَأْمُورٍ بِأَنْ تَسْمَعَ، فِي مَعْنَى قَوْلِ الْعَرَبِ: (افْعَلْ غَيْرَ مَأْمُورٍ)، أو غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكْرُوهًا، وَالْحَاصِلُ: أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَانَتْ مَعْرُوفَةَ الْإِطْلَاقِ بَيْنَ الْعَرَبِ فِي مَعْنَى: الْكَرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ، إِطْلَاقًا مُتَعَارَفًا، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوهَا لِلرَّسُولِ؛ أَرَادُوا بِهَا مَعْنًى آخَرَ، انْتَحَلُوهُ لَهَا مِنْ شَيْءٍ يَسْمَحُ بِهِ تَرْكِيبُهَا الْوَضْعِيُّ، أَيْ: أَلَّا يَسْمَعَ صَوْتًا من متكلِّم؛ لأَنْ يَصِيرَ أَصَمَّ، أَوِ الَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾، فَأَزَالَ لَهُمْ كَلِمَةَ: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾[3].

في عَمَلِهِم عَمْدٌ إلى إيذاء الرَّسول ﷺ بطريقةٍ خفيَّة، لا يُؤاخذون عليها

والموضع الثَّاني: قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾، وهو يحتمل: راعنَا؛ لنكلِّمك، أي: ارقبنا، وانتظرنا، نكلِّمك، أو نفهم كلامك[4]، فَأَتَوْا بِلَفْظٍ: ظَاهِرُهُ طَلَبُ الْمُرَاعَاةِ، أَيِ: الرِّفْق، وَالْمُرَاعَاةُ مُفَاعَلَةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْمُبَالَغَةِ فِي الرَّعْيِ عَلَى وَجْهِ الْكِنَايَةِ الشَّائِعَةِ الَّتِي سَاوَتِ الْأَصْلَ؛ لِأَنَّ الرَّعْيَ مِنْ لَوَازِمِهِ الرِّفْقُ بِالْمَرْعِيِّ، وَطَلَبُ الْخِصْبِ لَهُ، وَدَفْعُ الْعَادِيَةِ عَنْهُ، وَهُمْ يُرِيدُونَ بِـ ﴿وَرَٰعِنَا﴾ كَلِمَةً فِي الْعِبْرَانِيَّةِ، تَدُلُّ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الرُّعُونَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ[5]، وفي عملهم هذا عَمَدُوا إلى إيصال الأذى إلى النبيّ ﷺ بطريقة خفيَّة، لا يُؤاخذون عليها،

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشّاف: 1/271.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/77.
(3) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/529، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/76.
(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/77.
(5) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/271، وابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/183 - 184، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/76.

ولكنَّ اللّه كشَفَهُم، وفضحَ أمرَهُم ببيانِ تحْريفهم لِلْكَلِم، ومن المعلوم أنَّ تحريف الشَّيء: إمالتُه، كتحريف القلم، وتحريف الكلام: أن تحمله على حرف من الاحتمال، فيمكن حمله على الوجهين[1]، وهو ظاهر في قولهم: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾، أمَّا قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾؛ فالغالب فيه هو اللَّيُّ؛ لأنَّهم يُخْرِجونَ الكلمة بطريقة يَلْوونَ فيها ألسنتهم، حتَّى تُعَبِّرَ عمَّا أرادوا، تشبيهًا بكلمة عبرانية كانوا يتسابون بها، وهي: (راعينا)، هكذا بالياء؛ فقد كانوا يُكلِّمون الرَّسول ﷺ بكلام مُحْتَمَلٍ، يَنْوُون به الشَّتيمة والإهانة، ويُظهرون التَّوقير والاحترام والإكرام[2].

بلاغة التجنيس في الآية:

في التجنيس قصدٌ إلى إرضاء الجميع بسوء نيّتهم

في قوله ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾ و﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ جناسٌ مغايرٌ[3] يُبْرِزُ قَصْدَهُمْ مِنْ إيرَادِ كَلَامٍ ذِي وَجْهَيْنِ - يحتمل المدح والتَّعظيم، ويحتمل الإهانة والشَّتم - وهو أَنْ يُرْضُوا الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَيُرْضُوا أَنْفُسَهُمْ بِسُوءِ نِيَّتِهِمْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ وَيُرْضُوا قَوْمَهُمْ، فَلَا يَجِدُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةً[4].

دلالة التَّعريض بالقول المحتمل بعد التَّصريح بالكفر والعصيان:

في التّعريض تَعْدادُ صفاتهم الذَّميمة من قول وفعل، ووصفُ عصيانهم، واحتيالهم

جاؤوا بالقول المحتمل في الوجهين بعد ما صَرَّحوا، وقالوا: سمعنا، وعصينا؛ لأنَّ جميع الكفرة كانوا يُواجهونه ﷺ بالكفر والعصيان، ولا يواجهونه بالسَّبِّ ودعاء السُّوء، ويجوز أنْ يقولوه فيما بينهم، ويجوز ألَّا ينطقوا بذلك، ولكنَّهم لَمَّا لم يؤمنوا به؛ جعلوا كأنَّهم نطقوا به[5]، فكان النَّبيُّ ﷺ إذا أمرهم بشيء؛ قالوا في الظَّاهر: سمعنا،

---

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (حرف)، والسُّيوطيّ، حاشية السُّيوطيّ على البَيْضاويّ: 3/161، وابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/182 - 183.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/293.

(3) أبو حَيّان، البحر المحيط: 3/665.

(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/76.

(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/96.

وقالوا في أنفسهم: وعصينا[1]. والمقصود على هذا عَدُّ صفاتهم الذَّميمة، لا مجرَّد التَّحريف والاحتيال، فكأنَّه قيل: يحرِّفون كتابهم، ويجاهرون بإنكار نُبوَّة محمَّد ﷺ قالًا وحالًا، وعِصيانهم بعد سماع ما بَلغهم وتحقُّقِه لديهم، ويحتالون في سبِّه[2] ﷺ.

سِرُّ إيثار لفظ (اللَّيِّ) دون غيره:

بيان اختصاص اليهود في خطابهم لغيرهم بما ظاهره التَّوقير وباطنه التَّحقير

(اللَّيُّ) في قوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ أَصۡلُهُ: الِانۡعِطَافُ وَالِانۡثِنَاءُ والفَتۡلُ، وَمِنۡهُ ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ [آل عمران: 153]، وَهُوَ يَحۡتَمِلُ الۡحَقِيقَةَ في كِلۡتَا الۡكَلِمَتَيۡنِ: اللَّيِّ، وَالۡأَلۡسِنَة، أَيۡ: إِنَّهُمۡ يُثۡنُونَ أَلۡسِنَتَهُمۡ صَرۡفًا لها عن مخارج الحروف الَّتي تَحِقُّ لها في العربيَّة إلى ما يفعله العبرانيُّون من تَغۡليظ بعض الحروف، وشَوۡبِ بَعۡضِها بغَيۡرِه[3] بِأَنۡ يُشۡبِعُوا حَرَكَاتٍ، أَوۡ يَقۡصُرُوا مُشۡبَعَاتٍ، أَوۡ يُرَقِّقُوا مُفَخَّمًا؛ لِيُعۡطِيَ اللَّفۡظُ في السَّمۡعِ صُورَةً تُشۡبِهُ صُورَةَ كَلِمَةٍ أُخۡرَى، فَإِنَّهُ قَدۡ تَخۡرُجُ كَلِمَةٌ مِنۡ زِنَةٍ إِلَى زِنَةٍ، وَمِنۡ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ بِمِثۡلِ هَذَا[4].

في لفظي (اللَّيِّ)، و(الأَلۡسِنَةِ) مجازٌ يرسِّخُ ما في قلوبهم من الابتعاد عن الخير، ونقيض الحقّ

وَيُحۡتَمَلُ أَنۡ يُرَادَ بِلَفۡظِ (اللَّيِّ) مجازه، وبلفظ (الأَلۡسِنَة) مَجَازُهُ: فَاللَّيُّ، بِمَعۡنَى: تَغۡيِيرِ الۡكَلِمَة، وَالۡأَلۡسِنَةُ مَجَازٌ عَلَى الۡكَلَامِ، أَيۡ: يَأۡتُونَ فِي كَلَامِهِمۡ بِمَا هُوَ غَيۡرُ مُتَمَحِّضٍ لِمَعۡنَى الۡخَيۡرِ، فهم يلوونها عن الحقِّ، ويميلونها إلى ما في قلوبهم[5].

فقولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾، ويريدون به الشَّتم، فذاك هو اللَّيُّ، وكذلك قولهم: ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ وأرادوا به: لا سمعت، فهذا هو من اللَّيِّ[6]، فاستعمل لفظ (اللَّيِّ) في معنى صرف الإنسان عمَّا يريده، واستعير

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/47.
(3) البِقاعيّ، نَظۡمُ الدُّرَر: 2/263.
(4) ابۡنُ عاشور، التَّحۡريرُ والتَّنۡوير: 5/76.
(5) الشَّوكانّي، فتح القدير: 1/475، وابۡنُ عاشور، التَّحۡريرُ والتَّنۡوير: 5/76.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/96.

في صرفِ الكلام من وجه إلى وجه[1]؛ ولهذا انتصب: ﴿لَيًّا﴾ على المفعول المطلق، لـ ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لأنَّ اللّيَّ كيفيَّة من كيفيَّات القول[2].

قال ابن عطيَّة: "وهذا اللَّيُّ باللِّسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتَّى الآن في بني إسرائيل، ويُحفظ منه في عصرنا أمثلة"[3].

مصداقُ وصفِ الحقّ تعالى في اليهود ثبوت طباع السّوء فيهم في كلّ زمان

وعقّب أبو حيَّان، وهو يحكي عن يهود الأندلس: "وقد شاهدناهم، وشاهدنا يهود ديار مصر على هذه الطَّريقة، وكأنَّهم يُربُّون أولادهم الصِّغار على ذلك، ويُحَفِّظونهم ما يُخاطِبُونَ به المسلمين مِمَّا ظاهره التَّوقير، ويريدون به التَّحقير"[4].

فائدة الإطناب في قوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾:

بيان اللَّيِّ المقصود وأنَّه يكون باللِّسان

(اللَّيُّ) في الآية يَخُصُّ اللِّسان؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ﴾؛ إذ به عُلِمَ أنَّ اللَّيَّ المقصود هو إخراج الكلام على طريقةٍ مقصودة؛ لإيقاع الشُّبهة الَّتي تُرْضي نُفوسهم المريضة، وهذا لا يكون إلَّا باللِّسان، فهو من قبيل التَّتميم[5].

دلالة تعدية (اللِّي) بالباء:

من غيِّهِمُ الاستعانةُ بالموهوبِ على المعاصي والانحرافات

معنى حَرْف الباء في ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ الاستعانةُ؛ إذ استعملوا هذه الجارحَةَ الَّتي وهبهم اللهُ إيَّاها في معصيته - سبحانه - فَتْلًا بها وصَرْفًا للكلام عن نهجه إلى نسبة السَّبِّ[6].

وجه الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾:

قوله: ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾، أي: قدحًا فيه بالاستهزاء والسُّخريَّة[7]،

---

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1259.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/76.

(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 2/62.

(4) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/275، بل هو موجود إلى عصرنا هذا.

(5) التَّتميم: الإتيان بفضلة مفيدة في كلام لا يوهم خلاف المراد، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: 177]، فقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177] تتميم، لأنَّ المعنى تَمَّ قبلها.

(6) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/184، وخَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/180.

(7) الآلوسي، روحُ المعاني: 3/47.

في الاستعارة بيانٌ لشدَّة عداوة اليهود للنَّبيِّ ﷺ

وقد عبَّر النَّظم الكريم عن ذلك بالطَّعن بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لأنَّ الطَّعن هنا مجازٌ عن العيب؛ لأنَّه حقيقة في الإصابة بالرُّمح أو العُودِ وشِبْهِه[1]، وَطَعْنُهُمْ فِي الدِّين من خلال طعنهم في النَّبيِّ ﷺ بإِنْكَار نُبُوَّتِه، وَتَغْيِير نَعْتِه، أَوْ عَيْب أَحْكَام شَرِيعَتِه، أَوْ تَجْهِيله[2]، وطعنهم - أيضًا - بقولهم لأصحابهم: إنَّما نَشْتِمُهُ، ولا يعرف، ولو كان نبيًّا؛ لَعَرَفَ ذلك، فأطلعه اللّه تعالى على خبيث ضمائرهم، وما في قُلوبهم من العداوة والبغضاء[3]، فالطَّعن في الدِّين تحقيره والهُزء به، وهو مُستعار من الطَّعن في الشَّيء بمعنى: الضَّرب له.

دلالة تنوّع إعراب المصدر:

رُكِّبَ طبعُ اليهود على الانحراف، والمكر، والكذب وسوء القصد وخبث المرام

انتصب ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ مفعولًا لأجله، فيكون مع المفعول المطلق قبله ﴿لَيَّۢا﴾، من عطف بعض المفاعيل على بعض، ولا ضيْر فيه، ولك أن تجعلهما معًا: مفعولين مطلقين، أو مفعولَيْن لأجلهما، أو حالَيْن من فاعل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بتقديرهما: (لاوين)، و(طاعنين)، وعلى الأوّل والثّاني ابن عاشور[4]، وبالثّاني والثّالث صرَّح أبو السُّعود[5]، وتابعه عليه الآلوسيُّ[6] صريحًا في المفعول له والحال، محتملًا للأوَّل المفعول المطلق.

واعتبارُهما مطلقيْن ينبئَ عن طبيعة الَّذين هادوا، وما ركِّب في طبعهم من انحراف وعوج، والتواء ومكر، وخديعة وكذب، وغِشٍّ واستهزاء، واعتبارهما مفعوليْن لأجله ينبئَ عن سوء القصد وفساد الغرض وخبث المرام، ونيَّة الشَّرِّ والانطواء على الكفر المبيَّت على

---

(1) الهَرَرِيّ، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 11/156.
(2) أبو حَيّان، البحر المحيط: 3/663.
(3) الهَرَرِيّ، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 6/124.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/76.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/184.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 3/47.

التَّمرُّد والمُشاقَّة والعصيان، أمَّا إعرابهما حالين؛ فدالٌّ على جمعهما بين السُّوْءَيْن الأصيل والدَّخيل، واللّازم والعارض، والمتجذّر والطَّارئ، وفي الآية وصف كاشف لبعض ما مردوا عليه من فضول الكلام الَّذي يظهر من العيوب ما بطن، ويحرِّك من العدوِّ ما سكن، وتصنُّعهم لا يُخْفي شيئًا من طبعهم، فإنَّ الطَّبع يغلب التَّطبُّع: ومن تخلَّق بالخلق الجميل، وله خلق سوء أصيل؛ فتخلُّقه - لا محالة - زائل، وهو إلى خلقه الأوّل آيل، كطلي الذَّهب على النُّحاس، ينسحق، وتظهر صفرته للنَّاس.

في الحاليّة ظهورٌ لهيئة القول في أنفس قائليه، وأثره على متكلِّميه

ومن إعجاز القرآن ترتيبه الحالَيْن هذا التَّرتيب المحكم: ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾، أي: (لاوين ألسنتهم)، فهذا حال القول في أنفس قائليه، وأثره على متكلِّميه يظهر عليهم العِوَج، فتقوم عليهم الحُجَج: أنّ جهة القول غير قويمة، ومسالكها غير مستقيمة، وهذا الحال الأوّل الأسبق، والحكم للسّابق، ثم جال الحال الثّاني الأعجب: يبيّن أثر القول في نفسه: ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ أي: (طاعنين في الدِّين)؛ إذ هو بمجرَّد صدوره معدود كذلك، وليس هو إلَّا ذلك.

علّة تسمية مخاتلة اليهود للنبي طعنًا في الدّين:

الائتساء بالنبيّ ﷺ هو التقرُّب إلى الله، وطاعته هي الهدى، وبلاغه هو الحجَّة

إنَّ اللّه سمّى مخاتلة اليهود لنبيِّه: طعنًا في الدِّين، فالدِّين به هو، ولو لم يُبعث هو ﷺ بنفسه بهذه الرِّسالة الخاتمة للزم أن يتقاسمَها أنبياء عديدون بعدد قرى الدُّنيا؛ فسَدَّ وحده مسَدَّهم، وأدَّى مؤدَّاهم، وأغنى عنهم، وفي هذا يقول اللّه تعالى له: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١﴾ [الفرقان: 51].

وجعل اللّه سيرته وسنَّته مبيِّنة لمراد اللّه من شريعته ومقصوده من خطابه، فالائتساء به هو التقرُّب إلى اللّه، وطاعته هي الهدى، واتِّباعه هو الدِّين. وجعل بلاغه هو الحجَّة، وتكفّل له بحفظ حياته حتّى يُبَلِّغ رسالته، وزكّى أفعال نبيِّه، فنسبها إليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، وزكّى نطقه، فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3، 4]، وزكّى رأيه، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النّساء: 105]، وجعل أذيَّته أذيَّة له، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب: 57].

سِرُّ الإتيان بالقول الجاري مُجرى المثل:

بيان الحال اللّائقة بمن عَرَفَ الحَقَّ

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أَيْ: لَوْ قَالُوا مَا هُوَ قَبُولٌ لِلْإِسْلَامِ؛ لَكَانَ خيرًا، وَقوله: سَمِعْنا، وَأَطَعْنا يُشْبِهُ أَنَّهُ ممَّا جَرَى مجْرَى الْمَثَلِ بِقَوْلِ مَنْ أُمِرَ بِشَيْءٍ، وَامْتَثَلَهُ "سَمْعٌ وَطاعَةٌ"، أَيْ: شَأْني سَمْعٌ وَطَاعَةٌ، وَهُوَ ممَّا الْتُزِمَ فِيهِ حَذْفُ الْمُبْتَدَأ؛ لِأَنَّهُ جَرَى مُجْرَى الْمَثَلِ، كقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾(1).

وفي تَقديمِ حال القول بالنِّسبة إليهم على حاله في نفسه إيماء إلى أنَّ هِمَم اليهود - لعنهم اللّه تعالى - طَمَّاحَةٌ إلى ما ينفعهم(2).

بديع المقابلة بَيْنَ الألفاظ:

بيان وجه المفارقة بين حال اليهود وحال من عرف الحقَّ واتَّبعه

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ عندما سَمِعوا شيئًا من أوامرِ اللّه تعالى ونواهيه؛ ﴿قَالُوا۟﴾ بلسان المقال، كما هو الظَّاهر أو به، وبلسان الحال، كما قيل: ﴿سَمِعْنَا﴾ سماع قبول مكان قولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾: المُراد به سماع الرَّدِّ، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ مكان قولهم: ﴿وَعَصَيْنَا﴾، ﴿وَٱسْمَعْ﴾ بَدَلَ قولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ بدل قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ فالطِّباق الظَّاهر:(3)

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/77.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/47.
(3) أَبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/276.

بَيْنَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ و﴿وَأَطَعْنَا﴾، والطِّباقُ المُغاير: بين ﴿مُسْمَعٍ﴾ و﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وما تُوحيه معاني ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ و﴿وَرَٰعِنَا﴾ من التَّضادِّ: شَكَّلَ صورةَ مُقابَلَةٍ بَديعة، وأعطى وَجْهَ المُفارَقةِ بَيْنَ الحال الأُولى لليهود، وما ذُكِرَ من وَصْفِ مَكْرِهِمْ وغلِّ قُلوبهم وحَسَدِهِمْ، وبين ما يجب أن يكون عليه مَنْ عَرَفَ الحقَّ، وظَهرت له دلائله من السَّمع والطَّاعة والانقياد.

دلالة اسم التَّفضيل ﴿خَيْرًا﴾:

إثبات الوصف مجرَّدًا عن التَّفضيل لفقدان الفضل في القول المعدول عنه، المؤاخذ عليه

قَوْلُنا: "هذا خيرٌ من ذلك"؛ يقتضي أن يكون في كلٍّ واحد منهما خيرٌ حتَّى يَصِحَّ تفضيل أَحدِهِمَا على الآخر؛ لأنَّ ﴿خَيْرًا﴾ في الأصل: أَفْعَلُ تفضيل، فكيف قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ بعد ما سبق من قولهم في أَوَّل الآية؟

فالجواب: أنَّ المُراد بالخير هُنا: هو الخير الَّذي هو ضدُّ الشَّرِّ، لا الَّذي هو أَفْعَلُ التَّفْضيلِ، كما يُقال: في فلان خَيْرٌ، فالضَّمير في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، يرجع إلى ﴿أَنَّهُمْ قَالُواْ﴾؛ لأنَّ المعنى، ولو ثبت قولهم: سَمِعنا وأطعنا؛ لكان قولهم ذلك خيرًا لهم - في الدُّنيا: بحقن دمائهم وعُلُوِّ رُتْبَتِهِمْ بإحاطة الكُتُبِ السَّماويَّة، وفي الآخرة: بِضِعْفِ الثَّوابِ[1] - وَأَقْوَمَ وأَعْدَلَ وأَسَدَّ[2] ممَّا طَعَنُوا، وفَتَلُوا، ولا يخفى موقع ﴿وَأَقْوَمَ﴾ في مقابلة (اللَّيِّ)[3].

فالمراد به إثبات الوصف مجرَّدًا عن التَّفضيل لفقدان الفضل في القول المعدول عنه، المؤاخذ عليه.

سِرُّ الاستدراك بعد بيان الأعدل والأقوم من الأقوال والأفعال:

بيان أثر اللَّعنة الَّتي حاقت بهم بِسَبَبِ تَأَصُّلِ نُفوسهم في الشَّرِّ

الاِسْتِدْرَاكُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ناشئٌ عَنْ

(1) القاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/142.
(2) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/518.
(3) الخَفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على البَيْضاويّ: 3/143.

قَوْلِه: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾، أَيْ: وَلَكِنْ أَثَرُ اللَّعْنَةِ حَاقَ بِهِمْ، فَحُرِمُوا مَا هُوَ خَيْرٌ، فَلَا تَرْشَحُ نُفُوسُهُمْ إِلَّا بِآثَارِ مَا هُوَ كَمِينٌ فِيهَا من فعلٍ سيِّئٍ وَقَوْلٍ بَذَاءٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَ أَنْفُسِهِمْ عَنْ ذَلِك[1].

دلالة الاستثناء بعد نفي الإيمان:

تَأْكِيدُ النَّفْيِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ؛ فالقلّة مستعملة في معنى النّفي

مَعْنَى ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا، فَهُوَ مِنْ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ، وَأُطْلِقَ الْقِلَّةُ عَلَى الْعَدَمِ، وَفُسِّرَ بِهِ قَوْلُ تَأَبَّطَ شَرًّا:

قَلِيلُ التَّشَكِّي لِلْمُهِمِّ يُصِيبُهُ *** كَثِيرُ الْهَوَى شَتَّى النَّوَى وَالْمَسَالِك[2]

وذا يُشْبِهُ قَوْلَهُمْ: فُلَانٌ قَلِيلُ الْحَيَاءِ، فلَيْسَ مُرَادُهُمْ أَنَّ هُنَاكَ حَيَاءً؛ وَإِنْ قَلَّ، وَمِنْهُ - أيضًا - قَوْلُ العَرَبِ: قَلَّ رَجُلٌ يَقُولُ ذَلِكَ، يُرِيدُونَ أَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ، ومثله قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل: 62]، وَالْمَعْنَى: نَفْيُ التَّذْكِيرِ، وَالْقِلَّةُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى النَّفْيِ[3]، وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلَتِ العَرَبُ الْقِلَّةَ عِوَضًا عَنِ النَّفْيِ؛ لِضَرْبٍ مِنَ الِاحْتِرَازِ وَالِاقْتِصَادِ، فَكَأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يَخْشَى أَنْ يُتَلَقَّى عُمُومُ نَفْيِهِ بِالْإِنْكَارِ، فَيَتَنَازَلُ عَنْهُ إِلَى إِثْبَاتٍ قَلِيلٍ، وَهُوَ يُرِيد النَّفْيَ[4].

وقد يكون القليل صفة للقوم، فهو المبتدأ المقدَّر مؤخَّرًا المحذوف المتعلَّق به ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، والمعنى: فلا يؤمن منهم إلَّا أقوام قليلون[5]، ووجه آخر: أن يكون استثناء من ضمير المفعول في ﴿لَّعَنَهُمُ﴾، أي: إلَّا قليلًا لم يلعنهم، فآمنوا، كعبد الله ابن سلام وكعب الأحبار وغيرهما، أو استثناء من الفاعل في: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾[6]، وضعَّف أنَّ

(1) ابنُ عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِير: 5/77.
(2) تأبَّط شرًّا، ديوان تأبّط شرًّا وأخباره، ص: 150.
(3) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 3/377.
(4) ابنُ عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِير: 5/77.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/96.
(6) أَبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/275.

الوجه حينئذٍ كان الرّفع على البدل؛ لأنَّه من كلام غير موجَب مع أنَّ القُرَّاء قد اتَّفقوا على تلقِّي قراءاتهم بالنَّصب هكذا: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ على حين تلقَّوا ما توجيهه كالمقول هنا بالرّفع، وهو قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النِّساء: 66]، يضاف إلى تبعيده معنويًّا: أنَّ القول به - رغم مخالفته المُتَلَقِّي - يقتضي وقوع إيمان من لعنه اللّه تعالى، وخذله، فلا ينبغي له إلَّا الاستبعاد والنَّفي في كلِّ نادٍ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَوْلى والوَلِيّ والنَّصير:

الوِلَايَةُ تَكونُ بِإِخْلاصِ المَوَدَّةِ، والنَّصْرُ يَكونُ بِالمَعونَةِ والتَّقْوِيَةِ

المَوْلى - في حَقِّ اللّهِ - المُعِينُ الَّذي تَرْكَنُ إِلَيْهِ، وتَعْتَمِدُ عَلَيْه، وتَحْتَمي بِهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ[1]. والوَلِيُّ في أَسْماءِ اللّهِ تَعالى خَاصٌّ بِالمُؤْمنينَ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: 257]، أَمَّا المَوْلى؛ فَيُطْلَقُ على المَعْنى الخاصِّ بِالمُؤْمنينَ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ١١﴾ [مُحَمَّد: 11]، ويُطْلَقُ - أَيْضًا - بِالمَعْنى العَامِّ مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يُونُس: 30]. ولا تَعارُضَ بَيْنَ الآيَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ؛ إِذْ معنى كَوْنِهِ مَولى الكافِرينَ، أَيْ: مَالِكُهُمْ والمُتَصَرِّفُ فيهم بما شَاءَ، ومَعْنَى كَوْنِه مَوْلى المُؤْمنينَ دونَ الكَافِرينَ، أَيْ: وِلايَة مَحبَّة وتَوْفيق[2].

أَمَّا النَّصيرُ؛ فَهُوَ على وَزْنِ (فَعيل)، والمَقْصودُ مِنْهُ اسْمُ الفاعِلِ (ناصِرٌ)، والنَّاصِرُ: هُوَ الَّذي يُعِينُ غَيْرَهُ، ويُقَوِّيه[3]، وقَدْ نَصَرَهُ يَنْصُرُهُ نَصْرًا؛ إِذا أَعانَهُ على عَدُوِّهِ وشَدَّ مِنْهُ[4]، والنَّصيرُ في حَقِّ اللّهِ تَعالى: المَوْثوقُ مِنْهُ بِأَلَّا يُسْلِمَ وَلِيَّهُ، ولَا يَخْذُلَهُ، بَلْ يَنْصُرَهُ،

(1) العسكريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 284.
(2) الشِّنْقيطي، دَفْعُ إيهامِ الإضْطِراب: 01/89.
(3) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 189.
(4) ابْنُ الأَثير، النِّهايَة: (نَصَرَ).

ويُعينَهُ، ويُسَدِّدَهُ، وقدْ سَمَّى اللّٰه تَبارَكَ وتَعالى نَفْسَهُ باسْمِ النَّصيرِ، فَقالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحَجُّ: 78]، واللّٰه ﷻ هُوَ النَّصيرُ الَّذي يَنْصُرُ عِبادَهُ المُؤْمنينَ، ويُعينُهُمْ، قال تَعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾ [الرُّومُ: 47][1].

السَّماع والاستماع:

الاستماع لِمَا كانَ بِقصْدٍ، ولَا يَكُونُ إلَّا بالإصْغاءِ، والسَّماع يَكُونُ بِقَصْدٍ وبِدُونِهِ

السَّماع - وكذا السَّمع - مُطْلَقُ إدراك الحروف والأصوات، والاستماع: طَلَبُ السَّمع بالإصغاء بالأذن، أي: تَقَصُّدُ السَّماع[2].

والسَّمع ثلاث درجات: إحساس بالصَّوت دون فهم: كسماع الدَّوابِّ السَّارحة؛ إذا دعاها راعيها إلى ما يُرشدها، فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تَفهم ما يقول[3]، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ﴾ [البقرة: 171]، وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم: كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: 75]، وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم والاقتناع والإيمان والطَّاعة: وهي أعلى درجات السَّمع التي تُمنَحُ للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ﴾ [الأنعام: 36]، وقال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ٨١﴾ [النمل: 81].

والاستماع يكون على درجتين: الأولى: استماعُ انتفاع، وانقياد، وطاعة، وهو استماع المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٨﴾ [الزُّمر: 18]، والمقصود منه هُنا: فهم المَعْنَى مع القبول والانتفاع،

(1) القحطانيّ، شَرْحُ أَسْماءِ اللهِ الحُسْنى، 222 - 223، بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ.
(2) الفَيُّوميّ، المصباح المنير: 1/289، والعَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 89، والهَرَريّ، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 20/187.
(3) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 1/238، والثَّعالِبيّ، الجَواهِرُ الحِسان: 1/355.

وهناك استماع لا ينتج عنه انتفاع ولا قبول ولا انقياد، وهو استماع الكافر والمُنافق، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ﴾ [محمَّد: 16]، فَهُمْ في هذه المنزلة كالبهائم في عدم الانتفاع؛ وإن كان الفَرْقُ بَيْنَهُمَا: بأنَّ مُسمَّى الاستماع موجود في الكفرة دون البهائم[1]، وذلكم المستمع يريد الضِّدَّ، ويقصد الصَّدَّ.

(1) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 3/114، وابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ الحَنَفيِّ على البَيْضاويّ: 9/472.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النِّساء: 47 - 48]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

دعوةُ اليهود للإيمان بعد ترجيتهم وترغيبهم فيه، وتخويفُ من أبى منهم، وأصَرَّ على الكفر

لَمَّا حَكَى اللّه تعالى عن اليهودِ أنواعَ مَكرِهم وإيذائِهم، ورجَّاهم ﷻ بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾؛ أمَرهم بالإيمانِ، وقرَن بهذا الأمرِ الوَعيدَ الشَّديدَ على التَّركِ؛ ليكونَ أدْعى لهم إلى الإيمانِ والتَّصديقِ به[1].

فخاطَبَ مَن يُرجَى إيمانُه منهم بالأمرِ بالإيمان، وقَرَنَ بالوعيدِ البالغِ على تركِه، ثمَّ أزال خوفَهم من سوءِ الكبائرِ السَّابقة معلِّلًا لِتَحقيقِ وعيدهم، مُعلِمًا بوقوعهم في الشِّرك،[2] فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾.

فضلًا عن أنَّه ﷻ لَمَّا هدَّد اليَهُود عَلَى الكفر، وبَيَّنَ أنَّ ذلك التَّهديد لا بدَّ من وقوعه لا محالة؛ ذكر أنَّ مِثْلَ هذا التَّهديد من خواصِّ الكفر، فأمَّا سائر الذُّنوب الَّتي هي مُغَايِرَةٌ للكفر؛ فليس حالها كَذَلكَ، بل هُوَ سبحانه قد يغفرها، ويعفو عنها، فلا جَرَمَ، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95، وأبو حيّان، البَحرُ المُحيط: 3/667.
(2) أبو حيَّان، البَحرُ المُحيط: 3/667، والبِقاعيّ، نَظمُ الدُّرَر: 5/297.
(3) ابْنُ التَّمْجِيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/190.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُصَدِّقًا﴾: مُؤكِّدًا لصدقه، والصِّدْقُ: ضِدُّ الكَذِب، يُقال: صَدَقَ يَصْدُقُ صِدْقًا، وصَدَّقَهُ تَصْدِيقًا: ضِدُّ كَذَّبَهُ، وأصل صَدَقَ: يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وَغَيْرَ قول، ويُسْتعمل التَّصديق في كلِّ ما فيه تحقيق، يقال: صدَّقني فعله وكتابه، والمعنى هنا: محقِّقًا للَّذي معكم من التَّوراة الَّتي أنزلتها إلى موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

2) ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾: أي: نمحو تخطيطَ صُوَرِها وآثارها، فَنُصَيِّرها كالقَفا، أو نَمْحو ما فيها من عَيْنٍ وأَنْفٍ وحاجبٍ وفم، وأَصْلُ طَمَسَ: يدلُّ على محوِ الشَّيء ومَسْحِه، والطَّمس: إزالة الأَثَر، وانْطَمَسَ الشَّيء: امَّحى، ودَرَسَ[2].

3) ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: أي: نُصيِّرها كَأَقْفَائِهِمْ، ونجعَل وجوهَهُمْ من قِبَلِ أَقفيتهم، أو نجعَل أبصارَهم من ورائهم، أو نجعَل الوَجْهَ قَفًا، والقَفَا وَجْهًا، وأصل الرَّدِّ: رَجْعُ الشَّيْءِ، وصَرْفُه بذاته، أو بحالةٍ من أحواله، يُقال: رَدَدْتُ الشَّيْءَ أَرُدُّهُ رَدًّا عن وَجْهِهِ: صَرَفْتُهُ، وأصلُ الدُّبُرِ: آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، ضِدُّ القُبُلِ[3].

4) ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾: المقصودُ بأصحابِ السَّبت: اليهودُ الَّذينَ اعْتَدَوْا في يوم السَّبت بِالْحِيلَةِ عَلَى الِاصْطِيَادِ، وَقَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، وذُكِرت قصَّتُهم في سُورتي البَقرة والأعراف[4].

5) ﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾: كَذَبَ، واختَلَقَ، يُقال: فَرى فلانٌ الكَذِبَ يفريه؛ إذا اختَلقه، وافترى فلانٌ على فلان؛ إذا قَذَفَهُ بما ليس فيه، أو قَذَفَ أبوَيْه، وأَصْلُ الفَرْيِ: قَطْعُ الشَّيْءِ، والافتراء: الاختلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذِبِ، وكذلِكَ استُعمِلَ في القُرآن في الكَذِب والشِّركِ والظُّلْمِ[5]، وهو معنى اللفظة ههنا.

---

(1) الرَّاغِب، المُفردات، وابنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (صدق)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (فَصْلُ الصَّاد، باب القاف)، وابن جرير، جامع البيان: 8/440.

(2) الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفرَدات، وابنُ فارِس، مَقاييس اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (طمس) ابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 460، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 139، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 917.

(3) الرَّاغِب، المُفرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (رد)، وابنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (رد) و(دبر)، وابنُ كثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 2/324، وابنُ قُتَيْبَة، غريبُ القُرآن، ص: 128، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 460.

(4) الرَّاغِب، المُفرَدات، ص: 392، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 79، وابنُ كثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 2/325.

(5) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة: (فرى)، والرَّاغِب، المُفرَدات: (فرى)، وابنُ قُتَيْبَة، غريبُ القُرآن، ص: 31، 128، 280، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات: 154.

المَعنَى الإجْمَاليُّ:

نــــداءُ الـلـه تـعـالى لأهـل الكتاب السَّابق وتـرغـيـبـهـم فـي الإيـمـان بالكتاب اللَّاحِق وتحذيرهم من الشِّرك

المعنى: يا أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ صَدِّقوا، واعملوا بما نزَّلنا من القرآن على النَّبيِّ محمَّد ﷺ الَّذي جاء مُحقِّقًا لما معكم من التَّوراة والإنجيل، من قبل أن نمحوَ ما في الوجوه من الحواسِّ، ونجعلها ناحية أدبارهم، أو نَطْرُدَهُمْ من رحمة الله، كما طردنا الَّذين خالفوا أَمْرنا بفعل ما نُهُوا عنه من الصَّيد يوم السَّبْتِ بعد نَهْيِهِمْ عنه، فَمَسَخَهُمُ الله قِرَدَةً، وكان أَمْرُهُ تعالى وقَدَرُهُ واقعًا لا محالة.

إنَّ الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرِكَ به شيءٌ من مخلوقاته، ويَتَجاوز عمَّا دُونَ الشِّرك والكفر من المعاصي لمن يشاء من عِبادِهِ بِفَضْلِهِ، أو يعذِّب بها من شاء منهم بِقَدْرِ ذُنوبهم بِعَدْلِهِ، ومن يُشرك مع الله غَيْرَهُ؛ فقد اختلق ذَنْبًا عظيمًا، لا يُغفرُ لِمَنْ مات عَلَيْهِ(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

التَّنبيه لما هو مـوجـود في كـتـابـهـم من حقيقة الإسلام

سِرُّ النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾:

أقبل على خطاب أهل الكتاب - الذين أُريد بهم اليهود، بعد أن ذكر من عجائب ضلالهم، وإقامة الحجَّة عليهم - ما فيه وازعٌ لهم؛ لو كان بهم وَزْعٌ، وكذلك شأن القرآن ألَّا يُفْلِتَ فُرصة تَعِنُّ من فُرَصِ الموعظة والهدى إلَّا انتهزها، وكذلك شأن النَّاصحين من الحكماء، والخطباء أنْ يتوسَّموا أحوال تأثُّر نفوس المخاطبين ومظانَّ ارعوائها عن الباطل، وتبصُّرها في الحقِّ، فيُنْجِدها حينئذٍ بقوارع الموعظة والإرشاد(2).

علّةُ إضمارِ المُسَمّى، والتّعبير بالوَصْفِ:

خاطب الله تعالى أهلَ الكتاب خطاب مُشافهة مع جميع

(1) لجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسِيرِ القُرآنِ الكَرِيم، ص: 116، 117، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيم، ص: 86.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/78.

علمائهم[1]، ويَدْخُل فيه عامَّة أهل الكتاب، فهو خِطاب لهم قاطبة إثر بيان جناية أحبارهم وأشرارهم؛ فَلِذا اخْتيرَ هنا (إيتاء الْكتاب) - وهو عامٌّ - واخْتيرَ فيما قبلُ (إيتاءُ نصيبٍ من الكتاب) في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 23]؛ لاخْتصَاصه بعلمائهم[2]، وذلك لما هو موجود في كتبهم من حقيقة نبيِّ الإسلام، وإنَّما كُفْرهم به لمحض العناد والمكابرة والحسد، فلا جرم أنْ هدَّدهم المولى سبحانه بعد هذا النِّداء بِطَمْسِ الوجوه، واللَّعن تحقيرًا لهم؛ لأنَّ الوجه أكرم عضوٍ في الإنسان، وفيه يُكْرَمُ، أو يُهان.

إيتـاءُ الكتاب شمولٌ لعامَّة أهلـه، وإيتـاءُ نصيب منه تخصيصٌ بعلمائهم

أثر الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في معنى صلتِهِ:

جُعِلَتِ الصِّلةُ هُنا في الخِطاب، ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وفي آية سابقة: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لما في الموضعين من تفاوت، فإنَّ المقصودَ - فيما سبق - بيانُ أخذِهم الضَّلالةَ، وإزالةُ ما أُوتوه بمقابلتها بالتَّحريف، وليس ما أزالوه بذلك التوراةَ كلَّها، حتى لا يوصَفوا بإيتائه، بل هو بعضُها، فوُصِفوا بإيتائه، وأمَّا هاهُنا؛ فالمقصودُ تأكيدُ إيجابِ الامتثالِ بالأمر الذي يعقُبه، والتحذيرُ عن مخالفته من حيث إنَّ الإيمانَ بالمصدَّق موجِبٌ للإيمان بما يصدِّقه، والكفرَ بالثَّاني مقتضٍ للكفر بالأوَّل قَطْعًا[3]؛ لكونهم أهل دين سماويٍّ يعلمون حقيقة ما أنزله الله على النَّبيِّ محمَّد ﷺ وهُمْ مأمورون بالإيمان به.

تأكيدُ إيجابِ الامتثالِ بالأمرِ الـذي يعقُبه، والتحذيرُ عن مخالفته

قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا﴾ جاء في مقام التَّعجُّبِ والتَّوبيخ، فمُناسبَتُهُ صلة مُؤْذِنَةٌ بتهوين شأن علمهم بما أوتوه من الكتاب، وأمّا هُنا؛ فجاء في مقام التَّرغيب، فَنَاسَبَتْهُ صِلَةٌ تُؤْذِنُ

مجيء الآيـة في مقام التَّرغيب نَاسَبَهُ صِلَةٌ تُؤْذِنُ بِأَنَّهُمْ شُرِّفُوا بِإيتَاءِ التَّوْرَاةِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/120.

(2) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/186.

(3) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/185.

بِأَنَّهُمْ شُرِّفُوا بِإِيتَاءِ التَّوْرَاةِ؛ لِتُثِيرَ هِمَمَهُمْ لِلاتِّسَامِ بِمِيسَمِ الرَّاسِخِينَ فِي جَرَيَانِ أَعْمَالِهِمْ عَلَى وَفْقِ مَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ[1].

وليس بين الصِّلتين اختلاف في الواقع؛ لأنَّهم أوتوا الكتاب كلَّه حقيقة باعتبار كونه بين أيديهم، وأوتوا نصيبًا منه باعتبار جريان أعمالهم على خلاف ما جاء به كتابهم، فالَّذي لم يعملوا به منه، كأنَّهم لم يؤتوه[2]. والمعنى: فيما حصل لهم فواته من الخير والطَّاعة بتركه، وهو أهمُّ ممَّا عملوا به؛ لأنَّ فيه صفة النَّبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم وبارك.

إيثار الاسم الموصول (ما) دون العلم:

التَّذكير بعظم شأن القرآن، وتشريفُ ما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وتحقيقُ كونه من عند الله تعالى

جِيءَ بالصِّلَتَيْنِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾، وقوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ دون الاسمين العَلَمَيْن، وهُما: القرآن والتَّوراة؛ لما في قوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ من التَّذكير بعظم شأن القرآن أنَّه مُنَزَّلٌ بإنزال الله، فَعَبَّرَ عنه بالموصولِ؛ تشريفًا له بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وتحقيقًا لكونه من عنده عَزَّ وعَلا، ولِما في قوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ من التَّعريض بهم في أنَّ التَّوراة كتاب مُسْتَصْحَبٌ عندهم، لا يعلمون منه حقَّ عِلْمِه، ولا يَعْمَلُونَ بما فيه، وللإيذان بكمالِ وُقُوفِهِمْ على حقيقة الحالِ، فإنَّ المعيَّةَ المُسْتَدْعِيَةَ لِدَوام تلاوتِها وتَكَرُّرِ المُراجعةِ إليها من مُوجبات العثور على ما في تَضاعيفها المؤدِّي إلى العلم بكون القرآنِ مُصدِّقًا لها، ومعنى تصديقِه إيَّاها: نزولُه حَسْبَمَا نُعِتَ لهم فيها، أو كونُه مَوافِقًا لها في القصص والمواعيدِ والدَّعوةِ إلى التَّوحيد[3]، فقوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾: وهو القُرْآن، عبَّر عنه بالموصول؛ تفخيمًا بإبهامه أوَّلًا، وبمضمون الصِّلة ثانيًا، وتحقيقًا من عنده ثالثًا[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/350، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/78.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/78.
(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/350، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/78.
(4) القونويّ، حاشيةُ القونويّ على البَيْضاويّ: 7/186.

دلالة الأمر في الآية الكريمة:

يَحْمِلُ الفعل: ﴿ءَامِنُواْ﴾ مع الوجوب الكثير من التَّهديد والوعيد ببيان العليِّ القادر ﷻ، ومن التَّحذير في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ﴾، والَّذي جعله لذلك الغرض مَضْمُون الآية كُلّها، حيث تعلو فيها نبرة التَّهديد والوعيد، وقصَّة إسلام عبد الله بن سلام وكعب الأحبار تُصَوِّرُ لنا كيف كان وقع هذا التَّحذير على النُّفوس الواعية من أهل الكتاب(1).

في الأمر تهديدٌ ووعيدٌ من التَّخلُّف عن الإيمان بالله خُصوصًا بعد ظهور دلائله

دلالة ضمير التَّكَلُّم:

بدأتِ الآية بخطاب اليهود والنَّصارى في ظِلِّ الكناية عَنْهُم بإيتاء الكتاب؛ تأكيدًا على أنَّ ما نَزَّلَهُ ﷻ على المُصطفى ﷺ حقيقةٌ ثابتةٌ ومؤكَّدةٌ في كتابهم، فلا حُجَّةَ لكفرهم به، وهُمُ القوم الذين يَعلمون يَقينًا أنَّ الله سُبحانه مُنَزِّلٌ كتابًا بعد كتابهم، مُصَدِّقًا لما معهم، فكان ضميرُ المُتَكَلِّم في قوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾ حُجَّةً مُلْزِمَةً لهم بما يعلمون من خَبَرِهِ؛ لذا هَدَّدَهُمُ الحقُّ تبارك وتعالى بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، مُؤَكِّدًا استحقاقهم اللَّعن بضمير المُتَكَلِّم في: ﴿لَعَنَّآ﴾ عند عَدِمِ إيمانهم، كما استحقَّ أصحاب السَّبْتِ ذلك، وهي حقيقة مُؤَكَّدَةٌ لديهم - أَيْضًا - ولا يخلو الضَّمير هُنا في المَوْضِعَيْن من التَّعظيم المُصاحِبِ لِلتَّأكيدِ(2).

إقامة الحجَّة عليهم، والتَّأكيد على استحقاقهم اللَّعن، كما استحقَّه من قبلهم

نُكْتَةُ الإطناب بالاحتراسِ في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾:

الاحتراسُ(3) في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ جاء تأكيدًا على أنَّ ما نَزَّلَهُ الله لا يُخالف الحقَّ الصَّادِقَ في دينهم؛ لِوَحْدَةِ ما

في الاحتراس بيانٌ لوحدة المصدر والدَّعوة لجميع الرِّسالات

(1) المحرر الوجيز: 2/63، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/532، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/120.
(2) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/47.
(3) الاحتراس أو التَّكميل: اسمان أُطْلِقا على مسمًّى واحد، هو زيادة إطنابيَّةٌ في الكلام، يَدْفَع بها المتكلِّم إيهامًا، قد يُفهم من كلامه.

بُعِثَ به الأنبياء والرُّسل في المصدر والمبادئ، فلا مُسوِّغ لجفائِكُم له، فهو مُصَدِّقٌ لما مَعَكُمْ[1].

السِّرُّ في تنكير الوجوه دون وصْفٍ:

في التنكير تهويلٌ لِعاقبة التَّكذيب مع لُطْفٍ وحُسْنِ اسْتِدعاءٍ للإيمان

قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ مُتَعَلِّقٌ بالأمر، مُفيدٌ للمُسارَعَةِ إلى الامتثال به، والجدِّ في الانتهاء عن مخالفته، بما فيه من الوعيد الشَّديدِ الواردِ على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه، حيث لم يُعَلِّقْ وقوع المتوعَّد به بالمخالفة، ولم يصرِّحْ بوقوعه عندها؛ تَنْبيهًا على أنَّ ذلك أَمْرٌ مُحَقَّقٌ غنيٌّ عن الإخبار به، وأنَّه على شفا الوقوعِ، متوجِّهٌ نحوَ المخاطَبين[2]، وقد تجلَّت المبالغة بوضوح في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾، ففي تنكيره ﴿وُجُوهًا﴾ تهويلٌ لِلْخَطْبِ مع لُطْفٍ وحُسْنِ اسْتِدعاءٍ[3]، فَنَكَّر ﴿وُجُوهًا﴾؛ لإرادة المبالغة المفيدة للتَّكثير، مع الإشعار بأنَّه أَمْرٌ مَهُولٌ وخَطْبٌ عظيم تُخْلَعُ له القلوب، وهو عذاب عظيم من القادر سبحانه[4].

في تنكير الوجوه تعظيمٌ، وتجنُّبٌ للتَّعبير بالمواجهة عند المؤاخذةِ

وفي تَنْكِيرِه ﴿وُجُوهًا﴾ أَمْرٌ دقيق آخر، وهو تحاشِي التَّعبيرِ بالمواجهةِ عند المؤاخذة، فلم يقُلْ: (وجوهكم)، وكان مقتضى السِّياقِ أن يقول: مِن قبْلِ أنَّ نطمِسَ وجوهَكم؛ لأنَّهم هم المهدَّدون، لكن أتى بها على صيغةِ النَّكرةِ تحاشيًا للمواجهةِ بالمؤاخَذةِ[5]، فهو لطف بالمخاطبين لعدم إسنادها إليهم، وذلك حُسْنُ اسْتدعاءٍ لهم إلى الإيمان[6]، وقد يُقال: إنَّ المرادَ بالتَّنكيرِ هنا التَّعظيمُ، أي: وجوهًا معظَّمةً عندكم، فتُطمَس، وهي وجوهُ زعمائِهم الَّذين صدُّوهم عن سبيلِ اللهِ ﷻ[7].

---

(1) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/358.
(2) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/185.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/49.
(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.
(5) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ): 1/385.
(6) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.
(7) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ): 1/385.

بيانُ الحقيقة والمجاز في لفظ الطمس:

أصل الطَّمس: مَحْوُ الأثر وإزالة الأعلام، ومعنى ﴿نَّطۡمِسَ﴾، أي: نمحو تخطيط صورها، من عين وحاجب وأنف وفم، أو نعميها[1]. هذا؛ إن كان الطَّمس على حقيقته، ويحمل التَّنْكِيرُ على هذا المعنى ضَرْبًا من الغرابة والنُّدرة لهذا اللَّوْنِ من العذاب الذي لَمْ يعهد لأحد رؤيته، فيُسَلِّط اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا يُفْسِدُ بِهِ مُحَيَّاهُمْ، فَإِنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ صَالِحَةٌ لِذَلِكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الطَّمْسُ مَجَازًا عَلَى إِزَالَةِ مَا بِهِ كَمَالُ الْإِنْسَانِ مِنِ اسْتِقَامَةِ الْمَدَارِكِ، فَإِنَّ الْوُجُوهَ مَجَامِعُ الْحَوَاسِّ[2].

وجهُ الحقيقةِ أنْ يسلّط تعالى عَلَيْهِمْ مَا يُفْسِدُ بِهِ مُحَيَّاهُمْ، وفي المجاز إِزَالَةٌ لِمَا بِهِ كَمَالُ الْإِنْسَانِ مِنِ اسْتِقَامَةِ الْمَدَارِكِ

أو مجازًا في الوجوه، والمراد بالوجوه عندئذٍ: الوجهاء وعلية النَّاس، فتكون الوجوه اسْتِعَارَة شبِّهوا بها في الشَّرافة والقدر والمنزلة[3]، أي: من قبل أن نغيِّر أحوال وجهائهم، فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم، ونكسوهم صغارهم[4]، فَهُوَ وَعِيدٌ بِزَوَالِ وَجَاهَةِ الْيَهُودِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ، وَرَمْيِهِمْ بِالْمَذَلَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا هُنَاكَ أَعِزَّةً ذَوِي مَالٍ وَعُدَّةٍ[5].

يحتملُ المجازُ الاسْتِعَارَةَ تشبيهًا لهم بالشَّرافة ورفعة المنزلة

دلالة الفاء بين التَّسبيب والتَّعقيب في قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾:

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ عَطْفٌ؛ إن أريد به مُجَرَّدُ التَّعْقِيبِ، أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْصُلَ الْأَمْرَانِ: الطَّمْسُ وَالرَّدُّ عَلَى الْأَدْبَارِ، أي: إنَّهم تُوعِّدُوا بعقابين: أحدهما عُقَيْبَ الآخر، ردُّها على أدبارها بعد طَمْسِهَا[6].

العطف بالفاء إظهارٌ للوعيد الشَّديد في رَدِّهم على أدبارهم حِسًّا ومَعْنًى

وَالرَّدُّ عَلَى الْأَدْبَارِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَجَازًا بِمَعْنَى: الْقَهْقَرَى، أَيْ: إِصَارَتُهُمْ مصير بئيس، فَنَطْمِسها عن الهدى، فَنَرُدُّها على أدبارها، أي: على ضلالتها، والمقصود بيان إلقائها في

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/187.
(4) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/518.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(6) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/518.

أنواع الخِذلان وظُلُماتِ الضَّلالات، ونَظيرُهُ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24]الآية[1]، وَيُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً، وَهُوَ رَدُّهم مِنْ حَيْثُ أَتَوْا، أَيْ: إِجْلَاؤُهُمْ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَى الشَّام، وَالْفَاءُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لِلتَّعْقِيبِ وَالتَّسَبُّبِ مَعًا، وَالْكَلَامُ وَعِيدٌ، وَالْوَعِيدُ حَاصِلٌ، فَقَدْ رَمَاهُمُ اللَّه بِالذُّلِّ، ثُمَّ أَجْلَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَجْلَاهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَذْرِعَاتٍ[2].

وإن كانت الفاء في ﴿فَنَرُدَّهَا﴾ للتَّسبيب؛ فإنَّ تَغَيُّرَ تخطيط الصُّور وإزالتها سبب؛ لكون الوُجُوه مثل: الأدبار، وإنْ أُريدَ بالرَّدِّ عَلى أَدْبَارِها: رَدُّها عَلَى أدبارها بعد إزالة التَّخْطيط، فيكون الفاء للتَّعقيب، ويكون وعيدًا بِعِقابَيْن: أحدُهُمَا: عُقَيْبَ الآخر بدون السَّببيَّة (ردُّها عَلَى أدبارها بعد الطَّمس)، وفي الوجه الثَّاني: عُدَّ رَدُّ الْوُجُوه إِلَى أدبارها بدون تَغْيير تَخْطيطِ الصُّور بقرينة المُقابلة، فَيُنْكِسُ الوُجُوهَ إِلَى الخَلْفِ، والقفا إِلَى القُدَّام[3].

والصّواب: القطع بالتّهديد بمسح الوجوه، فلا يكون فيها عينٌ ولا حواسٌّ ولا أثرٌ لأيٍّ من ذلك، فتكون كهيئة القفا، وهذا المعنى لا ينبغي أن يُعْدَلَ به، ولا أن يُتَرَدَّد فيه، وإنَّما منع من وقوعه أمران: أوَّلهما: كون عموم بعثة النَّبيِّ رحمة عامَّة، لا يعجَّل فيها عذاب الخسف والمسخ والاستئصال بأحد بعينه؛ والنَّبيُّ بين ظهرانيهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: 33] شاهد قائم مفصح مبيِّن عن ذلك.

والثَّاني: أنَّ الوعيد الشَّديد كان معلَّقًا على عدم إيمانهم، فآمن منهم خلق، وأظهر الإيمان تحاميًا به وجُنَّةً فيه، أقوامٌ، وانخنس عن لَيِّهِ وَغَيِّهِ طوائف، وأراد اللَّه أن يذلَّهم بإنزالهم على حكم رسول اللَّه فيهم عنوة، فيكون هو الآمر والمباشر؛ إظهارًا لعزَّته وإعلاء لشأنه، وقصَّة سعد بن معاذ فيهم شهيرة، ولعلم اللَّه أنَّ صفيَّة بنت حييِّ بن أخطب - وهي فيهم وقتذاك - ستكون أُمًّا للمؤمنين وزوجًا لرسول اللَّه - صلَّى اللَّه عليه وآله وسلَّم - وهي من ولد نبيِّ اللَّه ورسوله هارون، وعمُّها رسول اللَّه وكليمه موسى أخو جدِّها هارون النَّبيِّ، وستكون صفيَّة لرسول اللَّه خاتم النَّبيِّين وسيِّد الخلق أجمعين محظيَّة

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/97.

(2) ابنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/79.

(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/186.

عنده، وستحمل من ميراث النُّبوَّة علمًا تنشره من بعده، فقد روت عنه عشرة أحاديث.

سِرُّ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿نَلۡعَنَهُمۡ﴾:

كَفَرَةُ اليهودِ مطرودون من رحمة الله، مذمومون عبر العُصورِ

ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾، نَلۡعَنَهُمۡ، أي: نُخْزيهِمْ بالمَسْخِ، كما مَسَخْنَا أصحاب السَّبْتِ[1]، والضَّمير في: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾ راجع للوجوه؛ إنْ أُريدَ الوُجهاءُ، أو لأصحاب الوُجوه؛ لأنَّ المَعْنى مِنْ قَبْلِ أن نَطْمِسَ وُجُوهَ قَوْمٍ؛ إذ الوُجُوه تَدُلُّ عَلى أصحابها، أو التَّقدير: وُجُوهَ قَوْمٍ، أَوْ يَرْجِع إلى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على طريقة الالْتفَاتِ من الخطاب إلَى الغَيْبَةِ؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُنادًى حَقيقَةً[2]، كما في قَوْلِه تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يُونُس: 22]، وفي هذا بيانٌ لِذِلَّةِ كَفَرَةِ اليهودِ عبر العُصورِ، وطَرْدِهِمْ من رحمة الله الموجبِ لِمَسْخِهِمْ وخِزْيِهِمْ. والمقصود: ذهاب صورة الحسِّ، وزوال أثر موضعها من الوجه بالكُلِّيَّة.

وينبغي أن يكون مرجع الضَّمير في: ﴿نَلۡعَنَهُمۡ﴾ الَّذين كتموا صفة النَّبيِّ في التَّوراة، وأنكروا وجودها، كما أنّ قوله: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾، أي: الَّذين اعتدوا فيه منهم.

سِرُّ التَّعريف بالإضافة:

في الإضافة تحقيرٌ للمتلاعبين بدين الله والحَطُّ من شأنهم

ومن الإضافة ما حصل معنى التَّحقير في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾، هذه الإضافة دلَّتْ على تحقير المُضاف، وحطَّتْ مِنْ قَدْرِه، وبيان ذلك: أنَّ التَّهديدَ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾ حَمَلَ الخزْيَ والعارَ والتَّحْقيرَ لِليَهودِ، حيث ذَكَرَهُمُ المَوْلى ﷻ بِتِلْكَ اللَّعْنَةِ الَّتي نَزَلَتْ بِأَجْدادِهِمْ،

(1) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/518.

(2) الزَّمَخْشَريّ، تَفْسيرُ الكَشّاف: 1/518، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/99، والقونويّ، حاشيةُ القونويّ على البَيْضاويّ: 7/188.

فَمَسَخَهُمْ قِرَدَةً وخَنَازِير، وهم يَعْلَمُونَ ذَلك يَقينًا، بدَليل قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: 65][1].

بيان معنى اللّعنة المتُوعَّدِ بها بربطها بأبشع لعنة في تاريخ اليهود

بلاغة التَّشبيه المُرْسَل:

لا شَكَّ أَنَّ اللَّعْنَ في كِلَا طَرَفي التَّشبيه مقصودٌ به اليهود، غير أنَّه جاء على طريقة الوعيد؛ إذ إنَّ الله ﷻ تَوَعَّدَ اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بمثل ما حصل لأجدادهم المُعْتَدين في السَّبْتِ، فالمُشَبَّهُ: اللَّعن المتوعَّد به اليهود، والمُشَبَّهُ به: لَعْنَةُ أَصحاب السَّبْتِ، ووجه الشَّبَهِ: الغضب الحاصل منه اللَّعنتان بالمَسْخ والتَّبديل، حيث مَسَخَ أجدادهم قِرَدَةً وخَنَازِير، وقد اختلف المُفَسِّرونَ في ماهيَّة اللَّعْنِ ووقتِ حُدوثِه: فَذَهَبَ فريق إلى أنَّ اللَّعْنَ هو المَسْخُ إلى قِرَدَةٍ وخَنَازِيرَ[2]، وَوَقْتُ حُدوثِهِ الدُّنيا، مُسْتَدلِّينَ بمُبادرة بعض اليهود بالإسلام حال سماعهم هذه الآية[3]، ومنهم من رأى أَنَّ وقت حدوثه يكون في آخر الزَّمان، ومنهم من قال: يكون في الآخرة عند الحشر، وسيقع - لا محالة - أحدُ الأمرين أو كلاهما على سبيل التَّوزيع،[4] أي: البعض يناله الطَّمس والرَّدُّ على الأدبار، والبعض الآخر يُلْعَنُ، أي: يُمسخ إلى قردةٍ وخنازير، بدليل عدم حدوث هذا الأمر المَهُولِ، لا في زمن الرَّسول ولا في ما بَعْدَه، بينما ذهب آخرون: إلى أنَّ المُراد من التَّشبيه بِلَعْنِ أصحاب السَّبْتِ الإغراق في وصفه فقط[5]، وعلَّل ذلك: بأنَّ الوعد مشروطٌ بالإيمان ألَّا يقع معه، وقد آمن منهم أناسٌ[6].

(1) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/89.
(2) ابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 1/509، وابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/63.
(3) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/272.
(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/532.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/50.
(6) الزَّمَخْشَريّ، الكَشَّاف: 2/272.

وقد مرّ بنا قريبًا أنّ لعدم حدوث المسخ أسبابًا عدَّة، منها: عموم الرَّحمة ببعثته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33].

ويُهِمُّنا من ذلك كلِّه ثمرة الخلاف: فبناء على الطَّرف الأوَّل؛ يكون طَرَفَا التَّشبيه حِسِّيَّيْن، والوجه: تلك الحالة التي يُمَسَخُ إليها اليهود سواء في الدُّنيا أو الآخرة، أمَّا على الرَّأي الثَّاني؛ فيكون من قبيل تشبيه شيء عقليٍّ بشيء حِسِّيٍّ[1].

فقد خَدَمَ حرف الجرِّ (الكاف) - الذي معناه: التَّشبيه - السِّياقَ أيَّما خدمة؛ لأنَّه عمَّق معنى اللَّعنة المُتوعَّدِ بها بربطها بأبشع لعنة في تاريخ اليهود، وهيَ مسخ بعض أجدادهم إلى قردة وخنازير، وهم يوقنون بذلك حقَّ اليقين؛ ولذا نرى من هداه اللّه منهم إلى الإسلام أَسْرَعَ إلى رسول اللّه ﷺ مُعْلِنًا إسلامه مخافة أن يمسخ قبل ذلك[2]، وكان هذا الحرف وما جسَّده من صورة نزل كصاعقة عنيفة الأثر، هزَّت قلوب الصَّالحين من أهل الكتاب، وأرشدتهم إلى الصِّراط المستقيم.

رؤية تفكُّريَّة في معنى التَّشبيه ونوعه:

المتوعَّد به على كتمان صفة النَّبيِّ أعظم ممَّا حاق بالَّذين اعتدوا في السَّبت؛ لأنَّ جُرْمهم أقبح، وضرره أفدح

والذي يقتضيه سداد النَّظر، وصواب الفِكر أن يكون التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾ تشبيهًا مقلوبًا، على غير بابه، بكون المشبَّه هنا أقوى من المشبَّه به في هذا التَّشبيه، لعلَّة المناسبة، فإنَّ كتمان الَّذين أوتوا الكتاب (صفة محمَّد رسول اللّه خاتم النَّبيِّين ﷺ) أبعد أثرًا، وأعظم خطرًا، وأكثر جُرمًا، وأكبر إثمًا من الاعتداء في السَّبت، والسَّبت يوم، وكتمان صفة النَّبيِّ الخاتم محمَّد رسول اللّه ﷺ اعتداء على الإيمان كلِّه ومستقبل

(1) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 2/404.
(2) ابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 1/509.

الدَّينونة للّه ربِّ العالمين، واعتداء الأسلاف في فرع من فروع شريعة اللّه إلى قوم بعينهم، واعتداء الأخلاف في أصل من أصول الاعتقاد في دين اللّه الَّذي ارتضاه للبشريَّة كلِّها إلى قيام السّاعة، ولا مناسبة بين البابين من أيِّ وجه في الجرم أو في العقاب، فأصل أصول رسالات السَّماء جميعها قائم على ما خالف فيه المتأخِّرون؛ إذ محمَّد رسول اللّه ﷺ قد بشَّر به جميع الأنبياء أممَهم، وأعلنوا للّه عهودهم على تصديقه والتَّسليم له، وبلّغوا أممهم ذلك عنه وعن صفات أُمَّته، على حين انحصرت مخالفة الأسلاف المسوخين في فرع تشريعيٍّ صَحِبَهُ دون ما صحب مخالفة المتأخّرين من استخفاف وتهوُّر، واستهزاء وتنكُّر، فكيف يقال بالتَّسوية بين العقابين أيًّا كان كلٌّ منهما؛ جريًا على قاعدة التَّشبيه، أو أن يكون السّابق أصلًا مقيسًا عليه اللّاحق، فيكون الوعيد في السّابق أمكن منه في اللّاحق وأظهر، مع أنّ الآيات شاهدة بأنَّ طمس الوجوه بردِّها على أدبارها، المُهدَّد به، لا عهد للبشريَّة كلِّها بمثله، فهو أشنع وأبشع وأقذع وأفظع، ممَّا عرفه اليهود في تاريخهم كلِّه، حتى ما جرى من قبلهم من طمس في قوم لوط، كان طمس أعيُن لا طمس وجوه؛ لِئلَّا يتَّبعوا أضياف لوط من الملائكة، وقد ألمحنا من قبلُ إلى ذلك.

ويزاد على ذلك: أنَّ التَّنزُّل في التَّهديد بـ﴿أَوۡ﴾ في قوله سبحانه: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾ بما يفيد التَّنويع أو التَّنصيص على الحدِّ الأدنى من العقاب المتوقَّع إيقاعه بالمجرمين منكري أظهر النُّبوَّات بأقوى البيِّنات، وأوضح الآيات، وأعلى الدَّلالات، فإنّ هذا التَّنويع المسمَّى تخييرًا، ليس قاضيًا على العقوبة بالمماثلة، إذ المراد بالتَّشبيه - لو كان على بابه - المصدر، وهو (اللّعْنُ)، ويكون لكلٍّ بحسبه، فلا يستلزم المماثلة من كلِّ وجه، بل يكفي فيه مماثلة الإطلاق والتَّسمية، وإنّما أُتيَ من توهَّم خلاف ذلك من اعتقاد أنَّ المشبَّه به: هو (اللَّعنة) على وزن اسم المرَّة - بفتح اللّام الثَّانية المدغم فيها - أو على وزن اسم الهيئة بكسرها، فمِن ثَمَّ اعتقد المماثلة، وليس بذلك؛ إذ هو فوق مخالفته الظَّاهرة للنَّصِّ، مخالف للعقل، وللقياس، وللاستقراء التامِّ، وما يقوم عليه سبْر وتقسيم، ولأصول عاصمة عديدة، وسبحان اللّه وبحمده القائل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: 2].

علّة إضافة الأمر إلى الاسم الجليل:

قوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ خُرِّجَ مخرج المِثالِ، وفائدته: تَقْرِيرُ

ما سَبَقَ من الوعيد[1] بالإخبار عن جريان عادة الله في الأنبياء المتقدِّمين: أنَّه مَهْمَا أخبرهم بإنزال العذاب على أقوامهم فعل ذلك لا محالة، فكأنَّه قيل لهم: أنتم تعلمون أنَّ تهديدَ الله في الأمم السَّالفة واقعٌ لا محالة، فاحترزوا الآن، وكونوا على حَذَرٍ من هذا الوعيد[2]؛ فالمقصود هُنا: هو ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، ويُرادُ بالأَمْرِ: المأمور، فهو مَصْدَرٌ وَقَعَ مَوْقِعَ المفعول، فالمعنى: أنَّه متى أراده؛ أَوْجَدَهُ[3]، ووَضْع الاسم الجليل مَوْضِعَ الضَّمير بطريقِ الالتفات؛ لِتَرْبِيةِ المَهابة، وتعليلِ الحُكم، وتقويةِ ما في الاعتراضِ من الاستقلالِ[4].

تَرْبِيةُ المَهابةِ، وتعليل ما سَبَقَ وتعظيمه تَخْويفًا وتهديدًا ووعيدًا بوقوعه لا محالة

بلاغة الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾:

يجوز أنْ تكونَ جملةُ المطْلَعِ "مستأنفةً، وقعتْ اعتراضًا بين قوارعِ أهلِ الكتابِ، ومواعِظِهم، فيكون حرفُ ﴿إِنَّ﴾ لتوكيدِ الخبرِ لقَصْدِ دفْعِ احتمالِ المَجَازِ أو المُبالغة في الوَعِيدِ، وهو إمّا تمهيدٌ لِمَا بَعْدَه لتشْنيعِ جُرْمِ الشِّرك بالله ليكونَ تمهيدًا لتشنيعِ حالِ الذين فَضّلوا الشِّرك على الإيمان، وإظهارًا لمقدارِ التَّعجيبِ من شأنهم الآتي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾، أي فكيفَ ترْضَوْن بحالِ من لا يَرْضى اللهُ عنه؟ والمغفرة على هذا الوجه يصح حملها على معنى التجاوز الدنيوي، وعلى معنى التجاوز في الآخرة على وجه الإجمال.

تشنيعُ جُرْمِ الشِّرك وتَبْشيعُ حالِ أهله وتعجيبُ شأنهم، أو تعليمُ حُكْمٍ في مغفرة ذنوب العصاة

وإما أنْ يكونَ استئنافَ تعليم حُكْمٍ في مغفرة ذنوبِ العُصَاة: ابتدئ بمحكم، وهو قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، وذُيِّل بمتشابه، وهو قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فالمغفرة مراد منها التجاوز في الآخرة"[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/99، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/279.

(3) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/245.

(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187.

(5) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/81.

الفصل على الاستئناف البيانيّ تقريرٌ للوعيد السّابق، وتوكيدٌ لوجوب امتثال الأمر بالإيمان، وتهديدٌ بعذاب الدّنيا

فالكلام هنا مستأنف مقرِّر لما قبله من الوعيد، ومُؤَكِّدٌ وجوب امتثال الأمر بالإيمان؛ حيث إنَّه لا مغفرة بِدُونِهِ كما زعم اليهود، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]، وفيه - أيضًا - إزالة خوفهم من سوء الكبائر السَّابقة؛ إذا آمنوا[1].

وَتَتَضَمَّنُ الْآيَةُ تَهْدِيدًا لِلْمُشْرِكِينَ بِعَذَابِ الدُّنْيَا، يَحِلُّ عليهم، فَلَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ بَعْدَ حُلُولِ الْعَذَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾ [يُونُس: 98]، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَكُونُ حَرْفُ ﴿إِنَّ﴾ في مَوْقِعِ التَّعْلِيلِ وَالتَّسَبُّبِ، أَيْ: آمِنُوا بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَابُ؛ لِأَنَّ اللَّه يَغْفِرُ مَا دُونَ الْإِشْرَاكِ بِهِ[2].

نكتة توكيد نفي الغفران:

الغفران عند الخالق سبحانه معلّقٌ بالتوبة، والإقلاع

أكّد تعالى عدم الغفران في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ ” بـ ﴿إِنَّ﴾ التي تفيد التوكيد، فلا يرجو مشرك غفرانا، أيا كان نوع الشرك، إلا أن يقلع عنه، فإن اللّه تعالى غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا“[3].

سِرُّ تَكْرارِ ذِكْرِ الفعل ﴿يَغۡفِرُ﴾:

سرُّ التكرار حاجةُ المعنى إلى التّفرقة بَيْنَ الشِّرْكِ وما دونه من الخطايا

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ عَطْفٌ على خبر ﴿إِنَّ﴾، لا مُسْتَأْنَفٌ، أي: يَغْفِرُ ما دون الشِّرك من المعاصي، صغيرًا كان أو كبيرًا، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ تَفَضُّلًا عليه وإحسانًا[4]. وقد تكرَّر الفعل ﴿يَغۡفِرُ﴾؛ حيث أطلق اللّه تعالى نَفْيَ مَغْفِرَةِ الشِّرك، وأثبت مَغْفِرَةَ ما دونه مقرونة بالمشيئة؛ لأنَّ الشِّركَ هو الظُّلْمُ الَّذي لا ظُلْمَ بعده، والسَّبَبُ في هذا التَّكرار: حاجة المعنى إلى التَّفرقة بَيْنَ الشِّرْكِ وما دونه بأنَّ اللّه

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/51.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/80.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1709.
(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/201.

لا يغفر الأوَّل البتَّة، ويغفر الثَّاني لمن يشاء[1]، فاختلاف الحكمين في أمر من أهمِّ الأمور العقديَّة أدَّى إلى ذكر المُسْنَد الثَّاني؛ فالآية بُرْهَانٌ ساطع على وجوب تَنْزيهِ العبادة لله ﷻ عن شوائب الشِّرْك والرِّياء والسُّمعة وإخلاص القلب فيها، كما أنَّها باب من أبواب فضل الله ورحمته على عباده؛ لِمَا تَحمِلُهُ من بشرى المغفرة من الرَّبِّ الغفور الرَّحيم، مهما بلغت خطايا العبد؛ ما لم يُشْرك بالله شيئًا، إذا شاء سبحانه ذلك[2].

فائدة التَّعْبيرِ باسم الإشارة:

بيان الظُّلْم العظيم الذي لا ظُلْمَ بعده في القبح والشِّدَّة

جاء اسم الإشارة المركَّب من: (الذَّال للإشارة، والألف للتَّقوية، واللَّام للبعد، والكاف للخطاب)؛ لتعيين الإشارة للشِّرك دلالة على بُعد منزلته في القبح، وأنَّه ظلم عظيم، تتصاغر كلُّ الذُّنوب؛ إذا قورنت به، أو ذكرت معه؛ لأنَّه تسوية بين الخالق الَّذي لا نعمة إلَّا وهي منه، وبين المخلوق الَّذي لا نعمة له أصلًا، فهو كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، وقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[3].

سِرُّ تعليق الموصول بالمشيئَةِ:

تبشير للمسلمين بعد النَّذارة والتَّحذير، حتَّى يكونوا على خَوْفٍ وطَمَعٍ

في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ نعمة عظيمة من وجهين: أحدهما: أنَّها تقتضي أنَّ كُلَّ مَيِّتٍ على ذنبٍ دون الشِّرك لا يُقطع عليه بالعذاب؛ وإِنْ مات مُصِرًّا. والثَّاني: أنَّ تعليقه بالمشيئة فيه نفعٌ للمُسْلمين، وهو أنْ يكونوا على خَوْفٍ وطَمَعٍ[4]؛ سعيًا إلى تحصّل الرّضا، والفوز بالمغفرة.

---

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/53.
(2) ابن حجر، الكافي الشَّافي: 1/273.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/53، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/397.
(4) ابْنُ الجَوْزيّ، زادُ المَسير: 2/103.

دلالة العطف في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾:

بيان عِلَّةِ عَدَمِ مَغْفِرَةِ الله للشِّرْكِ ومغفرة ما عداه

جملة ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّة مَسُوقَةٌ لبيان عِلَّة عَدَمِ المَغْفرَة للشِّرْكِ والكفر، ومغفرة ما عدا الشِّرك[1]، وفيه تحذيرٌ من الوقوع فيهما، واقتراف وجوههما.

سِرُّ إظهار الاسمِ الجليل في موضعِ الإضمار:

تربيةُ مهابة الله في القلوب وتقبيحُ الإشراك به

إظهارُ اسمِ اللّه الأعظم في موضعِ الإضمار؛ تربيةٌ للمهابة، وإدخال الرَّوعة في القلوب، وزيادة تقبيح الإشراك، وتفظيعُ حالِ مَن يتَّصفُ به[2].

سِرُّ التَّعبير بالافتراء بَدَلَ الكَذِبِ:

الافتراء اختلاق ما لا يَصْلُحُ قولًا وفِعْلًا يشمل الكذب والشِّرك والظُّلم

الافتراءُ كما يُطلق عَلَى الْقَوْل يُطلق عَلَى الْفعل، وكَذَلكَ الاختلاق، والافتراء أخصُّ من الكذب، وظاهِرُه أنَّه مُخْتَصٌّ بالقَوْل حَقيقَةً، وإطلاقه عَلَى الْفعْل مجاز، فكما يكون الشِّرك بالْقَوْل يكون بالْفعْل، فلا بُدَّ من التَّعميم[3].

وإنَّما جعله اللّه تعالى (مُفْتَرِيًا)؛ لأنَّه قال: زُورًا وإفكًا بِجُحودِهِ وحدانيَّة اللّه، وإقرارِه بأنَّ لله شَريكًا مِنْ خَلْقِه وصاحبةً أو ولدًا، فَقائلُ ذلك مُفترٍ، وكذلك كلُّ كاذبٍ، فهو مُفْتَرٍ في كذبِهِ مُختلِقٌ له[4].

الافتراءُ مفسدةٌ كالقطع؛ ولذا غلب استعماله قرآنيًّا في مواطن الإفساد؟

أصلُ الافتراء: من الفَرْيِ، وهو القَطْعُ، ولكون قطع الشَّيءِ مَفْسدة له غالبًا؛ غلب على الإفساد، واستُعملَ في القرآن، بمعنى: الكذب والشِّرك والظُّلم، فهو ارتكابُ ما لا يصلح أن يكون قَوْلًا أو فِعْلًا، وهو الأليق بوصف المُشْرِكِ، فيقع على اختلاقِ الكَذِبِ وارتكاب الإثم، وهو المُراد هُنا، وهل هو مُشْتَرَكٌ بين اختلاق الكذب، وافتعال

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/192.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/54.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/192.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 8/451.

ما لا يصلح، أم حقيقة في الأوَّل، مَجَازٌ مُرسَلٌ أو استعارة في الثَّاني؟ قولان: أَظْهَرُهُمَا عند البعض الثَّاني، ولا يلزم الجمع بَيْنَ الحقيقة والمجاز؛ لأنَّ الشِّرْكَ أَعَمُّ من القوليِّ والفعليِّ، فالمراد معنًى عامٌّ، وهو ارتكاب ما لا يصلح[1].

بيانُ متشابه ألفاظ الآيات:

ذِكْرُ الضَّلالِ يناسبُ أهل الكِتابِ، واعتداءهم وتحريفهم، وذكر الافتراء يناسب ما قبله

تكرَّر هذا الوَعيد في آية أخرى من هذه السُّورة الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النِّساء: 116]؛ لبيان أنَّ الشِّرْك أَبْعَدُ ضلالًا، ووجه اختلاف تَعْقِيبِ الأُولى بِقَوْلِه: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، وتعقيب الثَّانية بقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النِّساء: 116]؛ أنَّه لمَّا وَقَعَ قَبْلَ الآيَةِ الكريمة ذِكْرُ أهل الكِتابِ وذِكر اعتدائهم وتحريفهم مِنْ لَدُنْ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤﴾ [النِّساء: 44]، ثُمَّ قال بَعْدَ هذا: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وهذا إفصاح بِكذبِهِمْ وافترائهم، ثُمَّ أَتْبَعَ ما ذَكَرَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾؛ ناسب ما تقدَّم من أوصاف الشِّرك الافتراءَ الَّذي هو أَخَصُّ صفات مَنْ كَذَبَ من أهل الكتاب، من أنَّ المُشْرِكَ مُفْتَرٍ، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، ولمَّا لم يَتَقَدَّمْ مِثْل ذلك في الآية الأخرى، إنَّما تَقَدَّمَ قَبْلَهَا قَوْلُهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النِّساء: 145]، وقبلها ما يَخُصُّ مُنافقي أَيَّام نَبِيِّنَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ لَدُنْ قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النِّساء: 105]، ثُمَّ قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [النِّساء: 107]، فلم يَقَعْ في هذه الآي ذِكْرُ تحريفٍ ولا افتراء،

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/53.

إنَّما ذُكِرَ منافقو أيَّامه - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِنِفاقِهِمْ وما صدر منهم من غير الكذب والافتراء، فَنَاسَبَ ذلك ما بُنِي عليه من قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾، كما ناسب قوله في الأولى: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ ما تَقَدَّمَهُ، وبُنِيَ عليه، وجاءَ كُلٌّ على ما يَجِبُ، ولو أُعْقِبَتِ الأُولى الثَّانية، والثَّانية بما أُعْقِبَتْ به الأُولى؛ لَمَا ناسب على ما تَقَدَّمَ(1).

عرف اليهودُ صحّة نبوّة نبيّنا محمّد ﷺ ومع ذلك افتروا عليه

وخَتَمَ الآياتِ مَرَّةً بقولِهِ: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ﴾، ومَرَّةً بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ﴾؛ لأَنَّ الأَوَّل: نَزَلَ في اليهود، وهُمُ الذين عَرَفُوا صِحَّةَ نُبُوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ من التَّوراة، فَكَذَّبُوا، وافْتَرَوْا على اللّه ما ليس في كِتابهم، والثَّاني: نَزَلَ في الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، ولم يكن عِنْدَهُمْ كتاب، فيرجعوا إليه، فَكانَ ضَلالُهُمْ أَشَدَّ(2).

ويعني على قول المصدر: أنَّه أظهر في وصفهم من الافتراء، بما يعني: أنَّها أفعليَّة إضافيَّة لا مطلقة، وليس بذاك؛ إذ اليهود أصل الأمم في الشَّرِّ، والنصُّ قاض بذلك: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾ [المائدة: 60]

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِيتاء والإِعْطاء:

الإِيتاءُ أَقْوى مِنَ الإِعْطاءِ

لَا يَكَادُ أَهْلُ اللُّغَةِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْإِيتَاءِ وَالْإِعْطَاءِ، لَكِنْ نَجِدُ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ بَعْضَ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تُوحِي بِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَعَظَمَتِهِ، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْإِيتَاءَ أَقْوَى مِنَ الْإِعْطَاءِ فِي إِثْبَاتِ مَفْعُولِهِ؛ لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ لَهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ، تَقُولُ: أَعْطَانِي،

(1) ابنُ الزُّبَيْرِ، مَلاكُ التَّأْويل، ص: 105 — 106.
(2) الفَيْروزآباديّ، بَصائِرُ ذَوي التَّمْييز: 1/174، وابن بَرّي، مسائل منثورة في التَّفسير: 18/41.

فعطوتُ، وَلَا يُقَالُ في الْإِيتَاءِ: أَتَاني، فَأَتَيْتُ، وَإِنَّمَا يُقَال: آتاني، فَأَخذتُ، وَالْفِعْلُ الَّذِي لَهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ أَضْعف في إِثْبَاتِ مَفْعُولِه مِن الَّذِي لَا مُطَاوِعَ له(1).

فَالإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قَالَ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمران: 26]؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ شَيْءٌ عَظِيمٌ لَا يُعْطَاهُ إِلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ، وَكَذا قَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البَقَرَة: 269] والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظيمٌ أَيضًا، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحِجْر: 87]؛ لِعِظَمِ الْقُرْآنِ وَشَأْنِه(2). وفي السُّورة: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾ [النِّساء: 54].

في الإيتاءِ مَعْنى الوُجوبِ والإلْتِزامِ، وفي الإِعْطاءِ مَعْنى التَّفَضُّلِ والإكْرامِ

وَمِن الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الإيتاء فِيهِ مَعْنَى: الْوُجُوبِ وَالالْتِزَام، أَمَّا الْعَطَاءُ؛ فَفِيهِ مَعْنَى: التَّفَضُّلِ وَالْإِكْرَام، فَبَعْدَ أَنْ أَسْعَدَ اللَّه الْمُؤْمِنِينَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ قَالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هُود: 108]، وقال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النَّبَأ: 36].

وليس بظاهر، والصَّواب: أنَّ الإيتاء قد يكون منه بخُفْية ولطف، أمّا الإعطاء؛ فعلانيةٌ؛ وعليه، فقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضُّحى: 5]، من معناه: أن يُعلي شأنك، ويظهر كرامتك، ويقبل شفاعتك، ولا يردَّ سؤالك، وذلك على رؤوس الأشهاد أمام الخلائق، وانظر إلى ذكره معه في الأذان بالشّهادتين، فإنَّه من ذلك؛ إذ نزلت قبل مشروعيَّة الأذان.

الإيتاءُ عامٌّ في الأُمورِ المادِّيَّةِ والمَعْنَويَّةِ، والإِعْطاءُ مُخْتَصٌّ بالمادِّيَّةِ

وَمِن الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الْعَطَاءَ يَكُونُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَادِّيَّة، وَيُفِيدُ التَّكْرَارَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]، أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُرْبُكَ - يَا مُحَمَّد ﷺ - كَثِيرًا مِنْ نَهَرِ الْكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

(1) السُّيوطيّ، الإتْقان: 2/367.
(2) الكَفويّ، الكُلِّيّات، ص: 212.

﴿فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضّحى: 05]، أَيْ: سَيكُونُ عَطَاءُ اللّٰهِ لَكَ مُكَرَّرًا حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ الرِّضَا[1].

أمَّا الإيتاء؛ ففي الأشياءِ المادِّيَّة والمعنويَّة، قال سبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20][2].

الإِعْطَاء دَلِيلُ التَّمَلُّكِ، والإِيتَاءُ قد يَلحقه النَّزْعُ

وَمِن الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ فِي الْإِعْطَاءِ دَلِيل التَّمَلُّكِ دُونَ الْإِيتَاءِ[3]، فَالْإِيتَاءُ يَشْمَلُهُ النَّزْعُ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَيْسَ تَمْلِيكًا بالنَّظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: 175، 179]، ولو عُبِّر عنه بأنَّه يتوقَّف على قبول المُؤْتى؛ إلماحًا إلى معنى الدُّعاء النَّبويِّ: "واجعلنا شاكرين لنعمك، مثنين بها عليك قابليها، وأتمَّها علينا"[4]؛ لكان بصرًا وسدادًا، وَلَكِنَّ الْعَطَاءَ تَمْلِيكٌ؛ فلذا عُبِّرَ به في الآية الفذَّة الجامعة: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: 50]، وَالْإِيتَاءُ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ تَمْلِيكًا؛ لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ هُوَ إِيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الْآخِذِ لَهُ، وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ الْإِعْطَاءِ، حَتَّى صَارَ لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى التَّمْلِيكِ، فَيُقَالُ: أَعْطَاهُ مَالاً؛ إِذَا مَلَّكَهُ إِيَّاهُ[5]، والمعاني تتداخل، فلا يكاد يخلص معنى دون أن يدخله شيء من معنًى آخر، ألا ترى أنَّ الزَّكاة تملُّك لمصرفها من أحد الثَّمانية؛ ومع ذلك، فالتَّعبير الدَّائم عنها بالإيتاء، يملأ الخيال، ولا يفارق البال.

(1) الكفويّ، الكُلِّيَّات، ص: 212، والسُّيوطيّ، الإِتْقان: 2/367.
(2) لاشين، مِنْ أَسْرارِ التَّعْبيرِ في القُرْآنِ الكَريم، ص: 71 - 77.
(3) الكَفويّ، الكُلِّيَّات: 1/360، والعَسْكريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 86.
(4) سنن أبي داوود، الحديث رقم: (969)، والحاكم: 1/265، وقال: (صحيح على شرط مسلم)، ووافقه الذَّهبيّ: 1/26، وبنحوه: البخاريُّ في الأدب المفرد، وعنه الألباني في صحيح الأدب المفرد: 630.
(5) السُّيوطيّ، الإِتْقانُ/197.

الإنزال والتَّنزيل:

الإنزال دَفْعِيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ

يُطلقُ الإنزالُ: على ما يكون دفعةً واحدةً[1]، ويطلق التَّنزيل: على ما يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًّا، وغالبًا ما تكون دلالته على التّدريج هي من خارج، فالإنزال دَفْعِيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ، قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ٣﴾ [آل عمران: 3]؛ وهذا لأنَّ حُكْمَ القرآن الكريم مؤبَّدٌ، وهو مناسبٌ لـ (نزَّل)، فإنَّه بِنَاءٌ لِلمبالغة، ولِمَا في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج، فبينَ الإنزالِ والتَّنزيل عمُومٌ وخصُوصٌ، والإنزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ لأنَّه قد يدلُّ على معنى التَّدْريج، وقد لا يدلُّ[2]، ولا يُشْكِلُ على هذا الفَرْقِ وقوع التَّعبير عَنْ نزول القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريم نُزولَيْنِ: دَفْعِيًّا إلى السَّماءِ الدُّنيا، وتدريجِيًّا بحسب الوقائع والأحداث[3].

الطَّمس، والطَّلس، والدَّرس:

الطَّمسُ مَحْوُ الأثَر وإزالة الأعلام، وهو أنسب لزوال معالم الوجوه

ذكرَ الراغب أنّ: "الطَّمس والطَّلس والدَّرس يتقارب، ولكن الطمس زوال الأعلام المماثلة، قال:

وبلدةٍ طامسةٍ أعلامُها*** ....[4]

والطلس زوال الصورة، ومنه قيل: (درهم مطلس)، إذا لم يكن عليه نقش، والدرس قد يقال في الأثر الخفي"[5]. ومن هنا فالتعبير بالطمس في الآية أنسب لزوال معالم الوجوه؛ لكون أصل الطَّمس: مَحْوَ الأثر وإزالة الأعلام، وطمس الوجوه: محو تخطيط صورها، من عين وحاجب وأنف وفم، أو تعميتها[6].

(1) السَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (نزل)، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 79، والجرجانّي، التَّعريفات، ص: 68، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/3.
(2) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (نزل).
(3) أبو شامة، المُرْشِدُ الوَجيز، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/146.
(4) شطر البيت للشاعر: القطامي التغلبي، وعجزه: يضغو جميعاً بومُها وهامُها، ينظر: ديوانه، ص: 162، ومعنى: (يضغو): يصيح.
(5) الراغب، تفسير الراغب: 3/1262.
(6) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ [النِّساء: 49 - 50]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

النَّهي عن مدح النَّفس بعد إنكار اليهود مُشابهتهم لأهل الذَّمِّ من المشركين

لَمَّا هدَّد اللهُ ﷻ اليهودَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: 48]؛ فعند هذا قالوا: لَسْنَا من المُشْرِكين، بل نحن خَوَاصُّ اللهِ تعالى، كما حَكَى تعالى عَنْهُمْ أنَّهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18]، وبعضُهم كانوا يقولون: (إنَّ آباءَنا كانوا أنبياءَ، فيشفعون لنا)، فبالَغوا في تزكيةِ أنفسِهم، فَذَكَرَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لا عِبرَةَ بتزكيةِ الإنسانِ نَفْسَهُ، وإنَّما العبرةُ بتزكيةِ اللهِ له(1).

وَلَمَّا أخبَرَ تعالى أنَّ التَّزكيةَ إنَّما هِيَ إليه بما له مِن العَظَمَةِ والعِلمِ الشَّامِلِ، وكان ذلك أَمْرًا لا نزاعَ فيه، وشَهِدَ عليهم بالضَّلالِ؛ زاد في تَوْبيخِهِمْ؛ مُعَجِّبًا لرسولِه ﷺ من وقَاحتِهم واجْتِرائِهِمْ على مَنْ يَعْلَمُ كَذِبَهُمْ، ويقدِرُ على معاجلتهم بالعذاب(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾: أي: يَمدحُونها، ويُثنون عليها، وزكَّى نَفْسَهُ: مَدَحَها، ونَسَبَهَا إلى الزَّكاء، مِن: زكَّى يُزَكِّي تَزْكِيةً، وأَصْلُ الزَّكاةِ: النَّماءُ والطَّهارة، والمَعْنى هُنا: يَمْدَحونَ أَنْفُسَهُمْ، وهو وَصْفٌ مَذْمُومٌ؛ لأنَّ مدح الإنسان نَفْسَهُ قبيحٌ شَرْعًا وعقْلًا(3).

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/99.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/299.

(3) الرَّاغِب، الْمُفْرَدات، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (زكا)، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (زكى)، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (زكو)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 31، والشِّنْقيطيّ، أضواء البيان: 8/542.

2) ﴿فَتِيلًا﴾: الفَتِيل: القِشرةُ الَّتي في بطن النَّواةِ، وسُمِّي ما يكونُ في شَقِّ النَّواة فَتيلًا؛ لكونِه على هيئَتِه، وقِيلَ: الفَتيلُ: ما يُفتَلُ بالإصبعِ مِن الوسَخِ الَّذي يَخرُجُ منه، وهو فَعيلٌ، بمعنى: مَفعُولٌ، يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في القِلَّةِ والنَّزارَة، وأَصلُ فَتَلَ: يَدُلُّ على لَيِّ شَيْءٍ[1]، ومَعْنَى ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: قَدْرَ ذلك من الصِّغر، والقلّة.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

التَّعجيب من حال اليهود في مدحهم لأنفسهم مع كونهم من أكذب النَّاس وأكثرهم افتراءً على الله

ألم تَعْلَمْ - أيها الرسول ﷺ - أَمْرَ أولئك الذين يُثْنُون ثَناءَ تزكية على أنفسهم وأعمالهم، ويَصِفونَها بالطُّهْرِ والبُعْدِ عن السُّوءِ؟ بل اللّه وَحدَهُ هو الَّذي يُثْني على من شاء من عباده ويُزَكِّيهِمْ؛ لأَنَّهُ عَالِمٌ بخفايا القُلوبِ، ولن يُنْقَصوا شَيْئًا من ثوابِ أَعْمَالِهِمْ؛ ولو كان قَدْرَ الخَيْطِ الَّذي في نواة التَّمْرِ؛ انْظُرْ - أيها الرسول ﷺ - كيف يَخْتَلِقونَ على اللّه الكَذِبَ بهذا وأَمْثالِه، وكَفَى بهذا الاختلاقِ ذَنْبًا واضِحًا يَكْشِفُ عن خَبيثِ طَوِيَّتِهِمْ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستفهام الدَّاخل على حرف النَّفي:

في الاستفهام تقريرٌ للرُّؤْيَةِ والتَّعَجُّبُ مِنْ هذا الخُلُقِ، والتَّنفيرُ منه

التَّزكية في هذا الموضع عِبارَةٌ عن مدح الإنسان نَفْسَهُ، ومنه تزكية المعدِّل للشَّاهِدِ، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النَّجم: 32]، وقد نُهِي عن التَّزكية بما لم يؤتِ المزكِّي العلم به؛ لِأَنَّ التَّزكية مُتَعَلِّقَةٌ بِالتَّقْوى، والتَّقوى صِفَةٌ في الباطِنِ، وَلَا يَعْلَمُ حَقِيقَتَها إِلَّا اللّه، فَلَا جَرَمَ لَا تَصلُحُ التَّزْكِيَةُ إِلَّا مِنَ اللّهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ تَعَالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[3].

(1) ابْنُ عَبَّاد، المُحيطُ في اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (فتل)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 259، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 140.
(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 117، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 86.
(3) الرَّازِيّ، مفاتيح الغيب: 10/100.

وقَدْ دَخَلَ (أَهْلُ الكتاب) في زمرة مَنْ يُزَكُّونَ أنفسهم دُخولًا مَنْطِقيًّا؛ لِمَا عُرِفَ عَنْهُمْ مِنْ تَأَصُّلِ هَذِهِ الخَصْلَةِ الذَّميمَةِ فِيهِمْ، ثُمَّ يَنْسَحِبُ الحُكْمُ على كلِّ مَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ، وقدِ امْتَزَجَتْ فيه معانٍ بلاغيَّةٌ كَثيرةٌ، مِنْ أَهَمِّهَا: التَّقْريرُ للرُّؤْيَةِ والتَّعَجُّبُ من خبرها والتَّنْفيرُ مِنْ هذا الخُلُقِ، وهذا مِنْ قَبيلِ الافْتِراءِ، فَهُوَ - أيضًا - مُقَرِّرٌ لِما قَبْلَهُ؛ ولذا لَمْ يُعْطَفْ[1].

مديدُ مخازي أهلِ الكتاب جَعَلَهُم أَحِقَّاءَ بِأَنْ يَكُونوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرْ

ومن معاني الاسْتِفهام هنا: التَّقرير المُوصِلُ إلى التَّعَجُّبِ؛ حَيْثُ دَخَلَ حرفُ الاستفهام على النَّفي (لَمْ)، وبهذا تكون الإجابة بالإثبات في هذا المَقَام، أي: بَلَى رَأَيْتُ، والخطابُ لكلِّ من تتأتَّى منه الرُّؤيَةُ من المؤمنين[2]. وغرضُهُ مع التَّقرير: التَّعجُّبُ من حال أهل الكتاب الَّتي بلغت درجة كبيرة من الشَّناعة[3]، فما هذا التَّكرار إلَّا لأنَّ أهل الكتاب اُشْتُهِرُوا بهذِهِ المَخازي، فَصارَت حِكَاياتٍ تُروى عَنْهُمْ، وهُمْ أَحِقَّاءُ بِأَنْ يَكُونوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرْ.

سِرُّ الإضراب بعد الاستفهام:

إبطال تزكيتهم لأنفسهم، وإثبات التَّزكية للهِ وَحْدَهُ وتأكيدها

كانت الحاجة في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، إلى إلغاء زَعْمِهِم الباطل بحرف الإضراب الابتدائيِّ،[4] والجملة عَطْفٌ على مُقَدَّر يَنْساقُ إليه الكلام، كأنَّه قيل: هم لا يزكُّونها في الحقيقة، بل اللّه يُزكِّي من يشاء تزكِيَتَهُ مِنْ يَسْتَحِقُّ من عبادِهِ المؤمنين؛ إذْ هُوَ العَليمُ الخبير[5]، وهي جملة خبريَّة تحمل أقوى المُؤكِّدات مع اسميَّتها ووقوع المبتدأ اسم الجلالة، والإخبار عنها بجملة فعليَّة، فِعْلُها يُفيد الاستمرار؛ لذا

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويّ على البَيْضاويّ: 7/192.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/526.
(3) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/526، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(4) صافي، الجدول: 4/358.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/54.

كان الفَصلُ لكمال الانقطاع الشَّكْلِيِّ رغم قوَّة الاتِّصال المعنويِّ؛ إذ نسبوا تزكيتهم أنفسهم إليه، بزعمهم أنَّهم شعب اللّه المختار، وأبناء اللّه وأحبَّاؤه، وكلُّ ذلك سوء فهم محض، وكذب لا يستحقُّ غير النَّقض والرَّفض.

فَفِي تصدير الجملةِ بـ﴿بَلِ﴾ تصريحٌ بإبطالِ تزكيتهم، وأنَّ الَّذين زكَّوْا أنفسَهم لا حظَّ لهم في تزكيةِ اللّه، وأنَّهم ليسوا ممَّن يشاءُ اللّه تزكيتَه، ولو لم يذكر ﴿بَلِ﴾، فقيل: (واللّه يُزكِّي مَن يَشاء)؛ لكان لهم مطمَعٌ أنْ يكونوا ممَّن زكَّاه اللّه تعالى[1]، وهذا الختم والتَّعقيب يقتضي الغَضَّ من المُزَكِّي لنفسه بِلِسانِه، ولوْ لمْ يكن من ذنبه ولا عيْبه غير اتِّباعه سنن اليهود في تزكية النَّفس؛ لكان بحسْبه من الشَّرِّ ذلك، فإنَّه لا شرَّ وراءه، ولا سوء فوقه، والإعلام بأنَّ الزَّاكِي المُزَكَّى من حَسُنَتْ أفعاله، وزكَّاه اللّه ﷻ فلا عبرة بتزكية الإنسان نَفْسَهُ، وإنَّما العِبْرَةُ بتزكية اللّه له[2].

فائدة الكناية عن الموصوف[3]:

في الكناية بيانٌ لكمال عدل الله مع عباده، وتنزيهُهُ عن أدْنى ظُلْمٍ

جُملة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ عَطْفٌ على جملة حُذِفَتْ تَعويلًا على دلالة الحال عليها، وإيذانًا بأنَّها غَنِيَّةٌ عن الذِّكر، أَيْ: يُعاقَبُونَ بِتِلْكَ الفِعْلَةِ الشَّنيعة، ولا يُظْلَمُونَ في ذلك العقاب أَدْنى ظُلْمٍ وأصْغَرَهُ، وهو المُراد بالفَتيلِ[4].

وسُمِّيَ ما يكون في شقِّ النَّواةِ فتيلًا؛ لِكَوْنِهِ على هيئة الحَبْلِ المفتول، أو ما يفتله أحدهم بين إصبعيه من وسخ، ويُضرب به المثل في الشَّيءِ الحقير[5]، وذُكِرَ هُنَا كنايةً عن الشَّيء الحقير أو الصَّغير.

---

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/84.

(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/246، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/281.

(3) وفيها تُذْكَرُ الصِّفة والنِّسْبَة، ولا يُذْكر الموصوف، بل يتوصَّل إليه بالصِّفة المذكورة، لأنَّها من خَصائِصِه، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 289.

(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/54.

(5) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/248، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (فتل).

في لفظ الفتيل وجه استعارة للقلّة التي لا ينتفع بها

ويكون التَّعبير بِلَفْظِ الفتيل - أيضًا - من قبيل الاستعارة، فَقَد شَاعَ اسْتِعَارَتُهُ لِلْقِلَّة؛ إِذْ هُوَ لا يُنْتَفَعُ بِه، وَلا لَهُ مَرْأًى وَاضِحٌ، وَانْتَصَبَ فَتِيلًا عَلَى النِّيَابَةِ عَنِ الْمَفْعُولِ الْمُطْلَق؛ لأَنَّهُ عَلَى مَعْنَى التَّشْبِيه؛ إِذِ التَّقْدِيرُ: ظُلْمًا كَالْفَتِيلِ، أَيْ: بِقَدْرِه، فَحُذِفَتْ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ، وَهُوَ كَقَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النِّسَاء: 40][1].

وهذا كُلُّه يَرْجِعُ إلى الكناية عن تحقير الشَّيءِ وتصغيره، وفيه دلالة حِسِّيَّةٌ على أنَّ الله ﷻ لا يَظْلِمُ النَّاس فتيلًا، ولا شيئًا دُونَهُ في الصِّغر، فكيف بما فَوْقَهُ[2]؟

ومِثْلُ هذا في تصغير الشَّيء قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ١٢٤﴾ [النِّساء: 124]، والنَّقير: هو النُّقطة الَّتي في ظهر النَّواة، وأيضًا القِطْمِيرُ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: 13]، وهو القِشْرَةُ الرَّقيقة على النَّواة، وهذه الأشياء كُلُّها تُضْرَبُ أمثالًا للشَّيءِ التَّافِهِ الحَقير[3].

سِرُّ الفصل بَيْنَ الجُمَلِ:

تأكيد التَّعجُّبِ من حال اليهود في مَدْحِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، والاستنكارُ لادِّعائهم الباطل في ذلك

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ تأكيدٌ مَعْنَوِيٌّ للتَّعجيبِ الدَّالِّ عليه الكلام في الآية السَّابقة[4]، وهو من قَبيلِ كَمالِ الاتِّصالِ[5]، فالآيتان تَحْمِلانِ غرضًا بيانيًّا واحدًا، هو شِدَّة التَّعَجُّبِ من حال اليهود الَّذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18]، وقالوا كذلك: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: 111]، ونحو ذلك، فالآية الثَّانية تَحْمِلُ مَعْنَى الأُولى - من حيث إِنَّها تَأكيدٌ على التَّعَجُّبِ والاستنكار لادِّعائهم الباطل، وفيها تعجيب للنَّبيِّ ﷺ

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/84 - 85.
(2) ابْنُ عَطيَّة، الْمُحَرَّرُ الوَجيز: 2/66.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.
(4) الآلوسيّ، روحُ المعاني: 5/55.
(5) ويعْنونَ بهذا الاصْطِلاحِ أَنْ تكون الثَّانية مُتَّصِلَةً بالأولى اتِّصالاً كامِلاً تامًّا في المعنى، وتَنْدَرِجُ تَحْتَهُ صوَرٌ مُتَعدِّدة، ينظر: عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص: 405.

من فريتهم على الله، وهِيَ تزكيتُهم أنفسَهم وافتراؤهم على الله[1]

- ففي الآيَتَيْنِ تَحذيرٌ من إعجاب المَرْءِ بِنَفْسِهِ وبِعَمَلِهِ.

دلالة الأمر بعد الإخبار عن سُوءِ مقالهم:

تَشديدُ التَّشنيع على اليهود، وتأكيدُ التَّعجيب من حالهم ومقالهم

الأَمْرُ في ﴿ٱنظُرۡ﴾ موجّهٌ إلى رسُول الله ﷺ وعلى كلِّ واقف على الآية الكريمة من بعده، فجعل افتراءَهم الكَذِبَ؛ لِشِدَّةِ تَحقُّقِ وُقوعِه، كَأنَّهُ أَمْرٌ مَرئيٌّ يَنْظُره النَّاس بأعينهم[2]، والآيةُ تعقيب على ما قَبْلَهَا، وتَعَجُّبٌ من الَّذين يُزَكُّون أَنْفُسَهُمْ، واللّه سُبْحانه يُزكِّي من يشاء بِعِلْمِهِ وعَدْلِهِ؛ واليهود أوَّل المَقْصُودينَ بهذا التَّعَجُّب بدليل حالهم على مَرِّ الزَّمان، فَتَرْجَمَ هذا الفعلُ ﴿ٱنظُرۡ﴾ تَعَجُّبًا إِثْرَ تَعَجُّبٍ على ما ارتكبوه، والمرادُ منه بيان شناعةِ تلك الحالِ وكَمَالِ فَظاعَتِها، والجملةُ تَعْجِيبٌ وتَنْبيهٌ على أَنَّ ما ارتكبوه مُتَضَمِّنٌ لأمرين عظيمين مُوجِبَيْنِ لِلتَّعَجُّب: ادِّعائهم الاتِّصافَ بما هُمْ مُتَّصفون بِنَقيضِهِ، وافترائهم على الله سُبْحانه، فإنَّ ادِّعاءَهم الزَّكاةَ عنده تعالى مُتَضمِّنٌ لادِّعائهم قبولَ اللّهِ وارتضاءَه إيَّاهم، تعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا؛ ولِكَوْنِ هذا أشنعَ من الأوَّل جُرمًا وأعظمَ قُبْحًا؛ لما فيه من نِسْبَتِهِ سبحانه وتعالى إلى ما يَسْتَحيلُ عليه بالكُلِّيَّةِ من قَبول الكُفْرِ وارتضائه لعباده، ومغفرةِ كُفْرِ الكافرِ وسائرِ معاصيه، فوُجِّه النظرُ إلى كَيفيَّته؛ تَشْديدًا للتَّشْنيع، وتأكيدًا للتَّعجيب[3].

نكتة التعبير عن الافتراء بالمضارع:

استحقاق اليهود التَّهديد والوعيد هو لاستمرارهم على الافتراء

التَّصريحُ بالكذب - مع أنَّ الافتراءَ لا يكون إلَّا كَذِبًا - للمبالغة في تقبيح حالِهم[4].واستمرارهم عليه، والَّذي يَدُلُّ عليه التَّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، حيث أقام المضارع مُقامَ الماضي؛ إعلامًا أنَّهم

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 4/154.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/534، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/55.

(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/534، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/55.

مُسْتَمِرُّون على ذلك[1]؛ لذا استحقُّوا التَّهديد والوعيد الَّذي تَضمَّنَهُ تذييل الآية: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾؛ تَأْكيدًا على سُوءِ المَصِير.

دلالة الإخبار بتركيب ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾:

بلغ اليهودُ الغايةَ في الذَّمِّ لافترائهم واختلاقهم الكَذِب

قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ نهاية في بلوغه غاية الإثم، كما يُؤْذِنُ بِهِ تَرْكِيبُ: كَفى بِهِ كذا[2]، وهو خَبَرٌ، في مُضَمَّنِهِ تَعَجُّبٌ وتَعْجِيبٌ من الأمر، ولذلك دَخَلَتِ الباء؛ لِتَدُلَّ على معنى الأمر بالتَّعجُّب، وأن يُكْتَفى لهم بهذا الكَذَبِ إِثْمًا، ولا يُطْلَبَ لهم غَيْرُهُ؛ إذ ليس وراءه، وهو موبق ومهلك[3].

وإنَّما يُقالُ: (كَفَى بِهِ) في التَّعظيم على جِهَةِ المَدْحِ أو على جهة الذَّمِّ، أَمَّا في المدح؛ فَكَقَوْلِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾، وأمَّا في الذَّمِّ؛ فكما في هذا الموضع[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراء والكذب:

الافتراء أخصُّ من الكَذِب؛ وهو أقْبَحُ الكَذِبِ وأَعْظَمُهُ

الكذب عَدَمُ مُطابقة الخبر للواقع[5]، والافتراء: افتعالٌ من الفَرْيِ، وهو أقبح الكَذِبِ وأعظمه، ويكون في القول والفعل، فيُقَال لمن عَمِلَ عملًا، فَبَالَغ فِيهِ: إِنَّه لَيَفْرِي الفَرْيَ، يَعْنِي: ليقطع الأمر العَجِيبَ[6]، قَال جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ [المُمْتَحِنَةُ: 13]، وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27] قيل: معناه: عظيمًا، وقيل: عجيبًا، ووقع الافتراء في القرآن، والمُراد به: الكذب، نحو: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [المائدة: 103]، والشِّرْكُ، نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا

(1) أبو حَيَّان، البَحْرُ المُحيط: 3/682.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 4/154.
(3) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/66.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/103.
(5) العَسْكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 449.
(6) السجستانّي، غَريبُ القُرْآن، ص: 103.

عَظِيمًا﴾، والشَّيء العَظيم، كما في الآية: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]، وكُلُّ ذلك بِحَسَبِ المقامات الواردة في الكتاب[1].

فالافتراء: أخصُّ من الكذب من باب الأَقوال؛ لأنَّ الافتراء كذب في حقِّ الآخر بما لا يَرْتَضيه، بخلافِ الكَذِبِ؛ فإنَّه قد يَكُونُ في حقِّ المتكلِّم نَفْسِه؛ ولذا يُقَالُ لمن قال: فَعَلْتُ كَذا، ولم أفعل كذَا، مع عدم صدقه في ذلك: هو كَاذِبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفْتَرٍ، وكذا من مَدَحَ أَحَدًا بما ليس فيه، يقال: إِنَّهُ كاذب في وصفه، ولا يُقال: هو مفترٍ؛ لأَنَّ ذلك ممَّا يرتضيه المقول فيه غالبًا. وقد ذكر الله قول الكفَّار: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 93]؛ لِزَعْمِهِمْ أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه الله سُبْحانَهُ مع نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ[2]؛ ومن هنا فالافتراء اختلاقٌ للكذب؛ لذا يُطْلِقُ الفُقهاءُ الفِرْيَةَ والافتراء على القَذْفِ: وهو رَمْيُ المُحْصَنِ بالزِّنى من غير دليلٍ، ومنه قيل: افترى فُلانٌ على فلان؛ إذا قَذَفَهُ بما ليس فيه، أو قذف أَبَوَيْهِ[3].

وأيضًا قد يَحْسُنُ الكذب في بعض الوُجوهِ: كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البَيْنِ، وعدَةِ الزَّوجة، كما وردت فيه الرِّوايات، بخلاف الافتراء[4].

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (فرى).
(2) العَسْكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 450.
(3) الرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 31.
(4) العَسْكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 450.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ [النِّساء: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان نوعٍ من أنواعِ مَكْرِ اليهود في مدح المشركين، بعد التَّعجيب من مَدْحِهِمْ لأنفُسِهِمْ

لَمَّا عَجَّبَ اللّٰه تعالى من مَدْحِ اليَهودِ لأَنْفُسِهِم وافترائهم على اللّٰه الكذب؛ حَكَى عنهم نوعًا آخَرَ من المَكْرِ، وهو أنَّهم كانوا يُفَضِّلُون عَبَدَةَ الأصنام على المؤمنين، ولا شَكَّ أنَّهم كانوا عالِمِينَ بأنَّ ذلك باطل، فكان إقدامهم على هذا القَوْلِ لِمَحْضِ العناد والتَّعَصُّب، فَأُعِيدَ التَّعْجيبُ من اليهود الَّذين أُوتوا نَصيبًا من الكتاب، بما هُوَ أعجب من حالهم الَّتي مَرّ ذِكْرُها، فَلَمَّا عَجَّبَ من كذبِهِمْ؛ دلَّ عليه بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡجِبۡتِ﴾: الجبتُ يُفَسَّرُ بالصَّنم والكاهن والسَّاحر، وأَصْلُ الجِبْتِ: الجِبْسُ، وهو الذي لا خَيْرَ فيه، فأُبْدِلَتِ التَّاء من السِّين، وهذا لَيْسَ من مَحْضِ العَرِبيَّة، لاجتماع الجيم والتَّاء في كلمةٍ واحدة، وهو كُلُّ ما عُبد من دون اللّٰه، فالجِبت: كَلِمَةٌ تَقَعُ على الصَّنَم والكاهن والسَّاحِرِ، والذي لا خير فيه، وكلُّ ما عُبِدَ من دُونِ اللّٰه تعالى[2].

2) ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: كُلُّ مَعْبودٍ مِنْ حَجَرٍ أو صُورَةٍ أو شيطان، يُقالُ: طَغَيْتَ طُغْيانًا، وأَصْلُ الطُّغْيانِ: مُجَاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ، والطَّاغوت من الإِنْسِ وَالجِنِّ: شَياطِينُهم، وكل رأس ضَلالٍ صارِفٍ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/103، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/267، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 4/155.
(2) الخليل، العَيْنُ: (باب الجيم والتاء والباء)، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، وعُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وتاج العروس، والمعجم الاشتقاقي: (جبت).

عَن طريقِ الخيْرِ، وجُمَّاع مَعْنَى الطَّاغوت: أنَّهُ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ[1].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليّ:

التَّعجيب من حال اليهود المادحين لأهل الشِّرك والضلال الذَّامِّين لأهل التَّوحيد والحقِّ

المعنى: ألم تَعْلَمْ - أيها الرسول ﷺ - وتَتَعَجَّبْ من حال اليهود الذين آتاهُمُ اللّه حَظًّا من عِلْمِ الكتاب، يُصَدِّقون بكلِّ ما يُعبدُ من دون اللّهِ من الأَصْنام وشَياطِينِ الإنس والجنِّ، ويَقُولون مُصانَعَةً لِلْمُشْرِكِينَ: إِنَّهُمْ أَعْدَلُ وأقوم طَريقًا من أولئك الَّذين آمنوا[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ المشاكلة في الآية:

التَّأكيدُ القَويُّ على تَأَصُّلِ الكُفْرِ في قُلوبِهِمْ

في قَوْلُهُ تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ مشاكلةٌ[3] لقوله تعالى: ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لأنَّ إيتاءهم ذلك يَدُلُّ على إيمانهم باللّهِ، ولَكِنَّ إيمانَهُمْ بِالجِبْتِ والطَّاغوت دلَّ على كُفْرِهِمْ باللّه ﷻ، فكانت المُشاكلةُ هنا تَقْديرِيَّةً؛ لأنَّ الكلمة المُسْتَعْمَلَة شاكلَتْ نَقِيضَ الكلمة الأولى، وفي وصفهم بالإيمان ﴿بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ تَأكيدٌ قَوِيٌّ على تَأَصُّلِ الكُفْرِ في قُلوبِهِمْ[4].

ومعنى الإيمانِ بِهِمَا: إمَّا التَّصديق بأنَّهما آلهة، وإِشْراكُهما بالعِبادَةِ مع اللّه تعالى، وإمَّا طاعَتُهُمَا وموافقتهما على ما هُمَا عليه من الباطل، وإمَّا القَدْرُ المُشْتَرك بَيْنَ المعنيين كالتَّعْظيم مَثَلًا،

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وتاج العروس: (طغو)، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (طغى)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 128، والسجستانيّ، غَريبُ القُرْآن، ص: 316، وابن قيّم الجوزيَّة، إعلام الموقعين: 1/40.

(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 117، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 86.

(3) المُشاكلة: هي أن يُذْكَرَ الشَّيءُ بلفظ غَيْرِه، لوقوعه في صحبته تَحقيقًا أو تَقْديرًا، فَيَعْمَدُ المتكلِّم إلى معنى غير موجود، فَيُقدِّرُهُ موجودًا من جنس معنًى قابَلَهُ به مقابلة الجَزاءِ أو العِوَض، ولو تَقْديرًا، مِثالُ اللَّفظيَّةِ قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40]، إذِ الجَزاءُ على السَّيِّئَةِ لَيْس بِسَيِّئَةٍ في الحقيقة، لكنَّه سُمِّي: سَيِّئَةً لِلْمُشاكَلَةِ اللَّفظيَّة، ومِثالُ التَّقديريَّةِ قوله تَعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 138]، والمعنى: "تَطْهيرُ الله"، لأنَّ الإيمانَ يُطَهِّرُ النُّفوس، ينظر: الصَّعيديّ، بغْيَةُ الإيضاح: 4/588، والهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 309، وابن عاشور، موجَزُ البلاغة، ص: 41.

(4) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّة: 2/506.

والمُتَبادِرُ المَعْنى الأَوَّلُ، أي: إنَّهمْ يُصَدِّقُونَ بأُلوهِيَّةِ هَذَيْنِ الباطلين، ويُشْرِكُونَهُمَا في العبادة مَعَ الإِلَهِ الحَقِّ، ويَسْجُدُونَ لَهُمَا[1].

علّة التذكير بإيتاء نصيب من الكتاب:

في التذكير تقبيح للفعل، وتعظيم للذنب

ذكرهم تعالى بإيتاء نصيب من الكتاب تقبيحًا لفعلهم، فمن جحد الحق مع معرفته به فهو أقبح فعلًا، وأعظم مأثمًا، وأكبر ذنبًا[2].

دلالة الاستئناف بعد وصفهم بإيتاء نصيب من الكتاب:

في الاستئنافِ تعجُّبٌ مِن حَالِهِم الثَّانية المُنافية لِلازِمِ الحال الأُوْلى

قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ استئنافٌ مُبينٌ لمادّة التعجّب، "وكأنَّه تعجُّبٌ مِنْ حَالِهم؛ إذْ كَانَ يَنْبَغِي لِمَنْ أوتِيَ نَصيبًا من الكتاب؛ ألَّا يَفْعَلَ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ، فَيكُونُ جوابًا لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، كأنَّهُ قيلَ: ألا تَعْجَبُ مِنْ حَالِ الذين أوتُوا نَصيبًا من الكتاب؟ فقيل: وما حالُهم؟ فقالَ: يؤمِنُون، ويقولونَ، وهذان منافيان لحالهم"[3].

توجيه المتشابه اللفظي:

تفريق الخطاب بمقتضى الكتاب الذي نُزّل على رسولهم، أو ذكر حقيقة أمرهم

عبّر هنا بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وخاطبهم في الآية (47) بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾؛ "وذلك لأنهم أنزلت عليهم كتب الرسالة الأولى لنبيهم، فبمقتضاها يدعوهم إلى الإيمان، ولذا عبّر بالكتاب كله لا ببعضه، فهم في هذا المقام يخاطبون بمقتضى الكتاب الذي نُزّل على رسولهم. أما هنا فيذكر حقيقة أمرهم، وهو أنهم نسوا حظًا مما ذُكِّرُوا به. ومن جهة أخرى فإن نيلهم أقل قدر من علم الكتاب يتنافى مع إيمانهم بأتفه الأوهام، وإيمانهم بالظلم والطغيان، واعتبارهما سبيلًا للعيش في الحياة، فهم ظالمون يرضون بالظلم يقع عليهم، ويتنافى علم

(1) ابن جرير، جامع البيان،: 8/465، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/283، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/56.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1273.
(3) ابنُ عادِل، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتاب: 6/421.

الكتاب مع ممالأتهم لعبدة الأوثان على أهل التوحيد، فيقولون في المشركين هؤلاء أهدى طريقًا من المؤمنين"[1].

بيان قولهم ومدحهم لمن شابههم في الكفر والجحود

دلالة اللّام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أَي: لِأَجْلِهِمْ وفي حَقِّهِمْ، فيقولون في حقِّ الكفّار: كيت وكيت[2]، فاللّامُ لَيْسَتْ صِلَةَ القَوْلِ، وإلّا لقيلَ: أَنْتُمْ، بَدَلَ قوله سُبْحانَهُ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: الكُفّار من أَهْلِ مَكَّةَ[3]. واللّام معناها: (عن)، لكنّها - لما تشِي به من معنى: المصانعة في مواجهة المعنيِّين بالتّفضيل عندهم، وهم المشركون - كانت أطبق وأصدق وأوفق.

بيان شِدَّةِ حَسَدِ اليهود وكثرة استهزائهم بالمؤمنين

سرُّ مجيء الخبر بصيغَةِ أفعلِ التَّفضيل:

قوله تعالى: ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، أي: أَقْوَم دِيْنًا وأَرْشَدُ طريقًا، والظّاهِرُ أَنَّهُمْ أطلقوا أفعل التَّفْضيل، ولم يَلْحَظُوا معنى التَّشْريك فيه، أَوْ قالوا ذَلِكَ على سبيلِ الِاسْتِهزاءِ؛ لِكُفْرِهِمْ، وإيرادُ النَّبيِّ ﷺ وأتباعه بعنوان الإيمان هنا لَيْسَ من قِبَلِ القائلين، بَلْ من جِهَةِ اللّه تعالى؛ تَعْريفًا لهم بالوصف الجَميلِ، وتَخْطِئَةً لِمَنْ رَجَّحَ عَلَيْهِم أهل الكُفْرِ المُتَّصِفينَ بَأَشْنَعِ القَبائِحِ[4]، وتنصيلاً لغيرهم من القائلين والمقول لهم من الإيمان بالكلِّيَّة؛ إذ هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومن ليس منهم؛ فليس بمؤمن قطعًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطاغوت والجبت:

الطّاغوت أعمُّ من الجِبت، وفيه زيادة معنى مُجاوَزَة الحَدِّ

الجبت: يُطْلَقُ على الصّنم والكاهن والسّاحر، والّذي لا خير فيه، وكلُّ ما عُبِدَ من دون اللّه تعالى، فصرف العبادة له من الإيمان

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1713 - 1714.
(2) المُنْتَجَبُ الهَمَذاني، الكتابُ الفريد: 2/283.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/56.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/56.

بالجبت والطَّاغوت، فالمعنى الجامع لِلَفْظِ (الجِبت): هو الدَّجَلُ والأَوهام والخُرافات[1]، والهَوى الَّذي يَفيضُ من عقل مُظْلِم وَوِجْدانٍ سَقيم[2]، فالإيمان بالجِبت هو الإيمان بالباطل، والطَّاغوت هو المعبود بالباطل، وهو الشِّيطان، كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: 60 - 61].

والطّاغوت: جاء في القرآن ثَمانيَ مرَّات؛ تَرْغيبًا في الكفر به والإيمان بالله، أو تَنْديدًا بالإيمان به، مِثْل: قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256]، أو تَنْديدًا بالقتال في سبيله، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّساء: 76]، أو على التَّحاكم إليه مرَّة أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ۖ﴾ [النِّساء: 60]، فَهُوَ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ[3]، وهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الطُّغْيَانِ، وَهُوَ الْإِسْرَافُ فِي الْمَعْصِيَةِ، فَكُلُّ مَنْ دَعَا إِلَى الْمَعَاصِي الْكِبَارِ؛ لَزِمَهُ هَذَا الِاسْمُ[4]، فالطَّاغوت من هذه الجِهَةِ أَعَمُّ في المعنى، وفيه معنى مُجاوزةٍ لِلحَدّ في اللَّفْظ.

ولهذا جاء في النَّظم الكريم في الذِّكر الحكيم مرتَّبًا هذا التَّرتيب البديع التَّصاعدي المشعر بتوغُّلهم في الشَّرِّ، فالإيمان بالجبت كان استدراجًا، ومقدِّمة لإيمانهم بالطّاغوت، وهو مردُّ كلِّ الشُّرور الَّتي تصدر عنهم، وتندُّ منهم من كفر متمرّد وعتوٍّ متجدِّد متصلِّد: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النِّساء: 52].

---

(1) المَراغيّ، تَفْسيرُ المَراغيّ: 5/62.
(2) الخطيب، التفسير القرآنيُّ للقرآن: 3/814.
(3) ابن القيِّم، إعلام الموقِّعين: 1/40.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/101.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾

[النّساء: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط افتراء اليهود وتضليلهم للمشركين، باللّعنة الملازمة لهم إلى يوم الدّين

بعد أَنْ بَيَّنَ اللّه حال اليهود الّذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب، وآمنوا بالجِبْتِ والطّاغوت، ولامهم على تفضيلهم الكفر على الإيمان، وتغريرهم بأهل الشّرك والكفران، وقولهم كذبًا وزورًا، أنّ المشركين أهدى من المؤمنين سبيلا، ذكر بأنّهم هُمُ الملعونون المطرودون من رحمة اللّه، والمُخْزَوْنَ بالبُعد عن جنابه، والنّأي عن عفوه وغفرانه، وأن من طالته لعنة اللّه حاضرًا ومصيرا، فلن تجد له نصيرا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعَنَهُمُ﴾: (لَعَنَ) اللَّامُ وَالْعَيْنُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِبْعَادٍ وَطَرْدٍ. وَلَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ: أَبْعَدَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَالْجَنَّةِ، وَيُقَالُ لِلذِّئْبِ لَعِينٌ، واللَّعْنُ: الإبعادُ والطَّرْد مِنَ الخيرِ، والمعنى هُنا: أَبعدَهُمْ من رَحمَتِهِ[1]، وَالرَّجُلُ الطَّرِيدُ لَعِينٌ، والرّجل اللّعين لا يزال منتبذا عن النّاس، شبه الذّئب به. وكلّ من لعنه اللّه فقد أبعده عن رحمته، واستحقّ العذاب، فصار هالكا، وفيه يقول الشّاعر الشّمّاخ:

ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ *** مَقَامَ الذِّئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ[2]

ومنه لفظ الحديث: (اتَّقُوا المَلاعِنَ الثَّلاثَ)، هي جمع ملعنة، وهي الفعلة الّتي يلعن بها فاعلها، كأنّها مظنّة للعن، ومحلٌّ له، وهي أن يتغوّط الإنسان على قارعة الطّريق، أو ظلّ الشّجرة، أو

(1) الأنباريّ، الزّاهر: 2/82.
(2) الأَزْهَرِيّ، تَهذيبُ اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب: (لعن).

جانب النّهر، فإذا مرّ بها النّاس لعنواْ فاعلها[1]، ومعقد المعنى أنّ "اللّعن: الطّرد والإبعاد، ومن أبعده اللّه لم تلحقه رحمته، وخلد في العذاب"[2].

2) ﴿نَصِيرًا﴾: النّصر: "هو المعاونة والتّأييد، بضدّ الخذلان، نصره اللّه ينصره نصرا ونصرة، فهو ناصر والمفعول منصور، والنّصير: فعيل من ناصر، مثل شهيد من شاهد"[3]، "واستنصره على عدوه، أي سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضهم بعضا. ونصر الغيث الأرض، أي غاثها. ونصرت الأرض فهي منصورة، أي مطرت. وقال الشّاعر يخاطب خيلا:

إِذَا دَخَلَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ فَجَاوِزِي *** بِلَادَ تَمِيمٍ وانْصُرِي أَرْضَ عَامِرِ[4]

والنّصير: فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، لأنّ كلّ واحد من المتناصرين ناصر ومنصور[5]، وَنَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان مصير اليَهودِ المضلّلين، واستحالة فرارهم من لعنة الله ربّ العالمين

الآية تؤكّد أنّ هذه الشّرذمة الماكرة، من اليهود الّذين زيّفواْ الحقائق، وبدّلواْ المفاهيم، وادّعواْ أنّ دين أهل الشّرك الذّميم، أهدى من صراط أهل التّوحيد المستقيم، قد استحقّواْ أن يطردهم اللّه فلا ينالون منه رحمة، وأن يسلبهم فلا يحظون منه بنصرٍ أو حماية، ونتيجة ذلك أنّه لّما كَثُرَ فسادهم، وعمَّ ضلالهم، عاقبهم اللّه بطردهم من الرّحمات، ومَن يطرده اللّه من جنابه، ويحرمه

(1) ابن الأثير، النّهاية: (لعن).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لعن).
(3) ابن دريد: جمهرة اللّغة: (رصن).
(4) الجوهريّ: الصحاح: (نصر).
(5) ابن الأثير: النّهاية: (نصر).
(6) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (نصر).

من عوارف إنعامه، وألطاف منّته وإكرامه، فلن تجد له من ينصره، ويدفع عنه سوء العذاب[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الاستئناف باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

تجليّة الإشارة لضلال اليهود، واستحقاقهم اللعنة

الجملةُ مستأنَفَةٌ لبيانِ حالِهم، وإظهارِ مآلِهم، وذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وهو اسم إشارة، دالٌّ على البعد، وقد ورد في السّياق، لإبراز إيغال اليهود في الزّيغ، والإشعارِ ببُعدِ منزلتِهم في الضَّلال والتّزييف[2]، فعقَّب التَّعجب السَّابق، من إيمانهم بالجبت والطّاغوت، وتشجيعهم أهل الكفر على ضلالهم، جاء السّياق بالإشارة إليهم، بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، وقد كان موقع اسم الإشارة مفيدًا؛ في ربط ما سبق بما لحق، والتّأكيد على أنّ من بَلَغَ هذا المبلغ، في الضّلال والتّضليل، صار كالمُشاهَدِ المعلوم، فناسب قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، أَنْ يُشارَ إلى هذا الصّنف المقدّم لكي يُرى حالُهُ في ضلاله وزيغه، بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ليُلفت النّظر إلى ما يتّسمون به، وعليه، فقد جاء اسْم الإشارة تَنْبيهًا للنّبيّ ﷺ وللمؤمنين، على أنَّ المُشارَ إليهم، جديرون بما سَيُذْكَرُ من الحُكْم باللّعن عليهم، لِأَجلِ ما تَقَدَّم من أَحْوالِهم[3]، وما سيؤولون إليه من سوء المصير.

أثر طرفي الإسناد في إبراز المعنى، وإيضاح الدّلالة:

الإيمــاءُ إلى الإخبار عن الخذلان، واستحقاق اللّعنة والهوان

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾؛ أي أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ على الحقيقة، وقد كان ذِكرُ المُسنَدِ إليه لاختصاصه بالمُسنَد، ودلَّ على ذلك صيغة الجمع في اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفي الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وفي الضَّمير الواقع مفعولًا به في ﴿لَعَنَهُمُ﴾،

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 87.

(2) أبو السُّعود، إرشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/189، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/55.

(3) ابنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/87.

على أنَّ الكلام عن جماعة اليهود الذّاهبين إلى المشركين بحثًا عن النُّصرة[1]، قد استحقّوا بذلك أن يُجعلوا مثالًا لكلّ مُبعدٍ تطاله لعنة اللّه، ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُسلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ الْيَهُودَ مَلعُونُونَ، فالمَقصُودُ مِنَ الصِّلَةِ هُوَ مَا عُطِفَ عَلَيهَا بِقَولِهِ: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾، والمَوصُولُ على كِلَا الاحتِمَالَينِ فِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى تَعلِيلِ الإِخبَارِ الضِّمنِيِّ عَنهُم، بِأَنَّهُم لَا نَصِيرَ لَهُم؛ لأَنَّهُمْ ملعونون من اللّه، والَّذِي يَلعَنُهُ اللّه لَا نَصِيرَ لَهُ[2].

دلالةُ الشَّرطِ وجوابه في قوله: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾:

سُوءِ حال اليهود الملعونين، وبيان أنْ لا نصرإلّا من ربّ العالمين

قوله تعالى ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾، الواو استئنافية ومن شرطيّة، وفعل (يلعن) فعل الشّرط مجزوم، والفاء رابطة، والجملة المقترنة بالفاء في محلّ جزم جواب الشّرط[3]، و﴿وَمَن﴾: تحتملُ معنى الجمع والإفرادِ، ومع إفادتها معنى العُموم، كانت واسطةً في المعنى بَينَ الجمع السَّابق، وبَينَ الإفراد في جَعلِ الحُكْم قاعدةً عامَّة، تَنسَحِبُ على كلِّ من استحقَّ لعنةَ اللّه، كما أنَّ في هذا الشَّرطِ وجوابه إيماءً إلى وعدِ المؤمنين بأنّهم المنصورون؛ حيث كانوا بضدِّ هؤلاء، فهم الّذين قرّبهم اللّه تعالى، ومن يقرّبه اللّه تعالى فلن تجدَ له خاذلاً[4]، ففِيهِ وَعدٌ لِلرَّسُولِ - ﷺ بِالنُّصرَةِ، ولِلمُؤمِنِينَ بِالتَّقوِيَةِ، بِالضِّدِّ على الضِّدِّ، كَمَا قَالَ في الآيَاتِ المُتَقَدِّمَةِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾[5].

(1) وإلى هذا ذهب جمهور المفسّرين: "وهذه قصّة أخرى من سيّئات اليهود التّي عملوها سابقا فيما بينهم يخبر الله تعالى رسوله بها، وهي أنّ حييّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف، ذهبا إلى مكّة بعد واقعة أحد في سبعين رجلا من أصحابهم ليحالفوا قريشا على حرب رسول الله ﷺ الحلف الذي أخزاهم الله به وشتّت شملهم ... ونقضوا عهدهم معه، فقالت لهم قريش إنّا لا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم، فإن أردتم أن تسجدوا لهذين الصّنمين فنختبر صدقكم فسجدوا" ينظر: العاني، بيان المعاني: 5/564.

(2) ابنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/87.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/236.

(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/54.

(5) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/102.

سِرُّ تَكرار فِعلِ اللّعنِ واسم الجلالة، في قوله: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ﴾:

ثُبوتُ اللّعن لليهود، واستمراره في كلّ العهود

فقد جاء الفعل أوّلًا بصيغة الماضي، في قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ﴾، ثُمَّ بصيغة المضارع في قوله ﴿يَلۡعَنِ﴾، فهَذَا اللَّعنُ بهذا الاعتبار، حَاضِرٌ في الدُّنيا، وباعتبار المستقبل، فإنّ المضارع، يناسب ما سوف تؤول إليه الدّنيا بقضّها وقضيضها، وما ينتظره المؤمن في الآخرة، وما في الآخِرَةِ أعظَمُ، وهُوَ ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: 19]، وقد كرَّر السّياق التّعبيرَ بالاسم الأعظم الفاعل؛ لأنَّ المَقامَ يَقتَضي ذكر اسم الجلالة الأعظم، إِشعارًا بتأصّل الكفر، وتناهي الضّلال عن هدي اللّه، ممّا يعتبر أعظم المعاصي، وهو ما يقابل أشدّ السّخط، وتَناهي الغَضَبِ[1]، الّذي يفضي إلى اللّعنة، لأنّ اللّه لا يقبل أن يشرك به، ولا يرضى لعباده الكفر.

دلالة تقديم المفعولِ به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ﴾:

وقوع اللّعن من الله على الملعونين خسران وهوان

قوله: ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافيّة، ولفظ (من) مفعول به مقدّم للفعل ﴿يَلۡعَنِ﴾، وهو فعل الشّرط مجزوم بالسّكون وحرّك بالكسر لالتقاء السّاكنين. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل مرفوع على التّعظيم[2]، ولم يذكر المفعول به بعد الفعل ﴿يَلۡعَنِ﴾ لِسَبْقِ ذكره في سياق الآية بقصد الإيجاز؛ وتقديم المفعول الّذي وقع عليه اللّعن، دليل على شناعة وقوع اللّعن على من وقع عليه اللّعن، وفي لفظ ﴿وَمَن﴾ الّتي صُدّر بها الكلام، معنى العموم، وبتقديم المفعول به يمتنع وروده ضميرا متّصلا بالفعل، فلا يقال (ومن يلعنه اللّه)، ممّا يعطي لفظ الجلالة بروزًا بعد الفعل، يوحي بضخامة أَمر لَعنِه، لوقوعه من معظّم، فيكون ذلك أدعى لتجنّب مُسَبِّباتِ اللّعن، ناهيك عن أهميّة ذلك في الإيجاز الّذي تتّسم به اللُّغةُ العربيَّةُ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/102، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/301.

(2) الدّعاس: (وآخران)، إعراب القرآن الكريم: 1/201.

دلالةُ النَّفي بلنْ، في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾:

الحرمان الأبديّ من النّصير، دلالة على سوء المصير

قوله ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ لفظ (لنْ) هنا لتأكيد النّفي، ويقول الزّمخشريّ: "إنّ لن تفيد تأكيد النّفي أبدا"[1]، أي أنّهم لم ينصرهم الله، ولن يجدوا أبداً نصيرا من النّاس، تستمر نصرته، وإذا استطاعوا أن يستنصروا بأمثالهم في هذه الأيّام، فإنّ الخذلان وراءهم لا محالة في الدّنيا والآخرة، طال الزّمان أم قصر[2]، وتفيد ﴿فَلَن﴾ توجيه الخطابِ إلى كلِّ واحد يَصْلُحُ له، مع التَّعبير عن عَدَمِهِ بعدم الوِجدان المؤذِنِ بسبقِ الطَّلب، مُسندًا إلى المخاطب العامِّ من الدَّلالة على حرمانهم الأبديِّ، عن الظَّفر بما أملُّوا بالكليَّة ما لا يخفى[3]، والفاءُ هي الرّابطةُ للجواب المحذوف بالظّاهر، والتّقدير: ومن يلعن اللّهُ مطرودٌ من رحمتِه فلن تجدَ له نصيرًا على الإطلاق.

السِّر في مجيء صيغة المبالغة مُنَكَّرَةً، في قوله: ﴿نَصِيرًا﴾:

صيغة المبالغة تقوية لدلالة النَّفي وعُمُوم معناه

لفظ ﴿نَصِيرًا﴾ صيغة مبالغة للتّأكيد، بعدم حصول النّصرة من الله ابتداء، كما يدلّ عليه مدلول السّياق، ومن كلّ ناصر مألوف في العادة، ودلالة صيغة المبالغة، تقويّة مفهوم النَّفي، وقد جاء قوله: ﴿نَصِيرًا﴾ نكرة للمُبالغة، ونفي احتمال وقوع المنفيّ، معَ ما يلحظ من وجود المبالغة في صيغتها أصالةً[4]؛ لأنَّ الحقَّ ﷻ ما دام قَد طَرَدَهُ،

(1) قال الشّنقيطيّ: "وبالجملة فقد اختلف أهل العربيّة، في إفادة لن تأبيد النّفي، حيث لم يصرف عنه صارف، وعدم إفادتها لذلك، فعلى القول: بأنّها تفيد التّأبيد فقوله ﷺ لأبي بردة: (ولن تجزئ عن أحد بعدك)، يدلّ على تأبيد نفي الإجزاء، كما ذكرنا وعلى عدم اقتضائها التّأبيد، فلا تقل عن الظّهور فيه، حتّى يصرف عنه صارف، وبذلك كلّه تعلم أنّ الجمع بين حديث أبي بردة، وحديث عقبة بن عامر، كالمتعذّر فيجب التّرجيح، وحديث أبي بردة: أرجح"، ينظر: الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/216.

وكتب الأستاذ هارون محمّد أمين في بريد الرّسالة الأدبيّ، عدد: 765، تعليقا تحت عنوان: (لن لا تفيد تأكيدا ولا تأييدا) تعقّب فيه ما جاء في كلام عبد العزيز فهمي باشا، من إفادتها لذلك، وقال: "والذي أعلمه أن: (لن) كما ذهبت إليه جمهرة النّحاة، لا تقضي تأييد النّفي ولا تأكيده، ولم يقل بذلك إلّا الزّمخشريّ.. الخ"، ثمّ ذكر في التّدليل على إبطال ما ذهب إليه الزّمخشريّ، قوله وأذكر في الرّد عليه أدلّة، منها أنّه لم يقم دليل على كونها للتّأييد، وأنّها لو كانت كذلك للزم التّناقض بذكر اليوم، في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ٢٦﴾ [مريم: 26]، وللزم التّكرار بذكر الأبد، في قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: 83]، ينظر: مجلّة الرّسالة، العدد: 772.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1715.

(3) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/189، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/55.

(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/55.

فهو يقذف في روع النَّاس كُلِّهم بغضه والتّخلّي عنه، وعدم تلبيّة استغاثته بطلب النّصرة، مهما كان السّببُ وجيهًا وملحًّا، فلا يبادر إلى نصرته أحد[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الوَليّ والنَّصير:

الوليُّ: هو المُعينُ الذي تَرْكَنُ إِلَيهِ وتعتَمِدُ عَلَيهِ، وتحتَمي بِهِ عِندَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّراءِ والضَّراءِ[2]، والوِلاية أصلُها الحبُّ، فلا مُوالاة إلّا بحبٍّ، كما أنّ العداوةَ أصلُها البغضُ، واللهُ ولي الّذين آمنوا، وهم أولياؤُه، فهم يوالونه بمحبّتهم له[3]، وهو يواليهم بمحبّته لهم. أمَّا النَّصيرُ: فَهُوَ على وَزْنِ (فَعيلٍ)، والمَقصودُ مِنْهُ اسْمُ الفاعِلِ (ناصِرٌ)، والنَّاصِرُ: هُوَ الذي يُعينُ غيرَهُ ويُقوِّيهِ[4]، والنَّصيرُ في حَقِّ اللهِ تَعالى المَوثوقُ مِنهُ بِأَنْ لَا يُسلِمَ وَلِيَّهُ ولَا يَخذُلُهُ، بَل يَنصُرُهُ ويُعينُهُ ويُسَدِّدُهُ، وقَدْ سَمَّى اللهُ تبارَكَ وتَعالى نَفسَهُ باسْمِ النَّصيرِ، فقالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، واللهُ ﷻ هُوَ النَّصيرُ الّذي يَنصُرُ عِبادَهُ المُؤمِنينَ ويُعينُهُمْ، قال تَعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرُّوم: 47][5].

اللّعنة والشّتيمة:

واللّعنة: الدّعاء عليه، واللّعنة: الكثير اللّعن، واللّعنة: الّذي يلعنه النّاس، والتعن الرّجل، أي يقول لخصمه إنصافا من نفسه: على الكاذب منّي ومنك اللّعنة. وتلاعنوا: لعن بعضهم بعضا، واشتقاق ملاعنة الرّجل امرأته منه في الحكم، والحاكم يلاعن بينهما ثمّ يفرق، قال جميل:

إِذا مَا ابْنُ مَلْعُونٍ تَحَدَّرَ رَشْحُهُ *** عَلَيْكِ فمُوتِي بَعْدَ ذَلِكِ أَوْ ذَرِي[6]

والشّتم: السّبّ، يقال: شتمت الرّجل أشتمه شتما، والاسم الشّتيمة والمشتمة أيضا،

(1) الشّعْراوي، تَفسيرُ الشَّعْراوِيّ: 4/2316.
(2) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 284.
(3) ابْنُ القَيِّم، الجواب الكافي، ص: 229.
(4) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 189.
(5) القحطاني، شَرْحُ أَسْماءِ اللهِ الحُسْنى، ص: 222 - 223، (بِتَصَرُّفٍ يَسيرٍ).
(6) الخليل، العين: (لعن).

ورجل شتّامة: كثير الشّتم كما قالوا علامة ونسابة[1]، وأنْشد أَبو زيد لعون بن عبد الله بن عتبَة بن مَسْعُود:

فَكَيْفَ بِأَطْرَافِي إِذَا مَا شَتَمْتَنِي *** وَمَا بَعْدَ شَتْمِ الْوَالِدَيْنِ صُلُوحُ[2]

وأمّا اللّعن: فقد يكون بمعنى السّبّ، إذا كان من المخلوق، وأمّا إذا كان اللّعن من الله، فيكون معناه الطّرد والإبعاد من رحمته ﷻ، وفي اللّسان: الشّتم: قبيح الكلام وليس فيه قذفٌ.. وقال سيبويه في باب ما جرى مجرى المثل: (كُلُّ شَيْءٍ وَلَا شَتِيمَةُ حُرٍّ)[3].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شتم).
(2) ابن قتيبة، غريب الحديث: 1/225.
(3) ابن منظور: لسان العرب: (شتم).

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ٥٣ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥﴾ [النساء: 53 - 55]

❁ مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

لعنة اليهود تفضي إلى النّار ذات الوقود، بسبب البخل والحسد والجحود

بعد أن وصَف اللّه تعالى اليهودَ في الآيات السّالفة، بالجهل المطبق، والضّلال المفسد، من حيث اعتقادِهم أنَّ عبادةَ الأوثان الصمّاء، أفضلُ من عبادة اللّه ذي العزّة والعلاء، أتبع ذلك بوصَفهم في هذه الآيات بالبُخلِ، والحَسَدِ والصَّدِّ عن طريق الإيمان، ومسلك الهداية[1]، حيث شرع في تفصيلِ بعضِ قبائحِهم الأخرى[2]، وقد كان فضل اللّه عطاءً للنّبيئين وآلهم، فكان من أقوامهم المؤمنُ المُهتدي، والصّادُّ المُعتدي، الذّي يؤول إلى السّعير، وبئس المصير.

❁ شَرحُ الْمُفرَداتِ:

1) ﴿نَصِيبٞ﴾: أي: حظٌّ، والنَّصيب الحظُّ المنصوب أي المُعَيَّنُ، من نَصَبَ الشَّيءِ وَضَعَهُ وَضعًا نَاتئًا، كنَصْبِ الرُّمح والبِناء والحَجَرِ وجمعه أَنْصِباءُ، وأصل (نَصَبَ) يَدُلُّ عَلَى إِقَامَةِ شَيءٍ وأهدَافٍ فِي استِوَاءٍ، والنَّصِيبُ: الحَظُّ مِنَ الشَّيءِ، يُقَالُ: هَذَا نَصِيبِي؛ أَيِ: حَظِّي، وهُوَ مِنْ هَذَا، كَأَنَّهُ الشَّيءُ الَّذِي رُفِعَ لَكَ وأَهدَفَ، والمعنى هنا: حظٌّ مما يُمَلَّكُ[3]، ومن المجاز: لي نصيب منه: أي قسم، منصوب مشخّص، كذا في الأساس[4]، صاحب النّصيب هو الّذي

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.
(2) أبو السُّعود، إرشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/189.
(3) الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغَة: (نصب)، والعُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن: 2/141.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصب).

أراد له القدر أن يفعل شيئا أو يناله، من حظّ وسعادة[1]، ونَصيبٌ بمعنى جزء من شيء، ومنه: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]، أو حظّ من كلّ شيء، ومنه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]، أو جزء من مالٍ مقسوم اخْتُصَّ به أحد المتقاسِمين "كانت الدّار نصيبَه من ميراث والده"[2].

2) ﴿نَقِيرًا﴾: النَّقيرُ: النَّقرةُ التّي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيءِ الطَّفيفِ، يُقال ما أغنَى عَنْهُ نَقِيرًا؛ أي: شَيْئًا، وأَصلُ (نَقَرَ) يَدُلُّ عَلَى قَرعِ الشَّيءِ المُفضِي إلى النَّقْبِ ومِنهُ نَقْرَةٌ ونُقَارَةٌ؛ أي: قَدرَ ما يَنْقُرُ الطَّيْرُ، والنِّقْرُ: الشَّيءُ التَّافِهُ القَليلُ[3]، قَالَ أَبُو هُذَيل، أَنْشدهُ أَبُو عَمْرو بن الْعَلاء:

وإِذَا أَرَدْنَا رِحلَةً جَزِعَتْ *** وَإِذَا أَقَمْنَا لَمْ تُفِدْ نَقْرَا[4]

وفي حديث ابن عبّاس، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ١٢٤﴾ [النّساء: 124] "وضع طرف إبهامه على باطن سبابته ثمّ نقرها، وقال: هذا النّقير"[5].

3) ﴿يَحْسُدُونَ﴾: يَتَمَنَّوْنَ زَوَالَ النّعمة عَنْهُ، من حَسَدَ يَحْسُدُ حَسَداً وحُسوداً، وهو حاسِدٌ، يقال حَسَدَه: تَمَنَّى أن تَتَحَوَّلَ إليه نِعمَتُه وفضيلَتُه، أو يُسلَبَهُما، والحسدُ شعورٌ حادٌّ يحتبّسُ في جوف الحاسدِ، فيكرَه وُجُودَ النّعمة عند المحسودِ إن كانت موجودةً، وصيرورتَها إليه إن لم تكن[6]، قال الأخفش: وبعضهم يقول: يحسده بالكسر. قال: والمصدر حسدا بالتحريك وحسادة[7]، ويقال: حسدتك الشّيء، أو على الشّيء، قال الشّاعر:

فقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فقَالَ مِنْهُمْ *** فَرِيقٌ نَحْسُدُ الإِنْسَ الطَّعَامَا[8]

4) ﴿فَضْلِهِۦ﴾: الزِّيادةُ على الاقتصار، وهُوَ ضِدُّ النَّقْص، ومِنَ الفضل ما هو محمودٌ

---

(1) بيتر آن دُوزِي، تكملة المعاجم العربيّة: (نصب).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2218.
(3) ابْنُ عَبَّاد، المُحيط، وابْنُ سِيدَه، المُحْكَم، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقايِيسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (نقر)، والسِّجِستانِيّ، غَرِيبُ القُرْآن، ص: 460، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 140.
(4) ابن سيده، المحكم: (نقر).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (نقر).
(6) الخليل، العين، الجَوْهَرِيّ، الصّحاح، والفَيْروزآباديّ، القاموس المحيط، وجبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيّ: (حَسَدَ)، والمحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْن، ص: 110.
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (حسد).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حسد).

كفضل العلم والحِلم، ومذمومٌ كفضل الغضب على ما يجب أن يكون، وأَصْل (فَضَلَ) يَدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ فِي شَيءٍ، وفَضَلَ يَفْضُلُ فَضْلًا، وَرَجُلٌ مِفْضَالٌ كَثِيرُ الخَيْرِ، والفضيلة: الدَّرجة والرِّفعة في الفضلِ، وأفضَلَ فُلان على فلانٍ: أنالَه من فضلِه وأَحْسَنَ إليه، والمعنى هُنا: ﴿مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ يعني: النُّبوَّةَ والكتابَ والنُّصرةَ والإعزازَ وجعلَ النَّبيِّ الموعود منهم[1].

5) ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: الحِكمَةُ: (العِلْمُ) بحَقائق الأَشْياءِ على مَا هِيَ عَلَيه، والعَمَلُ بمُقْتَضاها، فالحِكمَةُ علمٌ وعملٌ، ولا يسمّى الرّجلُ حكيمًا حتّى يجمعهُما، ومَرْجِعُها إلى العَدْلِ والعِلْم والحِلْم، والحَكيمُ: العالم، وصاحب الحكمة. والحَكيم: المُتقِن للأمور، وأَصْل (حكم) المَنْعُ، والحِكْمَةُ هَذَا قِيَاسُهَا، لِأَنَّهَا تَمنَعُ مِنَ الجَهلِ، وكلُّ كلمةٍ وعَظَتْك وزَجَرَتك ودَعَتك إِلَى مكرمَةٍ، أَو نهتك عَن قَبِيح فهِيَ حِكْمَة، والمعنى هنا: النّبوّة[2].

6) ﴿صَدَّ عَنۡهُۚ﴾: أي: أعرَض وانصرَف وصدف عنه، يُقال صَدَّ عَنْهُ يَصُدُّ بِضَمِّ الصَّادِ صُدُودًا، إِذا صدف عَن الشَّيءِ أَو أعرض عَنهُ، وَأَصْل (صَدَّ): إعراضٌ وعدولٌ[3]، وفي قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [النّمل: 43]، منعها عن الإيمان، العادة الّتي كانت عليها، لأنها نشأت ولم تعرف إلا قوما يعبدون الشّمس، فصدّتها العادة[4]، ومن المجاز: صدّ السّبيل: إذا اعترض دونه مانع[5].

7) ﴿سَعِيرًا﴾: اتِّقادًا ولَهيبًا، والسَّعْرُ التِهابُ النَّار، وسَعَرَ النَّارَ والحَربَ، يَسْعَرُهَا سَعْراً: (أَوْقَدَها) وهَيَّجها، وأصل (سَعَرَ) يَدُلُّ عَلَى اشتِعَالِ الشَّيءِ واتِّقَادِه، والسَّعير أَيضًا اسْم من أَسماء جَهَنَّم، والمعنى هُنا: أي: نارًا مُوقَدَةً يُعذَّبُون بها[6]، وقرئ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِرَتۡ ١٢﴾ [التكوير: 12] و﴿سُعِّرَتۡ﴾ مخفّفا ومشدّدا، والتّشديد للمبالغة[7].

---

(1) الخليل، العين، والرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ عَبَّاد، المُحيط، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (فضل)، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/79.

(2) الفَراهيديّ، العين، وابْنُ دُرَيْد، جَمْهَرَةُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (حكم)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 32، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/89.

(3) الرَّاغِب، المُفردات، والرَّازيّ، مُخْتارُ الصِّحاح، وابْنُ سِيدَه، المُحْكَم: (صدد)، وابْنُ عَبَّاد، المُحيط، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (صدَّ).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صدَّ).

(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صدد).

(6) الرَّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (سعر)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 261، والسِّجِسْتانِيّ، غَريبُ القُرْآن، ص: 259، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/222.

(7) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 148.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

البُخْلُ والحسد والكفران، أدّت باليهود إلى الخسران والعذاب والهوان

تؤكّد الآيات أنّه لو كان لليهود حَظٌّ من المُلْكِ، لبخلوا به، ولم يجودوا بالفتيل ولا القطمير، بل إنّ ديدنهم أن يَحسُدوا العرب على ما آتاهم اللّه من فضله، ببعث مُحَمَّدٍ ﷺ وأمّته، على ما أعطاه اللّه من النُّبُوَّةِ والتَّمكين في الأرض، مع أنّ اللّه أعطى إبراهيم وذريّته الكتاب المُنَزّلَ، والحكمة الرّضيّة، والملك العظيم، فكان منهم مؤمن أوّاب، وكافر مرتاب، وحَسْبُ هؤلاء المعرضين عن دعوة الحقّ، جهنّم المحرقة بالنّار(1)، تتسعّر بهم وبئس القرار.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستفهام الإنكاريّ ودلالته على التّوبيخ والتّقريع:

تبشيع وتنديد بصفات اليهودِ، الدّالة على فساد الطّبع والمعتقد

سبق هاهنا اسْتِفْهَامٌ عَلَى سَبِيلِ المَعْنَى، فهو تَعَالَى لَمَّا حَكَى عَنْ هَؤُلَاءِ المَلْعُونِينَ قَوْلَهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ: (إِنَّهُمْ أَهْدَى مِنَ المُؤْمِنِينَ)، عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ؟ فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: أَمِنْ ذَلِكَ يُتَعَجَّبُ، أَمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ؟(2)، و: ﴿أَمْ﴾ مُنقطعةٌ تُفَسَّرُ بـ(بل وهمزةِ الاستفهام؛ أي: (بلْ أَلَهم)، والاستفهامُ فيه إنكاريٌّ، حُكمُهُ حُكمُ النَّفْيِ؛ أي: ليس لهم شَيءٌ من المُلْكِ البَتَّةَ(3)، ومعناه التَّوبيخُ والتَّقريع، وإنكارُ أنْ يكونَ لهم نصيبٌ من المُلْك، وجَحْدٌ لِما زعمَت اليهودُ من أنَّ المُلك سيصير إليهم، ويجوز أن يكون المعنى إنكارَ أنَّهم أوتوا نصيبًا من المُلك على الكِناية، وأنَّهم لا يؤتونَ النَّاسَ شيئًا(4)، فالآيةُ نزلت في أهل الكتابِ، وقد خَصَّهَمُ المولى ﷻ بهذا الإنكار

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 118، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفسير، المُخْتَصَرُ في تَفسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 87، (بتصرّف).

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/102.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/103.

(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/521، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/79، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/682، وأبو السّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/189، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/88.

الذي تَحمِلُهُ هَمزَةُ الاستفهام، وأنكر عليهم أن يكون لهم نصيبٌ من مُلْكِ اللّه[1]؛ لأنَّ حالَهم يَدُلُّ على اعتقادهم بهذا.

فائدةُ عطفِ الجزاء على أسلوب الاستفهام:

دلالــة التَّهكـمِ بِهِمْ والتَّعريضُ بِبُخْلِهم البئيس

فقوله ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾: فائدة (إذًا) تأكيدُ الإنكار والتَّوبيخ؛ حيث يجعَلون ثبوتَ النَّصيبِ سببًا للمنعِ، مع كونه سببًا للإعطاء[2]، وفيه: تَعريضٌ؛ حيث عرَّض بشدَّة بُخلِهم[3]، ويدخل في هذا ابتداءً أن لو كان لليهود حكمٌ في مملكة اللّه ما أعطواْ محمّداً من النُّبوَّة شيئًا[4]، فالعَطفُ بالفَاءِ عَلَى جُملَةِ ﴿لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾، وكَذَلك ﴿فَإِذٗا﴾ هِيَ جَزَاءٌ لِجُملَةِ ﴿لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾، واعتُبِرَ الاستِفهَامُ دَاخِلًا عَلَى مَجمُوعِ الجُملَةِ وجَزَائِهَا مَعًا؛ لِأَنَّهُم يَنتَفِي إعطَاؤُهُمُ النَّاسَ نَقِيرًا عَلَى تَقدِيرِ ثُبُوتِ المُلْكِ لَهُم، لَا على انتِفَائِه، وهَذَا الكَلَامُ تَهَكُّمٌ عَلَيهِم في انتظارهم أَنْ يَرجِعَ إِلَيهِم مُلْكُ إِسرَائِيلَ، وَتَسجِيلٌ عَلَيهِم بِالبُخلِ الَّذِي لَا يُؤَاتِي مَنْ يَرجُونَ المُلْكَ[5]، فجعل اللّهُ ﷻ بُخْلَهُمْ كالمانع من حصول المُلْك لهم، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الملكَ والبخلَ لا يجتمعان[6]، وعلَّل سُبْحانه عدم استحقاقهم لهذا النَّصيب، وأنكره عليهم لِمَا هُمْ عليه من اللُّؤْم ودناءةِ النَّفس؛ لأنَّه لو جَعَلَ لهم نِصيبًا من المُلْك لا يُعطُونَ النَّاس نَقيرًا منه لِشدَّةِ بُخلِهم وقُوَّةِ حَسَدِهِمْ[7]، والمَقصودُ من هذا المبالَغةُ في احتقارهم، فَهُمْ أَحِقاءُ بذَلِكَ.

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/521.
(2) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/190.
(3) أَبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/682.
(4) الدِّيرينيّ، الكفاية، ص: 618.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/88.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/103.
(7) الشَّوكانّي، فتح القدير: 1/552.

تقديم السَّبَب عَلَى المُسَبَّبِ، بتقديم الجهل على البخل والحسد:

الجهل مدخل إلى الضّلال، وفساد للأخلاق بالاعتلال

قَدَّمَ السّياق وَصْفَ اليهود بِالْجَهْلِ في الآيات السّابقة، والجهل هو عدم العلم الذّي هو الْقُوَّة النَّظرِيَّة، عَلَى وَصْفِهِمْ بِالْبُخْلِ وَالْحَسَدِ، بفقدان الخصال الشّريفة الّتي هي االْقُوَّة الْعَمَلِيَّة، فكَانَ منطقيّا أن يبدأ بما حقّه التّقديم، علمًا بأنّ السّبب لحصول البخل والحسد، إنّما هُوَ الْجَهْلُ، والسَّبَبُ مُقَدَّمٌ عَلَى المُسَبَّبِ، وعكس البخل البَذْلُ الّذي هو سَبَبٌ لِطَهَارَةِ النَّفْسِ وسموّها وسعادتها، ولذلك كان الْبُخْلُ داعيا إِلَى الدُّنْيَا، ومُبعدًا عَنِ الآخِرَةِ، ومن رجّح الفانية على الباقيّة، كان ذلك دليلا على تأصّل الجهل فيه، وكذلك الأمر بالنّسبة إلى الْحَسَد، فهو مَحْضُ الْجَهْلِ، لأنّ الحاسد يريد منع نعم اللّه عن عباده، ومن كان كذَلِك، فكَأَنَّهُ أَرَادَ عَزْلَ الإِلَه عَنِ الإِلَهِيَّة، فَثَبَتَ أَنَّ السَّبَبَ الأَصْلِيَّ لِلْبُخْلِ وَالْحَسَدِ إنّما هُوَ الْجَهْلُ، لذلك بدأ به، وجعل ما بعده لاحقا له، ومتّصلا به دلالة وغاية، وهو ما تتجلّى به بلاغة النّظم، بوضوح وجماليّة[1].

بلاغةُ التّعبير بلفظةِ (النَّقير)، في قوله ﴿فَإِذَا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾:

أثر الإستعارة التّصريحيّة، في بيان شدّةِ الإمساك، والإغراق في الضّلال

والنَّقير: النَّقرةُ في ظهر النَّواةِ، ويُكَنَّى به عن الشَّيءِ الحَقير[2]، والغَرَضُ أَنَّهم يَبْخَلون بأَقَلِّ القليل[3]، وهذا هو الإغراق في بيان شُحِّهم؛ لأنّهم بَخِلُوا بالنَّقير، وهُمْ مُلوكٌ، فما ظَنُّكَ بهِم إذا كانوا فقراء، فعَبَّرَ عن هذا الإغراقِ بمنعهم النَّقير الّذي هُوَ كنايةٌ عن الغاية في الحقارة والقِلَّة، على مجاز العرب واستعارتها[4]؛ حيث شبّه القليلَ الّذي يؤتونه للنّاس بالنَّقير، بجامع الضآلةِ والحقارةِ في هذا المأتيّ على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وهو أمرٌ مشاهدٌ فيهم

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 4/98، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/145، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/551.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/104.
(4) ابْنُ عَطِيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/68.

إلى اليوم؛ فاليهود معروفون بشدّة بخلهم وجشعهم، مع امتلاكهم الأموال الطّائلة والثّروات الهائلة، ولذلك شاع عند الأجيال السّابقة ممّن عاشوا مع الجاليات اليهوديّة في بعض البلدان العربيّة قولهم فيما جرى مجرى الأمثال: (أجْشَعُ من يهوديّ)، و(أبخلُ منْ يهوديّ).

أثر (إذًا) في دلالة السّياق بين الإعمال والإهمال:

البخل طبعٌ متأصّل في اليهود، ولو حازوا ملكًا كبيرًا، ومالًا كثيرا

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾، نجد أنّ (إذًا) إذا استؤنف بها الكلام نصبت الفعل الَّذِي في أوّله الياء، أو التّاء، أو النّون، أو الألف، فيقال: (إذا أضربك)، (إِذًا أجزيك)[1]، فإذا كان فيها فاء أو واو، أو ثُمَّ أو (أو) حرف من حروف النّسق، فإن شئت كان معناها معنى الاستئناف، فنصبت بها أيضا، وإن شئت جعلت الفاء أو الواو، إذا كانتا منها، منقولتين عَنْهَا إلى غيرها، والمعنى فى قوله ﴿فَإِذَا لَّا يُؤْتُونَ﴾ على: (فلا يؤتون النّاس نقيرا إذًا)، ويدلّك على ذلك أنّه في المعنى.. جواب لجزاء مضمر، كأنّك قلت: (ولئن كان لهم)، أو (ولو كان لهم نصيب لا يؤتون النّاس إذا نقيرا)[2]، قال سيبويه: (إذاً) في عوامل الأفعال بمنزلة (أَظن) في عوامل الأسماءِ، فإذا ابتدأت إِذَنْ وأنت تريد الاستقبال، نصبت لا غير، تقول: (إِذَنْ أكرمَكَ)، وتكون آنئذٍ حرف مكافأة وجواب[3]، وإن جعلتها معترضة ألغيتها فقلت: (أنا إِذَنْ أكرمُكَ)، أي(أنا أكرمك إِذَنْ)، فإن أتيت بها مع الواو والفاء، قلتَ (فإذاً أكرمُك)، وإن شئت (فإِذَنْ أكرمَكَ)[4]، ولخّص ابن عطيّة ذلك، فذكر أنّ (إذا) في

(1) تكتب: (إذًا) بالألف والتّنوين، وتكتب: (إذن) بالنّون، والثّاني هو الأرجح عند النّحاة، وتأتي حرفا ناصبا للفعل المضارع، شريطة أن لا يفصل بينها وبين الفعل المضارع بفاصل سوى القسم، كقول الشّاعر:

إِذَنْ وَاللهِ نَرْمِيَهُمْ بِحَرْبٍ *** تُشِيبُ الطِّفْلَ مِنْ قَبْلِ الْمَشِيبِ

وإذا سبقت بواو أو فاء عاطفتين ألغيت، وكان الفعل بعدها تابعا للفعل قبلها، وإذا اعتبرنا الاستئناف وألغينا العطف، فهي عاملة النّصب في المضارع، وإذا سبقت بعامل أهملت، وقدّم العامل عليها، نحو: (إنْ تذْهبْ إذنْ أذهب معك)، ينظر: صافي، الجدول: 5/64.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/273.

(3) الشّيخلّي، بلاغة القرآن الكريم: 2/364.

(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/63.

هذه الآية ملغاة، لدخول فاء العطف عليها، ويجوز إعمالها، والإلغاء أفصح، وذلك أنّها إذا تقدّمت أعملت قولا واحدا، وإذا توسّطت ألغيت قولا واحدا، فإذا دخل عليها وهي متقدّمة فاء أو واو، جاز إعمالها والإلغاء أفصح، وهي لغة القرآن[1]، وأثر (إذًا) واضح في التّعبير عن الزّمن في الآية، فهي تشير إلى أوان بخلهم بالنّقير، وهو شيء تافه حقير، ويكون ذلك آن حيازتهم للملك، وما يتبعه من غنى ومكنة ماديّة، تؤهّلهم للإغداق على النّاس، ولكنّ تأصّل البخل فيهم، يمنعهم من العطاء، فيمسكون ما في أيديهم، ولا يؤتون النّاس منها شيئًا، ولو نقيرا، والملاحظُ أنّ (إذًا) لها ارتباط معنويٌّ بالزّمان والمكان، وأما (إذن) بالنّون، فيتمّ استخدامها في حالة التّعبير عن الاستنتاج، وهذا ملمح يحكمه الذّوق، ولا تحكمه القاعدة في الغالب الأعمّ.

نُكتةُ الفصلِ بين الجُملتين الإنشائيتين، بتَكرارِ الاستفهام:

بيان بُخلِهم حتَّى في المَقاصِد والإرادات، حَسَدًا من عند أنفسهم

الآيتان إنشائيَّتان لتقدير همزة استفهام بعد ﴿أَمۡ﴾ الّتي بمعنى (بل)، لإفادة معنى الإنكار مع حذف همزة الاستفهام؛ فالأولى على تقدير: (بَلۡ أَلَهُمۡ نَصِيبٌ مِنَ ٱلۡمُلۡكِ)، والثَّانية: (بَلۡ أَيَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ)، و(بل) هذه المقدرة بدل (أم) حرف قطع، والاستفهام المُقَدَّرُ لإنكارِ الحسَدِ واستقباحِه، فإنَّهم كانوا يَطْمَعُون أن يكون النّبيُّ الموعودُ منهم؛ فلمَّا خصَّ اللّه تعالى بتلك الكرامةِ غيرَهم حسدوهُم[2]، وسَبَبُ هذا الفصل اختلاف الجملتين في الغرض، رغم اتّفاقهما إنشاءً؛ فالأولى وُصف فيها اليهود بالبخل، وفي الثّانية وُصفوا بالحسد، والبخل هو: أنْ لا يدفع لأحد شيئًا ممَّا آتاه اللّه من النِّعم، والحسدُ هو أن يَتَمَنَّى ألّا يُعْطِي اللّهُ غيرَه شيئًا من النِّعَم، فكما أنكر اللّه سبحانه عليهم البخلَ، أنكر عليهم الحسدَ كذلك[3]، ففيه انتقال من توبيخهم بالبخل، إلى توبيخهم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/68.

(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/522، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/190.

(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.

بالحسد[1]، وقد دلَّ أيضًا على نهاية حسدِهم بأداة الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾[2].

فائدةُ المجازِ المُرسل في التَّعبير بـ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عن النَّبيِّ ﷺ:

بيانُ اجتماع الكمال الإنسانيِّ الأوفى، في شَخصِ النّبيّ الأصْفى

فإطلاقُ لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ على نبيِّنا محمَّد ﷺ[3]، في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ففي لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ علاقته الكلّيةِ، فَهَذا اللَّفظ المذكور دالٌّ على العموم، شاملٌ لكثيرين، والمقصودُ الجزء، وهو النّبيّ ﷺ؛ والقرينة حاليةٌ[4]؛ فقد كان اليهودُ يحسدون النّبيَّ ﷺ، على اختصاصه بالنّبوّةِ وتفضيله بالرّسالة، وفي التّعبير على النّبيّ ﷺ، بـ(النّاس) إشارةٌ إلى أنّه جُمعت فيه كمالات الأوّلين والآخرين[5]، على حدِّ قول القائل: (أنت النّاسُ كلَّ النّاسِ أيّها الرّجلُ)[6].

سِرُّ استعمال ضمير المُتكلّم في الإيتاء، في قوله: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ﴾:

تعظيمُ نِعَمِ اللهِ المعطاة، ومِنَنِه المنتقاة، على أنبيائه الثّقات

وردت نون العَظَمَةِ في قوله ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾، لِتَدُلَّ دلالةً واضحةً على عِظَم الهِبَةِ الّتي مَنَحها اللّه آلَ إبراهيم عليه وعلى نَبِيِّنا أفضل الصَّلاة والتَّسليم، وتَتَّضِحُ مكانة هذه الهِبَةِ بمُقارنة الآية بما سَبَقَ عليها من قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بِبناءِ الفعل للمفعول، فهؤلاء المُتَعَجَّبُ من حَسَدِهِمْ، في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾، ضاقت نفوسهم المريضة، بما أنعم اللّه به على نَبِيِّنَا محمَّد ﷺ من نعمة النُّبوَّةِ، وعلى أمّته من نعمة الإسلام، فأنكروا ما يَعرِفُونَهُ.

---

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/55.

(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/303.

(3) على قول من قال من المفسّرين أنَّ المقصود بالنَّاس هُنا النَّبيُّ ﷺ، وعلى قول من قال أيضا أنّه النَّبيُّ ﷺ وصحابته الكرام، يكون أيضا مَجازًا مُرْسَلًا.

(4) الهاشِمي، جَواهِرُ البَلاغَة، ص: 253، عوني، المِنْهاجُ الواضِح: 1/139.

(5) الزُّحَيْلي، التَّفْسِيرِ المُنير: 5/108.

(6) الهَرَري، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 6/154.

مغزى الإطنابِ بعد الإيجاز بطريق الالتفاتِ:

بيانُ نعماء الله وأفضاله، على نبيّه المصطفى وأوليائه

أجمل السّياق المعنى في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾، ثُمَّ فَسَّرَ هذا الفضل بضرب مَثَلٍ توضيحيٍّ لِمَا آتاه الله أبا الأنبياء إبراهيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فقال تعالى: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾؛ وفيه تعليلٌ للإنكار والاستقباحِ، وإلزامٌ لهم بما هو مُسلَّمٌ عندهم، وحسمٌ لمادّة حسَدِهم واستبعادِهم المبنيَّيْن على توهّم عدمِ استحقاقِ المحسودِ، لما أوتيَ من الفضل ببيان استحقاقِه له، بطريق الوراثةِ كابرًا عن كابر، وإجراء الكلام على سَنَنِ الكبرياءِ؛ حيث عبَّر بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾ بطريق الالتِفاتِ؛ حيث انتقل من ضمير الغائب، إلى ضمير المتكلّم، مستعملا ضمير العظمة (نَا)، لإظهارِ كمالِ العنايةِ بالأمر[1]، وهل هناك أعظم من هذا الفَضْلِ الّذي خَصَّ به الأنبياء (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)، وزاد آل إبراهيم المُلْكَ، لكنَّ اليهود قلبواْ الحقائقَ، فألزمهم المولى بما هو مُسَلَّمٌ عندهم، وهو نُبُوَّةُ إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وتكريم آله بَعدَهُ؛ لاعتنائهم بآثاره حسمًا لمادَّة حَسَدِهِمْ[2]، ورجوعا إلى الأصل الّذي لا يرتاب فيه أحد.

دلالةُ تكرارِ العامل في لفظة (الإيتاء):

بيانُ فضلِ (النُّبوَّة) على (المُلْكِ)، ودلالة ذكر كلّ منهما

تكريرُ الإيتاءِ لما يقتضيه مقامُ التّفضيل، مع الإشعار بما بين النّبوّةِ والمُلْكِ من المغايرة، فإنَّ النُّبُوَّةَ لا يَعظُمُ عَلَيها شَيءٌ، حتَّى ولو كان مُلْكًا عظيمًا، يَدُلُّ على هذا تكرير العامل ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم﴾؛ وذلك لما يقتضيه مَقامُ التَّفْضيلِ مع الإشعار بما بَينَ النُّبُوَّةِ والمُلْك من المغَايَرَةِ[3]؛ ولذا قدَّم ما يَدُلُّ على النُّبُوَّةِ إشعارًا بفضلها على المُلْكِ، ومعلوم أنّ الملك يستمدّ عزته من المخلوقين، وأنّ النّبوّة تمتاح مددها

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/190.
(2) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّةٌ: 2/345.
(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/537.

من الخالق، وشتّان بين هذا وذاك، وفي هذا المعنى قال أحمد شوقي في همزيّته الّتي عارض بها همزيّة البوصيريّ:

وَإِذَا حَمَيْتَ الْمَاءَ لَمْ يُورَدْ وَلَوْ *** أَنَّ الْقَيَاصِرَ وَالْمُلُوكَ ظِمَاءُ[1]

تَنْكيرِ لفظ ﴿مُّلْكًا﴾ ووَصفِه بِالعِظَم، في قوله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾:

تفخيمُ مُلْكِ الأنبياء من ذُرِّيَّةِ إبراهيم، وتبكيتُ اليهود الحاسدِين

في وَصْفِ المُلك بالعِظَم، وتنكيرِه التَّفخيميِّ مِن تأكيد الإلزام، وتشديدِ الإنكار ما لا يَخفَى[2]. قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾، وتَضَمَّنَتْ هذه الآيةُ تَسْلية الرَّسول ﷺ، في كَونِهم يَحْسدونه ولا يَتَّبعونه، فذكر أنَّهم أيضًا مع أسلافهم وأنبيائهم، انقسموا إلى مؤمن وكافر، هذا وَهُمْ أسلافهم، فكيف بِنَبِيٍّ ليسَ مِنهُم؟[3]، وذلك يدلّ على عراقتهم في الكفر، وصراعهم الدّامي المرير، مع أنبيائهم الرّاشدين، وملوكهم الصّالحين، عبر قرون بعيدة، وأزمنة مديدة.

فَائِدةُ تقديمِ المُسْنَدِ، في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾:

بيانُ اختصاصِ اليهود بالفرقة والتّذبذبِ والصّدود

وقد تَقَدَّمَ المُسْنَدُ (الخَبَرُ: مِنهُم) على المُسْنَدِ إليه (المبتدأ: مَنْ آمن ومَنْ صدّ) بِغَرَضِ تخصيص المُسْنَد بالمسند إليه، على سبيل الإثبات، فقد خصَّ المولى أَسْلافَ اليهود بالانقسام والتَّذبذب، ونَعى على أَخْلافهم هذا؛ لأنَّهم على نهج أسلافهم سائرون، تبكيتًا لهم وتنقيصاً وتَوَعُّدًا[4] بسوءِ المصير بدليل آخر الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

---

(1) وقريبًا من هذا المعنى، قول عبد الله بن الخيّاط المدنّي في وصف هيبة الإمام مالك مقارنة بالملوك، وهو ليس من الرّسل، ودون الأنبياء مقاما، حيث قال في: (ستّ وثلاثين سؤالا من أربعين): لا أدري، وقال: من قال لا أدري فقد أفتى:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجَعُ هَيْبَةً *** وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ
هَدْيُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى *** فَهْوَ المَهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

ينظر: الإمام مالك، المدوّنة الكبرى لسحنون: 6/465.

(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/190.

(3) أبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/679.

(4) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/89، وبناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّةٌ: 1/211.

بديعُ المقابلةِ بين فعلي ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿صَدَّ﴾، في قوله: ﴿ءَامَنَ بِهِۦ﴾ ﴿صَدَّ عَنۡهُۚ﴾:

أثـر التَّفصيل بعد الإجمالِ، فـي توضيحِ المعنى وتأكيده

فالإيمانُ إذعانُ النّفسِ للحقِّ على سبيل التَّصديق، وإظهارٌ للخضوع والقبول، فإنْ قال قائل: آمنتُ بكذا وكذا فمعناه: صدّقتُ، والصُّدودُ والصّد، قد يكون انصرافًا عن الشَّيء، وامتناعًا عنه، وقد يكون صرفًا ومنعًا؛ أي: صرف النَّفس أو صرف الغير، ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا الإيتاءِ وهذا الإنعام الّذي أنعم اللّه به على آل إبراهيم عليه السلام من الكتاب والحكمة، ﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ﴾؛ أي: كَفَرَ به وأعرض عنه، وسعى في صَدِّ النَّاس عنه[1]، فقوبل فعل الإيمان بفعل الصُّدود، وقوبل الإلصاق في معنى ﴿بِهِۦ﴾ بالمجاوزة في معنى (عن)؛ إذ الإلصاق يدلُّ على أشدِّ القُرْبِ والقبول، وهو الإيمان، والمجاوزة تَدُلُّ على الابتعاد والنُّفور، وذلك أبلغ ما تُصَوِّرُهُ هذه المقابلة البليغة، فقد صَوَّرت حال اليهود منذ العهد القديم، حيث لم يُراعوا الفَضْلَ لمستحقّيه، ولم يحافظواْ على النِّعمة، ولم يصونوا العهد القديم، بل كان منهم الكفران والعناد والكنود، كما تَهْدِفُ هذه المقابلةُ البديعةُ إلى تسليّةِ رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ، وتثبيته على الحقِّ المستقيم، والدِّفاع عن دينه القويم، فهو ليس بِدْعًا من الرُّسُلِ[2]، وفي هذه المقابلة أيضًا تثبيتٌ للمؤمنين وتذكير لهم، بأنّ هذه سنّة الأنبياء حتّى لا يَعُدّوا تكذيبَ اليهود للنّبيِّ محمّد ﷺ ثلمةً في نُبُوَّتِهِ؛ إذ لا يُعرف رسولٌ أجمَعَ أهل دعوته على تصديقه من عهد إبراهيم إلى من جاء بعده من الرسل[3]، ولأجل هذا ناسب تقديم ذكر الإيمان على الكفر، لما سمّى إبراهيم وآله

---

(1) ابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 2/336.

(2) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّةٌ: 2/481.

(3) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/89.

في سورة التّغابن، في قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التّغابن: 2]؛ لعموم اللّفظ فيه، ولذلك قدَّم هُنا ﴿مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، وأخَّرَ هناك﴿وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التّغابن: 2][1].

أثر التَّذييل في التّهديد والتّهويل:

بيانُ الوعيدِ الشَّديدِ، والتَّهديدِ الأكيدِ، لكلّ كافر عنيد

فالمعنى في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾، أي حَسْبُكم، أيُّها المكذّبون جَهَنَّم المتسعّرة[2]؛ فهي نار مُوقدة إيقادًا مهولا، وكأنّه يقول لهم: إنّه إذا انصرفَ عنكم بَعضُ العَذاب في الدُّنيا؛ فقد كفاكم ما أُعِدَّ لكم من سَعيرِ جَهَنَّم في العُقْبى[3]، فالجملةُ تَذْييلٌ لما قبلَها[4]، وفيها تَهدِيدٌ ووَعِيدٌ للكُفّارِ الْمُتَقَدِّمينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ[5]. وتعدّت ﴿وَكَفَىٰ﴾ بالباء؛ لأنّها فعل يتعدّى بالباء، على تقدير: اكتفى بجهنّم سعيرًا لهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّصِيب والحظّ:

النَّصيبُ هو الحظُّ والقَسْمُ من كُلِّ شيء[6]؛ وبه يكون النَّصيب في المحبوب والمَكْرُوه، يُقَال: وفَّاه اللّه نصيبَه من النَّعيم، أو من العَذَاب، والحَظُّ هو النَّصيبُ الْمُقَدَّرُ مِنَ الفضْل والخيرِ[7]، فلَا يُقَال حظّه من العَذاب إلَّا على استِعَارَةٍ بعيدَة؛ لِأَنَّ أَصلَ الحَظّ، هُوَ مَا يُحَظِه اللّه تَعالَى للعَبد من الخَير، والنَّصيبُ مَا نُصِبَ للعَبدِ لينَاله، سَوَاء كَانَ مَحبوبًا أَو مَكرُوهًا؛ ولهذا كان الحَظُّ اسْمًا لما يرْتَفع بِهِ المَحظوظ، فيُذْكر على جِهَةِ المَدْح، فيُقَالُ لفُلَانٍ حَظٌّ، وهُوَ مَحظوظٌ، وفي التَّنزيل: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القَصَص: 79]، والنَّصيبُ مَا يُصِيب

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 139، 140.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/483.
(3) الآلوسيّ، روحُ المعاني: 3/56.
(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/191.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/105، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/89.
(6) ابن مَنْظور، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (نصب).
(7) الخليل، العَيْنُ، والأزهري، تَهْذيبُ اللُّغَة: (حظ).

الإنسانَ من مُقاسمةٍ، سَوَاء ارْتَفع بِهِ شَأْنه أم لَا، ولِهَذَا يُقَال لفُلَان حَظّ فِي التِّجَارَة، وَلَا يُقَال لَهُ نصيبٌ فِيهَا؛ لِأَنَّ الرِّبْحَ الّذِي يَنَالهُ فِيهَا لَيسَ عَن مُقاسَمَةٍ[1].

الإِيتاء والإِعْطاء[2]:

لا يَكادُ أهلُ اَللُّغَةِ يُفَرِّقُونَ بَينُ اَلإِيتَاءِ والإِعْطَاءِ، لَكِن نَجِدُ فِي اَلاستِعمَالِ القُرآنيِّ بَعضَ اَلفُرُوقِ اَلدَّقِيقَةِ اَلَّتِي تُوحِي بِبَلَاغَةِ اَلْقُرآنِ وَعظَمَتِه؛ وذَلِكَ مِنْ حَيثُ أَنَّ اَلإِيتَاءَ أَقْوَى مِنْ اَلإِعطَاءِ، فِي إِثبَاتِ مَفعُولِه؛ لِأَنَّ الإِعطَاءَ لَهُ فعِلُ مُطَاوِعٌ، تَقُولُ: أَعْطَانِي فعَطَوتُ، ولَا يُقَالُ فِي الإِيتَاءِ: أَتَانِي فأَتَيتُ، وإِنَّمَا يُقَال: آتَانِي فأَخذتُ، والفِعلُ اَلَّذِي لَهُ فِعلُ مُطَاوِعٌ أَضعَفَ فِي إِثبَاتِ مَفعُولِه مِن اَلَّذِي لَا مُطَاوِعَ له[3]، والإِيتاءُ أَقْوى مِنَ الإِعْطاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمران: 26]؛ لِأَنَّ المُلْكَ شَيءٌ عَظِيمٌ لَا يُعْطَاهُ إِلَّا مَن لَهُ قُوَّةٌ، وكَذَا قولُه ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البَقَرَة: 269] والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظِيمٌ أَيضًا، وقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحِجْر: 87]؛ لِعِظَمِ القُرآنِ وشَأْنِه[4]، ومِن اَلْفُرُوقِ أيضًا: أَنَّ اَلإِتيَانَ فيهِ مَعنَى اَلوُجُوبِ والاِلْتِزَامِ، أَمَّا الإِعطاءُ فَفِيهِ مَعنَى اَلتَّفَضُّلِ والإِكرَامِ؛ فبَعدَ أَنْ أَسعَدَ اَللَّهِ اَلْمُؤمِنِينَ بِدُخُولِ اَلجَنَّةِ قَالَ: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هُود: 108]، وقال ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النَّبَأ: 36]، ومِن اَلفُرُوقِ أَيضًا: أَنَّ اَلعَطَاءَ يَكُونُ فِي اَلأَشيَاءِ اَلمَادِّيَّة، وَيُفِيدُ اَلتَّكرَارَ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾؛ أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُربُكَ يَا مُحَمَّد كَثِيرًا مِنْ نَهرِ اَلكَوثَرِ، ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضُّحى: 05]؛ أَيْ: سَيَكُونُ عَطَاءُ اَللَّهِ لَكَ مُكَرَّرًا حَتَّى تَبلُغَ دَرَجَةَ اَلرِّضَا[5]، أَمَّا الإِيتاءُ ففي الأَشياءِ المادِّيَّة والمعنويَّة، قال سبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأَنبياء: 51] وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20][6]، ومِن اَلفُرُوقِ: أَنَّ فِي اَلإِعطَاءِ دَلِيلُ اَلتَّمَلُّك دُونَ الإِيتَاءِ[7]، فالإِيتَاءُ يَشْمَلهُ اَلنَّزعُ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيسَ تَملِيكًا وَلَكِنَّ اَلعَطَاءَ

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغوِيَة، ص: 165.
(2) تفصيل هذا الفرق تفسير الصّفحة الخامسة من الجزء الخامس.
(3) السُّيُوطِيّ، الإِتْقان: 2/367.
(4) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 212.
(5) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 212، والسُّيُوطِيّ، الإِتقان: 2/367.
(6) لاشين، مِنْ أَسرارِ التَّعبِير فِي القُرْآنِ الكَرِيم، ص: 71 - 77.
(7) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات: 1/360، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغوِيَة، ص: 86.

تَمليكٌ، وكَثُرَ اِستِعمَالُ الإِعطَاءِ، حَتَّى صَارَ لَايُطلَقُ إِلَّا عَلَى اَلتَّمليكِ، فيُقَال: أَعطَاهُ مَالاً، إِذَا مَلَكَهُ إِيَّاهُ[1].

الفَضل والنّعمة:

أَصْلُ الفضل مأخوذٌ من الشَّيءِ الفَاضِلِ عند الإنسان، وهو مُستَغنٍ عنه، والفَضْل من جانب المولى سبحانه؛ لأنَّ كلَّ خزائنه بما فيها من الخَيرِ فضلٌ زائدٌ، وهو سبحانه في غنًى عنه، فهُوَ يُعْطي عِبادَهُ ممَّا هو فاضل عنده، والنِّعمة بِالنِّسْبَةِ إلى جهة العبد؛ أي: ما يُنعم به الله لبعض خلقه لِسَدِّ حاجتهم[2]، ففَضْلُ الله إشارةٌ إلى ما عنده من الخَيْرِ، وهو مُستغنٍ عنه، والنِّعْمَة إشارةٌ إلى ما يصل إلى العبدِ وهو محتاجٌ إليه؛ لأنَّ الفضلَ في الأصل يُنبئ عن الزّيادة، وعنده خزائن من الرَّحمة لا لحاجةٍ إليها، ويرسلُ منها على عباده ما لا يبقون معه في ورطةِ الحاجة بوجهٍ من الوجوه، والنِّعمة تُنبئ عن الرَّأفةِ والرَّحمةِ، وهو من جانب العبد، وفيه معنى لَطيفٌ وهو تأكيدُ الإعطاء؛ وذلك لأنَّ المحتاجَ يقول للغنيِّ: أعطني ما فضل عَنْكَ وعندك، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات: 8]؛ فإذن قوله: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، إشارةٌ إلى ما هو من جانب الله الغنيِّ، والنِّعمةُ إشارةٌ إلى ما هو من جانبِ العبد من اندفاع الحاجة[3]؛ لأنَّه به يُنْعِمُ عليكم، وتكون حياتُكُم ناعمةً، فالعَطاء واحدٌ، وهو من جانب الله فضلٌ؛ لأنَّهُ مَوْجُود بكثرة، والله مستغنٍ عنه، ومن جانب العبد نِعْمَةٌ.

الصَّدّ والإعراض:

الصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرَ مُتعدٍّ، فيكون بمعنى الإعراض، من ذلك قوله تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النِّساء: 61]؛ أي: يعرضُون ويتولّون عمّا يدعوهم الرَّسول ﷺ إليه من الحقِّ والهُدى، ومنه أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ﴾؛ أي: أعرض، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا، بمعنى صَدَّ غيرَه، يُقال صَدَدْتُه عن وَجْهِ كذا، عَدَلْتَه وصرفته عنه[4]، ومن ذلك قوله

(1) السُّيُوطِيّ، الإِتْقان: 2/197.
(2) الرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقايِيسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (فضل).
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 28/104.
(4) الرَّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِس، مَقايِيسُ اللُّغَة: (صدَّ)، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (صدد).

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 45]، يصدُّون النَّاس عن اتّباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء[1]، ونحو هذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجّ: 25]، ومن هذا الباب قوله ﷻ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ [النّمل: 43]؛ أي: منعها من أَنْ تعبدَ الله ما كانت تَعبُدُ من الشَّمس والقمَرِ[2]، وأكثر ما جاء لفظ (الصَدِّ) في القرآن على هذا المعنى، وهو من البلاغة بمكان، وقد استعمله القرآن بفصاحة وبيان.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/417.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/208.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النّساء: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ تعميمِ العذابِ على الكافرين بعد وعيدِ كَفَرَةِ أهل الكتاب، بسوء العذاب

بعدَما ذكَر الوعيدَ لأهل الكتابِ ممّن كفر، بيَّن ما يعُمُّ الكافرين مِن الوعيد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾[1]، فلمَّا أثبت لمن صدَّ عنه النَّارَ عَلَّلَهُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[2]، سوف نصليهم ونحرقهم بالنّار الّتي كلّما احترقت جلودهم بها، حتّى لم تعد صالحة لإيصال الألم، إلى مراكز الشّعور والإدراك، بدّلناهم جلودا جديدة غيرها، وهو تمثيل لدوام شعورهم بالعذاب شعورا كاملا[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿نُصۡلِيهِمۡ﴾: نُدْخِلُهُم فيها، ونَشْويهِم بها، ومِنْهُ صَلَيْتُ اللَّحْمَ؛ أَي: شَوَيْته، وأَصْلاهُ النَّارَ وصَلاهُ صَلْيًا أَدْخَلَهُ إيَّاها، وأَثْواهُ فِيهَا، وَأَصلُ الصَّلَى لِإِيقادِ النَّارِ؛ والمَعنى هُنَا: نُدخِلهُ فيها فيُلاقي حَرَّها وشِدَّتَها[4]، صلاَّه في النَّار: أصلاه، أدخله فيها "صلّى العصا على النَّار: لوّحها وليَّنها وقوّمها بها، قال تعالى: ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾ [الواقعة: 93 94]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١﴾ [الحاقّة: 31] "[5].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/105.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 5/305.
(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/388.
(4) الخليل، العين، وابنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (صلى).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نضج).

2) ﴿نَضِجَتْ﴾: انشوت فاحترقت؛ يُقال: نضِجَ اللَّحم يَنضَج، نُضْجًا ونَضْجًا، فهو ناضِج: إذا أدرَك شَيَّه، والنُّضجُ: إدراك اللَّحم نهاية شيِّه وطبخِه، وأصل (نَضَجَ): بلوغ النِّهايةِ في طبخ الشَّيء، ونضِجَتِ الفاكهةُ: طابت[1]، وجذرها أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى بُلُوغِ النِّهَايَةِ فِي طَبْخِ الشَّيْءِ، ثُمَّ يُسْتَعَارُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بَلَغَ مَدَى الْإِحْكَامِ.. وَلذلك يُقَالُ: هُوَ نَضِيجُ الرَّأْيِ: مُحْكَمُهُ[2]، "قال ابن سيده: واستعمل أبو حنيفة الإنضاج في البرد، في كتابه الموسوم (بالنّبات) فقال: المهروء: الّذي قد أنضجه البرد، قال: وهذا غريب، إذ الإنضاج إنّما يكون في الحرّ، فاستعمله هو في البرد"[3].

3) ﴿لِيَذُوقُواْ﴾: لِيُقَاسُوا شِدَّته، والذَوقُ وجود الطَّعم بالفمِّ، وأَصلُهُ فيما يَقِلُّ تناولُهُ دون ما يَكثُر، يُقال ذاقَ الطّعامَ يذوقُه ذَوْقًا ومَذاقة ومَذاقًا وذَواقًا، والأصلُ (ذوق)، ويَدُلُّ على اختِبَار الشَّيءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، يُقال ذاق الشَّيء: جرَّبه ومنه يُقال ذاق فلانٌ البأسَ: إذا عَرِفَهُ بِنُزُولِهِ بِهِ، والمعنى هُنا: لِيَجِدوا أَلَمَ العذاب وكَرْبَهُ وشِدَّتَهُ[4].

المَعْنَى الإجْمَاليّ:

وعيدُ الله للكافرين بالإحراق بنارٍ يتجدّدُ العذاب بها على الدّوام

أخبر الله تعالى أنَّ الّذين جحَدُوا بآيات الله، سوف يدْخِلُهُم يوم القيامة نارًا تُحيط بهم، كلمَّا احترقت جُلُودُهُمْ، وفقدت الإحساسَ بالألم، بدَّلهم جلودًا غيرها؛ لِيَسْتَمِرَّ عليهم العذاب ويتجدّد لهم الإحساس بالألم الشّديد، والعذاب المديد، ذلك أنّ اللّه غالبٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/163، وابن فارس مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (نضج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نضج).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (نضج).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (ذوق).

على أمره، حكيمٌ في تدبيره وقضائه[1]، يعرف من هو أهل للعقوبة فيعاقبه، ومن هو أهل للثّواب فيثيبه[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ بذكر الاسم الموصولِ بعد ذكر الوعيد:

تقريرٌ وبيانٌ لشمول العذاب كلَّ مُكَذِّبٍ بالله ورُسُلِهِ

فقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا﴾: استئنافٌ وقع كالبيان والتَّقرير لما قبله، والمُراد بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾: إمَّا الّذين كفروا برسول الله ﷺ، وإمَّا ما يعمُّهم وغيرُهم، ممَّن كفر بسائر الأنبياءِ عليهم السلام، ويَدْخُل أولئك دُخولًا أوّليًّا، وعلى الأوّل فالمُرادُ بالآيات: إمَّا القرآن، أو ما يَعُمُّ كلَّه وبعضه، أو ما يَعُمُّ سائر مُعْجَزاتِهِ عليه الصلاة والسلام، وعلى الثَّاني فالمُراد بها ما يستوفي المذكورات، وسائر الشَّواهد البيّنات، التّي أتى بها الأنبياء (عليهم الصَّلاة والسَّلام) على مُدَّعاهُمْ[3]، فهو وعيدٌ من الله (عز وجل) للّذين أقاموا على كُفْرِهِمْ، وتكذيبهم بما أنزل الله عز وجل على محمَّد ﷺ من اليهود وغيرهم من سائر الكفَّار[4]، والجملة مؤكّدة بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة؛ لمزيد التّقرير لهذا الوعيدِ من الله لهم.

فائدةُ التَّتميم بقوله تعالى ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا﴾:

التَّهديدُ والتَّهويلُ في ذِكرِ جزاءِ الجاحدين

في قَولِهِ ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا﴾ بَدَلَ (سَنُعَذِّبُهُمْ): إِطْنابٌ، أعطى المَعنَى قوَّةً والصُّورة وضوحًا، فكلمة ﴿سَوۡفَ﴾ تُذكَر للتَّهديد والوعيد[5]، مع مُلازمتها للمضارع المفيد لتَجدُّد العذاب واستمراره، مع ذِكْرِ كلمة ﴿نَارًا﴾ المُنَكَّرَةِ المفيدة للتَّهويل والتَّعظيم؛ أيْ: ندخلُهم

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 117، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفسير، المُخْتَصَر، ص: 87.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص، 549.
(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/191، والآلوسّي، روح المعاني: 3/56.
(4) الخازن، لباب التأويل: 1/390.
(5) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/105.

نارًا عظيمة هائلةً[1]، فهذا التَّتميم أَخرَجَ المعنى بِصُورَةٍ أَوضَح وأَعمَق، مُبالغةً في الإفهام.

دلالة الشَّرطِ وجوابُهُ، في قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا﴾:

بيان شدّة العذاب بدوام العذابِ

قوله ﴿كُلَّمَا﴾: ظرفُ زمانٍ مُتَضَمِّنٌ معنى الشَّرط، متعلِّق بالجواب ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ﴾، وهو يَدُلُّ على التَّكرار؛ يعني أنَّهم دائمًا وأبدًا كُلَّمَا نضجت الجُلودُ بُدِّلوا جُلودًا غيرها؛ إذ معنى ﴿نَضِجَتۡ جُلُودُهُمۡ﴾؛ أي: احترقت وتهرَّت وتَلاشَت، أعطيناهم مكان كلِّ جِلْدٍ مُحترق عند احتراقه جِلْدًا جديدًا مُغايرًا للمُحتَرِقِ[2]، والنَّضجُ معناه بلوغ الغاية في الكمال؛ يَعني أنَّها إذا نَضِجَتْ من الاحتراق، فإنَّها تُبَدَّل جُلودًا غيرها غَيْرَ الأولى؛ لأنَّ الأولى احترقت وزالت، ولأنَّ الجِلْدَ إذا احترق صار حائلًا دون بقيَّة الجسم، فلا يُحِسُّون بالنَّار، فلا يكون هُناك بين احتراق الجلد، وبين التَّبديل بِجِلْدٍ جديد مُهْلَةً، لأنَّه إذا كانت هناك مُهلةٌ، وإنْ كانت قليلة جدًا، فهي راحة للكافر، والله تعالى لا يُريد أن يكون للكافر هذه الرَّاحة، يقول تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة: 162]؛ ولذلك كان تبديل الجِلْدِ بمُجَرَّدِ النُّضج، ليُحسُّوا بحرِّ النَّار مجدّدا، لذلك قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾[3]، ولعلَّ السّرَّ في تبديل الجلود مع قدرتِهِ تعالى على إبقاء إدراك العذاب وذَوْقِهِ بحالٍ مع الاحتراق، أو مع بقاء أبدانهم على حالها مَصُونةً عنه؛ أنَّ النَّفس رُبَّما تتوهَّم زوال الإدراك بالاحتراق، ولا تَستَبْعِدُ كلَّ الاستبعاد أن تكون مَصُونة عن التَّألم والعذاب صيانة لبَدَنِهَا عن الاحتراق، أو أنَّ السِّرَّ في ذلك أنَّ في النُّضج والتَّبديل نوعَ إياسٍ لهم، وتجديدَ حُزْنٍ

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/191، والآلوسّي، روح المعاني: 3/57.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/57.

(3) ابن عثيمين، تفسير العثيمين: 1/423.

على حُزْنٍ[1]، فتبديلُ الجلود زيادةٌ في عذاب النُّفوس، يَدُلُّ عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسراء: 97]؛ فالمقصودُ تعذيبُ الأبدان وإيلام الأرواح[2].

سِرُّ الاستعارةِ المكنيَّة في التَّعبير عن إدراكِ العذاب، بقوله ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾:

بيانُ دَيمومةِ العذابِ الأليم، واستمرارِ ذوقه في نار الجحيم

نلمح الاستعارةَ المكنيَّةَ التَّخْييليَّةَ في قوله ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾؛ فقد حُذف المُشَبَّهُ به الّذي من شأنِهِ أن يُذاق، واستعار شيئًا من لوازمِهِ وهو الذَّوق، والمُراد بالذَّوق هُنا ديمومته، مع ما يَصحَبُهُ من الاستكراه والألم الّذي لا يُوصَفُ، ولا مرية في أنَّ استمرار ذوق العذاب، مع بقاء الأبدان حيَّةً مصونةً فيه ما فيه من استبعاد، لِكُلِّ ما قد يخطر على البال من تَوَهُّم زوال العذاب وألمه، لا يدخله نقصان بدوام الملابسة، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه أو للتَّنبيه على شِدَّةِ تأثيره، من حيث إنَّ القوة الذَّائقة أَشَدُّ الحواسِّ تأثيرًا، أو على سريانه للباطن ناهيك بما لحاسَّة الذَّوق من أثر في نفسِ المحترق بالنَّار[3]، ولهذا جيءَ هُنا بالمضارع ﴿لِيَذُوقُواْ﴾؛ أي: لِيَدُوم ذَواقُهُ ولا ينقطع كقول القائل للعزيز: أعزَّكَ اللّه[4]، أي أدام اللّه عزّك، فالتَّعبيرُ عن إدراك العذابِ بالذَّوق، ليس لبيان قِلَّتِه، بَلْ لبيان أنَّ إحساسَهم بالعذاب في كلِّ مرّةٍ، كإحساس الذَّائقِ بالمَذُوق من حيثُ إنَّه لا يدخُله نُقْصانٌ[5]، كما أنَّ في قوله ﴿لِيَذُوقُواْ﴾ تَعْليلٌ لِقَولِه: ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ﴾؛ لِأَنَّ الجِلدَ هُوَ الَّذِي يُوَصِّلُ إِحسَاسَ العَذَابِ إِلَى النَّفسِ، بِحَسَبِ عَادَةِ خَلقِ اللَّهِ تَعَالَى[6].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/58.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/253.
(3) درويش، إعراب القرآن: 2/240.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/58.
(5) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/192.
(6) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/90.

براعة التّصوير بحركيّة مشهديّة، تتجلّى في تبديل الجلود النّاضجة باستمرار:

تجديد العذاب بتبديل الجلود، إمعان في العذاب اللّامحدود

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾، هذا التّصوير المشهديّ، لون من الإعجاز الفنّيّ في القرآن الكريم، حيث يعرض لنا السّياق المشهد، ضمن إطار من الحركة والحياة، فيتملّاها الحسّ والخيال، ويتمثّلها الشّعور، وكأنّها قائمة مرئيّة، أمام من يتلو الآية أو يسمعها، ونحن نستحضر لدى سماعنا هذه الآية، صور العذاب الدّائمة الّتي لا تنقطع، والجلد الّذي لا يكاد ينضج حتّى يتجدّد، وهكذا إلى غير انقطاع أو انتهاء[1]، واختلف المتأوّلون في معنى تبديل الجلود، فقالت فرقة: تبدّل عليهم جلود غيرها، إذ نفوسهم هي المعذّبة، والجلود لا تألم في ذاتها، فإنّها تبدّل ليذوقواْ تجديد العذاب، وقالت فرقة: (تبديل الجلود) هو إعادة ذلك الجلد بعينه الّذي كان في الدّنيا، تأكله النّار، ويعيده اللّه دأبا لتجدّد العذاب، وقال ابن عمر، كلّما احترقت جلودهم بدّلوا جلودا بيضاء كالقراطيس، وقالت فرقة: الجلود في هذا الموضع سرابيل القطران، سمّاها جلودا للزومها فصارت كالجلود، وهي تبدّل دأبا[2]، وقال النّسفيّ: التّبديل والتّغيير، لتغاير الهيئتين، لا لتغاير الأصلين، عند أهل الحقّ.. وعن فضيل يجعل النّضيج غير نضيج لِيَذُوقُواْ العذاب، أي ليدوم لهم ذوقه، ولا ينقطع عنهم ألمه، كقولك للعزيز: (أعزك اللّه)، أي أدامك على عزّك[3].

دلالةُ الإخبار عن العِزَّة والحكمة، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾:

تعليلُ جريان الأمور وفق قُدْرَة الله وحِكْمَتِهِ

وَقَوْلُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: وَاقِعٌ مَوقِعَ التَّعلِيلِ لِمَا قَبلَهُ؛ فهو استئنافٌ بيانيٌ جوابٌ عن سؤال مقدّر، كأنّ سائلًا يسأل: لمَ يفعلُ ذلك؟ والعِزَّةُ يَتَأَتَّى بِهَا تَمَامُ القُدرَةِ في عُقُوبَةِ المُجتَرِئِ على اللَّهِ،

(1) صافي: الجدول: 5/67.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/69.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/366.

والحِكمَةُ تتأتَّى بِهَا تِلكَ الكَيفِيَّةُ في إِصلَائِهِمُ النَّارَ[1]، فهو عزيز في انتقامه مِمَّنْ ينتقم من خلقه لا يَغلِبُهُ شيء، ولا يمتنع عليه أحد، حَكِيم في تدبيره وقضائه، وأنَّه لا يفعل إلّا ما هو الصَّواب[2]، وذِكرُهُمَا في هَذَا المَوضِعِ في غَايَةِ الحُسنِ؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ في القَلبِ تَعَجُّبٌ مِنْ أَنَّهُ كَيفَ يُمكِنُ بَقَاءُ الإِنسَانِ في النَّارِ الشَّدِيدَةِ أَبَدَ الآبَادِ! فَقِيلَ: هَذَا لَيسَ بِعَجِيبٍ مِنَ اللَّه؛ لِأَنَّهُ القَادِرُ، ويَقَعُ في القَلبِ أَنَّهُ كَرِيمٌ رَحِيمٌ، فكَيفَ يَلِيقُ بِرَحمَتِهِ تَعذِيبُ هَذَا الشَّخصِ الضَّعِيفِ إِلَى هَذَا الحَدِّ العَظِيمِ؟ فقِيلَ: كَمَا أَنَّهُ رَحِيمٌ فهُوَ أَيضًا حَكِيمٌ، والحِكمَةُ تقتَضِي ذَلِكَ؛ فإِنَّ نِظَامَ العَالَمِ لَا يَبقَى محفوظا إِلَّا بتَهدِيدِ العُصَاةِ، والتَّهدِيدُ الصَّادِرُ مِنهُ تعالى، لَا بُدَّ وأَنْ يَكُونَ مَقرُونًا بِالتَّحقِيقِ، صَونًا لِكَلَامِهِ عَنِ الكَذِبِ، فثَبَتَ أَنَّ ذِكرَ هاتين الكلمتين هاهُنا في غاية الحُسنِ[3]، وحسنُ الاتّصاف بعد هذه المقدِّمات بالعِزَّة والإحكام؛ لأنَّ اللّه لا يُغالبُه مُغالبٌ إلَّا غلبَه اللّه، ولا يفعلُ شيئًا إلّا بحكمةٍ وإصابةٍ، لا إله إلّا هو تبارك وتعالى[4]، والجملةُ تعليلٌ لما قَبْلَها من الإصلاء والتَّبديل، فتأكيدُ الخَبرِ بـ: ﴿إِنَّ﴾ مع اسميَّةِ الجملة، لتعليل الحُكْم، وإظهارُ الاسم الجليلِ بطريق الالتفاتِ، لتهويل الأمرِ، وتربيّة المهابةِ، لأن عنوانَ الألوهيّةِ مَنَاطٌ لجميع صفاتِ كماله تعالى[5]، والتّعبيرُ بـ: ﴿كَانَ﴾ لتجرّدها هنا عن الزّمان، والمعنى أنّ هذا شأنه منذ أن كان.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصّلى والحرق:

الرّازيّ: (صليت) اللّحم وغيره من باب رمى شويته وفي الحديث: (أنّه أتي بشاة (مصليّة)، أي مشوية، ويقال أيضا: (صليت) الرّجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد إحراقه قلت (أصليته) بالألف و(صليته) (تصلية) وقرئ: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ١٢﴾ [الإنشقاق: 12][6]، ويقال أيضا: صلي بالأمر إذا قاسى حرّه وشدّته؛ ومنه قول أبي الغول الطّهويّ:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/90.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/390.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/107.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّرُ الوجيز: 2/69.
(5) أبو السُّعود، إرشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/192، والآلوسّي، روح المعاني: 3/58.
(6) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 178.

وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وَإِنْ هُمْ *** صَلَوْا بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينِ[1]

قال الزّجاج: وهذا هو الأصل في الصّلاة؛ ومنه: من يصلى في النّار، أي يلزم، سمّيت بها، لأنّها لزوم ما فرض الله تعالى بها[2]، وأمّا الحَرْقُ بالسّكون، فهو تسليط النّار على الشّيء لتأتي عليه، والحَرَقُ بالتّحريك: النّار، وأحرقه بالنّار وحرَّقَهُ، شدّد للكثرة، أي عند كثرة فعل الحرق، والنّار تأكل كلّ شيء، وقدقال ابن المعتزّ:

واصْبِرْ عَلى حَسَدِ الْحَسو *** دِ فإِنَّ صَبْرَكَ قاتِلُهْ

فالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا *** إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

والفرق بين اللّفظين، أنّ (اصطلى) بمعنى ذاق النّار، وتألّم من آثار الحرَق، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد: 3]، والحرق إنّما هو التهاب النّار، وتسليط حرارتها على الشّيء، حتّى تتمكّن منه، ثمّ تتناقص إلى أن تخبو.

التّبديل والإبدال:

التَّبديل: تغيير حالٍ إلى حال آخر، يُقال: بَدَّلَ صورتَه، والإبدال: رَفْعُ الشَّيء بأن يجعل غَيرَهُ مَكَانَهُ، فالتَّبدِيل: تَغْييرُ الصُّورة إلى صورة غيرِها، والجَوْهَرةُ بعيْنها، والإبدال: تنحِيَة الجَوْهَرَةِ واستئناف جوهرة أخرى؛ أي: أنَّ التَّبديل يكون في صفاتِ الشَّيء، وذاتُ الشَّيءِ لا تزالُ قائمةً موجودةً، والإبدالُ تغيير الشَّيء كُلِّهِ بذاته وصفاته، بتنحيّته وإزالته ووَضْعِ شيء آخر مَكَانَهُ[3]، والعرب تقول: "قد بدّل فلان، إذا غيّرت حاله، ولم يأت مكان غيره، وكذلك كلّ مغيّر عن حاله، فهو عندهم مبدّل بالتّشديد، وربّما قيل بالتّخفيف، وليس بالفصيح، فأمّا إذا جعل مكان الشّيء المبدل غيره، فذلك بالتّخفيف أبدلته، فهو مبدل"[4].

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 178.
(2) الرّازيّ، تاج العروس: (صلى).
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/119، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 313.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/208.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النّساء: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ أهميّة الوعدِ بعد الوَعيدِ، من جناب الله الّذي يُبدئ ويُعيد

لَمَّا ذكَر تعالى وعيدَ الكفَّار، أعقَب بِوَعْدِ المؤمنين؛ فقد جرَتْ عادةُ اللّه تعالى في هذا الكتابِ الكريم بأنَّ الوعدَ والوعيدَ يتلازمانِ في الذِّكر على سبيل الأغلبِ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1]. كما أنَّه (ﷻ) لَمَّا ذكر التَّرهيب بِعقابِ الكافرين أتبعه التَّرغيبَ بثواب المؤمنين[2]، الّذين "سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ينعمون فيها أبدًا ولا يخرجون منها، ولهم فيها أزواج طهّرها اللّه من كلّ أذى، وندخلهم ظلّا كثيفًا ممتدًا في الجنّة"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: الخلودُ هو المُكْثُ الطَّويلُ، والبقاءُ في دارٍ لَا يُخرَجُ مِنهَا، يقال خَلَد يَخْلُد خُلدًا وخُلوداً: بَقِيَ وَأقام، ودَارُ الخُلد: الآخرَةُ لبقاءِ أَهلها فِيهَا، و(خَلَدَ) أَصلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ والمُلَازَمَة، والمعنى هنا: ماكثين ساكنين فيها لَا يُحَوَّلُونَ ولَا يَزُولُونَ[4]، وقد قالوا: أخلد الرّجل إخلادا إذا أبطأ عنه الشّيب[5]، وقيل لأثافي الصّخور: خوالد، لبقائها بعد دروس الأطلال[6].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/167، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/681، والسِّعْدي، تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمن، ص: 183.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/306.
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 87.
(4) الأَزْهَرِيّ، تَهْذِيبُ اللُّغَة، وابْنُ عَبَّاد، المُحيط، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب: (خلد)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/169.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خلد).
(6) الجوهريّ، الصحاح: (خلد).

2) ﴿أَبَدًا﴾: الأبَدُ: الزَّمنُ والدَّهر الطَّويلُ الممتدُّ، والأَبَدُ أيضًا: الدَّائم، والتَّأبيدُ: التَّخليد، ويُقالُ: أبَدٌ آبِدٌ وأبيدٌ على المبالغةِ؛ أي: دائمٌ؛ ولَا أفعل ذَلِك أبَدَ الأبيدِ وأبَدَ الآبدِين، وأصل (أَبَدَ) يَدُلُّ عَلَى طُولِ المُدَّةِ، وأَبَدَ بالمكان يَأْبِدُ أُبُودًا؛ أي: أقام به، والمعنى هُنا: زمانًا لا انقضاءَ لآخرِه[1].

3) ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: الظّلُّ الفائضُ الدَّائم الَّذي لا تنسَخُه الشَّمسُ، والّذي لا بَرْدَ فيه ولا حرَّ ولا ريحَ ولا سَمومَ، والظَّليل فعيلٌ من الظِلِّ بمعنى ما يَتَّصِف بالظَّلالة وثَبَتَتْ فيه هذه الصِّفة، فيدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، وأَصْلُ (ظَلَلَ): يَدُلُّ على سَتْرِ شيءٍ لِشَيءٍ[2]، وأظَلَّكَ الشّيءُ دَنا مِنكَ، حَتَّى أَلْقَى عليكَ ظِلَّهُ من قُرْبِه والظِّلُّ الخيالُ مِنْ الجِنِّ وغيره يُرَى، ومُلاعِبُ ظِلِّه طائِرٌ وقولُهم في المَثَلِ لأَتْرُكَنَّه تَرْكَ ظَبْيٍ ظِلَّهُ، معناه كما تَرَكَ ظَبْيٌ ظِلَّه[3]، وورد: فيه (الجنّة تحت ظلال السّيوف)، هو كناية عن الدّنوّ من الضّراب في الجهاد، حتّى يعلوه السّيف، ويصير ظلّه عليه[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وَعْدُ اللهِ لعباده المؤمنين برغد النَّعيم، في جَنَّات الخلود المقيم

والّذين صَدَّقواْ بما جاءهم من ربِّهم، واستقاموا على الطَّاعة سنُدخلهم يوم القيامة جنّاتٍ تجري من تحت قصورها الأنهار، يتمتّعون بنعيمها العظيم، ماكثين فيها أبدًا، لهم فيها أزواجٌ مُطَهَّرة من العيوبِ المُزرية، والأدناس المُردية، يُدخلن السّرور الى نفوسهم، فتكمُلُ سعادتُهم، ويُقيمُون في ظلّ ظليل من العيش الطيّب، والهناء المنعش، حيث نبسط عليهم ظلًّا ظليلا، لا حرَّ فيه ولا قرّ[5].

---

(1) الرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (أبد).
(2) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (ظلل)، وابن الهائم، التبيان، ص: 140، والكفويّ، الكليَّات، ص: 596، والمصطفويّ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: 7/168.
(3) ابن سيده، المحكم: (ظلل).
(4) ابن الأثير، النهاية: (ظلل).
(5) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخب، ص: 118، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 87 (بتصرّف).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ على المزاوجة بين مصير الكافرين، ومآل المؤمنين:

استكمال مظاهر المساءَةِ والمسرَّة، لمن كفر ثمّ لمن آمن

فقَد عقَّب النَّظمُ الكريمُ بيانَ سُوءِ حال الكفرة، ببيانِ حُسْنِ حال المؤمنين، تَكْميلًا للمَساءَةِ والمَسَرَّة، وقدَّم بيانَ حال الأوَّلين لأنَّ الكلام فيهم[1]، والمُراد بالمَوصولِ إمَّا المؤمنون بِنَبِيِّنا ﷺ، وإمَّا ما يَعُمُّهُمْ وسائر من آمنَ من أمم الأنبياء - عليهم السلام - ؛ أي: إنَّ الّذين آمنواْ بما يجبُ الإيمانُ به، وعملواْ الأعمالَ الحسنةَ، سَنُدخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجري مِنْ تَحتِهَا الأَنهارُ[2].

المُقابلةِ بين جزاءِ أَهْلِ الإيمانِ وعقاب أَهْلِ الكفرِ والعصيان:

تزجيّة البشارة بتصوير الحالتين في صورةِ المحسوسِ الظَّاهر

هاهُنا مقابلةُ ثلاثةِ معانٍ بثلاثةٍ أخرى: فجملة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تُقابل جملة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وجملة ﴿نُصۡلِيهِمۡ نَارًا﴾ تقابل جملة ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾؛ إذ أَصلُ الصَّلْيِ الإيقاد بالنَّار، وصَلِيَ الكافِرُ النَّار دخلها وقاسى حَرَّها[3]، ووَصفُ العذاب يُقابلُ وصفَ النَّعيم، فالعذاب الّذي يكون بإصلاءِ النَّار، وإنضاج الجلود وتبديلها، لاستمرار العذاب، صورةٌ مُضادَّةٌ للنَّعيم، في جريان الأنهار، والأزواج المُطَهَّرَةِ، والظِّلِّ الظَّليل، وقيمة هذه المقابلة تتجلّى في تصوير نعيم الجنَّة، وعذاب النَّار، بصورة حِسِيَّةٍ واضحة، تدفع المُتَأَمِّلَ إلى الاختيار الصَّحيح للفئة التّي يَرْغَبُ أن يكون منها، وفي هذه المُقابلة أيضًا زِيَادَةُ غَيْظٍ لِلْكَافِرِينَ[4].

دلالةُ التَّعبير بـ(السِّين) مع المؤمنين و(سوف) مع الكافرين:

ففي (السِّين) تأكيدٌ للوعد أيضًا، مثل (سوف)، لكنّ اختيارها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/58.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/58.
(3) الرَّاغِب، المُفردات: (صلا).
(4) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/90.

معاملة أهل الكفر بالعذاب والبعد، وجزاء أهل الإيمان بالنّعيم والقرب

هُنا بليغ، وفي ورودها في وَصْفِ حال الكافرين، ما لا يخفى[1]، فقوله سبحانه ﴿سَوۡفَ﴾ في الآية السابقة لأنَّها دالّة على البعد، وفيها إشارة من الله، أنّه أمهل الكفّارَ ليتُوبُوا، وهو بإيراد (السّين) يُغْرينا بالطَّاعَةِ، لدلالتها على القرب، لذلك عبَّر عنها بقوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[2]، ورُبَّما أفهم التَّنفيس لهم بالسِّين، دون سوف، أنَّهم أقصر الأمَمِ بقاء في الحياة، وأنَّهم أقصرهم أعمارًا، إذ أنّ الرّجوع إليه، راحة لهم من دار الكَدَرِ إلى ما يؤولون إليه في مقام الصَّفاء، وأنَّهم يَدخُلون الجنَّةَ، قبل جميع الفرق النَّاجيةِ، من أهل الموقف[3]، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

المبالغةُ في التّنويه بالنَّعيم الرّضيّ، والمصير التّقيّ

فائدةُ المجاز العقليّ في إسنادِ الفعل إلى مكانِه:

هناك مجازٌ عقليٌّ في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ حيث أسند الجريانَ إلى الأنهار إسنادًا مجازيًا؛ وذلك لأنَّ الأنهار لا تجري، إنَّما الّذي يجري ماؤها[4]، فهو مجازٌ عقليٌّ علاقته المكانيَّة؛ حيث أسند الفعل إلى مكان المسندِ إليه، وغرضه البلاغيُّ المبالغةُ في إظهار النَّعيم الدَّائم الّذي فيه أهل الجنان، بإظهار جمال هذه الصُّورة، في عمقٍ وغزارةٍ، وسعةٍ وصفاءٍ، وسرعةِ جريان ماءِ تلك الأنهار، حتّى يخيّلَ للرَّائي أنَّ النَّهرَ برمّتِه يجري، وليس الماءُ فقط[5].

بيانُ رفعةِ أهل الجنان، بجريان الأنهار من تحتهم

دلالةُ الكنايةِ عن النِّسْبَةِ، في قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، جَعَلَ الحقُّ تبارك وتعالى جريان الأنهار تحت الجنَّات، كنايةً عن رفعة هذه الجنّات، ثُمَّ إنَّ في هذا أيضًا كنايةً عن نسبةِ الرِّفعة لمقام المنعَّمين بهذه الجنَّات[6].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/58.
(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 4/2338.
(3) الشِّربينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/311.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/233.
(5) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّةٌ: 2/445.
(6) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّةٌ: 2/461.

سِرُّ العدول عن الجَمْعِ إلى الإفراد، وغرض تقديم المسند:

بيانُ أصالةِ الطُّهر ودوامه في الأزواج المطهّرة

لمّا وصَفَ تعالى حُسنَ الدَّارِ، ذكَر حُسنَ الجارِ، فَقال تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾[1]، والمُطَّرِدُ في وصف جَمعِ القِلّة لِمَنۡ يَفضُلُ، الألفُ والتَّاء، فعَدَلَ هُنَا عن ذلك إلى الوِحدَةِ؛ لإفهام أنهنَّ لِشِدَّةِ الموافقة في الطُّهۡرِ كذاتٍ واحدَة فقال: ﴿مُّطَهَّرَةٞۖ﴾؛ أي: مُتَكَرِّرٌ طُهرُها، لا تُوجَدُ وَقۡتًا ما على غَيۡرِ ذَلِكَ[2]، وقدّم المسندَ ﴿لَّهُمۡ﴾ لتعجيل المسرّة لهم، ونكّر ﴿أَزۡوَٰجٞ﴾ للتّفخيم والتّعظيم.

وجه مُرَاعاةِ النَّظير في تَعَدُّد نعيم أهل الجنَّة:

بيان التّناسُب والتّكامُل بين النِّعم المرصودة في الجنان

في هذه الآية الكريمة نِعَمٌ عظيمة يُبَشِّرُ الرَّحمن بها عباده الصَّالحين، منها نعمة جريان الأنهار، ثُمَّ نعمة الخلود، ثُمَّ نعمة الأزواج المُطَهَّرة، وتُتَوَّجُ تلك النِّعم الجليلة بنعمة الظِّلِّ الظَّليل، الّذي يكون: ظلًا وارفا طَيِّبًا أنيقًا[3]، والتَّناسب المعنويُّ بين ذلك الظِّلِّ الظَّليل وبَيۡنَ نعمة الأزواج المُطَهَّرَةِ كَبيرٌ؛ حيث إنَّ مِنۡ أَجَلِّ النِّعَم على الإنسان وأَلۡصَقِهَا بالنَّفۡسِ الخُلۡوَةُ في مكان ظَليلٍ لا تَقَعُ عَلَيۡهِ عُيونُ الآخَرينَ[4].

بلاغة الاستعارة والكناية، في قوله: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾:

ظلّ الله في جنّاته، عطاء ورحمة وراحة

تتضمّن الآية استعارة بليغة، لأنّ الظلّ في الحقيقة هو ضوء شعاع الشّمس دون شعاعها، فإذا لم يكن ضوء فهو ظلمة، وليس بظلّ، ولذلك قيل: (فلان يعيش في ظلّ فلان)، بمعنى: في كنفه، ويقال: أظلّك فلان، إذا دنا منك كأنّه ألقى عليك ظلّه[5]، فقد شبّه الظّلّ بالكنف، وحذف المشبّه به وجاء بشيء من لوازمه، وهو الإدخال فيه على سبيل الاستعارة المكنيّة، وهي معبّرة عن أقصى معاني المتعة

---

(1) الشِّرۡبينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/311.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/307، والشِّرۡبينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/311.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/338.

(4) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّةٌ: 2/502.

(5) الشّيخلّي، القرآن الكريم في الإعجاز: 2/370.

والحماية واللّذة بالنّعمة، وإذا كان الظّل عِبَارَةً عن الرَّاحَة؛ كَانَ كِنَايَةً عن المُبَالَغَةِ العَظِيمَةِ في الرّاحة، وفي هذا المضمار، يقول الرّازيّ: "وَاعْلَمْ أَنَّ بِلَادَ الْعَرَبِ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ، فَكَانَ الظِّلُّ عِنْدَهُمْ أَعْظَمَ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى جَعَلُوهُ كِنَايَةً عَنِ الرَّاحَةِ"(1).

بديعُ الجناس بالصِّفَة المُشتَقَّة:

بيان حُسنِ الظِّل الظّليل، والمتعة بانبساطِه واعتدالِه

فقوله ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: جِناسُ اشتقاقٍ، و﴿ظَلِيلًا﴾ صفةٌ مشتقَّة من الظِّلِّ؛ لتأكيدِه(2)؛ للدَّلالةِ على بلوغه الغايةَ في جِنسِه(3)، فهُوَ مِنْ تَمَامِ مَحَاسِنِ الجَنَّاتِ؛ لأنَّ الظِّلَّ إِنَّمَا يَكُونُ مع الشَّمسِ، وذَلِك جَمَالُ الجنَّات ولذّة التنعّم برُؤيَةِ النُّورِ مَعَ انتفاءِ حَرِّه، ووُصِفَ بالظَّليلِ وَصفًا مُشتَقًّا مِن اسم المَوصُوفِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى بُلُوغِهِ الغَايَةَ في جِنسِه، فهو متّصلٌ لا فُرَجَ فيه، منبسطٌ لا ضيقَ معه دائمًا، لا تصيبُه الشَّمس يوماً ما، ولا حرَّ فيه ولا بردَ، بل هو في غاية الاعتدال(4)، والعربُ يَأْتُونَ بِمِثْلِ هَذَا الوَصفِ بِوَزنِ فَعِيلٍ: كما هو الحال هُنَا، ومنه قَولُهُم: دَاءٌ دَوِيٌّ، ويَأْتُونَ بِهِ بِوَزنِ أَفعَلٍ: كَقَولِهِمْ: لَيلٌ أَليَلُ ويَومٌ أَيوَمُ(5)، والمُراد في هذه الآية إمَّا حقيقته، وإمّا أنَّه إشارةٌ إلى النِّعمة التَّامة الدَّائمة، فيكون من قبيل الكِنايَة(6)، فإن قيل: أفي الجنَّة بَرْدٌ أو حَرٌّ يحتاجون معه إلى ظِلٍّ؟ فالجوابُ: أن لا، وإنَّما خاطَبَهم بما يَعْقِلُون مثله، كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: 62] وجوابٌ آخرُ: وهو أنَّه إشارةٌ إلى كمال وَصفِهَا، وتمكين بنائِها، فلو كان البردُ أو الحرُّ يتسلّطُ عليها، لكان في أبنيتها وشجَرِها ظِلٌّ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/108.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/523، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/79، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/192.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/90.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/307.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/90.
(6) النّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/231، والآلوسّي، روح المعاني: 3/58.

ظَليلٌ[1]، يُتَّقَى به من الحرّ، ويُحْتَمَى به من القرّ، وذلك بديعُ صنع الله الّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، والّذي أعدّ لعباده الصّالحين، ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخلود والدَّوام:

الدَّوامُ هو استمرار البقاءِ في جميع الأوقاتِ، يُقال: دام الشَّيءُ إذا امتدَّ الزَّمان عليه[2]، ولا يقتضي أن يكونَ في وقتٍ دون وقتٍ؛ ولهذا يُقال: إنَّ الله لم يزل دائِمًا ولا يزال دائِمًا، والخلودُ هو استمرارُ البقاء من وقتٍ مُبْتَدإٍ؛ ولهذا لا يُقال: إنَّه خالدٌ كما إنَّه دائم، والخلودُ يقتضي طولَ المُكث كَقَوْلِهِم للأيام: خَوالد؛ وذَلِكَ لطول مكثها لَا للدّوام[3]، وفلان خَلَدَ في الحَبسِ، ولا يقتضي ذلك دوامُه فيه، ولذلك وُصِفَ سبحانه بالدَّوام دون الخلود، إلّا أنَّ خلود الكفَّار في النَّار المُرادُ به التَّأبيدُ بلا خلاف بَينَ الامَّة[4]، ومعلوم أنّ حبّ البقاء في هذه الحياة الدّنيا، أمرٌ فطريٌّ مغروس في جبلّة الإنسان، لذلك استطاع إبليس بمكره وزيغه، أن يخدع آدم عليه السلام، وينجح بدهائه في إخراجه من جنّة الاختبار؛ لأنّه دخل عليه من مدخل نفسيّ لا يقاوم، وهو حبّه للخلود والبقاء، فانصاع لإغوائه وعصى أمر ربّه، ونسي ما ذكّره به، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: 120 121].

الأبد والأمد:

الأمدُ: الغاية، تقول بَلَغَ أَمَدَهُ؛ أي: غايتَه، والأمدُ والأبَد مُتقاربان، لكنَّ الأبد عبارةٌ عن مُدَّةِ الزَّمان الّتي لا حدَّ لها ولا تَتَقَيَّد، يُقال: أبد الآبدين؛ مَعْنَاهُ دهر الدَّاهرين، وعصر البَاقِينَ؛ أَي: يبقي مَا بَقِي دهر وداهرٌ[5]، ولا يقال أَبَدُ كذا، والأمد مُدَّةٌ لها حدٌّ مجهول إذا

(1) ابْنُ الجَوْزِيّ، زادُ المَسير: 2/113.
(2) المَنَاوِيّ، التَّوقيف، ص: 167.
(3) الكفوي، الكليات، ص: 414.
(4) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 118.
(5) الكفويّ، الكليات، ص: 32.

أُطْلِقَ، وقد ينحصر فيُقال أَمَدُ كذا، كما يُقال زمن كذا، فالأمدُ يُقال باعتبار الغاية[1]، ويعبّر بالأمد مجازا عن سائر المدّة، وهو المنتهى من الأعمار، يقال: ما أمدك؟ أي منتهى عمرك، وفي القرآن بمعنى المدّة عموما: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [الحديد: 16][2]، أو بمعنى المدى الطّويل، كما في قوله تعالى: ﴿أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾ [الجنّ: 25].

الظلّ والفيء:

والظّلّ معناه في اللّغة: السّتر، يقال: لا أزال اللّه عنّا ظِلَّ فلان، أي: ستره لنا، ويقال: هذا ظلّ الشّجرة، أي: سترها وتغطيّتها[3]، ومعنى الفيء: الموضع الّذي تكون فيه الشّمس ثمّ تزول عنه، لأنّه عاد إلى مثل الحال الّتي كان عليها قبل أن تقع فيه الشّمس[4]، قال ابن قتيبة: "يذهب النّاس إلى أنّ الظّل والفيء بمعنى واحد، وليس كذلك، بل الظّل يكون غدوة وعشيّة، والفيء لا يكون إلّا بعد الزّوال، فلا يقال لما قبل الزّوال فيء، وإنّما سمّي بعد الزّوال فيئا، لأنّه ظلٌّ فاء من جانب المغرب إلى جانب المشرق، والفيء الرّجوع[5]، وقيلَ الفَيْءُ بالعَشِيِّ، والظِّلُّ بالغَداةِ، فالظِّلُّ ما كانَ قبل الشّمس، والفَيْءُ ما فاءَ بعدُ، وقالواْ ظلُّ الجَنَّةِ، ولا يُقالُ فَيْؤُها، لأنّ الشّمس لا تُعاقِبُ ظِلَّها، فيكون هُناكَ فَيْءٌ، إنّما هي أبداً ظِلٌّ، ولذلك قالَ اللّه ﷻ ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرّعد: 35]، أراد وظِلُّها دائِمٌ أَيْضًا"[6].

(1) المَنَاويّ، التّوقيف، ص: 61.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 7/391.
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 2/68.
(4) الأنباريّ، المصدر نفسه: 2/68.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: 1/46.
(6) ابن سيده، المحكم: 4/10.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النّساء: 58]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين استحقاق الجنّة، والأعمال الموجبة لرضا السّميع البصير

بعدما وعدَ اللّهُ عبادَه المؤمنين على امتثالِ أمرِه، من كريمِ ثوابِه، بالعطاءِ الموعود، والظِّلِ الممدود، أقبل عليهم بلذيذِ خطابه، حاثًّا لهم على الأمانة والعدل:[1]، نبَّهَ على هذين العَمَلَينِ الشَّريفَينِ اللَّذينِ من اتَّصَفَ بهما كان أَحرَى أن يتَّصِف بغيرهما من الأعمال الصَّالحة، أحَدُهُما ما يَخْتَصُّ به الإنسان فيما بَيْنَهُ وبين غيرِه، وهو أداءُ الأمانة التّي عُرِضَتْ على السّماوات والأرض والجبال، فأَبَيْنَ أن يَحمِلْنَهَا، والثَّاني ما يكون بَينَ اثنين من الفَصلِ بينهما بالحُكمِ العَدلِ، الخالي عن الهوى، وهو من الأعمال العظيمة التّي أَمَرَ اللّه بها رُسُلَهُ وأنبياءَه والمؤمنين[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤَدُّواْ﴾: أدّى الحقَّ، أدّى إليه الحقَّ: أوصله، وسلَّمه، وفي الحديث: (أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ)، ومنه قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[3]، وتؤدّوا بمعنى "توصلوا، وأدَّى فلانٌ ما عليه أداءً وتأديةً، أَوصَلَهُ، وقضاهُ، والأَداءُ: ما يجبُ دفعُهُ، وإعطاؤهُ لمستحقّه كأداءِ الأمانة، والأصلُ (أَدَيَ)، وهُوَ إِيصَالُ الشَّيءِ إِلَى الشَّيءِ، أو وُصُولُه إِلَيهِ مِنْ تِلقَاءِ نَفسِهِ[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/308.
(2) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/684.
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/76.
(4) الخليل، العَينْ، والرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغَة: (أدى).

2) ﴿أَهۡلِهَا﴾: أصحابها، وأَهْلُ الرَّجُلِ: من يجمعه وإياهم نسب، أو دين، أو ما يجري، مجراهما، كعَشِيرَته وذَوي قُرباه وأخصِّ النَّاس بِهِ، وأهلُ البَيت: سُكانه، وأهلُ الإسلَام: من يَدين بِهِ، ومن هَذَا يُقَال: فلَان أَهلُ كذا أَو كَذَا، وأَهلُ الأَمَانَةِ هنا: هُم مُستَحِقُّوهَا من أصحابُ الأملاكِ والأَموالِ[1].

3) ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾: العدلُ الاسْتِقَامَةُ، والحكْمُ بالحقّ، وهُوَ ضدُّ الجور والظُّلم، وأصل (عَدَلَ) يَدُلُّ عَلَى استِوَاءٍ، والعَدلُ من النَّاس المَرضيُّ قولُهُ وحُكْمُهُ، يُقالُ: فلانٌ عَدْلٌ، وهُمْ عدولٌ، والمعنى هُنا: مَا قَامَ في النُّفوس أنَّه مُستَقِيمٌ وحقٌّ لا زيادة فيه ولا نُقْصان[2]، قال الشّاعر:

إنَّ الَّذينَ قَتَلْتُمْ أَمْسِ سَيِّدَهُمْ *** لا تَحْسِبُواْ لَيْلَهُمْ عَنْ لَيْلِكُمْ نَامَا

أَدُّواْ الَّتِي نَقَصَتْ سَبْعِينَ مِنْ مِائَةٍ *** ثُمَّ ابْعَثُواْ حَكَمًا بِالْعَدْلِ حَكَّامَا[3]

4) ﴿نِعِمَّا﴾: نِعْمَ: ضِدُّ بِئْس، يُقال نَعِمَ يَنْعِمُ، وَيجوز يَنْعَمُ، فهُوَ ناعم ويَقُولُونَ: إِنْ فَعَلَت ذَاكَ فبهَا وَنِعْمَتْ؛ أَي: نَعِمَتِ الخَصلَةُ هِيَ، ونعم الشَّيءُ، صَارَ (نَاعِمًا) لَيِّنًا، وبَابُهُ سَهُلَ، وأصل (نَعِمَ) يَدُلُّ عَلَى تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصَلَاحٍ، والمعنى هنا: نِعْمَ شيءٌ يعظكم بِهِ[4].

5) ﴿يَعِظُكُم﴾: الوَعظُ: النُّصحُ والتّذكيرُ بالعواقب، يقال وَعَظْتُهُ وَعْظاً وعِظَةً فاتَّعَظَ؛ أي: قبِلَ المَوْعِظَةَ، والوَعْظُ والعِظَةُ والمَوْعظَةُ: تذكرتك الإنسَانَ بِمَا يلِيّنُ قلبَه من ثَوَاب وعقاب، وأصل الوعظ التَّخويف، والرّجل يتَّعظ إِذا قَبِل الموعظة حِين يذَكَّرُ الخير وَنَحْوه، مِمَّا يرقّ به قلبُه، والمعنى هنا: يذكِّركُم ويرشدُكم[5]، ومن أمثالهم المعروفة: (لا تعظيني وتعظعظي)، أي: اتّعظي أنت، ودعي موعظتي[6]، ويقال: "السّعيد من وعظ بغيره، والشّقيّ من اتّعظ به غيره "[7].

(1) الأَزْهَرِيّ، تَهْذِيبُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبِيديّ، تاجُ العَروس: (أهل)، وابْنُ عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوير: 5/92.

(2) الخَليل، العَيْن، والأَزْهَرِيّ، تَهْذِيبُ اللُّغَة، والجَوْهَرِيّ، الصِّحاح، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس، وجبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقِيّ: (عدل)، والمصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 8/60.

(3) الأنباريّ، الزّاهر: 2/10.

(4) الأَزْهَرِيّ، تَهْذِيبُ اللُّغَة، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (نعم).

(5) الأَزْهَرِيّ، تَهْذِيبُ اللُّغَة، وابْنُ سِيدَه، المُحْكَم، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (وعظ)، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/492.

(6) الخليل، العين: (وعظ).

(7) الجوهريّ، الصحاح: (وعظ).

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إنَّ اللّه يأمرُكم أن توصِلوا كلَّ ما ائْتُمِنْتُم عليه إلى أصحابِه، ويأمرُكم إذا قضيتم بين النَّاس أن تُقسِطوا، ولا تميلوا في الحكم، أوتَجُوروا في المعاملة، إنَّ اللّه نِعِمّا يُذَكِّرُكم به، ويُرْشِدُكم إليه، في كلِّ أحوالكم، فهو السّميعُ لأقوالكم، المُطَّلِعُ على سائر أعمالكم، البصير بها، يَعلَمُ من أدَّى الأمانة فيجازيه، ومن خانها، فيبعده ويقصيه(1).

الأمــرُ بــأداء الأمانةِ والعدل في الـحـكـمِ، إرشادًا لما يصلحُ الدّين والدّنيا

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ بعد الوعدِ والوعيدِ:

فقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾: استِئنَافٌ ابتِدَائِيٌّ، قُصِدَتْ منهُ الإفَاضَةُ في بَيَانِ شَرَائِعِ العَدلِ والحُكم، ونِظَامِ الطَّاعَةِ، وذَلِكَ مِنَ الأَغرَاضِ التَّشرِيعِيَّةِ الكُبرَى الَّتِي تَضَمَّنَتهَا هَذِهِ السُّورَةُ(2)، إذْ العدل أساس الدّين، ومرتكز التّشريع الّذي ينظّم الحياة، ويحقّق المقاصد والمناطات، ويضمن الحقوق والواجبات.

بـيـان الـشَّرائع الموجبَة للنَّعيم، والـصَّـارِفَـةِ عـن الـعـذاب والجَحيم

دلالةُ ذكرِ المُسنَدِ إليه بلفظ الجلالة الظّاهر (اللّه):

لكأنَّ توشيح الكلام بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، وتوكيده بلفظ ﴿إِنَّ﴾ في صدر الجملة، يُشْعِرُ بأنَّ شأن المُسْنَدِ - وهو الأمر - قد عَظُمَ بعظمةِ المسنَدِ إليه، فأمرٌ منه سبحانه لا بدَّ أن يكون عَظيمًا(3)، والآمر اللّه الّذي له صفات الكمال والجلال والجمال، حين يأمر بأداء الأمانات، هو قيّوم الأرض والسّموات، وحاجتنا نحن إلى الانتفاع بأوامره أكيدة، وهو مستغنٍ عن طاعتنا، فلا تزيد في ملكه،

تـعـظـيـمُ شأن المُسْنَدِ والاهتمامُ بـه، مسلك في البلاغة أصيل

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخب، ص: 118، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 87.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/91.

(3) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّةٌ: 1/250.

ومنزّه عن التّأذّي بمعصيتنا، فلا تنقص من ملكوته، ولذلك كان التّعبير عند الأمر بأداء الأمانة بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، مفيدا في هذا السّياق البليغ.

سِرُّ مجيء الأمر على صيغة الإخبار المؤكّد:

بيانُ وجوبِ الامتثالِ لأمر الله، بأداء الأمانات، والاعتناءِ بشأنها

وإيرادُ الأمرِ على صورة الإخبارِ، من الفخامة وتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ به، والدِّلالةِ على الاعتناء بشأنه، ما لا مزيدَ عليه؛ حيث أكّد الأمر بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة، وهو خِطابٌ يعُمّ حكمُه المكلَّفين قاطبةً، كما أنَّ الأماناتِ تعمُّ جميعَ الحقوقِ المتعلِّقةِ بذِمَمِهم، من حقوق اللّه تعالى، وحقوقِ العبادِ، سواءً كانت فعليةً أو قوليةً أو اعتقاديةً[1]، فجُمْلَةُ ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ صَرِيحَةٌ في الأَمرِ والوُجُوبِ، والخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصلُحُ لِتَلَقِّي هَذَا الخِطَابِ والعَمَلِ بِهِ، مِنْ كُلِّ مُؤتَمَنٍ عَلَى شَيءٍ، في أيّ مجال من مجالات الحياة، وهو ينصرف تذكيرا وأمرًا إلى كُلِّ مَنْ تَوَلَّى الحُكمَ بَينَ النَّاسِ في الحُقُوق العامّة والخاصّة[2].

دلالةُ الأمر بتأديّةِ الأمانةِ قبلَ الأمرِ بالتزام العَدلِ:

الاهتمامُ بما يُصْلِحُ النَّفسَ، مقدّم على إصلاح الغير

لَمَّا كان التَّرتيبُ الصَّحيحُ، أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع، ودفع المضارِّ، ثُمَّ يشتغل بغيره، فقد ذكر تعالى الأمر بالأمانة أوّلا، ثُمَّ ذَكَرَ الأمر بالحُكْم بالحقِّ، وهو ترتيب حسن منطقيّ؛ لأنَّ أكثر لطائف القرآن مُودَعَةٌ في التَّرتيبات والرَّوابط[3]، فقد أمر اللّه تعالى بإيصال الحقوق المُتعلّقة بِذِمَمِ الغَيْرِ إلى أصحابها، إثر الأمر بإيصال الحقوق المُتَعَلِّقَةِ بذممهم[4]، لهذا عَطَفَ الأمرَ بالعدل على الأمر بأداء الأمانة؛ فالواو للعطف في قوله ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم﴾، والظّرف

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/192، والقاسميّ، محاسن التأويل: 3/177.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/91.

(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/110، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/684.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/62.

مُتَعَلِّقٌ بما بعد ﴿أَن﴾، وهو معطوف على ﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾، والجارُّ مُتَعَلِّقٌ به، أو بمقدّر وقعَ حالًا من فاعله؛ أي: ويأمركم أن تحكُمُواْ بالإنصاف والسَّوِيَّة، أو مُتَلَبِّسين بذلك إذا قضيتم بين النَّاس، ممَّن يَنْفُذُ عليه أمرُكم، أو يرضى بحكمِكُم(1).

سِرُّ الكناية عن العَدْلِ، بكَفِّ المعتدي وصدّ عدوانه:

مظاهرُ العدل، تتجلّى في نُصرة المظلوم، ورَدِّ الحقوق

شَاعَ إطلَاقُ العدل عَلَى إيصَالِ الحَقِّ إِلَى أَهلِه، ودَفع المُعتَدِي على مُستَحِقِّه، إطلَاقًا نَاشِئًا عَمَّا اعتَادَهُ النَّاسُ، من أَنَّ الجَورَ يَصدُرُ مِنَ الطُّغَاةِ الَّذِينَ لَا يَعُدُّونَ أَنفُسَهُمْ متساوين مَعَ عُمُوم النَّاس، فأَطلَقَ لَفظَ العَدْلِ - الَّذِي هُوَ التَّسوِيَةُ - عَلَى تَسوِيَةٍ نَافِعَةٍ، يَحصُلُ بِهَا الصَّلَاحُ والأَمنُ، وذَلِكَ بسحب الشَّيءِ مِنْ يَدِ المُعتَدِي؛ لتَظهَرُ المساواة العادلة بَينَ المُتَنَازِعِينَ، فهُوَ كِنَايَةٌ غَالِبَةٌ، ومَظْهَرُ ذَلِكَ هُوَ الحُكْمُ لِصَاحِبِ الحَقِّ بِأَخذِ حَقِّه ممَّن اعتَدَى عَلَيه؛ ولِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾، ثُمَّ وقع التَوَسُّعُ فِي هَذَا الإِطلَاقِ، حَتَّى صَارَ يُطلَقُ عَلَى إِبلَاغِ الحَقِّ إِلَى صاحبه، ولَو لَم يَحصُلِ اعتِدَاءٌ ولَا نِزَاعٌ(2).

تقييدُ الأمرِ بالعدلِ، بحال الحُكم على النّاس:

العدلُ معظّم أثير، يُؤتمن عليه القُضاة وولاةُ الأمور

قُيِّدَ الأَمرُ بِالعَدلِ بِحَالَةِ التَّصَدِّي لِلحُكْمِ بينَ النَّاسِ، وأُطلِقَ الأَمرُ بِرَدِّ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهلِهَا عَنِ التَّقيِيدِ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَخلُو مِنْ أَن تَقَعَ بِيَدِهِ أَمَانَةٌ لِغَيرِه، لَا سِيَّمَا عَلَى اعتِبَارِ تَعمِيمِ المُرَادِ بِالأَمَانَاتِ، الشَّامِلِ لِمَا يَجِبُ عَلَى المَرءِ إِبلَاغُهُ لِمُستَحِقِّه، كَمَا تَقَدَّمَ، بِخِلَافِ العَدْلِ؛ فإِنَّمَا يُؤمَرُ بِهِ وُلَاةُ الحُكْمِ بَينَ النَّاسِ، ولَيسَ كُلُّ أَحَدٍ أَهلًا لِتَوَلِّي ذَلِكَ، فتِلكَ نُكتَةُ قَولِه: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(3).

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/62.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِير: 5/94.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/94.

تقريرُ المضمون السّالف، والحثُّ على حُسنِ الامتثال

دلالةُ الفَصلِ بعد إيراد الأمرِبالعدل، والحُكم وفقه بين المتخاصمين:

فقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾: جملةٌ مُستأنَفَةٌ مقرِّرة لمضمون ما قبلها، لكمال الاتّصال بين الجملتين، وهذه الجملة مُتضمِّنة مزيدًا من اللُّطف بالمخاطَبين المدعوين إلى المسارعة للانصياع لأمر اللّه بالعدل، وقد تمّ إظهار الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق، لتربيّة المهابة، وهو اسم ﴿إِنَّ﴾ منصوب على التّعظيم، وجملة ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم﴾ خبرُها، و﴿يَعِظُكُم﴾ صفةُ موصوفٍ محذوف، وهو المخصوص بالمدح؛ أي: (نِعمَ الشَّيءُ شيءٌ يَعِظُكُمْ به)[1]، ويمكن أن تكون الجملةُ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤال مقدّر، فُهِم بعد ما تقدّم، فجُملَةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾: وَاقِعَةٌ مَوقِعَ التَّحرِيضِ على امتِثَالِ الأَمرِ، فكَانَتْ بِمَنزِلَةِ التَّعلِيلِ، وَأَغنَتْ ﴿إِنَّ﴾ في صَدرِ الجُملَةِ عَنْ ذِكرِ فَاءِ التَّعقِيبِ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ إِذَا جَاءَتْ ﴿إِنَّ﴾ للاهتمام بالخبر دون التَّأْكِيد[2].

بيان وحْدَةِ المصدر في الحكم وتَضَمُّن الأمانة للعدل

سِرُّ جمع الحُكْمَينِ السَّابقين في صفةٍ واحدةٍ:

جَمَعَ الحقُّ تبارك وتعالى بين أداء الأمانات، والعدل في الحكومات[3] في صفة واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، والعبارة منصرفة إلى كلّ ملمح منهما، والغرضُ البلاغيُّ من هذا الجمع بيّنٌ واضحٌ؛ حيث إنَّ الأمرين وإنْ يبدوا متفرقَيْن، فإنَّ مؤدّاهما واحدٌ؛ فالحُكْمُ بالعدل لونٌ من أداء الأمانات إلى أهلها؛ أي: إعطاء كلّ ذي حقٍّ حَقَّهُ، سواء كان المُعْطَى ماديًا أو معنويًا؛ فقوله ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾؛ أَي: نِعْمَ شَيءٌ يَعِظُكُمْ بِهِ، أَو نِعْمَ الَّذِي يَعِظُكُمْ بِهِ، والمَخصُوصُ بِالمَدحِ مَحذُوفٌ؛ أَي: نِعَمَ شَيءٌ يَعِظُكمْ بِهِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/63.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/96.

(3) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/540.

ذَاكَ، وهُوَ المأمور به مِنْ أَدَاءِ الأَمَانَاتِ، والحُكْمِ بِالعَدلِ[1]، وذلك في غاية البلاغة والتّناسق وأداء المعنى المراد من السّياق.

فائدةُ التَّذييلِ بذكر السَّمعِ والبَصَرِ بعد الأمر والإرشاد:

لَمَّا أَمَرَ اللّه تعالى في هَذِهِ الآيَاتِ بِالحُكم بالعَدلِ وبِأَدَاءِ الأَمَانَةِ، أردفها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ أَي: إِذَا حَكَمتَ بِالعَدلِ، فهُوَ يَسمَعُ ذَلِكَ الحُكمَ، وإِنْ أَدَّيتَ الأَمَانَةَ، فهُوَ بَصِيرٌ يُبصِرُ ذَلِكَ، ولَا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَعظَمُ أَسبَابِ الوَعدِ لِلمُطِيعِ، وأَعظَمُ أَسبَابِ الوَعِيدِ لِلعَاصِي، ثمّ إنّه كُلَّمَا كَانَ احتِيَاجُ العَبدِ أَشَدَّ، كَانَت عِنَايَةُ اللّه أكمَلَ، والقُضَاةُ والوُلَاةُ قَدْ فَوَّضَ اللّه إِلَى أَحكَامِهِم مَصَالِحَ العِبَادِ، فكَانَ الِاهتِمَامُ بِحُكمِهِم وَقَضَائِهِم أَشَدَّ، فهُوَ سُبحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الغَفلَةِ والسَّهوِ وأن يعزب عنه إدراك المُبصَرَاتِ، أوالإحاطة بالمَسمُوعَاتِ، فلَمَّا كَانَ هَذَا المَوضِعُ مَخصُوصًا بِمَزِيدِ العِنَايَةِ، قَالَ في خَاتِمَةِ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، فحسُنَ التّوافق بين المقاطع والمطالع، وتبيّن للمتدبّر الحصيف أهميّة ما في هذه الجملة البليغة من وعد ووعيد[2].

بيان الوَعْدِ والوعيد، لزرع المهابةِ والرَّقابةِ في قلوب المُخاطَبِين

جملة التّعليل وبلاغةُ مؤكّداتها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾:

هذه الجملةُ تعليليّةٌ؛ ولذا فهي استئنافٌ بيانيٌّ، جوابًا عن سؤال مقدّر: لِمَ يفعل هذا؟ فيكون الجواب: (لأنّه كان سميعًا بصيرًا)، وقد أُكّدت الجملةُ بـ ﴿إِنَّ﴾، وباسميّة الجملة، ومجيءِ ﴿كَانَ﴾ الّتي تجرّدت هنا عن الزّمانِ، لتدلّ على أنّ هذين الوصفين قديمان، قِدَمَ ذاته تعالى، فهذا وصفُهُ منذ كان، لم يتغيّر عمّا كان، وهو سميع بمن أدّى الأمانة وبمن خانها، بصير بمن حكَم بالعدل وبمن جار، فيجازي كلاًّ بعمله. وفي هذا وعد للطّائعين، ووعيد للعاصين[3].

اللّه تعالى لا تطرأ عليه الأغيار، ولا يؤثّر فيه تعاقب اللّيل والنّهار

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/111.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/111، والآلوسّي، روح المعاني: 3/63.

(3) القطّان، تيسير التفسير: 1/305.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمانة والوديعة:

الأمانةُ: ضدُّ الخيانة، وهي كُلُّ حقٍّ لَزِمَ أداؤه وحِفظُهُ(1)، وكلُّ ما افتُرِضَ على العباد فهو أمانةٌ، كالصَّلاة والزّكاة والصّيام وأداء الدَّيْن، وأَوْكَدُها الودائع(2)، فالأمانةُ اسمٌ لما يُؤمَّن عليه الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: 72]، والوديعةُ: واحدةُ الودائع، وأَوْدَعْتُهُ مالًا: دفعتُه إليه، وهي المالُ المدفوعُ إلى من يحفظه بلا عِوَضٍ، والإيداعُ توكيلٌ في حِفظِه(3)، فبين الوديعةِ والأمانة عمومٌ وخُصوصٌ؛ لأنَّ الوديعةَ هي الاستحفاظُ قصدًا؛ فتكون خاصَّةً لاشْتِرَاطِ قصدِ الحِفظ فِيهَا، بِخِلَاف الأَمَانَة فهي عامَّة(4).

الأهل والآل:

الآلُ: خاصّةُ الرَّجل من جِهَةِ القرابة أو الصُّحْبة، فيقال آلُ الرَّجل لأهله وأصحابه، أمَّا الأهلُ فيكون من جهة النَّسب، كأهل الرَّجل لقرابته الأدنين، ويكون للاختصاص كأهل البصرةِ وأهل العلم، ولا يقال: آلُ البصرة وآل العلم(5)، ثمَّ إنّ لفظَ الآل مختصٌّ بأولي الخَطَرِ، كالأنبياء والملوك ونحوهم، فيُقال: آلُ الرَّجُلِ له نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾(6) [الصَّافات: 130]، وآله لأهله وأقاربه، كقول القائل: (اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وعلى آل محمّد)، وآله لمن تَبِعَه كقوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة غافر: 46]، وأمَّا إن ذُكِرَ الرّجل، ثمّ ذُكِرَ آلُه لم يدخل فيهم(7)، ولا يضافُ (آل) إلى الأرذالِ، ولا المكان والزَّمان، ولا إلى الحَقِّ ﷻ، فلا يُقال آل الحائِكِ، وآل مِصْرَ، وآل زَمانٍ، وآل اللّٰه تعالى؛ بخلاف الأهل في جميع ما ذُكِرَ(8)، وَيكون الْآل أَتبَاع الرّجل، وَأهل دينه، وَأمّا أهل الرّجل فأهل بَيته(9)، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46]، أي ليس من أهل دينك وولايتك، وهذا قول الجمهور(10).

---

(1) الشَّوْكانّي، فَتْحُ القدير: 1/288.
(2) الكَفَوِيّ، الكُلّيات، ص: 186.
(3) ابن النَّجار، مُنْتهى الإرادات: 3/250.
(4) الكَفَوِيّ، الكُلّيات، ص: 186.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 281.
(6) حسب قراءة نافع وابن عامر ويعقوب، ينظر: ابن الجزري/ النشر، 360/2.
(7) ابن القيّم، جلاء الأفهام، ص: 209.
(8) التّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/72.
(9) عيّاض، مشارق الأنوار: 1/50.
(10) نشوان الحِميري، شمس العلوم: 1/345.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النّساء: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

توجيـــه المحكومين للطّاعة والتّسليم، بعد إرشاد الحاكمين للوفاء والعدل

لَمَّا أمر الله سبحانه بأداء الأمانات، ورغّب في العدل في المعاملات، حيث أمر الرُّعاة والولاة، بأخذ أمانة المسؤوليّة بحقّها، والمبادرة إلى العدل في الرَّعيَّة، أمرفي هذه الآية عموم النّاس، بطاعته وامتثال أوامره، ثُمَّ بطاعة رسوله واتّباعه، ناهيك عن طاعة الأمراء من أولي الأمر، ممّن أنيطت بهم أمانة الحكم، وجعل ذلك شرطا في الإيمان بالله واليوم الآخر، و" ذلك الرّدُّ إلى الكتاب والسّنة، خير لكم من التّنازع والقول بالرّأي، وأحسن عاقبة ومآلا"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾: هم الرّؤساء والعلماء، وللمفسّرين أقوال فيه كثيرة[2]، ونقصد بأولي الأمر مِنَ المُسلِمينَ، مَنْ يَقومُ بشأْنهم في أَمر دِينِهم، وجَميع ما أدّى إلى صلاحهم، وكُلُّ مَنْ وَلِيَ أَمرَ آخَرَ، فهُوَ وَلِيُّهُ، وأصل (وليّ) يدلُّ على القرب، والأمرُ: الشَّأن؛ فأُولُو الأَمرِ مِنَ الأُمَّةِ، ومِنَ القَومِ، هُمُ الَّذِينَ يُسنِدُ النَّاسُ إِلَيهم تَدبير شؤونهم ويَعتَمِدُونَ في ذَلِكَ عَلَيهمْ من أمراء وعلماء[3]، وفي القواميس المعاصرة، أَنّ أولي الأمر: الرُّؤساء ومن بأيديهم الحلّ والعقد، وعندهم الأمر والنَّهي، ولهم السّلطة الكاملة على من يحكمونهم[4].

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 87.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 28/41.
(3) ابنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب: (إلل)، والرَّاغِب، المُفْردات: (أمر)، وابْنُ فارِس، مَقايِيسُ اللُّغَة: (ولي)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/98.
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أمر).

2) ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾: اختلفتم، والتّنازُعُ: التَّجاذُبُ، كالمُنَازَعَة، ويُعَبَّرُ بهمَا عَن التَّخَاصُم والمُجَادَلَة، وأصل (نزع)يَدُلُّ عَلَى قَلع شَيءٍ، ونَزَعْتُ الشَّيءَ مِنْ مَكَانِهِ نَزْعًا قلعته، والمعنى هنا: تَجَادَلتُمْ وَاخْتَلَفتُم[1]، وتنازَع القَوْم: اخْتَصَمُوا ولتعرفنَّ أيّنا أَضْعَف منزَعة ومَنْزَعة: أي رَأيا وتدبيرا[2]، والمعنى لهذا اللّفظ في سياق الآية: أنّه " أمر بردّ كلّ ما تنازع النّاس فيه من أصول الدّين وفروعه إلى اللّه وإلى رسوله ... إمّا بصريحهما أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب اللّه وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما"[3].

3) ﴿تَأۡوِيلًا﴾: التَّأويلُ من الأَوْلِ؛ أي: الرُّجوعُ إلى الأصلِ، ومنه المَوْئِلُ للموضع الّذي يُرجَعُ إليه، وَآلَ يَؤُولُ، أَيْ: رَجَعَ. يُقَالُ: "أَوَّلَ الحُكْمَ إِلَى أَهلِهِ"؛ أَي: أَرجَعَهُ ورَدَّهُ إِليهِمْ، وأصل (أوّل) يَدُلُّ على الانتهاء، والمعنى هُنا: أحسنَ عاقبةً ومرجعًا[4]، " قال ابن الكمال: التّأويل: صرف الآية عن معناها الظّاهر إلى معنى تحتمله، إذا كان المحتمل الّذي تصرف إليه موافقا للكتاب والسّنة، كقوله: يخرج الحيّ من الميّت، إن أراد به إخراج الطّير من البيضة، كان تأويلا، أو إخراج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل، كان تأويلا"[5].

الأمــر بطاعة اللــه ورسـولـه وأولي الأمــر، وبالاحتكام إلى الله ورسوله في الاختصام

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا أَيُّها الّذين صدَّقواْ اللّهَ وعملِواْ بشرعه واتبعوا رسوله، استجيبواْ لأوامر اللّه تعالى ولا تعصوه، واستجيبواْ للرَّسول ﷺ فيما

(1) الزّبيديّ، تاج العروس، والرَّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِس، مَقايِيسُ اللُّغَة: (نزع).
(2) ابن سيده، المحكم: (نزع).
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/183.
(4) الرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقايِيسُ اللُّغَة: (أول)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 130، والنَّيسابورِيّ، إيجازُ البَيان: 1/246.
(5) الرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقايِيسُ اللُّغَة: (أول)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 130، والنَّيسابورِيّ، إيجازُ البَيان: 1/246.

جاء به من الحقِّ، وأطيعواْ الّذين يَلُونَ أمركَم من المسلمين في غير معصيةِ اللّه، فإن اختلفتم في شيءٍ بينكم فارجعُواْ فيه إلى كتاب اللّه وسُنَّة نبيِّه ﷺ، إن كنتم تؤمنون باللّه وبيوم الحسابِ، فإنّ ذلك الرُّجوعَ إلى الكتاب والسُّنَّة خَيْرٌ من التَّمادي في الخلاف والقول بالرَّأي، وأحسنُ عاقبةً ومآلًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ النِّداء لأهل الإيمان بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

خُصَّ الّذين آمنواْ بهذا النِّداء الكريم على وجه التَّعظيم والتَّكريم؛ لِيَعلَموا أنَّ تَمييزهم بهذا سَبَبُهُ هذه الطَّاعة، فيَتَنَّبهواْ لها ويُقبلواْ عليها، فالطَّاعة عُنوان الإيمان[2]، والنّداء بالإيمان محض شفقة وترفّق، من جناب اللّه الرّحيم بعباده، وربط للأحكام المدرجة بالإيمان الرّاسخ في قلوب المؤمنين، مع الإشارة إلى أنّ مقتضيات الطّاعة للّه ورسوله وأولي الأمر، قد تكتنفها صعوبات وعراقيل تخالطها عوائق وعقابيل، لا يطيق المصابرة عليها وتجاوزها إلّا من أوتي إيمانا راسخًا، ويقينا صادقًا، يثبت به على النّهج المرسوم في هذه الآية.

تكريمُ المؤمنين وتحفيزهم لِتَقَبُّلِ الأوامر والإقبال عليها

دلالةُ الأمر بالطَّاعةِ، ومغزى إضافتها إلى الاسمِ الأعظم:

فقد أَضَافَ لَفظَ الطَّاعَةِ إلى الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾، وهَذَا يَقتَضِي أَنَّ وُجُوبَ طاعَته عَلَينَا، إِنَّمَا كَانَت لِكَونِنَا عَبِيدًا لَهُ، ولِكَونِهِ إِلَهًا، فثَبَتَ مِنْ هَذَا الوَجهِ أَنَّ المَنشَأَ لِوُجُوبِ الطَّاعَةِ هُوَ العُبُودِيَّةُ والرُّبُوبِيَّةُ، وذَلِكَ يَقتَضِي دَوَامَ وُجُوبِ الطَّاعَةِ عَلَى جَمِيعِ المُكَلَّفِينَ إِلَى قِيَامِ السّاعة[3].

الإشـــارةُ إلى وجوبِ الطَّاعة، وأهميّة المُداومة عليها

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 119، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 87.

(2) ابن عطية، المُحرِّر الوجيز، وبناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّةٌ: 1/309.

(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/117.

سِرُّ تكرار الأمر بالطَّاعةِ، في قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾:

الاهتمامُ بشأن النَّبي الأكرم، وتعظيم سُنَّتِهِ وشأنه

أعاد السيّاق الفعل﴿أَطِيعُواْ﴾ في قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، مع أنَّ طاعة الرَّسول مُقترنةٌ بطاعةِ اللّه تعالى، وأَنَّ حَرفَ العَطفِ يُغنِي عَنْ إِعَادَتِهِ اعتناءً بشأنه ﷺ، وإِظهَارًا لِلاهتِمَامِ بِتَحصِيلِ طَاعَةِ الرَّسُولِ، وقَطعًا لِتَوهُّمِ أنَّه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن، فهذا العطف يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ مُتَابَعَةِ الكِتَابِ والسُّنَّة، وفيه إيذان بأنَّ للنَّبيِّ ﷺ استقلالًا بالطَّاعة، لم يَثبُتْ لغيره، لِتَكُونَ مرتبته فيها، أَعلَى مَرتَبَةً مِنْ طَاعَةِ أُولي الأَمر، ومن ثمّ لم يُعَدْ في قوله سبحانه: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، إيذانًا بأنَّهم لا استقلالَ لهم فيها استقلالَ الرَّسول ﷺ[1]، وفيه أيضًا تَنْبِيهٌ عَلَى وُجُوبِ طَاعَتِهِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، ولَوْ كَانَ أَمرُهُ غيرَ مُقتَرِنٍ بِقَرَائِنِ تَبلِيغِ الوَحي؛ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ السَّامِعُ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ المَأْمُورَ بِهَا، تَرجِعُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللَّهِ دُونَ مَا يَأْمُرُ بِهِ فِي غَيرِ التَّشْرِيعِ، فَإِنَّ امْتِثَالَ أَمْرِهِ كُلِّهِ خَيرٌ[2].

سرّ إعادةِ العاملِ مع ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ لا مع غيره، في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾:

طاعة أولي الأمر تكون في المعروف لا في المنكر

فقد أمرَ اللّه ﷻ سائرَ النَّاسِ بطاعتهم، لكنْ ليس مُطلقًا، بل ضمن طاعة اللّه تعالى، وطاعة رسوله ﷺ، والنُّكْتَة في إِعَادَة العَامل مع لفظ الرَّسُول دُونَ أُولِي الأَمر، مَعَ أَنَّ المُطَاع في الحَقِيقَة هُوَ اللَّه تَعَالَى، هي أن الَّذي يُعرَف بِهِ مَا يَقَع بِهِ التَّكلِيف هُمَا القُرآن والسُّنَّة، فكَأَنَّ التَّقدِير: أَطِيعُوا اللَّه فِيمَا نَصَّ عَلَيكُم فِي القُرْآن، وأَطِيعُوا الرَّسُول فِيمَا بَيَّنَ لَكُم مِنْ القُرآن ومَا يَنُصّهُ عَلَيكُم مِن السُّنَّة. أَوْ المَعنَى: أَطِيعُوا اللَّه فِيمَا يَأْمُركُم بِهِ مِنْ الوَحي المُتَعَبَّد بِتِلَاوَتِه،

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/63، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/112، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/97.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/97.

وأَطيعُوا الرَّسُول فِيمَا يَأْمُركُم بِهِ مِنْ الوَحي الَّذي لَيسَ بِقُرآنٍ. قَالَ الطِّيبيُّ: أَعَادَ الفِعل في قَوْله ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إِشَارَة إِلَى اسِتقلَال الرَّسُول بالطَّاعَةِ؛ وَلَمْ يُعِدْهُ في أُولي الْأَمْر، إِشَارَة إِلَى أَنَّهُ يُوجَد فِيهم مَنْ لَا تجب طَاعته، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾؛ كَأَنَّهُ قِيلَ فإِنْ لم يَعمَلُواْ بالحقِّ فلَا تُطِيعُوهُمْ، ورُدُّوا مَا تَخَالَفتُمْ فِيهِ إِلَى حُكم اللَّه ورَسُوله[1]، ولأجل هذا جاء تَصْديرُ ﴿فَإِن﴾ الشَّرطيَّة بالفاء؛ لتَرتُّبها على ما قبلها، فإنَّ بيانَ حكم طاعةِ أولي الأمرِ عند موافقتِها لطَاعة اللّه تعالى، وطاعة الرَّسول ﷺ، يستدعي بيانَ حكمِها عند المخالفةِ؛ أي: إن اختلفتُم أنتُم وأولواْ الأمرِ منكم، في أمرٍ من أمورِ الدِّين، فارجِعُوا فيه إلى كتاب اللّه[2].

سرُّ الاستعارة التَّصريحيَّة في قوله تعالى﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾:

التَّحذيرُ من الاختلاف والتَّنفير منه، للحفاظ على وحدة الأمّة والدّين

أطلَقَ السّياق لفظ (التَّنَازُع) على الاختِلَافِ الشَّدِيدِ بين المؤمنين، عَلَى طَرِيقِ الاستِعَارَة؛ إذ إنَّ أصل المنازعة الجذب باليد، ثم استعيرت في التّنازع في الكلام؛ لِأَنَّ الاختِلَافَ الشَّدِيدَ يُشبِهُ التَّجَاذُبَ بَيْنَ شَخصَين، فاستعير لفظ ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ لـ(اختلفتم)[3]؛ لما في لفظ المستعار من صورة حسّية تُنَفِّرُ المتنازعين منه[4]، وَغلَبَ هذا المعنى في القرآن الكريم، حَتَّى سَاوَى الحَقِيقَةَ، قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: 46]، وقوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢﴾ [طه: 62].

دلالةُ ضمير الجمعِ في لفظة ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾:

بيانُ المُختلفين وحصول التَّنازع في مختلف طبقات الأمّة

ضَمِيرُ ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ هنا، رَاجِعٌ إلى الَّذِينَ آمَنُواْ، فيَشمَلُ كُلَّ مَنْ يُمكِنُ بَينَهُمُ التَّنَازُعُ، وهُم مَنْ عَدَا الرَّسُولَ ﷺ؛ إِذْ لَا يُنَازِعُهُ

(1) ابن حجر، فتح الباري: 1/111.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/193.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/193.
(4) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّةٌ: 2/432.

المُؤمِنُون، فَشَمَلَ تَنَازُعَ العُمُوم بَعضِهِمْ مَعَ بَعضٍ، وشَمَلَ تَنَازُعَ وُلَاةِ الأُمُورِ بَعضِهِم مع بَعضٍ، كَتَنَازُعِ الوُزَرَاءِ مع رئيسهم، أَو بَعضِهِم مع بَعضٍ، وشَمَلَ تَنَازُعَ الرَّعِيَّةِ مَعَ وُلَاةِ أُمُورِهِم، وَشَمَلَ تَنَازُعَ العُلَمَاءِ بَعضِهِم مَعَ بعضٍ، في شؤون عِلْمِ الدِّين[1]، وذكر الثّعالبيّ أنّ "معنى التنَازُعِ، أنَّ كلَّ واحدٍ ينتزعُ حُجَّةَ الآخرِ ويُذهِبُهَا"[2]، وذكر الشّوكانيّ أنّ "المُرَاد: الاختِلَافُ وَالمُجَادَلَةُ، وَظَاهِرُ قَوْلِه: في شَيْءٍ يَتَنَاوَلُ أُمُورَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُ لَمَّا قَالَ: فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، تَبَيَّنَ بِهِ أَنَّ الشَّيْءَ المُتَنَازَعَ فِيهِ يَخْتَصُّ بِأُمُورِ الدِّينِ، دُونَ أُمُورِ الدُّنْيَا"[3].

سِرُّ تنكيرِ لفظ (شَيْءٍ) المُتنازَع عليه، في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾:

إفادةُ العمومِ في المُتنازَع عليه، بعد بيانِ عموم المُتنازِعين

إنّ لَفظَ ﴿شَيۡءٖ﴾ نَكِرَةٌ مُتَوَغِّلَةٌ في الإبهَام، فهُوَ في حَيِّزِ الشَّرطِ يُفِيدُ العُمُومَ؛ أَي: في كُلِّ شَيءٍ، فيَصدُقُ بالتَّنَازُعِ في الخُصُومَةِ عَلَى الحُقُوقِ، ويَصدُقُ بالتَّنَازُعِ في اختِلَافِ الآرَاءِ عِندَ المُشَاوَرَةِ أَو عِندَ مُبَاشَرَةِ عَمَلٍ مَا، كَتَنَازُعِ وُلَاةِ الأُمُورِ في إجرَاءِ أَحوَالِ الأُمَّةِ، ولَقَدْ حَسَّنَ مَوْقِعَ كَلِمَةِ ﴿شَيۡءٖ﴾ هُنَا، تَعمِيمُ الحَوَادِثِ وأَنوَاعِ الاختِلَافِ، فَكَانَ مِنَ المَوَاقِعِ الرَّشِيقَةِ، وعُمُومُ لَفظِ شَيءٍ في سِيَاقِ الشَّرطِ، يَقتَضِي عُمُومَ الأَمرِ بالرَّدِّ إِلَى اللَّهِ والرَّسُولِ، وعُمُومُ أَحوَالِ التَّنَازُعِ، تَبَعًا لِعُمُومِ الأَشيَاءِ المُتَنَازَعِ فِيهَا[4].

سِرُّ استعارة لفظِ (الرَّد) إلى معنى (التَّحاكم):

وجوبُ الرُّجوعِ إلى تفويضِ الحُكمِ لله ورسولِه عند التَّنازُع

جاء الأمرُ بالرَّد لله ولرسوله ﷺ عند الاختلاف والتَّنازع؛ على سبيل الوجوب والإلزام، لأنَّ في الرُّجوع إليهما حَسْمًا لمادَّة الخلاف، وقَطْعًا لسُبُلِ التَّنازع، والرَّدُّ هُنَا مَجَازٌ في التَّحَاكُمِ إِلَى الحَاكِمِ، وفي تَحكِيمِ ذِي الرَّأْيِ عِندَ اختِلَافِ الآرَاءِ، وحَقِيقَتُهُ إرجَاعُ الشَّيءِ إِلَى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/99.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/255.
(3) الشّوكانّي فتح القدير: 1/556.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/100.

صَاحِبِهِ مِثل العَارِيَةِ والمَغصُوبِ، فأصل الردِّ الإرجاعُ، ثُمَّ أُطلِقَ عَلَى التَّخلِّي عَنِ الانتِصَافِ وعَدَمِ تَصوِيبِ الرَّأيِ بِتَفوِيضِ تَصوِيبِهِ وتفويض الحكم إِلَى الحَاكِمِ، وهو هنا الكتابُ والسُنَّةُ، فإطلاق الرَّدِّ على التَّحاكمِ اسْتِعَارَة؛ لأنَّ التَّخلي عن الانتصاف وتَرْكِ الرأي عند الاختلاف يُشبِهُ الإرجاع من هذه النَّاحية[1].والرَّدُّ إلى اللَّه هو النَّظَرُ في كتابِهِ العزيزِ، والرَّدّ إلى الرّسول هو سؤاله ﷺ في حياتِهِ، والنَّظرُ في سُنّته بعد وفاته، هذا قولُ مجاهد وغيرِهِ"[2]، وقد" أمر اللّه في هذه الآية الكريمة، بأنّ كلّ شيء تنازع فيه النّاس، من أصول الدّين وفروعه، أن يرد التّنازع في ذلك إلى كتاب اللّه، وسنّة نبيّه ﷺ، لأنّه تعالى قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]، وأوضح هذا المأمُورَ به هنا بقوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشّورى: 10]»[3]، وهذه الآيةُ اشتملتْ على أكثرِ عِلْمِ أصول الفقه؛ فالكِتَابُ يَدُلُّ عَلَى أمرِ اللَّه، ثُمَّ نَعلَمُ مِنهُ أَمرَ الرَّسُولِ لَا مَحَالَةَ، والسُّنَّةُ تَدُلُّ عَلَى أَمرِ الرَّسُولِ، وأُولِي الأَمرِ مِنكُمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِجمَاعَ الأُمَّةِ حُجَّةٌ، وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، يدلُّ على أنَّ القياسَ حُجّةٌ[4]، ومعنى ﴿فَرُدُّوهُ﴾ في الآية: فردّوه "إلى النّصوص أوّلا، فإن لم توجد النّصوص، فإلى المبادئ الكليّة العامّة، والمقاصد الشّرعيّة الثّابتة الّتي تغطّي كلّ جوانب الحياة الرّئيسيّة، وفي ذلك احترام للعقل، ومنحه مكانًا للعمل، وهي مهمّة العلماء العاملين والفقهاء المجتهدين "[5].

دلالةُ حذف جواب الشَّرطِ في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾:

تحريضُ المؤمنين علـى الامتـثـال وترك المخالفة

فقوله ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: مُتَعَلِّقٌ بالأمر الأخير الوارد في محلِّ النِّزاع؛ إذ هو المُحتاج إلى التَّحذير عن المخالفة، وجواب الشَّرط محذوفٌ، ثقة بدلالة المذكور عليه، والكلام على حدِّ - إن كنت ابني فَأَطِعْني - فإنَّ الإيمان باللّه، يُوجِبُ امتثال أمره، وكذا الإيمان باليوم الآخر، لما فيه من العقاب على المخالفة، ذلكَ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/100 (بتصرّف).
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/255.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/244.
(4) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(5) صافي، الجدول: 5/73.

أي: الرَّدُّ المأمورُ به العظيمُ الشّأن، يُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا على جميع ما سبق على سبيل التَّفريع[1]، ويكون فيه بعضُ وعيدٍ؛ لأنَّ فيه جزاءَ المسيءِ العاتي[2]، ففي هذا الشَّرط تَحرِيضٌ وتَحذِيرٌ مَعًا، لِأَنَّ الإيمَانَ بِاللّهِ واليَوم الآخِرِ، وازعان يزعان عَن مُخَالَفَةِ الشَّرْعِ[3]، وعبّر بـ﴿إِن﴾ في الشَّرطِ هنا للإشارة إلى أنّ الأصل عدمُ حدوث التّنازع.

دلالةُ الجملة الاعتراضيّة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾:

تـأكُّـد معنى تقرير الإيمان، على جهة الإلزام والالتزام

فجملة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ اعتراضيّة، جاءت في مَعْرِضِ الحَضِّ[4]، وقد خاطبهم بـ ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾، وهم قد كانوا آمنوا، على جهة التَّقرير، ليتأكد الإلزام[5]، ؛ أَي: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ حَقًّا، وتُلَازِمُونَ وَاجِبَاتِ المُؤمِنِ وهذا الأسلوب يفيدُ التَّلهيبَ، وجواب الشّرطِ محذوف لدلالة ما قبله عليه.

دلالةُ اسم الإشارة بعد تمام تقرير العبارة:

التَّنويهُ بعموم الـطّـاعـةِ، والاحتكام إلى ما هو خير وأحسن تأويلا

قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: ذلك الّذي أَمَرْتُكُم به في هذه الآية، خَيْرٌ لكم وأحسنُ عاقبةً لكم؛ لأنَّ التَّأويل عبارةٌ عمّا إليه مآل الشَّيء ومَرجِعُهُ وعاقبتُه[6]، فَجِيءَ بِاسْمِ الإِشَارَةِ للبعيد بعدًا معنويًّا لِلتَّنويه، وهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى الرَّدِّ المَأْخُوذِ مِنْ ﴿فَرُدُّوهُ﴾، ويُفْهَمُ مِنْ هَذا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّحَاكُمُ إِلَى غيرِ كِتَابِ اللَّه، وسُنَّةِ نَبِيِّهِ[7] ﷺ؛ حيث أَمَرَهُمْ بِالرَّدِّ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى اللّهِ والرَّسُولِ، فأَبطَلَ الرَّدَّ إِلَى إِمَامٍ مُقَلَّدٍ أَوْ قِيَاسٍ عَقلِيٍّ فَاضِلٍ[8].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/194، والآلوسّي، روح المعاني: 3/65.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/71، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/119.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/101.
(4) صافي، الجدول: 5/72.
(5) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/71.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/119.
(7) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/244.
(8) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 19/67.

دلالة تقديم الخيريّة على الحُسْنِ، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾:

اعتبارُ مصالحِ المُخاطَبين، في تَعَلُّق نفوسِهم بما يَنْفَعُهُمْ

تقديمُ خيْريّته لهم على أحسنيّته في نفسه، لما مرَّ من تعلّقِ أنظارِهم بما ينفعهم، والمرادُ بيانُ اتّصافِه في نفسه بالخَيْرِيَّةِ الكاملة، في حَدِّ ذاتِه، من غير اعتبار فَضْلِه على شيء يُشاركه في أصل الخيريَّةِ والحُسْنِ، كما ينبئَ عنه التَّحذيرُ السَّابِقُ، وتنكير ﴿خَيۡرٞ﴾ للتّعظيم والتّفخيم[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاختلاف والتّنازع:

الاختلافُ: افتعالٌ من الخلافِ، وهو أن يأخذ كلُّ واحدٍ طريقًا غير طريق الآخر في حالِهِ أو قولِهِ[2]؛ فالاختلافُ يكون في الرّأي، فيكون تقابلًا بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرّأي فيه[3]، ويكون في الحال والفعل[4]. أمّا التّنازُعُ: فهو التَّجاذُبُ وشدّةُ الاختلاف، ويُعَبَّرُ بهِ عَن التَّخَاصُم والمُجَادَلَةِ[5]، والتّنازعُ خاصٌّ بالقولِ، فالاختلافُ بين النّاس في القول قد يقتضي التّنازع[6]، والاختلافُ سببٌ في التّنازع؛ لأنَّ الاختلافَ في أصل اللّغةِ لا يحملُ معنى المنازعةِ والمشاقة، إلّا أنّه يحصلُ من واقع النّاسِ ونفوسِهم، وصدورهم التّي تضيقُ عن مخالفة غيرهم لهم، فيكون هذا الاختلافُ سببًا في المنازعة، فالاختلافُ أعمُّ من التّنازع، والثّاني درجةٌ من درجاتِهِ وصورةٌ من صُوَرِه ناتجةٌ عنه، وهي أحدُّ وأقوى منه[7].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/194.
(2) الرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (خلف).
(3) المَناويّ، التَّوقيف، ص: 41.
(4) السَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (خلف).
(5) الرَّاغِب، المُفردات، والزبيدي، تاج العروس: (نزع)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/99.
(6) الرَّاغِب، المُفردات: (نزع).
(7) عوَّامة، أدب الاختلاف، ص: 11.

التّأويل والتّفسير:

اللّفظان من الألفاظ ذات الدّوران والاستعمال الواسع، عند المفسّرين وعلماء اللّغة، وهم يذهبون إلى أنّ "التَّفْسِير هُوَ نوع من الْإِخْبَار عَن أَفْرَاد آحَاد الْجُمْلَة، والتّأويل الْإِخْبَار بِمَعْنى الْكَلَام، وَقيل التَّفْسِير إِفْرَاد مَا انتظمه ظَاهر التَّنْزِيل والتّأويل، وَقيل التَّأْوِيل: اسْتِخْرَاج معنى الْكَلَام لَا على ظَاهِرِه، بل على وَجه يحْتَمل مجَازًا أَو حَقِيقَة"[1]، وقيل: "التّفسير: شرح ما جاء مجملا من القصص في الكتاب الكريم، وتقريب ما تدلّ عليه ألفاظه الغريبة، وتبيين الأمور الّتي أنزلت بسببها الآي، وأمّا التّأويل: فهو تبيين معنى المتشابه، والمتشابه: هو ما لم يقطع بفحواه من غير تردد فيه، وهو النّص"[2]، والمؤوّل مُشْتَقّ من التَّأْوِيل وَهُوَ حمل الظَّاهِر على الْمُحْتَمل الْمَرْجُوح[3]، والعلامة الألوسى فى مقدمة تفسيره يقول بعد أن استعرض بعض أقوال العلماء فى هذا المضمار: "وقيل: التّفسير ما يتعلّق بالرّواية، والتّأويل ما يتعلّق بالدّراية، وقيل غير ذلك، وعندي أنّه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف، فكلّ الأقوال فيه ما سمعتها وما لم تسمعها، مخالفة للعرف اليوم، إذ قد تعارف من غير نكير، أنّ التّأويل إشارة قدسيّة، ومعارف سبحانيّة، تنكشف من سجف العبارات للسّالكين، وتنهلّ من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتّفسير غير ذلك"[4].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 58.
(2) الزّبيديّ: تاج العروس: 28/32.
(3) السّنيكي، الحدود الأنيقة، ص: 80.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/6.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾ [النساء: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَيانُ حالِ المُنافِقينَ بَعْدَ بَيانِ حالِ الكُفَّارِ وَالمُسْلِمينَ

في مُنَاسَبَةِ هَذِهِ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا وَجْهَانِ:

أحدُهُمَا: أنَّ اللّه تعالَى لَمَّا ذكر كَوْنَ اليهودِ يؤمنون بالجِبْتِ والطَّاغوت، وذكَرَ من سوءِ حالِهم ووعيدِهم ما ذكَر، ثمَّ أمر المُؤمنين بعدَ ذلك بأداءِ الأماناتِ إلى أهلِها، والحُكم بالعَدْل، وأَمَرَهم بطاعةِ اللّهِ ورَسُولِه في كلِّ شيءٍ، وطاعةِ أُولي الأَمْرِ، وبِرَدِّ ما تنازَعوا فيه إلى اللّهِ ورسولِه؛ بيَّن بعْدَ هذا حالَ طائفةٍ أخرى بين الطَّائفتين، وهم المنافقون الَّذين يَزْعُمُون أنَّهم آمَنوا، ومِن مُقْتَضَى الإيمَانِ: امتثالُ ما أُمِر بِهِ المُؤْمِنُونَ في الآيَتَيْنِ السَّابقتَيْن، ولكنَّهم مع هذه الدَّعوى يُريدُونَ أنْ يَتحَاكَموا إلى الطَّاغوتِ الَّذي عليه تلك الطَّائفةُ(1).

والآخَرُ: أنَّ اللّه سُبحانَهُ لَمَّا أوجَب في الآيةِ السَّابقة على جميعِ المكلَّفين أن يُطيعوا اللّه، ويُطيعوا الرَّسولَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّ المنافقينَ والَّذين في قلوبهم مرضٌ لا يُطيعونَ الرَّسولَ، ولا يرضَوْن بحُكمِه، وإنَّما يريدونَ حُكمَ غيرِه متعجِّبًا من حالهم مع ادِّعائهم الإيمانَ(2).

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: أَصْلُ (رأى) دالٌّ عَلَى نَظَرٍ وَإِبْصارٍ بِعَيْنٍ أو بَصيرَةٍ، وتأويلُهُ في قولِه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أَيْ: ألم تُخْبَرْ؟ وألَم تَعْلَمْ؟ أو أَلَمْ

(1) رضا، تفسير المنار: 5/181.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/119، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/688.

يَنْتَهِ عِلْمُكَ إلى هَؤُلاءِ؟ وهُوَ سُؤالٌ فِيهِ إِعْلامٌ، وَهِيَ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا العربُ عند التَّعَجُّب مِنَ الشَّيْءِ، وَعِنْدَ تَنْبِيهِ الْمُخَاطَبِ، أي: ألم تَعْجَب بِفِعْلِهِم أو مِن قَوْلِهِم، وألم يَنْتَه شَأْنُهم إِلَيْكَ؟[1]

2) ﴿يَزْعُمُونَ﴾: أصلُ الزَّعم: القولُ مِن غير صِحَّةٍ ولا يقينٍ، وَأَكْثَرُ مَا يُقال فِيمَا يُشَكُّ فِيهِ، وَلَا يتحقَّق، و﴿يَزْعُمُونَ﴾ بمعنَى: يَكذِبون، يُقال: زَعَمَ يَزْعُمُ زَعْمًا، والزَّعم: يُطلَق على حِكايةِ قولٍ يكونُ مَظِنَّةً للكذب، وعَلَى اعتقادِ الباطل بتقوُّلٍ، والتَّزَعُّمُ: التَّكَذُّبُ، والزَّعم القَول مع الظَّنِّ والشَّكِّ، ويُطلَقُ كذلك على الكَلامِ الَّذي لا سَنَدَ له[2].

3) ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾: الحَاءُ والكَافُ والمِيم تدلُّ تصريفَاتُهُ على معْنَى المَنْع لإصلاحٍ، ومِنه سُمِّيَ اللِّجام: حَكَمَةً، ومعنَى قولِه: ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾ أَنْ يَجْعَلوه حَكَمًا وقاضيًا.

والحُكمُ بالشَّيء: القضاءُ بأنَّه كذا أو لَيْسَ بِكَذَا، سواءٌ أَكَان مُلزمًا أَم غَيْرَ مُلْزِمٍ، والإحكامُ: هو الفَصلُ والتَّمييزُ[3].

4) ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾: أَصلُ الطُّغيان: مُجَاوَزَةُ الحدِّ في العِصيَانِ ونحوِه، يُقالُ: طَغَى طُغْيانًا، أي: تجاوزَ حدَّهُ، والطَّاغُوتُ يُطْلَقُ على كُلِّ مَعْبودٍ مِنْ حَجَرٍ أو صُورَةٍ أو شيطان، والطَّاغوت من الإِنْس وَالجِنِّ: شَياطِينُهم، وكلُّ رأس ضَلالٍ صارِفٍ عَن طريقِ الخيْرِ.

وجِماع مَعْنَى الطَّاغوت: أنَّهُ كُلُّ مَا تجاوَزَ به العَبْدُ حدَّهُ من مَعبودٍ أو مَتبوعٍ أو مُطاعٍ[4].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

ألم تعلم - أيها الرسول ﷺ - تناقُضَ المُنَافِقِينَ الَّذين يَدَّعون كَذِبًا أنَّهم صدَّقوا بما أُنْزِل عليك مِنَ الكِتَابِ وما أُنْزِل من قَبْلِكَ منَ الكتُبِ، يُرِيدُونَ أن يتحَاكَمُوا في

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 128، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأى)، وابن الأثير، النِّهاية: (رأي)، وابن منظور، لسان العرب: (رأي)، والسمين، عمدة الحفاظ: (رأو)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رأى).

(2) ابن عبَّاد، المحيط في اللُّغة: (زعم)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زعم)، والرَّاغب، المفردات: (زعم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (زعم)، والكفويّ، الكليَّات، ص: 488.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم)، والرَّاغب، المفردات: (حكم)، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (حكم)، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 2/257.

(4) ابن قُتَيْبَة، غريب القرآن، ص: 128، وابنُ عُزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 316، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (طغَى)، وابن القيِّم، إعلام الموقِّعين: 1/40.

نِزَاعَاتِهِم إلى غَيْرِ شَرْعِ اللّٰه مِنَ البَاطِل، وقد أُمِرُوا أنْ يَكْفُرُوا بالبَاطِلِ؟ ويُرِيدُ الشَّيطَانُ أَنْ يُبْعِدَهُم عَنِ الحقِّ والهُدى إبعادًا شَدِيدًا لا يَهْتَدُونَ مَعَهُ(1).

فَضْحُ المُنَافِقِينَ الزَّاعِمِينَ الإِيمَانَ بِقُلُوبِهِمْ وَالمُنْقَادِينَ لِلطَّاغُوتِ بِجَوَارِحِهِمْ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الِاسْتِئْنَافِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ:

التَّعْجِيبُ مِنْ حَالِ مَنْ يَزْعُمُ الإِيمَانَ بِقَلْبِهِ وَيُخَالِفُهُ بِفِعْلِهِ

قولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ للتَّعجيب من حال هؤلاء الَّذين ادَّعوا لأنفسهم أنَّهم قد جمعوا بينَ الإيمَانِ بما أُنْزل على رَسُولِ اللّٰه ﷺ وهُوَ القُرآنُ، وما أُنْزِلَ علَى مَن قَبْلَه مِنَ الأنبياء، وهُم في الحَقِيقَةِ يُخَالِفُون ما مَرَّ مِنَ الأمْرِ المَحْتُوم بطَاعَةِ اللّٰه ورَسُولِه، والتَّعجِيبُ حَمْلُ المُخاطب على التَّعجُّب، وإيقاعُهُ في التَّعجُّب مِنْهُ، ففي هذا إِشَارَةٌ إِلَى أنَّ المُخاطَب لم يَسْبِقْ لَهُ عِلْمٌ بتلكَ القصَّة قبل نُزُولِ الآيَةِ، فنَاسَبَ الانْتِقَال إِلَيْهِ من مضمون الجملة السَّابقة: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النِّساء: 59]، وجاؤوا بعد ذلك بِمَا يَنْقُضُ عليهم هذه الدَّعوى، ويُبْطِلُها من أَصْلِهَا(2).

دِلَالَةُ الْخِطَابِ وَفِعْلِ الرُّؤْيَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾:

بُلُوغُ انْحِرَافِ المُنَافِقِينَ مَبْلَغًا عَظِيمًا، حَتَّى صَارَ فِي الظُّهُورِ بِمَنْزِلَةِ المَحْسُوسَاتِ

دخلَت هَمْزَةُ الاسْتِفْهَام علَى (لَمْ) النَّافيةِ الجَازِمَةِ الْفِعْلَ المُضَارعَ (ترَى)، و﴿تَرَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مُسْنَد إلى ضميرِ المُخَاطَب (أَنْتَ) مُسْتَتِرًا وُجُوبًا، والمُخَاطَبُ: هو رسُولُ اللّٰهِ ﷺ.

ومن أهل العِلْم مَن يحمِلُ الخطابَ على أنَّ المرادَ به النَّبيُّ ﷺ، ولكلِّ أحَدٍ يتأتَّى خطابُهُ، قال التَّفتازانيُّ: (الأوجَهُ عمُومُ الخِطَاب للدِّلَالَةِ على أنَّ هذه القصَّة قد بَلَغَتْ مِنَ العَجَبِ حيثُ يَنْبَغِي لكلِّ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 119، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/194، والقنَّوجي، فتح البيان: 3/163، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/102.

أحدٍ أَن يتعجَّب مِنْهَا)[1]، ويَكُونُ ضَمِيرُ الخِطَابِ خَارِجًا عَن أصلِهِ في إرادةِ المعيَّن؛ قَصْدًا لِلْعُمُوم.

وفعلُ الرُّؤيةِ في ﴿تَرَ﴾ يُرادُ به الرُّؤيةُ العِلْميَّةُ، والمَعْنَى: أَلَمْ تَعْلَمْ، فتتعدَّى في الأصلِ إلى مَفْعُولَيْن، إلَّا أنَّها هُنا لَم تَسْتَوْفِ مَفْعُولَيْها، وعُدِّيَتْ بحَرْفِ الجرِّ (إِلَى)؛ لأنَّها ضُمِّنَتْ معنى ما يتعدَّى بهذا الحَرْفِ، والمعنى: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إلى الَّذين...[2].

ومن أهلِ العلْم مَنْ يرَى أنَّ الرُّؤيَةَ هُنا وإن كانَتْ عِلْميَّة؛ فقَد اسْتُعْمِلَت استعمالَ (تَنْظُرْ)، فتعدَّت تَعْدِيَتَهَا؛ لِلْإشارَةِ إلى أنَّ هذا الأمرَ قد بَلَغَ مِنَ الوضُوحِ والظُّهور والتَّحقُّق مَبْلَغ الشَّيءِ المَحْسُوس المُشاهد الَّذي تُبصِرُه العَيْنَان، ولا يُمكِنُ إنكارُه[3].

دِلَالَةُ الاِسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾:

شَنَاعَةُ صَنِيعِ مَنْ يُخَالِفُ فِعْلُهُ قَوْلَهُ

التَّركِيبُ في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تركيبٌ دالٌّ على التَّعجُّب[4]، والتَّعجيب من مخالفة العمَلِ القَوْلَ عندَ اليَهُودِ ومَن على شَاكلَتِهم مِن أهلِ الكُفْرِ والنِّفاق، وهذا التَّعجيب مع ما يوحِي بِهِ مِنَ التَّوبيخ والاِسْتِقْبَاحِ ناشئٌ عَنْ تَقْرِير الرُّؤيةِ الواقعَةِ في حيِّز الاستِفْهَام، فَدلَالة هذا الاسْتِفْهَام أصلًا هي التَّقرير بالنِّسبة إلى المُخَاطَبِ وهو النَّبِيُّ ﷺ وَكُلُّ مَن يَصِحُّ خطابُهُ.

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/297.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/65.
(3) رضا، تفسير المنار: 2/475.
(4) وليس بين التَّعجُّب والتعجيب منافاة ولا تعارض، فالتَّعجُّب: منظور فيه إلى القائل جَلَّ جَلَالُهُ، والتَّعجيب: منظور فيه إلى المُخاطَب. ومن النَّاس من يُنْكِرُ أن يكون الاستفهام هنا للتَّعجُّب، ويقول: إنَّ اللّه سبحانه لا يَعْجَبُ مِن شيء، وهو يظنُّ أنَّ تَعَجُّبَهُ سبحانه سيكون كَتَعَجُّبِ خلقه، وهذا منافٍ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، فَتَعَجُّب اللّه تَعَجُّبٌ يليق بكماله وجلاله، ولا يمكن أن يكون بينه وبين تَعَجُّبِ غَيْرِهِ مشابهة ما أو مماثلة، وليس عجبه سبحانه ناشئًا عن خفاء في الأسباب أو جهل بحقائق الأمور، كما هو الحال في عجب المخلوقين، فإنَّ التعجُّبَ قد يكون بسبب خفاءِ الأسبابِ على المتعجِّب، وهذا لا يليق بالله تعالى، وقد يكون سببُ التَّعجُّبِ خروجَ الشَّيءِ عن نظائرِهِ أو عمَّا ينبغي أن يكونَ عليه، وهذا المعنَى ثابتٌ لله تعالى، بدلالةِ الكتاب والسُّنَّة والإجماع، قال اللّه تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾ [الصافات: 12]، فإنَّ حمزة والكسائي قرآ: (عَجِبْتُ) بضمِّ التَّاء، ورُويَت هذه القراءة أيضًا عن عبد اللّه بن مسعود وغيره، وظاهره أنَّ المُتَعَجِّبَ هو اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ينظر: هرَّاس، شرح العقيدة الواسطية، ص: 170، وابن عثيمين، شرح لمعة الاعتقاد، ص: 59 - 60، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/356.

أمَّا معنَى التَّوبيخِ ومَا أَشْبَهَهُ؛ فهُوَ بالنَّظر إلى المُتحدَّثِ عنهم، وهُمُ اليَهُود والمُنَافِقُون، خصوصًا وأنَّه أُتْبِعَ بإسناد الزَّعْمِ إلى هؤلاء المنافقين، وهو دالٌّ على الظَّنِّ والشَّكِّ؛ لتأكيدِ التَّعجيب وتشديدِ التَّوبيخِ والاستقباح[1].

وُجُوبُ تَصْدِيقِ أَخْبَارِ اللهِ تَعَالَى وَالْقَطْعِ بِهَا؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَوْثَقُ فِي الصِّدْقِ مِمَّا تَرَاهُ الْأَعْيُنُ

وقد جاءَ التَّعبير بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في كثير مِنَ القضايا الَّتي لم يُدْرِكها المخَاطَبُ - وَهُوَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ؛ لِيَدُلَّنا على أنَّ ما يقوله اللّه تعالَى وإنْ كانَ خبرًا عمَّا مَضَى؛ فإنَّهُ يَجِبُ أَنْ تُؤمِنَ به إيمانكَ بالمَرْئيِّ لكَ الآنَ؛ لأنَّ اللّه تعالَى أوثَقُ في الصِّدق من عَيْنِك[2].

وفي الِاسْتِفْهَام بِفِعْلِ الرُّؤية إثارةٌ للذِّهن وتشويقٌ لِما يَرِدُ بعدَها مِنَ الكَلَام، وإيقاظٌ لِلانْتِبَاهِ والحِسِّ، ويقع بَعْدَهَا: إمَّا الْبُشْرَيَاتُ العِظَام والآياتُ الفِخامُ، وإمَّا الأحداثُ الْجِسَامُ، فَمِنَ الأوَّل قولُهُ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: 24 — 25]، ومن الثَّاني قولُه ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: 54]، ومِنَ الثَّالثِ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: 1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ المَوْصُولِ الْمَجْمُوعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾:

الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ لَا تُعَلَّقُ بِخُصُوصِ الْأَفْرَادِ، وَإِنَّمَا تُعَلَّقُ بِالْأَوْصَافِ

ذكر أهل التَّفسيرِ أنَّ هذه الآيةِ وهي قولُه تعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾، نزلت في رجُلٍ مِنَ المُنَافِقِين، دعا رَجُلًا مِنَ اليَهُودِ في خُصُومَةٍ كانت بَيْنَهُما إلى بعْضِ الكُهَّان، لِيَحْكُم بينهُم، ورَسُولُ اللّهِ ﷺ بينَ أظهُرهم، فكان المنافِقُ يدْعُو إلى كاهنِ اليَهُود؛ لأنَّه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/194.
(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 4/2362.

يَعْلَمُ أنَّهم يَقْبَلُون الرِّشوة، وكان اليهوديُّ يدعُو إلى التَّحاكم للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه يعلم أنَّ المُسلِمين لا يَقْبَلُون الرِّشوة، فاصْطَلَحَا أن يَتَحَاكَمَا إلى كاهِنٍ مِن جُهَيْنَةَ، فأنزل الله فيه هذِهِ الآيةَ[1].

ومع أنَّ سببَ النُّزول كانَ فَرْدًا واحدًا، إلَّا أنَّه جِيء باسم موصولِ الجَماعةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾؛ لأنَّ المقامَ مَقَامُ توبيخٍ بأسلوب التَّعريضِ، كقَوْلِهم: ما بَالُ أقوامٍ يَقُولُونَ كَذَا؛ ليشملَ المقصودَ ومَن كانَ عَلَى شَاكِلَتِه[2]، إذِ الأَحْكَامُ الشَّرعيَّةُ لا تُعَلَّقُ بِخُصُوص الأفرادِ، وإنَّما تُعَلَّقُ بالأَوْصَافِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾:

دَأْبُ أَهْلِ النِّفَاقِ وَطَبْعُهُمُ الْكَذِبُ وَالدَّعَاوَى الْبَاطِلَةُ

جَاء التَّعبيرُ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يَزۡعُمُونَ﴾ مِن قَوْلِه تَعالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ للإشارة إلى دوامِ كَذِبِهم ونِفَاقِهم[3]؛ فإنَّ الفعلَ الْمُضَارِعَ دالٌّ على التَّجَدُّدِ والاسْتِمْرَارِ بالقَرَائِن، كالوَارِدِ في هَذِهِ الآيةِ؛ فإنَّ سياقَ الذَّمِّ والتَّوبيخِ قَرِينةٌ دالَّةٌ على اسْتِمْرَارِ كَذِبِهم.

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ:

عَظَمَةُ الْوَحْيِ وَعَظَمَةُ مُنْزِلِهِ وَالْمُنْزَلِ عَلَيْهِ

الْمُنْزِلُ في قَوْلِه: ﴿أُنزِلَ﴾ هُوَ اللهُ سُبحانَهُ، وقَدْ بُنِيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ مِن قوله تعالَى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ؛ لِلعِلْم به ولكونه متعيِّنًا، تَعْظِيمًا لِلْمُنْزِلِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وفي تعظيم الْمُنْزَلِ تعظيمٌ للمُنْزَلِ - وهو الوحيُ - وتعظيمٌ للمُنْزَلِ عَلَيهِمَا؛ وَهُمَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ ومُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/508.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/708، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/104.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/312.

نُكْتَةُ الْكِنَايَةِ فِي قولِهِ تَعالَى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

تَشْرِيفُ النَّبِيِّ ﷺ بِإِبْقَائِهِ فِي سَاحَةِ الْخِطَابِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ عَنِ الْقُرآنِ الكريم بطريقِ الْكِنَايةِ - وهِيَ كِنَايَةٌ عَنْ مَوْصُوفٍ - ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، بدَلَ التَّصريح بِهِ؛ تَشْرِيفًا للنَّبيِّ ﷺ، وذلكَ بإِبْقَائِهِ في ساحَةِ الخِطَابِ الْإِلَهِيِّ مَعهُ بِقَوْلِه: ﴿إِلَيۡكَ﴾، ولو جاءَ النَّظْمُ بالتَّصريح بلفظ الْقُرْآنِ الكريم؛ لَمَا تأتَّى اسْتِمْرَارُ هذَا الْخِطَابِ الجليل.

دِلَالَةُ الْعَطْفِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي فَضْحِ الْيَـهُـودِ بَـعْـدَ تَكْذِيبِ زَعْمِهِمْ

من عجائب الدَّقائق البيانيَّة الَّتي يدلُّ عليهَا أسلوبُ الْوَصْلِ: ما نَجِدُهُ في قولِه تعالَى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾، إِذْ اشتمل على جُمْلَتَيْنِ خَبَرِيَّتَيْنِ، أُولاهُمَا في محلِّ جَرٍّ بِحَرْفِ الجرِّ (الْبَاء)، وتَبِعَتْهَا الثَّانية في الحُكْمِ الإعرابيِّ، وبينَهُما اشتراكٌ في المَعْنَى واتِّحادٌ في المُسْنَدِ ﴿أُنزِلَ﴾، وقد أفادَتْ دُخُولَ إيمَانِهم بِمَا أُنْزِلَ مِن قبلِ الدِّينِ الإسلاميِّ في حيِّزِ الزَّعم، بالرّغم مِن ادِّعائهم أنَّهم على شِرْعَةِ مُوسَى عليه السلام، والدَّليلُ على أنَّ ذلك مجرَّدُ زعمٍ لا حقيقة لَهُ: أنَّ عِنْدَهم شريعةً يَتَعَبَّدُونَ بِهَا، ولكنَّهم عدلُوا عَنْهَا وأَرَادُوا التَّحاكمَ إلى الطَّاغوت، فَفَضَحَهُمُ اللهُ تعالَى بهذِهِ (الْوَاوِ) الَّتي جمَعَتْ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ في حُكْمٍ واحدٍ، وسِرُّ هذا العطفِ الْمُبَالَغَةُ في فَضْحِهِم بعدَ أَن تكذيبِ زَعْمِهِم[1].

دِلَالَةُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾:

التَّـشْـنِـيـعُ عَـلَى الْيَـهُـودِ فِي جَـمْـعِـهِـمْ مُخَالَفَةَ الْكِتَابَيْنِ

ذُكِرَ الْمُسْنَدُ ﴿أُنزِلَ﴾ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾، وقد كانَ يُمكِنُ حذفُهُ، لتقدُّم ذكرِ نظيرِهِ في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، فيرِدُ النَّظْمُ القرآنيُّ: (آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إليكَ ومِنْ قبلك)، إِلَّا أنَّ المسندَ ذُكِرَ وكُرِّرَ لإفادةِ التَّخصيص، وللإيماءِ إلى اختلاف

(1) البناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 2/393.

المُنْزَلِ، فما أُنزل إليك هُو القرآنُ الكَرِيم، والذِي أُنْزِلَ مِن قَبْلِك - والمرادُ المنزَلُ على مُوسَى عليه السلام - هُوَ التَّوراة[1]، وكلٌّ منهما مُخْتَصٌّ بِنَبِيٍّ؛ وإن كان مَصْدَرُهُما واحدًا، فلهذا الاخْتِصَاصِ أُعِيدَ ذِكْرُ المُسْنَدِ تأكيدًا على تلك الفُروقِ، وفي هذا التَّكرار أيضًا: إيماءٌ إلى تكرارِ مخازي أهل الكتاب التِي شُهِرُوا بها، فصارت حكايات تُرْوَى عَنْهُم، فَصارُوا أحقَّاءَ بأَنْ يكونُوا عِبرةً لمن يَعْتَبِرُ[2].

دِلَالَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

التَّنْبِيهُ عَلَى عَجِيبِ حَالِ المُنَافِقِينَ فِي تَمَسُّكِهِمْ بِبَاطِلِهِمْ

فُصِلَ قولُه تعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئْنافًا بيانيًّا، فإنَّ اللّه سُبحانَهُ لَمَّا ذكرَ زَعْمَ المُنَافِقِين مِن اليَهُودِ في ادِّعائِهم الإيمَانَ، فكأنَّ سائلًا سأَلَ: ماذا يَفعَلُ هَؤُلَاءِ؟ ومَا الحُجَّةُ على أنَّهم يَزْعُمُونَ الإيمَان، وليْسُوا بمُؤْمِنِين في الحَقِيقَة؟ فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، فيكونُ بين الجملتَيْن شِبْهُ كمال الاتِّصال، والنُّكْتَةُ في ذلكَ بيانُ محلِّ التَّعجيب على قِيَاسِ نَظَائِرِه، وأنَّهم ليسُوا بمُؤْمِنِين، وفيه أيضًا: تنبِيهٌ على عَجِيبِ حَالِهِم الَّذي هُم مُتَمَسِّكون بِهِ مِنَ النِّفاق[3].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالطَّاغُوتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ:

تَفْظِيعُ التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى وَأَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ النِّفَاقِ

الطَّاغُوت: كلُّ ذي طُغْيَانٍ عَلَى اللّهِ تعالَى، فكلُّ معبودٍ مِنْ دُونِ اللّهِ سُبحَانَهُ؛ إذا لَم يَكُنْ كارهًا لذلك: طَاغوتٌ، إنسانًا كانَ ذلكَ المَعْبُودُ، أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صَنمًا، وكذا المُطَاعُ في معصيَةِ اللّه تعالَى يُسمَّى: طَاغوتًا، وكذلك السَّاحر والكاهِن، واشتقَاقُهُ مِنَ الطُّغْيَانِ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/65.
(2) البناني، سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية: 1/274.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/65، والبناني، سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية: 2/393.

وهو الظُّلم والبَغْيُ، يُقال: طغَى فُلَانٌ يَطْغَى؛ إذا تَعَدَّى قَدْرَهُ، وتجاوَزَ حدَّه، والأصل الجَامِعُ لِلطُّغْيانِ دالٌّ على مُجَاوَزَةِ الحَدِّ في العِصْيَانِ[1].

والطَّاغوت في قولِه تعالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الأَصْنَامُ، بدَلِيلِ قَوْلِهِ بعدُ: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ﴾، ولكن فَسّره أَهْلُ العِلْمِ بالكَاهِنِ، أو بِعَظِيمِ اليَهُودِ، فإِذَا كانَ كَذَلِكَ؛ فَهُوَ اسْتِعَارَة تَصرِيحِيَّة أصليَّةٌ بتشبيه عظيمِ الكُفْرِ بالصَّنم المعبودِ؛ لغلوِّ قَوْمِهِ في تَقْدِيسِهِ، وإمَّا لأنَّ الكاهنَ يُترجم عَن أقوال الصَّنم في زَعْمِه[2].

ويحتَمِلُ أن يكُونَ إطلاقُهُ عَلَيْهِ حقيقةً، بناء على أنَّه بمعنى: كثير الطُّغيان، أو أنَّه عَلَمٌ لُقِّب به، وفي معناه: كلُّ مَن يَحْكُمُ بالباطِلِ.

ويجُوزُ أَن يَكُون الطَّاغوتُ بمعنى: الشَّيطان، ويكون الضَّمير المجرور في قولِه: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ﴾ رَاجِعًا إلى الطَّاغوت باعتبار الوَصْفِ لا الذَّات، أي: أُمِروا أن يَكْفُرُوا بمَنْ هُوَ كثيرُ الطُّغيانِ أو شَبِيهٌ بالشَّيطان[3]، فإطلاقُ الطَّاغوت على الكاهن؛ إمَّا استعارةٌ وإمَّا حقيقةٌ على التَّوجيهِ الآنِفِ الذِّكْرِ.

والتَّجوُّز في إِسْنَادِ التَّحاكم إِلَيْهِ بالنِّسبة الإيقاعيَّة بينَ الفِعْلِ ومفعُولِه بالواسِطَةِ، وذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ التَّحاكم إِلَيْهِ تَحَاكُمٌ إلى الشَّيطانِ، مِن حَيْثُ إنَّه الحامِلُ عَلَيْهِ، فنَقَلَهُ عَنِ الشَّيطان إِلَيْهِ علَى سَبيلِ المجاز المُرْسَلِ.

وفي هذه التَّأويلات مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى تفظيع التَّحاكُم نَفْسِهِ ما لا يخفى، وهو أيضًا أنسَبُ بِوَصْفِ المُنَافِقِين في ادِّعاء الإيمَانِ بالتَّوراة[4].

نُكْتَةُ التَّقْيِيدِ بِالْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ﴾:

تَأْكِيدُ التَّعْجِيبِ مِنْ شَأْنِهِمْ بِالْحَالِ بَعْدَ تَأْكِيدِهِ بِالْوَصْفِ

قولُهُ تعَالَى: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ﴾ جملةٌ في محلِّ نصب حالٌ مِنْ فَاعِلِ ﴿يُرِيدُونَ﴾، والمعْنَى: يُريدُون أَنْ يَتَحَاكمُوا إلَى الطَّاغُوتِ حَالَ كَوْنِهم

(1) ابن قُتَيْبَة، غريب القرآن، ص: 128، وابنُ عُزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 316، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (طغى)، وابن جرير، جامع البيان: 4/558، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 37.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/105.

(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/80، والآلوسي، روح المعاني: 3/66.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.

مَأْمُورِينَ بِالْكُفْرِ بِهِ، و﴿وَقَدْ﴾: حرفُ تحقيقٍ يقرِّب الماضِيَ مِنَ الحَالِ[1]، وفي إيرادِ هَذِهِ الجُمْلَةِ الحاليَّة تأكيدٌ لِلتَّعجِيبِ السَّابق[2].

بَرَاعَةُ الْجِنَاسِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا﴾:

تَأْكِيدُ إِضْلَالِ الشَّيْطَانِ لِلْمُنَافِقِينَ، وَتَأْكِيدُ وُقُوعِهِمْ فِي الضَّلَالِ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا﴾ جناسُ اشتقاقٍ بين الفِعْلِ والمصدرِ، وفيهِ بيانُ أنَّ التَّحاكُمَ إلى الطَّاغوت شَرَكُ الشَّيطانِ؛ لِيُضِلَّ المؤمنين عنِ الصِّراط المستقيم، ويُلْقِيَهُمْ في مَجَاهِيل الباطل بعيدًا عَنِ الحقِّ.

وقولُهُ: ﴿ضَلَٰلًا﴾ مصدَرٌ مؤكِّد لِلْفِعْلِ المذكُور بحذف الزَّوائد على حدِّ ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧﴾ [نوح: 17]؛ إذ لو جرَى المصدَرُ على حُرُوفِ فِعْلِهِ؛ لجاء النَّظْمُ القرآنيُّ: أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأرْضِ إِنْبَاتًا، وكذا في قولِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا﴾؛ فإنَّ المصدَرَ لَو جَرَى على حُرُوفِ فِعْلِهِ، لَجاء: (أَنْ يُضِلَّهُم تَضْليلا)، ويجوزُ أن يكون المصدرُ مُؤَكِّدًا لفِعْلِهِ المَدْلُولِ عَلَيْهِ بالمَذْكُورِ، والتَّقدير: (أن يُضِلَّهُمْ، فَيَضِلُّونَ ضَلالًا)[3].

سِرُّ الِاسْتِعَارَةِ فِي وَصْفِ الضَّلَالِ بِالْبُعْدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾:

شِدَّةُ ضَلَالِ الْمُنَافِقِينَ وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْهُدَى

وصفُ الضَّلالِ بالبُعْدِ في قولِهِ تعالَى: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ يُرادُ بها: المُبَالَغَةُ في بيانِ شدَّةِ الضَّلالِ؛ بِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ جنسٍ ذِي مَسَافةٍ؛ إذا كان هذا الفردُ منْهُ بالغًا غايةَ المَسَافةِ[4]، فاستُعِيرَ البُعْدُ المُخْتَصُّ بالأزمنَةِ والأمكنَةِ

(1) الخرَّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 1/182، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 2/507.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.
(4) تفسير أبي السعود: 2/195، وابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 5/105.

لِلْمَعَاني المختصَّةِ بالقلُوبِ؛ لدوام القلوب عَلَيْهَا[1]، فيكونُ ضَلَالُهُم ضَلَالًا يَصْعُبُ الرُّجوعُ مِنْهُ إلى الهُدى، تَشْبِيهًا بِمَن ضَلَّ عن محجَّة الطَّريق بُعدًا متناهيًا، فلا يَكَادُ يُرْجَى لَهُ العَوْدُ إِلَيْهَا[2].

فَوَصْفُ الضَّلال بالبُعْدِ - مَعَ أنَّ البُعْد مِن صِفَاتِ المَسَافاتِ - إشعارٌ بِشدَّة الضَّلال وكمالِهِ في نَوْعِه، بحيثُ لا يُدْرَكُ مِقْدارُهُ، وهو تشبيهٌ شائعٌ في كلَامِ العرَبِ: أن يشبِّهوا بلُوغَ الكمَالِ بِمَا يدلُّ على المَسَافاتِ والنِّهاياتِ، كقَوْلِهِمْ: بَعيدُ الْغَوْرِ، وبَعِيدُ القَعْر، ولا نِهَايَةَ لَهُ، ولا غايَةَ لَهُ، ورَجُلٌ بَعِيدُ الهمَّة.

ومِن بَدِيعِ مُنَاسَبَتِه هنا: أنَّ أصلَ الضَّلالِ حقيقةً يَكُونُ في الفَيَافي، فإذا اشتدَّ التِّيهُ والضَّلال؛ بَعُدَ صاحِبُه عَنِ المَعْمُورِ، فكانَ في وَصْفِهِ بالبُعْدِ تَعَاهُدٌ لِلْحَقِيقَةِ، وإيمَاءٌ إلى أنَّ في إطْلاقه على الْكُفْرِ والجَهْلِ نقلًا عرفيًّا[3].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾:

التَّفْرِيقُ بَيْنَ كَمَالِ ضَلَالِ الْكُفْرِ وَبَيْنَ ضَلَالِ المَعْصِيَةِ

لا يمكن وصفُ هذا الضَّلال في هذا الموضع بِلَفْظٍ أصدَقَ عَلَيْهِ مِنَ البُعد، كأنْ يُوصَفَ بكَوْنِه مبينًا مثلًا؛ إذْ إنَّه في حقِّ المنافقينَ ونِفَاقِهِمْ غَيْرُ بَيِّنٍ لشدَّةِ حرصِهم على إخْفَائِه، كما أنَّ اللهَ سُبحَانَهُ عندما يتكلَّم عَنِ الكُفَّارِ يَصِفُهُم بأنَّهم ضَلُّوا ضلالًا بعيدًا؛ لأنَّ الطَّريق إلى الهدايَةِ كانَ أَمَامَهُمْ فَلَمْ يَسْلُكُوه، وهذا غايةُ الضَّلال وقِمَّتُهُ، وقد يكونُ الإنسانُ مُؤْمِنًا لكنَّ مُقوِّماتِ الإيمَانِ ضَعِيفَةٌ في نفسِه، فيَعْصِي ربَّه، ويقول اللهُ تعالَى عن مثلِ هَذَا الْإِنْسَانِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب: 36]؛ فهوَ ضَلَالٌ بيِّنٌ ولكنَّه ضلالٌ دُونَ ضَلَالٍ، وكُفْرٌ دُونَ كُفْرِ القِمَّة[4].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/708.

(2) الرَّاغب، المفردات: (بعد)، والآلوسي، روح المعاني: 3/66.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/46.

(4) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 6/3565.

الفروقُ المُعجَمِيَّة:

الطَّاغُوت وَالْجِبْت:

الطَّاغُوتُ أَعَمُّ مِنَ الْجِبْتِ، وَفِيهِ زِيَادَةُ مَعْنَى مُجَاوَزَةِ الْحَدِّ

الجِبْتُ: يُطْلَقُ على الصَّنم والكاهن والسَّاحر الَّذي لا خير فيه، وكلُّ ما عُبِدَ من دون اللَّه تعالى، فالمعنى الجامع لِلَفْظِ (الْجِبْتِ): أنَّه الدَّجَلُ والأوهام والخُرافات[1]، والهَوى الَّذي يَفيضُ من عقل مُظْلِمٍ ووِجْدانٍ سَقيم[2].

والطَّاغوت: جاء في القرآن ثمانيَ مرَّات تَرْغيبًا في الكفر به والإيمان باللَّه، أو تَنْديدًا بالإيمان به، مِثْل: قوله تَعالَى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: 256]، أو تَنْديدًا بالقِتَال في سَبيله، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّساء: 76]، أو على التَّحاكم إليه مرَّة أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النِّساء: 60]، وَهُوَ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ[3]، وهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الطُّغْيَانِ، وَهُوَ الْإِسْرَافُ فِي الْمَعْصِيَةِ، فَكُلُّ مَنْ دَعَا إِلَى الْمَعَاصِي الْكِبَارِ؛ لَزِمَهُ هَذَا الِاسْمُ[4].

فالطَّاغوتُ بهذَا الاعتبَارِ: أَعَمُّ فِي الْمَعْنَى، وفِيهِ مَعْنَى مُجاوزةٍ لِلْحَدِّ في اللَّفْظِ.

الْجِبْتُ مَعْبُودُ كُلِّ أُمَّةٍ مُنْحَرِفَةٍ، وَالطَّاغُوتُ الدَّاعِي إِلَى الْجِبْتِ الْمُزَيِّنُ لَهُ

وذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إلى التَّفريق بيْنَ الجِبْتِ والطَّاغُوت مِنْ جِهَةِ أنَّ الجبتَ الأصنامُ وكُلُّ ما يُعْبَدُ من دُونِ اللَّه تعالى، بخلَافِ الطَّاغُوت؛ فإنَّهُ الذي يُعَظِّم هذا الجِبْتَ ويَحْميه ويَدْعو النَّاسَ إلى تَعْظيمه، فإنَّ لكلِّ أمة منحرفة جِبْتَهم وطاغُوتَهم، فالجبتُ الرَّمْزُ الصَّنميُّ أو الحيوانيُّ أو الْإِنْسَانيُّ الذي يَجْعَلُونَهُ إلهًا يَعْبُدُونَهُ مِنْ

(1) المَراغيّ، تفسير المَراغِيّ: 5/62.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/814.
(3) ابن القيّم، إعلام الموقعين: 1/40.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/101.

دُونِ اللّه تَعَالى، والطَّاغُوت هُو مَنْ يَدْعُو إِلَى تَعْظِيمِ هذا المَعْبُودِ وطاعةِ أمْرِه مِن دُونِ اللّهِ سُبحانه[1].

الضَّلَال وَالْغِوَايَة:

الضَّلَالُ عَامٌّ؛ وَهُوَ فُقْدَانُ الطَّرِيقِ المُوصِلِ، وَالْغِوَايَةُ الْعُدُولُ عَنِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ تَقَصُّدًا

الضَّلال: فقدان ما يُوصِلُ إلى المَطْلُوب، أَوْ هُوَ سُلُوكُ طَرِيق لا يُوصِل إلى المطلوب[2]، وكلُّ عدُول عَنِ النَّهج عمدًا أَو سَهوًا، قَلِيلًا كَانَ أَو كثيرًا[3]؛ فَهُوَ ضَلَالٌ، وفي بابِ الحقِّ والباطل يكون الضَّلال عدولًا عن الطَّريق المستقيم[4]، وقد يكون عَنْ قصْدٍ أو عَن غَيْرِ قَصْد: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: 23]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104]، أمَّا الغواية؛ فهي جَهْلٌ مِن اعتقادٍ فاسِدٍ[5]، فلَا يكون لِلْغَاوِي مَقْصِدٌ إلى الطّريق المُسْتَقِيم[6]، والغوايَةُ: إمعَانٌ في الضَّلال، كما أنَّ الضَّلال عامٌّ[7]؛ يكون لِلْعَاقِلِ وغَيْرِه، يُقال: ضلَّت الدَّابَّة، ولا يُقال: غوت الدَّابَّة، أمَّا الغِوَايَة؛ فهي لِلْعَاقِل المُكلَّف.

والضَّلال: نقيضُ الهُدى، قال اللّه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: 8]، وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79]، والغِوايَةُ نقيض الرُّشدِ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146] وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

وقدِ اجْتَمَعَ ذِكْرُ الضَّلال والغِوَايَةِ في قَوْلِه تعَالَى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النَّجم: 2]، وفيه الشَّهادة للرَّسولِ ﷺ بأنَّه

(1) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 388.
(2) الجرجاني: التَّعريفات، ص: 138.
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 567.
(4) المناويّ: التوقيف، ص: 223.
(5) الرَّاغب، المفردات: (غوى).
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 576.
(7) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199.

رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلحقِّ لَيْسَ بضالٍّ، والضَّالُّ هو الجاهلُ الَّذي يَسْلُكُ طريقًا بِغَيْرِ عِلْم، والغَاوِي هو العالم بالحقِّ العادِلُ عنه قصدًا إلى غيره؛ فنَـزَّه اللَّه رَسُولَهُ وشَرْعَهُ عن مشابهة أهل الضَّلال كالنَّصارى، وطرائق غِوَايَةِ اليَهُود، وهي عِلْمُ الشَّيء وكِتمانه، والعملُ بخلافه، بل هو صَلَاةُ اللّهِ وسلامُهُ عَلَيْهِ، وما بعثه اللّه تعالَى به مِنَ الشَّرع العظيم في غايةِ الِاسْتِقَامَةِ والاعتِدَالِ والسَّداد، فأثْنَى عَلَيْهِ بِكَمَالِ العِلْمِ والعمل[1].

فالضَّلال أعمُّ مِنَ الغِوَايَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدُهُما: كونُ الضَّلال ألَّا يَجِدَ السَّالك إلى مَقْصَدِه طريقًا أصلًا، بِخِلَافِ الغِواية فهي ألَّا يكون لَهُ إِلَى المَقْصَدِ طريقٌ مستقيمٌ[2].

والآخرُ: أنَّ الغواية إمعانٌ في الضلال والغلو فيه، فهي بهذا أخصُّ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/411.

(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199، والتهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: 2/1119.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء: 61]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

ذِكـرُ أَفْـعـالِ المُنـافِقِينَ بَعْدَ ذِكرِ أَقْوالِهِمْ

لَمَّا ذكَر اللهُ سُبحانَه وتعالى ضلالَ المنافقِينَ ورَغْبتَهم في التَّحاكمِ إلى الطَّاغوتِ؛ ذكَر فِعلَهم فيه، في نُفرتِهم عَنِ التَّحاكمِ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾(1).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يَصُدُّونَ﴾: أَصلُ (صَدَّ) يدلُّ على إعراضٍ وَعُدولٍ، يُقال: صَدَدتُه عَن كذا أصُدُّه صدًّا، أيْ: عَدَلْتُه وصَرَفْتُه عَنْه، وَالصَّدُّ: الإعراضُ والصُّدُوفُ، ومعنى قَوْلِه: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾: يُعرِضون عنكَ إِعْرَاضًا(2).

المَعنى الإجماليُّ:

نُفورُ المُنافِقِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى تَحْكِيمِ الشَّرْعِ

إذا نُصِحَ هَؤُلَاءِ المُنَافِقُون، وقيلَ لَهُمْ: أَقْبِلُوا على ما أَنْزَلَ اللَّه تعالَى في كِتَابِهِ مِنَ الحُكْمِ، وإلى الرَّسول؛ لِيَحْكُم بينَكُم في خِصَامِكُم، أَبْصَرْتَ الَّذين يُظْهِرُون الإيمَانَ ويُبْطِنُونَ الكُفْرَ يُعْرِضُونَ عنك - أيها الرسول ﷺ - إلى التَّحاكُمِ إلى غَيْرِك إِعْرَاضًا شديدًا(3).

(1) البقاعيّ: نظم الدُّرر: 5/313، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/122.
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن عبَّاد: المحيط في اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صدد)، وأبو السّعود: إرشاد العقل السَّليم: 2/195.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 119، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِـ (إِذَا) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾:

تَأْكِيدُ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِشِدَّةِ نُفُورِهِمِ مِنْ تَحْكِيمِ الشَّرِيعَةِ

جاءَتِ الآيةُ في وَصْفِ حالِ المنافقين وشِدَّةِ نفُورِهم مِن تَحْكِيم قولِ اللّهِ تعالَى وقولِ رسُولِه ﷺ، فَجِيء بـ (إذا) الشَّرطيَّة، وزادَتِ الحالُ تأكيدًا بِدُخولِهَا علَى الْفِعْلِ المَاضِي؛ لأنَّ (إذا) تَأْتِي في مَقَامِ التَّأكيدِ لِمَا يُقْطَعُ بوقُوعِه، ولمَّا كان أَصْلُ (إذا) الجَزْمَ بوقوعِ مدخولِهَا؛ كان الغالِبُ في الفِعْلِ المُستعمَلِ مَعَها أنْ يَرِدَ بِلَفْظِ المَاضِي؛ لإِشْعَارِ المُضِيِّ بتحقُّقِ الوقُوعِ الَّذي يُناسب مَفادَ (إذا)[1].

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾:

بَيَانُ عُلُوِّ مَنْزِلَةِ الْمُتَحَاكَمِ إِلَيْهِ وَرِفْعَةِ تَشْرِيعِهِ وَحُكْمِهِ

الْفِعْلُ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ مشتقٌّ مِنَ الْعُلُوِّ لَمَّا استعملت في دعاء الإنسان وجلبه؛ سِيقَتْ من العلوِّ تحسينًا للأدب، كما تقول: "ارْتَفِعْ إِلَى الحقِّ"[2]، ووجه اشتقاقِ (تعالَ) من مادَّة العلوِّ أنَّهم تخيَّلوا المناديَ في علوٍّ والمُنَادَى - بِالْفَتْحِ - في سُفْلٍ؛ لأنَّهم كانوا يَجْعَلُون بيوتَهُم في الْمُرْتَفَعَاتِ؛ لأنَّها أحصَنُ لَهُم، ولذلك كان أصلُه أن يدلَّ علَى طلَبِ حُضُورٍ لِنَفْعٍ.

والفعلُ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ مُسْتَعْمَلٌ هنا مجازًا مرسلًا؛ إذ استُخْدِمت مَكانَ (تَحَاكَمُوا)، فليس ثمَّة حُضُورٌ وإتيان حقيقيٌّ، فهو مجازٌ في تَحْكِيم كتَابِ اللّهِ تعالَى وتحكيم الرَّسولِ ﷺ في حضُورِه، ولذلك قَالَ: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ إِذْ لا يُحَكَّمُ اللّه إلَّا بواسطَةِ كلامِه[3].

وهذا المَجازُ يَحْمِلُ تصويرًا بديعًا لعلوِّ مَنْزِلَةِ المُتحاكَم إليْه، فَهُو مجازٌ علاقَتُهُ اللُّزومُ: وهِيَ التَّعبير عنِ المَعْنَى بما يكون مُلازمًا له،

(1) ابن يعقوب، مواهب الفتّاح: 2/40، والبناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 1/137.
(2) ابن عطيَّة، المُحرِّر الوجيز: 2/73.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/106.

فالتَّشريع إذا جاءَ مِنَ اللهِ تعالَى فهُوَ عَالٍ؛ لأنَّه سُبْحَانه لَا يَغيبُ عنْهُ شيءٌ وإن صَغُرَ، بخلافِ أحكامِ البشَرِ فإنَّها أحطُّ مَنْزِلَةً وَأَسْفَلُ؛ لأنَّه يُوضَعُ لأحوالٍ آنيَّةٍ، ثُمَّ تَرِدُ أحوالٌ بعدها تُوجِبُ تعديلَ هذه الأحكامَ واستبدالَهَا، وهذا ناشِئٌ مِنْ أنَّ أحداثًا جدَّت لم تكن في بال مَن قنَّن لصيانة المجتمَع، وكان ذِهْنُ واضعِ القانُونِ الوضعيِّ قاصرًا عنها، كما أنَّ تعديل أيِّ قانون لا يَحْدُثُ إلَّا بعد أن يَرَى واضِعُهُ الآثارَ الضَّارَّة في المُجْتَمَعِ الَّتي نشأت من قَانُونِهِ الأوَّل، أمَّا تشريعُ اللهِ تعالَى؛ فهُوَ يَحْمِي المُجْتَمَعَ مِن أن تقَعَ هذهِ الأحدَاثُ ابتداءً، هذا هو الفَارِقُ بين تَقْنِينٍ وضعيٍّ بشريٍّ جاء لِيُنْقِذَنا مِنَ الأحداثِ، وتَشْرِيعٍ ربانيٍّ إلهيٍّ يَقِينَا مِن تلْكَ الأَحْدَاثِ(1).

دِلَالَةُ عَطفِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَحْكِيمِ الرَّسُولِ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾:

تَعْظِيمُ حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ وَتَحْكِيمُ سُنَّتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ

المُراد بتَحْكِيمِ الرَّسولِ ﷺ تحكيمُ ذاته؛ لأنَّ القومَ المُخْبَرَ عنهم كانوا منَ المُنَافقين، وهُم بالمَدِينَةِ في حَيَاةِ الرَّسولِ ﷺ(2)، ولأنَّه ﷺ هو المُخْبِرُ عَنِ اللهِ تعالَى وحُكْمِهِ، والواسطةُ في معرفة حُكْمِ اللهِ سُبحانَهُ.

وفي هذا العَطْفِ إشارةٌ إلى تحكيم سنَّته بعدَ وفاتِه ﷺ، وأنَّ سُنَّتَهُ ﷺ لا تَنْفَكُّ عَن كِتَابِ اللهِ تعالَى في التَّشريعِ والتَّحكِيم على حدٍّ سواءٍ.

سِرُّ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾:

النِّفَاقُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْإِعْرَاضِ عَنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ

المنافقونَ في قولِ اللهِ تعالَى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هُمُ الزَّاعِمُونَ المَذْكُورُونَ في الآيةِ السَّابقة، فقَدْ صُرِّحَ في هذهِ الآيَةِ بِمَا دلَّت عَلَيْهِ الَّتي قبلها مِنْ نِفَاقِ هؤلاء الَّذين يَرْغبون عَن حُكْمِ كتابِ اللهِ تعالَى

---

(1) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 4/2365.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/106.

وحُكْم رسُولِه ﷺ إلى حُكْم الطَّاغوت مِن أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ، ونَاهِيكَ بِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ الرَّسولِ ﷺ[1].

وفي قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾ إِظْهَارٌ فِي مقامِ الإِضْمَارِ؛ إذ مقتضى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (رأيتَهم يصدُّون عنكَ صدودًا)، ولكن عُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإِظْهَارِ؛ لِلتَّسجيلِ عَلَيْهِمْ بِالنِّفاق وذمِّهم بِهِ، ولِلْإِشْعَارِ بعلَّة الحُكْم، أي: رَأَيْتَهُمْ لِنِفَاقِهِم ﴿يَصُدُّونَ﴾[2]، وفي ذلك كشفٌ لِحَالِهِم وحالِ أَمْثَالِهِمْ بالنَّصِّ، ويُبْنَى عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْإِعْرَاضِ وَالصَّدِّ، وهُوَ أَثَرُهُ[3].

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ بِالْمَصْدَرِ الْمُنَكَّرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾:

شِدَّةُ انْحِرَافِ الْمُنَافِقِينَ بِإِظْهَارِهِمْ قُوَّةَ الْإِعْرَاضِ عَنِ التَّحَاكُمِ إِلَى الشَّرْعِ

قول اللّه تعالَى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، أي: يُعْرِضُونَ إعراضًا عنك، وذِكْرُ المصدر يُرادُ به التَّأكيدُ والمُبَالَغَةُ، وتنكيرُهُ يُقوِّي هذه الدِّلالَة، والمعنَى: يصدُّونَ عنك صُدودًا أيَّ صُدودٍ[4].

والصُّدود والصَّدُّ: الانْصِرَافُ والِامْتِنَاعُ عَنِ الشَّيءِ[5]، وهو أشدُّ مِنَ الإِعْرَاضِ، وزادهُ شدَّةً إيرادُهُ منكرًا؛ لِيَكُونَ وَصْفًا مبيِّنًا لِسُلُوك هؤلاء المنافقين، ولِإفادَةِ تَعْظِيم هذا الصُّدود وتَفْخِيمِه[6].

وقد جاءَ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، تكملة لمادَّة التَّعجيبِ بِبَيَانِ إِعْرَاضِهِم صَرِيحًا عنِ التَّحاكُمِ إلى كِتَابِ اللّه تعالَى ورسُولِهِ ﷺ إِثْرَ بَيَانِ إِعْرَاضِهِم عَن ذَلِكَ ضِمْنَ التَّحاكُم إِلَى الطَّاغُوت[7].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 5/184.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.
(3) رضا، تفسير المنار: 5/184.
(4) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/122.
(5) الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (صد).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 3/66، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/106.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.

وفي قَوْلِه ﷻ: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ جِناسُ الاشْتِقَاقِ، وفيه بيانُ شدَّة إعراضِ أهل النِّفاقِ عن الشَّرْعِ والتَّحاكم إليهِ.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

اخـتِـلَافُ حَـالِ الْمَدْعُوِّيـنَ بَيْنَ مُشْرِكٍ جَاهِلِيٍّ، وَمُـنَـافِـقٍ مُـدَّعٍ لِلْإِيمَانِ

بَيْنَ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، وَقَوْلِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾:

جاء في سُورَةِ المَائِدَة قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: 104]، علَى الاكْتِفَاءِ بِقَوْلِه: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وهُنا وردَ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ مَعَ اسْتِوَائِهما في دُعاء الْمُخَالِفين ممَّن ذُكِرَ قبل كلِّ آيةٍ مِنْهُما إلى مُتَابَعَةِ الحقِّ والرُّجوع إِلَيْهِ.

ونُكْتَةُ التَّغايُر بينَهُمَا: أنَّ حالَ المَدْعُوِّين مختلِفٌ، فإنَّ هذه الآيةَ في مُنَافِقٍ ويهُودِيٍّ تخاصَما، وتحاكمَا إلى الكاهنِ، ورَضِيَا بِحُكْمِه، فالمُرَادُ بِالآيَةِ: المُنَافِقُون؛ لأنَّهم المُظهرون أنَّهم آمَنُوا بما أُنزل على محمَّدٍ ﷺ وعلَى مُوسَى ﵇، قائِلُونَ ذلك بأَلْسِنَتِهم، ولكون ذلك نُطقًا بألسنتهم عُبِّر عَنْهُ بِالزَّعْم، وكنَّى بالطَّاغوت عنِ الكَاهِنِ، ثُمَّ قال تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: لِلْحُكْم بينَهُم بِمَا أنزل اللهُ؛ صَدُّوا عنهُ ونَفَرُوا إلى التَّحاكم عندَ الكاهنِ، وأمَّا آيةُ المائدة؛ فَمَبْنِيَّة على مَا تقدَّمها مِن مُرْتَكَبات أهلِ الجاهليَّة وما سَنُّوه تقليدًا أو اتِّباعًا لعمرو بن لحيٍّ الخُزاعِيِّ وأشباهِهِ ممَّن غَيَّرَ مِلَّةَ إبراهيمَ ﵇، فدَانَ بِفِعْلِهِمْ فِي البَحيرة[1]

(1) البَحيرة: النَّاقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإذا كان الخامس ذكرًا، نحروه، فأكله الرِّجال والنِّساء، وإن كان الخامس أنثى، بحروا أذنها، أي: شقُّوه، وكانت حرامًا على النِّساء لحمها ولبنها، ينظر: القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/336.

والسّائبة[1] والوصيلة[2] والحام[3]، فالضَّمير مِن قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ راجع إلى القائلين بهَذِهِ الأشياء المُتَّبعين فيهَا لآبائِهم، فبَيَّنَ اللّه تَعالَى وحَكَمَ فيها بقولِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ﴾ [المائدة: 103] إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾، فحُكْمُ هذه الأشياء بَيِّنٌ واضحٌ مِنْ كِتَاب اللّه تعالَى لا يَفْتَقِرُ في تعرُّفه إلى غير سَمَاعِه إذا حَصَلَ التَّصديق بِه، وسَوَاءٌ أَسَمِعَ ذلك مِنْهُ ﷺ أَمْ من غَيْرِه؛ لِتَوَاتُر نَقْلِه، فلهَذَا لم يُذكَر هُنا دُعَاءٌ إلى زائِدٍ على المُنْزَل، بخلافةِ آية النِّساء؛ فهِيَ في قضيَّة تَخَاصُم لا بدَّ مِنَ التَّحاكُم فيها إلى مُجْتَهِدٍ يَفْصِلُ فيها بما فهَّمه اللّه تعالَى من كِتابه، والآتي به ﷺ هُوَ المُبَيِّنُ ما فِيهِ والمَعْصُومُ فِيمَا بَيَّن مِنْهُ ويَحْكُمُ بِهِ، والقضيَّة واقعةُ حالٍ، فإليهِ ﷺ المَرْجِعُ؛ فلِهَذَا قالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الصَّدّ وَالإِعْرَاض:

الصَّدُّ هُوَ العُدُولُ عَنِ الشَّيْءِ بِقَصْدِ المَنْعِ، وَالإِعْرَاضُ أَعَمُّ؛ إِذْ هُوَ الإِضْرَابُ عَنِ الشَّيْءِ

الصَّدُّ: هُو المَنْع عَن قَصْدِ الشَّيءِ خاصَّةً، ولهذا قَالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَن قَصْدِه[5].

والإِعْرَاضُ: الإضرَابُ عَنِ الشَّيء، يُقال: أخذت عَرْضًا، أي: جانبًا غيرَ الجانب الَّذي هو فيه[6].

ويأتي الصَّدُّ بمعنًى قريبٍ مِنَ الإعْرَاضِ، مِنْ ذَلِك قولُه تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾، فالصَّدُّ: هو العُدُولُ عَن الشَّيء بقصد الصَّرف وَالمنْعِ، والإعراضُ أَعَمُّ مِنْهُ[7].

(1) السَّائبة: البعير يُسيَّب بِنَذْرٍ يكون على الرَّجل، إن سلَّمه الله من مرض، أو بلَّغه مَنْزِلَهُ أن يفعل ذلك، فلا تُحبس عن رعي ولا ماء، ولا يركبها أحدٌ، ينظر: القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/336.

(2) الوصيلة: الشَّاة تلد ستَّة أبطُن، فإذا ولدت السَّابع جُدعت وقُطِعَ قَرْنُها، فيقولون: قد وَصَلَتْ، فلا يذبحونها ولا تُضرب ولا تُمنع مهما وردت على حوض، ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/211.

(3) الحام: فحل الإبل يَضْرِبُ الضِّراب المعدود، فإذا قضى ضِرابه وَدَعُوهُ للطَّواغيت، وأعفوه عن الحَمْل، فلم يحمل عليه شيء، وسمَّوه: الحامي، ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/208.

(4) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 1/106 - 107.

(5) العسكريّ: الفروق اللُّغوية، ص: 114.

(6) المناوي، التَّوقيف، ص: 56.

(7) الكفويّ، الكُلّيات، ص: 28.

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢﴾ [النساء: 62]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الصَّدُّ عَنِ التَّحاكُمِ إلَى الشَّرْعِ مُوجِبٌ غَضَبَ اللهِ تَعالَى وَسَخَطَهُ

لَمَّا ذَكَرَ اللّٰه تعالى حالَ المُنَافِقينَ أنَّهم يتحَاكَمُون إلى الطَّاغوت مع أنَّهم أُمِروا بالكُفْرِ بِه، ويَصُدُّون عنِ الرَّسول ﷺ مع أنَّهم أُمِروا بطاعتِه؛ ذَكَرَ بَعْدَ هذا ما يَدُلُّ على شِدَّةِ الأحوالِ عَليْهم بِسَبَبِ هذه الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ، فقَالَ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: فكَيْفَ حَالُ تلك الشِّدَّة وحالُ تلك المُصيبة[1]، فهُوَ تَفْرِيعٌ عَلَى قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾؛ لأنَّ الصُّدود عَن ذَلِك يُوجِبُ غضبَ اللّٰه تعالَى عَلَيْهم، فيُوشِكُ أن يُصِيبَهُمُ اللّٰه سُبحانَهُ بمُصيبَةٍ من غيْرِ فِعْلِ أَحَدٍ، فيَجيئُونَ يَعْتَذِرُونَ بأنَّهم ما أرَادُوا بالتَّحاكُم إلَى أهْلِ الطَّاغوت إلَّا قَصْدَ الإحسانِ إلَيْهم، وتأليفهم إلَى الإيمَانِ والتَّوفيقِ بينَهُم وبَيْنَ المُؤْمنين[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾: أصل (صَوَبَ) يدلُّ على نُزول شيْءٍ واسْتقرارِه قرارَهُ، تقول يُقال: أصاب السَّهمُ؛ إذا وصلَ إلى المَرْمَى بالصَّواب، والمصيبةُ أَصْلُها في الرَّمْيَة، ثُمَّ اختُصَّت بالنَّائبةِ والنَّكبة، والمُصيبَةُ: الأمْرُ المَكْرُوهُ ينْزِل بالإنسانِ، يُقَالُ: مُصِيبَةٌ، ومَصُوبَةٌ، ومُصَابَةٌ، وَالمعنى في قولِه تعالى: ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾: أَخَذَتْهُم نَائِبَةٌ وشِدَّةٌ[3].

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/122.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.
(3) الجوهريّ، الصِّحاح، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (صوب)، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 3/48.

2) ﴿وَتَوۡفِيقًا﴾: أصل (وفق) دالٌّ على مُلاءمة شَيْئَيْن، يُقال: اتَّفَقَ الشَّيْئَان، أي: تَقارَبا وَتَلاءَما، وَوافَقْتُ فُلَانًا ووفَقْتُه ووفِقَني، وَذلِكَ إِذَا صَادَفَني وَلَقِيَني. ويُقال: وَفِقَ أَمرَه يَفِقُ؛ إذا وَجَدَهُ مُوافقًا، والمعنى في قوله سُبحَانَهُ حكايةً عَنْهُم: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ مَا أَرَدْنَا بتحاكُمِنا إلى غَيْرِكَ إلَّا الفَصْلَ بالوَجْهِ الحسَنِ والتَّوفيقَ بَيْنَ الخَصْمَيْنِ[1].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

فكَيْفَ يَكُونُ حَالُ المُنافقِينَ؛ إذا حلَّت بِهِمْ مُصيبةٌ بِسَبَبِ خُبْثِ نفُوسِهم وسُوءِ أَعْمَالِهِم، ثُمَّ جاؤوكَ أيُّها الرَّسولُ مُعتذِرينَ إِلَيْكَ يحلِفُون باللّه: مَا قَصَدْنَا بِتَحَاكُمِنا إلى غيرِكَ إلَّا الإحْسَانَ وطلَبَ التَّوفيق بَيْنَ المُتَنَازِعين[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الاِسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾:

تهديد أَهْلِ النِّفَاقِ بِوُقُوعِ المَصَائِبِ عَلَيْهِمْ، وَتَبْشِيرُ أَهْلِ الإِيمَانِ بِمَا يَحُلُّ بِأَعْدائِهِمْ

الاِسْتِفْهَامُ بِـ (كيف) صوَّر حالَ عَجزِهِمُ التَّامِّ عند مُفاجأتِهِم بالمُصيبَةِ، وكَيْفَ: اسمُ استفهام مَبْنِيٌّ على الفَتْحِ في محلِّ نَصْبِ حَالٌ، أي: فكَيْفَ يَصْنَعُونَ؟ أو فكَيْفَ تَرَاهُم؟ ويَجُوزُ أن تَكُونَ خَبَرًا لِمُبْتَدأٍ مَحْذُوفٍ، أي: فكيفَ صُنْعُهُمْ أو حالُهُم؟ وحُذِفَ المُبْتَدَأُ لِدلالَةِ سِياقِ الكلامِ عَلَيه[3]، وفي هذا الاِسْتِفْهَامِ وَعِيدٌ لَهُمْ على فِعْلِهِم، وأنَّهم سَيَنْدَمُونَ عَلَيْهِ عِنْدَ حُلُولِ بَأْسِ اللّهِ تعالَى حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدم، ولا يُغْنِي عَنْهُمُ الاعتِذَارُ[4]، فأَخْرَجَ كُلٌّ مِنَ الاِسْتِفْهَامِ والحَذْفِ الوعيدَ إلى التَّهويلِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وفق)، وابن منظور، لسان العرب: (وفق)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وفق)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 119، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط في التفسير: 3/690.

(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/314، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.

وفي هَذَا الِاسْتِفهَامِ بِشَارة للنَّبيِّ ﷺ، فإنَّه تعالى لمَّا أَخْبَرَ عَنِ المنافِقين أنَّهم رَغِبُوا في حُكْمِ الطَّاغوت، وكرِهُوا حُكْمَ الرَّسولِ ﷺ؛ بَشَّرَ الرَّسولُ ﷺ أَنَّهُ سَتُصِيبُهُمْ مَصَائِبُ تُلْجِئُهُمْ إِلَيْهِ، وإلى أن يُظْهِرُوا لَهُ الإيمَانَ بِهِ، وإلى أن يَحْلِفُوا بأَنَّ مُرادَهُمُ الإِحْسَانَ والتَّوفيق، فمِن عَادَةِ الْعَرَبِ عِنْدَ التَّبشيرِ والإنذارِ أَن يَقُولُوا: كَيْفَ أَنْتَ إذَا كَانَ كذَا وَكذَا؟![1].

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بَيْنَ الِاعْتِرَاضِ وَالتَّفْرِيعِ:

الأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ مُوجِبَةٌ لِحُلُولِ المَصَائِبِ

يُجوزُ أن يكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ اعتراضًا، فهو كلامٌ وقَعَ في الْبَيْنِ، وما قبلَ هَذِهِ الآيةِ متَّصِلٌ بِمَا بَعْدَهَا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾، يعني: أنَّهم في أوَّلِ الأَمْرِ يصدُّون عنك أشدَّ الصُّدود، ثُمَّ بعد ذلك يَجِيئُونَك، ويَحْلِفُونَ باللّه كذبًا على أنَّهم ما أَرَادُوا بذلك الصَّدِّ إلَّا الإحسَانَ والتَّوفيقَ، وعلى هذا التَّقدير يكون النَّظمُ متَّصلًا، وقولُهُ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، واقعٌ في الْبَيْنِ كَالْكَلَامِ الأجنبيِّ، وهو المسمَّى: اعْتِرَاضًا، ونظيرُهُ قولُ الشَّاعر:

إِنَّ الثَّمَانِينَ - وَبُلِّغْتَهَا - قَدْ *** أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَان[2]

فقولُهُ: (وبلِّغتَها) كلامٌ أَجْنَبِيٌّ وقع في الْبَيْنِ، إلَّا أَنَّ هذا الكلامَ الأجنبيَّ شَرْطُهُ أن يكُونَ لَهُ من بَعْضِ الوجُوه تعلُّقٌ بذلك المَقْصُود،

---

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/123.

(2) هذا البيت لعوفِ بْنِ مُحَلِّمِ الخزاعي من قصيدة من بحر السريع، وشاهد الاعتراض فيه: بُلِّغْتَها: إنَّ التاءَ تاءُ المُخاطَبِ المفتوحة، اعتراضٌ لطيفٌ يخاطبُ بها عوفٌ ممدوحَه عبدَ الله بن الطاهر، جاءت دعاءً للممدوح بطول العمر، ينظر: رشدي حسن، شعراء عباسيون، ص: 132.

كمَا في هَذَا الْبَيْتِ، فإنَّ قولَهُ: (بُلِّغْتَهَا) دُعَاءٌ لِلْمُخَاطَب، وتلطُّف في القولِ مَعَهُ، والآية أيضًا كذلك؛ لأنَّ أوَّلَ الآية وآخرَهَا في شَرْحِ قبَائِح الْمُنَافِقِين وفضَائِحِهم وأنواعِ كَيْدِهم ومَكْرِهِم، فإنَّ الآية أَخْبَرَتْ بأنَّه تعالى حكَى عَنْهُمْ في أَوَّلِ الآيَةِ أنَّهم يَتَحَاكَمُونَ إِلَى الطَّاغُوت مع أنَّهم أُمِرُوا بالكُفْرِ بِهِ، ويصدُّون عنِ الرَّسول مع أنَّهم أُمِرُوا بطاعته، فذكَرَ بَعْدَ هذا مَا يدلُّ على شدَّة الأحوالِ عَلَيْهِم بِسَبَبِ هذه الأعمال السَّيِّئة في الدُّنيا والآخرة، فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: فكيفَ حَالُ تِلْكَ الشِّدَّة وحالُ تِلْكَ الْمُصِيبَةِ؟ فهذَا تَقْرِيرُ هَذَا الوَجْهِ[1].

ويحتَمِلُ أن يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ تَفْرِيعًا علَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾؛ وذلك لأنَّ الصُّدود عَن ذلك يُوجِبُ غضَبَ اللّهِ تعالَى عَلَيْهِم، فيُوشِكُ أن يُصيبَهُم اللّه بمُصِيبَةٍ من غَيْرِ فِعْلِ أَحَدٍ، مثل: انْكِشَافِ حالِهم لِلْمُؤْمِنِين، فيُعْرَفُوا بِالْكُفْرِ، فيُصْبِحُوا مهدَّدِينَ، أو مُصِيبَةٍ من أَمْرِ اللّهِ تعالى رَسُولَهُ والمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يُظْهِروا لَهُمُ العَدَاوَةَ، أو يَقْتُلُوهُم لِنِفَاقِهِم، فيَجِيئُوا يَعْتَذِرُونَ بأنَّهم ما أَرَادُوا بالتَّحاكم إلى أَهْلِ الطَّاغوت إلَّا قَصْدَ الإحسَانِ إِلَيْهم وتأليفِهم إلى الإِيمَان والتَّوفيق بينَهم وبَيْنَ الْمُؤمنين، وهذا وَعِيدٌ لَهُمْ؛ لأَنَّ ﴿إِذَآ﴾ لِلْمُسْتَقْبَلِ، فَالْفِعْلَانِ بعدَهَا وهُمَا: ﴿أَصَٰبَتْهُم﴾ و﴿جَآءُوكَ﴾ مُسْتَقْبَلَانِ معنًى، وهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: 60 - 61][2].

الصُّدودُ عَنْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى وَشَرْعِهِ مُوجِبٌ غَضَبَ اللهِ تَعَالَى

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/122، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/81، والواحدي، الوجيز، ص: 271.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.

دِلَالَةُ ضَمِيرِ الْغَائِبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصَٰبَتۡهُم﴾ وَ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾:

تَخْصِيصُ الْمُنَافِقِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ بِنُزُولِ الْمَصَائِبِ

تَصْدِيرُ الْآيَةِ بِاسْتِفْهَامٍ يُصَوِّرُ حالَ تخبُّطِ المنافِقينَ الشَّديد حِينَ يَنْتَقِمُ مِنْهُم الجبَّارُ بتِلْكَ المُصيبةِ الَّتي تَنْزِلُ بِهِمْ خاصَّةً؛ عقوبةً لهم بِنِفَاقِهِمْ وكُرْهِهِمْ حُكْمَ اللهِ تعالَى[1]، فذلكَ بِمَا قدَّمت أَيْدِيهِم مِنْ جِنَايَاتٍ؛ مِنْ جُمْلَتِها التَّحاكُمُ إِلَى الطَّاغوت[2]، وقد خَصَّصَ ضَميرُ الغائِب في ﴿أَصَٰبَتۡهُم﴾ و﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ المنافِقِينَ بِنُزُولِ المَصَائِبِ لِجَمْعِهِم صنُوفَ المَعَايِب.

نُكْتَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾:

تَعْظِيمُ الْمَصَائِبِ النَّازِلَةِ بِالْمُنَافِقِينَ وَتَهْوِيلُهَا

الفاعِلُ الحقيقيُّ لِلْفِعْلِ (أَصَابَ) هُوَ اللهُ الجبَّارُ الْمُنْتَقِمُ سُبْحَانَهُ، أي: (أَصَابَهُم اللهُ بِمُصِيبَةٍ)[3]، وإسنادُ الفِعْلِ إلى المُصيبَةِ هُنا فيهِ مِنَ التَّهويلِ الشَّيءُ العَظِيمُ؛ حيثُ جُعِلَت المُصِيبَةُ نَفْسُهَا هِيَ المُتَرَبِّصَةَ بِهِم، تُرِيدُ فُرْصَةً لِلانْقِضَاضِ عَلَيْهِم جَزَاءَ مَا قدَّمت أَيْدِيهِم، فَفِي إِسْنَادِ الفِعْلِ إلى المُصِيبَةِ على طَرِيقَةِ المَجَازِ العَقْلِيِّ تَهْوِيلٌ وتعظيمٌ[4].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْعَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾:

التَّشْرِيكُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُصِيبَةِ وَالِاعْتِذَارِ

حرفُ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ حَقَّقَ معنَى التَّشريكِ في الحُكْمِ في هذهِ الآيةِ الكَرِيمةِ الَّتي صُدِّرَتْ بالاستفهَامِ عَن حَالِهِم وَقْتَ إِصَابةِ المصيبةِ إيَّاهم بافْتِضَاحِهِم بِظُهُورِ نفاقِهِم: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ لِلاعْتِذَارِ عمَّا صَنَعُوا مِنَ القَبَائِحِ، وهو عَطْفٌ على ﴿أَصَٰبَتۡهُم﴾، والمُرادُ مِنْهُ: تَفْظِيعُ حَالِهِم وتَهْوِيلُ ما دَهَمَهُمْ من خطْب، واعتِرَاهُمْ مِنْ شِدَّةِ الأمر عندَ إِصَابَةِ المُصِيبةِ وعِنْدَ المَجِيءِ لِلاعْتِذَارِ، والاعتذارُ أَشَدُّ على النَّفس مِنَ المُصِيبَةِ أحيانًا، فهي إذًا حِكَايَةٌ عَنْهُم[5].

---

(1) السُّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 2/583.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.

(4) البناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليلية: 2/447.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195 والبناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 1/163.

وهكذا يكُونُ الكَشْفُ لِنِفَاقِهِم مُصِيبَةً بِالنِّسبة لَهُمْ، فَهُم يَرَوْنَ النِّفاق نفعًا لهم، فَبِهِ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ أحكَامِ الْإِسْلَامِ وإِجْرَائِها وتَطْبِيقِها عليهم، وإذا افْتَضَحَ نِفَاقُهم يَشْعُرُونَ بالْمُصِيبَةِ[1].

دِلَالَةُ التَّقْيِيدِ بِالْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾:

تَهْدِيدُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى أَفْعَالِهِمْ، وَأَنَّ مَآلَ أَمْرِهِمْ إِلَى النَّدَمِ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ

جُمْلَةُ ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ حَالِيَّة، سِيقَت لِبَيَانِ حالِهم بعدَ فَضِيحَتِهِم وانْكِشَافِ نِفَاقِهِم وكَذِبِهِم، أي: يُقْسِمُونَ باسْمِ اللّهِ تعَالى، قائِلِينَ: وَاللّهِ ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾، أي: مَا قَصَدْنا بالتَّحاكُم إلى غيرِكَ إلَّا إحسانًا وإصلاحًا في مُعَامَلَتِنا، وتوفيقًا بينَهم وبينَ خَصْمِهِم بالصُّلحِ أو الجَمْعِ بينَ مَنْفَعَةِ الخَصْمَيْنِ، وقالوا: نحنُ نَعْلَم أنَّك لا تَحْكُم إلَّا بمُرِّ الحقِّ لا تُرَاعِي فيه أحدًا، فلم نَرَ ضَررًا في استِمَالَة خُصُومِنا بقبُول حُكم طواغِيتِهِم لَا إِسَاءَةً بكَ، وإلَّا توفيقًا بينَ الخَصْمَيْنِ وقطعًا لِلْمُنَازَعَة بينَهُما، وجمعًا بين مَنْفَعَتِنَا ومنفعتِهِم لا مُخالفةً لكَ[2]، فلا تؤاخِذْنا بما فَعَلْنا.

وهذا وعيدٌ لَهُم علَى ما فَعَلُوا، وأنَّهم سَيَنْدَمُونَ عَلَيْهِ حينَ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدمُ، ولا يُغْنِي عَنْهُمْ[3].

نُكْتَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾:

إِمْعَانُ الْمُنَافِقِينَ فِي الْبَاطِلِ مَعَ ادِّعَائِهِمْ سُلُوكَ طُرُقِ الْحَقِّ

لَمْ يَكْتَفِ أهلُ النِّفاقِ بادِّعاءِ إِرَادَتِهِم الإصْلاحَ في الحالِ التي افْتَضَحُوا فيها، بلِ ادَّعوا أنَّ جميعَ أَحْوَالِهِم مَبْنِيَّةٌ على إرادَة الْإِحْسَانِ والتَّوفِيق، فَقَالَ اللّهُ تعالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ أي: ما أردنَا في جَمِيعِ أَحْوَالِنَا وبجميعِ أَفْعَالِنَا إلَّا الْإِحْسَانَ وَالتَّوفيق، وهذه الحالُ المخصُوصَةُ التي فضحَهُمُ اللّهُ

(1) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 4/2367.
(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 6/172، ورضا، تفسير المنار: 5/186.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.

تعالى فيها داخلَةٌ تحت هذا العمُومِ المُدَّعَى، وهذا إمعانٌ مِنْهُم في الباطِلِ وادِّعاءُ خِلافِ الواقِعِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْإِحْسَان وَالْفَضْل:

الْإِحْسَان: النَّفع الحسَنُ، وهُوَ فِعْلُ مَا ينفع غَيْرَهُ بِحَيْثُ يَصِيرُ الآخَرُ حَسنًا بِهِ، كإطْعَام الجائِع، أَو يَصِيرُ الْفَاعِلُ بِهِ حَسنًا بِنَفسِهِ، وأمَّا الفَضْلُ؛ فهو النَّفع الزَّائد على أقلِّ المِقدار، وقد خُصَّ الإحسانُ بالفضْلِ، ولَم يَجِبْ مِثْلُ ذلِكَ في الزِّيادة؛ لأنَّه جرى مَجْرَى الصِّفة الغالبة[1].

الْإِحْسَانُ أَعَمُّ مِنَ الْفَضْلِ، وَهُوَ نَفْعٌ حَسَنٌ، وَالْفَضْلُ نَفْعٌ زَائِدٌ

كما أنَّ الإحسان قد يَكُونُ واجبًا وغيرَ وَاجِبٍ، والفَضْلُ لَا يَكُونُ وَاجِبًا على أحدٍ، وإنَّما هو ما يُتَفَضَّلُ به مِن غَيْرِ سَبَبٍ يُوجبه[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 23، والكفويّ، الكُلِّيات، ص: 53.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 24.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [النساء: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإعلامُ بِشأنِ المُنافِقينَ وما يُصنَعُ بِهِم بَعدَ ذِكرِ أعمالِهِمُ الصّادِرَةِ عَنهُم

لَمَّا ذكرَ اللهُ ﷻ بَعْضَ مَا يَصْدُرُ مِنَ ٱلْمُنَافِقِينَ مِنَ التَّناقضات، وهُم غيرُ مُحْتَشِمِينَ وَلَا هَائِبِينَ، قال مُعْلِمًا بِشَأْنِهِم، ومُعْلِمًا لما يُصْنَعُ بهم[1]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾، فمَا في قُلوب هَؤلاءِ المُنافقين كبيرٌ جِدًّا لا يَعْرِفُهُ كمَا هُوَ إلَّا اللّه تَعالى[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾: أَصْلُ الوَعْظِ: تَذْكِيرٌ بِالخَيْرِ مع تَخْوِيفٍ وتَذْكِيرٍ بِالعَواقِبِ، فالوعْظُ والعِظَةُ والمَوْعِظَةُ: تَذكِيرُكَ الإنسانَ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ من ثَوابٍ وعقابٍ، والوَعْظُ: التَّذكيرُ بِالخير فِيمَا يَرِقُّ له القَلْبُ[3].

2) ﴿بَلِيغٗا﴾: أصل مادَّة (بَلَغَ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ، ومِنْهُ بلاغةُ الكلامِ؛ وهو: أنْ يكُونَ صَوابًا في موضوعِ لُغته، وطِبقًا لِلْمَعْنَى المَقْصُودِ به، وصِدقًا في نفْسِه، وقولُه: ﴿بَلِيغٗا﴾ أي: قَويًّا يبلغُ شِغافَ قُلُوبِهم؛ لبَلاغَتِه وفَصَاحته، ومعنَى قوله تعالَى: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ أي: قُلْ لَهُمْ قولًا مُؤَثِّرًا في النَّفْسِ واصِلًا إلى كُنْهِ المُرادِ مُطابِقًا لِمَا سِيقَ لَهُ مِنَ المَقْصُودِ[4].

---

(1) البِقاعي، نظم الدُّرر: 5/315.

(2) رضا، تفسير المنار: 5/186.

(3) الخليل، العَينْ، والجوهريّ، الصّحاح، وابنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغة، والرَّاغِب، المُفردات، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب: (وعظ).

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (بلغ)، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/196.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِمَا تُضْمِرُهُ صُدُورُ المُنَافِقِينَ

أُولَئِكَ الَّذين يَعْلَمُ اللهُ تعالَى حقيقةَ ما يُضْمِرُونَهُ في قلُوبِهم مِنَ النِّفاقِ والقَصْدِ الرَّديء، فاتْرُكْهُم - أيها الرسول ﷺ - وأَعْرِضْ عَنْهُم، وبيِّن لهم حُكْمَ اللّهِ سُبحانَهُ مُرَغِّبًا ومُرَهِّبًا، وقُلْ لَهُمْ قولًا مؤثِّرًا فِيهِمْ، زَاجِرًا لهم، يَصِلُ إِلَى أَعْمَاقِ نُفُوسِهِم[1].

۞ الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

فَضْحُ المُنَافِقِينَ بِتَمْيِيزِهِمْ وَتَعْيِينِهِمْ، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَى بُعْدِ مَنْزِلَتِهِمْ فِي الكُفْرِ وَالنِّفَاقِ

اسمُ الإِشَارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قَوْلِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ راجعٌ إلى المنافقين، ومَا في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من مَعْنَى البُعد يُرادُ به التَّنبيهُ عَلَى بُعدِ مَنزلتِهم في الكُفْرِ والنِّفاقِ[2]، كما أنَّ تعريفَ المسنَدِ إليهِ باسْمِ الإشَارَةِ فيه تَمْييزُهُمْ للسَّامعين أكملَ تَمْييزٍ؛ لأنَّه قَد أُورِدَ من صِفَاتِهم مَا جعلهم بمنزِلَةِ المُشَاهَدِينَ، وفيه أيضًا: تَنْبِيهٌ على أنَّ المشارَ إليهِم جَدِيرونَ بالحُكم - الَّذي سيُذكَر - سببَ مَا تقدَّم مِن أَحْوَالِهِم[3].

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرَكَّبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

تَهْدِيدُ المُنَافِقِينَ وَتَوَعُّدُهُمْ بِمَا يَسُوؤُهُمْ

قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ أُرِيدَ بها فضحُ المُنَافقينَ، وإخراجُ خَبَايَا نُفُوسِهم، والجملةُ خارجةٌ مخرجَ المجازِ المُرْسَلِ المركَّبِ؛ إذِ المرادُ بها التَّهديدُ والوعيدُ، وهو لَازمٌ مِنْ لوازِمِ الإِخبَارِ كمَا دلَّ عليه السِّياقُ.

(1) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 120، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/196.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/87.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

شِدَّةُ انْحِرَافِ الْمُنَافِقِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا

﴿مَا﴾ من قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ اسمٌ موصولٌ، والمرَادُ: يعلمُ اللّه تعالَى النِّفاقَ الذِي في قُلُوبِهِم، إلَّا أنّه لم يُصرِّحْ بالنِّفاقِ؛ للإيماءِ إلى عظيمِ الانحرَافِ الذي في قلوبِهِم، فإنَّ في الاسم الموصولِ إبهامًا يُؤهِّلُهُ لإفادَةِ التَّعظيمِ والتَّهويلِ، وفي عَدَمِ التَّصريحِ بِنِفَاقِهِم وضعٌ لَهُمْ في مقامِ الاضطرَابِ حَتَّى يَبْقَوْا على نِيرانِ الْوَجَلِ[1].

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾:

التَّأْكِيدُ عَلَى حُصُولِ الْمَخَازِي السَّابِقَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَوُقُوعِهَا مِنْهُمْ

الْفَاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ هي الفاء الفصيحَةُ، وهي التي تُفْصِحُ عَن شَرْطٍ مقدَّرٍ، فقولُهُ سُبْحَانه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ، والتَّقدير: إذا كانَ حَالُهم كذلك؛ فأَعْرِضْ عَن قَبُولِ مَعْذِرَتِهم، ويجُوزُ أن يَكُونَ الْمُرَادُ: فأَعْرِضْ عَن عِقَابِهِم لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةِ اسْتِبْقَائِهِم، ولا تُظْهِر لهم عِلْمَكَ بما في بَوَاطِنِهِم، ولا تَهْتِك سِتْرَهُم؛ حتَّى يَبْقَوْا على وَجَلٍ وحَذَرٍ[2].

وفي حَذْفِ الشّرط وجُملته دليلُ تأكِيدِ حُصُوله؛ إذْ هُوَ مِنَ المُسَلَّمات الَّتي يَصِلُ إليها الذِّهن مِنْ غيرِ حَاجَةٍ إلى ذِكْرِها، فإنَّ الأمْرَ بالإِعْرَاض عَنْهُم يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ[3]، فكَما أَعْرَضُوا وصَدُّوا عَنِ الحقِّ والتَّحاكم إِلَيْهِ، فَأَعْرِضْ عَنْهُم وصُدَّ عَنْهُمْ، جَزاءً وِفاقًا.

أَسْرَارُ حُرُوفِ الْجَرِّ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾:

حَرْفُ الجرِّ (في) جاء لِمَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ:

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/67.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/527، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.

(3) البناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 2/338.

توْضِيحُ الْمَعَانِي وَتَعْمِيقُهَا فِي النُّفُوسِ مُبَالَغَةٌ فِي الْوَعْظِ وَالزَّجْرِ

أحدُهُما: في قوله تعالى: ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، فهُوَ هُنَا للظَّرفيَّة المكانيَّة، وإن كان ذِكْرُ القلبِ وما يحتويهِ مِنَ الأسرار يُعدُّ مكانًا على جهةِ المجازِ.

والآخَرُ: في قَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وحرف الجرِّ (في) تدلُّ على السَّببيَّة، فيكون المعنى: قل لهم في مَعْنَى أَنْفُسِهم الخبيثَةِ، وقُلُوبِهم المطويّة على النِّفاق قولًا بليغًا، وأَنّ اللَّه يعلم ما في قُلُوبكُم، لا يَخْفَى عَلَيْهِ، فلا يُغْنِي عنكم إِبْطَانُهُ، فأَصْلِحُوا أنفسَكُم، وطهِّروا قلوبكُمْ، ودَاوُوها مِن مَرَض النِّفاق، ويجوزُ أن تَكُونَ (في) هُنَا للظَّرفيَّة المكانيَّة، والمعنَى: قُل لَهُمْ خَاليًا بِهِمْ، لَيْسَ معهم غَيْرُهُم، مُسارًّا لَهُمْ بالنَّصيحة؛ لأنَّها في السِّرِّ أنجَعُ، وفي الإِمْحَاض أَدْخَلُ[1]، وفي اقْتِرانِهَا بِقَوْلِه: ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يُقوِّي دلالةَ (في) على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ المجازيَّة، فالقولُ يَصِلُ إلى الأعمَاقِ، ويَتَغَلْغَلُ دَاخلَ أَنْفُسِهم؛ لِيَقْتَلِعَ جُذُورَ النِّفاق من أصلِهَا.

و(اللَّام) في ﴿لَّهُمْ﴾ أفادَتْ مَعْنَى التَّبليغ الَّذي أُلْزِمُوا به، وحُوسِبُوا عَلَيْهِ، وَوَجْهُ اختِيَارِ هذَا الحَرْفِ: دِلَالَتُه علَى معانٍ عِدَّةٍ، مِنْهَا: الاخْتِصَاصُ وَالتَّنبيهُ وَالتَّعجُّبُ[2].

بَرَاعَةُ إِيجَازِ الْقَصْرِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾:

مِنْ صُوَرِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ تَنْوِيعُ الْمَعَانِي مَعَ وَجَازَةِ الْمَبَانِي

قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، أي: أَعْرِضْ عَن مُعاقبتهم، وكذا عن شَغْلِ البالِ بِهِم، وكذا عَن قَبُولِ أَيْمَانهم الكاذِبَة[3]، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: خاليًا بهم لَيْسَ مَعَهُم غَيْرُهما[4].

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/527، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/16.
(2) البناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 1/173.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/73.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.

أمَّا قوله تعالَى: ﴿قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾، فالمرادُ: قُلْ لَهُم قولًا مُؤَثِّرًا فيهم، يَبْلُغُ منهم مَا يَزْجرُهم عَنِ العَوْدَةِ إلى مَا فَعَلُوا[1] بَالِغًا إلى أَنْفُسِهم مُتَغَلْغِلًا فيها[2]، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ الزَّجرَ والرَّدعَ والكفَّ بالبلاغةِ مِنَ القَوْلِ، أو أنَّه تَوَعُّدٌ لهُمْ بالقَتْلِ إن اسْتَدامُوا على حا النِّفاق[3]، وتعدُّد المعاني المُحْتَملةِ مع صحَّةِ الحَمْلِ على جميعِهَا هُو ضربٌ من ضرُوبِ الإيجَازِ؛ فإنَّ الآيةَ دلَّت على معانيَ متكاثرَةٍ بألفاظٍ يسيرَةٍ.

نُكْتَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾:

تَصْوِيرُ تَبْكِيتِهِمْ فِي صُورَةٍ مَحْسُوسَةٍ مُشَاهَدَةٍ

في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾ مجازٌ مُرْسَلٌ علاقتُهُ: المَلْزُوميَّةُ؛ إذْ إنَّ حقيقَةَ الإعرَاضِ الرَّفضُ وعدَمُ الالْتِفاتِ، فَعُبِّرَ عنْهُ بملزوم مَعْنَاهُ وأُريدَ اللَّازِمُ، فالَّذي لا يَلْتَفِتُ إلى الشَّيءِ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْهُ، وَوَجْهُ اختيارِ التَّعبير بالمجاز في فعل الْإِعْرَاضِ: التَّصويرُ الْحَركيُّ فيها بِمَا يُنْبِئُ عَن تَبْكِيتِهِم[4].

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾:

أَهَمِّيَّةُ الْعِنَايَةِ بِإِصْلَاحِ الْأَنْفُسِ

يجوزُ أن يكونَ قَوْلُهُ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ متعلِّقًا بقَوْلِه: ﴿بَلِيغٗا﴾، وإنَّما قُدِّم الجارُّ والمَجْرُورُ؛ اهْتِمَامًا بإصْلَاحِ أَنْفُسِهم، وفيه تهديدٌ لَهُمْ عَلَى وَجْهٍ يبلُغُ صَميمَ قُلوبِهم، معَ مَا في هَذَا التَّقديم من مُرَاعَاةِ التَّناسُبِ الصَّوْتِيِّ في الْفَاصِلَةِ؛ إذْ لَوْ أُخِّرَ لَفَاتَ ذَلكَ التَّناسُبُ[5].

انْطِوَاءُ نُفُوسِ الْمُنَافِقِينَ على الْمَذَامِّ وَالْمَخَازِي

ويجوزُ أنْ يَتعلَّقَ الجارُّ والمجرُور ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بفِعل القَوْلِ - ﴿وَقُل لَّهُمۡ﴾ - ، أي: قُلْ لَهُم قولًا في شأنِ أَنْفُسِهم، وعلى هذا فيكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ بمنزِلَةِ الشَّرحِ لِلْوَعْظِ المذكورِ قبلُ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/691.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/108.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 2/73.
(4) البناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 2/421.
(5) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/527، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/108.

في قَوْلِه: ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾، وفيهِ ذِكْرٌ لِأهمِّ ما يَعظُهم فِيه، وهُوَ نُفُوسُهم الَّتي عَلِمَ اللَّه تعالَى مَا انطوتْ عليهِ مِنَ المذامِّ، وعلى هذا فَيَكُونُ المُرَادُ الوعظَ وما يَتعلَّق به[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾:

النَّصِيحَةُ فِي السِّرِّ أَقْوَى تَأْثِيرًا فِي نَفْسِ المَنْصُوحِ

قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أَيْ: قُل لَهُمْ خَاليًا بِهِم، بحيثُ لَا يَكُونُ مَعَهُم أَحَدٌ مِن غيرِهِم؛ لأَنَّهُ أَدْعَى إِلَى قَبُولِ النَّصيحة، وذلكَ رجَاءَ هِدَايَتِهم وإسلامِهم.

وفي التَّعبيرِ بـ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بدلًا مِنْ (خَاليًا بِهِم) يُرْشِدُ إِلَى مَعَانٍ شتَّى تُعَاضِدُ الموقِفَ وتصوِّره؛ لِمَا في حَرْفِ الجرِّ (في) من مَعْنَى الظَّرفيَّةِ المفيدَةِ الكِتْمَانَ المُنَاسِبَ لِحَالِ النِّفاقِ وحالِ النُّصْحِ معًا[2].

نُكْتَةُ التَّتْمِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾:

تَعْظِيمُ شَأْنِ القَوْلِ المُتَضَمِّنِ النُّصْحَ وَالتَّوْجِيهَ

وُصِفَ القولُ بكونِهِ بليغًا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾، والمَعْنَى: قولًا يَبلُغُ إِلَى قُلُوبِهِم أَلَمُهُ، أو بَالِغًا[3] في زَجْرِهِمْ، ولكن لَمَّا كان المُرادُ تَعْظِيمَ هذا القولِ لاحْتِوَائِهِ عَلَى النُّصحِ والتَّوجِيهِ؛ جِيءَ بِهَذَا التَّتْمِيمِ، لِيَزِيدَ المَعْنَى تَمكُّنًا وَبَيَانًا[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْوَعْظ والنُّصْح:

الوَعْظُ تَذْكِيرٌ بِالخَيْرِ مَعَ زَجْرٍ وَتَخْوِيفٍ، والنُّصْحُ أَعَمُّ

الوَعْظُ: هُو التَّذكير بالخَيْرِ فِيمَا يَرِقُّ له القَلْبُ، ومِنْهُ المَوْعِظَةُ، يُقالُ: وعَظَهُ يَعِظُهُ وَعْظًا وعِظَةً وموعِظَةً، أي: ذكَّره بما يُلَيِّنُ قلبَهُ مِنَ الثَّوابِ والعقابِ، فاتَّعظ[5]، فَهُو تذكيرٌ مُقْتَرِنٌ بِتَخْوِيفٍ[6].

---

(1) ابن المنيِّر، الانتصاف: 1/527، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/108.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/67، والبناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 2/456.

(3) على هذا الوجهِ يجوزُ أن يكون في الآية مجازٌ عقليّ، علاقته الفاعليَّة، ويُخَرَّجُ الكلامُ على معنى تعظيم النُّصح والتَّوجيه أيضًا.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/708.

(5) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (وعظ).

(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (وعظ)، والجرجانيّ، التعريفات، ص: 253.

أمَّا النَّصِيحَة؛ فَهِيَ كلمَةٌ جامِعَةٌ لِحِيَازَةِ الْحَظِّ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ[1]، وَهِي مَأْخُوذَةٌ مِن النُّصْح، وهُوَ إِخْلَاصُ العمَلِ عَن شَوَائِبِ الفَسادِ[2]، فالنَّصِيحَة أعمُّ مِن المَوْعِظَةِ؛ إذْ هِيَ دُعَاءٌ إِلَى مَا فِيهِ الصَّلاح، ونهيٌ عَمَّا فيه الفسَادُ[3].

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصح).

(2) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 241.

(3) المناويّ، التَّوقيف، ص: 325.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤﴾ [النساء: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّرْغِيبُ فِي طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ تَبْكِيتِ المُنَافِقِينَ وَفَضْحِهِمْ

لَمَّا أمَرَ اللهُ ﷻ بطاعة الرَّسولِ ﷺ في قَوْلِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّساء: 59]، ثمَّ حكى أنَّ بعضَهم تحاكَمَ إلى الطَّاغوتِ ولمْ يَتَحاكَمْ إلى الرَّسولِ ﷺ، وبيَّن قُبحَ طريقِه وفسادَ منهجِه؛ رغَّب بهذه الآية مرَّةً أخرى في طاعةِ الرَّسول ﷺ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾: أصلُ الظُّلم: الجَوْرُ ومُجاوَزَة الحدِّ، ثمَّ كَثُرَ ذَلِك، حَتَّى سُمِّي كلُّ عَسْف: ظُلمًا، والظُّلم: وَضْعُ الشَّيءِ في غير مَوْضِعِه الَّذي يَحِقُّ أَنْ يُوضَعَ فيه، يُقال: ظَلَمَ يَظْلِمُ ظَلْمًا وظُلمًا، فهو ظالمٌ وظلومٌ، وأوَّل مَا يَهُمُّ الإنسان بالظُّلمِ، فقد ظَلَمَ نَفْسَهُ[2].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

سَعَةُ مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ بِالْعِبَادِ؛ حَيْثُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ المُخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ إِذَا تَابُوا

وما بعَثْنَا من رَسُولٍ من رُسُلِنا إلَّا ليُستجابَ لَهُ، بأَمْرِ اللهِ تعالى وقضائِه، ولَوْ أنَّهم حينَ ظلَمُوا أنفسَهُم بارْتِكَاب المَعاصي جَاؤُوك - أيها الرسول ﷺ - في حَياتِكَ مُقرِّين بِمَا ارْتَكَبُوه نادِمينَ تائِبينَ،

(1) الرَّازي: مفاتيح الغيب: 10/124.
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/408، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 1/160.

وطَلَبُوا المغفرةَ مِنَ اللهِ تعالَى، وطَلَبَتِ المغفرةَ لَهُمْ؛ لَوَجَدُوا اللهَ ﷻ كَثِيرَ قَبُولِ التَّوبةِ رَحِيمًا بعِبَادِه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْقَصْرِ بِالنَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

التَّشنيعُ عَلَيهِمْ بِعَدَمِ إقْبَالِهِمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ

افتُتِحت هذهِ الآيَةُ الكَرِيمَةِ بتَمْهِيدٍ جَمَعَ بينَ النَّفي والاستِثْنَاءِ على طَرِيقَةِ القَصْرِ؛ لبيَانِ خَطَئِهِم باشْتِغَالِهِم بِسِتْرِ نَارِ جِنَايَتِهِم بهَشِيمِ اعتذَارِهِم البَاطِلِ، وعدمِ إطفائها بمَاءِ التَّوبةِ، أي: ومَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا مِنَ الرُّسل لشَيْءٍ من الأشياء إلَّا ليُطَاعَ بِسَبَبِ إِذْنِهِ تعَالى، وأمْرِهِ المُرْسَلَ إليهِم أَنْ يُطِيعُوه؛ لأنَّه مُؤَدٍّ عَنْهُ عَزَّ شأنُه، فطاعَةُ الرَّسُولِ طَاعَةٌ للّهِ تعالَى ومَعْصِيتُه مَعْصِيَتُهُ[2].

والقَصْرُ هُنا قَصْرُ الغايَةِ مِن إرْسَالِ الرُّسلِ - وهو المَوْصُوف- على أَمْرِ الطَّاعةِ بِإِذْنِ اللّهِ تعالَى - وهي الصِّفة - ، والنُّكْتَةُ في التَّعبيرِ بالقصْرِ: النَّعْيُ عليهم في غَفْلَتِهِمْ عَنْ هذا الأَمْرِ البَيِّنِ، فأُنْزِلُوا مَنْزِلَةَ الجاهِلِ الَّذي يُناسبه اسْتِخْدَامُ (مَا) وَ(إلَّا)؛ لأَنَّ حالَهم تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بذلك[3].

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظَةِ الْإِذْنِ وَنُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

بَيَانُ وُجُوبِ طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَبَيَانُ جَلَالَتِهِ وَعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ

الإِذْنُ في قولِهِ تعالَى: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ بمعنَى الأَمرِ، وحَسُنَتِ العبارَةُ بالإِذْنِ دونَ الأمرِ؛ إذْ بالإِرْسَالِ تَجِبُ طَاعَتُه؛ وإن لم يَنُصَّ علَى الأمرِ بذَلِك.

(1) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 120، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/68.
(3) البناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 2/321.

ويَصِحُّ تَعَلُّق الباءِ مِنْ قَوْلِه: ﴿بِإِذْنِ﴾ بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والمعنى: وما أَرْسَلْنَا بأمْرِ اللّه، أي: بشَريعَتِه وعبادَتِه من رَسُولٍ إلّا ليُطاع، ويجُوزُ تَعَلُّقها بـ ﴿لِيُطَاعَ﴾، وهو الأظْهَرُ، والمَعْنَى: ومَا أَرْسَلْنَا من رسُولٍ إلّا ليُطاع بأمْرِ اللّه بطاعتِه أو بتَيْسِيرِه وتوفِيقِه سُبْحَانَهُ في طَاعَتِه[1].

وفي قولِه: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تَنْبِيهٌ على جَلَالَةِ الرُّسل، فطَاعَتُهُم جاءَت بِأَمْرِ اللّهِ تعالَى، فمَن خَرَجَ عَن طَاعَتِهم، أو رَغِبَ عَن حُكْمِهم؛ خَرَجَ عن حُكْمِنا وسنَّتنا، وارتَكَبَ الآثام، فَسُنَّتُنا في هذا الرَّسول كسُنَّتنا في الرُّسل قبله، وأنت - يا أيُّها الرَّسولُ - مِنْهُم، تَجِبُ طاعتُك، وتَتَعيَّن إجابَةُ الدَّعوةِ إِلَيْكَ[2].

وفي قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ الْتِفاتٌ مِنَ التَّكلُّم إلى الغَيْبَة؛ فإنَّ قولَه: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ أسلوبُ تكلُّم، وكان مُقْتَضَى الظَّاهر أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (وما أَرْسَلْنَا من رَسُولٍ إلّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِنَا)، لَكِنْ عُدِلَ عنه إلى الغَيْبَةِ في قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾؛ إذِ الاسْمُ الظَّاهر بمنزلة الغائِب، والنُّكْتَةُ في هذا العدُولِ: مَا فيه من إظْهَار الاسْم الأحْسَنِ (اللّه)، فإنَّ في التَّصريح به إيماءً إلى تعظيم شَأْنِ الإِذْنِ وإظْهَار مكانَةِ الرَّسُولِ المَأْمُورِ بطَاعَتِه[3].

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِالْحَرْفِ (لَوْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ﴾:

بَـيَـانُ أَنَّ غَـضَـبَ الـلـهِ تَـعَالَى عَلَيْهِمْ كَـانَ بِـسَـبَـبِ مُـخَـالَـفَـتِـهِـمْ وَتَرْكِهِمُ التَّوْبَةَ

جَاءَ مَطْلَعُ هذِه الآيَةِ الكَريمَةِ - وهو قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ - تَوْبِيخًا لِلْمُنَافِقين؛ لأنَّهم لَمْ يَكْتَفُوا بإعراضِهِمْ عَن تَحْكِيم الرَّسولِ ﷺ، حتَّى زَادُوا فَصَدُّوا عمَّن قالَ لَهُمْ: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، فناسَبَ ذلكَ مَجيءُ أسلُوبِ الشَّرط بعدَها؛ ليكونَ ذلك بيانًا لِسَبَبِ غضَبِ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ وهو رَحْمَنٌ رَحِيمٌ، فَلَوْ أنَّهم اسْتَفَاقوا حينئذٍ من غُلْوائِهِمْ؛ لَعَلِمُوا أنَّ إرادتَهُم التَّحاكُمَ إلى الكفَّار والكَهَنَةِ جَريمةٌ يَجِبُ الاستغفارُ مِنْهَا، ولكنَّهم

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/74، والآلوسي، روح المعاني: 3/68.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/74، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 6/175.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/68.

أصرُّوا وَاستَكبَرُوا، وفي ذِكرِ (لَوْ) وجَعلِ ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ جوابًا لها: إشارَةٌ إلَى أنَّهم لمَّا لم يَفعَلوا؛ حُرِموا الغُفْران[1]، ولذا جاء تَعليقُ الشَّرط بالحَرْفِ (لَو).

نِكَاتُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾:

تَفخِيمُ شَأنِ شَفَاعَةِ النَّبيِّ ﷺ وإيرَادُ عِلَّةِ قَبُولِهَا

جاءَ الِالْتِفاتُ في قولِ اللّهِ تعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، وكان مقتضَى الظَّاهرِ: (وَاستَغفَرْتَ لَهُمْ) بأسلوبِ الخطاب؛ ليكون مطابقًا لأسلوب الخطاب في قوله قبلُ: ﴿جَآءُوكَ﴾، والنُّكْتَةُ في هذا الالتفاتِ إجلالُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ لِمَا في هذا الاسم الظَّاهرِ من التَّشريفِ والتَّنويه بوصْفِ الرِّسالة، وأنَّهم إذا جاؤوك؛ فقد جاؤوا مَن خَصَّهُ اللّه تعالَى برِسَالَتِه، وأكْرَمَهُ بوَحْيِه، وجعله سفيرًا بينَهُ وبينَ خَلْقِه، ومَن كانَ كَذلِكَ؛ فإنَّ اللّه تعالَى لا يَرُدُّ شفاعَتَهُ، وهذا ما دعَا إلى العُدُولِ عَنْ لَفظِ الخِطَابِ إلى لَفظِ الغَيْبَةِ[2]، ففيهِ تَفْخِيمٌ لِشَأنِ رَسُولِ اللّه ﷺ، فهو كقولِهم: حَكَمَ الأميرُ بِكَذا، بدلًا مِنْ: حكمت.

وفيهِ تَنْبيهٌ على أنَّ شَفاعةَ مَن اسمُه الرَّسولُ مِنَ اللّهِ تعالَى بمكانٍ، وإيماءٌ إلَى أنَّ مِن حقِّ الرَّسولِ أنْ يَقبَلَ اعتذارَ التَّائِبِ - وإنْ عَظُم جُرمُه - ويَشْفَعَ له، وأنَّ مِن مَنْصِبه أنْ يشفعَ في كبائرِ الذُّنوب، وعلى أنَّ هذا الوَصْفَ الشريفَ - وهو إرسالُ اللّهِ إيَّاه - موجِبٌ لطاعتِه، وتعظيمٌ لاستغفارِهِ وشَفَاعَتِهِ عليه الصلاة والسلام؛ حيثُ أَسْنَدَهُ إلَى لفظِ مُنْبِئٍ عَن علوِّ مرتبتِه، فيكُونُ فيهِ مع تفخيمِ شأنِ تلكَ الشَّفاعةِ: إيرادٌ لِعِلَّةِ قبولها[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/110.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/127.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/68.

إِظْـهَـارُ مَـزِيَّـةِ الِاسْتِغْفَارِ إِذَا كَـانَ صَـادِرًا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ

وفي هذا النَّوعِ مِن الالتِفاتِ خصوصيَّةٌ؛ وهي اشتمالُه على ذِكرِ صِفةٍ مناسبةٍ - وهيَ الرِّسالةُ - لِمَا أُضِيف إليهِ - وهُوَ الاسْتِغْفَارُ لِمَن عَظُمتْ ذُنوبُهم - ، وذلك زائدٌ على الالتِفاتِ بذِكرِ الأعلام[1]، فدَلَّ على أنَّ هذا الاستغفارَ لَهُ مَزيَّةٌ، وهي كونُه صادرًا عَنِ الرَّسولِ بوَصْفِه رَسُولًا.

بَيَانُ أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِـنْ حُـقُـوقِ الرِّسَالَةِ

كمَا أنَّ مِن نِكَات هذَا الِالْتِفَاتِ وضْعَ الاسمِ الظَّاهِرِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ موضِعَ الضَّمِير، وهو مُشْعِرٌ بأنَّ حقَّ الرَّسولِ ﷺ عَلَيْهِمْ في التَّحاكُم إليه، إنَّما كان له بأنَّه رسولُ اللّه، وأنَّه مأمورٌ بأنْ يحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بما أراه اللّه في وحْيِه، وما هَدَاهُ إِلَيْهِ في اجْتِهَادِه، ولو أنَّهم اعتَدَوْا في مَعْصِيتِهم على حقوقِه الشَّخصيَّةِ، كأكْلِ شيءٍ مِن مَالِه بغيرِ حقٍّ؛ لقَالَ: (وَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ)، فإنَّ التَّوبةَ عنِ المعاصِي المتعلِّقةِ بحقوقِ النَّاس لا تكونُ مقبولةً ولا صحيحةً إلَّا بعدَ استرضاءِ صاحِب الحقِّ، وهذا أظهرُ مِن جَعْلِ نُكتةِ وضْعِ الظَّاهِر موضِعَ الضَّمير إجلالَ منصبِ الرِّسالةِ، والإيذانَ بقَبولِ استغفارِ صاحِب هذا المنصِب الشَّريفِ، وعدمِ ردِّ شفاعته؛ لأنَّ المنصِبَ هُوَ هُوَ في شَرَفِهِ وعُلوِّه، ولكنَّ اللّه لا يَغفِرُ لِلْمُنافقينَ؛ إذا لَمْ يَتُوبُوا - وإنِ استغفرَ لهم الرَّسولُ - ؛ لأنَّ اللّه تعالى قالَ لَهُ فِيهِمْ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾ [التَّوبة: 80][2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾:

حَـصْـرُ مَـنْـفَـعَـةِ هَـٰذَا الِاسْتِغْفَارِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِمْ وَتَـرْغِـيـبُـهُـمْ فِي تَحْصِيلِهِ

في تَقْدِيم الجارِّ والمجْرُورِ ﴿لَهُمُ﴾ على الفَاعِلِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ في قولِه تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ دلالةٌ على قَصْرِ مَنْفَعَةِ هذا الاسْتِغْفَارِ العَظِيمِ عَلَيْهِم، فقد قُصِرَ استِغْفَارُ الرَّسولِ ﷺ - وَهُوَ صِفَةٌ -

(1) ابن المنيِّر: الانتصاف: 1/528، والسمين، الدُّرُّ المصون: 4/18 - 19، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/81.

(2) رضا، تفسير المنار: 5/190.

عليَهم، وهُم مُتَّصفون بِهِ قَصْرًا إضافيًا ممَّا فيهِ زيادةُ تَرْغِيبٍ لَهُمْ في طَلَبِهِ والحِرْص علَيْه، كَمَا يدلُّ على عِظَم مَنْفَعَتِهِم بِهِ[1].

دِلَالَةُ التَّذْيِيلِ بِذِكْرِ وَصْفَي التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ:

تَرْغِيبُ السَّامِعِينَ فِي الْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَتَنْدِيمُ الْمُنَافِقِينَ بِفَوَاتِ هَذِهِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمِ

هذا التَّذييل دالٌّ على الجَزْم بأنَّ اللهَ تعالى يَقبل توبةَ التَّائب مَهْمَا عَظُمَ ذَنْبُه؛ لأنَّه سُبحانَهُ لَمَّا ذكر عَنْهُمُ الاِسْتِغْفَارَ؛ قالَ بعدَهُ: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، أي: مُبالغًا في قَبُولِ تَوْبَتِهِم والتَّفضُّل عليهم بِالرَّحْمَةِ[2]، وهذا الجوابُ فِيهِ فضلُ ترغيبٍ للسَّامعين في المُسَارَعَةِ إلى التَّوبة والاِسْتِغْفَارِ، ومزيدُ تَنْدِيمٍ لأولئك المنافقِين عَلَى مَا صَنَعُوا؛ لأنَّ ظهورَ تباشيرِ قَبولِ التَّوبةِ وحصُولَ الرَّحمةِ لهم ومُشَاهَدتهم آثارَهُما: نعمةٌ زائدةٌ عليهما، موجبةٌ كمالَ الرَّغبةِ في تحصيلها وتمام الحسرةِ على فَوَاتِها[3]، وفيه إيذانٌ بفَخَامَةِ القَبُولِ والرَّحمة[4].

الفُروقُ المُعجَمِيَّة:

الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ:

الطَّاعَةُ مُطْلَقُ الِانْقِيَادِ، وَالْعِبَادَةُ الْخُضُوعُ لِلهِ تَعَالَى مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا

الطَّاعَةُ: الاِنْقِيَادُ، وهِيَ الفعلُ الواقعُ على حَسَبِ ما أرَادَهُ المريدُ، إذَا كَانَ المُرِيدُ أَعْلَى رُتْبَةً مِمَّن يَفْعَلُ ذلك، يُقال: طَاعَهُ يَطُوعه؛ إذا انقادَ مَعَهُ، ومَضَى لأَمْرِه، وأكثرُ ما تُطلَقُ الطَّاعةُ علَى الِائْتِمَارِ لِمَا أُمِرَ[5].

والعِبَادَةُ: هِي غايةُ الخضُوعِ مع المحبَّة والتَّعظيم، ولا تُسْتَحَقُّ إلَّا بغايةِ الإِنْعَامِ، ولهذَا لا يَجُوزُ أن يُعْبَدَ غيرُ اللهِ تعالى، ولا تكون العِبَادَةُ إلَّا مع المعرفة بِالْمَعْبُودِ، ولا تكون إلَّا لِلْخَالِقِ، كمَا قالَ تَعَالَى:

(1) البناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 2/326.

(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/127 وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/68.

(5) ابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفردات: (طوع)، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 221.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: 3]، فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ(1).

فالطَّاعة: هي مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ، وهِيَ أعمُّ مِنَ العِبَادَةِ؛ لأنَّ العبادةَ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهَا في تَعْظِيمِ اللهِ تعالَى غايةَ التَّعظيم(2).

(1) ابْنُ تَيْمِيَّة، مَجْموعُ الفَتاوى: 3/108.
(2) الكُفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 583.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْـرُ مُوجِبَاتِ الإِيمَانِ بَعْدَ ذِكْرِ مَوَانِعِهِ

لَمَّا ذكَرَ اللهُ ﷻ: أنَّ إباءَ المنافِقِينَ لقبولِ حُكْمِ النَّبيِّ ﷺ والاعترافِ بالذَّنب لَدَيْه سببٌ مانِعٌ لَهُم مِنَ الإيمانِ؛ قال مُؤكِّدًا الكلامَ غايةَ التَّأكيد بالقَسَم المُؤكِّد لإثبَاتِ مَضْمُونِه[1]: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾، فليسَ الأَمْرُ كمَا يَزْعُمُونَ مِن أنَّهم آمَنُوا، وهُم يُخَالِفُون حُكْمَه[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾: أَصْلُ (شجر) تدلُّ علَى تداخُلِ الشَّيءِ بَعْضِه في بعضٍ، وسُمِّيَ الشَّجَرُ: شَجرًا؛ لدُخُولِ بعضِ أَغْصَانه في بعضٍ، والشِّجار والمشاجَرَة والتَّشاجُرُ: المُنَازَعَةُ، وشَجَر بينَهُم الأَمرُ يَشْجُر شَجْرًا؛ إذا تَنَازَعُوا فِيه، واختلَط بَيْنَهُمْ، وكُلُّ شيءٍ خالَف بَعْضُه بَعْضًا؛ فقَدِ اشْتَبَكَ واشْتَجَرَ، وقولُه تَعالَى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ معنَاهُ: فِيمَا اخْتلَفُوا فيه[3].

2) ﴿حَرَجٗا﴾: أَصلُ الحَرَجِ: تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه، وقَدِ استُعمِلَ في الشَّكِّ؛ لأَنَّ النَّفْسَ تَقلقُ مِنْه، ولَا تَطمَئنُّ، والحَرَج أيضًا: الإثْمُ؛ لأنَّه يُوقِعُ في الضِّيق، والحَرَجُ: الضِّيق، وَمَكانٌ حَرِجٌ وحَرِيج: ضَيِّق، ورَجل حَرَج وحَرِج: ضَيِّقُ الصَّدْر، وقولُه سُبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ أَيْ: شكًّا وضِيقًا[4].

(1) البِقاعي، نظم الدُّرر: 5/317.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 6/177.
(3) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 130، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (شجر)، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 67، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 140.
(4) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 130، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور: لسان العرب، والزَّبيديّ: تاج العروس: (حرج).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فَوَرَبِّكَ، لا يُعَدُّونَ مُصدِّقين بالحقِّ مُذْعِنِينَ لَهُ حقًّا؛ حتَّى يتحَاكَمُوا إلَى الرَّسولِ ﷺ في حيَاتِه، وإلى شَرْعِه بعدَ وفَاتِه، في كلِّ ما يَحْصُلُ بينَهُم مِن خِلَافٍ، ثُمَّ يَرْضَوْا بِحُكْمِ الرَّسُولِ ﷺ، ولا يكُونُ في صُدُورِهِم ضِيقٌ مِنْهُ، ولا شَكٌّ فيه، ويُذْعِنُوا لَكَ إذعَانَ المُؤمِنِين المصدِّقين بانْقِيَادِ ظَوَاهِرِهم وبَوَاطِنِهم[1].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَقْدِيمِ النَّفْيِ عَلَى الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾:

تَقْدِيمُ النَّفْيِ وَتَكْرَارُهُ اهْتِمَامٌ بِهِ وَتَقْوِيَةٌ لَهُ

صُدِّرتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ بِنَفْيِ أَصْلِ إيمَانِ المُنَافِقين، وهذا ما أفادَهُ تَقْدِيمُ حَرْفِ النَّفي (لا)[2]، ثُمَّ إتباعه بالقسَم وجوَابِه، وقُدِّم حرْفُ النَّفي (لَا) على القسَمِ؛ اهتمامًا بالنَّفي، ثُمَّ كُرِّرَ بعدُ توكيدًا[3]، وأصلُ الكَلَامِ: (فَوَرَبِّك لا يُؤْمِنُون)، والعَرَبُ تَأْتِي بحرفِ النَّفي قبلَ القَسمِ؛ إذا كان جوابُ القسم مَنفيًّا؛ للتَّعجيلِ بإفادةِ أنَّ ما بعدَ حرْفِ العطفِ قَسَمٌ على النَّفي لِمَا تضمَّنَتْه الجملةُ المعطوفُ عليها؛ فتقديمُ النَّفي يُرَادُ بِهِ الاهْتِمَامُ بالنَّفي، ويكثُر أن يَأْتُوا مع حرْفِ النَّفي بعدَ العاطفِ بحرفِ نفيٍ مِثلِه في الجواب؛ لِيَحْصُلَ مع الاهتمامِ التَّأكيدُ، فتقديم حرفِ النَّفي على القسَمِ في قَوْلِه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ اهتمامٌ بالنَّفي وإظْهَارٌ لِقوَّته[4].

---

(1) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 120، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

(2) ذهب بعضُ أهلِ العلم إلى أنّ: (لا) مزيدةٌ لتَّأكيد معنى القَسَمِ لا لتأكيد النَّفي في جوابه، لأنَّها تُزاد في الإثبات أيضًا، كقوله تعالى: {فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم} [الواقعة: 75]، وهذا ما اختاره الزَّمخشري وجماعةٌ في: (لا) التي تُذْكَر قبلَ القسم، وقال جماعةٌ مِنَ العلماء: هِيَ مَزِيدَةٌ لتأكيد النَّفي في الجواب، ولتأكيد القَسَمِ إن لم يكن نَفْي، وهو الأظهر: يُنظر: الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/528، والآلوسي، روح المعاني: 3/68.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/528 - 529، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/692 - 695، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197.

(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/74، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/110.

تَعظِيمُ قَدرِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَعظِيمُ حُكمِه

نُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

في قولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ التفاتٌ من الغَيْبَةِ إلى الخطاب، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أسلوبُ غَيْبَةٍ؛ لِمَا تَقرَّر من أنَّ الاسمَ الظَّاهِرَ بمنزِلَةِ الغائِب، ثُمَّ نُقِلَ الكلامُ إلى الخطابِ في قوله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾، و﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، والسِّرُّ فيه: تعظيمُ النَّبيِّ ﷺ، وزادَهُ تعظيمًا إضافةُ اسم (الرَّبِّ) إلى كافِ الخِطاب[1]، فلا أحَدَ يَبْلُغُ مَنزلتَه ﷺ هذه، وفيهِ زيادةُ تأكيدٍ على حَاجَتِهم جَميعًا لتَحْكيمِهِ ﷺ في كافَّة أمُورِهم.

وجِيءَ بِصِيغَةِ التَّحكيم مع أنَّه عليه السلام حاكمٌ بأَمْرِ اللّهِ سُبْحَانَهُ إيذانًا بأنَّ حقَّهم أن يَجعَلُوهُ حَكَمًا فيما بَيْنَهُم، ويرْضَوا بِحُكمِه[2].

ولهَذَا فإنَّ مَن عَدَلَ عَنْهُ إلى سِوَاهُ في الْحُكْمِ؛ فقد عدَلَ عَنِ الكَمَالِ إلَى النَّقص، وهذا ما يُوجِبُ إِخْرَاجَهُ مِنَ الإيمان، والإيمانُ رأسُ مالِ الصَّالِحين من عِبادِ اللّهِ تعالَى، حتَّى تحصُلَ لهم غايةٌ مِن أشرفِ الغايات، وهي اللُّجوءُ إلى رسولِ اللّه ﷺ وتحكيمُه فيما نشَب بينَهُم من خِلافٍ[3]، وهذا الحُكْمُ لا يَقْتَصِرُ على مُعَاصِرِي النَّبيِّ ﷺ، بل يَدْخُلُ فِيهِ الخلقُ كافَّةً في كلِّ زمانٍ ومكَانٍ[4].

نُكْتَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾:

في قَوْلِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه عَطْفُ جُمْلَةِ:

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/692 - 695.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/559، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/250.
(4) الآلوسِّي، روح المعاني: 3/69.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾، فإنَّها معطوفةٌ على مقدَّر يَنْسَاقُ إليهِ الكلامُ، والمَعْنَى: حتَّى يحكِّموك، فتَقْضِيَ بَيْنَهُم، ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفسِهم حرجًا ممَّا قضيت، وفي قوله: ﴿قَضَيۡتَ﴾ حذفُ آخَرُ؛ وهو ما يَطْلُبُه الفِعْلُ مِن مَعْمُولٍ، والتَّقديرُ: (قَضَيْتَ بِهِ)، أو (مِنْ قَضَائِكَ)، والقيمةُ البلاغيَّة مِن ذلك تَكْمُن في دِلَالَةِ الكلام بَعْضِهِ على بعضٍ بحَيْثُ يَبْدُو المحذُوفُ ظاهرًا مُحَقَّقًا في الذِّهن، فلَمْ تَكُنْ ثَمَّتَ حاجةٌ إلى التَّصريح بلفظِهِ(1).

تَحْقِيقُ الْمَعْنَى فِي الذِّهْنِ يُغْنِي عَنِ التَّصْرِيحِ بِلَفْظِهِ الدَّالِّ عَلَيْهِ

بَرَاعَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾:

قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾، أَيْ: فِيمَا اخْتَلَفَ بينهُم مِنَ الأُمُورِ واخْتَلَط، ومنْهُ سُمِّيَ الشَّجرُ شجرًا؛ لتَدَاخُلِ أَغْصَانِه، وقِيلَ لِلْمُنَازَعَة: تَشاجُرٌ؛ لأَنَّ المُتنازعين تَخْتَلِفُ أقوالُهم، وتتعارض دعَاويهم، ويخْتَلط بعضُهم ببَعْضٍ(2)، فاسْتُعِيرَ مَا اشْتَبَكَ وتضايَقَ مِنَ الشَّجرِ لِلْمُنَازعَة الَّتي يدخُلُ بِها بعضُ الكلامِ في بعضٍ، مِنْ باب اسْتِعَارَةِ المَحْسُوسِ لِلْمَعْقُولِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصريحيَّة، ثُمَّ استُعملَ اللَّفْظُ عَامًّا في كُلِّ أمرٍ وقَعَ بَينهم فِيهِ نِزَاعٌ وَتَجَاذُبٌ(3).

تَصْوِيرُ التَّنَازُعِ وَاخْتِلَافِ الْأَقْوَالِ فِي صُورَةِ الْمُشْتَبِكِ الْمَحْسُوسِ

دِلَالَةُ حَرْفِ الْعَطْفِ (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾:

لَمَّا كانَ الإذعَانُ لِلْحُكْمِ بِمَا يُخَالِفُ الهوى في غايةِ الشِّدَّة على النَّفس؛ أشار إليه بأداةِ التَّراخي(4) (ثُمَّ) المُعَبِّرَة عَن أنَّ ما بَعْدَهَا أشدُّ ممَّا قَبْلَها؛ لأنَّ ما بعدها هُنَا: هُو مُخالفةُ الهَوَى والإِذْعَانُ بِمَا يُطابقُ رَغْبَةَ النَّفس، فالمقصُودُ: تعليقُ إيمَانِهم عَلَى تَحْكِيمِهم

بَيَانُ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتِمُّ بِمُجَرَّدِ التَّحْكِيمِ حَتَّى يَكُونَ صَادِرًا عَنْ رِضًا وَاطْمِئْنَانٍ وَطِيبِ نَفْسٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/558، والبناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 2/336.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/69.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/695.

(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 5/317.

رَسُولَ اللّه ﷺ في مُشَاجَرَتِهِم واسْتِسْلَامِهِم التَّامِّ في قَبُولِ حُكْمِه عَن طِيبِ نَفْسٍ وَرِضًا، فلم يَكتفِ سبحانَه بذلك حتَّى قالَ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، فضمَّ إلى التَّحكيم أمرًا آخرَ، وهو عدمُ وجودِ أيِّ حرجٍ في صُدُورِهم، فلا يكون مجرَّدُ التَّحكيم والإذعانِ كافيًا، بل لا بدَّ أنْ يكون نابعًا مِن صُدورِهم، صادرًا عن رِضًا واطمئنانٍ وطِيب نفْسٍ، وهذا أجملُ تصويرٍ لِلْعَلَاقةِ الَّتي يجِبُ أنَّ تترسَّخَ بينَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنينَ[1].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾:

تَصْوِيرُ الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ بِالصُّوَرِ الْحِسِّيَّةِ أَقْرَبُ لِلْفَهْمِ وَأَعْلَقُ بِالذِّهْنِ

قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾، أي: ضِيقًا وشَكًّا؛ وَمِنْهُ قِيلَ للشَّجَرِ الْمُلْتَفِّ: حَرَجٌ وحَرَجَة، وجَمْعُهَا: حِرَاج[2]، وهِيَ هُنَا اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحيَّةٌ؛ حَيْثُ أُطْلِقَ اسمُ الحرَجِ الَّذي هو مِن وَصْفِ الشَّجَرِ إذا تَضَايَقَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذي يشقُّ على النَّفس؛ لِلْمُنَاسَبَةِ الَّتي بينَهُمَا، وَهُوَ الضِّيقُ في كُلٍّ[3]، وفي هذه الِاسْتِعَارَةِ إِخْرَاجُ الأَمْرِ الْمَعْنَوِيِّ في قَالَبِ الْمَحْسُوسِ؛ ليكونَ أَعْلَقَ بِالذِّهْنِ وأوضَحَ في الْفِكْرِ.

بَرَاعَةُ الْجِنَاسِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾:

بَيانُ أَنَّ التَّسْلِيمَ الْكُلِّيَّ لِشَرْعِ اللهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ، وَالانْقِيَادَ التَّامَّ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا هُوَ دَلِيلُ الْإِيمَانِ

قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، أي: يُذْعِنُوا إذعانًا تامًّا، وينقَادُوا ظاهرًا وباطنًا، انقيادَ الواثقِ المطمئنِّ إلى سَلامةِ موقفِ رَسُولِ اللّه ﷺ، وضُمَّ إلَى ﴿وَيُسَلِّمُوا۟﴾ المصدرُ المؤكِّدُ ﴿تَسْلِيمًا﴾ على طَرِيقَةِ الْجِنَاسِ الْمُغَايِرِ، فَـ ﴿تَسْلِيمًا﴾: مَصْدَرٌ مُؤَكِّد، أي: ويسلِّمون لِحُكْمِك تسليمًا لا يُدْخِلُونَ عَلى أنفسهم شكًّا ولا شُبْهَةً فيه[4]، وهو دليلُ الإيمانِ وعُنْوَانُه.

---

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/559، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/250.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/269.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/708.

(4) القنَّوجي، فتح البيان: 3/167.

وقد بيَّن اللّه تعَالَى في آيةٍ أُخرَى أنَّ قولَ المُؤمِنينَ مَحصُورٌ في هذَا التَّسليمِ الكلِّيِّ، والانقيادِ التَّامِّ ظاهرًا وباطنًا لِما حكَمَ بهِ ﷺ، وهِيَ قولُهُ تعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: 51][1].

والحَاصلُ: أنَّ اللّهَ ﷻ أقسَمَ في هذهِ الآيَةِ الكَريمةِ بنَفسِهِ الكَريمَةِ المقدَّسة، أنَّه لا يُؤمِنُ أحَدٌ حتَّى يحكِّم رَسُولَهُ ﷺ في جَميعِ الأمُورِ، ثُمَّ ينْقاد لِمَا حكَم بهِ ظاهرًا وباطنًا، ويُسَلِّمُ بِهِ تَسْلِيمًا كُلِيًّا من غير مُمَانَعَةٍ ولا مُدَافعَةٍ ولا منَازعَةٍ، وهكذا لا يَثْبُتُ الإيمانُ لعبدٍ حتَّى يقعَ مِنْهُ هذا التَّحكيمُ، ولا يَجِدُ حرجًا في صَدْرِهِ بمَا قضى عليه، والتَّسليمُ لحُكم اللّهِ تعالَى وشرعِه تسليمًا لا يُخَالِطُه ردٌّ، ولا تشوبُه شائبةٌ، فسُبْحَانَ قائلِ هذا الكلامِ[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْحَرَج وَالضِّيق:

الحَرَجُ أَخَصُّ مِنَ الضِّيقِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ وأَضْيَقُهُ

الْحَرَجُ: هُوَ الشَّديدُ الضِّيقِ في قَوْلِ أهل اللُّغة[3]، قَالَ الزَّجَّاج: (الحَرَجُ في اللُّغة: أَضْيَقُ الضِّيقِ)[4].

والحَرَجُ: ضِيقٌ لَا مَنْفَذَ فيه، مَأْخُوذٌ مِنَ الْحَرَجَة؛ وَهِيَ الشَّجَرُ الملتفُّ حتَّى لا يمكن الدُّخولُ فيه، ولا الخُرُوج مِنْهُ[5]، وقد اجْتَمَعَ اللَّفظانِ في قولِه تعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، فقد ذُكِرَ لَفظُ الضِّيق والحَرَج معًا؛ إِذْ إِنَّهُ لَمَّا لَم يَكُنْ لَفظُ الضِّيق وافيًا في بيانِ المَقْصُود؛ جِيءَ بلَفظِ الْحَرَجِ؛ لأنَّ في الحرَجِ مِنْ مَعْنَى شِدَّة الضِّيق، ما لَيْسَ في اللَّفْظِ الآخرِ، فالْحَرَجُ هُوَ المُتَزايِدُ في الضِّيق، فيكونُ أخصَّ مِنَ الضِّيق، فكلُّ حَرَجٍ ضِيقٌ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ[6].

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 1/246.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 1/559، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/250.
(3) الأزهري: تهذيب اللُّغة: (حرج).
(4) الزَّجاج: معاني القرآن وإعرابه: 2/290.
(5) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 305.
(6) السمين، الدُّرُّ المصون: 5/142.

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [النّساء: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أهميَّة الإذعان لأمر الله، ونُدرة استجابة المنافقين له

لَمَّا كانت هذه الآيةُ متَّصلةً بما تقدَّم من أمر المُنافقينَ، وترغيبِهم في الإخلاص، وتركِ النِّفاق[1]، وقد بيَّنت الآياتُ السَّابقةُ أحوالَ المُنافقينَ، وصفاتِ الإيمان، وأنَّ مَظهر قوَّة الإيمان إطاعةُ اللّٰه ورسولِه، والرُّجوعُ إلى الكتاب والسُّنَّة عند الاختلاف، وتحكيمُهما في كلِّ أمور الحياة الَّتي تحتاج إلى حُكْم وفصْلٍ؛ بيَّن في هذه الآيةِ: أنَّ الَّذين يُذعنون لأمر اللّٰه ونهْيه، حتَّى في النَّفس وتركِ الأهل، قليلون، وليسوا كثيرين، وهُمُ الَّذين تقومُ عليهم قوَّة الأمَّة[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱخۡرُجُواْ﴾: الخاءُ والرَّاءُ والجيمُ: أَصلان يدلُّ أحدُهما على النَّفاذِ عَنِ الشَّيءِ[3]، والخروج نقيض الدُّخول[4]، وخرج خروجًا: برزَ من مقرِّه، أو حالِه، سواء أكان المقرُّ دارًا، أم بلدًا، أم غير ذلك؛ بسببٍ من نفْسِه، أو بسببٍ خارج عنه[5]، والمُراد بالخروج مِنَ الدِّيار في الآية الكريمة: الهجرةُ مِنَ البلد منصرفين للجهاد في سبيل اللّٰه تعالى، والخروج مِنَ الأوطان إلى أماكنَ فيها استجابةٌ لأمرِ اللّٰه[6].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/129.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1746.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج)، والأَصْلُ الآخَر: الْخَرَج، وهو لَوْنَانِ بَيْنَ سَوَادٍ وَبَيَاض، يُقَال: نَعَامَةٌ خَرْجَاءُ وَظَلِيمٌ أَخْرَج، وهما أصلان يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، إلَّا أنَّ ابن فارس في "مقاييسه" سَلَكَ طرِيقَ التَّقسيم والتَّوضيح.
(4) الخليل، العين: (خرج).
(5) الرَّاغب، المفردات: (خرج).
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1747، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/204.

2) ﴿دِيَرِكُم﴾: الدَّالُ والواوُ والرَّاءُ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحداقِ الشَّيء بالشَّيء من حَواليه[1]، ومنه الدَّار: وهي كلُّ مَوضِع حلَّ به قومٌ، وهو اسمٌ جامعٌ للعَرْصَةِ، والبناء، والمحلَّة[2]، وهي المنزل، وسُمِّيت بذلك اعتبارًا بالحائط الَّذي يدور حولها، أو من كثرة حركات النَّاس ودورانهم فيها، وقد تُسمَّى بها - على التَّوسُّعِ - البلدة، والصُّقع، والدُّنيا، والقَبِيلة[3]، وكل ما جاء في القرآن بلفظ (دار) و(ديار) مضافًا؛ فهو من دُور هذه الدُّنيا[4]، والدِّيار في الآية الكريمة: هي مَحِلُّهم، ومَوضِعُ إقامتهم.

3) ﴿يُوعَظُونَ﴾: الواوُ والعينُ والظَّاءُ: كلمةٌ واحدةٌ، فالوَعظُ: التَّخويفُ، والعِظَةُ والموعظة الاسمُ منه: وهو تذكيرُك إيَّاه الخيرَ ونحوَه ممَّا يرقُّ له قلبُه، ويلينُ من ثَواب وعقاب[5]، والوَعظُ: النُّصحُ والتَّذكيرُ بالعواقب[6]، وهو أيضًا: زجرٌ مقترنٌ بتخويف[7]، ومن معانيه: ألَّا تُنشِئَ حُكمًا للسَّامع، بل تَعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبلُ[8]، وخلاصةُ المعنى: كلُّ كلام، أو عملٍ يُنَبِّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعلُه، أو ما هو مُقدِمٌ عليه ليتوقَّفَ عنه، وكأنَّ الأصل في معنى التَّركيب: أنَّه خاصٌّ بالزَّجر عمَّا له عواقب سيِّئة حسبُ، ثمَّ عُمِّم في الحضِّ على ما له ثوابٌ[9].

4) ﴿تَثْبِيتًا﴾: الثَّاءُ والباءُ والتَّاءُ: كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على دَوام الشَّيء، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا[10]، وتَثَبَّت في رأيه وأَمرِه؛ إذا لم يَعجَل، وتَأَنَّى فيه، واستَثبَتَ في أمره: إذا شاوَرَ، وفحص عنه[11]، والمعنى المحوريُّ للثَّبات هو: متانةُ ارتباط الشَّيء المتنقِّل بما لُزَّ به، أو قام عليه لا يتحَلْحَل، كما يرْسَخُ الرَّحل على ظهر الجَمل بالثَّبات، ومنه الثُّبوت في المكان رسوخًا حقيقيًّا[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(2) الخليل، العين: (دور).
(3) ابن سيده، المحكم: (دور)، والرّاغب، المفردات: (دار).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (دور - دير)
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ابن سيده، المحكم: (وعظ).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (وعظ).
(7) الرَّاغب، المفردات: (وعظ).
(8) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4348.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (وعظ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثبت).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ثبت).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ثَبَتَ).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾: التَّحْقِيقُ وَالتَّصْدِيقُ لِإِيمَانِهِمْ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الخيريَّة والتَّثبيت جزاء الطَّاعة، والاستجابة للموعظة

يخبرُ تعالى أنَّه لو فرَضَ على هؤلاءِ المنافقين - المتحاكمين إلى الطَّاغوتِ - الأوامرَ الشاقَّة على النُّفوس، نحو أنْ يأمرهم أن يَقتل بعضُهم بعضًا، وبالخروج مِنِ الأوطان لصعُبَ ذلك عليهم، ولم يفعله إلَّا الأقلُّون منهم، وحينئذٍ يظهر كفرُهم وعنادُهم، فلمَّا لم نفعل ذلك رحمةً منَّا على عبادنا، بل اكتفينا بتكليفهم في الأمور الهيِّنة اليسيرة، فليقابلوها بالإخلاص، وليتركوا التَّمرُّد، والكِبْرَ، والعناد حتَّى ينالوا خير الدَّارين[2]؛ فإنَّ جزاء قَبول الموعظة الخيريَّة في عاجل دنياهم، وآجل معادهم، والتَّثبيت لهم في أمورهم وأقوى لإيمانهم[3].

وترشد الآية الكريمة إلى: أنَّ المؤمن في الحقيقة من يسلِّم تسليمًا، وفي ذلك تنبيهٌ على قصورِ كثيرٍ منَ النَّاس ووهنِ إسلامهم[4]، وفي الآية أيضًا دليلٌ على صعوبة الخروج منَ الدِّيار؛ إذ قرنه اللّٰه تعالى بقتل الأنفُس[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ وصل الآية بما قبلَها:

المُفتتحُ توبيخٌ للمنافقين؛ لكثرة تلوُّنهم، وتحريضٌ للمؤمنين؛ لامتثال الأوامر

ابتدأ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ موبِّخًا المُنافقينَ، أي: لو شدَّدنا عليهم التَّكليف؛ لَمَا كان منَ العجب ظهور عنادهم، ولكنَّا رحمناهم بتكليفهم اليُسرَ، فليخلصوا، ويذروا عنادهم، وكِبْرهم، فإنَّها مناط الخيريَّة في الدَّارين[6]، وفي هذا توبيخٌ عظيمٌ[7]، ووجهه

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/246.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/129.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 8/528.
(4) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1307، والآلوسّي، روح المعاني: 5/73.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/297.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/129.
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/530.

أنَّه لا يمتثلُ أمرَ الله إلَّا القليلُ منهم[1]، وهي على هذا الوجه يصلحُ خطابُ المنافقين؛ لأن يكون تحريضًا للمؤمنين على امتثال الرَّسول، وانتفاء الحَرَج عنهم من أحكامه، فإنَّه سبحانه لم يكلِّف عباده إلَّا اليُسرَ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، كلُّ هذا محمول على أنَّ المُراد بقتل النُّفوس أن يقتل أحد نفسَه بنفسِه[2].

وجه التَّوبيخ التَّنبيه على ضعف إيمان المنافقين

نبَّه تعالى في هذه الآية على ضعف عقيدة المنافقين، ووهن إيمانهم، وهشاشة مبادئهم، فالمؤمنُ الحقُّ هو من يُذعِنُ لأمر خالقه، ويسلِّم فيما يأمر تسليمًا[3].

براعةُ المَقطعِ في مَطلَعِ الآية:

وجه البراعة تهيئة لانتقال الكلام إلى التَّحريض على الجهاد

تُلْمَسُ براعة المقطع في هذا المطلع في التَّهيئة لانتقال الكلام إلى التَّحريض على الجهاد الآتي في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ﴾، وأنَّ المُراد بـ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ليقتل بعضكم بعضًا، فإنَّ المؤمنين يقاتلون قومَهم وأقاربَهم منَ المشركين في الجِهاد المأمور به بدليل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾[4].

بديعُ الافتتاح بصحَّة التَّفسير:

وجه صحَّة التَّفسير ليتخصَّص من احتمالات المعنى المرُاد

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ هو من أنواع صحَّة التَّفسير[5]، فالمكتوب عليهم هو المفسر؛ لأنَّه يحتمل أنْ يكون ما فُسِّرَ به، ويحتمل غيره، وهذا الاحتمال يحتاج إلى التَّفسير؛ ليتخصَّص من احتمالات المعنى المُراد، والتَّفسير قوله: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم﴾[6].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/297.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/114.

(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1307.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.

(5) "صحة التَّفسير: وهي أن يضع الشَّاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الَّذي يصنعه، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها، ولا يزيد أو ينقص"، ينظر: ابن قدامة، نقد الشّعر، ص: 48.

(6) الإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/243.

الالتفاتُ فيه تعظيمٌ لشأنِ الكاتبِ والمكتوب

نكتةُ الالتفات إلى ضمير التَّكلُّم:

سياقُ الكلام في الآية السَّابقة ومختتم الَّتي قبلها جاء التَّعبير فيه بضميري الغيبة، والخطاب بوصفه خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ٦٤﴾ [النساء: 64]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ [النساء: 65]، ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٦٥﴾ [النساء: 65]، وانتقل هنا - في هذه الآيةِ - من تشريف النَّبيِّ ﷺ إلى تعظيم نفسه جلَّ في علاه، فهو ﷻ الَّذي يقدِّرُ القتلَ على النُّفوسِ، والإخراجَ من الأوطان، وهو الآمر بهما، فلا يَقْدر أحدٌ على وقوعهما سواه، وأكَّد ذلك التَّعظيم بـ ﴿أَنَّا﴾، وبإضافة فرْضِ هذه الواجبات - لو أرادها - إليه تعالى شأنه، وتقدَّست أفعالُه؛ لِعِظَم شأن الأمرين، ولاختصاصهما بقدرته، وبتعْديةِ فعلِ الكتابة بـ (على) فهو أمرٌ مُنزَّل، محلُّ سرعة الاستجابة، والامتثال.

يدلُّ التَّعبير بـ (لو) على أنَّ امتناع وقوع التَّكليف؛ إذ لا يكلِّف اللهُ نفسًا إلَّا وسعها

سرُّ التَّعبير بـ﴿وَلَوۡ﴾:

تعدُّ (لو) حرف شرطٍ في الامتناع أو في غَيْرِ الإمْكان، وتدلُّ على امتناع الجوابِ لامتناع الشرط، والتَّعبير بها مفيدٌ أنَّ التَّكليف لا يقع هاهنا، فاللّه تعالى لو يكلِّف ذلك التَّكليف؛ لثقُل التَّكليف إلَّا على عدد قليل من النَّاس[1]، والتَّكليفات الشَّرعيَّة لا تكون إلَّا فيما يطاق من غير مشقَّة مجهدة؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، ويقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]. فهذا الدِّينُ ميسَّرٌ لينهض به كلُّ ذي فطرة سويَّة، واللّه ﷻ الَّذي فرض على الإنسان تكاليف هذا الدِّين يعلم أنَّها داخلة في مقدور الإنسان، وهو لم يشرِّع هذا الدِّينَ للقلائل المتازين من النَّاس، وقتلُ النَّفس، والخروجُ من الدِّيار، مثالان للتَّكاليف الشاقَّة الَّتي لو كتبت على النَّاس ما فعلها إلَّا قليلٌ منهم، وهي لم تكتب؛ لأنَّه ليس المراد من التَّكاليف أن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1747.

يعجز عنها عامَّة النَّاس أو ينكُلوا عنها، بل المراد أن يقدر عليها الجميعُ ويؤدُّوها[1].

معنى الضَّمير في: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

الضَّمير في قوله: ﴿كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه قولان:

رحمة الله بعباده تكليفهم بالأحكام السَّهلة، فمن شكره إخلاص العمل

الأول: أنَّه عائد إلى المنافقين؛ لأنَّه تعالى كَتبَ على بني إسرائيل أن يَقْتلوا أنفسهم، وكَتبَ على المهاجرين أن يخرجوا من ديارهم، فالمعنى: ولو أنَّا كتبنا القتل والخروج من الوطن على هؤلاء المنافقين ما فعله إلَّا قليلٌ منهم رياء وسمعة، وحينئذٍ يصعب الأمر عليهم، وينكشف كفرهم، فإذا لم نفعل ذلك بل كلَّفناهم بالأشياء السَّهلة، فليتركوا النِّفاق، وليقبلوا الإيمان على سبيل الإخلاص، وهو قول ابن عباس ومجاهد، واختيار أبي بكر الأصمِّ والقَفَّال.

الثاني: أنَّ المرادَ لو كتبَ اللّٰه على النَّاس ما ذكر لم يفعله إلَّا قليلٌ منهم، فلمَّا لم يفعل - سبحانه - ذلك رحمةً بعباده، بل اكتفى بتكليفهم بالأمور السَّهلة، فعليهم أن يُقْبلوا عليها بإخلاصِ حتَّى ينالوا خيرَ الدَّارين.

وعلى التَّقدير الثَّاني التَّقدير دخل تحت هذا الكلام المؤمن والمنافق[2].

جمال الإتْباع بصحَّة التَّقسيم:

استيفاءُ صحَّة التَّقسيم في وجهي المشقَّة

اندرجَتْ في صحَّة التَّفسير في الآيةِ الكريمة صحَّةُ التَّقسيم[3]، وذلك باستيفاء وَجهَي المشقَّة المؤلمين، وهما: قتل النَّفس، والإخراج منَ الدِّيار، ودليلُ صعوبة الخروج منَ الدِّيار أنَّ اللّٰه تعالى قرنه بقتل الأنفس[4].

(1) الصافي، الجدول: 3/84.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/130، طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/204.

(3) "صحَّة الأقسام: عبارة عن استيفاء المتكلِّم أقسام المعنى الَّذي هو آخذ فيه، بحيث لا يغادر منه شيئًا"، ينظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 173.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/297.

وجه المقابلة بين القتل والإخراج:

الجسم دار الرُّوح، والوطنُ دارُ الجسم

عمليَّة القتْل قرينةٌ لعمليَّة الإخراج منَ الدِّيار، فساعة يُقتل الإنسان، فيعيش الألم، وساعة يخرج من وطنه فيتألَّم، وكلاهما شاقٌّ على الإنسان، ويعْسُر تحمُّله إلَّا مَن صبَّره الله[1]، فـ"الجسم دار الرُّوح، والوطنُ دارُ الجسم"[2].

علَّة تقديم قتل النَّفس على الإخراج مِنَ الدِّيار:

نفي القيام بالفعل يناسبُه البدء بالأشقِّ منه

قتلُ النَّفس أشقُّ وأصعبُ مِنَ الإخراج مِنَ الدِّيار، فالأصل في المستحبَّات بقاء النَّفس؛ دوامًا للحياة، وطول أمل، والقتلُ إزهاق لها، وانتفاءٌ لوجودها، والإخراج مشقَّةٌ مع بقائها، فهي أهونُ في المشقَّة، ولذلك قدَّم الأصعب على الأهون صعوبةً، بدليل قرينة إتْباعهما بجملة: ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾، ونفي القيام بالفعل يناسبُه البدءُ بالأشقِّ منه.

سرُّ التَّعبير بالخروج:

التَّعبير بالخروج قصدٌ إلى المهاجرين والمجاهدين

المُراد بالخروج منَ الدِّيار: الهجرة، أي: كتبنا عليهم هجرة منَ المدينة، وخروجًا من الدِّيار، وفي هذا تنويهٌ بالمُهاجرين والمُجاهدين[3].

عِلَّةُ توحيد الضَّمير في ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾:

بيانُ اتِّحاد جنس الفعل، وإن اختلفت ضروبُه

الضَّمير في قوله: ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ شاملٌ القتلَ والخروجَ معًا؛ لأنَّ الفعل جنسٌ واحدٌ، وإن اختلفَت ضرُوبُه[4]، وفيه إلماحٌ إلى قربهما في المشقَّة على المرء بحسب ما أشيرَ إليه.

وجهُ القراءتين في ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾:

قرأ ابن عامر بالنَّصب، وقرأ الباقون من القرَّاء العشرةِ بالرَّفع[5]، "من رفع؛ فعلى تكرير الفعل، كأنَّه قال: ما فعلوه، ما فعله

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 4/2379.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/130.
(5) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/250.

إلَّا قليل منهم، ومن نصب؛ فعلى الاستثناء، كأنَّه قال: استثنى قليلًا منهم "[1]، أي: إلَّا فعلًا قليلًا ممَّا يُوعَظونَ به مِن اتِّباع رسول اللَّه ﷺ وطاعته، والانقياد لما يراه ويحكم به؛ لأنَّه الصَّادق المصدوق الَّذي لا ينطق عنِ الهوى[2]، ويتحقَّقُ الجمع بين القراءتين دون أدنى تكلُّف، فالاستثناء كان مدحًا وثناءً للَّذين فعلوا هذه التَّكاليف بالرَّغم من ثقلها عليهم، والرَّفع على البدل من الواو في ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾، والمعنى: ما فعله إلَّا قليلٌ منهم ممَّن استجاب لأمر اللَّه[3].

من فعل التَّكليف برغم ثقلِه يستحقُّ الثَّناء، والمدْح

نكتة التَّعبير عنِ التَّكليف بالوعْظ:

معنى الوعظ ما يؤمرون به أمرُ تحذيرٍ وترقيقٍ

ومعنى: ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ عُلِم من قوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النِّساء: 63]، أي: ما يؤمرون به أمرَ تحذيرٍ وترقيقٍ، أي: مضمون ما يوعظون؛ لأنَّ الوعظَ هو الكلام والأمر، والمفعول هو المأمور به، أي: لو فعلوا كلَّ ما يبلِّغهم الرَّسول، ومن ذلك الجِهاد والهجْرة[4].

التَّعبير بالوعظ؛ لأنَّ تكاليفَه تعالى مقرونةٌ به

سُمِّي هذا التَّكليف والأمر وعظًا؛ لأنَّ تكاليفَ اللَّه تعالى مقرونةٌ بالوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب، والثَّواب والعقاب، وما كان كذلك فإنَّه يسمَّى وعظًا[5]، ومن هنا سُمِّيت أوامرُ اللَّه تعالى ونواهيه: مواعظَ[6].

وجوهُ تعْدية الوعْظِ بالباء:

الوعظُ: هو التَّذكار بما يحلُّ بمن خالف أمرَ اللَّه تعالى مِنَ العقاب، فالمُوعَظُ به: الجُمل الدَّالَّة على ذلك، ولا يمكن حملُه على هذا الظَّاهر؛ لأنَّهم لم يؤمروا بأن يفعلوا المُوعَظ به، وإنَّما عرَضَ لهم شرح ذلك بما خالف الظَّاهر؛ لأنَّهم علقوا به بقوله: ﴿مَا

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/311.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/530.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 206 - 207.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.

﴿يُوعَظُونَ﴾، على طريقة ما يفهم من قولك: وعظتُك بكذا، فتكون الباء الباء: للتَّعدية، قد دخلَتْ على الشَّيءِ المُوعَظ به، وهي الجملة الدَّالَّة على الوعَظ.

الباء للسَّببيَّة، والمعنى ولو أنَّهم فعلوا الشَّيء الَّذي يوعظون بسبب تركه

تحتملُ الباءُ معنى: السَّببيَّة، فيُحملُ اللَّفظ حينها على الظَّاهر، ويصحُّ المعنى على تقدير: ولو أنَّهم فعلُوا الشَّيء الَّذي يُوعظون بسببه، أي: بسبب ترْكِه، ودلَّ على حذف ترْكِهِ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ﴾، ويبقى لفظ ﴿يُوعَظُونَ﴾ على ظاهرِه، ولا يحتاج إلى ما تأوَّلوه[1].

وجهُ الخيريَّة، وعلَّة التَّعبير عنها:

حصولُ الخيريَّة في الدُّنيا والآخرة، أو المبالغة فيها

قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يحتملُ أنْ يكون المعنى: أنْ يحصلَ لهم خيْرًا الدُّنيا والآخرة، ويحتمل أنْ يكونَ المعنى المبالغة والتَّرجيح، وهو أنَّ ذلك أنفع لهم وأفضل من غيره؛ لأنَّ قولنا: "خير" يُستعمل على الوجهين جميعًا[2].

عبَّر بالخيريَّة لبيان تحقُّق وقوعها، وتوكيد ذلك

أكَّد تحقُّق الخيريَّة بالفعل (كان): الدَّالِّ على تحقُّق الوقوع في الماضي المؤكَّد بلام التَّوكيد، والتَّعبير عنه بالمصدر ﴿خَيْرًا﴾، ثمَّ نسبته ﴿لَّهُمْ﴾: فيه مَزيد ترغيبٍ لهم به كونه مخصَّصًا بهم، "فتمتدُّ الخيريَّة في عاجلهم وآجلهم"[3].

بلاغة التَّعبير عنِ التَّثبيت بالمصدر:

المصدريَّة أقْوى في الدَّلالة على حدث التَّثبيت

معنى التَّثبيت: يحتمل أنَّه التَّثبيت على الإيمان وعدم الاضطراب فيه، ويحتمل أنَّه تثبيتهم ببقائهم بين أعدائهم، ولعزَّتهم وحياتهم الحقيقيَّة، فإنَّهم إنَّما يكرهون القتال استبقاءً لأنفسهم، ويكرهون المهاجرة حبًّا لأوطانهم، فعلَّمهم الله أنَّ الجِهاد والتغرُّب فيه أو في

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/298.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المُراد بالخير خير الدُّنيا، وبالتَّثبيت التَّثبيت فيها، بدليل قوله عاطفًا عليه: ﴿وَإِذًا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧﴾ [النِّساء: 67]، ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/115.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/530.

غيره أشدُّ تثبيتًا لهم؛ لأنَّه يذودُ عنهم أعداءَه[1]، وفي ذلك عُسْرٌ ناسبَهُ صيغةُ التَّفعيل الدَّالِّ على المبالغة.

سرُّ تقويةِ التَّثبيت بالشِّدَّة:

تقفيةُ الشِّدَّة بالتَّثبيت؛ ليكون في الأخذ بالتَّكليف تثبيتٌ على الحقِّ

في قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ بالغَ في التَّعبير عنِ التَّثبيتِ بالشِّدَّة وقوَّاه؛ ليكون في الأخذ بالتَّكليف الَّذي يُطاق تثبيتٌ على الحقِّ، للتَّمكين مِنَ الاستمرار عليه، فالاستمرار على فعلِ ما هو حقٌّ يثبِّته ويقرِّب الغاية منه[2]؛ لكونه أشدَّ لتحصيل عملهم، ونفي جهلِهم، وأثبتَ لأعمالهم، واجتناءِ ثمرة فعالهم[3].

علَّة تقديم الخيريَّة على التَّثبيت:

تقديمُ تحصيل الخير؛ لأنَّه سابقٌ لطلب بقائه

إنَّ الإنسان يطلبُ أوَّلًا تحصيلَ الخير، فإذا حصَّله؛ فإنَّه يطلب أن يصير ذلك الحاصل باقيًا ثابتًا، فقوله: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ إشارة إلى الحالة الأولى، وقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ إشارة إلى الحالة الثَّانية[4].

بلاغة عودِ الضَّمير في الآية:

الجمع بين الخاصِّ والعامِّ في الضَّمير؛ ليشملَ المؤمنَ والكافرَ

الضَّمير في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ﴾ مختصٌّ بالمُنافقينَ، ومرجع الضَّمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ إلى المُنافقينَ، ويجوز عوده إلى النَّاس كافَّة، المؤمن والمنافق، ويكون المُراد بـ(القليل) المؤمنين، ولا يبعد أن يكون أوَّل الآية عامًّا، وآخرها خاصًّا[5].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

البيت، والمنزل، والمسكن، والدَّار:

البيت خاصٌّ بالمبيت ليلًا، والمَنزِل مَوضِعُ النُّزول

أصلُ البيت: مَأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يُقال: بات: أقام باللَّيل،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/114.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1748.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1307.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/298.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/130، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 3/214.

ثمَّ قد يُقال للمسكن: بيت من غير اعتبار اللَّيل فيه، فالبيوت بالمسكن أخصُّ[1]، والمَنزِل: مَوضِعُ النُّزول[2].

المسكن مظنَّة الاستيطان مِنَ السُّكون

السُّكون: ثبوت الشَّيء بعد تحرُّك، ويُستعمل في الاستيطان نحو: سكن فلان مكان كذا، أي: استوطنه، واسم المكان: مَسْكَنٌ، والجمع: مساكن[3].

الدَّار اسم عامٌّ جامع للبناء بيتًا، ومحلَّةً، وبلدةً، وهو أنسبُ لسياق الهجرة

الدَّار: اسم جامع للعَرْصة والبناء والمحلَّة، وكلُّ مَوضِع حلَّ به قوم؛ فهو دارهم[4]، ثمَّ تسمَّى البلدة: دارًا، والصِّقع دارًا، والدُّنيا دارًا[5].

فكان استخدام لفظ "الدِّيار" في الآيةِ الكريمة أنسب لسياق الهجرة، والإخراج من عموم محلِّ السُّكنى: بيتًا، وسكنًا، ومنزلًا، وبلدًا.

العمل، والفعل:

يُستعمل الفعلُ لَمَا يكون دُفعةً واحدةً

من وجوه التَّفريق بين العمل والفعل: أنَّ العمل يُستعملُ لَمَا يمتدُّ زمانُه، وأمَّا الفعل؛ فيكون دُفعةً واحدةً[6]، ولذلك اختار لفظ الفعل؛ لأنَّه يُستعمل لَمَا يكون دفعةً واحدة، وهو أنسب لفعلي قتل النَّفس أو الخروج مِنَ الدِّيار المتعاقبين في الآية الكريمة من غير فاصل بينهما.

فعلا قتلِ النَّفس والخروج أفعالٌ بدنيَّة لا صلة لها بجارحة اللِّسان

(العمل): كلُّ أداءٍ مُهِمَّةٍ من جارحةٍ، أمَّا (الفعل)؛ فهو تعلُّق كلِّ جارحة غير اللِّسان بالحدث، فالعملُ هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها، لكنَّ الفعل هو: شغل جارحةٍ غير اللِّسان بالعمل المطلوب منها[7]، ولخصوصيَّة الفعل اختير في الآية الكريمة؛ لكون

(1) الرَّاغب، المفردات: (بيت).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نزل).
(3) الرَّاغب، المفردات: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (دور - دير).
(5) الرَّاغب، المفردات: (دار).
(6) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 3/604.
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 3/1849.

فعلي: قتلِ النَّفس، والخروج منَ الدِّيار أفعالًا بدنيَّة لا صلة لهما بجارحة اللِّسان.

إيثار لفظ الفعل وصفٌ لصنيعهم بالجهل

الفعلُ: التَّأثير من جهة مؤثِّر، وهو عامٌّ لمَا كان بإجادة أو غير إجادة، ولمَا كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد، ولمَا كان منَ الإنسان، والحيوان، والجمادات[1]. وإيثار لفظ الفعل وصفٌ لصنيعهم بالجهل؛ لاتِّسامهم بعدم الإجادة، وعدم العلم.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 134، والرَّاغب، المفردات: (فعل).

﴿وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧﴾ [النّساء: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللّه أنَّ الإخلاص في الإيمان خيرٌ ممَّا يريدُ المنافقون منَ النِّفاق، وأكثر ثباتًا وبقاءً؛ بيَّن أنّه خير في نفسه، فضلًا عن كونه مستعقبًا للخيرات العظيمة من أجرٍ وثواب كبيرين[1]، كأنَّه قِيلَ: ماذا يكون من هذا الخير والتَّثبيت؟ قال: هو أن نؤتيهم من لدنَّا أجرًا عظيمًا، ونهديهم صِراطًا مُستَقيمًا[2]، فما أنْ تَشرعَ بالمسير بخطوةِ البدءِ، سيتبعه العون منَ اللّه، ويتبعه التَّثبيت على المضي في الطَّريق، ويتبعه الأجر العظيم، وتتبعه الهداية إلى الطَّريق المستقيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجۡرًا﴾: الهمزة والجيم والرَّاء: أَصلان يمكنُ الجمعُ بينهما بالمعنى، فالأَوَّلُ: الكِراءُ على العمل، والثَّاني: جَبرُ العَظمِ الكَسيرِ، فأَمَّا الكِراءُ؛ فالأَجرُ والأجرَةُ، والمعنى الجامع بينهما: أنَّ أُجرَةَ العاملِ كأنَّها شيءٌ يُجبر به حالُه فيما لحِقه من كَدٍّ فيما عمله، فالأجرُ والأجرَةُ: ما أُعطِيتَ مِن أجرٍ في عمل[3]، قال الخليل: "الأجرُ جزاء العمل"[4]، فالأجرة إذًا: أَثَرٌ، أو حصيلةٌ لجُهد ماديٍّ فيه صَنْعة، وهو ما يُحَصِّله العامل من صاحب العمل لقاء العمل[5]، ومعنى اللَّفظة في الآية الكريمة: الجزاء.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

لو قام المكلَّفون بما كلِّفوا، واستجابوا لما أُمِروا به، وفعلوا ما وعِظُوا به، وأدَّوا حقَّ اللّه تعالى، فسيزيدُ ثباتهم على الحقِّ، وينالون الخير، وإنَّ لهم من لدنه تعالى فوق ذلك ثوابًا وافرًا لا حدود لسَعته، ولا يقدِرُ عليه غيره، وأجرًا عظيمًا، وهو الجنَّة[6].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131.
(2) الخازن، لباب التَّأويل: 1/397.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(4) الخليل، العين: (أجر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (أجر).
(6) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/77، والخازن، لباب التَّأويل: 1/397، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1749.

وترشد الآية الكريمة والَّتي بعدها إلى: أنَّ جزاء الامتثال لأوامر الباري فضلٌ لا يُدرك كُنهه، وأجرٌ لا يُقدَّرُ عَدُّه، وأعطيات من الوهَّاب المنَّان.

من عظيم مِنَنِ الواهبِ سبحانه استتباعُ التَّثبيت بالأجرِ العظيم

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجُوهُ وصْلِ المَطْلَع بما قبله:

تحتمل ﴿وَإِذٗا﴾ أن تكون جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر، كأنَّه قِيل: وماذا يكون لهم أيضًا بعد التَّثبيت؟ فقيل: وإذًا لو ثبتوا لآتيناهُم؛ لأنَّ (إذًا) جوابٌ وجزاءٌ[1]، وإظهارها لتحقيق أنَّ هذا الجزاء الأخير ترتَّب على الجزاء السَّابق[2].

فائدةُ الاستئناف التَّشوُّقُ لمعرفة ما بعد التَّثبيتِ من أجْر

ويحتمل أن تكون جملة ﴿وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ﴾ معطوفة على جواب (لو)، والتَّقدير: لكان خيرًا وأشدَّ تثبيتًا ولآتيناهم... إلخ، ووجود اللَّام الَّتي تقع في جواب (لو) مُؤْذِنٌ بذلك، وأمَّا واو العطف فلِوصْلِ الجملة المعطوفة بالجُملة المعطوف عليها، وتكون (إذًا) في معنى جوابٍ لكلام سبقَها، ولا تختصُّ بالسُّؤال، فأُدخلَت في جواب (لو) بعطفها على الجواب تأكيدًا لمعنى الجزاء، فقد أجيبت ﴿وَلَوۡ﴾ في الآية بجوابين في المعنى؛ لأنَّ المعطوف على الجواب جواب، ولا يحسن اجتماع جوابين إلَّا بوجود حرف عطف[3].

العطف لوصل الجملة المعطوفة بالجملة المعطوف عليها؛ تأكيدًا لمعنى الجزاء

علَّة تعظيمه تعالى بالضَّمير(نا):

ذكر تعالى نفسَه بصيغة العظمة المتمثِّل بـ(نا) في قوله: ﴿لَّأٓتَيۡنَٰهُم﴾، وقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾، والمعطي الحكيم؛ إذا ذكر نفسه

ذكرُه تعالى نفسه باللَّفظ الدَّالِّ على العظمة دلالة على عِظم العطيَّة

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/530.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/74 - 75، وقد ردَّ العلامة ابن عاشور توجيه الزَّمخشريّ، ومن تبعه منَ المفسِّرين بقوله: "والحقُّ أنَّ ما صار إليه في الكشَّاف تكلُّف لا داعي إليه إلَّا التزام كون: (إذًا) حرفًا لجواب سائل، والوجه أنَّ الجواب هو ما يتلقَّى به كلام آخر سواء أكان سؤالًا أم شرطًا أم غيرهما"، ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/115، مستندًا إلى توجيه أبي حيَّان، البحر المحيط: 3/299، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/75.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/115.

باللَّفظ الدَّالِّ على عظمةٍ عند الوعدِ بالعطيَّة دلَّ ذلك على عظمةِ تلك العطيَّة[1]، فعظَمَةُ الهبة من عظمةِ الواهب.

صيغة التَّعظيم فيها توكيدٌ للإيتاء، وحتميَّة تحقُّقه

المعنى: فإذا فعلوا ما يوعظون به؛ آتيناهم بما لنا منَ العظمة إيتاءً مؤكَّدًا لا مرية فيه[2]، فالعظيم سبحانه لا يُخْلِف وعدًا، ويجازي المرء بما يستحقُّ.

علَّة التَّعبير بالإتيان دون غيره:

الإتيان يُقال باعتبار القصد، والإيصال إلى المنتهى

المجيء أعمُّ منَ الإتيان، ويُقال اعتبارًا بالحصول، أمَّا الإتيان؛ فيُقال باعتبار القصد[3]، ويُلاحظ في المجيء نقلُ الشَّيء من جانب البدء، والإتيان يلاحظ فيه إيصاله إلى المنتهى، فإنَّ ابتداء المجيء هو جناب المُرسَل، ومنتهى الإتيان هو المُرسَل إليه[4].

نكتة لَدُنِّيَّةِ الأجر:

عطاءُ الباري خاصٌّ لا يوصف قدْره، ولا يُدرك كُنْهه

يدلُّ التَّخصيص في قوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾على التَّوكيد، والمبالغة في الإعطاء، كما في قوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65]، فلا يَعْرِفُ أحدٌ مبدأه، ولا يبلغ منتهاه[5]. وهذا شرف إضافيٌّ لهذا الجزاء، وهو جزاء يعلو على كلِّ جزاء منَ النَّاس، فيستهان في سبيله كلُّ أذى[6]؛ "لأنَّه تعالى لا يكاد ينسب إلى نفسه منَ النِّعم إلَّا ما كان أجلَّها قدرًا وأعظمها خطرًا"[7]، فهو عطاءُ تفضُّلٍ من عنده[8]، خاصٌّ لا يُدرِكُ كُنْهه، ولا تكلُّفَ فيه بالتَّطلُّب.

سرُّ تقديم شبه الجملة على المفعول:

تقديمُ ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿أَجۡرًا﴾ للعناية بالمقدَّم

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/132.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/319.
(3) الرَّاغب، المفردات: (جاء).
(4) البروسوي، روح البيان: 3/211.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/132، والآلوسّي، روح المعاني: 5/74.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1749.
(7) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1309، والقونويُّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 7/217.
(8) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/530.

والتَّشويق إلى المؤخَّر، فإنَّ تأخير ما حقَّه التَّقديمُ يُبقي النَّفسَ مترقِّبةً له، متلهِّفةً لهيئته، فإذا وردها يتمكَّن عندها فضلُ تمكُّنٍ[1].

تقديم شبه الجملة؛ للعناية بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر

فائدةُ تنكيرِ لفظ (الأجْر):

في تنكير (الأجر) مِنَ المبالغة ما لا يخفى[2]، فهذا التَّنكير يشير إلى أنَّه غير محدود بحدود، فهي عظمةٌ أقصى ما يصل إليه الخيال[3]؛ لكونه استغراقًا لعموم الأجر، وذلكم وصفُ عطاء التَّفضُّل منه جلَّ في قدرته.

في تنكيرُ الأجْرِ مبالغةٌ في عظمته، وسعة حدِّه، واستغراقٌ لعمومه

بلاغة تعظيم (الأجر):

في قوله: ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وصفَ اللّٰه تعالى هذا الأجرَ بالعظيم، والشَّيء الَّذي وصفه أعظم العظماء بالعظمة لا بدَّ أن يكون في نهاية الجَلالة، فقد قال ﷺ عنِ الجنَّة أنَّ فيها: "ما لا عين رأَت، ولا أذن سمعَت، ولا خطر على قلب بشر"[4]، "ووصفُه بالعِظم باعتبار الكثرة، أو باعتبار الشَّرف"[5]، ولذلك استدعى حشدًا من أدوات تحقيقها؛ ليرغِّب في الطَّاعة كالتَّنبيه بـ(إذا)، والإتيان بصيغة العظمة(نا) و(لدن) مع العظمة، والوصف بالعظيم[6].

وصفُ الأجر بالعظمة تأكيدٌ لعظمة الجزاء، واعتبارٌ بالكثرة، أو بالشَّرف

الفروقُ المُعجَميَّة:

الأجر، والثَّواب، والجزاء:

الأجر: ما يعود من ثواب العمل دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا يُقال الأجر إلَّا في النَّفع دون الضُّرِّ، بخلاف الجزاء؛ فإنَّه يُقال في النَّافع

اختير الأجر لخصوص معناه بالجزاء نفعًا في الدُّنيا والآخرة

(1) أُفيد في توجيه هذا المُعطى البلاغيّ من أبي السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/124 في أحد المَواضِع المشابهة.
(2) النِّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/441.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1749.
(4) البخاريّ، الحديث رقم: (4779)، مسلم، الحديث رقم: (2824).
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/299.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/319.

والضَّارِّ[1]، وكذلك الإثابة؛ إذ تُستعمل في المحبوب والمكروه[2]، ومن هنا تستبينُ قصديَّة اختيار لفظ "الأجر العظيم" دون غيره ممَّا يقاربه؛ لكون الحديث في الآية الكريمة وما يعقبها خاصًّا بالعطايا الدُّنيويَّة والأخرويَّة، دون العقوبات، فاختير ما كان خالص المعنى لذلك.

(1) الرَّاغب، المفردات: (أجر).
(2) الرَّاغب، المفردات: (ثوب).

﴿وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨﴾ [النّساء: 68]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر تعالى ما وعدَهم بعد الخير والتَّثبيت من إيتائهم الأجر العظيم؛ جاءت هذه الآيةُ الكريمة استكمالًا لعظيم الأجر، بإظهار مزيد النِّعمة، ومديد المنَّة، وسابغ الفضل بالهداية إلى الطَّريق المستقيم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾: الهاءُ والدَّالُ والحرفُ المعتلُّ: أَصلان، أَحدُهما: التَّقدُّمُ للإِرشاد، ومنه قولُهُم: هَدَيتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً، أَي: تَقَدَّمتُه لأُرشِدَه[2]، فالهدى: نقيضُ الضَّلالة[3]، وهو: الرَّشادُ والدَّلالةُ، يؤنَّث، ويذكَّر، وهَدَيتُه الطَّريق والبيت هِدايَةً، أي: عرَّفته، وهدى واهتدى بمعنًى[4]، "والجمهور الأعظم ممَّا في القرآن مِنَ التَّركيب هو بمعنى: التَّوجيه إلى سبيل الرُّشد خاصَّة، سواء ذُكِر المهديُّ إليه أم لم يذكر"[5].

2) ﴿صِرَٰطٗا﴾: الصَّادُ والرَّاءُ والطَّاء: هو مِن باب الإبدال؛ لأنَّ أصله بالسِّين من"سَرَطَ"[6]، فالسِّرَاطُ: لغةٌ في الصِّراط[7]، ومعناه: المنهاج الواضح[8]، والطَّريق المستقيم، والمُستَسهل[9]، والسَّبيل الواضح[10]، فالسَّبيل الواضح يمرُّ سالِكه فيه مرورًا سهلًا سريعًا بلا عقبات تُرَيِّثُه، وليس في القرآن من هذا التَّركيب إلَّا كلمة (سِراط)، وقد رُسِمَت في المصحف بالصَّاد، وأصلها اللُّغويُّ بالسِّين[11].

---

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 1/397.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هدي).
(3) الخليل، العين: (هدي).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (هدى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (هدى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرط).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (سرط).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سرط).
(9) الرَّاغب، المفردات: (صرط)، (سرط).
(10) ابن سيده، المحكم: (سرط).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (سرط).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

من مديد العطايا والهبات الهداية إلى الطَّريق المستقيم

يخبرُ اللّه تعالى بالثَّمرة الرابعةِ لمن أجاب داعيَ الحقِّ، وقام بالأوامر على مأْتاها الأكمل، وتجنَّب النَّواهي على وجهها الأمثل؛ إذ يوفِّقه اللّه تعالى إلى طريقه المستقيم الَّذي لا اعوجاج فيه، ليصل بذلك إلى القرب منَ اللّه تعالى، فإنَّ الَّذي يتقرَّب إلى اللّه تعالى بالطَّاعات يصل إلى إدراكِ حقائق العبوديَّة، وهذه الثَّمرةُ عمومٌ بعد خصوص؛ لشرف الهداية إلى الصِّراط المستقيم، من كونها متضمِّنةً للعلم بالحقِّ، ومحبَّته وإيثاره والعملِ به، وتوقُّف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هُدِيَ إلى صراط مستقيم؛ فقد وُفِّقَ لكلِّ خير واندفع عنه كلُّ شرٍّ وضَيْرٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل بالعطف:

في الوصلِ إتمامٌ للنِّعمة، واستكمالٌ للفضل

وجهُ عطف الهداية على ما قبله إتمامٌ لعظيم الأجر، وكمال الفضل الإلهيِّ في الهبات والعطايا؛ إذ أعقب تمام الأجر بأشرف طريق، هو الطّريق المستقيم.

سِرُّ تنكير الصِّراط:

إفادةُ استغراق عموم معناه دينًا حقًّا، وطريقًا إلى الجنَّة والأعمال الصَّالحة

في تنكير "الصِّراط" إشارةٌ إلى أنَّه غير محدَّد بحدود، ففُسِّر الصِّراط: بأنَّه الإيمان المؤدِّي إلى الجنَّة[2]، وهو الدِّين الحقُّ، أو هو الطَّريق من عَرَصَة القيامة إلى الجنَّة[3]، أو هو الطَّريق إلى الجنَّة، أو الأعمال الصَّالحة[4]، أو هو مَوطِن من مَواطِن القيامة، أو هو طريق العمل الصَّالح على الوجه الصَّحيح، أو هو نفسه الصِّراط المذكور

(1) السعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 89، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1749.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/75.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131 - 132.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/299.

في سورة الفاتحة[1]، أو المعنى: لفتحنا لهم طرق العلم والهداية، ولا شكَّ أنَّ الطَّاعة مفتاح المعارف بعد تعاطي أسبابها[2].

علّةُ تأخير الهداية على استحصال الأجر:

تعديدُ نِعَمِ الله عليهم دون ترتيب، ولكونها عمومًا بعد خصوص

جاء ترتيبُ هذه الآية على هذا النَّظم، مع أنَّ الهداية تسبقُ إعطاء الأجر؛ لأنَّ المقصد إنَّما هو تعداد ما كان اللّه ينعم به عليهم دون ترتيب، فالمعنى: ولهديناهم قبلُ حتَّى يكونوا ممَّن يُؤتى الأجر[3]، وكذلك هذا التَّأخير لهذه الثَّمرة؛ لكونها عمومًا بعد خصوص، ولشرف الهداية إلى الصِّراط المستقيم، من كونها متضمِّنةً للعلم بالحقِّ، ومحبَّتِه وإيثاره والعملِ به، وتوقُّف السَّعادة والفلاح على ذلك[4].

يُحمل على التَّرتيب إذا فسِّرَت الهداية بهداية التَّوفيق والإلهام

إذا فُسِّرتِ الهداية إلى الصِّراط هنا: بأنَّه طريق الجنَّة، أو الأعمال الصَّالحة؛ فإنَّه يظهر التَّرتيب[5]؛ لكونهما من متمِّمات الأجر، ومكمِّلات النِّعمة.

فالصِّراط - الَّذي هو الطَّريق من عرصة القيامة إلى الجنَّة - إنَّما يحتاج إليه بعد استحقاق الأجر، فكان حمل لفظ الصِّراط في هذا المَوضِع على هذا المعنى أولى[6]؛ لأنَّ الأجر العظيم هو المؤدِّي إلى الجنَّة[7]، ولأنَّه مذكور بعد استحقاق الأجر[8].

وجه المقابلة بين فِعْلي الإيتاء والهداية:

الإيتاء الإعطاء، والهدايةُ إرشادٌ بلطف

الإيتاء: الإعطاء، والهداية: دلالةٌ بلطف، وهي الإرشاد إلى الخيرات قولًا وفعلًا[9]. وكلُّ موضع ذكره اللّه بـ﴿لَّأٓتَيۡنَٰهُم﴾ فهو

(1) رضا، تفسير المنار: 5/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/115.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/75.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 89.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/299.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131 - 132.
(7) الخازن، لباب التّأويل: 1/397.
(8) النِّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/441.
(9) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 1/60.

أبلغ من كلِّ موضع ذكر فيه ﴿أُوتُواْ﴾ [النساء: 44]؛ لأنَّ ﴿أُوتُواْ﴾ [النساء: 44] قد يقال؛ إذا أُوتي مَن لم يكن منه قَبول، و﴿لَّآتَيْنَٰهُم﴾ يقال فيمَن كان منه قَبول[1]، ومن مِنَنِه ﷻ منحُ الهِباتِ بلطفٍ، وإنزال العطايا بيُسْرٍ، فذلكم أرقُّ للقلوب، وأسكنُ للنُّفوس.

بلاغة الاستعارة في لفظ (الصِّراط):

أصل لفظ الصِّراط من: سرطتُ الطَّعام، وزردْتُه؛ إذا ابتلعتُه؛ لِأَنَّهُ إِذَا سُرِطَ غَابَ، وَالسِّرَاطُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الذَّاهِبَ فِيهِ يَغِيبُ غَيْبَةَ الطَّعَامِ الْمُسْتَرَطِ[2]، وسُمِّي الطَّريق بذلك تصوُّرًا أنَّه: إمَّا أن يبتلعَه سالكُه، وإمَّا يبتلعُ هو سالكَه، فقد قِيلَ: فلان أكلتْهُ المفازةُ؛ إذا أضمرَته، أو أهلَكَته[3]، فشبَّهَ المنهج القويم بالطَّريق، وحذف المُشبَّه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

وجه الاستعارة تـصـوُّرُ أنَّ الـصِّراط طريقٌ يبتلعُه سالكُه، أو يـبـتـلـعُ هو سالكَه

ولفظُ "الصِّراط" مُستعارٌ لمعنى: الحقِّ الَّذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضاء الله؛ لأنَّ ذلك الفوز هو الَّذي جاء الإسلام بطلبه[4]، فرضوانُ الله أسمى المطالب وأعلاها.

وجه الاستعارة تـضـمُّـن معنى الـحـقِّ الموصل إلى رضـا الـلـه تعالى

براعة وصف الصِّراط بالمستقيم:

لفظُ (المستقيم): اسم فاعل من استقام، مطاوعُ قوَّمْتُه فاستقام، والمستقيم: الَّذي لا عِوَج فيه ولا تعاريج، وأحسن الطُّرق الَّتي تكون مستقيمةً هي الجادَّة؛ لأنَّ الطَّريق المستقيم باستقامته ووضوحه يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضلُّ فيه سالكُه، ولا يزيغُ، ولا يتردَّد، ولا يتحيَّر، ولا يتخبَّط[5].

الـطَّـريـق المستقيم هو أقصر الـطُّـرق لـلـوصـول إلى الغاية

لفظ (المستقيم) هنا مستعارٌ للحقِّ البيِّن الَّذي لا يخالطُه

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (أتى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرط).
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 1/63.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/190.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/191.

شُبْهة باطلٍ، أو تشويش زيغٍ، فهو كالطَّريق الواضح الَّذي لا تتخلَّله بنايات[1].

في لفظ الاستقامة وجه استعارة للحقِّ البيِّن الَّذي لا يخالطُه شُبهة باطل

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصِّراط، والطَّريق، والسَّبيل:

الفرق بين هذه الألفاظ: أنَّ "الصِّراط هو الطَّريقُ السَّهل، قال الشَّاعر[2]:

حشونا أَرضهم بِالخَيلِ حتَّى *** تركناهم أذلَّ مِنَ الصِّراط

الصِّراط هو الطَّريق السَّهل، والطَّريق لا يَقتضي السُّهولة

وهو مِنَ الذُّلِّ خلاف الصُّعوبة، وليس منَ الذُّلِّ خلاف العزِّ، والطَّريق لا يقتضي السُّهولة، والسَّبيل: اسم يقع على ما يقع عليه الطَّريق، وعلى ما لا يقع عليه الطَّريق، تقول: سبيل اللّه وطريق اللّه، وتقول: سبيلك أَن تفعل كذا، ولا تقول طريقك أَن تفعل كذا، ويُرَاد به سبيل ما يَقصِدهُ، فيضاف إِلى القاصد، ويُراد به القَصد، وهو كالمحبَّة في بابه، والطَّريق كالإرادة"[3].

واستقامة الصِّراط قرينة اليسر؛ إذ باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضلُّ فيه سالكُه، ولا يتردَّد ولا يتحيَّر، وكذلك هي الهداية وضوحًا، ويسرًا، وبيانًا، ومن هنا اختير - في السِّياق القرآنيِّ - لفظ "الصِّراط"؛ ليناسب مَطلَع الآية الكريمة وختامها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/191.

(2) نسب ابن جرير في جامع البيان: 1/128، هذا البيت إلى أبي ذؤيب، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/147 إلى عامر بن الطفيل، والسيوطي، الإتقان: 1/155 إلى عبيد بن الأبرص، ولم نقف عليه في دواوينهم، ويروى مطلع الصَّدر بالآتي: (وطِئنا، شحنًّا، حشونا).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 298.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النّساء: 69]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر اللّه ﷻ في الآيات السَّابقة فضلَ الطَّاعة وجزاءها؛ وهَبَ لهم في هذه الآية الكريمة جزاءً آخرَ، هو كرمُ الصُّحبة في الدُّنيا والآخرة، فهم إذ يسيرون في الصِّراط المستقيم الموصل إلى اللّه؛ يكونون في قافلة الأطهار، وما أحسنها رفقة طاهرة كريمة طيِّبة!(1)، فالآية تَكرارٌ للأمر بطاعة اللّه وطاعة الرَّسول بعد أن بدأها بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النِّساء: 59]، ثمَّ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّساء: 64] مزيِّفًا - فيما بينهما - طريقة الَّذين تحاكموا إلى الطَّاغوت، وصدُّوا عنِ الرَّسول، ورغَّب بعدها في تلك الطَّاعة بالوعد بالتَّثبيت، والأجر العظيم، والهداية إلى الطَّريق المستقيم، وتكرار الأمر تأكيدٌ له، وحثٌّ عليه بمرافقة الَّذين أنعم اللّه عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين(2).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: الصَّادُ والدَّالُ والقافُ: أَصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء قولًا وغيرَه، مِن ذلك الصِّدق: خلافُ الكذب، سُمِّيَ لِقوَّته في نفسه؛ ولأَنَّ الكذبَ لا قوَّةَ له، فهو باطلٌ، وأَصلُ هذا مِن قَولِهم: شيءٌ صَدْقٌ، أَي: صُلْبٌ، والصِّدِّيق: المُلازِمُ للصِّدق(3)، ومَن يُصَدِّقُ بكلِّ أمرِ للّه والنَّبيِّ ﷺ لا يتخالجه شكٌّ في شيء(4)، والدَّائم التَّصديق الَّذي يُصَدِّقُ قولَه بالعمل(5)، ويُقالُ لِمَن يكثر منه الصِّدق، ولا يكذب قطُّ، أو لِمَن لا يتأتَّى منه الكذب لتعوُّده

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1750.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/132 - 133.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(4) الخليل، العين: (صدق).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (صدق).

الصِّدق، أو لِمَن صدَق بقولِه واعتقادِه، وحقَّقَ صدقه بفعله، فالصِّدِّيقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة[1]، ومصداقًا لذلك صيغ اللَّفظُ على هيئة المبالغة؛ ليدلَّ على عُمق الإيمان وقوَّته، فهم ذو إيمان صُلب لا تُلينه الفتن والشَّدائد[2]، وحقيقٌ بأن يكونوا من أتباع الأنبياء، وأَصحاب رسول الله ﷺ[3].

2) ﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾: الشِّينُ والهاءُ والدَّالُ: أَصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلام، لا يَخرُجُ شيءٌ مِن فروعه عن هذا الأصل[4]، والشَّهيد: المقتول مجاهدًا في سبيل اللَّه تعالى. وسُمِّيَ شهيدًا لقيامه بشهادة الحقِّ حتَّى قُتل في سبيل الله، أو لأنَّه يشهدُ كرامةَ الله تعالى له في الآخرة[5]، أو لأَنَّ روحه تشهد الجنَّة عَقِيب القَتل[6]، أو لحضور الملائكة إيَّاه شاهدة له بالجنَّة، أو لأنَّ روحه تشهد عند الله، أو لأنَّه حيٌّ عند ربِّه، كأنَّه شاهدٌ حاضرٌ[7].

3) ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾: الصَّادُ واللَّامُ والحاءُ: أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلاف الفساد[8]، فالصَّلاحُ: نقيض الطَّلاح[9]، وأصلح الشَّيء بعد فساد: أَقامه، والصَّالحون جمع: صالح، وهو: الَّذي يؤدِّي إلى الله ﷻ ما افتُرض عليه، ويؤدِّي إلى النَّاس حقوقَهم[10]، وكلُّ من صلح عمله، أو كلُّ مَن صلُحَت سريرته وعلانيته[11]، وبه تُفسَّر اللَّفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿رَفِيقًا﴾: الرَّاءُ والفاءُ والقافُ: أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على مُوافقةٍ ومُقاربةٍ بلا عُنفٍ، فالرِّفقُ: خلافُ العُنفِ، واللُّطفُ وحُسن الصَّنيع[12]، ولين الجانب ولطافة الفعل، هذا هو الأَصل، ثمَّ يُشتقُّ منه كلُّ شيءٍ يدعو إلى راحةٍ وموافقةٍ[13]، وقد ترفَّق عليه، وارتفق:

(1) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدق).
(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/504، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/446.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد) بفتح الهاء وكسرها.
(5) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/504 - 505.
(6) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/446.
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(9) الخليل، العين: (صلح).
(10) ابن سيده، المحكم: (صلح).
(11) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/505.
(12) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رفق).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفق).

توكَّأ[1]، واشتقاقه مِنَ الباب للموافقة، ولأَنَّهم إذا تماشَوا، تَحاذَوا بمرافقهم[2]، أو لأنَّ كلَّ واحد أصبح متّكأً للآخر، ورفيقُكَ: الَّذي تجمعه وإيَّاك رُفقةٌ واحدة، في سفر يُرافقكَ، وقد تَرافَقوا وارتفَقوا فهم رفقاء، الواحد رفيق، والصَّاحب قريبٌ يؤنسُ، ويعينُ، ويجعل الحياة طيِّبة، وهذا كلُّه نفعٌ، وتيسير[3]، وقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، أي: رُفقاء في الجنَّة[4].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

من عظيم العطاء مصاحبة خير الرُّفقاء

ومَن يستجب لأوامر اللّه بأداء الفرائض، واجتناب النَّواهي، ويتَّبِعْ هديَ رسوله محمد ﷺ في السُّنن الّتي سنَّها؛ فأولئك الَّذين عَظُم شأنهم وقدرهم بالهداية والتَّوفيق في الدُّنيا، وكانوا في صحبة مَن أنعم اللّه تعالى عليهم بالجنَّة مِنَ النَّبيِّين، والصِّدِّيقين الَّذين كمُل تصديقهم بما جاءت به الرُّسلُ، اعتقادًا وقولًا وعملًا، والشُّهداءِ في سبيل اللّه، والصَّالحين من المؤمنين، وحَسُنَ هؤلاء رفقاء في الجنة[5]، وألمح القرطبيُّ إلى أنَّ هذه الآية الكريمة هي مصداقُ قوله ﷺ: "خير الرُّفقاء أربعة"؛ لهذا لم يذكر اللّه تعالى هنا إلَّا أربعة[6].

ونقلتْ أُمُّنا عائشةُ رضي الله عنها سببَ نزولها بقولها: "جاء رجلٌ إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: يا رسول اللّه إنَّك لأحبُّ إليَّ من نفسي وأهلي وولدي، وإنِّي لأكون في البيت، فأذكُرك، فما أصبر حتَّى آتيك، فأنظر إليك،

(1) ابن سيده، المحكم: (رفق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رفق).
(4) الخليل، العين: (رفق).
(5) الخازن، لباب التَّأويل: 1/397، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 89.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/272، والحديث أخرجه ابن ماجه، في سننه، الحديث رقم: (2827) واللفظ له، والطبراني، المعجم الأوسط: 7/14، والقُضاعي، مسند الشهاب: 2/224، باختلاف يسير، وصحَّح إسناده الألبانيّ، صحيح الجامع، الحديث رقم: (7850).

وإذا ذكرتُ موتي وموتك؛ عرفتُ أنَّك إذا دخلتَ الجنَّة رُفِعْتَ مع النَّبيِّين، وإنِّي إذا دخلتُ الجنَّة خشيتُ ألَّا أراك، فلم يرُدَّ رسول اللّه ﷺ شيئًا حتَّى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية"[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى: أحقِّيَّة خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أنَّ اللّه تعالى لمَّا ذكر مراتب أوليائه في كتابه بدأ بالأعلى منهم، وهم النَّبيُّون، ثم ثنَّى بالصِّدِّيقين، ولم يجعل بينهما واسطة، وأجمع المسلمون على تسمية أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه صدِّيقًا، كما أجمعوا على تسمية محمَّد ﷺ رسولًا[2].. وتهدي أيضًا إلى: الحثِّ على الطَّاعة والتَّرغيب فيها، فإنَّ خصوصَ السَّبب لا يَقدَحُ في عُموم اللَّفظ، فالآية عامَّة في حقِّ جميع المكلَّفين[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغِيُّ:

بيان الوصل بالاستئناف في المَطلَع:

قال العماديُّ: "كلامٌ مستأنفٌ فيه فضلُ ترغيبٍ في الطَّاعة، ومزيدُ تشويقٍ إليها ببيان أنَّ نتيجتَها أقصى ما ينتهي إليه هممُ الأممِ، وأرفعُ ما يمتدُّ إليه أعناقُ عزائمِهم من مجاورة أعظم الخلائقِ مقدارًا، وأرفعِهم منارًا، متضمِّنٌ لتفسير ما أُبهم في جواب الشَّرطيَّة السَّابقة، وتفصيل ما أجمل فيه"[4].

في الاستئناف البيانيِّ فضلُ ترغيبٍ في طاعة الله، ومزيدُ تشويقٍ إليها

ويجوز أن تكون هذه الآية تذييلًا لجملة: ﴿وَإِذًا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، وإنَّما عُطِفَت باعتبار إلحاقها بجملة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ على جملة: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾[5].

وتذييل لجملة إيتاء الأجر

(1) أسباب النُّزول، ص: 111، وقال الحافظ ابن حجر، العجاب في بيان الأسباب: 2/914: "رجاله موثقون"، ينظر: لوادعيّ، الصّحيح المسند من أسباب النُّزول، ص: 79 - 80.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/134 - 135، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/273.
(3) ابن عادل، اللّباب: 6/476.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116.

بلاغة صيغة التَّعبير عنِ الطَّاعة:

التَّعبير بالمضارع أمَارةُ ديمومةِ فعل الطَّاعات وتجدُّدِها

عبَّر عنِ الاستجابةِ لطاعة اللّهِ ورسولِه ﷺ بصيغة المضارع: ﴿وَمَن يُطِعِ﴾؛ لتقرير معنى ديمومة الطَّاعات، واستمرارها وتجدُّدها كلَّ حين، وذلكم خُلُقُ الطَّائعِ الحقّ وصفتُه.

صوغ الطَّاعة على هيئة الجزم إلماحٌ بحتميَّة التَّنفيذ، وعدم العصيان

وفي مجيء لفظ الطَّاعة بصيغة الجزم ﴿يُطِعِ﴾ فعلًا للشَّرط إلماحٌ بحتميَّة الخضوع، والتَّنفيذ، وعدم العصيان، وقطعيَّة الإذعان للأوامر والنَّواهي؛ ذلك أنَّ المُرادَ بالطَّاعة الانقيادُ التَّامُّ والامتثال الكامل لجميع الأوامر والنَّواهي[1]، فهي أمارةُ الاتِّصاف بتمام معناها، أي: ألَّا يَعصي اللّه ورسولَه[2].

علَّة تكرار فعل الطَّاعة:

الطَّاعة أساسُ حُسن المثوبة، وتكرارها تحريضٌ عليها، ودعوةٌ إليها

أورد تعالى ذكر الطَّاعة فيما مضى من آيات تصريحًا: في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّساء: 64] ومعنًى: في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ [النِّساء: 65]، وكرَّر ذكر الطَّاعة ههنا، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾؛ "لأنَّ هذه الطَّاعة هي الأساس في هذه الأجزِية المجزية، الرَّافعة السَّامية الهادية، وفي تكرارها تحريضٌ عليها، ودعوةٌ إليها"[3].

سرُّ نسبة الطَّاعة مقرونةً باسمه تعالى، واسم رسوله:

إظهار اسمه الكريم مظنَّة عناية بالطَّاعة، وإتْباعُها بذكر الرَّسول تشريفٌ له

إظهارُ اسمه تعالى في مورد ذكر الطَّاعة مظنَّة عناية، واهتمام بها بوصفها موئلًا للقربات، وطريقًا للنَّجاة، وسبيلًا لتحصُّل المكرمات، وإتباعها بذكر الرَّسول معرَّفًا بأل العهديَّة الدَّالَّة على النَّبيِّ محمَّد ﷺ تشريفٌ له، وتكريمٌ، وإعلاءٌ لمكانته بتوحيد طاعة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1750.

اللّه تعالى وطاعته، وتجريدِ اتِّباعه، والاهتداءِ بهديهِ، فطاعتُه من طاعةِ اللّه سبحانه.

جمال التَّعبير باسم الإشارة:

الإشارة للبعيد فيها التَّفخيم والتَّعظيم بعلوِّ درجتهم ورفعة منزلتهم في الشَّرف

قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المطيعين، والجمعُ باعتبار معنى ﴿وَمَن يُطِعِ﴾، كما أنَّ الإفرادَ في فعل الشَّرطِ باعتبار لفظِها، وما فيه من معنى البُعد مع القُرب في الذِّكر؛ للإيذان بعلوِّ درجتِهم، وبُعد منزلتِهم في الشَّرف[1]، فصيغة البُعْد مع ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للتَّفخيم والتَّعظيم[2].

اسم الإشارة فيه التَّنبيه على جدارتهم بمضمون الخبر

جيء باسم الإشارة في جملة جواب الشَّرط؛ للتَّنبيه على استحقاقهم، وجدارتهم بمضمون الخبر عنِ اسم الإشارة لأجل مضمون الاتِّصافِ بتَمامِ مَعْنى الطَّاعَةِ الَّذي قبل اسم الإشارة[3].

توجيه معنى المعيَّة:

الدار واحدة، والمُتنعَّم واحد، وتفاوت الدَّرجات ومدخول المعيَّةِ أرسخُ وأعرف

كون المطيعين مع الأصناف الكريمة الأربعة، أنَّهم في دار واحدة، ومُتنعَّم واحدٍ، وكلٌّ من فيها قد رُزِق الرِّضا بحاله، وذهب عنه أنْ يعتقدً أنَّه مفضولٌ، وإنْ كان أهلُ الجنَّة تختلف مراتبهم على قدر أعمالهم، وعلى قدر فضل اللّه على من شاء[4]، فالمعيَّةُ المذكورة هي معيَّة المنزلة في الجنَّة، وإن كانتِ الدَّرجات متفاوتة، فليس المرادُ بالمَعيَّةِ التّساوي في الدَّرَجةِ والمَنْزلةِ؛ فدلَّت ﴿مَعَ﴾ على أنَّ مكانةَ مدخولِها أرسخُ وأعرفُ، وفي الحديث "أنت مع من أحببت"[5].

رفعُ المُطيعين إلى منازل الأعلى مرتبة، والعكس

وتحتملُ المعيَّة هنا كونهم يُرفعون إلى منازل من فوقهم من الأنبياء والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين متى شاؤوا تكرُمةً لهم،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(2) القونويُّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 7/218.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/116.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/76.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116، والحديث الشريف أخرجه البخاري، الحديث رقم: (6167)، ومسلم، الحديث رقم: (2639).

ثمَّ يعودون إلى منازلهم، أو: أنَّ الأعلى منزلةً ينزلون إلى من دونهم منزلةً ليتذاكروا نعمةَ اللّه عليهم[1]، فليس المُرادُ كون الكلِّ في درجة واحدة؛ لأنَّ هذا يقتضي التَّسوية في الدَّرجة بين الفاضل والمفضول، بل المُراد كونهم في الجنَّة بحيث يتمكَّن كلُّ واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بَعُد المكانُ؛ لأنَّ الحجاب إذا زال؛ شاهد بعضهم بعضًا، وإذا أرادوا الزِّيارة والتَّلاقي؛ قَدَروا عليه[2].

بلاغة حذف المُنعَمِ به:

الإشعارُ بقصور العبارة عن تفصيل المُنعَمِ به وبيانه

عند قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ تَرْكُ ذكرِ المُنعَم به، والاكتفاءُ بذكر المُنعَم عليهم؛ للإشعار بقصور العبارة عن تفصيله، وبيانه[3]، فعطاء اللّه وثوابُه لا يوفِّيه وصفٌ، ولا يُحيطه كمٌّ.

الإنعامُ بحذف المُنعَمِ به دلَّ على عميم نِعمِ الله، وخيراته دنيا وأخرى

أطلقَ تعالى الإنعامَ بحذف المُنعَم به؛ ليشمل كلَّ إنعام؛ لأنَّ مَن أنعم اللّه عليه بنعمة الإسلام لم تبقَ نعمةٌ إلَّا أصابته، واشتملت عليه، ولا خيرٌ إلا أحاط به[4].

براعةُ إظهار فاعل النِّعمة:

إكرامُ المُنعَم عليه، والإشادةُ به، ورفع قدره

إنّ ذِكرَ فاعل النِّعمة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، وإضافتها إليه تعالى مُصرَّحًا باسمه الكريم؛ فيه إكرامُ المُنعَم عليه، والإشادةُ بذكره، ورفعُ قدره ممَّا ليس في حذفه، فإذا رأيت مَن قد أكرمه مَلِكٌ وشرَّفه، ورفعَ قدره، فقلت: هذا الَّذي أكرمه السُّلطان، وخَلَعَ عليه، وأعطاه ما تمنَّاه، كان أبلغَ في الثَّناء والتَّعظيم من قولك: هذا الَّذي أُكرم، وخُلِع عليه، وشُرِّف، وأُعطِي،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/299.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/133.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 1/136.

فأضاف سبحانه إلى نفسه أكملَ الأمرين، وأسبقَهما، وأقواهما، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنِّعم إليه[1].

إضافةُ الإنعام إلى الله تعالى تفضُّلٌ منه، وتمنٌّ

وفي إضافة النِّعمة إليه باسمه تعالى دليلٌ على أنَّ الهداية إلى الطَّاعة محضُ نعمة، وتفضُّلٌ منه تعالى[2]، وإن سُعيَ له، وكُدَّ في استحصال أسبابه، وفي ذلك ترغيبٌ يبعث النُّفوس على الاجتهاد، وبذلِ الوِسع دون الاعتماد.

علَّة ذِكر الرَّسول ﷺ دون الأنبياء عليهم السلام:

تحقُّقُ أنَّ طاعتَه ﷺ متضمِّنةٌ لطاعتهم

في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيانٌ للمُنعَم عليهم، ويندرج تحته سائرُ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام مع أنَّ الكلامَ في بيان حكم طاعة نبيِّنا ﷺ لتحقُّقِ أنَّ طاعته ﷺ متضمِّنةٌ لطاعتهم؛ لاشتمالِ شريعتِه الَّتي لا تتغيَّرُ بتغيُّر الأعصار على شرائعهم[3].

بلاغة لفظ الصِّدِّيق:

الصِّدِّيقُ المُبَالِغُ في الصِّدق، ومَن عادتُه الصِّدق

(الصِّدِّيق) صيغةُ مبالغة على وزنِ (فِعِّيل) مِنَ الصِّدق، وقِيل: مِنَ الصَّدَقَة[4]. والصِّدِّيق المبالِغُ في الصِّدق[5]، حتَّى أضْحتْ عادتُه الصِّدق، ومن غلب على عادتِه فعلٌ، ووصِفَ بذلك الفعل، قِيل فيه: (فِعِّيلٌ) مبالغةً؛ ولذلك قِيل هذا الوصفُ في كلِّ مَن صدَّق بكلِّ الدِّين، لا يتخالجه فيه شكٌّ[6].

سرُّ توحيد التَّمييز(الرَّفيق):

التَّمييز المُفردُ دلالةٌ على قوَّة الرُّفقة، وشدَّة القُرب

وحَّد (الرَّفيق) وهو صفة لجمعٍ؛ لأنَّ الواحد في التَّمييز ينوب عنِ الجماعة[7]؛ ولأنَّ الرَّفيق والرَّسول تذهب به العرب إلى الواحد وإلى

(1) ابن القيّم، تفسير القرآن الكريم، ص: 16.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/38.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198 - 199.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/76.
(5) السَّمعانّي، تفسير القرآن: 1/446.
(6) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/133.
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/78.

الجمع قال تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، فبيَّن تعالى أنَّ الأنبياء والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين يكونون له كالرُّفقاء من شدَّة محبَّتهم له، وسرورهم برؤيته، والمعنى: حسُن كلُّ واحد منهم رفيقًا[1]؛ لأنَّ الرَّفيق هو الصَّاحب الَّذي يلازمك في عمل أو سفر، وسمِّي رفيقًا؛ لأنَّك ترتفق به وتستعين، ويعاون كلٌّ منكما صاحبه، ويأنس به في العمل، والسَّفرِ، والملازمة بشكل عامٍّ[2].

توحيد التَّمييز دلالة على أنَّ جميع الرُّفقاء بمعنى رفيق واحد

يحتمل المعنى: أنَّ جميع المذكورين في ذلكم المشهد كلُّ واحدٌ، بمعنى: هم بمنزلةِ رفيقٍ واحد؛ دلالةً على قوَّة الرُّفقة، وشدَّة القُرب، "وإنَّما أفرد؛ لأنَّ الحُسنَ في ذات الرُّفقة، ولأنَّ المصاحبة إفراديَّة، فكلُّ واحد يصاحب الآحاد والجميع، فهم جميعًا في معنى رفيق واحد، لتشاكُلِ النُّفوس وتوافقها"[3].

نكتةُ العدول مِنَ الصَّاحب إلى الرَّفيق:

ملمحُ اللِّين واللَّطافة يناسب اجتماع الممدوحين الأربعة في لفظ الرَّفيق

الرَّفيق: الصَّاحب، وسمِّي الصَّاحب رفيقًا للارتفاقِ به وبصحبته، ويُقالُ للجماعة في السَّفر: رُفْقةٌ؛ لارتفاق بعضهم ببعض[4]، فالرِّفقُ: اللُّطْفُ واللِّينُ، وهو ضِدُّ العُنْفِ والشِّدَّة، ويأتي بِمعنى: اليُسْرِ والسُّهُولَةِ، وأصْلُه: النَّفْعُ[5]، ومعناه: اللُّطفُ والمُبَالغَة في الْبرِّ على أحسن وجوهه، وَكَذَلِكَ الرِّفْق فِي كلِّ أَمر أَخذه بِأَحْسَن وجوهه وأقربها، والمداراةُ مع الآخرين، ولينُ الجانب، وصاحبه يسمَّى رفيقًا، وملمحُ اللِّين واللَّطافة يناسب الممدوحين الأربعة واجتماعهم، ويناسب جوَّ الآيات البادي فيها ملمح اللِّين والسُّهولة واليُسر المتمثِّل بألفاظ الإيتاء، والهداية.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/136.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1753.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1753.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/78، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/136.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، عياض، مشارق الأنوار: (رفق).

وجهُ ترتيب منازل الممدوحين:

رُتِّبت منازلُ الممدوحين بحسب شرفهم، ومكانتهم منَ الأعلى إلى الأدنى

الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حدَّ الكمال إلى درجة التَّكميل(1)، لا بُدَّ هم المقدَّمون، ثمّ إنَّ الشَّهيد قد يكون صدِّيقًا، وقد لا يكون، ومعنى الصِّدِّيق الَّذي كان أسبقَ إيمانًا من غيره، وكان إيمانه قدوةً لغيره، فثبتَ أنَّ كلَّ مَن كان صدِّيقًا كان شهيدًا، وليس كلُّ مَن كان شهيدًا كان صدِّيقًا، ثمَّ إنَّ كلَّ مَن كان شهيدًا كان صالحًا، وليس كلُّ مَن كان صالحًا كان شهيدًا، فالشَّهيدُ أشرف أنواع الصَّلاح، فثبت أنَّ أفضل الخلق هم الأنبياء عليهم السلام، وبعدهم الصِّدِّيقون، وبعدهم مَن ليس له درجة إلَّا محض درجة الشَّهادة، وبعدهم مَن ليس له إلَّا محض درجة الصَّلاح(2)، فجاء ترتيبُ المُنعَم عليهم - على هذا القول - على حسب التَّنزُّل منَ الأعلى إلى الأدنى. وفي هذا ترغيبٌ للمؤمنين في طاعة اللّٰه وطاعة رسوله ﷺ، حيث وعدوا بمرافقة أقرب عباد اللّٰه إلى اللّٰه، وأرفعهم درجات عنده، وأعلاهم منزلة(3).

براعة التَّرقِّي في العطايا:

مناطُ التَّرقِّي في العطايا التَّرقِّي في المنازل

وعدَ تعالى في الآيتين المتقدِّمتين أهلَ الطَّاعة بالأجر العظيم، والثَّواب الجزيل، والهداية إلى الصِّراط المستقيم، ثمَّ ذكر في هذه الآية وعدهم بكونهم مع الَّذين أنعم اللّٰه عليهم منَ النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وهذا الَّذي وقع به في الختم لا بدَّ أن يكون أشرف وأعلى ممَّا قبله(4)، ومناطُ التَّرقِّي في العطايا بحسب التَّرقِّي في المنازل وفاق خيرات الأعمال، وتعدُّد الطَّاعات، وصدق النِّيَّات، وفي هذا ترغيب للمؤمنين في الطَّاعة، والاستزادة منها ليترقَّوا في الدَّرجات، وينالوا نصيبًا منَ القربات.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/82.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/135.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/300.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/133.

التَّذييل تقريرٌ لمَا قبلَه، مؤكِّدٌ للتَّرغيب والتَّشويق

بلاغة جملة التَّذييل:

تُعَدُّ الآيةُ الكريمة جملةَ تذييلٍ مقرِّرٍ لمَا قبلَه؛ لتأكيدِ التَّرغيب والتَّشويق[1] في العمل الصَّالح الَّذي يوصل المسلم إلى صحبة هؤلاء الكرام[2].

الفروقُ المُعجَمِيَّة:

الرُّفقة شدَّة الملازمة، وعدم ذهاب المسمَّى مع لين، ولطافة الفعل

الرُّفقة، والصُّحبة، والصَّداقة:

الصَّاحب الملازم، ولا يُقال في العُرف إلَّا لمن كثُرت ملازمتُه[3]، والصَّداقة: صدق الاعتقاد في المودَّة[4]، أمَّا الرُّفقة والرَّفيقُ؛ فهو الَّذي تجمعه وإيَّاك رُفقةٌ واحدة، في سفر يُرافقك، وَلِأَنَّهُمْ إِذَا تَمَاشَوْا؛ تَحَاذَوْا بِمَرَافِقِهِمْ، فإذا تفرَّقوا؛ ذهب عنهم اسم الرُّفقة، ولا يذهب اسم الرَّفيق، وتُسمَّى الرِّفقة ما داموا منضمِّين في مَجلس واحد ومسير واحد، وقد تَرافَقُوا وارتفَقُوا فهم رُفقاء، الواحد رفيق، وصاحبٌ رفيقٌ: ليِّن الجانب لطيف الفعل مِنَ الرِّفق[5]، فاختيار الرَّفيق أنسب لسياق الآية الكريمة لشدَّة الملازمة، والمُوَافَقَة وَالمُقَارَبَة، وعدم ذهاب المسمَّى، وإن حصل تفرُّقٌ، فضلًا عن صفتي اللِّين، ولطافة الفعل الَّتي تناسب المصطفَيْنَ الأخيار.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/199.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/210.
(3) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رفق).

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾ [النّساء: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللّه كلَّ ما ترتَّب على طاعة اللّه، وطاعة الرَّسول ﷺ من أجر عظيم، وهداية إلى الصِّراط المستقيم، ورفقة مع الأخيار الأبرار أشار في هذه الآيةِ الكريمة إلى أنَّ ذلك الجزاءَ هو فضلٌ منَ اللّه تعالى العليِّ الكبير[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾: الفاءُ والضَّادُ واللَّامُ: أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، والفضلُ: هو الزِّيادةُ والخيرُ، والإفضالُ: الإِحسانُ[2]، وأفضَلَ فلان على فلانٍ: أنالَه من فضلِه، وأحسَنَ إليه[3]، والفواضل: الأيادي الجميلة[4]، فالفضل: الزِّيادة عنِ الاقتصاد، وذلك ضربان: محمود: كفضل العلم والحلم، ومذموم: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه[5]، وكلُّ نعم اللّه ﷻ فَضلٌ منه[6]، وفضل اللّه في الآية نِعَمُه الَّتي مَنَّ بها على عباده منَ التَّثبيت، والأجر العظيم، والهداية، ومرافقة المقرَّبين المصطَفَينَ الأخيار.

المَعْنَى الإجماليُّ:

تُنال الأُعْطيات بفضل منَّان الأرض والسَّموات

في معنى الآية الكريمة وجهان: أحدهما أنَّ جزاء مَن يطيع اللّه ورسوله هو الفضل الكامل الَّذي لا يعلوه فضل، فإنَّ الصُّعود إلى إحدى تلك المراتب في الدُّنيا، وما يتبعه من مرافقة أهلها، وأهل من

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1754.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(3) الخليل، العين: (فضل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فضل).
(5) الرّاغب، المفردات: (فضل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فضل).

فوقها في الآخرة، هو منتهى السَّعادة، فيه يتفاضل النَّاس فيَفْضُلُ بعضهم بعضًا، وهو منَ اللّه تفضَّل به على عباده، وثانيهما: أنَّ ذلك الفضل الَّذي ذكره مِن جزاء المطيعين هو منَ اللّه تعالى[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى: بيان أنَّ المرء لن ينال تلك الدَّرجة العظيمة بطاعته، وإنَّما ينالها بفضل اللّه ﷻ، وبرَحْمَتِه، فهُوَ الَّذِي أَهَّلَهُمْ لِذَلِكَ، لَا بِأَعْمَالِهِمْ[2]، وكون الجزاء بفضل اللّه فيه إشارة إلى أنَّ العمل وحده لا يستوجب العطاء، وأنَّ الطَّاعة فيها مصلحة للعباد[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّعبير باسم الإشارة:

التَّعبير باسم الإشارة تقرير ما للمطيعين مِنَ الأجر والفضل

في الابتداء بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما للمطيعين مِنَ الأجر، ومزيد الهداية، ومرافقة المُنعَم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المُنعَم عليهم ومزيَّتهم[4].

بديع نسبة الفضل إليه:

نَسبَ تعالى الفضل إلى نفسه؛ تفخيمًا لأمره، وتنبيهًا على تفرُّد علمه

بيَّن اللّه تعالى أنَّ ذلك الفضل الَّذي ذكره بقوله: ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ هو منَ اللّه على الإطلاق لا من غيره، فنُسبَ إلى نفسه؛ تفخيمًا لأمره[5]، وتنبيهًا على أنَّه هو أعلم بمقادير الفضل وأعرف وأدرى، وقد حكم بأنَّ الفضل المعتدَّ به هو ذاك[6].

يجوز أن يكون ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ خبر الابتداء هو، ويجوز أن يكون مبتدأ، و﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ خبره، كقولك: ذاك هو الرَّجل، وهذا هو المال، تنبيهًا على كماله؛ فإنَّ الشَّيءَ إذا عَظُم أمره؛ يوصف باسم جنسه،

(1) رضا، تفسير المنار: 5/202.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/248، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/357.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1754.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1315، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/137.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1316.

كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 68][1]، والتَّقدير: ذلك هو الفضل منَ اللّه، ومعناه: أنَّ ذلك الثَّواب لكمال درجته كأنَّه هو الفضل منَ اللّه، وأنَّ ما سواه فليس بشيءٍ[2].

فضل المُنْعِم سبحانه تامٌّ كاملٌ، وما سواه ليس بشيءٍ

قصديَّة التَّعبير عنِ الجزاء بلفظ الفضل:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ ردٌّ على تقدير مُعترِض على وجوب استواء أهل الطَّاعة والنَّبيِّين في منازل الآخرة، لبيان الفرق بينهم في الدُّنيا، فذكر اللّه تعالى أنَّ ذلك بفضله لا بوجوبٍ عليه[3]، ولا رادَّ لفضله إذا أنعم، وجازى، وأكرم.

إيثار لفظ الفضل للتَّذكير بأنَّ استواء المنزلة بفضله لا بوجوبٍ عليه

كون الجزاء بفضل اللّه فيه إشارة إلى أنَّ العمل وحده لا يستوجب العطاء، إنَّما هو من فضل اللّه تعالى.

التعبير بـ"الفضل" إشارة إلى أنَّ العمل وحده لا يستوجب العطاء، إنَّما هو من فضل الله تعالى

فإن قال قائل: أو ليس بالطَّاعة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من فضله؟

قيل له: إنَّهم لم يطيعوه في الدُّنيا إلَّا بفضله الَّذي تفضَّل به عليهم، فهداهم به لطاعته، فكلُّ ذلك فضل منه تعالى ذكره[4]، فقد صحَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "لا يُنجِي أَحَدَكُم عَمَلُهُ، قَالوا: ولا أَنتَ يا رَسولَ اللّهِ؟ قال: ولا أَنا إلَّا أَن يَتَغَمَّدَني اللّهُ منه برحمةٍ، فَسَدِّدوا، وقارِبوا، واغدوا، وروحوا، وشَيءٌ مِنَ الدُّلجَةِ، - أي: من قيام اللَّيل-، والقَصدَ القَصدَ تَبلُغوا"[5].

سرُّ تعريف جزئَي جملة الفضل:

تعريفُ الجزأين في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ يفيد الحصر،

التَّعريف حصرٌ ادِّعائيٌّ أُريد به المبالغة في قوَّة هذا الفضل

(1) الرّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1315.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/137.
(3) ابن عطيَّة، المحرِّر الوجيز: 2/76.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 7/217.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1754، والحديث الشريف أخرجه البخاري، الحديث رقم: (6463)، ومسلم، الحديث رقم: (2816).

وهو حصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ فضل اللّه أنواع، وأصناف، ولكنَّه أُريد المبالغة في قوَّة هذا الفضل، ووصف عظَمته، فهو كقولهم: أنت الرَّجل[1].

علَّة إدخال الباء في لفظ الجلالة:

إدخال الباء للدَّلالة على الأمر في (وكفى)، ولتأدية معنى مطلق التَّسليم

أُدخلَت الباء على اسم اللّه في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾؛ لتدلَّ على الأمر الَّذي في قوله: ﴿وَكَفَىٰ﴾، وفيه معنى أن يقول: فسلِّموا لفعل اللّه وتفضُّله بدل الاعتراض عليه، واكتفوا بعلمه في ذلك وغيره[2]، فدخول الباء مُشعِرٌ بأنَّ قوله: ﴿وَكَفَىٰ﴾ مُتضمِّنٌ للفعل (اكتفِ)، والتَّقدير: اكتفِ باللّه عليمًا بطاعة المطيعِ منهم ومعصيةِ العاصي، فإنَّه لا يخفى عليه شيء من ذلك.

توجيهُ فاصلة الآية الكريمة:

علم الله تعالى بكيفيَّة الطَّاعة، ومجازاتها، فيه ترغيبٌ بتحقُّقها على وجهها الأكمل

في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ موقعٌ عظيم في توكيد ما تقدَّم منَ التَّرغيب في طاعة اللّه؛ لأنَّه تعالى نبَّه بذلك على أنَّه يَعْلَم كيفيَّة الطَّاعة، وكيفيَّة الجزاء، والتَّفضُّل، وذلك ممَّا يُرغِّبُ المكلَّف في كمال الطَّاعة، والاحتراز عنِ التَّقصير فيه[3].

التَّذييل فيه إشارة إلى علم الله تعالى بما لا يعلمه النَّاس من فضل وجزاء

التَّذييل بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ للإشارة إلى أنَّ الَّذين تلبَّسوا بهذه المنقبة، وإن لم يعلمهم النَّاس، فإنَّ اللّه يعلمهم، والجزاء بيده، فهو يوفِّيهم الجزاء على قدر ما علم منهم[4]، فهو سبحانه يعلم من يستحقُّ فضله وعطاءه، ومن لا يستحقُّ، وأنَّ الطَّاعة هي طاعةٌ للعليم بكلِّ شيء، فالطَّاعة فيها مصلحة للعباد[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/76.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/137.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1754.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ [النّساء: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن أرشد الله تعالى المسلمين إلى ما به أمنهم الدَّاخلي أراد توجيههم إلى ما به أمنهم مع الخارجين عنهم المخالفين لهم في الدِّين، وذلك إمَّا بمعاهدات تطمئنهم على دينهم وأنفسهم ومصالحهم، وإمَّا باتِّقاء شرِّهم بالقوَّة[1]، فاستأنف منتقلًا إلى التَّحريض على الجهاد في إشارة إلى تهيئة غزوة من غزوات المسلمين[2]، والتَفَتَ إلى المُؤْمِنِينَ؛ مُلَذِّذًا لَهم بِحُسْنِ خِطابِهِ، ونادِبًا إلى الجِهادِ مَعَ الإرْشادِ إلى الاسْتِعْدادِ لَهُ[3]، بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته، فعلَّمهم مباشرة الحروب[4]، فأعقب التَّرغيب في الطَّاعات بذكر الجهاد؛ لأنَّه أشقُّ الطَّاعات؛ ولأنَّه أعظم الأمور الَّتي بها يحصل تقوية الدِّين[5].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُذُواْ﴾: الهمزةُ والخاءُ والذَّالُ: أَصلٌ واحدٌ تَتَفَرَّع منه فروعٌ مُتقاربةٌ في المعنى، والأَصلُ: حَوزُ الشَّيءِ وجَبيُه وجَمعُه[6]، وذلك تارةً بالتَّناول، وتارة بالقهر[7]، والأخذ خلاف العطاء، وهو التَّناول[8]، ومعنى الأمر بالأخذ في الآية الكريمة: احزموا، واستعدُّوا بأنواع الاستعداد[9]، وتيقَّظوا، واحترزوا منَ الأعداء[10].

(1) رضا، تفسير المنار: 5/203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/117.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/323.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/273، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/302.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/137.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(7) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أخذ).
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/77.
(10) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.

2) ﴿حِذۡرَكُمۡ﴾: الحاءُ والذَّالُ والرَّاءُ: أَصلٌ واحدٌ، وهو مِنَ التَّحَرُّز والتَّيَقُّظ، ورجل حَذِرٌ: مُتَيَقِّظٌ مُتَحَرِّزٌ، والحاذر: المُتَأَهِّب[1]، والحَذَرُ: احتراز من مخيف[2]، وكلُّ مفردات التَّركيب القرآنيَّة هي بمعنى: التَّحرُّز[3]، والحذر في الآية الكريمة: هو الاحتراز عمَّا يُخاف[4]، أو هو: ما يُحذَر به كالحزم والسَّلاح[5]، وفُسِّر بمعنى: أسلحتكم[6].

3) ﴿فَٱنفِرُواْ﴾: النُّون والفاءُ والرَّاءُ أَصلٌ: صحيحٌ يدلُّ على تَجافٍ وتباعُدٍ[7]، والنَّفْرُ: الانزعاج عنِ الشَّيء وإلى الشَّيء، كالفزع إلى الشَّيء وعنِ الشَّيء[8]، والاستنفار: الاستنجاد والاستنصار[9]، والخروج للقتال[10]. ومعنى: انفِروا في الآية الكريمة: اخرجوا مجدِّين مصمِّمين[11].

4) ﴿ثُبَاتٍ﴾: الثُّبات: جمع الثُّبَة، وهي الجماعة المنفردةُ منَ النَّاس[12]، وهي مأخوذة من (ثاب)، أَي: عاد ورجع، والمعنى المحوريُّ له: "تجمُّع المتفرِّق تجمُّعًا جزئيًّا هنا وهنا، أو مرَّة بعد أخرى: كتجمُّع الماء في الحوض مرَّة بعد أخرى، وتجمُّع النَّاس فِرَقًا"[13]، ومعنى قول اللّٰه تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾، فانفروا عُصَبًا إِذا دُعيتم إِلى السَّرايا، أَو دُعيتم لتنفروا جميعًا، أو جماعاتٍ في تَفرقة: وكلُّ فِرقة: ثُبَة، أو انفروا في السَّرايا فِرَقًا، أي: فِرقة فِرقة وعُصبة عُصبة منَ الفرسان[14].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمرُ اللّٰه المؤمنين بالحذر، واتِّقاء أذى الأعداء بالتَّأهُّبِ للِّقاء، والاحتراس ليس

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حذر).
(2) الرَّاغب، المفردات: (حذر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حذر).
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 5/79.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.
(6) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1316.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفر).
(8) الرَّاغب، المفردات: (نفر).
(9) ابن الأثير، النِّهاية: (نفر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (نفر).
(11) ابن عطيّة، المحرِّر الوجيز: 2/77.
(12) الرَّاغب، المفردات: (ثبا).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ثبو).
(14) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ثوب - ثيب) وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ثبو).

بالقعود في الدِّيار، بل بالاستعداد لمواجهة الأعداء في الميدان، والنُّفرة للحرب، جماعةً بعد جماعة، تمرُّ بالثُّغور الَّتي تواجه الأعداء، أو تلاقي من تستطيع لقاءه منهم، أو إذا تكاثف العدوُّ في مكان، وأصبحت لا تكفيه جماعة الجند العامل، فلينفر الجندُ كلُّه، وليتقدَّم للميدان جميعًا[1].

الاستعداد للحرب بالحذرِ، وبالنَّفرة جماعاتٍ وجمعًا

وترشدُ الآية الكريمة إلى: وجوب المبادرة إلى الخيرات كلِّها كيفما أمكن قبل الفوات، وذلك على مقتضى إطلاق لفظها؛ لكونها نزلَت في الحرب[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ وجه مناداة المؤمنين:

(يا): حرفٌ وُضِع في أصله لنداء البعيد، وأمَّا نداءُ القريب؛ فبالهمزة، فإذا نُودي به القريب المُفاطن؛ فذلك للتَّأكيد المؤذن بأنَّ الخطاب الَّذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا[3]، فينزل لذلك المخاطبُ منزلةَ الغافل تهييجًا وإلهابًا ليتلقَّاه بشَراشِره ومجامعِ قلبه[4].

للتَّأكيد بأنَّ الخطاب الَّذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا

نادى اللَّه تعالى عباده بهذا التَّركيب ها هنا وفي غيره من مَواضِع القرآن؛ للدَّلالة على أنَّ ما يتلوه من خطاب خاصٌّ بأوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، وغيره من أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضَتِ الحال أن ينادَوْا بالآكدِ الأبلغ، ولذلك كثُر في كتاب اللَّه النِّداء على هذه الطَّريقة ما لم يكثر في غيره[5].

استقلال النِّداء بأوجهٍ مِنَ التَّأكيد، وأسبابٍ مِنَ المبالغة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1756.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/89.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 2/282.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/90.

وجه نداء المؤمنين أمرُهم بالجهاد، وتهيئة لوازمه

ناداهم تعالى في المَطلَع باسم الإيمان على عادته تعالى؛ إذا أراد أن يأمر المؤمنين بشأنٍ ما، أو ينهاهم عنه[1].

سرُّ وصفهم بالمؤمنين:

فيه تنشيطٌ لهم، وحثٌّ على مراعاة ما يعقُبه مِنَ الأمر

وصفَهم تعالى بالإيمان إثرَ تَعدادِ ما يوجبه ويقتضيه؛ تنشيطًا لهم، وحثًّا على مراعاة ما يعقُبه مِنَ الأمر[2]، وإرشادًا لهم إلى التَّحوُّط بأمور الجهاد، وقواعد الحرب.

نكتة تقديم الحذر على النُّفرة:

ابتدأ بالحذر للحثِّ على اتِّقاء خدع الأعداء، وعدم الاغترار بالهدنة

ابتدأ بالأمر بأخذِ الحذر، وهو أكبر قواعد القتال لاتِّقاء خدع الأعداء، والحذر: هو توقِّي المكروه، ومعنى ذلك: ألَّا يغترُّوا بما بينكم وبين العدوِّ من هدنة صلح الحديبيَّة؛ فإنَّ العدوَّ وأنصارَه يتربَّصون بهم الدَّوائر، ومن بينهم منافقون مندسُّون بينكم، هم أعداء في صورة أولياء، وهم الَّذين عنوا بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾[3].

قدَّم الحذر؛ لأنَّ النُّفرة غاية له، ومتمِّم

فرَّعَ على أخذ الحذر ما هو الغاية له، والمقصد منه، أو المُتمِّم له، فقال: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾[4].

بلاغة المجاز والاستعارة في التَّعبير بالأخذ:

الحذر لا يؤخذ على الحقيقة، وإنَّما يصحُّ الأخذ على ما يتأتَّى إمساكه بالأيدي

قوله: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ استعارة ومجاز؛ لأنَّ الحذر لا يؤخذ على الحقيقة، وإنَّما يصحُّ الأخذ على ما يتأتَّى إمساكه بالأيدي مِنَ الأجسام، كالأسلحة المتعاطاة والآلات المستعملة، وما يجري مَجْرى ذلك، والمُراد: تمسَّكوا بالحذر، وأديموا استشعاره، كما تتمسَّكون بالشَّيء الَّذي تشتمل عليه أكفُّكم، وتتعلَّق به أناملكم[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/302.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/179.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/117 - 118.
(4) رضا، تفسير المنار: 5/206.
(5) الرَّضّي، تلخيص البيان، ص: 52 - 53، والإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/244.

لفظ ﴿خُذُواْ﴾ استعارة لمعنى شدَّة الحذر وملازمته؛ لأنَّ حقيقة الأخذ تناول الشَّيء الَّذي كان بعيدًا عنك، ولمَّا كان النِّسيان والغفلة يشبهان البُعد والإلقاء كان التَّذكُّر والتَّيقُّظ يشبهان أخذ الشَّيء بعد إلقائه، كقوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [الأعراف: 199]، وقولهم: "أخذ عليه عهدًا وميثاقًا"[1].

وجه الاستعارة التَّعبير عن شدَّة الحذر، وملازمتِه

معنى ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾: تيقَّظوا واستعدُّوا للأعداء، إشارة إلى أنَّ الحذر منَ الجزم، وهو ضبط الرَّجل أمره، ففيه استعارة مكنيَّة وتخييليَّة[2]، حيث شُبِّه التَّيقُّظ والتَّنبُّه بشيء محسوس من شأنه أن يؤخذ، فحذفه، وأسند شيئًا من لوازمه، وهو الأخذ إلى المُشبَّه.

الحذر بمعنى الجزم، استعارة مكنيَّة وتخييليَّة

التَّعبير بأخذ الحذر بين الحقيقة والكناية:

يجوز أن يُستفاد معنى التَّيقُّظ والاستعداد من لفظ: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ على طريق الكناية من أخذ الحذر بمعنى: السِّلاح، ولو بالتَّشبيه بذكر لازمٍ من لوازم التَّيقُّظ فذكَرَ اللَّازم، وأُريد به الملزوم الَّذي هو التَّيقُّظ والاستعداد، هذا على أن يكون المُرَادُ بالحذر: المعنى المصدريَّ، فتعلُّق الأخذ به حينئذٍ يكون على التَّشبيه، ولذا قِيل في تفسيره: كأنَّهم جعلوا الحذرَ الآلةَ، وأمَّا إذا كان المُراد به ما يحذر له، أي: ما يتَّقي به، يكون الحذر اسمًا لا مصدرًا، فالتَّعلُّق حينئذٍ حقيقة لا مجاز مبنيٌّ على التَّشبيه كالأوَّل، فالمُراد به على الثَّاني الحزم، والسِّلاح على الاستعارة بالكناية؛ لأنَّ بهما يُحذر، ويُتَّقي، والقرينة ﴿خُذُواْ﴾[3].

الحذر على الحقيقة الحزمُ، وعلى الكناية السِّلاح وآلة الوقاية

علَّة الاحتراز مِنَ المخوِّف:

احترز من ذكر المخوِّف، كأنَّه جعل الحذر آلته الَّتي يقي بها نفسه، ويعصم بها روحه، والمعنى: احذروا واحترزوا منَ العدوِّ، ولا تمكِّنوه من أنفسكم، فانفروا إذا نفرتم إلى العدوِّ[4].

جعل الحذر آلته الَّتي يقي بها نفسه؛ فاحترز مِنَ المخوِّف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/118.
(2) القونويُّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 7/223.
(3) القونويُّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 7/223، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 3/221.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/532.

وجه الكناية في ﴿ثُبَاتٍ﴾:

الكناية التَّعبير عنِ السَّرايا

معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾: جماعات متفرِّقات، فهي كناية عنِ السَّرايا، وهي العصابة مِنَ النَّاس[1]، فهو أمرٌ منه تعالى بالخروج إلى الجهاد جماعةً جماعة، وسَريَّة بعد سَريَّة، أو كتيبة واحدة مجتمعة أدَّى معناها لفظ ﴿جَمِيعًا﴾[2].

حكمةُ الأمر بالخروج للجهاد جماعات، وجمعًا:

إظهارٌ للجُرْأة في السَّرايا، وإيقاعٌ للمهابة في الجَمْع، ومبالغةٌ في التَّحرُّز عنِ الخطر

في قوله: ﴿ثُبَاتٍ﴾، معنى: جماعات متفرِّقين سريَّة بعد سريَّة، وفرقة بعد فرقة؛ وفي ذلك إظهارٌ للجرأة، وقوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، أي: مجتمعين كلَّكم كوكبة واحدة؛ إيقاعًا للمهابة بتكثير السَّواد، ومبالغة في التَّحرُّز عنِ الخطر[3].

وجه الطِّباق بين ﴿ثُبَاتٍ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾:

الطِّباق بين اللَّفظين قوَّى دلالة التَّخيير

بين لفظي: ﴿ثُبَاتٍ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾ طباقُ[4]إيجابٍ في الجَمْع بين الشَّيء وضدِّه تصوير لحالة التَّخيير في النُّفرة بين أن يكونوا عصَبًا متفرِّقين، وبين أن يكونوا جمعًا متَّحدين.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/77، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/274.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/302.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 3/221.
(4) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/244.

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢﴾ [النّساء: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تقدَّم ذكر المُنافقينَ؛ ذكر في هذه الآية تحذير المؤمنين من قَبول مقالاتهم، وتثبيطهم عنِ الجهاد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾: الباءُ والطَّاءُ والهمزةُ: أَصلٌ واحدٌ، وهو البُطءُ في الأَمر[2]، وأَبطَأَ عليه الأَمرُ: تَأَخَّرَ[3]، والبُطءُ: نقيض السُّرعة[4]، وتأخُّر الانبعاث في السَّير[5]، فالمعنى المحوريُّ للبطء هو: ثِقَلُ حركةِ الشَّيء وانتقاله، وكأنَّما أصلُ ذلك ثقلُ جِرْمِه من ضخامة[6]، ومعنى ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، أي: ليتثاقلَنَّ، وليتأخَّرنَّ، وليتخلَّفَنَّ عنِ الجهاد[7].

2) ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾: الصَّادُ والواوُ والباءُ: أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على نُزول شيءٍ واستِقراره قَرارَه، ومنه الصَّوبُ، وهو نُزولُ المطرِ، والنَّازل صَوبٌ[8]، وفي دائرة هذا الأصل تدور معاني اللَّفظتين، فأصابته مصيبة، أي: أخذته، فهو مُصاب[9]، والإصابة في الخير تكون اعتبارًا بالصَّوب، أي: بالمطر، وفي الشَّرِّ تكون اعتبارًا بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل النُّزول والاستقرار[10]، والإصابة: النُّزول بالشَّيء واللَّحاق به خيرًا كان

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/302.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بَطَأَ).
(3) ابن سيده، المحكم: (بطأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بطأ).
(5) الرَّاغب، المفردات: (بَطَأَ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (بطأ).
(7) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/372، جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (بَطأ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(9) الجوهريّ، الصِّحاح: (صوب).
(10) الرَّاغب، المفردات: (صوب).

النَّازل أم شرًّا، ثمَّ كثر في الشَّرِّ[1]، والمصيبة أصلها في الرَّمية، ثمّ اختصَّت بالنَّائبة[2]، نحو: ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾؛ وهي الأمر المكروه ينزل بالإنسان[3]، وهي النَّازلة، وكلمةُ (مصيبة) لم تُستعمل في القرآن إلَّا في التَّعبير عمَّا يعُدُّه الإنسان شرًّا[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التَّحذير من المرتبطين بالحظوظ والمصالح، ومن تثبيط المُرجفين

يخبِرُ اللّه عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد الَّذين يتثاقلون عن القتالِ في سبيل اللّه ضَعْفًا وخَوَرًا وجُبْنًا، فهم لم تستقرَّ عقائدُهم على وصف واحد، فكانوا مرتبطين بالحظوظ والمصالح، فإذا رأوا مكروهًا نازلًا على المسلمين؛ شكروا، قال الواحد منهم: الحمد للّه الَّذي حَفِظني من متابعتهم، فكان يصيبني ما أصابهم، فقد حفظني اللّه حين لم أكن حاضرًا مع أولئك الَّذين وقع لهم ما أكرهه لنفسي، وسرَّه تخلُّفه عنكم[5].

وترشدُ الآية الكريمة إلى: أنَّ أداة النَّصر تهيئة أسبابه، ومعالجة آفاته الَّتي من أهمِّها إرجاف المُنافقينَ، وتوهينهم العزائمَ والهممَ.

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلَاغِيُّ:

بيان توجيه الخطاب إلى المؤمنين:

الخطاب لكشف المُنافقينَ المندسِّين بينهم

الخطابُ موجَّهٌ لعسكر رسولِ اللّه ﷺ كلِّهم، المؤمنين منهم والمُنافقينَ[6]، وقد وجَّه القرآنُ الخطابَ إلى المؤمنين لكي يكشف لهم عنِ المُنافقينَ المندسِّين في صفوفهم لكي يحذروهم[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).
(2) الرَّاغب، المفردات: (صوب).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (صوب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).
(5) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/346، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 89، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 89.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/215.

علَّة توكيد المطَلَع بـ﴿وَإِنَّ﴾:

الحديث في الآية السَّابقة عن تحذير المؤمنين، وأُكِّد مطلع الجملة هنا بـ﴿وَإِنَّ﴾ المشدَّدة؛ لأنَّ فعل الإبطاء مستبعدُ الوقوع ممَّن اتَّصف بالإيمان، فهو غريبٌ عند المُخاطَب[1].

فعل الإبطاء عن القتالِ مستبعدُ الوقوع ممَّن اتَّصف بالإيمان

وجهُ جعل المنافق قسْمًا منَ المؤمنين بقوله ﴿مِنكُمْ﴾:

عبَّرَ بـ: ﴿مِنكُمْ﴾؛ لاجتماع المُنافقينَ مع أهل الإيمان في النَّسب والاختلاط، أي: ممَّن يعيشون معكم، ويساكنونكم، ويرتبطون معكم برباط القَرابة، ويتظاهرون بالإسلام، فلقد كان المنافقون في المدينة تربطهم بالمؤمنين الصَّادقين روابط متعدِّدة، كما هو معروف في التَّاريخ الإسلاميِّ[2]، ويحتمل معنى ﴿مِنكُمْ﴾: من أهل دينكم[3].

أُدرج المنافق مع المؤمنين لاجتماعه معهم في الدِّين والمساكنة والقرابة

ويجوز أنَّه تعالى جعلهم منَ المؤمنين بحسب الظَّاهر؛ لأنَّهم كانوا في الظَّاهر متشبِّهين بأهل الإيمان، أو كأنَّه قيل: يا أيُّها الَّذين آمنوا في زعمكم ودعواكم، كقوله حكايةً عن المشركين في شأن النَّبيِّ ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ [الحِجر: 6][4].

ولتشبُّههم بأهل الإيمان ظاهرًا

بيان المراد بقوله: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾:

يجوز أن يُراد المُنافقونَ، أو أريد بهم ضُعفاء المؤمنين الَّذين يتثاقلون عنِ الخروج إلى أن يتَّضح أمرُ النَّصر[5].

المبطِّئون هم المنافقون، أو ضعفاء المؤمنين المتثاقلون

وجه تعدية فعل الإبطاء، ولزومه:

وفي مَعْنى ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ قَوْلانِ: أحَدُهُما: لَيُبَطِّئَنَّ هو بِنَفْسِهِ، وهو قَوْلُ ابْنِ عَبّاسٍ. والثّاني: لَيُبَطِّئَنَّ غَيْرَهُ، قالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ[6]، ومن

في التَّعدية إبطاءُ الآخر، وفي اللُّزوم إبطاءُ النَّفس

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/38.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/248، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/138، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/215.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.

(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/248، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/138.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.

(6) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/431.

توجيهات المفسِّرين: أنَّ فعل الإبطاء إمَّا متعدٍّ بسبب التَّشديد؛ فيكون المفعول محذوفًا، أي: لَيُبَطِّئَنَّ غيرَه، أي: يُثَبِّطُه ويُجبنُه عنِ القتال، وعنِ الغزو، كما ثبَّط المنافق عبدُ الله بن أُبيٍّ ناسًا يوم أُحد، وإمَّا لازم؛ فقد جاء بطَّأ بالتَّشديد بمعنى: أبطَأ، أي: ليتكاسلَنَّ، ليتثاقلَنَّ، وليتخلَّفَنَّ عنِ الجهاد[1].

على وجهي التَّعدية واللُّزوم صحَّ الوَصفُ بالنِّفاق

إن حُمِلَ على أنَّه منَ الإبطاء والتَّثاقل؛ صحَّ في المُنافقينَ؛ لأنَّهم كانوا يتأخَّرون عن الجهاد، ويتثاقلون، ولا يُسرعون إليه، وإن حُمِلَ على تثبيط الآخر؛ صحَّ أيضًا فيهم، فقد كانوا يثبِّطون كثيرًا منَ المؤمنين بما يوردون عليهم من أنواع التَّلبيس، كقوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ [التَّوبة 47]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التوبة 81]، فكلا الوصفين موجودان في المُنافقينَ[2].

توجيه معنى اللَّامين في الآية:

اللَّام الأولى لتوكيد الخبر، والثَّانية للقسم

اللَّام المفتوحة في ﴿لَمَن﴾ للابتداء، وهي اللَّام المزحلقة، دخلت على اسم ﴿وَإِنَّ﴾ المشدَّدة لفصل الظَّرف بينهما، وتدخل توكيدًا للخبر، واللَّام في ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ جواب قسم محذوف تقديره: وإنَّ منكم أيُّها القوم لَمَن والله ليبطِّئنَّ، أو لَمَن أقسم باللَّه ليبطِّئنَّ[3]، وفي الجمع بين اللَّامين مزيد توكيد للخبر.

علَّة حشد التَّوكيدات في الخبر:

الذي يُتلقَّى بالاستغراب أحرى بحشد التَّوكيدات

أُكِّد الخبرُ بأقوى المؤكِّدات؛ لأنَّ هذا الخبر من شأنه أن يُتلقَّى بالاستغراب[4]. وتوكيدُه مظنَّةُ تحقُّقه؛ لذا ذكر فيها ستَّة أنواع من

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/139، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83، والنَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/446.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/139، ومن المفسِّرين من ردَّ معنى حمل غيرهم على البطء، فإنَّ الخطاب للمؤمنين، وهذا لا يصدر عن مؤمن، ورضا، تفسير المنار: 5/207.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 8/539، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/459 - 1/532.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.

التَّوكيدات: أوَّلها: كلمة ﴿وَإِنَّ﴾ وهي للتَّأكيد، وثانيها: اللَّام الدَّاخلة على الموصول ﴿لَمَن﴾؛ وهي الدَّاخلة توكيدًا للخبر، وثالثها: القسم المُضمر؛ فإنَّ تقدير الكلام (وإنَّ منهم واللّٰه ليبطِّئنَّ)، ورابعها: اللَّام الثَّانية الدَّاخلة على جواب القسم في الفعل ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، وخامسها: النُّون المؤكِّدة في قوله: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، وسادسها: الجملة الاسميَّة، فبجماع المؤكِّدات السِّتَّة تحقَّق معنى: أنَّ أمر الإبطاء ثابت في فعل المُنافقينَ المندسِّين بينكم، فاحذروهم، فالخطب جلل[1].

حشدُ التَّوكيدات إشـارةٌ إلى مزاولة التَّبطئة الكاملة، والإصرارِ عليها

يشي تركيبُ الجملة كلِّها: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ بما اشتمل عليه من أساليب توكيد بشتَّى المؤكِّدات بأنَّ هؤلاء المجموعة منَ المبطِّئين - وهم معدودون منَ المسلمين - ﴿مِنكُمۡ﴾ يزاولون عملية التَّبطئة كاملة، ويصرُّون عليها إصرارًا، ويجتهدون فيها اجتهادًا، بما يوحي بشدَّة إصرارهم على التَّبطئة، وشدَّة أثرها في الصَّفِّ المسلم، وشدَّة ما يلقاه منها، ومن ثَمَّ يسلط السِّياق الأضواء الكاشفة عليهم، وعلى دخيلة نفوسهم، ويرسم حقيقتهم المنفِّرة.

بلاغة التَّعريض والإنكار في لفظ الإبطاء:

التَّعريض والإنكار؛ لكون داعي التَّثاقلِ النِّفاقَ أو الجبنَ

معنى (بطَّأ) بالتَّضعيف: تثاقل في نفسه عن أمر، وهو الإبطاء عنِ الخروج إبطاء بداعي النِّفاق أو الجُبْن، والإخبارُ بذلك يستتبع الإنكار عليه، والتَّعريض به، مع كون الخبر باقيًا على حقيقته؛ لأنَّ مستتبعاتِ التَّراكيب لا تُوصفُ بالمجاز[2].

فائدة تشديد الإبطاء:

المبالغة في الفعل، وتَكراره

صيغ فعل الإبطاء مشدَّدًا؛ للدَّلالة على مبالغتهم في هذا الفعل، وتكرارهم إيَّاه مرَّةً بعد مرَّة بسبب نفاقهم، وسوء نيَّاتهم[3].

(1) هذا المُعطى البلاغيُّ مُستنبطٌ من معنى قول الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405 - 406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/138، رضا، تفسير المنار: 5/207.

وجه المناسبة بين فعل الإبطاء، والإصابة بالمصيبة:

اضطرابُ المنافق وسوء نيَّته

قوله: ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ تفريعٌ عن ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ إذ إنَّ هذا الإبطاء يجرُّ للمنافق تارةً الابتهاج بالسَّلامة، ويجرُّ له تارةً الحسْرة والنَّدامة[1].

التَّعبير عن جماعة المبطِّئين بالإفراد:

التَّعبير بالمفرد فيه معنى الانفراد في الإحساس الَّذي اختصُّوا به

نُقل عن ابن جنِّي: أنَّ المعنيَّ في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ليس رجلًا واحدًا، ولكن معناه أنَّ هناك جماعةً هذا وصفُ كلِّ واحدٍ منهم، فلمَّا كان جمعًا في المعنى؛ أُعيد الضَّمير إلى معناه دون لفظه[2]، وفي هذا التَّعبير عن هذه الجماعة المنافِقَة أو ضعيفة الإيمان بالمفرد اتِّباعٌ للفظ (مَنْ) الَّذي يجوز عود الضَّمير عليه مفردًا، وإشارةٌ إلى معنى الانفراد في الإحساس الَّذي اختصُّوا به، ولم يشاركوا أحدًا في إحساسهم بالألم أو السُّرور[3].

دلالة الفاء في (إنْ) الشَّرطيَّة:

دلالــة الفــاء ترتيبُ مضمون الكلام على ما قبله

الفاء الدَّاخلة على (إنْ) الشَّرطيَّة لترتيب مضمونها على ما قبلها؛ فإنَّ ذِكرَ التَّبطئة مستتبِعٌ لذكرِ ما يترتَّب عليها، كما أنَّ نفسَ التَّبطئة مستدعيةٌ لشيءٍ ينتظرُ المُبطئُ وقوعَه[4]، وهي مُشعرة بتقدير محذوف قبلها: وإنَّ منكم مَن ليبطِّئنَّ، فيتقاعس عنِ الخروج، فتحدث المصيبة.

بلاغة التَّذييل في الفاصلة:

وجه التَّذييل توبيخُ المبطِّئين، وحثُّهم على تطهير نفوسهم

شرح اللّٰه في جملة التَّذييل حال هذا القسم منَ الضُّعفاء؛ توبيخًا لهم، وإزعاجًا إلى تطهير نفوسهم وتزكيتها، فقال: ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾، فَشُكرُهُ للّٰه على عدم شهوده لتلك الحرب دليل على ضعف إيمانه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/173، ولم أقف على نصّ كلام ابن جنّي في كتبه المطبوعة التي تيسّرت لي.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.
(5) رضا، تفسير المنار: 5/207.

وجه دخول ﴿قَدۡ﴾:

تحقيق معنى الإنعام بالسَّلامة تغليبٌ للدَّاعي الجبلِّيِّ على الدَّاعي الشَّرعيِّ

معنى أنعم في: ﴿قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾: الإنعامُ بالسَّلامة؛ فإن كان منَ المُنافقينَ فوصفُ ذلك بالنِّعمة ظاهر؛ لأنَّ القتل عندهم مصيبة محضة؛ إذ لا يرجون منه ثوابًا، وإن كان من ضِعاف المؤمنين؛ فهو قد عدَّ نِعمة البقاء أولى من نِعمة فضل الشَّهادة لشدَّة الجبن، وهذا من تغليب الدَّاعي الجبلِّيِّ على الدَّاعي الشَّرعيِّ[1]، ودخول (قد) تحقيقٌ لمعنى: الإنعام بالسَّلامة للعلَّة السَّابقة.

دلالات لفظ الشَّهيد:

الشَّهيد هو الحاضر المُشاهد للقتال، أو القتيل في الجهاد

الشَّهيد على كون المراد المُنافقينَ: إمَّا بمعنى: الحاضر المُشاهد للقتال، وإمَّا تهكُّمٌ من هذ المنافق الحاضر على المؤمنين، مثل قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: 7]، ويكون المُراد بالشَّهيد: معناه الشَّرعيَّ، وهو القتيل في الجهاد[2].

براعة فنِّ الفرائد في لفظ الإبطاء:

لفظ (ليبطّئنّ) رسمٌ لحالة تثاقل وتباطؤ كاملةً بلفظة واحدة

لفظة ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ فريدة من نوعها، ولا نظيرَ لها في قوَّة الفصاحة، وسموِّ درجاتِ البلاغة والرَّوعة، وهي مختارة هنا بكلِّ ما فيها من ثقل وتعثُّر، وإنَّ اللِّسان ليتعثَّر في حروفها وجرسها، حتَّى يأتي على آخرها، فلا ينهيها إلَّا ببطءٍ، وهو يشدُّها شدًّا يُشعر بمعنى: التَّبطئة المراد في الآية، لتصوِّر من ثمَّ الحركة النَّفسيَّة المُصاحبة لها تصويرًا كاملًا بهذا التَّعثُّر والتَّثاقل في جرسها، وذلك من بدائع التَّصوير الفنِّيِّ في القرآن الَّذي يرسم حالة كاملةً بلفظة واحدة[3].

براعة الجناس الاشتقاقيِّ:

في قوله: ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ تجنيس المغاير بحسب تعبير

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.

(3) الإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/244.

جمال التَّعبير، والتَّشوُّق لبيان كنهِه

أبي حيَّان[1]، وهو نفسه الجناس الاشتقاقيُّ؛ إذ بين اللَّفظتين المذكورتين الاشتقاق الواحد، وفيه اقتضابٌ، وهو يكسب التَّعبير جمالًا وحسنًا باتِّحاد الجَرْس، وتناسق الإيقاع، وإحداث ميلٍ للنَّفس نحو التَّشوُّق، والإصغاء لطبيعة المصاب، ونوعه، وكيفيَّة تنصُّل المنافقين منه.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/305.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧٣﴾ [النّساء: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا حكى اللّٰه في الآية السَّابقة ما يكشف عن دواخل النُّفوس من الحظوظ والمصالح الشَّخصيَّة لدى أهلِ النِّفاقِ، بفخرهم إذا رأوا مكروهًا نازلًا على المسلمين؛ ذكر في هذه الآيةِ وجهًا آخر للنِّفاق مرتبطًا بما قبله، فيه استكمالٌ لصورة الإرجاف، وحبِّ الدُّنيا، وتقديم مصلحة النَّفس وطمعها على الهدف الأسمى، فإن كان الفرح ديدنهم، إذ لم تصبهم النَّوازل، فإنَّ الحسدَ والحسرةَ حالهم جرَّاء فوت الفضل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَوَدَّةٌ﴾: "الواوُ والدَّالُ: كلمةٌ تدلُّ على محبَّةٍ، وَدِدتُه: أَحبَبْتُه، ووَدِدتُ أَنَّ ذاك كان؛ إذا تَمَنَّيته"[1]، فالودُّ: محبَّةُ الشَّيء، وتمنِّي كونه[2]، والوَدودُ - من أسماء اللّٰه تعالى - وهو المحبُّ لعباده يصلهم، ويُمِدُّهم برحمته، والَّذي خَلَقَ الوُدَّ، فأسكنه قلوب خَلْقِه[3]، وفُسِّرت المودَّة في الآية الكريمة بالمعرفة[4]، والصِّلة في الدِّين، والمعرفة بالصُّحبة[5]، والصُّحبة، والمحبَّة[6].

2) ﴿فَأَفُوزَ﴾: الفاءُ والواوُ والزَّايُ: أصلٌ يدلُّ على كلمتين مُتضادَّتين: فالأُولى النَّجاةُ، والأُخرى الهَلَكة، وفاز بالأَمر؛ إذا ذهب به، وخَلُص، ويُقالُ لِمَن ظَفِرَ بخيرٍ، وذهب به[7]، فالفوزُ: الظَّفَرُ بالخير، والنَّجاة منَ الشَّرِّ[8]، وهو: الظَّفر بالخير مع حصول السَّلامة[9]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ود).
(2) الرَّاغب، المفردات: (ودد).
(3) ابن منده، كتاب التوحيد: 422، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ودد).
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/249.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/222.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/120.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوز).
(8) الخليل، العين: (فوز).
(9) الرَّاغب، المفردات: (فوز).

وسائر ما في القرآن منَ هذا التَّركيب: هو الفوز بمعنى: النَّجاة، وما يلزمها منَ التَّنعُّم بنِعَم الجنَّة[1].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تتمَّة التَّحذير من عقائد المُنافقين

الخطاب موجَّهٌ إلى المؤمنين بأنَّكم إن نِلْتم نصرًا وغُنْمًا بفضل اللّه تعالى؛ فلا يفكِّر المنافقون في سروركم، ولا يحمدون اللّه على نصركم، ولكن يفكِّرون في أمانيهم، وما ينالهم من خير يرجونه، أو آلام يتجنَّبونها، فيتمنَّوْن أن لو كانوا معكم؛ ليفوزوا الفوز العظيم الَّذي نلتموه من غير أن يأبهوا بآلامكم ومسرَّاتكم، ليقولنَّ الواحدُ منهم - حاسدًا متحسِّرًا، كأن لم تكن بينكم وبينه مودَّة في الظَّاهر، ولو كانت ضئيلة -: يا ليتني كنت معهم، فأظفر بما ظَفِروا به من النَّجاة والنُّصرة والغنيمة، وهذا شأن الَّذي يحبُّ نفسه فقط، ولا يفكِّر في الجماعة الَّتي يعيش فيها[2].

وترشدُ هذه الآية الكريمة والَّتي قبلها إلى: أنَّ عامَّة النَّاس لا يعدُّون منَ الدُّنيا إلَّا أعراضها، فيفرحون بما ينالهم منها، ولا منَ المحن إلَّا مصائبها، فيتألَّمون بما يصيبهم منها[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة التَّعبير بجملة الشَّرط في المَطْلَع:

الشَّرطُ في المَطلَع إظهارٌ لأثَرِ نفاقِهم، فقد افتتح الآية بجملة الشَّرط؛ لِكون مضمونِها لمقصدِهم أوفقَ، وأَثر نفاقِهم فيها أظهر[4].

نسبةُ إصابة الفضل إلى اللّه تعالى منَ العادات الشَّريفة التَّنزيليَّة

وجهُ نسبة إصابة الفضل إلى الله تعالى:

نسبة إصابة الفضل إلى جناب اللّه تعالى دون إصابة المصيبة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوز).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 89.
(3) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1321.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.

مِنَ العادات الشَّريفة التَّنزيليَّة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشّعراء: 80][1]، فهو الملك الأعلى الَّذي كلُّ شيء بيده[2].

وجه التَّعبير بإصابة الفضل على طريق المجاز:

التَّعبير بإصابة الخير مع أنَّهم نالوه؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك إرادة الله تعالى

التَّعبير بإصابة الخير في قوله: ﴿أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٌ﴾ مع أنَّهم نالوه؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك إرادة الله تعالى، فإن أصابكم ما يؤلمكم فبإرادته، وإن نلتم من خير فبإرادته، وبتفضُّله[3].

التَّعبير بإصابة الفضل؛ للدَّلالة على شدَّته

أُسند الفعل مجازًا إلى ما لا يصحُّ وقوعه منه حقيقة في ﴿أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٌ﴾[4]، واستُعمل في الخير اعتبارًا بالصَّواب، أي: بالمطر، كما استُعمل في الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل العموم[5].

علَّة تنكير الفضل:

تنكير الفضل؛ لإرادة نوع واحد منه

أُريد بتنكير الفضل في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نوعٌ مِنَ الفضل[6] واحدٌ، فكيف إن كثُرَ؟ فالتَّنكير فيه مفيد التَّهويل والتَّعظيم.

سرُّ التَّوكيد في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

التَّوكيد للتَّنبيه على حالة المنافق، وفرطِ تحسُّره على ما فاته

أكَّد قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ باللَّام الموطِّئة للقسم، وبنون التَّوكيد؛ تنبيهًا على غريب حالته حتَّى ينزل سامعها منزلة المُنكر لوقوع ذلك منه[7]، وتنبيهًا على فرط تحسُّره[8]، وكأنَّ هذا المبطِّئ متلهِّفٌ على

(1) أبو السّعود، إرادة العقل السّليم: 2/200.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/306.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 27/186.
(6) السَّكَّاكي، مفتاح العلوم، ص: 241، والزّركشّي، البرهان: 2/363.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.

ما فاته منَ الغنيمة لا طلبًا للمثوبة[1]، فلمَّا كان تحسُّره إنَّما هو على فوتِ الأغراض الدُّنيويَّة أكَّد قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، أي: في غيبتكم[2].

بلاغةُ التَّشبيه بـ﴿كَأَن﴾:

هذا التَّشبيه مَسوق مساق زيادة التَّنديم والتَّحسير

﴿كَأَن﴾ المخفَّفة من الثَّقيلة، مضمَّنة معنى: التَّشبيه، ولكنَّها ليست كالثَّقيلة في الحاجة إلى الاسم والخبر، وإنَّما تجيء بعدها الجمل[3]، فهي مخفَّفة منَ الثَّقيلة واسمها محذوف، أي: كأنَّه[4].

وشَبَّه حالَهم - في حين هذا القول - بحال من لم تسبق بينه وبين المُخاطَبين مودَّة حقيقيَّة أو صوريَّة، فاقتضى التَّشبيه أنَّه كان بينه وبينهم مودَّة من قبل هذا القول، ووجه هذا التَّشبيه أنَّه لمَّا تمنَّى أنْ لو كان معهم، وتحسَّر على فوات فوزه لو حضر معهم، كان حاله في تفريطه رفقتهم يُشبه حالَ من لم يكن له اتِّصال بهم، بحيث لا يشهد ما أزمعوا عليه منَ الخروج للجهاد، فهذا التَّشبيهُ مَسوقٌ مَساق زيادة تنديمه وتحسيره، أي: أنَّه الَّذي أضاع على نفسه سببَ الانتفاعِ بما حصل لرفقته منَ الخير، أي: أنَّه قد كان له منَ الخلطة مع الغانمين ما شأنه أن يكون سببًا في خروجه معهم، وانتفاعِه بثواب النَّصر، وفخره، ونعمة الغنيمة[5]؛ لأنَّه لو كان ذا مودَّة؛ لقال حال المصيبة: يا ليتها لم تُصبْهم! ولو كنتُ معهم؛ لدافعتُ عنهم، وحال الظَّفر: لقد سرَّني عزُّهم، ولكنَّه لم يجعل محطَّ همِّه في كلتا الحالتين غير المطلوب الدُّنيويِّ[6].

بلاغة التَّنكير في لفظ المودَّة:

ذكْرُ المودَّة هنا نكرةً منفيَّةً في سياق التَّشبيه في أوج البلاغة الأعلى، فهي كلمة لا تدرِكُ شأوها أخرى، ولا تنتهي إلى غورها في

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/373.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/78.
(4) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/373.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/120.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325.

التَّأثير؛ ذلك بأنَّ قائلَ ذلك القول الَّذي لا يقولُه من كان بينَه وبين المؤمنين مودّةٌ ليس معدودًا منَ المؤمنين الَّذين هم إخوةٌ، بعضُهم أولياء بعض، فكيف يَصدر عن أحدٍ منهم مثلُ ذلك القول، وذلك التَّمنِّي؟ الَّذي يُشعر بأنَّ صاحبه لا يرى نعمةَ اللّه، وفضلَه على المؤمنين نعمة وفضلًا عليه، وهو لا يعقل أنْ يصدُر عمَّن كان بينه وبينهم مودَّة ما، ولو قليلة في زمن ما، ولو بعيدًا، أي: إنَّ قليلًا منَ المودَّة كان في وقت ما ينبغي أن يمنع عن مثل ذلك التَّمنِّي، وفي هذا منَ التَّقريع والتَّوبيخ بألطف القول وأرقِّ العبارة ما لا يقدر على مثله بلغاء البشر[1]، فتنكيرُ المودَّة لبيان تصغيرها[2].

التَّنكير مُشعرٌ أنَّ قليلًا منَ المودَّة كان ينبغي أن يمنع مثل تمنِّيهم

لفظ المودَّة بين الاستعارة والحقيقة:

آثر لفظ المودَّة؛ لأنَّ المُنافقينَ كانوا يبالغون في إظهار الودِّ والشَّفقة والنَّصيحة للمؤمنين[3]، فالمودَّة: الصُّحبة والمحبَّة، ويجوز أن يكون إطلاقُها على سبيل الاستعارة الصُّوريَّة؛ إن كان المراد به المنافق، وإمَّا أن تكون حقيقة؛ إنْ أريد ضعفاء المؤمنين[4].

وجه الاستعارة إرادة المنافق، ووجه الحقيقة إرادة ضعفاء المؤمنين

بيانُ تقدير التَّقديم في جملة التَّشبيه:

قِيل: إنَّ في قوله: ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾ تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: (فإِن أَصابَتكم مصيبة، قال: قد أنعم اللّه عليَّ؛ إِذ لم أكن معهم شهيدًا، كأَن لم تكن بينكم وبينه مودَّة)، أي: معاقدة ومعاهدة على الجهاد، وقيل: أَراد به: مودَّة الصُّحبة، ثمَّ ابتدأ: ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ بحذف جملة التَّشبيه[5].

وجهُ تقدير التَّقديم مناسبة نفي المودَّة للإصابة بالمصيبة

(1) رضا، تفسير المنار: 5/208.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/326.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/120.
(5) السَّمعانّي، تفسير القرآن: 1/447.

براعة دلالات الاعتراض بجملة التَّشبيه:

جماع الدِّلالات التَّنبيهُ على ضَعف عقيدتهم، وسوء نيَّتهم، وتأكيدٌ لذمِّهم

في قوله: ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾ أقوال: الأوَّل: أن يكون حكاية عنهم، أي: ليقولنَّ لمن يثبِّطكم: كأن لم تكن بينكم وبين محمَّد مودَّة، حيث لم يستعينوا بكم، ثمَّ يقولون: (يا ليتنا كنَّا معهم)، فيكون القول الأوَّل منهم إثارة للشَّرِّ، والقول الثَّاني منهم إظهارًا للحسد، والثَّالث: أنَّ ذلك اعتراض متعلِّق بالجملة الأولى، وتقديره يقولون: قد أنعم اللّه عليَّ إذ لم أكن معهم شهيدًا، كأن لم تكن بينكم وبينهم مودَّة، أي: قولهم ذلك قولُ من ليس بينكم وبينهم مواصلة دينيَّة، أي: نفى هذه المودَّة، وإنَّما يريد أن يكون معكم لمجرَّد المال، أو للحسد؛ وذلك تنبيهٌ على ضعف عقيدتهم، وسوء نيَّتهم[(1)]، وتأكيدٌ لذمِّهم[(2)].

وجهُ معنى نفي المودَّة التَّهكُّم بحالهم

كان المنافقون يوادُّون المؤمنين، ويصادقونهم في الظَّاهر، ويبغون لهم الغوائل في الباطن، فنفي تقدُّم المودَّة منهم: الظَّاهر أنَّه تهكُّم؛ لأنَّهم كانوا أعدى عدوٍّ للمؤمنين، وأشدَّهم حسدًا لهم، فكيف يوصفون بالمودَّة إلَّا على وجه العكس تهكُّمًا بحالهم[(3)].

نفيُ "المودَّة" يُظهِر زيادةً في قُبح فِعلهم

قال ابن عطيَّة: "المنافِقُ يعاطِي المؤمنين المودَّة، ويعاهِدُ على التزام كلف الإسلام، ثمَّ يتخلَّفُ نِفاقًا وشكًّا وكفرًا باللّه ورسوله، ثُمَّ يتمنَّى عندما ينكشِفُ الغيبُ الظَّفر للمؤمنين، فعلى هذا يجيء قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ﴾ التفاتةً بليغةً، واعتراضًا بين القول والمقول بلفظٍ يُظهِرُ زيادةً في قُبح فِعلهم"[(4)].

بيَّن الفخر الرَّازيُّ: أنَّ الجملة اعتراضٌ في غاية الحُسن؛ لأنَّ مَن أحبَّ إنسانًا؛ فَرِحَ لفرحه، وحزن لحزنه، فإذا قلب القضيَّة؛ فذلك

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1320 – 1321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/533، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.

(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/77 - 78.

المراد من جملة الاعتراض التَّعجُّب من قول المنافق

إظهارٌ للعداوة الَّتي لا يُقدِمُ عليها الإنسان إلَّا في حقِّ الأجنبيِّ العدوِّ؛ فحكى تعالى سرورَ المنافقِ الشَّديد عند نكبة المسلمين؛ بسبب أنَّه كان متخلِّفًا عنهم، ثمَّ أراد أن يَحكي حُزنَه، ويظهر غمَّه الشَّديد عند غلبة المسلمين؛ بسبب فواته الغنيمة، فَقَبْلَ أَنْ يَذكُرَ الكلام بتمامِه ألقى قوله: ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ﴾، والمراد التَّعجُّب، كأنَّه يقول: انظروا إلى ما يقوله هذا المنافق، كَأَن لم تَكُن بينكم وبينه مودَّةٌ ولا مخالطةٌ أصلًا[1]. وقرأ ابْن كثير وَحَفْصٌ ورويسٌ عن يعقوبَ ﴿تَكُنۢ﴾ بالتَّاء، وقرأ الباقون بالياء التَّحتيَّة ﴿يَكُنۢ﴾، وسبب الاختلاف بين القراءتين: مراعاة التَّأنيث المجازيِّ في ﴿مَوَدَّةٌۢ﴾، أو أنَّ الْمَوَدَّة والودَّ بِمَعْنى وَاحِد، كَمَا كَانَت الموعظة بِمَعْنى: الْوَعْظ، كما قَالَ اللّه ﷻ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: 275]، أو كما قَالَ علماءُ الْبَصْرَة: بسبب الفصل بَين الاسْم وَالْفِعْل بفاصل؛ صَار الْفَاصِل كالعوض من التَّأْنِيث[2].

جملة الاعتراض إشـــارةٌ إلى فـقـدهـم الإحـســاس الاجتماعيِّ فقدًا تامًّا

لقد فقدوا الإحساس الاجتماعيَّ الَّذي يحقِّق مودَّةً أيًّا كان مقدارها بين المتعاشرين، أو المتجاورين، أو المتجانسين فقدًا تامًّا، وهذا شأنُ كلِّ من ينفصل عن جماعته بالإحساس، والأنانيَّة الخسيسة[3].

الـغـرض مـن جملة الاعتراض إلـقـاءُ الـعـداوة بـيـنـهـم وبـيـنـه ﷺ

يجوز أن يكون معنى الجملة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ المثبطُ منَ المُنافقينَ وضَعَفة المؤمنين: كأن لم تكن بينكم وبين محمَّدٍ مودَّةٌ، حيث لم يستصحبكم في الغزو حتَّى تفوزوا بما فاز ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ﴾، وغرضُه إلقاءُ العداوة بينهم وبين النَّبيِّ ﷺ وتأكيدُها[4].

فائدة جملة الاعتراض:

من فوائد الجملة المُعترِضة أنَّها تؤثِّر في نفس مَن يتذوَّقها التَّأثير

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/139 - 139.

(2) ابن زنجلة، حجة القراءات: 208، وابن الجزري، النشر: 2/250.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759 - 1760.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.

دعوة إلى التَّأمُّل والتَّفكُّر ومعاتبة النَّفس أملًا في التَّوبة

الَّذي لا يدنو من مثله النَّبز بالألقاب، والطَّعن بهُجْر القول، التَّأثير الَّذي يحمل صاحبه على التَّأمُّل، والتَّفكُّر في حقيقة حاله، ومعاتبة نفسه، فإن كان فيه بقيَّة منَ الرَّجاء؛ تاب إلى ربِّه، ورجع كلُّه إلى حقيقة دينه(1).

وجه مباشرة حرف النِّداء (يا) لحرف التَّمنِّي (ليت):

التَّنبيه لأمر عظيم، أو تقدير منادًى محذوف

في حرف النِّداء (يا) قولان: أحدُهما: - وهوقولُ الفارسيِّ - أنَّها لمجرَّدِ التَّنبيه، فلا يُقدَّر منادًى محذوفٌ، ولذلك باشَرَتِ الحرفَ. والثَّاني: أنَّ المنادى محذوفٌ، تقديرُه: يا قوم، أو يا هؤلاء ليتني(2)، ووجهُ التَّنبيه فوتُ أمرٍ عظيمٍ يجرُّ عليهم المنفعة عُبِّر عنه بالفضل.

دلالة اتِّباع الفعل (أفوز) بالمصدر، والوصف بـ﴿عَظِيمًا﴾:

تلهُّف المبطِّئ على ما فاته، ورغبته بجريان المقادير على وَفْق مراده

يتمنَّى هذا المبطِّئُ أنْ لو كان معَ الجيش ليفوز فوزًا عظيمًا، وهو الفوزُ بالغنيمة، والفوز بأجر الجهاد، حيث وقعتِ السَّلامة والفوز برضا الرَّسول، ولذلك أتبع ﴿فَأَفُوزَ﴾ بالمصدر، والوصف بـ﴿عَظِيمًا﴾، ووجهُ غريبِ حالهِ أنَّه أصبحَ متلهِّفًا على ما فاته بنفسه، وأنَّه يودُّ أن تجريَ المقادير على وَفق مراده، فإذا قعد عنِ الخروج لا يصيبُ المسلمين فضل منَ اللّٰه(3).

الإشارة إلى أنَّ شأن الحسود استعظامُ الخير الَّذي ينال المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ استعظام الخير الَّذي ينال المؤمنين: هو شأن الحسود غير المحبِّ(4).

بلاغة الجناس الاشتقاقيِّ:

في قوله: ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ تجنيس مغاير(5)، أو اشتقاقي، أو مماثل، وهو محسِّنٌ بديعيٌّ يُكسب التَّعبير جمالًا وحُسنًا، باتِّحاد

(1) رضا، تفسير المنار: 5/208.
(2) العكبريّ، التِّبيان: 1/372، والسّمين، الدُّرّ المصون: 4/34.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119 - 120.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1760.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/305.

الجَرْس، وتناسق الإيقاع، وإحداث ميلٍ للنَّفس نحو التَّشوُّق والإصغاء لطبيعة الفوز، ونوعه، وكيفيَّته، وصورة عظمته.

حسن التَّعبير، والتَّشوُّق لبيان طبيعة الفوز

بلاغة تَكرار الفاصلة في الآيتين:

تَكرار لفظ ﴿عَظِيمًا﴾ في فاصلة هذه الآية والآيةِ التَّاليةِ؛ ليقابل بين تمنِّيهم غير المستحقِّ بالفوز العظيم، وبين إيتائه تعالى للمستحِقِّ منَ المؤمنين المجاهدين الصَّادقين الأجر العظيم، وشتَّان بين عِظَم ما يتمنَّون باطلًا أو حسدًا، وعِظَم منح اللّه من أجر مستحَقٍّ، وأنَّ عظيم ما تمنَّيتموه هو استحقاقٌ منَ اللّه تعالى للصَّادقين من المجاهدين لا للمُنافقينَ.

بيان أنَّ عظيم ما تمنَّيتموه هو استحقاقٌ للصَّادقين لا المُنافقين

﴿۞فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٧٤﴾ [النّساء: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ تعالى المبطِّئين في الجهاد؛ عاد إلى التَّرغيب فيه[1] للمؤمنين الَّذين يؤثرون ما عند الله تعالى في دار الجزاء على الكسب والغنيمة، وعلى الفخر بالقوَّة والغلب[2]، ولمَّا بيَّن أنَّ محطَّ حال القاعد عنِ الجهاد الدُّنيا؛ عُلِم أنَّ قصد المجاهد الآخرة، فسبَّب عن ذلك قوله: ﴿۞فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشْرُونَ﴾: الشِّينُ والرَّاءُ والحرف المعتلُّ: أصولٌ ثلاثةٌ: أَحدُها يدلُّ على تعارضٍ مِنَ الاثنين في أَمرَينِ أَخذًا وإِعطاءً ومُماثلةً، وهو قولهم: شَرَيتُ الشَّيءَ واشتَرَيتُه؛ إذا أَخَذته مِن صاحِبه بثمنه، ورُبَّما قالوا: شَرَيتُ، إذا بعتُ[4]؛ لأنَّ الشِّراء والبيع يتلازمان، فالمشتري دافع الثَّمن، وآخذ المُثمَّن، والبائع دافع المُثمَّن، وآخذ الثَّمن[5].

ومنَ المماثلة جاء معنى الشِّراء المشهور؛ وذلك للمماثلة بين المُشترَى وثمنه في القيمة، علمًا بأنَّ هذه المعاملة بدأت مبادلة؛ ولهذا استُعمل اللَّفظ في البيع والشِّراء معًا؛ لأنَّ الأمر يؤول إلى شيء بمثله، وكلُّ ما جاء في القرآن الكريم مِنَ الفعل (شرى يشري)؛ فالمراد به البيع، والفعل (اشترى - يشتري) يراد به الاشتراء بالمعنى المشهور، أي: أخذ السِّلعة، ودفع الثَّمن[6].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/140.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/209.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/326.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرى).
(5) الرَّاغب، المفردات: (شرى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (شرى).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

شرف الجهاد في سبيل الله حقيقٌ بمن يشري الدُّنيا بالآخرة

يحثُّ اللّه المتقدِّمين للقتال في سبيل اللّه كي تكونَ كلمة اللّه هي العليا، الَّذين لا ينظرون إلى مغنم يبتغونه، ولا مال يريدونه، وهم المؤمنون الصَّادقون الَّذين يبيعون الحياة الدُّنيا ومتعها وشهواتها رغبةً عنها، بالآخرة رغبة فيها، ومن يقاتلْ في سبيل اللّه؛ لتكون كلمته هي العليا، فيُقتلْ شهيدًا، أو يظهَرْ على عدوِّه، ويظفر به، فسيعطيه اللّه ثوابًا عظيمًا، وهو الجنَّة وما فيها من جنَّات وعيون، ونعيمُها ثابت دائم، ومعها رضوان اللّه[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى: أنَّ الَّذين يعيشون مع جماعة المؤمنين، ولا يحسُّون بإحساسهم، لا يخرجون إلى قتال، وإنَّما يخرج إلى القتال الَّذين يؤثرون على أنفسهم، ويقدِّمونها للّه تعالى رجاء ما عنده، فهؤلاء هم القوَّة، وهم العماد في الحروب والشَّدائد[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيان وصل الآية بما قبلها بالفاء:

الحثّ على ترك ما حكي عنهم آنفًا

الفاء: إمَّا للتَّفريع، تفريع الأمر على الآخر، أي: فرَّع ﴿۞فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ﴾

الفاء هي الفصيحة، أفصحت عمَّا دلَّت عليه الآية السَّابقة

وإمَّا هي فاء فصيحة، أفصحت عمَّا دلَّ عليه ما تقدَّم من قوله: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ لأنَّ جميع ذلك اقتضى الأمر بأخذ الحذر، وهو مهيِّأٌ لطلب القتال، والأمر بالنَّفير، والإعلام بمن حالهم حال المتردِّد المتقاعس، أي: فإذا علمتم جميع ذلك، فالَّذين يقاتلون في سبيل اللّه هُمُ الَّذين يشرون الحياة الدُّنيا بالآخرة لا كل أحد[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1760، جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 89.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1760.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 5/121.

الفاء للتَّعقيب؛ لــتــرك مــا كــانــوا عليه مـنَ التَّثبيط، ولـيـعـقِّـبـوه بالقتال في سبيل الله

يصحُّ في الفاءِ أن تكون في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إنْ بطَّأ هؤلاءِ عنِ القتال؛ فليقاتِلِ المُخلِصون الباذلون أنفسَهم في طلب الآخرة، أو الَّذين يشترونها، ويختارونها على الآخرة، وهم المبطِّئون، فالفاءُ للتَّعقيب، أي: لِيتركوا ما كانوا عليه منَ التَّثبيط والنِّفاق، وليعقِّبوه بالقتال في سبيل اللّه[1]، و﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ﴾: أمرٌ لمَن يُبَطِّئ، وهم الَّذين يشرون، فحُثُّوا على ترك ما حكي عنهم في الآية المتقدِّمة، وأن يجاهدوا في سبيل اللّه[2].

فائدة تقديم الظَّرف على الفاعل:

قدَّم الظَّرف على الفاعل للاهتمام به

في قوله تعالى: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمرٌ للمؤمنين، وقدَّم الظَّرف على الفاعل للاهتمام به، والعناية بمضمونه[3].

العناية بالظَّرف للتَّنبيه على أنَّ هذا النَّوع منَ القتال هو المعتدُّ به عند الله

قوله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تنبيه على أنَّ هذا النَّوع منَ القتال هو المعتدُّ به عند اللّه تعالى؛ لأنَّ المؤمن الصَّادق لا يقاتل من أجل فخر، أو مغنم، أو اغتصاب حقِّ غيره، وإنَّما يقاتل من أجل أن تكون كلمةُ اللّه هي العليا، وكلمةُ الَّذين كفروا هي السُّفلى[4].

بيان الاستعارة في لفظ السَّبيل:

استعارة السَّبيل لـديـن الـلـه بجامع الاهتداء إلى المقصود

قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ: حيث استعار السَّبيل الَّذي هو محلُّ المرور لدين اللّه بجامع الاهتداء إلى المقصود[5].

علَّة إسناد القتال إلى الَّذين يشرون الحياة الدُّنيا بالآخرة:

إسناد القتال المأمور به إلى أصحاب هذه الصِّلة وهي: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ للتَّنويه بفضل المجاهدين في سبيل اللّه، والثَّناء عليهم، وتحقير المبطِّئين؛ لأنَّ في الصِّلة إيماءً إلى علَّة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1322.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/562.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/217.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/356، والإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/245.

الخبر، أي: يبعثهم على القتال في سبيل الله بذلهم حياتهم الدُّنيا لطلب الحياة الأبديَّة، وفضيحة أمر المبطِّئين حتَّى يرتدعوا عنِ التَّخلُّف، وحتَّى يكشف المنافقون عن دخيلتهم[1].

الإسنادُ للتَّنويهِ بفضل المقاتلين في سبيل الله، وتحقيرِ المبطِّئين

نكتة الاكتفاء بذِكر غايتي حالتي المجاهد:

غاية المغلوب في القتال أن يُقتَل، وغـايـة الَّـذي يَقتُـل، ويغنم أن يتَّصف بأنَّه غالبٌ

وصفَ اللهُ ثوابَ المقاتل في سبيل الله، فذكرَ غايتي حالتيه، واكتفى بالغايتين عمَّا بينهما كالأسر مثلًا، وذلك أنَّ غاية المغلوب في القتال أن يُقتَل، وغايةَ الَّذي يَقتُل، ويَغنم أن يتَّصف بأنَّه غالبٌ على الإطلاق[2]، وإذا كان الأجرُ حاصلًا على كلا التَّقديرين لم يكن عملٌ أشرفَ مِنَ الجهاد في سبيل الله[3].

لـم يـزد حـالـةَ الأسر تأبِّيًا مِنْ أنْ يذكرَ حالةً ذميمةً لا يرضاها الله للمؤمنين

اقتصر على القتل والغلبة فحسْبُ، ولم يزد: أَوْ يُؤْسَرْ؛ إبايَةً من أن يذكر لهم حالة ثالثةً ذميمة لا يرضاها الله للمؤمنين، وهي حالة الأسر، فسكت عنها؛ لئلَّا يذكرها في مَعرِض التَّرغيب، وإن كان للمسلم عليها أجر عظيم أيضًا إذا بذل جهده في الحرب فغلب؛ إذِ الحرب لا تخلو من ذلك[4].

علَّة تعقيب القتال بالقتل، أو الغلبة:

التَّـنـبـيـهُ على أنَّ مـن تـحـرَّى الـقـتـال؛ فقد وقـع أجـره على الله

لم يقتصر على قوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، بل عقَّبه بقوله: ﴿فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ من تحرَّى القتال سواء قَتَل أم قُتِل، غَلَبَ أم غُلِب، فقد وقع أجرُه على الله[5].

التَّـنـبـيـهُ على وجـوب الثَّبات في المعركة حتَّى ينال الحُسنيين

في تعقيب القتال بأحد الأمرين تنبيهٌ على أنَّ المجاهد ينبغي أنْ يثْبتَ في المعركة حتّى يُعِزَّ نفسه بالشَّهادة، أو يُعِزَّ الدِّين بالظَّفر والغلبة، وألَّا يكون قصده بالذَّات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحقِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/121 - 122.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/78.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/140.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/122.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1323.

وإعزاز الدِّين[1]، والإشعار بأنَّ المجاهدَ حقُّه أن يوطِّن نفسَه بنيل إحدى الحُسنيين، ولا يخطرَ بباله القسمُ الثَّالثُ أصلًا[2]، وحثُّه على الثَّبات، ولو كان العدوُّ أكثر منَ الضِّعف[3].

دفعُ توهُّم السَّامع أنَّ التزام الغلبة في المعركة في كلِّ حال سائغ

بيان تقدير الكلام بـ(يَقتُل أو يُقتَل):

قُدِّرتِ الجملة في وجهٍ بمعنى: (يَقتل أو يُقتل أو يغلِب)؛ لئلَّا يتوهَّم السَّامع أنَّ التزام الغلبة، والبَراح منَ المعركة في كلِّ حال سائغ[4].

الوعد على القتال وعدٌ على ما يفضي إليه من قتل وغلبة

بيان العدول منَ الوعد على القتال إلى القتل أو الغلبة:

الوعد مِنَ اللّه تعالى على القتال، وجُعل على القتل أو الغلبة؛ لأنَّ القتال يفضي غالبًا إلى القتل، فصار الوعد على القتال وعدًا على ما يُفضي إليه، والقتال على ما يستحقُّه منَ الوعد؛ إذا أفضى إلى القتل، والغلبة أعظم[5].

استبدال الحياة الدُّنيا بالآخرة مجاز مُرسَل علاقته الإطلاق، أو استعارة

بلاغة المجاز والاستعارة في لفظ الشِّراء:

والشِّراء - ها هنا - مَجَاز عنِ الاستبدال، بمعنى: أنَّهم لمَّا تركوا الحياة الدُّنيا، وآثروا الآخرة؛ جُوزُوا أجرًا عظيمًا، واستُعمل ﴿يَشۡرُونَ﴾ هنا في معنى البذل والاستبدال مجازًا، والمعنى: ومنَ النَّاس من يبذل نفسه للهلاك في سبيل اللّه، أي: هلاكًا في نصر الدِّين، وهذا أعلى درجات الإيمان؛ لأنَّ النَّفس أغلى ما عند الإنسان[6].

أو هو استعارة مكنيَّة، حيث يبيعون الفانية بالباقية، فاستُعير لفظ الشِّراء للمبادلة، وهو من لطيف الاستعارات[7].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/84.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/327.
(4) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1323.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/506.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/273.
(7) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/244.

براعة التَّعبير بلفظ الشِّراء على طريق الأضداد:

على معنى يشترون؛ فالمراد المنافقون، وعلى معنى يبيعون؛ فالمراد المؤمنون

﴿يَشۡرُونَ﴾ مضارع شَرَى، ويكون بمعنى: (باع واشترى) منَ الأضداد، فإن كان بمعنى (يشترون)، فالمراد منَ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾: المنافقون الَّذين أُمروا بترك النِّفاق، والمجاهدة معَ المؤمنين، والفاء للتَّعقيب، أي: ينبغي بعد ما صدر منهم منَ التَّثبيط والنِّفاق تركُه، وتدارك ما فات منَ الجهاد بعد، وإن كان بمعنى: (يبيعون)؛ فالمراد منه المؤمنون الَّذين تركوا الدُّنيا، واختاروا الآخرة، وأُمروا بالثَّبات على القتال، وعدم الالتفات إلى تثبيط المبطِّئين[1].

نكتة تقديم القتل على الغلبة:

تقديمُ القتل للإيذان بتقدُّمه في استتباع الأجر

قدَّم القتلَ على الغلبة للإيذان بتقدُّمه في استتباع الأجر، روى أبو هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: "تكفَّل اللّه تعالى لِمَن جاهد في سبيله لا يُخرِجُه إلَّا جهادٌ في سبيله، وتصديقُ كلمتِه أن يُدخِلَه الجنَّةَ، أو يُرجِعَه إلى مسكنه الَّذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة"[2].

للإيذان بأنَّ حرص المجاهد على الاستشهاد أشدُّ من حرصه على الغلب

قدَّم سبحانه القتل على الغلب؛ للإيذان بأنَّ حرص المجاهد المخلص على الاستشهاد في سبيل اللّه أشدُّ من حرصه على الغلب والنَّصر[3].

البدء بأشرف حالات الجهاد

أشرف الحالتين ما بُدِئَ به من ذكر الاستشهاد في سبيل اللّه، ويليها أنْ يقتلَ أعداء اللّه، ودون ذلك الظَّفر بالغنيمة، ودون ذلك أن يغزو، فلا يصيب، ولا يُصاب، ولفظُ الجهاد في سبيل اللّه يشمل هذه الأحوال[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/81.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201، والحديث أخرجه البخاريّ في صحيح برقم: (3123)، ومسلم، الحديث رقم: (1876).

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/218.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/307.

أجرُ يوم القيامة للمقاتل في سبيل الله عظيمٌ

نكتة التَّعبير بحرف التَّنفيس:

ذهب ابن عرفة إلى أنَّ التَّنفيس إنَّما هو في الأجر العظيم لا في مُطلَق الأجر، أي: سنؤتيه يوم القيامة أجرًا عظيمًا[1].

التَّنفيس لتأكيد نيل الجزاء في المستقبل

و(سوف) هنا لتأكيد نيل الجزاء (الأجر العظيم) في المستقبل، وأكثر استعمالاتها في القرآن لتأكيد الوقوع في القابل، ولذا لا تدخل على النَّفي[2]، وربَّما دلَّ التَّعبير بـ ﴿فَسَوۡفَ﴾ على طول عمر المجاهد غالبًا[3].

بلاغة التَّعبير بنون العظمة، والالتفات من ضمير الغائب إلى المتكلِّم:

العظمة مظنَّة عِظمِ المجازاة، وحتميَّة تحقُّقه

انتقل من قوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾ عن طريق الالتفات من ضمير الغائب (هو) إلى ضمير المتكلِّم (نحن) المعظِّم نفسه بنون العظمة[4]، المناسب لِعِظَم عطاياه، ومِنَحه، وهباته جزاءً لمن يشري أعزَّ ما يملك في سبيل الله، والإشارة إلى حتميَّة تحقُّقه بوعد لا خُلْف فيه بما له من العظمة المحيطة بالخير والشَّرِّ[5].

نكتة تنكير الأجر، ووصفه بالعِظَم:

الإشعار بأنَّه أجرٌ عميمٌ لا يُحيط بمقداره تعيينٌ أو تعريفٌ

نكَّر - سبحانه - الأجرَ ووصفَه بالعِظَم؛ للإشعار بأنَّه أجْرٌ لا يحدُّه تعيينٌ، ولا يبيِّنه تعريفٌ، مهما يكن دقيقًا لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يعلم مقداره إلَّا الله تعالى[6]، جزاءَ الاجتهاد في إعزاز دين الله[7] ﷻ.

وصف الأجر في قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ بالعظيم

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/39.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1761.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/327.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/326.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1761، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/218.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/327.

عِظَمه بوصفه ثوابًا للآخرة، اعتبارًا بعرَض الدُّنيا

من حيث كونه ثوابًا للآخرة، اعتبارًا بعرض الدُّنيا، كما وصف الثَّمن بالقليل[1].

ترغيبٌ في القتال، وتكذيبٌ لمقالة المُنافقينَ

وعدَ اللّه المؤمن بالأجر العظيم غَلَبَ أو غُلِبَ؛ ترغيبًا له في القتال وتكذيبًا لقولهم: ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ [النِّساء: 72][2].

(1) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1323.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/84.

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [النِّساء: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

المناسبة بين الحثّ على الجهاد، وبين تقريع المتقاعسين وطمأنة المستضعفين

لَّما أمرَ اللّهُ ﷻ في الآية السَّابقة المؤمنين بالجهادِ في سبيلِه، لإعلاءِ كلمةِ اللّه العظيم، ونصرِ دينِه القويم، ووعدَهم بإحدى الحُسنيين، إمّا بالنّصر المبين، وإمّا بالأجر المكين، ، جاءَ بيانُ اللّه في هذه الآية، لِيحُثّهم على الجهاد، ويلومهم على تركه، إذ لا عذرَ لقادرٍ مستطيع، في أن يُسهمَ في نشرِ التّوحيدِ، والعدلِ الرّشيدِ، خاصّة أنَّ فئةً من ضعفاء المسلمين، قد نالهم أعظمُ الظُّلم من أعدائهم، فاستغاثوا باللّه، سائلين الفكاك من القرية الظّالم أهلها، لعلّهم يجدون ملجأ أو منجى من القهر والطّغيان.

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾: الضّعفُ: خلاف القُوَّة، وقد ضَعُفَ فهو ضعيفٌ.والضَّعفُ قد يكونُ في النَّفس، وفي البَدَن، وفي الحال، والضَّعفُ والضُّعفُ لغتان. وقيل: الضَّعفُ: في الرَّأي، والضُّعفُ: في البَدَن. قال تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ [الأنفال: 66]، وقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النِّساء: 28]، أي: يَستميلُه هواه[1]، واستَضعفتُه: وجدتُه ضعيفًا، كما في الآية الّتي معنا، ويُقابِلُ الاستضعافُ الاستكبارَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ

(1) الفيروزآبادي، القاموس: (ضعف).

﴿ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ [سبأ: 33][1]، واستضعفه: أي قهره لضعفه، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ [النّساء: 98]: يعني الّذين ضَعُفوا عن الهجرة، وأمّا قوله: ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ [النّساء: 97]، فيقال: إنّها في قوم مخصوصين أسلموا خفاءً ولم يهاجروا مع الطّاقة على الهجرة[2]، وقال ابن الأثير: يقال: تضعّفته واستضعفته بمعنى الّذي يتضعفّه النّاس، ويتجبّرون عليه في الدّنيا للفقر، ورثاثة الحال[3].

2) ﴿وَلِيّٗا﴾: الولاءُ والتَّوالي: أن يَحصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعارُ ذلك للقُرب من حيث المكان، ومن حيث النِّسبة، ومن حيث الدِّين، ومن حيث الصَّداقة والنُّصرة والاعتقاد[4]، والوَليُّ والمَولَى يُستعملان في ذلك، كلُّ واحدٍ منهما يُقالُ في معنى الفاعل، أي: المُوالي، وفي معنى المفعول، أي: المُوالَى، يُقالُ للمؤمن: هو وليُّ الله (ﷻ)، ولم يُـرِد مَولاه، وقد يُقال: الله تعالى وليُّ المؤمنين ومَولاهم، فمِنَ الأوَّل قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257]؛ ولذلكَ دَعاه ﷻ المُستضعفون في الآية الّتي معنا، فقالوا: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾[5]؛ وكذلك جاء فعل المدح مُضافًا إلى المولى والنّصير، وهو الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال: 40]، وجاء الأمر بالاعتصام بالله، وهو المولى والنَّصير في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 78]، ونفى الله تعالى الوِلاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة: 51].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يُحرِّضُ ﷻ في هذه الآية الكريمة، عبادَه المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السَّعي في استنقاذ المُستضعَفينَ بمكَّةَ منَ الرِّجال والنِّساء والصِّبيان، المتبَرِّمين منَ المُقام بها؛ بسبب ظُلم الكفَّار لهم؛ ولذلك فهم يدعون ربَّهم أن يُسخّرَ لهم من عنده سبحانه وليًّا

(1) الرّاغب، المفردات: (ضعف).
(2) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (الاستضعاف).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (الاستضعاف).
(4) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(5) الرّاغب، المفردات: (ولي).

تحريض المؤمنين على القتال، لإعلاء كلمة الله، ونصرة المستضعفين

وناصرًا[1]، وأن يخرجهم من تلك البلدة الظّالم أهلها، وأن يسخّر لهم من عنده من ينصرهم، وينقذهم ممّا هم فيها[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستفهام الإنكاريُّ والالتفاتُ، وأثرُهما في تجلية المعنى:

إفادة سياق النّظم بيان ضرورة الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله

قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا شيءَ لكم في حال لا تُقاتلون، والمُرادُ: أنَّ الَّذي هو لكم، هو أن تُقاتِلوا، فهو بمنزلة أمر، أي: قاتِلوا في سبيل اللّه لا يَصُدُّكم شيءٌ عنِ القتال[3]. وجاء هذا الخطاب للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفات عمَّا سبق؛ مبالغةً في التَّحريض عليه، وتأكيدًا لوجوبه[4]، ومِن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البقرة: 246]، وهذا الكلام من بني إسرائيلَ، بدليل ما ورد في صَدر الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: 246]، ولكنَّهم تقاعسُوا وتَخاذلُوا عنِ القتال الَّذي كانَت دعوتُهم إليه مجرَّدَ أُمنيّةٍ لا رصيدَ لها في الواقع، بدليل ما ورد في ذَيل الآية نفسِها: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾. وقولُه: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لأجل دينه ولمرضاته، فحرفُ ﴿فِي﴾ للتَّعليل.

دلالة توالي المعطوفات، في قوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾:

ضرورة تخليص فئات المُستضعفين من أذى الكافرين الظّالمين

قولُه: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ في عطفِه على ما قبلَه وجهان: الأوَّلُ: عطفٌ على اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ أي: في سبيل المُستَضعفين، وهو تخليصُهم منَ الأَسر، وصَونُهم منَ المشركين وأذاهم[5]. والثَّاني:

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/466.

(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 568.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/122.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/734.

(5) العكبريّ، التبيان: 1/187.

عطفٌ على (السَّبيل) بحذف المضاف؛ أي: في خلاص المُستَضعَفين[1]، ويجوز أن يكون لفظ ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ منصوبًا على الاختصاص، فإنَّ سبيلَ اللّه يَعُمُّ أبواب الخير، وتخليصُ ضُعَفاء المؤمنين من أيدي الكَفَرَة أَعظمُها وأخصُّها[2]، والمُستَضعَفونَ همُ الَّذين يَعُدُّهُمُ النّاسُ ضعفاء، و(السِّين والتّاء) للحُسبان، وأرادَ بهم مَن بقيَ منَ المؤمنين بمكَّةَ منَ الرِّجال الَّذينَ مَنعَهمُ المشركونَ منَ الهِجرة، وهُمُ الَّذين كان رسول اللّه ﷺ يدعو لهم فيقولُ: "اللَّهُمَّ أَنجِ الوليدَ بنَ الوليد، وسَلَمَةَ بنَ هشام، وعيَّاشَ بنَ أبي ربيعة، والمُستضعَفينَ منَ المؤمنين"[3]. ورُويَ عنِ ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنَّه قال: "أَنا وأُمِّي مِنَ المُستَضعَفين"[4]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾؛ تسجيلًا بإفراط ظُلمهم، حيثُ بلغَ أذاهُمُ الوِلدانَ غيرَ المكَلَّفين؛ إرغامًا لآبائِهم وأُمَّهاتِهم، ومَبغضَةً لهم لمكانهم؛ ولأنَّ المُستَضعَفينَ كانوا يُشرِكونَ صِبيانَهم في دُعائِهمُ استنزالًا لرحمة اللّه بدعاء صغارهم الَّذين لم يُذنِبوا، وذلك كُلُّه للمبالغة في الحثِّ على القتال. وقد غُلِّبَ الذُّكورُ على الإناث، فأُطلِقَ الوِلدانُ على الوَلائد أيضًا، وكما يُقالُ: الآباءُ والإخوة[5].

الموصوليّة والوصف، وأثرُهما في توضيح المعنى:

بيان ظلم المشركين للمؤمنين، وضرورة دفع الظّلم عن المؤمنين

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمُ موصول، وفيه وجهان إعرابيَّان: الأوَّلُ: مجرورٌ، وفيه حالتان: إحداهُما: الجرُّ على أنَّه صفةٌ للمُستَضعَفين. والثّانيةُ: الجرُّ لِمَا في حيِّز البيان[6]، الثَّاني: النَّصبُ بإضمار (أعني)[7]، والقرية:

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/542.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/542.
(3) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 804.
(4) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 1357.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/543.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/735.
(7) العكبريّ، التبيان: 1/187.

هي مكَّة، سألوا الخروجَ منها لَمَّا كُدِّرَ قُدسُها من ظُلم أَهلها، أي: ظُلم الشِّرك وأهلِه للمؤمنين، فكراهيةُ المُقام بها من جهة أنَّها صارَت يومئذٍ دارَ شِركٍ ومُناوأةٍ لدين الإسلام وأهله؛ ومن أَجل ذلك أحلَّها اللّه لرسوله ﷺ أن يُقاتِلَ أهلَها[1]، قولُه: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾، (الألفُ واللَّامُ) بمعنى: الَّتي، أي: الَّتي ظَلمَ أهلُها المؤمنين. ولم يُؤنَّث اسمُ الفاعل ﴿ٱلظَّالِمِ﴾، وإن كان نَعتًا للقرية في اللَّفظ؛ لأنَّه قد عمل في الاسم الظَّاهر المذكَّر، وهو (أهلُ)، وكُلُّ اسم فاعلٍ إذا جرى على غيرِ مَن هو له، فتذكيرُه وتأنيثُه على حَسَبِ الاسم الظَّاهر الَّذي عَمِلَ فيه[2]، وكذلك "إنَّما خُفضَ ﴿ٱلظَّالِمِ﴾؛ لأنَّه نعتٌ(صفة) للأهل، فلمَّا عادَ الأهلُ على القرية، كان فعلُ ما أُضيفَ إليها بمنزلة فعلها، كما تقولُ: مررتُ بالرَّجل الواسعة دارُه، ومررتُ برجُلٍ حسنةٍ عينُه "[3]، ومن هنا كان للموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تعبير بالإجمال عن ألوان المستضعفين رجالًا ونساءً وولدانًا، وهو ما يصوّر الظّلم الصُّراح، والطّغيان البَواح، الّذي سُلّط على الرّقاب، حتّى ضجّت الحناجر بالجأر إلى اللّه أن يتيحَ لهم الخروج من ذلك الظّلم الغشوم، الّذي ناءت به الكواهل، وضاقت به النّفوس، فجاء الوصف بالموصول، مستوعبا لأصناف المظلومين، وجاء الوصف بظلم أهل مكّة، منبئًا عن فداحة المعاناة الّتي وصلت إلى المستوى الّذي لا يقدرون على احتماله، حتّى طلبوا الخروج من مكّة، وهي موئل حبّهم، ومَناط قداستهم، ومَدرج صباهم، وقد عبّر النّبيّ ﷺ عن حبّه لها عند الهجرة فقال: "قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللّهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللّهِ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ"[4].

أثر التَّأخير والتَّكرير في جلاء المعنى وبيانه في هذه الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ كلا الجارَّين ﴿لَّنَا﴾ و﴿مِن لَّدُنكَ﴾ مُتعلِّقٌ بقوله: ﴿وَٱجۡعَل﴾؛ لاختلاف معنَيَيهما، وتقديمُ المجرورَين على المفعول الصَّريح؛ لإظهار الاعتناء بهما، وإبراز الرَّغبة في المؤَخّر بتقديم أحواله، فإنَّ تأخيرَ ما حقّه التَّقديمُ عمَّا هو من أحواله المرغِّبة فيه يُورثُ شَوقَ السَّامع لِمَا يُقال، ويُنبئُ عن كمال رغبة المتكلّم فيه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/123.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/187.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/277.
(4) الصّنعانّي، المصنّف: 5/26.

من دلائل الرَّغبة، المبالغة الملحّة في حصول المأمول، بكثرة السّول

واعتنائه بحصوله لا محالة، وتقديمُ (اللَّامِ) على ﴿مِن﴾ للمُسارعة إلى إبراز كون المسؤول نافعًا لهم، مرغوبًا فيه لديهم، ويجوز أن تتعلَّق كلمة ﴿مِن﴾ بمحذوف وقعَ حالًا مِن ﴿وَلِيًّا﴾، قُدِّمَت عليه لكونِه نَكِرة، وهذا الكلامُ يَصدُقُ بعينه على قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾، وتكريرُ الفعل، ﴿وَٱجۡعَل﴾ ومُتعلَّقَيه؛ للمبالغة في التَّضرُّع والابتهال. وأشارتِ الآية إلى أنَّ اللّه ﷻ استجابَ دعوتَهم، وهيَّأ لهم النّصرَ بيد المؤمنين، كما عبَّرَت عنه الآيةُ التَّالية، بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾[1].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/735 - 736.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النِّساء: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المنـاسـبة بين الـحـثّ على الجهاد، والقتال المحّض لله لا للشّيطان

لَمَّا حثَّ بيانُ اللّه المؤمنين على الجهاد في سبيله، والذَّود عنِ المُستَضعَفينَ منَ المؤمنين في مكّةَ من بَطشِ الكَفَرةِ من أهلِها، وساق لنا أدعيّةَ المُستضعَفينَ بطلب الوِلاية والنُّصرة منَ اللّه، جاءَت هذه الآية الكريمة، لتحدّد الفرق بين من يقاتل في سبيل اللّه ومن يقاتل في سبيل الطّاغوت، وأنّهما لا يستويان مثلا، وتؤكّد أمر اللّه للمؤمنين بأن يقاتلوا أهل الكفر والشّرك الّذين يتولَّون الشّيطان، ويطيعون أمره، ويركنون إليه؛ لأنّ تدبير الشّيطان لأوليائه كان ضعيفًا، وأنّ تزيينه لهم كان سخيفًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾: منَ الفعل طَغِيَ، كرضِيَ، طَغيًا وطُغيانًا، بالضَّمِّ والكسر: جاوزَ القَدرَ، وطَغَوتُ وطَغَيتُ طُغْوانًا[2]، وأَطغاهُ كذا، حملَه على الطُّغيان، وارتَفعَ، وغَلا في الكفر، وأَسرَفَ في المعاصي والظُّلم[3]، وذلك تَجاوُزُ الحَدِّ في العصيان، قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [النّازعات: 17]، والطَّغوَى: الاسم منه، قالَ تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾ [الشّمس: 11]؛ تَنبيهًا أنَّهم لم يُصدِّقوا إذا خُوِّفوا بعقوبة طُغيانهم[4]، والطَّاغوت: عبارةٌ عن كلِّ مُتعدٍّ، وكلِّ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 90.
(2) الفيروزآبادي، القاموس: (طَغِيَ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طغا).
(4) الرّاغب، المفردات: (طغى).

معبودٍ من دُون الله، ويُستَعملُ في الواحد والجمع، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: 256]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 60]، ولما كان هو عبارةً عن كلِّ مُتعدٍّ، سُمِّيَ السّاحرُ والكاهِنُ والمارِدُ منَ الجنّ، والصّارفُ عن طريق الخير طاغوتًا، ووزنُه فيما قِيلَ: فَعَلوتٌ، نحو: جَبَروتٌ ومَلَكوتٌ، وقِيلَ: أصلُه: طَغَوُوت، ولكن قُلِبَ لامُ الفعلِ، نحو: صَاعِقةٌ وصَاقِعةٌ، ثمَّ قُلبَ الواوُ ألفًا لِتَحرُّكِه وانفتاح ما قَبلَه[1].

2) ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: وهو كل عاتٍ من الإنس والجنّ والدّواب، قال جرير:

أَيَّامَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانَ مِنْ غَزَلٍ *** وَهُنَّ يَهْوَيْنَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانَا[2]

وَعَلَى ذَلِكَ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾ [الصّافّات: 65][3]، وكلمةُ (الشَّيطان) لها أصلان: الأوَّلُ: منَ الفعل (شَطَطَ)، أي: بَعُدَ، والشَّيطانُ قد بَعُدَ عنِ الحقِّ؛ بتكبُّره على أمر الله تعالى بالسُّجود لآدمَ عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34].الثَّاني: منَ الفعل (شَطَنَ)، فالشَّيطانُ: نونُه أصليَّةٌ، وقيل: إنَّها زائدة، فإن جُعلَ (فَيعَالًا) من قولهم: (تَشيطَنَ) الرَّجُلُ صَرَفتَه، وإن جَعلتَه من تَشَيَّطَ لم تصرفه؛ لأنَّه فعلان[4].

3) ﴿كَيۡدَ﴾: الكَيدُ: ضَربٌ منَ الاحتيال، وقد يكونُ مَذمومًا ومَمدُوحًا، وإن كان يُستَعملُ في المَذموم أكثر، وكذلك الاستدراجُ والمَكر، ويكونُ بعضُ ذلك محمودًا، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ [يوسف: 76][5]. وقولُه تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183]. قال بعضُهم: أراد بالكَيد العذاب[6]، والصَّحيح: أنَّه هو الإملاءُ والإمهالُ المؤدِّي إلى العقاب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف: 52]، خَصَّ فيه الخائنينَ تنبيهًا إلى أنّه قد يَهدي كيدَ من لم يقصِد بكيده خيانة، كَكَيدِ يوسُفَ بأخيه، وقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: 57]؛ أي:

(1) الرّاغب، المفردات: (طغى).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (شطن).
(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (شطن).
(4) الفيروزآبادي، القاموس: (شطط) و(شطن).
(5) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(6) يُروى عن ابن عبّاس: (رضي الله عنهما) قولُه: "كيدُ الله: العذابُ والنِّقمة"، يُنظر: السُّيوطي، الدُّرُّ المنثور: 3/618.

لَأُرِيدَنَّ بها سُوءًا[1]، والكيدُ من الخلق هو الحيلة والسّيئة، ومن اللّه التّدبير بالحقّ لمجازاة أعمال الخَلْق، أو إبطال خطّة الخصم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [يوسف: 28][2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

شتّان بين مقاتل في سبيل الله، ومقاتل في سبيل الشّيطان

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ المؤمنينَ حقًّا، هُمُ الَّذين يُقاتِلونَ في طاعة اللّه ورضوانه، وأنّ الكافرين يُقاتلون في إرضاء الشَّيطان وأعوانه، وعليه حفّز اللّه تعالى المؤمنين على قتال أعدائه، ليُقاتِلوا المُوالينَ للشَّيطان، مُبيِّنًا أنَّ مكرَ الشَّيطانِ ضعيفٌ، لا يقوَى أمام إيمان المؤمنين وصِدقهم معَ اللّه[3]، فاللّه ينصر عباده على أعدائه، والعاقبة دائما للمتّقين.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

شَحذَ الهِمَم للجهاد في سبيل اللّه، وبيان ضَعف الكيد وخسرانه

أثر العطف في إثراء المعنى، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾:

هذا الكلامُ المبتدأ سِيقَ لترغيب المؤمنين في القتال، وتَشجيعِهم ببيان كمال قُوَّتِهم، بإمداد اللّه تعالى ونُصرته، والمؤمنون يُقاتلونَ لغاية نبيلة رفيعة، وهي نشرُ دين اللّه، وإعلاءُ كلمته[4]، وفي هذا البيان الجليل إشارةٌ قويّةٌ، بأنَّ اللّه تعالى استجابَ دعوةَ أولئك المُستضعَفينَ، وهيَّأَ لهم النَّصرَ القريبَ المُبِينَ، على أيدي المؤمنين الصّادقين. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ عطفٌ على ما سبقَه، ولكن مع تَغايُرِ هُوِيَّة المعطوف والمعطوف عليه، فهُوِيَّة المعطوف عليه الإيمان، والقتال طاعةً للرَّحمن، والمعطوفُ هُويَّتُه الكُفرُ، والطُّغيان، والقتالُ في سبيل الشَّيطان؛ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالنَّصر والفتح المبين؟!

(1) الرّاغب، المفردات: (كيد).

(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (كيد).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 1/466.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/543.

التَّفريع بالفاء وأثره في جلاء المعنى وترابط السّياق:

الدّلالة على أنّ كيد الشّيطان ضعيف منذ كان الشّيطان

جاء التَّفريع بالفاء[1]، في قوله تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾؛ لبيان استِتباع ما قبلَ الفاء لَما بعدَها، وذُكرَ بهذا العنوان؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك نتيجةٌ لقتالهم في سبيل الشَّيطان، والإشعارِ بأنَّ المؤمنين أولياءُ اللّه تعالى؛ لأنَّ قتالَهم في سبيله، وكلُّ ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين في القتال، وتَقويةِ عزائمهم عليه، فإنَّ وِلايةَ اللّه تعالى عَلَمٌ في العزَّة والقوَّة، كما أنَّ وِلايةَ الشَّيطان مَثَلٌ في الذِّلَّة والضَّعف، فكأنَّه قِيلَ: إذا كان الأمر كذلك؛ فَقاتِلوا يا أولياء اللّه أولياءَ الشَّيطان، ثمّ صُرِّحَ بالتَّعليل، فقيل: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، أي: بالقيّاس إلى قُدرة اللّه تعالى، ولم يتعرّض السِّياقُ لبيان قُوَّة جنابه ﷻ إيذانًا بظُهورها، وهذا المعنى الجليلُ، أفادَه وجودُ ﴿كَانَ﴾ الَّتي تفيد في هذا الموقع التَّأكيدَ ببيان أنَّه منذُ كان كذلك، فالمعنى: أنَّ كَيدَ الشَّيطان - منذُ كان - كانَ مَوصوفًا بالضَّعف[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الشَّيطان والطَّاغوت:

إن كانَت كلمة (الشَّيطان) تعني كلَّ عاتٍ متمرِّدٍ مِنَ الإنس والجنِّ والدَّوابِّ، وعلى رأسِهم إبليسُ (لعنهُ اللّه)، لكن ليس بالضَّرورة أن يُعبَد من دون اللّه، كما هو الحال في معنى (الطَّاغوت)[3]؛ ولِذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/123.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/736.

(3) "قال اللّيث وأبو عبيدة والكسّائي وجماهير أهل اللّغة الطّاغوت كلّ ما عبد من دون الله تعالى، قال الواحديّ: الطّاغوت يكون واحدا وجمعا، ويؤنّث ويذكر، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النّساء: 60]، فهذا في الواحد، وقال تعالى في الجمع ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: 257]، وقال في المؤنّث: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [الزّمر: 17]، قال في المصباح: وهو في تقدير: (فعلوت) بفتح العين، لكن قدّمت اللّام موضع العين، واللّام واو محرّكة، مفتوح ما قبلها، فقلبت ألفا، فبقي في تقدير: (فعلوت)، وهو من الطّغيان"، ينظر: عبد الباقي: المسند الصّحيح للإمام مسلم: (هامش التّحقيق): 1/163.

جاءَت كلمة (الطَّاغوت) في سياق وصف الكافرينَ، بأنَّهم يُقاتلونَ في سبيل الطَّاغوت، أي: في سبيلِ كلِّ مَن يَعبُدونَهم من دون اللّه، في حين جاءَت كلمة (الشَّيطان) في سياق أمر المؤمنين، بقتال أولياء كلِّ عاتٍ مُتمرِّد وأنصاره، وكلُّ أولئك هم جنودُ إبليس(لعنهُ اللّه)، وإن كانوا لا يعبُدونَهم من دون اللّه، لكنَّهم طُغاةٌ عُتاةٌ مُتجبِّرونَ مُتكبِّرونَ على خَلق اللّه؛ ولِذلك وسَمَهُمُ اللّه بالكَيدِ، ولكنَّه كَيدٌ ضعيفٌ؛ لأنَّه قائمٌ في أصلِه على ضَعف، وكلُّ قائم على غير دين اللّه وشريعة اللّه، فهو ضعيف لا محالة، وإن بدا قويًّا مُتماسكًا في ظاهِره، لكنَّ باطنَه ولُبَّه هَشٌّ، وهو زائلٌ بلا ريب.

الكَيْد والمَكر:

قال اللّيث: قال شيخنا: "وظاهر كلامهم أنّ الكيد والمكر مترادفان، وهو الظّاهر، وقد فرّق بينهما بعض فقهاء اللّغة، فقال: الكيد: المضرّة، والمكر: إخفاء الكيد وإيصال المضرّة، وقيل: الكيد: الأخذ على خفاء، ولا يُعتبر فيه إظهارُ خلاف ما أبطنه، ويعتبر ذلك في المكر"[1]، والمَكرُ مثلُ الكَيدِ، في أنَّه لا يكونُ إلَّا مع تَدبُّرٍ وفِكرٍ، إلَّا أنَّ الكَيدَ أَقوى منَ المكر، والشَّاهدُ أنَّه يتعدَّى بنفسه، والمكرُ يتعدَّى بحرف، فيُقالُ: كادَه يَكيدُه، ومَكَرَ به، ولا يُقالُ: مَكَرَهُ، والَّذي يتعدَّى بنفسه أقوى، والمكرُ أيضًا: تقديرُ ضَرَر الغير من أن يُفعَلَ به، ألَا ترى أنَّه لو قال له: أَقدِرُ أن أفعلَ بك كذا، لم يكن ذلك مَكرًا، والكَيدُ: اسمٌ لإيقاع المكروه بالغير قَهرًا، سواء عُلِمَ أم لا، والشَّاهدُ قولُك: فلانٌ يُكايِدُني، فَسَمَّى فعلَه كيدًا، وإن عَلِمَ به[2]، وممَّا تقدَّمَ بيانُه يظهرُ جليًّا أنَّ استخدامَ البيان الإلهيِّ لكلمة (الكَيد) أَوفَرُ حظًّا، وأَقومُ قيلًا في السِّياق القرآنيِّ الَّذي وردَت فيه، فالَّذي يَكيدُ هو الشَّيطانُ بنفسه، وهو مادّةُ الشَّطَط، والشَّطَن في البُعد عنِ الحقِّ غايةَ البُعد، والإيغال في الباطل، والضَّلال غايةَ الإيغال.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 9/122.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 508.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ [النِّساء: 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا هيَّأ اللّه ﷻ النَّصرَ للمُستَضعَفين بأيدي المجاهدين في سبيله، وأعلمَهم أنَّ كيدَ الشَّيطان كان ضعيفًا، جاء بيان اللّه في هذه الآية لِيُخبرَنا بأنَّ الَّذين أُمروا بالقتال منَ المؤمنين بعد فترةٍ منه، بسبب ضَعفِ شوكتِهم وقلَّة عددِهم وعُدَّتِهم، وقد كانوا يَرجونَه ويَودّونَه، إذا بهم يَجزَعون ويخافون منه، ويَأملونَ تأخيرَه إلى أجلٍ آخر، ويذكّره بضآلة الدّنيا، وأنّ الآخرة خير وأنعم، وأنّ اللّه لا يظلم أحدًا، بل سوف يوفّي كلّ أحد جزاءَ ما عمِلت يداه.

المناسبة بين نصرة المستضعفين، وبين التّنديد بالخوف والرّكون إلى الدّنيا الغرور

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كُفُّوٓاْ﴾: الكفُّ: كفُّ الإنسان، وهي ما بها يَقبِضُ ويَبسُطُ، وكفَفتُه: أَصبتُ كَفَّهُ، وكَفَفتُهُ: أَصَبتُه بالكفِّ ودفعتُه بها، وتُعورِفَ الكَفُّ بالدَّفع على أيِّ وجهٍ كان، بالكَفِّ كان أو غيرها[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾[2] [التّوبة: 36]، قِيل: معناه: كافّين لهم كما يُقاتلونكم كافّين،

(1) الرّاغب، المفردات: (كف).

(2) وقولُه: ﴿كَآفَّةٗ﴾ مُشتقٌّ من كفّةِ الشّيّء، وهي حرفُه، وإنَّما أُخِذَ من أنَّ الشيَّءَ إذا انتهى إلى ذلك كفَّ عنِ الزّيادة، ولا يجوزُ أن يُثَنَّى ولا يُجمع، ولا يُقال: قاتلوهم كافّان ولا كافّات، كما أنَّك إذا قلتَ: قاتلوهم عامَّةً لم تُثنّ ولم تُجمع، وكذلك خاصَّةً، وهذا مذهبُ النَّحويين، ينظر: الزَّجّاج، معاني القرآن: 2/446.

واستَكَفَّ الشَّمسَ: دَفَعها بِكفِّه، وهو أن يضعَ كفَّه على حاجبه مُستظلًّا منَ الشَّمس ليَرى ما يطلُبُه[1].

2) ﴿كُتِبَ﴾: من الكَتْبُ: وهو ضَمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطّ، وقد يُقالُ ذلك للمضموم بعضها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصل في الكتابة: النَّظمُ بالخطِّ، لكن يُستعارُ كلٌّ واحدٍ للآخر، ولهذا سُمِّيَ كلامُ اللّه وإن لم يُكتَب كتابًا، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1 - 2]، والكتاب في الأَصل مصدرٌ، ثمَّ سُمِّيَ المكتوبُ فيه كتابًا، والكتابُ في الأصل اسمٌ للصّحيفة مع المكتوب فيه، ويُعبَّرُ عنِ الإثبات، والتَّقدير، والإيجاب، والفَرض، والعَزم بالكتابة.وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: 45]، أي: أَوجَبنا وفَرضنا[2]، وهو كما في الآية الّتي معنا: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ و﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾، فـ﴿كُتِبَ﴾ و﴿كَتَبۡتَ﴾ كلاهما بمعنى: الإيجاب والفَرض. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التَّوبة: 51].وكَتَبَ هنا بمعنى: ما قدَّره اللّه وقَضاه، قال الجعدي:

يَا ابْنَةَ عَمِّي كِتَابُ اللّهِ أَخْرَجَنِي *** عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللّهَ مَا فَعَلَا[3]

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤١﴾ [الطُّور: 41]؛ فذلك إشارةٌ إلى العلم والتَّحقُّق والاعتقاد[4].

3) ﴿خَشۡيَةِ﴾: خَشِيَه، خَشيًا: خافَه، وهو خَاشٍ وخَشٍ[5]، والخَشيةُ: أشدُّ الخوف، وهي أعلى مرتبةً منه، والخشيةُ: خوفٌ مَشوبٌ بتعظيم المَخشِيِّ، صادرٌ عن علم ويقين صادق، ومعرفة بعظَمته، وإن كان الخاشي قويًّا[6]؛ ولِذلك خُصَّ العلماءُ بالخشية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وتكون بمعنى علمت، وهو من المجاز، قال الشّاعر:

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنَّ مَنْ تَبِعَ الهُدَى *** سَكَنَ الجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كف).
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(4) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(5) الفيروزآبادي، القاموس: (خَشِيَ).
(6) الزَّملكانّي، البرهان الكاشف، ص: 91، والكفوي، الكلّيّات، ص: 317.

وقوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ [الكهف: 80]، قال الأخفش: معناه كرهنا(1)، والأصل أنّ الخشية من الله هي الخوف منه، ومن ذلك قول عنترة:

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ *** لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنَيْ ضَمْضَمِ(2)

4) ﴿أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾: الأَجَلُ: المُدَّة المضروبة للشَّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67]، ويُقالُ: دَينُه مُؤَجَّلٌ، وقد أَجَّلتُه: جعلتُ له أَجَلًا. ويُقالُ للمُدَّة المضروبة لحياة الإنسان: أَجَلٌ؛ فيُقالُ: دنا أَجَلُه؛ عبارةٌ عن دُنُوِّ الأَجل. وأصلُه: استيفاءُ الأجَل، أي: مُدَّةُ الحياة(3)، والتّأجيل: تحديدُ الأجل وقد أجَّله، وفي العُباب: التّأجيل: ضرب من الأجل، وفي التّنزيل: ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ [آل عمران: 145](4)، واستأجلتُه أي: طلبتُ منه الأجل، فأجّلني إلى مدّة تأجيلا: أي أخّرني، والآجلة: الآخرة ضدّ العاجلة، وهي الدّنيا(5).

5) ﴿مَتَٰعٞ﴾: المتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوقت، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ، ومَتَعَ النَّباتُ: إذا ارتفعَ في أوَّل النَّبات، ويُقالُ: مَتَّعَه اللّه بكذا، وأَمتعَه، وتمتَّعَ به، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]. ويُقالُ لِمَا يُنتفَعُ به في البيت: مَتاع، وكلُّ ما يُنتفع به على وجهٍ ما فهو متاعٌ ومُتعةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾ [يوسف: 65]، أي: طعامَهم أو وِعاءَهم، وكلاهما متاع، وكلُّ مَوضعٍ ذُكِرَ فيه التَّمتُّع أو متاع في الدُّنيا، فعلى طريق التَّهديد، وذلك لِمَا فيه من معنى التَّوسُّع، واستَمتَعَ: طلبَ التَّمتُّع، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ [الأنعام: 128]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36] تنبيهًا إلى أنّ لكلِّ إنسانٍ في الدُّنيا تَمتُّعًا مُدَّةً مَعلومة(6).

6) ﴿فَتِيلًا﴾: الفَتيلُ: المَفتولُ، وسُمِّيَ ما يكون في شِقِّ النَّواة فتيلًا؛ لكونه على هيئته، يُقالُ: فَتَلتُ الحبلَ فَتلًا. وفي قوله تعالى في الآية الّتي معنا: ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾، الفَتيلُ: هو ما تَفتلُه بين أصابعك من خَيطٍ أو وَسَخ، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الحقير(7)، ولا أَحقرَ منَ الدُّنيا، ومتاعِها، وطُلَّابِها، قال الشّاعر:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (خَشِي).
(2) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (الخشية).
(3) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(4) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أجل).
(6) الرّاغب، المفردات: (متع).
(7) الرّاغب، المفردات: (فتل).

أَعَاذِلَ بَعْضَ لَوْمِكِ لَا تُلِحِّي *** فَإِنَّ اللَّوْمَ لَا يُغْنِي فَتِيلَا[1]

وعن ابن السّكّيت: أنّه قال: (القطمير) القشرة الرّقيقة على النّواة، و(الفتيل) ما كان في شقّ النّواة، وبه سمّيت فتيلة السّراج، قال الأزهريّ: "وهذه الأشياء تضرب كلّها أمثالا للشّيء التّافه الحقير القليل، أي لا يظلمون قدرها"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الخوف من القتال لا يؤخّر الأجل، والآخرة خير من الدّنيا لمن اتّقى وعمل

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكّةَ مأمورين بالصَّلاة والزَّكاة، وكانوا مأمورين بمُواساة الفقراء منهم، والصَّفح والعَفو عنِ المشركين، وكانوا يَوَدُّونَ لو أُمِروا بالقتال ليَشتَفوا من أعدائهم، ولم يكنِ الحالُ مُناسبًا حينذاك؛ بسبب قِلَّة عددهم أمام أعدائهم، وكونهم في بلد حرام، لم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً، ومع هذا لمَّا أُمِروا، وهم في المدينة بما كانوا يأمُلونَه، جَزِعَ بعضُهم منه، وخافوا من مواجهة النَّاس خوفًا شديدًا، وقالوا: لولا أُخِّرَ فرضُ القتال إلى مُدَّةٍ أُخرى، فأجابهم الله تعالى بأنَّ مَتاعَ الدُّنيا قليلٌ أمام جَنب الآخرة، الَّتي هي خيرٌ للمتَّقين[3].

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستفهام التَّعجُّبيُّ، وأثرُه في توضيح المعنى:

إحجامُ فئة من المسلمين عنِ الجهاد بعد شدَّة رغبتهم في مباشرته

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وهذه الرّؤيةُ بصريَّةٌ حقيقيَّةٌ، في قوله: ﴿تَرَ﴾، وهذا الاستفهامُ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من إحجامهم عنِ القتال؛ ذلك أنَّهم كانوا حُرَّاصًا عليه، بحيث كادوا يُباشِرونَه كما يُنبِئُ عنه الأمرُ بكفِّ الأيدي، فإنَّ ذلك مُشعِرٌ بكونهم بصدد بَسطها

(1) الأنباريّ، الزّاهر: 1/253.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 1/253.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/466 - 467.

إلى العدوِّ بحيثُ يكادون يسطون بهم[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يُفيدُ أنَّ الرَّسول ﷺ لم يُؤمَرْ بقتالهم، وجاء بناء القول للمفعول، مع أنَّ القائل هو الرَّسول ﷺ ؛ للإيذان بكون ذلك بأمر الله ﷻ، ولأنَّ المقصود بالذَّات والمعتَبَرَ في التَّعجيب إنَّما هو كمالُ رغبتهم في القتال، وكونهم بحيثُ احتاجوا إلى النَّهي عنه، وإنَّما ذُكِرَ في حيِّز الصِّلة الأمرُ بكفِّ الأَيدي لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية، فلا يتعلَّقُ ببيان خصوصيَّة الأمر غَرَض، وإنَّما وقع ذلك منهم لا شكًّا في الدِّين ولا رغبةً عنه؛ بل نفورًا عنِ الإخطار بالأرواح، وخوفًا منَ الموت بمُوجَب الجِبِلَّة البشريَّة.

أسلوب العطف وأثره في ترسيّة المعنى المسوق في الآية:

أفـاد العـطفُ بـيـانَ تـغـيُّر الـحـال، من الـتّوق للجهاد إلى التّتقاعُس

جاء هذا القول عطفًا على ﴿قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ باعتبار مدلوله الكنائيّ؛ إذ حينئذٍ يتحقَّقُ التَّبايُنُ بين مَدلولَيِّ المعطوفَين، وعليه يدورُ أمرُ التَّعجيب كما تقدَّم آنفًا؛ ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ﴾ جاء جوابًا لقوله: ﴿فَلَمَّا﴾، وقوله: ﴿فَرِيقٞ﴾ مبتدأ، و﴿مِّنۡهُمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوف وقع صفةً له، و﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ خبرُه، وقد أفاد السّياق، حالة التّردّد والتّذبذب التي أصابت الحالة المعنوية والنفسية للمؤمنين، فقد كانوا يتوقون إلى القتال في سبيل الله، فلمّا كتب عليهم ما طلبوه، فترت الهمم، وتأخّرت الإرادة عن مأمور الله، فكانت الآية تذكيرا لمن نسي، حتّى يعود إلى رشده، ويلتزم أمر ربّه.

دلالة ﴿إِذَا﴾ الفجائيّة، في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ﴾:

لا ينفع حذرٌ من قدر، والله خيرٌ حفظًا

وتصديرُه بـ﴿إِذَا﴾ المفاجِئَة، لبيان مُسارعتِهم إلى الخشية، حيث تفاجأ فريقٌ منهم، خشيةً من مغبّة الحرب الضّروس، وخوفًا من

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/736 - 737.

الكفَّارَ أن يقتلُوهم، ولعلَّ توجيهَ التَّعجيب إلى الكُلِّ، مع صدور الخشية عن بعضهم؛ للإيذان بأنَّه ما كان ينبغي أن يَصدُرَ عن أحدهم ما يُنافي حالتَهم الأُولى[1]، و﴿إِذَا﴾ ظرفُ مكان، وظرفُ المكان في مثل هذا يجوز أن يكون خبرًا للاسم الَّذي بعده، وهو ﴿فَرِيقٌ﴾، ويكون قوله ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفةَ ﴿فَرِيقٌ﴾، ويكون قوله ﴿يَخْشَوْنَ﴾ حالًا[2]، والعاملُ في الظَّرف على هذا الاستقرار.

دلالة إضافة المصدر (الخشية) إلى لفظ الجلالة (الله):

خشية الله رسوخ وهداية، وخشية النّاس وهمٌ وغواية

قوله تعالى: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ هو من إضافة المصدر إلى لفظ الجلالة، وهو إعرابيا مفعول منصوب على التّعظيم، ومحلُّ قوله ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ منَ الإعراب النَّصب على الحال منَ الضَّمير في ﴿يَخْشَوْنَ﴾ أي: يَخشَونَ النَّاس مِثلَ أهل خشية اللّه؛ أي: مشبّهين لأهل خشية اللّه، وقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ بمعنى: أو أشدَّ خشيةً من أهل خشية اللّه، و﴿أَشَدَّ﴾ معطوفٌ على الحال[3]، وإضافة الخشية إلى اللّه، يوحي بأنّ الخشية لا تكون على الحقيقة إلّا منه، وأنّ خشية النّاس عرضٌ ومرضٌ، ولئن استشعر هؤلاء المهزومون نفسيًّا، خشيةً في نفوسهم للنّاس رغم أنّهم مؤمنون، فإنّها كخشية اللّه ظاهرا، ولكنّها في الحقيقة لا تدانيها، فإنّ مشابهة صفة الخالق وفعله، بصفة المخلوقين وأفعالهم، غير ممكنة، فلا وجهَ للمقارنة بين الخشيتين، والمعنى بحاجة إلى تدبّر، قال النّسفيّ: "يخافون أن يقاتلهم الكفّار كما يخافون أن ينزل اللّه عليهم بأسَه، لا شكًّا في الدّين ولا رغبةً عنه، ولكن نفورًا عن الإخطار بالأرواح، وخوفًا من الموت. قال الشّيخ أبو منصور رحمه اللّه: هذه خشية طبع، لا أنّ ذلك منهم كراهة لحكم اللّه وأمره اعتقادًا، فالمرء مجبولٌ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/737.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/187.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/543.

كراهة ما فيه خوف هلاكه غالبًا، وخشية اللّه من إضافة المصدر إلى المفعول ومحله النّصب على الحال من الضّمير في يخشون أي يخشون النّاس مثل خشية اللّه، أي مُشبهين لأهل خشية اللّه"[1].

معاني (أو) العاطفة، وأثرها في دلالة هذه الآية:

حروف العطف تربط المباني، وتفسّح المعاني

كلمةُ (أو) فيها وجهان: الأوَّلُ: أنّها للتَّنويع على معنى أنَّ خشيةَ بعضهم كخشية اللّه، وأنَّ خشيةَ بعضهم أشدُّ منها، والثَّاني: للإبهام على السَّامع، وهو قريبٌ ممّا في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ [الصّافّات: 147][2]، وانتصَبَ ﴿خَشْيَةً﴾ على التّمييز لنسبة ﴿أَشَدَّ﴾، والمعنى يخشَوْنهم مُشْبِهين لأهل خشيةِ اللّه تعالى، وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ عطفٌ عليه، بمعنى: أو أشدَّ خشيةً من أهل خشيةِ اللّه، أو على أنَّه مصدرٌ مؤكّدٌ على جعل الخشيةِ ذاتَ خشيةٍ، مبالغةً كما في (جدّ جِدُّه)، أي يخشَوْنهم خشيةً مثلَ خشيةِ اللّه أو خشيةً أشدَّ خشيةً من خشية اللّه.

الاستفهام، وأثرُه في تجلية المعنى في السّياق:

أفاد الاستفهام إيضاح حال مريدي إرجاء القتال ومقالهم

قولُه: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ يعني: هلَّا أخَّرتنا، يُريدون المُهلة إلى وقتٍ آخر، قريبٍ منَ الوقتِ الَّذي فُرِضَ عليهم فيه القتال، وقولُهم ذاك لا يعني الاعتراضَ على حُكمه تعالى، والإنكارَ لإيجابه؛ بل على طريق تمنِّي التَّخفيف؛ ولِذلك جاء قولُه: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، استزادةً في مُدَّة الكفِّ، واستمهالًا إلى وقتٍ آخر؛ حذرًا منَ الموت. وقد جُوِّزَ أن يكون هذا ممَّا نطقَت به ألسنةُ حالِهم، دون أن يَتفوَّهوا به صريحًا[3]، وهذا على أنَّ القائلَ بلسان المقال أوِ الحال، هم بعضُ صحابة رسول اللّه ﷺ، وذلك أنَّ هناك أقوالًا

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/375.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/738.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/738.

سوى هذا القول في شأن مَن قال هذا القول: الأوّلُ: أنَّ المرادَ بهم اليهود، فقد نزلَتِ الآيةُ فيهم، والثَّاني: أنَّها في قوم منَ المؤمنين، لم يكونوا راسخين في العلم، والثَّالثُ: أنَّهمُ المنافقون[1]؛ لأنَّ قوله: ﴿لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾، لا يَليقُ بالمؤمنين، وكذلك خشية من غير الله تعالى، لا تليق بهم؛ لذلك فالقولُ الأخيرُ أشبَه بالسِّياق، وألزَمُ بالمصير إليه، لِمَا هو معلومٌ من لسان حال المنافقين ومقالهم، في عديد منَ المَواقِف الَّتي ذكرَها بيانُ الله تعالى في كتابه الكريم.

أسلوبُ التَّوبيخ، والعطفُ، وأثرُهما في توضيح المعنى:

تأكيد التزام الأمر بالجهاد، وأنَّه لا يُنقَصُ لأحد ثواب

هذا جوابٌ عن قولهم: ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾ سواءٌ أكان قولُهم لسانيًّا، وهو بيِّنٌ، أم كان نفسيًّا؛ لِيَعلموا أنَّ الله أطلعَ رسولَه ﷺ على ما تُضمِرُه نفوسُهم، أي: أنَّ التَّأخير لا يفيد، والتَّعلُّقَ بالتَّأخير لاستبقاء الحياة لا يوازي حظَّ الآخرة، وبذلك يَبطُلُ ما أرادوا منَ الفتنة على قول: إنَّهم المنافقون بقولهم: أخَّرتَنا إلى أجَلٍ قريب[2]. وتنكيرُ ﴿قَلِيلٞ﴾؛ للتّقليل والتّحقير، وإنَّما قِيلَ: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ حثًّا لهم على اتِّقاء العصيان، والإخلال بواجب التَّكليف، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾، عَطفٌ على مُقدَّرٍ يَنسحِبُ عليه الكلام، أي: تُجزَون ولا تُنقَصُونَ أدنى شيءٍ من أجور أعمالكم الَّتي مِن جُملتِها مَسعاكم في شأن القتال، فلا ترغبوا عنه[3]، وحلَّ هذا القولُ في مَوقِعِ زيادة التَّوبيخ الَّذي اقتضاه قوله: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾، أي: لا تُنقَصونَ شيئًا من أعماركم المكتوبة، فلا وَجهَ للخوف، وطلب تأخير فرض القتال.

حرّم الله الظّلم على نفسه، وحرّمه على عباده، لكيلا يظّالموا

دلالات نفي الظّلم عنِ الله، في قوله: ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾:

ويمكن أن يكون معنى نفي الظُّلم هنا، أنَّهم لا يُظلَمون بنقص

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/171، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/134.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/127.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/738.

ثواب جهادهم، فيكونُ موقعُه مَوقعَ التَّشجيع؛ لإزالة الخوف، ويكونُ نصبُ ﴿فَتِيلًا﴾ على النِّيابة عنِ المفعول المطلق، ويمكن أن يكون المعنى: أنَّهم لا يُظلَمون بنقص أقلِّ زمن من آجالهم، ويَجيءُ على هذا التَّفسير أن يُجعَلَ ﴿تُظۡلَمُونَ﴾ بمعنى تُنقَصون، كقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: 33]، أي: كلتا الجنَّتين من أُكُلها، ويكون ﴿فَتِيلًا﴾ مفعولًا به، أي: لا تُنقَصون من أعماركم ساعة، فلا مُوجبَ للجُبن[1]، وتنكيرُها أفاد التّقليل والتّحقير، وفي قوله: ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ قراءتان: الأُولى: بتاء الخطاب على أنَّه أمَرَ الرَّسولَ ﷺ أن يقوله لهم، والثَّانية: بياء الغَيبة على أن يكون ممَّا أخبرَ اللّه به رسوله ﷺ ليبلِّغَه إليهم[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَفّ والإمساك والمنع:

الكَفُّ عنِ الفعل هو الامتناعُ عن مُوالاة الفعل، وإيجاده حالًا بعد حال، خلافُ الانبساط فيه، يُقال: كفَّ عنِ القتال، كما يُقال: كفَّ عن شرب الماء، وأصل الكَفِّ: الانقباضُ والتَّجمُّع، وتُعورِفَ الكفُّ بالدَّفع على أيِّ وجهٍ كان، وفيما تدعو الشَّهوة إليه، وفيما لا تدعو إليه[3]، والإمساك: حَبسُ النَّفس عنِ الفعل، ونَقيضُه الإرسال[4]، والمنعُ يكون عن إيجاد الفعل[5]، وليس يُضادُّ القَدرة؛ بل ليس يُسمَّى منعًا إلَّا إذا كان مع القُدرة، فليس هو منَ العَجز في شيء[6]، وهو يُستعملُ فيما له قصدٌ، وفيما ليس له قصدٌ، فيُقالُ: منعَ الحائطَ عنِ المَيل، مع أنَّ الحائطَ لا قصدَ له، ويُقالُ: منعَ الأبُ ابنَه منَ ارتكاب المعصية، وهذا فيه توجُّهٌ وقَصد[7]. وممَّا تقدَّم بيانُه، يظهرُ أنَّ استخدام البيان الإلهيِّ لفعل الأمر ﴿كُفُّوٓاْ﴾ أولى بالسِّياق من صاحبَيه (أمسِكوا) و(امنَعوا)؛ لأنَّ اللّه تعالى أَمرَهم أن يَقبِضوا أيديَهم عنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/127.
(2) الأولى: قراءة الجمهور، والثَّانية: قراءة ابن كثير، وحمزة، والكِسائي، وخَلَف، وأبي جعفر، ورَوح عن يعقوب، ينظر: راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 90.
(3) الرّاغب، المفردات: (كف)، العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 517.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 517.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 516.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 352.
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.

القتال، فلا يُقدِموا عليه بأيِّ وجه منَ الوجوه، وبأيِّ حالٍ منَ الأحوال، مع حُبِّ نفوسهم للقيام به، وتَلَهُّف قلوبهم للإسراع إليه، وهذه كُلُّها من معاني الكفّ.

(فُرِضَ) و(كُتِبَ):

الفَرضُ لغةً: الحَزُّ في الشَّيء، وهو أيضًا ما أَوجَبَه اللّه تعالى، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ له معالمَ وحدودًا، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝١١٨﴾ [النِّساء: 118] أي: مُقتطعًا محدودًا. و(فَرَضَ) اللّه علينا كذا، و(افترضَ) أي: أَوجبَ، والاسمُ: الفريضة[1]، ولكنَّ البيان الإلهيّ استخدم الفعل ﴿كُتِبَ﴾ لمراعاة الأَصل في الكَتْب والكتابة، وهي الضَّمُّ للحروف بعضها إلى بعضٍ بالخطِّ واللَّفظ، مع شُمولِ الكلمة لدلالاتٍ عديدة، لا يَسَعُها الفعلُ (فُرِضَ)، كالإثبات، والتَّقدير، والإيجاب، والفَرض، والعَزم، والتَّحقُّق، وهذه كُلُّها تَصلُحُ في السِّياق، فأمرُ اللّه لهم بالقتال في سبيله مُثبتٌ، ومُقدّرٌ، وواجبٌ، ومُحقّقٌ.

الخَشية والخَوف:

وأمَّا (الخَوفُ) فإنَّه توقُّعُ مكروه عن أَمارةٍ مَظنونةٍ أو معلومة، فإذا تَيقَّنَ الضَّرَرَ لم يكن خائفًا من وقوعه[2]، والخوفُ يكون غالبًا من ضَعف الخائف، وإن كان المُخَوَّفُ أمرًا يَسيرًا، وشَيئًا هَيِّنًا، كما قد يكون عن تسلُّط بالقهر والإرهاب، كما قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾[3] [النَّمل: 10]، وإذا كانتِ الخشية أعلى مَرتبةً منَ الخوف؛ بل هي أشدُّ الخوف، وهي خوفٌ مَشوبٌ بتعظيم المَخشِيِّ، وإن كان الخاشي قويًّا[4]؛ عَلِمنا يقينًا أنَّ ما أتى به سياق النَّصّ القرآنيّ، هو الأَوجَبُ والأَوفى، من كلمة (الخوف)، أو أيِّ كلمةٍ أُخرى، يُظَنُّ أنَّها مرادفةٌ لها، فلا تُؤدِّي بدلَها المعنى كاملًا.

فأولئك الَّذين تَخاذَلوا عنِ الجهاد بعد طَلَبهم له، ما كان حُجَّتَهم إلَّا أنَّه أصابتهم رِعدةٌ من مواجهة أعدائهم، وهم أكثرُ منهم عَدَدًا، وأقوى عُدَّةً، وقد يكون الموت منهم قابَ قوسَين أو أَدنى، ولم يتسلَّل حينذاك إلى قلوبهم مجرَّدُ الخشية؛ بل يُصوِّرُ بيانُ اللّه

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فرض).
(2) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 54.
(3) الزَّركشّي، البرهان: 4/78 - 79.
(4) الزّركشّي، البرهان: 4/78.

حالَهم في الخشية، فهي ليسَت كخَشيتِهم منَ اللّه فَحَسب؛ بل أشدَّ خشيةً من خشيتهم للّه، وهذه طامَّةٌ كبرى، وصاخَّةٌ عظمى.

الفَتيل والقِطمير:

وأمَّا القِطمير: فهو الفُوقَةُ الَّتي في النَّواة، وهي القِشرة الرَّقيقة الَّتي تحيط بها وتُغلِّفها[1]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: 13]، فالفَتيلُ الَّذي في شقِّ النَّواة، هو أصغر حجمًا منَ القِطمير الَّذي هو غلافُها، إضافةً إلى أنَّه ما يُفتَلُ بين الأصابع من خَيطٍ أو وَسَخ، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الحقير[2]؛ ولذلك فاستخدامُ البيان الإلهيِّ لكلمة ﴿فَتِيلًا﴾ أَقوى دلالةً في تعبير سياق النَّصِّ القرآنيِّ من كلمة ﴿قِطۡمِيرٍ﴾، فأولئك الَّذين دَعاهم بيانُ اللّه للجهاد في سبيله لن يُظلَموا يوم القيامة، ولن يُنقَصوا من أُجور أعمالهم ومنها الجهاد شيئًا، ولو قَدْرَ ذاكَ الفتيل البسيط الَّذي في شِقِّ النَّواة.

(1) الفيروزآبادي، القاموس: (قَطْمَرَ).
(2) الرّاغب، المفردات: (فتل).

﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النِّساء: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قرَّر بيان اللّه في الآية السَّابقة، أنَّ الدُّنيا متاعٌ زائلٌ، وأنَّ الآخرةَ هي دار الخير والقرار، وذلك بعد أن خَشيَ بعض المؤمنين أو غيرُهم منَ المنافقين القتالَ خوفًا منَ الموت، جاء بيان اللّه هنا في هذه الآية الكريمة، ليضعَ النِّقاطَ على الحروف في شأن الموت الَّذي يَغشَى النَّاسَ جميعًا أينما كانوا، إضافةً إلى حقيقة أُخرى، وهي أنَّ الحسنةَ والسَّيئةَ بخلق اللّه تعالى، وما على الإنسان إلَّا أن يفقهَ حديث القرآن في كلِّ ما يُسطِّرُه بيانُه الجليلُ من حقائق وأحكام هذا الدِّين العظيم، ومن غاب عنه ذلك، فهو من الذّين لا يفقهون حديثا.

لا رجـــاء في الدّنيا، ولا فوت في الآخرة، وكلّ طارئ فمن الله بقضاء وقدر

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾: من درك، والإدراك: اللّحوق. يقال: مشيت حتّى أدركته، وعشت حتى أدركت زمانه. وأدركته ببصري، أي رأيته. وأدرك الغلام وأدرك الثمر، أي بلغ[1]، يُقالُ: أَدرَكتُ الشَّيءَ أُدرِكُه إدراكًا، إذا بَلَغْتَه. وتَدارَكَ القومُ: لَحِقَ آخِرُهُم أوَّلَهم، فأمَّا قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[2] [النَّمل: 66] فهو من هذا؛ لأنَّ علمَهم أَدرَكَهم في الآخرة فلم يَنفعهم[3]، ورجلٌ درّاك: مدرك لما يرومه. قالت الخنساء:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (درك).
(2) على قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب وأبي جعفر، ينظر: ابن الجزري، النشر: 339/2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درك).

اذْهَبْ فَلَا يُبْعِدَنْكَ اللّهُ مِنْ رَجُلٍ *** دَرَّاكِ ضَيْمٍ وَطَلّابٍ بِأَوْتَارِ[1]

2) ﴿بُرُوجٍ﴾: (البُروجُ): منَ الفعل (بَرَجَ)، والباء والرَّاء والجيم أصلان: أحدُهما: البُروزُ والظُّهورُ، والآخرُ: الوَزَرُ والمَلجأُ، فمِنَ الأوَّلِ البَرَجُ: وهو سَعَةُ العين في شدَّة سوادِ سودِها وشدَّة بياض بياضِها، ومنه: التَّبرُّجُ، وهو إظهارُ المرأة محاسنَها، والأصل الثَّاني: وهو البُرجُ، واحدُ بُروج السَّماء، وأَصلُ البُروج الحصونُ والقصورُ، كما في الآية الَّتي معنا: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، ويُقالُ: ثوبٌ مُبَرَّجٌ: إذا كان عليه صُوَرُ البُروج[2]. والمعنى المراد بالآية: الحصون والقصور الظَّاهرة والبارزة، وهي كذلك مَلجَأ لمن يَسكنُها أو يأوي إليها.

3) ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾: (شَيَدَ) الشِّين والياء والدَّال أصلٌ واحدٌ، يدُلُّ على رفع الشَّيء، يُقالُ: شِدتُ القَصرَ أَشِيدُهُ شَيدًا، وهو قَصرٌ مَشِيدٌ، أي: مَعمولٌ بالشِّيد، وسُمِّيَ شِيدًا؛ لأنَّ به يُرفَعُ البناءُ، يُقالُ: قصرٌ مَشِيدٌ، أي: مُطوَّلٌ[3]، يُقَال: أشدتُّ الْبُنيان فَهُوَ مُشاد، وشيّدته فَهُوَ مُشيّد، إِذا رفعتَه وأطلتَه، وَأمّا الْبناء المَشِيد، فمن قَوْله تَعَالَى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [الحجّ: 45]، فَإِنَّهُ من غير المُشيّد، هَذَا هُوَ الَّذِي بُنِيَ بالشّيد – وَهُوَ الجصّ –[4]، قال الشّاعر:

شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْسًا *** فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وُكُورُ[5]

4) ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾: صاب: يَصيبُ، مُصيبَةٌ، ومَصوبَةٌ، ومُصابَةٌ، والجمعُ: مَصايِبُ، ومَصَاوِبُ، وهو الأمر المكروه يَنزِل بالإنسان. ويُقالُ: صابَ السَّهمُ من باب: باعَ، لغةٌ في (أصابَ)[6]. والمصيبةُ: ما يلائمُ الطَّبع كالموت ونحوه[7]. وهي اسمٌ لكلِّ ما يَسوءُ الإنسان[8]، والمصيبة تضادّ النّعمة، فهي يعبّر بها عن كلّ ما يسوء من الطّوارئ، ممّا ينال الإنسان في

(1) الزمخشريّ، أساس البلاغة: (درك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شيد).
(4) الهرويّ، غريب الحديث: (شيد).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (شيد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (صوب).
(7) الجرجانّي، التّعريفات: 1/278.
(8) المناويّ، التّعاريف: 1/660.

نفسه وبدنه وأحواله، وهي من الألفاظ الّتي تصلح للحالتين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ [النّساء: 78]، فاستعمل البيان القرآنيّ الفعل ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾ مع الحسنة والسيّئة، بنفس الصّيغة[1].

5) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: من(فَقَهَ): الفاء والقاف والهاء، أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على إدراك الشَّيء والعلم به، تقولُ: فَقِهتُ الحديثَ أَفقهه، وكلُّ عِلم بشيء فهو فِقهٌ، ثمَّ اختصَّ بذلك علمُ الشَّريعة، فقيلَ لكلِّ عالمٍ بالحلال والحرام: فَقيهٌ. وأَفقَهتُكَ الشَّيءَ: إذا بَيَّنتُه لك[2]، والفقه: العلم في الدّين. يقال: فقُه الرّجلُ يَفقُه فِقْهًا، فهو فقيه، وفَقِه يَفقَهُ فِقْهًا إذا فهم، وأفقهته: بيّنت له، والتّفقّه: تعلّم الفقه[3].

المَعنَى الإجمَاليُّ:

لا منجى من القدر مهما كانت الحصون، وإذا أراد الله فلا فرار من المنون

يخاطبُ اللّه ﷻ عبادَه، فيقولُ لهم: إنَّكم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحدٌ منكم، حتَّى لو كنتُم في قصورٍ مَنيعة، ومنازلَ مشيّدة رفيعة[4]، وفي هذا ترغيبٌ في الجهاد في سبيل اللّه، فلا ينفعُ القاعدين عنِ الجهادِ قُعودُهم، ولا يَزيدُ في أجلهم تركُهُم للجهاد، ثمَّ يُخبرُ اللّه عنِ المعارضين لرسله، أنَّهم كانوا إذا جاءَهم خَصبٌ وكَثرةُ أموال وأَولاد، قالوا: هذه من عند اللّه، وإذا أصابَهم جَدبٌ، وفقرٌ، ومرضٌ، وموتُ أولادٍ وأحباب، قالوا: هذا بسبب ما جِئتَنا به يا محمَّدُ ﷺ، يَطَّيَّرون به ﷺ[5]، ولكنَّ اللّه يُجيبُهم في بيانه الجليل، فيقول لهم: إنَّ الحسنة والسَّيئة، والخير والشَّرّ بقضاء

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (حسن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(3) الخليل، العين: (فقه).
(4) النَّحاس، معاني القرآن: 2/134.
(5) هذا ما كان عليه المنافقون واليهود، وما قالوه لمَّا قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 5/174، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/1008.

اللّه وقَدَره، ويُوبِّخُهم على عدم فهمهم وإدراكهم لحقائق تلك الأمور الَّتي ما كانَت لولا كفرُهم باللّه، وإعراضُهم عن شريعته[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تلوين الخطاب بالالتفات، وأثرُه في جلاء المعنى ودقَّة الدّلالات:

تأكيدُ أهميَّة الآخرة، وأنَّ الموت حقيقة لازمة لازِبة

كلامٌ مبتَدأ مَسوقٌ من قبله تعالى، بطريق تلوين الخطاب، وصَرفِه من رسول اللّه ﷺ إلى المُخاطَبين؛ بطريق الالتفات، اعتناءً بإلزامهم إثرَ بيان حقارة الدُّنيا، وعُلُوِّ شأن الآخرة بواسطته ﷺ[2]، وهو يخاطبهم بقوله: "أينما تكونوا في الحضَر والسّفرِ، يدرِكْكم الموتُ الّذي لأجله تكرهون القتالَ، زعمًا منكم أنّه من مظانِّه، وتُحبُّون القعودَ عنه على زعم أنّه مَنْجاةٌ منه"[3]، و"لمّا أخبر أنّ الحذر لا يغني من القدر، أتبع ذلك بالالتفات إلى الغيبة، إعراضًا عن خطابهم ببعض غضب؛ لأنّهم جمعوا إلى الإخلال بتعظيمهم للّه تعالى، الإخلال بالأدب مع الرّسول ﷺ الّذي أرسله ليطاع بإذن اللّه، فقال: فإن أصابتهم حسنة، أي شيء يعجبهم، ويحسن وقعه عندهم، من أيّ شيء كان، قالوا هذه من عند اللّه، أي الّذي له الأمر كلّه، وإن أصابتهم سيّئة، ممّا يسوؤهم، قالوا هذه من عندك، أي من جهة حلولك في هذا البلد، تطيّرًا بك. قال البقاعيّ: "ولما كان هذا أمرًا فادحًا، وللفؤاد محرقًا وقادحًا، سهّل عليه بقوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ﴾ أي من السّيئة والحسنة في الحقيقة دنيويّة كانت أو أخرويّة ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾"[4].

أسلوب الشّرط، وأهميّته في قوله: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

لن ينقص الأجل خوض الحروب، ولا معالجة الخطوب

﴿أَيۡنَمَا﴾ اسم شرط جازم في محلّ نصب على الظّرفية المكانيّة

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 146 - 147.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/204.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/204.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/335.

متعلّق بمحذوف، خبر تكونوا المقدّم إذا كانت ناقصة أو بجواب الشّرط إذا كانت تامّة، وتكونوا فعل الشّرط، والواو فاعل، أو اسم تكونوا، و﴿يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ جواب الشّرط[1]، و(ما) يَكثرُ دخولُها على (أين) الشَّرطيَّة، لتُقوِّيَ معناها في الشَّرط، ويجوز حذفها[2]، ويمكن أن يكون قوله: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾ قد وقع موقعَه (أينما كنتُم)، أو على أنَّه كلامٌ مُبتدأ، و﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾ مُتَّصلٌ بـ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾، أي: لا تُنقَصونَ شيئًا ممَّا كُتِبَ من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم الحروب، ومعارك الخطوب، وفي لفظ (الإدراكِ) إشعارٌ بأنَّهم في الهرب منَ الموت، وهو مُجِدٌّ في طلبهم[3].

الوجوه المُحتمَلة لأداة الشّرط (لو)، في قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾:

حـــدوث المـــوت مـــع وجـــود المانع، دليل على حدوثه مع عدم وجود المانع

الأوَّل: أداةُ شَرط، وجوابُها محذوف، دلَّ عليه ما قبله؛ أي: ولو كنتُم في بُروجٍ مُشيَّدةٍ يدرِكُّمُ الموت، والجملةُ معطوفةٌ على جملة مثلها؛ أي: لو لم تكونوا في بروجٍ مُشيَّدة، ولو كنتُم في بروج مُشَيَّدة. وقدِ اطَّردَ حذفُها لدلالة المذكور عليها دلالةً واضحة، فإنَّ الشَّيء إذا تحقَّقَ عند وجود المانع، فَلَأن يتحقَّق عند عَدَمِه أولى، و(لو) فَلَأن يتحقَّق عند عَدَمِه أولى[4]، والثَّاني: أنَّ (لو) بمعنى (إنْ)؛ أي: وإن كنتُم[5]

دلالة الابتداء وحكاية كلام الغائب عنِ المُخاطَب للمُخاطَب:

معاناة الرّسول بالتّشاؤم به، وإســـنـــاد ما يكرهون له

هذا كلامٌ مُبتدأ، جِيءَ به عَقِبَ ما حكى عنِ المسلمين لَما بينهما منَ المناسبة في اشتمالهما على إسناد ما يكرهونه إلى بعض الأمور، وكراهتهم له بسبب ذلك، والضَّمير يعود إلى المنافقين واليهود، وذلك أنَّهم قالوا: لَمَّا قَدِمَ رسول اللّه ﷺ المدينة: "ما زِلنا

(1) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 5/335.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/187.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/204.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/739.
(5) العكبريّ، التبيان: 1/187.

نَعرِفُ النَّقص في ثمارنا ومزارعنا منذُ قَدِمَ علينا هذا الرَّجلُ ﷺ وأصحابُه "، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾، يعني: اليهودَ والمنافقين ﴿حَسَنَةٞ﴾ أي: خَصبٌ، وريفٌ، ورُخصٌ في السِّعر ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ لنا، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي: جَدبٌ، وغلاءُ الأسعار، وقَحطُ المطَر﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ أي: شُؤمُ محمَّد ﷺ ، وأصحابه[(1)] رضي الله عنهم، والإتيانُ بكاف الخطاب في قوله: ﴿عِندِكَۚ﴾، من قَبيل حكاية كلامهم بحاصل معناه، على حَسَبِ مقام الحاكي والمَحكِيِّ له، وهو وجهٌ مَطروقٌ في حكاية كلام الغائب عنِ المُخاطَب إذا حكى كلامَه لذلك المُخاطَب[(2)].

الإجمال بالشّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ﴾ ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾:

ما أصاب من نعمة أو بليّة فمن الله لا من سواه

و﴿مَّآ﴾ في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ هي الشَّرطيَّة، و﴿أَصَابَكَ﴾ بمعنى يُصيبُك، والجواب ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾، ولا يَحسُنُ أن تكون بمعنى (الَّذي)؛ لأنَّ ذلك يقتضي أن يكون المصيب لهم ماضيًا مُخَصّصًا، والمعنى على العموم، والشَّرط أشبَه، والتَّقديرُ: فمِنَ اللّه[(3)]، والفاء دلّت على محذوف تقديره: فإصابتك منَ اللّه، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: كلُّ واحدةٍ منَ النِّعمة والبَلِيَّة من جهة اللّه تعالى، خلقًا وإيجادًا من غير أن يكون لأحد مَدخلٌ في وقوع شيء منهما بوجه منَ الوجوه كما تزعمون؛ بل وقوعُ الأُولَى منه تعالى بالذّات تَفضُّلًا، ووقوعُ الثَّانية بواسطة ذنوب مَن ابتُلِيَ بها عقوبة، وهذا الجواب المُجمَلُ منه سبحانه وتعالى في معنى ما قيل ردًّا على أسلافهم من قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 131]، أي: إنَّما سببُ خيرهم وشَرِّهم، أو سببُ إصابة السَّيِّئة الَّتي هي ذنوبُهم عند اللّه، لا عند غيره، حتَّى يُسنِدُوها إليه ويَطَّيَّروا به[(4)].

---

(1) وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 5/174، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/1008.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 5/130.

(3) العكبريّ، التبيان: 1/188.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/740.

تعلّقَ فعلُ الإصابة بالحسنة والسَّيِّئة، في الآية الكريمة:

لفظ الإصابة بيان لحال الكَفَرَة، وإظهار لكمال السُّخط والغضب عليهم

لقد تعلَّقَ مفهوم فعل الإصابة، بالحسنة والسَّيِّئة؛ ذلك أنَّ المراد بهما هنا ما تعارفه العربُ من قَبلِ اصطلاح الشَّريعة، بما هو فعلٌ مُلائمٌ وفعلٌ مُنفِّر، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: 131]، والإصابةُ: حُصولُ حال أو ذات في ذات، يُقالُ: أصابَه مرضٌ، وأصابَته نعمةٌ، وأصابَه سَهمٌ، وهي مُشتقّةٌ من اسم الصَّوب الَّذي هو المطر؛ ولذلك كان ما يتصرَّفُ منَ الإصابة مُشعِرًا بحصول أمر مُفاجىء أو قاهر، وجيءَ في حكاية قولهم: ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، و﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ بكلمة (عند)؛ للدَّلالة على قُوَّة نسبة الحسنة إلى الله، ونسبة السَّيِّئة للنَّبيّ ﷺ؛ أي: قالوا ما يُفيدُ جَزمَهم بذلك الانتساب، ولمَّا أمرَ اللّه رسولَه ﷺ أن يُجيبَهم، قالَ: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾؛ مُشاكلةً لقولهم، وإعرابًا عن التَّقدير الأزَليِّ عند الله، أمَّا الحسنةُ والسَّيِّئةُ بالاصطلاح الشَّرعيِّ، وهو يعني ما يتعلَّق بالفعل المُثاب عليه والفعل المُعاقَب عليه، فلا مَحمَلَ لهما هنا؛ إذ لا يكونان إصابتَين، ولا تُعرَفُ إصابتُهما؛ لأنَّهما اعتباران شرعيَّان[1]، وجاء الخطاب في فعل الإصابتَين للحسنة والسَّيِّئة لرسول اللّه ﷺ، لا لبيان حاله ﷺ؛ بل لبيان حال الكَفَرَة بطريق التَّصوير، ولعلَّ ذلك لإظهار كمال السُّخط والغضب عليهم، والإشعار بأنَّهم لفَرْط جَهلهم وبلادَتهم بمَعزِلٍ عن استحقاق الخطاب، ولا سيَّما بمثل هذه الحكمة الأنيقة[2].

فعل المُقاربة، وأثره في توضيح المعنى، في قوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾:

إفادة نظم السِّياق المبالغة في ذمِّ اليهود والمنافقين

قوله: ﴿لَا يَكَادُونَ﴾ يجوز أن يكون جاريًا على نَظائره من اعتبار القلب، أي: يكادون لا يفقهون، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/130 - 134.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/742.

﴿كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: 71]، فيكون فيه استبقاءٌ عليهم في المذَمَّة، ويجوز أن يكون على أصل وضع التَّركيب، أي: لا يُقارِبون فَهمَ الحديث الَّذي لا يَعقِلُه إلَّا الفُطناء، فيكون أشدّ في المذَمَّة[1]، وقوله: ﴿لَا يَكَادُونَ﴾ حال. واللَّامُ في قوله: ﴿فَمَالِ﴾ ليسَت مَوضِع وقفٍ، وهي في التَّحقيق مُتَّصلةٌ بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وهي خبرُ المبتدأ[2]، وتنكير لفظ ﴿حَدِيثًا﴾ قد يفيد التّعميم، أي: لا يفقهون أيّ نوع منَ الحديث مهما كان.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإدراك واللَّحاق:

يقال: تدارك القوم، أي تلاحقوا، أي لحق آخرهم أوّلهم. ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 38]، وأصله تداركوا[3]، وأمَّا اللَّحاق فهو بمعنى الإدراك، يُقالُ: لَحِقتُه، ولَحِقتُ به: أدركتُه، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ [الجمعة: 3]. ويُقالُ: ألحقتُ كذا، وأَلحقُه بمعنى لَحِقَه[4]، وألحقه أيضا، بمعنى لحقه. وفي الدّعاء: "(إنّ عذابك بالكفّار مُلحِق)، بكسر الحاء، أي لا حقٌ، والفتح أيضا صواب[5]، وممَّا سبق من بيان دَرَك الشَّيء، بأنَّه اللَّحاقُ به، والوصولُ إليه، بحيثُ يبلُغُه ولا يَفوتُه - أدركنا دقَّةَ المعنى في استخدام البيان الإلهيِّ، لكلمة ﴿يُدۡرِككُّمُ﴾ بدل (يَلحقكُم).

البروج المشيّدة، والقصور المَبنيَّة:

سبق في معنى البُروج المشيَّدة، أنَّها الحصون والقصور البارزة الظَّاهرة، المرفوعة البناء المطوَّلة في إشادتها[6]، وفي لسان العرب: "قال الفرّاء: اختلفوا في البروج، فقالوا: هي النّجوم، وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجا، وقالوا: هي القصور في السّماء"[7]، قال الكفويّ: "كلّ ما في القرآن من ذكر البروج، فهو الكواكب إلّا ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 5/133.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/188.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (درك).
(4) الرّاغب، المفردات: (لحق).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (لحق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برج) - (شيد).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (برج).

﴿فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾، فإن المراد بها القصور الطوال الحصينة"[1]، وعبارة ﴿بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ آثر في هذا السّياق القرآنيّ، وهذه المعاني الدّقيقة، لا تعطيها عبارة (قصورٍ مَبنيَّة).

(تُصيبُهم) و(تَمسُّهم):

وأمَّا المسُّ: فهو أقلُّ تَمكُّنًا منَ الإصابة، وكأنَّه أقلُّ درجاتها[2]؛ ولِذلك كانَت أَوقعَ أَثرًا في سياق النَّصِّ القرآنيّ، وهو يُحدِّثنا عن أولئك الَّذين إن تمكَّنتِ الحسنة منهم، أو حلَّت بهم المصيبة، يَنحرِفون عنِ المقصد الأساس في عقيدتِهم الصَّحيحة بالله، فمَن آمنَ بالله حقَّ الإيمان لا يُحيلُ الحسنة إليه، ويَصرِفُ السَّيِّئة لرسوله ﷺ؛ لأنَّ الإيمان برسول الله ﷺ إيمانٌ بالله، والإساءةَ لرسول الله ﷺ إساءةٌ لله ﷻ؛ ولِذلك أردفَ بيانُ الله؛ فقال ﷻ: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.

(يفقهون) و(يعلمون):

وأمَّا العلم فهو من عَلِمَ الشَّيءَ يَعلمُه عِلمًا: عَرَفَه، وهو اعتقاد الشَّيء على ما هو به على سبيل الثِّقة، كان ذلك بعد لَبْسٍ أم لا[3]، وأولئك الَّذين انحرفَت وِجهتُهم عنِ العقيدة السَّليمة في حقيقة قضاء الله وقدره، حتَّى قال الله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، كان منَ الأجدَر أن يُناسب هذا السِّياقَ إجراءُ الفعل ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ مُصَدَّرًا بالنَّفي، الَّذي يدلُّ على عدم علمهم بشريعة الله، وخاصَّةً في قضيَّةٍ عقَديَّةٍ مرتبطةٍ بركن من أركان الإيمان؛ وهي الإيمان بالقضاء والقَدَر خَيرِه وشَرِّه. فهي ليسَت مجرَّدَ علمٍ قد يأتي بعد لَبْسٍ أو عدمه؛ بل بأمر مهمٍّ يحتاج إلى إدراك عميق، وفقه دقيق.

(1) الكفويّ، الكليات: (برج).
(2) ابن المنيِّر، الانتصاف: 459، والفيروزآبادي، القاموس: (مسس).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 371، والفيروزآبادي، القاموس: (علم).

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النِّساء: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين كون المقدور من الله، وتذكير الرّسول بأنّ الذّنوب من معاصي العباد

لَمَّا بيَّن اللّه ﷻ في الآية السَّابقة أنَّ الَّذين يُسنِدُون الحسنة إلى اللّه، والسَّيِّئة لرسوله ﷺ لا يَملِكون الفهم الصَّحيح حيال هذه المسألة المُهمَّة من مسائل العقيدة السَّديدة، جاء بيان اللّه في هذه الآية الكريمة ليُقرِّرَ ما غَفَل عنه أولئك اليهود والمنافقون من أنَّ الحسنة تكون بخلق اللّه وتقديره، وأنَّ السَّيِّئة تُصيبُ العبد بسبب ذنوبه، وإنْ كانَت بخلق اللّه وتقديره كذلك؛ ولذلك أرسل اللّه رسوله ﷺ للنّاس كافَّةً لِيُعلِّمَهم هذه الحقيقة وغيرها مِنَ الحقائق، ويكفي أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي يَشهدُ بذلك كلِّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَسُولٗاۚ﴾: أصلُ الرَّسلِ: الانبعاثُ على التُّؤَدَة، ويُقالُ: ناقةٌ رِسلَةٌ: سَهلةُ السَّير، وإبِلٌ مَراسيلُ: مُنبعثةٌ انبعاثًا سَهلًا، ومنه الرَّسولُ المُنبَعِث، وتُصُوِّرَ منه الانبعاث، فاشتُقَّ منه الرَّسول، والرَّسولُ تارةً يُقالُ للقول المُتحمَّل، وتارةً لِمُتَحمِّل القول والرِّسالة، والرَّسولُ يُقالُ للواحد والجمع، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التَّوبة: 128]. وللمثنّى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشُّعراء: 16]. وجمعُ الرَّسولُ رُسُلٌ. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ [الأنعام: 48] محمولٌ على رُسُله مِنَ الملائكة والإنس. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: 51] عُنيَ به الرَّسولُ وصفوةُ أصحابه، فسمَّاهم رُسلًا؛

لضمِّهم إليه[1]. وقوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ [الفرقان 37]، قال الزّجاجُ يَدُلُّ هذا اللّفظ أنّ قَوْمَ نُوحٍ قد كذَّبوا غير نُوح (عليه السلام) بقَوْلِه الرُّسُلَ، ويجوز أن يُعْنَى به نُوحٌ وحده؛ لأنَّ من كذَّب بِنَبِيٍّ فقد كذَّب بجميع الأنبياءِ لأنّه مُخالِفٌ[2].

2) ﴿وَكَفَىٰ﴾: الكفايةُ: ما فيه سَدُّ الخَلَّة، وبلوغ المراد في الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]، والكُفيَةُ منَ القُوت: ما فيه كِفايةٌ، والجمعُ: كُفًى، ويُقالُ: كافيكَ فلانٌ من رَجُل، كقولك: حَسبُكَ من رَجُل[3]، وقوله في الآية الّتي معنا: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ أي: كَفَى اللّه شَهيدًا، ويمكن أن يكون معناه: اكتفِ باللّه شهيدًا[4]، وَقَدْ كَفَى كِفَايَةً، إِذَا قَامَ بِالْأَمْرِ. وَالْكُفْيَةُ: الْقُوتُ الْكَافِي، وَالْجَمْعُ كُفًى، وَيُقَالُ: حَسْبُكَ زَيْدٌ مِن رَجُلٍ، وَكَافِيكَ[5]، قال الشّاعر ذو الرّمّة:

أَعَاذِلُ قَدْ جَرَّبْتُ فِي الدَّهْرِ مَا كَفَى *** وَنَظَّرْتُ فِي أَعْقَابِ حَقٍّ وَبَاطِلِ[6]

3) ﴿شَهِيدٗا﴾: الشَّهيدُ[7]: واحد الشّهداء من النّاس، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ [البقرة: 282][8]، ولفظ (شَهِدَ): الشّين والهاء والدّال، أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلم وإعلام، لا يَخرجُ شيءٌ من فروعه عنِ الّذي تقدَّم، من ذلك الشَّهادة، يجمعُ الأصولَ السَّابقة جميعَها، يُقال: شَهِدَ يَشهَدُ شهادةً، والمَشهَدُ: مَحضَرُ النَّاس، وأمّا قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، فمعناه: أَعلَمَ اللّهُ عزّ وجلّ، بيَّنَ اللّه، كما يُقالُ: شهدَ فلانٌ عند القاضي؛ إذا بيَّنَ وأعلَمَ لِمَنِ الحقُّ، وعلى مَن هو[9]، والمعنى هنا قال فيه بعض المفسّرين: بأنّه ثمرة الآية، وهو ردّ التّطيّر والتّشاؤم بالنّبيّ صلى الله عليه وسلم، قال أبو السّعود: "أي: فمن أين يتصوّر لك الشّؤم، وقد أرسلت داعيا العموم إلى الخيرات؟

(1) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(2) ابن سيده، المحكم: (رسل).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفي).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/57.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/57.
(6) ديوان ذي الرّمة، ص: 501، وكذلك الخليل، العين: (كفي).
(7) "ولغة تميم: شِهِيد: (بكسر الشّين)، يكسرون فعيلا في كلّ شيء كان ثانيه أحد حروف الحلق، وكذلك: سفلى مضر، ولغة شنعاء، يكسرون كلّ فعيل، والنّصب: اللّغة العالية". [ينظر: الخليل، العين: (شهد)].
(8) نشوان الحِميري، شمس العلوم: 6/3566.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).

فأنت منشأ كلّ خير ورحمة، وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيدًا، أي: على رسالتك وصدقك، بإظهار المعجزات على يديك"[1]، ومن شهد له اللّه، فكفى بشهادته شهادة.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان أنّ الحسنات من الله، والسّيّئات من النّفس، وأنّ الله على بلاغ الرّسول شهيد

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية الكريمة، من كتابه المجيد، أنَّ ما أصابَ العبدَ من خيرٍ في دينه ودنياه، فمنَ اللّه الَّذي يسَّرَه بتيسير أسبابه ومَنَّ به، وما أصابَ العبدَ من ضُرٍّ في دينه ودنياه، فبسبب ذنوبه وكسبه، ثمَّ أخبرَ ﷻ عن عموم رسالة رسوله ﷺ، وأنَّه رسولُ اللّه حقًّا وصدقًا، وبشهادة اللّه تعالى، وكفى بها من شهادة[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أسلوب الشَّرط، وأثره في تجليّة المعنى المراد:

الخيرُ من الله، والشَّرُّ من ذنوب العباد، والكلُّ بقدر الله وتدبيره

قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾، ﴿مَّآ﴾ شرطيَّة، و﴿أَصَابَكَ﴾ بمعنى: يُصيبُك، وجوابُ الشَّرط ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، ولا يَحسُنُ أن تكون ﴿مَّآ﴾ بمعنى (الَّذي)؛ لأنَّ ذلك يقتضي أن يكون المصيبُ لهم ماضيًا مُخصّصًا، والمعنى على العموم، والشَّرط أشبَه، والتَّقدير: فهو منَ اللّه، والفاء في المَوضِعين أفصحت عن محذوف تقديره: فإصابتك منَ اللّه، وفي الثّانية: فإصابتك من نفسك، ولم يَقُل: (ما أصَبتَ)؛ لأنَّ المراد بالآية الخَصبُ والجدب[3]، ولم يُورد بيانُ اللّه في هذه الآية كلمةَ (عند) كسابقتها، إيماءً إلى أنَّ ابتداءَ مجيء الحسنة منَ اللّه، ومجيءِ السَّيِّئة من نَفس المُخاطَب - ابتداءُ المُتسبِّبِ لسبب الفعل، وليس ابتداءَ المُؤثِّر في الأثر[4].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/231.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 147.
(3) العكبريّ، التبيان: 1/188.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/134.

العطف وأثره في إثراء المعنى، في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾:

إرسال الرّسول تشريف لمكانته، وتبريزٌ لرسالته، وتأكيد لجلالة قدره

هذه الآية عطفٌ على قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، وهو ردٌّ مُفحِمٌ على قولهمُ المُنحرِف: السَّيِّئةُ من عند محمَّد ﷺ؛ أي: أنَّك بُعِثتَ مُبَلِّغًا شريعةً وهاديًا، ولستَ مُؤثِّرًا في الحوادث، ولا تدلُّ مقارنةُ الحوادث المُؤلمة على عدم صدق الرِّسالة. ومعنَى ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ بعثناك؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الحجر: 22]، وهذا هو المُراد بالرَّسول هنا، أي: معناه الشَّرعيُّ، فهو لفظٌ لقبيٌّ دالٌّ على هذا المعنى؛ ولذلك جاء هذا الخطاب الجليل لبيان جلالة منصبه ﷺ، ومكانته الرَّفيعة عند اللّه ﷻ، بعد بيان بطلان زعمِهمُ الفاسد في حقِّه ﷺ، بناءً على جَهلهم بشأنه الجليل، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُتعلِّق بـ ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾[1].

دلالة الاستغراق في تعريف لفظ النّاس في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾:

الرّسول مبلّغٌ لهداية الله، لا مؤثّر في الحوادث الّتي يسيّرها الله

وجاء تعريف ﴿لِلنَّاسِ﴾ للاستغراق، والجارُّ هنا إمَّا مُتعلِّقٌ بـ﴿رَسُولًا﴾، وقد قُدِّمَ عليه للاختصاص النَّاظر إلى قَيد العموم، أي: مُرسَلًا لكلِّ النَّاس لا لبعضهم فقط، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: 28][2]، وإمَّا أنَّ الجارَّ مُتعلِّقٌ بالفعل، فـ﴿رَسُولًا﴾ عندئذٍ حال مؤكَّدَة، وقد جُوِّزَ أن يكون مصدرًا مؤكَّدًا[3]، والمراد بالرّسول هنا معناه الشّرعيّ المعروف عند أهل الأديان، وهو المبلّغ عن اللّه تعالى، وليس المراد به اسم المفعول بالمعنى اللّغويّ (المرسل بالرّسالة)، قال ابن عاشور: "أي بعثناك مبلّغا لا مؤثّرا في الحوادث، ولا أمارة على وقوع الحوادث السّيئة. وبهذا يزول إشكال مجيء هذه الحال غير مفيدة إلّا التّأكيد، حتّى احتاجوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/134.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/742.

(3) العكبريّ، التبيان: 1/188.

إلى جعل المجرور متعلّقا بــ ﴿رَسُولًا﴾، وأنّه قُدّم عليه دلالة على الحصر، باعتبار العموم المستفاد من التّعريف، كما في (الكشّاف)، أي لجميع النّاس لا لبعضهم، وهو تكلّف لا داعي إليه، وليس المقام هذا الحصر(1).

أثر التّذييل البلاغيّ في جلاء المعنى وترسيّته:

من شهد له الله، لم يحتج إلى شهادة سواه

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: على رسالتك، بِنَصب المعجزات الَّتي من جُملتها هذا النَّصُّ النَّاطق، والوحيُ الصَّادق، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ مضمّن معنى: اكتفِ بالله، وجاء الالتفاتُ في الخطاب لتربّية المهابة، وتَقوية الشَّهادة، والجملةُ اعتراضٌ تَذييليّ(2).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّسول والنَّبيّ:

الفرق بينهما: أنَّ النَّبيَّ هو منَ الإنباء عنِ الشَّيء، وقد يكون من غير تحميل النَّبأ، والإرسالُ لا يكونُ بتَحميل، وكذلك فالنُّبُوّةُ يَغلِبُ عليها الإضافةُ إلى النَّبيّ، فيُقالُ: نُبوَّةُ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه يستحقُّ فيها الصِّفةَ الَّتي هي طريقة الفاعل، والرِّسالةُ تضاف إلى رسول الله؛ لأنَّه المُرسَلُ بها؛ ولهذا قال: برسالتي، ولم يقل: بنبوَّتي. والفرق الجوهريّ من حيث الاصطلاحُ الشَّرعيّ: أنَّ الرَّسول الَّذي يَنزلُ عليه - بوحي اللهِ - كتابٌ منَ الله فيه شريعةٌ يبلِّغُها، إمَّا شريعةٌ تنسخُ جميعَ الشَّرائع الَّتي سبقَتها؛ كشريعة القرآن الكريم الَّتي نَسخَت جميع الشَّرائع قبلها، وإمّا شريعةٌ فيها تعديلُ أحكام شريعة سَبَقَتها، كشريعة رسول الله عيسى عليه السلام في الإنجيل الَّتي جاءَت بعد شريعة التَّوراة الّتي نزلَت على رسول الله موسى عليه السلام، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50]. وأمَّا النَّبيُّ فَمَن بعثه الله تعالى لتقرير شريعة سابقة يدعو النَّاس إليها، كأنبياء بني إسرائيلَ الَّذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/134.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/742.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 530 - 531.

الكافي والحسيب:

أمَّا الحسيبُ فهو من قولنا: حَسبُه اللّهُ؛ أي: كافيه، وكفيلٌ به، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنفال: 62]، والحسيبُ: المُحاسِبُ، أوِ الكافي، مأخوذٌ من قولك: أحسَبَني الشَّيءُ، أي: كَفاني، ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النّبأ: 36] أي: كافيًا[1]، قال المخبّل السّعديّ:

فَلَا يَدْخُلَنَّ الدَّهْرَ قَبْرَكَ حُوبُ *** فَإِنَّكَ تَلْقَاهُ عَلَيْكَ حَسِيبُ

وعلى جميع الوجوه، يفسّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النّساء: 86]، قيل: محاسبًا على كلّ شيء، وقيل: عالما بكلّ شيء، وقيل: مقتدرًا على كلّ شيء، وقيل: كافيًا[2]، وكافيك فلان من رجل، كقولك: حسبك من رجل[3]، فكأنَّهما بمعنى واحد، ولكنَّ (الكِفاية) تعطي معنًى أقوى، ودلالةً آكد، فعندما يُقالُ: كَفاهُ اللّه؛ تعني أنَّ اللّه تكفَّلَ بأمره، وسَدَّ خَلَّتَه، وأَبلَغَه مرادَه في الأمر، فالحسيب والكفيل يشتركان في المعنى ابتداءً، ولكنّ لفظ الحسيب يزيد في الدّلالة، بكونه يؤدّي معنى العلم والقدرة، وهما معنيان لا يؤدّيهما لفظ الكافي.

الشَّهيد والشَّاهد:

وأمَّا الشَّاهدُ فهو بمعنى الحدوث، والشَّهيد: الْحَاضِر للشَّيْءِ الْمُحَقّق لما شهده، إذا سُئِلَ عَنهُ[4]، وهو أيضًا بمعنى الثُّبوت، فإنَّه إذا تحمَّل الشَّهادة، فهو شاهدٌ باعتبار حدوث تحمُّله. فإذا ثبتَ تحمُّله لها زمانَين أو أكثَر، فهو شهيد[5]. وهذا الَّذي ورد في الفرق بين الكلمتَين يؤكّد أنَّ استخدام البيان الإلهيِّ لكلمة (الشَّهيد) أشدُّ وَطئًا، وأَقوَمُ قيلًا؛ ذلك أنَّها تدلُّ على الثُّبوت، وشتَّان بين الثُّبوت والحدوث الَّذي تدلُّ عليه كلمة (الشَّاهد)، إضافةً إلى أنَّ(الشَّهيد) أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلام، وكلُّ ذلك يفيدُ الثَّبوت القائم على اليقين؛ ولذلك أُسنِدَ في السِّياق إلى اللّه ﷻ.

(1) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(2) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (الحسيب).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفي).
(4) الميورقيّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين، ص: 371.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 292، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 129 - 135.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ٨٠﴾ [النساء: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حين نفَى اللّهُ - تعالى - عِلَلَ المُنافقين في التَّخلُّفِ عن طاعةِ الرَّسولِ ﷺ إلى أنْ ختمَ بالشَّهادةِ برسالتِه، قال مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا عَلى وجهٍ عامٍّ يُسكِّنُ قلبَ النَّبيِّ ﷺ ويخفِّفُ من دَوَامِ عِصيانهم له، دالًّا على عِصْمَتِه في جَميعِ حَرَكاتِه وسَكَناتِه[1]، فهذه الآيةُ كالتّكملة لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ﴾، باعتبار ما تَضمَّنَهُ من ردٍّ اعْتِقادُهُمْ أنَّ الرّسولَ ﷺ مَصْدَرُ السَّيِّئاتِ الّتي تُصيبُهم، ثمّ من قولِه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُطِعِ﴾: الطَّاعَةُ: الانقِيادُ والمُوَافَقَةُ، وأَصْلُ الطّاعَةِ مِنَ الطَّوْعِ، وهُوَ الخُضُوعُ والتّسليمُ، ومِنْ مَعاني الطّاعَةِ في اللُّغةِ أيضًا: الاِستِسْلامُ والتّمَكُّنُ والاتِّباعُ[2].

2) ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: المُرْسَلُ، أَيْ: حامِلُ الرّسالَةِ لِيُبَلِّغَها، يُقالُ: أَرْسَلْتُ رَسولًا، أيْ: بَعَثْتُهُ بِرِسالَةٍ يُؤَدّيها. ومِنْ مَعانِيهِ: المَبْعوثُ إلى غَيْرِه[3].

3) ﴿تَوَلَّىٰ﴾: مَصْدَرُ تَوَلَّى، أي: اتَّخَذَه وَلِيًّا، يُقالُ: وَالَى فُلانٌ فُلانًا: إذا أحبَّه، وقَرَّبَهُ، وأَدْناهُ إليه. وإذا عُدِّيَ بـ (عَنْ) لَفظًا أو تَقديرًا اقتضى مَعنى الإِعْراضِ، وتَركِ قُربِه. فمن الأوّل قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [المائدة: 51]، ومن الثّاني قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63]. والتّولي أيضًا: الاتّخاذُ والاتّباعُ المطلقُ، ومن معانيه: النُّصرة[4]. ومعنَى التّولي في الآيَةِ هو العِصيانُ وعدمُ طاعَةِ الرّسولِ ﷺ فهو من المعنى الثّاني، إذِ التقديرُ: ومن تولّى عنك.

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/337.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طوع).

(3) الأنباري، الزاهر: 1/34، والأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (رسل).

(4) الراغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (ولي).

4) ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: الإرْسالُ: على وزن إِفْعال، وهو مَصْدَرُ أَرْسَلَ الشَّيءَ، يُرْسِلُه، أي: أطلَقَهُ وأَهْمَلَهُ، يُقالُ: أَرْسَلَ النّاقَةَ في المَرعَى، أي: أطلَقَها، والإرسالُ أيضًا: التَّوجِيهُ والبَعثُ، وقد أَرْسَلَ إليهِ رِسالَةً، أيْ: وَجَّهَ وبَعَثَ[1].

5) ﴿حَفِيظٗا﴾: الحَفِيظُ: المَوصُوفُ بالحِفظِ، وحِفْظُ الشَّيءِ: رِعايَتُهُ وصِيَانَتُهُ مِن التَّلَفِ والزَّوَالِ والضَّياعِ، وضِدُّهُ: الإهمالُ. ومعنى ﴿عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾: أَيْ: حارسًا لَهُم ومَسؤولًا عَن إِعرَاضِهِمْ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآيةُ عجيبةٌ في نَظمِها وإيجازِها؛ فقد جمَعت مِنْ أَمْرِ الطَّاعة كلَّ ما جاءَت بهِ الشَّريعةُ بمَصْدَرَيْها: الكِتَابِ والسُّنَّةِ، كما دَلَّت على مَنزلةِ المُطيع؛ لأنَّ الطَّاعةَ يتبعُها رِضَا اللّه ﷻ ويَتبعُ ذلك الفوزُ بالنَّعيم المُقيم. ودلالةُ تَعَلُّق الطَّاعَتَيْنِ في سِياقٍ واحدٍ مَعناه أنَّ رسُولَ اللّه ﷺ لا يأمرُ إلَّا بما أمَرَ اللّه به، ولا يَنهى إلَّا عمّا نَهى اللّه عنه، فكانت طاعتُه في ذلك طاعةَ اللّهِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاحتراسِ في الجملةِ الشَّرطيّة:

طاعةُ الرَّسُولِ طاعةٌ للهِ، في كلِّ ما هو تشريعٌ

جاءت الآية كالتَّكملة لقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النِّساء: 79] باعتبار ما تضمَّنه من رَدٍّ على اعتقادهم أنَّ الرَّسول مَصدَرُ السَّيِّئات الَّتي تُصيبُهم، ثمَّ من قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: 79]، المُؤذِنِ بأنَّ بَينَ الخالِقِ وبَينَ المَخلُوقِ فَرقًا في التَّأثير، وأنَّ الرِّسالة معنى آخر، فاحترسَ بقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ عن تَوهُّم السَّامِعين التَّفرقة بَيْنَ اللّه ورسوله في أُمورِ التَّشريع، فأثبتَ أنَّ الرَّسولَ في تبليغِه إنَّما يُبلِّغ عن اللّه، فأَمْرُه

(1) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/135.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/724.

أَمْرُ اللّه، ونَهيُه نَهيُ اللّه، وطاعتُه طاعةُ اللّه، وقد دلَّ على ذَلك كلِّه قولُه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾؛ لاشتِمَالِ الآيةِ على إثباتِ كونِه رَسولًا واستِلْزامِها أنَّه يأمرُ ويَنْهَى، وأنَّ ذَلك تبليغٌ لِمُرادِ اللّه تعالى فمن كانَ على بَيِّنةٍ مِن ذلكَ، أو كانَ في غَفلةٍ، فقد بيَّن اللّهُ له اختلافَ مَقاماتِ الرُّسول(1).

بلاغةُ الالتفاتِ من ضميرِ الخطابِ إلى الاسم الظاهرِ:

الرسالةُ هي مناطُ التَّكليفِ للعبادِ جميعًا

في الآيةِ التفاتٌ، فعَبَّر عن النَّبيِّ ﷺ بالاسم الظَّاهر ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ دونَ التَّعبيرِ بضَميرِ الخِطابِ؛ للإشعار بالعليَّة - حيثُ لم يَقُلْ: (يُطِعْكَ) - ؛ للإيذانِ بأنَّ مَناطَ كونِ طَاعتِه ﷺ طاعةً له تعالى، ليس خُصوصيَّةَ ذاتِه ﷺ بل مِن حَيثيَّةِ رسالَتِه(2).

دلالةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بلفظِ الجلالة مُظهَرًا؛ وذلك لتربيةِ المهابةِ، وتَأكيدِ وُجوبِ الطَّاعةِ بذِكرِ عُنوانِ الألوهيَّةِ(3).

بلاغةُ الالتفاتِ من الغائبِ للمخاطَبِ في قولِه: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

المواجهةُ بالخطابِ مشعرةٌ بعِظَمِ التَّكليفِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ التفاتان؛ الأوَّل: بعد ذِكر النَّبيِّ ﷺ بصِيغَةِ الغائب في قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ التفتتِ الآيةُ مِنَ الغائبِ للمُخاطَبِ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وفائدتُه تشريفُ النَّبيِّ ﷺ، بخطابِه بكونِه مرسلًا، بعد ذكرِه على سبيلِ الغَيْبةِ بنعتِ الرَّسولِ، فأفاد الالتفاتُ أنْ لا تعلُّقَ للنَّبيِّ بكونِه رسولًا، وأنَّ عليه أداءَ الرِّسالةِ، وفي ذلك تعليلٌ ضمنيٌّ للطَّاعةِ.

أمَّا الالتفاتُ الثَّاني فهو من الغَيْبةِ في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قوله تعالى ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ بضَمير العَظَمَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/135.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/206، والآلوسي، روح المعاني: 3/88.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/206.

(نا)، فلم يقل: فقد أطاعني، أو: فما أرسلك، وفي الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى الخطابِ في الموضعين انتقالٌ إلى الحضور، وفيه ما فيه من المواجهَةِ بالتّكليف.

بلاغةُ الاستغناءِ عن حرفِ التَّعديةِ:

إفـــادةُ عـمـومِ الـدَّاخـلـين في التَّولية

معنى ﴿تَوَلَّىٰ﴾: أَعرَضَ، والأَصلُ أن يتعدَّى بحرفٍ، فيُقال: تولَّى فلانٌ عن الإيمان، وتَولَّى إلى الإيمان؛ لأنَّ اللَّفظةَ تتضمَّن إقبالًا وإدبارًا، لكنَّ الاستعمالَ غلبَ عليها في كلامِ العربِ على معنَى الإعراض والإدبار، حتَّى استُغني فيها عن ذِكر الحرف الَّذي يتضمَّنه[1]، ولم يُذكر حرفُ التَّعديةِ وما يدخُلَ عليه لإفادةِ العموم، فقد جمعَت أنواعَ المُنحرفين عَنِ الملَّة الصَّحيحةِ جَميعِهم في أوجَز عِبارةٍ: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾، ويشملُ ذلك طَوائفَ عديدةً من يهودٍ ونصارى ومَجوسٍ ومَلاحدة ومُشركين وعُصاة وغيرهم مِنَ الضَّالين، مع ما فيها من تصويرٍ بليغٍ يَنطِقُ بحركةِ الإعراض والمُباغضة والجَفاء.

التَّولِّي نتيجةٌ لمَعصِيةِ الرَّسولِ، وهي تصوِّرُ حالَ العاصي:

بـلاغـةُ المـجـازِ المُرسل في قوله تـعـالى ﴿وَمَـن تَوَلَّىٰ﴾

استُعمِل التَّولِّي في الآيةِ مجازًا مرسلًا في العِصيان، وعَدم الإصغاء إلى الدَّعوة[2]. فذُكِرَ المُسبِّبُ وهو التَّولِّي بدلَ السَّبب وهو العِصيان، إذِ المعصيةُ هي علَّةُ التَّولِّي، سواءٌ أكانت معصيةً قلبيّةً عقديّةً، أو سلوكيَّةً، فهو مجازٌ مرسل علاقتُه المسبَّبيّة، مع ما في المجازِ من بلاغةٍ بديعةٍ في بيانِ حالِ المتولِّين، وتصويرِ حالِهم في التَّولية، وهو ما لا يُحقِّقه لفظُ المعصية.

فائدةُ حذفِ جواب الشَّرط وبيانه بالتَّعليلِ:

ذُكِرَ الشَّرطُ وحُذِفَ الجوابُ؛ لوجُود ما يدلُّ عليه، وتقدير الكلام: ومَنْ تولَّى فأَعْرِضْ عنه، واكتفى بتعليلِ الجَواب بجملةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/82.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 5/135.

المــعــرضُ عن طاعةِ الرسولِ معرَضٌ عنه من المرسلِ

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ بدلًا عن ذكرِه؛ أي: فأَعْرِضْ عنه؛ لأنَّك لم تُرسَل إلَّا مُبلِّغًا لا حَفيظًا، وجملةُ الشَّرطِ خبرٌ فيه تعريضٌ بهم، وتهديدٌ لهم بأنْ صَرَفه عن الاشتغالِ بهم، فيُعلَم أنَّ اللهَ سيتولَّى عِقابَهم.

سِرُّ تعديةِ فعلِ الإرسالِ بحرفِ الاستعلاء دونَ اللَّامِ أو إلى:

من رحمةِ الله بنبيِّه أن لم يُسألْه عن إعْراضِ أُمَّتِه

يتعدَّى الإرسالُ بإلى واللَّام وعلى، فهناك فرقٌ بين (أَرۡسَلۡنَاكَ لَهُم) و(أَرۡسَلۡنَاكَ إِلَيۡهِم) و﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ﴾. فـ(أَرۡسَلۡنَاكَ لَهُم) تَعنِي التَّبليغَ، و(أَرۡسَلۡنَاكَ إِلَيۡهِم) تعني التَّبليغ مع زيادةِ التَّأكيدِ على معنى الإيصالِ المقترنِ بالمقصودِ، بينما ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فهي تَعنِي الحملَ على الشَّيءِ، ففيها معنى الإلزام لتَحْمِلَهُم على كَذَا؛ فالنَّبيُّ ﷺ مرسلٌ للنَّاسِ لا على النَّاس؛ فمَنْ شاء فَليُطِعْ ومن شاء فليَعْصِ، كما قال تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 272]، وقال في هذا المعنى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: 21 - 22]، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ [ق: 45][1].

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الحالِ:

النَّبيُّ حفيظٌ على أمَّـتـه، لا على المُعرِضِين

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿حَفِيظٗا﴾ وهي حالٌ من الكاف في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ للعنايةِ والاهتمام، ووَجْهُ ذلك، أنَّ النبيَّ ﷺ كان معتنيًا بقومِه ومن حولَه من النَّاسِ، فأراد اللهُ ﷻ أن يُخفِّفَ عنه من ذلك التَّكليفِ الزَّائد، فالنفيُ انصبَّ على الجارِّ والمجرورِ، فهو ليس عليهم بحفيظٍ، بخلاف ما لو قال: وما أرسلناك حفيظًا عليهم؛ لفُهِمَ أنَّه ليس حفيظًا على الإطلاقِ، وهذا غير مراد، بالإضافة إلى ما يتبع ذلك من تحسينٍ لفظيٍّ.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2464.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَفِيظًا﴾ دون حافظًا:

تبرئةُ الرَّسولِ من ذُنوبِ المعرِضين تسليةً له وإلزامًا لهم

جاء التَّعبيرُ بحفيظ دون حافظ، للمبالغةِ في نفي اللّه تعالى أن يكونَ الرَّسُولُ ﷺ حفيظًا على أحدٍ؛ لأنَّ الرِّسالة لا تَنفكُّ عن الحِفظ، فتبليغُ الأحكامِ نوعُ حفظٍ عن المعاصي والآثام، وقوله ﷻ: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ مُخبرًا بما اختصَّ به الرَّسولُ ﷺ بالرِّسالةِ، دون أن يكون حفيظًا على المُعرِضين، ففيه بيانُ المبالغةِ في أن يكونَ رسولُ اللّه حفيظًا على أحدٍ.

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطَّاعَة والقَبُول:

الطَّوْعُ: الانقيادُ، ويضادُّه الكُره، قال ﷻ: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ [فصلت: 11]، ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: 83]، والطَّاعَةُ مثله لكنَّ أكثر ما تُقال في الائتمار لما أُمِرَ، والارتسام فيما رُسِمَ. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ [النساء: 81]، ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ [محمد: 21]؛ أي: أَطيعُوا، وقد طَاعَ له يَطُوعُ، وأَطَاعَهُ يُطيعُهُ. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ [التغابن: 12]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80][1].

والقبُول: هُوَ عبارَة عَن ترَتُّب الـمَقصُود على الطَّاعَةِ، والإجابة أَعمُّ، فَإِنَّهُ عبارَةٌ عَن قطع سُؤال السَّائِل، والقَطع قد يكون بترتّب الـمَقصُود بالسُّؤال، وَقد يكون بِمثل: سَمِعت سؤالك وأَنا أَقْضِي حَاجَتك.

والقبُول وإن كَانَ أخصّ من الصِّحَّة والجَوَاز إِلَّا أَنه قد يُذكر، ويُرَاد بِهِ الصِّحَّة والجَوَاز مجَازًا؛ إِذْ كل جَائِزٍ صَحِيح لَا يكون مَقبُولًا، وكل مَقبُولٍ لَا يكون جَائِزًا وصحيحًا، وإِذا قلت لغيرك: وَهبتك هَذَا الشَّيْء فَقَالَ: قَبلتُ، سُمّيَ قبولًا، وإِذا قبض يُسمّى تقبُّلًا[2].

وعليه فإنَّ الطَّاعَة إنَّما تقع رَغبَة أو رَهْبة، وأمَّا القَبُول فمثل الإجَابَة يَقع حِكمَةً ومصلحةً؛ ولذَلِك حسُنت الصِّفة للّه تعَالَى بِأَنَّهُ مُجيب وقابل، وَلَا تحسنُ الصّفةُ لَهُ بِأَنَّهُ مُطيع[3].

(1) الراغب، المفردات: (قبل).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 732.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 223.

التّولي والإعراض والصّدّ:

الـمُتولّي والـمُعرِضُ يَشتركانِ في تَرْكِ السُّلوك (القويم)، إلَّا أنَّ الـمُعْرِضَ أَسْوَأُ حالًا؛ لأنَّ الـمُتولِّي متى نَدِم سَهُلَ عليه الرُّجوع، والـمُعرِضُ يَحتاج إلى طَلَبٍ جَديدٍ، وغايةُ الذَّمِّ الجَمْعُ بينهما، أمَّا الصَّدُّ: فهو العُدُولُ عَنِ الشَّيءِ عَن قِلَى[1].

الرَّقيب والحَفيظ:

الرَّقِيب: هُوَ الحَافِظ الَّذِي لَا يغيب عَمَّا يحفظه[2]، فالرَّقيبُ في صِفات اللّه تعالى يتضمَّن التَّفتيشَ، فهو يَرقُبك لئلَّا يَخفى عليه فِعلك، ويُقال لمن يفتِّش عن أُمورِ صَاحبه أَرَقِيبٌ عليَّ أنتَ؟ وتقولُ: رَاقِبِ اللّه؛ أي: اعلَم أنَّه يَراك، فلا يخفَى عليه فعلُك[3].

والرَّقيبُ في نُعوتِ المخلوقِين الـمُوكَّل بحفظ الشَّيءِ الـمُترصِّد له، المتحرِّز عن الغفلة[4]، قال تعالى في الملائكة الّذين يحفظون أعمالَ ابن آدم: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: 18].

أمَّا الحفيظُ في أسماء اللّه تعالى هو الَّذي لا يَعزُب عن حِفظه الأشياء كلّها مِثقالَ ذرَّة في السّماوات والأرضِ، وقد حَفِظَ السّماوات والأرضَ بقدرته[5]. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255].

والحفيظُ في صِفَاتِ الـمَخلُوقِينَ هو الـمُوكَّل بِحفظِ الشَّيء، يُقال: فلانٌ حَفيظُنا عَليكم وحَافِظُنَا[6]؛ لذلك قال تعالى على لسان يوسف ﵇: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55] وممَّا يدلُّ على أنَّ الحفيظ في الخَلْق هو الوكيل؛ أنَّ اللّه ﷻ أسندَ إلى نفسه (الحفيظ)، وذكر الوكيل في خِطاب النَّبي ﷺ. في سِياقٍ واحدٍ، وآيةٍ واحدةٍ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾ [الشورى: 6].

---

(1) الكفوي، الكليات، ص: 28.
(2) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 51.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 206.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/367.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).

ففرَّقَ في هذا الموضع بين اللَّفظين، ومن هنا يُمكِن حملُ الحَفيظِ في صِفة المَخلُوقِينَ على هذا الموضع؛ إذ القُرآن يُفسِّر بعضُه بعضًا، فيكون الحفيظ في صِفتهم بمعنى الوكيل، قال تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ [هود: 86].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: 80][1].

(1) الدوري، دقائق الفروق، ص: 146.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: 81]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ أصناف النَّاس ما بين مطيعٍ ومتولٍّ في الآيةِ السَّابقةِ، جاءتْ هذه الآيةُ لبيان نوعٍ آخر من المتولِّين وهم المنافقون، فالآيةُ تتميمٌ لما قبلها في بيان أحوال النَّاس وموقفهم من طاعةِ الرَّسولِ، وهذه في غاية المناسبةِ، إذِ المقصودُ هو بيانُ صنفٍ يخفى على رسولِ اللّه ﷺ، وهو ما يُناسبُ الإطنابَ في بيانِ أحوالِهم وأقوالِهم وسلوكِهم، بعد الإيجازِ في بيان المُطيعين والمتولِّين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾: الطَّاعَةُ: الانِقيَادُ والـمُوَافَقَةُ، وأَصلُ الطّاعَةِ مِنَ الطَّوْعِ وهُوَ الـخُضُوعُ وَالتَّسْلِيمُ(1)؛ أي: إذا كانوا عندك يقولُ الـمُنافِقُون: سَمْعًا وطَاعةً، أو أَمرُك مُطاعٌ.

2) ﴿بَرَزُوا۟﴾: البَرْزَةُ: اسمُ مَصدَرٍ مِن بَرَزَ الشَّيءُ يَبْرُزُ بُرُوزًا: إذا ظَهَرَ وخَرَجَ، والبَرَازُ الفَضَاءُ مِنَ الأَرْضِ؛ أَي: خَرَجُوا مِنَ المَكَانِ يَكُونُونَ مَعَكَ فِيهِ إِلَى البَرَازِ مُنصَرِفِينَ إِلَى بُيُوتِهِم. ويُقَالُ لِلمُقَاتِل: بَرَزَ لِلقِتَال؛ أي: خَرَجَ(2).

3) ﴿بَيَّتَ﴾: مَصدَرُ (بَيَّتَ) التَّبْيِيتُ والاسمُ البَيَاتُ، وهو إمَّا مِنَ البَيْتُوتَةِ؛ لأنَّه قَضَاءُ الأَمْرِ وتدبيرُه باللَّيلِ، يُقَالُ: هذا أَمْرٌ بُيِّتَ بِلَيلٍ. وإِمَّا مِنْ أَبْيَاتِ الشِّعرِ؛ لأنَّ الشَّاعرَ يُدَبِّرُهَا ويُسَوِّيهَا في بيته ليلًا(3). والأَصلُ في التَّبييتِ إنَّما يكونُ في البَيت، والأصلُ أن تَكُونَ البَيْتُوتَةُ لَيلًا، ومَدَارُ الـمَادَّةِ كُلِّها الاستِخفاء، ولَفظُ ﴿بَيَّتَ﴾ هُنا بِمعنَى قَدَّرَ أَمرًا في السِّرِّ وأَضمَرَهُ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (طوع).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (برز)، والآلوسي، روح المعاني: 3/89.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/539.

لأَنَّ أَصلَ البَيَاتِ هو فِعلُ شَيءٍ في اللَّيلِ، والعَربُ تَستَعيرُ ذلك إلى مَعنَى الإِسرارِ؛ لأَنَّ اللَّيلَ أَكْتَمُ لِلسِّرِّ، ولذَلكَ يَقولُونَ: هذا أَمرٌ قُضِيَ بِلَيلٍ؛ أَي: لَم يَطَّلِع عليهِ أَحَدٌ، وقالَ الحارِثُ بنُ حِلِّزَة:

أَجمَعُوا أَمرَهُمْ بِلَيلٍ فَلَمَّا *** أَصبَحُوا أَصبَحَتْ لَهُمْ ضَوضَاءُ[1]

4) ﴿طَآئِفَةٞ﴾: الطَّائفةُ: الجَماعَةُ مِنَ النَّاسِ، لا واحدَ لَهَا مِنْ لَفظِها، مثل: فَريق، ورَهط، ونفَر، وجمعها: طوائف[2]، والمقصودُ بطائفةٍ في الآية: جماعةٌ مِنَ المنافقين كانُوا عِندَ رَسُولِ اللَّه ﷺ. وقالوا: آمنَّا بأفواههم، ولم تُؤمِنْ قُلُوبُهُم.

5) ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِى تَقُولُۖ﴾: القَولُ: كُلُّ لَفظٍ نَطَقَ بِهِ اللِّسانُ تامًّا كانَ أَو ناقِصًا، وفي مَعنَى ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِى تَقُولُۖ﴾ وجْهَانِ: الأوَّل: أَضْمَرُوا غيرَ مَا قيلَ لَهُمْ. والآخر: أَضمَرُوا غيرَ مَا قَالُوا هُم، عَلى مَعنَى أنَّهم أَسَرُّوا غيرَ مَا أَظهَرُوا وأَضمَرُوا الخِلافَ عَليكَ[3].

6) ﴿يَكۡتُبُ﴾: الكِتَابَةُ: مَصدَرُ كَتَبْتُ، واسْتَكْتَبْتُ فلانًا: إِذا أَمَرْتَهُ أَنْ يَكْتُبَ لكَ أَو اتَّخَذْتَه كاتِبًا، أَيْ: يَكْتُبُهُ في صَحَائِفِ أَعمَالِهم حَسْبَمَا تَكْتُبُهُ الحَفَظَةُ لِيُجَازَوا بِهِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: يَكتُبُهُ في كِتَابِهِ إِلَيكَ؛ أَي: يُنْزِلُه في القُرآنِ ويَعلَمُ بِهِ ويَطَّلِعُ عَلَى سِرِّهِم[4].

7) ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾: الإِعْرَاضُ: الصَّدُّ والتَّوَلِّي والرَّفضُ، ويُطلَقُ الإِعرَاضُ بِمَعْنَى: الانْصِرَافِ عَنِ الشَّيْءِ بِالقَلْبِ، وضِدُّ الإِعراضِ: الإِقبَالُ والانقِيَادُ والطَّاعَةُ؛ أَي: لَا تُحَدِّث نَفسَكَ بِالانتِقَامِ مِنهُم. ولَيسَ المَعنَى فَأَعرِضْ عَن دَعوتِهِم إِلى الإِيمَانِ وعَن وَعظِهِمْ[5].

8) ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾: التَّوَكُّلُ: هُوَ إِظهَارُ العَجزِ في الأَمرِ والاعْتِمَادُ عَلَى غَيرِكَ؛ أَي: وتوَكَّل على اللَّهِ في شَأنِهم، فإنَّ اللَّه يَكفِيكَ مَعَرَّتَهُم، ويَنتَقِم لكَ مِنْهُم إذا قَوِيَ أَمْرُ الإِسْلَامِ وعَزَّ أَنصَارُهُ[6].

9) ﴿وَكِيلٗا﴾: يُقَالُ: كَفَاكَ الشَّيءُ يَكفِيكَ. وَقَدْ كَفَى كِفَايَةً، إِذا قَامَ بِالأَمرِ، والوَكِيلُ هو

(1) ديوان الحارث بن حلزة، ص: 24، والزوزني، شرح المعلقات السبع، ص: 273.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(3) الواحدي، الوسيط: 6/625، وابن منظور، لسان العرب: (قول).
(4) ابن عباد، المحيط: (كتب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/725.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/539، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/725، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(6) الزَّمخشري، الكشاف: 1/540.

المَوكُولُ إليه، وهُوَ فَعِيلٌ بمَعنَى مَفعُولٌ. وقَالَ ابنُ كيسان: وكَفَى باللّهِ مُعْتَمَدًا ومَلْجأً. وَقِيلَ: الوَكِيلُ القَائِمُ بِمَا يُفَوَّضُ إِلَيهِ مِنَ التَّدْبِيرِ(1).

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

هذه الآيةُ الكَرِيمَةُ، تَحكي شأْنًا آخَرَ مِنْ شؤون المُنافقين. وهو إعلانُهُم طَاعَةَ الرَّسُول ﷺ بألسنتهم حينما يكونون معه، فإذا انصَرَفُوا من مَجلِسِه، وذَهَبُوا بَعِيدًا عَنه، دَبَّرَ زُعماؤُهم خِفيَةً في السِّرِّ - في اللَّيلِ أو النَّهارِ - مُخالفةَ أَمرِه ﷺ ونقض الَّذي قالوه بألسنتهم في مَجلِسِه، مُعتقدِينَ أنَّ هذا التَّدبير الخَفِيّ لن يَعلَمَهُ الرَّسولُ ﷺ. وفَاتَهُم أنَّ الله يَعلمُ كلَّ مَا يتآمرُون عَليه، وقد سَجَّلَهُ عليهم، وأنَّه سَيكشِفُه لرسُولِهِ ﷺ وأنَّه سَيُعاقِبهم على هذا النِّفاق في الآخرة أشدَّ العِقَاب(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ الغائبِ في قولِه تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾:

سِـمـةُ المُنـافـقِ التَّبجُّحُ بالطَّاعةِ والـنُّـكـوصُ إلى خلافِها

عبَّر الحقُّ تعالى بالحديث عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ بضمير الغائبِ، دونَ ذِكرهم والكَشفِ عن ذَواتهم، فلم يقل: وقالَتْ طائفةٌ، ونحو هذا، وذلك ازدراءً بهم، وتحقيرًا لحالِهم، وامتهانًا لهم، واستخفافًا بشأنِهم، حتَّى لكأنَّهم أَهون من أن يتعرَّف عليهم، وأَضألَ من أن تظهرَ لهم ذاتيَّة مُميَّزة لهم(3)، وأمرٌ آخرُ وهو الإشارةُ إلى أنَّ هذا القولَ لا يصدُرُ إلّا عن أُناسٍ معروفين ودَيْدَنهم قولُ ما لا يعتقدون.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿طَاعَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾:

﴿طَاعَةٌ﴾: مَصدَرٌ مَرفُوعٌ على أنَّهُ خَبَرٌ لِمُبتدأٍ مَحْذُوفٍ؛ أَي: أَمْرُنا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفا)، والواحدي، الوسيط: 6/628.
(2) الواحدي، الوسيط: 2/861.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/89، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/844.

أَوْ شَأْنُنا طاعةٌ، ولا يجوز إظهارُ هذا المبتدأ لأنَّ الخبرَ مصدرٌ بدلٌ من اللفظِ بفعلِه، أو مبتدأٌ لخبرٍ محذوفٍ تقديرُه: عندنا طاعةٌ[1]، والإعرابان صحيحان والأوَّل أوضح دلالةً، ومَعنى أَمرُك طاعَةٌ أنَّه مُطاعٌ، فَجَعَلَ المَصدَرَ في مَكَانِ اسْمِ المَفعُولِ لِلمُبالَغَةِ، فهوَ يَدُلُّ بِإيجَازِهِ على أَنَّهُم كَانُوا في حَضرَةِ الرَّسُولِ يَدَّعُونَ كمالَ الطَّاعةِ ويُظهِرُونَ مُنتَهَى الانقِيَادِ[2]، أي: أنَّهم لا يُحسنون إلَّا قولَ: ﴿طَاعَةٌ﴾، وفيه بيانُ شديدِ نفاقِهم وقلَّةِ هوانِهم على أنفسِهم والنَّاس.

قبحُ المنافقِ يكمُنُ في مبالغتِه في إظهارِ الطَّاعةِ، وكتمِ النِّفاقِ

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَإِذَا﴾ في الآية:

الفَاءُ: للتَّعقِيبِ والمُباشَرة؛ أي: بمُجَّرد خُروجِهم مِن عِندك بيَّتَ طائفةٌ منهم، وهذا يدلُّ على تمكُّنِ النِّفاقِ من نفوسِهم، و(إذا) ظرفيَّةٌ زَمانيَّةٌ لما يُستقبل متضمِّنةٌ معنى الشَّرطِ، أي: حِينَ يَخرُجُونَ يُبيِّتون كأنَّه بدون فاصلٍ زمانيٍّ، وهذا يكشفُ عن مسارعَتِهم في الكفر وتهالُكِهم عليه، وفيه إعجازٌ غيبيٌّ لما سيصدُرُ عن أولئك المنافقين.

الإخبارُ عنِ المُسارعةِ في الكفرِ إعجازٌ غيبيٌّ

بلاغةُ المَجَازِ المُرسَل في قوله تعالى: ﴿بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَرَزُواْ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ، والعلاقةُ مُسَبَّبِيَّةٌ، بمعنَى: خَرَجُوا فبرزوا، فالخُروجُ يَنتج عنه بُروزهم وظُهورهم، وهو يُصَوِّرُ الخروجَ بخُرُوجِ الشَّيءِ مِنَ الضِّيقِ إلى السَّعَةِ، فهو تصويرٌ دقيقٌ مُعْجِزٌ لحالِ هؤلاء المُنافقين، الذين كانوا في مَجلِسِ الرَّسُول ﷺ أشباحًا لا تَكادُ تُرى، حتَّى إذا خَرجُوا من مَجلِسِ الرَّسُولِ ﷺ. تَطاوَلَت أعناقُهُم، وشَمخَت أُنُوفُهم، وانتفَضَتْ أجسامُهُم، فإذا هُم أَشبَهُ بالطَّواويس خُيلاءَ وإعجابًا! يَستعرضُون النَّاسَ، ويَعرِضُون على أنظارهم هذا الوَجه الجَديد منهم، وكأنَّهم بذلك

بروزُ المنافقين يدلُّ على مرضِهم النَّفسيِّ، وطلبِ حبِّ الظُّهور

(1) السمين، الدر المصون: 4/50.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/232.

يَستَوفُون حظَّهم مِن بُروز الشَّخصية، ذلكَ الحَظّ الَّذي فاتَهم، وُهم يلبسونَ الوَجهَ الآخر، وجهَ الضُّمور والانزواء، الّذي يعيشُون به أكثَر ممَّا يعيشُونَ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيَّتَ طَآيِفَةٌ﴾ بالتَّذكيرِ دون التَّأنيثِ:

تنزيلُ الطَّائفةِ منـزلةَ الـرَّجـلِ الواحد

اتَّفقَ القُرَّاءُ على تَذكيرِ ﴿بَيَّتَ﴾، قَالُوا: لَم يَقُل (بَيَّتَتْ) بتاءِ التَّأنيثِ؛ لأَنَّ تَأنيثَ ﴿طَآيِفَةٌ﴾ غيرُ حَقيقيّ؛ ولأَنَّها بمَعنَى الفَريقِ والفَوج، وهذا التَّعليلُ كافٍ في بيانِ الجوازِ لا في بيانِ الاختيارِ، والأَصلُ أَنْ يُؤَنَّث ضَميرُ المُؤنَّث، ولَو كانَ تَأنيثُهُ لَفظيًّا، ووَجهُ الاختيارِ هو أَنَّ تَكرَارَ التَّاءِ قَبلَ الطَّاءِ القَريبَةِ منها في المَخرَجِ لَا يَخلُو مِنْ ثِقَلٍ على اللِّسَانِ؛ ولذلكَ تُحذَفُ إِحدَى التَّاءَين مِنْ مِثلِ تَتَصدَّى وتَتَكَلَّمُ، فَيُقَالُ: تَصدَّى وتَكَلَّمُ[2]، ونكتَةُ التَّذكيرِ تنزيلُ الطَّائفةِ منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ، فهم على قلبِ رجلٍ منافقٍ واحدٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيَّتَ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ:

الإيمـاءُ إلى أنَّ أعمالَ المنافقين لا تكونُ إلّا سرًّا

التعبيرُ بـ ﴿بَيَّتَ﴾ فاضحٌ لتدبيرِهم الماكرِ المستترِ، كاشفٌ عنه؛ فأَصْلُ الْبَيَاتِ هُوَ فِعْلُ شَيْءٍ فِي اللَّيْلِ، وَالْعَرَبُ تَسْتَعِيرُ ذَلِكَ إِلَى مَعْنَى الْإِسْرَارِ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ أَكْتَمُ لِلسِّرِّ[3]، كما أنّه كاشفٌ عن شدّة خوفهم من رسول اللّه ﷺ. والمؤمنين معه لغايةٍ لا يَجرُؤون فيها على إعلان عكس ما قالوه.

معنى التَّبعيضِ في قولِه: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

القـرآنُ يُعلِّمُ وجـوبَ العدلِ مـع الـنَّـاسِ أجمعين

خَصَّ اللّه طَائِفَةً مِنَ المُنَافِقِينَ بالتَّبييتِ في قوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾، وكَلمَة (من) للتَّبعيضِ؛ لأَنَّه تَعالى عَلِمَ أَنَّ مِنهُم مَنْ يَبقَى على كُفرِهِ

---

(1) الراغب، المفردات: (برز)، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/844 - 845.

(2) رضا، تفسير المنار: 5/232، وقَرَأَ الْجُمْهُور: ﴿بَيَّتَ طَآيِفَةٌ﴾ بِإِظْهَارِ تَاء: (بَيَّتَ) مِنْ طَاء: (طَائِفَةٍ)، وَقَرَأَهُ أَبُو عَمْرٍو، وَحَمْزَة، وَيَعْقُوب، وَخَلَفٌ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الطَّاءِ تَخْفِيفًا لقرب مخرجيهما، ينظر: ابن خالويه، إعراب القراءات، ص: 85، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

ونِفَاقِهِ، ومُنهُم مَنْ يرجعُ عنه ويَتوبُ، فخصَّ مَن يصرُّ على النِّفاق بالذِّكر[1]. ثمّ إنَّ التّفصيلَ الكاشفَ لما سَيراه المنافقون واجتهدُوا في إخفائه كما يقتضيه التّعبيرُ بـ ﴿بَيَّتَ﴾ فيه بشارةٌ للمؤمنين بفضحِ أعدائهم الأخفياء، وفيه دليلٌ على وجوبِ العدلِ في المؤمنين وغيرِهم؛ فإنَّ اللّه كتبه على الجميع.

سرُّ التَّعبيرِ بـ: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ ومجيءِ الفعلِ مُضارعًا لا ماضيًا:

مهارةُ المنافقِ في إحداثِ قولين متعاقبين متعارضين في آنٍ واحدٍ

جاء المفعولُ به بلفظ ﴿غَيۡرَ﴾ لبيانِ المخالفةِ التّامةِ بين ما أظهرُوه أمامك، وما قالُوه من ورائك، ثمّ أضيف المفعولُ به إلى الاسم الموصول الخاصِّ لتحديد القول وتعيينه، ثمّ جاء بجملةِ الصّلةِ فعليةً فعلُها مضارعٌ عدولًا عن الماضي، وكان الظّاهرُ أن يُقالَ: غير الذي قالتْ، أي: الطَّائفة، على القولِ بأنَّ فاعل ﴿تَقُولُۖ﴾ يرجع للطَّائفةِ، "فقَد عَدَلَ عَنِ الفِعلِ الـمَاضِي إلى الفِعلِ الـمُضارعِ لقَصدِ الاستمرار"[2]، وفي هذا العدولِ إلاحةٌ إلى أن لم يكن ثمّةَ وقتٌ بين ما قالُوه وتغييره، وهو ما يتّسقُ مع التّعبير بفاءِ التّعقيب من قبل، ففيه بيانٌ لقدرةِ المنافقِ على إحداثِ قولين متعارِضين في وقتٍ واحدٍ، وهو يُشير إلى الحذر ممَّن يستطيعُ تغييرَ قولِه دون أدنى حرَجٍ!

توجيهُ اختلافِ التَّعبير بالاسمِ الموصول:

أقوالُ المنافقين مكتوبةٌ عليهم لا تفوتُهم فائتةٌ

يُلحَظُ أنّ التّعبيرَ جاء هنا ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ بالاسم الموصول الظّاهر ﴿ٱلَّذِي﴾، وفي جملة الحال بعدها ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ جاء الاسمُ الموصول مُعبَّرًا عنه بأعمّ الموصولات (ما)؛ وذلك لأنَّ ما تقولُه الطَّائفةُ مُحدَّدٌ، بخلافِ ما يُكتبُ عليهم، فهو يعمُّ كلَّ شيءٍ، فهو تهديدٌ لهم ببيان أنّ كلَّ تبييتٍ مكتوبٌ مسجّلٌ، والمرادُ ما يترتّب على الكُتب من العقاب.

(1) الواحدي، الوسيط: 6/627، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/150، والدرة، تفسير القرآن الكريم: 2/545.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

سرُّ المجيءِ بصيغةِ المضارعِ لفعلِ القولِ:

وتكرَارُ فِعلِ القَول مَرَّتين بِصيغَةِ المضارع ﴿وَيَقُولُونَ﴾، و﴿تَقُولُ﴾ دلالةٌ على ارتباط الفِعل بالطَّائفة المقصودة، ويؤكّد ذلك تكرارُ فعلتهم الدّنيئة بفعلين مقابلين للفعلين المذكورين آنفًا وهما: ﴿بَيَّتَ﴾ و﴿يُبَيِّتُونَ﴾. وبذلك قد جمَعُوا في حقدهم بين الجهرِ بالقولِ وبالخفاءِ بالتّبييت.

الكناية في جملة الحالِ: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾:

التّهديدُ والوعيدُ لكلِّ تبييتٍ

تضمَّنتِ الجُملة تَهديدًا بإعلامِهم أَنَّ اللّه تَعالى لَن يُفلِتَهُم مِن عِقَابِهِ، فَلا يَغُرَّنَّهُم تَأَخُّرُ العَذابِ مُدَّةً. وقَد دَلَّ بِصِيغَةِ المُضَارِعِ في قَولِهِ: ﴿يَكۡتُبُ﴾ على تَجَدُّدِ ذلكَ، وأَنَّهُ لا يُضَاعُ منهُ شَيءٌ[1]، وفي إسنادِ الكتابةِ للذَّاتِ العليّةِ بأهيبِ أسمائه تربيةٌ للمهابةِ، ومبالغةٌ في التّهديدِ لما يترتّبُ على الكتابةِ من عقابٍ شديدٍ، فجملةُ الحالِ كلّها كنايةٌ عن العقابِ الشّديدِ المبنيّ على الرَّصدِ المُحيطِ.

وجه التَّأكيدِ بقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾:

الإعــراضُ عـنِ المُنافقين سبيلُ الانتصافِ منهم

قولُه تعالَى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ مُؤَكِّدٌ لِقَوۡلِهِ: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، وهي أيضًا أمرٌ بِعَدَمِ الاكتِراثِ بِهِم، وأَنَّهُم لَا يُخشَى خِلَافُهُم، أي: تَجافَ عَنهُم، ولا تتصدَّ للانتقامِ منهُم. والفاءُ لسببيّة ما قبلَهَا لما بعدَها[2]. وهي مبنيةٌ على جملة الحال مرتّبة عليها، لأنَّ جملة الحال بيّنت رصدَ فعالهم القبيحةِ، وكَنّت عن تهديدهم ووعيدهم، وهذا يُنتجُ معنى كأنّه قيل: إذا كان حسابُهم ومراقبتُهم شأنَ اللّه لا شأنك، فأعرض عن مواجهتِهم، ولا تلتفتْ إليهم، وقد جاءت الفاءُ الاحةً إلى المسارعةِ في الإعراض وعدم الاكتراث، ويؤيّده استخدام (عن) وما فيها من معنى المجاوزة.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1779.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/725، والآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

توجيهُ معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾:

الإعـــراضُ عن المنافقين مقترنٌ بالتَّـوكُّلِ على الله وحده

إمَّا أن نحمل الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ على العطفِ أو الاستئنافِ، فإذا جعلناها عاطفةً على ما قبلها، فبينهما تناسبٌ عجيبٌ، فمع المنافقين إعراضٌ وتفويضُ الأمر إلى الله تعالى؛ فقد بَيَّنَ الحقُّ تبارَكَ وتعالى لنَبيِّه الكَرِيم مُحمَّد ﷺ أنَّ المُنافِقينَ الَّذينَ يَحضُرُونَ مجلِسَكَ، ويُبدُونَ الطَّاعَةَ في الأَمرِ، ثُمَّ يُبيِّتُونَ مَا لَا يُرضَى مِنَ القَولِ، لَكَ في شَأنِهم أمرَانِ: أَوَّلهما: الإعراضُ والصَّدُّ وعَدَمُ الانتِقَام. والآخَر: تَفويضُ الأَمرِ إلى اللّه تَعالى[1]، وهذانِ الأَمران يحصلُ بالأوَّلِ التَّجاوز عَن أفعَالهم؛ لذلك كان التَّعبيرُ القُرآنيُّ بـ (عنْ) الَّتي تُفيد التَّجاوز. ويحصلُ بالأَمرِ الآخر الاستعلاء على كَيدِ هؤلاء المُنافقين، وجاء السِّياق القُرآنيُّ بـ (عَلى) الَّذي يُفِيدُ الاستعلاءَ إشارةً لهذا المعنى اللَّطيف، قال الزَّمخشريُّ: فإنَّ اللّه يكفيكَ مَعرَّتَهم وينتقم لكَ مِنهم إذا قَوِيَ أَمْرُ الإسلام وعَزَّ أَنصَارُهُ[2].

الجملةُ القرآنيَّةُ تـجـري مجرى الأمثـالِ لقوَّتها في الـنَّـفـس واختزالِها

وإذا جعلنا الواو استئنافيَّةً في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فالآيةُ تأخذ مأخذ الأمثالِ؛ فهي تُشعرُ باستقلالِ الجملةِ، إذ هذه الجملةُ من المُمكن أَنْ تُقتَطع مِن سِيَاقِهَا، وأن تَستَقِلَّ بإفادَةِ معناها؛ ولذلك يَشيعُ بعضُها شِيُوع الأَمثال، والَّذي أتاح ذلك هو ذِكر المُسند إليه، ولو كانَ المَذكور هو الضَّمير لارتبطَ بالكلام السَّابق؛ لأنَّ فيه مَرجعَهُ، وهذا الأسلوب يَشيع في القرآن كثيرًا[3].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/149.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/437.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 191.

نكتةُ وضعِ الظَّاهر موضعَ المضمر:

وُضع الظّاهرُ موضعَ المضمر في قوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، فلم يقلْ: وكفى به، تأكيدًا لاستقلال الجملة، وإشعارًا بعليّة الحكم، وليتسنّى دخول الباء على المتعجّب منه؛ لأنّ الباء تدخل في فاعل كفى فتفيدُ التعجّبَ نصًّا، والمعنى: ما أكفاه وكيلًا!

فنُّ التَّصدير:

في الآية ردُّ العَجز على الصَّدر؛ حيث وافقت كلمة ﴿وَكِيلًا﴾ وهي آخر كلمة في الكلام، وكلمة ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ في صدره، وهو جناس اشتقاق أيضًا. كما جاء لَفظُ الجَلالة مُظهَرًا في مقام الإضمار للإشعَارِ بِعِلَّةِ الحُكمِ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

البَروز والخُروج:

البروزُ: خلوصُ الشَّيءِ أو ظُهوره ظُهورًا قويًّا؛ أي: نفاذُه من بين ما يكتنفُه بجَهد وقوة: كما يخلصُ الذّهبُ مما هو شديد الامتزاج به (حال كونه تبرًا) بتعَمُّل. ومن هذا بَرَز الرجل: إذا خرج إلى تلك الأرض البَرَاز، أي: أَبْعَد، قال تعالى: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: 154] كأنَّ المعنى لَدُفِعُوا إلى الخروج إليها. ومثلها ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: 21]: أُخرِجوا من القُبُور مع مَلحَظِ الضِّيق، ومثلها ما في [إبراهيم: 48] و﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾ [غافر: 16]، ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾. ومَا لا ينضحُ فيه قيد (الجهد) في الاستعمالات الأخيرة فهو من إسقاطه[2].

أمَّا الخُروجُ فهو النَّفاذُ عن الشَّيءِ، وضِدُّه: الدُّخول. ومن معانيه الظُّهورُ، ومنه سُمِّي الخوارِجِ بذلك؛ لِخُروجِهم على النَّاسِ، أو عن الدِّينِ، أو عن الحَقِّ، أو عن عليٍّ[3] رضي الله عنه.

فالخُروجُ عادةً لا يكتنفُه كثيرُ جهدٍ وقوَّةٍ وضيق، فهو نَفاذٌ من الشَّيء بِسُهُولة، على خِلاف معنى البَروزِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/207، والآلوسي، روح المعاني: 3/89.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (برز).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (خرج).

التَّوكُّل والتَّفويض:

يأتي التَّوَكُّلُ على وجهين، يُقال: تَوَكَّلْتُ لِفُلان بمعنى: توليتُ لَهُ، ويُقَالُ: وَكَّلْتُهُ فتَوَكَّلَ لي، وتَوَكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدته قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٥١﴾ [التَّوبة: 51][1]. والتفويض يَدُلُّ عَلَى اتِّكَالٍ في الأَمرِ عَلَى آخَرَ وَرَدِّهِ عَلَيه، ثُمَّ يُفَرَّعُ فيَرُدُّ إِلَيهِ مَا يُشبِهُهُ. مِن ذَلِكَ فَوَّضَ إِلَيهِ أَمْرَهُ، إِذَا رَدَّهُ. قَالَ اللَّهُ تعالَى في قِصَّةِ مَنْ قَالَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: 44][2].

وبَينَ التَّوكُّلِ والتفويض علاقة العُمُوم والخُصُوصِ؛ إذ التَّفويضُ أَوسعُ من معنى التَّوكُّل، والتَّوكُّل أخصُّ من التَّفويض، قال صاحب المنازل[3]: والتّفويضُ ألطفُ إشارةً، وأوسعُ معنًى من التّوكّل، والتّوكّل يكون بعد وقوع السّبب، أمّا التّفويض فإنّه يكون قبل وقوع السّبب وبعده، والتّفويضُ هو عين الاستسلام، أمّا التّوكّل فهو شعبةٌ منه. يعني أنَّ المفوِّض يتبرَّأ من الحول والقوَّة، ويفوِّض الأمر إلى صاحِبه، من غير أن يقيمه مقامَ نفسِه في مصالحِه، بخلاف التوكُّل، فإنَّ الوكالةَ تقتضي أن يقومَ الوكيلُ مقامَ الموكِّل. فالتفويضُ: براءةٌ وخروجٌ من الحول والقوَّة، وتسليمُ الأمر كلِّه إلى مالكه.

(1) الراغب، المفردات: (وكل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوض).
(3) الهروي، منازل السائرين، ص: 45.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: 82]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى عن المنافقين أنواعَ مَكرِهم وكيدِهم، وكان كلُّ ذلك لأجلِ أنَّهم ما كانوا يَعتقِدون كونَه محقًّا في ادِّعاءِ الرِّسالة صادقًا فيه، بل كانوا يعتقدون أنَّه مُفترٍ متخرِّصٌ؛ فلا جرَمَ أمَرَهم اللّٰه تعالى بأن ينظُروا ويتفكَّروا في الدَّلائلِ الدَّالَّة على صحَّةِ نبوَّتِه، فاحتجَّ تعالى بالقرآنِ على صحَّةِ نبوَّتِه[1].

1) ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾: التَّدبُّرُ: النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأمرِ، وتَقويمُه على ما يكون فيه صَلاحُ عاقِبَتِه، يُقال: دَبَّرَ الأمرَ: إذا سَاسَهُ ونَظَرَ في عاقِبَتِهِ ليقَعَ على الوجهِ الأكمَلِ، والتَّدَبُّرُ: التَّفكُّرُ، أي: تَحصِيلُ المَعرِفَتَينِ لتَحصِيل مَعرِفةٍ ثَالِثَةٍ، وأَصلُ الكلِمَةِ مِن الدُّبُرِ، وأَدبارُ الأُمُورِ: عَواقِبُها[2].

2) ﴿ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾: هُوَ الوَحيُ المُنَزَّلُ عَلى نَبِيِّنا مُحمَّد ﷺ. وهُوَ كَلامُ اللّٰه - تعالى - غير مخلُوقٍ، وكِتَابُ الإسلَام في عَقَائِدِهِ وعِبَادَاتِه وأَحْكَامِه وآدابِه، المَقرُوءُ المَكتُوبُ في المَصَاحِفِ، وأَصلُهُ مِنَ القَرءِ، وهو: الجَمعُ والضَّمُّ، يُقَالُ: قَرَأَ الشَّيءَ، قُرءًا وقُرآنًا، أي: جَمَعَهُ وضَمَّ بَعضَهُ إلى بَعضٍ، ومِنهُ سُمِّي قُرآنًا؛ لأنَّه جمَعَ الآياتِ والسُّوَرَ بَعضَهَا إلى بَعْضٍ[3].

3) ﴿لَوَجَدُواْ﴾: الوَجدُ: تَحصُّلُ شَيءٍ ذِي بَالٍ في حَوزَةٍ كانت خَالِيَةً مِنهُ؛ كَالمَالِ والضَّالَةِ والتَّحقُّقِ المَادِّي عَنْ عَدَمٍ، ومِنْ صُوَرِهِ العُثُورُ عَلى الشَّيءِ في الحَوزَةِ دُونَ مَعرِفَةٍ مُسبَقَةٍ بذَلِكَ، قال تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: 75]، وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ [آل عمران: 37]، وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: 65]، وفي كُلِّ هذه (وَجَدَ) فِعلٌ تامٌّ مَعنَاهُ: إِصَابَةُ ذَاتِ الشَّيءِ، أي: العُثُورُ عليه في الحَيِّزِ[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/151.
(2) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، والزَّبيدي، تاج العروس: (دبر).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قرأ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي الموصَّل: (وجد).

4) ﴿ٱخۡتِلَٰفٗا﴾: الاختِلَافُ: التَّنَازُعُ، يُقَالُ: اخْتَلَفَ القَومُ إِذَا تَنَازَعُوا، فَذَهَبَ كُلُّ وَاحِدٍ إلى غَيرِ ما ذَهَبَ إليهِ الآخَرُ، ويَأتي الاختِلَافُ بِمَعنَى: الخِلَافِ والمُضَادّةِ والمُعَاكَسَةِ، وضِدُّ الاخْتِلَافِ: الاتِّفَاقُ والتّسَاوِي، وأَصلُ كَلِمَةِ الاختِلَافِ مِنَ الخِلَافَةِ، وهِيَ مَجِيءُ شَيءٍ بَعدَ شَيءٍ فَيَقُومُ مَقَامَهُ، ومِن مَعَاني الاختِلَافِ أَيضًا: التَّنَوُّعُ والتّغَيُّرُ والتّفَرُّقُ[1]، والمقصودُ به في الآيةِ هو التَّضارُبُ في الحقائقِ.

5) ﴿كَثِيرٗا﴾: الكَثرَةُ: نَقِيضُ القِلَّةِ، وقَومٌ كَثِيرٌ وهُم كَثِيرُونَ، قَالَ اللَّيْثُ: الكَثرَة نَمَاءُ العَدَدِ. يُقَالُ: كَثُرَ الشَّيءُ يَكْثُر كَثْرَةً، فَهُوَ كَثِيرٌ[2]، والكثيرُ في الآيةِ صفةُ الاختلافِ.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الآيةُ الكريمَةُ تنعى على المُنافقينَ والضَّالين ما فَاتَهُم مِنْ خيرٍ عَظيم، من عدم تدبّرِ القرآن، فالقرآنُ الكريمُ على امتدادِه، وسَعَتِه، وتشعُّب الموضوعاتِ الّتي تَناوَلَها، والقَضَايا الَّتي عَرَضَها، والأَحكَام الَّتي أَصدَرَها، هو في ذَلكَ كلّه على درجةٍ واحدةٍ مِنَ البلاغة والبيانِ، ولو كانَ هذا القُرآن من عند غيرِ اللّه، لاختلفَ أُسلُوبُهُ، وتناقَضَت أَحكَامُهُ، وتضارَبت قَضَاياهُ، شأن كلّ عملٍ بَشريٍّ، لا يَسلمُ أبدًا مِن مَواطِن القُوَّةِ والضَّعفِ فيه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ الإنكارُ التَّوبيخي:

افتُتحت الآيةُ الكريمةُ بالاستِفهامِ الإنكاريّ التّوبيخيّ[4]؛ ردًّا على ما أفهمَته الآيةُ السّابقةُ من إنكارهم الرّسالةَ، وأن يكونَ القرآنُ من عند اللّه، وأسلوبُ الاستفهامِ أسلوبٌ حواريٌّ، وهو أعلى في الإقناع من الأسلوب التلقيني.

معنى الفاءِ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾:

الفاءُ إمَّا أن تكونَ فاءَ التّفريعِ على الكلامِ السَّابقِ جملةً، أو العطف على مقدَّرٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(2) الراغب، المفردات: (كبر).
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/540، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/845.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/725، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/207، والآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/137.

الفاءُ محمولةٌ على التَّفريعِ أو العطفِ على مقدَّرٍ محذوفٍ

محذوفٍ، فمعناها على التَّفريع "على الكَلام السَّابقِ المُتَعَلِّق بهؤلاءِ المُنافِقِينَ أو الكَفَرَةِ الصُّرَحَاءِ وبِتَوَلِّيهِمُ المُعَرَّضِ بِهِم في شَأْنِهِ بقَولِهِ: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، وبقولهم: ﴿طَاعَةٞ﴾، ثُمَّ تَدبيرِ العِصيانِ فيما وُعِدُوا بالطَّاعَةِ في شَأنِهِ. ولـمَّا كانَ ذلكَ كُلُّهُ أَثَرًا من آثارِ استِبطانِ الكُفرِ، أو الشَّكِّ، أَوِ اختيارِ ما هُوَ في نَظَرِهِم أَولَى مِمَّا أُمِرُوا بِهِ، وكانَ استِمرَارُهُم على ذَلِكَ، مع ظُهُورِ دَلائِلِ الدِّينِ، مُنبِئًا بِقِلَّةِ تَفَهُّمِهِمُ القُرآنَ، وضَعفِ استِفَادَتِهِم، كانَ المَقَامُ لِتَفريعِ الاستِفهَامِ عَن قِلَّةِ تَفَهُّمِهِم"[1].

ومعناها على العطفِ على مُقدّرٍ؛ "أي: أَيُعرِضُونَ عَنِ القُرآنِ فلا يَتَأَمَّلُون فيه، لِيَعلمُوا كَونَهُ من عِندِ اللّه تعالى بمُشاهَدَةِ ما فيه مِنَ الشَّواهدِ الَّتي مِن جُملَتِها هذا الوَحيُ الصَّادقُ والنَّصُّ النَّاطقُ بنِفَاقِهِم المَحكيِّ على ما هو عليه"[2]، وهذا على تَقديرِ المحذوفِ بعد الهمزةِ على مذهبِ الزَّمخشري.

فائدةُ استعمالِ لفظِ التَّدبُّر بصيغة المضارعِ:

قــوَّةُ القرآنِ في إثباتِ أنَّه من عند الله

وقد عبّرَتِ الآيةُ بالتَّدبُّر على صيغةِ التَّفعُّل، ليدلَّ على تكلُّفِ الفعلِ، وحصولِه بعد جُهدٍ، والتَّدبُّرُ: حصول النَّظرِ في الأمرِ المُتَدَبَّرِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ[3]، ويُؤيِّد ذلك التَّعبيرُ بالفِعلِ المضارعِ ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾؛ ليفيدَ الاستمرارَ في الحثِّ على التَّأمُّل الدَّائم في كتابِ اللّه العزيز، فَكلامُ اللّه لا يَخْلَقُ على كَثرةِ الرَّدِ ولا تَنقَضي عَجائبُهُ، لما يحويه من التَّناسق المُطلق الشَّامل الكامل[4]، وفائدةُ ذلك: بيانُ قوّةِ القرآنِ في تحدِّي القوم في إثباتِ أنَّه من عندِ اللّه تعالى.

ومِنَ المُلاحَظ أنَّ اللّه تعالى قالَ في هذه الآية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/137.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/207.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/89.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/726، والآلوسي، روح المعاني: 3/90.

﴿ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾، ولم يَقُل: أَفَلَا يتذَكَّرُونَ القُرآنَ، أو أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ القُرآنَ؛ والعِلَّةُ في ذلك أنَّ التَّذَكُّرَ والتَّفَكُّر هو استِحضَارُ أَمرٍ مُستَقبَلٍ يُتوقَّع مَجيئُه، والكُفَّارُ والمنافقون لم يَكُن لَهُم شُعُورٌ بالقُرآن في وَجهٍ؛ لأَنَّه يَنزِلُ شَيئًا بَعدَ شَيءٍ[1].

دلالةُ أداةِ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾ في الآية:

القُرآنَ مُنزَّهٌ عن الاختلاف وهو دَلِيلٌ على أنَّهُ مِنْ عِنْدِ الله تعالى

يُعَدُّ مَجيءُ أَداة الشَّرط ﴿وَلَوۡ﴾ في الآية الكريمة نُقطَةً مركزيَّة في سِياقِ الآيةِ الكريمَة الَّتي تُفضِي إلى حَقيقةٍ ناصِعَةِ البَيان لا يَختلِفُ فيها اثنان؛ فالشَّرط المقطُوع بانتِفَائه هو كَوْنُ هذا القُرآن مِنْ مَصدَرٍ آخر غَير اللّه ﷻ، فَلَو فُرض هذا الشَّرط لكانَ الجوابُ وجُود اختلاف كثير في المعنى بالتَّناقُض والتَّخلف عَنِ الصِّدق في الإخبار بالغَيبيَّات أو بَعضِها، وفي النَّظم بالتَّفاوت في الإعجاز، فإذا عَلِمُوا أنَّه من عند اللّه تعالى بهذا الدَّليل القَطعِيِّ[2] الذي وصَلُوا إليه بأَنفُسِهم بعدَ تَأَمُّلٍ، رُسِّخَ الإيمانُ في نُفوسِهم وحَفِظُوا سَرائرَهُم كما يَحفظون عَلانِيَتَهُم؛ لأنَّ الأَمرَ بالطَّاعَةِ مُستَوٍ فيه السِّرُّ والعَلَنُ، والقَصدُ مِن هذا الشَّرط لَفْتُ الانتباه إلى أَمْرٍ يُفضِي بِهِم إلى حَقيقَةِ مَصدر القُرآن الكريم؛ أي: أَلَا يَتدبَّرون انتفاءَ الاختلافِ منه، فيعلمون أنَّه مِنْ عِند اللّه، وهذا استدلالٌ وَجِيزٌ وعَجِيبٌ قُصِدَ منه قَطعُ مَعذرَتِهم في استِمرَار كُفرِهم.

وُصِفَ الاختلافُ بالكثيرِ لإثباتِ انعدامِهِ في القرآنِ

ووُصِفَ الاختِلَافُ بالكَثِيرِ في الطَّرَفِ المُمتَنِع وُقوعُهُ بِمَدلُول ﴿وَلَوۡ﴾؛ لِيَعلَمَ المُتَدَبِّرُ أَنَّ انتِفَاءَ الاختِلَافِ مِنْ أَصله أَكبَرُ دَليلٍ على أَنَّهُ مِنْ عِندِ اللّه، فـ ﴿وَلَوۡ﴾ رَبطَتْ هذين الأَمرَين لِتَدُلَّ على عدَمِ تحقُّق وقُوعهما، وأنَّ القُرآنَ الكريم مُنزَّهٌ عنهما، فهو كلامُ اللّهِ المَجيدِ[3].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/28.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/340.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/138.

بلاغةُ التَّعقيبِ بجملةِ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ﴾:

خُلُوُّ القرآنِ من التّفاوتِ في بلاغتِهِ آيةٌ كبرى على أنّه كلامُ اللهِ

الواوُ إمّا أن تكونَ عاطفةً هذه الجملةِ على الجملةِ الاستفهامية، ليكون جمعًا بين التَّدبُّرِ العامّ والتَّدبُّرِ التّفصيلي، وإمّا أن تكونَ واوَ الحالِ، فتكون قيدًا للتّدبُّر، ويكونَ المعنى: ألا يتدبّرُون انتفاءَ الاختلافِ عنه فيعلمون أنّه من عندِ اللّه، جاءت الجملةُ تعقيبًا على ما سبقَ؛ فالجملةُ استدلالٌ وجيزٌ عجيبٌ قُصِدَ منه قطعُ معذرتهم في الاستمرارِ على كُفرهم[1].

سِرُّ استعمالِ لفظ الوجدِ:

الوجدانُ يُطلقُ على أدنى دَرَجَاتِ الإدراكِ

﴿لَوَجَدُواْ﴾ من وُجدَانِ الضَّالَةِ، واللَّام للتَّوكيد، وإنَّما قَالَ: وَجَدُوا، ولم يَقُل: لَأَدركُوا؛ إشارةٌ إلى أنَّه مِنْ غَير تَأمُّلٍ ولا تَفكُّرٍ، فَكُلٌّ مُتَّصِفٍ بالوجدانِ يُدركه من أوَّلِ وهلةٍ، بخلاف لَفظِ الإدراك فإنَّه يشعرُ بأنَّ المعنى حصلَ بعد تأمُّلٍ ونَظَرٍ[2].

فنُّ الاحتجاجِ النَّظريِّ أو المذهب الكلاميّ:

الاحتجاجُ بإثباتِ الاختلافِ في الأغيارِ دليلُ السَّلامةِ في القرآنِ

الضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ يَعُودُ في الظَّاهرِ عَلى القُرآنِ الكريمِ؛ أي: لوجدُوا في القرآن، والظَّرفيَّة هنا مجازيَّة، وَهَذَا في عِلمِ الۡبَيَانِ الاحۡتِجَاجُ النَّظرِيُّ، وَقَوۡمٌ يُسَمُّونَهُ الۡمَذۡهَبَ الۡكَلَامِيَّ.

وَوَجۡهُ هَذَا الدَّليلِ أنَّهُ لَيۡسَ مِنۡ مُتَكَلِّمٍ كَلَامًا طَويلًا إلَّا وُجد في كَلَامه اخۡتلَافٌ كَثِيرٌ، إمَّا في الۡوَصۡفِ وَاللَّفۡظ، وَإِمَّا في الۡمَعۡنَى بِتَنَاقُضِ أَخۡبَارٍ، أَوِ الۡوُقُوعِ عَلَى خِلَافِ الۡمُخۡبَرِ بِه، أَوِ اشۡتِمَالِه عَلَى مَا لَا يَلۡتَئِمُ، أَوۡ كَوۡنِه يُمۡكِنُ مُعَارَضَتُهُ. وَالۡقُرۡآنُ الۡعَظِيمُ لَيۡسَ فِيه شَيۡءٌ مِنۡ ذَلِك، لِأَنَّهُ كَلَامُ الۡمُحِيطِ بِكُلِّ شَيۡءٍ مُنَاسِبٌ بَلَاغَةً مُعۡجِزَةً فَائِتَةً لِقُوَى البلغاء، وتظافر صِدۡقِ أَخۡبَارٍ، وَصِحَّةِ مَعَانٍ، فَلَا يَقۡدِرُ عَلَيۡه إلَّا الۡعَالِمُ بِمَا لَا يَعۡلَمُهُ أَحَدٌ سِوَاهُ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/138.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/41.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/726.

معنى وصفِ الاختلافِ بالكثير دون القليل:

المقصود التَّعريضِ بغيرِ القرآنِ لا إثباتُ الاختلافِ في القرآنِ

ونَفيُ الاختِلافِ الكَثيرِ لا يدلُّ على نَفي الاختِلافِ القَليل ضرورةً؛ لأنَّ المُرادَ بإثباتِ الكَثرَةِ لغيرِ القرآنِ في حال نزولِه مِنْ عندِ غَير اللّه، أما وهو مِنْ عِندِ اللّه فَلا اختِلافَ فيه أَصلًا، فكَثرَةُ الاختلافِ بالنَّظرِ إلى غيرِ اللّه، أمَّا بالنِّسبة للّه تعالى - كما هو الوَاقِع - فقَد خَلا القُرآن من كُلِّ اختِلافٍ قَلَّ أو كَثُر فمَعانيه كُلُّها صَحيحَةٌ، سَواء ما احتَمَلَ التَّأويل ومَا لم يَحتمله[1]. ويؤيِّدُ ذلك اصطفاءُ أداة الشّرطِ الدّالةِ على الامتناعِ أصلًا، والمعنى: مادامَ قد امتَنَعَ كونُه من عندِ غيرِ اللّهِ فلا اختلافَ فيه أصلًا.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

التَّدبُّر والتَّفكُّر:

التَّدبُّرُ صَرفُ القَلبِ بالنَّظرِ في العَواقِب، والتَّفَكُّرُ تَصرُّفُ للقَلبِ بالنَّظَرِ في الدَّلائِلِ[2]، والتَّدبُّرُ يختصُّ بالقرآنِ المسطورِ، أمَّا التَّفكُّرُ فيختصُّ بالكونِ المنشورِ.

(وَجَدَ) و(ألْفَى):

وَجَدَ: أي: تَحصُّلُ شيءٍ ذي بالٍ في حَوْزةٍ كانت خاليةً منه. كالمالِ والضَّالة والتحقّقِ المادّيِّ عن عدمٍ. ومن صُوَرِه العثورُ على الشّيءِ في الحوزة دون معرفةٍ مسبقةٍ بذلك، ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: 75]، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ [آل عمران: 37]. وفي كلِّ هذه (وجد) فِعلٌ تامٌّ معناه إصابةُ ذاتِ الشَّيء؛ أي: العُثُور عليه في الحيِّز، ومثلها كثير: [البقرة: 283، النساء: 43، المائدة: 6، التوبة: 57، 79، 91][3].

والإِلْفَاءُ: وِجدَانُ شَيءٍ عَلَى حَالَةٍ خَاصَّةٍ من غَيرِ سَعْيٍ لِوجدَانِه، فَالأَكثَرُ أَنْ يَكُونَ مُفَاجِئًا، أَو حَاصِلًا عَن جَهلٍ بِأَوَّلِ حُصُولٍ، كَقَولِه تَعَالَى: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البَقَرَة: 170][4].

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/220.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 75.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وجد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/256.

الخِلَاف والاختلاف:

الاختِلافُ مُستَعمَلٌ في قَولٍ بُنِيَ على دَليلٍ، والخِلَاف فيما لا دليلَ عليه. كما أنَّ الاختِلَاف مَا كانَ طريقُهُم وَاحِدًا والمَقصُودُ مُختَلفٌ، والخِلاف مَا كَانَ طريقُهم مُختَلفًا، وهو أَعَمُّ من الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضِدَّين مُختلفان ولا عَكسَ، ولما كان الاختِلَافُ بَينَ النَّاسِ في القَولِ يَقتَضِي التَّنازُعَ استُعير ذلك للمُنازَعَةِ والمُجَادَلَةِ[1].

الكَثِير والكَبِير:

الفَرقُ بينهما أنَّ الكَبير - بالباء المُوحَّدة - بحَسبِ الشَّأن والخَطر، كالجَليل والعَظِيم. والكَثير - بالمُثلَّثة - بحَسَبِ الكميَّة والعَدَدِ، فيُقالُ: دارٌ واحِدةٌ كبيرةٌ، ولا يَجوزُ: كثيرةٌ[2].

(1) العيني، البناية في شرح الهداية: 6/297، والحدادي، التوقيف، ص: 158.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 448.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا جاءَ في السِّياقِ السَّابقِ وصفُ أقوالِ المنافقين المخالفةِ لاعتقادِهم، ناسبَ أن يذكرَ أفعالَهم السُّلوكيَّةَ المتوافقةَ مع اعتقادِهم؛ لتكونَ دليلًا على نفاقِهم، وعلامةً على ذواتِهم، فهو من عطفِ الحدثِ على الحدثِ؛ للتَّناسبِ بينهما.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَمۡنِ﴾ ﴿ٱلۡخَوۡفِ﴾: أَصلُ الأَمْنِ: طَمَأنينَةُ النَّفسِ وزَوالُ الخوفِ، والأَمنُ والأَمَانَةُ والأَمَانُ في الأصل مصادر. أي: جاءهُم خَبَرٌ بفتحٍ، وغَنيمَةٍ. والخوفُ: مَصدَرُ: خَافَ يخَافُ خَوْفًا وَخِيفَةً وَمَخَافَةً؛ وَمَعنَاهُ في لُغَةِ العَرَبِ: الفَزَعُ، و﴿ٱلۡأَمۡنِ﴾ و﴿ٱلۡخَوۡفِ﴾ في الآية يعني: ما يتعلّق بالغزوِ من أحوالِ النَّصرِ والهَزِيمَة[1].

2) ﴿أَذَاعُواْ﴾: الذَّيْع: أَن يَشِيعَ الأَمر. يُقَال: أَذعناهُ فذاعَ. وَرَجُلٌ مِذْياعٌ: لا يَستَطِيع كِتمان خَبَرٍ. وَقومٌ مَذاييعُ. وقالَ أَبُو إِسحَاق: يَعنِي بهذا جمَاعَةً من المُنَافِقين، وضَعَفَةً من المُسلمين. قَالَ: ومعنى ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾: أَي أَظهَرُوه ونادَوا بِهِ في النَّاس، وأَنْشد:

أذاع بِهِ في النَّاس حَتَّى كَأَنَّهُ *** بعلياءَ نارٌ أُوقدت بِثَقُوب[2]

3) ﴿رَدُّوهُ﴾: الرّدُّ: صَرفُ الشّيءِ، يُقالُ: رَدَّهُ عن طَريقِهِ، أي: صَرَفَهُ. ويأْتي بمعنى المَنعِ والرَّفضِ، وشَيءٌ مَردُودٌ؛ أي: مَرفوضٌ. ورَدَّ فُلانًا: خَطَّأَهُ؛ أي: لَمْ يَقْبَلْهُ. وَمِن مَعانِيهِ أيضًا: الإِعادَةُ والإرجاعُ، تَقول: رَدَّهُ إلى مَنزِلِهِ؛ أي: أَعادَهُ، ورَدَّ إِلَيهِ جَوابًا، أي: أَرجَعَهُ وأَرسَلَهُ. فمعنى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ﴾ أي: فوّضوا أمرَه وسكتوا عن الخوضِ فيه.

---

(1) الواحدي، البسيط: 6/633، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمن)، و(خوف).

(2) الزجاج، معاني القرآن: 2/83، والأزهري، تهذيب اللغة: (ذيع).

4) ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾: الوَلَايَةُ: تَوَلِّي الأمرِ. والأَمْرُ: الشَّأن، وجمعه أُمُور لا أوامر، ومصدر أمرته: إذا كلَّفتُه أن يَفعَلَ شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأَفعالِ والأَقوالِ كُلِّها. و﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾: هُم أَصحابُ رَسُولِ الله ﷺ ومَنْ اتَّبَعهُم مِنْ أَهلِ العِلم، وقِيل: إنَّهم هُمُ الأُمَراءُ، والأُمَراءُ إذا كانوا أولي عِلم ودِينٍ آخذين بما يقوله أَهل العِلمِ، فَطاعَتُهُم فَرِيضَةٌ[1]، والصَّحيحُ أنَّهم أَصحابُ الاختصاصِ والعلمِ في كلِّ علم وفنّ.

5) ﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: الاستِنْبَاطُ: استِفْعالٌ من أَنْبَطَ الماءَ، إنْباطًا: إذا استَخرجَه، وأَصلُهُ مِنَ النَّبَطِ، وهو الماءُ الذي يَخرُجُ مِن البِئرِ أَوَّلَ ما تُحفَرُ، وكُلُّ ما أُظهِرَ بعد خَفاءٍ فَقَد أُنْبِطَ، واستُنْبِط، ومِن ذلك قولُهُمْ: استَنبَطَ الفَقِيهُ الحُكمَ؛ أي: استَخرَجَه بِاجتِهادِهِ وفَهمِهِ[2]، ومعناه في الآيةِ: يستخرجون ما يليقُ نشرُه من الأخبارِ وما لا يليقُ، فيما يخدمُ مصلحةَ المسلمين.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولو أَنَّ هَؤلاءِ المُنَافِقِينَ، والمُذِيعِينَ رَدُّوا الأَمرَ مِن الأَمنِ، والخَوفِ إلى الرَّسُولِ ﷺ وإلى أُولي الأَمرِ، وطَلَبُوا مَعرِفَةَ الحَالِ فِيهم مِن جِهَتِهم؛ لَعَلِمُوا حَقِيقَةَ ذلكَ منهم، وأنَّهم أَولَى بالبَحثِ عَنهُ؛ فإنَّهم أَعلَمُ بما يَنبَغِي أَنْ يُذَاعَ، أو يُكتَم. ثُمَّ في هذه الآية تَأدِيبٌ لِمَن يُحدِّثُ بكُلِّ ما سَمِعَ، وكَفَى بهِ كَذِبًا وافتِراءً وزُورًا أَنْ يُحدِّثَ الإنسانُ بما سَمِعَ قَبلَ تَمحِيصِهِ، والتَّأكُّدِ مِنْ صِحَّتِهِ. قالَ الرَّسُولُ ﷺ: "كَفَى بِالمَرءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ"[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دقَّةُ استعمال (إذا) في قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾:

تصويرُ سرعةِ الاستجابةِ في إذاعةِ الأخبارِ لإلحاقِ الضَّررِ بالمؤمنين

جاءت الجملةُ الشَّرطيَّةُ بأداة الشَّرطِ ﴿وَإِذَا﴾: وهي ظرفٌ للزَّمان فيه معنى حتميَّةِ الحُدوث وكَثرَتِهِ؛ لبيانِ أنَّهم بمجرَّدِ مجيءِ الأمرِ إليهم يُذيعونه.

(1) الزجاج، معاني القرآن: 2/67، والراغب، المفردات: (أمر)، و(ولي).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نبط).
(3) مسلم، الصحيح، الحديث رقم: (5).

فائدةُ اختيارِ ﴿جَآءَهُمْ﴾ دون مرادفاته في الاستعمال:

الخبرُ الصَّحيح بدون توضيحٍ أشدُّ ضررًا من الكاذبِ أحيانًا

اختير لفظُ المَجيءِ في قولِه: ﴿جَآءَهُمْ أَمْرٌ﴾ دون المُرادِفات الاستعماليّة التي تُؤدّي المعنى من مثل: (إذا سمعوا أمرًا) لإفادةِ تحقُّقِ الأمرِ والتَّيقُّنِ منه باعتبارِه خبرًا من الأخبارِ، فالمجيءُ هنا مَجَازٌ عُرفيٌّ في سَمَاعِ الأَخبَارِ، والأَمرُ هُنَا الخَبَرُ، بِقَرِينَةِ قَولِهِ: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾[1]، فهم يتيقّنون سماعَ الخبرِ، ثم يُذيعونه، فليس مقصودُهم نقلَ الأكاذيب، بل نقلُ الأخبارِ الصَّحيحةِ التي من شأنِها زَعزَعة المجتمعِ، فالخبرُ الصَّحيحُ إن لم يُفقه على وجهه السَّليم أحدث إرباكًا في المجتمع.

اختلافُ المفسِّرين في تعيينِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿جَآءَهُمْ﴾:

الصَّحيحُ أنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى المنافقين

اختُلِفَ في مرجعِ ضَمِيرُ الجَمعِ في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُمْ﴾ فقيل: رَاجِعٌ إِلَى الضَّمَائِرِ قَبلَهُ، العَائِدَةِ إِلى المُنَافِقِينَ، وهُوَ المُلَائِمُ لِلسِّيَاقِ[2]، وقيل: عائدٌ إلى ضَعَفَةِ المسلمين، وهؤلاءِ نظرُوا إلى الجملةِ الواردة بعده: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ الحديثَ المحيطَ بالآيةِ سِباقًا ولحاقًا في المنافقين، ودليلهم هذا هو دليلٌ كذلك للقائلين بأنَّ مرجعه المنافقون، وأمَّا ﴿مِنۡهُمۡ﴾ فهي باعتبارِ المجتمع الظَّاهرِ لا باعتبارِ الإيمانِ وعدمِه.

فنُّ الجناسِ البديعيّ:

وقد تضمّنت جملةُ الشَّرطِ جناسًا بَينَ ﴿أَمۡرٌ﴾ ﴿ٱلۡأَمۡنِ﴾، وهو جِناسٌ غَيرُ تامٍّ، فالكَلِمتَانِ اختلفَتا في حَرفٍ واحدٍ، والحَرفَانِ المُختَلفَانِ الرَّاء والنُّون مُتقارِبانِ في المَخرَجِ، إذ كِلاهُما يَخرجُ مِنْ طَرَفِ اللِّسانِ مع ما فَوقَ أُصُولِ الثَّنايا العُليا[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/139.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/139.

(3) العلوي، الطراز: 3/165، والصعيدي، بغية الإيضاح: 4/645.

فنُّ الطِّباقِ البديعي:

في الآيةِ طباقٌ بَينَ ﴿ٱلۡأَمۡنِ﴾ و﴿ٱلۡخَوۡفِ﴾، وهو طِباقٌ بَينَ اسمَين عن طَريقِ الإيجاب؛ لأنَّ المَعنَيين المُتضادَّين مُثبَتان.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَذَاعُواْ﴾:

المُنافقُ مَجبولٌ على الإذاعةِ خيرًا أو شرًّا

جاء جوابُ الشَّرطِ بلفظٍ لم يأتِ في القرآن إلَّا في هذا الموضع، يُقَالُ: أَذَاعَ السِّرَّ وأَذَاعَ به، أي: أشَاعَهُ وأفشَاهُ، ومعنى ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾: أظهَرُوه، وهو كلامٌ مَسُوقٌ لِدَفعِ مَا عَسَى يُتوهَّم في بعض المُوادِّ مِنْ شَائِبَةِ الاختِلافِ بناءً على عَدَمِ فَهمِ المُرادِ ببَيان أنَّ ذلكَ لعَدَمِ وقُوفِهم على مَعنى الكَلامِ، لا لِتَخَلُّفِ مَدلُولِهِ عنه[1].

معنى الباءِ في قولِه: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾:

البَاءُ في قولِه: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ لِتَوكِيدِ اللُّصُوقِ، كما في: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المَائِدَة: 6]، وقيل: الباءُ لِتَضمُّنِ الإذاعةِ معنى التَّحديثِ وجعلها بمعنى (مع)، وقيل: معنى أذاعُوا بِهِ: فَعَلُوا بِهِ الإِذَاعَةَ، وهو أَبلَغُ من (أَذَاعُوهُ)، والضَّميرُ للمَجيءِ ممَّا لَا يَنبغي تَخريجُ كلامِ اللّٰه تعالى الجليلِ عليه[2]. والضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ يَعُودُ إلى ﴿أَمۡرٞ﴾، سواءٌ أكان أمنًا أو خوفًا[3].

نكتةُ إظهارِ لفظِ الرَّسولِ دون إضمارِه:

من حقِّ الرَّسولِ أنْ تُـردَّ إليه المُشكلاتُ ومستجدَّاتُ الحياةِ

جاءَ قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ بالإظهارِ دون إضمارِ الرّسول؛ فوُضِعَ المُظهرُ موضعَ المُضمرِ؛ لأنَّ "عُنوان الرِّسالة من مُوجبَاتِ الرَّدِّ والمُراجعة إلى رَأيه ﷺ وأنَّه مِنْ أَحَقِّ حُقوقِه أَنْ يُرَدَّ إليه في كافَّةِ الأُمورِ في حَياتِه، وإلى ما جاءَ بِهِ مِنْ عند اللّٰه ﷻ بعدَ انتقالِهِ إلى الرَّفيقِ الأعلى"[4].

---

(1) أبو السعود: إرشاد العقل السليم: 2/208.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/90، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/140.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 1/378.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/208.

علَّةُ مجيءِ الفاعلِ اسمًا موصولًا:

المستنبطونَ إمَّا أن يكونوا من ولاةِ الأمر أو من الرَّادِّين

جاء الفاعلُ اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ في مَوضِع الضَّمير؛ فلم يَقُل: (لَعَلِمُوه)، واختلف المفسِّرون بالمرادِ بهم، فقيل: الرَّادُّون من المنافقين، وقيل: أولو الأمر، فعلى القول الأوَّلِ يكون سببُ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ هو الإيذانُ بأنَّه ينبغي أن يكونَ قصدُهم بردِّه إليهم استكشافَ معناه، واستيضاحَ فحواه، أي: لعَلِمه أولئك الرَّادُّون الذين يستنبطونه، أي: يتلقونه ويستخرجون علمه وتدبيرَه منهم، أي من جهة الرَّسول ﷺ وأولي الأمرِ من صحابته رضوانُ الله عليهم أجمعين، ولمّا فعلوا في حقه ما فعلوا؛ فلم يقَعْ ما وقع من الاشتباه وتوهّم الاختلافِ[1]، ولزِيَادَةِ تَقرير الغَرَضِ المَسُوق لَهُ الكَلَام، أو لِذَمِّهم، أو للتَّنبيه على خَطَئِهم في الفَحْصِ عن استِخرَاجِ وإظهارِ خَفيّ ذَلك الأَمر[2].

وعلى القول الثَّاني يكون "التَّقديرُ: ولَو أنَّ المُنافِقينَ ردُّوه إلى الرَّسُولِ، وإلى أُولي الأَمرِ لكانَ عِلمُهُ حاصِلًا عندَ مَنْ يَستَنبِطُ هذهِ الوَقائِعَ مِنْ أُولي الأَمرِ؛ وذلكَ لأَنَّ أُولي الأَمرِ فَرِيقانِ: بَعضُهُم مَنْ يَكُونُ مُستَنبِطًا، وَبَعضُهُم مَنْ لَا يَكُونُ كَذلكَ، فَقَوْلُهُ: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ يَعنِي: لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَستَنبِطُونَ المَخفِيَّاتِ مِنْ طَوائِفِ أُولي الأَمرِ"[3].

توجيهُ الاسْتِعَارَةِ في قولِه: ﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾:

إجراءُ الاستعارة ما بَيْنَ المكنيَّة والتَّمثيليَّة

في قولِه: ﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: استعارةٌ مكنيةٌ، وقد حذَفَ المشبَّه به وأُتي بشيءٍ من لَوازِمِه؛ فقد شَبَّه التَّثبُّتَ مِنَ الخَبرِ بَرَدِّه إلى رَسُولِ اللّه ﷺ وأولي الأَمر باستنباطِ الماء مِنْ حَفيرِه على سَبيلِ التَّخييل، والقَرينَةُ المانِعَةُ مِنْ إرادة المعنى الأَصليّ للاستنباطِ استحالةُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/208.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 3/235.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/154، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/235.

إضافتِه إلى ضَميرِ الخَبَر، ثُمَّ تَرشِيح الاستعارة بالجارّ والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: مِنۡ رَسُولِ اللّه ﷺ وأُولي الأَمرِ.

ويُمكِن إجراؤها على النَّحو الآتي: شُبِّهَتْ هيئة البَاحثين عن صِحَّة الأخبار والتَّثبُّت منها بحالِ المُنقِّبين عن الماء حتَّى ينبط من قَعر البِئر، والجَامع بينهما الصَّبرُ والمُكابدَةُ والجَلَدُ للوصُولِ إلى الخَبر الحَقيقيّ، وفيه من الحثِّ والإرشادِ ما لا يخفَى[1]. فتكونُ استعارةً تمثيليةً، وتَعۡدِيَةُ الفِعلِ إلى ضَميرِ الأَمرِ على اعتبارِ المَعنَى العُرفيِّ، ولَولا ذلكَ لَقِيلَ: يَستَنبِطُونَ منهُ، كَما هُوَ ظَاهِرٌ، أَو هو على نَزعِ الخَافِضِ[2].

بلاغةُ الالتفات في الآيةِ:

العِنايةُ بالمُخاطَبين بإظهار رحمةِ الله بهم

الخِطَابُ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ مُوجَّهٌ للطَّائِفَةِ المَذكُورَةِ على طَريقَةِ الالتِفَات؛ أي: لَولَا فَضۡلُه تَعالى عليكم ورحمتُه بإرشَادِكم إلى طَريقِ الحقِّ الَّذي هو المُرَاجَعَةُ في مَظَانِّ الاشتِبَاهِ إلى الرَّسُولِ ﷺ وأُولي الأَمر ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، وعملتم بآراءِ المنافقين فيمَا تأتونَ وما تذرونَ، ولم تهتدُوا إلى سُنَنِ الصَّوابِ[3].

قيامُ جملةِ الشَّرطِ مقامَ التَّعليل

جملةُ الشَّرطِ بمثابةِ التَّعليلِ لما بعدَها؛ فوجُودُ فَضۡلِ اللّه تعالى عَليكُم ورحمتِه هو العِلَّةُ في عَدَمِ اتِّباعِكُم الشَّيطانَ.

استِثناءُ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ مِنۡ عُمومِ الأَحوالِ المُؤذن بها ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ﴾؛ أَي: إلَّا في أَحوالٍ قَليلةٍ، فإن كانَ المُرادُ من فَضلِ اللّه ورَحمَتِه ما يَشمل البَعثَةَ فما بَعدها، فالمُرادُ بالقَليلِ: الأَحوالُ الَّتي تَنساقُ إليها النُّفوس في بعض الأَحوالِ بالوازِعِ العَقليِّ أو العَادِيِّ. وإن أُريدَ بالفَضلِ والرَّحمةِ النَّصائحُ والإرشاداتُ فالمُرادُ بالقَليل: ما هو

(1) البنَّاني، سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية، ص: 442.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/141.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/209.

مَعلُومٌ مِنْ قَواعد الإسلام. ولَكَ أَن تَجعلَهُ استثناءً مِنْ ضَميرِ ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ﴾؛ أي: إلَّا قليلًا مِنكُم، فالمُرادُ مِنَ الاتِّباعِ اتِّباعُ مِثل هذه المَكائد الَّتي لا تَرُوجُ على أَهلِ الرَّأي مِنَ المُؤمنين[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

المجيء والإتيان:

(جَاءَ) و(أَتَى) يَستَويانِ في الماضي، و(يَأْتي) أَخَفُّ مِنْ (يَجيءُ)، وكذَا في الأَمرِ (جيئُوا بِمِثْلِهِ) أَثْقَلُ مِنْ (فَأْتُوا بِمِثْلِه)، ولَم يَذكُرِ اللّٰه إلَّا (يَأْتي) و(يَأْتُونَ)، وفي الأَمرِ: فَأْتِ، فَأْتِنَا، فَأْتُوا؛ لأَنَّ إسكانَ الهَمزَةِ ثَقِيلٌ؛ لِتَحريكِ حُروف المَدِّ واللِّين، تَقُولُ: جِيءَ أَثقَلُ مِنِ ائْتِ، وأَمَّا في المَاضِي فَفيهِ لَطيفَةٌ وَهِيَ: أَنَّ (جَاءَ) يُقَالُ في الجَوَاهِرِ والأعيان، وأَتَى في المعاني والأزمان[2].

الخَوف والوَجَل:

وَجِلَ الرَّجُلُ يوجَلُ وجلًا إذا قَلِق ولم يَطْمئن، ويُقالُ: أنا مِنْ هذا على وَجَلٍ ومِنْ ذلكَ على طَمَأنينَةٍ، ولا يُقالُ على خَوفٍ في هذا المَوضِع، وفي القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]؛ أي: إذا ذُكِرَت عَظَمَةُ اللّٰهِ وقدرتُهُ لم تطمَئِنَّ قُلُوبُهم إلى ما قَدَّموه مِنَ الطَّاعة، وظَنُّوا أنَّهم مُقصِّرون فاضطربُوا من ذلك وقَلِقُوا، فليس الوَجَلُ مِنَ الخَوفِ في شيءٍ، وخَافَ مُتَعَدٍّ، وَوَجِلَ غير مُتَعَدٍّ، وصِيغتَاهُمَا مُختَلِفتَانِ أيضًا، وذلكَ يدلُّ على فَرْقٍ بينهما في المعنى[3].

الخَشيَة والخَوف:

"الخَشيةُ أخصُّ من الخوفِ؛ فإنَّ الخَشيةَ للعُلَماءِ باللّٰه تعالى، فهي خَوفٌ مَقرُونٌ بمعرفةٍ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: "أَنَا أَعلَمُكُم باللّٰه وأَشَدُّكم له خَشيَةً"[4]. فالخَوفُ حَرَكَةٌ، والخَشيَةَ انجِمَاعٌ وانقِبَاضٌ وسُكُونٌ. فالخَوفُ لعامَّةِ المؤمنين، والخَشيَةُ للعُلَماءِ العَارفين، والهيبة

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1355، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/142.
(2) الزركشي، البرهان: 4/80 - 81.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثري: (الأنعام: 81).
(4) البخاري (6101)، ومسلم (2356).

للمُحبِّين، والوَجَلُ للمُقرَّبين، وعلى قَدر العِلم والمعرفَة تكونُ الخَشيَة، وقال الزَّركشي: الخَشيَةُ تكونُ من عِظَم المَخشيِّ وإن كانَ الخَاشي قويًا، والخَوفُ يَكونُ مِنْ ضَعفِ الخَائِفِ وإن كانَ المَخوفُ أمرًا يَسيرًا(1).

وسُئِلَ ابنُ عَطاء: مَا الفَرقُ بَينَ الخَشيةِ والخَوفِ؟ فَقالَ: الخَشيَةُ مِنَ السُّقوطِ عَن دَرَجاتِ الزُّلفى، والخَوفُ مِنَ اللّحوق بدركات المَقْتِ والجَفَا، وقال بعضُهُم: الخَشيةُ أدَقُّ والخَوفُ أَصْلَبُ(2).

الإذاعَة والإفْشَاء:

أنَّ معنى ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾؛ أَي: أظهَرُوه ونادَوا بِهِ في النَّاس، والمِذْياع: الَّذِي لَا يكتمُ السِّرَّ، وقومٌ مَذاييعُ. فالإذاعة: التَّحدُّثُ بالأَمرِ بَقصدٍ وعَلَانِيَةٍ وإسَاءَةٍ ليعلمَه النَّاسُ(3). والإفشاءُ: يكون بالكِتَابَةِ والإشَارَة والكَلَام، وهو كَثرَةُ الإظهارِ، ومِنهُ أَفْشَى القومُ إذا كَثُرَ مَالُهم، ولهذا يُقال: فَشَى الخيرُ في القومِ أو الشَّر إذا ظَهَرَ بكَثرَةٍ، ولا يَصحُّ إلَّا فيما لا تَصحُ فيه الكَثرَة، ومِنهُ: تَفَشَّى الشَّيءُ: إذا اتَّسَعَ(4).

الرَّدّ والرُّجُوع:

الرَّدُّ: صَرفُ الشَّيء بذاته، أو بحالةٍ من أَحواله، يُقال: رَدَدْتُه فَارْتَدَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147]، فَمِنَ الرَّدِّ بالذَّات قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومن الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها قولُه: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 149]. والارْتِدَادُ والرِّدَّةُ: الرّجوع في الطَّريق الَّذي جاءَ منه، لكنَّ الرِّدَّةَ تختصُّ بالكُفرِ.

أمَّا الرُّجُوعُ: فالعَودُ إلى ما كان مِنه البِدْءُ، أو تقدير البِدْءِ مكانًا كانَ أو فِعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رُجوعه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفِعلٍ من أفعاله. فَالرُّجُوعُ: العَودُ، والرَّجعُ: الإعادة(5).

(1) الزركشي، البرهان: 4/78، والكفوي، الكليات، ص: 428.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/167.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذيع).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 286، والكفوي، الكليات، ص: 64.
(5) الراغب، المفردات: (رد)، (رجع).

العِلْم والمعرفَة:

أنَّ المعرِفَةَ أخصُّ مِنَ العِلم؛ لأنَّها عِلمٌ بِعَينِ الشَّيءِ مُفَصّلًا عمَّا سِواهُ، والعِلمُ يَكُونُ مُجمَلًا ومُفَصّلًا، فكُلُّ مَعرفةٍ عِلمٌ وليس كُلُّ عِلم معرفةً؛ وذلك أنَّ لَفظَ المعرِفَة يُفيدُ تَمييزَ المَعلُوم مِن غيره، ولَفظُ العِلم لا يُفيد ذَلكَ إلَّا بِضربٍ آخر مِنَ التَّخصيص في ذِكرِ المعلوم. والشَّاهدُ قولُ أهل اللُّغة: إنَّ العِلْمَ يتعدَّى إلى مَفعولَين ليس لكَ الاقتصار على أحدِهما إلَّا أن يكونَ بمعنى المَعرفةِ، ولا تنافي بَينَ تَفسيرِ العِلْم بالمعرفةِ والمعرفة بالعِلْم، وبَينَ أن يكُونَ لكُلٍّ مِنهُما مع ذَلكَ معنًى يختَصُّ بهِ، وإنَّما المقصودُ اشتراكهما في المفهوم الإجمالي المُستَنِد إلى ثُبوتِ معنًى في النَّفس هو حقيقةُ العِلْم والمعرفةِ، وكما يقول الإمام ابنُ حَزْم: فالعِلْمُ والمعرفةُ اسْمان واقِعَان على معنًى واحد، وهو اعتقادُ الشَّيءِ على ما هو عليه وتيقُّنه وارتفاع الشُّكوك عنه[1].

الفَضل والنِّعمَة:

إنَّ فَضلَ اللَّهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا عِندَهُ مِنَ الخَيرِ، وهُوَ مُستَغنٍ عنهُ، والنِّعمَةُ إِشارَةٌ إِلى ما يَصِلُ إِلى العَبدِ وهُوَ مُحتاجٌ إِلَيهِ؛ لأَنَّ الفَضلَ في الأَصلِ يُنبئُ عَنِ الزِّيَادَة، وعِندَهُ خَزائِنُ مِنَ الرَّحمَةِ لَا لِحَاجَةٍ إِلَيهَا، ويُرسِلُ مِنهَا على عِبَادِهِ ما لَا يَبقَونَ مَعَهُ في وَرطَةِ الحَاجَةِ بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوه، والنِّعمَةُ تُنبِئُ عَنِ الرَّأفَةِ والرَّحمَةِ وهو مِنْ جَانِبِ العَبدِ، وفيه مَعنًى لَطِيفٌ وهو تَأكِيدُ الإِعطَاءِ[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 80، وابن حزم، الفصل في الملل: 5/68.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 28/103.

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النساء: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ إذاعةَ المنافقينَ لأخبارِ الأمنِ والخَوْفِ، وكان القَصْدُ من ذلك تثبيطَ المؤمنين عنِ القتالِ، أمرَ في هذه الآيةِ نبيَّه ﷺ بالقتالِ، وأمرَه بتحريضِ المؤمنين عليه، تحقيقًا لنصرِ اللّه تعالى، فيكون ما بين هذه الآيةِ والآياتِ التي قبلَها المتحدِّثةِ عن القتالِ بيانًا لخطرِ النِّفاق الذي يُهدِّد انتصارَ المؤمنين على أعدائِهم، فإذا كان أعداءُ الأمَّةِ في الخارجِ يُواجَهون بالقتالِ، فإنَّ أعداءَ الأمَّة في الدّاخلِ يُواجَهون بالصَّبرِ عليهم، واليَقَظةِ لأفعالِهم وأقوالِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِ﴾: السَّبيلُ: الطَّريقُ وما وَضَحَ منه، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أغلَبُ. وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليه. وأصلُ الكَلِمَةِ يَدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ. ومنه الطَّريقُ؛ سُمِّيَ سَبيلًا؛ لامتِدادِهِ. ومِن مَعانيه: السَّبَبُ والوَصلَةُ. وجمعُه: سُبُلٌ[1].

2) ﴿تُكَلَّفُ﴾: التَّكليفُ: مَصدَرُ: كَلَّفَهُ تَكليفًا؛ أَي: أَمَرَهُ بِمَا يَشُقُّ عَلَيهِ، وَتَكَلَّفتُ الشَّيءَ: تَجَشَّمتُهُ، والكُلفَةُ: مَا تَتَكَلَّفُهُ مِن نَائِبَةٍ أَو حَقٍّ[2].

3) ﴿وَحَرِّضِ﴾: التَّحريضُ: التَّحضيضُ والحَثُّ على الشَّيءِ والإحْماءُ عليه، يُقالُ: حَرَّضَهُ على الشَّيءِ، يُحَرِّضُهُ، تَحريضًا؛ أي: حَثَّهُ وحَضَّهُ عليه، وأَمَرَهُ بِهِ، ويكون في الخَيرِ والشَّرِّ، ومنه: الحَثُّ على القِتالِ وغيرِهِ. والحارِضُ: الّذي قد قارَبَ الهَلاكَ، ومنه: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ [يوسف: 85]. والمُحارَضَةُ: المُداوَمَةُ على العَمَلِ، يُقالُ: حارَضَ فُلانٌ على العَمَلِ: إذا داوَمَ عليه[3].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (كلف).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حرض).

4) ﴿يَكُفَّ﴾: الكَفُّ: التَّركُ والمَنعُ، يُقال: كَفَّ الرَّجُلُ عن الأَمرِ، يَكُفُّ كَفًّا؛ أي: انصَرَفَ وامتَنَعَ، وكَفَّ عن الشَّيءِ كَفًّا: إذا تَرَكَه. والكَفُّ أيضًا: اليَدُ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَكُفُّ صاحِبَها، أو لأنَّها تقبِضُ الشَّيءَ[1].

5) ﴿بَأْسَ﴾: البَأْسُ: الشِّدَّةُ وما ضارَعَها، والبَأسُ: العَذابُ الشَّديدُ. وهو الشِّدَّةُ في الحَربِ، ومِنْه الحَديث: "كُنَّا إِذَا اشْتَدَّ البَأْس اتَّقينا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ" يريدُ الخوفَ. وَلَا يكونُ إلاّ مَعَ الشِّدَّة، وقالَ ابنُ سِيدَه: البَأْسُ: الحَربُ، ثمَّ كَثُرَ حَتَّى قيل: لا بَأْسَ عَلَيك؛ أي: لَا خَوْفَ[2].

6) ﴿أَشَدُّ بَأْسًا﴾: الشِّدَّةُ: الصَّلابَةُ، يُقال: حَجَرٌ شَدِيدٌ؛ أي: صُلبٌ. وتأْتي بمعنى الإحكام. وكُلُّ شَيءٍ أُحكِمَ فقد شُدّ. والشِّدَّةُ أيضًا: الإسْراعُ، فيُقالُ: شَدَّ في العَدوِ واشتَدّ شَدًّا: إذا أَسرَعَ. وأَصلُها: القُوَّةُ في الشَّيءِ، يُقالُ: شَدَدْتُ العَقدَ شَدًّا؛ أي: قَوّيتُهُ. والشَّدُّ: الرَّبطُ والعَقدُ. ومِن معاني الشِّدَّة: الارْتِفاع والصُّعُوبَةُ والعُسرُ والجَلادَةُ والثَّباتُ والنَّجدَةُ[3].

7) ﴿تَنكِيلًا﴾: النِّكْلُ: القَيْدُ، وجَمعُهُ أَنْكالُ، لأنَّهُ يَنْكُلُ: أَي يَمْنَعُ. والنِّكْلُ: حَديدَةُ اللِّجَام. وَنَكَّلْتُ بِهِ تَنْكِيلًا، وَنَكَّلْتُ بِهِ نَكالًا، مَعناهُ: أَنَّهُ فَعَلَ بِهِ مَا يَمنَعُهُ مِنَ المُعَاوَدَةِ، ويَمنَعُ غيرَهُ مِنْ إتيَانِ مِثلِ صَنِيعِه[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَمْرٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِه بالقتالِ، وهو يَشملُ كُلَّ قائدٍ، وكُلَّ قادرٍ على القِتالِ مِنَ المؤمنين المُخلِصينَ عِندَ إعلانِ النَّفير، أَنْ يَندَفِعَ ولَو مُنفرِدًا إلى الجِهادِ في سبيلِ اللهِ، فإنَّه غَيرُ مَسؤولٍ في الجهاد إلَّا عَن نَفسِه، وعَن حَضِّ المُؤمنينَ عليه، غَير مُلتَفِتٍ إلى هؤلاء المُثبِّطِينَ الَّذين يُظهِرونَ الطّاعةَ، ويُضمِرونَ العِصيانَ، ولا إلى من يُذيعُونَ الأَخبارَ قَبلَ التَّثبُّتِ مِنْ صِحَّتِها، أو يُصدِّقُونَها، فيَتقاعَدُون بِسَبَبِها عَنِ القِتَالِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (كفف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، والزبيدي، تاج العروس: (بأس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (نكل).
(5) مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط: 2/865.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة الفاءِ في قَولِهِ تَعَالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في وَصْلِ المعاني:

قتالُ أعداءِ الخارجِ يكون بعد مواجهةِ أعداءِ الدَّاخلِ

اختُلف في توجيه الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، على قولين:

الأوَّل: الفاءُ واقعةٌ في جوابِ شَرطٍ مَحْذوفٌ يَنسَاقُ إليه النَّظمُ الكَريم؛ أي: إذا كانَ الأمرُ كما حُكِيَ مِنْ عَدمِ طَاعَةِ المُنافِقينَ وكَيدِهم، وتَقصِيرِ الآخَرينَ في مُراعَاةِ أَحكَامِ الإسلام، فَقَاتِلْ أَنتَ وَحدَكَ غيرَ مُكترِثٍ بما فعلوا[1]، وهي الفصيحَةُ، أَي: إِذَا كانَ كما عَلِمتَ فقاتِل في سَبيلِ اللهِ، وهذا عَودٌ إِلى مَا مَضَى مِنَ التَّحريضِ على الجِهادِ، وما بَينَهُمَا اعترَاضٌ[2].

الثَّاني: أن تكون الفاءُ جوابًا لقوله ﷻ: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤﴾ [النساء: 74]، أي: فقاتل في سبيلِ اللّه كي نؤتيكَ أجرًا عظيمًا، ويَجوزُ أن يَكونَ الأمرُ بالقتالِ مُتَّصلًا بقوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 75]، أي: أيُّ شيءٍ لَكُم في تَركِ القِتَالِ؟ فأَمرَهُ اللّهُ بالقِتال - ولَو قاتلَ وحدَهُ -؛ لأنَّه قَد ضَمِنَ لَهُ النَّصرَ[3].

والمعنيانِ اللَّذان اكتنزهما هذا الحرفُ صحيحان، وهو ما يُؤَكِّدُ ارتباطَ الآيةِ بسابقِ الكلامِ، فالمعنى هو الأمر بالقتالِ بعد الإغراءِ بالأجرِ العظيم، والصَّبرِ على تثبيطِ المنافقين.

البَدْءُ بالأمرِ بالقتالِ لإسقاطِ المنافقين من الاعتبارِ

وفائدةُ البَدْءِ بالأمرِ بالقتالِ مباشرةً وحذفِ فعلِ الشَّرطِ إسقاطُ المنافقين من الاعتبارِ، فلا وزنَ لهُم في نُصرةِ المؤمنين حتّى يكونَ لهم ذِكرٌ، مع ما فيه من الإيجازِ لتتّجه العنايةُ إلى الجوابِ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/209، والآلوسي، روح المعاني: 3/93، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/238.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1357، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/731، والآلوسي، روح المعاني: 3/93، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/142، طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/239.
(3) الزجاج، معاني القرآن: 2/84.

متابعةُ النَّبيِّ في القتالِ من أعظمِ سُننِ الإسلامِ

خصوصُ الخطابِ وإرادةُ العمومِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الأمرُ خِطابٌ للنَّبيِّ ﷺ والمُرادُ هو وأمّته، وهو مِثَالُ ما يُقالُ لكُلِّ واحدٍ في خَاصَّةِ نَفسِهِ؛ أَي: أَنتَ يا محمَّدُ وكُلُّ واحدٍ مِنْ أُمَّتِكَ، قُل لَهُ: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ولهذا يَنبَغي لكُلِّ مُؤمنٍ أَن يَستَشعِرَ، أَن يُجاهِدَ ولو وَحدَهُ، ومِن ذلكَ قولُ النَّبيِّ ﷺ: "لَأُقَاتِلَنَّهُمْ حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِيَّ"[1]، وقولُ أَبي بَكرٍ وَقتَ الرِّدَّةِ: ولَو خَالَفَتنِي يَمِينِي لَجَاهَدتُها بِشِمَالي[2].

للقُدوةِ دورٌ كبيرٌ في إعلاءِ الهِمَمِ وإصلاحِ المسلمين

بلاغةُ جملةِ القَصْرِ في قَولِه تَعالَى ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾:

جاءت جملةُ القصرِ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ مُقرّرةً مضمونَ ما قبلَها؛ فإنَّ اختصاصَ تكليفِه ﷺ بفعلِ نفسِه من موجباتِ مُباشرتِه ﷺ للقتالِ وحدَه، وفيه دلالةٌ على أنَّ ما فعلَه المنافقون من التّثبيطِ والتّقاعدِ لا يضرُّهُ، ولا يؤاخذ به، فمَعنَى قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾: أَي: لَا تُكَلَّفُ في القِتَالِ إِلَّا نَفسَكَ، فَقَاتِلْ ولو وَحدَكَ. وقِيلَ: المَعنَى إِلَّا طَاقَتَكَ ووُسْعَكَ[3]، وفي هذه الجملةِ بناءُ أُسُسِ القدوةِ القائمةِ على الإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ، وهي أقوى أثرًا من التَّكليفِ العسكريِّ القائمِ على الإلزامِ المادِّيِّ؛ وآثارُه الحميدةُ قائمةٌ في الأمَّةِ إلى يومنا هذا.

القيامُ بفريضةِ القتالِ أصلٌ في الدَّعوةِ إليها

سرُّ استعمالِ لفظِ التَّحريضِ في قولِه تعالى: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾:

استُعمِلَ لفظُ التَّحريضِ، وهو: الحثُّ على الشَّيءِ بِكَثرَةِ التَّزيينِ وتَسهيلِ الخَطْبِ فيه، كأنَّه في الأَصلِ إزالَةُ الحَرَضِ، نحو: مرّضتَه وقذّيتَه؛ أي: أزلتَ عنه المرضَ والقذَى؛ لما فيه من قوَّةِ تحبيبِ المؤمنين وإقناعِهم بالقتالِ، فعليك أيُّها المخاطَبُ أن تنفُضَ عن

---

(1) البخاري، الحديث رقم: (2731)، و(2732).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/86، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/731.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/731.

أتباعِك الموانِعَ وتزيلَ العَوائق الَّتي تمنعُهُم أن يُقاتِلُوا[1]، وتَحريضُ المؤمنين خاصَّةً على القِتالِ مِنَ التَّبلِيغِ النَّبويِّ الَّذي مِنهُ الأَمرُ والنَّهي، هو استِدعَاءٌ سماويٌّ للمُؤمنين الَّذين صَدَقُوا إيمانَهم أن يكونوا مع النَّبيِّ ﷺ وأن يَأخذُوا طَريقَهُ الَّذي أخذه، وفي هذا مَا فيه مِنْ تكريمٍ لَهُم، ورَفعٍ لِقَدرِهِم[2].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

بناءُ الأسوةِ في القتالِ يُغني عن ذكرِه

حُذِفَ في هذه الآيةِ الـمُحَرَّضُ عليه وهو القِتَال، وعِلَّة ذلك أنَّه مَعلُوم من ظَاهِرِ سياق الآية الكريمة، فلمَّا بدأتِ الآيةُ بالأمرِ به، أغنى ذلك عن إعادته، ولما فيه من اشتمالِ التَّحريضِ على القتالِ ومقدِّماته، بخلافِ قوله تعالى في سورةِ الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: 65]، فالأمرُ فيه مختلفٌ، إذ جاءَ الأمرُ بتحريضِ المؤمنين في الأنفالِ ابتداءً، لا معطوفًا على أمرِه ﷺ بالقتالِ، أي: حثّهم على القتال ورَغِّبهم فيه؛ لأنَّهم آثمُون بالتَّخلّفِ عنه لفَرضِه عَليهم قبل هذا بسنين، ولا تَعنِّف بهم[3]؛ ففي الحذفِ إيجازٌ لما استقرَّ عليه الأمرُ من أنّ التّحريضَ ينصرفُ للقتالِ؛ ولأنَّ السّياقَ جارٍ له معتمدٌ عليه.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَسَى﴾ في قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾:

علـى المسلـمِ الإعدادُ والتَّوكل على اللهِ في كلِّ الأمور

﴿عَسَى﴾ منه تعالى واجبَةٌ، ومِنَ البَشَرِ مُتَوقّعةٌ مَرجُوَّةٌ ففَضلُ اللّه تعالى يُوجِبُها، فهي هنا مجازٌ استُعملَ ما هو مرجوٌّ متوقَّعٌ فيما هوواجبٌ، والمعنى: قاتلُوا راجينَ النَّصرَ من اللهِ وكفِّ أذى الكافرين، وكونوا على يقين من نصرِ اللّه لكم، وفي هذا وَعدٌ للمُؤمنينَ بغَلبَتِهم على الكَفَرَةِ، وهي هنا تدلُّ على الإعدادِ والتَّهيئةِ والخَبَرِ والوَعدِ.

(1) الراغب، المفردات: (حرض)، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2486.
(2) رضا، المنار: 5/247، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/848.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، والآلوسي، روح المعاني: 3/93.

وخَبَرُهُ تعالى حَقٌّ؛ لأنَّه لا يُخلِفُ الميعادَ، والكريمُ إذا أطمَعَ أنجزَ، وإذا رُجي حقَّق.

وفائدةُ التَّعبير بِعسى تعليمُ المُؤمنينَ الأَدَبَ في القَولِ حتَّى لا يَجزمُوا بأَمرٍ يتعلَّقُ بالمُستقبلِ، بل يُسَدِّدون ويُقاربُون ويُباشرون الأَسبابَ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يَتركونَ النَّتائجَ للّه تعالى[1].

معرفةُ النَّاصرِ تُوَرِّثُ الطَّمأنينةَ

وأسندَ فعلَ الكفِّ إلى الضَّميرِ العائدِ على الذّاتِ العليّةِ لتربيةِ المهابةِ، وتوريثِ الطَّمأنينةِ، بأنَّ الذي سيكفُّ بأسَ الذين كفروا هو اللّه تعالى.

سرُّ التَّعبيرِ بالكفِّ دونَ النَّصرِ:

كفُّ البأسِ طريقُ النَّصرِ والدَّعوةِ بمفهومِها الواسِعِ

وفي التّعبيرِ بكفٍّ بأسِ الذين كفروا دون التَّعبيرِ بالنّصرِ عليهم، مع أنَّ النَّصرَ أوضحُ دلالةً وأغرى بالمُخاطَبين، لربطِ المؤمنين بأدوات النَّصرِ، وكيفيَّة تحصيله، فإنَّ كفَّ بأسِ الكافرين هو مقدِّمةٌ للنَّصرِ العظيم، ومعرفةُ المؤمنين بطرقِ كفِّ بأسِ الكافرين مِهادٌ للنَّصرِ وغيرِه من أشكالِ الدَّعوةِ بمفهومِها الواسعِ.

فائدةُ إضافةِ البأسِ للاسمِ الموصولِ:

بيانُ شدَّةِ بأسِ الكافرين تمهيدٌ لبيانِ هوانِها

وفي التّعبيرِ بالبأسِ بيانٌ عن شدّةِ الحربِ، وإضافتُه للاسم الموصول بدلَ الاسم الصّريحِ فلم يقل: (بأس الكافرين) تأكيدٌ لشدّته؛ لكونه اقتضَى جملةَ صلةٍ بالفعل الماضي لبيانِ استقرار الكفر في قلُوبهم، وللإلماعِ إلى قساوةِ قلُوبِهم وفجاجةِ بأسهم.

تقديمُ البأسِ على النِّكالِ باعتبارِه مقدِّمةً له:

تقديمُ البَأْسِ على النِّكالِ مِنْ تَقديمِ السَّببِ على المُسَبِّبِ؛ لأنَّه إذا حَصَلَ البَأْسُ حَصَلَ النَّكالُ[2].

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 5/131، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/86، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/158، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/239، ورضا، تفسير المنار: 5/247، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/142 - 143، وطنطاوي، الوسيط: 3/241.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/42.

بلاغةُ التّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾:

الجُملةُ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قَبلَها، وهي جُملةٌ خَبَرِيَّةٌ، مُرَادٌ بِها التَّقريعُ والتَّهديدُ.

إظهارُ الاسمِ الجليلِ لربطِ القلوبِ وتهيئةِ النّفوس

وجِيءَ باسمِ الجَلَالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ مُظْهَرًا بدَل ضَميره؛ ليفيدَ زِيادَةَ التَّمكين لمعنى البَأْس والتَّنكيل في نُفوسِ السَّامِعينَ، ولِتَربيةِ المَهَابةِ، وتَعليلِ الحُكم، وتَقويَةِ استِقلَالِ الجُملَةِ[1]، فإنَّ ذكرَه أقوى في نفوسِ المخاطَبين، وأشدُّ ربطًا لقلوبِهم.

معنى لفظِ ﴿أَشَدُّ﴾ في الآيةِ وبلاغتُه:

واسمُ التَّفضيل ﴿أَشَدُّ﴾ ليسَ على بَابِهِ في الآية؛ لأنَّ بأسَ المُشركِينَ لا قِيمَةَ له بجَانب بَأْسِ اللّه تعالى وقُوَّتِه ونَفَاذِ أَمرِه. وعَذَابُهم لغيرِهم مِنَ الضُّعَفَاءِ لا وَزنَ لَهُ بجَانب عَذَابِ اللّه تعالى للظَّالمِينَ؛ لأنَّ عذَابَهم لغَيرِهم يُمكن التَّخلُّص منه، أمَّا عَذَابُه ﷻ فلا يُمكِن التَّخلُّصُ منه، والمقصُودُ مِنْ هذا التَّذييل تَهديدُ الكافرينَ بِسُوءِ المَصير وتَشجيع المؤمنين على قِتالهم، وبِشارتهم النَّصر عليهم[2].

تَكرارُ ذكرِ شدَّةِ التَّنكيل بعد ذكرِ شدَّةِ البأسِ:

وتَكريرُ الخبَرِ ﴿أَشَدُّ﴾؛ لِتأكِيدِ التَّشديدِ[3]، ولبيانِ استقلالِ شدَّةِ بأسِ اللّه عن شدّةِ تنكيلِه، فلو قال: (واللّه أشدُّ بأسًا وتنكيلًا) لم تكن في قوَّة ما جاءت عليه الآية، وفيها زيادةُ تثبيتٍ للمؤمنين وطَمأنةٌ لهم.

تنكيلُ الله بالكافرينَ محاطٌ بإذلالِهم وتحقيرِهم

سرُّ استعمالِ لفظِ التَّنكيلِ:

وفي ذكر التّنكيلِ بيانٌ عن غلبةِ المؤمنين للكافرين على وجه الإذلالِ؛ فالنِّكْلُ في أصلِه هو قَيدُ الدَّابةِ وحَديدةُ اللِّجَامِ؛ فلُحِظَ فيه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/86.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/143، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/239، وطنطاوي، الوسيط: 3/241.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/143.

عَجزُ المَنكُولِ وهَوانُهُ، فاستُعملَ في مُطلَقِ الإذلَالِ، مُنتقلًا إليه مِنْ مَعنَاهُ الأوَّلِ وهو القَيدُ والغُلُّ، ثُمَّ استُعملَ في كلِّ تَعذِيبٍ بَلَغَ الغَايةَ في الشِّدَّةِ والألَم، مع لحظ المعنى الذي أُخِذَ منه، ودلالته ضَربُ الظَّالم بِقُوَّةٍ حتَّى يكونَ عِبرةً لِمثلِهِ فيَنَكُلَ عَنِ الظُّلم، والمقصُود مِن اللَّفظِ في الآية تهديدُ الكافرين وتشجِيعُ المؤمنين(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجِهَاد والقِتَال:

الجَهْدُ والجُهْدُ: الطَّاقة والمشقَّة. فالجهادُ: يَشملُ قِتالَ الأَعداءِ، ويَشملُ: جهادَ النَّفْسِ، والشَّيطَانِ، وجهادَ المُنافقين. والجِهَادُ: يكونُ بالقُوَّةِ، والحَربِ، والمالِ، والنَّفْسِ، واللِّسانِ، والبَيانِ، والحُجَّةِ، والقَلبِ، وتَحمُّلِ الأَذى، والصَّبرِ. فالجهادُ: أَوسَعُ مِنَ القِتَالِ.

والقِتَالُ: استعمالُ القُوَّةِ المادّيّة، ويَعني: قِتالَ الكفَّارِ والمشركينَ، والجِهادُ بكلِّ أنواعه في سَبيلِ اللَّه، ومِنه جِهادٌ في اللَّه وفيما أَمَرَ أو قَدَّرَ، وأَعظمُ الجهادِ جهادُ النَّفسِ وطاعةُ اللَّه. وهو أيضًا الدِّفاع عَنِ الدِّينِ، والمالِ، والعِرْضِ، والنَّفسِ أمامَ أيِّ عَدُوٍّ كانَ(2).

الطَّريق والصِّراط والسَّبيل:

قال ابن الكمال: "إنَّها مُتساوية في التَّذكير والتَّأنيث، أمَّا في المعنى فبَينَها فَرقٌ لَطِيف، وهو أنَّ الطَّريق كلُّ ما يَطرقُهُ طارقٌ مُعتادًا كانَ أو غَير مُعتادٍ. والسَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ ما هو مُعتاد السُّلوك. والصِّراطُ مِنَ السَّبيل مَا لا التِواء فيه؛ أي: لا اعوجَاجَ، بل يكون على سَبيلِ القَصدِ فهو أَخصُّ"(3).

---

(1) طنطاوي، الوسيط: 3/241، وبنت الشاطئ، التفسير البياني: 1/148، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2490.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع، تفسير آية 39 من سورة الحج.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/13.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ٨٥﴾ [النساء: 85]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَـمَّا أَمَرَ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ أن يُحرِّضَ المؤمنين على الجهاد، وذَكَرَ أنَّه ليس عليه وِزْرُ من تمرَّدَ وعَصَى، بَيَّن في هذه الآية أنهم حين أَطاعوه، ولَبّوا دَعوتَه، أَصابَهم مِنْ هذه الطَّاعة خيرٌ كثير، وأنَّ له مِنْ هذا الخير نصيبًا يستحِقُّ عليه الأجر؛ لأنَّه قد بذَلَ الجُهدَ في تَرغيبِهم فيه، بجَعلِ نفْسِه شفيعًا ونصيرًا لهم في الوصُولِ إلى تَحصيلِ هذه الأغراض الشَّريفة[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿شَفَٰعَةً﴾: الشَّفاعَةُ: هي التوسُّطُ بالقَولِ في وصُول شَخصٍ إلى مَنفَعةٍ مِن المنافع الدُّنيويَّة أو الأُخرويَّة، أو خَلاصِه مِن مَضَرَّةٍ ما[2]، يُقال: شَفَعَ إلى فُلانٍ في أمرٍ ما شَفاعَةً: إذا طَلَبَ إليه قَضاءَ حاجَةٍ لِلآخرين. وتُطلَقُ على الإعانَةِ والتَّقويَةِ. وأَصلُ الكَلِمَة مِن الشَّفْعِ، وهو: ضَمُّ الشَّيءِ إلى غَيرِه[3].

2) ﴿حَسَنَةٗ﴾: الحَسَنَةُ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يَسُرُّ مِنْ نِعمَةٍ تَنالُ الإنسانَ في نَفسِهِ وبَدَنِهِ وأَحوالِهِ، والسَّيِّئَةُ تضادُّها. والحَسَنُ: الجَيِّدُ، وضِدُّهُ: القَبيحُ والسَّيِّءُ[4].

3) ﴿نَصِيبٞ﴾: النَّصِيبُ: الحَظُّ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، أو الحَظُّ المَنصُوبُ؛ أي: المُعَيَّنُ، يُقالُ: هذا نَصِيبي؛ أي: حَظِّي، ويُقالُ: لِي نَصِيبٌ فيه، أي: جُزْءٌ مُعَيَّنٌ من الشَّيءِ المَقسُوم. وتَناصَبَ القَومُ الشَّيءَ: تَقاسَمُوهُ. والجَمعُ: أَنْصِباءُ، وأَنْصِبَةٌ، ونُصُبٌ[5].

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/230، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/143.
(2) الراغب، المفردات: (شفع)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1784.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شفع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حسن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نصب).

4) ﴿سَيِّئَةً﴾: الإساءَةُ: مصدرُ أَساءَ، يُسِيءُ، وهي في اللُّغَةِ: خلافُ الإِحْسانُ، يُقالُ: أساءَ الرَّجُلُ إساءةً، خِلاف أحْسَنَ، وأَساءَ الشَّيءَ: أَفْسَدَهُ ولم يُحسِنْ عَمَلَهُ، والإِساءَةُ أيضًا: اسمٌ للظُّلم والمَعصِيَةِ[1].

5) ﴿كِفْلٌ﴾: الكَفالَةُ: الضَّمَانُ، والكَفيلُ: الضَّامِنُ، وتَأْتِي الكَفَالَةُ بِمَعنَى: الإِعَالَةِ والإِحَاطَةِ، والكَفِيلُ: العَائِلُ الذي يُنفِقُ عَلَى غيرِه، وأَصلُ الكَفَالَةِ مِنَ الكَفْلِ، وهُوَ تَضَمُّنُ شَيءٍ لِشَيءٍ، وسُمِّيَتْ الإِعَالَةُ كَفَالَةً؛ كَأَنَّ الكَافِلَ تَضَمَّنَ اليَتِيمَ وَضَمَّهُ إِلَيه[2]، وقيل: الكِفلُ: الكَفِيلُ. ونبّه أَنَّ من تحرَّى شرًّا فلَه من فِعله كفيلٌ يسلِّمه، كما قِيل: مَن ظَلَمَ فقد أَقام كفيلًا بظلمه، تنبيهًا أنَّه لا يُمكنه التَّخلُّص من عُقوبته[3].

6) ﴿مُّقِيتًا﴾: المُقِيتُ: الحَافِظُ، والرَّقِيبُ، والشَّاهِدُ، والمُقْتَدِرُ. وأَصلُهُ عِندَ أَبِي عُبَيدَةَ: الحَافِظُ، وهُوَ اسمُ فَاعِلٍ مِنْ أَقَاتَ إِذَا أَعطَى القُوتَ، فَوَزنُهُ مُفْعِلٌ وعَيْنُهُ وَاوٌ. واستُعمِلَ مَجَازًا في مَعَاني الحِفظِ والشَّهَادَةِ بِعَلَاقَةِ اللُّزُومِ؛ لأَنَّ مَنْ يُقِيتُ أَحَدًا فَقَد حَفِظَهُ مِنَ الخَصَاصَةِ أو مِنَ الهَلَاكِ، وهُوَ هُنَا مُستعمَلٌ في مَعنَى الاطِّلَاعِ، أو مُضَمَّنٌ مَعنَاهُ[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جاءتِ الآيةُ الكريمةُ على سَبيلِ البيانِ العامِّ في بيان جزاءِ كُلِّ شَفاعةٍ حَسَنةٍ أو كُلِّ شَفاعَةٍ سَيِّئَةٍ، إلَّا أنَّ المقصودَ بِها قَصدًا أوَّليًا تَرغيبُ المؤمنين في أن يُعاونَ بعضُهم بعضًا على الجِهاد في سبيل الله، وفي انضمام بعضهم إلى بعضٍ من أجلِ نُصرةِ الحقِّ، وتهديدِ المنافقين الَّذين كانَ يشفعُ بعضُهم لبعضٍ لكي يأذَن لَهُم النَّبيُّ ﷺ في التَّخلُّف عن الجهاد[5].

ومعنَى الآيةِ العامّ: مَن ينضمَّ إلى غيره معينًا له في فَعْلَةٍ حسنةٍ يكنْ له منها نصيبٌ، ومن ينضمَّ إلى غيره معينًا له في فعلةٍ سيِّئةٍ تَنَلْه منها شدَّةٌ.

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كفل).
(3) الراغب، المفردات: (كفل).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (قوت)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.
(5) طنطاوي، الوسيط: 3/242.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّعبيرِ بقولِه باسم الشَّرطِ الدَّالِّ على العمومِ مع الفِعلِ المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ﴾:

كلُّ مَنْ يشفَعْ على الدَّوامِ في الخيرِ فهو ملازمٌ للحمد

بُنِيَتِ الآيةُ الكريمةُ على جُملتي شَرطٍ، وقد جاءتا على طريق المُقابلةِ، وأسلوبُ الشَّرطِ هو المُلائم في مقاماتِ التّعبيرِ عن الجزاءِ المرتّبِ على العملِ. وعُبِّرَ باسم الشَّرطِ ﴿مَّن﴾ لقصد التّعميم، وعُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ في فعل الشَّرطِ وجوابِه إلماعًا إلى تجديدِ الثَّوابِ مع تجديد كلِّ شفاعةٍ، وما قيل هنا يُقالُ في الجملةِ المقابلة.

سرُّ البَدْءِ بذكرِ الشَّفاعةِ الحسنةِ:

الشَّفاعةُ عند الإطلاقِ تنصرفُ للخيرِ

جاءت جملةُ الشَّرطِ في مقابلةِ جملة الشَّرطِ السّابقة، وبُدِئَ بالشَّفاعةِ الحسنةِ؛ لأنَّ الأصلَ في الشّفاعةِ أن تكونَ في الخير، وإطلاقُ الشَّفاعَةِ على السَّعي في الشَّرِّ من بابِ المُشاكَلَةِ؛ لأنَّ الشَّفاعَةَ تكون في الوَساطَةِ في الخَير عند الإطلاقِ[1]، ووصفُ الشَّفاعةِ بالحسنةِ هنا تأكيدٌ لها وتمهيدٌ لمقابلتِها السَّيِّئة؛ إذْ لا يُقَالُ: (شَفَعَ) لِلَّذي سَعَى بِجَلبِ سُوءٍ[2].

فنُّ الطِّباقِ البديعيّ:

بين: ﴿حَسَنَةً﴾ و﴿سَيِّئَةً﴾ طِبَاقٌ كاشفٌ عن بعدِ ما بينهما، فالشَّفاعةُ الحسنةُ تورث الخير والنَّصرَ والإلفةَ بين المؤمنين، والشَّفاعة السَّيِّئة تمزق المجتمعَ المسلمَ وتُنزل عليه الهزائمَ والجرائم.

سرُّ التَّعبيرِ عن جزاءِ الشَّفاعةِ الحسنةِ بالنَّصيبِ والسَّيِّئة بالكفلِ:

جزاءُ الخيرِ مضاعَفٌ بالخيرِ، وجزاءُ السُّوءِ مماثلٌ للسُّوءِ

عبَّر عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعةِ الحسنةِ بأنَّه ﴿نَصِيبٌ﴾؛ إيماءً إلى أنَّه قد يكونُ له أجرٌ أكثرُ من ثوابِ مَن شفَع عندَه، وعبَّر بـ﴿كِفۡلٌ﴾ عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعةِ السيِّئة؛ إشارةً إلى أنَّ مَن

(1) طنطاوي، الوسيط: 3/242.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.

يَشفَعْ شفاعةً سيِّئةً يكنْ له نصيبٌ من وِزْرها مُساوٍ لها في المِقْدارِ من غيرِ أنْ يَنقُصَ منه شيءٌ؛ فالنَّصيبُ هو الحظُّ مِن كلِّ شيءٍ، والكِفلُ الحظُّ كذلك، لكن يُستعمَلُ الكِفلُ بمعنى المِثل؛ فيُؤخَذُ من ذلك: أنَّ الكفلَ هو الحظُّ المماثِلُ لحظٍّ آخَر[1].

وقيل: عبَّر بـ﴿كِفۡلٞ﴾ عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة السيِّئة؛ لأنَّه يُفهَم منه النَّصيبُ ويُفهَمُ أكثرُ منه؛ تغليظًا في الزَّجرِ؛ إذ الكِفلُ اسمٌ للنَّصيبِ الّذي عليه يَكونُ اعتمادُ الناسِ في تَحصيلِ المصالحِ لأنفسِهم، ودَفْعِ المفاسِدِ عن أنفسِهم؛ والغَرضُ من قوله: ﴿كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ التنبيهُ على أنَّ الشفاعةَ المؤدِّيةَ إلى سُقوطِ الحقِّ وقوَّةِ الباطلِ تكونُ عَظيمةَ العِقابِ عِندَ اللّهِ تعالى[2].

فنُّ المقابلةِ بين الجُمَلِ:

بين جملتي الشَّرطِ مُقابَلَةٌ لَطيفَةٌ، والمقابلةُ أسلوبٌ يبني العقلَ المُقارِنَ بين الأضداد، والمقارنةُ بين الأشياء خطابٌ ملائمٌ للعقول، وغرضُ المقابلةِ بيانُ ما يستحقُّه كلُّ فريقٍ من الفريقين جزاءً على أفعالِه، وأنَّ قبحَ من يشفع شفاعةً سيِّئةً لا يعني مجازاته فوقَ ما يستحقُّ؛ فإنَّ الجزاء الإلهيَّ مبنيٌّ على الفضلِ في حقِّ المؤمنين والعدلِ في حقِّ الظَّالمين.

دلالةُ التّذييلِ بقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾:

اللهُ تعالى يُجازي على الأعمالِ بِما يُناسِبُها مِن حُسنٍ أو سُوءٍ

جاءتِ الجملةُ تذييلًا مُقرّرًا لمضمون الجملةِ السّابقةِ من أوَّل قوله تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ﴾؛ لإفادَةِ أَنَّ اللّه يُجَازي على كُلِّ عَمَلٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ حُسنٍ أو سُوءٍ[3]، "وقوله: ﴿وَكَانَ﴾ مُطلَقًا من غير أيِّ قيدٍ؛ ذلك بأنَّه كان من وَقت كذا أو حَال كذا، يدلُّ على أنَّه كانَ حاصلًا من الأَزلِ إلى الأَبدِ[4].

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الله المُقيتِ في الآية:

تفرّدتِ الآيةُ بالاسمِ الجليلِ (المُقيتِ)، وهو الحَافِظُ، والرَّقيبُ،

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/136، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/160، والبقاعي، نظم الدرر: 5/348.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/161، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2496.

المـقـيـتُ هـو الحافظُ القادرُ المطَّلعُ على كلِّ شَيْءٍ

والشَّاهِدُ، والمُقتدِرُ[1]، واستُعمِلَ مَجازًا في مَعاني الحِفظِ والشَّهادَةِ بعلاقَةِ اللزُّوم؛ لأنَّ مَن يُقِيتُ أحدًا فَقَد حَفِظَهُ مِنَ الخَصاصَةِ أو من الهلاك، وهو هنا مُستَعمَلٌ في معنى الاطِّلاعِ، أو مُضمَّنٌ معناه، كما يَنبئُ عنه تعديتُهُ بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ وفسَّرَهُ الغَزالي بِمُوَصِّلِ الأَقواتِ؛ فيُؤَوَّلُ إلى معنى الرَّازق، إلَّا أنَّه أخصُّ، وبمعنى المُستَولي على الشَّيءِ القادرِ عَليه، وعليه يدلُّ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا﴾، فيكون راجعًا إلى القُدرَةِ والعِلمِ[2].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الحَسَن والحَسَنَة والحُسنى:

الحَسَنُ يُقالُ في الأعيانِ والأَحداثِ، وكذلك الحَسَنَةَ إذا كانت وصفًا، وإذا كانت اسمًا فمُتعارفٌ في الأحداث، والحُسْنَى لا تُقالُ إلَّا في الأحداث دون الأَعيانِ، والحَسَن أكثَرَ ما يُقال في تُعارف العامَّة في المُستَحسَن بالبصر، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ وحُسَّان، وامرأةٌ حَسْنَاء وحُسَّانَة، وأكثَر ما جاء في القُرآن مِنَ الحسن فللمُستَحسَنِ من جِهة البَصيرة، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: 18][3].

الشّفاعة والسُّؤال والأمر:

قالَ أهلُ اللُّغةِ: إنْ طَلَبَ الأَدنى مِنَ الأَعلى لِنَفسِهِ فهو سُؤالٌ، وإنْ طَلَبَ لغيرِهِ فهو شَفَاعَةٌ، ومنه تُسمَّى الصَّلاةُ على المَيِّتِ شفاعةً؛ لأنَّهم يطلُبون من اللهِ تعالى له الرَّحمة، وإنْ طَلَبَ الأَعلى من الأَدنى لنَفسِهِ هو أمرٌ، وإنْ طَلَبَ لغيرِهِ فهو شَفاعةٌ، ومنه قول بَريرة للنَّبيِّ ﷺ حينَ أَمرَها بِردِّ زَوجها مُغيث: "يا رَسُولَ اللَّه أتأمُرُ أم تَشفَعُ؟ قال: بَلْ أَشفَعُ، قالَت: فلا حاجَةَ لي فيهِ". وإنْ طَلَبَ المُساوِي من مِثْلِه لنَفسِهِ فهو التماسٌ، وإنْ طلَبَ لغيرِه فهو شَفاعةٌ[4].

(1) الزجاج، معاني القرآن: 2/86، والواحدي، البسيط: 2/90، والراغب، تفسير الراغب: 3/1365.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/94، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.

(3) الراغب، المفردات: (حسن).

(4) المنذري، فتح القريب المجيب: 14/422.

النَّصِيب والحَظّ:

النَّصِيب يكون في المَحبُوب والمَكرُوه، يُقَالُ: وفَّاه اللّه نَصِيبه من النَّعيم أَو من العَذَاب، ولا يُقَالُ: حَظّه من العَذَاب إِلَّا على استِعَارَة بعيدَة؛ لأَنَّ أصلَ الحَظِّ هو مَا يحظُّه اللّه تعالى للعَبد من الخَيرِ، والنَّصيب مَا نصَبَ لَهُ لينالَه سَوَاء كَانَ محبوبًا أَو مَكرُوهًا، ويَجوز أَن يُقَال: الحَظُّ اسمٌ لم يرْتَفع بِهِ المحظوظ، ولهذَا يُذكر على جِهَة المَدح، فَيُقَالُ: لفُلَانٍ حَظٌّ، وَهُوَ محظوظٌ، والنَّصيب مَا يُصِيب الإِنسَان من مُقاسمةٍ، سَوَاء ارتَفعَ بِهِ شَأْنُه أم لَا، ولهذَا يُقَالُ: لفُلَان حَظٌّ في التِّجَارَة، ولا يُقَال: لَهُ نصيبٌ فِيهَا؛ لِأَنَّ الرِّبحَ الَّذي يَنَالهُ فِيهَا لَيسَ عَن مُقاسمةٍ[1].

النَّصِيب والكِفْل:

الكِفلُ يُستَعمَلُ في الشِّدَّةِ وفي الشَّيءِ الرَّدِيء. قال القَاسِمِيُّ رحمه اللّه: "نكتةُ اختيار النَّصيب في (الحسَنَة)، والكِفلُ في (السَّيِّئة). والنَّصيبُ يَشملُ الزِّيادَةَ؛ لأَنَّ جَزاءَ الحَسَناتِ يُضاعَفُ، وأمَّا الكِفلُ فأَصْلُه المَركَبُ الصَّعبُ، ثُمَّ استُعيرَ للمثلِ المُساوي؛ فلذا اختيرَ إشارةً إلى لُطفهِ بعِبادِه، إذ لم يُضاعِف السَّيِّئاتِ كالحسَنَاتِ. ويُقالُ: إنَّه وإن كان معناهُ المِثلَ، لكنَّه غَلب في الشَّرِّ، ونَدَر في غَيرِه، كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: 28]، فلذا خُصَّ به السَّيِّئةُ؛ تطريةً، أي: تحسينًا للعِبارة، وهربًا مِنَ التّكرار"[2].

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 165.

(2) القاسمي، محاسن التنزيل: 3/242.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أشارتِ الآيةُ السّابقةُ إلى وجوبِ الإعراضِ عن المنافِقين ومُنابذَتِهم قولًا وفعلًا، فجاءت هذه الآيةُ لتبيّنَ أنَّ التّحيةَ ليست من وادي الشّفاعةِ، وأنّ الشّفاعةَ تابعةٌ للعملِ، والتَّحيةَ تابعةٌ للظّاهرِ، فقالَ سبحانَه عاطِفًا على ما تقديرُه: فلا تَشفَعُوا فيهم وأنتُم تعلَمُون سوءَ مقاصدِهم(1).

والتَّحيةُ ترغيبٌ في فرد شائعٍ من أفراد الشَّفاعةِ الحسنةِ إثرَ ما رُغِّبَ فيها على الإطلاق وحُذِّر عما يقابلها من الشَّفاعةِ السَّيِّئةِ وإرشادٌ إلى توفية حقِّ الشفيع وكيفية أدائه؛ فإنّ تحيةَ الإسلامِ من المسلم شفاعةٌ منه لأخيه(2)، وهي شفاعةٌ ضمنيَّةٌ تتضمَّن الدُّعاءَ، فنبَّه بأدنى درجات الشَّفاعةِ بغرضِ الحثِّ عليها.

ونكتةُ نظمِ هذه الآيةِ مع آياتِ الجهادِ هو التّمهيدُ لمنعِ المؤمنين من قتلِ من ألقَى إليهم السّلامَ في الحربِ ببيانِ أنَّ لكلِّ مُسلِّمٍ حقًّا يؤدَّى إليه(3).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾: التَّحِيَّةُ: قَولُ: حَيّاكَ اللهُ؛ أي: أَبقاكَ وأَدامَكَ. وأَصلُها: الدُّعاءُ بالحَياةِ، يُقالُ: حَيَّاهُ، يُحَيِّيه، تَحيَّةً، أيْ: دَعا له بالحَياةِ، وقِيلَ أَصلُها: استِقبالُ المُحَيّا وهو الوَجهُ. وتُطلَق على كُلِّ قَولٍ أو فِعلٍ يُؤتَى بِهِ عند اللِّقاءِ بِقَصدِ التّكريم. ومِن مَعانِيها: التّعظِيمُ، والتّكريمُ، والفَرَحُ(4).

2) ﴿حَسِيبًا﴾: الحَسِيبُ: العَلِيمُ وهُوَ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وقِيلَ: الحَسِيبُ هُنَا بِمَعنَى

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/350.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210.
(3) القاسمي، محاسن التنزيل: 3/243.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حيَّ).

المُحَاسِبِ. وسُمِّيَت المُجَازَاةُ مُحَاسَبَةً؛ لأَنَّ المُحَاسِبَ يَعُدُّ لِلشَّخصِ مَا لَهُ ومَا عَلَيهِ، ومِن مَعاني المُحَاسَبَةِ أيضًا: التَّدبيرُ والكِفَايَةُ(1).

المَعنَى الإجمَاليُّ:

تُبيِّن الآيةُ حكمَ التَّحيةِ في الإسلام، وأثرَها العظيم في تآلفِ القلوبِ وتقاربِ النُّفوس، بعد بيانِ أثَرِ الشَّفاعةِ الحسنةِ والشَّفاعة السَّيِّئةِ في المجتمعِ من تمزيقِ ائتلافِه، وهَدْمِ بُنْيانه، فإنَّ التَّحيةَ من شأنِها أن تبنيَ بعد هدمٍ، وتجمعَ بعدَ تفرقةٍ، فكيف إذا كانت بالأحسنِ؟ واللّه يجازي عبادَه بالخيرِ خيرًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ التَّعبيرِ بإذا الشَّرطِيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾:

نشرُ التَّحية واجبٌ على المجموعِ وردُّها واجبٌ على الجميعِ

استُعمِلَتْ أداةُ الشَّرطِ ﴿وَإِذَا﴾ والأصلُ أن تكونَ للمقطوعِ بحصولِه، وللكثيرِ الوقوعِ؛ وذلك للتَّنبيه على أنَّ إلقاءَ التَّحيَّةِ من الأمورِ الواجبةِ على المجتمعِ بأكملِه، وأنَّه لا يجوز أن لا يُحيِّيَ أفرادُ المجتمعِ بعضُهم بعضًا، بحيث يُصبحُ ذلك السُّلوكُ غائبًا بالكُلِّيَّة، ويُفهَمُ منه من وجهٍ آخر، الإخبارُ عمَّا عليه المجتمعُ من إلقاءِ التَّحيَّةِ وما يتركُه ذلك من الأثرِ الحسنِ والمحبَّة بين النَّاس.

نُكتةُ استعْمالِ صيغةِ المبني للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾:

كلُّ من يُلقي التَّحيَّة يُردُّ عليه بالحسنى

إطلاقُ الجُملةِ القرآنيَّة، واستعمالُ صيغةِ المبني للمفعول في قولِه: ﴿حُيِّيتُم﴾ تَسوِّغان القول: بأنَّ الأمرَ فيها عامٌّ يشمل كلَّ فئةٍ من النَّاس تُلقي التَّحيَّةَ ابتداءً، بقطع النَّظر عن الجنس والدِّين والعُمر، فلَفظُ التَّحيَّةِ كِنايةٌ عَنِ الإكرام، فجَميعُ أنواعِ الإكرَامِ تَدخل تحتَ لَفظِ التَّحيَّة(2).

(1) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 91.
(2) الواحدي، البسيط: 7/18، والبقاعي، نظم الدرر: 5/351.

فائدةُ تقديم: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ على ﴿أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾:

تقديمُ الأحسنِ على المِثْلِ للتَّرغيبِ بالفَضلِ

أَفادَ قَولُهُ: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ التَّخييرَ بَينَ الحالَين، ويُعلَمُ مِن تَقدِيم قَولِه: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ أَنَّ ذَلِكَ أَفْضَلُ[1]، وهو مِنْ بابِ تَقدِيمِ الأَفضَل على المَفضُول، فهي من باب التَّدلِّي.

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ رُدُّوا مِثلَهَا، وهذا كَقَولِهم: عندي دِرهَمٌ ونِصفُهُ، لظُهور تعذُّر ردِّ ذات التَّحيّة، ودلَّ الأَمرُ على وجُوب ردِّ السَّلام، ولا دَلالَةَ في الآية على حُكْمِ الابتداءِ بالسَّلام، فذلكَ ثابتٌ بالسُّنَّة للتَّرغيبِ فيه[2].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾:

الإسلامُ سَلامٌ وإكرامٌ لكلِّ من سَالَمَهُ

جاء التّذييلُ جملةً اسميةً مشحونةً بالتّوكيدات، وبالتّقديم المفيدِ التّخصيصَ، وبالتّعبيرِ بـ﴿كَانَ﴾ الدّالةِ على أزليَّتِهِ سبحانه في كونه ﴿حَسِيبًا﴾، وتخصيصُه بهذا الاسم الّذي لم يُذكر سوى ثلاثِ مراتٍ في الذِّكر الحكيم، ولَفْظُ ﴿كُلِّ﴾ في الآيةِ مِنْ أَلفاظِ العُمُوم القَطعيَّة؛ وذلكَ لأنَّ مَضمُونها لا يَحتمِلُ التَّخصيص، إذ إنَّه يُرادُ بها كلُّ شيءٍ من الأشياءِ تناولًا وحُكمًا، فاللّٰه تعالى مُحاسِبٌ على كُلِّ شيءٍ[3].

دلالةُ استعمالِ اسم الله الحسيب:

مَهما قلَّت الأعمالُ الصَّالحةُ فهي في ميزانِ الحسيبِ عظيمةٌ

الحَسِيبُ: يَجوزُ كَونُهُ مِنْ أَمثِلَةِ المُبَالَغَة، وقد قِيلَ: الحَسيبُ هُنَا بِمَعنَى المُحَاسِب، كالأَكيلِ والشَّريب. وعليه يَكُونُ التَّذييلُ وَعدًا بالجَزاءِ عَلَى قَدرِ فَضلِ رَدِّ السَّلَام، أو بالجزاء السَّيِّئ عَلَى تَرك الرَّدِّ مِنْ أَصلِه، وقَد أُكِّدَ وَصفُ اللّٰهِ بـ(حَسِيب) بِمُؤَكِّدَين: حَرفُ (إِنَّ) وفِعلُ (كَانَ) الدَّالُّ على أَنَّ ذَلِكَ وَصفٌ مقرَّرٌ أزَلِيٌّ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/146.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/147.

(3) الزايدي، صيغ العموم وأنواعه، ص: 170.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/87، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/147، طنطاوي، الوسيط: 2/870.

وبالحرف (على) المفيد الاستعلاءَ والتَّمكُّنَ، وفي هذا إشارةٌ إلى تأكيدِ أمر الصِّلةِ بين النَّاس، ووجُوب ردِّ التّحيّةِ على مَن يُسلِّمُ علينا ويُحيِّينا(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّحيَّة والسَّلام:

التَّحيَّةُ أعمُّ مِنَ السَّلام، قال المُبرِّد: يَدخل في التَّحيَّةِ: حيَّاك اللّهُ، ولكَ البُشرى، ولَقيتَ الخيرَ، ولا يُقالُ لذلك: سلامٌ، إنَّما السَّلام قولُك: سلامٌ عليكَ، ويكون السَّلامُ في غير هذا الوجه السَّلامةَ مثل: الضَّلالُ والضَّلالةُ، والجَلالُ والجَلالةُ، والسَّلامُ اسمٌ مِنْ أسماءِ اللّهِ، والتَّحيّةُ أيضًا المُلك. فالتَّحيَّة تُقالُ في حقِّ اللّهِ تعالى: التَّحيَّاتُ للّه، وأمَّا السَّلامُ فلا يُقالُ في حقِّ اللّه، والتَّحيَّةُ تعظيمٌ، واللّه مُستحِقٌّ للتَّعظيم، وأمَّا السَّلامُ فإنَّه دُعاءٌ، واللّه ليسَ بحاجةٍ إلى الدُّعاء(2).

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 5/111.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 59، والفوزان، إعانة المستفيد: 2/217.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مُنَاسَبَةِ هذهِ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ اللّه تعالَى لَمَّا ذكرَ الإنذارَ والوعيدَ في الآيةِ السَّابقةِ في قولِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾؛ أكّدَ هذا الوعيدَ في هذهِ الآيةِ بالجمعِ بينَ التَّوحيدِ والعدلِ، فإنّ مقتضى التَّوحيدِ والعدلِ أنْ يأخذَ كلُّ ذي حقٍّ حقّهُ، والمرجعُ يومُ القيامةِ، فجمعَ بينَ التَّوحيدِ ويومِ القيامةِ اللّذين أنكروهما.

ثانيْها: أنَّ الآيةَ السَّابقةَ لَمَّا كانت في بيانِ أنَّ مَنْ عاملَ المسلمينَ بالظَّاهرِ، فحيّاهُم، فالواجبُ أن يعاملُوهُ بناءً على الظَّاهرِ، فَيَردُّوا عليهِ بأفضلَ مِنْ تحيّتِه؛ ناسبَ أنْ تأتيَ هذهِ الآيةُ للإشارةِ إلى أنّ البَوَاطِنَ إنّمَا يَعرِفُهَا اللّهُ الَّذي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وإنَّمَا تَنكَشِفُ بَوَاطِنُ الخَلقِ لِلخَلقِ يَومَ القِيَامَةِ؛ تنبيهًا على أنَّ اللّه لا يُحبُّ أنْ يغترَّ المنافقُ بهذا، وليُتحقَّقَ أنَّ اللّه له بالمرصادِ[1].

ثالثُهَا: أنَّ اللّه تعالَى لَمّا أمرَ ونَهَى فيما قبل؛ بيّنَ بعدُ أنّه لا يستحقُ العبادةَ سواه، ليعمَلُوا على حسب ما أوجبَه عليهم، وأشارَ إلى أنّ لهذا العملِ جزاءً بِبَيَان وقتِه، وهو يومُ القيامةِ؛ ليجدُّوا فيه ويرغبُوا ويَرْهَبُوا[2].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾: جذرُ هذه الكلمةِ: الجيمُ والميم والعَيْنُ، وهو دالٌّ عَلَى تَضَامِّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ، يُقَالُ: جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمْعًا، بمعنَى: ضَمَمْتُ بعضَه إلى بعضٍ، ومنهُ: جمعُ المالِ، وجمعُ النَّاسِ، ولا يكونُ الجمعُ إلّا بعدَ تفرّقٍ، ويُقال: جمعَ اللّه القُلُوبَ؛ أي: أَلَّفَ

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1372، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/167.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/102.

بينَهَا، وجمعَ فلانٌ أمرَه: عزمَ عَلَيهِ، وَجمعَ عَلَيهِ ثِيَابَه: لَبِسهَا، وأَجْمَعَ المسلمونَ على كذَا: اجْتَمَعت آراؤُهم عليه، وَسُمّيَ يَومُ الجُمُعَةِ كذلكَ؛ لاجتماعِ النَّاسِ فيه[1]، ويندرِجُ تحتَ هذا المعنَى الكلّيِّ لمادَّةِ (جمعَ) قولُه تعالَى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ في الآيةِ؛ فإنَّ معناهُ: لَيَضُمَّنَّ اللّٰه تعالَى النَّاسَ جميعًا فيبعثهم من بعد موتهم، ويَحشرُهم إلى موقفِ الحساب[2].

2) ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: أصلُ الكلمةِ: القافُ والواو والميم، وهذا الأصلُ دالٌّ على معنَيَيْنِ كُلِّيَّيْنِ، أحدُهما: دالٌّ على جماعةٍ من النَّاسِ، والآخَرُ - وهو المرادُ هنا - دالٌّ على انتصابٍ، والقيامةُ: أصلُها ما يكونُ مِن الإنسانِ من القيام دفْعَةً واحدةً، والتاءُ فيها لِلمبالغةِ؛ تنبيهًا على وقوعِها دفعَةً، وهو اسمٌ غلبَ على يومٍ يبعثُ اللّٰه تعالَى عبادَهُ لِحسابِهم؛ وسُمِّيَ بذلك لثلاثةِ أوجهٍ:

أحدها: أنَّ النَّاس يقُومُون فيهِ مِنْ قُبُورِهِم للّٰهِ سُبحانه، كما قالَ اللّٰه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: 6].

ثانيها: أنَّه تُقَامُ فيهِ الأشهاد، كما قال اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: 51].

ثالثُها: أنَّه يُقَامُ فِيهِ العَدْلُ، كما قال اللّٰه ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنبياء: 47][3].

3) ﴿رَيۡبَ﴾: الرّيبُ: هو الشكُّ معَ التُّهمة، ويُطلق على الشكِّ مع الخوفِ، فالرّيبُ أخصُّ مِنَ الشكِّ، ومنه قولُهُم: رَابَه الأمرُ؛ إِذَا أَدخَلَ عليهِ شَكًّا وَخَوفًا، وظاهرُ كلامِ الرَّاغبِ أنَّ الرَّيبَ لا يُطلَقُ إلّا إذا وقعَ بعدَهُ انكشافٌ أو تُوقِّعَ أنْ يكونَ بعدَهُ انكشافٌ، بخلافِ الشَّكِّ، وَتقولُ العربُ: رَيْبُ الدَّهْرِ؛ أي: صُرُوفُهُ وحوادثُه[4]، وقولُ اللّٰه تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۛ﴾، معناه: لا شكَّ فيهِ في نفسِه، وحقيقةِ أمرِه، وإنْ ارتابَ فيه الكَفَرةُ فغيرُ ضائِرٍ[5].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (جمع).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/592.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن، والسمين، عمدة الحفاظ: (قوم)، وابن عثيمين، شرح الأربعين النووية، ص: 356.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات: (ريب).

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88.

4) ﴿أَصۡدَقُ﴾: الصَّاد والدَّال والقافُ تدورُ تصاريفُهَا عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا كان أو غيرَهُ، ومِنْهُ: الصِّدْقُ، وهو ضدُّ الكَذِب، وإنَّما سُمِّيَ الصّدقُ صِدقًا؛ لِقُوَّتِهِ في نَفسِه، ولأَنَّ الكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ فهُوَ بَاطِلٌ[1]، والصّدقُ في حقيقتِه أن يكونَ ما يجري على لسان المُخبر موافقًا لما في قلبه، وللأمرِ المخبرِ عنه في وجُوده[2]، ومعنَى قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾: لا أحدَ أكثرُ صدقًا من اللهِ، فإنَّهُ لا يقعُ في خبرِه كَذِبٌ بوجهٍ[3].

5) ﴿حَدِيثٗا﴾: أصلُ الحاءِ والدَّالِ والثَّاءِ تدورُ اشتقاقاتُهُ حولَ كَوْنِ الشَّيءِ الذي لَمْ يَكُنْ، ويُطلَق على كلِّ ما قَرُبَ عهدُه أنَّهُ مُحدَثٌ، والحديثُ: الكَلامُ، وَسُمّيَ القرآنُ حديثًا كمَا قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: 23]؛ لِقُرب عهدِ إنزالِه، وكلُّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السَّمعِ أو وحيِ الإلهامِ في يقظتِه أو منامِه يُقال له: حديثٌ[4]، والحديثُ: هو الكلامُ الذي يُتحدّثُ به فينتشرُ وَيظهرُ مَعَ قربِ عهدِهِ بقائلِه، ومنهُ قولُه ﷻ: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ: 19]؛ أي: أخبارًا يُتمثَّلُ بهم، فإنْ لم يقيّدْ بهذهِ الصِّفةِ بأنْ يُنظرَ إلى ذاتِه فهو كلامٌ، ولهذا سَمّى اللّهُ تعالى هنا كلامَه حديثًا؛ لأنَّه في سياقِ الحكمِ على ما يُتَحَدَّثُ به بالنَّظرِ إلى قائلِه بالصِّدقِ أو غيرِه، والمعنى في الآيةِ: لا أَحدَ أصدقُ مِنَ اللهِ تعالَى خَبَرًا[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اللّهُ تعالى هو المتفرّدُ بالألوهيَّةِ، والمعبودُ الذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا لَه، لَيَبعَثَنَّكم مِنْ بعدِ مماتِكم، ولَيَحشُرَنَّكم جميعًا يومَ القيامةِ، فلا تشكُّوا في صحّة ذلك، ولا تَمترَوا في حقيقتِهِ؛ إذْ لا أحدَ أصدقُ مِنَ اللهِ تعالَى حديثًا فيما أَخبرَ به، وقدْ جمعتْ هذهِ الآيةُ تَمْجيدَ اللّٰهِ، وَتَهديدًا، وتحذيرًا لِمُخَالفِ أَمرِهِ، وتَقريرًا لِلإِيمَانِ بيومِ البَعثِ، وَرَدًّا لِإِشرَاكِ بَعضِ المُنَافِقينَ وَإِنكَارِهِمُ البَعثَ[6].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (صدق).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88.
(3) الرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1373.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (حدث).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 4/7.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 8/592، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/148.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ بَيْنَ الْإِخْبَارِ وَالِاعْتِرَاضِ:

أُلُوهِيَّةُ اللهِ تَعَالَى تَتَضَمَّنُ رُبُوبِيَّتَهُ، وَرُبُوبِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ تَسْتَلْزِمُ أُلُوهِيَّتَهُ

تحتملُ هذهِ الجملةُ أنْ تكونَ خبرًا للمبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾، وأنْ تكونَ اعتراضيةً[1]، ويتنوّعُ المعنى لِتنوّعِ الخبرِ.

فعلى الأوَّلِ هي إخبارٌ عن اللّهِ تعالَى بمضمونِ جملةِ التَّوحيدِ؛ لِتقريرِ معنى التَّوحيدِ وتأكيدِه، معَ الدَّلالةِ على ثبوتِ مضمونِ جملةِ المبتدأ والخبرِ واستمرارِه؛ لِدلالةِ الجملةِ الاسميَّةِ على الثُّبوتِ، وحينئذٍ يُشعِرُ مضمونُ جملةِ المبتدأ والخبرِ بأمرين:

أحدُهما: توبيخُ المنافقين الذين يُبطنونَ خلافَ ما يُظهرونَ.

والآخَرُ: الإيذانُ بأنَّ مُقْتَضى أنْ يكونَ اللّهُ لا إلهَ إلَّا هوَ، أنْ يكونَ قادرًا على أنْ يجمعَ النّاسَ يومَ القيامةِ، ففيهِ استدلالٌ واحتجاجٌ؛ لأنَّ ألوهيَّةَ اللّهِ تعالى تتضمَّنُ ربُوبيَّتَهُ، كما أنَّ ربوبيَّتَهُ سُبحانه تستلْزِمُ ألوهيَّتَهُ، ولِهذا تضمّنَ الكلامُ تأكيدًا، وفي هذا الوجهِ توبيخٌ أيضًا لِمَنْ لا يُقِرُّ بقدرةِ اللّهِ سُبحانَهُ على جمعِ النّاسِ يومَ القيامةِ، لِوضوحِ الأمرِ وظهورِهِ بعدَ إثباتِ التَّوحيدِ، وممَّا يؤكِّدُ ذلك مجيءُ جملةِ الخبَرِ في ثَوْبِ القَصْرِ الحقيقيّ التّحقيقيِّ، وبأشدّ طُرُقِ القصرِ صَراحةً وأقواها، وهُوَ النّفيُ والِاسْتِثْناءُ؛ فلا معبودَ بحقٍّ سِواه، ولا مُستحقَّ للألوهيةِ غيرُه.

وإذا جعلنا قولَهُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ خبرًا لِلاِسْمِ الأحسنِ (اللّه)؛ فإنَّ جملةَ القسمِ تكونُ خبرًا ثانيًا، وَالمعنى: اللّهُ سُبحانَهُ المتفرّدُ بالوحدانيةِ قادرٌ على جَمعِكُم يومَ القيامةِ الآتي لا محالةَ.

وعلى الوجهِ الآخَرِ، وهو أنْ تكونَ جملةُ التَّوحيدِ اعتراضيةً، فيكونُ الخبرُ ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ونكتةُ الجملةِ الاعتراضيَّةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/545، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/167، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/6.

هنا: بيانُ عِظَم قدرةِ اللّهِ تعالَى على جمعِ النَّاسِ كلِّهم يومَ القيامةِ، والتَّنبيهُ على أنَّ اللّه سُبحانَهُ الذي سيُخبِرُ عنه بأنّه يجمعُ العبادَ إلى يوم القيامة هو الذي لا إلهَ إلَّا هو، وفي الاعتراضِ تخصيصُ توحيدِ اللّهِ بمزيدِ تأكيدٍ؛ بعدَ إشعارِ المبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ بالألوهيَّةِ.

وهذانِ الوجهانِ في محلِّ جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ صحيحَانِ في أنفُسِهِمَا، وتتنوَّعُ المعاني القرآنيَّةُ تبعًا لاختلافِ حمل الجُمْلَةِ على أحدِ ذَيْنِكَ الوجهين، وفي هذا توسيعٌ لِلْمَعَاني وتكثيرٌ لَهَا، مَعَ ما تضمَّنَتْهُ الآيةُ من إيجازٍ في اللَّفْظِ، وحذفِ المُقسَمِ به وأداةِ القَسَمِ للعلم بهما.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ مِنَ التَّضْمِينِ وَالِاسْتِعَارَةِ التَّبَعِيَّةِ:

تَصْوِيرُ حَالِ اسْتِمْرَارِ جَمْعِ الْخَلْقِ زَمَانًا وَمَكَانًا

في حرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وجهانِ:

أحدُهُمَا: أنْ تكونَ على أصلِ دِلالَتِهَا، والمعنى: لَيَجمَعَنَّكم في القُبورِ إلى يوم القيامةِ، وإمّا على تَضْمِين الفعلِ ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ معنَى: لَيَحْشُرَنَّكُم؛ فلِذلكَ حسُنَتْ بعدَه ﴿إِلَىٰ﴾، لِيكونَ المعنى: لَيَسُوقَنَّكُم إلى يومِ القيامةِ.

والآخَرُ: أنْ تكونَ ﴿إِلَىٰ﴾ بِمَعْنَى (في)، والمَعنى: لَيَجْمَعَنَّكُم في يومِ القيامةِ[1].

ويمكنُ الجمعُ بينَ هذينِ المَعْنَيَيْنِ، وذلك أنَّهُ لمّا اقْتَضَى ﴿إِلَىٰ﴾ في الأَصْلِ: معنَى المسافةِ والامتدادِ إلى نهاية الغايَةِ؛ أفادَ التّعبيرُ بِهَا معنى السّوق والتّجميع زمانًا ومكانًا، فيكونُ الضّمُّ والسَّوْقُ من بدءِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، والرّازي، مفاتيح الغيب: 10/167، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/211.

الخَلْقِ ومن جميع الأمكنةِ، وينتهي الجمعُ بانتهاء الغايةِ، وهو يومُ القيامة، فهو تَصْويرٌ لحالِ اسْتِمْرَارِ الجَمْعِ، وقرّرَ مجموعَ هذا التّصويرِ صيغةُ المضارعِ المؤكَّد ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾؛ لإفادة أنَّ الجمعَ مستمرٌّ غيرُ منقطعٍ حالًا فحالًا.

وإيضاحُ ذلك: أنّ لِحَرْفِ الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ موقعًا بديعًا هنا، فإمّا أن يكونَ مُلْمِحًا إلَى أنّ النّظم ضمَّنَ فعلَ الجَمْعِ معنَى الحَشرِ، وأبقى حرفَ الانتهاءِ دليلًا، أَوْ أنَّ ﴿إِلَىٰ﴾ مستعمَلٌ لمعنَى (في)، فيكونُ يومُ القيامة غايةَ الجمعِ ومكانَه في آنٍ واحدٍ، ويكونُ في هذا مِنَ الإيجازِ البالغِ، ويكونُ المجازُ بالاستعارة واقعًا في الحرفِ؛ إذْ شُبِّهَ الوعاءُ الجامعُ بالغايةِ الجامعةِ بجامعِ الإحاطةِ والشّمول في كلٍّ، وذلك على طريقةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

وأمَّا إذا حُملَتْ ﴿إِلَىٰ﴾ في الآيةِ على بابِها، فيكونُ في الكلام حذفٌ؛ إسراعًا إلى الغايةِ الّتي يكونُ فيها الحسابُ، تناسبًا مع قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء: 86]، ويكونُ تقديرُ المعنى: لَيَجمَعَنّكُم في القُبُورِ إلى يَومِ القيامَة.

دِلَالَةُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾:

المُبَالَغَةُ فِي تَقْرِيرِ الإِيمَانِ بِالمَعَادِ؛ لِكَوْنِهِ مِنْ أُصُولِ الإِيمَانِ العِظَامِ

لَمَّا كَانَ الاعتقادُ بالحَشرِ يومَ القيامة من أهمِّ أصول الإيمانِ، وكانَ جَائزًا بِالعَقلِ، وَاجبًا بِالسَّمعِ، ومقامُ الاستدلالِ يحتاجُ إلى تقريرٍ وتثبيتٍ، ولإبطَالِ إنكَارِ الّذِينَ أَنكَرُوا البَعثَ؛ أُكِّدَ الكلامُ بأربعةِ مؤكِّدَاتٍ متنوّعةٍ، هي:

أوَّلًا: تأكيدُ مَضْمُونِ جُملةِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ بالقَسَمِ المحذوفِ قَبلَهُ[1] الّذي دلّتْ عليه لامُ القسم، وهو أقوى المؤكِّدات.

ثانيًا: تأكيدُ فعلِ الجَمْعِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ بِنُونِ التَّأكيدِ الثَّقيلة.

ثالثًا: تأكيدُ الحكم الّذي تدلُّ عليه جملةُ المبتدأ والخبرِ بِتَقديمِ المُسنَدِ إِليهِ ﴿ٱللَّهُ﴾ عَلَى الخَبَرِ الفعليِّ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ - على القولِ

(1) الزّجاج، معاني القرآن: 2/88 والواحدي، التفسير الوسيط: 2/91، ورضا، تفسير المنار: 5/258، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/148.

بخبريَّةِ الفعلِ - ؛ لِتقويَةِ تَحقيقِ هَذَا الخَبَرِ؛ لِمَا يفيدُه تقديمُ المسندِ إليه على المسندِ الفعليِّ مِنْ تقويةِ الحكم[1]، ووجهُ التَّقويةِ ما في هذا التَّركيب من تَكرارٍ للإسنادِ، فإنَّ الجَمْعَ مسنَدٌ إلى الاِسْمِ الأحسَنِ (اللّه) الذي صُدِّرت الآيةُ به، وأُسنِدَ فعلُ الجَمْعِ أيضًا إلى الضَّميرِ المُسْتَترِ في ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾، فلمَّا تكرَّر الإسنادُ كان تَقْويَةً لِمَضْمُونِ الجُمْلَة.

رابعًا: تأكيدُ مَضْمُونِ جملةِ ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بِالجُملَةِ بَعدَهُ في قَولِه: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾[2].

دِلَالَةُ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾:

ثُبُوتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ أُلُوهِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَعَدْلِهِ

النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ يَحتَمِلُ أَنْ يكونَ المُرَادُ نَفيَ أَنْ يَتَطَرَّقَ جِنْسُ الرَّيبِ والشَّكِّ لِمَجِيءِ يوم القِيامَة، إذْ إنَّ يومَ القيامَةِ ممّا لا يَنْبَغِي أنْ يقعَ شكٌّ فيه؛ لِمقتضَى أنَّ اللّه لا إلهَ إلَّا هوَ، والمقصودُ: نفيُ الرَّيْبِ عَنْهُ وإنْ ارتابَ فيهِ الكَفَرَةُ؛ فإنَّ ارتيابَهُمْ غَيْرُ ضائِرٍ.

ويجُوزُ أنْ يكونَ النَّفيُ متوجِّهًا إلى الّذينَ يشكُّونَ في حقيقةِ يوم القيامةِ، بمَعْنَى: أنَّ ارْتِيَابَ المُرْتَابِينَ لِوَهَنِه نُزِّلَ مَنزلَةَ الجنسِ المَعدُوم؛ فإنَّ مُقْتَضَى التَّوحيدِ والعدلِ أنْ يَجمَعَ اللّه تعالَى الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ في عَرَصَاتِ القِيَامَةِ، فَيَنْتَصِفَ لِلمَظلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ[3].

ويجوزُ أن يكون قوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ جملةً خبريَّةً لفظًا، إنشائيةً معنًى، والمرادُ: لا ترتابوا فيه، فتكون الجملةُ مَجَازًا مرسلًا مركَّبًا، والنُّكْتَةُ فيه: أنَّ إخراجَ النَّهيِ في صورةِ الخبرِ أبلغُ مِنْ صريحِ النَّهيِ؛ لأنَّهُ صُوِّرَ كأنَّه سُورِع فيهِ الامْتِثَالُ وأُخْبِرَ عَنْهُ[4].

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي ﴿فِيهِۗ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾:

مرجِعُ الضَّميرِ في ﴿فِيهِۗ﴾ من قول اللّهِ تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ يحتَمِلُ أوجُهًا:

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/7.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 10/167، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/148.

(4) السيوطي، معترك الأقران: 1/195.

الإيمَانُ بِاللهِ تَعالَى يَسْتَلْزِمُ الإيمَانَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ البَعْثِ وَالحِسَابِ وَالجَزَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

أوَّلُها: أنْ يعودَ الضَّميرُ إلى ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، والمعنى: لا ريبَ في يوم القيامةِ؛ لأَنَّ المشركِينَ لم يقِرُّوا بيَوْمِ القيامَةِ أصلًا، ويَسْتَتْبِعُ ذلكَ أنْ لا يُقِرُّوا بتفاصيلِهِ؛ مِنَ البعثِ والحشْرِ، فنَفْيُ الرّيبِ متوجّهٌ إلى يوم القيامَةِ أوَّلًا وبالذّاتِ، ثمَّ إلى الْجَمْعِ والحشرِ والمُجازاةِ ثانيًا وبالتَّبعِ.

ثانيهَا: أنْ يعودَ الضَّميرُ على مَصْدرِ الْفِعْلِ ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾؛ وهو الجَمْعُ، والمَعْنَى: لا ريبَ في الجمْعِ - وهو البعْثُ - يومَ القيامة[1].

ثالثُهَا: أنْ يعودَ على المفهوم مِنْ مُجْمَلِ الْخَبَرِ الواردِ في الآيةِ، وهو ظاهر اختيارِ ابنِ جرير[2]، والمعنى: لا ريبَ في ما أحدِّثكم به؛ ولِهذا أردَفَهُ بقَوْلِه: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾.

وهذه المعاني المحتَمَلَةُ كلُّها متقاربةٌ؛ لأنّ مَنْ آمنَ بيوم الْقِيَامَةِ وأنَّهُ كائنٌ؛ آمنَ بتوابعِهِ منَ الْبَعْثِ والحَشْرِ والجزَاءِ، ومَن اعتقدَ صِدْقَ كلامِ اللّهِ تعالَى؛ آمنَ بِيَوْمِ القيامةِ والْحَشْرِ فيه؛ لِأنَّهُ مِمَّا أخبرَ اللّه سُبحانَهُ عَنْهُ.

دِلَالَةُ التَّقْيِيدِ بِالْحَالِ أَوِ الصِّفَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾:

إِزَالَةُ الشُّبُهَاتِ الْحَائِلَةِ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ إِيمَانِهِمْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

قولُ اللّه تعالَى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ يحتمِلُ أنْ تكُونَ جملةً حاليَّةً مِنْ ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، إذا كانَ الضميرُ في ﴿فِيهِۗ﴾ عائدًا إلى يوم القيامةِ، والمعنى: لَيَجْمَعَنَّكُم في يومِ القيامةِ حالَ كونِ ذلك اليوم ممّا لا يَنْبَغِي أنْ يُشَكَّ فيه؛ لِمقتضَى التَّوحيد والعدلِ، فَفيهِ توبيخٌ لِلمنافقينَ الكفّارِ لإنْكارِهم يومَ القِيَامَةِ؛ إذْ يَقْتَضِي إنكارُه أنْ لا جَمْعَ للنَّاسِ أصلًا، فَلا شَيْءَ بعدَ الموتِ؛ ولذا ناسبَ التَّأكيدُ المقامَ.

ويجُوزُ أن يكونَ قولهُ سُبحانَهُ: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ صفةً لِمَصْدَرِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/4، والسمين، الدر المصون: 4/59، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/592.

مَحْذُوفٍ، إذا كانَ الضَّمير عائدًا إلى المَصْدَرِ المفْهُوم مِن ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، والتَّقْدِيرُ: لَيَجْمَعنّكم إلى يوم القِيامَةِ جَمْعًا لا رَيْبَ فيهِ؛ لِيَكُون نَفْيُ الرّيب موجَّهًا إلى الجَمْعِ، على اعتبارِ أنَّهم كانوا يشكّونَ في قدرةِ اللّهِ تعالَى على جمعِ النّاسِ كُلّهم يومَ القيامةِ.

والحاصِلُ أنّ الرّيبَ إمّا أن يقعَ في الجمعِ لِكَثْرَةِ مَا يكونُ مِنَ العَدَدِ، فتَكُونُ الجملةُ صفةً تبيّنُ المعنَى وتقرّرُه، ويكونُ الموصوفُ مَحْذُوفًا، والتَّقْدِيرُ: جَمْعًا لا رَيْبَ فِيهِ؛ دَفْعًا لتوهّم عدمِ القدرة على ذلكَ بسببِ كثرة العددِ، فتكون جملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۗ﴾ جَارِيَةً مجْرَى الإطنابِ بِالاحتراسِ.

وإما أن يكونَ الشّكُّ متوجِّهًا لذاتِ يومِ القيامةِ، فتكونُ الجملةُ حالًا من ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، والمعنى: يومُ القيامة غيرُ مشكوكٍ في وقوعِه، أو ممّا ينبغي أن يكونَ كذلك؛ لِتظَاهُرِ الأدلّةِ العقليّةِ والنّقليةِ والبراهينِ الكونيّةِ على وقوعِه، فوقعت الجملةُ هذا الموقعَ؛ تأكيدًا لِحُصُول اليوم وتحقّقِ الجَمْعِ، وهذا إيجازٌ وفيرُ المَعْنَى.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ بِـ ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

التَّنْبِيهُ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى فِي بَعْثِ النَّاسِ وَحِسَابِهِمْ

سُمِّيَ اليوم الآخِرُ يومَ القِيامَةِ لأوجهٍ:

أوَّلها: أنَّ النَّاسَ يقومونَ من قبورِهم للحسابِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: 6].

ثانيها: أنَّ الأشهادَ تُقامُ فيه، كما قال سُبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: 51].

ثالثُها: أنّه يُقَامُ فِيهِ العَدْلُ، كما قال اللّه ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنبياء: 47].

وفي التَّعبير بِيَوْمِ القِيامَةِ في قَوْلِه تَعَالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ دُونَ اليَوْمِ الآخِرِ؛ إشعارٌ بهَوْلِ القيامِ من القبورِ وعظيمِ قُدرَةِ اللّه تعالى في ذلك الإخراجِ، وفيه إيماءٌ أيضًا إلى الحِسَابِ الكائِنِ فيه، فَاختيارِ هذا الاسمِ بمنزلَةِ الكنايَةِ عن المَعْنَى الذي يصلُحُ له هذا الوصفُ.

دِلَالَةُ التَّاءِ فِي لَفْظِ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

الْقِيَامُ لِلْحَشْرِ قِيَامٌ لِأَعْظَمِ الْأَهْوَالِ وَأَشَدِّهَا

التّاءُ في لفظ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تدلُّ علَى المُبَالَغَة، وسببُ لُحوقِها لفظَ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أنّهُ لَمّا كان آخرُ مَظْهَر مِن مظاهرِ دُنْيا النّاس أنهم يَمُوتُون وَيُدْخَلُونَ إِلَى قُبُورِهِمْ، وَكانَ القيامُ لِلْحَشْرِ من أذلِّ حالٍ وأضعفِها إلى أشدِّ الأهوالِ وأَعْظَمِها؛ لَحِقَتْهُ تاءُ المبالغةِ لعظمَةِ هذا القيام، لِكَثْرَةِ أفرادِهِ في ذَلِكَ الْيَوْمِ[1]، ولأنّه يكونُ على دَفْعَةٍ واحدةٍ لكلِّ أهلِ الْمَحْشَرِ إلّا ما وردَ الدَّليلُ بِسَبْقِ قِيامِهِ، كما جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ"[2].

بَلَاغَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾:

لَا أَحَدَ يُسَاوِي صِدْقُهُ صِدْقَ اللهِ تَعَالَى، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ أَصْدَقَ مِنْهُ

قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ معطوفٌ على المعنَى، كأنَّه قيلَ: ومَنْ أعظمُ مِن اللّهِ تعالى قدرةً، ومَن أصدقُ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ حديثًا.

و﴿وَمَنۡ﴾ استفهاميَّةٌ، والاستفهامُ إنكاريٌّ بِمَعْنَى النّفي، ومعناه تقريرُ الخبرِ علَى مَعْنَى الإنكارِ[3]، واستيعابُ النّفي لكلِّ أنواعِ الحديثِ؛ لِدِلالةِ ﴿حَدِيثٗا﴾ على العموم؛ إذْ إنَّ ﴿حَدِيثٗا﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفي، والمَعْنَى: لا أحَدَ أصدقُ مِنَ اللّهِ تعالى في كلِّ أنواعِ الحديثِ؛ لِيشملَ هذا الأسلوبُ نفيَ الأصدقِ مِنَ اللّهِ حديثًا، والمساوي لِصدقِه تعَالى، ولو وردَ النَّظْمُ: (لا أصدقَ مِنَ اللّهِ في حَديثِه)؛ لَاقْتَضَى نَفْيَ الْأَصْدَقِ فَحسبُ[4].

نُكْتَةُ وَضعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾:

ذُكِرَ الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قَولِه: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/7، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2507.

(2) مسلم (2278).

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/167.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/433.

التّصريح بالإسمِ الأَحْسَنِ (الله) مُشْعِرٌ بِالْهَيْبَةِ مُؤَكِّدٌ الصِّدْقَ

﴿حَدِيثًا﴾، وكان مقتضَى الظَّاهر الإضمارَ، فيأتي النَّظْمُ القرآنيُّ: (ومَنْ أصدقُ منهُ حَديثًا)؛ ليكون على نَسَقِ الضَّمير في قولِه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ العائدِ علَى (الله) في قولِه قبلُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، ونُكْتَةُ الإظهَارِ كونُ الألوهيَّةِ دالَّةً على علَّةِ الحكم بأصدقيَّةِ حديثِ اللّهِ تعالى، والمعنى: لأنّه حَديثُ اللّهِ تعالَى؛ فلا أَحَدَ أصدقُ منْه حَديثًا؛ "لأنَّ دخولَ الكذبِ في حديثِ البشرِ إنَّما عِلَّته الخوفُ والرَّجاءُ أو سوءُ السّجيَّةِ، وهذهِ منفيَّةٌ في حقِّ اللّهِ تعالى"[1]؛ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ غَنيٌّ عنِ العالَمينَ، فأُقيم الاسمُ الظَّاهرُ ﴿ٱللَّهِ﴾ مقامَ الضَّميرِ؛ للإيذانِ بأنّ مقتضى الألوهيةِ عدمُ جوازِ الكذبِ من اللّهِ تعالى؛ فإنَّكُمْ تَقبَلُونَ حَديثَ بَعضِكُم مِنْ بَعضٍ مَعَ احتِمَالِ صِدقِهِ وكَذِبِهِ، فَأَن تَقبَلُوا حَدِيثَ مَن يَستَحِيلُ عَلَيهِ الكَذِبُ في كُلِّ مَا أَخبَرَكُمْ بِهِ مِن طَرِيقِ الأَولَى[2].

دِلَالَةُ اسْمِ التَّفْضِيلِ ﴿أَصْدَقُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾:

كَمَالُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِمَا يَحْتَاجُهُ الْمُخَاطَبُونَ وَبِمَا يَنْفَعُهُمْ فِي حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ

اسمُ التَّفضيلِ ﴿أَصْدَقُ﴾ من قولِ اللّه سُبحانهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ يجُوزُ أَنْ يَكُونَ على بابِهِ في المفاضَلَةِ في أصلِ صِدْقِ الكلامِ، وفي ذلكَ تَوْجِيهَانِ:

أَحَدُهُما: أنَّ مَنْ كانَ كلامُه على قدرِ حاجةِ المُخاطَبِ، وبما ينفعُه في حالِه ومآلِه: أَصدقُ لِلْمُخَاطبِ ممّن لا يُرَاعِي هذهِ الحالَ؛ لمطابقةِ كلامِهِ أحوالَ الْمُخاطَبِينَ، وكونِهِ موافقًا لِلاعْتِبَارِ المُنَاسبِ لَهم، وليسَ مِنْ كلامٍ أصدقَ مِنْ كلامِ اللّهِ تعالَى في هذهِ الحالِ؛ لِعِلْمِه سُبحانَهُ بِمَا يحتاجُه المخاطبونَ، وما ينفعُهُم في حالِهم ومآلِهم.

والآخَرُ: أنَّ الصِّدقَ مِنْ صفةِ القائلِ لا مِنْ صِفَةِ القولِ، والقائلُونَ

---

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/88.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/7.

إذا اعتبَرُوا بِأَقْوَالِهم، فمِنْهُم مَنْ يكونُ صدقُه في أحاديثِه أكثرَ، فكأنَّه قيلَ: إذا اعتبرَ الصَّادقون في أقوالِهم، فليسَ فيهم أكثرُ صِدقًا منَ اللّهِ تعالَى؛ فإنَّه لا يقعُ في خبرِه كَذِبٌ بوجهٍ[1].

ويحتملُ أفعلُ التَّفضيلِ هنا أنْ لا يكونَ للمفاضلةِ ولِلتَّمييزِ بينَ كلامِ صادقٍ وكلامِ أصدقَ، فإنّ ما كان صِدْقًا مِنَ الحديثِ لا يَتضاربُ؛ فيكونَ مِنْ بعضِ قائليه أكثرَ صِدْقًا مِنْ قائلٍ آخرَ، ولكنْ لِنعرفَ أنَّ كلامَ اللّهِ لنا كثيرٌ، فالتَّكثيرُ هنا إنَّما يَجيءُ مِنْ جهةِ كثرةِ الكلامِ، لا مِنْ جهةِ أنَّ هناك كلامًا صادقًا وكلامًا أصدقَ[2].

وهذِه الوجوهُ غيرُ متعارضَةٍ ولا متضاربَةٍ، بلْ كُلّها صَحيحَةٌ اجْتِمَاعًا وانْفِرَادًا، وهي مِنْ وجوهِ الإعجازِ البيانيِّ في القرآنِ الكريم.

دِلَالَةُ بِنَاءِ الْجُمْلَةِ عَلَى التَّمْيِيزِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾:

تَمكِينُ القُرآنِ الكَرِيمِ لِمُهِمَّاتِ المَعَانِي فِي نُفُوسِ المُخَاطَبِينَ

جاءَ قولُ اللّهِ تعَالَى: ﴿حَدِيثٗا﴾ تَمييزًا لِلنِّسبَةِ المفهومَةِ مِنْ قولِه: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، فهو تفسيرٌ للإبهامِ المضمّنِ فيه، فلو لم يُذكَرْ؛ لَاحتملَ الكلامُ أنْ يكونَ بمعنى: ومَنْ أصدقُ مِنَ اللّهِ فِعلًا أو حَديثًا أو غيرِهما، فقُصِدَ الإبهامُ أوّلًا، ثُمَّ جيءَ بالتَّمييزِ إيضاحًا لذلك الإبهامِ؛ لِغرضِ الإبرازِ في صُورَتَيْنِ: مُبْهَمَةٍ ومُفَصَّلَةٍ؛ لِيَتَمَكّنَ الْكَلَامُ في النَّفسِ فَضْلَ تمكّنٍ، ولِتكمُلَ لذّةُ العلمِ به[3]، ولِاستدرارِ ذهنِ المخاطَبِ لِتلقّي الكلامِ بتمامِه لتشوّقِه إلى تَفْسِيرِ الْإِبْهَامِ.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾:

مِنْ تَذْيِيلَاتِ القُرْآنِ الكَرِيمِ مَا يَجْرِي مَجْرَى الأَمْثَالِ

جاءَ قولُه تعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ على طَريقةِ الإطْنَابِ بالتَّذييل، عَقِبَ إخبارِ اللّهِ تعالى بتوحيدِه، وأنَّهُ يجمعُ النَّاسَ إلى يومِ الْقِيَامةِ؛ لِتكونَ جملةُ التَّذييلِ تأكيدًا لمنطوقِ ما أَخبرَ اللّهُ به

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1373.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2509.
(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/605، 610.

في هذهِ الآيةِ، فيزدادُ المعنى انشراحًا واتّضاحًا، وورَدَ الاسْمُ الأحسَنُ ﴿ٱللَّهِ﴾ ظَاهرًا غيرَ مضمَرٍ؛ ليُشعِرَ بعليّةِ الحكم - كما تقدّمَ - ، ولِتَخْرُجَ جملةُ التَّذييلِ مخرجَ المَثَلِ المستقلِّ بنفسه، فيُمْكِنُ اقتطاعُها، والتحدُّثُ بها؛ فتكون كالمثَلِ يَجْرِي بينَ النَّاسِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الأَلْفَاظِ القُرْآنِيَّةِ المُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

جاء في هذهِ الآيةِ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾، وجاءَ في موضعٍ آخرَ مِنَ السُّورةِ نفسِها قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النّساء: 122]، ونكتةُ المغايَرةِ بينَهُمَا أنّ الآيةَ الأولى سُبقَتْ بقولِه ﷻ: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾، ففيها إخبارٌ عن توحيدِ اللّهِ تعالَى، وحديثٌ عنِ البعثِ بعدَ الموتِ وجَمْعِ الخلقِ لِحسابِهم ومُجَازاتِهم على الخيرِ والشَّرِّ، فهو إخبارٌ، والحديثُ يَرِدُ بمعنَى الإخبارِ؛ فكان الأنسب التَّعبير بالحديث في فاصلَةِ الآيةِ، بخلافِ الموضعِ الآخرَ، فقد سُبِقَ بقولِه جلَّ وعلا: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [النساء: 57]، فَفي الآيةِ ذكْرُ مَا وعدَ اللّه تعالَى بهِ المؤمنين مِنَ النَّعيمِ وعظيمِ الإحسانِ. والقيلُ هُنَا: بِمَعْنَى القولِ، وهو مناسِبٌ لِمَعْنَى الوعدِ؛ إذِ الوعدُ يَكُونُ بالقولِ لا بِالْخبَرِ، وزادَهُ مناسبةً ما ذَكَرَهُ ابنُ الزُّبيرِ الغرناطيُّ في مناسبةِ ﴿قِيلٗا ١٢٢﴾ [النساء: 122]؛ إذْ قال: (فجِيءَ بلفظٍ يوازِنُ المصدرَ عَن قبلِه، وهُمَا ﴿وَعۡدَ﴾ [النساء: 122] و﴿حَقّٗاۚ﴾ [النساء: 122][1]، ويشابِهُهُما في الخفَّةِ، فسكونُ عينِ الكلمةِ، وعددُ حروفِها كالمصدرين قبلَها، وكأنَّه إنَّما أُريدَ تكرارُ المصدرِ بلفظِه فاستُثْقِلَ التَّكرارُ لِلتَّقارُبِ، وعادةُ العربِ في ذلك، فعدَلَ إلى ما يُجاريه، ويُحرزُ المعنى، ولِتَجْرِيَ المصادرُ الثَّلاثةُ مَجْرَىً واحدًا خِفَّةً ووزنًا إحرازًا لِلتَّناسُبِ والتَّلاؤُمِ)[2].

---

(1) في المَطْبُوع: (وعدًا وحقًّا)، والأصحُّ ما أُثبتَ ههنا، لأنَّ الكلام عن قولِه سُبحانه: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾، ولا وجهَ لنصب: (وعدًا) منوَّنةً.

(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/108.

﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨﴾ [النساء: 88]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جاءَ قولُ اللّه تعالى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ تَفريعًا عَن أَخبَارِ المُنَافِقِينَ الَّتِي تَقَدَّمَت؛ لأَنَّ مَا وُصِفَ مِن أَحوَالِهِمْ لَا يَترُكُ شَكًّا عِندَ المُؤمِنينَ في خُبث طَويَّتِهِم وَكُفرِهِم، ويجُوزُ أن يكونَ تَفريعًا عَن قَولِهِ سُبحانَهُ قبلُ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾، وإذْ قد حَدَّثَ اللّٰه عَنْهُمْ بِمَا وَصَفَ مِن سَابِقِ الآيِ، فَلَا يَحِقُّ التَّرَدُّدُ في سُوءِ نَوايَاهُمْ وَكُفرِهِم[1].

❁ المَعْنَى الإجْماليُّ:

ما لَكُم تفرَّقتُم في أَمرِ المنافقينَ فِرْقَتين: فرقةً تقولُ بقتالِهم، وأُخرَى لا تقولُ بذلك، فإنَّهُ لا يَنْبَغِي التَّردُّدُ في كُفْرِهم، مع أنَّ الأدلَّةَ ظاهرةٌ جليَّةٌ، فيجبُ أنْ تَقْطَعُوا بكفرِهم، وأخبرَ سبحانَه عنْ حكمِه وقضائِه فيهم وعدلِه، وأنَّ وقوعَهم في الضَّلالِ كان بسببِ كسبِهم وأعمالِهم، فلا تختلفوا في أمرِهم بعدَ هذا البيانِ، أتُرِيدُونَ أنْ تُرشِدوا مَنْ أَضلَّهُ اللّه تعالَى، وتجعلوه مِنَ المُهْتَدِينَ؟، ومَن يُضلِلِ اللّه سُبحانَهُ عنِ الهُدَى، فلنْ تَجِدَ لَهُ طريقًا إلى الحقِّ والهُدَى، ولا سبيلَ إلى إِصْلَاحِه ورَشَادِه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِئَتَيۡنِ﴾: مثنّى فِئَة، وجِذْرُ الكلمةِ: الفاءُ والهمزةُ والحرفُ المعتلُّ، وهذا الأصلُ دالٌّ على فَجْوةٍ أو شَقٍّ وفراغٍ في شيءٍ غليظٍ صُلبٍ يَفصِلُه شَطْرَين أو كُتْلتين، وتطلَقُ الفِئَةُ على الفِرقَةِ والجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ ومِنَ الجيشِ، ولم تأتِ في القرآنِ إلَّا بِهذا المَعْنَى، وجمعُ فِئَةٍ: فِئَاتٌ وفِئُونٌ[3].

---

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 5/148.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (فأي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فأي)

2) ﴿أَرْكَسَهُم﴾: منَ الرَّكْسِ؛ وهو رَدُّ الشَّيءِ بقلبِه عَلَى رَأْسِهِ إن كَانَ لَهُ رَأْسٌ، وَرَدُّ أَوَّلِهِ عَلَى آخِرِهِ مَقلُوبًا مُتَحَوِّلًا عَن حَالَةٍ إِلَى أَرداً منهَا، وأصلُ الرِّكسِ: تَحَوُّلُ الطَّعَامِ والعَلَفِ إِلَى الرَّجِيعِ وَالرَّوْثِ، والمُرَادُ به في الآيةِ: التَحَوُّلُ والانقلابُ المَعنويُّ إِلَى الغدرِ والقِتَالِ؛ أي: مِنْ إظهَارِ الوَلَاءِ والتَّحَيُّزِ إلى المُسلِمينَ إلى إظهَارِ التَّحَيُّزِ إِلَى المُشرِكِينَ، أو مِنَ الإيمانِ إِلَى الشِّركِ، وهو شَرُّ التَّحَوُّلِ والارتِدَادِ المَعنَوِيِّ[1].

3) ﴿تَجِدَ﴾: من وَجَدَ، الواوُ والجيمُ والدَّالُ تدورُ تصاريفُهَا على تحصُّلِ شيءٍ ذي بالٍ في حَوْزةٍ كانت خاليةً منه، كالمالِ، والضَّالةِ، ومِنْ صُوَرِه: العثورُ على الشَّيءِ في الحوزةِ دُونَ معرفةٍ مُسْبَقَةٍ بذلك، ويُقال في فعلِه: وَجَدَ وِجْدانًا، بمعنَى: حصّلَه وأَلْفَاهُ، وبمَعْنَى: ظَفَرَ به[2].

4) ﴿سَبِيلًا﴾: السِّينُ والباءُ واللَّامُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على امتدادٍ إلى أسفلَ مَعَ اتِّصالٍ، ومنهُ إسبالُ الإزَارِ، وهو إرْخَاؤُهُ، وأسبلَ ثيابَه: طوَّلَها وأرسلَها إلى الأرضِ، والسَّبيلُ هو الطَّريقُ الموصِلُ، سواءٌ أكانَ سهلًا أم صَعبًا، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهو بهذا المعنى في كلِّ القرآنِ، وإنَّما يختلفُ المرادُ به بِحسبِ السِّياقِ، فيأتي بمعنى الطَّريقِ المادّي، وبمعنى الطَّريقِ المعنويِّ الموصلِ إلى الهدايةِ مجازًا، كمَا في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾:

مَنْ عَرَفَ حَالَ المُنَافِقِينَ لَا يَنْبَغِي لَهُ التَّرَدُّدُ فِي شَأْنِهِم

الفاءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ استئنَافيَّةٌ[4]، وتُشعِرُ بمعنى التَّفريعِ وَالسَّببيَّةِ، فهِيَ دالَّةٌ عَلَى تفريعِ الاستِفهَامِ الإنكَارِيِّ فِيهَا على مَا قبلَه، والمعنى: إذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ عرّفكم حالَ المنافقين وأَمَرَكُم بِالقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ، وأنَّهُ سيجمعُكُم يومَ القيامةِ لا ريبَ فيهِ، فَمَا لَكُم تَتَرَدَّدُونَ في أَمرِ المُنَافِقِينَ، وَتَنقَسِمُونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركس)، ورضا، تفسير المنار: 5/262.
(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وجد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سَبَل).
(4) الدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/283.

فِيهم إلَى فِئَتَين، وكلُّ ما تقدّم أسبابٌ تفيدُ التَّعجُّبَ من حالِ انقسامِ المؤمنينَ في أمرِ المنافقينَ الّذين لا ينبغي الانقسامُ فِيهِمْ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾:

التَّعْجِيبُ مِنْ حَالِ انْقِسَامِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِ الْمُنَافِقِينَ

الاستفهامُ في قولِه تعالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ ليس استفهامًا حقيقيًّا؛ إذْ حقيقةُ الاستفهام: طلبُ العِلْم بشيء لم يَكُن مَعْلُومًا من قَبْلُ، واللّه سُبحانَهُ لا تخْفَى عليه خافيةٌ، فدلَّ ذلك علَى أنَّه استفهامٌ مجازيٌّ؛ ومعنَاهُ: الْإِنْكَارُ التّوبِيخِيّ، والخطابُ عامٌّ لجميعِ المؤمنينَ، ولكن التَّوبيخَ فيه متوجِّهٌ إلى جماعةٍ مِنْهم؛ وهم الّذين يتردَّدُونَ في حالِ المنافِقِينَ، وفيه تَعجيبٌ من حَالِهم، ولَوْمُهُم على تردُّدِهِمْ في شأنِهم[1]، والمَعْنَى: ما شأْنُكم انقسمتُم فِرْقَتَين فيما هو ظاهرٌ مِنْ حالِ المنافقينَ؟ فهذا التَّركيبُ (مَا لَكَ) أو (مَا لَكُم) إذَا سيقَ مساقَ الإنكار يَكُونُ لِتوبيخِ مَنْ يأتي فِعلًا مخالفًا، وهو مِنَ الوضوحِ والظُّهورِ ممّا ينبغي أنْ لا يُفعلَ، فَلِظهورِ الأمرِ تضمّنَ معنى التَّعجيبِ واللَّوم.

نُكْتَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾:

زِيَادَةُ التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَرَدِّدِينَ فِي شَأْنِ أَهْلِ النِّفَاقِ

في قولِ اللّه تعالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ حذفٌ، تقديرُهُ: فما لَكُمْ في أمرِ المُنَافِقينَ فِرقتين، أو في شَأنِ المُنَافِقين[2]، والجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ متعلّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: تَفْتَرِقُون، وفي هذا الحَذْفِ: إيجازٌ واختصارٌ؛ لِيَتَوجَّه اللّومُ لِلْوَصْفِ، وهو النّفاقُ، فالخلافُ في أمرِهم وشأنِهم وليسَ في ذَوَاتِهم، لكنْ حُذِفَ المضافُ لِلتَّنبيهِ على أنَّ تفرُّقَهُم كانَ في المَوْصُوفِينَ بالنِّفاقِ؛ تعجيبًا مِنْ حالِ المؤمنينَ الّذين كانوا يتردَّدُونَ في نِفَاقِهم وكُفْرِهم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/546، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/186، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

سِرُّ إيثَارِ التّعْبِيرِ بِـ ﴿فِئَتَيۡنِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾:

التَّفَرُّقُ فِي شَأْنِ المُنَافِقِينَ مَذْمُومٌ؛ إِذِ النِّفَاقُ رَافِعٌ لِلْخِلَافِ فِي الْحُكْمِ عَنْ أَهْلِهِ

دلّتْ كلمةُ ﴿فِئَتَيۡنِ﴾ من قولِه تعالى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ على أنَّ المؤمنينَ تفرَّقوا فِرقَتَيْن في شأنِ المنافقين، فِرقَة مِنهُم كَانَت تَذُبُّ عَنهُمْ تحرّزًا مِنْ أنْ يحكمُوا عليهم بالكفرِ؛ لِمَا رأوا في الظَّاهِرِ من تمسّكهم بِالشَّهَادَتَين، وفِرقَة منهُم تُبَايِنُهُمْ وَتُعَادِيهِم لِما عَرَفُوا من حَقيقَتِهم، ومَا ظَهَرَتْ لهُمْ مِنْ أدلَّةِ كُفرِهم ونِفَاقِهِمْ[1]، فَنُهُوا عَن ذَلِكَ وَأُمِرُوا بِأَن يَكُونُوا عَلَى نَهجٍ وَاحِدٍ في التَّبَايُنِ والتَّبرِّي والتَّكفِيرِ، (ومعنَى الافتراقِ مستفادٌ من فِئَتَيْن)[2].

ولم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما لَكُمْ تفرّقتُمْ فِئَتَين)؛ تَحَاشِيًا عَن وَصْفِ المؤمنين بالتفرّقِ ظاهرًا؛ فالتفرّقُ مذمومٌ، ولا سيّما أنَّ الخطابَ موجَّهٌ لِلْمُؤْمِنين.

بَلَاغَةُ الاِسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾:

تَصْوِيرُ حَالِ المُنَافِقِينَ بِأَقْبَحِ الصُّوَرِ وَأَشْنَعِهَا إِيمَاءً إِلَى تَعَذُّرِ رُجُوعِهِمْ عَنِ النِّفَاقِ

لَمّا كانَ أصلُ الرِّكسِ: الطَّعامَ المتحوّلَ إلى الرَّجيعِ والرَّوْث، وهو حالٌ خَسيسةٌ، متمثّلةٌ في النَّجَاسَةِ، فكان في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ تشبيهُ حالِ ردِّهم إلى الْكُفْرِ أو تَصْيِيرهم إلى النَّار بعدَ أنْ كان مصيرُهم إلى الجنَّةِ باعتبارِ حَالِهِمُ الأصليَّة[3] بِتَحوّلِ الطَّعامِ إلى الرَّجيعِ؛ فيكونُ مِنْ تصويرِ المعقولِ - وهو التحوُّلُ مِنَ الإيمانِ إلى الكُفرِ - في صورةِ المحسوسِ الّذي هو تحوّلُ الطَّعامِ الطَّيِّبِ إلى الرَّجيعِ؛ فهو استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ، ونُكْتَتُهَا: الإشارةُ إلى تأكيدِ ظهورِ تحوّلِهم الشَّنيعِ، وفيها: زيادةُ تقبيحِ حالِهم، وبيانُ شِدَّةِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفرِ والباطلِ وعَدَاوَةِ المُسلِمِينَ، وأنَّهُ يبعُدُ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/169.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/173، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/254.

رجوعُهُمْ بعد هذه الحالِ إلى الحقِّ؛ إذْ مَن وَقَعَ في شَيءٍ مَنْكُوسًا يَتَعَذَّرُ خُرُوجُهُ مِنْهُ عادةً.

دِلَالَةُ الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾:

مَنْ يَرُدُّهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْكُفْرِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَلَفَ فِي كُفْرِهِ

الجُمْلَةُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ في مَوضِعِ الحَالِ مِنَ الْمُنَافِقِين، فقَدْ أَنْكَرَ اللّه تَعَالَى عَلَى الْمُؤمنين اختِلَافَهُمْ في هَؤلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، والحَالُ أَنَّ اللّه تَعالَى قَدْ رَدَّهُمْ في الكُفرِ، فتفرّقُ الْمُؤمنين في أمرِهم مُقْتَرِنٌ بإرْكَاسِ اللّهِ تعالَى لَهم، فيكونُ أمرُ الْمُنَافقينَ ظاهرًا، ومَنْ يَرُدُّهُ اللّه إلَى الكُفرِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُختَلَفُ في كُفرِه، فأفادت الجملةُ الحاليَّةُ تأكيدَ الإنكارِ الْمَصْحُوبِ بالتَّعجيبِ واللَّومِ[1].

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي ﴿بِمَا﴾ وَنُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْكَسْبِ دُونَ الِاكْتِسَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾:

خُبْثُ أَهْلِ النِّفَاقِ وَمَيْلُهُمْ إِلَى الِانْحِرَافِ

الباءُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ سَبَبِيَّةٌ[2]، والمعنى: واللّهُ تعالَى أركسَهم وأهلَكهم بسببِ ما كسَبوا، وعُبِّرَ بـ ﴿كَسَبُوٓاْ﴾ دُون (اكْتَسبوا)؛ لِلإشارة إلى أنَّ ارتدادَهم ولُحُوقَهُم بالْمُشْرِكِينَ كان سَهلًا عليهم مِنْ دونِ جُهدٍ يَبذلونَهُ، فَفيهِ إيماءٌ إلى خُبْثِ طَبْعِهِمْ وَمَيْلِهم إلى الانْحِرَاف.

وحُذِفَ عائِدُ (مَا)، والتَّقدير: بِمَا كَسَبُوه؛ لِيفيدَ أَنَّ إرْكَاسَهم لِعموم ما كَسَبُوا؛ لِئَلّا يَخْتَصَّ بِكَسْبٍ خاصٍّ حَدَثَ في وَاقعةٍ معيَّنةٍ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى خَبَرِهِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ وَتَبْشِيعِ حَالِهِمْ

في قولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ تكرارٌ للإسناد؛ لإفادةِ تأكيدِ حكمِ نسبةِ مضمونِ الجملةِ، ووجهُ تكرارِ النِّسبةِ أَنَّ الفعلَ ﴿أَرْكَسَهُم﴾ أُسنِدَ إلى الاسمِ الظَّاهرِ ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ إذْ هُوَ خبرٌ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.

لِلْمبتدأ، ثُمَّ أُسندَ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّهِ تعالَى في ﴿أَرۡكَسَهُم﴾؛ فكانَ في هذا التَّركيبِ إسنادُ الفعلِ إلى الاسم الأحسنِ (اللّه) مرّتَيْن: مرَّةً إلى صريحِ الاسم، وأخرَى إلى ضميرِه، كما قرّرهُ علماءُ البلاغةِ في تَقْوِيَةِ الإسنادِ[1]، وزادَ الْجُملةَ قُوَّةً مَجيئُها اسميّةً؛ لتدلَّ على الثّبوتِ - كما هو الأصلُ فيهَا - ، ولتدُلَّ على اللُّزوم والدَّوام بقرينَةِ الذَّمِّ؛ مبالغةً في ذَمِّ الْمُنَافِقِين وتَبْشِيعًا لِحَالِهِم، فتكونُ الجملةُ مؤكِّدةً لِمعنى الإركاسِ مقرّرَةً له، وفِيهَا دِلالةٌ علَى أنَّ الإركاسَ إلى الْكُفْرِ بأمرِ اللّهِ تعالَى وحدَه، فاللّه هُوَ الذِي أركسَهم في الكفرِ بِسَبَبِ مَا كَسَبُوهُ.

بَلَاغَةُ التّجْرِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

هِدَايَةُ مَنْ أَضَلَّهُ اللّهُ تَعَالَى مُحَالٌ

في قوله سُبحَانَه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ تجريدٌ لِلْخِطَابِ بعدَ أنْ خاطَبَ جميعَ المؤمنينَ في قولِه ﴿۞فَمَا لَكُمۡ﴾، فَخُصِّصَ هُنَا بالقَائِلِينَ بإِيمَانِهم، وفي هذَا التَّجريدِ: المبالغةُ في توبيخِهم ولَومِهم على زعمِهم ذلك، وإشعارٌ بأنَّهُ يؤدِي إلى محاولةِ المُحالِ، وهُوَ هدايةُ مَنْ أضلَّهُ اللّه تعالى[2].

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْإِيمَانِ أَنْ تَكُونَ إِرَادَتُهُمْ عَلَى خِلَافِ مُرَادِ اللهِ تَعَالَى.

الهمزةُ في قولِه تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ استفهاميَّةٌ، وهذا الاستِفهامُ مجازيٌّ على مَعْنَى الإنكارِ التّوبيخِيِّ المُتَضمّنِ الإبعادَ والتَّيْئِيسَ مِمَّا أرادَه بعضُ المؤمنينَ، وهو إنكارٌ على الحُكْمِ بإيمانِهم، ولِيَقْضِيَ بِفَظَاعةِ هذا الحكم؛ كَنَّى بِهِ عن إرادةِ المُحالِ، فكأنّه قال: مَنْ أَرَادَ اللّهُ تعالَى ضَلالَهُ، لَا يُرِيدُ أَحَدٌ هِدَايَتَهُ؛ لِئَلَّا تَقَعَ إِرَادَتُهُ مخالفةً لإرادةِ اللّهِ تَعَالَى، ومَنْ قَضَى اللّهُ عَلَيهِ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/223.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.

بِالضَّلَالِ لَا يُمكِنُ إِرشَادُهُ[1]، وفيه تَلَطُّفٌ بِالْمُخَاطَبِين، والمعنَى: مَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَن تُرِيدُوا الْمُحَالَ.

بَرَاعَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

استِحَالَةُ هِدَايَةِ مَـنْ كَـتَـبَ اللهُ تَـعَـالَى عَلَـيْـهِ الضَّلَالَ.

في قَوْلِه تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ كنايةٌ؛ وذلك أنَّهُ جُعِلَ الحُكْمُ بإيمانِ المنافِقين وادِّعاءِ اهتدائِهم - وهُم بِمَعْزِلٍ عَن ذَلِكَ - بِمَنْزِلَةِ السَّعيِ في هِدَايتِهم والْإِرَادةِ لَها، فكُنِّيَ عَنِ الْحُكْم بإِيمَانِهم وَهُمْ في حَالِ الْإِرْكَاسِ بذِكْرِ الْمُحالِ؛ وهُوَ إرادةُ هِدَايةِ مَنْ أضلَّهُ اللّه تعالَى، وفيه أيضًا تأكيدٌ بأنّ أولئك الْمُنَافِقين سَيَمُوتُون علَى الْكُفْرِ.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

مَـنْ لَا يَـتَّـبِـعُ طَـرِيـقَ الْـحَـقِّ؛ هُوَ مُتَّبِعٌ طَرِيقَ الْبَاطِلِ.

في قولِ اللّه تعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ طباقٌ بينَ الهدايةِ والضَّلالِ، ونُكتَتُهُ: حَصرُ الأمرِ بينَ هذينِ الطَّريقَين، فالذي لا يتَّبعُ طريقَ الهدايةِ؛ ليسَ له إلَّا طريقُ الضَّلالِ.

وفي إسناد الهدايةِ لِلضَّمير الرَّاجِعِ إِلَى الفِئَةِ الْمُؤمنةِ القائلةِ بإيمَانِ الْمُنَافِقين، وإسنَادِ الإضلَالِ إِلَى اللّهِ تعالى: تأكيدٌ على اسْتِحَالةِ إيمَانِهم؛ إذْ لَا تُعارِضُ إرادةَ اللّهِ سُبحانَهُ إرادةُ بَشَرٍ، ويؤيّدُه توجيهُ الإنكارِ لِلْإرادَةِ، فلم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أتَهْدُونَ مَنْ أضلَّ اللّه)، بل توجَّهَ الإنكارُ إلى الْإِرَادَةِ لَا إِلَى مُتعلَّقها، وهُوَ الهِدَايَة؛ لِلْمُبَالغةِ في الإنكارِ، بِبَيَانِ أنَّه ممَّا لا يُمْكِنُ إرادتُه أَصلًا، فضلًا عَن إِمْكَانه في نَفْسِه[2].

دِلَالَةُ إِيرَادِ الْمَفْعُولِ ﴿مَنْ﴾ اسْمًا مَوْصُولًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

لَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أَتُرِيدُونَ أَنْ تهدوهُم)؛ لِيَعُودَ الضَّميرُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/8.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.

إلى الْمُنَافِقِينَ المذكورينَ قبلُ، كَمَا يَقْتضِيه ظاهِرُ الكلام، بَل جِيءَ بالاسْمِ الْمَوْصُولِ؛ لِتُبْنَى عليه جُملةُ صلةٍ تتضمّنُ تعليلَ الإنكارِ التّوبيخيِّ على بَعْضِ الْمُؤْمِنِين الذينَ قالُوا بِإيمَانِ الْمُنَافِقِين، فقال سُبحانَهُ: ﴿مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾؛ لتشديدِ الإنكارِ وتأكيدِ استحالةِ الهدايةِ بما هو مذكورٌ في حيِّزِ الصِّلةِ(1).

تَأْكِيدُ اسْتِحَالَةِ هِدَايَةِ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ تَعَالَى

بَرَاعَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾:

في قول اللهِ تعالَى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ خُروجٌ من خِطَابِ الجَمَاعَةِ إلى خِطابِ الْمُفْرَدِ؛ ليكونَ إمَّا خطابًا إلى الرَّسُولِ ﷺ، ففيه تَنْبيهٌ لِلمُختلِفينَ في شأنِ الْمُنَافِقِينَ؛ بِأنَّهُ إذا لَم يَكُنْ لِلرّسُولِ ﷺ أَنْ يجدَ سبيلًا لِمَنْ يُضِلُّه اللهُ تعالَى، فَأَحْرَى أَنْ لَا يَكُونَ ذَلِكَ لجَمِيعِ الْمُؤْمِنِين(2)، وإمّا خطابًا موجّهًا إلى كلِّ واحدٍ مِنَ المخاطَبين، فيكون ضميرُ الخطَابِ خارجًا عن أصلِه في الدِّلالةَ على معيَّنٍ؛ قصدًا لإفادةِ العموم، فيكونُ فيه إشعارٌ بشُمولِ عدمِ الوجدَانِ لكلِّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى طَرِيقِ التَّفْصِيلِ وَاحدًا واحدًا(3).

تَحْصِيلُ طَرِيقِ الْهِدَايَةِ ظَفَرٌ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ

وعُبِّرَ بِنَفْيِ الوجدانِ دونَ غيرِه؛ لإفادةِ نفيِ تَحْصِيلِ سبيلِ الهدايةِ بأيِّ طريقٍ كانَ، وليدلَّ على أنّ وجدانَ طريقِ الهدايةِ ظفَرٌ بأمرٍ ذي شأنٍ، وجاءَ النَّفيُ بصيغةِ ﴿فَلَن﴾؛ ليفيدَ تأكيدَ النَّفي وتقْريرَه.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿سَبِيلٗا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿سَبِيلٗا﴾ في قوله تعالَى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾؛ ليكون دالًّا على العُمُومِ؛ إذِ النَّكرةُ سُبقَتْ بنفيٍ، والمعنَى: مَنْ تَركَ سَبيلَ الهدايةِ والرّشادِ؛ كَانَ من سُنَّةِ اللهِ تعالَى أَن يَكُونَ ضالًّا طولَ حَيَاتِه؛ إذ لَا تَجِدُ لَهُ سَبِيلًا أُخرَى يَسلُكُهَا فَيَهتَدِيَ بها إلَى الحَقِّ(4).

مَنْ أَعْرَضَ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَى؛ بَقِيَ فِي عَمَايَاتِ الضَّلَالَةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/8.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213.
(4) رضا، تفسير المنار: 5/264.

نُكْتَةُ وَضعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّـهُ﴾:

تَرْبِيَةُ الْمَهَابَةِ بِالتَّصْرِيحِ بِذِكْرِ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله)

قالَ اللّه تعَالَى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ بإظهارِ الاسم الأحسنِ، وكان مقتضَى الظَّاهرِ إضمارَهُ؛ لتقدُّمِ ذِكْرِهِ قريبًا في قولِه تعالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾، فلم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَمَن يُضلّه فلَنْ تَجِدَ لهُ سبيلًا)، وجيءَ بِالِاسْمِ الظَّاهرِ ﴿ٱللَّهُ﴾ لِزيادَة الإيضاحِ والتّقرير في ذِهْنِ المخاطَب في أَنَّ الهداية والضّلالَ بيَدِ اللّهِ سُبحانَهُ، كما أنّ في ذِكْرِ الاسم الأحسَنِ (اللّهِ) تعظيمًا لَهُ سُبحانَهُ وتخويفًا منه[1]، وفي الإظهَارِ تَمْهيدٌ لجريَانِ الجملةِ مجرَى المثَلِ، بخلاف ما لو أُضْمِرَ بأن يُقال: (وَمَنْ يُضلّه)؛ فلا يصحُّ إجراؤُهُ هذا المُجرَى.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّـهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾:

جَرَيَانُ كَثِيرٍ مِنْ جُمَلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَجْرَى الْأَمْثَالِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِما تقدّمه مِنَ الإنْكار في قَوْلِه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾، ومؤكِّدٌ لاستحالةِ هدايةِ مَن أضلَّه اللّه سُبحانَهُ[2]، وهو تذييلٌ جارٍ مَجْرَى المَثَلِ؛ لعدمِ افتقارِهِ إلَى ما قبلَهُ في الكشْفِ عَنْ أَصْلِ مَعْنَاهُ، فكان التَّذييلُ قاعدةً عامّةً سائرةً مسيرَ الأمثَالِ.

وفي الختمِ بهَذَا التّذييلِ تعليلٌ وتأكيدٌ لِلْإِنْكار التّوبيخيِّ المذكُورِ في صَدْرِ الآيَةِ ﴿۞فَمَا لَكُمۡ﴾، فيَكونُ ختمُ الآيةِ تأكيدًا وتعليلًا لمطلَعِها.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ وَنَظَائِرِهَا:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الْمُلَائِمَةِ لِسِيَاقَاتِهَا.

ورَدَ قولُ اللّه سُبحانه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ في مواضعَ؛ منها في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾، وقَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ [الرّعد: 33]، وقَوْلِه ﷻ: ﴿وَمَن

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 177.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213.

﴿يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى: 44]، وَقَوْلِه ﷻ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾ [الشورى: 46]، ووجهُ التَّغايُرِ بينهَا أنَّ آيةَ النِّساءِ تقدَّمَهَا قولُه تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، فلمَّا أنكرَ اللهُ سبحانه على هؤلاء عدمَ قتالِ المنافقِينَ كي يجدوا سبيلًا إلى هدايتهم؛ ناسبَهُ قولُهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ مراعاةً لذلك المعنى، ولتحقيقِ التَّناسبِ الصَّوتي بفاصلةٍ لاميَّةٍ.

بخلاف آيةِ سورة الرَّعدِ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ [الرَّعد: 33]؛ فقد تقدَّمها قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الرَّعد: 33]، فلمَّا كان مَن صُدَّ عن السَّبيلِ قد يجدُ من يهديهِ إليه؛ ناسبَهُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ مراعاةً لذلك، وتحقيقًا لتناسُبِ الفواصلِ الدَّاليَّةِ.

وأمَّا قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى: 44]، فسبقَهَا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى: 43]، فلمَّا دلَّ ذلك على ولاية اللّهِ سُبحانه لمن هدَى بإرشادهم إلى عزائم الأمور؛ ناسبَهُ أن تُنْفَى ولايتُهُ عمَّن أضلَّ، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى: 44].

وأمَّا قول اللّهِ سُبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾ [الشورى: 46]، فقد صُدِّرت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: 46]، ردًّا على قولهم المحكيِّ قبلُ: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۝٤٤﴾ [الشورى: 44]؛ ناسبه قولُه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾ [الشورى: 46].

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّكْس والنِّكْس:

النِّكسُ: يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، ومنهُ قولُهُم: وقع فلانٌ منكوسًا، أي: وقع عَلَى رَأْسِهِ، والوِلَادُ المَنْكُوسُ: أَنْ يَخرُجَ رِجلَاهُ قَبلَ رَأْسِهِ، فخرج مقلوبًا، ونُكِس المريضُ: عاد في مرضه بعد النَّقَه، وَأمّا الرِّكسُ؛ فهو رَدُّ أَوَّلِ الشَّيءِ عَلَى آخِرِهِ مَقلُوبًا مُتَحَوِّلًا عَنْ حَالَةٍ إِلَى أَردَأَ مِنهَا، فالرِّكْسُ أبلَغُ مِنَ النِّكْسِ؛ لأنَّه قلبُ الشّيءِ بردّه إلى حالةٍ أردأ ممّا كان عليه، ففي الرِّكس قلبٌ ورجوعٌ إلى الأقبحِ بعدَ أنْ كانَ في حالٍ حسَنَةٍ؛ ولِهذا سُمّيَ الرَّجيعُ رِكسًا؛

لأنّه رَجَعَ عن حالِ الطَّعَام، وأَرْكَسَهُ أَبْلَغُ مَنْ رَكَسَهُ، وأفادَ الإركاسُ هنا الهلاكَ، وَمَنْ عَبَّرَ بِهِ عَنِ الإهلَاكِ؛ فَإِنَّهُ أَخَذَ بِلَازِمِ الإرْكَاسِ، والنِّكْسُ فيهِ مَعْنَى القلبِ فقط؛ لِأَنَّ النِّكْسَ قلبُ الشيءِ بجعْلِ أَسْفَلِهِ أَعْلَاهُ[1]، فعُبِّرَ في الآية بِـ ﴿أَرْكَسَهُم﴾؛ لبيانِ شدَّةِ قبحِ ارتدادِهم بما كسبُوا مِنَ الكفرِ والنِّفاقِ، ففي ﴿أَرْكَسَهُم﴾ معنى الرُّجوع إلى أقبحِ وصفٍ، ويستلزمُ الهلاكَ بعد أنْ كانوا في حالٍ حسنةٍ مِنَ الإيمانِ والهُدى.

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1374، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/8.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النساء: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ اللّه بضلالِ المنافقينَ وثباتِهم عليه؛ أَعلمَ في هذهِ الآيةِ بإغراقِهم في الكُفرِ، ومبالغتِهم فيه، فهم يَتَمَنَّونَ أَنْ تَصيروا أَيُّهَا المُسلِمُونَ كُفَّارًا، فكيفَ تُريدُونَ أَنْ تهدوا مَنْ أضلّ اللّه تعالَى، وقد بَلَغُوا في تَعَصُّبِهِمْ في الكُفرِ إِلَى هَذَا الحدِّ[1]، وكأنَّ الآيةَ الْكَرِيمَةَ جاءت عَقيبَ مَا مضَى لِزيادةِ تَعْلِيل الْإِنْكَارِ على مَن قالَ بإيمانِهم مِنَ الْمُؤْمِنين، ولِلتَّأكيدِ على كُفْرِ الْمُنَافِقين، وهذهِ مُنَاسَبَةٌ متينةٌ بينَ الآيتَيْنِ.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

رغِبَ المنافقُونَ لو تَكفُرُونَ كَكُفرِهِم، وتَكُونُونَ مِثلَهُمْ سَوَاءً، فَهُم لا يَكْتَفُونَ بضلالِهم، بل يَرْجُونَ إضلالَ المُسلمِينَ، ورَدَّ مَنْ يَستَطيعُونَ ردَّهُ إلى الكُفرِ، فلا تتَّخذوا مِنْهُم أنصارًا تُوَالُونَهم حتَّى يُؤمِنُوا، وَيحقِّقُوا إيمانَهم بالهجرةِ في سبيلِ اللّهِ تعالَى، فإنْ تولَّوا عنْ أنْ يُهاجِروا، ولَزِمُوا الإقامةَ علَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفرِ؛ فَخذُوهمْ أينَما كانُوا، واقتلوهُمْ، ولا تتَّخذُوا منهم مُحِبًا مُقرَّبًا مِنْ دونِ اللّهِ سُبحانَهُ، ولا نَصيرًا يُعينُكم وَيدافعُ عنكمْ[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَدُّواْ﴾: يدلُّ معنى الوُدّ على الحُبّ، وتمنّي حُصولِ الشَّيء، يُقالُ: وَدِدْتُه بمعنَى: أَحْبَبْتُهُ، فالودُّ: محبَّةُ الشّيءِ، وتشهّي ما لا مطمعَ فيه، وما لا يُتوقَّع حصولُه، فَيَكْمُنُ في الودّ معنى التَّمنّي، ويتمحّضُ للتّمنّي إذا اقْتَرَنَ بـ(لَوْ)، فيقالُ: وَدِدْتُ أَنَّ ذاكَ كَانَ كذا، وَوَدِدْتُ لو كان كذا؛ إِذَا تَمَنَّيْتَهُ[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/170.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89، ورضا، تفسير المنار: 5/264.

(3) ابن فارس مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ودد)، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 303.

2) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ - ﴿وَلِيّٗا﴾: الوَلْيُ يَدُلُّ عَلَى قُربٍ، وَجَلَسَ مِمَّا يَلِينِي، أَي: يُقَارِبُنِي، ويعبّر بالولِيّ وما يشتقُّ مِنْهُ عن كلِّ ذي علاقةٍ قريبةٍ متمكّنَة، وفي الوِلايةِ معنى الاختصاصِ والقربِ، وحبِّ الخيرِ لوليِّه، والفعلُ (تَوَلَّى) إذا عُدِّيَ بِنَفْسِه اقْتَضَى معنى الوَلَايَة، وإذا عدِّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقْتَضَى معنَى الْإِعْرَاضِ وتركِ قُربِه، والوَلِيُّ يُطلقُ بمعنى المُناصِرِ، ويطلقُ بمعنى المُحِبِّ الوَدودِ، والنَّهيُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا﴾ يُحْمَلَ على المعنَيَيْنِ معًا[1].

3) ﴿يُهَاجِرُواْ﴾، الهَجْرُ: تركُ الشَّيءِ، والإِعْرَاضُ عَنْهُ مَكانًا أو خَليطًا، ففي الكلمةِ معنى التَّباعدِ والنَّأيِ، وهي ضدُّ الوَصلِ، وسُمِّي القبيحُ مِنَ الكلامِ هُجْرًا؛ لِكونِه مقتضيًا لِهجرِه، والهجرةُ: مفارقةُ الإنسانِ غيرَه؛ بالبدنِ أو باللِّسانِ أو بالقلبِ، وسُمّيَ المهاجِرُ مهاجرًا؛ لِتركِهِ وطنَهُ، وسُمّيَ مَنْ رفضَ فُضُولاتِ شهواتِه مُهاجِرًا، وصارَ اسمَ مدحٍ في الإِسلامِ[2].

4) ﴿سَبِيلِ﴾: السِّين والباءُ واللَّامُ دالَّةٌ على امتدادٍ إلى أسفلَ معَ اتِّصالٍ، ومِنْهُ قولُهم: أسبلَ إزارَهُ؛ إذا أَرْخاه، وأسبلَ الفرسُ ذَنَبَه؛ أي: أَرْسَلَه، وأسبلَ ثيابَه: طوَّلَها، وأرسلَها إلى الأرضِ، والسَّبيلُ هو الطَّريقُ الموصلُ سواءٌ أكانَ سهلًا أم صَعبًا، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهو بهذا المعنى في كلِّ القرآنِ، وإنَّما يختلفُ المرادُ به بِحسبِ السِّياقِ[3]، والمرادُ في الآية: الطَّريقُ المعنويُّ الموصلُ إلى مرضاةِ اللهِ تعالَى، وما أَمَرَ بِسُلُوكِه[4].

5) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: تولَّى عَنِ الشَّيءِ؛ أي: تركَه، وأَعْرَضَ عنه، ويكونُ بمعنى انْصِرافِ القلبِ عنِ الشَّيءِ، والإعراضِ عنه[5]، والتَّوَلّي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ هُوَ بِمَعْنَى الْإِعْرَاضِ عَنِ الإيمانِ والهجرةِ في سبيلِ اللهِ تعالَى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات ألفاظ القرآن: (ولي)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 248، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1719.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (هجر)، والرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1378.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سب)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبل).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والرَّاغب، المفردات: (ولي).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْوُدِّ دُونَ الْحُبِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾:

الوُدُّ هو مَحبَّةُ الشَّيءِ المَقْرُونَةُ بتَمنِّيه[1]؛ والحبُّ يستعملُ في مَا يُوجِبهُ ميلُ الطِّباعِ والحكمَة جَميعًا، والوُدُّ يستعملُ في ميلِ الطِّباعِ إذا ورد بِمَعْنَى التَّمنّي[2]؛ ففيه مَعْنَى التَّشَهّي، وباقْتِرَانِ ﴿لَوۡ﴾ بالوُدِّ تَمَحّضَ مَعْنَاهُ للتَّمنّي المَشُوبِ بالحبِّ والتَّشهّي في حصولِ المذكورِ، فناسبَ ذكرُ ﴿وَدُّواْ﴾ لِمناسبةِ السِّياقِ والمقامِ، وأشعرَ هذا اللَّفظُ المقترنُ بـ ﴿لَوۡ﴾ بمعانٍ:

انْطِوَاءُ الْكَافِرِينَ عَلَى الشَّرِّ وَإِرَادَتِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ مُتَجَذِّرٌ قَدِيمٌ

أوَّلُهَا: أنَّ ما يودُّونَهُ مِنْ كُفرِ المؤمنين شرٌّ، فيكون ذِكْرُ الودِّ تأكيدًا لِقُبحِ الكفرِ وضَررِه.

ثانيهَا: أنَّ ما يودُّونَهُ نابعٌ ممّا انْطَوَتْ عليهِ طباعُهم السَّيِّئَةُ مِنَ الكُفْرِ، فَهُم يتمنّون زوالَ الخيرِ أو انقطاعَه أصلًا عنِ المُؤْمِنين؛ إشارةً إلى حسَدِهم وبَغيِهم، كما هي حالُ اليهودِ مع المُؤْمِنين، فالكفرُ مِلّةٌ واحدةٌ.

ثالثُهَا: لمّا كان الودُّ تمنّي ما لا يحصُلُ أبدًا؛ دلّ على أنَّ الكَافِرِينَ كانوا يَعْلَمُون أنْ لا مَطمعَ في كفرِ المؤمنين، ففيه تقريعٌ لِلمنافقين الكافرينَ، وبِشَارةٌ لِلْمُؤْمنينَ.

رابعُهَا: جيءَ بالْحَرفِ المصدريّ ﴿لَوۡ﴾ دُونَ (أنْ) لِما تفيدُه ﴿لَوۡ﴾ باقْتِرَانِها بالفعلِ الماضي مِن تمنّيهم كفرَ المؤمنين منذُ الزَّمنِ الماضي، ولو جاءَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (يَوَدُّونَ أنْ تكفُروا)؛ لدلَّ على أنَّ وُدَّهم كفرَ المُؤْمِنِين إنّما هُوَفي الزَّمنِ المُسْتَقبلِ، فلمَّا قالَ اللّٰه تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾؛ أشعرَ أنّهم قدْ أَبْطَنُوا لهم السُّوءَ والكفرَ منذُ زمانِ كُفرِهم، فهو قديمٌ.

---

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/282.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 122.

ولو عُبِّرَ بـ (أَحَبُّوا) بدلًا من ﴿وَدُّوا﴾؛ لَفَاتَتْ هذهِ النِّكاتُ البلاغيّةُ.

سِرُّ إِيثَارِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿تَكْفُرُونَ﴾ دُونَ الْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ:

تَمَنِّي الْمُنَافِقِينَ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَجَدُّدَهُ فِيهِمْ وَاسْتِمْرَارَهُمْ عَلَيْهِ

لَمْ يَرِدِ المَصْدَرُ الصَّريحُ في قولِهِ تعَالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَدُّوا كُفرَكُمْ)، مع أنَّ (لَو) المَصْدَريَّة تؤوَّلُ معَ الفعلِ بمَصْدَرٍ، والنُّكْتَةُ في ذلك: أنَّ في التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَكْفُرُونَ﴾ دِلَالةً على أنّهم كانُوا يتمنَّونَ أنْ يكونَ الكفرُ في قلوبِ أهلِ الإيمَانِ وأفعالِهم، فيظهرُ الكفرُ على أفعالِهم، ويتجدَّدُ حالًا فحالًا معَ الاستمرارِ والدَّوام، كما ظَهرَ الكفرُ في أفعالِ المنافِقينَ.

دِلَالَةُ حَرْفِ (الْكَافِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾:

أَقْبَحُ الْكُفْرِ مَا كَانَ بَعْدَ نُورِ الْهِدَايَةِ

دلّت الكافُ في قولِه تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ عَلَى وُدِّ المنافقينَ أنْ يكون كُفْرُ المؤمنين مماثلًا لكفرِهم مُشابهًا له، ولم يُقيَّد كُفْرُهُم بشيءٍ؛ فلم يَرِدْ: (ودّوا لو تكفرون كما كَفَرُوا باللّهِ، أو كما كفَرُوا بالرَّسُولِ ﷺ، أو كما كفروا بالقرآن)؛ لإفادة العموم، فيشمل التّشبيهُ استيعابَ أنواعِ كُفرِهم، ولمّا كانَ كفرُ المنافقين أقبحَ من كفرِ غيرِهم؛ فقد كَانُوا يتمنّونَ لِلْمُؤْمِنِين مثلَ كُفْرِهم القَبيحِ؛ لِيَشْعُروا بالرّاحةِ والرِّضا عن كفرِهم بعد حُصولِ ما يتمنّونَه، كما أنّهم أرادوا أقبحَ الكفرِ، فأقبحُهُ ما كان بعد نُورِ الهداية.

بَدِيعُ الْجِنَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾:

تَقْبِيحُ الْكُفْرِ وَتَشْنِيعُهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ

ورد جِنَاسُ الاشتقاقِ بين ﴿تَكْفُرُونَ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾؛ ليميلَ المُخَاطَبُونَ المؤمنونَ إلى الإصغاءِ إلى الكلامِ أكثرَ، وَلِتتشوّفَ النَّفسُ إلى بيانِ مَعْنَاه[1]؛ وفيه تنبيهُ أهلِ الإيمَانِ إِلَى شَنَاعةِ ما يتمنَّاهُ المُنَافِقُون لَهم، وتَقْبيحُ الكُفْرِ عندَ المُؤْمِنين بِتَكْرارِ اللّفظِ الدالِّ على الشرِّ والقبحِ.

---

(1) السبكي، عروس الأفراح: 2/282.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾:

مُوَافَقَةُ الْكُفَّارِ فِي أَصْلِ الْكُفْرِ؛ يَجُرُّ إِلَى تَمَامِ مُمَاثَلَتِهِمْ فِيهِ

أفادت الفاءُ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ تعقيبَ السّببِ الدَّافعِ للتمنّي، والمعنَى: ودُّوا لو تكفرونَ مِثْلَمَا كفرُوا لِتكونوا مُتسَاوِينَ معَهم في الكُفرِ وما يقتضيهِ، فودُّهم متوجِّهٌ إلى أَمْرَين:

أحدهُمَا: وُدُّهم كفرَ المؤمنين مثلَ كفرِهم.

والآخَرُ: وُدُّهم أنْ يكونُوا سواءً في الطَّريقةِ والشِّرعةِ، وهذا مترتِّبٌ على سابِقِه مُعَاقِبٌ له.

ولمّا دلّت الكافُ في ﴿كَمَا كَفَرُواْ﴾ على المشابهةِ المُشْعِرةِ بكونِها في بعضِ الأوصافِ - كمَا هُوَ مُقْتَضَى التَّشبيه - دونَ تمام المماثَلَةِ؛ أُكِّدَتْ رغبَةَ الكفَّارِ بأنْ يكونَ المؤمنونَ معَهم سواءً في الكُفْرِ، فأُتيَ بِجُمْلَةِ ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾؛ لِيدلَّ على أنّهم لَو كفرُوا، فسَيَكُونُونَ سَواءً شيئًا فشيئًا.

وذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى أنّ جُمْلَةَ ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ مؤكّدةٌ لِمضمونِ جملةِ ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾[1]، ومرادُهُ: تأكيدُ بعضِ أوصافِ الكُفْرِ؛ لأنّ كلمةَ ﴿سَوَآءً﴾ أوثقُ في التَّسويةِ التَّامّةِ مِنَ المُشَابَهَةِ التي تفيدُ المِثليَّةَ في بعضِ الأوصافِ دُونَ تمامِها.

دِلَالَةُ الْإِيجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾:

مَا دَلَّ السِّيَاقُ عَلَى تَعْيِينِهِ يَجُوزُ حَذْفُهُ مِنَ الْكَلَامِ

قولُ اللّهِ سُبحانه: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ فيه حذفٌ، والتَّقديرُ: (فتكونُونَ أنتُمْ وَهُمْ سَوَاءً)، إلّا أنَّهُ اكْتُفِيَ بِذِكْرِ المُخَاطَبِينَ عَنْ ذِكرِ غَيرِهِم؛ لِوُضُوحِ المَعنَى بِسَبَبِ تَقَدُّمِ ذِكرِهِم[2]، أو لأنّ المقصودَ أنْ يكونَ المُؤْمِنُونَ سواءً معَ الكافِرِينَ المُنَافِقِين، فكأنّهم هُمُ الأصلُ في كُفْرِهم، ويُرِيدُونَ أنْ يكونَ المُؤمِنُونَ مِثْلَهم تَمَامًا.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/152.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/170.

دِلَالَةُ الْإِطْلَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾:

طَمَعُ الْمُنَافِقِينَ فِي شِدَّةِ انْحِرَافِ أَهْلِ الْإِيمَانِ حَتَّى يُسَاوُوهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ

جاءَ لَفْظُ ﴿سَوَآءً﴾ من قَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ خَبَرًا لـ﴿فَتَكُونُونَ﴾ وقد حُذِفَ متعلَّق التَّسوِيةِ، فأفادَ الْعُمُومَ؛ إذْ إنَّ حذف المتعلّق يُؤذِنُ بالعموم.

و﴿سَوَآءً﴾ في الأَصْل: مَصدرٌ واقعٌ مَوقعَ اسْمِ الفَاعِلِ، بمعنى مُسْتَوِينَ؛ ولذلِك وُحِّدَ، كالوارِدِ في نَحْوِ: (رجال عَدْل)[1]، وجاءَ بِصيغَةِ المَصْدَرِ لِمَا في المَصْدَر مِنَ المبالغةِ في موضِعِ الخَبَرِيَّة؛ أي: فتكُونُونَ سَوَاءً في طَرِيقَتِهِم وشِرْعَتِهِم؛ أي: في كلّ شيءٍ ممّا هو من مُقْتَضَيات الكُفْر، ومِنْهُ مَا هُم عَلَيْهِ مِنَ الارْتِكَاسِ والضّلال[2]، فهم يتمنّون كفركم لئلَّا يَشْعُرُوا بِفَضْلِكم عَلَيْهِمْ بِسَببِ إيمانِكم باللّهِ تعالَى ورسوله ﷺ، وما يَرَوْنَ لِلْمُؤْمِنِين من ظهورٍ في الدُّنيا حسدًا مِنْهُم[3]، ولِيَشْعُرُوا بالرِّضا عَن كفرهم.

وأفاد إطلاقُ ﴿سَوَآءً﴾ عَنْ تَقْيِيدِهِ بمُتَعلّق خاصٍّ: تحذيرَ المؤمنينَ مِنْ أنْ يكُونُوا مثل الّذين كَفَرُوا، فالمآلُ هو الارْتِكَاسُ والضَّلالُ والتّيهُ والبعدُ عن اللّهِ سُبحانَهُ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾:

كُفْرُ الْمُنَافِقِينَ سَبَبٌ لِلنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ

الفاءُ في قولِهِ تعالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ هي الْفَاءُ الْفَصِيحَةُ؛ لأنّ ما قبلها سببٌ في النّهي، فهي مفصحةٌ عن شرطٍ مقدّرٍ، والتَّقديرُ: إذَا كَانَ حَالُهُم مَا ذُكِرَ من الودادَةِ؛ فَلَا تَتَّخذُوا منهُمْ أَولِيَاءَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ويُحَقِّقُوا إيمَانَهُم بِالهِجرَةِ[4]، وفي هذا الحَذْفِ: فتحٌ لآفاق التّدبّر وإيجازٌ واختصارٌ.

---

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 6/549.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213، والشوكاني، فتح القدير: 1/572.

ويجُوزُ أن يُرَادَ بِالفاءِ التّرتيبُ والتَّعقيبُ؛ إذْ إنَّ اللّه تعالَى لمَّا بيّنَ كُفرَهُمْ وشِدَّةَ غُلُوِّهِمْ فيه - وهو أمرٌ قلبيٌّ عَقَدِيٌّ - ؛ رتّب عليهِ كَيفيَّةَ مُخَالَطَتِهم، فنَهَاهُم عَنِ اتِّخاذهم أولياءَ حتَّى يُهاجِرُوا في سبيلِ اللّه تعالَى، فأفادت الفاءُ أنّ مجموعَ مَا قبلَها - وهو قولُهُ تعَالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ - سببٌ للنّهي عن اتِّخاذِ الأولياءِ منهم، وإنّما رُتِّبَ النّهيُ على المجموعِ الّذي يدلُّ على شناعةِ ما أبْطَنُوه لِلْمُؤْمنين؛ لِيسهلَ النّهيُ عن اتِّخاذِهم أولياءَ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿مِنْهُمْ﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

الْمَنْهِيُّ هُوَ اتِّخَاذُ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، لَا مُطْلَقُ اتِّخَاذِ الْأَوْلِيَاءِ

قُدّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنْهُمْ﴾ على المفعول به ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مِنْ قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لِلاهْتِمَامِ بالمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ لأنَّ النَّهيَ لا يتوجَّهُ إلى اتِّخاذِ الأولياءِ، بلْ هو موجَّهٌ إلى أَنْ يكونَ اتِّخاذُ الْكَافِرينَ أولياءَ، فقُدِّمَ ما هُوَ مَحَلُّ النَّظرِ على المَفْعُولِ لِلعِنَايةِ به، وأفادَ أنَّهُ إذا كانَ الاتِّخاذُ مِنْ غيرِ الكافرين - بأنْ يكونَ الاتخاذُ مِنَ الْمُؤمنينَ - أولياءَ؛ فَهُوَ مَطْلُوبٌ ومَحْمُودٌ.

وفي تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْهُمْ﴾ علَى المفعولِ بهِ - زيادةً على الاهتمامِ - التَّشويقُ إلى المؤخَّر؛ وهُوَ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾[1].

سِرُّ مَجِيءِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ جمعًا منكرًا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

اتِّخَاذُ كَافِرٍ وَاحِدٍ وَلِيًّا هُوَ بِمَنْزِلَةِ اتِّخَاذِ جَمِيعِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ

ورودُ النَّكرةِ في سياقِ النَّهيِ في قَوْلِهِ تعَالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ يفيدُ العمومَ، ويدلُّ على النَّهي عن اتِّخاذِهم في أيِّ نوعٍ مِن أنواعِ الولايةِ.

وَجاءَ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ بصيغةِ الجمعِ؛ لِمراعاةِ جمعِ المخاطَبين؛ فإنَّ المرادَ نهيُ أنْ يتَّخذَ واحدٌ مِن المخاطَبين وليًّا واحدًا مِنهُم[2]، فيكونُ

(1) القونوي، حاشية القونوي: 7/255.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213.

الجمعُ على التَّوزيعِ على الأفرادِ؛ إذْ إنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجَمْعِ تقتضِي القِسْمَةَ آحادًا، فليسَ المقصودُ النَّهيَ عَنِ اتِّخاذِ الجمعِ، وإجازةِ الواحدِ مثلًا.

ويَجُوزُ أنْ يكونَ المرادُ بصيغةِ الجمعِ إفادةَ أنّ مَنْ يتّخذ واحدًا مِنَ الْكَافِرِينَ وليًّا؛ فَكَأَنَّهُ اتّخذَ الْجَمِيعَ أَوْلِيَاءَ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمُهَاجَرَةِ دُونَ الْهِجْرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾:

صِيغَةُ (هَاجَرَ) وَمَا اشْتُقَّ مِنْهَا لَمْ تَرِدْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إلَّا فِي مَقَامِ الْمَدْحِ

قولُه سُبحانه: ﴿يُهَاجِرُواْ﴾ من الفعلِ (هَاجَر)، وهو على وزنِ (فاعَل)، وَفي هذه الصِّيغةِ معنى المفاعلةِ، فالمهاجِرُ قد هَجَرَ القومَ، وهمْ قد هَجَروهُ؛ لأنَّهم لم يُؤْمِنُوا باللّهِ تعالَى، فصارَ كلُّ مَنْ يفارِقُ قومَهُ في سبيلِ اللّهِ يقالُ له: مُهاجِرٌ، فهجرةُ رَسولِ اللّهِ ﷺ جاءت؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ هَجَروه أوَّلًا وهجَروا دعوتَه، فاضطرَّ إلَى أنْ يخرجَ ويُهاجرَ[1]، بخلاف (هَجَرَ) فليس فيه من التَّرْكِ إلَّا من طرفٍ واحدٍ.

وصِيغةُ (هاجَرَ) وما اشْتُقَّ منها لم تأتِ في القرآنِ الكريمِ إلَّا في سياقِ المدحِ[2].

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الْإِيمَانُ شَرْعًا لَيْسَ اعْتِقَادًا مَحْضًا، بَلْ هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَاعْتِقَادٌ

قَوْلُه تعالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، معنَاهُ: فلا تَتَّخذوا منهم أولياءَ حتَّى يُؤمِنُوا ويُهاجِروا في سبيلِ اللّهِ[3]، فَطُوِيَ ذِكْرُ الإيمانِ، وذُكِرَ البرهانُ عَلَيْهِ؛ لإِلْزَامِ الخَصْمِ بطيِّ مناطِ المسألةِ، وذكرِ دليلِ تحقّقها؛ لأنَّ الإيمَانَ قد يدَّعيه مَن لَمْ يتحقّق بِهِ باطنًا وظاهرًا، فلو عُلِّقَ الحُكْمُ على مطلَقِ الإيمَانِ؛ لادَّعَوْا تحقُّقَهُمْ بِهِ، ولكن نِيطَ الحكمُ بالهِجْرةِ وهي عملٌ ظاهِرٌ، فيكونُ ذِكْرُها دليلًا ظاهرًا على صحَّةِ الإيمَانِ، فالذي يحقّق

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2530.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1378.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/170، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

الإيمانَ ويُظهِرُ صِحّتَهُ وصِدقَهُ هو هجرةٌ للّهِ تعالَى ورسولِه ﷺ لا لِأغراضِ الدُّنيا.

ويَجُوز أَن يَكُونَ قولُه تعالَى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ مِنَ الْكِنَايَةِ عنْ صفةِ الإيمانِ؛ فيكون قَدْ ذُكِرَتِ الْهِجْرَةُ مرادًا بهَا لازِمُهَا، وهو الإيمانُ باللّه سُبحانَهُ؛ ونكتَتُهَا: قرنُ الحُكْمِ بدليلِهِ والبُرهانِ عليه.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

الطَّرِيقُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَاضِحٌ وَسَالِكٌ.

السَّبيلُ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ جيءَ بِهِ على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، وهي استعارةٌ شهيرَةٌ، وهو مستعارٌ لِلأمرِ البَيِّنِ، بِمَعنَى الطَّريقِ المُوصلِ إلى مَرْضَاةِ اللّهِ تعالَى تَشبيهًا لَهُ بِالطَّريقِ الجَادَّةِ السالكةِ الواضحةِ، وفي هذا إشعارٌ بأنّ السَّبيلَ الموصلَ إلى مرضاةِ اللّهِ تعالى واضِحٌ وسالِكٌ.

وزادَ هذه الاستعارةَ قبولًا واستِحْسَانًا ذِكْرُ المهاجَرةِ معها، وهي نوعٌ من السَّيرِ يُناسِبُها ذِكْرُ السَّبيلِ؛ لِافْتِقارِ السَّيرِ إلى طَريقٍ يُسَارُ عَلَيْهِ، فكان في ذِكْرِ السَّبيلِ ضَرْبٌ مِنَ التَّوريَةِ.

نُكْتَةُ تَقْيِيدِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

الْهِجْرَةُ فِي سَبِيلِ اللـهِ تَعَالَى بِتَرْكِ دَارِ الْكُفْرِ وَشَعَائِرِ الْكُفْرِ وَأَعْمَالِهِ

قُيِّدَ الفعلُ ﴿يُهَاجِرُواْ﴾ بكونِهِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولَمْ يطلقْهُ بأَنْ يُقْتَصَرَ على ذِكْرِ الْهِجْرَةِ، وذلك أنَّ الانتقالَ مِن دَارِ الكُفرِ إِلَى دَارِ الإسلَامِ، ومِن شِعَارِ الكُفرِ إلى شِعَارِ الإسلَامِ، ومِنْ عملِ الكفرِ إلى عملِ الإسلامِ قد يكُونُ لِغرَضٍ دنيَويٍّ، فأبَانُ قولُهُ تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المُعتَبَرَ وُقُوعُ تلكَ الْهِجرَةِ لأجلِ أَمْرِ اللَّه تعالى.

وحُذِفَ متعلَّقُ المهاجرَةِ، لِيَدخُلَ فيهِ مُهاجرَةُ دَارِ الكُفرِ، ومُهاجرَةُ شعائرِهِ وأعمالِهِ[1]، ويلزمُ مِنْ تلك المهاجرةِ الانتقالُ إلى سبيلِ اللّهِ تعالَى وطريقِ مَرضاتِه.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/171.

سِرُّ إِضَافَةِ السَّبِيلِ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله) فِي قَوْلِهِ: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

شَرَفُ الْهِجْرَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى

إضافةُ السَّبيل إلى الِاسْمِ الأَحْسَنِ (اللّه) في قوله تعالى: ﴿يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ يُراد بها تعظيمُ المضافِ، وهو السَّبيلُ، ولازِمُ ذلكَ: تعظيمُ المُهَاجِرينَ وَرَفْعُ شأنِهم؛ حيثُ سلَكُوا هذا السَّبيلَ الجليلَ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْأَخْذِ عَلَى الْقَتْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾:

جَرَيَانُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي خِطَابِ النَّاسِ عَلَى وَفْقِ مَعْهُودِهِمْ

قُدِّم الأخذُ - وَمِن معَانيه: الأسرُ - على القتلِ في قولِه تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾؛ لِتقدّمِه على القتلِ في العادةِ، والقرآنُ يكلّمُ النّاسَ على وفقِ مَعهودِهم، والمرادُ قتلُهم، ولو كانَ دُونَ أَخْذٍ[1].

مُنَاسَبَةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿حَيۡثُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾:

(حَيْثُ) لَفْظٌ دَالٌّ عَلَى عُمُومِ الْأَمْكِنَةِ

لَمّا كانت ﴿حَيۡثُ﴾ تقعُ على الجهاتِ السّتِ، وعلى كلّ مكانٍ؛ أفادت الإبهامَ في الأمكنةِ؛ لِأنّها تصدُقُ عليها جميعًا[2]، ويُفسَّرُ الإبهامُ بما تضَافُ له، وهي هُنَا جملةُ ﴿وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾ وهي مناسبَةٌ عمومَ ﴿حَيۡثُ﴾؛ لإِفادةِ معنى الوجودِ العمومَ كذلكَ؛ وذلك دالٌّ على الأمرِ بالقتلِ في عُمومِ الأمكنةِ التي يُتَحقّقُ وجودُهم فيها، ولِهذا قال القرطبيُّ: "﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾ عَامٌّ في الأَمَاكِنِ من حلٍّ وَحَرَمٍ"[3]، ونظيرُ هذهِ الآيةِ ما جاءَ في قولِه تَعَالَى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: 5]، وليس مِن كلمةٍ في العربيَّةِ تفيدُ هذه الدِّلالةَ مع إيجازٍ مثل لفظِ ﴿حَيۡثُ﴾ في هَذَا السّياقِ.

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/164.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/114.

(3) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: 5/308.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ بَيْنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّأْسِيس:

المُبَالَغَةُ في النَّهْيِ عَنْ مُوَالاةِ الْكَافِرِينَ وَنُصْرَتِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ تأكيدًا لِقولِه تعالى قبلُ: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ والمرادُ: تقريرُ النَّهيِ عنِ اتِّخاذِهم أولياء.

والأظْهَرُ أنّ ذلك جاءَ على طريقةِ التَّأسيسِ لِمعنًى جديدٍ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ وردَ لِلنَّهيِ عَن موالاةِ الكافرين، ولم يمنعْهم مِن نُصرتِهم، ثمَّ بيّنَ أنَّهم إنْ تولَّوا؛ أي: ارتدُّوا عمَّا أظهروه مِنَ الإسلامِ، وكشفُوا الغطاءَ بالكُفرِ، فلا يجوزُ أنْ توالُوهم، ولا أنْ تَنْصُرُوهُم بوجهٍ[1]، فأُكِّدَ النَّهيُ عَن موالاةِ الكافرينَ لِعظَمِ أمرِها وشُيوعِها؛ ولأنّ المناصرةَ تَسْتَتْبِعُها سببًا ووُجودًا، وأُتْبِعَتْ بالنَّهيِ عَنِ المُناصرةِ، وَأفاد مجموعُ قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ الأمرَ بِمُجَانَبَتِهم بالكلّيةِ مجانبةً دائمَةً[2].

دِلَالَةُ تَكْرَارِ ﴿وَلَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾:

التكرارُ لإفادةِ التّأكيدِ والنّهي على التّفصيل

تكرّرت ﴿وَلَا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإفادَةِ تأكيدِ النَّهيِ عنِ اتخاذِ أيِّ واحدٍ مِنْهُم نصيرًا، ودلَّ التَّكرارُ علَى أنَّ النَّهيَ متوجِّهٌ لِكلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا على التَّفْصيل؛ لأنّهما قَد لا يَجْتَمِعَانِ، والمَعْنَى: لا تتّخذوا منهم وليًّا، ولا تتّخذوا مِنْهُم نصيرًا، فحُذِفَ الفعلُ ومتعلّقُه، وأُبْقِيَ المفعولُ به إيجازًا في الكَلَام.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿وَلِيّٗا﴾ وَ﴿نَصِيرًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾:

جَمِيعُ أَنْوَاعِ وِلَايَةِ الْكَافِرِينَ وَنُصْرَتِهِمْ مَنْهِيٌّ عَنْهَا

ورد كلٌّ من ﴿وَلِيّٗا﴾ و﴿نَصِيرًا﴾ مِن قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ نَكِرَتَيْنِ في سياقِ النَّهيِ، وأفادَ هذا التَّنكيرُ عمومَ

---

(1) الراغب، تفسير الرَّاغب: 3/1380 - 1379.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 3/325، والقونوي، حاشية القونوي: 7/255.

نَهْيِ المؤمنينَ عنْ أيِّ نوعٍ من أنواعِ الولايةِ والحبِّ والودِّ، وكذا النَّهيُ عن أيِّ نوعٍ من أنواعِ النُّصرةِ سواءٌ أكانت باليَدِ أمْ باللِّسانِ أَمْ بالقلمِ أَمْ بغيرِها، ووجهُ العمومِ: وقوعُ النَّكرةِ في سياقِ النَّهْيِ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللّه تعالَى بقتلِ الكُفَّارِ في قوله: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾؛ استثنَى في هذهِ الآيَة مَن لَهُ عُذرٌ، فقَالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾[1]؛ فجاءت الآيةُ مصدّرةً بالاستثناءِ الّذي يكونُ مرتبطًا بالكلام الّذي قبله، ووَجهُ النَّظم والاتِّصالِ بالآية السّابقة: اقتلُوا المُنافقينَ الَّذينَ اختَلَفتُمْ فِيهم إلَّا إذا هاجرُوا في سبيلِ اللّه، أو اتَّصلُوا بِمَن بَينَكُمْ وبَينَهُمْ ميثَاقٌ، فدخلُوا فِيمَا دَخلُوا فيهِ؛ فَلَهُم حُكمُهُم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِّيثَٰقٌ﴾: عَلَى وَزنِ مِفعَالٍ مِن وَثِقَ، وهو دالٌّ عَلَى عَقدٍ وَإِحكَامٍ، وهُوَ في الأَصل: حَبلٌ أَوْ قيد يُشدّ بِهِ الأَسيرُ وَالدَّابَّةُ، ووَثَّقتُ الشَّيءَ: أحكَمتُهُ، ووَثِقتُ به أَثِقُ ثِقَةً: سَكَنْتُ إليه، واعتمدتُ عليه، والمِيثاقُ: العهدُ أو العقدُ المؤكّدُ بيَمِينٍ وعهدٍ، والجَمعُ: المَواثِيقُ - عَلَى الأَصل - بزِنَة: المَفَاعِيل[3]، والمِيثَاقُ في الآيةِ هُوَ بِمَعْنَى العهدِ والمُوَادَعة[4].

2) ﴿حَصِرَتۡ﴾: الحَصَرُ: في الأصلِ أَنْ يَحتَبِسَ في الشَّيءِ ما شأنُه التَّسيُّبُ، كالمائع، فلا يتسيَّبُ ولا يَنْطَلِقُ، فالحَصَرُ: هو الحَبسُ والمنعُ والتَّقييدُ عنِ الحركةِ، وأُطلِقَ الحصرُ على التَّضييقِ؛ لِمَا فيه مِنَ الحَبسِ، وَأَصلُ الحَصَرِ: في المَكَانِ، ثُمَّ تُوُسِّعَ فِيهِ حَتَّى صَارَ في القَولِ، وكلُّ مَنْ ضاقَ صدرُه بأمرٍ؛ فَقَدْ حُصِرَ، ومعنى ﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾: ضَاقَتْ وانْقَبَضَتْ[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/357، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/152.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/310.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وثق).
(4) البغوي، معالم التنزيل: 1/674.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حصر).

3) ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾: السِّين واللَّامُ والطَّاءُ تدورُ اشتقَاقَاتُهَا على القُوَّةِ والقَهرِ، ومِنْ ذَلِكَ السَّلَاطَةُ، مِنَ التَّسَلُّطِ؛ وهُوَ القهرُ، ولِذَلِكَ سُمِّيَ السُّلطَانُ سُلطَانًا، والسُّلطانُ: الحُجَّةُ والبُرْهانُ، وسلّطَهُ اللّه تعالى: أعطاهُ القوّة[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾ بِمعنى: لَقَوَّاهم وأَقدَرَهم على ذلك[2].

4) ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: السِّينُ واللَّامُ والميمُ تدلُّ تصارِيفُهَا عَلَى صِحَّةِ جِرْمِ الشَّيءِ والْتِئَامِ ظاهِرِه في ذاتِه، بِمَعْنَى: عدم تصدُّعِه، أو تفرُّعِ غيرِه مِنْهُ، فأُطْلِقَ على التَّعرّي مِن الآفاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، والسَّلَامَةُ: أَنْ يَسلَمَ الإنسَانُ مِنَ العَاهَةِ والأَذَى، واللّه ﷻ: هُوَ السَّلَامُ؛ لِسَلَامَتِهِ مِمَّا يَلحَقُ المَخلُوقِينَ مِنَ العَيبِ والنَّقصِ والفَنَاءِ، وسُمِّيَ الإسلامُ: إسلامًا؛ لأَنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإِبَاءِ والامتِنَاعِ، وفيه تَسْلِيمُ النّفسِ للّهِ تعالى، ففيه مَعْنَى الانقيادِ، والسّلَمُ في الآيةِ، بمعنَى: الاستسلامِ والانقيادِ[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إِلَّا الَّذينَ يَتَّصلونَ بقوم بينَكم وَبينَهُمْ عهدٌ وموادعةٌ فلا تُقاتلوهُمْ، وكذلكَ الَّذين أَتَوا إليكُم، وقد ضاقتْ صدورُهم، وكَرِهوا أنْ يقاتلوكُمْ حفظًا للعهدِ، كما كَرِهوا أنْ يقاتلوا قومَهم؛ لأنَّهم قومُهم، فلم يكُونوا معَكُم، ولا معَ قومِهم ضِدَّكم، فَلا تُقاتلوهُمْ، ولو شاءَ اللّه تعالى لَقَوَّاهُمْ وجَرَّأَهُم عليكُم، فَلَقاتَلُوكم معَ أعدائِكم مِنَ المشركينَ، وَلكنَّ اللّه سُبحانَهُ صَرَفَهم عَنْكُم بفضلِهِ ونعمتِهِ، فإنْ تَرَكُوكُم فَلَمْ يُقَاتِلُوكُم، وانْقَادُوا إِلَيْكُم مُسْتَسْلِمِينَ، فَليسَ لَكم عَلَيهِم مِن طريقٍ لِقتالِهِم[4].

۞ الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلَاغِيُّ:

دِلَالَةُ تَصْدِيرِ الْآيَةِ بِحَرْفِ الِاسْتِثْنَاءِ ﴿إِلَّا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾:

قولُهُ تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ مستَثْنَى مِن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سلط).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/310.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سلم).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89 - 90، والمراغي، تفسير المراغي: 5/117.

تَفْصِيلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ بِبَيَانِ مُسْتَثْنَيَاتِهَا

والمَعْنَى: إلّا الّذين يتّصلُون ويَنْتَهُون إلى قوم عاهدُوكُم ولم يُحاربوكم، وجاءَ تَصْدِيرُ الآيَةِ بأداةِ الاستثناءِ؛ لِبيانِ أنَّ هذهِ الآيةَ مُفَارِقَةٌ من وجهٍ لِمَا سبقَها؛ لِأنّ الاستثناءَ على مَعنى النَّهي عن قتالِ مَنْ يَصِلون إلى قومٍ معاهدينَ لكم أو مَنْ جاؤوكُم، وهُم قدْ كَرِهوا قتالَكم، والمَعْنَى: (لَا تُقاتِلوا مَنْ وَصْفُهم كذا وكذا).

نُكْتَةُ الْمُغَايَرَةِ بَيْنَ زَمَنَي الْفِعْلَيْنِ ﴿يَصِلُونَ﴾ وَ﴿جَآءُوكُمۡ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ﴾:

تَعْظِيمُ شَأْنِ الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ

وَرَدَ الفِعْلَانِ ﴿يَصِلُونَ﴾ و﴿جَآءُوكُمۡ﴾ في سِياقِ المُسْتَثْنَى صِلَةً لِلْمَوْصُولِ، وتَخَالَفَا في الزَّمنِ، فجاءَ الفعلُ ﴿يَصِلُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ الدالِّ على زمنِ الحالِ والاستقبالِ، وإفادةِ تجدّدِ الحدوث حالًا فحالًا؛ لِتعظيم شأنِ العهدِ والميثاقِ، وليفيدَ استمرارَ النَّهي عن قتلِ المنافقينَ الكافِرينَ الذين يَتّصلونَ بقومٍ بَينَكُمْ وَبينَهُمْ عَهدٌ؛ فَإِنَّهُم عَلَى عَهدِهِم[1]، وأمّا قولُهُ تعالَى: ﴿جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾؛ فهو أمرٌ خاصٌّ لا تعلّقَ له بعهد، وهو يَشْمَلُ المؤمنينَ جميعًا؛ ولذا عُبِّرَ عَنْهُ بالماضي للإخبارِ عن أمرٍ قد وَقَعَ، فجاء كلُّ لفظٍ في موقِعِه اللَّائِقِ بِهِ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْخِطَابِ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ عَلَى الْغَيْبَةِ ﴿وَبَيۡنَهُم﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾:

الْمُؤْمِنُونَ أَوْلَى بِالْتِزَامِ الْعُهُودِ مِنْ غَيْرِهِمْ

قال اللّه تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، ولَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (بينهم وبينكم ميثاقٌ)، فقدَّمَ ضميرُ المخاطبينَ المؤمنينَ على ضميرِ الغائبينَ المُعَاهَدين؛ لبيانِ أهميَّةِ المِيثَاقِ والعهدِ عندَ أهلِ الإيمانِ، وتَنْبِيهًا لِلمؤمنينَ إلى أنَّه يَنْبَغِي أنْ يكُونُوا أوّلَ مَنْ يَلْتَزِمُ العُهُودَ، كَمَا أنَّ السِّياقَ جارٍ في مُخاطبةِ المُؤمنين، فقُدِّمَ الخطابُ على الغيبةِ جريًا على ما يقتضيهِ ظاهرُ السِّياقِ.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/309.

أَثَـرُ الإِعْـرَابِ فِي تَـوْجِيـهِ المَـعَانِي القُرْآنِيَّةِ

تَعْيِينُ مَا عُطِفَتْ عَلَيْهِ جُمْلَةُ ﴿جَآءُوكُمْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ﴾:

جملةُ ﴿جَآءُوكُمْ﴾ من قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ فيهَا وجهانِ:

أحدهُمَا: أنْ تكونَ معطوفةً على جملةِ الصِّلةِ، والتَّقديرُ: (إلَّا الذينَ يَصِلونَ إلى قومٍ بينَكمْ وبينَهم ميثاقٌ، أَو إلَّا الذينَ جاؤوكم حَصِرَتْ صدورُهُم)، فيكون الاستثناءُ لِصِنْفَيْنِ: الّذين يَصلونَ إلى المُعَاهِدِينَ لِلْمُؤمنينَ فيَدْخُلونَ فِيهِم، والّذين جاؤُوكم وقد ضاقتْ صدورُهم وكَرِهُوا قِتالَكم.

والآخَرُ: أَنْ تكونَ معطوفةً على صفةِ ﴿قَوْمٍ﴾، والتَّقديرُ: (إلّا الّذين يَصلونَ إلى قوم بينَكم وبينَهم ميثاقٌ أو يَصلونَ إلى قومٍ جاؤوكُم، وقد كَرِهوا قتالَكم)، فيكون الاستثناءُ لِصنفٍ واحدٍ، وهم الّذين يَصلونَ إلى قومٍ غيرِهِمْ، ويَخْتَلِفُونَ بِالْوَصْفِ.

والوجهُ الأوَّلُ هُوَ الأظهرُ، وبِهِ قالَ أكثرُ أهلِ العلمِ بالتَّفسيرِ[1].

اللَّفْظُ القُرْآنِيُّ أَوْسَـعُ مَعْنًى وَأَغْزَرُ فَائِدَةً فِي سِيَاقِهِ الذِي وَرَدَ فِيهِ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿حَصِرَتْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾:

عُبِّرَ في الآيةِ بـ ﴿حَصِرَتْ﴾ دُونَ (ضَاقَتْ) لِنُكْتَتَيْنِ:

إحداهُمَا: مَا في الحَصْرِ مِنْ معنى زائدٍ على الضِّيقِ؛ فإنَّ الحصرَ هو الحبسُ مع التَّضييقِ والانقباضِ[2]، والمعنى: أو جاؤوكم وقدْ حُبِسَتْ صدورُهم وضاقتْ وانقبضتْ، فلا هُمْ يُريدونَ قتالَكم، ولَا هُم يُرِيدُونَ قتالَ قَوْمِهم.

والأُخْرَى: أنَّ الفعلَ (حَصِرَ) لمَّا كان لا يتعدّى بنفسِه بلْ يتعدّى بـ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/172، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/12، والسمين، الدر المصون: 4/64.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.

(عن) أو بـ (مِنْ)[1]، وقدْ جاءَ في الآيةِ دونَ حرفِ جرٍّ؛ أفادَ أنَّهُ على تَضْمينِ الفعلِ معنى الكَراهةِ[2]، والتَّقديرُ: (كراهةَ أنْ يقاتلوكمْ)، فكانَ في التَّعبيرِ بـ﴿حَصِرَتۡ﴾ تكثيرٌ لِلْمَعْنَى بِسَبَبِ التَّضمينِ، وإيجازٌ للألفاظِ، والإيجازُ ملائمٌ لحالِ الضّيقِ؛ فشَاكَلَ اللّفظُ المعنَى.

سِرُّ تَقْدِيمِ كَرَاهَةِ قِتَالِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى كَرَاهَةِ قِتَالِهِمْ قَوْمَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾:

جَرَتِ الْعَادَةُ أَنْ لَا يُقَاتِلَ الْمَرْءُ قَوْمَهُ

قُدِّمتْ كَرَاهَةُ قِتَالِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى كَرَاهَةِ قِتَالِهِمْ قَوْمَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾؛ لِبيانِ أنَّ الكراهَتَيْنِ مختلِفتانِ؛ فقُدِّمَ الأثقلُ على أنفسِهم معَ رَغْبتِهم فيه، وأُخِّرَ ما دُونَهُ؛ لبيانِ ضَعْفِ رغبتِهم في قِتَالِ قَوْمِهم؛ لأنَّ العادةَ أنْ لا يُقَاتِلَ المرءُ قومَه.

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾:

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَنْعِ تَسَلُّطِ الْمُنَافِقِينَ عَلَيْهِمْ

وردَ الحذفُ في قولِهِ تعالَى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ في مَوْضِعَيْنِ:

أحدهُمَا: حذفُ مفعولِ الفعلِ ﴿شَآءَ﴾، وحُكْمُ البلاغةِ أنْ لا يُنَصَّ علَى المحذوفِ في مثلِ هذا الأسلوبِ الكثيرِ الشَّائعِ في القرآنِ الكريمِ، وفيه مِنَ الحُسنِ والغرابةِ الأمرُ العجيبُ؛ فإنَّ السَّامعَ يعلمُ أنَّ المشيئةَ تتعدّى إلى شيءٍ، فهو ينتظرُ تمامَ الكلامِ، وإنَّ في البيانِ إذا وردَ بعد الإبهامِ وبعدَ تحرّكِ النَّفسِ وتشوّقِها إلى معرفتِه لُطفًا ونُبلًا لا يكونُ إذا لم يتقدَّمْ ما يُحرِّكُهَا، فلمّا جيءَ بِجَوابِ ﴿وَلَوۡ﴾؛ سكنتِ النَّفسُ بتقديرِ المفعولِ وعرفتْ مقصدَ الكلامِ، ولو رُجِعَ فيه إلى تقديرِ الكلامِ (ولو شاءَ اللّه تسليطَهم عليكُمْ لَسلَّطَهم عليكُم)؛ صِرْنا إلى كلامٍ فيه ضربٌ مِنَ الرَّكاكَةِ، كما أنَّ المحذوفَ هنا لا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/15، والسمين، الدر المصون: 4/68.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/14، وأبو السّعود: إرشاد العقل السليم: 2/214.

يَسْتَغْرِبُه السَّامعُ، ولا يُكبِرُه؛ لِتَعلُّقِ مشيئةِ اللّهِ تعالَى بكلِّ ما هو ممكنٌ، فالْبَلَاغةُ تقتضِي أنْ يُجاءَ بِه كذلكَ مَحذوفًا[1].

والآخَرُ: حذفُ الشَّرطِ بتمامه مِنْ قولِه ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾، واللَّامُ داخلةٌ على جَوَاب ﴿وَلَوْ﴾ عَلَى تقديرِ تكرَارِ الشَّرطِ، والمعْنَى: (ولو شاءَ اللّه لَسلَّطهم عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّه لَقَاتَلُوكُم)[2]، فأعادَ اللَّامَ مع ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾؛ لِلإشعارِ بأنَّها جوابٌ آخر لِـ ﴿وَلَوْ﴾، فهما أمرانِ متعلّقانِ بمشيئةِ اللّهِ تعالَى الّتي وردتْ في سياقِ ﴿وَلَوْ﴾ الدالَّة على تعليق حصولِ التَّسليطِ وَالقتالِ بحصولِ مشيئةِ اللّهِ سُبحانَهُ، وقد امتنَعَ حصولُهُمَا بِفضْلِ اللّهِ ومنّتِهِ على المُؤمنينَ كما أفادتْه أداةُ الشَّرطِ ﴿وَلَوْ﴾[3].

وأُتِيَ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ لإفادة أنّه لو شاءَ اللّه تعالَى؛ لكان قِتَالُ المُنَافِقين لِلْمُؤْمِنِين عَقِبَ تَسْلِيطِهم عَلَيْهم، ودلَّ على تَقْرِيرِ قتالِ المُنَافِقين لِلْمُؤْمِنين مَعْنَى المُفَاعَلَة مِنْ صيغة ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾، فالصّيغةُ وإن دلّتْ على المشاركةِ مِنَ الطّرفين، إلّا أنّه عُبِّر بالمقاتلةِ للإشعارِ بأنّهم الّذين يَبْدَؤُون القتالَ، ففي الكلام بيانُ نِعَمِ اللّهِ ﷻ على المؤمنينَ تفصيلًا مع الإيجازِ في الكلام.

دِلَالَةُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾:

مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى المُؤْمِنِينَ تَضْيِيقُهُ صُدُورَ المُنَافِقِينَ بِقَذْفِ الرُّعْبِ فِيهَا

أشعرتْ جملةُ الشَّرطِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ بتعليلِ استثناءِ الطَّائفةِ الأخيرةِ مِن حكم الأخذِ والقتلِ، ونَظمهم في سِلْكِ الطَّائفةِ الأولى الجاريةِ مَجرى المعاهَدين مع عدمِ تعلّقهم بنا، ولا بِمَنْ عَاهَدُونا كالطَّائفة الأولى، والمعْنَى: ولَو شَاء اللّه لَسَلَّطَهُم عليكم بِبَسْطِ صُدُورِهم وتقويةِ قلوبهم وإزالةِ الرُّعبِ عنها؛ لِلْإِعْلَام بأنَّ حَصَرَ صُدُورِهم ما كانَ إلّا لِقذفِ اللّهِ تعالَى الرُّعبَ فيها[4]، وأنّه كانَ بمشيئةِ اللّهِ سُبحانَهُ، فهو امتنانٌ مِنَ اللّهِ تعالى على المُؤمِنِين.

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 163 - 164.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/173.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 246.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/214، والطيبي، فتوح الغيب: 5/109.

دِلَالَةُ جُمْلَةِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّعَرُّضِ لِمَنْ يُسَالِمُ الْمُؤْمِنِينَ

تَضمّنتْ جملةُ الشَّرطِ في قولِه تعالَى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ تعلّقَ الجزاءِ بِهِ في قولِه: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾، وهو أمرُ اللهِ تعالى بتركِ التَّعرّضِ للمنافقينَ باجتماعِ ثلاثةِ شروطٍ في جملةِ الشَّرطِ؛ وهي ﴿ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾، ﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾، ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، فإذا فُقد شَرْطٌ امتَنَعَ الجَزَاءُ؛ وذلك أنَّ المعلَّقَ بحرف الشَّرْطِ ﴿فَإِن﴾ عَدَمٌ عندَ عدَمِ الشَّرْطِ[1].

وَمِنْ لَطَائِفِ هذا التَّركيبِ الشَّرطِيِّ أنّ ما في حيّزِ الشّرط يدلُّ على التَّخلّي، وهو تركُ التَّعرُّضِ، وتَرْكُ القتال، والانقيادُ والاستسلامُ اللَّذان يَسْتَلْزِمَانِ التَّعرّي مِنَ الأَذَى.

وَجُعِلَ الجَزَاءُ مبنيًّا على المَنْعِ المُقْتَضِي التَّرْكَ، فقال: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾، وعدمُ جَعْلِ السَّبيلِ لِلْمُؤْمنين على المُنَافِقين: مبالغةٌ في عدمِ التَّعرّضِ لهم؛ فإنّ مَن لا يَمرُّ بِشَيءٍ كيفَ يُتَعَرَّضُ له[2]؟!، وأفادَ الشَّرطُ والجزاءُ وجوبَ تَركِهِم إِذَا تَرَكُوا المُؤمِنِينَ وسَالَمُوهُمْ، وقِتَالِهِمْ إِذَا نَاصَبُوهُمُ العداءَ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾:

التَّفْصِيلُ فِي الْمَعَانِي الْمُفْضِيَةِ إِلَى إِرَاحَةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ

عُطِفَتِ الْجُمْلَةُ بالفاءِ في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ على ﴿ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾؛ لِمناسبة اسْتِتْبَاعِ تركِ القتالِ على الاعتزالِ، وتركِ التعرُّضِ، والتَّرتُّبِ بالسّببيّةِ عليه، وفُصِّلَ بذِكْرِ اللّازم (لمْ يُقاتِلوكم) معَ أنَّه ظاهرٌ مِن اعتزالِهم؛ لِتأكيدِه وتَقْرِيرِه؛ ولأَنَّ ذِكرَه هُنَا يُفضي إلى إراحةِ المؤمنِينَ، فيتوجّهُ إليهم الجزاءُ بالقَبُولِ والرِّضا، ونظيرُه

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/173.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 3/165.

قولُه سُبحانَهُ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [المُمْتَحَنَة: 8].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الْمُفَاعَلَةِ ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾:

لَا غَضَاضَةَ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ بَدَأَ الْقِتَالَ؛ لِاسْتِحْقَاقِهِ الرَّدَّ

أفادتْ صيغةُ المفاعلةِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ - وهيَ مفيدةٌ المشاركَةَ - أنَّ شرطَ تحقّقِ الجزاءِ أنْ يَكُونُوا هُم الّذين يَبْدَؤُونَ الكفَّ عَن قِتَالِ المُؤْمِنِينَ؛ وفي ذلك إيماءٌ إلى أنهم هُم الّذين بدؤُوا القتالَ أيضًا، فإذا بَدؤُوا بالقتالِ؛ فإنَّهم استحقّوا أن يَرُدَّ المُؤْمِنُونَ عليَهِم، ولا يتأتّى في هذا المَوْضِعِ التَّعبيرُ بالقتلِ بأَن يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (فلم يَقْتُلُوكُم)؛ لأنَّ القَتْلَ يقتضِي الإفناءَ، وهو غيرُ مرادٍ، بخلافِ المقاتَلَةِ، فلا تقتَضِيه.

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾:

لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَرَكَ قِتَالَ الْمُؤْمِنِينَ يَكُونُ مُسَالِمًا لَهُمْ

عُطِفَ قولُهُ: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ عَلَى قولِه: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾؛ ليفيدَ أنَّ تركَ القتالِ غيرُ الانقيادِ والاستسلامِ؛ لأنَّ الأصْلَ في العطْفِ المغايَرَةُ في المعنَى بينَ الجُمْلَتين، فليس كلُّ مَنْ تركَ قتالَ المؤمنين يكُونُ منقادًا إليهم مسالمًا لهم؛ إذْ إنَّ لِتركِ القِتَالِ أسبابًا متكاثِرَةً.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾:

مِنْ طَرَائِقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي تَثْبِيتِ الْمَعَانِي إِخْرَاجُهَا فِي صُوَرِ الْمَحْسُوسَاتِ

عُبِّرَ عَنِ الانقيادِ والاستسلامِ بـ (إلقاءِ السَّلَم) في قولِه تعالَى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، وقُيِّدَ بقولِه: ﴿إِلَيْكُمُ﴾، فشُبِّه السَّلَمُ بالشّيءِ المحسوسِ الّذي يُطْرَحُ عندَ المسلَّم له؛ لِأنّ مَنْ سلَّمَ شيئًا؛ ألقاهُ وطرحَه عندَ المسلَّم له[1]، فحُذِفَ المشبَّهُ بِهِ ورُمِزَ بشيءٍ مِنْ لوازمِه الدَّالَّةِ عليهِ - وهو الإلقاءُ - عَلَى طريقَةِ الاستعارةِ المكنيَّة، وأفادتْ هذهِ الاستعارةُ المبالغةَ في الانقيادِ والاستسلامِ للمؤمنينَ.

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/165.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْخِطَابِ ﴿لَكُمْ﴾ عَلَى الْغَيْبَةِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾:

مِنْ دَقَائِقِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ التَّفَنُّنُ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ بِمَا يُنَاسِبُ السِّيَاقَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ

قُدِّمَ الضَّميرُ الدَّالُ علَى الخِطابِ ﴿لَكُمْ﴾ علَى ضميرِ الغَيْبَةِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾؛ لِمُنَاسَبَةِ تقدُّم ضميرِ الخطابِ على ضميرِ الغيبةِ في قولِه: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم﴾، واقْتِضَاءِ سياقِ الْمُخَاطَبَةِ، كما أنَّ نَظْمَ الكلامِ يَقْتَضِي هذَا؛ لأنّ ﴿لَكُمْ﴾ متعلّقٌ بـ﴿جَعَلَ﴾، وَ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلّقٌ بـ ﴿سَبِيلًا﴾.

وأمّا قولُه تعالَى: ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إذ قُدِّمَ ضميرُ الغَيْبَةِ على ضَميرِ الْخِطَابِ؛ فَلأنّ المرادَ: لَو شاءَ اللّه تعالَى لَسَلّطَ المنافقينَ عَلَيْكُم، ولا يصحُّ في نظمِ الكلامِ هنا تقديمُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ عَلَى ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾؛ لأنّ المعتبَرَ بالنَّظَرِ هُو تعليقُ تسليطِهم على المؤمنينَ بمشيئَةِ اللّهِ سُبحانَهُ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾:

مِنْ طُرُقِ اسْتِيفَاءِ صَاحِبِ الْحَقِّ حَقَّهُ الْمُؤَاخَذَةُ بِاللَّوْمِ وَالْعِقَابِ

السَّبيلُ في قولِه تعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ مُستعَارٌ لِلأسبَابِ الْمُؤَاخَذَةِ بِاللّومِ والعِقَابِ؛ فجاء السّبيلُ بِمَعْنَى الطّريقِ المعنويِّ؛ لأنَّ وسائلَ المؤاخذة باللَّوْمِ والْعِقَابِ طرائقُ لِوُصُولِ طَالِبِ الحقِّ إلَى مَكانِ المَحقُوقِ، وهِيَ اسْتِعَارَةٌ تَصرِيحيَّةٌ.

ولِمُرَاعَاةِ الإِطلَاقِ المتقدِّمِ؛ تعلّقَ به حرفُ الاستعلَاءِ (علَى) دُونَ حَرفِ الغَايَةِ (إلَى)(1).

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿سَبِيلًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾:

الْإِيفَاءُ بِشُرُوطِ الْعَهْدِ مُوجِبٌ لِعُمُومِ مَنْعِ الْمُؤَاخَذَةِ

مَجِيءُ كلمةِ ﴿سَبِيلًا﴾ نكرةً في قوله تعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ دالٌ على العمومِ؛ وذلك لوقوعِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفْي، فأفادَ ذلكَ نفيَ المؤاخذةِ بأيِّ طريقةٍ كانت، إذا التزَمُوا الشّروطَ المذكورَةَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/154، 10/295.

والآيةُ فيها إيماءٌ إلى بشارةٍ عظيمةٍ مِن ربّ العالمين لأهلِ الإيمَانِ؛ "لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا رَفَعَ السَّيفَ عَمَّنِ التجَأَ إِلَى مَنِ التَجَأَ إِلَى المُسلِمِينَ، فَبِأَنْ يَرفَع العَذَابَ فِي الآخِرَةِ عَمَّنِ التَجَأَ إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ كَانَ أَولَى"(1).

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/171.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾ [النساء: 91]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا وصَفَ اللّه تَعَالَى فِيما تقدَّمَ صِفَةَ المحقّين في المُتاركةِ، المجدّينَ في إلقاءِ السَّلَمِ؛ نبَّهَ في هذهِ الآيَةِ علَى طَائفةٍ مُخادِعَةٍ لِلْمُؤْمِنينَ ولِقومِهم[1]، قال البقاعي: "ولمَّا كانَ كأنَّه قيلَ: هل بَقِيَ مِنْ أقسامِ المنافقينَ شيءٌ؟ قيل: نعم"[2]، فذكرَ الآيَةَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡمَنُوكُمۡ﴾: الأمنُ هو سكونُ القلبِ فتطمئنُّ النَّفسُ، ويزولُ الخوفُ، وذهبَ بعضُ اللُّغويينَ إلى أنّهُ الطَّمأنينةُ عندَ الخوفِ، فالآمنُ هو الذي امتلأَ قلبُه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنه، والأمانةُ ضدُّ الخيانةِ، والأمانةُ: هي الوديعةُ الّتي تُحفَظُ في حِرزٍ أوثقَ الحِفْظ، فتطمئنُّ النَّفسُ ويسكنُ القلبُ، ويأتي الأمنُ بمعنَى التَّصديقِ، وهو قريبٌ مِن معنى سُكُونِ القلبِ واطمئنانِ النَّفسِ، ومِنْهُ المُؤْمِنُ؛ لِأنَّ قلبَه يسكنُ لِمَا آمنَ به، ويطمئنُّ به[3]، وقولهُ تعالَى: ﴿يَأۡمَنُوكُمۡ﴾ بمعنَى: تسكُنُ قلوبُهُم وتطمئنُّ نفوسُهم، فلَا تتعرَّضُوا لهم.

2) ﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾: الفاءُ والتَّاءُ والنُّونُ تدلُّ اشتقَاقَاتُهَا على إذابةِ شيءٍ بالنَّارِ لِتظهرَ جودتُهُ مِن رداءتِه، كإذابةِ الذَّهبِ والفضَّةِ، واستُعمِلَت الفتنةُ في تمحيصِ حقيقةِ ما في القلوبِ بتعريضِها للشَّدائدِ كَمَا يُصهَرَ الذَّهبُ أو الفضَّةُ؛ فيمتازُ خَبَثُهما عن جوهرهما الخالصِ، فصارت الفتنةُ تَدُلُّ عَلَى المِحنةِ، وإيقاعِ الابتِلَاءِ أو التَّعريض له بالاخْتِبَارِ[4]،

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/91.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/359.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فتن).

والفِتْنَةُ في قوله تعالَى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ بِمَعْنَى: الِابْتِلَاءِ بِالْكُفْرِ، والرَّدِّ عَنِ الإيمانِ[1].

3) ﴿يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾: العَيْنُ والزَّايُ واللَّامُ تدورُ تصريفَاتُها على مَعْنَى المفارقةِ والتَّنَحّي بالقلبِ أو بالبدنِ أو بِكِلَيْهِما، ومنه قولُهُم: انْعَزَلَ عَنِ النَّاسِ؛ إذا تَنَحَّى عَنهُمْ جَانِبًا، والفعلُ (اعْتَزَلَ) يتعدّى بنفسِه، وبحرفِ الجرِّ (عَنْ)، فَيُقَالُ: اعتزلَ الشَّيْءَ، واعتزلَ عَنْهُ، بمعنَى: بَعُدَ وَتَنَحَّى وتجنّبَ الشَّيْءَ بالبدنِ أو بالقلبِ، و﴿يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾ في الآيَةِ الكريمَةِ هُو بِمَعْنَى المُفَارقةِ والتَّنَحِّي بعيدًا[2].

4) ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾: الثَّاءُ والقافُ والفاءُ تدلُّ تصريفَاتُها على تمكّنٍ يُبَلِّغُ به أتقنُ أحوالِ الشّيءِ وأحكمُها، ومَنْ تمكّنَ من شيءٍ أشدَّ التمَكُّنِ؛ فقد ثَقِفَهُ، وَيُطْلَقُ الثَّقَفُ على الظفرِ بالشَّيءِ والتَّمكّنِ مِنْهُ مغلوبًا بعد الطَّلبِ[3]، وقولُهُ تعالَى: ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ معناهُ: ظَفِرْتُم بِهِم مَغْلُوبين متمكَّنًا مِنهم[4].

5) ﴿سُلۡطَٰنًا﴾: السِّينُ واللَّامُ والطَّاءُ تدورُ اشتقَاقَاتُها على معنَى التّمكّنِ من القوَّةِ والقهرِ؛ ولِهذا أُطلقَ السُّلطانُ على الحجَّةِ والبرهانِ، والسُّلطانُ: الحاكمُ ذو القدرةِ الظَّاهرةِ الواضحةِ، وهُو في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا مُّبِينًا﴾ بمعنى الحُجّة والبُرهانِ[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ستَجِدُونَ قريبًا قومًا آخرين مِنَ المنافقينَ المخادعينَ، يُظهرونَ الإسلامَ لِرسولِ اللّهِ ﷺ وأصحابه؛ لِيَطْمَئِنُّوا على أنفسِهم وأموالِهم، ويظهرونَ الكفرَ لقومِهم؛ لِيطمَئِنُّوا على أنفسِهم وأموالِهم ونسائِهم وذَرَارِيهم، كلَّما دَعاهم قومُهم إلى الكفرِ رجعُوا إلَيْه، فإنْ لَمْ يَعْتَزِلْكم هؤلاءِ، ولم يَنْقَادُوا لكم، ولم يتركُوا التعرّضَ لكُم، فخذوهُم واقتلُوهم في أيِّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/26، والرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1385.
(2) الراغب، المفردات، والفيومي، والمصباح المنير: (عزل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثقف)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقف).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/92.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سلط).

مكانٍ لَقيتموهم مِنَ الأرضِ، وأولئكَ الّذين تميّزوا عمّنْ عداهُم قَدْ جعلنا لكم حجةً ظاهرةً في قتالِهم وقتلِهم وأسرِهم أينَما لَقِيتُمُوهم؛ بسببِ إقامتِهِمْ على كُفْرِهم، وخداعِهم المُؤْمنين[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ السِّينِ فِي ﴿سَتَجِدُونَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾:

بِـشَـارَةُ أَهْـلِ الْإِيـمَـانِ بِقُرْبِ ظَـفَــرِهِــمْ بِالْمُخَادِعِينَ

لمّا كانَ الوِجدانُ هو تحصّلُ شيءٍ ذي بالٍ، والظَفَرُ بهِ في حَوزةٍ؛ ناسبَ أنْ يُعبِّر به عن وِجدانِ هؤلاءِ القومِ مِنَ المنافقين الّذين تميّزوا من غيرِهم مِنَ الكفَّارِ والمنافقين بشدّةِ مكرِهم وخَديعتِهم وجُبنِهم؛ لِخوفِهم على أنفسِهم وأهليهم وأموالِهم؛ فكأنّه قال: سَتَظْفَرُونَ قريبًا بهؤلاءِ القومِ الذين شأنُهم أشدُّ من شأنِ سائرِ المُنَافِقِين في الخديعةِ وفي الجُبنِ، وفي التَّعبيرِ بِشارةٌ لِلْمُؤْمِنِين بِقُربِ العُثورِ عَلَيهِم بِوعدٍ لا شكَّ فيهِ بِدِلَالَةِ حرفِ التَّنفيسِ الدالِّ على المستقبلِ القريبِ[2].

نُكْتَةُ حَذْفِ الْمَوْصُوفِ وَإِقَامَةِ الصِّفَةِ مُقَامَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾:

الْمُنَافِقُونَ وَإِنْ كَانُوا فِئَةً وَاحِدَةً فِي أَصْلِ النِّفَاقِ، لَكِنّ صِفَاتِهِمْ مُتَنَوِّعَةٌ

أصلُ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾: (سَتَجِدُونَ قَوْمًا آخرين)، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقِيمَتِ الصِّفةُ مُقامَه؛ لِأنَّ هذه الفئةَ لمّا كانت تعيشُ بالتَّخفّي والخِداعِ؛ ناسبَ أنْ يُحذفَ المَوْصُوفُ الدالُّ على الذَّاتِ وتُذْكَرَ الصِّفةُ؛ لِلإشعارِ بتَخَفِّيهم، وأكَّدَ هذا المعنى مجيءُ الصِّفةِ نكرةً دالّةً على الشّيوعِ، وقد أُتْبِعَتْ بِذِكْرِ أوصافِهم في قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾؛ لِتَخْصِيصِهم.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/27 - 29.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/359.

وفي التَّعبير بالصِّفَةِ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ إيماءٌ إلى أنّ المُنَافِقِينَ وَإِن كانُوا فئةً واحدةً في جِنْسِ نِفَاقهم، لكنّ صِفَاتِهم متنوّعةٌ، ومَرَاتبَهم في النِّفاقِ كثيرةٌ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ الْإِرَادَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾:

لَيسَ لِلْمُنَافِقِينَ هَمٌّ إِلَّا الدُّنْيَا

عُبِّر بفعل الإرادَةِ في قوله تعالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾؛ لِمَا في الفعلِ من مَعْنَى المقابلةِ بينَ ما يُريدُه المُؤْمِنون ومَا يُريدُه المنافِقُون، فقد ذَكَرَ اللّه تعالَى أنّ المؤمنين يُريدُونَ هدايَةَ المُنَافِقِين، ولَامَهم عَلَى هَذَا، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، وفي هذه الآيَةِ ذَكَرَ ﷻ أنَّ هَمّ المُنَافِقين هُو الدُّنْيَا، فَهُمْ يُرِيدُونَ أنْ يَأْمَنُوا المُؤْمِنين علَى أنفسِهم ومالِهم، ويأمَنُوا قومَهم كذلك، وشتّانَ بينَ الْإِرَادَتَيْنِ.

كما أنّ التَّعبيرَ بالإرَادةِ مشْعِرٌ بعدَمِ تحقُّقِ حصولِهم على مرادِهِمْ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ أَمْنِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمْنِهِمْ قَوْمَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾:

تَفَاوُتُ الْمُنَافِقِينَ فِي دَرَكَـــاتِ نِـفَـاقِـهِـمْ وخِدَاعِهِمْ

وردَ الفِعْلَانِ ﴿يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ﴾ علَى صُورَةٍ واحِدَةٍ ملائمةٍ لِلْوَاقِعِ، فلَفْظُ الفعلَيْنِ متماثِلٌ، ولكنَّ المَقْصُودَ بِهِمَا مختلفٌ، فذهابُهم إلى المُؤْمِنين يبايِنُ ذهابَهم إلى قَوْمِهم، والأمانُ الذي يُريدونه مِنَ المُؤْمِنين غيرُ الأمانِ الذي يريدونَه مِن قومِهم، ودلَّ اقترانُ الفِعْلَيْنِ مِنْ غيرِ فاصلٍ بينَهُمَا على أنَّ أمانَهم لا يتمُّ إلَّا بتحصيلِ الأمَانَيْنِ معًا.

وقُدِّمَ قولُهُ: ﴿يَأْمَنُوكُمْ﴾ علَى ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾؛ لأنّه لمّا كانت هذه الفئةُ مِنَ المُنَافِقين أشدَّ خوفًا مِنَ المُؤْمِنِين وأكثرَ مُخادعةً لَهُم مِن سَائرِ المنافِقين؛ ناسبَ أنْ يُقدّمَ الأهمُّ عندَهم، والأعظمُ في

نفوسِهم؛ وهو أنْ يأمَنُوا المُؤْمِنين، فإذا أَمِنُوا المؤمنِينَ؛ سهُلَ عليهم أنْ يأمَنُوا قومَهم؛ لِموافقتِهم لَهُم في الكُفرِ، ولأنَّ عادةَ الْقَوْم عدَمُ مُحَارَبَةِ مَن كانَ مِنْهُم.

وقُدِّمَ ضميرُ الخطَابِ لِلْمُؤْمِنين على ضميرِ الْغَائِبِ لِلْمُنَافِقين علَى نَسَقِ تقديمِه في السِّياقِ نفسِه؛ فقولُه تعالى: ﴿أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ نظيرُ قَوْلِه تعالَى قبلُ: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾[1]، في أنّ وجهَ التّقديمِ هُوَ أنَّ خوفَ المنافقِين مِنَ الْمُؤْمِنين أكثرُ من خوفِهم مِن قومِهم، وحِرْصَهم على أنْ يأمَنُوا المؤمنِين أشدُّ مِن حرصِهم على أنْ يأمَنُوا قومَهم، والسّياقُ كلُّه يَجْري على هذا النَّسقِ مِنَ التّقديم، كما في قَوْلِهِ: ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾، و﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم﴾، ولكلّ تقديمٍ خَصوصيّتُهُ ومناسبتُه كما تبيّنَ ذلكَ في مَوْضِعِه.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿كُلَّ مَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾:

تَكْرَارُ الْوُقُوعِ فِي الْفِتْنَةِ يُورِثُ الِانْغِمَاسَ فِيهَا؛ فَلَا يَكَادُ يُخْرَجُ مِنْهَا

أفادت ﴿كُلَّ مَا﴾ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ عمومَ الوقتِ وتَكرارِ الفعل؛ إذْ لا يأتِي بعدَها إلّا فعلٌ، وَيدلُّ عمومُ الوقتِ وما يَقْتَضِيه مِنَ التَّكرارِ على أنّ الرَّدَّ إلى الفِتْنَةِ كَان يَتَكرَّرُ مِنْ غيرِ انقطاعٍ، ويتكرّر فعلُ الْإِرْكَاسِ فيها، ففي مَجِيءِ ﴿كُلَّ مَا﴾ تَصْويرٌ لِحَالِهم الْمُتَكرِّرةِ وَقْتًا فوقتًا بينَ الفِتْنَةِ والِانْغمَاسِ فيهَا.

ولمّا كانَ الرَّدُّ هو رجوعُ الشَّيءِ إلى ما كانَ عليهِ، والْإِرْكَاسُ هو ردّ الشّيءِ بقَلْبِه عَلَى رَأْسِه، فكانَ فيه مَعْنَى الِانْغِمَاسِ؛ ناسبَ أنْ يكونَ الرَّدُّ مَوْصُولًا بالحَرْفِ الدالِّ علَى انْتِهَاءِ الغايةِ (إلى) في قوله تعالَى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾؛ لإفادةِ انتهاءِ ردِّهم

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 5/109.

إلى الفتنةِ، وأنْ يكونَ الْإِرْكَاسُ مُقْتَرِنًا بـ (في) الدَّالّةِ على مَعْنَى الظَّرفيَّة؛ لإفادةِ ظرفيَّةِ الْفِتْنَةِ لِلانغِمَاسِ فيها.

بَرَاعَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾:

المُبَالَغَةُ فِي بَيَانِ قُبْحِ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ المُنَافِقِينَ

في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ استعارَةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذْ شُبِّهَ حالُ رَدِّهم إلى الْكُفْرِ أو تَصْيِيرِهم إلى النَّارِ بعدَ أنْ كان مصيرُهم إلى الجنَّةِ باعتبارِ حَالِهِمُ الأصليَّةِ[1] بِتَحوّلِ الطَّعامِ إلى الرَّجيعِ؛ فيكونُ مِنْ تصويرِ المعقولِ - وهو التحوُّلُ مِنَ الإيمانِ إلى الكُفرِ - في صورةِ المحسوسِ الّذي هو تحوّلُ الطَّعامِ الطَّيِّبِ إلى الرَّجيعِ؛ ونُكْتَتُهَا: الإشارةُ إلى تأكيدِ ظهورِ تحوّلِهم الشَّنيعِ، وفيها: زيادةُ تقبيحِ حالِهم، وبيانُ شِدَّةِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفرِ والباطلِ وعَدَاوَةِ المُسلِمِينَ، وأنَّه يبعُدُ رجوعُهُمْ بعد هذه الحالِ إلى الحقِّ؛ إذْ مَن وَقَعَ في شَيءٍ مَنْكُوسًا يَتَعَذَّرُ خُرُوجُهُ مِنْهُ عادةً، وفي هذه الِاسْتِعَارَةِ أيضًا: مزيدُ مبالغةٍ في بيانِ قبحِ حالِ هذا الصِّنفِ مِنَ المنافقين وخُبثِهم؛ لِظهورِ غدرِهِم وخداعِهِم، واقترنتِ الاستعارةُ هُنَا بـ ﴿كُلَّ مَا﴾؛ لِيفيدَ استمرارَ إركاسِهم في فتنةِ الكُفرِ.

وقد ذكرَ اللّٰه تعالَى الطَّائفةَ الأولى من المنافقين فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾، فلم يصرّح بموضعِ الإركاسِ، ولمّا كانت هذه الطَّائفةُ أشدَّ من الّتي قبلَها نفاقًا لمكرِها وخداعِها صُرِّحَ بإركاسِهم هُنَا، فقال سُبحانَهُ: ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾؛ أي: في الفتنةِ، والمعنى: قُلِبوا فيها أقبحَ قلْبٍ وأشنَعَه، وكانوا فيها شَرًّا من كلِّ عدوٍّ شرّيرٍ[2].

وبُنِيَ الفِعْلُ ﴿أُرۡكِسُواْ﴾ لِمَا لَم يُسمَّ فاعِلُهُ؛ لِلإبهامِ عَلَيْهِم، فلا يَعْلَمُون مَنْ يُرْكِسُهم ويَغْمِسُهم في الكُفرِ؛ تهويلًا وتخويفًا، بخلافِ قولِهِ تعالَى قبلُ: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾، فقد نُصَّ على الفاعلِ،

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/173، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/254.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/214.

وهو اللّهُ ﷻ؛ لأنّه رُتِّبَ عليهِ لَوْمُ المؤمنِين على انْقِسَامِهم طَائِفَتَيْنِ في أمرِ المنافقينَ ولومِهم على إرَادَتِهم هدايةَ الْمُنَافِقِين، فلأجلِ أن يَقْطَعُوا الأملَ في الأمرِ؛ نُسِبَ إركاسُهم إلى اللّهِ ﷻ على الأصلِ في أنَّ اللّه تعالَى هو الّذي يَهْدِي ويُضِلُّ.

بَدِيعُ الْمُقَابَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ **مَعَ الْآيَةِ قَبْلَهَا:**

تَفْصِيلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِبَيَانِ أَحْوَالِهَا؛ لِئَلَّا يَبْقَى لَبْسٌ فِيهَا

جاءَتْ هذه الآيةِ مُنَاسبةً لِمَا قبلَها في اللّفظِ والمَعْنَى، وقد تضمَّنَتَا مقابلَةَ ثلاثَةِ معانٍ بثلاثةٍ، وهي:

أوَّلًا: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾، فإنَّه مقابلٌ لِقَوْلِه قبلُ: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾.

ثانيًا: ﴿وَيُلْقُوٓاْ﴾، فإنَّهُ يُقابِلُ قولَهُ: ﴿وَأَلْقَوْاْ﴾؛ وذلك لأنَّ قولَهُ: ﴿وَيُلْقُوٓاْ﴾ كان في حيِّزِ النَّفْيِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، والتَّقدير: ولَم يُلقُوا إليكم السَّلَمَ[1].

ثالثًا: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾، فهو مقابلٌ لِقَوْلِه تعالَى: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، ووجهُ المقابَلَةِ ههنا كالذِي قبلَهُ؛ لأنَّ فعلَ الكفِّ في حيِّزِ النَّفْيِ، والمعنى: ولم يكفُّوا أيديَهُمْ؛ وذلك بقتالِكُم.

فهذه ثلاثةُ معانٍ تقابلُ ثلاثةَ معانٍ؛ وهي في الآيةِ الأُولَى: الاعتزالُ، وعدمُ القتَالِ وإلقاءُ السّلمِ، فبهذه الأجزاءِ الثّلاثة تمَّ الشّرطُ، وجزاؤُه: عدمُ التعرّضِ لهم بالأخذِ والقتلِ، كما يشيرُ إليهِ قولُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وفي الآيةِ الأخرَى: عدمُ الاِعْتِزَالِ، وعدمُ إلقاءِ السّلمِ، وعدمُ الكفِّ عَنِ القتالِ، فبهذه الأجزاءِ الثّلاثة تمَّ الشّرطُ، وجزاؤُه: الأخذُ والقتلُ المصرّحُ به بِقَوْلِه سبحانه: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾[2]، فكانَ ما تضمَّنَهُ الجزاءُ في الآيتينِ الكريمَتَيْنِ معنًى رابعًا تمَّت به المقابَلَةُ.

(1) المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص: 117.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/107.

سِرُّ تَغايُرِ أَلْفاظِ الْمُقابَلَةِ فِي الْآيَتَيْنِ:

دِقَّـةُ اخـتـيـارِ الْأَلْفاظِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُناسِبَةِ لِأَحْوالِ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهُمْ

اختلفَ التَّعبيرُ في الكلامِ على الْفريقَيْنِ مِنَ الْمُنَافقينَ نَظَرًا إلَى الحَالِ الْمُتَرَقَّبَةِ مِنْ كُلِّ فَريقٍ؛ وهُوَ افتِنَانٌ بَديعٌ لَم يَبقَ مَعَهُ اختِلَافٌ في الحُكم، ولَكِن صُرِّحَ باختِلَافِ الحَالَين، وبوَصفِ مَا في ضَميرِ الفَريقَين، فقالَ عندَ الكلامِ على الصِّنفِ الأوَّلِ مِنَ الْمُنَافِقينَ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، فجاءتِ الصِّيغُ في سياقِ إيجابِ الاعتزالِ، وإيجابِ إلقاءِ السَّلَم، ونفيِ المقاتلةِ؛ إذ كانوا مُحِقِّينَ في ذلك مُعْتَقِدينَ له[1]، فكأنّ الأصلَ اعتزالُهم، ونفيُ قتالِهم، وإلقاءُ السَّلَم؛ لِمناسبةِ ما ذُكِرَ مِنَ العهدِ أو كراهةِ قتالِ المؤمنينَ، فإنْ فَعَلُوا هذه كلَّهَا؛ فالجزاءُ بطريقةِ النَّفيِ، وهو ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾، بالنَّظَرِ إلى أنَّ الغالبَ أنْ يَفْعَلُوا، ولمّا جاءَ سياقُ ذِكْرِ الْمُنَافِقين الّذين يُترقَّبُ خداعُهم وغَدْرُهم؛ جاءتِ الصِّيغُ مختلفةً، فكانتْ أشدَّ وأحزمَ؛ لأنَّهم كلّما رُدّوا إلى الفتنةِ انْغَمَسُوا فيها، إذ وردتْ على طريقةِ السَّلبِ والتَّجريد، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾؛ فلْيَحْذَرَ المؤمنُونَ خِداعَهم ومَكْرَهم؛ شَرَطَ نفيَ الاعتزالِ وَإلقاءِ السَّلمِ وكفِّ الأيدي، وجعلَ الجزاءَ إنْ فُقِدَ شرطٌ من هذهِ الشُّروطِ أخذَهم بقوّةٍ وقتلَهم، وجاءَ ذلكَ بطريقِ الإثباتِ، فقال تعالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾، بالنَّظرِ إلى أنَّ الغالبَ في الْمُخَادِعين أنْ يَمْكُرُوا ويَتَخَلّوا عَمّا ذُكِرَ؛ فتأمّلْ فصاحةَ الكلامِ وبلاغَتَهُ؛ إذْ ناسبَ حالَ كلِّ طائفةٍ ألفاظُها وصِيَغُها.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ نَفْيِ إِلْقاءِ السَّلَمِ عَلَى نَفْيِ كَفِّ الْأَيْدِي فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾:

لمّا كانَ شعارُ هذهِ الطَّائفةِ مِنَ المنافقينَ هو الخِداعُ والمَكْرُ؛ ناسبَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/92، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/155.

دِقَّـةُ تَـصَـرُّفِ الْـقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الـتَّرَاكِـيـبِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا

أنْ يُقدَّمَ ما يدلُّ على ظُهُورِ انْقِيَادِهِم على الكفِّ عنِ القتالِ، وذِكْرُ انقيادِهِمْ أولَى بَعْدَ اعْتِزَالِهِم؛ لِيُؤمَنَ مَكْرُهُم وخداعُهم، بخلاف الآيةِ المتقدِّمَةِ في سياقِ ذِكْرِ الّذين يَصِلُونَ إلى قوم بينَهم وبينَ المؤمنين عهدٌ، أو عن الّذين يكرهونَ قتالَ المؤمنين؛ فقد قُدِّمَ نفي القِتالِ على إلقاءِ السَّلَمِ في قولِه تعالَى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾؛ لأنَّ الأهمَّ فِيهَا هُوَ تركُ القتالِ المُستتبعِ لزومًا لِلاعْتِزَالِ والتّنحّي عنِ الْمُؤْمِنِينَ، وأمّا إِلْقَاءُ السَّلَم؛ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ عنهم؛ لِمناسبةِ العَهْدِ أو كراهةِ قتالِهِمُ الْمُؤْمِنِين.

تَأْكِيدُ التَّحْذِيرِ مِـنَ الْـمُـنَافِـقِـينَ الْمُخَادِعِينَ

نُكْتَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ كنايةٌ عَن تَرْكِ الْقِتَالِ[1] بِذِكْرِ لازمِه؛ لِيَنْتَقِلَ الذّهنُ فيهِ من كفِّ اليَدِ إلى تَرْكِ السِّلاحِ، وَمِنْ تَرْكِ السّلاحِ إلى تركِ القتالِ، كما أنّ كفَّ الأيدي أعمُّ من ترك السّلاحِ، فالأذيّةُ باليَدِ قد تكونُ بغيرِ سلاحٍ؛ فأفادتْ هذهِ الكنايةُ كلَّ هذه المعاني.

وأوثِرَ التَّعْبيرُ بالكِنَايةِ مع هذا الصّنفِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ المخادعين؛ مبالغةً في التَّحذيرِ منهم، لِشِدّةِ مَكرِهم وغَدْرِهم.

وَعْدُ اللهِ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِتَيْسِيرِ تَمْكِينِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ

دِلَالَةُ ﴿حَيْثُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾:

لفظةُ ﴿حَيْثُ﴾ تَقَعُ على الجِهاتِ السِّتِّ، وَعلى كلِّ مَكانٍ، فاستعمالُهَا في قَوْلِه تعَالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ تفيدُ الإبهامَ في الأَمكنة؛ لِوقوعِها عليها جَميعًا[2]، وَأُزيلَ هذا الإبهامُ بالجملةِ بعدَهَا: ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، والمَعْنَى: خُذوهُمْ بِقوَّةٍ واقْتُلُوهُم في أيِّ مكانٍ تَثْقَفُونَهُم فيهِ، وفي هذا إشارةٌ إلى الْوَعْدِ بتَيْسِيرِ التَّمْكِينِ مِنْهُمْ[3].

---

(1) الكلام ههنا عَنْ خصوصِ ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾، وإلاَّ فهذا التَّركيبُ واردٌ في حيِّزِ النَّفْي.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/114.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 5/360.

دِلَالَةُ الْفِعْلِ (ثَقِفَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾:

مِنْ أَصْنَافِ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَتَعَذَّرُ كَشْفُ حَقِيقَتِهِ

لمّا كانَ هذا النَّوعُ مِنَ المنافقين قد يَتَفلّتُ وَيصعُبُ إيجادُهُ، فمَا هُم بِمُخلِصي الوُدِّ لِلْمُؤْمِنين ولا لِقومِهم؛ لِشدَّةِ مكرِهم وخداعِهم؛ كانتْ كلمةُ ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ هي المناسبةُ لِلْمقَام؛ لِمَا في الكلمةِ مِنْ معنى الطَّلَبِ وَالظَّفرِ بهم، والتَّمكُّنِ منهم مَغلوبينَ مَقهُورِينَ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

لَوْلَا كَشْفُ اللهِ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ بِبَيَانِ أَوْصَافِهِمْ؛ لَالْتَبَسَ أَمْرُهُمْ غَايَةَ الِالْتِبَاسِ

جيءَ باسم الإشارةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ لِتمييزِ المَوْصُوفِين أكملَ تمييزٍ[1]؛ لِحاجةِ المقام إليهِ؛ لِأنّهم كانوا يُظْهِرُون لكلٍّ مِنَ المُؤْمِنِينَ والكافرين أنّهم مِنْهُمْ.

وعُبِّرَ باسمِ الإشارةِ الّذي للبُعْدِ؛ لِصعوبةِ التَّعرُّفِ عليهم، لَولا أنْ كشفَهم اللّه تعالَى ببيانِ أوصافِهم.

وأشعرتْ ميمُ الجمعِ في ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ بظُهورِ الحجّةِ على هذا الصِّنفِ مِنَ المُنَافِقِينَ المخادعينَ لجميعِ المؤمنينَ بِمَا ذُكرَ مِنْ أوصافِهم.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

انْكِشَافُ أَمْرِ الْمُنَافِقِينَ يَجْعَلُ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِمَنْأًى عَنْ شُبْهَةِ الِاعْتِدَاءِ فِي قِتَالِهِمْ

عُبِّرَ بحرف الجرِّ (علَى) في قوله تعالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ لِإفادةِ تمكُّنِ البُرهانِ القاهرِ الواضحِ على نِفَاقِهم، فاسْتَوْعَبَهُم مِنْ عُلوٍّ، وناسبَه ذكرُ ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ لِمَا تدلُّ عليه كلمةُ سُلْطَانٍ من مَعْنَى القَهرِ والحُجَّةِ والبُرهانِ، (فَلَا يُخشَى أَنْ يُنسَبَ المُسلِمُونَ في قِتَالِهم إلَى اعْتِداءٍ)[2]؛ لِوضوحِ الحُجَّةِ على نِفاقِهمْ.

وفي وَصْفِ السُّلطانِ بالمُبِين مجازٌ عقليٌّ؛ ونكتَتُهُ: المبالَغَةُ في وَصْفِ الحُجَّةِ عليْهِم بالقُوّةِ والظُّهورِ.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/155.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/155.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٩٢﴾ [النساء: 92]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من بيانِ أَحكامِ معاملة الْعَدُوِّ إِلَى أَحْكَامِ مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ

لَمَّا بَيَّنَ اللّه تَعَالَى أَحْكَامَ المعاملةِ مع الْمُنَافِقِينَ الكفّار المعاهَدين والمخادِعين الَّذينَ يُظهِرُونَ الإِسْلَامَ مكرًا، وَيُسِرُّونَ الْكُفْرَ، وَيُعِينُونَ أَهْلَهُ عَلَى قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وكانَ ربَّما قُتِلَ مَنْ لا يَستحقُّ القتلَ بسببِ الإلباسِ؛ نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ أَحْكَامَ قَتْلِ مَنْ لَا يَحِلُّ قَتْلُهُ مِنْ مُؤْمِنٍ وَمُعَاهَدٍ وَذِمِّيٍّ وَمَا يَقَعُ مِنْ ذَلِكَ خَطَأً، والتَّفَنُّنُ في انتقالِ الغَرضِ - مِنْ بيانِ أحكامِ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْعَدُوِّ إِلَى أَحْكَامِ مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ - يُنشِّطُ السَّامعَ[1].

فتعلُّق هذه الآية بما قبلها: هو أنَّه لَمَّا ذكر فيما قبلها حُكْمَ من أَسْلم، فمنعه عذرٌ من مقابلة أعداء المسلمين، وحُكْمَ من لم يُسلم، وإنَّما يريد أن يَسْلَمَ على الفريقين، فأمر في الأولى بالتَّجافي، وفي الثَّانية بقتلهم؛ بيَّن هاهنا خطر قتل المؤمنين، وجعلهم صنفين: مقتولاً خطأً، ومقتولاً عمدًا، فبيَّن حكم الخطأ، وجعل المقتولين ثلاثة أصناف، ثمَّ بيَّن بعدها حكم قتل العمد[2].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/174، ورضا، تفسير المنار: 5/270، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/156.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1398.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿خَطَـًٔا﴾: الخطأُ ضدُّ العَمْدِ، وأصلُ خَطَأَ يَدُلُّ عَلَى تَعَدِّي الشَّيْءِ، وَالذَّهَابِ عَنْهُ، وَالخَطَاءُ مُجَاوَزَةُ حَدِّ الصَّوَابِ، والخِطءُ بالكَسْر: أرض يُخْطِئُها المطر، ويُصِيبُ أخرى قُرْبَها، ويدلُّ معنى الكلمة: على العدول عن الجهة وتخطّي المقصود، وكلُّ من أراد شيئًا، فاتَّفق منه غيره؛ يقال: أخطأ، وإنْ وقع منه كما أراده؛ يقال: أصاب، والخطأ ما فُعل عن غير تعمُّد[1].

2) ﴿فَتَحْرِيرُ﴾: أَصلُ الكلمةِ: حُرٌّ، ويدلُّ على خيارِ كُلِّ شيءٍ وخَالصه، والحُرُّ نقيضُ العبدِ، وتَحريرُ الكتابِ: تقويمُهُ، وحَرَّرْتُ القومَ: أطلقتُهم، وأعتقتُهم عن أَسرِ الحبسِ، وتحريرُ الرَّقبةِ: إعتاقُها، أي: جعلُ الإنسانِ حرًّا[2].

3) ﴿رَقَبَةٍ﴾: أَصلُ الكلمةِ (رَقَبَ)، وتَدُلُّ عَلَى انْتِصَابٍ لِمُرَاعَاةِ شَيْءٍ، ومِنْ ذَلِكَ الرَّقِيبُ، وَهُوَ الْحَافِظُ، وَمِنْ ذَلِكَ - أيضًا - اشْتِقَاقُ الرَّقَبَةِ الَّتِي هي العُنُق؛ لِأَنَّهَا مُنْتَصِبَةٌ، وَلِأَنَّ النَّاظِرَ لَا بُدَّ يَنْتَصِبُ عِنْدَ نَظَرِهِ، وعُبِّرَ بها عن الآدميِّ مِنْ تسميةِ الشَّيءِ باسمِ جُزئِهِ، وغلبَتْ في المملوكِ من الآدميِّين، وكلُّ (رَقَبةٍ) أو (رِقابٍ) في القرآنِ؛ هي بهذا المعنى[3]، إلَّا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمَّد ﷺ: 4] فإنَّها تعني: المقاتِلين (بالبناء للفاعل) المُجَيَّشين (بالبناء للمفعول) للحرب.

4) ﴿وَدِيَةٌ﴾: الدِّيَةُ مِنَ الْوَدْيِ، الْأَصْلُ: وِدْيَة، فَحُذِفَتِ الْوَاوُ، وهو مالٌ كان محوزًا يُخرجُه القاتلُ إلى وَليِّ الدَّم؛ لِأنَّه ينقذُ به نفسَه من القصاصِ، ويُعطَى إلى الوليِّ؛ لِيكونَ في حَوْزِهِ، يُقَالُ: وَدَى فُلَانٌ فُلَانًا، أَيْ: أعطى دِيَتَهُ إِلَى وَلِيِّهِ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يحقُّ لِمؤمنٍ الاعتداءُ على أَخيه المؤمنِ وقتلُه بغيرِ حقٍّ، وَلا ينبغي لهُ ذلكَ إلَّا أَنْ يقعَ منهُ القتلُ خطَأً مِنْ غيرِ عَمدٍ ولا قَصدٍ، ومَنْ وقعَ منه ذلكَ الخطأُ؛ فيجبُ عليهِ عِتقُ

(1) الراغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (حرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رقب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ودي).

قـتـالُ المـؤمـن كفرٌ، وقتله إثمٌ إلا أنْ يكونَ خَطَأً

رقبةٍ مؤمنةٍ، وتسليمُ ديةٍ مقدَّرةٍ إلى أهلِه، إلَّا أنْ يتصدَّقوا بها عليه، ويعفُوا عنه، فإنْ كانَ هذا المقتولُ خطأً رجلًا مؤمنًا، قد آمنَ - وبَقِيَ في قومِه، وهمْ كَفَرَةٌ عدوٌّ لكم - فلا دِيةَ فيه؛ لأنَّه أهدر دمه بمُقامِه بيْن ظهراني المشركين، فعرَّض نفسه، ولأنَّه لا توارث بين المشركين وقتيلهم المؤمن، والمال حقُّه، ولئلّا يتقوَّى المشركون بالمال على حرب المؤمنين، ولأنَّ اللّه أولى بالمؤمن من نفسه، وقد حكم بذلك.

وإنَّما كفَّارتُه تحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ، وإنْ كانَ هذا المقتولُ خطأً مؤمنًا، مِنْ قوم بينكم وبينَهم عهدٌ وميثاقٌ؛ فعلى قاتلِه دِيَةٌ تُسلَّمُ إلى أهلِه، وعتقُ رقَبةٍ مؤمنةٍ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ المقتولَ: إنْ كانَ مِنْ قوم معاهدين مؤمنًا أو غيرَ مؤمنٍ؛ فعلى قاتلِه دِيَةٌ تُسلَّمُ إلى أهلِه، وعِتقُ رقبةٍ مؤمنةٍ؛ حفظًا لِمكانةِ العهدِ والميثاقِ، فَمَنْ لم يجدِ العتقَ، ولا اتَّسعَ مالُه له بأنْ لم يجدِ القدرةَ على عتقِ رقبةٍ مؤمنةٍ، فعليهِ صيامُ شهرينِ متتابعينِ، وشَرَعَ اللّهُ لَكُمْ ما ذَكَرَ تَوْبَةً منهُ على القاتلِ، وكانَ اللّه تعالى عَلِيمًا بِأَحْوَالِ عبادِه، حَكِيمًا فِيمَا يَشْرَعُهُ لَكُمْ مِنَ الْأَحكام(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فرادةُ تركيبِ النَّفي:

النَّفسُ الصَّادقةُ في إيمانها تُحجِمُ عن القتل، ولا ترغب فيه

عبِّرَ بالتَّركيب: (ما كان لك أنْ تفعلَ كذا) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗا﴾، ولم يقل: (ما كنت لتفعل كذا) مع تقاربهما بوصفهما تعليلين بمعنى؛ لأنَّ أكثر ما يقال الأوَّل فيما كان الإحجام عنه من قبل نفسه(2)؛ دفعًا لرغبة في القتل، أو قصدًا إليه.

دلالة صيغة النَّفيِ بـ﴿وَمَا كَانَ﴾:

لمَّا كانَ النَّفيُ بصيغةِ الجُحودِ ﴿وَمَا كَانَ﴾ يُفيدُ نَفيَ الوجودِ؛ دلَّت

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/43، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/94، والبغوي، معالم التنزيل: 1/676.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1389.

في صيغة الجحود تغليظُ الزِّجر عن قتل المؤمن

هذهِ الصيغةُ على المبالغةِ في النَّفي، فلا نفيَ أبلغُ مِنْ نفي أصلِ وجودِ الشَّيءِ، والمعنى: مَا وُجِدَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا في حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، ولا يحصلُ في الوجودِ أصلًا إِلَّا في حَالِ الْخَطَأ؛ لِتغليظِ الزَّجرِ عنه لِمَا لِلنُّفوسِ عندَ الحظوظِ من الدَّواعي إلى القتلِ(1).

إعظامُ قتلِ المؤمنِ عمدًا، فهو محظورٌ البتَّة

وههنا لطيفة بلاغيَّة: وهي أنَّه لَمَّا كانَ قتلُ الخطأ أهونَ من قتلِ العمدِ - وقد أخرجه في صورةِ النَّفي المؤكَّدِ بالكونِ - دلَّ الكلامُ على إِعْظَامِ قتلِ الْعَمْدِ وَبَشاعة شَأْنِه، كَمَا تَقُولُ: مَا كَانَ لَكَ - يَا فُلَانُ - أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهَذَا إِلَّا نَاسِيًا؟ إِعْظَامًا لِلْعَمْدِ وَالْقَصْدِ مَعَ حَظْرِ الْكَلَامِ بِهِ الْبَتَّةَ(2).

إيثار التَّعبير بنفي الكون على غيره:

قتلُ المؤمن فعل غير مقصود

أوثِرَ نفي الكون بـ(ما) على قولهم: (لا يجوز) في قولهم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾؛ لأنَّه تركيبٌ يُقال في الأفعال الاختياريَّة المقصودة، فأمَّا الخطأ؛ فلا يقال فيه ذلك.

سببُ إيثارِ المصدرِ المُؤوَّلِ على الصَّريحِ:

وجه استحضار صورةِ قتلِ المؤمنِ لتقبيحِ الحالةِ

مَجيءُ المصدرِ المؤوَّلِ بَدَلًا مِنَ المَصدرِ الصَّريحِ في قولِه: ﴿أَن يَقْتُلَ﴾، فلمْ يقلْ: (قتلُ)؛ لِاستحضارِ صورةِ قتلِ المؤمنِ من صيغةِ الفعلِ المضارعِ، وما فيهِ من الشَّناعةِ وقبحِ الحالةِ تنفيرًا عنه وتقزيزًا منه.

الزَّجرُ عن قتلِ المؤمنِ مستمرٌّ في جميعِ الأزمنةِ

لَمَّا كانتِ الأَداةُ (أَنْ) تفيدُ الاستقبالَ؛ دلَّ على أنَّ المبالغةَ في الزَّجرِ عن قتلِ المؤمن مستمرَّةٌ منذ الزَّمن الماضي، أي: قبل نزول هذه الآية بدلالةِ ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع زمنِ الحالِ والمستقبل، فأفاد النَّفي بـ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع اقترانه بـ﴿أَن يَقْتُلَ﴾ استيعاب النَّفي للزَّمنِ المَاضي والحالِ والمستقبلِ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾. [الأحزاب: 53].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/360، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/156.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/313، الراغب، تفسير الراغب: 3/1389.

بلاغةُ الحصرِ في الآيةِ:

فائدةُ الحَصْرِ الادِّعائيِّ تأكيدُ المبالغةِ في الزَّجرِ

الحَصْرُ الَّذي تضمَّنَهُ هذا الأسلوبُ (ما - إلَّا) حصرٌ ادِّعائيٌّ لا حقيقيٌّ؛ لِتأكيدِ المبالغةِ في النَّفيِ، فقد دلَّ على نفيِ وجودِ قتلِ المؤمنِ لِلمؤمنِ إلَّا على سبيلِ الخطأِ، على سبيلِ المجازِ الحاصلِ من مجموعِ الكلامِ.

إيثار التَّعبير عن لَفظَي الإيمان بالمُشتقِّ:

سلبُ الإيمانِ مِن قاتلِ المؤمنِ حالَ القتلِ وعصمة دم مَن أظهر الإيمان أو تلفَّظ به جُنَّةً

إيثارُ مجيءِ لفظ ﴿لِمُؤۡمِنٍ﴾ صفةً مُقَامةً مُقامَ القاتل الموصوف، وقوله: ﴿مُؤۡمِنًا﴾ صفة للقتيل مُشتقَّين؛ يؤذنُ بأنَّ صِفَةَ الْإِيمَانِ في الْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ تُنَافِي الِاجْتِمَاعَ مَعَ الْقَتْلِ في نَفْسِ الْأَمْرِ، كما هو الحالُ في مُنَافَاةِ الضِّدَّيْنِ؛ لِقَصْدِ الإعلامِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لا يقتل المؤمن، وإِذَا قَتَلَ مُؤْمِنًا؛ فَقَدْ سُلِبَ عَنْهُ الْإِيمَانُ حال القتلِ، وَمَا هُوَ بِمُؤْمِنٍ، عَلَى نَحْوِ قولِ الرَّسولِ ﷺ: "وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا، وَهُوَ مُؤْمِنٌ"[1]، ولاسيَّما أنَّ النَّفيَ قد استوعبَ الأزمنةَ كلَّها كما تقدَّمَ، فيتناولُ زمنَ حالِ القتلِ، وأكَّدَ هذا مجيءُ الفعلِ ﴿يَقۡتُلَ﴾ بصيغة المضارعِ لتصويرِ بشاعةِ القتلِ، كما تقدَّمَ.

فقوله: ﴿لِمُؤۡمِنٍ﴾ في صفة القاتل، يعني: المستقبل لتعاليم دينه، المقيم حالًا واستقبالًا على إسلامه، بما يعني: مضاء نيَّته عزمًا وتصميمًا عليه دون انتقاص، وقوله: ﴿أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا﴾ في حقِّ القتيل، يعني: المُظْهِر لوقته توًّا الدُّخول فيه، بتلفُّظه بما يُحسِنُ ممَّا يَدُلُّ عليه، ولو عُدَّ مُقَصِّرًا في العبارة عن الوفاء بالمعنى، أو إفصاح الأداء، لمكان تردُّد العبارة بين إلقاء السَّلام، وإلقاء السَّلم؛ ليدخل فيمن نُهُوا عن قتْله مَنْ ظَنَّ به النُّطقُ بالشَّهادة تعوُّذًا، واعتبارًا بموقف النَّبيِّ العظيم الكريم من صنيع خالد ببني جُذَيْمَةَ، حيث بعثه إليهم، لمَّا لقوه؛ لم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/156.

صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتلهم، فلمَّا بَلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم؛ رفع يديه إلى السَّماء، وقال: "اللَّهمَّ إنِّي أبْرأ إليْك ممَّا صنع خالد"، وبعث عليًّا، فَوَدَى قَتْلاهم، وما أتْلَفَ من أموالهمْ حتّى مَيْلَغَةِ الكلْب[1]، وذلك كلُّه منْ أثر مُفادات تمحُّص دلالة اسم الفاعل على الاستقبال في اللُّغة الَّتي نزل بها القرآن الحكيم.

المؤمنُ حَنونٌ شفيقٌ على أخيه المؤمِنِ

قال القرطبيُّ: "آثرَ التَّعبيرَ بـ (مؤمن)؛ تَأْكِيدًا لِحنَانِهِ وَأُخُوَّتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَعَقِيدَتِهِ"[2]، ففي كلمةِ (مؤمِن) تأثيرٌ نفسيٌّ على القاتلِ، وتأنيبٌ له على قتلِ المؤمِن؛ ولو كانَ خطأً، ولخَصوصيَّة المفردة (مؤمن) عبّرَ الزَّمخشريُّ عن معنى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ بقوله: "وَما كانَ لِمُؤمِنٍ وما صَحَّ لَه ولا استقامَ ولا لائِقٍ بحالِه"[3].

حمْلُ دلالةِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفيِ:

الإيمان شأنٌ عظيمٌ، ووصف شريفٌ

جاءتِ الصيغةُ نكرةً في سياق النَّفي؛ لتفيدَ العمومَ، فتتناولُ الصِّيغةُ كلَّ مَنْ آمنَ باللّهِ ورسولِه، ولو كان أضعفَ الإيمان، بدلالةِ الإطلاقِ، كما دلّتِ الصِّيغةُ على أنّه لا فرقَ بينَ مؤمنٍ صغيرٍ ولا كبيرٍ ولا غنيٍّ ولا فقير ولا عالم ولا جاهلٍ، فالوصفُ الَّذي علِّق عليه الحكم: هو وصفُ الإيمانِ؛ تعظيمًا لهذا الوصف وتشريفًا له.

بلاغةُ التَّغليبِ في الكلامِ:

في مخاطبةِ الذُّكورِ دونَ الإناثِ تكريمٌ للمرأةِ بدفع شأن القتل عنها

جاء الوصفُ بصيغةِ المذكَّر (مؤمن) مخاطِبًا الذُّكورَ على التَّغليب، فاللَّفظ يتناولُ الإناثَ كذلكَ، ولابدَّ له من نكتةٍ معنويَّةٍ، وهي هنا ظاهرةٌ؛ فإنَّ الغالبَ أنْ يقعَ القتلُ من الرِّجالِ دونَ النِّساءِ، كما هو معروفٌ، ولمّا كانَ الكلامُ في سياقِ توبيخِ المؤمنين على القتلِ الخطأ وبيانِ بشاعته وقبحِه؛ دلَّ على تكريمِ المرأةِ، فالقتلُ ليسَ مِنْ شأنِها ولا مِنْ وصفِها.

---

(1) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 7189.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/313.
(3) الزمخشريّ، الكشاف: 1/548.

دلالةُ أسلوبِ الاستثناءِ في الكلامِ:

جاء الاستثناءُ متَّصلًا، والتَّقدير: نفيُ الإخبارِ عن وجودِ قتلِ المؤمنِ للمؤمنِ في جميعِ الأحوالِ المستلزم نفي الإخبارِ عن وجودِه في جميعِ الأزمنةِ والأمكنةِ إلَّا في حالِ الخطأ غيرِ المقصودِ، وتأكَّدَ عمومُ الأوقاتِ بما تقدَّمَ باستيعابِ الأزمنةِ مِن اقترانِ الكلامِ بـ﴿وَمَا كَانَ﴾ و﴿أَن﴾ المصدريَّة، فأشعرَ الكلامُ هنا بنفيِ وجودِهِ في عمومِ الأمكنةِ كذلك، فلا ينبغي أنْ يقعَ هذا القتلُ في جميعِ الأحوالِ والأزمنةِ والأمكنةِ.

قتلُ المؤمنِ جُرْمٌ لا ينبغي أنْ يقعَ في عمومِ الأحوالِ والأزمنةِ والأمكنةِ

إيثارُ اختيارِ (المؤمِنِ) دونَ (المسلم):

أناطَ اللّه تعالى الحُكمَ بما هو في القلبِ، لا بِمَا هو في الظَّاهرِ ليشملَ المَظْهَرَ والجوهر؛ لأنَّ الإيمانَ عملٌ قلبيٌّ، والإسلام أمرٌ ظاهريٌّ[1]؛ لأنَّ مواردَ القتلِ كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ، فجَعْلُ الإيمانِ مناطَها أرْجَى لِتركِ القتلِ، كما أنَّه أطلقَ وصفَ المؤمنِ؛ لأنَّ المُرادَ نفيُ أنْ يقعَ القتلُ مِمَّنْ له وصفُ الإيمانِ المُطْلَقِ.

الإيمان مظْهرٌ وجوهر، وهو أدْعى لعدمِ اقترافِ هذه الجريمة

دلالةُ ﴿وَمَن﴾ على عمومِ المؤمنين:

دلَّتْ ﴿وَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا﴾ على عمومِ المؤمنينَ، وليس المقصودُ عمومَ النَّاسِ، بقرينةِ السِّياقِ، فالخطابُ في أصْلِه للمؤمنينَ، كما أنَّ ذكرَ تحريرِ الرَّقبةِ المؤمنةِ في الجزاءِ دالٌّ على أنَّ المرادَ عمومُ المؤمنين، فيكونُ اللَّفظُ عامًّا مخصوصًا بالمؤمنين بقرينةِ المقامِ.

اللَّفظُ عامٌّ في النَّاس، مخصوصٌ بالمؤمنين بقرينة المقامِ

نكتةُ وضعِ الاسمِ الظَّاهِرِ موضعَ الضَّميرِ:

قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا﴾، ولم يقلْ: (وَمَنْ قتلَهُ خطأً)، معَ قُرْبِ ذكرِه؛ لِيفيدَ ذكرُ الاسمِ الظَّاهرِ تشنيعَ قتلِ المؤمنِ؛ ولو كانَ خطأً، فهُوَ في مقامِ التَّذكيرِ في أنَّ القاتلَ قد قتلَ مؤمنًا، فيكونُ

قتلُ المؤمنِ أمرٌ جَلَلٌ يستدعي التَّشنيع، والتَّهديد

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2548.

المقتولُ قدْ ترتَّبتْ له حقوقٌ وجبتْ على قاتله، ويكون القاتل مستحِقًّا للجزاءِ المذكورِ.

بلاغةُ تخصيصِ جزاءِ القتلِ بتحريرِ الرَّقبةِ:

حرِّيَّة من كرَمه اللـه حـيـاةٌ، وعبوديَّته وفاةٌ

الأصلُ في الجزاءِ أنْ يكونَ في مقابلِ الشَّرطِ من حيثُ المعنى، فالشَّرطُ للجزاءِ كالسَّببِ للمسبَّب، ولمّا جعلَ جزاءَ قتلِ المؤمنِ خطأً هو وجوب تحريرِ رقبةٍ؛ أفادَ أنَّ تحريرَ الرَّقبةِ حياةٌ لها، فالنَّفسُ المستعبدَةُ ميِّتةٌ؛ ليفيدَ أَنَّ ٱلۡحُرِّيَّةَ حَيَاةٌ، وَأَنَّ ٱلۡعُبُودِيَّةَ مَوۡتٌ، فكأَنَّ مَنۡ تَسَبَّبَ في نقصِ نَفۡسٍ حَيَّةٍ؛ كَانَ عَلَيۡهِ السَّعۡيُ في تعويضِ ما نقصَ بِإِحۡيَاءِ نَفۡسٍ هي كَٱلۡمَيِّتَةِ، وَهِيَ ٱلۡمُسۡتَعۡبَدَةُ[1]، ولمَّا كانَ الأصلُ أنْ تقعَ المجازاةُ عندَ وقوعِ الشَّرطِ[2]؛ دلَّ الكلامُ على الأمرِ بالإسراعِ في تحريرِ الرِّقابِ من العبوديَّةِ، وتشوُّفِ الشَّارعِ إلى تحريرِها كلَّ التَّحرُّرِ من العبوديَّةِ لغيرِ اللّٰه.

قصديَّة التَّعبير عن العِتْق بالتَّحرير:

ليس المقصود بالعقوبة إيذاء القاتل، وإنَّما نفع العبد

عبَّرَ عن العِتقِ بالتَّحريرِ؛ "للإشارة إلى أنَّ الحُرِّيَّة مقْصَدٌ من مقاصد الشَّارع الإسلاميِّ، وأنَّ العقوبة ليس المقصود بها إيذاء القاتل، إنَّما المقصود بها نفع العبد، وكذلك كلُّ عقوبة تكون بعتق رقبةٍ لَا يُقصد بها الإيلام، إنَّما يقصد بها تحرير الرِّقاب"[3].

بلاغةُ الحَذفِ في قولِه: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾:

تحْريرُ الرَّقبة أمرٌ عظيمٌ ذو شأنٍ يستحقُّ الحثَّ والتَّرغيب فيه

الحذفُ إمَّا أنْ يكونَ مِنْ حذفِ المبتدأ، أي: فشأنُهُ تحريرُ رقبةٍ، أو فحكمُهُ تحريرُ رقبةٍ، وإمَّا أنْ يكونَ من حذفِ الخبرِ، أي: فعليهِ تحريرُ رقبةٍ، بمعنى: فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ واجبٌ عليه، ويأتي هذا الأسلوبُ من الحذفِ في الأمرِ الَّذي يكونُ ذا شأنٍ، وفيه تعظيمٌ للمذكورِ، أي: تحرير الرَّقبةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/157.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/124.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1799.

فائدة التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

تحريرُ الرَّقبة أمرٌ حاصلٌ ثابتٌ ينبغي تحصيلُهُ والإسراعُ فيه

ورود قولِه: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ على طريقةِ الجملةِ الاسميَّةِ؛ يدلُّ على الثُّبوتِ وحَسْمِ الأمرِ فيه، ومثلُهُ قولُه تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ [يوسف: 83]، ولمَّا كانَ أمرُ تحريرِ الرَّقبةِ وتسليم الدِّيَةِ لأهلِ المقتولِ شأنًا عظيمًا ثابتًا مُتحقِّقًا، وينبغي تحصيلُهُ والإسراعُ فيه؛ جاءَ على هذهِ الطَّريقة.

بديعُ المجازِ المرسَلِ في تَحريرِ الرَّقَبَة:

تحريرُ الرَّقبةِ - بوصفها محلَّ الانقياد - حياةٌ للإنسانِ حِسًّا وَمَعنًى

ذكرَ اسمَ الجزءِ ﴿رَقَبَةٖ﴾، وأرادَ الحقيقةَ كلَّها (عِتقَ نَسمةٍ مملوكةٍ)، وآثرَ الرَّقبةَ دونَ غيرِها مِنْ أجزاءِ الجسمِ هنا؛ لِمناسبتِها للمقام، فإنَّهُ لمَّا كانَ الإنسانُ يموتُ بقطعِ الرَّقبةِ، وكانتِ الرَّقبةُ محلَّ الانقيادِ حقيقةً أو حكمًا؛ كانَ تحريرُها حياةً للإنسانِ حِسًّا ومعنًى.

نكتةُ التَّعبيرِ عن نفس الحرِّ بلفظة الرَّقبة:

المؤمن الصَّادق لَا يجوز له أن يَغُلَّ رقاب العباد، إلَّا لضرورة تقدَّر بقدرها

"عبَّر عن نفس الحرِّ بكلمة الرَّقبة، للإشارة إلى أنَّ الرِّقَّ غلٌّ معنويٌّ في الرِّقاب، وأنَّ المؤمن الصَّادق لَا يجوز له أن يَغُلَّ رقاب العباد، إلَّا لضرورة، والضرورة تقدَّر بقدرها، ولذلك عبَّر ﷻ عن العتق بفكِّ الرَّقبة في آية أخرى، فقال سبحانه وجلَّت كلماته: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾ [البلد: 11 - 13]"[1].

بلاغةُ مجيءِ الإنشاءِ بصيغةِ الخبرِ:

القرآنُ متشوِّفٌ لتحريرِ العبيدِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ؛ إذْ جاءَ بأسلوبِ الخبرِ، والمرادُ تضمينُه معنى الأمرِ، بمعنَى: (فعَلَيهِ تحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ وديَةٌ مسلَّمَةٌ إلى أهلِهِ)؛ لِتخييلِ صورةِ تحريرِ الرَّقبةِ في صورةِ الأمرِ الحاصلِ الثَّابتِ، والتَّشوُّف لتحرير الرَّقبة، فمجيءُ الخبرِ في موضعِ الطَّلبِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1799.

هنا أبلغ في الدّلالة على السُّرعة في الامتثالِ، كأنَّ هذا من لازم وصفه بالإيمان، وليخلُصَ له وصفه به.

سببُ إيثارِ تركيبِ: (تحرير رقبة):

الإنسان مالكٌ لا مملوكٌ

لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ في أَصلِ خلقةِ اللّهِ له خُلِقَ؛ لِيَكُونَ مَالِكًا لِلْأَشْيَاءِ لا مملوكًا، بمقتضى تكريم اللّهِ لَه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البَقَرَة: 29]، فَكَوْنُهُ مَمْلُوكًا يَكُونُ صِفَةَ تَكَدُّرٍ مُقْتَضَى الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَشَوُّشِهَا، فَلَا جَرَمَ سُمِّيَتْ إِزَالَةُ الْمُلْكِ: تَحْرِيرًا، أَيْ: تَخْلِيصًا لِذَلِكَ الْإِنْسَانِ عَمَّا يُكَدِّرُ إِنْسَانِيَّتَهُ(1).

علّة الاقتران بين الدِّية المسلَّمة، وتحرير الرَّقبة:

الجمع بين الدِّية، والتَّحرير؛ إشعارٌ بتكميل كلٍّ منهما الكفَّارة

الاقتران في الإيجاب بين الدِّية المسلَّمة، وتحرير الرَّقبة المؤمنة المأمور بهما، إشعارٌ بتكميل كلٍّ منهما الكفَّارة؛ إذ كلُّ منهما جزء منها بنفسه دون بقيَّتها، وكلٌّ من الجزأين بمفرده نقصٌ عن الرَّدع المُتَوخَّى للجاني، فالمسألة ردع له، ليس إلّا، ولا نظر فيه لمقابلة النَّفس الَّتي اعتُدي عليها بالإزهاق؛ إذ لا يعيدها إلى الحياة شيء من ذلك، ولا ذلك نفسه؛ لو تمَّ بمجزئ.

دلالةُ تنكيرِ ﴿وَدِيَةٌ﴾:

لا دِيَةَ تُكافئ إزهاقَ روحِ المؤمنِ

جاءَ الاسمُ نكرةً منوّنًا؛ لِيفيدَ التَّنوينُ التَّقليلَ والتَّعظيمَ: فأمّا التَّقليلُ؛ فعلى معنى: أنَّ الدِّيةَ، وإن كانتْ كثيرةً؛ فهي قليلةٌ في مقابلِ قتلِ المؤمنِ وإزهاقِ روحِه، وأمّا التَّعظيمُ؛ فعلى معنى: تفخيم شأنِ الدِّيَة، وأنّها، وإنْ كانت لا تكافئُ قتلَ المؤمنِ؛ فلابدَّ من تسليمِها، ولاسيَّما أنَّها قُرِنَتْ بتحريرِ الرَّقبةِ، والاقترانُ إشعارٌ بالمقاربةِ بينَهما.

في تنكير الدِّية دفعٌ لإمكان ثبوت قيمتها

لو ذكرت الدِّية معْرِفةً؛ للزمَ تقديرُ النَّبيِّ ﷺ بيانًا لمعناها في القرآن، وما جاز تقديرها بغير تقديره، ولا الاتِّفاق على غيرها(2).

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/179.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1802.

سببُ إيثارِ صيغة اسم المفعول ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾:

الـدِّيـة شعـارُ السِلْمِ وَالمُسَالَمَةِ

لَمّا كانَ في القتل مَظِنَّة أخذ الثَّأرِ مِنَ القاتلِ؛ جاءَ بصيغةِ اسم المفعولِ؛ ليفيدَ أنَّ المقصودَ: هو وصولُ الدِّيَةِ إلى أهله بأيِّ طريقةٍ كانتْ، وليسَ شرطًا أنْ يوصِلَها القاتلُ بنفسِه إلى أهلِ المقتولِ، كما أنَّ مجيءَ الصيغةِ مشتقَّةً من (سَلَّمَ) تُشعِرُ بأنَّ الدِّيَةَ المؤدَّاةَ إلى أهلِ المقتولِ، فيها مَعنى: السِّلمِ والمسالَمَةِ، وأنَّها تَرضِيَةٌ لأهلِ القتيلِ(1)، وليستْ مقابلَ نَفسِ المقتولِ.

من حسن الأداء عـدمُ تكليف أسـرة المقتول شطط التَّقاضي والمطالبة

وفي التَّعبير بـ: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ ما يومئ إلى وجوب حسن الأداء، بألَّا يكلِّفوا أسرة المقتول شطط التَّقاضي، والمطالبة، فيجمعوا عليها ألمَ الفقْدِ، ووجع المصاب، ومضاضة الشَّكوى والتَّظلُّم والسُّؤال، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: 178](2).

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾:

يـجـبُ إيـصـال الـدِّيـة إلى أهل القتيل إظـهـارًا لـلـتَّـأسُّـف على فوات نفسه

يفيدُ حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ انتهاءَ الغايةِ، بمعنى: أنْ تكونَ الدِّيَةُ واصلةً إلى أهلِه مؤدَّاةً إليهم؛ إظهارًا للتَّأسُّف على فوات نفس القتيل دون قصدٍ إلى قَتله، وإكرامًا للمقتولِ ولأهلِه، ولو قالَ: (مسلَّمةٌ لأهلِه)؛ لما أفادَ ذلك.

ولمواساة أهله، وتخفيف أعباء الحياة عنهم حيث قُتِل كاسبهم حقيقة أو ظنًّا، ومن هو منهم بسبيل التَّخفيف والعون.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾:

العفوُ كالصَّدقة فضلًا وحثًّا عليه وترغيبًا فيه

جعلَ العفوَ عن الدِّيَةِ صدقةً منهم، فَبَدَلًا مِنْ أنْ يقولَ: (إلَّا أَنْ يَعْفوا)، قال: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾؛ ليكونَ استعارةً، تشبيهًا لِمَنْ يعفو بالمتصدِّقِ بجامعِ العطاءِ في كلٍّ، وكأنَّ الَّذي يعفو سُلِّمَ الدِّية، وَمَلَكَهَا،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/160.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1800.

وأعطاها، والدَّاعي إلى الاستعارةِ بذكرِ الصَّدقَةِ الحثُّ على العفوِ والتَّرغيبُ فيه، والتَّنبيهُ على فضلِه، "وأنَّه جارٍ مُجرى الصَّدَقةِ في استحقاقِ الثَّوابِ الآجلِ بهِ دونَ طلبِ العِوَضِ العاجلِ"[1].

الدَّلالةُ الصَّوتيَّةُ في قولِه: ﴿يَصَّدَّقُواْ﴾:

العفوُ عن الدِّيةِ مِــنْ أفـضـلِ الصَّدقاتِ

في إبدالِ تاءِ الافتعالِ صادًا وإدغامها في فاءِ الكلمةِ، مبالغةٌ في معنى التَّصَدُّقِ، بلحاظِ صفتي الفخامة والاستعلاء المتحقِّقتين في حرف الصَّاد، بمعنى: أنَّ العَفْوَ عَنِ الدِّيَةِ تكثيرٌ لِفعلِ التَّصَدُّقِ، فتكريرُ الصَّوتِ مفخَّمًا مُقوٍّ للمعنى.

علَّة التَّعبير بفعل التَّصدُّق تذكيرًا، وتأنيثًا:

أوثِـــرَ تـذكـيـر الفعل وتأنيثه لـلـتَّـنـويـه والإشـــــادة لصعوبة موقف فـقـد الـعـائـل وفوات المال

إنَّ التَّصدُّق بعيد التَّناول من أولياء الدَّم شديد التَّداخل بعضه في بعض؛ لما في أغوار النَّفس من فاجعة القتل وإحضار الأنفس الشُّحِّ به وقته، بيْد أنَّ ذِكْر الفعل في جملة: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ مع توالي التَّشديد فيه، يلمح إلى الأجر العظيم بآية سورة الحديد: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١٨﴾ [الحديد: 18]، فالمصَّدِّقون يدخل فيهم المصَّدِّقات بما يغني عن الذِّكر باعتبار أنّ كلًّا أشخاص، والمصَّدِّقات يدخل فيهنَّ المصَّدِّقون بجامع أنَّ الجميع أنفس، لكنَّ اللّه الرَّبّ المَوْلى آثر ذكر كلٍّ للتَّنويه والإشادة لصعوبة موقف فقد العائل وفوات المال عصب الحياة بالتَّنازل؛ وقد قوَّى هذا النَّظر الاستثناء، فإنَّه إخراجٌ من القاعدة أو الحُكم، وذكرت آية الحديد أنَّهم أقرضوا اللّه، فهُمْ ادَّخروا ذلك عنده، كأنَّهم بذلك أوثق بما في يد اللّه لهم ممَّا بأيديهم أنفسهم، فجُوزوا بما وُعِدوا به من ثواب وحسن مآب.

وجاء ذكر الصَّدقة والتَّصدُّق مغريًا لأولياء الدّم أن يتزكَّوا بالدُّخول من هذا الباب إلى ديوان الإحسان والعفو؛ كان الذِّكر

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1395، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/263.

نفسه حاضًا من وجبت عليه الدِّية في ماله من قاتل خطأ أو عصبةٍ أن يأنفوا من الرُّكون إلى قبول الصَّدقة، وأن يتنزَّهوا عنها؛ وإن ركبوا مراكب صعبة في سبيل أداء الدِّية تخفيفًا وتلطيفًا، وهكذا نلمح مسلكًا لطيفًا في تحضيض القرآن الفريقين على التَّحلِّي بمكارم الأخلاق وفاء وعطاء، وحلمًا وعفوًا وإغضاء، فـ"المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف، وفي كلٍّ خير"، كما جاء في الحديث الصَّحيح[1].

في التَّصدُّق إغراء للتَّزكية، وحضٌّ للدُّخول إلى ميدان الإحسان والعفو

دلالةُ الوصفِ بـ﴿عَدُوّٖ﴾:

عبَّرَ بكلمةِ ﴿عَدُوّٖ﴾ وصفًا للقومِ؛ لأنَّهُ يُطلقُ على المفردِ والمثنَّى والجمعِ، والموصوف من قبيل الأوَّل، ومثنَّاه: قومان، وجمعه: أقوام، على عدَّة معانٍ، فالمعنى: اتِّحاد مصدرِ العِداءِ، فهمْ قومٌ قد اتَّحدَ مصدرُ عدائِهم للمؤمنينَ، فكانَ العهدُ معَهُم أقربَ، وأمَّا إنْ تنوَّعَتْ عداوتُهم؛ فيُطلقُ عليهم أعداءٌ[2].

منَ الإنعامِ في العداوة اجتماعهم على قلبِ رجلٍ واحد

والمعنى: أنَّهم في عداوتهم للمؤمنين يكونون يدًا واحدة، على أفجر قلب رجل منهم وألدِّه عداوة.

وأفصح تنكيرُ لفظ العدوِّ عن أنَّ عداوتهم للمؤمنين مبهمة، لا يعرف باعث عليها من قبل المؤمنين، ولا يُدرك لها سرٌّ من جرَّائهم، إلَّا استمساكهم بدينهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج: 8]، ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾ [الممتحنة: 2].

في تنكير العدوِّ إبهامُ نوع العداوة وباعثها

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿كَانَ﴾:

يحتملُ الضَّميرُ في ﴿كَانَ﴾ في قولِه: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ

(1) مسلم، الصحيح، الحديث رقم: 2665.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2545.

العهدُ بينَ المسلمينَ وغيرِهم يُحَرِّمُ الدَّمَ على الجميعِ

﴿وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾، أنْ يكونَ مرجعه ﴿مُّؤۡمِنًا﴾، والمعنى: (فإنْ كانَ المؤمِنُ المقتولُ مِنْ قوم)، فيكونُ الكلامُ في مَنْ يُقتَلُ مِنَ المؤمنين، وإليه ذهبَ بعضُ المفسِّرين[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى المقتولِ مطلقًا مِنْ غيرِ قيدِ الإيمانِ، وإليه ذهبَ أكثرُ المفسِّرينَ[2]، فيكونُ الكلامُ في المقتولِ مِنَ المعاهدينَ أو مِنْ أهلِ الذِّمَّةِ، ممَّا يُشعِرُ بأنَّ وجودَ عهدٍ بينَ المسلمينَ وغيرِهم يسوِّي بينَ الجميعِ في الدِّيَةِ والفِدْيَةِ، وفيهِ رعايةٌ للعهدِ، وحُرمةٌ لِدمِ المستأمنِ والمُعاهَدِ.

نُكتةُ تركِ الاستثناءِ معَ المعاهدِينَ:

من شأنِ المؤمنينَ الكرمُ بالعفوِ والمسامحةِ

استثنى في أَمرِ الدِّيَةِ معَ المؤمنين في قولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾، ولم يستثنِ معَ المعاهَدين؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ الْعَفْوَ وَالسَّمَاحَ، واللّٰه يُرَغِّبُهُمْ فِيمَا يَلِيقُ بِكَرَامَتِهِمْ وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَثْنِ مع المعاهَدين؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُعَاهِدِينَ الْمُشَاحَّةَ وَالتَّشْدِيدَ فِي حُقُوقِهِمْ، وَلَيْسُوا مُذْعِنِينَ لِهِدَايَةِ الْإِسْلَامِ، فَيُرَغِّبُهُمْ كِتَابُهُ فِي الْفَضَائِلِ وَالْمَكَارِمِ[3].

لأنَّ التَّصدُّق من أبواب القربات، وشرطها الإيمان والإخلاص؛ لتُقبل، ويُثاب عليها، ومَن حَكَمَ القرآن عليهم بالكفر، كيف يُرَغَّبُون في الصَّدَقة، ولا حظَّ لهم في الآخرة؟

فكان عدول القرآن عن ذلك بالنِّسبة للذِّمِّيِّين والمعاهَدِين شاهدًا ودليلًا أنَّه يُصدِّق بعضُه بعضًا، وأنَّه كلَّه حقٌّ وصدق، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فلا تبديل لكلماته، ولو كان القرآن من عند غير اللّٰه؛ لوجدوا فيه ما اكتنف غيره من الاختلاف والاضطراب الموجود في غيره من الكتب

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/180.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/43، والبغوي، معالم التنزيل: 1/676، والزمخشري، الكشاف: 1/550.
(3) رضا، تفسيرالمنار: 5/273.

الَّتي طمسها، وذهب برونقها وبهائها طغيان التَّحريف من تصحيف وتزييف، وتلكم هي النُّكتة.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ في ﴿لَّمۡ يَجِدۡ﴾:

فـي الحـذف إشعارٌ بانقطاعِ الـرَّقـيـقِ وفـق مَقْصدِ الإِسْلَامِ

الفعلُ المجزوم ﴿يَجِدۡ﴾ هنا يأخذُ مفعولًا واحدًا، وقد تمَّ حذْفُهُ؛ لِيفيدَ عمومَ المتعلَّقِ، بمعنى: فَمَنْ لَمْ يَجِدِ الرَّقَبَةَ الَّتي يُعْتِقُهَا؛ لِيفيدَ أنَّ فقدانَها قدْ يحصلُ، وهو متوقَّعٌ، بأنْ ينقطعَ الرَّقِيقُ كَمَا هُوَ مَقْصدُ الإِسْلَامِ، ففي العِبَارَةِ إشعارٌ بِهَذَا المَقْصدِ.

واحترازًا عن توهُّم أنَّ التَّشريع غير صالح لكلِّ زمان ومكان، أو أنَّ أحدًا بوسعه الخروج عن عهدته؛ بظنِّه عدم استمرار سريان أحكامه، فجاء بهذا الشَّرط؛ لأنَّه من لدن العليم الخبير الَّذي أحاط بكلِّ شيء علمًا، ومن جملة ذلك: أنَّه سيأتي يوم لا يجد النَّاس فيه أحدًا في الرِّق، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ [يونس: 37].

أَوْ فَمَنْ لَمْ يَجِدِ المَالَ الَّذي يَشْتَريهَا بِهِ مِنْ مَالِكِهَا لِيُحَرِّرَهَا مِنْ رِقِّه[1]، والمعنى على عموم نفي الوجدان لأيِّ سببٍ كانَ.

تنوُّعُ المعنى بتنوّعِ إعرابِ التَّوبة:

إنَّ ابتداء قبول التَّوبة هو من الله تعالى

تحتملُ كلمةُ ﴿تَوۡبَةٗ﴾ في قولِه: ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ ثلاثةَ معانٍ بتنوّعِ إعرابها[2]:

1- أنْ تكونَ منصوبةً على أنَّها مفعولٌ لأجله، ولمَّا عدّى ﴿تَوۡبَةٗ﴾ بـ﴿مِّنَ﴾ أفادَ تضمينَ التَّوبةِ معنى القَبولِ[3]، والتقديرُ: شُرِعَ لَكم جميعُ ذلك توبةً، على معنى: أنَّ ابتداءَ قبولِ التَّوبةِ هو من اللهِ، فَمَنْ تابَ اللّه عليهِ؛ قَبِلَ توبتَهُ.

---

(1) رضا، تفسير المنار: 5/274.

(2) أبو السعود، إرشاد، العقل السليم: 2/216.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/162.

2- أنْ تكونَ منصوبةً على المصدريَّةِ، فهي مفعول مطلق، والتَّقديرُ: تابَ عليكم توبةً مِنَ اللّهِ.

3- أنْ تكونَ حالًا مِنَ الضَّميرِ المجرورِ المقدّر في (عليهِ) على تقدير: (فمن لم يجد فعليه صيام) والواقع جارُّه شبه الظَّرف خبرًا في الجملة المحذوف مبتدؤها المضاف، أيْ: فعليهِ صيامُ شهرينِ ذا توبةٍ.

علَّة طلب التَّوبة على القتل الخَطأ:

في قتلِ الخطأ تقصيرٌ بعدم الاحتياط، وهو مستدعٍ النَّدم

من المَعلوم أنَّ قتلَ الخَطأ لا يكون معصيةً، ولذلك لا يستوجبُ توبةً من اللّه، لكنَّه قُوْبِلَ بالتَّوبة من وجوه: الأول: أنَّ في قتل الخطأ نوعين من التَّقصير، فإنَّ الظَّاهر أنَّه لو بالغ في الاحتياط والاستكشاف؛ لم يصدر عنه ذلك الفعل، ألا ترى أنَّ من قتل مسلمًا على ظن أنَّه كافر حربيٌّ، فلو أنَّه بالغ في الاحتياط، فقوله: ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ تنبيهٌ على أنَّه كان مقصِّرًا في ترك الاحتياط.

والوجه الثَّاني: أنَّ قوله: ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ راجع إلى أنَّه تعالى أذن له في إقامة الصَّوم مقام الإعتاق عند العجز عنه؛ لأنَّ اللّه تعالى إذا تاب على المذنب؛ فقد خفَّف عنه، فلمَّا كان التَّخفيف من لوازم التَّوبة؛ أطلق لفظ التَّوبة لإرادة التَّخفيف إطلاقًا لاسم الملزوم على اللَّازم.

والوجه الثَّالث: أنَّ المؤمن إذا اتَّفق له مثل هذا الخطأ؛ فإنَّه يندمُ، ويتمنَّى ألَّا يكون ذلك ممَّا وقع، فسمَّى اللّه تعالى ذلك النَّدم، وذلك التَّمنِّي: توبة[1].

براعةُ التَّقسيمِ في الآيةِ:

المؤمن محلُّ تشريفٍ وتكريم

بَدَأَ أوّلًا بالْأَشْرَف، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ، وَأَهْلُهُ مُؤْمِنُونَ، لَيْسُوا بِحَرْبِيِّينَ وَلَا مُعَاهَدِينَ، ثمَّ ذكرَ المؤمنَ الَّذي يكونُ في القومِ المحاربينَ للمؤمنينَ،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/182.

وذكرَ قتلَ الخطأِ في القومِ المعاهَدينَ؛ إذا قلنا: إنَّ المرادَ قتلُ المؤمنِ للرَّجلِ المعاهدِ غيرِ المؤمنِ، كما ذهبَ إليهِ بعضُ المفسِّرين[1].

توجيه المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في الآية:

قدّمَ حُكمَ تسليم الدِّيَةِ معَ القومِ الَّذين بينَهم وبينَ المؤمنين ميثاقٌ، فقال: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ وأخَّرَه معَ القوْمِ المؤمنين؛ إذْ قالَ: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾، وفيهِ نكاتٌ بلاغيَّةٌ لطيفةٌ ومعانٍ مقصودةٌ، نُوجزُها فيما يأتي:

مِـنْ مَـحَـاسِـنِ نَـظْـمِ الْـكَـلَامِ وَبـلاغـتِـهِ ومُقْتضى حُسْنِ ائتلافِه وبراعةِ صياغتِه

1- لِلمسارعةِ إلى تسليم الدِّيَةِ معَ القومِ المعاهدينَ؛ تَحاشِيًا عنْ توهُّمِ نقضِ الميثاقِ، فَيُغيرُون على المؤمنينَ، وتحدُث الفتنةُ[2].

2- لِلإشعارِ بأَنَّ حقوقَ النَّاسِ في معاملةِ غيرِ المؤمنينَ مقدَّمةٌ على حقوقِ اللّهِ، وأمَّا حَقُّ اللّهِ تَعَالَى في مُعَامَلَةِ الْمُؤْمِنينَ؛ فهو مُقَدَّمٌ عَلَى حُقُوقِ النَّاسِ.

3- في عفوِ الْمُعَاهدِ لِلْمُؤْمِنِ بالدِّيَةِ مِنَّةٌ عَلَيْهِ، واللّهُ تعالى وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِزَّةِ، ومقامُ العهدِ ليسَ في موضعِ العفوِ والصَّدقةِ على المؤمنين، فلمْ يَفْتَحْ لِلمعاهدينَ بَابَ هَذِهِ الْمِنَّةِ على المؤمنين.

إنَّ الَّذي يتبادر من عدم فتح الباب له، ما قدَّمناه أنَّه باب قُرب واحتساب، فلا بدَّ فيه من الإيمان والإخلاص، والذِّمِّيُّ مشرك، فلا يصحُّ منه، ولا يُقبل، وزيادة على ذلك لئلَّا يتَّخذ المعاهد ذلك مطمعًا أن يُفَرَّطَ له في شيءٍ من إلزامات الدِّين الحقِّ الواجبة عليه، كأن يُتساهل معه في تحصيل الجزية منه، أو تخفيف مقدارها عليه، أو أن يُتهاون معه في توقيع عقوبة استحقَّها، أو أن يجاهر بمخالفة شعائر الإسلام، كإظهار الفطر في نهار رمضان بين الصَّائمين علانية ونحو ذلك.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/26.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/216.

4- ليؤكِّد أمر تحرير الرَّقبة، وليقرِّره؛ جعله ختام الكلام، كما كانَ افتتاحًا له، حثًّا على الوفاء به، وَليبقى في ذهنِ المخاطَبِ؛ لِأَنَّهُ أمانةٌ، لا طالبَ لهُ إلّا اللّه[1].

5- في تقديم الدِّية على الكفَّارة إشارةٌ بيانيَّةٌ تؤكِّد حرص الشَّرع على دفع الدِّية لأهل المقتول، ولو كانوا غير مسلمين؛ لأنَّها نُفِيتْ في حال القاتل الَّذي ينتمي إلى الأعداء، فكان لابدَّ من توكيدها حتَّى لَا يتردَّد القاتلُ في دفعها إلى غير المسلمين، إن كان بينهم وبين المسلمين ميثاق بمنع الاعتداء[2].

6- وَمِنْ مقتضى حُسنِ ائتلاف النَّظم وبراعةِ صياغتِه: أنْ يُؤخِّرَ الدِّيَةَ معَ الأوّلِ، فلو قالَ: (فَديَةٌ مُسلّمة إلى أهلِه إلّا أنْ يصّدَّقوا، وتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ)؛ لَكانَ فيه مِنْ ضَعف النَّظم وفَسادِهِ ما لا يَخفى، وَمِنْ مَحَاسِنِ نَظْم الْكَلَامِ وَبلاغته: أَنْ يُؤَخِّرَ الْمَعْطُوفَ الَّذي لَهُ مُتَعَلَّقٌ - وهو هنا ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾، ومتعلَّقُه الأوَّل ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ - عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ مُتَعَلَّقٌ: وهو قوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾، وَمَا مُتَعَلَّقَاتُهُ أَكْثَرُ لِصلةِ الدِّيةِ بالاستثناءِ عَلَى مَا مُتَعَلَّقَاتُهُ أَقَلُّ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/368.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1802.
(3) رضا، تفسير المنار: 5/273.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣﴾ [النساء: 93]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

القتلُ العَمْدُ وجْهٌ شنيعٌ للقَتْلِ الخطأ، وفعلٌ أغلظُ

لَمَّا ساقَ اللهُ تعالى القتل الخَطَأَ مساقَ ما هو للفاعِلِ منفِّرًا عنْهُ هذا التَّنفيرَ؛ ناسبَ كلَّ المناسبةِ أَنْ يذكرَ مساقَ القتلِ العمدِ الَّذي هو أشدُّ من الخطأِ، وَالْأَفْعَالُ كُلُّهَا لَا تَخرُجُ عَنْ حَالَتَيْ عَمْدٍ وَخطَأٍ؛ لِيكونَ الكلامُ جاريًا مِنْ ذكرِ الغليظِ إلى الأغلظِ(1).

إذ عدم سُكوته عن الأوّل - مع ظهور العذر فيه - مُهَيِّئٌ ومُمَهِّدٌ لحديثه عن الثَّاني الّذي تغلظ العقوبة عليه، ولا عذر فيه، وَلِيُشْعِرَ أنّ اعتناءه بتهذيب أتباع دينه - إذ غالب ما يصدر عنهم هو من الأوَّل (الخطأ) دون الثَّاني (العَمْد) - مقدَّم عنده على نَهْنَهَةِ غيرهم، والتَّوجُّه لتأنيبه وتثريبه، وليكون من سدِّ الذّرائع وحسم مادَّة الشَّرِّ؛ إذ انكفاف المؤمنين عن الاعتداء على حياة غيرهم - ولو خطأ - مقتضٍ صَرْفَ عَدُوِّهم عن الاعتداء على حيواتهم، ذلكم الاعتداء الّذي لا يكون غالبًا إلّا عمدًا وعلى أقلِّ التّقديرات، فلا يكون ذلك بذريعة منهم، فسبحان من هذا كلامه! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبحمده، وذلكم من محاسن التَّشريع، وروعة الإعجاز، ودقّة مسالك البيان، وبُعد مراميه في العلاج والإصلاح، وإيجازه المعجز؛ إغراءً بالفضائل، وإزراءً بالرَّذائل وكبْحًا لجماح الأنفس، وقمعًا لانبعاث التُّرَّهات، وقطعًا لتداعي الأهواء.

❁ المَعنَى الإجْماليُّ:

أمـرُ القتل العَمْد عظيمٌ، يستحقُّ العذاب الشَّديد، والوعيد الأكيد

هذهِ الآيةُ فيها مِنَ التَّهديدِ والإيعادِ أمرٌ عظيمٌ، ففيها يُخبرُ اللهُ عنْ حكمِ قتلِ المؤمنِ عمدًا في الآخرةِ فقط؛ لِعظَمِه ولِتهويلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/364.

أمرِه، فأيُّ إنسانٍ مسلمًا كان أو غيرَ مسلِم يقتلُ مؤمِنًا، متعمِّدًا قتلَه، مريدًا إتلافَ نفسِه، فجزاؤُه الَّذي يستحقُّه على اقترافِ تلكَ الجريمةِ الشَّنيعةِ دخولُ جهنَّمَ ماكثًا فيها مُكثًا طويلًا، وأبعدَهُ مِنْ رحمتِه وأخزاهُ، وقدْ هَيَّأَ اللهُ في جهنَّمَ لِمَنْ تَعَمَّدَ قَتْلَ المؤمنِ عذابًا فظيعًا هائلًا، لا يُدرِكُ الإنسانُ غايتَهُ؛ لِشِدَّةِ بشاعتِه، ففي هذهِ الآيةِ تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، لِمَنْ يَجْترِئونَ على سَفكِ دماءِ المسلمينَ بغيرِ حقٍّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّتَعَمِّدٗا﴾: العَمدُ هو شَدُّ القلبِ، أو جمعُ العَزْمِ على قَصْدِ إقامةِ شيءٍ أو إيجادِه، والعمدُ أَنْ تُكَابِدَ أَمْرًا بِجِدٍّ وَيَقِينٍ، فهو فعلُ الشَّيءِ عن إرادةٍ واختيارٍ مَعَ قصدِ إيجادِهِ يقينًا بمكابدةٍ في الفعلِ، ويضادُّه الخَطَأُ[2]، والمتعمِّد هنا: هو القاصد للقتلِ.

2) ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾: أصلُ الكلمةِ: جَزَيَ، قُلِبَتِ الياءُ ألفًا لِتحرُّكِها وانفتاحِ ما قبلَها، فصارَت جَزَى، ويدلُّ معنى الكلمةِ: على قِيَامِ الشَّيْءِ مقَامَ غَيْرِهِ وَمُكافأتِه إيَّاهُ، يُقَالُ: جَزَيْتُ فُلَانًا أَجْزِيهِ جَزَاءً، وَجَازَيْتُهُ مُجَازَاةً، والجَزَاءُ: ما فيه الكفايةُ من المقابلةِ، إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شَرًّا، فشرٌّ، واستُعْمِلَ الجزاءُ في القرآنِ في مقابلِ الخيرِ والشَّرِّ[3]، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ [الكهف: 88]، وقولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40].

3) ﴿وَغَضِبَ﴾: الغَضَبُ ثورانُ دمِ القلبِ إرادةَ الانتقامِ، ثمَّ صارَ الغضبُ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ، والغضبُ ضدُّ الرِّضا، وصيغةُ المبالغةِ (غَضْبَانُ) وصفٌ للذَّكَرِ، ويقالُ للأنثى: غَضْبَى، والغَضَبُ مِنْهُ مَحْمُودٌ وَمَذْمُومٌ: فَالْمَذْمُومُ: مَا كَانَ فِي غَيْرِ الْحَقِّ، وَالْمَحْمُودُ: مَا كَانَ فِي جَانِبِ الدِّينِ وَالْحَقِّ، والغَضَبُ مِن اللَّهِ صفة فعل، آثاره: سُخْطُه عَلَى مَن عَصاه، وإِعْرَاضُه عَنْهُ، وَمُعَاقَبَتُهُ لَهُ[4].

4) ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾: يدلُّ معنى اللَّعنِ هنا: على نَفْيٍ أو طَردٍ وإبعادٍ من الحيِّزِ بتخويفٍ وذعرٍ لِعدمِ قبولِ القُربِ، ولَعَنَهُ اللهُ بمعنى: طردَهُ، وأبعدَهُ على سبيلِ السُّخطِ، وذلك

---

(1) مجمع البحوث الإسلامية: (الأزهر)، التفسير البسيط: 2/882.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عمد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/455.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: غَضِب.

مِنَ اللّهِ تعالى في الآخرةِ عقوبةٌ، وفي الدُّنيا انقطاعٌ مِنْ قبولِ رحمتِهِ وتوفيقِه[1].

5) ﴿وَأَعَدَّ﴾: أصلُ الكلمةِ (عدد)، ويأتي بمعنى: عدِّ الشَّيءِ، وهو الإحصاءُ، وبمعنى: تهيئةِ الشَّيءِ، ومنه أعدَّ بمعنى: أحضرَ، وأعدّهُ لِكذا بمعنى: هيَّأَهُ، وأحضرَهُ، وجعلَهُ مُتَاحًا[2]، وقوله تعالى في الآية: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾ بمعنى: هيَّأ له عذابًا عظيمًا، وحضّره له.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العموم في ﴿وَمَن﴾:

في العموم شمولٌ لكلِّ من يصدُرُ منه القتل

جاء لفظُ ﴿وَمَن﴾ في سياقِ الشَّرطِ، فأفادَ العمومَ[3]، بمعنى: كلّ مَنْ يصدُرُ منه القتلُ المذكورُ.

نكتة إيثارِ صيغةِ المضارعِ ﴿يَقۡتُلۡ﴾:

الأَوْلَى في قتلِ المؤمنِ عمدًا ألَّا يكونَ له وجودٌ؛ لبشاعته

جاء الفعلُ بصيغةِ المضارعِ؛ لاستحضارِ صورةِ قتلِ المؤمنِ عمدًا بغيرِ حقٍّ؛ تبشيعًا للحالةِ وتقبيحًا لَها، وفي مجيئِه بصيغةِ المضارعِ نكتةٌ أخرى: وهي أنَّه إذا كانَ قتلُ المؤمنِ خطأً مِمَّا لا يحقُّ أنْ يكونَ له وجودٌ أصلًا؛ فقتلُ المؤمنِ عمدًا أولى وأحرى، فجاءَ بصيغةِ المُضارعِ غيرَ متحقّقِ الوقوعِ؛ لِيظهرَ أنَّه مِمَّا لا ينبغي أنْ يقعَ أصْلًا؛ ولأنَّ صيغةَ المُضارعِ للاستقبالِ حالًا ومآلًا، فهي أدلُّ على تبييتِ النِّيَّةِ، وإضمارِ القَصْدِ إلى القتلِ الَّذي قد لا يدلُّ عليه، ولا يفي به الفعلُ الماضي.

دلالة تعليق الحكم بالوصف﴿مُؤۡمِنٗا﴾:

الوعيدُ لكلِّ من قتلَ المُتَّصِفَ بالإيمانِ مطلقًا

أناطَ الوعيدَ بقتلِ مَنْ له وصفُ الإيمانِ مطلقًا عنْ أيِّ قيدٍ؛ لِيجريَ الكلامُ في الفردِ المطلقِ، فأيُّ إنسانٍ يحملُ وصفَ الإيمانِ

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لعن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عدد).
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/166.

يتناولُهُ الوصفُ صغيرًا أو كبيرًا أو غنيًّا أو فقيرًا ذا إيمانٍ قويٍّ أو ضعيفٍ، بأنْ يكونَ مرتكبًا لِلمعاصي.

ومن معانيه كذلك: أن يكون قتْلُه - وهو المؤمن - لعلّة إيمانه، لم يقتله قاتله إلّا لهذا، فهذا الموجب للوعيد الشّديد الّذي مبتداه: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ صُعُدًا إلى ما هو أشدُّ إياسًا من رحمة اللّه، وأبعد قطعًا له عنها: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

دلالةُ صيغةِ الحالِ ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾:

القاتلُ المتعمِّد يـتـكــرَّرُ منه قـصـدُ الفعـلِ؛ استخفافًا وجرأةً

جاءَ قولُه: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ حالًا مِنْ فاعِلِ ﴿يَقۡتُلۡ﴾، والمعنى على اقترانِ القتلِ بالتَّعمُّدِ، فيكونُ وقتُ القتلِ هو وقت التَّعمُّدِ، ولَمَّا كانتْ صيغةُ (تفعُّل) - الَّتي اشْتُقَّ منها اسمُ الفاعلِ، تُفيدُ تكرُّرَ الفعلِ وتكثيرَهُ[1]، ولا يتحقَّق أصلها إلَّا بإقدام متهوِّر، فيه استخفافٌ وجرأةٌ على ما هو قادم عليه؛ قامتْ صيغةُ ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ الدَّالَّةُ على تكرُّرِ مكابَدَةِ قصد الفعلِ بجدٍّ، وتكثيرِهِ مقامَ تكرُّرِ القصدِ مِنَ القاتلِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ؛ ولو في لحظاتٍ قصيرةٍ، فكانَ أدعى لِحصولِ الوعيدِ العظيمِ عليهِ.

دلالة اقتران جزاء الشّرط بالفاء:

جـزاءُ الـقـاتـلِ واقـعٌ في وقـتِ وقـــوع الـقـتـلِ العَمْدِ

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾؛ للاستحقاق لا للتَّعقيب، فهي أقرب ما تكون للتَّفريعيَّة، وأفادَت اقترانَ ثبوت الجزاء بوقتِ وقوعِ الشَّرطِ، والمعنى: أنَّ ثبوتَ جزاءِ جهنَّمَ لقاتلِ المؤمنِ، وما اقترنَ به من أنَّ اللّه غضبَ عليه، ولَعنَهُ، وأعدَّ له عذابًا عظيمًا، كلُّها واقعةٌ في وقتِ وقوعِ قتلِ المؤمنِ؛ تحذيرًا لِلقاتلِ من الوقوعِ في قتلِ المؤمنِ، وتهويلًا للأمرِ عليه.

(1) الرضي، شرح الرضي على الكافية: 1/105.

إيثار لفظ جزاء على غيره:

جاء باللَّفظ المشعر باستحقاقه، وهو (الجزاء) دون غيره كـ(العقاب مثلًا)؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ الجزاءَ غير عادل، لعظمه وكثرته، وشدَّة هوله.

في لفظ الجزاء دفـعٌ لـتـوَهُّـمِ عـدمِ عـدالـتـه، لعظمه، وشدَّة هوله

علَّةُ مجيءِ الجزاءِ بصيغةِ الجملةِ الاسميَّةِ:

وردَ الجزاءُ بصيغةِ الجملةِ الاسميَّةِ في قولِه: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾؛ ليُفيدَ ثبوتَ هذا الجزاءِ لقاتلِ المؤمنِ معَ تأكيدِه وتقريرِه لِمَا تحملهُ الجملةُ الاسميَّةُ مِنْ معنى التَّأْكيدِ، لا سيَّما ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 32].

وعدُ الله تعالى لـلـقـاتـلِ ثـابـتٌ متحقِّقٌ وقوعُه

دلالةُ جزاءِ الشَّرط:

لَمَّا كان الجزاء هو بمعنى: الكفاية في المقابلة؛ دلَّ على أنَّ ما ذُكِر من أنواع جزاء الشَّرط ليست أمرًا زائدًا على جزاء قتل المؤمن، بل هو أقلُّ الكفاية في مقابل فعله.

قتلُ المؤمنِ عمدًا أعظمُ مِنْ جميعِ العقوباتِ

دلالةُ مجيءِ الأفعالِ بصيغةِ الماضي:

مجيءُ الأفعالِ (غَضِبَ، لَعَنَ، أَعَدَّ) بصيغةِ الماضي؛ لِتدلَّ على وقوعِ الفعلِ وحصولِه، وتحقُّقِهِ في حالِ تحقُّقِ الشَّرطِ الَّذي هو قتلُ المؤمنِ عمدًا؛ إذ هو إعلانٌ "صريحٌ في أنَّه تعالى سَيفعلُ بهِ ذلك - لا سيَّما - وقدْ أَخبرَ عنهُ بلفظِ الماضي؛ لِيُعلَمَ أنَّهُ كالواقعِ"[1].

بلاغة التَّقديم في الأفعال:

قدّمَ فَعْلَ الغضبِ على (لعنَ) و(أعدَّ)؛ لإفادةِ تنوُّعِ الوعيد والعقاب على قاتلِ العمدِ في ترتيبٍ تصاعديٍّ يبدأ بالسُّخْطِ المطلق، ثُمَّ الإبعاد من الرَّحمة، ثمَّ تهيئة العذاب العظيم له يوم القيامة.

العقوبةُ المتنوّعةُ تصاعديَّةٌ للقاتلِ المُتعمِّد

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/475.

سرُّ مجيءِ الفعلَينِ غيرَ مقيَّدين:

عمومُ الغضبِ في الدُّنيا بالإعراض واللَّعن، وفي الآخرة بالعقوبة

جاءَ الفعلانِ ﴿وَغَضِبَ﴾ ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ مِنْ غيرِ تقييدٍ بكونِهما في الدُّنيا أو في الآخرةِ؛ لِيفيدَا عمومَ الغضبِ في الدُّنيا بالإعراضِ عنه، وفي الآخرة بالعقوبةِ، وعموم اللَّعنةِ في الدُّنيا، وذلك بانقطاعِ مِنْ قبولِ رحمةِ اللهِ وتوفيقِه، وفي الآخرةِ بعقوبةِ الإبعادِ مِنْ رحمتِه الَّتي هي مِنْ أشدِّ أنواعِ العذابِ.

دلالةُ الفعلِ ﴿وَأَعَدَّ﴾:

العذابُ العظيمُ بانتظار القاتل المتعمِّد

دلَّ الفعل ﴿وَأَعَدَّ﴾ على أنَّ العذابَ حاضرٌ، وقدْ هيَّأه اللهُ تعالى، فهو متاحٌ لقاتلِ المؤمِنِ عمدًا، وَهُوَ لهُ بالمرصاد.

إيثارُ التَّعبيرِ بالمفْرد:

الوعيد للمفرد أشدُّ من الوعيدِ للمجموعِ، وأكثرُ رهبةً

آثرَ التَّعبيرَ بصيغةِ المفردِ الغائبِ؛ لِيكونَ أشدَّ عذابًا للقاتلِ، ولِما يحمِلُه مِنْ معنى الإفرادِ في التَّعذيبِ الَّذي هو أشَدُّ ممَّا أنْ يكونَ مع المجموعِ، كما أنَّ تهديدَ المفردِ أكثرُ رهبةً مِنْ تهديدِ المجموعِ.

دلالةُ النَّعتِ فِي قوله: ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾:

طابقت دلالةُ التِّنكيرِ الدَّلالةَ المُعجميَّةَ

وصفَ اللهُ تعالى العذابَ بالعظيم؛ لِيناسبَ الفعلَ العظيمَ والخطبَ الجسيمَ الَّذي فعلَه القاتلُ المتعمِّدُ، فناسبَ الجزاءُ العملَ، فكأنَّ الوصفَ جاءَ تعليلًا لِما ارتكبَه من الفعلِ العظيم[1]، وجاءَ النَّعتُ نكرةً؛ لِيفيدَ تعظيمَ العذابِ، فأفادت دلالةُ التَّنكيرِ الدَّلالةَ المعجميَّةَ مبالغةً في تهويلِ العذاب.

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/385.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾ [النساء: 94]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانَ اللّٰه تعالى قدْ أمَرَ بالجهادِ في سَبيلِه، وأكَّدَهُ بأنواعِ المؤكِّدات، وَبيَّنَ قبلَ هذهِ الآيةِ المنعَ الشَّديدَ مِنْ قتلِ العمدِ، وما في قتل الخطأ من المؤاخذة الموجبة للتّثبُّت، والمنع الشَّديد من قتل العَمْد؛ كانَ رُبَّما الْتَبَسَ الحالُ بينَ أمرَي الإقدام وَالإحجام، فجاءتْ هذهِ الآيةُ بالأمرِ بالتَّثَبُّتِ[1]، تحقيقًا لصيانة الدَّم، وتحرُّزًا من القتل بوصفيه الخطأ والعمد، في أكثر المواطن استدعاءً له، والتباسًا على ملابسيه.

تثبيت من الْتبَسَ عليه الحالُ بينَ أمرَي الإقدامِ وَالإحجامِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبۡتُمۡ﴾: فعله المجرَّد عن الضَّمير: ضرب، وهو إيقاعُ شيءٍ على شَيءٍ، والضَّربُ في الأَرْضِ: الذَّهاب والسَّفرُ فيها لابتغاءِ الخيرِ والرِّزقِ، فيكونُ الضَّربُ في الأرضِ استعارةً، أو مِنْ بابِ ضَرْبِ الأرضِ بالأرجلِ[2]، وضربتمْ بمعنى: سافَرتُم، أو جاهدتُم، والمراد في الآية الثَّاني بقرينة قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

2) ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾: أصلُ الكلمةِ: بَيَنَ، وبَانَ الشَّيءُ وَأَبَانَ؛ إِذَا اتَّضَحَ، وَانْكَشَفَ، وَفُلَانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلَانٍ، أَيْ: أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ، والبَيانُ: مَا بُيِّنَ بِهِ الشَّيءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وغيرِها[3]، وتبيَّن الشَّيء: توضَّح، وصار

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/366.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (ضرب)
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل.

ظاهرًا، بحيث لا ينازع فيه منازع لوضوحه[1]، و﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ في الآيةِ بمعنى: فاطلبوا بيانَ الأمرِ وانكشافه،[2] وتستوضحوا جليَّته وعلى قراءةِ (فتثبَّتوا)؛ فالمعنى: فتأنَّوا، وتوقَّفُوا حَتَّى تَتيقَّنوا صِحَّةَ الخبَرِ[3].

3) ﴿عَرَضَ﴾: العَرَضُ ضدُّ الجوهرِ، وهو ما لا يكونُ له ثباتٌ ولا استقرارٌ، وقولُهم: الدُّنيا عَرَضٌ حاضِرٌ، أي: لا ثباتَ لَها، وكلُّ ما هو مِنْ طَمعِ الدُّنيا عرَضٌ قَليلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا؛ لزواله، ومنه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: (فلوْ حلفت يومئذٍ؛ رجوت أن أبرَّ: إنَّه ليس أحد منَّا يريد الدُّنيا، حتَّى أنزل الله ﷻ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ الحديث: أخرجه الإمام أحمد[4] وذكره ابن كثير عند تفسير الآية، وهو نصٌّ فيما ذهبنا إليه لا يُعْدل به، ولا يُعدل عنه[5].

4) ﴿مَغَانِمُ﴾: جمعُ مَغْنَم مِنَ الغُنْم، وهو الظَّفرُ بالشَّيء، والفوزُ به من غيرِ مشقَّةٍ، والاغتنامُ: انتهازُ الغُنْم، يُقَالُ: اغتنَمَ الفُرصةَ، وانتَهزَها، بِمَعْنًى وَاحِدٍ، والغنيمةُ: المالُ الَّذي يُظفَرُ في الحربِ وغيرِها[6]، و﴿مَغَانِمُ﴾ في الآيةِ بمعنى: رزق اللّهِ وفواضلِ نِعَمِهِ[7].

5) ﴿فَمَنَّ﴾: الفعل منَّ يمنُّ (مَنًّا)، والاِسْمُ: المِنَّةُ، ويقال أيضًا: امْتَنَّ عَلَيْهِ، بمعنى: أَحسنَ، وأَنعمَ، وصنعَ صُنعًا جميلًا، ولا يكونُ الإحسانُ بالأفعالِ منَّةً إلَّا إذا كانت ثقيلةً، يقال: مَنَّ عليه؛ إذا أثقلَه بالنِّعمة، وَمَنَنْت عَلَيْهِ مَنًّا بمعنى: عَدَدْت لَهُ مَا فَعَلْت لَهُ مِن صنَائِعِ المعروفِ والإحسانِ، والمَنُّ مِنَ اللهِ ممدوحٌ، ومِنَ النَّاسِ مذمومٌ؛ لِأَنَّهُ تَعييرٌ وتكديرٌ، فالنِّعَمُ كلُّها على الحقيقةِ لا تكونُ إلَّا مِنَ اللهِ تعالى[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (بَيَنَ).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/114.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات: 1/209.
(4) حديث رقم: 4414.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عَرَضَ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (غنم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 9/71.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (منن)، والطيبي، فتوح الغيب: 14/519.

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

المَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ المُبَالَغَةُ في تَحْرِيمِ قَتْلِ المُؤْمِنِين، وَأَمْرُ المُجَاهِدِينَ بِالتَّثَبُّتِ فِيهِ؛ لِئَلَّا يَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا بِتأْوِيلِ ضَعِيفٍ، وفيها ينادي اللّه تعالى - نداءَ تحبُّبٍ وتقرُّبٍ - الَّذين صدَّقوا اللّه ورسولَه وعملُوا بشرعِه: إذا خرجتُمْ في الأرضِ مجاهدينَ في سبيلِ اللّه؛ فكونوا على بيِّنَةٍ ممَّا تأتونَ، وتتركونَ، ولا تعجَلُوا، ولا تَنْفُوا الإيمانَ عنْ مَنْ استسْلَمَ لكمْ، فلمْ يقاتلْكُمْ، مظهِرًا لَكمْ شيئًا مِنْ علاماتِ الإسلامِ؛ لِاحتمالِ أنْ يكونَ مؤمنًا يُخفِي إيمانَهُ، فتقتلوهُ، طالبينَ بذلكَ متاعَ الحياةِ الدُّنيا، واللّه تعالى عندَهُ مِنَ الرِّزقِ وفواضلِ نعمِه ما يُغنيكُمْ بِهِ، كما استخفى هذا - الَّذي قتلتموهُ، وأخذتُمْ مالَهُ بدينِه - مِنْ قومِه أنْ يُظهرَه لَهم؛ حذرًا على نفسِه منهم، كذلكَ كنتُمْ في بدءِ الإسلامِ تُخفونَ إيمانَكمْ عن قومِكمْ مِنَ المشركِينَ، فَمَنَّ اللّه عليكُم، وأعزَّكمْ بالإيمانِ والقوَّةِ، فكونوا على بيِّنةٍ ومعرفةٍ في أمورِكمْ، إنَّ اللّه تعالى عليمٌ بكلِّ أعمالِكمْ، مطَّلعٌ على دقائِقِ أمورِكمْ، وسيجازيكُمْ عليها(1).

المُبَالَغَةُ فِي تَحْرِيمِ قَتْلِ المُؤْمِنِينَ، وَأَمْرُ المُجَاهِدِينَ بِالتَّثَبُّتِ فِيهِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ النِّداءِ في قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

النِّداءُ على معنى طلبِ إقبالِ المؤمنينَ إلى اللّهِ، ففيهِ تقريبٌ وتودُّدٌ، وجاءَ بالاسمِ الموصولِ دونَ أنْ يقولَ: (يا أيُّها المؤمنون)؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ وصفَ الإيمانِ قد حصلَ الاتِّصافُ بِهِ منذُ الزَّمنِ الماضي، فيكونُ الطَّلبُ الَّذي يحصلُ بعدَ النِّداءِ أدعى إلى الامتثالِ؛ لِبنائِهِ على الإيمانِ الحاصلِ، ويُشعِرُ البناءُ على وصفِ الإيمانِ أنَّ التَّبيُّنَ المذكورَ مِنْ مقتضياتِ الإيمانِ.

التَّبيُّنُ والتَّثبُّتُ مِن مقتضيات الإيمان

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/70، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/191، ولجنة من علماء التفسير، التفسير الميسر/93.

شهادةُ الإسلام، وتحيَّته تكفيان في منعِ القتلِ في الحربِ

ويُشعِرُ النِّداءُ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أَنَّ الْبَاعِثَ عَلَى قَتْلِ مَنْ أَظْهَرَ قولًا أو فعلًا دالًّا على الْإِسْلَام - وإن كانَ الْمُظْهَرُ سمةً قليلةً - مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ قَصْدُ الْقَاتِلِ الحِرْصَ عَلَى تَحَقُّقِ أَنَّ وَصْفَ الإيمانِ ثَابِتٌ لمن أراد قتله، فَإِنَّ هَذَا التَّحَقُّقَ غَيْرُ مُرَادٍ لِلشَّرِيعَةِ، وَقَدْ نَاطَتْ صِفَةَ الإِسْلَامِ بِقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَوْ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فيُكتفى بهذا في منع القتل[1]، بالكفِّ عن معالجته، فذلكم التَّثبُّت بسبيل التَّبيُّن.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

وجـه الكنـاية الإِسْـــــرَاعُ فِي السَّيْرِ في الغزو

الضَّرْبُ في سبيل اللّه مَعْنَاهُ: السَّيْرُ في الأرض بِالسَّفَرِ لِلْجِهَادِ والغزو، فإنَّ قوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تركيبٌ: إذا اقترنَ بالضَّرب؛ قُصِدَ به الغزوُ والجهادُ قطعًا[2]، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِسْرَاعِ في السَّيْرِ في الغزو، فَإِنَّ مَنْ ضَرَبَ إِنْسَانًا كَانَتْ حَرَكَةُ يَدِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الضَّرْبِ سَرِيعَةً، فَجُعِلَ الضَّرْبُ كِنَايَةً عَنِ الإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ[3].

دلالةُ الحالِ بينَ التَّقييدِ وبيانِ الغالبِ:

وجـوب التَّـبيُّن والـتَّـثـبُّـت على جهة المبالغة؛ حقنًا للـدِّماء واحـتـياطًا لمن أظهر شيئًا من الإسـلام اتِّـقـاءً واحتماءً

جاء قولُهُ: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حالًا من ضمير ﴿ضَرَبْتُمْ﴾، ولا يُقصدُ بالحالِ هنا تقييدُ الضَّرب، فيكونُ الأمرُ بالتَّبيُّن والتَّثبُّتِ مخصوصًا بحالِ الحرب، بل ذُكِرَتِ الحالُ لبيانِ الغالب، فإنَّه لَمَّا كَانَ خَفَاءُ هذه الأمور مَنُوطًا بِالْأَسْفَارِ وَالغزوات؛ قَالَ: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وَإِلَّا؛ فَالتَّثَبُّتُ وَالتَّبَيُّنُ لَازِمٌ فِي قَتْلِ مَنْ تَظَاهَرَ بِالْإِسْلَامِ فِي السَّفَرِ وَفِي الْحَضَرِ[4].

سرُّ التَّعبير عن التَّبيُّنِ بصيغة (التَّفعُّل):

تدلُّ الصِّيغةُ على معنى الطَّلبِ، فإنّ (تفعَّلَ) هنا بمعنى: استفعل،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/167.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/2.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/31.

وجوب المبالغة في التَّبيُّن والتَّثبُّتِ حفظًا للدِّماءِ

والمعنى: اطلبوا بيانَ الأمرِ وثباته، ولا تتعجَّلوا فيه عن غيرِ رويَّةٍ[1]، وإنَّما جاء الطَّلبُ بصيغةِ (تفعّل)؛ لإفادةِ التَّكثيرِ والتَّقوِّي، أي: شِدَّة طَلَبِ الْبَيَانِ والتَّأمُّلِ الْقَوِيِّ[2]، بمعنى: تكثيرِ طلبِ التَّبيُّن والتَّثبُّت، أي: إنَّه، وإنْ عُلِمَ كفرُه، أو أنَّهُ من المحاربين، وغلبَت صحَّتُهُ على الظَّنِّ؛ فلابدَّ مِنْ أنْ يُعادَ النَّظرُ فيه قبلَ الإقدامِ، فهذا هو معنى تكثيرِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ.

والمراد منه أيضًا بذلُ الوسْعِ، وإن كان فيه شيءٌ من مغالبة النَّفس وقهرها حملًا لها على الإمساك عن رَهَقِ السَّيف، فذلك أحمدُ عاقبةً من إزهاق النَّفس المظنون عصمتها وخلوُّ ساحتها عن موجب الإزهاق.

توجيه القراءاتِ القرآنيَّةِ في لفظ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾:

التَّثَبُّتُ سَبَبٌ للتَّبيُّن وقَلَّمَا يَكُونُ تبيُّنٌ إلَّا بَعْدَ تَثَبُّتٍ

قرأ حمزة والكسائيُّ وخلف بن هشام البزَّار: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ بالثَّاء المثلَّثة قبلها تاء، والكلمة من التَّثبُّت: وهو التَّوقُّف والتَّطلُّع والنَّظر الفاحص المدقِّق، وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وعاصم كلُّهم: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ من التَّبيُّن: وهو التَّعرُّف والاطِّلاع والاهتداء إلى البيِّنة[3]، ويمكنُ إيجازُ الفرقِ الدَّلاليِّ بينَ القراءتين بما يأتي:

ذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ القراءتين بمعنًى واحدٍ، أو أنَّ المعنيينِ متقاربانِ، فيقالُ للرَّجلِ: لا تعجلْ بإقامةٍ حتَّى تَتَبيَّنَ، وحتَّى تَتَثَبَّتَ؛ لِأَنَّ تَبَيُّنَ الرَّجُلِ لَا يَقْتَضِي أَنَّ الشَّيْءَ بَانَ، بَلْ يَقْتَضِي مُحَاوَلَةَ لِلتَّبَيُّنِ، كَمَا أَنَّ (تَثَبَّتَ) يَقْتَضِي مُحَاوَلَةً لِلتَّثَبُّت، فَهُمَا سَوَاءٌ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/218.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/167.
(3) ابن مجاهد، السبعة: 236.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/189.

وذهبَ النَّحَّاسُ والرَّاغبُ الأصفهانيُّ وغيرُهما[1] إلى أنّ قراءةَ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أبلغ من حيثُ المعنى؛ لأنَّ التَّثبُّتَ إنَّما هو لأجل التَّبيُّن، وَالتَّثَبُّتُ إِنَّمَا هُوَ سَبَبٌ لَهُ، فقلَّمَا يَكُونُ التَّبيُّنُ إِلَّا بَعْدَ تَثَبُّتٍ، وقد يكونُ التَّثَبُّتُ، ولا يكونُ التَّبَيُّنُ، فقد يحصلُ السَّببُ، ولا يحصلُ المسبَّبُ.

ويمكنُ الجمعُ بينَ القراءتينِ بطريقتينِ:

الأولى: بالنَّظرِ إلى مآلِ المعنيينِ والمقصود منهما، فإنَّ مآلَ المعنيينِ: هو النَّهيُ عنِ التَّعجُّلِ بأَنْ يكونَ حكمُ المؤمنينَ سليمًا لا خطأَ فيه، فإنَّ طلبَ الشَّيءِ يستلزمُ النَّهيَ عن ضدِّه عُرفًا، ولمّا كانَ مآلُ المعنيين واحدًا؛ فلا تبايُنَ في القراءتينِ، ولا تخالُفَ في المعنى، فقدْ كانَ جمهور المفسِّرين يُتبعونَ معنى ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أو ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ بقولِهم: (فَلا تتعجَّلوا)[2]، فَمَنْ قرأَ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾؛ فعلى معنى بيانِ الأمورِ واستيضاحِها والتَّأنِّي فيها، ومآله إلى النَّهي عنِ التَّعجُّلِ، ومَنْ قرأَ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾؛ فعلى معنى طلبِ التَّثبُّتِ الَّذي هو خِلَافُ الْإِقْدَامِ، بحيثُ لا يتبدَّلُ الحكمُ، ولا يحتملُ نقيضَ ما بَدَا للمؤمنينَ، ومآلُه إلى النَّهي عن التعجُّلِ كذلك، وجاءَ بصيغةِ الإيجابِ دونَ السَّلبِ؛ لِمناسبةِ المقامِ الَّذي يقتضي تقريرَ البيانِ والتَّثبُّت مِنَ الحُكمِ لا نفي ضدِّه فحسبُ، وذلك أنّ التَّبَيُّن: هو التَّمييز، والتَّثبُّتَ: هو التَّوقُّف.

والأخرى: بالنَّظرِ إلى مراعاةِ المعنى ومراعاةِ اللَّفظِ، مِنْ غيرِ ترجيحٍ لإحداهما على الأخرى في الأبلغيَّة، فكلتاهما في أعلى سُدَّة البلاغة في هذا المقام، فيقالُ: إنَّ قراءةَ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أبلغُ مِنْ حيثُ المعنى؛ فإنَّ المقصودَ هو الاتِّضاحُ والانكشافُ بحيثُ لا ينازِعُ فيه منازِعٌ لِوضوحِه، وقراءةُ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ أبلغُ مِنْ حيثُ السِّياقُ واللَّفظُ؛ لِأَنَّ التَّثبُّتَ يناسِبُ مقامَ الضَّربِ في سبيلِ اللهِ، وما يدلُّ عليه الضَّربُ مِن معنى الإسراعِ فيه، وأشعرَ بقريبٍ من هذا المعنى ما نقلَه أبو حيَّانٍ عن أبي عليٍّ الفارسيِّ حينَ رأى أَنَّ التَّثَبُّتَ أَشَدُّ اخْتِصَاصًا بِهَذَا الْمَوْضِعِ[3].

ورودُ النَّهي بعدَ الأَمرِ:

وردَ قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ بعد قوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ لاختلافِ الطَّلبين، فالأمرُ بالتَّثبُّتِ يكونُ

---

(1) النحاس، إعراب القرآن: 1/233، والجصاص، أحكام القرآن: 3/226.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/189، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/31، والجصاص، أحكام القرآن: 3/226.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/31.

بالنَّظر العقليِّ، وبالفعل عن طريق التَّحرِّي، والنَّهي ورد عن القول؛ ليشمل مجيءُ الطَّلب بالأمر والنَّهي كلَّ أنواع التَّحرُّز والتَّحفُّظ عن قتل المؤمن خطأً أو عمدًا، كما يشعرُ النَّهيُ عن تركِ التَّبيُّن بعدَ الأمرِ به بالتَّأكيدِ والتَّشديدِ(1).

شمولُ الطَّلَبِ كلَّ أنواعِ التحرُّزِ عن الخطأِ

بلاغة التَّعبير عن السَّلام بالإلقاء:

من جماليَّات التَّعبير في الآية قوله: ﴿أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ﴾؛ إذ فيه إشعارٌ بالاعتناء برفع قيمة كلِّ ما يصدر من ذي حال؛ طلبًا لحقن دمه وسلامة روحه، وإعلاء للسِّلم وإغلاء للحياة، وأنَّ الأسلوب النَّاهي في الآية ما هو إلَّا انبراء للدِّفاع عنه، مُتَبَنٍّ حجَّته، مُقَوٍّ ضعْفه، هكذا يفعل القرآن العظيم، وهو يدلي بهذه المرافعة الآسرة والمدافعة الباهرة، والمحاججة الآمرة في وجه تابعيه في أقوم بيان وأخلده، يقوِّي وهن العائذ اللَّائذ المتّقي القتل بما ينبسُّ به، ولا يُحسن غيره، ويرفع خسيسته، ويُعلِي صوته، وَيُبَلِغ حجَّته، ويكفُّ عنه أعوانه وناصريه من الأتباع، فيا له من دين عظيم، ذي خير عميم، وهَدْي كريم، ونظرٍ قويم، وقلب سليم!

في الإلقاء إشعارٌ بـالاعــتــنــاء، وطـلـبٌ لحقن الـدَّم، وسلامة الرُّوح

توجيه القراءات القرآنيَّة في لفظي: ﴿ٱلسَّلَمَ﴾، و﴿مُؤۡمِنٗا﴾:

قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، وحمزة وخلف: ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ بغير ألف، على معنى: (الوفاض والاستسلام والإعطاء باليد) على حين قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم والكسائيُّ بألف بعد اللَّام هكذا: ﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾(2) على معنى: التَّحيَّة، ولكلٍّ من القراءتين ما يتعلَّق به الحكم من أثرٍ في المعنى بديع رفيع نعرض له فيما يأتي:

فالسَّلام يجوز أنْ يكونَ بمعنى: التَّسليم من قولِهم: (السَّلام عليكم)، أو ما هو بِمعناه؛ لِأنَّ التَّسليمَ من علاماتِ الإسلامِ، كما

(1) القونوي، حاشية القونوي على أنوار التنزيل: 7/267.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/251.

إلقاء السّلام قد يكون جنوحًا للسِّلم وقبولًا للسِّلْم وإيذانًا بعَدَم الحرب

أنَّهُ تَحِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَامَةُ الْأَمْنِ وَالاسْتِئْمَانِ؛ لِيكونَ النَّهيُ عن إنْكَارِ إِسْلَامِ مَنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ، وَلَوْ بِإِلْقَاءِ تَحِيَّتِه، فَكَيْفَ بِمَنْ يَنْطِقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ؟ كما أَنَّ إِلْقَاءَ السَّلَامِ قَدْ يَكُونُ إِلْقَاءً لِلسِّلْمِ وَإِيذَانًا بِعَدَمِ الْحَرْبِ[1].

ويجوز أنْ يكونَ بمعنى: الاستسلام، وتجري الاستعارةُ في هذا المعنى على قراءةِ ﴿ٱلسَّلَمَ﴾.

في السَّلَم وجهُ استعارةٍ يُفيدُ أنَّ مطلَقَ الاستسلام يقتضي الإيمانَ

أمَّا القراءة بِفَتْحِ السِّينِ وَاللَّامِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ[2]؛ فبمعنى: الاستسلام وإلقاءِ المَقادةِ إلى إرادَةِ المسلمين[3]، وعلى هذهِ القراءةِ وهذا المعنى تجري الاستعارةُ، فقد عبّرَ عن الانقيادِ والاستسلام بـ(إلقاءِ السَّلَم)، وقيَّدَ الإلقاءَ بـ﴿إِلَيۡكُمُ﴾، فشبَّهَ السَّلَمَ بالمحسوس الَّذي يُطْرَحُ عند المسلَّم له؛ لِيفيدَ نفيَ تملُّكِه له، ولِيكونَ بأمرِ المسلَّم له، لِأنَّ مَنْ سلَّمَ شيئًا ألقاهُ، وطرحَه عندَ المسلَّم له[4]، فحذفَ المشبَّهَ بهِ، وأبقى المشبَّهَ على طريقة الاستعارةِ المكنيَّة، بقرينة ﴿أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ﴾، وأفادتِ الاستعارةُ هنا: أنَّ مطلَقَ الاستسلام - بأيِّ طريقةٍ كانَت بالقول أو بالفعل - يقتضي الإيمانَ، فيتوجَّهُ النَّهيُ إلى نفيِ إيمانِه.

في فتح ميم (مـؤمـن) الثّانية حثٌّ على العطف، والملاطفة، وتهدئة الرّوع

انفرد ابن وردان بروايته عن أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدنيِّ في أحد وجهيه أداءً: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ لَسۡتَ مُومَنًا﴾ بفتح الميم الثّانية من (مُؤمَن) على زنة اسم المفعول، مع إبدال الهمز السَّاكن في كلمته هذه واوًا في القراءة تخفيفًا، وهذه القراءة هي لبُّ لباب ما نحن بصدده، والمعنى: أنَّ اللهَ ينهاهم أن يباعدوا بين مبتَغي الأمان وبين مُبتَغاه، بل عليهم أن يُدْنُوه من

(1) رضا، تفسير المنار: 5/282.

(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 236.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/70، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/31.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 3/327.

غايته، وأنْ يُهَدِّئوا روْعَه، ويُلقوا إليه ما يلتقط بسماعه أنفاسه، في حسٍّ إنسانيٍّ عاطف ملاطفٍ يشهد أنّ القرآن كتاب الإسلام قد أعلى شأن الحياة ووهبها لكلِّ حريص عليها، وانظر كيف وصاته بالمشركين في آيات كثر، منها هذا الَّذي نحن بصدده، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التَّوبة: 6]، ويقول: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التَّوبة: 7]

فما أعظمَهُ من هدًى ونور أريد للإنسانيَّة كلِّها وللبشريَّة جمعاء أن تنعم به، وأن تستروح ملتقطة أنفاسها اللّاهثة في ظلاله!

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِه: ﴿مُؤْمِنًا﴾:

أقـــلُّ وصــفٍ للإيمان، وأدنى تحقُّقٍ له يُكتفَى بِهِ

دلَّ مجيءُ الاسم نكرةً على أنَّ النَّفيَ يستغرقُ عمومَ الوصفِ بالإيمانِ، والمعنى: نفيُ أنْ يكونَ له أيُّ وصفٍ من أوصافِ الإيمانِ؛ وإنْ كانَ قليلًا، والمقصودُ أنَّه ما دامَ قدْ ألقى السَّلامَ على المؤمنينَ، فلا يَحِقُّ لهم نفيُ الإيمانِ عنهُ، فيُقبَلُ منه هنا ما أظهرَهُ، ويُكتفَى به.

وجه التَّعبير عن الإيمان باسم الفاعل:

الإمـســاكُ عن قتل المؤمن مع الـقـدرة عليه مـراقـبـةٌ لـلـه، وامتثالٌ لحكمه

دلالة اسم الفاعل على الاستقبال، تجعل قول القائل: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾: تعدِّيًا بالنَّفي، يجاوز نفي الإيمان عن المقول له في الحال، إلى نفي ذلك عنه في الاقتبال، وذلك في طيِّه شبهة سوء الظَّنِّ بالمقول له فيما بدر منه، كأن يُظَنُّ به قول ما قال تعوُّذًا ينطوي فيه الغدر والمخاتلة والخداع، فكان النَّهي عن مباشرة قتله على تلك الحال؛ موحيًا له بأن الكفَّ عنه، والإمساك عن قتله مع القدرة عليه مراقبةً للّه وامتثالًا لحكمه، كفِلٌ بأن يُلقي في نفسه حبَّ اللّه، والإيقان بجدوى الاعتزاز به وأن يغريَه ذلك بإظهار ما استبطن من أمر إيمانه بإعلانه، وأن تكون تلك الحادثة بارقة شرح الصّدر ونبذ الكفر ولزوم الطُّهر.

إيثار التِّعبيرِ بفعل الابتغاء:

في التَّعبير ذمٌّ لما ظاهِرُهُ غنيمةٌ، وحقيقتُه عَرَضُ الحياةِ الدُّنيا

لَمَّا كانتْ كلمةُ (تبتغي) تدلُّ على الضَّالَّةِ المَبْغيَّةِ والحاجةِ المطلوبةِ[1]، وكانت صيغةُ ﴿تَبۡتَغُونَ﴾ تدلُّ على الاجتهادِ في الطَّلبِ أو المبالغةِ في معناه، فهي أليق بما نحن فيه إيجازًا ودلالة ووفاء بالمعنى؛ بسببِ مجيئِها على صيغةِ (افتَعَلَ)[2]، فصاروا بسبب فعلِهم كأنَّهم كانوا يبالغونَ في طَلَبِ من لا يَتَبيَّنُ حالُه؛ لِحاجةٍ في أنفسِهم، وليس في سبيلِ اللهِ، ولإفادةِ أنَّ الشَّيءَ المنفَّر عنه بنسبتهم إلى طلبه رغم كونه مذمومًا، شأنه كأنَّه كانَ ضالًّا عنهم، فألفوه، وحَصَلوا عليه رغبةً لأنفسِهم، فظاهِرُهُ غنيمةٌ، وحقيقتُه عَرَضُ الحياةِ الدُّنيا.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَرَضَ﴾:

المعصيةُ تُحوِّلُ وصفَ المالِ من المحمودِ إلى المذمومِ

عبَّر عن متاع الدُّنيا بالعَرَضِ، ولم يقلْ مثلا: (غنيمةً)؛ لِما في تركِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ من مخالفةٍ لأمرِ اللهِ تعالى، فتحوّلَ وصفُ المالِ من الغنيمةِ المحمودةِ إلى عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا الزَّائلِ المذموم، كما أنَّ ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يدلُّ على حُطامِ الدُّنيا الفاني؛ لأنَّه مهما يكن زائل غير ثابت، فهو عارض لَا يدوم[3].

وجهُ ذكرِ كلمةِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

الخروجُ إلى الجهادِ يناقضُ طلبَ عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا

ذكرَ كلمةَ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ هنا، ولم يقلْ: (تبتغونَ عَرَضَ الدُّنيا)؛ لِمناسبةِ المقام، وهو التَّصريحُ بأنَّ الغايةَ من الإقدامِ على القتلِ من غيرِ تبيُّنٍ أو تثبُّتٍ هو التنعُّم بما هو زائلٌ في هذه الحياة الدُّنيا، وهو مناقضٌ للخروجِ إلى الجهادِ في سبيلِ اللهِ، فكأنَّ ذكرَ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تذكيرٌ بأنَّ الضَّربَ في سبيلِ اللهِ لا يناسبُ ابتغاءَ الحياةِ الدنيا؛ لِأنَّهم معرَّضون في الجهادِ إلى الموتِ، فكيف، والمبتغى هنا عَرَضٌ من عروضها، وليس بها كلِّها؟

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بغى).
(2) الرضي، شرح الشافية: 1/110.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1809.

إشعارُ جملة الحالِ بعلَّةِ الإقدامِ على القتلِ:

تشعرُ جملة الحال: ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بِأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى تَرْكِ التَّثَبُّتِ أَوِ التَّبَيُّنِ هُوَ طَلَبُكُمْ عَرَضَ الدُّنْيَا، فهو الحامل لهم على القتل[1]، أي: غالبًا لا دائمًا، فكأنَّها جاءت في مقام التَّعليل، ومجيءُ جملةِ الحالِ مشعرة بالتَّعليلِ من لطائفِ القرآنِ الكريمِ.

الدَّاعِي إِلَى تَرْكِ التَّثَبُّتِ أَوِ التَّبَيُّنِ هُوَ طَلَبُ عَرَضِ الدُّنْيَا الزَّائل

وجهُ تضمينِ الكلامِ معنى التَّوبيخِ والإنكارِ:

اقتضى هذا الإشعارُ أنْ يتضمّنَ الكلامُ معنى التَّوبيخِ على العجلةِ في القتلِ من غيرِ تبيُّنٍ من حالِ المقتولِ أو تثبُّتٍ منه، والمعنى على المبالغةِ في النَّهيِ والإنكارِ، أي: لا تَبتغُوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا مِنْ وراءِ القتلِ؛ لأنَّ اللّه عندهُ مغانمُ كثيرةٌ[2].

في معنى التَّوبيخ مبالغةٌ في النَّهي عن التَّعجُّل في القتل

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ﴾:

لمَّا كانَت الحالُ وقد قدَّمنا أنَّها للتّعليل في معنى الإنكارِ والتَّوبيخِ، وهو خبرٌ يتضمَّنُ معنى النَّهيِ، بمعنى: لا تبتغوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا؛ أتبعَهُ بقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ﴾؛ لِتكونَ الفاءُ سببيَّةً بمعنى: أنَّ ما بعدَها مترتِّبٌ على نهيٍ سبقَها؛ فتدلُّ الفاءُ على تعليلٍ لنهيٍ ضمنيٍّ أشعرتْ به جملةُ الحالِ، والتقديرُ: "لا تقتلوا النَّاسَ لأجلِ المالِ والغنيمةِ"[3]؛ فعندَ اللّهِ مغانمُ متنوِّعةٌ كثيرةٌ، وفيه توجيه إلى أنّ من ترك شيئًا للّه في الحرام عوَّضه اللّه خيرًا منه في الحلال.

قتل المؤمن لأجل الغنيمة جحدٌ لما عند الله من مغانم كثيرة أنفع

بلاغةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في الآيةِ:

قدّمَ الظرف (عند) على المغانم في قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ والتَّخصيصِ، فالمغانمُ الكثيرةُ هي عندَ اللّهِ، وليستْ عندَ غيرِه، فيلزمُ امتثالُ أوامرِ اللّهِ والتَّبيُّنُ والتَّثبُّتُ.

المغانمُ الكثيرةُ هي عندَ اللهِ وليستْ عندَ غيره

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/331.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/31.
(3) الباليساني، حسن البيان: 2/577.

وفي الكلامِ وعدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى للمؤمنين بالمغانمِ الكثيرةِ بِمَا يَأْتِي بِهِ عَلَى وَجْهِهِ وَمِنْ حِلِّهِ دُونَ ارْتِكَابِ مَحْظُورٍ[1].

بديعُ التَّعبيرِ بصيغةِ المغانم:

جمع الغنيمة وتنكيرُها؛ لإفادة التَّكثير والتَّفخيم والمبالغة

تدلُّ صيغةُ منتهى الجموعِ على المبالغةِ والنِّهايةِ في المغانم، وجاءت نكرةً لإفادةِ كثرةِ أنواعِها، ثُمَّ زادها مبالغةً بوصفها بـ﴿كَثِيرَةٌ﴾ أي: كثيرةُ الأنواعِ وكثيرةُ العددِ وكثيرة البركة، ووردتْ بصيغةِ النَّكرةِ لإفادةِ التَّعظيمِ والتَّفخيم، ففي الوصفِ مبالغةٌ فوقَ مبالغةٍ؛ لِمَا عندَ اللَّهِ من مغانمَ كثيرةٍ لا تُحصَى.

علَّةُ إيثارِ ذكرِ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾:

الاعتبارُ بتمثُّلِ الحالَةِ واستذكارِها بتحديدِ الوقتِ

يدلُّ حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ على ابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّة، ففيهِ إلماح إلى أنْ تعتبروا بحالكم وقت أن كنتم تتخفَّوْن بإسلامكم كما يفعل بعضُ الآن؛ لِيكونَ أدعى إلى تمثُّلِ الحالةِ وتذكُّرِها، فيقعَ الاعتبارُ بها، ولو لم يذكرْ ﴿مِّن﴾؛ لَدَلَّ على الزَّمنِ الَّذي قبلَ زمنِ التَّحدُّثِ مطلَقًا، فيضعفُ الاعتبارُ في مقامِ تذكُّرِ حدث مقصود ينبني عليه حكمٌ له شأنٌ عظيمٌ.

سرُّ تقديمِ خبرِ (كان):

التَّقديم لتأكيد المشابهة

تقديمُ خبرِ (كان) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾؛ للقَصْرِ المفيدِ تأكيدَ المشابهةِ بين طرفي التَّشبيه، وذلك إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبارِ اتِّصافه بما في حيِّزِ الصِّلة، والفاءُ في ﴿فَمَنَّ﴾ للعطفِ على ﴿كُنتُم﴾، أي: مثلَ ذلك الَّذي ألقى إليكم السَّلامَ، كنتم أنتم أيضًا في مبادئِ إسلامِكمْ لا يظهرُ منكم للنَّاسِ غيرُ ما ظهرَ منه لَكم مِنْ تحيَّةِ الإسلامِ ونحوِها، فَمَنَّ اللَّهُ عليكم بأنْ قَبِلَ منكم تلكَ المرتبةَ، وعَصَمَ بها دماءَكم وأموالَكم، ولم يأمُرْ بالتَّفحُّصِ عن سرائرِكُمْ[2].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/340.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/218.

نكتةُ إيثارِ ﴿فَمَنَّ﴾ دونَ (فأَنْعَم):

المِـنَّـةُ تـكـونُ عـظـيـمـةً وغـيـرَ مـقـطـوعـةٍ ولا منقوصةٍ

لقد كانَ إظهارُ الإسلام بقوَّةٍ - بعدَ التَّخفّي والخوفِ والرَّهبةِ - من أجَلِّ النِّعَم ومِنْ صنائعِ الإحسانِ العظيمةِ الَّتي أعطاها اللّهُ تَفَضُّلًا منه على المؤمنين، بحيثُ قطعَ حاجتَهم، وغيّرَ حالَهم إلى الأَحسنِ، فالمِنَّةُ تكونُ غيرَ مقطوعةٍ ولا منقوصةٍ[1]، وتكون فيما يُستكْثر ويُستَعظم، كما يُشعِرُ به معنى لفظِ (مَنَّ)، وكان المقامُ مقامَ تعدادِ نِعَمِ اللّهِ على المؤمنين؛ ليَقعَ امتثالُ المؤمنين لِأمرِ اللّهِ؛ آثرَ ذكرَ (مَنَّ) دونَ (أَنْعمَ)، وفي الآيةِ إشعارٌ بإعجازِ القرآنِ؛ إذْ في الكلام بشارةٌ للمؤمنينَ ببقاءِ ظهورِ الإسلام وانتهاءِ أمرِ التَّخفّي به؛ لِأنَّ المِنَّةَ تأتي في مقام دوامِ النِّعمةِ الثَّقيلةِ العظيمةِ.

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ (على):

علوُّ مِنَنِ الله تعالى تقتضي الشُّكرَ بالامتثال

أفادَ حرفُ الاستعلاءِ (على) في قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ استيعابَ مِنَنِ اللّهِ الثَّقيلة على المؤمنين وَعُلُوَّها، مِمَّا يقتضي شكرَها بالامتثالِ لِأمرِ اللّهِ.

تكرار ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ بينَ التَّأكيدِ والتَّأسيسِ:

تعظيمُ شأنِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ في العمومِ والخصوصِ

ذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الثَّانيةَ تأكيدٌ لِلمبالغةِ في التَّحْذيرِ عَنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ ولِتعظيمِ شأنِ التَّبيُّنِ وترتيبِ الحكمِ على ما ذُكِرَ مِنْ حالِهم[2].

وذهب آخرون إلى أنَّ الثَّانيةَ تأسيسٌ، وليس تأكيدًا؛ لِاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِ التَّبَيُّنِ، فالأولى متعلِّقة بالضَّرب في سبيل اللّهِ، والمعنى: فَتَبَيَّنُوا أَمْرَ مَنْ تُقْدِمُونَ عَلَى قَتْلِهِ، والثَّانية متعلِّقة بتذكُّرِ نعمة اللّهِ، والمعنى: فَتَبَيَّنُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ[3].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/519.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/191، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/91.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/34.

والظَّاهرُ أنَّ الثَّانيةَ غيرُ الأولى، فتكونُ تأسيسًا، ولكنْ مِنْ وجهٍ آخرَ غير الَّذي ذُكرَ، أي: يكونُ الأمرُ بالتَّبيُّنِ أوَّلًا عامًّا ومُمَهِّدًا لما بعدَه، ولاسيَّما أنَّه مرتَّبٌ على شرطٍ عامٍّ متوقَّعٍ مقيَّدٍ بالظَّرفِ، والمعنى: في وقتِ السَّيرِ في سبيلِ اللّهِ تبيَّنوا، أي: تبيَّنوا المؤمنَ منَ الكافرِ المحارِبِ من المعاهَدِ وغيره من كلِّ ما يقتضي التَّبيُّنَ في وقت السَّيرِ في الحروبِ، وتعاملوا مع كلِّ ظرفٍ بما يقتضيه، ثُمَّ عطفَ عليه قولَهُ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾، أي: قدْ يحدثُ عندَ السَّيرِ في سبيلِ اللّهِ أنْ تروا مَنْ يُلقِي إليكمُ السَّلامَ، فإذا رأيتموه؛ فلا تقولوا لَهُ: لستَ مؤمنًا، فجاءَ بالنَّهي عن أمرٍ خاصٍّ بعدَ الأمرِ العامِّ بقوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، ثمَّ ذكَرَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْۚ﴾ الثَّانية مقيَّدةً بالاستيضاح عن أمرِ مَنْ تُقدمونَ على قتلِه مِمَّنْ يُخفِي الإسلامَ خوفًا من قومِه، فيكونُ الأمرُ بالثَّانيةِ أَدعى إلى الامتثالِ؛ إذ ترتَّب على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، ومعَ هذا فلا تخلو الثَّانيةُ مِنْ إشعارٍ بتأكيدٍ للأولى؛ لِعموم الأولى وخُصوصِ الثَّانيةِ، ولتعظيم شأنِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ في العموم والخصوصِ، فبينهما أمر مشترك، وكلاهما ينفرد بتبيُّنٍ خاصٍّ[1].

بلاغةُ جملةِ التَّذييلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

في التَّذييل تحذيرٌ من إضمارِ خلافِ الظَّاهِرِ

جاءت جملةُ التَّذييلِ تعليلًا لِمَا تقدَّمها[2]؛ لِاقترانها بـ﴿إِنَّ﴾ الَّتي تقوم مقامَ التَّعليل هنا، وكأنَّ المعنى: إنَّما أوجبَ عليكم ما أوجبَهُ؛ لِأنَّ اللّه كانَ ولايزالُ بِمَا تعملونَ خبيرًا، فحذَّرَ عن إضمارِ خلافِ الإظهارِ[3].

سرُّ تقديم معمول خبر ﴿كَانَ﴾:

جميع أعمال المؤمن ستعرض على الله تعالى خفيِّها وظاهرها، والفيصل ميزان الشَّريعة

قدَّمَ معمولَ خبرِ﴿كَانَ﴾ عليهِ؛ ليشعرهم باستخراج أعمالهم، وتقديمها بين أيديهم لمساءلتهم عليها، وليعتنوا بمراقبتها وزنتها بميزان الشَّريعة وضوابطها، ولإفادتهم أنَّها هي لا الذَّوات موضع نظر اللّه ومراقبته ومجازاته[4]، وللدَّلالة على أنَّهم لا يؤاخذون على غير ما

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1811.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/219.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/477.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1811.

صدر عنهم أنفسهم، فعليهم تزكيته بالطَّهارة ومكارم الأخلاق والإخلاص، وتخليته من الرِّياء والسُّمعة؛ لأنَّ الكلامَ في أعمالِ المؤمنين الخَفيَّةِ والظَّاهرةِ، وفي هذهِ الجملةِ تَحْذِيرٌ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ، أَيْ: احْفَظُوا أنفسَكم، وجنِّبوها الزَّللَ الموبقَ لَكم[1]، ففي الجملةِ معنى العموم من حيث يؤول المصدر المؤوَّل إلى صريح معناه (عملكم)، وهو عامٌّ لم يُنْظَرْ فيه إلى خصوص موقف ما أُمروا فيه بالتَّبيُّن والتَّثبُّت؛ لِتجريَ مُجرى المَثَلِ في التَّحذيرِ والوعيدِ.

علَّةُ تضمين الجملةِ التَّذييليَّةِ للفعل ﴿كَانَ﴾:

تـذكـير المـؤمـن وتـنـبـيـهُـهُ على دوامِ مراقبةِ اللهِ له

وردتْ مثلُ هذهِ الجملةِ في آياتٍ أخرى مِنْ غيرِ (كانَ)، مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران: 153]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة: 234]، وجاء في هذهِ الآيةِ بتضمين ﴿كَانَ﴾، وكلُّها تدلُّ على اتِّصافِ اللّهِ بكونِه خبيرًا، وهذهِ الصِّفةُ أزليَّةٌ قديمةٌ، ولكنَّ تضمينَ الكلامِ الفعلَ ﴿كَانَ﴾ فيه فائدةٌ يقتضيها المقامُ، وهيَ التَّنبيهُ على استمرارِ لَحظِ المُؤمنِ وصفَ اللّهِ بأنَّه خبيرٌ بمَا تعملونَ، ودوامِ مراقبته ﷻ بسببِ دلالةِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ الدَّالِّ على الحدثِ الماضي المستمرِّ، كي يرقبوا وصفَه تعالى، ويمتثلوا ما يأمر به اللّه تعالى وما ينهى عنه، ونكتةٌ أخرى تناسِبُ مجيءَ ﴿كَانَ﴾ هنا: وهي أنَّه لَمَّا كانَ فعلُهم قد مَضَى، وانقطَعَ؛ جاءَ بـ﴿كَانَ﴾ لِيفيدَ أنَّ ذلك الحدثَ كانَ اللّه به خبيرًا، فناسَبَ مجيءُ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ مقامَ فعلِهم الماضي، ويبقى دوامُ اتِّصافِ اللّهِ بكونِه ﴿خَبِيرًا﴾ بقرينةِ المقامِ؛ لأنَّ أوصافَ اللّهِ تعالى ثابتةٌ لا تتغيَّرُ، ولا تتبدَّلُ.

وصف اللّه بأنَّه ﴿كَانَ﴾، ولا يزال الآن على ما عليه كان، خبيرًا سبحانه بالعمل، والخبرة تقضي أن يجمع إليه كلَّ ما تعلّق به من نيَّة ونوازع وكيفيَّة ودوافع وملابسات ودواعٍ ومقتضيات وما صحب ذلك من أقوال وأحوال وأموال، ممَّا إذا استصحبه المؤمن؛ كان كفلًا باستقامته حتّى يقام على الرَّبَّانيَّة علمًا وعملًا ومراقبة للّه كأنَّه يراه، فتكون حياته زاكية راقية، هادية راضية.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/341.

سرُّ اقتران وصف الخبير بأعمال المؤمنين:

إنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء

اقترن وصف الخبير بأعمال المؤمنين المخاطبين بذلك الخطاب لبيان مراقبة اللّه تعالى الدَّائمة لأعمالهم، دقيقها وجليلها، ولأحوال نفوسهم خفيِّها ومعلنها، وأنَّه لا تخفى عليه خافية في السَّماء ولا في الأرض[1].

بلاغةُ التَّغليبِ في قولِه: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

مخاطبةُ الخاصِّ أكثر تأثيرًا من مخاطبةِ العامِّ

جاءَ بتاءِ الخِطابِ في قولِه: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ على التّغليبِ، فإنَّ اللّه كانَ بما تعملون خبيرًا، أي: أنتم - أيُّها المؤمنونَ - وجميعُ المكلَّفينَ وغيرُهم[2]، وجاء بطريقةِ الخطابِ للمؤمنين بقرينة المقام، وليكونَ أكثرَ تأثيرًا في نفوسِ المؤمنينَ المُخاطبينَ، فمخاطبةُ الخاصِّ أقوى من مخاطبة العامِّ، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ، وليكون ذلك أذكر للحساب، فإنّ من كُلِّف؛ سُئِل.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1811.
(2) السَّكَّاكي، مفتاح العلوم: 242.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦﴾ [النّساء: 95 - 96]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبة بين المعاتبة على قتل الخطأ، وتبيان فضل المجاهدين على القاعدين

في مناسبة الآية لما قبلها ثلاثةُ أَوْجُهٍ[1]: أحدُها: أنَّ اللّه تعالى لمَّا رغَّبَ في الجهادِ وأمرَ به، أَتْبَعَهُ بذِكْرِ أحكامه؛ فحَذَّرَ المسلمين مِنْ قَتْلِ المسلمين، وبَيَّنَ الحالَ في قَتْلِهم خطأً وَعَمدًا وتأويلًا، ثُمَّ أعقبَ ذلكَ كُلَّهُ ببيانِ فضلِ المجاهِدِ على غيره، وبيّن المفاضلة بين المجاهدين بالأموال والأنفس، وبين القاعدين بلا عذر شرعيّ عن القتال. وثانيها: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا عاتبَ المؤمنين على ما بَدَرَ مِنهم مِنْ قتْلِ مَنْ نَطَقَ بالشَّهادَةِ، وألقى إلى المسلمين السّلم، دون تبيّن حالته، أو السّؤال عن حكم الشّرع في وضعيّته، توقّيًا من أن يقع في قلوب المؤمنين، أنَّ التَّحرُّزَ عنِ الجهادِ بتركِهِ أَوْلى؛ لئلَّا يَقعوا في مثل هذا المحظور بسببِه، فأعقبَ اللّه تعالى ذلك بِبَيانِ فَضْلِ المجاهدِ على غيره؛ لإزاحَةِ هذه الشُّبْهَةِ.وثالثُها: أنَّ اللّه سبحانه لَمَّا عاتَبَهم على ما بَدَرَ منهم مِنْ قَتْلِ مَنْ نَطَقَ بالشَّهادةِ؛ أعقبَهُ بِذِكْرِ فضيلةِ الجهاد؛ تنبيهًا على أنَّ مَنْ حاز هذه الفضيلةَ الكبيرةَ؛ فإنَّ عليه الاحترازَ مِنْ تلكَ الهَفوةِ؛ لئلَّا يُخِلَّ بالفضيلةِ الّتي حازها، وفي ذلك تصحيحٌ للمُمَارسات، وعلاجٌ للنّفسيّات، وتحسّبٌ للعثرات القابلات.

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/192، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/368.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾: السِّينُ والواوُ والياءُ تَدُلُّ تصاريفُها، على استقامةٍ واعتدالٍ بين شَيْئَيْنِ(1).

ومنهُ قولُهم: مكانٌ سَواءٌ، أيْ: وَسَطٌ، والاِسْتِواءُ: التَّساوي، كقولِهم: استوى زيدٌ وعمروٌ؛ أيْ: تَساوَيا(2)، وقولُه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ أيْ: لا يَتَساوَيانِ، قال ابنُ جَريرٍ: "لا يَعْتَدِلُ المُتَخَلِّفونَ عَنِ الجهاد في سبيل اللّه"(3)، "وقسّم الشّيء بينهما (بالسّوية). ورجل (سويّ) الخلق، أي (مُستَوٍ) و(اسْتوى) من اعوجاج، واستوى على ظهر دابّته أي استقر، و(ساوى) بينهما أي سوّى، و(استوى) إلى السّماء قصد، واستوى أي استولى وظهر، قال الشّاعر:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ *** مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ(4)

ولفظ ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ يؤدّي معنى في سياقه، مفاده أنّ بين المجاهدين فى سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم، وبين الّذين لم يجاهدواْ بذلك، من ذوي الأعذار، من تفاوت في الفضل والمنزلة عند اللّه، لا يخفى على متدبّر القرآن، والفاقه لمعانيه(5).

2) ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾: من القعود يقابل به القيام، ومنه ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [النّساء 103]، ويعبّر عن المتكاسل بالقاعد، ومنه ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، وعن التّرصّد للشّيء بالقعود، نحو ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ [الأعراف: 16](6)، والقافُ والعَينُ والدَّالُ تدورُ اشتقاقاتُها على رُسُوخٍ يَنْصِبُ ما يَعْلوهُ، كقواعدِ البيتِ تَنْصِبُها وتُثَبِّتُها، ومنهُ: إطلاقُ القعودِ على الثَّباتِ، كتَسميتِهم التّثاقُلَ عَنِ القتالِ والتَّخلُّفَ عنهُ قعودًا؛ لِمَا فيه من ثَباتِ التَّخلُّفِ(7).والقُعُودُ عَنِ الأمرِ: تَرْكُهُ، والقعودُ لَهُ: الاهتمامُ به(8)، ومِنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيْ: المتخلِّفُون عَنِ القتالِ، التَّارِكونَ لهُ.

3) ﴿ٱلضَّرَرِ﴾: الضَّرُّ: خلاف النّفع، وقد ضرّه وضارّه بمعنى، والاسم الضّرر(9)، الضَّادُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).

(2) الرَّاغب، المفردات: (سوا).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/85.

(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سوا).

(5) الخطيب، التفسير القرآنّي للقرآن: 3/873.

(6) المنّاوي، التّوقيف، ص: 274.

(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قعد).

(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قعد).

(9) الجوهريّ، الصّحاح: (ضرر).

والرَّاءُ تَدُلُّ تصريفاتُها على معانٍ، منها: ضِدُّ النَّفْعِ[1]، وحقيقَةُ الضُّرِّ: سُوءُ الحالِ؛ إمَّا في نَفْسِه لِقلَّةِ علمٍ وفضلٍ ونَحْوِهما، وإمَّا في بَدَنِه لعَدَمِ جارحةٍ، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ كقلَّةِ مالٍ وجاهٍ[2]، والضَّرَرُ في قوله تعالى: ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾: الزَّمَانَةُ[3]، وأولو الضَّرَرِ: مَنْ بِهِم علَّةٌ تَضرُّهم وتَقْطَعهُم عَنِ الجهادِ[4].

4) ﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ﴾: الجيمُ والهاءُ والدَّالُ، تَدُلُّ تصريفاتُهُ على المَشقَّةِ[5]، ويأتي بمعنى الطَّاقةِ والوُسْعِ[6]، والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرْعِ على اسْتِفْراغِ الوُسْعِ في مُدافعة العَدُوِّ، وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظَّاهرِ، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفْسِ[7]، وغالبُ مُراداتِ الشَّرعِ في الجهادِ: أنَّهُ محاربةُ الكفَّارِ، وسُمِّيَ بذلكَ؛ لِما فِيهِ مِنِ اسْتِفْرَاغِما في الوُسعِ والطَّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[8]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النّفوس.والمجاهدون في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الّذين يُحاربونَ الكفَّارَ.

5) ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: من الحسن وهو ضِدُّ القُبْحِ[9]، والمَحاسنُ مِنَ الأعمالِ: ضِدُّ المَساوِئ، والحَسَنُ: كُلُّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه، وَالحَسَنَةُ: يُعَبَّرُ بها عَن كُلِّ ما يَسُرُّ من نعمةٍ تنالُ العبدَ في نفسِه أو بدنِه ونحوِ ذلك، والسَّيِّئَةُ ضدُّها[10]، وقالواْ: امرأة (حسناء) ولم يقولواْ: رجل أحسن. وهو اسم أنّث من غير تذكير، كما قالواْ: غلامٌ أمرد ولم يقولوا: جارية مرداء، فذكّرواْ من غير تأنيث[11]، ومِنْ هذا البابِ: الحُسْنى؛ وهي الجنَّةُ، وضدُّها: السُّوأَى؛ وهي النَّارُ[12]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26][13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضرّ).
(2) الرَّاغب، المفردات: (ضرّ).
(3) الخليل، العين: (ضرّ).
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 7/46، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ضر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(6) الرَّاغب، المفردات: (جهد).
(7) الرَّاغب، المفردات: (جهد).
(8) ابن الأثير، النِّهاية: (جهد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(10) الرَّاغب، المفردات: (حسن).
(11) الرازي، مختار الصّحاح: (حسن).
(12) الخليل، العين: (حسن).
(13) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حسن).

6) ﴿أَجْرًا﴾: الأجر: الثّواب. تقول: أجره اللّه يأْجُرُه ويأْجَرُه أجرا[1]، الهَمْزَةُ والجيمُ والرَّاءُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على معنَيَيْن: الكِرَاءِ على العَمَل، وجَبْرِ العظم الكسير، وبينَ المَعْنَيَيْنِ رابطٌ ينظِمُهُما؛ فإنَّ الأجرةَ بمثابَةِ الشَّيءِ الّذي يُجبَرُ بِهِ حالُ العاملِ مقابلَ ما أصابَهُ من كَدٍّ وجُهْدٍ في عملِه[2].والأَجْرُ: ما يعُودُ من ثواب العملِ دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلَّا في النَّفْعِ دُون الضُّرِّ[3]، والأجرُ في قول اللّه سُبحانه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، هو ثوابُ العمَلِ الأخرَويُّ.

7) ﴿عَظِيمًا﴾: عظم الشّيءُ عظما: كبر، فهو عظيم[4]، العينُ والظَّاءُ والميمُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على معنى الكِبَرِ والقُوَّة[5]، ويَرِدُ بمعنى الجَسامةِ والصَّلابةِ[6]، وهذا المعنى لازمٌ للأوَّلِ، ومنه سُمِّيَ العَظْمُ عَظْمًا؛ لصَلابتِهِ وقُوَّتِه. ثُمَّ يُستعمَلُ هذا الأصلُ في الضَّخامة المعنويَّة؛ فالعظيمُ مِنَ الأمور: ما لَهُ شأنٌ كبيرٌ.والأجرُ العظيمُ في قول اللّه تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الثَّوابُ الجزيلُ الكثيرُ، وليسَ له مِقدارٌ يَعْرِفُ العبادُ مبلغَهُ[7].

8) ﴿وَمَغْفِرَةً﴾: الغَيْنُ والفاءُ والرَّاءُ تَدُلُّ أكثرُ تصاريفِها على معنى السَّتْرِ، ومنهُ: الغَفْرُ، وهو السَّتْرُ[8]، وقال الرَّاغبُ: "الغَفْرُ: إِلْبَاسُ الشَّيءِ ما يَصُونُه عَنِ الدَّنسِ[9]"، وهو راجعٌ إلى معنى السَّتْرِ.والمَغْفِرَةُ شرعًا: سَتْرُ الذَّنب، والتَّجاوُزُ عنهُ[10]، وقال الشّاعر نصيب:

مَنْ ذَا ابْنَ لَيْلَى جَزَاكَ اللّه مَغْفِرَةً *** يُغْنِي مَكَانَكَ أَوْ يُعْطِي كَمَا تَهَبُ[11]

9) ﴿وَرَحْمَةً﴾: وهي الرّقة والتّعطّف، و(المرحمة) مثله، وقد (رحمه) بالكسر (رحمة) و(مرحمة) أيضا و(ترحّم) عليه. و(تراحم) القوم (رحم) بعضهم بعضا[12]، والرَّاءُ

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(3) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (عظم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عظم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عظم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 8/542.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(9) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(10) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/85.
(11) الأنباريّ، الزّاهر: 2/39.
(12) الرّازي، مختار الصّحاح: (رحم).

والحاءُ والميمُ تَدُلُّ تصاريفُها على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأفةِ[1]، ومنهُ: المَرْحَمَةُ؛ وهي الرَّحْمَةُ، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد: 17]؛ أي: أوصى بعضُهم بعضًا بِرَحْمَةِ الضَّعيفِ، والتَّعطُّفِ عليه[2].والرَّحْمَةُ في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةٗ وَرَحْمَةٗۚ﴾ صِفَةٌ للّهِ تعالى تَقْتَضي الإحسانَ والإنعامَ[3]، وليست هيَ الإحسانَ ذاتَهُ، ولا إرادَتَهُ.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

لا يستوي مجاهد ناهض في سبيل الله، وقاعد متثاقل عمّا أمره الله

تؤكّد الآية الكريمة، أنّه لا يتساوى مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الجهادِ - مِنْ غيرِ أصحابِ الأعذارِ؛ مِنْ نَحْوِ مَنْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، أو منعه مانع قاهر، ومَنْ جاهدَ في سبيل اللّهِ تعالى بالمال والنَّفْسِ؛ فقد فضَّلَ اللّه سبحانه مَنْ جاهدَ على مَنْ لم يُجاهِدْ مِنْ أهلِ الأعذار، ورَفَعَ منزلَتَهُ درجةً في الجنَّةِ عاليةً، وكُلٌّ ممَّنْ جاهدَ بالمالِ والنَّفْسِ، ومَنْ لم يُجاهِدْ من أصحابِ الأعذارِ: موعودٌ بالجنَّةِ، وقد فَضَّلَ اللّه (ﷻ) مَنْ جاهدَ على مَنْ لَم يُجاهِدْ - وهو غيرُ معذورٍ - بثوابٍ جزيلٍ، وهذا الثَّواب الجزيلُ، هو منازلُ عاليةٌ مِنْ منازلِ الكرامة، ومغفرةُ ذُنُوبِهم، ورحمةٌ يَنْعَمُونَ بها، ولم يَزَلِ اللّه تعالى غفورًا لعبادِه المؤمنين رحيمًا بِهِم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

خُرُوجُ الخَبَرِ عَنْ دَلَالَتِهِ الأَصْلِيَّةِ:

تتفاوتُ الدّرجات يوم الدّين، بِحَسَبِ تَفاوُتِ أعْمالِ المؤمنين

الجملةُ في قول اللّه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(2) الخليل، العين: (رحم).
(3) ابن عثيمين، مذكرة على العقيدة الواسطيَّة، ص: 23.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/85 - 99، وأبو المظفَّر السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/467 - 468، والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 195، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.

الإِذْكارُ بما بينَ طبقاتِ المُؤْمِنِين مِنَ التَّفاوتِ العظيم والبَونِ البعيدِ، بحَسَبِ تفاوتِ درجاتِ مَساعِيهم في الجهادِ؛ ليكونَ ذلك حاثًّا على الجهادِ في سبيلِ اللّه تعالى، ودافِعًا إليه، ومَحرِّضًا عليه، وليأنَفَ القاعدُ ويترفَّعَ بنفسه عَنِ انحطاط مَرتبتِه، فَتَسْمُوَ همَّتُهُ إلَى الجهادِ، وَتَرْغَبَ نفسُهُ فيه[1]، ودَلالةُ الخبَرِ على التَّذكير بما بين المراتِبِ مِنَ التَّفاوتِ ضربٌ من ضروبِ المجازِ، وهو مجازٌ مُرْسَلٌ مُركَّبٌ.

نُكْتَةُ إِبْهَامِ المَرْتَبَةِ بَيْنَ المُجَاهِدِ وَالقَاعِدِ:

الـصَّـمْـتُ عَـنِ الإِفـــادَةِ أَزْيَـــدُ لِلْإِفَادَةِ

في قولِه سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تصريحٌ بعدمَ تساوِيهما، دُونَ التَّنصيص على أفضليَّةِ المجاهدينَ، وفي هذا إبهامٌ على السَّامعِ، وهو أبلَغُ مِن تحديد المرتبَةِ بينَ المُجاهِدِ والقاعدِ؛ "فالمُتأمِّلُ يَمْشِي معَ فِكْرَتِه، ولا يزالُ يَتَخَيَّلُ الدَّرجاتِ بينَهما[2]"، "فإن قلت: معلوم أنّ القاعد بغير عذر والمجاهد، لا يستويان، فما فائدة نفي الاستواء؟ قلت: معناه الإذكار بما بينهما من التّفاوت العظيم والبون البعيد، ليأنف القاعد ويترفّع بنفسه عن انحطاط منزلته، فيهتزّ للجهاد ويرغب فيه، وفي ارتفاع طبقته، ومثل ذلك واضح في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]؟ أريد به التّحريك من حميّة الجاهل وأنفته ليهاب به إلى التّعلّم، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم"[3].

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ القَاعِدِينَ بِقولِه ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الْـقُـعُـودُ عَـنِ الْـجِـهَـادِ غَـيْـرُ مُـخِـلٍّ بِـأَصْـلِ الإِيمانِ

تقييدُ القاعدين بكَوْنِهم ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لنُكتَتَيْنِ[4]: إحداهما: الإعلامُ ابتداءً بأنَّ وصفَهم بالقُعودِ غيرُ مُخِلٍّ بأصلِ إيمانِهِمْ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/553 - 554، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/97.
(3) الزّمخشريّ، الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 1/554.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220، والآلوسّي، روح المعاني: 3/117.

والأخرى: الإشعارُ بعِلَّةِ استحقاقِهم الحُسنى - وهي الجنَّةُ - الواردَةَ في قولِه سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، "قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلّق بمحذوف لأنّه حال، وفي صاحبها وجهان، أحدهما: أنّه القاعدون، فالعامل في الحال في الحقيقة ﴿يَسْتَوِى﴾، والثّاني: أنّه الضّمير المستكنُّ في ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، لأنّ (أل) بمعنى الّذي، أي: الّذين قعدوا في هذه الحال، ويجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ للبيان"[1]، فالإيمان شرط لحصول المقام مع أهل القرب.

بَلاغَةُ مَوْقِعِ الاِسْتِثْنَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾:

مُـراعـاةُ أَهْـلِ الأَعْـذَارِ وَتَجَنُّبُ مَا يَكْسِرُ قُلُوبَهُمْ

للاستثناء ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ موقعٌ بديعٌ، وله نِكَاتٌ ثلاثٌ[2]: أُولَاها: لئلَّا يَظُنَّ أصحابُ الأعذارِ أنَّهم مَقْصُودونَ بالتَّحريضِ، فيخرجوا لِلْجِهادِ، فيُكلِّفوا إخوانَهم المسلمين مؤونَةَ حَمْلِهم وحمايتِهم دون جَدْوى. ثانيها: لئَلّا يَظُنَّ أصحابُ الأعذار أيضًا أنَّهم مقصودُون بالتَّعريضِ، فيكون ذلك سببًا في انكسارِ نفوسِهم انكسَارًا زائدًا على انْكِسارِها بعجزِهِم. ثالثها: أنَّ في استثنائهم إنصافًا لهم، وعُذْرًا لعجزهم عن الجهاد؛ بأنَّهم لو كانوا قادِرين عليه؛ لبادَرُوا إليهِ، لأنّ في نفوسهم توق إلى نصرة دين الله، وحماية بيضة الإسلام، ولكنّ الظّروف الصّحية والأعذار الشّرعيّة منعتهم من ذلك.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِوَصْفِ الجِهَادِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾:

الـجِـهَـادُ مِـنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ الـمُـقْـتَـضِـيَـةِ الـتَّـعْـظِـيـمَ وَالتَّبْجِيلَ

جاء التَّعبيرُ عَن هذا الفريقِ مِن أهل الإيمان بوَصْفِ الجهاد، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لإرادةِ المدحِ؛ إذ إنَّ الجهادَ في الشَّرْعِ

(1) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/75.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/170.

مِنَ الأعمال العِظَام؛ لِمَا فِيهِ مِنَ المُخاطرةِ بالمُهَجِ الّتي هي أغلى ما عِنْدَ المَرْءِ، فالمُجاهِدُ وَصْفٌ يقتضي التَّعظيمَ والتَّبجيلَ؛ لتَلَبُّسِهِ بهذا العمَلِ الجليلِ، ولم يُعبَّرْ عَن هذا الفريقِ بالخروجِ، مع كونهِ أنسبَ لِلْوَصْفِ المَذْكُورِ في المَعْطُوفِ عليهِ وهُو القُعُود - كالوراد في قوله سبحانه: ﴿۞وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ [التوبة: 46] - ؛ للإشعارِ بأنَّ القعودَ كان عَن الجهادِ، ولم يُحْتَجْ إلى التَّصريحِ بمتعلَّقِ القعودِ؛ رعايةً لِلْقَاعدين في الجملة[1].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ القَاعِدِينَ على المُجَاهِدِينَ:

شَرَفُ المُجَاهِدِينَ لِشَرَفِ مَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنْ جَلِيلِ العَمَلِ

في تَقديم القاعدينَ على المُجاهدِين ثلاثُ نِكاتٍ: أُولَاهَا: الإشعارُ ابتداءً بأنَّ التَّفاوُتَ بين المجاهدين والقاعدين ليس من جهةِ قصورِ القاعدين، بل لشرف المجاهِدين؛ وذلك أنَّ المتبادَرَ إلى الذِّهْنِ من عدم الاستواءِ بين الشَّيئَين المتفاوتَين سببُهُ: قصورُ القاصرِ[2]، وعليه فتَفْضِيلُ المجاهدين لا يكونُ فِيهِ كبيرُ مدحٍ لهم حينئذٍ؛ لأنَّه يكُون من باب: (السَّيْفُ أحدُّ من العصَا)؛ فقُدِّمَ القاعدونَ؛ لِلتَّنبيه على أنَّ عدمَ الاستواءِ سببُهُ شرفُ المجاهدين، مَعَ فضيلةٍ كائنةٍ في القاعدين، ويؤيِّدُ هذا: وصفُ القَاعِدِين بـ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.وثانيها: أنَّ في تقديم القاعدين في الذِّكْرِ زيادةً في مدحِ المجاهدين؛ إذْ يحْصُلُ بذلك التَّرقِّي في إيرادِ الرُّتَبِ والمنازلِ بذِكْرِ المجاهدين بعدُ. وثالثُها: قُدِّمَ القاعدُون على المجاهدين ولم يُؤخَّروا عَنْهُمْ؛ ليتَّصلَ التَّصريحُ بتفضيلِ المجاهِدينَ في قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[3].

---

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/118.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/118.

سِرُّ إِضَافَةِ السَّبِيلِ إِلَى الِاسْمِ الأَعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

سُـلُـوكُ سَبِيـلِ الـلّـهِ تـعـالى مُوصِلٌ لِرَحْمَتِهِ

إضافةُ السَّبيلِ إلى الاسْمِ الأَعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُراد بها تعظيمُ السَّبيلِ، والإشعارُ بأنَّ مَن سلكَهُ وصلَ إلى رَحْمَةِ اللّه تعالى[1]، ومِنْ لازِم ذلك: تعظيمُ المجاهدينَ ورفعُ شأنِهم؛ حيثُ سلَكُوا هذا السَّبيلَ الجليلَ.

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ المُجَاهَدَةِ بِكَوْنِهَا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

مِنْ أَسْبَابِ رِفْعَةِ الدَّرَجَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ

تَقْيِيدُ المُجَاهَدَةِ بكَوْنِها ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ يُرادُ به مدحُهُمْ بذلكَ، وفيهِ الإشعارُ بعلَّةِ استحقاقِهِمْ عُلُوَّ المنزلةِ، مَعَ ما فِيهِ مِن حُسْنِ موضعِ ﴿سَبِيلِ﴾ في مُقابلِ القُعودِ؛ فَإِنَّ السَّبيلَ مِن شأنِهِ أن يكونَ مَسْلُوكًا، ففيه حركَةٌ تُخالِفُ السُّكونَ المُستفادَ مِنَ القُعودِ[2].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

مِـنْ طَـرِيـقَـةِ الـقُرْآنِ الكَرِيـمِ تَشْوِيقُ المُتَلَقِّي إِلَى الحُكْمِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ نفيَ المساواةِ بين المجاهدِ والقاعدِ في قوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ سَبَبٌ في ترقُّبِ كُلٍّ منهما الأفضليَّةَ؛ وذلكَ لأنَّ المجاهدَ جَادَ بالنَّفسِ والمالِ، والقاعدَ وإنْ فاتَتْهُ فضيلةُ الجهادِ؛ فإنَّهُ يكونُ قد خَلَفَ الغازيَ في أهلِه، وأحْيَى الدِّينَ بالاشتغالِ بالعلمِ ونحوِ ذلكَ، فأورَثَ ذلكَ سؤالًا في نَفْسِ المُتلقِّي؛ ومَنْ أفضلُ الصِّنفَيْنِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾[3]، ويحتَمِلُ أن تكونَ الجملةُ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/370.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/370 - 371.

مَسوقًا لتَفصيلِ ما بين الصِّنفَين من التَّفاضُلِ المفهومِ مِنْ ذِكْرِ عدمِ استوائِهما على سبيل الإجمال، فلمَّا نَصَّ اللّه تعالى على عدم تساوِيهما؛ بعثَ ذلك في نَفْسِ المُتلقِّي سؤالًا: ما كيفيَّةُ التّفاضُلِ وكمِّيَّتُهُ، وكيفَ وقعَ ذلكَ؟ فجاء الجوابُ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾[1].

دلالة ما بين لفظي الجهاد والقتال من عموم وخصوص:

القتال لا يكون إلّا بالسّيف، بينما الجهاد بالمال والقلم والبيان

الجهاد أعمّ من القتال، وأخصّ منه، فبينهما عموم وخصوص من وجه، كما يقول المناطقة، فهما يجتمعان في القتال الدّفاع عن الحقّ، والقتال قد يكون في البغي على الحقّ، ولا يكون الجهاد بمقتضى العرف الإسلاميّ إلّا ردًّا للاعتداء. والجهاد لا يكون بالقتال وحده، بل يكون ببذل المال في تأييد الحقّ، وبالبيان في الدّعوة إليه، ولذلك يقول النّبي ﷺ: "جاهدوا المشركين بأنفسكم، وأموالكم، وألسنتكم"[2]، فالعموم مكرّس في مفهوم المواجهة الحربيّة بالسّلاح، وهذا هو المألوف في المغالبة بين المتحاربين، بينما الخصوص ظاهر في تعيّن الصّفة المحدّدة لكلّ منهما، ولفظ القتال كلفظ الحرب، موجود في كلّ الملل والنّحل، وفي كلّ اللّغات والبيئات، بينما لفظ الجهاد مصطلح إسلاميّ خاصّ بالحضارة الإسلاميّة وحدها دون سواها.

تَعْرِيفُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ فِي لفظ (اللَّهُ):

مَا فَضَّلَهُ اللهُ تعالى مِنَ الأَعْمَالِ وَالأَشْخَاصِ، عَظِيمٌ بكلّ المقاييس

جاء المُسنَدُ إليه مُعرَّفًا بالعَلَميَّةِ؛ ولفظ الجلالة أشرف المعارف، وهو "مختصّ باللّه، وأصل اسم اللّه الّذي هو اللّه (إله) ثمّ دخلت عليه الألف واللّام فصار (الإله)، ثمّ تخفّف الهمزة التّخفيف الصّناعيّ، بأن تلين وتلقى حركتها على السّاكن قبلها، وهو لام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/220.

(2) الحديث رواه أبو داود: رقم: (2504)، وأحمد في المسند رقم: (11837)، والنّسائي: رقم: (3096)، عن أنس بن مالك: (رضي الله عنه)، ينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1813.

التّعريف، فصار (الِلَاه) بكسر اللّام الأولى وفتح الثّانية، فأدغموا الأولى في الثّانية بعد إسكانها وفخّموها تعظيما"[1]، وهوفي إضافة الفضل إلى عظيم جلاله تعالى، آثر إيرادِ الاسم الأَحْسَنِ والأعظم (اللّه) في قَوْلِه ﷻ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾؛ تَعظيمًا لشأنِ هذا التَّفضيلِ؛ إذْ هُوَ صادِرٌ مِن الّذي لَه صفاتُ الكَمالِ والجَلَالِ[2].

تَوْجِيهُ المتَشَابِهِ اللَّفْظِيّ فِي تَقْدِيمِ الأَمْوَالِ عَلَى الأَنْفُسِ وَالعَكْسِ:

النَّفْسُ أَشْـرَفُ مِـنَ المـــالِ، والجِـهَـادُ بِالمالِ أَخَفُّ مِنَ الجِهادِ بِالنَّفْسِ

قَدَّمَ اللّه سبحانه المالَ على النَّفسِ هَهُنَا، فقال ﷻ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، وقَدَّمَ النَّفْسَ على المال في قوله جلَّ وعلا: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التّوبة: 111]؛ وذلك لثلاثة أوجه[3]: أحدُها: أنَّ النَّفْسَ أشرفُ مِنَ المالِ، فَفِي الاشتراءِ قُدِّمَ ذكرُ النَّفْسِ؛ تنبيهًا على أنَّ الرَّغبةَ فيها أشدُّ، بخلافِ الجهادِ فأُخِّرَت النَّفْسُ فيها؛ تنبيهًا على أنَّ المُماكَسَةَ فيها أشدُّ، فلا يَرضى المجاهدُ ببَذْلِها إلَّا في آخرِ المَراتب.وثانيها: قُدِّمَ المالُ في ذكر الجهادِ؛ لأنَّ الجهاد بالمال أخفُّ على النُّفوس مِنَ الجهاد بالنَّفْسِ، فسُلِكَ في الآية مَسْلَك التَّرقِّي، بخلافِ آية التَّوبة فقُدِّمَت النَّفْسُ؛ لذِكْرِ الاسْمِ الأَحْسَنِ فيها (اللَّه)، فناسَبَ ذكر أشرفِ الأمورِ وأعزِّها وهي النُّفوس.ثالثُها: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا ذَكَرَ التَّفضيلَ؛ اقتضَى شيئًا يتميَّزُ به المُفَضَّلُ، فقدَّمَ المالَ؛ لأنَّ المالَ ليس عند كلِّ أحدٍ، فيَحصُلُ بالجُودِ به: التَّمايُزُ، بخلافِ ما في التَّوبةِ، فهو في شِراءِ اللّهِ تعالى مِنَ المؤمنينَ شيئَين: النَّفْسَ والمالَ، ولَمَّا كان كلُّ مؤمنٍ عندَهُ نَفْسٌ؛ قَدّمها على المالِ.

---

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 173.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/371.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/327، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/193، والآلوسّي، روح المعاني: 3/118.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ لفظ ﴿دَرَجَةً﴾، في قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾:

التَّعْظِيمُ بِطَرِيقِ الإِبْهَامِ أَدْخَلُ فِي التَّفْخِيمِ مِنَ التَّصْرِيحِ

تنكيرُ ﴿دَرَجَةً﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّفخيمُ بطريقِ الإبهام[1]؛ لتَذْهَبَ النَّفْسُ في تَصوُّر عظمتِها وكمالِها كلَّ مَذْهَبٍ، ودَلالَةُ التَّعظيم مُستفادَةٌ بِقرينَةِ نِسبةِ التَّفضيلِ لله سبحانه، ووَصْفِ المُفَضَّلِينَ بوصْفِ مدح، "و﴿دَرَجَةً﴾ نصب بنزع الخافض، أي بدرجة، أو على المصدر، لأنّه تضمّن معنى التّفضيل، ووقع موقع المرّة منه، أو الحال بمعنى ذوي درجة"[2]، وفي الحالات الثّلاث، تكون الدّرجة ملمحا للمفاضلة المقرّرة من الله لهاته الفئة المضحيّة بالغالي والنّفيس، بمبادرتها إلى الجهاد، فتكون فاضلة على الفئة القاعدة، وذلك مطلق عدل الله في المفاضلة في كلّ شؤون الحياة والعطاء والجزاء.

بَلَاغَةُ الاِسْتِعَارَةِ فِي قوله تعالى: ﴿دَرَجَةً﴾:

إِبْرَازُ المَعْنَوِيِّ فِي قَالَبِ الحِسِّيِّ أَوْضَحُ لِلنَّفْسِ وَأَعْلَقُ بِالقَلْبِ

الدَّرجَةُ في الأصل تُستعمَلُ في المُرْتَقَى الحسّيِّ، والدَّرجةُ في قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ مستعارَةٌ للعُلُوِّ المعنويِّ؛ وهو كثرةُ الفضلِ، ووَفْرةُ الأجرِ[3]، ونُكتةُ الاستعارةِ: تصويرُ المعنويِّ في صورة الحسِّيِّ؛ ليكونَ أعلقَ بالذِّهْنِ، وأوضحَ للنَّفْسِ.

إِيرَادُ المُسْنَدِ إليه عَلَمًا في قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالمُسْنَدِ إليهِ علَمًا بإيرادِ الاسم الأحسنِ (اللّٰه) في قولِه سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ تَعظيمًا لأجرِ أهلِ الإيمانِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/221، والآلوسي، روح المعاني: 3/119، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/172.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/91.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/171.

تَعْظِيمُ ثَوَابِ أَهْلِ الإِيمَانِ كُلِّهِمْ، تفضّل من الله ومنّة

مَنْ جاهدَ مِنْهُمْ ومَنْ لم يُجاهِدْ؛ فهو ثوابٌ وجزاءٌ مِن اللهِ تعالى، المتَّصِفِ بصفاتِ الجلالِ والكمال، والأجرُ يعظُمُ بعظمَةِ مُعْطِيه[1]، وذلك بأنْ "وعد الله كلّا ممّن جاهد وقعد عن الجهاد، عجزا منه، مع تمنّى القدرة عليه، المثوبة الحسنى، وهي الجنّة، فكلّ منهما كامل الإيمان مخلص لله في العمل"[2].

فَائِدَةُ الِاعْتِرَاضِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

تَفْضِيلُ المُجَاهِدِينَ لا يَقْتَضِي حِرْمَانَ غَيْرِهِمْ

قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إطنابٌ بِالِاحْتِرَاسِ[3]، وذلك لأنَّ تفضيلَ المجاهدين على القاعدين قد يُوهِمُ حرمانَ المفضولِ، فدُفِعَ ذلكَ بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[4]، "إذا فضَّل تعالى شيئًا على شيء وكلّ منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلّا يتوهّم أحد ذمّ المفضّل عليه، كما قال هنا ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصّف في قوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٣﴾ [الصّف: 13]، وكما في قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: 10]، أي ممّن لم يكن كذلك"[5].

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنِ المَصْدَرِ المُوَافِقِ لِعَامِلِهِ (تَفْضِيلًا) إِلَى ﴿أَجْرًا﴾:

مِنْ ثَمَرَاتِ تَفْضِيلِ المُجَاهِدِينَ نَيْلُهُمُ الأَجْرَ الجَزِيلَ

لفظ ﴿أَجْرًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ ﴿وَفَضَّلَ﴾، على أنّه بمعنى أَجَرَ، وإنَّما أُوثِرَ على ما هو مصدرٌ من فِعْلِه؛ لِلْإِيذَانِ بأنَّ ذلك التَّفضيلَ أجرٌ لأعمالِهِمْ، ويَجوزُ أن يكونَ ﴿أَجْرًا﴾ مفعولًا ثانيًا لـ﴿وَفَضَّلَ﴾، بتضمينِ معنى الإعطاءِ فيه، والمعنى: أَعْطَى اللّه تعالى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/371.
(2) المراغي، تفسير المراغيّ: 5/129.
(3) جعله أبو السُّعود اعتراضًا، والّذي استقرَّ عليه الاصطلاح أنَّ مثل هذا يُسمَّى احتراسًا، وحقيقةُ الاحتراس: أن يُؤتى في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المراد بما يَدْفَعُ ذلك الإيهَامَ، ينظر: الجناجيّ، البلاغة الصّافية، ص: 249.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 195.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/371.

المجاهدين زيادةً على القاعدِينَ أَجْرًا عظيمًا[1]، قال ابن عاشور: "عطف ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، على جملة ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، وإن كان معنى الجملتين واحدا باعتبار ما في الجملة الثّانية من زيادة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فبذلك غايرت الجملة المعطوفة الجملة المعطوف عليها، مغايرة سوّغت العطف، مع ما في إعادة معظم ألفاظها من توكيد لها"[2]، وهو من فصاحة البيان القرآنيّ.

دَلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿أَجْرًا﴾، في قوله تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

عَظَمَةُ الأَجْرِ الّذي يَنالُهُ المُجاهِدُون

نُكِّر ﴿أَجْرًا﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يُرادُ به النَّوعيَّةُ المُستَلزِمَةُ للتَّعظيم، فـ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: نوعًا مِنَ الأَجْرِ لا يَعلم كُنْهَهُ إلّا اللّه تعالى، وهو ظاهرٌ في إفادتِه التَّعظيمَ، وَوَصْفُ الأجرِ بالعِظَم بمنزلةِ التَّوكيدِ المعنويِّ له، وكونه أجرا من العظيم، فلا يكون إلّا عظيما، وعطاء اللّه في الأجر وغيره، يكون على قدر كماله وغناه وكرمه الّذي لا حدود له، لا على قدر تقديرات البشر القاصرة.

سِرُّ جَمْعِ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ وتنكيرها، في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾:

عُلُوُّ شَأْنِ المُجاهِدِينَ وَجَزِيلُ ثَوَابِهِمُ الّذي لا يقدّره إلّا الله

جُمِعَ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾؛ لإفادة التَّكثير والتَّعظيم والتَّفخيم، فأمَّا إفادتُهُ التَّكثيرَ فَظاهِرٌ، وأمَّا إفادتُهُ التَّعظيمَ والتَّفخيمَ؛ فلِأنَّ الجمعَ لِمَا فيه من معنَى الكَثْرةِ تُستعارُ صيغتُهُ لمعنى القُوَّةِ والعظَمَةِ[3]، ويُقوِّي دَلالةَ التَّعظيم والتَّفخيمِ قولُه سبحانه: ﴿مِّنۡهُ﴾؛ أي: من اللّه تعالى، وهذا مُشعِرٌ بفخامَتِها وعُلُوِّ شأنِها[4]؛ فإنَّ الثَّوابَ من العظيمِ عظيمٌ، كما أنّ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/119.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/172.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/172.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/119.

تَنْكِيرَ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ في قوله سبحانه: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾؛ لبيان أنَّها درجاتٌ كثيرةٌ لَا يَحُدُّها الحَصْرُ، ولا يُعَيِّنُها المِقْدارُ[1]، فأفادَ مجموعُ الجمعِ والتَّنكير: كثرةَ الدَّرجاتِ، وعَظَمَتَها وفخامَتَهَا.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ المَغْفِرَةِ عَلَى الرَّحْمَةِ، فِي قوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾:

التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، مسلكٌ فـي الـتّـزكـيـة والتّرقية

قُدِّمَت المغفرةُ على الرَّحمةِ في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾؛ لنكاتٍ ثلاثٍ: إحداهما: أنَّ المغفرة سببٌ في الرَّحمةِ، كما قال الله تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النّمل: 46]، والأصلُ: تقديم السَّبَبِ، وثانيها: أنَّ ذلك يقتضي تقديمَ الرّحمةِ بِدَلالةِ اللُّزوم - لكونها مسبَّبًا لِلْمغفرة - ، وتأخيرَهَا بِدَلالَةِ المُطابقة، فيُفيدُ ذلك الدُّعاءَ بها مرَّتين، وثالثُها: أنَّ في المغفرةِ زوالَ المرهوبِ، وفي الرَّحمةِ تحصيلَ المطلوبِ؛ فكانَ تقديمُ المغفرةِ من باب أنَّ التَّحلية قبلَ التَّخلية.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ التَّفْضِيلِ بلفظ ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ في هذه الآية الكريمة:

إكْرامُ اللهِ تعالى لِلْمُجَاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

تَكرَّر ذِكْرُ تفضيلِ المجاهدين؛ فقد قال الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ﴾، وقال سبحانَه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، وفي سرِّ هذا التَّكرارِ أَوْجُهٌ[2]: أوَّلُها: الإشعارُ باختلافِ مُتعلَّقِ التَّفضيلِ؛ فالتَّفضيلُ الأوّلُ بالدَّرجةِ: هو ما يُؤْتَوْهُ في الدّنيا من الغنائم، والتَّفضيلُ الآخرُ هو ما يُكرِمُهُم اللّه تعالى به في الآخرة، ولذا أُفرِدَ الأوَّلُ وجُمِعَ الثَّاني؛ لِلْإيماءِ إلى أنَّ ثوابَ الدُّنيا يسيرٌ في جَنْبِ ثواب الآخرة، ثانيها: أنَّ ذلكَ إعلامٌ باختلافِ المُفَضَّلِ عليهم؛ فالأوَّلُ: تفضيلُ اللّه تعالى لِلْمُجاهِدِين على القاعدين مِن أُولي الضَّررِ؛ وذلك حاصلٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1816.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/194، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/344، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/37، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/221.

بدرجةٍ واحدَةٍ، والثَّاني: تَفضيلُ اللّهِ سبحانه لِلْمُجاهِدِين على القاعِدِين من غير عُذرٍ؛ وذلك حاصلٌ بدرجاتٍ، وثالثُها: أنَّ فيه تنزيلَ الاختلافِ العنوانيِّ بين التَّفْضِيلَيْنِ، وبين الدَّرجةِ والدَّرجاتِ: منزلةَ الاختلافِ الذَّاتيِّ؛ تمهيدًا لسلوك طريقِ الإبهام ثمَّ التَّفسيرِ؛ رَوْمًا لِمَزِيدِ التَّحقيقِ والتَّقرير، ورابعُها: أنَّ التَّكرارَ بقَصْدِ تأكيدِ التَّفضيلِ والمبالغَةِ فيه؛ لبيانِ رِفعةِ المجاهدين وعَظِيم شَأْنِهِم.

بَلَاغَةُ الإِطْنَابِ بِالتَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

تَرْغِيبُ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي تَحْصِيلِ الأَسْبَابِ المُقْتَضِيَةِ مَغْفِرَةَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بعدَ قولِه سبحانه: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ﴾: تَذْيِيلٌ جارٍ مَجْرى المثَلِ؛ لاستقلالِه بالإفادَةِ من غيرِ افتقارٍ إلى ما قبلَهُ في بيانِ معناهُ، وفائدتُهُ: تقريرُ وعدِ اللّهِ تعالى من المغفرة والرَّحمةِ وتأكيدُه[1]، وفيه حَثٌّ على التَّلبُّسِ بالعمَلِ المُقتضي لِمَغفرةِ اللّه تعالى ورحمتِه، ولفظ ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ﴾، بدل من ﴿أَجۡرًا﴾ بدل الكلّ من الكلّ، مبيّن لكميّة التّفضيل[2]، وفيه إشارة إلى أنّه " ما فضّلهم بذلك إلّا بما اقتضته صفاته، وما هو شأنه في نفسه، فإذا لا بدّ من ذلك الأجر العظيم بأنواعه، ولا مردَّ له"[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ:

الفَرْقُ بينَهما من أوجهٍ: أوَّلُها: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[4]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[5]، ثانيها: أنَّ أحدَهما سببٌ في الآخَرِ، ومالَ ابنُ عَرَفَةَ إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/222.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/285.
(3) رضا، تفسير المنار: 5/287.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).

تُوجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[1]، إلَّا أنَّ ظاهرَ القرآنِ الكريم عكسُه؛ وهو كونُ المغفرة سببًا في الرَّحمة، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل: 46]، ثالثُها: أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ إذا جُمِعا في مَحَلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى من الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة منها فيما يُستقبَلُ[2] إذا كان ذلك جزاءً في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذنوبٌ حتَّى يُحتاجَ إلى العِصمةِ منها، رابعُها: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المَكْرُوه من آثار الذُّنوبِ، والرَّحمةَ فيها تَحصيلُ المطلوبِ[3]، ولذلك كان استعمالهما معًا ذا دلالة وأهميّة.

المَغْفِرَةُ والعَفْوُ:

الفرقُ بينَهما من ثلاثةِ أَوْجُهٍ: أحدُها: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في لُغة العربِ: السَّتْرُ[4]، وأصلَ العَفْوِ: المَحْوُ وَتَرْكُ الشَّيْءِ[5]، ثانيها: أنَّ الغالبَ استعمالُ العَفو في تَرْكِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فِعْلِ المحرَّماتِ[6]، ثالثُها: أنَّ أحدَهُما أبلغُ مِنَ الآخَرِ، وقد وقع خِلافٌ في تعيينِ الأبلَغِ منهما على قولَيْن: أحدهما: أنَّ العفوَ أبلغُ مِنَ المغفرةِ؛ لأنَّ المغفرةَ تُنْبئُ عَنِ السَّتْرِ، بخلافِ العَفْوِ فإنَّه مُشعِرٌ بالمَحْوِ، والمَحْوُ أبلغُ من السَّتْرِ[7]، والآخرُ: أنَّ المغفرةَ أبلغُ مِنَ العفوِ؛ لأنَّ المغفرةَ مُتضمِّنَةٌ وِقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِه، وإقبالَ الغافرِ عليه ورضاهُ عنه، بخلافِ العَفْوِ فإنَّهُ مُتضمِّنٌ لإسقاطِ صاحبِ الحقِّ حقَّهُ ومسامحتِه، فقد يَعْفُو ولا يُقْبِلُ على مَنْ عفا عَنْهُ ولا يرضَى عَنْهُ، وبهذا يكونُ العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفضلًا وجُودًا[8].

والأَوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغَوِيُّ يَدُلُّ عليه.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435، 2/258.
(2) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول، ص: 19.
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية: (عفا).
(6) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/341.
(7) الصَّفُّوري، نزهة المجالس: 1/88.
(8) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 14/140.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾ [النّساء: 97 - 99]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبلَها:

المنـاسـبـة بين أجر المقبلين على الجهاد، وعقاب القـاعـديـن المستكينين

لَمَّا ذَكَرَ اللّه تعالى ثوابَ مَنْ أَقْدَمَ علَى الجهاد؛ أَتْبَعَهُ بِعِقابِ مَنْ قَعَدَ عَنْهُ ورَضِيَ بالسُّكونِ في دَارِ الكُفْرِ، والآية عامّة تتناول مجموع المؤمنين الّذين أقاموا بين المشركين، وهم قادرون على الهجرة، وليس لهم في موطنهم قدرة على إقامة أمور دينهم، نظرا للحصار والإيذاء الّذي يتعرّضون له بالغدوّ والإبكار، في جوار الكفّار.

فهم ظالمون لأنفسهم، مرتكبون حراما بالإجماع، وظلمهم لأنفسهم متجسّد في كونهم يتركون الحقّ تقية وخوفا من الأذى المسلّط عليهم، وما يسامون من خسف وما يلاقون من هوان(1)، إلّا من له عذر، فهو معفوٌّ عنه، وذلك كلّه على طريقةِ القرآنِ الكريمِ في ذِكرِ المُتَقابِلَات؛ كالجمع بينَ الثّوابِ والعقاب، والوعدِ والوعيدِ(2).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: جمع ملك، وهم مخلوقات من عالَم غَيْبِيّ، خَلَقَهُمُ اللّه سبحانه مِن نُورٍ، وجعلَهم طائعين لَهُ لا يَعصُون أمرَه(3)،

(1) حومد، أيسر التّفاسير: 1/88.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/195.
(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/59.

الملك من الملائكة واحد وجمع، قال الكسّائي: أصله مألك بتقديم الهمزة، من الألوك وهي الرّسالة، ثمّ قلبت وقدّمت اللّام فقيل ملأك، ثمّ تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقيل ملك، فلما جمعوه ردوها إليه، فقالوا: ملائكة وملائك أيضا[1]، وسُمُّوا ملائكةً؛ لأنَّهم يُبلِّغُون رسائلَ اللّه تعالى إلى مَنْ يشَاءُ مِن عبادِهِ[2]، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1].

2) ﴿ظَالِمِيٓ﴾: الظّاءُ واللّامُ والميمُ تَدُلُّ تصاريفُها على حَجْبِ ما يَنْبَغِي أو مَا يُسْتَحَقُّ؛ أي: مَنعه أو انتِقاصه[3].ومنهُ الظَّلامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَةَ، والأرضُ المظلومةُ: الّتي لم يَنَلْهَا المطرُ[4].والظَّالمُ: المُتَّصِفُ بالظُّلمِ، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيْءِ في غير مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمَّا بنُقْصانٍ أو بزِيادَةٍ، وإمَّا بعُدولٍ عَن وَقْتِه أو مكانِه[5]، والظّالم لنفسه هو الّذي يوردها المهالك، بعصيان أمر اللّه، وارتكاب المفاسد الّتي تعود عليها بالسّوء والوبال في الدّارين.

3) ﴿مُسۡتَضۡعَفِينَ﴾: الضّادُ والعينُ والفاءُ تَدُلُّ على مَعْنَيَيْن: عدم القُوَّةِ، وزيادةِ مِثْلِ الشَّيءِ فيهِ[6].ومِنَ الأوّلِ: الضَّعْفُ والضُّعْفُ، والضَّعفُ يكون في النَّفْسِ، وفي البدَنِ، وفي الحالِ[7]، والمُسْتَضْعَفُ: الّذي يَتَضعَّفُهُ النَّاسُ، ويَتَجبَّرون عليهِ في الدُّنيا؛ لفَقْرٍ ورَثاثَةِ الحالِ[8]، والمرادُ بالمُسْتَضْعَفِين في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ العَجَزَةُ عَنِ الهِجرةِ، بسبَبِ الإِعْسارِ وقِلّةِ الحِيلةِ، وسُوءِ البَصَرِ والمعرفةِ بالطَّريقِ مِن أرضهم - الّتي هي أرضُ شِرْكٍ - إلى أرض الإسلامِ[9].

4) ﴿وَٰسِعَةٗ﴾: الواوُ والسِّينُ والعَيْنُ تدُلُّ تصَارِيفُها على ضِدِّ الضِّيقِ والعُسْرِ[10]، ومِنْهُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ملك).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/434، والأنباريّ، الزّاهر: 2/254.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(5) ابن سِيده، المحكم: (ظلم)، والرَّاغب، المفردات: (ظلم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضعف).
(7) الرَّاغب، المفردات: (ضعف).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ضعف).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 9/101.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وسع).

التَّوسيعُ، وهو ضِدُّ التَّضْيِيقِ[1].ومِنْهُ: السَّعَةُ، وتكونُ في الأمكنَةِ والأحوالِ والأفعالِ[2]، ففي المكانِ؛ نحوُ قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ﴾، وفي الأحوال: السَّعَةُ بمعنى الغِنى والرّفاهيَةِ[3]، وفي الأفعال، كَسَعَةِ الجُودِ، وفي اتّساع الأرض مجالٌ للمغادرة، وفرصة للهجرة، حيث يفرّ المؤمن بدينه، ليجد الحريّة في العقيدة، والفسحة لممارسة شعائر دينه، دون ضغط ولا مضايقة، وليس المقصود ترك الوطن، لأنّ حبّ الأوطان من صريح الإيمان، وحين يأتي نصر اللّه، وتتاح الفرصة للرّجوع إلى الوطن، يرجع المهاجر أكثر شوقا، وأعمق حبّا لوطنه، وقد قال الشّاعر:

بِلَادٌ أَلِفْنَاهَا عَلَى رَغْمِ مَا بِهَا *** وَقَدْ يُؤْلَفُ الشَّيْءُ الّذي لَيْسَ بِالحَسَنْ

وَتُسْتَعْذَبُ الأَرْضُ التّي لَا هَوَا بِهَا *** وَلَا مَاؤُهَا عَذْبٌ وَلَكِنَّهَا وَطَنْ[4].

5) ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾: الهمزةُ والواوُ والياءُ تَدُلُّ تصريفاتُها على مَعْنَيَيْنِ: التَّجمُّعِ، والإشفاقِ[5]، ومِنَ الأوَّلِ التَّأوِّي؛ وهو التَّجمُّعُ، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعض[6]. والمأْوَى: المكانُ الّذي يُنْصَرَفُ إليه ويُقامُ فيه[7]، والمأْوَى في قول اللّه تعالى: ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾: المَصِيرُ الّذي يَأْوُون إليهِ يومَ القِيامَةِ[8]، ولمّا تكون النّار هي المأوى، فقد خسر صاحبها عقباه، وكان في أشدّ العذاب مأواه، وهذا من الأيلولة إلى سوء العاقبة، الّتي بشّعها السّياق، وجعلها عقوبة لهذا الصّنف الخانع المتخاذل.

6) ﴿مَصِيرًا﴾: الصّادُ والياءُ والرّاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على المآلِ والمَرجعِ[9]، ومِنْهُ المَصِيرُ؛ وهو المَوضعُ الّذي ترجِعُ إليه المياهُ[10]، والمَصيرُ: المرجعُ والمآلُ[11].وقولُه تعالى:

---

(1) الجوهريّ، الصحاح: (وسع).
(2) الرّاغب، المفردات: (وسع).
(3) ابن سِيده، المحكم: (وسع).
(4) الأبشيهي، المستطرف: 3/375.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(6) الخليل، العين: (أوى).
(7) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين، ص: 266.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 7/494.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صير).
(10) ابن سيدَه، المحكم: (صير).
(11) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (صير).

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ معناه: ساءتْ جَهَنَّمُ لِأَهْلِها الّذين صارُوا إليها مَرجِعًا ومَسْكنًا ومأوًى[1]، وحيث أنّ الإسلام يبغي لأهله العزّة، وسعادة المصير، فإنّ هؤلاء القَاعِدينَ المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله، ولم يدركواْ أنّ أرض الله واسعة، كي يفرّواْ من أرضهم إلى أرض أخرى، يأمنون فيها على دينكم؟، وانصاعواْ للكفر وظاهروه، قد فقدوا العزّة، وضاعت منهم الكرامة، ولذلك كان مثواهم النّار، وقبح هذا المرجع والمآب[2].

7) ﴿حِيلَةَ﴾: الحاءُ والواوُ واللّامُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على تحرُّكٍ في دَوْرٍ، ومِنْهُ سُمِّيَ العامُ حَولًا؛ لأنَّه يَحولُ، أي: يَدُورُ[3]، ومِنْهُ الحَيلةُ؛ وهي حِجارَة تنحدرُ مِن جَوانِب الجَبَل إِلَى أَسْفَله حَتَّى تَكْثر، ومِنْ كلام العرب قولُهم: أَتَيْته فَوجدتُ النَّاسَ حولَه كالحَيْلةِ، أَيْ: مُحْدِقين بِهِ كإِحْداقِ تِلْكَ الحِجَارَةِ بِالجَبَلِ[4].ومن هذا الباب: الحِيلَةُ؛ لأَنَّه يدورُ حوالَي الشَّيءِ لِيُدْرِكَهُ[5]، والحِيلَةُ: لَفْظٌ جامِعٌ لأنواعِ أسبَابِ التَّخلُّصِ[6]، واستطاعَةُ الحِيلةِ: وُجْدانُ أسبابِ الهِجرةِ، وما تتَوَقَّفُ عليهِ[7].

8) ﴿عَسَى﴾: عَسَى: كلمةُ ترَجٍّ، وهي دالَّةٌ على قُربٍ وإمكانٍ[8]، وعسى مِنَ اللهِ تعالَى واجبةٌ في القرآنِ الكريمِ كُلِّه، إلّا في موضعٍ واحدٍ، وهو قولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾[9] [التّحريم: 5]، وقال أبو عبيدة: عسى من الله إيجاب، فجاءت على إحدى لغتي العرب، لأن عسى في كلامهم رجاء ويقين، وأنشد لابن مقبل، في معنى ظنّي بهم يقين:

ظَنِّـي بِهِمْ كَعَسَـى وَهُمْ بِتَنُوفَةٍ *** يَتَنَازَعُونَ جَوَائِزَ الأَمْثَالِ[10].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/101.
(2) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 94.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حول).
(4) ابن سيده، المحكم: (حيل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حول).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/347، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 3/216.
(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/92.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسو/ي).
(9) الجوهريّ، الصحاح: (عسا).
(10) الجوهريّ، الصحاح: (عسا).

9) ﴿يَعۡفُوَ﴾: العَيْنُ والفاءُ والواوُ تَدُلُّ كثيرٌ من تصاريفِها على تَرْكِ الشَّيْءِ[1]، ومنهُ: العَفْوُ؛ وهي الأرضُ الّتي لا أثَرَ فيها[2]، كأنَّها تُرِكَتْ وأُهْمِلَتْ.والعَفْوُ عَنِ الذَّنبِ: تَرْكُ العقُوبَةِ عليهِ[3]، وحقيقةُ العَفْوِ شرعًا: التَّجاوزُ عَنِ العَبْدِ بغُفرانِ ذنُوبه، وَعدمُ مؤاخذتِه بِمَا اقترفَه منها[4]، وفي أسماء اللّه تعالى (العفو) هو فعول، من العفو، وهو التّجاوز عن الذّنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطّمس، وهو من أبنية المبالغة، يقال: عفا يعفو عفوا، فهو عاف وعفو[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مـآل الـرّاضـين بالذّل والهوان، وقـد كـان لهم أن يهاجروا دون توان

إنَّ الّذين تَقبضُ الملائكَةُ أرواحَهم، وقد ظَلَمُوا أنفسَهم بتَرْكِهِمُ الهجرةَ إلى دارِ الإسلامِ وبقَائِهم في دار الكُفْر، تَقُولُ لَهُم الملائكَةُ توبيخًا لهم وتَقريعًا: على أيِّ حالٍ كُنْتُم مِن أمرِ دينِكُمْ؟ فيَقُولُون معتذِرينَ: كُنَّا ضُعَفاءَ في أرْضِنا، عاجِزين عَن دَفْعِ الظُّلم عَن أنفسِنا، فتقُولُ لَهُمُ الملائكَةُ توبيخًا: أَلَم تَكُنْ أرضُ اللّهِ واسعةً، فتَنْتَقِلُوا مِن أرضِكم إلى دارٍ أخرى، تأمنُونَ فيها على دينِكُمْ؟! فأولئك مَأْوَاهُمُ النَّارُ، تَكون لَهُمْ مَرجِعًا ومَسكنًا يأوون إليهِ يومَ القيامةِ.ويُستثنى مِن هذا الوعيدِ والتَّهديدِ: مَن عَجزَ عَنِ الهِجرةِ مِنَ الرِّجال والنِّساءِ والصِّغارِ، الّذين لا يَقْدِرُون على دَفعِ الظُّلمِ عَن أَنْفُسِهم، ولا يَجِدُونَ أسبابَ الهِجرة وما تتوَقَّفُ عليهِ، فهذا الصِّنْفُ مِنَ الضُّعفاءِ هُم الّذين يَعْفُو اللّهُ تعالى عَنْهُم؛ لِعلمِه سبحانه بحقيقةِ حالِهم، وكانَ اللّهُ ﷻ مُتجاوزًا عَنِ السَّيِّئاتِ ساترًا لها[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).
(2) ابن سِيده، المخصَّص: (عفو).
(3) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عفو).
(4) الشَّوكانّي، تحفة الذّاكرين، ص: 459.
(5) ابن الأثير، النّهاية: (عفا).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/100 - 111، ومكيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 2/1440 - 1441، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1817، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ الفِعْلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ بَيْنَ الماضَوِيَّةِ وَالمُضارِعِيَّةِ:

التَّحْذِيرُ مِنْ تَرْكِ الهِجْرَةِ لِلْقَادِرِ عَلَيْها

الفِعْلُ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ متردِّدٌ بين دَلالتَين[1]: إحداهما: أَنْ يَكُونَ فعلًا ماضيًا لَم تَلحقْهُ علامةُ تأنيثٍ؛ لأَنَّ لفظَ الملائكةِ مؤنَّثٌ تأنيثًا غيرَ حقيقيٍّ. والأخرى: أن يكونَ فعلًا مضارِعًا، حُذفت إحدَى تاءَيْهِ تخفيفًا، والأصلُ: (تتَوَفَّاهُمْ).وعلى الدَّلالَةِ الأُولَى؛ تكونُ الآيةُ إخبارًا عن حالِ أقوامٍ مَضَوا وانقرضُوا، وفيه تعريضٌ على جهةِ التَّحذيرِ لِمَنْ يصنَعُ مثلَ صنيعِهِمْ، أو يكونُ الفِعْلُ الماضي مُرادًا به الاستقبالُ، لتحقُّقِ وجودِ مَنْ هُوَ بهذا الوصفِ، وإنْ لم تُعَيَّنْ أشخاصُهُمْ.وعلى الدَّلالةِ الأخرى؛ تكونُ الآيةُ عامَّةً في حقِّ كلِّ مَنْ كان بهذا الوصفِ، وحَذْفُ التَّاءِ مِنْهُ مَع كونِه مِنْ بابِ التَّخفيفِ، إلَّا أنَّ فيهِ إشارةً أيضًا إلَى ما كان عِنْدَهُم مِن نَقْصِ بعضِ المعاني، بما تركُوه مِنَ الهجرةِ إلى أرضِ الإسلامِ، فَنَقْصُهم المعنويُّ دلَّ عليهِ نَقْصُ بناءِ الفعلِ، دَلالةً على جهةِ الرَّمْزِ والإيماءِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ دُونَ (يَمُوتُونَ) أَوْ (يُتَوَفَّوْنَ):

فَظَاعَةُ حَالِ تَارِكِي الهِجْرَةِ مَعَ القُدْرَةِ عليها، وسوء مصيرهم عِنْدَ المماتِ

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيْ: تُميتُهم وتَقبِضُ أرواحَهمْ، فالمعنى: إنَّ الّذين يموتُونَ حالَ كونِهم ظالِمي أنفسِهم، وعُدِلَ عَنِ التَّعبيرِ بـ (يموتُونَ) أو (يُتَوَفَّونَ) إلى ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ ليكونَ ذلكَ وسيلةً لِبيانِ فظاعةِ فِتنَتِهم عندَ الموتِ[2]؛ لأنَّ بناءَ الفعلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ يقتضي إظهارَ فاعلِ التَّوفِّي؛ وهو هُنا: الملائكةُ، وفيهِ من إِدْخالِ الرَّوْعِ والمهابَةِ ما فِيهِ، إذ ملائكة العذاب سوف لا يترفّقون

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/195، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/345، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/372، وأبو زهرة: زهرة التَّفاسير: 4/1817.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/173.

بهذا الصّنف من النّاس، وبالتّالي فإنّ عذابهم الذّي سيكون في النّار، يبدأ منذ لحظات الوفاة، فيخرجون من الدّنيا وهم يوبّخون، ويغلظ لهم الملائكة الشّداد الغلاظ في القول، فتبدأ معاناتهم منذ ذلك الحين.

ورود الجَمْعِ مُرادًا بِهِ المُفْرَدُ، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

عِظَمُ شَأْنِ مَلَكِ المَــوْتِ، الّــذي يـبـاشـر خـروج الرّوح

لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ جمعٌ يُرادُ به المفرَدُ؛ لأنَّ الّذي يُباشِرُ التَّوفِّي هو مَلَكُ الموتِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السّجدة:]، وإطلاقُ الجَمْعِ على الواحدِ يُقصَدُ به تفخيمُ شأنِ ملَكِ الموتِ(1)، ويُحتَمَلُ أن يكونَ الجمعُ باقيًا على أصلِ دَلالَتِهِ، وتكون اللَّامُ فيه لِلْعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ: الملائكةُ المعاوِنُونَ لملَكِ الموتِ في قبضِ الأَرْوَاحِ(2)، لا جميعُ الملائكة.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِـ ﴿إِنَّ﴾، **في قوله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

بَشَاعَةُ المُخالَفَةِ بِتَرْكِ الهِجْرَةِ إلى حيث الأمان على العقيدة

أُكِّدتِ الجملةُ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ اهتمامًا بمضمونِ الخَبَرِ؛ لِما فيه من بشاعةِ المخالفةِ وسوءِ العاقبَةِ، ولا يُرادُ به رَدُّ إنكارِ منكرٍ، ولا تردُّدِ شاكٍّ، "وفي خبر ﴿إِنَّ﴾ هذه ثلاثة أوجه، أحدها: أنّه محذوفٌ تقديرُه: إنَّ الّذين توفَّاهم الملائكةُ هَلَكوا، والثّاني: أنّه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ ودخلت الفاءُ زائدةً في الخبر تشبيهاً للموصول باسم الشّرط، والثّالث: أنّه ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾، ولا بدّ من تقدير العائد أيضاً أي: قالوا لهم كذا، و﴿فِيمَ﴾ خبر ﴿كُنتُمۡۖ﴾ وهي (ما) الاستفهاميّة حُذِفت ألفها حين جُرَّتْ"(3).

(1) الزُّحَيلّي، التّفسير المنير: 5/226.
(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/185.
(3) السّمين، الدّر المصون: 4/78.

دَلَالَةُ تَعْرِيفِ الِاسْمِ المَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

بَيانُ سُوءِ عَاقِبَةِ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ هَذَا المَسْلَكِ

تعريفُ الاسْمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ لِلعهدِ، والمقصودُ به: أناسٌ معيَّنُونَ، تركُوا الهجرةَ من بلاد الكُفرِ إلى بِلادِ الإسْلَام معَ عدمِ تمكُّنِهم مِن إظهار دِينِهم، ويُؤيِّدُهُ حَمْلُ الفِعْلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ على معنى المُضِيِّ - على ما تقدَّمَ قريبًا - .ويَحتملُ أن يَكُونَ التَّعريفُ لِلْجِنْسِ المفيدِ العمومَ، ويُقوِّيه حملُ الفعلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ على المُضارِعيَّةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ، فِي قولِه: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾:

الِاسْتِمْرَارُ عَلَى الظُّلْمِ يُوجِبُ التَّغْلِيظَ فِي العُقُوبَةِ

جاء الحالُ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ اسمًا، ولم يردْ فِعْلًا، بِأَنْ يُقَالَ: (وقد ظَلَمُوا أنفسَهم)؛ لِلْإيماء إلى أنَّ ظُلْمَهُم كان مُسْتَمِرًّا، كما يدلُّ على ذلكَ سِياقُ الذَّمِّ، فموجِبُ العقوبةِ والزَّجْرِ ثابتٌ ولم يكُن عارِضًا، ولذا اشتدَّ عَلَيْهِمُ الوَعيدُ، حينما وُوجهوا بالحجّة الدّامغة، والدّليل الواضح من فعلهم، وقد أقرّوا بذلك، وكانت حجّتهم في التّبرير داحظة.

دَلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيمَ كُنتُمْۖ﴾:

التَّقْصِيرُ فِي إِقَامَةِ شَعَائِرِ الإِسْلَامِ مُوجِبٌ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ

الِاسْتِفْهَامُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ﴾ يُرادُ به تَقْريعُهم وتوبيخُهم، بتَقْصِيرِهم في إِظْهارِ إِسْلامِهم، وإقامةِ أحكامِهِ وشعائرِه[1]، لا حقيقةُ الاستعلام.

ولا يُشْكِلُ عليهِ أنَّ المُتَوَفَّيْنَ أجابُوا عَنْ سؤالِ الملائكة، وسُؤالُ التَّوبيخِ لا يفتَقِرُ إلى جوابٍ؛ لأنَّ قولَهُم: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ مُحاولَةٌ مِنْهُمْ لإقامةِ عُذْرٍ، يُزِيلُ عَنْهُمُ التَّوبيخَ.

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 2/95، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/346، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/372، والآلوسّي، روح المعاني: 3/121.

سَبَبُ فَصلِ جُملَةِ ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عَمَّا قَبلَها:

تَثوِيرُ فِكْرِ المُتَلَقِّي لِمَعرِفَةِ الجَوابِ، مِن إعجازِ الخطاب

فُصِلَتِ الجُملةُ ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عمَّا قبلُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فإنَّ الجملةَ السَّابقةَ، وهي قولُ اللهِ سبحانه: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ تبعثُ في نَفْسِ المُتَلقّي سُؤالًا؛ وهو: ماذا قالَ أُولَئِكَ المُتوفَّوْن في الجوَابِ؟ فَقِيلَ: ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ﴾[1].

دَلَالَةُ الألف واللّامِ فِي قوله ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

مِنْ شَأْنِ الواقِعِ فِي المُخالَفَةِ المُبَالَغَةُ فِي إِبْرَازِ عُذْرِه

(الْ) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مِن قَوْلِ اللّه سُبحانه: ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يُرادُ بها العهدُ العِلْمِيُّ، والمقصودُ: أرضُ الكُفَّارِ الّتي لم يُفارقُوها بالهِجرَةِ عنها إلى أرض الإسلام، وليس المرادُ أنَّهم كانُوا مُستَضعَفِين في عمُوم الأرض، بدَلِيلِ قَوْلِ المَلَائِكَةِ لَهُمْ بعدُ: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، وكأنَّهم أَطْلَقُوا الأرضَ في قولِهم: ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لِلْإِشَارةِ إلى أنَّها لكثرة الكُفَّارِ فيها هي الأرضُ كُلُّهَا[2]، أو النُّكْتَةُ في ذلك: المبالغَةُ في إظهار عُذْرِهم، حتَّى كأنَّ الهجرةَ في حقِّهم ليس لها فائدةٌ؛ لوجودِ الاسْتِضْعَافِ في الأرض كُلِّها.

دَلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ﴾:

المُعْتَذِرُ بِعُذْرٍ غَيْرِ صَحِيحٍ يَسْتَحِقُّ التَّبْكِيتَ وَالتَّوْبِيخَ

الِاسْتِفْهَامُ في قولِ اللّه سُبحانه حكايةً عَنِ الملائكةِ قولَهم: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ يُرادُ به التَّبكيتُ؛ لردِّ ما اعْتَذَرُوا به وتكذيبِهِ؛ إذْ إنَّ ما اعتَذروا به غيرُ صحيحٍ، فقد كانَت لَهُمُ القُدْرَةُ على الخُرُوجِ إلى بَعْضِ الأَقْطارِ الّتي يأمنُونَ فيها على دِينِهم[3]، "فقالوا: كُنَّا مستَضْعفِين اعْتِذاراً عمَّا وبَّخُوا به، واعتِلالاً بأنَّهم ما كَانُوا قادِرِين على المُهَاجَرة، ثمّ إنّ المَلَائِكَة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/222، والآلوسّي، روح المعاني: 3/121.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/737.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/41، والمظهري، التَّفسير المظهريّ: 2/208.

لم يَقْبَلُواْ منهم هذا العُذْر؛ بل ردُّوه عَليْهِم، فقالواْ: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ يعني أنكم كنتم قادرين على الخُرُوجِ من مَكَّة إلى بَعْضِ البِلاَدِ التي لا تُمْنَعُون فيها من إظْهَار دِينكُم، فبقيتم بين الكُفَّار لا للعجز عن مُفَارَقَتِهِم، بل مع القُدْرَة على المُفَارَقَة"[1].

تَضْمِينُ فِعْلِ ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ مَعْنى الضَّرْبِ في الأرض:

وَفْــرَةُ المَعَـانِي وَكَـثْرَتُـهَـا فِـي أُسْـلُـوبِ التَّضْمِين

الفِعْلُ ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ مِن قولِه تعالى: ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، الأصلُ أن يُعدَّى بـ (إلَى)، فمقتضى الظَّاهر: ألَم تكن أرضُ اللّه واسعةً فتهاجروا إليها، وفي هذا مَسْلَكَانِ: أحدُهما: أن يكونَ من بابِ تناوُبِ الحروف، وأنَّ (في) بمعنى (إلَى)[2].والآخَرُ: أن يكونَ ذلك لِلْإِشارة إلى تَضمينِ الفعل معنَى فعلٍ آخرَ، يصلُح لتعديةِ الحرفِ المذكورِ؛ وهو الضَّرْبُ، فيكون المعنى: ألم تكنْ أرضُ اللّهِ واسعةً فتُهاجِرُوا ضاربين في الأرض، إلى حيث يَزُولُ عَنْكُمُ المانعُ الّذي يمنعُكم مِن إظهار دينِكُم، وإقامةِ شَرَائعِهِ[3]، وقال أبو البقاء: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ﴾ استفهام بمعنى التّوبيخ، ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ منصوبٌ على جواب الاستفهام، لأنَّ النّفيَ صار إثباتاً بالاستفهام[4].

دَلَالَةُ اسْمِ الإِشَارَةِ عَلَى تَمْيِيزِ المُشَارِ إِلَيْهِمْ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ:

بُعْدُ مكانة تاركي الهِجْرَةِ فِي الشَّرِّ، حيث تشبّثوا بدار الكُفْرِ

في التَّعبير عن تاركِي الهجرةِ من بلادِ الكُفر إلى بلاد الإسلام باسم الإشارة (أولئك) في قوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾: تنبيهٌ على بشاعةِ ما اتَّصفوا به وشناعتِهِ، بِحَيث تَميَّزوا عمَّنْ عداهُم أكملَ تمييزٍ، وَلِلْإِشْعار بأنَّهم جديرون بالحُكم الوارِدِ بعدَهُ؛

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 6/590.

(2) ابن أبي زَمنين، تفسير القرآن: 1/400، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 457، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/506.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/373.

(4) السّمين، الدّر المصون: 4/79.

للصِّفاتِ المذكورةِ قبلُ[1].وقد جاءَ اسمُ الإشارةِ (أولئك) لِلْبَعِيد؛ إِشْعَارًا إلى بُعْدِ مكانتِهِمْ في السُّوء[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْتِعارَةِ فِي قولِهِ: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾:

مِـنْ أَنْـــواعِ العَذابِ النَّفْسِيِّ التَّهكُّمُ بِالمُعَذَّبِ

أصلُ كلمةِ المَأْوَى: الموضِعُ الّذي يُنْصَرَفُ إليه ويُقامُ فيه[3]، وذلك يتضمَّنُ معنى الاستقرارِ والاطمئنانِ، فالتَّعبيرُ عَن جهنَّمَ بأنَّها مأوًى في قول الله تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾ هُوَ من بابِ الِاسْتِعَارَةِ التَّهكُّميَّةِ، وذلك أشدُّ وَقْعًا على النُّفوسِ؛ لِمَا فيها مِنَ الإِنْزالِ لِقَدْرِ المخاطَبِ والحَطِّ منهُ.

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ فِي اسْتِيعابِ الْأَقْسَامِ:

الضّعف البشريّ يطال كلّ أصناف الجنس، ولكن لا تكليف على غير مكلّف

اسْتِثْنَاءُ العاجزينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ مِنَ المُؤاخَذةِ بتَرْكِ الهجرةِ في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، جارٍ وَفْقَ الظَّاهرِ؛ لأنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ من شأنِهم الوقوعُ في الإثمِ والمُخالفةِ؛ لكونِهم مُكَلَّفين، إلَّا أنَّ استثناءَ الوِلْدَانِ مَعَ عدمِ توجُّهِ الوعيدِ إليهم أصلًا - لكون قَلَمِ المُؤاخذةِ مرفوعًا عَنْهُمْ - مُخالِفٌ لمُقتَضى الظَّاهرِ. وإيرادُ الوُلدانِ ههُنا لاستيعابِ أقسامِ النَّاسِ رجالًا ونساءً وَوِلْدانًا؛ وهو أحدُ صُوَرِ أسلوبِ التَّقسيمِ[4] في عِلمِ البَدِيعِ، وفي فائدةِ ذَلكَ مسالِكُ[5]:

الهجرة مطلب كونيّ لا تخلو منه مصْرٌ ولا دهْرٌ:

مردّ التّسريح بها إلى أمور: أوَّلُها: أنَّ المرادَ المبالغةُ في بيانِ وجوبِ الهجرةِ مِنْ بلادِ الكفرِ إلى بلاد الإسلام، حتَّى كأنَّ ذلك - لتأكُّدِه - ممَّا أُمِرَ الوِلدانُ به.وثانيها: أنْ يكونَ المُرادُ بالوِلْدانِ: مَنْ

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/277.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/373.
(3) ابن أبي نصر الحُمَيْدِيّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(4) المرادُ به ههنا: استيفَاءُ أقسَامِ الشيَّءِ بالذِّكْر، وله صُوَرٌ أُخرَى، يُنظر: الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/608.
(5) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/170، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1820.

قَرُبَ عَهدُه بالصِّغرِ، مِنْ بابِ المجازِ المُرسَلِ بعَلاقةِ اعتبارِ ما كانَ. وثالثُها: أنْ يكونَ ذلكَ مِن بابِ الكِنايةِ؛ إذِ المقصودُ تكليفُ أولياءِ الولدانِ بإخراجِهم مِنْ ديارِ الكفرِ؛ لعَجْزهم عَنِ الخُرُوج على سَبيلِ الانفرادِ.ورابعُها: أنَّ ذلكَ للإشارة إلى أنَّ عَجْزَهم عجزٌ لوالدِيهم من الرِّجال والنِّساء؛ "لأنَّ مِنْ أقوى أسبابِ العَجْزِ وعدِم الحُنْكَةِ كونَ الرّجالِ والنِّساءِ مَشْغُولِين بأطفالهم، مَشْغُوفِين بِهِم، فيَعجزُون عَنِ الهجرةِ بسبب خوفِ ضَياع أطفالِهم ووِلْدانِهم"[1].

وُجُوبُ الهِجْرَةِ مِـنْ بِـلَادِ الكُفْرِ إلى بِلَادِ الإِسْلَامِ، حلٌّ شرعيٌّ حكيم

بَلَاغَةُ الِاسْتِئْنَافِ البَيانِيّ فِي قولِهِ: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ تَوضيحًا لمَعْنى الاستضعافِ المَذكورِ قبلُ، وذلك أنَّ قولَ اللّه سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ يُورِثُ في نَفْسِ المُتلقّي سؤالًا؛ وهو: ما حقيقةُ الاستضعافِ الّذي اسْتُثْنِيَ مَنْ اتُّصفَ به من الوعيدِ الشَّديدِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾، ولِئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ استضعافَ هؤلاءِ كاستضعافِ الطّائفةِ الأُولى الّتي وبَّختْهم الملائكةُ، وتُوُعِّدُوا بالعذابِ في جهنَّمَ[2].

الإِسْتِضْعَافُ الّذِي به العُذْرُ، انعدامُ أَسْبابِ الهِجْرَةِ وَآلياتها

نُكْتَةُ التَّنْكِيرِ فِي قوله: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾:

تَنْكِيرُ ﴿حِيلَةٗ﴾ وَ﴿سَبِيلٗا﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ يُرادُ به العمُومُ؛ لوُقوعِهِ في سياقِ النَّفْي، والمعنى: أنَّهم لا يَجِدُونَ أيَّ حيلةٍ، ولا يَهْتَدُون إلى أيِّ سَبيلٍ، وفائدتُهُ: بيانُ خُطورةِ تَرْكِ الهِجْرَةِ، حتَّى إنَّهُ لا تُرجَى النَّجاةُ مِنْ تَبِعاتِ هذا التَّرْكِ إلَّا مَنْ سُدَّتْ عنهُ كلُّ سُبُلِ الخَلاصِ.

خَطَرُ تَرْكِ الهِجْرَةِ مِنْ بِلَادِ الكُفْرِ لِمَنْ لا يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/42.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/277.

عِظَمُ قَدْرِ الهِجْرَةِ وَخَطَرُ التَّسَاهُلِ فِي استثناء العُذْرِ بِتَرْكِها

سِرُّ إيرادِ ﴿عَسَى﴾ فِي حقّ المَعْذُورِينَ حَقِيقَةً:

النُّكْتَةُ في إيراد ﴿عَسَى﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ مَعَ أنَّ الكلامَ في حَقِّ المَعذورينَ حقيقةً؛ لِلْإشارة إلى أنَّ تَرْكَ الهجرةِ أمرٌ مُضيَّقٌ لا توسعةَ فيه، حتَّى إنَّ المَعذورَ البَيِّنَ عُذْرُه له أنْ يقولَ: عَسَى اللّه أَنْ يعفوَ عنِّي، ولا يَجزمُ به، فما الظَّنُّ بغيره؟!(1)، وفي هذا تَعظيمٌ لوجوب الهجرة، حتَّى إنَّ مَنْ تَركَها مع تَحقُّقِ عَدَمِ وجوبِهَا عليه لعُذره ينبغي أنْ يَعُدَّ ذلك ذَنْبًا يَطلُبُ مِنَ اللّه تعالى العفوَ عنه على جهةِ الرَّجاءِ والطَّمَعِ، لا الجَزْمِ والقطعِ(2). واستظْهَرَ الفَخْرُ أنَّ وَجْهَ إيرادِ ﴿عَسَى﴾: "أنَّ المُسْتَضْعَفَ قَدْ يَكُونُ قَادِرًا على ذلك الشَّيْءِ مَعَ ضَرْبٍ مِنَ المَشَقَّة، وتمييزُ الضَّعْفِ الّذي يَحصُلُ عندَه الرُّخصةُ عَنِ الحَدِّ الّذي لا يَحصلُ عندَه الرُّخْصَةُ شاقٌّ ومُشْتَبِهٌ، فرُبَّما ظَنَّ الإنسانُ بنفسِه أنَّه عاجزٌ عَنِ المُهَاجرَة، ولا يكونُ كذلك، ولا سِيَّما في الهجرة عَنِ الوطنِ؛ فإنَّها شاقَّةٌ على النَّفسِ، وبسبَبِ شدَّةِ النَّفْرَةِ قد يَظُنُّ الإنسانُ كونَه عاجزًا مع أنَّه لا يكونُ كذلك، فلِهَذا المعنى كانت الحاجَةُ إلى العَفوِ شديدةً في هذا المَقام"(3).

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ عفوَ اللّه تعالى عن تَركِهم الهجرة عَفْوٌ عزيزُ المَنالِ، فحالُهُم مَعَ عَفْوِ اللّهِ سبحانه، كحالِ مَن لا يَقْطَعُ بحُصولِ العفوِ عنهُ، والمرادُ: تَضييقُ تحقُّقِ عُذْرِهِمْ؛ لِئلّا يتسَاهلوا في شُرُوطِه؛ اتِّكالًا على عفوِ اللّه سبحانَه(4).

اتِّصافُ اللهِ تَعَالَى بِالعَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ

فَائِدَةُ ذِكْرِ ﴿وَكَانَ﴾ فِي قولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

ذِكْرُ ﴿وَكَانَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ دُون قولِه: (واللّه غفورٌ رحيمٌ)؛ لِلْإشعارِ بأنَّ اتِّصافَهُ سُبحانه بهاتَيْن

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/556.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/224.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/134.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/177.

الصِّفتَيْن، قَبلَ خَلْقِ الخَلْقِ، ثمَّ إنَّ مِنْ شأنِهِ وعادتِهِ (جَلَّ جَلَالُهُ)، أن يعفوَ ويغفرَ[1]، وثمَّ نُكْتَةٌ صوتيَّةٌ في ذكر ﴿وَكَانَ﴾، وهو التَّناسُبُ الصَّوتيُّ؛ إذْ ذكرُ ﴿وَكَانَ﴾ أَوجبَ نصبَ خبرِها، وهذا أنسبُ للآياتِ قبلُ وبعدُ.

نُكْتَةُ التَّذْيِيلِ فِي قولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

عُمُومُ عَفْوِ اللهِ تعالى وَمَغْفِرَتِهِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ إطنابٌ بالتَّذْييل[2]، وهوَ تَذْييلٌ جارٍ مَجرى المَثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ مِن دُونِ افتقارٍ إلى ما قبلَهُ في بيانِ المرادِ مِنْهُ، وفائدتُهُ: تقريرُ ما قبلَهُ وتأكيدُهُ بأتمِّ وجهٍ وأعمِّهِ؛ فإنَّ ما قبلَهُ فيه عفوُ اللهِ سبحانه على المَعذورين بتَرْكِ الهجرة، وهذه الآيةُ عامَّةٌ فيهم وفي غيرِهم[3]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ العفوَ المَرْجُوَّ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ هو عَفْوٌ واقعٌ؛ إذ إنَّه (جلَّ وعلا) لم يزَلْ مُتَّصفًا بِصفَةِ العَفْوِ والمغفرة[4].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قولِهِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾:

دِقَّــةُ اخْـتِـيـارِ الأَلْــفــاظِ في النَّظْمِ القُرْآنِيِّ، من بلاغة القرآن وتفرّده

وَرَدَ خبرُ ﴿عَسَى﴾ في آية سورة النِّساء بالعفو، فقال سبحانه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾، ثُمَّ ذُيِّلَتِ الآيةُ باسْمَي اللّهِ: العَفُوِّ والغفورِ، فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، بِخلافِ آيةِ التَّوبة؛ فقد جاء خبرُها بذِكْرِ التَّوبة، فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة: 102]، وذُيِّلَتِ الآيةُ باسْمَي اللّهِ: الغفورِ والرَّحيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ [التوبة: 102].ووَجْهُ المَغايرةِ بينَهما: أنَّ آيةَ النِّساءِ تَقَدَّمَها قولُه جلَّ وعلا: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، فلمَّا كان هؤلاءِ قد قَبِلَ اللّه (جَلَّ جَلَالُهُ) عُذرَهم، فعَفا عنهم؛ ناسَبَه قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾، ولمَّا كان مَنْ

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 3/290 - 291.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/224.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/278.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/43.

عَفا عَنْ ذَنْبٍ في وقتٍ قد يُعاقِبُ عليهِ في وقتٍ آخرَ؛ ناسبَه أَنْ يُبيِّنَ اللّه تعالى أنَّ ما عفا عنه يُزيلُه، بحيثُ لا يَذكرُهُ أصلًا، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.وأمَّا آيةُ التَّوبةِ، فصُدِّرَتْ بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، فلمَّا كان الاعترافُ بالذَّنبِ أوَّلَ طريقِ التَّوبةِ؛ ناسَبَه قولُهُ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾، ولمَّا كان مُقتضى الظَّاهِرِ أنْ يُذكَرَ بعدُ اسمُه التَّوابُ، لكنْ أُريدَ تَبشيرُ هؤلاءِ بمغفرةِ اللّه تعالى لِمَا تابوا منهُ، وما لم يَتُوبُوا منه؛ ناسَبَ ذلك أن يُذكرَ اسمُه الغفُورُ، ثُمَّ لمَّا كان مَنْ غَفرَ السَّيِّئاتِ قد لا يُثيبُ على الصَّالحاتِ؛ كان الأوفقُ أن يُبيِّنَ أنَّهُ سُبحانه يُثِيبُ على الصَّالحِ، وهو مِن مُقتضياتِ رحمتِهِ تعالى، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَفَاة والمَوْت:

الفرقُ بينَهما من وَجْهَيْن: أحدها: أنَّ أصلَ الموتِ في اللُّغة: ذهابُ القوَّة من الشَّيءِ[1]، وأصلَ الوَفاة: الإكمالُ والإتمامُ[2]. ثانيها: أنَّ الموتَ عند الإطلاقِ يُرادُ به: قَبضُ الرُّوحِ والنَّفس، وأمَّا الوفاةُ؛ فيُطلَقُ على استكمال الأجلِ، واستكمالِ الرِّزْقِ واستيعابِه.وبهذَين الوجهَين يتبيَّنُ أنَّ بينَ الموتِ والوفاةِ عُمومًا وخُصوصًا وَجهيًّا؛ فالوفاةُ أعمُّ مِنَ الموتِ من وجه؛ إذ الوفاةُ تُطلَقُ على استكمالِ الأجلِ - وهو الموتُ - وعلى غيره، ومنهُ سُمِّيَ النَّومُ وفاةً؛ لأنَّ العبدَ لا ينامُ إلَّا إذا وفَّى اللّه تعالى له ما كتبَهُ له في ذلك اليوم مِن رزقٍ، والموتُ أعمُّ مِنَ الوفاةِ من وجهٍ آخرَ؛ إذ إنَّ قَبْضَ الرُّوحِ لا تَدُلُّ على استكمال الأجَلِ - وإنْ كان الأصلُ دَلالتَها على ذلك - ، فإنَّ اللّه تعالى قال: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ [البقرة: 243]، فأماتَهم اللّه تعالى، ثُمَّ أحياهم لِيَستَكمِلُوا آجالَهُم[3].

الوِلْدان والأَطْفال:

الوِلْدان جمعُ وَليدٍ؛ وهو مَن قَرُبَ عهدُه بالوِلادةِ، ويكونُ ذلك قبل أن يَطُرَّ شاربُهُ، فإذا طرَّ شاربُهُ سُمِّيَ غلامًا، ولقُربِهم بعهدِ الولادةِ استُعمِلَ هذا اللَّفظُ - الوِلدانُ - في

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وفى).

(3) زيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 761.

مقامات الضَّعف؛ لأنَّهم لا يزالون مُحتاجين إلى رعايةٍ، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ [النّساء: 75]، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا﴾. ولكونِ الوِلدانِ في أصغرِ الأطوارِ العُمريَّةِ قال اللّه تعالى في وصف القيامة: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمًا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ [المزّمّل: 17] أي: هو يومٌ يجعل أصغر النَّاسِ - وهم أبعدُ النَّاس عن الشَّيْبِ - شيبًا؛ لشدَّة هولِهِ وكربِهِ.أمَّا الأطفالُ؛ فجمعُ طِفْلٍ، وسُمُّوا بذلك لنُعومةِ أظفارِهم، وبَشَرَةِ أجسادِهم ولينِها، فهم لا يَزالُ يُنظَرُ إليهم كأنَّهم رُضَّعٌ في أحضان أمَّهاتِهم، ولذا ذَكَرَهم اللّه تعالى في هذا السِّياقِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [الحجّ: 5][(1)].

السَّبِيل والطَّرِيق:

السَّبيلُ هو الطَّريقُ الّذي فيه سهولةٌ، ويُطلَقُ على الطّريق المسلوكَةِ، وَمِنْهُ قولُهم: سبيلٌ سابلَةٌ، أيْ: مَسلوكَةٌ، ولذا اقترنَ السُّلُوكُ مع السَّبيلِ كثيرًا، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ [النّحل: 69]، وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [طه: 53].ولِسهولَةِ سُلوكِ السَّبيلِ، وردت في القرآنِ الكريم كثيرًا مُرادًا به: ما يُسلَكُ لنيلِ الخيرِ، وأمَّا قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا﴾، كأنَّ المعنى: أنَّهم لا يَهْتَدُونَ إلى طريقٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ مِن خلالهِ الخلاصُ من أذى الكُفَّار وقَهْرِهِم.وأمَّا الطَّريقُ؛ فأصلُه مِنَ الطَّرْقِ بالأَرْجُلِ، ثُمَّ استُعِيرَ لكلِّ مَسْلَكٍ يَسلكه الإنسانُ، وهو لا يَستلزِمُ السُّهولَةَ كالسَّبيلِ، والغالبُ في الطَّريقِ إذا أُريد به الخيرُ؛ قُرِنَ بوصفٍ أو إضافةٍ تُخَلِّصُ معناه لذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، فالسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ؛ لأنَّ السَّبيلَ يَستلزِمُ السُّهولة بخلاف الطَّريقِ فلا يستلزِمُها؛ فهو أعمُّ بِهَذَا الاعتبارِ[(2)].

---

(1) زيدان، الفروق اللُّغويّة في القرآن الكريم، ص: 661 - 664.

(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 313، والدوري، دقائق الفروق في البيان القرآنّي، ص: 139 - 142، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 281 - 284.

﴿۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾

[النّساء: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين التّرهيب من التّقاعس عن الهجرة، والبشارة بما يؤول إليه المهاجر

لَمَّا رَهَّبَ اللّه تعالى مِن تَركِ الهِجْرةِ من بلاد الكفرِ إلى بلاد الإسلام؛ رَغَّبَ في هذه الآية بما يُسلّي عمَّا قد يَقذِهُ الشَّيطانُ في قلوبِ العبادِ مِنْ أنَّه لو فارقَ رَفاهيَةَ الوطنِ وقع في شِدَّةِ الغُربةِ وضِيقِ العيشِ، وأنَّه ربَّما تَحمَّلَ مَشقَّةَ الخروجِ مِنْ بلَدِهِ بقَصدِ الهجرةِ الشَّرعيَّة، فيموتُ قبلَ بلوغِ مَقصِدِه، فيكونُ قد ضيَّعَ رفاهيَةً مُتحقِّقَةً لمصلحةٍ مُتوهَّمَةٍ[1]؛ فذكر أنّه بهجرته مناصرة للحقّ وتأييدا له، سيجد فى الأرض الّتى يسير فيها، مواضع كثيرة، يرغم بها أنف أعداء الحقّ، ويجد سعة الحريّة والإقامة العزيزة، وله بذلك الثّواب والأجر العظيم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُرَٰغَمٗا﴾: المُراغَم: السّعة والمضطرب، والمذهب والمهرب[3]، والرَّاءُ والغينُ والميمُ تَرجِعُ اشتقاقاتُها إلى معنَيَيْن: التُّراب والمَذْهَب، فمِنَ الأوَّلِ: الرَّغامُ؛ وهو التُّرابُ، ومِن الثَّاني: المُراغَمُ؛ وهو المَذْهَبُ والمَهْرَبُ[4]، وأصلُ المُراغَمَةِ: الهِجرانُ، فالمُراغَمُ والمُهاجَرُ: بمعنًى

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/198، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/375.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 127.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (رغم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رغم).

واحدٍ، وسُمِّيَ المَذْهَبُ والمَهرَبُ: مُراغمًا؛ وذلك أنَّ الرَّجُلَ كان إذا أَسلَمَ خَرَجَ عَن قومِهِ مُراغِمًا لهم؛ أي: مُغاضِبًا ومُهاجِرًا مُقاطعًا[1]، وتقول: (فعل ذلك على الرّغم من أنفه)، و(رغم أنفي للّه ﷻ)، قلت: معناه ذلّ وانقاد لأن أمسّ به التّراب[2]، ومن هذا البابِ المُراغَمُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾؛ فإنَّ المعنى: يجد مُهَاجًرا يُهاجِر إليهِ[3]، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ (مُرَاغما) جامعًا بين الأصلِ؛ فهو يَجِدُ مَذهبًا ومَهربًا ومهاجَرًا، وفي ذلك المكانِ تَحصُلُ له مُراغمةُ الأعداءِ، أي: إلحاقُ الذُّلِّ والهَوانِ بِهِمْ، حتَّى كأنَّ أنوفَهم تَلْصَقُ بالتُّراب لهَوانِهم[4].

2) ﴿يُدۡرِكۡهُ﴾: االإدراك: اللّحوق. يقال: مشيت حتّى أدركته، وعشت حتّى أدركت زمانه، وأدركته ببصري، أي رأيته[5]، والدَّالُ والرَّاءُ والكافُ تَدُلُّ اشتِقاقاتُها على لُحُوقِ شَيءٍ بشَيءٍ، ووُصُولِه إليه[6]، ومِنْهُ: تَدارَكَ القومُ؛ إذا لَحِقَ آخرُهم أوَّلَهم، كما في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ [الأعراف: 38].والدَّرَكُ: لَحَاقُ المُطارِدِ بالمُطارَدِ[7]، ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، كأنَّ الموتَ يُطارِدُ العبدَ حتَّى يُدرِكَهُ، ولذا قال النّبيُّ ﷺ: "لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَهْرَبُ مِنَ المَوْتِ؛ لَأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ المَوْتُ"[8].

3) ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾: وهو ضدّ الحياة، وقد مات يموت ويمات أيضا، وأصل ميت مَيْوَتٌ على فَيْعَلٌ، ثمّ أدغم، ثمّ يخفّف فيقال ميت. قال الشّاعر وقد جمعهما في بيت:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ *** إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[9]

والميمُ والواوُ والتَّاء تدورُ تصريفاتُها على ذَهابِ القوَّة في الشَّيءِ، ومِنْهُ: الموتُ؛ وهو

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 117.
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (رغم).
(3) ابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن: 1/401.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/376.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (درك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (درك).
(8) رواه أبو نُعيم في حلية الأولياء 7/90، وحسَّنه الألبانّي في سِلسلة الأحاديث الصَّحيحة (952) وصحيح الجامع (5232).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (درك).

ضدُّ الحياةِ[1]، ومِنْهُ قِيل لسُكون الرِّياحِ: مَوْتٌ[2]، وقيل: ماتتِ النَّارُ؛ إذا خَمَدَت[3]، ومِنْ هذا البابِ قولُ النَّبيِّ ﷺ عنِ الثُّوم والبصل: "مَنْ أَكَلَهُمَا فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا"، وَقَالَ: "إِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ آكِلِيهِمَا فَأَمِيتُوهُمَا طَبْخًا"[4]؛ فإنَّ حياةَ هاتَين الشَّجرتَين يُرادُ بهما قوَّةُ رائحتِهما، عندَ طَرَاوَتِهما، بخلاف موتِهما؛ فإنَّهُ إزالةٌ لِتلْكَ الرَّائحةِ بالطَّبْخِ[5]، والموتُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾، بمعنَى قَبْضِ الرُّوحِ قبضًا لا رَجعةَ لصاحبِهِ في هذه الحياةِ الدُّنيا؛ ولا حاجةَ إلى التعمُّقِ في البَحْثِ عَنْ حقيقةِ الموتِ؛ ولذا قال محمّد رشيد رضا: "ومِنَ العَبَثِ والجهلِ: البحثُ في تعريفِ المَوْتِ، فالمَوْتُ هُو الموتُ المعروفُ لِكُلِّ أحدٍ[6]".

4) ﴿وَقَعَ﴾: يُقَالُ: وَقَعَ الشَّيْءُ وُقُوعًا فَهُوَ وَاقِعٌ[7]، أي سقط من أعلى إلى أسفل، والواوُ والقافُ والعَينُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على سُقوطِ شَيءٍ[8]، ثُمَّ استُعْمِلَ في لازِمِه، وهو الثُّبوتُ واللُّزومُ[9]، كالواردِ في قولِ اللهِ سبحانه: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أيْ: ثَبَتَ وحصلَ وَوَجَبَ[10]، ومعنى اللّفظ في السّياق: ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أيْ ثبت أجره عند اللّه تعالى، ثبوت الأمر الواجب[11]، وفيه إشارة إلى أنّ أجر المجاهد "لا يفوته أبدا، ولا يخطئه أبدا، لأنّه أجر مضاف إلى اللّه، بالوعد الّذي وعده سبحانه للمجاهدين، ولن يخلف اللّه وعده!"[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(2) الصَّغانِّي، التَّكملة والذَّيل والصِّلة: (موت).
(3) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (موت).
(4) رواه أحمد، الحديث رقم: (16247)، وأبو داود، الحديث رقم: (3827)، والنَّسائي في الكبرى، الحديث رقم: (6647)، وهو صحيح كما في تخريج المشكاة: (736).
(5) الطِّيبيّ، الكاشف عن حقائق السُّنن: 3/953.
(6) رضا، تفسير المنار: 4/222.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وقع).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (وقع).
(10) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/389، والمراغي، تفسير المراغي: 5/131.
(11) الآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة حمله بنوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله فقال: "اللّهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايع عليه رسولك ﷺ" فمات، ينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 2/93.
(12) عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن: 3/881.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَن يهاجر بصدق وإخلاص، يجد فرجًا ورعاية من ربّ النّاس

ومَنْ يُفارِقْ أرضَ الشِّرْكِ وأهلَهَا، فِرارًا بدِينِه منها ومِنْهُمْ إلى أرضِ الإسلامِ وأهلِها المسلمين، قاصِدًا وجهَ اللّه تعالى راجيًا فضلَهُ؛ يَجِدْ في الأَرضِ مكانًا يَنعَمُ فِيهِ بِمَا يكونُ سببًا في قُوَّتِه وذِلَّة أعدائِه، مَعَ سَعَةٍ في رزقِه، وهَناءٍ في عَيشِه، ومَنْ يَخْرُجْ مِنْ أرضِ الشِّركِ فارًّا بدِينِه إلى دارِ الإسلامِ، ثُمَّ تُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ قبلَ بلوغِهِ دارَ الإسلامِ؛ فقدْ ثَبَتَ له ثوابُ عملِه، وجزاءُ هجرتِه وفراقِ وطنِه وعشيرتِه، فَضلًا مِنَ اللّه تعالى وإحسانًا، وكان اللّه سبحانه ساتِرًا ذنوبَ عبادِه، رحيمًا ورفيقًا بهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ الخَبَرِ على التَّرْغيبِ وَتَحْريكِ الهِمَّةِ إِلَى مَا يَلْزَمُ تَحْصِيلُهُ:

التَّرْغِيبُ فِي الهِجْرَةِ مِنْ بِلَادِ الكُفْرِ إِلَى بِلَادِ الإِسْلَامِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها: التَّرغيبُ في الهجرة، والتَّأنيسُ لها، وتحريكُ الهِمَّةِ نحوَها، ووَقَعَ التَّرغيبُ بطريقِ الخبَرِ دون الأمرِ؛ لتأكيدِ التَّرغيبِ؛ إِذْ فيه إشعارٌ بكونِ ذلكَ المُهَاجَرُ إذا وَصَلَ إليه المُهاجِرُ؛ سَيجِدُ قَطعًا وحَتمًا مِنَ الخَيْرِ والنِّعمة، ما يكونُ سبَبًا لإِرْغامِ أنوفِ قومِهِ الّذين تَرَكَهم[2].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قولِهِ: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

مِنْ بَلَاغَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ تَرْشِيحُ الأَلْفَاظِ بِأَلْفَاظٍ تُنَاسِبُهَا

السَّبيلُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جِيءَ به على طريقِ الِاستعارةِ التَّصريحيَّة، وهي استعارةٌ مشهورةٌ، وزادَها قبولًا واستحسانًا ذكرُ المُهاجَرةِ معها، وهي نوعٌ من السَّيْرِ يُناسِبُها ذِكْرُ السَّبيلِ؛ لافتقارِ السَّيرِ إلى طريقٍ يُسارُ عليهِ، فكان في ذِكْرِ السَّبيلِ ضَرْبٌ مِنَ التَّورية[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/112 - 113، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 3/279 - 280، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/224، والآلوسّي، روح المعاني: 3/123.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/180.

سِرُّ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ فِي قَولِهِ: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾:

الِاسْـتِـقْـرَارُ فِي الأَرْضِ أَعْظَمُ مَا يُرِيدُهُ المُهَاجِرُ

تقديمُ الجَارِّ والمجرورِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿مُرَٰغَمٗا﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾؛ لأنَّ نفسَ المُهاجِرِ بعد تركِهِ أرضَهُ ووطَنَهُ تطمَحُ وتَتطلَّعُ إلى الاستقرارِ في الأرضِ[1]، وأمَّا المُراغَمُ والسَّعَةُ فربْحٌ زائدٌ على رأسِ المالِ، ولن يجد المهاجر إلّا السّعة من اللّه، والشّاعر يقول:

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادٌ بِأَهْلِهَا *** وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ[2]

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ المُرَاغَمَةِ عَلَى السَّعَةِ، فِي قولِه: ﴿مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾:

لَذَّةُ الرُّوحِ أَعْظَمُ مِنْ لَذَّةِ البَدَنِ، والسِّرُّ كلُّ السّرّ في الأرواح

قُدِّمَ ذكرُ مراغمَةِ الأعداءِ على ذكرِ سعةِ العَيْشِ؛ لنُكتَتَيْنِ[3]: الأُولَى: أنَّ في مُراغمَةِ الأعداءِ لذَّةَ الرُّوحِ، وفي سَعَةِ العيشِ لذَّةَ البدنِ، ولذَّةُ الرُّوحِ أعزُّ وأعظَمُ.والأخرى: أنَّ ابتهاجَ الإنسانِ الّذي تَرَكَ بلدَهُ، بسببِ شدَّةِ ظُلمهم وقهْرِهم لَهُ بدَوْلَتِهِ، من حيثُ إنَّها تَصيرُ سببًا لإرْغامِ أُنوفِ الأعداءِ: أَشَدُّ من ابتهاجِهِ بِتلْكَ الدَّولةِ من حيثُ صيرُورَتِها سببًا لسَعَةِ العَيْشِ عليهِ.

دَلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿مُرَٰغَمٗا﴾ وَ﴿وَسَعَةٗۚ﴾:

الثَّمَرَاتُ الجَلِيلَةُ لِلْهِجْرَةِ إِلَى بِلَادِ الإِسْلَامِ

تَنْكِيرُ ﴿مُرَٰغَمٗا﴾ وَ﴿وَسَعَةٗۚ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّكثيرُ، فيكونُ وصفُ المُراغمِ بالكَثيرِ في قولِه: ﴿مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾ بمنزلةِ التَّأكيدِ المعنويِّ لَهُ، وهو مُراغَمٌ عظيمٌ أيضًا. ووَصْفُ الكَثْرَةِ مُرادٌ مع السَّعَةِ، إلَّا أنَّهُ حُذِفَ اكتفاءً بوصفِ المُراغمِ به، والتَّقديرُ: يَجِدْ في الأرض مُراغمًا كثيرًا، وسعةً كثيرةً، فالمُراغَمُ والسَّعَةُ موصوفانِ بالكثرةِ والعظَمَةِ؛ مِقْدارًا وقدْرًا، والمعنى: "ومن يهاجر ويترك دار إقامته في سبيل

(1) البنَّاني، سورة النّساء: دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 218.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: (الخواطر): 4/2583.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/198، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/376، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/279.

اللّه تعالى، طالبا ما عنده يجد طرائق كثيرة في الحياة، وإن كان لَا ينالها إلّا ببعض المشقّة، فإنّها قنطرة للرّاحة، وكذلك ينال سعة في رزقه وحياته ودينه، فلا يُضيَّق في دينه عليه، ولا يعيش في ذلّة وهوان، أو مقتّرا عليه في الرّزق"[1].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قولِهِ: ﴿وَسَعَةٗ﴾:

إِدْرَاكُ الحِسِّيَّاتِ أَسْهَلُ مِنْ إِدْرَاكِ المَعْنَوِيَّاتِ

السَّعَةُ ضِدُّ الضِّيقِ، وتُطلَقُ حقيقةً على اتِّساعِ الأمكنةِ، وإطلاقُها على رفاهيَةِ العَيْشِ مجازٌ بالاسْتِعارَةِ[2]؛ ونُكتَتُها: تَصويرُ كثرةِ رِزْقِهِم تصويرًا حِسِّيًّا يَقْرُبُ مِنَ الأذهانِ؛ لأنَّ إدراكَ المحسوساتِ أسهلُ للنَّفْسِ من إدراك المعاني.

ودَلَّ على كَثْرَةِ رِزْقِهِم أيضًا: عدمُ تقييدِ السَّعَةِ، فلم يَرِدْ: سَعَة في المآكل، أو في المشارب، أو في حُصُول الأمنِ لهم؛ وذلك لِتَذْهَب النَّفسُ في تصوُّرِ السَّعَةِ كُلَّ مَذْهَبٍ، وليشمَلَ ذلك كُلَّ سَعَةٍ مِن مرغوبَاتِهم ومحبوباتِهم.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾ دُونَ (وَمَنْ يُهَاجِرْ):

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، لايُعدُّعددًا، ولا يُحصى مددًا

وَرَدَ قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ على خلاف مُقْتَضَى الظَّاهِرِ؛ فإنَّ مقتضاه أنْ يُقالَ: (ومَنْ يُهاجِرْ إلى اللّه ورسولِه) دون ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾؛ لأنَّ قبلَها قوله تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والنُّكْتَةُ في ذلك: بيانُ أنَّ الجزاءَ المذكورَ في قوله ﷻ: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ مُترتِّبٌ على مجرَّد الخروجِ من البيتِ بقصد الهجرةِ؛ ولو لم يُباشِر الهجرةَ بالفعلِ[3]، بخلاف ما لو قيلَ: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرۡ﴾؛ فإنَّه يكونُ خاصًّا بِمَنْ باشَرَ الخروجَ مِن بَلَدِه، ولم يصِلْ إلى مُهَاجَرِه، والأوَّلُ أدخَلُ في بيانِ سَعَةِ فضلِ اللّهِ سبحانَه على العبادِ.

---

(1) أبو زهرة: زهرة التّفاسير: 4/1822.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/180.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/123 - 124.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ البَيْتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾:

تَرْكُ المُهَاجِرِينَ رَغَدَ العَيْشِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى، من أجلِ الطّاعة

في اختيارِ ﴿بَيۡتِهِۦ﴾ إشادةٌ بعِظَمِ مجاهدَةِ هؤلاءِ المهاجرين لأنفسِهم؛ حيثُ تَرَكُوا أعزَّ ما لديهم وهو البيتُ، وما يُشعِرُ به هذا اللَّفظُ (البيت) من معاني الرَّاحةِ والدَّعَةِ والأنسِ بالأهلِ والولدِ، كلُّ ذلك تركوه في سبيل اللّه تعالى، وابتغاءَ مرضاتِه[1]، ولو حُذِفَ ﴿مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾ فجاءَ النَّظْمُ: (ومَنْ يَخرُجْ مُهاجِرًا)؛ لأدَّى ذلك أصلَ المعنَى مع قُصورٍ؛ إذ قد يُتوهَّمُ أنَّ المهاجِرَ خرجَ مِن ضِيقِ عَيْشٍ ومشقَّةٍ لم يَتَحمَّلْها، فطلبَ بهجرتِه الدُّنيا مع إرادتِه وجهَ اللّهِ تعالى، فجاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه كان في سكينَةٍ وأمانٍ، وعَيْشٍ مع أهلٍ وولدٍ، ومعَ ذلك ترَكَ ذلك كُلَّهُ قاصدًا الهجرةَ، ولا يكونُ ذلك إلَّا لأنَّه مَحَّضَ هجرتَهُ لتكون خالصةً لوجهِ اللّه تعالى، لا يُريد بها شيئًا مِنَ الدُّنيا وحطامِها.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ دُونَ (يَمُتْ):

لَا يَمْنَعُ المُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى مِنْ نَعِيمِ الجَنَّةِ إِلَّا المَوْتُ

التَّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ دون (ثمّ يَمُتْ) فيه إشعارٌ "بمَزِيدِ الرِّضا مِنَ اللّه تعالى، وأَنَّ الموتَ كالهَدِيَّةِ مِنْهُ سُبحانه له؛ لأنَّه سببٌ لِلْوُصُولِ إلى النَّعيمِ المُقِيمِ الّذي لا يُنَالُ إلَّا بالموت"[2]، ولِذَا وقعَ التَّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّراخي؛ تأكيدًا لتلكَ النُّكْتَةِ، وأنَّ مرتبةَ الخُروجِ من بيتِه دون هذه المرتبَةِ؛ لِما فيها مِنْ تحقيق الغايةِ مِنَ الهجرةِ، وهو الوصولُ إلى رضا اللّه تعالى، الموجبِ للنَّعيمِ الأبديِّ.

دَلَالَةُ الجُمْلَةِ الخَبَرِيَّةِ: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾:

المُهَاجِرُ فِي سَبِيلِ اللهِ تعالى ظَافِرٌ فِي كُلِّ أَحْوالِهِ

الجملةُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ يُرادُ بها بَعْثُ الطُّمأنينَةِ في قلوبِ المهاجرينَ، وتحفيزُهم على الهجرة وحَثُّهم عَلَيْهَا؛ فإنَّهم ظافرُونَ في كلِّ الأحوالِ، إنْ وَصلوا إلى مهاجَرِهم؛ فقد

(1) البنَّاني، سورة النّساء: دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 264.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/124.

رَاغَمُوا أنوفَ أعدائهم، ووَسَّعَ اللّٰه تعالى عليهم مِنْ رِزقه، وإنْ ماتوا قبلَ وصولهم؛ تفضَّل اللّٰه سبحانه عليهم بثواب المهاجرين كاملًا، وجَزَاهُم على ذلك أجرًا عظيمًا، لا يَعلَمُ مِقدارَه إلّا اللّٰه تعالى[1].

دلالة استعمال الوقوع مكان السّقوط في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾:

"يقول للعبد: أنت عندما تهاجر إلى أرض اللّٰه الواسعة، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السّعة والمراغم، فأنت تذهب إلى رحابي، والمراغم سبب من أسبابي، وأنا المسبّب.ولماذا يستخدم الحقّ هنا ﴿وَقَعَ﴾ بمعنى (سقط)؟، هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هامّ: حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه، فإذا ما أدرك العبد الموت، فالجزاء يسعى إليه، وهو عند اللّٰه، ويعرف الجزاء مَن يذهب إليه معرفة كاملة"[2]، ووقوع الأجر على اللّٰه، ملمحٌ لطمأنة المؤمن المهاجر الّذي ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وهجر مسقط رأسه، ومأوى أنسه، ليكون في ثقة بأنّ اللّٰه متكفّل به، ولم يكله إلى أحد سواه، فهو في حماية الّذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، وفي عناية الّذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فهو بذلك مطمئنّ على حفظه في الدّنيا، وعلى جزائه في الآخرة.

مـن كـان اللّٰه حسبه، كفاه كـلّ مهمّة، ووقاه كلّ ملمّة

فائِدَةُ العُدُولِ عَنْ (يُثِبْهُ) إِلَى قوله: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾:

نُكتةُ العُدولِ عَنِ التَّعبير بـ (يُثِبْهُ) إلى ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾، ما في الثَّاني مِنَ الإيذان بلُزوم الأجر وثبوتِه، كما يَدُلُّ لذلكَ: ﴿وَقَعَ﴾؛ فإنَّها بمعنَى: ثبتَ ولَزِمَ ووَجَبَ، ويَدُلُّ لذلك أيضًا إضافةُ الأجرِ إلى ضميرِ المهاجرِ ﴿أَجۡرُهُۥ﴾، كأنَّ الأجرَ صارَ من مُختصَّاتِه الّتي في حيازَتِه.وفي قولِه: ﴿عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ إيماءٌ إلى عَظَمَةِ الأجرِ، وأنَّه

ثُـبُـوتُ أَجْـرِ المُهَاجِرِ وَلُزُومُهُ وَعَظَمَتُهُ

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/280.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: (الخواطر): 5/2588.

بالقَدْرِ الّذي لا يُدْرِكُ أحدٌ - غيرَ اللّه تعالى - كُنْهَهُ؛ لأنَّه مِنَ اللّه سُبْحانَهُ، المتَّصفِ بالجلالِ والجمالِ والعَظَمَةِ، والعَطيَّةُ والثَّوابُ يَعْظُمانِ بعظمَةِ المُعطِي والمُثِيبِ[1].

دَلَالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿عَلَى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

إِيجابُ اللهِ تَعالى على نَفْسِهِ إثابَةَ المُهاجِرِ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَتَكَرُّمًا

مِنْ معاني استعمالِ ﴿عَلَى﴾: الدّلالةُ على الوجوبِ واللُّزومِ، ولذا فإنَّ قولَ اللّه سبحانه: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: حقَّ له الأجرُ الجزيلُ عندَ اللّه تعالى، وقد تفضَّلَ اللّهُ (ﷻ) فأوجبَ ذلك الأجرَ على نفسِهِ العَليَّةِ؛ فإنَّ اللّه تعالى لا يجبُ عليه شيءٌ إلّا ما أوجبَهُ على نفسِهِ تفضُّلًا منْهُ وتكرُّمًا، فصار قولُه: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ "كأنَّه صار وثيقةً على اللّه تعالى، وذلك كلُّه تأكيدٌ لِتَحَقُّقِ الأجرِ بهذه الهجرةِ[2]".

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ في قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

تَصْوِيرُ ثُبوتِ الأَجْرِ وَاسْتِقْرارِهِ تَصْوِيرًا حِسِّيًّا

في ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ استعارةٌ مَكنيَّةٌ؛ حيثُ شُبِّهَ الأجرُ بالطَّائرِ، فحُذِفَ المشبَّهُ به، وأُتِيَ بلازمٍ من لوازمِه وهو الوقوعُ، والقرينَةُ المانِعَةُ من إرادَةِ المعنى الحقيقيِّ للوقوعِ، وهو السُّقوطُ: عدمُ تأتّي إسنادِ الوقوعِ للأجرِ؛ لأنَّ الوقوعَ من شأنِ الأجسامِ - في الأصلِ - لا المعاني، ونكتةُ الاستعارةِ: تصويرُ ثبوتِ الأجرِ واستقرارِهِ؛ فإنَّ مِنْ شأنِ الطَّيرِ أَنْ لا يَقعَ ولا يَسْتَقِرَّ إلّا في مكانٍ آمنٍ، والجامعُ بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ: الاختيارُ الموفَّقُ في كلٍّ[3].

نُكْتَةُ ذِكْرِ (كَانَ) في قولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

ذِكْرُ (كَانَ) في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ دُونَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 3/124.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1823.
(3) البنَّاني، سورة النّساء: دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 443.

اتِّصافُ اللهِ تَعالَى بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ

قولِه: (واللّه غفورٌ رحيمٌ)؛ للإشعارِ بأنَّ اتِّصافَهُ تعالى بِهَذَيْنِ الوَصْفَينِ دائمٌ ثابتٌ في الأزَلِ، ثُمَّ إنَّ ذلك مِنْ شأنِهِ وعادتِه سبحانه أنْ يَغْفِرَ ويرحمَ[1].

بَلاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

عُمُومُ مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ

قولُ اللّهِ سُبۡحَانَهُۥ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بعد قولِه سبحانه: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾: تذييلٌ جارٍ مجرى المَثَلِ؛ لكونِه مستقلًّا بالإفادَةِ، مِن غيرِ افتقارٍ إلى ما قبلَهُ في بيانِ المرادِ مِنْهُ، وفائدتُهُ: تقريرُ وَعْدِ اللّهِ تعالى عبادَهُ بالأجرِ العَظِيمِ وعمومُهُ، ومِنَ الأجرِ العَظِيمِ: أنْ يغفرَ لَهُمْ ويرحَمَهُمْ.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1823.

﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ١٠١﴾ [النّساء: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين التّحفيز على الهجرة، وبين التّرخيص بالقصر حالة الخوف

لَمَّا حَثَّ اللّٰه تعالى على الجهادِ، وكان محتاجًا إلى السَّفَرِ في كثيرٍ مِنَ الأحايين، وأوجَبَ سبحانَهُ السَّفَرَ لأجلِ الهِجْرَةِ؛ تَركًا لبلاد الكُفْرِ إلى بلادِ الإسلام، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾، وبيَّنَ فضلَ هذا السَّفرِ في قوله تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾، لَمَّا كان الأمر كذلكَ، وكان مُطلَقُ السَّفرِ مَظِنَّةَ المشقَّةِ، فكيفَ بسفَرِ الجهادِ والهجرةِ، مع ما انضمَّ إلى المشقَّة فيهما مِن خوفِ الأعداءِ؛ ذَكَرَ اللّٰه تعالى تخفيفَ الصَّلاةِ بالقَصْرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبۡتُمۡ﴾: يقال: (ضرب فلان في الأرض)، إذا خرج فيها تاجرا أو غازيا ضربا وضربانا[2]، والضَّادُ والرَّاءُ والباءُ تدور تصاريفُها على غِلَظٍ يُخَالِطُ الشَّيءَ الرِّخوَ أو يُداخِلُه، مداخلةً قويَّةً، فيتَمَاسَكُ أو يَشْتَدُّ، وَمِنْهُ: ضَرْبُ الدَّرَاهم؛ فإنَّ ذلك يحصُلُ بتَجميد الفِضَّة الذَّائبة في قالَب على هيئته، ومِنْهُ أيضًا: الضَّرْبُ في الأرض؛ وهو الذَّهاب فيها؛ كأنَّ الضَّاربَ في الأرض يُداخِلُها حتَّى يَغُوصَ فِيهَا[3]، والضَّربُ في الأرضِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/377.
(2) ابن سيده: المخصّص: 3/304.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضرب).

﴿ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو الذَّهابُ فيها بِالسَّفرِ[1]، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الۡإِسۡرَاعَ إِلَى السَّيۡرِ أَيۡضًا ضَرۡبٌ. قَالَ الشّاعر:

فَإِنَّ الَّذِي كُنۡتُمۡ تَحۡذَرُو *** نَ أَتَتۡنَا عُيُونٌ بِهِ تَضۡرِبُ[2]

2) ﴿جُنَاحٌ﴾: الجُنَاحُ، المَيل إِلَى الإِثۡم، وَقيل: هُوَ الإِثۡم عَامَّة، والجُناحُ، مَا تحمل من الۡهم والأذى، أَنۡشد ابۡن الۡأَعرَابيّ:

ولاقَيۡتُ من جُمَلٍ وأسۡبابِ حُبِّها *** جُناحَ الَّذِي لاقَيتُ من تِرۡبها قبۡلُ[3]

وفي هذا اللّفظ: الجيمُ والنُّونُ والحاءُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على المَيۡلِ[4]، ومنه قولهم: جنحَ فلانٌ لكذا؛ إذا مالَ إليه، ومِنۡهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]؛ أيۡ: "إِنۡ مالُوا إلى مُسالَمَتِكَ ومُتارَكَتِكَ الحربَ... فمِلۡ إليها، وابۡذُلۡ لَهُم ما مالواۡ إِليهِ مِنۡ ذلكَ[5]" ومِن هذا البابِ: الجُنَاحُ؛ وهو الإثمُ، سُمِّيَ بذلك؛ لمَيۡلِهِ عن طريق الحقِّ[6].

3) ﴿تَقۡصُرُواْ﴾: من القصر، وقَصر الصّلاة: إذا ترك ركعتين من أربع، قال اللّه تعالى: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، قيل: يعني القصر من أركانها عند الحرب كيف أمكن، وقيل: هو القصر من أربع إلى ركعتين[7]، والقافُ والصَّادُ والرَّاءُ تدورُ تصاريفُها على معنَيَيۡن؛ أحدهما: ألَّا يبلُغَ الشَّيءُ مَداهُ ونهايتَهُ، والآخرُ: الحَبۡسُ[8]، ومِنَ الأوَّلِ قولُهم: قَصُرَ عَنِ الشّيءِ؛ إذا نَقَصَ مِنۡهُ[9]، وَالمرادُ بقَصۡرِ الصَّلاةِ: جَعۡلُهَا قصيرةً؛ تَرۡخيصًا[10]، وذلكَ بجَعۡلِ الصّلاةِ الرُّباعيَّةِ ركعتَيۡن.

4) ﴿خِفۡتُمۡ﴾: خاف الرّجل يخاف خوفا وخيفة ومخافة، والإخافة: التّخويف. يقال: وجعٌ مخيفٌ، أي يُخيفُ من رآه، وطريقٌ مخُوفٌ، لأنّه لا يخيف وإنّما يخيف فيه قاطع

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (ضرب)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: 3/398.
(3) ابن سيده، المحكم: 3/88.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح)، وابن سيده، المحكم: (جنح).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/40.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح).
(7) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (قصر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قصر).
(9) الهرويّ، الغريبين: (قصر).
(10) الرَّاغب، المفردات: (قصر).

الطّريق[1]، والخاءُ والواوُ والفاءُ، تَدُلُّ اشتقاقاتُها على الذُّعرِ والفزَعِ[2]، والخَوْفُ: ضدُّ الأَمنِ[3]، وحقيقتُهُ: أنَّهُ غَمٌّ يَلحقُ العبدَ مِنْ توقُّعِهِ المكروهَ[4]، فهو خاصٌّ بالزَّمنِ المُستَقْبَلِ[5].

5) ﴿يَفۡتِنَكُمُ﴾: من فتن، يقال: "فتنتُ الرّجل أفتنه فتنا، وأفتنته إفتانا. واختلف أهل اللغة في فتنت وأفتنت فقال قوم: لا يقال إلا فتنته فهو مفتون وهي اللّغة الكثيرة، وقال آخرون: أفتنتُهُ فهو مُفتَنٌ"[6]، والفاءُ والتَّاءُ والنّونُ تدورُ تصريفاتُها على إذابة مادَّةٍ باطنِ الشَّيءِ، وتحويلِها بإدخالها نارًا حارَّةً، ومِنْهُ إذابةُ الذَّهبِ والفضَّةِ، ومِنْهُ: تحويلٌ معنويٌّ؛ كالافتتانِ بالنِّساء، وذلك بِرقَّةِ القلوبِ نَحوهنَّ، حتَّى يقعَ المرءُ في المحظورِ[7].ومِنَ الباب تسميةُ الفَضِيحَةِ: فِتنةً، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾[8] [المائدة: 41]؛ لتَحوُّلِ حالِهِ من السَّتْرِ والسَّلامَةِ إلى الكَشْفِ والشَّرِّ، ومِنَ التَّحويلِ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾، أيْ: يَنْقَضُّوا عليكم حالَ انشغالكم بالصَّلاةِ، فتَتَحوَّلَ حالكُمْ من متأهِّبينَ إلى مأخوذينَ.

6) ﴿عَدُوّٗا﴾: "العدوّ: ضدّ الوليّ، والجمع الأعداء، وهو وصف، ولكنّه ضارع الاسم. يقال: عدوّ بين العداوة والمعاداة، والأنثى عدوة، قال ابن السّكّيت: فعول إذا كان في تأويل فاعل، كان مؤنّثه بغير هاء، نحو رجل صبور، وامرأة صبور، إلّا حرفا واحدا جاء نادرا، قالوا هذه عدوة اللّه"[9]. والعَداوَةُ: المُباعدَةُ والخُصُومَةُ[10]، وهو المُخاصِمُ المُباعِدُ، وقد يُتوسَّعُ في معناه فيُطلَقُ على كلِّ مَنْ سرّه مسَاءةُ شخصٍ، أو غَمَّهُ فَرَحُهُ[11]، وهذا يكونُ في الغالبِ لِلْمُخاصِمِ.والعَدُوُّ: اسمٌ يقعُ على الواحد والمثنَّى والجمع، مؤنَّثًا كان ذلك أو مُذَكَّرًا[12].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (خوف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خوف).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خوف).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(5) الشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 1/284.
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فتن).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فتن).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فتن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدو).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عدو).
(11) البهوتّي، الرَّوض المُربِع، ص: 723.
(12) الخليل، العين: (عدو).

7) ﴿مُّبِينًا﴾: بان الشّيء يبين بيانا، اتّضح فهو (بيّن)، وكذا أبان الشّيء، فهو مُبين، وأبنته أنا، أي أوضحته، واستبان الشّيء ظهر[1]، والباءُ والياءُ والنُّونُ تَدُلُّ تصاريفُها على بُعْدِ شَيْءٍ وانكشافِه[2]، ومِنَ الانكشافِ قولُهم: بانَ الشَّيءُ؛ إذا اتَّضَحَ[3]، وتبيَّنَ: إذا ظَهَرَ[4]، والعَدُوُّ المُبِينُ: العَدُوُّ البَيِّنُ العداوةِ وظاهِرُها[5].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

قصرالصّلاة في سفر الخوف، تحسّبا لإطباق العدوّ على المؤمنين

يقول السّياق إذا سافرتُم - يا أهلَ الإيمانِ - في الأرض؛ فلَيْسَ عَلَيْكُم حَرَجٌ ولا إثمٌ في تخفيفِ الصَّلاةِ؛ بجعل الرُّباعيَّةِ رَكْعَتَين، إنْ خِفتُم أن يَنْقَضَّ عليكم الكفّارُ، ويعتدوا عليكم حالَ انشغالِكم بالصَّلاة بالقَتْل والأَسْر؛ فإنَّ الكافرينَ مجاهِرُونَ لكم بالعداوةِ، فوجبَ عليكم الحذَرُ منهم[6]، "والتّأهّب في وجه عدوّ يتربص بهم غفلة، أو يترقب فيهم خللا، ليضرب ضربته، وليبلغ مأربه! والقصر من الصلاة هنا غير القصر في الصلاة الذي أباحه الله في السّفر عامة، سواء أكان للسّعى في الرّزق، أو للجهاد في سبيل الله"[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

تَنَوُّعُ الدّلالاتِ بِتَنَوُّعِ مَعَانِي الحُروفِ

﴿مِنَ﴾ في قولِ اللّه سبحانه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ تَحتمِلُ وَجْهَيْنِ[8]: أوَّلُهما: أَنْ تَكُونَ زائدةً للتَّأكيد، فيكون

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (بين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(3) الجوهريّ، الصحاح: (بين).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/283.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/123، والواحديّ، الوجيز، ص: 285، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/393، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.
(7) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/882.
(8) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 2/335، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/225، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/283.

﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مفعولًا به للفعل ﴿تَقۡصُرُواْ﴾. والآخرُ: أنْ تكونَ للتَّبعيض، والمفعولُ به حينئذٍ محذوفٌ، تقديرُه: أنْ تقصرُوا شيئًا مِنَ الصَّلاةِ. وكلٌّ مِنَ الوجهينِ فيه خروجٌ عَنِ الأصلِ؛ فأمَّا الأوَّلُ؛ فبادِّعاءِ الزِّيادَةِ، والأصلُ خلافُها، وأمَّا الآخرُ؛ فلِلُزومِ تقديرِ محذوفٍ، والأصلُ: عدمُ الحذفِ. والأوَّلُ أَبْلَغُ؛ لأنَّ زيادَةِ الحرفِ قائمٌ مقامَ تَكرارِ الجملة مرَّتين أو ثلاثًا، وهو تأكيدٌ حسَنٌ، مناسبٌ لنفي الجُناحِ، في قوله: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾؛ فإنَّه وارِدٌ لدَفعِ ما قد يَخطرُ بِبالِهم، أنَّ عليهم نُقصانًا في قصرِ الصَّلاةِ، فنفى الجُناحَ والحرجَ عنهم؛ لتَطِيبَ أَنْفُسُهُم بالقصرِ، ويَطمئِنُّوا إليه[1].

دَلَالَةُ (الْ) فِي ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾، فِي قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

مِنْ أَسْبابِ العَهْدِ العِلْمِيِّ لِأَلْفَاظِ البَيَانُ النَّبَوِيُّ لَها

اللَّامُ في ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ؛ وهي الصَّلاةُ الرُّباعيَّةُ: الظُّهرُ والعَصْرُ والعِشاءُ، وقد عُلِمَ عَهْدُها بِسُنَّتِه ﷺ، وعليهِ جرَى عملُ المسلمينَ قاطبةً، أنَّه لا قَصرَ في السَّفَرِ إلَّا لِلصَّلوات الرُّباعيَّةِ دونَ غيرِها.

سَبَبُ فَصْلِ ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

مِنْ مَحاسِنِ الشَّرِيعَةِ قَرْنُ الأَحْكامِ بِعِلَلِهَا

فُصِلَ قولُ اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّ قولَه سبحانه: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾، يَبعَثُ في النَّفسِ سؤالًا؛ وهو: ما علَّةُ ذكرِ الكافرينَ في مقامِ الصَّلاةِ؟ أو أَنَّ تقديرَ السُّؤالِ: هل بلغَ مِن غَدْرِهم مباغَتَتُنا في الصَّلاةِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾، وقد روى التِّرمذيّ عن أبي هريرة: "أنَّ رسول اللّٰه ﷺ نزل بين ضجنان وعُسفان، فقال المشركون: إنّ لهؤلاء صلاةً، هي أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم، وهي العصر،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/558.

فأجمعوا أمركم، فميلوا عليهم مَيلة واحدة، وإنّ جبريل أتى النّبيّ ﷺ، فأمره أن يقسِم أصحابه شطرين فيُصلى بهم، وتقوم طائفة أخرى وراءهم، وليأخذوا حِذرهم وأسلحتهم، ثم يأتي الآخرون ويُصلّون معه ركعة واحدة، ثم يأخذ هؤلاء حِذرهم وأسلحتهم، فتكون لهم ركعة ركعة ولرسول الله ﷺ ركعتان"[1]، وهذا التّربّص بالمسلمين، وانتظار غفلتهم للانقضاض عليهم، هو سبب تشريع هذه الصّلاة.

الفَرْقُ بَيْنَ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِ (إِذَا) وَتَعْلِيقِهِ بِ (إِنْ):

دِقّــةُ اخْـتـيَـارِ أَدَواتِ الـشَّرْطِ بِـمَـا يُـنـاسِـبُ سِيَاقاتِها

جَاءَ التَّعْبِيرُ فِي الشَّرط بـ (إذا) في المَوْضِعِ الأَوَّلِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وفي الثّاني بـ (إن) في قوله سبحانه: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾؛ لِكَوْنِ (إِذَا) مَوْضُوعةً في الأصلِ لِلْجَزْمِ بِوُقُوعِ مَدْخُولِها، و(إِنْ) لعدَمِ القَطْعِ في وقوعِ ذلك[2]؛ وهو في غاية التّناسُبِ في الآية؛ لأنّه لا يَكادُ يَخْلُو أَهْلُ الإِسْلامِ مِن سَفَرٍ مُسافِرٍ منهم، بخلاف خَوفهم من فتنة الكافرين لَهُم؛ فإنَّه ليس أمرًا محقّقًا في كلِّ سفرٍ يُسافِرونَهُ، فجاء التَّعبيرُ فيه بـ (إِنْ).

سِرُّ الإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ، فِي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾:

الاِحْـتِراسِ مِـنَ الكُفَّارِ المُحَارِبِينَ، مِـــنْ حـكـمـةِ الشّرع في الحذر من الخطر المبين

في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار[3]؛ وكان مقتضى الظّاهر: (إنْ خِفتم أن يَفْتِنَكُم الّذين كفرُوا، إنّهم كانُوا لَكُم عَدُوًّا مُبِينا)، والنُّكْتَةُ في ذلك زيادَةُ التَّنفيرِ؛ لِلاحْتِرَاسِ منهم، ومِن بَغْيِهم وعُدوانِهم على أهلِ الإِسْلَامِ.

---

(1) سنن الترمذيّ: 5/243، الحديث رقم: (3035)، وصحّحه الألبانّي في صحيح سنن الترّمذي: 3/42، وسنن أبي داود: 2/15، الحديث رقم: (1242)، وأخرجه أحمد في مسنده: 6/275، والحاكم في المستدرك: 1/336 - 337، وابن رجب في العلل: 1/301.

(2) السُّبكّي، عروس الأفراح: 1/323.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/379.

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنْ (أَعْدَاء) إِلَى ﴿عَدُوًّا﴾، فِي قوله: ﴿كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾:

تَـداعِـي أَهْـلِ الـكُـفْـرِ عَـلَـى المُسْلِمِينَ، واقع مألوف في تاريخ الإسلام

جَاءَ التَّعبيرُ عَنِ الكافرين بِلَفْظِ الجَمْعِ في موضعَين؛ في قوله تعالى: ﴿أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولمَّا جاءَ وصفُهم بالعداوةِ؛ قَال: ﴿عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ دون (أعداء)؛ وذلك لأنَّ لفظَ العَدُوِّ يُطلق على الواحد والمثنَّى والجمْعِ[1]. وجيءَ بها على هذه الصِّيغةِ للإشارةِ إلى أنَّهم لو تمكَّنُوا منهُم؛ لانقضُّوا عليهِمُ انْقِضاضًا واحدًا، وأنَّ الأعداءَ على تفرُّقِهم فيما بينَهُمْ؛ فإنَّهم يكونونَ يدًا واحدةً على المسلِمِينَ، وهذا يَقْتَضِي شدَّةَ الحذَرِ والِاحْتِراسِ منهم.

المُؤَكِّداتُ فِي قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ وَنُكْتَتُها:

شِـدَّةُ عَـداوَةِ أَهْلِ الكُفْرِ لِأَهْلِ الإِسْـلامِ، أمرٌ معهود في كلّ العهود

جاءَتِ الجملةُ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾، مؤكَّدةً بمؤكِّداتٍ خمسة[2]: أحدُها: ﴿إِنَّ﴾ الدَّالَّةُ على تقويةِ وَصْفِ الكافِرين بالكُفْرِ، بحيثُ جعلَ الكفرَ مِنْ شأنهم، ومَنْ كانَ كذلك؛ لا يُؤْمَنُ جانِبُهُ. ثانيها: التَّعبيرُ بِـ (كان) المفيدَةِ الدَّاومَ والاستمرارَ، وأنَّ عداوةَ الكُفَّارِ لأهل الإيمانِ قديمةٌ.ثالثُها: وصفُ الكافرين بالعداوةِ، ومن شَأْنِ العدُوِّ إرادَةُ الشَّرِّ بعدُوِّهِ، ويترقَّبُ مواضعَ غفلَتِهِ ليقضِيَ عليه، ومَن كان هكذا لا يُنتظَرُ منه رحمةٌ أو حِلْمٌ، رابعُها: وصفُ عداوتهم بالظُّهور والسُّفور وعدم الخفاءِ، لِيَحْتَرِسَ المسلمون منهم أشدَّ الاحتراسِ؛ فلا يأمنونَ غَدرَهم. وخامسُها: جاءَ التَّعبيرُ عمَّا تقدَّمَ بالجملةِ الاسميّةِ، المفيدةِ الثَّباتَ والاستمرارَ بقرينةِ التَّحذيرِ.

دَلَالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (اللَّامِ) فِي قولِهِ: ﴿لَكُمۡ﴾:

العَاقِبَةُ الحَسَنَةُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ

في التَّعبير باللَّام بدلًا مِن (على) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ

(1) الخليل، العين: (عدو).
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1826، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/283.

كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾؛ لِلْإيماء إلى أنَّ عداوةَ الكُفَّار لأهلِ الإيمان لَمْ تُوجِبْ انتصارَهم عليهمُ انتصارًا مُستمرًّا، فالتَّعبيرُ باللَّام جاء إيماءً إلى أنَّ الكفرَةَ مَغْلُوبونَ[1]، والتّذييل بآخر الآية، تعليلٌ بأنّ استمرارَ الاشتغالِ بالصّلاة مَظِنةٌ لاقتدار العدوّ اللّدود على إيقاع الفتنةِ، بالمهاجمة المباغتة بالإجهاز على المؤمنين في صلاتهم، وهو تعليلٌ لذلك، باعتبار تعلُّله بما ذُكر، أو لما يُفهم من الكلام، من كون فتنتِهم متوقَّعةً، فإنّ كمالَ عداوتِهم للمؤمنين من موجبات التعرُّض لهم بسوء[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوْف والخَشْيَة:

الفَرْقُ بينَهما مِن وجهين: أوَّلُهُمَا: أَنَّ الخوفَ أعمُّ من الخشيةِ؛ وذلك لأَنَّ الخشيةَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بمَعْرِفةٍ وعِلم، بخلاف الخوفِ؛ فَلَا يُشترطُ فيه ذلكَ[3]. والآخَرُ: أَنَّ الخشيةَ تكون مِن عِظَم المَخْشيِّ وإِنْ كان الخَاشِي قويًّا، بخلاف الخوف؛ فَإِنَّهُ يكونُ مِنْ ضَعْفِ الخائفِ وإن كان المَخُوفُ أمرًا يَسِيرًا، ولِذا تَرِدُ الخشيةُ غالبًا في حقِّ اللّه تعالى[4]، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21]، وذكرَ المَاوَرْدِيُّ فرقًا آخرَ بينَهما؛ وهو أنَّ الخوفَ فِيمَا ظَهَرَتْ أَسْبَابُهُ، والخشيةَ فيمَا لَم تَظْهَرْ أسبابُه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/379.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/226.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 283، وابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/508.
(4) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 3/485.
(5) الماوَرديّ، النُّكت والعيون: 3/393.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ
وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ
طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ
وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن
مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٠٢﴾ [النساء: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مُناسبة الآية لما قبلَها وجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ اللّه ﷻ لَمَّا بيَّن في الآيةِ المُتقدِّمةِ حالَ قَصرِ الصَّلاةِ بحسَبِ الكَمِّيَّة في العددِ؛ بَيَّنَ سُبحانه ههنا حالَها في الكَيْفيَّة[1].

الآخِرُ: أنَّهُ سبحانهُ لَمَّا أتمَّ بيان القصر في الكَمِّيَّة مَقْرُونًا بالخَوْفِ لِمَا ذُكِرَ، "وكانَ حُضُور النَّبيِّ ﷺ مظنَّةَ الأمنِ بالتَّأييد بالملائكةِ وَوَعْدِ العِصمةِ مِنَ النَّاس، وما شُهِرَ به مِنَ الشَّجاعة، ونُصِرَ بِهِ مِنَ الرُّعبِ وغيْرِ ذلك مِنَ الأمورِ القاضيَةِ بأنَّ له العاقبة؛ بيَّن ﷻ حالَ الصَّلاة في الكيفيَّة عند الخوف، وأنَّ صلاة الخوف تُفعل عند الأُنس بحضرته، كما تُفعل عندَ الاِسْتيحَاشِ بِغَيْبَتِهِ ﷺ، فجوازُها لقومٍ ليس هو ﷺ فِيهم مفهوم موافقة"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَآئِفَةٌ﴾: الطَّاء والواو والفاءُ: تدورُ تصاريفُهَا على دورانِ شَيْءٍ على شيءٍ، وأن يَحُفَّ به[3]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: 9] ومِنْهُ قيل

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/204.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوف).

للسَّيل المُغْرِقِ: طوفَانٌ؛ لغشَيَانِهِ الأشياءَ كُلَّها[1]، وفي التّنزيل العزيز: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133].

والطَّائفةُ مِنَ النَّاسِ: الجماعةُ مِنْهُم، وليس لها حدٌّ معلومٌ في كلام العرَبِ[2]، وحدَّها جماعةٌ: بأنَّها مِنَ الواحد إلى الألف[3].

2) ﴿أَسۡلِحَتَهُمۡۖ﴾: السِّينُ واللَّام والحَاء: تدلُّ اشتقاقَاتُهَا على نَفَاذٍ بحدَّة وامتدادٍ، ومِنْهُ: السِّلاحُ، وهو الآلةُ الَّتي يُقاتَلُ بها، كالسَّيف: فإنَّهُ يُنفَذ بِه في بدَنِ العدُوِّ بامتدادٍ، ومثله: الرُّمْحُ والسَّهْمُ[4].

والسِّلَاحُ: مفردٌ، والجمعُ: أَسْلِحةٌ وسُلُحٌ وسُلْحانٌ[5]، ورُبَّما استُعمِلَ السِّلاحُ بمعنَى: الجمعِ، وليس له مفردٌ من لفظِه حينئذٍ[6].

3) ﴿حِذۡرَهُمۡ﴾: الحاءُ والذَّالُ والرَّاءُ تدور تصريفَاتُها على التَّحرُّزِ والتَّيقُّظِ[7]، ومِنْهُ الحَذَرُ: وهو الاحْتِرَازُ عَنْ مُخِيفٍ[8]، والحِذْرُ مِثْلُهُ.

ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾، فإنَّ معناه: التَّحرُّزُ والتَّيقُّظُ[9].

4) ﴿وَدَّ﴾: الواوُ والدَّالُ: تدلُّ اشتقاقاتُهما على المحبَّةِ[10]، وَوُدُّ الشَّيءِ: محبَّتُهُ، وتَمَنِّي حصولِه[11]، ومِنْهُ اسم اللّه تعالى: الودودُ، وهو المُحِبُّ لأوليائِهِ[12]المحبوبُ في قلوبهم[13].

وقول اللّه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾، أي: تَمَنَّوا أَن ينالُوا مِنْكُمْ غِرَّةً في صلاتكم[14].

(1) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (طوف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوف).
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 8/2520.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سلح).
(5) ابن سيده، المحكم: (سلح).
(6) العسكريّ، التَّلخيص، ص: 323.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حذر).
(8) المُناويّ، التَّوقيف: (حذر).
(9) الفَتني، مَجمع بحار الأنوار: (حذر).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ودد).
(11) الرَّاغب، المفردات: (ودد).
(12) ابنُ الهائم، التِّبيان، ص: 192.
(13) الفَتني، مجمع بحار الأنوار: (ودد).
(14) النَّسفيّ، مدارك التَّأويل: 1/391.

5) ﴿تَغۡفُلُونَ﴾: الغين والفاء واللَّام: أصلٌ صحيح يدلُّ على ترْك الشَّيءِ سهوًا، ورُبَّما أُطلِقَ على ما كان تركُهُ عن عمدٍ[1]، ومِنْهُ الغَفْلَةُ، وهي: سَهْوٌ يعتري المرء من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ[2].

ومِنَ التَّرْكِ عن عمدٍ بسبب الإهمال والإعراضِ قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾[3] [الأنبياء: 1].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾ معناه: ودَّ الكافرون "لو تَشْتَغِلُونَ بصلاتِكُم عَن أَسلِحَتِكُمُ الَّتي تُقاتِلونَهُم بها... فتَسْهُوْنَ عَنْهَا"[4].

غيْرَ أنَّه يقال: (غَفِلَ) في السَّهو، و(أغفل) في العمد، أو فيما كان إهمالًا عن ذكر منه للشَّيء.

6) ﴿وَأَمۡتِعَتِكُمۡ﴾: الميمُ والتَّاء والعَيْنُ: أصل صحيح يَدُلُّ على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[5].

ومِنْهُ: المَتَاع، وهو في الأَصْل: كلُّ شَيْءٍ يُنتفَع بِه، ويُتبلَّغ، ويتزوَّدُ[6]، والأمتعةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ﴾ هي ما بِها البلاغُ في الأسفارِ[7].

7) ﴿فَيَمِيلُونَ﴾: الميم والياءُ واللَّامُ: تدلُّ اشتِقاقاتُها على انحرافٍ في الشَّيء إلى جانبٍ مِنْهُ[8]، ومِنْهُ المَيْلُ، وهو الانحرافُ عَنِ الجادَّةِ[9].

فإنْ كان خِلقة في الشَّيء؛ فـ (مَيَلٌ) - بفتح الياء - وإن كان متقصَّدًا؛ فـ (مَيْلٌ)، بسكون الياء.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (غفل).
(3) الفيُّومي، المصباح المنير: (غفل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/162.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 9/162.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ميل).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ميل).

ومِنْهُ قيل لِلْمُنْحَرفةِ الزَّائغة عَن طاعة اللّهِ تعالى: مائلةٌ، كما في قول النَّبيِّ ﷺ: "صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: ... وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ"(1).

وفي قول اللّه تعالى: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ يُرادُ به: عدولُهم عن معسكرِهم إلى جيش المسلمين، والمعنى: يَكُرُّون، ويشدُّونَ عَلَيْكُم(2).

8) ﴿جُنَاحَ﴾: الجيم والنُّونُ والحاء: تدور تصاريفُها على المَيْلِ(3)، ومِنْهُ قولهم: جنحَ فلانٌ لكذا؛ إذا مالَ إِلَيْه، ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، أي: "إن مالُوا إلى مُسَالَمَتِك ومُتَارَكَتِك الحربَ... فمِل إِلَيْهَا، وابذُل لَهُم ما مالوا إِلَيْهِ مِنْ ذلك"(4)، (وسمِّي الجناحان: جناحين لميلهما في الشِّقَّين).

ومن هذا البابِ: الجُنَاحُ، وهو الإثمُ، سُمِّيَ بذلك؛ لمَيْلِه عن طريق الحقِّ(5).

9) ﴿أَذًى﴾: الهمزةُ والذَّالُ والياءُ: تدلُّ اشتقاقاتُها على الشَّيءِ، تَتَكرَّهُهُ، ولا تَقرُّ عَلَيْه(6).

وَكُلُّ ما جاء في القرآنِ الكريم مِنَ الأذى وتصاريفِه؛ فمنه ما مِنْ معناه: الإيلام النَّفسيُّ، أو الإيلامُ البدنيُّ غَيْرُ المُبَرِّح(7).

ووجهُ الأذى في المطرِ المذكور في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ ما يكون من أثرِ المطرِ الشَّديد عَلَى مَيدانِ الحربِ مِمَّا يَعُوقُ استعمال آلاتِ الحربِ ولقاء الأعداءِ، وإن لم يُوضَعِ السِّلاحُ؛ تعرَّض لِلصَّدأ، وكان ذلك سببًا في تَلَفِهَا(8).

10) ﴿مَّطَرٍ﴾: الميم والطَّاء والرَّاءُ: تدلُّ تصريفَاتُها على انْسكابٍ أو انحدارٍ بقُوَّةٍ أو سُرْعةٍ مع استِرْسَالٍ(9)، ومِنْهُ: المَطَرُ، وهو الماءُ المُنْسَكِبُ مِنَ السَّماءِ(10)، وهو المرادُ في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾.

(1) مسلم، الحديث رقم: (2128).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح)، وابن سيده، المحكم: (جنح).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/40.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أذي).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذى).
(8) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1833.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (مطر).
(10) الرَّاغب، المفردات: (مطر).

11) ﴿مَّرۡضَىٰٓ﴾: الميم والرَّاء والضَّادُ: تدورُ اشتقاقاتهَا على ما يخرُجُ به الإنسان عن حدِّ الصِّحَّةِ في أيِّ شيءٍ كان[1]، ومِنْهُ المرض: وهو العِلَّةُ في البَدَنِ، ومَن قامَ به؛ يُقال له: مريضٌ، والجمع: مرضَى ومِرَاضٌ[2]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾.

12) ﴿عَذَابٗا﴾: العَين والذَّالُ والباء: تدلُّ على معانٍ متباينَة، ومِن ألفاظِ هذه المادَّةِ: العذابُ، وهو المتوعَّد به في الآخرة عقوبة، وهو المراد هنا في الآية[3]، والْإِيجَاعُ الشَّديد[4]، يقال: عذَّبه؛ إذا أَوْجَعَهُ إيجاعًا شديدًا، والعذابُ أيضًا: ما يُصيبُ النَّفس مِن ألَمٍ[5].

ويطلق أيضًا على القتل والأسر والجراحة وتوابع ذلك، كما في الآية: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التَّوبة: 14]، وعلى الجَلْد، كما في: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النور: 2]، وله إطلاقات أخرى كثيرة.

13) ﴿مُّهِينٗا﴾: الهاء والواو والنُّون: تدور اشتقاقاتُها على سكونٍ أو سكينةٍ أو ذُلٍّ[6]، والذي في الآية من الذّل، ومعنى مهيناً أي: مخزياً مُذِلاًّ، ومن الذُّلِّ: العذابُ المُهِينُ، وَهُو العذابُ المُذِلُّ يَسْحَقُ نفوسَهم[7].

والهَوانُ ضربَان:

"أحدهما: تذلُّلُ الإنسانِ في نفسِه لِمَا لا يَلْحَقُ به غضَاضَةٌ، فيُمْدَحُ بِهِ، نحو قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63].

الثَّاني: أن يَكُونَ مِن جهة مُتَسَلِّطٍ مُسْتَخَفٍّ بِهِ، فَيُذَمُّ بِهِ"[8]، نحو قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مرض).
(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/205.
(3) الجوهريّ، الصحاح: (عذب).
(4) الرَّاغب، المفردات: (عذب).
(5) نشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (عذب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هون).
(7) جبل، المعجم الاشتِقَاقيّ المؤصّل: (هون/هين).
(8) الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (هان).

كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النّحل: 58-59].

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

وإذا كنتَ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - في ساحةِ القِتَالِ مع أصحابِكَ الخائفِينَ عَدُوَّهم أن يَفْتِنَهُمْ، فأردتَ أن تُصلِّيَ بهم؛ فَلْتَقُم فرقةٌ مِن أصحابك معكَ في صلاتك، وليأخذوا سلاحهم، فإذا سجد هؤلاء؛ فليكُنْ باقِي أصحابكَ خلْفَ المُصلِّينَ في مواجهةِ العدوِّ، وتُتِمُّ الجماعة الأولى ركعتَهُمُ الثَّانية، ويُسلِّمون، ثُمَّ تأتي الجماعة الأخرى الَّتي كانت في مواجهةِ العدُوِّ، وَلم تبدأِ الصَّلاة؛ فلْيَأْتَمُّوا بك في ركعتِهِمُ الأولى، وهي الثَّانيةُ لك، ثُمَّ يُكْمِلُوا رَكْعَتَهُمُ الثَّانية، ولْيَحذروا من عدوِّهم، ولْيَأخذوا أسلحتَهم، فإنَّ الكافرينَ يتمنَّونَ أن تغفُلوا عَن سلاحكم وزادِكم؛ لِيَحْمِلُوا عَلَيكُم حَمْلَة واحدَةً، فَيَقْضُوا عَلَيْكُمْ، ويُفْنُوكُمْ، ولا إثم عَلَيْكُم؛ إنْ كان بِكُمْ أذًى مِن مطر أو مِنْ مرضٍ أن تَتْرُكُوا أسلحتَكُم معَ أَخْذِ الحذَرِ، إنَّ الله تعالى أعدَّ لِجَاحِدِي دِينِه عَذابًا يُهِينُهم، ويُخْزِيهم، ويُذِلُّهم، وهو عذابُ الهَزِيمة والقتْل والأَسْرِ في الدُّنيا، وَعذابُ جَهَنَّم في الآخرةِ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ (إِذَا):

اسْتِحْضَارُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَالشَّرِيعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ

أداةُ الشَّرط (إذا) تدلُّ في الأصل على تحقُّق وقوعِ مدخولِهَا؛ ولذا كان الغالب في الفعل المُسْتَعْمَلِ معها أن يكُون ماضيًا؛ للدِّلالة على تحقُّق الوقُوع المناسب لِمَا تُفيده (إذا).

والنُّكتَةُ في التَّعبير بها في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، مع أنَّ صلاةَ الخوفِ مشروعةٌ في حياتِهِ ﷺ سواءٌ أكانَ مَعَ الجَيش أم لا، وبعد مَماتِهِ ﷺ فوجُوده ﷺ ليس متحقِّقًا في كلِّ الأحوال: الإيماءُ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ معناهُ: كنتَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/141 - 164، والنَّسفِي، مدارك التَّنزيل: 1/391، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/188، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 95.

فِيهِم بشريعتك وسُنَّتِكَ[1]، وهذا أمرٌ لا يغيبُ عنِ الجَيْشِ المُسلِمِ، بل هو دائم الحضورِ فيهم.

ويدلّ استعمال (إذا) أيضًا على تحقُّق كونه ﷺ فيهم في وقت البأس والشِّدَّة وفي ساحة الوغى والحرب، ساحة الشَّرف والكرامة، فهو الأسوة الحسنة في الجهاد، فاختار هذا الحرف الدَّالَّ على الشّرط إرادة التَّنبيه بمعناه على مناقب رسول اللّه وشمائل نبيِّه ومصطفاه، صلَّى اللّه عليه وآله وصحبه وسلَّم وبارك.

عُمُومُ الرُّخْصَةِ بِصَلَاةِ الْخَوْفِ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ ﴿كُنتَ فِيهِمْ﴾:

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿كُنتَ فِيهِمْ﴾ من قولِ اللّه سبحانه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، مع أنَّه لو حُذفت، فقيل: (وإذا أقمتَ لَهم الصَّلاة...)؛ لاستقامَ أصلُ المعنى، وذلك أنَّ (كان) تُفيدُ الدَّوامَ، لا سيَّما، وقد قُرِنَتْ بـ ﴿وَإِذَا﴾ المقتضيةِ العمومَ في الأزمنَةِ، وهِيَ تُمَحِّضُ الفعلَ لِلاستقبالِ؛ وإن كان بلفظ الماضي، وهذا يناسبُ العمومَ في الأشخاصِ، فعموم الأزمنَة قرينَةٌ لِلْعُموم في الأشخاصِ، فأفادَ هذا أنَّ الرُّخْصَةَ بصلاة الخوفِ تَعُمُّ الأمَّةَ جميعًا، وليست خاصَّةً بالنَّبيِّ ﷺ[2].

ويدلُّ فعل الكون أيضًا على أنّ الرّسول ﷺ حاضرٌ معهم في كلّ أحوالهم، لا يغيب عنهم ببدنه أو بذكره بينهم.

شَرَفُ النَّبِيِّ ﷺ وَرِفْعَةُ مَنْزِلَتِهِ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿فِيهِمْ﴾ بَدَلَ (مَعَهُمْ):

وتدلّ شبه الجملة ﴿فِيهِمْ﴾هنا على أنّ الأنبياء يبعثون في أواسط أنساب أقوامهم فيكونون محوطين بطيب الأرومة.

وهو أسلوب عامٌّ في جميع الأنبياء عمومًا، فمن ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢﴾ [الصَّافات: 72]، وفي شأن نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/49.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/49.

﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: 14]، وفي شأن إبراهيم، وهو الأسوة الحسنة بنفسه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦﴾ [الممتحنة: 6]، وفي شأن موسى، وقد عمَّ بذلك أنبياء بني اسرائيل جميعًا: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾ [المائدة: 20]، وبخصوص عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ [المائدة: 117].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

أَكْمَلُ الصَّلَوَاتِ وَأَعْظَمُهَا الصَّلَوَاتُ المَفْرُوضَةُ

اللَّامُ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لِلْكَمَالِ، أي: أقمتَ لَهُمُ الصَّلاةَ الكاملَةَ، وهي الصَّلاةُ المفروضَةُ(1).

ويحتَمِلُ أن تكون لِلْعَهْدِ العلميِّ؛ وذلك لوجهين:

أحدهما: أنَّ الجارِيَ في خطاب الشَّرعِ في قَرْنِ لفظِ الصَّلاةِ بالإقامةِ يُرادُ به الصَّلاةُ المفروضَةُ.

والآخَرُ: أنَّ الصَّلاةَ المفروضَةَ هِيَ الَّتي شُرِعَت صلاةُ الخَوفِ لَهَا؛ لوجودِ الحاجةِ المقتضيَةِ لذلك، دون غيرها مِنَ الصَّلوات.

ولا تعارُضَ بينَ الدِّلالتين السَّابقتين؛ لأنَّ العهدَ لا ينافي الكمالَ.

بَلَاغَةُ الِاحْتِبَاكِ أَوِ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾:

طَيُّ الكَلَامِ المَفْهُومِ مِنْ سِيَاقِ الكَلَامِ اخْتِصَارًا

في قولِ اللّه سبحانه: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ أسلوبُ احتباك، وهو المسمَّى: الحذفَ المقابَلِيَّ، ووجهُهُ: أنَّ اللّه ﷻ قال: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾، أي: ولتقُم الطَّائفة الأخرى تُجاهَ العدوِّ، وقوله تعالى: ﴿وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/380.

﴿يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، والطَّائفةُ الأخرى وجاه العَدُوِّ، ولتَكُنْ مِن وراءِ المصلِّينَ، فحُذِفَ من كلِّ موضعٍ ما دلَّ عليه مقابِلُهُ، هذا إذا كان الضَّمير في ﴿فَلۡيَكُونُواْ﴾ للطَّائفةِ الأُخرَى الَّتي لم تبدأ بالصَّلاةِ.

فإن كان الضَّمير في ﴿فَلۡيَكُونُواْ﴾ راجعًا إلى الطَّائفة الَّتي صلَّت أوَّلًا، فإنَّ الكلامَ يكون من قَبيلِ الاكتفاءِ؛ لوجودِ الحذفِ من جهةٍ واحدة، وهو في قوله سبحانه: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾، أي: ولتَقُم الطَّائفةُ الأخرى وِجَاهَ العدوِّ[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنْ عَدَمِ وَضْعِ السِّلَاحِ بِالْأَخْذِ:

لُـزُومُ عِـنَـايَـةِ الْمُـجَـاهِـدِ بِـاسْـتِـصْـحَـابِ سِـلَاحِـهِ وَالِاسْـتِـعْـدَادِ لِلْعَدُوِّ

الأخذُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ﴾ يُرادُ به: عَدَمُ الوضعِ؛ لأنَّ من شأنِ المجاهدِ في ساحةِ القتالِ أن يكونَ آخذًا سلاحَهُ مستعدًّا لِما عسَى أن يطرأَ عَلَيْهِ من شأن العدُوِّ، وإنَّما عُبِّر عن عدم الوَضْعِ بالأخذِ؛ لِلْإِشْعَار بالعناية باستصحاب السِّلاحِ حتَّى كأنَّهم يأخذونَها ابتداءً[2].

نُكْتَةُ المجاز المرسل فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الصَّلَاةِ بِالسُّجُودِ:

صَـلَاةُ الْـخَـوْفِ مَـظْـهَـرٌ مِـنْ مَـظَـاهِـرِ كَـمَـالِ الْعُبُودِيَّةِ

السُّجودُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ﴾ يُرادُ به الصَّلاةُ كلُّها، وهو مجازٌ مرسَلٌ مِن إطلاق الجزءِ وإرادةِ الكلِّ، والمعنى: فإذا صَلَّوا[3]، أي: أتَمُّوا الصَّلاةَ، فليكونوا من وراءِ الطَّائفة الَّتي كانت قبلُ وِجَاهَ العدُوِّ، وَخُصَّ السُّجودُ ههنا بالذِّكرِ؛ اهتمامًا بِهِ ورفعًا لشأنِه، فأقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد، ومدحًا لِلْمُجَاهِدِين المُصلِّين، فإنَّ السُّجودَ في حالِ الجهادِ وخوفِ انقضاضِ الأعداءِ مع ما فيه من عدَمِ إبصارِ العَدُوِّ حينئذٍ دليلٌ على كمال عبوديَّتِهم للّه تعالى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/380.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/130.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/372، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/381 - 382.

وإذا كان الضَّمير في قوله: ﴿فَلۡيَكُونُواْ﴾ راجعًا إلى الطَّائفةِ الأخرى الَّتي تكون أوَّلًا تُجاهَ العدوِّ، فإنَّ نُكْتَةَ التَّعبير عَنِ الصَّلاةِ بالسُّجودِ؛ لأنَّ السُّجودَ مظنَّةُ هجوم الأعداءِ لما يظنُّونَهُ من غَفْلَةِ المجاهدِينَ بسبَبِ هيئة السُّجودِ المقتضيَةِ عدمَ التَّنبُّه لِلْأَحْوَال الجاريَةِ من حولِهِمْ.

فَائِدَةُ تَكْرَارِ الظَّرْفِ ﴿مَّعَكَ﴾:

إِظْهَارُ عُلُوِّ مَكَانَةِ النَّبِيِّ ﷺ

تكرَّر الظَّرف ﴿مَّعَكَ﴾ في موضعين: أوَّلهما: في قوله تعالى: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾، والآخر: في قوله سبحانه: ﴿وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، ونُكْتَةُ ذلك: التَّنصيص على استمرار صلاة النَّبِيِّ ﷺ مع الطَّائِفَتَيْنِ في صلاةٍ واحدةٍ له، وذلك إظهارٌ لمكانةِ صلاتهِ ﷺ لا سيَّما في مِثْلِ هذه المواقف العَصِيبَةِ[1].

سِرُّ الْمُغَايَرَةِ بَيْنَ ذِكْرِ أَخْذِ السِّلَاحِ فَقَطْ، وَذِكْرِ أَخْذِ الْحِذْرِ وَالسِّلَاحِ مَعًا:

اخْتِصَاصُ الْحَالِ الْأَخْطَرِ بِمَزِيدِ التَّحْذِيرِ

قال اللّه سبحانه: ﴿وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾، ووجهُ المغايرَةِ بينَهما: أنَّه في أوَّلِ الصَّلاةِ قلَّ أن يَتَنبَّه العدُوُّ لكون المسلمين في صلاةٍ، بل يظنُّونهم قائمين؛ لِما تقتضيه الحربُ مِنَ الاستعداد، بخلاف الرَّكعة الثَّانيةِ، فقد بانَ لَهُم كونُهم في صلاةٍ، فيكون هذا داعيًا لهم لِانْتِهَازِ الفُرصة في الِانْقِضَاضِ على المسلمين؛ ولذا خصَّ اللّه ﷻ هذا الموضع بمزيدٍ مِنَ التَّحذيرِ، فقال: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾[2].

ولأنَّ تحقيق الخشوع في الصَّلاة والتَّخلِّي أثناءها عن الشَّواغل مظنَّةُ الانصراف عما كانوا عليه من الحِذْرِ الَّذي كانوا عليه قبل الدُّخول في الصَّلاة، فأعادهم التَّوجيه إلى مراد اللّه منهم، وما يحقِّق مرضاته لهم في ذلك.

---

(1) البنَّاني، سورة النساء: دراسة بلاغيَّة تحليليّة، ص: 266.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/206، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/226، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/289.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ والكناية فِي الْأَمْرِ بِأَخْذِ الْحِذْرِ:

الْمُبَالَغَةُ فِي الْحِذْرِ وَعَدَمِ الْغَفْلَةِ فِي الْمَوَاطِنِ الْمَخُوفَةِ

في قول اللّه سبحانه: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾ عدُّ الحذرِ وهو التَّيقُّظُ آلةً يستعملُها الغَازي، وفي هذا أسلوبُ الجمعِ[1]، فقد جمعَ اللّه تعالى بين الحذرِ والسِّلاحِ في الأخذ، وجُعِلَا مأخوذين[2].والحِذْر يشمل الإعداد المعنويّ، والأسلحة تشمل أنواع الإعداد الماديّ للمعركة.

ففي قوله: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ﴾، استعارة بالكنايةِ: حيثُ شُبِّهَ الحذَرُ وهو عقليٌّ معنويٌّ بالمحسوسِ الَّذي يَتأتَّى أخذُهُ وتناوُلُه.

ويَجُوز أن يكون ذلك من باب الاستعارة التَّصريحيَّةِ: حيث شُبِّهَ تلبُّسُهم بالحذَرِ بالأخذِ بجامعِ شِدَّةِ الملابَسَةِ والثَّباتِ على الشَّيءِ في كلٍّ[3]، فحُذِفَ المشبَّه، وصُرِّح بالمشبَّهِ به.

ونُكتة الاستعارةِ على الوجهين - المكنيَّة والتَّصريحيَّة - المبالغَةُ في الأَمْرِ بالحذَرِ والعناية بِهِ وعدم الغفلَةِ عنه.

ويحتَمِلُ أن يُخرَّجَ ذلك على الكِناية، فإنَّ أخذ السِّلاحِ حقيقةٌ في حَمْلِهَا لِلدِّفاعِ بها عَنِ الدِّين والنَّفس، وأَخْذُ الحَذَرِ كنايةٌ عن شدَّةِ اليقظَةِ ودوام التَّرقُّبِ[4].

وهذه الأوجُهُ مع اختلاف تخريجِهَا على أبواب البلاغةِ إلَّا أنَّ مؤدَّاهَا واحدٌ كما هو ظاهرٌ.

فَائِدَةُ ذِكْرِ الْأَمْرِ بِأَخْذِ السِّلَاحِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِأَخْذِ الْحَذَرِ:

جِـهَـادُ الْـعَـدُوِّ قَائِمٌ عَلَى أَصْلَيْنِ كَفِّ أَذَاهُ، وَقِتَالِهِ

وَرَدَ الأمرُ بأخذ السِّلاح عَقِبَ الأمر بأخْذِ الحذر في قول اللّه تعالى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾، مع أنَّ الأمرَ بأخذ الحذر يستلزِمُ الآخرَ؛ لأنَّ جهاد العدوِّ يقتضي أمرين:

(1) الجَمْع: أَنْ يُجْمَعَ بيَن شيئين مُختلفين فصاعِدًا في حُكْمٍ واحِدٍ.، العلويّ، الطِّراز: 3/78.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/560، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/206.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/186.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/288.

أحدهما: كفُّ أذاه؛ لئلَّا يَغْلِبَ.

والآخر: قتالُهُ؛ ليُغْلَبَ.

فأُمِرَ المسلمون بأَخْذِ الحذَرِ علَى أنفسِهم؛ لئلَّا يَتَغفَّلَهم الكفَّارُ، فيغلبُوهم، ثمَّ أُمِرَ المسلمون بأن يأخذوا أسلحتَهم؛ لكي يغلبُوا الكفَّارَ، "فَهُمَا مقدِّمتان نتيجتُهما واحدة: وهي النَّصر على العدُوِّ، بأن يجمعوا بين التَّصدِّي له به، والامتناع منه، فلا يغلبهم"[1].

بَلَاغَةُ إيجازِ الْقِصَرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

مِنْ بَلَاغَةِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ جَمْعُ الْمَعَانِي الْمُتَكَاثِرَةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَةِ

في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾: إيجازٌ بالقِصَرِ؛ إذا نُظِرَ إليه بجُمْلَتِه، فهو على وجازتِه يحتمِلُ جميعَ كيفيَّاتِ صلاة الخوفِ المذكورة في كُتُبِ الفقه، فإنَّها ستُّ كيفيَّاتٍ أو سبعٌ[2]، فيها مِنَ التَّفريعاتِ والتَّفصيلَاتِ ما يطولُ ذِكْرُهُ، فأُجْمِلَتْ كلُّهَا في جُمَلٍ يسيرةٍ في الآية الكريمة[3].

ويَرى بعضُ أهل العلم أنَّ المنصوصَ عَلَيْهِ في الآية كيفيَّةٌ واحدةٌ، وأحيلَ بيانُ باقي الكيفيَّاتِ إلى السُّنَّةِ النَّبويَّةِ[4]، وهذا بالنِّسبة إلى ظاهِرِ النَّصِّ صحيحٌ، ولكن بالتَّأمُّلِ يُمكن إرجاع كلِّ الصِّفاتِ إلى المذكور في الآية الكريمة.

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قَوْلِهِ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

تَوْجِيهُ الْمُجَاهِدِينَ إِلَى مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الِاحْتِيَاطِ وَالْحَزْمِ

فُصِلَ قولُ اللّٰه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ عن الجملة قبلَهَا؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ واردٌ على سبيلِ التَّعليلِ، وَوَجْهُ ذلك: أنَّ

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/50.

(2) ابن المُنذر، الأوسط: 5/43.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/382.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/226.

قوله سبحانه: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾ يبعث في النَّفسِ سُؤالًا: ما الحكمةُ من تَكْرَارِ الأمر بأخذ السِّلاحِ، والأمرِ بالحذَرِ؟ فجاء الجواب: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ﴾، فهو تعليلٌ بأمرٍ قلبيّ يُخرج أضغانهم إلى العلن لأمره بهذه الكيفيَّة على هذا الاحتياطِ والحزم[1].

وليس الوَدُّ المذكورُ ههنا مُطْلَقَهُ؛ لأنَّ هذا ظاهرٌ؛ إذ هُوَ من شأنِ كلِّ محاربٍ، وإنَّما المعنى: "أنّهم ودُّوا ودًّا مُسْتَقْرَبًا عندهُم؛ لظنِّهم أنَّ اشتغالَ المسلمين بأمور دينِهم يُباعد بينَهُم وبين مصالحِ دُنْيَاهم، جهلًا مِنَ المشركين لحقيقةِ الدِّين، فطَمِعُوا أَنْ تُلْهِيَهم الصَّلاة عَنِ الاستعداد لأعدائهم، فنبَّه اللّه المؤمنين إلى ذلك كَيْلَا يكونوا عند ظنِّ المشركين، وليعوِّدَهُم بالأخذ بالحزم في كُلِّ الأمور، ولِيُرِيَهُم أنَّ صلاح الدِّين والدُّنيا صنوان"[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

شِـدَّةُ مُـعَـادَاةِ الْـكُـفَّـارِ لِأَهْـلِ الْإِسْلَامِ

في التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾ دون التَّعبير باسم الفاعل (ودَّ الكافرونَ)؛ إيماءٌ إلى أنَّ هذه الرَّغبةَ في استئصالِ أهل الإسلام هي رغبة مَن باشرَ الكُفْرَ زَمَنًا مَا، فكيفَ شأنُ مَن هو متشبِّعٌ بالكُفْرِ غارقٌ فيه؟[3]

ومجيء جملة صلة الموصول (كفروا) فعليّة للدلالة على تكرّر هذه الرّغبة فيهم، وتجدّد كفرهم في كلّ حين.

سِرُّ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾:

الْإِقْـبَـالُ عَـلَى الْمُخَاطَبِ أَلْيَقُ بِمَقَامِ التَّحْذِيرِ

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطاب[4]، وهو خطابٌ للطَّائفَتَين جميعًا، ونكتةُ الالتفاتِ: تقويةُ عزائمهم،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/381 - 382، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/227، والآلوسي، روح المعاني: 3/131.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/383.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/227، والآلوسي، روح المعاني: 3/131.

وزيادةُ ترغيبِهم في الامتثالِ لِما وقعت هذه الجملةُ تعليلًا له؛ وهو أخذ الحِذْرِ والسِّلاح[1]، ولأنَّ أسلوبَ الخطاب أنسَبُ لِمقام التَّحذير؛ لِما فيه مِنَ الإقبالِ على المخاطَبِ إقبالًا ينبئ عن قربه منه قربًا يستتبع التَّلطُّف، ويستلزم التَّعطُّف.

مغزى إيراد الفعل ﴿فَيَمِيلُونَ﴾ بالمضارعيّة:

الدلالة على التجدّد الاستمراريّ

وفي التعبير بمادة الميْل، وصيغة المضارعيّة ما يؤكّد تجدّد الرغبة لأهل الكفر بأن يستأصلوا شأفة المسلمين كلّما سنحت لهم الفرصة.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم﴾:

رَغْبَةُ أَهلِ الْكُفرِ فِي غَلَبَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَيهِمْ

حرفُ الجرِّ (على) في قول الله سبحانه: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ على أصلِه في الدّلالةِ علَى الاستعلاءِ، وفيهِ إشارةٌ إلى الغلَبةِ والاستيلاءِ والاستحواذِ[2].

وفيه إيماءٌ إلى تضمينِ الفعل (يَميلون) معنى الكَرِّ والشَّدِّ؛ ولذا عُدِّيَ بـ (عَلَى)، والمعنى: يكُرُّون، وَيشدُّونَ عَلَيكُم في حال غَفْلَتِكم[3]، فثمرة التضمين هو الجمع بين قوّة الفعليْن: الكرّ والميْل.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْمَرَّةِ ﴿مَّيْلَةً﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ أَهْلِ الْكُفْرِ اسْتِئْصَالُ الْمُسْلِمِينَ وَإِبَادَتُهُمْ

جاء التَّعبير باسم المرَّة ﴿مَّيْلَةً﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ كنايةً عَنِ الشِّدَّةِ والقُوَّةِ وسُرعَةِ الأخذِ، ووجهُ ذلك: أنَّ الفعلَ إذا كان شديدًا قويًّا؛ فإنَّه يأتي بالمقصود منْهُ سريعًا دون مُعاودَةٍ، فلا يتكرَّر الفعلُ لتحصيلِه، فقوله: ﴿مَّيْلَةً﴾، أي: ميلةً مستأصِلَةً لا يُحتاج معهَا إلى أخرى[4].

وقوله: ﴿وَاحِدَةً﴾ تأكيدٌ للمَّرةِ المستفادَةِ من صيغةِ (فَعْلَة)؛

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/382 - 383.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/383.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/372، والبقاعي، نظم الدّرر: 5/383، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.

والغرضُ مِنْهُ: التَّنبيه على أنَّ قصد معنى الكنايةِ؛ لئلَّا يُظنَّ أنَّ المرَّة ﴿مَّيۡلَةً﴾ جيء بها لقصد المصدر إرادة التَّأكيد للفعل المُعْتَقِب الفاء في ﴿فَيَمِيلُونَ﴾[1].

بَلَاغَةُ النَّفْيِ بِـ (لَا) النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ فِي تَشْرِيعِهِ الْأَحْكَامَ

جاءَ النَّفيُ في قول اللّه سبحانه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بـ (لا) النَّافية للجنس، وهي لتوكيدِ النَّفْي، ودلالَتُهَا ههنا: على نفي جِنْسِ الجُناحِ قليلِهِ وكثيرِهِ - وهو الحرجُ والإثم - وهذا من سَعَةِ رحمةِ اللّه تعالى بعبادِهِ: حيث خفَّفَ عَنْهُمْ بوضع السِّلاحِ في حالِ العذر[2].

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ﴾:

تبشير المسلمين بقلّة الأذى الذي يصيبهم

دلّ التّعبير بـ(إن) المستعملة في الأمر نادر الوقوع على أنّ الأذى لن يلحق بكم إلا نادرًا، وفي هذا بشرى للمسلمين وتعجيل مسرّة، وجاء ضمير الجمع في (بكم) على أنّ ما يصيبُ بعضَهم إنّما يصيبهم جميعًا فهم كالجسد الواحد.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿أَذٗى﴾:

الْأَذَى اللَّاحِقُ بِالْعَبْدِ مِنْ مُوجِبَاتِ التَّخْفِيفِ

نُكِّر ﴿أَذٗى﴾ من قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ﴾ لإفادةِ العُمُومِ؛ إذ إنَّ النَّكرة في سياق الشَّرْطِ تُفيد ذلك.

ويحتمِلُ أن تكون دِلالةُ التَّنكير لِلتَّحقير، والمعنى: إن كان بكم أذًى يسير حقير[3]، والأذى الَّذي فوقَ ذلك مُستفادٌ بطريقِ الأَولويَّةِ والأَحْرَوِيَّة.

والوجهانِ مُتآيلان؛ إذ كلٌّ منهما يدلُّ على العموم، إلَّا أنَّ الأوَّلَ يدلُّ عليه بطريقِ اللَّفْظِ، والآخرُ يدلُّ عليه بطريقِ الفَحْوَى.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.
(2) البنَّاني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليليّة، ص: 148.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/383.

سِرُّ الْعُدُولِ عَنْ (مَرَضٍ) إِلَى ﴿كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾:

مِـنْ أَسْـبَـابِ التَّرْخِيصِ شَرْعًا الْمَـرَضُ الْمُحَقَّقُ الثَّابِتُ

عُدِلَ عَنِ التَّعبير بـ (مرض)؛ فلم يرد: (إن كانَ بِكُمْ أذًى مِن مطر أو مرضٍ)، إلى التَّعبير بـ ﴿كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾؛ لِلتَّنبيهِ على أنَّ أدنَى شيءٍ مِنَ المرضِ لا يَكُون رُخصةً[1]، بَلِ المرضُ المحقَّقُ الثَّابتُ الَّذي يَصْدُقُ أن يُقال في صاحبِه: كان مريضًا؛ إذ إنَّ (كان) تقتضي الدَّوامَ، ويمكن أن يكون الغرض من هذا العدول التّخفيف على المؤمنين، بأن يكون المرض قديمًا وبقيت آثاره حتّى وقت المعركة، فالمرض قد أصابكم وانتهى ولكنّ بعض آثاره بقيت معكم، أو تُحمل على معنى: كنتم في عداد المرضى لأدنى أذى أصابكم.

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ التَّدلِّي فِي تَقْدِيمِ الْمَطَرِ عَلَى الْمَرَضِ:

الْمَـصْـلَـحَـةُ الْعَامَّةُ مُقَدَّمَةٌ عَـلَى الْمَصْلَحَةِ الْخَاصَّةِ

قُدِّمَ الأذى المسبَّبُ مِنَ المطر على الأذى المسبَّب مِنَ المرض في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾؛ لأنَّ المطرَ شاغلٌ لِلطَّائفتين كِلتيْهِمَا، بخلاف المرضِ؛ فهو عذرٌ موجِبٌ للرُّخصةِ لخصوص المريضِ[2]، فقُدِّمَ ما فِيهِ المصلحة العامَّةُ على ما فيه المَصلحة الخاصَّةُ على طريقة التَّدلِّي.

بلاغة التعبير بضمير الجمع في ﴿كُنتُمۡ﴾:

الـدلالـة على وحـدة الشعور بين المسلمين

والتَّعبير بقوله: ﴿أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾، مع أنَّ المريض قد يكون فردًا أو أفرادًا، له وجهه الدلاليُّ، فهو إمَّا أن يكون قال: ﴿كُنتُمۡ﴾ بضمير الجمع، مشاكلة لقوله: ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ﴾، فقابل الجمع بالجمع رعاية للمقام، وفي هذا توجيه إلى أنَّهم؛ وإن كانوا مرضى، فإنَّ اجتماع كلمتهم مع ما بكلِّ فرد من وهن المرض وأعراضه النَّازلة، أرهب في العدوِّ وأدخل للرُّعب عليه، أو نقول: جُمِعَ ليكون إحياء للشُّعور العامِّ والإحساس التّامِّ من بعضهم ببعض، تذكيرًا بأنَّهم "في توادِّهم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/383.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/188.

وتراحمهم وتعاطفهم مثل: الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسَّهر"[1].

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾:

وُجُوبُ زِيَادَةِ الْحَذَرِ عِنْدَ وُجُودِ دَوَاعِيهِ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾ احتراسٌ؛ لأنَّه وارِدٌ لدفع ما يُتَوَهَّم من أنَّ اللّه تعالى لَمَّا رَفَع عَنْهُم الحرجَ والإثم في وضع السِّلاح حالَ الأذى مِنَ المطر أو المرض: أنَّه يجوزُ لَهُمُ التَّرخُّص بترك الحذرِ وعدم الِانْشِغالِ به، فبيَّن اللّه تعالى أنَّهم مأمورون بأخذ الحذر، "بَلِ الأمرُ هنا آكد؛ لأنَّ الحذرَ مِنَ العدوِّ حالة عدم السِّلاح أشدُّ مِنْهُ حالةَ حملِ السِّلاح"[2].

فَائِدَةُ تَكْرَارِ الْأَمْرِ بِالْحذرِ:

أَهَمِّيَّةُ التَّيَقُّظِ وَالتَّحَرُّزِ فِي مَقَامَاتِ الْجِهَادِ

وردَ الحذر في هذه الآية الكريمة في موضعين: في قوله ﷻ: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾، ونُكتَةُ تَكرارِهِ: الإيماءُ إلى أهميَّة التَّيقُّظِ والتَّحرُّز في مقاماتِ الجهادِ، وألَّا يَشْغَلَه شيءٌ عن ذلك؛ سواءٌ كان العبدُ حاملًا السِّلاح أم واضعًا له في حال وجودِ عذرٍ من مطرٍ أو مرضٍ[3].

رَدُّ مَقَاطِعِ الْكَلَامِ عَلَى مَطَالِعِهَا:

دِلَالَةُ مَوَارِدِ الْكَلَامِ عَلَى مَصَادِرِهِ أَمَارَةُ عُلُوِّ بَلَاغَتِهِ

هذه الآية الكريمة ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ناسبَت أوّلَ آياتِ الجهادِ في هذه السُّورةِ، وهي قولُه سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النِّساء: 71] مناسبةً ظاهرةً في الأمر بالحذَرِ والأخذ بأسبابه، وهذا مِن باب ردِّ المقَاطع على المطالع[4]، ونُكتَتُه: الدِّلالة على تأكيد المعاني وتقريرها، وفيه مِن علوِّ البلاغة قدرٌ عظيمٌ؛ إذِ الكلام الجيِّد: هو ما دلَّت مواردُهُ على مصادرِه، وارتبطَ مَقطعُهُ بمطلَعِهِ[5].

---

(1) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 6011، مسلم، الصحيح، الحديث رقم: 2586.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/51.

(3) البنَّاني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليليّة، ص: 266.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/382.

(5) فيّود، علم البديع، ص: 314 - 315.

مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ؛ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ، وَمَنْ تَابَ مِنَ الْكُفْرِ فَمَا دُونَهُ؛ تَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ

شِدَّةُ خَسَارَةِ الْكَافِرِينَ وَالْإِهَانَةِ الَّتِي سَيَنَالُونَهَا

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

وردَ التَّعبير باسم الفاعل ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ لِلْإِشَارة إلى أنَّ المقصودَ بهذا الوعيدِ هُمُ الدَّائمونَ على الكُفْرِ الَّذين خُتِمَ لهم بِهِ، لا مَنِ اتَّصفَ به زمَنًا مَا، ثمَّ تابَ مِنْهُ[1].

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ:

أُكِّد قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ بضروبٍ من المؤكِّدَاتِ[2]:

أحدها: (إنَّ)؛ فإنَّها تقوِّي النِّسبة في الجملة الاسميَّة.

ثانيها: بيانُ أنَّ العذابَ مِنَ اللّه تعالى، والعذابُ مِنَ العظيمِ في مقام التَّهديد عظيمٌ.

ثالثها: مجيءُ المسنَدِ إِلَيْه علمًا، وهو الاسْمُ الأحسن (اللّه)، وما يُشعِرُ به مِنَ الجلال والهَيْبَة، فَفيهِ زيادَةُ بيانٍ لعظَمَةِ العذاب الَّذي يحلُّ بِهِم.

رابعها: التَّعبير بكلمة ﴿أَعَدَّ﴾ بصيغة الماضي، المفيدَةِ أنَّه عذابٌ قد فُرِغَ مِن تهيئَتِه، وهو يستقبِلُهُم ولا بدَّ أنَّه نَائِلُهُم.

خامسها: تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ المفيدُ التَّخصيصَ والقصرَ، وفيه من الدِّلالة على عظمة العذابِ وبلوغِه في الإهانةِ مبلغًا عظيمًا، حتَّى كأنَّ عذابَ غيرِهم مِنَ المُجْرِمين لا يُعدُّ عذابًا بجانِبِ عذابِهِمْ.

سَادِسُها: مجيءُ الجملة اسميَّةً، وما تدلُّ عَلَيْهِ مِنَ الثُّبوتِ، وَمِنَ الدَّوامِ المستفادِ من قرينةِ التَّهديد.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/384.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1834.

سابعها: تكرارُ النِّسبة وما تقتضيه من تأكيدِهَا؛ فإنَّ إعدادَ العذاب نُسبَ إلى اللّه تعالى مرَّتين: أُولَاها: إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ﴾، والأُخرى: إسنادها إلى الضَّمير الرَّاجع إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿أَعَدَّ﴾.

ثامِنُها: تنكير ﴿عَذَابًا﴾ وما يدلُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّعظيم والتَّفخيم.

فهذه الأوجُهُ بمجموعِهَا تدلُّ على شدَّة خسارةِ الكافرين، وأليم عقابِهم، ومبلغ الإهانَةِ التي سينالونَهَا.

بَلَاغَةُ تَذْيِيلِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾:

تَحْرِيضُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ

مناسبَةُ مجيءِ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ بعد الأمر بالحذر في قوله: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾؛ لأنَّ الأمر بالحذرِ مِنَ العدوِّ قد يُوهم قوَّتَهُ وشدَّتَهُ، فأزال اللّه سبحانَهُ هذا الوهم بأنْ أخبر ﷻ أنَّه يُهين الكُفَّار، ويخذلهم؛ لتقوَى قلوبُ المسلمين، ويعلموا أنَّ ما أُمروا به مِنَ الحذر ليس لِمَا لِلْكُفَّار مِنَ القوَّة والشِّدَّة، وإنَّما لأجل تحصيلِ الخوف في قلوب المسلمين، فيعتنُوا بتحصيل أسباب النَّصرِ، ولا يُضيِّعوها، وليقوى تضرُّعهم إلى اللّه سبحانه في أن يمدَّهم بنصرٍ مِنْ عندِه[1].

فهذه الآيةُ باعتبارِ ختمِ الآيةِ بها: تذييلٌ، قُصِدَ به تشجيعُ أهل الإسلام على مُقاتلة الأعداء[2]، وهي باعتبار دَفْعِ الإيهام الحاصِلِ: احتراسٌ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطَّائِفَةُ وَالْفِرْقَةُ:

درجَ كثيرٌ مِن أصحاب المعجمَاتِ على عدمِ التَّفريقِ بينَ الطَّائفة والفِرقة[3]، ولعلَّهم أرادُوا بذلك التَّقريبَ على عادتِهم في كثيرٍ مِنَ المفرداتِ.

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/207.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/188، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/290.
(3) الجوهريّ، الصحاح: (فرق).

إلَّا أنَّ بينَهما فرقًا في الاستعمال القرآنيِّ؛ فالفِرْقَةُ: الجماعةُ الكثيرةُ، بخلاف الطَّائفة؛ فإنَّها الجماعة القليلةُ(1)، ويدلُّ لذلك قول اللّه تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: 122].

فالطَّائفة والفِرقةُ لفظان يَشْتَرِكَان في الدِّلالَةِ على العَدَدِ، ويفترقانِ في أنَّ العددَ في الفِرقة كثيرٌ، وهو في الطَّائفةِ قليلٌ(2).

الْغَفْلَةُ وَالسَّهْوُ:

الفرقُ بينَهُما مِن وجهين(3):

أحدهما: يقال: غفلت عن هذا الشّيء حتَّى كان، ولا يقال: سهوت عنه حتَّى كان؛ لأنَّك إذا سهوت عنه؛ لم يكن، ويجوز أن تغفل عنه، ويكون.

والآخرُ: أنَّ الغفلة تكون عن فعل غيرك، فتقول: كنت غافلًا عمَّا كان من فلان، ولا يجوز أن تسهو عن فعل غيرك.

الْأَذَى وَالضَّرَرُ:

يَجْمَعُهُما أنَّ كِلَيْهِمَا شَرٌّ وَمكروهٌ يَحلُّ بالعَبْدِ، والفَرْقُ بينَهُما: قال الخطَّابيُّ: الأذى الشَّرُّ الخفيف، فإن زاد؛ فهو ضرر(4).

الْمَطَرُ وَالْغَيْثُ:

ذهب جمعٌ مِن علماء العربيَّةِ في معجماتِهم إلى تعريفِ أحدهما بالآخَرِ(5)؛ ميلًا مِنْهُمْ إلى التَّرادُفِ في ظاهر صنيعِهِم، ويحتَمِلُ أنَّ ذلك منهم تقريبٌ للمعاني دون اعتقادِهم حقيقةَ التَّرادُفِ بينهما.

إلَّا أنَّ الاستعمال القرآنيَّ للَّفظتَين لَه خصوصيَّةٌ تُلْمَحُ مِن سياقاتِهما، فإنَّ (المطر) ورد في القرآن الكريم في سبعةِ مواضعَ كلِّها بمعنى: العذاب، إلَّا في موضعٍ واحدٍ جاء مقرونًا بالأذى، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ﴾.

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/323.
(2) مُحمّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 333.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 98.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أذى).
(5) الخليل، العين: (غيث)، والجوهريّ، الصحاح: (غيث)، والزَّبيدي، تاج العروس: (غيث).

أمَّا (الغيث)؛ فورد في مواضعَ ثلاثةٍ، استُعمِلَت جميعُها في سياق الخيرِ والرَّحمةِ والعناية بمجيئِه[1]، مِنْهَا قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشّورى: 28].

وهذا التَّفريقُ بين اللَّفظتين في السِّياق القرآنيِّ يُلخِّصُهُ قولُ سفيانَ بنِ عُيينة رحمه اللّه: "ما سمَّى اللّه المطرَ في القرآن إلَّا عذابًا، وتسمِّيه العربُ الغيثَ"[2].

وقد وردَ التَّفريقُ بينَهما أيضًا في حديث عبد اللّه بنِ مسعود ﵁ في حكايَتِهِ استسقاءَ النَّبيِّ ﷺ لقُرَيشٍ، فقَد قال ﵁: "فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسُقُوا الغَيْثَ، فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ المَطَرِ..."[3]، فعبَّر عمَّا كان فيه كشفٌ لشدَّتهم بالغيث، فلمَّا زادَ عَنِ الحاجَةِ، وخِيفَ مِنْهُ الهَلاكُ سمَّاهُ: مَطَرًا.

(1) مُحمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 353، والدّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنّي، ص: 131 – 133، وزيدان، الفروق اللُّغويّة في القرآن، ص: 720 - 722.

(2) السّيوطي، معترك الأقران: 3/458.

(3) البخاريّ، الحديث رقم: (1020).

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا علَّم اللّه تعالى عبادَهُ ما يفعلونَهُ في الصَّلاةِ حالَ الخوفِ؛ أتبع ذلك بالَّذي يفعلونَهُ بعدها؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ الصَّلاةَ تُغنِي عن مُجرَّدِ الذِّكْرِ[1]، ولئلَّا تنقَطِعَ عبودِيَّةُ المسلِمِ لربِّهِ سُبحانه؛ ولو في المقَامات العَصِيبَةِ، كحال الجهادِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَضَيْتُمُ﴾: القاف والضَّاد والحرف المعتلُّ: أصل صحيح يدلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِهِ وإنفاذِهِ لجِهَتِهِ[2]، ومِنْهُ القضاءُ بمعنى: الأداء والإنهاء[3]، ومِنَ البابِ: قضاءُ الدَّينِ؛ لأنَّه أداؤُهُ وإيصالُهُ إلى صاحبِهِ[4].

وقضاء الصَّلاةِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، هو أداؤُها والفراغُ منها[5].

2) ﴿ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾: الطَّاء والميم والنُّون: أصْلٌ يدلّ على استواءٍ، أو انخفاضٍ فيما شأنُهُ الارتفاعُ[6]، وَمِنْهُ: الطُّمأنينةُ، وهي السُّكونُ[7]، وتسمِّي العربُ المكانَ المنخفض مِنَ الأرض: المطمئنَّ[8].

وفي الطُّمأنينَةِ الواردةِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ قولان[9]:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/384.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قضي).
(3) الجوهريّ، الصحاح: (قضى).
(4) الفيّومي، المصباح المنير: (قضي).
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/94.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (طمن).
(7) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (طمن).
(8) الخليل، العين: (طمن).
(9) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/526.

أحدهما: الإقامةُ بعدَ السَّفر.

والآخر: الأمنُ بعد الخوف.

وفي كِلَيْهِمَا معنَى السُّكُونِ، فإنَّ "في الرُّجوع إلى الأوطانِ سكُونًا مِن قَلَاقِلِ السَّفر واضطراب البدن"[1]، وأمَّا السُّكُونُ في الأَمْنِ بعد الخوف؛ فظاهرٌ.

3) ﴿كِتَٰبًا﴾: الكاف والتَّاء والباء: أصل صحيح واحد يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ[2]، وَمِنْه قولُهم: كَتَبْتُ الكتابَ؛ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ حرفًا إِلَى حرْف[3]، وتقول العرب: تكتَّبتِ الخيلُ، أي: تَجَمَّعت[4].

ويُطلق الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كمَا قال اللّه تعالى عن عِيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[5] [المائدة: 110].

ويُطلق مرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم: لِباس بمعنى: مَلْبُوس، ثُمَّ أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيهَا[6].

4) ﴿مَّوْقُوتًا﴾: الواو والقاف والتَّاءُ: تدلُّ تصريفَاتُها على حدِّ شيءٍ وكُنْهِهِ في زمانٍ وغيرِه[7]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾ [النَّبأ: 17] أي: موعدًا محدَّدًا[8]، وتقول العرب: وقْتٌ مَوْقُوتٌ ومُوَقَّتٌ، أي: مَحْدُودٌ[9].

و﴿مَّوْقُوتًا﴾ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾، أي: فرضًا مؤقَّتًا يُؤدَّى في أوقاته[10].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/189.
(2) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (كتب)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كتب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كتب).
(4) الجوهريّ، الصحاح: (كتب).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223.
(6) الهُورِينِيّ، المطالع النَّصريّة، ص: 41.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وقت).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقت).
(9) ابن سِيده، المخصَّص: 2/402.
(10) السّمعاني، تفسير القرآن: 1/474.

❁ المَعنَى الإِجْمَاليُّ:

فإذا فرغتُم - أيُّها المؤمنون - مِن صلاتِكُم؛ فاذكروا اللّه تعالى على كلِّ أحوالكم: قيامًا وقعودًا ومضطَجِعِينَ على جنوبِكُم بالتَّعظيم له، والدُّعاء لأنفسكم بالنَّصر على عدوِّكم، فإذا سَكَنَت نفوسُكُم: إمَّا بزَوَال الخوفِ عَنْكُم أو قُفُولِكم مِنَ الغزو؛ فأتمُّوا الصَّلاةَ المفروضة على الوجه الأكمل ظاهرًا وباطنًا، غيرَ قاصرِيهَا عن شيءٍ مِن حدودِهَا، ولا تفرِّطوا فيها، فإنَّها واجبة في أوقاتٍ معلومة مُبيَّنَةٍ في الشَّرع(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة التِّعبير بالفاء في ﴿فَإِذَا﴾:

توالي ذكر المتعلَّق وجمع جزئيَّات المسألة بعضها إلى بعض في الوقت الواحد ركيزة توحُّد العلم، وحسن الفهم وعدم الاختلاف.

من حسن البيان اكتفاؤه عمَّا هو خارج عنه، بربط الموضوع، وحصر أفراده وجزئيَّاته، وجمع مفاداته واستيفاء البيان وقت الحاجة إليه والإصغاء لاستيعابه.

نُكتَةُ التَّعبِيرِ بِأَدَاةِ الشَّرطِ (إِذَا):

التَّـفَـاؤُلُ فِي المَوَاطِنِ المَخُوفَةِ طَرِيقَةٌ قُرْآنِيَّةٌ

جاء الشَّرط في هذه الآيةِ بـ (إذا) فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾، وهي مفيدةٌ - في الأصل - القطعَ بوقوع مدخولِهَا، والنُّكتَةُ في ذلك: التَّفاؤُلُ بتحقُّقِ قضائِهم الصَّلاةَ، أي: إكمالِ أدائِهَا، وذلك يقتَضِي سلامَتَهم مِنَ الغيل في المعركَةِ.

وفيه: أنَّهم إن دخلوا فيها - أي: الصَّلاة - أُعينوا عليها، وفيه حصول الإجزاء كيفما تيسَّر لهم، وتأدّى منهم، وفيه سقوط المؤاخذة عنهم على أي وجه كان.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/164 - 166، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 2/281 - 282، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/188 - 189، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 95.

دِقَّةُ اختيارِ الصِّيَغِ المُناسبةِ لِسياقاتِها

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ **وَ**﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: 10]**:**

وردَ فعلُ القضاء في سورة النِّساء بالبناء لِلفَاعِل: ﴿قَضَيْتُمُ﴾، وفي سورة الجمعة بالبناء لِلمَفْعُول: ﴿قُضِيَتِ﴾ [الجمعة: 10]، مع اختلاف جواب الشَّرْطِ فيهما؛ لأنَّ آية سورة النِّساء لَمَّا تقدَّمها ذِكْرُ صلاة الخوف، وهو مُفيدٌ عدَمَ سقوطِ الصَّلاة في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوال، وكان السِّياقُ مبْنِيًّا على خطاب المؤمنين؛ ناسبَهُ أسلوبُ الخطاب ببناءِ الفعل لِلفَاعل، وجاءَ الجوابُ بالتَّنصيص على واحدٍ من أعظم أسباب النَّصْرِ على الأعداء، وهو ذكرُ اللّه تعالى على كلِّ حالٍ، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال: 45].

بخلاف آية سورة الجمعة؛ فقد تقدَّمها قولُ اللّه جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة: 9]، فبُنِيَ فعل النِّداءِ للصَّلاةِ لِلمَفعول: ﴿نُودِىَ﴾، فكان الأنسب بناء ما يتعلَّق بقضائها لِلمَفْعُول أيضًا، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: 10]، ولَمَّا كان ما قبل صلاة الجمعة انقطاعًا عَنِ العمل وقضاء المصالِح؛ كان الأوفَق أن يكون ما بعدها دُعاءً إلى العمل وقضاء المصالح، فقال ﷻ: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]، ولَمَّا كان ذلك قد يُشْغِلُ المرءَ عَنْ ذكر اللّهِ تعالى لانشغالِه بطلب المعاشِ ونحوه؛ ناسبَهُ الأمر بذكر اللّه تعالى، فقال سُبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

نُكْتَةُ المَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾**:**

الذِّكْرُ المرادُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ أن

ذِكْرُ اللهِ تَعالَى مِنْ أَعْظَمِ أَسْبابِ اطْمِئْنَانِ الْقُلُوبِ

يكونَ عامًّا، ويحتمِلُ أن يكون مرادًا به الصَّلاةُ[1]، بقرينةِ ذكر الصَّلاةِ قبلها في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وبعدها في قوله سُبحانه: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾[2]، وإطلاقُ الذِّكْرِ على الصَّلاةِ - على هذا الوجه - مِن باب المجاز المرسل بإحدى علاقاته الجزئيَّة أو الحاليَّة أو الملازمة، فإنَّ الذِّكْرَ جزءٌ مِن أجزاء الصَّلاةِ، وهو حالٌّ فيها، وملازم لها، ولازم عنها للنَّصِّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]، وإنَّما اختيرَ التَّعبيرُ عنها بالذِّكْرِ ههنا؛ لمناسبَتِهِ الاطمئنَانَ المذكورَ بعدُ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرَّعد: 28].

دِلَالَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ عَلَى اسْتِيعَابِ أَحْوَالِ الْعَبْدِ:

مِنْ مَقَاصِدِ الْعُدُولِ عَنِ الْإِيجَازِ إِلَى التَّفْصِيلِ دَفْعُ تَوَهُّمِ مَا لَا يَصِحُّ

في قول الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾ استيعابٌ لأحوالِ العبدِ الرَّئيسَةِ[3]؛ وذلك أنَّ حالَ المرءِ لا يخلُو مِن قيامٍ أو قعودٍ أو كونِهِ على جَنْبٍ، وحالُ المشيِ ونحوِهِ مُلْحَقَةٌ بحالِ القيامِ، وحالُ الاستلقاءِ مُلحقةٌ بحالِ كونِهِ على جَنْبٍ.

وعُدِلَ عَن صريحِ التَّعميمِ مع أنَّه أَوْجَزُ، فلم يأتِ نظمُ الآية: (فاذكرُوا الله في جميع أحوالكم) إلى تفصيل تلكَ الأحوال؛ زيادةً في الحثِّ على ذكرِهِ، ولئلَّا يُظَنَّ أنَّ بعضَ تلك الأحوال كالكَوْنِ على جَنْبٍ لا يليقُ أَنْ يُذكَرَ الله تعالى عليهَا.

بَلَاغَةُ التَّرَقِّي فِي ذِكْرِ أَحْوَالِ الْعَبْدِ:

قَطْعُ كُلِّ عُذْرٍ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الِاتِّصالِ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ

رُتِّبَت أحوال المرءِ بِذِكْرِ القيام أوَّلًا، ثُمَّ القعود ثانيًا، ثُمَّ الكونِ على جنب أخيرًا، فقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾، وهذا التَّرتيبُ هو على سبيل التَّرقِّي في إيراد العوارضِ

(1) القِنَّوْجِيّ، فتح البيان: 3/227.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/94.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/384.

التي قد تعرضُ لِلعبدِ يظنُّها مانعةً له مِن ذكر اللّه تعالَى، ومِنْهَا: الصَّلاةُ، فذكر القعودَ والكونَ على جنبٍ، ولازِمُهُما وُجودُ عذرٍ مانعٍ، وثانيهما أقوى من أوَّلِهِمَا، وقدَّمَ القيامَ قبلَ ذلك تتميمًا لِلْقِسمةِ؛ ولأنَّه الأصلُ في أحوالِ العبدِ؛ لكونِ الإنسانِ مخلوقًا على هيئةِ الانتصابِ والاستقامَةِ.

فعلى إرادةِ الصَّلاة بِذِكْرِ اللّه تعالى؛ فالتَّرتيبُ فيها ظاهرٌ، وهو موافق لقولِ النَّبيِّ ﷺ: "صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَعَلَى جَنْبٍ"(1)؛ فالعَبدُ قد يَتوهَّمُ سقوطَ شيءٍ مِنَ الواجباتِ عَلَيْهِ حالَ إصابتِهِ بمرض يُقعده، ويزداد هذا الوهم؛ إذا أصابه مرضٌ يُعجزه عَنِ القعودِ فضلًا عَنِ القيام، فدُفِعَ الوَهْمُ الأقلُّ، ثُمَّ الَّذي فوقَهُ؛ لقطع كُلِّ عذرٍ يعوقُ العبدَ عَنِ الاتِّصالِ بربِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

مِنْ مَسَالِكِ التَّرْتِيبِ الأَفْضَلِيَّةُ وَالأَكْثَرِيَّةُ

وَيحتَمِلُ أن يكون هذا التَّرتيبُ لمراعاةِ أمرين(2):

أحدهما: أنَّ ترتيبَ الهيئات هُوَ بحسَبِ الأفضليَّة، فقُدِّم الذِّكر قيامًا على الذِّكر قعودًا، وقُدِّم الذِّكر قعودًا على الذِّكر اضطِجَاعًا.

والآخر: أنَّه وردَ مراعاةً لِلأَكثر؛ فإنَّ ذِكْرَ اللّهِ تعالى قيامًا أكثرُ من ذِكْرِهِ قعودًا، وذِكْرَه قعودًا أكثرُ من ذِكْرِهِ اضطِجَاعًا.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾ وَ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾:

اخْتِلَافُ التَّرْتِيبِ يُرَاعَى فِيهِ سِيَاقُ المُرَتَّبَاتِ

في هذه الآيةِ الكريمةِ ذَكَرَ اللّه تعالى حالَ القيامِ ثُمَّ القعودِ ثُمَّ الكونِ على جنبٍ، فقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾، وفي سورة يونس عُكسَ ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: 12]، ووجه

(1) البخاريّ، الحديث رقم: (1117).
(2) المطعنيّ، خصائص التَّعبير القرآنّي: 2/428.

ذلك[1]: أنَّ آية يونُسَ في سياقِ ذِكْرِ الضُّرِّ اللَّاحق بالعبدِ، فقُدِّمَ حالُ الاضطِجاعِ؛ لكونِ الضُّرِّ فيه بالغًا مبلغًا عظيمًا، فإذا زال بعضُ الضُّرِّ؛ قعدَ المضطَجِعُ، وإذا زال مُعظَمُ الضُّرِّ أو كُلُّه؛ قام القاعِدُ، فكان دعاؤُهُ من أجل تتميم الصِّحَّةِ وإكمال القوَّةِ وحصول التَّصرُّفِ، بخلاف آية النِّساءِ؛ فهي في سياقِ ذِكْرِ اللّٰه تعالى، ومِنْهُ الصَّلاةُ، ومِنَ المعلوم أنَّ الصَّلاةَ يَجِبُ فيها القيامُ لِلْمُسْتَطِيع، ثُمَّ يليهِ القعودُ عند العجزِ عَنِ القيام، ثُمَّ الاضطجاعُ عند العجْزِ عَنِ القعودِ، وإن أُريدَ به مُطلق الذِّكْرِ؛ فرُوعِيَ في هذا التَّرتيب الأفضليَّةُ أو الأكثرُ، كما تقدَّم قريبًا.

سِرُّ الْعُدُولِ عَنْ (إِنْ) إِلَى (إِذَا):

التَّـــفَـــاؤُلُ بِـالـسَّـلَامَـةِ فِي مَوَاطِنِ الْخَوْفِ مَسْلَكٌ قُرْآنِيٌّ

عُبِّر بأداة الشَّرط (إِذَا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾، وهي تدلُّ على الجزم بوقوع الشَّرْطِ في أصل وضعِهَا، والاطمئنَانُ المرادُ به: زوالُ الخوف أو الإقامَةُ بعد السَّفَر، وليسَا بالمُتَيَقَّنَيْنِ؛ لاحتمال الشَّهادة في الحرب والوفاةِ في السَّفر، فكان مقتضى الظَّاهرِ التَّعبير بـ (إِنْ) المفيدة الشَّكَّ في وقوع الشَّرْطِ، والنُّكْتَةُ في العدولِ عن (إِنْ) إلى (إِذَا) التَّفاؤُلُ بالسَّلامَةِ؛ زوالًا لِلْخَوْفِ بالنَّصرِ في القتالِ، ورجوعًا إلى الأوطانِ بالإقامةِ فيها.

أَثَرُ تَعَدُّدِ دِلَالَاتِ «الْإِقَامَةِ» فِي وَفْرَةِ الْمَعَانِي:

وُجُوبُ إِتْمَامِ الصَّلَاةِ وَإِظْهَارِهَا وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَيْهَا وَالْحِفَاظِ عَلَى أَفْعَالِهَا

الفعل ﴿فَأَقِيمُواْ﴾ من قولِ اللّٰه تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ مشتقٌّ مِنَ الإقامةِ، وهي الإتيانُ بالشَّيءِ قائمًا، أي: تامًّا، وهذا المعنَى سيقَ له اللَّفظ المذكورُ على وجهِ التَّمثِيل[2]، كقول اللّٰه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الرحمن: 9].

ويحتمِلُ أن يكون مأخوذًا مِنَ التَّقويم، وهو التَّعديل، مِن قولهم:

---

(1) ابن أبي الأصبع، تحرير التَّحبير، ص: 175.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/189.

قوَّمتُ العودَ، أي: عدَّلْتُه، وإقامة الصَّلاة بِهَذا المعنى يُرادُ بها: المحافظةُ على أركانها وشروطها ومستحبَّاتها[1]، ومؤدَّى هذا المعنى قريبٌ مِنَ الَّذي قبلَهُ، وهو الإتيانُ بالشَّيءِ تامًّا.

ويحتمِلُ أيضًا أن يكون ﴿فَأَقِيمُواْ﴾ مشتقًّا مِنَ الإقامة بمعنى: الدَّوام[2]، يُقال: أقامَ الشَّيءَ؛ إذا داومَ عليه.

ويحتمِلُ كذلك أن يكون مِنَ الإقامةِ بمعنى: الإظهار، مِن قولهم: أُقِيمتِ السُّوق[3]، فمعنى إقامة الصَّلاة على هذا: إظهارُها، ومن أبيَنِ أوجُهِ إظهارِها: أداؤُها جماعةً في مساجد المسلمين.

وهذه المعاني مع اختلافِهَا حقٌّ؛ لعدمِ التَّعارُضِ بينهَا، فيكون الأمرُ بإقامةِ الصَّلاةِ: أمرًا بالإتيان بها تامَّةً، ومن صُوَرِ إتمامها: المحافظةُ على أركانها وشروطها وواجباتها ومستحبَّاتها، وأمرًا بالمداومَةِ عَلَيْهَا وإظهارها.

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قوله ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

قَـرْنُ الأَحْـكَـامِ بِعِلَلِهَا يُقَوِّي عَلَى الامْتِثَالِ

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه تعليلًا[4] على جهة الاستئنافِ؛ فإنَّ تَكرارَ ذكرِ الصَّلاةِ بذِكْرِ إتمامِهَا ثمَّ الأمرِ بإقامتها، وبينَهما الأمرُ بذِكْرِ اللّهِ تعالى، ومن جملة ذلك: الصَّلاة، ومجموعُ ذلك يُثير في نفس المتلقِّي سؤالًا، وهو: لِمَ وقع التَّنبيهُ على الصَّلاةِ بأوجهٍ متباينَةٍ، والأمرُ بها في الأمن والخوف والسَّعة والضِّيق سفرًا وحضرًا[5]؟ فجاء الجوابُ تعليلًا: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾.

---

(1) التَّبراويّ، حاشية على الأربعين النَّوويَّة، ص: 37.
(2) الهرويّ، الغريبين: (قوم).
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/85.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/189.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/385.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ:

تفخيمُ شأنِ الصَّلاةِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ إظهارٌ في موضِع الإضمار؛ إذ إنَّ مقتضى الظَّاهرِ: (إنَّها كانت...)؛ وذلك لتقدُّمِ ذِكرها في قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾، ونُكتَةُ ذلك: الإيماءُ إلى تفخيم شأن الصَّلاة والإشعارُ بعظيمِ قدرِهَا[1]، والتَّذكير بكريم آثارها وجليل بركتها.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾:

التَّفنُّنُ في بيانِ عَظَمَةِ قَدْرِ الصَّلاةِ

أُكِّد قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ بخمسةِ مؤكِّدَاتٍ[2]:

أحدها: (إنَّ)؛ فإنَّها تقوِّي النِّسْبَةَ في الجُمَلِ الاسميَّةِ، وهو المعبَّر عنه بإفادتها التَّوكيد.

ثانيهَا: اسميَّةُ الجملةِ، فإنَّها دالَّةٌ على الثُّبوتِ، ومُفيدَةٌ الدَّوامَ بقرينَةِ ذِكْرِهَا في مقامِ التَّشريعِ.

ثالثُها: ذِكْرُ ﴿كَانَتۡ﴾ في جملة الخبرِ، فإنَّها دالَّةٌ على الدَّوام والاستمرار في المُضِيِّ والاستقبالِ.

رابعُها: التَّعبير عن فَرْضيَّةِ الصَّلاةِ بكونِهَا كِتَابًا، وهو من بابِ الوصف بالمَصْدرِ، فإنَّ لفظ (الكتاب) مصدرٌ للفعل (كَتَبَ)، والوصفُ بالمصدَرِ فيه زيادَةُ توكيدٍ.

خامسُهَا: الإيماءُ إلى حتميَّةِ إقامة الصَّلاةِ بِحَرْفِ (عَلَى)، فإنَّه دالٌّ على الوجوبِ والإلزام.

ومجموعُ هذه التَّأكيدَاتِ يدلُّ على الاهتمام بشأنِ الصَّلاةِ وتعظيمِ قدرِهَا ورفعةِ منزِلَتِهَا.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/385.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1835.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الْعُرْفُ الشَّرْعِيُّ مِنْ مُعَيِّنَاتِ الْمُرَادِ بِالتَّرَاكِيبِ

اللَّامُ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ، والمراد: الصَّلواتُ الخمسُ، وذلك أنَّ هذا التَّركيبَ (إقامة الصَّلاةِ) يُستعمَلُ في خطاب الشَّرْعِ بالصَّلوات الخمسِ، المأمور بأدائهنَّ على وجه الائتساء بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نيَّة وكيْفيَّة، أو إخلاصًا واتِّباعًا، أو أداء وإبراء

ويحتَمِلُ أن تكون لِلْعَهدِ الحضُوريِّ، والمرادُ: فأقيمُوا الصَّلاةَ الَّتي دخل وقتُها حينئذٍ[1].

وهما وَجْهَانِ مختلفانِ ظاهرًا، متَّفقانِ مآلًا، وذلك أنَّ الثَّاني باعتبارِ تجدُّدِ وقتِ كُلِّ صلاةٍ راجعٌ إلى الأوَّلِ، وفردٌ مِنْ أفرادِهِ.

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ بِالتَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾:

وُجُوبُ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَاةِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ

وردَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ في ختامِ الآيةِ الكريمة تذييلًا، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ، وعدم توَقُّفِهِ على ما قبلَهُ في فهم المرادِ مِنْهُ.

والغرضُ مِن إيرادِ هذا التَّذييل: تعليلُ وجُوب المحافظةِ على الصَّلاةِ، ولو في أوقَاتِ الخَوف[2].

الفُروقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الْقُعُودُ وَالْجُلُوسُ:

ذهب جماعة مِن علماء العربيَّة إلى أنَّ القعودَ والجلوس بمعنًى واحدٍ[3]، ومال آخرون إلى التَّفريقِ بينَهُمَا، فمن أشهر الفروق

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/228.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/313.
(3) ابن سيده، المحكم: (جلس).

المذكورةِ: أنَّ الجلوسَ يكون من اضْطِجَاعٍ، والقعودَ يكون من قيام[1]، ولذا ورد في حديث أبي بَكرةَ رضي الله عنه أنَّه قال عَنِ النَّبيِّ ﷺ: "وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ"[2]، ويقال: قامَ، فقعدَ.

وهذا التَّفريقُ على شهرتِهِ فيه نَظَرٌ بَيِّنٌ[3]: فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ؛ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ"[4]، وفي حديثِ جبريلَ المشهورِ عَن عُمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه أنَّه قال: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ..."[6]، فإنَّ الجلوسَ ههنا ليس عَنِ اضطِجاعٍ قطعًا، ووردَ في حديث القبرِ قولُ النَّبيِّ ﷺ: "يَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِهِ"[7]، وهذا لَيْسَ عن قيامٍ جزمًا.

وثَمَّةَ أقوالٌ أخرَى لا حاجةَ إلى سَرْدِهَا في وجه التَّفرقَة بينَ الكَلِمَتَيْنِ، أظهرُهَا: أنَّ القعودَ: يكونُ لِمَا فيه لُبْثٌ وإقامةٌ ما، بخلافِ الجلوس؛ فيَقِلُّ زَمَنُهُ بالنِّسبةِ لِلْقعودِ، ومِنْهُ قيل: قواعدُ البيتِ، ولا يقال: جوالسُهُ[8]، وسُمِّيت الجنَّةُ: مقعد صدقٍ، دون مجلس صدقٍ؛ لأنَّ أهلها خالدُون فيها[9].

أمَّا الجُلُوس؛ فتصريفاتُه دالَّةٌ على عدَمِ اللُّبْثِ طويلًا، ومِنْهُ قول الله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ [المجادلة: 11].

(1) ابن فارس، الصَّاحبي، ص: 60، والفيوميّ، المصباح المنير: (جلس)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قعد).
(2) البخاريّ، الحديث رقم: (5976).
(3) توجيهُ هذا القول: لاشين، صفاء الكلمة، ص: 72 - 73.
(4) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (714).
(6) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (8).
(7) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2870).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قعد)، والدوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنّي، ص: 136 - 137.
(9) الشَّايع، الفروق اللُّغوية وأثرها في تفسير القرآن، ص: 288 - 289.

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾ [النساء: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا عُرِفَ أنَّ آيات الجهادِ في هذه السُّورةِ مُعْلِمَةٌ بالحذرِ خوفَ الضَّرر، مرشِدَةٌ إلى إتقانِ المكايِدِ للتَّخلُّص مِنَ الخطرِ، وكان ذلك مَظِنَّةَ المبالغَةِ، وهو مَدعاةٌ للتَّواني في شأنِ الجهادِ، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾؛ منبِّهًا على الجدِّ فيه، حاثًّا عَلَيْه، وأنَّه لم يترك في الصَّلاةِ - وهي أعظم أركان الدِّين العمليَّةِ - فضلًا عَنْ غيرها ما يَشْغَلُ عنهُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَهِنُواْ﴾: الواوُ والهاءُ والنُّونُ: كلمة تدلّ على الضّعف[2]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ [لقمان: 14]، جَهْدًا على جَهْدٍ، أي: ضَعُفَت بحملها إيَّاه مرَّةً بعد مرَّةٍ[3].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾، أي: ولا تَضْعُفُوا[4].

2) ﴿ٱبۡتِغَآءِ﴾: الباءُ والغَيْنُ والياءُ: أصلان، أحدهما: طلب الشَّيءِ، والآخر: جنس مِنَ الفسادِ، ومِنَ الأوَّلِ: قولُهم: بَغَيْتُ الشَّيء أبغيه، أي: إذا طَلَبْتُهُ[5].

والابتغاءُ: افتعالٌ مِنَ البَغْي، وهذه الصِّيغَةُ دالَّةٌ ههنا على الاجتهاد[6]، فقولُ اللّهِ سُبۡحَانَهُ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾، أي: في الاجتهادِ في طلَبِهم[7].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/385 - 386.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وهن).
(3) الهرويّ، الغريبين: (وهن).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 135.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).
(6) الحملاويّ، شذا العرف، ص: 32.
(7) الرَّاغب، المفردات: (بغي).

3) ﴿تَأْلَمُونَ﴾: الهمزة واللَّامُ والميمُ: أصل واحد، وهو الوَجَعُ[1]، ومِنْهُ الألَم، وهو الوجع[2]، أو الوجعُ الشَّديد[3]، والألم أبلغ من الوجع وأشقُّ مِنْ أشَدِّه[4].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾، أي: يَجدونَ ألم الْجراحِ وَوَجَعها مِثْلَ مَا تَجِدُونَ[5].

4) ﴿وَتَرْجُونَ﴾: الرَّاءُ والجيم والحرفُ المعتلُّ: أصلان متباينان يدلُّ أحدهما: على الأمَلِ، والآخر: على ناحيةِ الشَّيءِ[6]، ومِنَ الأوَّلِ: الرَّجاءُ؛ وهو ظَنٌّ يَقْتَضِي حصولَ ما فيهِ مَسَرَّةٌ[7].

وقد يُستعمَلُ الرَّجاء بمعنى: الخوف؛ إذا سَبَقَهُ نفيٌ[8]، بالنَّظرِ إلى لازِمِه، فإنَّ الرَّاجيَ قد يخافُ عدمَ حصولِ ما يُؤمِّلُه، ومِنْهُ قول اللّه ﷻ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافونَ للّه تعالى عَظَمَةً[9].

والرَّجاءُ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ بمعنى: الأملِ، والمعنى: وَتَأْمَلُون مِن اللّه مَا لَا يَأْمَلُونَ[10].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولا تَضْعُفُوا، ولا تفتروا في طلب عدوِّكم مِنَ الكفَّار، إن تكونوا تتألَّمون مِمَّا ينالُكم مِنَ الجِراح في الدُّنيا مِنْهُم، فإنَّهم يتألَّمون، كما تتألَّمون، وترجون مِنَ اللّهِ سبحانه الأجرَ وَالثَّوابَ على ما ينالكُم مِنْهُمْ، ما لا يرجون هُمْ على ما ينالُهم مِنْكُمْ، فأَوْلَى بِكُم وأَحْرَى أن تصبِروا على حَرْبِهم وقِتَالهم مِنْهُمْ على حَرْبِكُم وقتالكم، وكان اللّه ﷻ عَلِيمًا بجميع أحوالِكم، حكيمًا في تدبيره وأَمْرِهِ وشرعِهِ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ألم).
(2) الجوهريّ، الصحاح: (ألم).
(3) الرَّاغب، المفردات: (ألم).
(4) عياض، مشارق الأنوار: (ألم).
(5) ابن عُزَيز، نزهة القلوب، ص: 506.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجى).
(7) الرَّاغب، المفردات: (رجا).
(8) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/286، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رجا).
(9) الفرَّاء، معاني القرآن: 3/188.
(10) السّمعانِّي، تفسير القرآن: 1/475.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 9/170 — 171، وابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن: 1/403، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 199، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 95.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ نهيهم عن الوهن وليس بأيديهم دفعه:

متعاطي السّبب والمتُشَبّه بالواهن في معاملته الأعداء كلاهما مقصود بالنّهي

فقد نهوا عن وهن القلب، وهو انهيار العزيمة وحلول الفتور، وإن كان الوهن البدنيُّ حاصلًا من إعياء وشدّة أعباء ورهق في الأعضاء، فالمراد من النَّهي توريته بغيره من الشِّدَّة في الطّلب وقوَّة العدوِّ في الملاحقة والإبلاغ في التَّشريد بهم من خلفهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأنفال: 57].

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قوله﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ﴾ عَمَّا قَبلَهَا:

قَرْنُ الحُكْمِ بِعِلَّتِهِ مُحَرِّضٌ عَلَى الامْتِثَالِ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ عَنِ الجملةِ قبلَهَا؛ لوقوعِه تعليلًا لهَا[1]، فقولُ اللّه سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾، وكيفَ لا نَهِنُ، وقد يصيبُنا جرَّاء السَّفر والقتال تَعَبٌ وجراحٌ؟ فجاء الجوابُ على طريقةِ الاِسْتِئْنَاف البيانيِّ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾، فعلَّل النَّهيَ السَّابق، وفِيه تشجيعٌ لَهُم؛ لأنَّ الَّذي أصابهم مِنَ الآلام والجِراح ليس مختصًّا بِهِم، بَلْ هُو مشترك بَيْنَهُم وبينَ أَهْلِ الكُفْر[2].

دِلَالَةُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾:

تَهْوِينُ الأَعْدَاءِ فِي النُّفُوسِ مُحَفِّزٌ لِأَهْلِ الإِيمَانِ عَلَى الْجِهَادِ

أسلوبُ النَّهيِ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ جارٍ على أصلِه من الدِّلَالَةِ على الإلزام بالتَّرك، ويُضافُ إلى ذلك: إرادَةُ التَّشجيعِ على قِتال الأعداء، وتهوينُ الأعداءِ في نفوس المُؤمنين، وما شُرِعَت صلاةُ الخوفِ على صفتِهَا المذكورةِ إلَّا لتحقيق نفيِ الوهنِ في الجهاد[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/386، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 3/229.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/133.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/189.

سِرُّ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾:

حَـقَـارَةُ شَـأْنِ الْكُفَّارِ

الإضافةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ يُرادُ به تحقيرُ المضافِ إِلَيْهِ ﴿ٱلۡقَوۡمِۖ﴾[1]، وهذا المعنَى أنسبُ لغرضِ النَّهي عَنِ الوهَنِ في طلبهم وقتالِهم، وأوفَقُ لمقام تشجيعِ أهل الإيمان؛ إذْ كانَ شأنُ الكُفَّارِ الَّذين يقاتلونَهم حقيرًا.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡقَوۡمِۖ﴾:

وُجُــوبُ جِـهَـادِ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ

اللَّام في ﴿ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ لِلْعَهْدِ العلمِيِّ، والمرادُ: قومٌ مَخْصُوصُونَ، وهُمُ الكُفَّار المحاربُونَ، بقرينَةِ سياق الآيةِ ضِمْنَ آيات الجهادِ، وبقرينَةِ ما بَعْدَهُ من تتمَّةِ هذه الآيةِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿إِن﴾ فِي جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِالتَّأْكِيدِ فِي جَانِبِ الْكُفَّارِ:

الـتَّــفَــاؤُلُ فِي مَوَاطِنِ الْخَوْفِ تربية قُرْآنِيَّةٌ

عُبِّر في جانب أهل الإيمان بحرفِ الشَّرط ﴿إِن﴾، فقال سبحانه: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ﴾، وهي في الأصلِ موضوعةٌ للشَّكِّ في وقوعِ مدخولِهَا، وذلك أنَّ إصابةَ المؤمن بالجراح في القتالِ غيرُ متحقِّقٍ، فقد يسلَمُ، فلا يُصاب بشيءٍ، وإن كان النَّظَرُ إلى مجموعِ المؤمنينَ، فتصوُّرُ عدمِ إصابَةِ أحدٍ قد تكون ممتنعةً، فجاء التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ تفاؤُلًا بسلامَتِهم، أو بيانًا لقلَّةِ ما يُصيبُهم مِنَ الآلامِ في جانبِ الأحوال الَّتي يسلَمُونَ فيها، كما ذَكَرَ أهلُ العلم، نظيرَ ذلك في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾[2] [الأعراف: 131].

عَـدَمُ رَجَـاءِ مَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى يُضَاعِفُ الْآلَامَ

وأُكِّد ذلكَ في جانب الكُفَّار، فقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ﴾؛ تحقيقًا لِتَمَحُّضِ أَلَمِهم وشدَّةِ وَقْعِه عليهم؛ إذْ لَيْسَ عندَهُم من رجاءِ مَا عند اللّه تعالى ما يُخفِّفُ تلك الآلامَ، ويَحمِلُهم على تحمُّلها.

(1) البنَّاني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص: 89.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/64 - 65.

وجملة ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ﴾ سِيقَت مسَاقَ التَّعليل لِلنَّهي عَنِ الوهنِ لأجل الألَمِ[1].

بَلَاغَةُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ ﴿يَأۡلَمُونَ﴾:

وُجُوبُ صَبْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْحَقِّ

ذُكر المسندُ ﴿يَأۡلَمُونَ﴾، وكان يُمكن أَن يُقَالَ: (فإنَّهم كذلك) - مثلًا - لكن أُعيدَ ذكرُهُ لَمَلْحَظٍ بلاغيٍّ لا يَتأتَّى الاستغناء عَنْهُ، وهو إرادَةُ التَّقرير والإيضاحِ[2]، وأنَّ الآلامَ الَّتي أصابت المُسْلِمين قَد أصابَ الكُفَّارَ مثلَهَا، فإذا صَبَرُوا وهُم علَى الباطِلِ فأحرى بالمُسْلِمين أن يَصْبِرُوا، وهُم عَلَى الحقِّ.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله):

الرَّجَاءُ يَعْظُمُ بِحَسَبِ عَظَمَةِ الْمَرْجُوِّ مِنْهُ

اختِير الاسم الأحسن (اللّه) في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾؛ لِمَا في هذا الاسم الكريم مِن دِلالتِهِ على صِفات الجلال والجمال والكمال؛ إِذْ جميعُ الأسماء الحسنى والصِّفات العُلا ترجع إليه[3]، فَهُمْ يَرْجُونَ مِنَ الَّذي لَه تِلْكَ العظَمَة والجلال، فرجَاؤُهُم به عظيمٌ؛ إِذْ قَدْرُ الرَّجاء يعظُمُ بحسَبِ عَظَمَةِ المَرْجُوِّ مِنْهُ.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْفِعْلِ ﴿وَتَرۡجُونَ﴾:

حَذْفُ الْمَفْعولِ مُشْعِرٌ هنا بِالْعُمُومِ

حُذف متعلَّقُ الفعل ﴿وَتَرۡجُونَ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾؛ لإفادَةِ عُموم ما يُرْجَى منهُ سُبحانَهُ؛ لأنَّ حذف المتعلَّق مؤذِنٌ بالعموم والشُّمولِ، إلَّا أنَّ هذا العمومَ عُرْفيٌّ مناسبٌ لِلْمَقام؛ لأنَّ ممَّا يرجوه العبدُ من ربِّه سُبحانه غفرانَ ذنوب وَالدَيْه، وصلاحَ ذرِّيَّتِه، ونحوَ ذلك، وهذه غيرُ مرادَةٍ ههُنَا؛ لعدم ملاءمَةِ المقامِ لهَا، وإنَّما المرادُ عُمومُ ما يُرجَى، ويُطْلب مِنْهُ ﷻ من

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 3/133.
(2) البنَّاني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص: 256.
(3) أشار إليْهِ البقاعيُّ في نظم الدّرر: 5/386.

النَّصر والظَّفر على الأعداء، ورفعةِ الدِّين وقُوَّتِه، والأجرِ والثَّواب في الآخرةِ، ونحوِ ذلك.

بَلَاغَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾:

وَعْدُ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَتَيْئِيسُهُ الْكُفَّارَ مِنْهُ

بَيْنَ ﴿وَتَرْجُونَ﴾ و﴿لَا يَرْجُونَ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ طباقٌ، وهو طباقُ سَلْبٍ؛ لكَوْنِ المعنيَيْنِ المتضادَّين من لفظٍ واحدٍ، أُثْبِتَ أحدهما ونُفِيَ الآخَرُ.

ومجيءُ أحدِ لفظَي الرَّجاءِ مثبتًا في حقِّ المؤمنين، والآخرِ منفيًّا في حقِّ الكافرينَ "يكونُ وَعْدًا لِلْمُسْلمين بأنَّ اللهَ ناصرُهم، وبشارة بأنَّ المشركين لا يرجون لأنفسِهم نصرًا، وأنَّهم آيسون مِنْهُ بما قذف اللهُ في قلوبهم مِنَ الرُّعب، وهذا ممَّا يَفُتُّ في ساعدهم"[1]، فللطِّباقِ أثرٌ عظيمٌ في الحثِّ على الثَّباتِ ورجاءِ النَّصْرِ والظَّفَرِ[2].

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ:

جَمْعُ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله) لِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ وَالْجَمَالِ

أُظْهِر الاسمُ الأحسن (الله) في قَوْلِه سُبحَانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وكان مقتضى الظَّاهرِ إضماره؛ لتقدُّمِ ذكرِهِ في قوله ﷻ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، والنُّكْتَةُ في ذلكَ: إدخالُ المهابَةِ بِذِكْرِ الاسْمِ الجليلِ المتضمِّنِ لصفاتِ الجلالِ والجمال، ولِلْإِشْعَارِ بعلَّةِ الحُكْمِ؛ لأنَّ الألوهيَّةَ مَنْشَأٌ لاتِّصافه سبحانَهُ بصفاتِ الكمالِ.

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ بِالتَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

تَقْرِيرُ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ حِكْمَتِهِ وَدَوَامِهِمَا

قولُ اللهِ سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تذييلٌ جارٍ مجرى المثَلِ، وذلك لاستقلالِهِ بالإفادَةِ من غير أن يتوقَّفَ فَهْمُ معناهُ على ما قبلَهُ، وفائدتُهُ: تقريرُ عِلْمِ اللهِ تعالى وحكمتِه.

و﴿وَكَانَ﴾ في الآيةِ جيءَ بها للدِّلالَةِ على تحقُّقِ عِلْمِه وحكمتِهِ ودوامِهِمَا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/190.

(2) البنَّاني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص: 474.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْوَهَنُ وَالضَّعْفُ:

الفرقُ بينَهُما مِن وجوه:

أحدها: أنَّ الْوَهَنَ أخصُّ مِنَ الضَّعْفِ، من جِهَة: أنَّ الوَهَنَ أشَدُّ الضَّعْفِ[1].

الثَّاني[2]: أنَّ الضَّعفَ ضدُّ القُوَّةِ، وهُوَ ذاتِيٌّ جُبِلَ الضَّعِيفُ عليهِ، يقال: خلقَ اللّهُ تعالى فلانًا ضعيفًا، أي: أنَّه طُبِعَ على الضَّعْفِ، كما قال اللّه سبحانه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: 28]، بخلاف الوَهَنِ؛ فهو أن يفعلَ المَرْءُ فِعْلَ الضُّعَفاءِ، ومنه قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: 139]؛ أي: لا تفعلوا فعلَ الضُّعفاءِ، والحالُ أنَّكم أقوياءُ.

فالضَّعِيفُ: فِيهِ ضَعْفٌ مِن أصل الجِبِلَّةِ، والواهِنُ: مَن فَعَلَ فِعْلَ الضُّعفاءِ؛ لنقصٍ في إيمانِهِ أو عزيمَتِهِ.

وفرَّق جماعةٌ مِنْ أهلِ العلم بينَهما: بأنَّ الوهَنَ انكسارُ الجسَدِ ونحوِهِ، بخلاف الضَّعْفِ؛ فهو نقصانُ القوَّةِ[3]، والأوَّلُ أشهرُ.

الْأَلَمُ وَالْوَجَعُ:

بين اللَّفظتين عمومٌ وخصوصٌ مطلَقٌ: وذلك أنَّ الألَمَ أخصُّ مِنَ الوجعِ، فالألَمُ هو الوَجَعُ الشَّديدُ[4].

---

(1) النَّحَّاس، معاني القرآن: 1/491.

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 115، والرَّاغب، المفردات: (وهن)، وزيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 680 - 683.

(3) الجصَّاص، أحكام القرآن: 2/326.

(4) الرَّاغب، المفردات: (ألم).

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مُناسبة هذه الآية لما قبلها أَوْجُهٌ(1):

أَوَّلُهَا: أنَّ اللّه ﷻ لَمَّا بيَّن أحوال المنافقين على سبيل الاستقصاء، ثُمَّ اتَّصل بذلك أمر القِتال، وذِكر ما يتعلَّق به من أحكامٍ شرعيَّةٍ، بحكم قتل المسلم خطأً على ظنِّه كافرًا، وبيانِ صلاة السَّفر والخوفِ؛ رجعَ الكَلام بعدُ إلى بيانِ أحوال المنافقين، وبيانِ أنَّهم كانوا يحاولُون حملَ النَّبيِّ ﷺ على أن يحكمَ بالباطلِ ويترك الحكمَ الحقَّ، فأطلعَ اللّه ﷻ رسولَه ﷺ على ذلك، وأمرَهُ ألَّا يلتفتَ إِلَيْهِمْ، ولا يقبلَ مقالتَهم في ذا البابِ.

ثانيهَا: أنَّ اللّه سبحانه لَمَّا بيَّنَ الأحكامَ الكثيرة في هذه السُّورة؛ بيَّنَ أنَّ ذلك شرعٌ مُنْزَلٌ من اللّه تعالى، وأنْ ليسَ للنَّبيِّ ﷺ أن يَحِيدَ عن شيءٍ مِن تلك الأحكام طلبًا لرضَا أحدٍ.

والقرآن الكريم وما يراه رسول اللّه ﷺ هما الحكمان المحكِّمان على كلِّ أحد، وأنَّ أحدًا مهما بلغ كفره وضلاله، لا ظلم عليه في شريعة اللّه، وأنَّ النَّبيَّ صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم معصوم عن كلِّ ما ينافي الخُلق العظيم الَّذي مدحه اللّه به، وجبله عليه.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لِتَحۡكُمَ﴾: الحاءُ والكافُ والميم: تدلُّ اشتقاقاتُها على المَنْعِ(2)، وقيَّده الرَّاغبُ بكونِهِ مَنْعًا للإصلاح(3).

ومِن هذا الباب قولُ جريرٍ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ *** إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا(4)

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/211.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(3) الرَّاغب، المفردات: (حكم).
(4) ديوان جرير: (ص: 47).

فإنَّ معناه: امْنَعُوهُم مِنَ التَّعَرُّض لي[1].

ومِنْهُ حَكَمَةُ الدَّابَّة؛ لأنَّها تَمْنَعُهَا من مخالفة الرَّاكب[2].

والحُكم في قول الله تعالى: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى: القضاء[3]، وسُمِّي القضاءُ حكمًا؛ لأنَّ فِيه منع الظَّالِم من الظُّلْم[4].

2) ﴿لِّلۡخَآئِنِينَ﴾: الخاء والواو والنُّون: تدُور تصاريفُهَا على التَّنقُّص[5]، وقيَّدَهُ بعض أهل العلم بأنَّه نقصٌ خطيرٌ في خِفيَة أو لُطْفٍ[6].

والخيانَةُ: أَن يُؤْتَمَنَ المَرْءُ، فَلَا يَنْصَح[7]، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّه ينقص ما اؤْتُمِنَ عَلَيْهِ فلا يُؤَدِّيه كما كان عَلَيْهِ[8]، فالخيانَةُ: نَقْصُ الوفاء[9].

والخائِنُون في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ هم تاركُو الأمَانَة[10].

3) ﴿خَصِيمٗا﴾: الخاء والصَّادُ والميم: أصلان، أحدهما: المنازعة، والثاني: جانب وعاء[11]، والخصيمُ: بمعنى: المخاصِم، كجَلِيسٍ بمعنى: المجالِس، والعَشِير بمعنى: المُعاشِر[12].

والخَصِيم في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾، معناه: لا تكن لَهُمْ مُعِينًا، وعنهم مُدَافِعًا[13].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّا أنزلنا إليك - أيُّها الرَّسولُ الكريم - القرآنَ مشتملًا على الحقِّ؛ لِتَقْضِيَ بين النَّاس، فتفصِلَ بينهم بما أوحى الله تعالى إِلَيْكَ، وبصَّرك به، فلا تخاصِم عمَّنْ عرفتَ

(1) القاسم بن سلاَّم، غريب الحديث: (حكم).
(2) ابن الأثير، النِّهاية: (حكم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/175، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/466.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حكم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خون).
(7) ابن سِيده، المخصّص: 1/286.
(8) عياض، مشارق الأنوار: (خون).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خون).
(10) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 282.
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خصم).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (خصم).
(13) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/284.

خيانتَهُ، من مُدَّعٍ ما ليس له، أو منكرٍ حقًّا عليه، ولا تدافِعْ عَنْهُمْ بما أيَّدوه لك مِنَ القولِ المُخالف لِلْوَاقع[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِأُسْلُوبِ الْعَظَمَةِ:

عَظَمَةُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَةُ كِتَابِهِ

أُورِدَ المسنَدُ إِلَيْهِ ضميرًا دالًّا على العظمة (نَا) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بيانًا لعظمةِ المُنْزِلِ جَلَّ جَلَالُهُ عظمَةً تتقاصرُ دونَها كلُّ عظمةٍ[2]، وإيماءً إلى عظمَةِ المُنْزَلِ، وهو القرآن الكريم، وفيه إشعارٌ بجلالة ما يُذكَرُ بعدَهُ وأهميَّته.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

مِنْ صُوَرِ تَشْرِيفِ النَّبِيِّ ﷺ إِنْزَالُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لإفادَةِ القَصرِ والاختصاصِ، أي: أنزلْنَا الكتابَ إِلَيْكَ خاصَّةً[3]، وفيهِ معنَى التَّشريفِ للنَّبيِّ ﷺ حيث أنزلَ اللّٰه العظيمُ هذا الكتابَ العظيمَ إِلَيْهِ وحدَهُ؛ ليكون مبلِّغًا لَهُ عَنِ اللّٰه تعالى.

وفيه تنويه بما جعله أهلًا لذلك، من اختصاص اللّٰه إيَّاه بالعصمة والكمال، وفيه: أنَّ هذا الكلام توطئة وتهيئة لإنزال العالمين على حكمه، ويتبيَّن المراد من (حكمه المذكور) أنَّه (سُنَّته الشَّريفة) بالجمع بين الآيتين: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ﴾، مع ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، فينتج من ذلك أنَّ بيانه حُكم، وبيانه السُّنَّة حكم.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ وَ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾:

يُعَدَّى فعلُ إنزالِ القرآنِ الكريم؛ إذا كان الخطابُ لرَسُول اللّٰه

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/175 - 176، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 199، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 95.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/387.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/387.

بَلَاغَةُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ فِي اخْتِيَارِ الْحُرُوفِ لِإِفَادَةِ دَقَائِقِ الْمَعَانِي

ﷺ بـ (إلى) تارةً، وبـ (على) تارةً أخرى: فالأوَّلُ كآية النِّساء: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، والآخرُ: كقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٤١﴾ [الزمر: 41]، وفي الفرقِ بينَهُما وجهان:

أحدهما: أنَّه حيثُ قُصِدَ تعميمُهُ وتبليغُهُ وانتهاؤُهُ إلى عموم الأمَّةِ؛ قال: ﴿إِلَيْكَ﴾، وحيث قُصد تشريفُ النَّبيِّ ﷺ وتخصيصُهُ به؛ قال: ﴿عَلَيْكَ﴾، "وذلك لأنَّ (على) مُشْعِرٌ بالعُلُوِّ، فناسب أوَّلَ مَن جاءَهُ مِنَ العُلُوِّ، وهُوَ النَّبيُّ ﷺ و(إلى) مُشْعِرَةٌ بالنِّهاية، فناسَبَ ما قُصِدَ به هُو وأمَّتُه؛ لأنَّ (إلى) لا تختَصُّ بجهة معيَّنة، ووصوله إلى الأمَّة كذلك لا يختَصُّ بجِهَةٍ مُعَيَّنة"(1).

والآخَرُ: أَنَّ كُلَّ مَوضِع خَاطب اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ ففيه تكليفٌ، وإذا جاء الخطاب بـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾؛ ففيه تخفيفٌ(2).

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي: (الكِتَب):

لَا مُنْتَهَى لِعَظَمَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

اللَّامُ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ من قول الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ لِلْكَمالِ، أي: أنزلنا الكتابَ الكاملَ الجامع لكلِّ خَيرٍ(3).

وفي التَّعبير بـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هَهنا دون (القرآن): إشعارٌ بأنَّه مكتوبٌ مدوَّنٌ مسجَّلٌ، وأنَّهُ باقٍ إلى يوم القيامةِ(4).

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

وَفْرَةُ الدِّلَالَةِ بِتَعَدُّدِ مَعَانِي الْحَرْفِ

الباءُ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ للملابسَةِ والاتِّصال والمعيَّةِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ القرآن الكريم

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 313.
(2) الكرمانيّ، البرهان، ص: 217.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/387.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1839.

"مع الحقِّ، وبالحقِّ، وناطقٌ بالحقِّ، ومشتملٌ عَلَيْهِ، ولا شيءَ في هذا الكتابِ إلَّا ما هو حقٌّ، ولا يخالفه إلَّا ما هو باطل"[1].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

عُمُومُ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ

اللَّامُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ لِاسْتِغْرَاقِ الجِنْسِ، فتشمَلُ جميعَ النَّاسِ؛ لأنَّ دعوةَ النَّبيِّ ﷺ تَعُمُّهُمْ، كما قال اللّه سُبْحَانَهُ: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾:

حَقيقةُ الرُّؤيةِ أن تكون بصريَّةً، وهي في قولِه سبحانه: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ عِرفانيَّةٌ؛ فأُطْلِقَت الرُّؤيةُ على العِرفان اليَقينيِّ؛ لمشابهتِهِ الشَّيءَ المشاهدَ بالبصَرِ[2]، بجامعِ أنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُدْرَكٌ على وجهِ الجزمِ واليقينِ، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ونكتةُ إيرادِ العبارة على وَجْهِ الاسْتِعَارَة: الإيماءُ إلى أنَّ الأصلَ في القضاءِ بين النَّاسِ أن يكُونَ بما يُتَيَقَّنُ، وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ القضاءَ العادِلَ مُفتقِرٌ إلى أمرين: أحدهما: الحقُّ المحكومُ به - وهو هُنا: القرآن الكريمُ - والآخرُ: بصيرةُ القاضِي النَّافذةُ[3].

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾:

جَلَالَةُ الْحُكْمِ الصَّادِرِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ

جاءَ التَّعبير بأسلوب الغَيْبَةِ في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ - إذ الاسم الظَّاهرُ في حكم الغائب - بعد التَّعبير بأسلوب التَّكلُّم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وكان مقتضى الظَّاهرِ: (إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ لتحكم بين النَّاس بما أرَيْنَاكَ)، وفي هذا الالتفاتِ نكات[4]:

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1839.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/211 - 212، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/192.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1839.

(4) البنَّاني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص: 100 - 101.

إحداها: تعظيمُ الحكم الَّذي يحكم به النَّبيُّ ﷺ إذ إنَّهُ من جهةِ اللهِ العظيمِ المتَّصفِ بصفاتِ الجلال والكمال.

عَدَمُ التَّقدُّمِ بَيْنَ يَدَيْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى

ثانيهَا: إيماءٌ إلى وجوب انتظار الوحي؛ لأنَّ مِن شأنِ الخصومِ إخفاءَ الحقوقِ وجحدَهَا، فيقضي القاضي بظاهرِ الحالِ، وقد يكونُ حكمُهُ خطأً في واقع الأمر - وإن كان معذورًا شرعًا - فعصَمَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ عن الزَّلَلِ في مثل هذا بقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾.

عَدَمُ الاغْتِرَارِ بِظَوَاهِرِ الْحَالِ وَاللُّجوءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى عِنْدَ غُمُوضِهِ

ثَالثُها: إرشاد الأمَّةِ إلى الصَّبْرِ والتَّثبُّتِ وعدم الاغترار بظاهر الحالِ، إلَّا عند التّعذُّرِ؛ فالحكم بالظَّاهرِ مُتعيِّنٌ.

رابعُهَا: تعليمُ الأمَّةِ اللُّجوءَ إلى اللّه سبحانه عند غُمُوضِ الأمرِ، والتَّوكُّل عليه ﷻ إذ هو العليمُ الخبيرُ الَّذي لا تخفى عليه خافيةٌ.

دِلَالَةُ الْخِطَابِ وَالنَّهْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُن﴾:

صِحَّةُ تَوْجِيهِ النَّهْيِ لِمَنْ لَا تُتَصَوَّرُ مِنْهُ الْمُخَالَفَةُ

الخطابُ ههنا للنَّبيِّ ﷺ والمرادُ أُمَّتُهُ؛ لأنَّه لا يُتوقَّع مِنْهُ ﷺ خصامٌ عَنِ الخائِنِين(1).

ويحتَمِلُ أن يكون الخطابُ خارجًا عَن أصله في إرادةِ معيَّنٍ؛ لإفادةِ العمومِ، فيكون الخطابُ لكلِّ من يتأتَّى خطابُهُ على سبيلِ البَدَلِيَّةِ، وتكون دلالةُ النَّهي مفرَّعةً على وجهين؛ لأنَّ القول بعُمُومِ الخطاب يُدْخِلُ النَّبيَّ ﷺ فتختلِفُ دِلالةُ النَّهي؛ إذا وُجِّهَ إِلَيْهِ عَن دِلَالتِهِ؛ إذا وُجِّه إلى الأمَّة.

فإذا أُريدَتِ الأمَّةُ؛ فالنَّهيُ باقٍ على أصلِهِ في الدِّلالةِ على الإلزام بالتَّرْك، وقد ينضمُّ إلى ذلك معنى النُّصح والإرشاد.

وإذا أُريدَ النَّبيُّ ﷺ فالنَّهيُ لِلإلهاب والتَّهييج، ويُراد بهمَا: كلُّ كَلامٍ دالٍّ على الحثِّ على الفِعْلِ لِمَنْ لا يُتصوَّر مِنْهُ تركُهُ، وعلى تَرْكِ

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/377، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/193.

الفعلِ لِمَنْ لا يُتصوَّر مِنْهُ فعلهُ، ولكن يَكُونُ صُدُورُ الأمرِ والنَّهي على جهةِ الإلهاب والتَّهييجِ له على الفِعْلِ والتَّرك فحسْبُ(1).

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

التَّناسُبُ السِّيَاقِيُّ أَصْلٌ فِي تَوْجِيهِ عِلَلِ الِاخْتِيَارِ

جاءَت هذه الآيةُ الكريمةُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾، وجاء في سورة الزُّمر قولُ الله سُبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزُّمر: 2]، ووجهُ المغايرةِ بينهما بعدُ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾: أنَّ آية النِّساء تتعلَّق بما كان مِنَ المُسلمين حين سألوا النَّبيَّ ﷺ أن يُبَرِّئَ طُعمةَ بن أُبَيْرِق مِن تُهمة السَّرقة على مَن خاصمَهُ مِن اليهودِ، فلمَّا كان ذلك حكمًا بما رأَوْهُ دونَ ما يعلَمُهُ الله تعالى؛ ناسبَهُ قوله: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾، بخلاف آية الزُّمَرِ؛ فتقدَّمها قول الله ﷻ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [الزّمر: 1]، وهي دالَّةٌ على انفرادِ الله سبحانه بكمال العزَّة والحكمةِ، ولَمَّا كان انفرادُهُ بذلك يستلزِمُ انفرادَهُ بالعبوديَّةِ وعدمِ الشِّرك به؛ ناسبه قولُه بعدُ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْخِيَانَةُ وَالْخِدَاعُ:

الفرقُ بينهما من ثلاثةِ أوجُهٍ:

أحدهَا: أنَّ أصل الخيانة في اللُّغةِ: النَّقْصُ(2)، وأصلَ الخداع: إخفاءُ الشَّيءِ أو الفسادُ(3).

ثانيها: أنَّ الخيانةَ أخصُّ مِنَ الخداعِ مطلقًا؛ لأنَّ الخيانَةَ خداعٌ في مقام الائتمانِ، والخداعُ أَعَمُّ(4).

(1) العلويّ، الطِّراز: 3/93.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خون).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (خدع).
(4) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/143.

ثالثُها: أنَّ الخيانَة صفةُ سوءٍ حيثُما كانت؛ لأنَّها - كما تقدَّم آنفًا - خداعٌ في مقام الائتمان، بخلاف الخداعِ؛ فيكون صفةَ نقصٍ وسوءٍ، ويكون صفةَ كمالٍ، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّساء: 142]، ولم يَرِدْ وصفُ اللّه ﷻ بالخيانَةِ ولو في مقام المقابلَةِ كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: 71]، ولم يقل: خانوا اللّه مِن قبل، فخانَهُمْ؛ لأنَّ الخيانَةَ نقصٌ كيفما كانت، فلا يليقُ وصفُ اللّهِ سُبحانَهُ بها[1].

(1) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/143.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾ [النساء: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـدِّفـاع عـمَّن عُـرِفَـت خيانتُه بمنزلة الذَّنبِ

لَمَّا نهى اللّه رسولَه ﷺ والمؤمنينَ عن الدِّفاعِ عمَّن عُرِفَتْ خيانتُه، والمخاصمةِ من أجلِه؛ بيَّنَ أن أيَّ ميلٍ للخائنين بمنزلةِ الذَّنبِ الَّذي ينبغي الاستغفارُ منه، وأيضًا لَمَّا نهى اللّه تعالى عن إلحاقِ الحَيفِ بالكافرِ لأجلِ كفرِه، أو لإرضاءِ طرفٍ آخرَ ينتسبُ إلى الإسلامِ؛ بيَّنَ أنَّ هذا الفعلَ ممَّا ينبغي أنْ يُستغفرَ اللّه منه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسْتَغْفِرِ﴾: يدورُ معنى (غفرَ) على تغطيةٍ أو سَترٍ يُقصدُ به الحمايةُ وما إليها، والغَفرُ: إلباسُ الشَّيءِ ما يصونُه عنِ الدَّنسِ حمايةً له، وكلُّ شيءٍ سترتَه؛ فقدْ غفرتَه، والاستغفارُ: طلبُ ذلك بالمقالِ والفعالِ، وغفرانُ اللّهِ الذُّنوبَ: تغطيتُها وسترُها، بأنْ يصونَ العبدَ من أنْ يمسَّه العذابُ[1]، ومعنى ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ في الآيةِ: استغفرِ اللّه للمذنبينَ من أمَّتِك والمتخاصمينَ في الباطلِ، لا أن تكونَ ذا جدالٍ عنهُم، أو واستغفرِ اللّه ممَّا هممتَ به، أو أنْ تكونَ صورةُ الخطابِ للرَّسولِ، والمرادُ كلُّ مؤمنٍ يدافعُ عنِ الخائنينَ[2].

2) ﴿غَفُورٗا﴾: من صيغِ مبالغةِ اسمِ الفاعلِ، على زِنةِ (فَعُول)، مأخوذٌ من الفعلِ (يَغفِر)، والغَفُور: هو الكثيرُ السَّترِ للذُّنوبِ وإنْ كَثُرَتْ وعَظُمَتْ بأنْ يصونَ العبدَ مِنْ أنْ يمسَّهُ العذابُ إلَّا الشِّركَ باللّهِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غفر).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/57، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/95.
(3) الراغب، المفردات، الفيومي، المصباح المنير: (غفر).

3) ﴿رَّحِيمًا﴾: صيغةُ مبالغةٍ من الفعل (يرحمُ)، ويمكنُ أن يُطلقَ على غيرِه تعالى، وأصلُ الرَّحمةِ: الرِّقَّةُ وَالعَطْفُ وَالرَّأْفَةُ، يُقَالُ: رَحِمَه يَرْحَمُهُ؛ إِذَا رَقَّ لَهُ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ، وَالرَّحِمُ: عَلاقَةُ القَرَابَةِ، وتراحَمَ القومُ: رَحِمَ بعضُهم بعضًا، والرَّحْمَةُ رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرْحُومِ، وإذا وُصِفَ به البارِي؛ فليسَ يرادُ بهِ إلَّا الإحسانُ المجرَّدُ دونَ الرِّقَّةِ، فالرَّحمةُ من اللّهِ إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميِّينَ رِقَّةٌ وتعطُّفٌ[1]، ومعنى الرَّحيم في الآية: المبالِغُ في رحمته لمِنِ استغفرَه[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وظيفةُ القاضي أنْ يسمعَ من المتخاصِمَين ويقضي بنحوِ ما يسمعُ

استغفرْ للمذنبينَ من أمَّتِكَ والمتخاصمينَ في الباطلِ، لا أنْ تكونَ ذا جدالٍ عنهم، فمحلُّكَ من النَّاسِ أنْ تسمعَ من المتداعيينَ: وتقضي بنحوِ ما تسمع، وتستغفرُ للمذنبِ، أو المعنى: واستغفرِ اللّه ممَّا هممتَ به من القضاءِ ببراءةِ مَنْ ليسَ ببريءٍ لظاهرِ الحالِ؛ لأنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ، يغفِرُ ذنوبَ التَّائبين ويرحمُهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الهمزة والسِّين والتَّاء في قولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾:

حروف الزِّيادة بين معنى السُّؤال ومعنى الطَّلب

قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ تعبيرٌ فريدٌ لم يَرِدْ على هذه الصُّورةِ إلَّا في هذا المَوضعِ منَ القُرآن الكريم، وتدلُّ أحرفُ الزِّيادةِ هنا على سؤالِ المغفرةِ من اللّهِ أو طلبِها، فإذا كان المعنى: واستغفرِ اللّه للمذنبينَ من أمَّتك؛ فتكونُ أحرفُ الزِّيادةِ على معنى سؤالِ المغفرة، وإذا كان المعنى: واستغفرِ اللّه ممَّا هممتَ به، فتكونُ أحرفُ الزِّيادةِ على معنى طلبِ المغفرةِ من اللّهِ، ولمَّا كانَ الهمُّ بالشَّيء ليسَ بذنبٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (رحم).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 5/149.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/95.

حتَّى يستغفرَ منه رسولُ الله؛ لعصمتِه من الذُّنوب والنَّقائص دلَّ على أنَّ طلبَ المغفرةِ هنا لزيادةِ ثوابِه ﷺ ولإرشاده إلى التَّثبُّتِ[1].

دلالة التَّعبيرِ بالاستغفار في قولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾:

عبَّر بالاستغفار دون طلبِ السَّترِ؛ لأنَّ الاستغفار أعمُّ وأشملُ، فإنَّ الاستغفارَ يستلزمُ عدمَ المؤاخذةِ على فعلِ الشَّيءِ، كما أنَّه يشملُ مغفرةَ الذُّنوبِ صغيرِها وكبيرِها، بخلافِ السَّتْرِ الَّذي يدلُّ على تغطيةِ الشَّيءِ.

الاستغفارُ يستلزمُ عدمَ المؤاخذةِ، ويشملُ مغفرةَ الذُّنوبِ كلِّها

بلاغة الوصلِ في قولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾:

عُطفتْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها بالواوِ؛ لكمالِ الاتِّصال بينها وبين قولِه: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾، فجمعَ لمناسبةِ الوصلِ بينَ طلبِ النَّهي وطلبِ الامتثالِ؛ للإيذانِ بأنَّ الذَّنبَ عن الخائنينَ ذنبٌ ينبغي الإقلاعُ عنه والاستغفارُ منه.

الانتصارُ للخائنينَ ذنبٌ ينبغي الاستغفارُ منه

دلالةُ توجيهِ الخطابِ في قولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾:

يُحتَملُ أن يكونَ الخطابُ موجَّهًا إلى الرَّسول ﷺ والمعنى كما تقدَّم من أنَّ المرادَ: واستغفرِ اللّٰه للمذنبينَ من أمَّتك، أو: واستغفرِ اللّٰه ممَّا هممتَ به، ويُحتَملُ أن يكون الخطابُ جاريًا على أسلوب توجيه الخطاب إلى الرَّسول، والمراد بالأمر غيره، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم، وهو استغفار اللّٰه ممَّا اقترفوه[2]، أو أنَّه لم يقصد مخاطبًا معيَّنًا؛ لِيفيدَ العمومَ، وجاء بطريقِ الخطاب؛ ليكونَ أشدَّ تأثيرًا في المخاطبين، والمرادُ: طلبُ الاستغفارِ مِنْ كلِّ مَنْ يذبُّ عن الخائنين، ويدافعُ عنهم للإيذانِ بعِظمِ معصيتِه.

طلبُ الاستغفارِ مِنْ كلِّ مَنْ يذبُّ عن الخائنين؛ للإيذانِ بعِظمِ معصيتِه

مناسبة إسنادِ الاستغفار إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

أُسنِدَ الاستغفارُ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ أن يقولَ هنا:

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/346.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 5/193.

استحضارُ مقامِ الألوهيَّة موجبٌ لاجتنابِ الانتصارِ للخائنين

(واستغفروا ربَّكُم) للإشعار بعظمِ ذنبِ الانتصارِ للخائنينَ والدِّفاعِ عنهم، وأنَّ استحضارَ مقامِ الألوهيَّةِ موجبٌ لاجتنابِه والاستغفارِ منه؛ إنْ وقع.

حسنُ التَّذييل في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

1. تصديرُ الجملة الاسميَّة بـ(إنَّ) يدلُّ على أنَّها في مقامِ التَّعليل لما قبلها، للإرشادِ إلى أنَّ سببَ سؤالِ المغفرةِ أو طلبِها، وسببَ قبولِ الاستغفارِ؛ لأنَّ اللهَ كانَ غفورًا رحيمًا.

تأكيدُ الله تعالى قَبولَ توبةِ المُستغفِرين

2. أكَّدَ سبحانَه اتِّصافَه تعالى بهاتَيْن الصِّفتَيْن بأربعةِ مُؤكِّداتٍ؛ للإشعارِ بأهمِّيَّتها، أوَّلها: (إنَّ) الَّتي تفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ كلِّها، وثانيها: (كانَ) الَّتي تُفيدُ الاستمرارَ المقتضي للتَّأكيدِ، وثالثُها: صِيغةُ المبالغةِ في غفورٍ ورحيمٍ، ورابعُها: الجُملةُ الاسميَّةُ[1].

تعظيمُ معصيةِ الانتصارِ للخائنين

3. أفادت (إنَّ) مع تتابعِ التَّأكيداتِ إقامةَ الواقعِ في معصيةِ الانتصارِ للخائنين مقامَ الإنكار، فكأنَّ الواقعَ فيها في مقامِ المنكرِ؛ لأنْ يغفرَ اللهُ له أو أنْ يرحمَه؛ للإشعارِ بعظَمِ المعصيةِ وهولِها، ليكونَ من إقامةِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الظَّاهر.

التَّلذُّذ بذكر الاسم الجليل تقريبٌ لمغفرة اللهِ ورحمته

4. وضعُ الظَّاهرِ وهو الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهَ﴾ موضعَ المُضمرِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ فلَمْ يقلْ: (إنَّه كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)؛ لتربيةِ المهابةِ، وللتَّلذُّذِ بذكره سبحانَه؛ لأنَّه في مقامِ الاستغفارِ المُقتضي طلبَ المغفرةِ والرَّحمةِ.

5. جاء قولُه تعالى: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لإفادة استمرارِ اتِّصافِ اللهِ تعالى بهذين الوصفين الكريمين الجميلين، وظهورِ آثارِهما بين المستغفرينَ وبين النَّاسِ.

6. عبَّر بصيغتي المبالغة ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ للدَّلالة على كثرة مغفرتِه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1840.

تعالى وكثرةِ رحمتِه، فهو واسعُ المغفرةِ وواسعُ الرَّحمةِ، فإنَّه يغفرُ الذُّنوبَ صغيرَها وكبيرَها، ويرحمُ جميعَ المستغفرين، ورحمتُه سبقت غضبَه، ولم يقلْ: (غافر أو راحم)، بصيغة اسم الفاعلِ؛ لمناسبةِ المقامِ لمعنى المبالغةِ، وللإشعارِ بعظمِ ذنب المناصرين للخائنين.

اللـه تعالى يغفرُ الذُّنوبَ جميعها، ويرحمُ جميعَ المستغفرين

7. تضمَّنت جملة التَّذييل الحثَّ على أن يطلبَ النَّاسُ مغفرةَ اللّهِ ورحمَتَه، لمجيئِها على معنى التَّأكيدِ المُقتضي التَّنبُّه إلى مضمونِ الجملةِ.

8. لمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

المتشابه اللَّفظي:

كلُّ ما ورد في القرآن الكريم عند اجتماعِ الوصفينِ (غَفُور ورَحِيم) هو بتقديمِ وصفِ المغفرةِ على وصفِ الرَّحمةِ إلَّا في آيةِ سورةِ سبأ، وقدَّم قولَه: ﴿غَفُورًا﴾ على ﴿رَّحِيمًا﴾ في هذهِ الآيةِ؛ لنكاتٍ هي: لأَنَّ المغفرةَ للمكلَّفين منَ البشرِ، وحيثما وردَ ذكرُ المكلَّفين متقدِّمًا؛ تقدَّمَ الغفورُ على الرَّحيم، ولأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمةِ، وللإشعارِ بأنَّ غفرانَ الذُّنوبِ سببٌ لنيلِ رحمتِه تعالى، وللإشارةِ إلى أنَّ مغفرتَه لعبادِه رحمةٌ منه، وليست عن ضَعفٍ منه، فهو الغفورُ لعبادِه الرَّحيمُ بهم.

وأمَّا في سورة سبأ؛ فقد قُدِّمَ الرَّحيمُ على الغفورِ في قولِه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: 02]؛ لِأَنَّ الكلامَ هنا مُنتظِمٌ في سلكِ تعدادِ أَصنافِ الخَلقِ مِنَ المكلَّفينَ وغَيرِهِمْ، من الحيوانِ والنَّباتِ وغيرِهما، فالرَّحمةُ شَملتْهُمْ جميعًا، ولِلإشارةِ إلى أنَّ كلَّ ما يلجُ، وما يخرجُ، وما ينزِلُ، وما يعرُجُ: هو برحمتِه، وَأمَّا المغفرَةُ؛ فتخصُّ بعضًا ممَّنْ يقترفُ الذُّنوبَ مِنَ المكلَّفين، والعمومُ قبلَ الخصُوصِ بِالرُّتبةِ، كما أنَّه إذا اجتمعَ العامُّ والخاصُّ؛ قُدِّمَ العامُّ غالبًا[1].

(1) الزركشي، البرهان: 3/249.

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾ [النساء: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

النَّهيُ عن المحاجَجةِ عمَّنْ تعمَّدَ الخيانة

لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن الخصامِ لأيِّ خائنٍ، وهو مَنْ وقعتْ منه خيانةٌ ما؛ أتبعهَ النَّهيَ عن المجادلةِ عمَّن تعمَّدَ الخيانةَ؛ لِيكونَ على سبيلِ التَّرقِّي في النَّهي.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُجَٰدِلۡ﴾: الجَدَلُ: مصدرُ جدلتُ الحَبلَ أجدِلُه وأجدُلُه؛ إذا فتلتُه، فكأنَّ المتجادلين يفتل كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ أصلَه مِنَ المُصارعةِ والإلقاءِ على الجَدَالَةِ، وهي الأرضُ، فكأنَّ كُلًّا منهما يريد أنْ يصرعَ صاحبَه، والاسمُ: الجَدَلُ، والجدالُ: هو المفاوضةُ على سبيلِ المنازعةِ والمغالبةِ وشدَّةٍ في الخصومةِ، ففيه قوَّةٌ واستحكامٌ وامتدادٌ في الخِصامِ والكلامِ[1]، ومعنى ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ في الآية: لَا تُحَاجِجْ عَنِ الَّذِينَ يختانونَ أنْفُسَهُمْ.

2) ﴿يَخۡتَانُونَ﴾: الاختيانُ: افتعالٌ من الخيانة، جذرُه اللُّغويُّ: (خون)، وأصلُ معنى الخيانة: التَّنَقُّصُ في خفيةٍ أو لطفٍ، يُقَالُ: خَانَهُ يَخُونُهُ خَوْنًا، وَذَلِك نُقْصَانُ الوَفَاءِ، ولأنَّ الخيانةَ نقصٌ في الأمانةِ أطلقت على مخالفةِ الحقِّ بنقض العهدِ في السِّرِّ، والاختيانُ: مراودةُ الخيانةِ، بتحرُّكِ شهوةِ الإنسانِ لِتحرِّي الخيانة في خفيةٍ، وخانَه في كذا: أُؤْتُمِنَ فلمْ ينصَحْ، ومعنى ﴿يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾: يجعلونها خائنةً بارتكابِ الخيانةِ[2].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خون).

3) ﴿يُحِبُّ﴾: الحُبُّ: نقيضُ البُغض، ويدور معنى الكلمةِ على تجمُّعِ الشَّيءِ وتمكُّنِه وتلازُمِه، والحبُّ: هو تعلُّقُ القلبِ بالمحبوبِ، وملازَمَتُه إيَّاه ماديًّا أو روحيًّا، ومحبَّةُ اللّهِ للعبدِ: هي توفيقُه للإيمانِ ولِقربِه منه تعالى وإثابتُه على الطَّاعاتِ، وثناؤُه عليه، أو يُقالُ: محبَّةُ اللّهِ للعبدِ: هي شأنٌ من شؤونِه سبحانَه تليقُ بذاتِه الكريمةِ، وهي تتضمَّنُ معنى الرِّضوانِ، وتستلزمُ فيضَ رحمتِه، ومِنَحَ غُفرانِه[1].

4) ﴿خَوَّانًا﴾: صِيغةُ مبالغةٍ من خائنٍ، وجذره اللُّغويُّ: (خون)، ومعنى الخوَّان في الآيةِ: المُبالِغُ في الخيانةِ الَّذي يُصِرُّ عليها.

5) ﴿أَثِيمًا﴾: صِيغةُ مبالغةٍ، من آثِم، وأصلُ معناه: البُطءُ والتَّأَخُّرُ، ومنه ناقةٌ آثمةٌ، أَيْ: متأَخِّرَةٌ لِحملِها الثَّقيل، والإثمُ الذَّنبُ، وهو مشتقٌّ منْ ذلكَ؛ لأَنَّ ذا الإثم بَطيءٌ عن الخيرِ، متأَخِّرٌ عنهُ، وكأنَّ الذُّنوبَ الَّتي يقترفُها الأثيمُ ينوءُ بها حَمْلًا، وقد أَثِمَ الرَّجلُ بالكسرِ إثمًا ومَأْثَمًا؛ إذا وقعَ في الإثمِ، فهو آثِمٌ وأَثيمٌ، والأثيمُ: هو المنهمكُ في الذُّنوبِ، ولا يقلعُ عنها[2].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليّ:

في هذه الآيةِ، نهى اللّهُ تعالى عنِ المُجادَلةِ والدِّفاعِ عنِ الَّذين يخونون أنفسَهم؛ لأنَّ اللّهَ تعالى لا يحبُّ الخائنَ المصرَّ على خيانتِه، والآثمَ المُصرَّ على ذنبِه.

لا يحبُّ اللهُ الخائنَ المصرَّ على خيانتِه والآثمَ المُصرَّ على ذنبِه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة مجيء الكلام على خلاف مقتضى الظَّاهر في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾:

لَمَّا كانَت المحاجةُ عن الَّذين يخونونَ أنفسهم، لا يُتَرَقَّبُ صُدُورُها مِنَ الرَّسُولِ ﷺ دلَّ على أنَّ المرادَ بخطابِ النَّهيِ العمومُ، ويدخل فيه أصحابُ النَّازلةِ دخولًا أوَّليًّا، لتقريرِ توبيخِهم، وأفادَ الخطابُ

التَّهديدُ الشَّديدُ لِمَنْ يعينُ على الخيانة أو يرغِّبُ فيها

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حبب)، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1843.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أثم)، والآلوسي، روح المعاني: 5/141.

العمومَ؛ لأنَّ الحقَّ تبارك وتعالى إذا نهَى عن شيءٍ؛ فإنَّه لا يقتضِي أن يكونَ المُخاطَبُ قدِ ارتكبَ ما يُوجبُ النَّهيَ، وجاء بصيغة الخطابِ للرَّسولِ ﷺ مع أنَّه أكملُ الخلقِ وأعدلُهم؛ لتنبيهِ المؤمنين على وجوب الاحتراس؛ حتَّى لا يقعوا في الدِّفاعِ عنِ الآثمين الخاطئِين، وللمُبَالَغَةِ في التَّحْذِيرِ مِنْ هذه الخلَّةِ المَعْهُودَةِ مِنَ الحُكَّامِ، وفي الآية تهديدٌ شديدٌ لِمَنْ يعينُ على الخيانةِ، أو يرغِّبُ فيها[1].

نكتة تعدية الفعل ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾:

النَّــهــيُ عن مجادلة المؤمنين من أجلِ الدِّفاعِ عن الخائنين

ورد الفعل (جادل) متعدِّيًا إلى المفعولِ بنفسِه مثل قولِه تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾، ووردَ متعدِّيًا بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾، كما في هذه الآية، ونكتة تعديتِه بالحرف: هي أنَّه لمَّا كان الخطاب للمؤمنين، وكان الجدالُ واقعًا بينهم، فيمَن دافعَ عن أبي طعمة، وخاصمَ عنه؛ ضمّن قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ النَّهي عن جدالِ المؤمنين، وعن الدِّفاعِ عن الَّذين يختانونَ أنفسَهم؛ ليكونَ من إيجازِ التَّعبيرِ وتكثيرِ المعنى، والمعنى: لا تخاصمْ عن الَّذين يختانونَ أنفسَهم بالمجادلةِ[2].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾:

المـجـادلُ يبالغ في حبْكِ الكلامِ لإقناعِ الخصوم

لمَّا كان أصلُ الجدلِ: هو فتلُ الحبلِ وإبرامُه وليُّه بغيةَ تقويتِه وإحكامِه ومدِّه؛ استُعيرَ هنا على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ للكلامِ الممتدِّ الَّذي يبالغُ قائلُه في حبكِه لإقناعِ الخصوم، والجامعُ بين المستعارِ منه والمستعارِ: هو الإحكامُ والامتدادُ.

مناسبة التَّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾:

الـــخـــائـــنُ مكشوفٌ؛ وإنْ تستَّرَ

عبَّر بالاسم الموصول لبيان أنَّ صلةَ الموصولِ معلومةُ الانتسابِ عندَ المخاطبين، فالَّذين يختانونَ أنفسَهم، وإن كانوا يتحرَّون خيانَتَهم في خِفيةٍ ولُطفٍ، ولكنَّهم معروفونَ عندهم، فهو مكشوفٌ؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/57، ورضا، تفسير المنار: 5/325.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/190.

وإن تستَّرَ، ولم يذكرِ اسمَ الخائنِ لاستهجانِ التَّصريحِ باسمِه، كما أنَّ ذكرَ الاسم الموصول مع صلته بيَّن وجهَ النَّهي عن الجدالِ عنهم وسببه، مع ما صاحبَ الكلامَ من إهانتهم(1).

مناسبة إسناد الفعل إلى الجماعة في قوله: ﴿يَخۡتَانُونَ﴾:

الخائنُ لغيرِه خائنٌ لنفسِه

أُسندَ الفعلُ في قولِه تعالى: ﴿يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ إلى واو الجماعة، "مع أنَّ الَّذي نزلتْ فيه الآيةُ واحدٌ؛ لوجهَين: أحدهما: للإشعارِ بأنَّ كلَّ من شهدَ للسَّارقِ أو للخائن بالبراءة، أو أعانَه؛ فهو شريكٌ له في الوصفِ والحكم، ليكونَ تهديدًا لمن أعانَه، والثَّاني: أنَّه جمعَ؛ ليتناولَ من نزلت فيه الآيةُ، وكلَّ منْ خانَ خِيانَتَه، والمعنى: فلا تخاصمْ لخائنٍ قطُّ، ولا تُجادِلْ عنهُ(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ في قولِه: ﴿يَخۡتَانُونَ﴾:

الخائنُ قدْ خانَ نفسَه مرَّتينِ

عبَّر بصيغةِ الافتعالِ ﴿يَخۡتَانُونَ﴾، والمرادُ (يخونون)؛ لِما تدلُّ عليه صيغةُ الافتعال هنا مِن الإشعارِ باجتهادهم في تحصيلِ الخيانة، وطلبِهم لها بمزاولة أسبابها وبتَّكلُّفهم لها من أجلِ تحصيلِها، لمخالفتها للفطرةِ وللطَّبيعة الإنسانيَّة، ولمَّا نسبَ الخيانةَ إلى النَّفسِ؛ ناسبَ التَّعبيرَ بصيغة دالَّةٍ على التَّكلُّف، فإنَّ خيانةَ النَّفسِ أشدُّ، ويتطلَّبُ الأمرُ افتعالًا، فجاء بهذه الصِّيغة؛ لِقَصْدِ المُبَالَغَة في الخِيَانَةِ، ولولا أنَّه بيَّتَ النيَّةَ عليها؛ لما خانَ، فالتَّعبيرُ بصيغة الافتعالِ يُشعرُ بأنَّ الخيانةَ لا تقعُ إلَّا مكرَّرةً، لأنَّه يَعزمُ عليها أوَّلًا، ثمَّ يفعلُها، فأدنى تلبُّسِه بها أن يكونَ قد خانَ من نفسِه مرَّتين(3).

بلاغة التَّعبير في قوله: ﴿يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾:

الخائن لغيرِه خائنٌ لنفسه

لَمَّا كانتِ الخيانةُ تكونُ للآخَرِ؛ كانت نسبةُ الخيانةِ إلى النَّفسِ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم/181 - 182.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/562، والبقاعي، نظم الدرر: 2/313.

(3) الرضي، شرح الشافية: 1/109، والبقاعي، نظم الدرر: 2/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/2610.

عدولًا عن مقتضى الظَّاهر، فيُحتملُ أنْ تكونَ على المجاز؛ إذ جُعلتْ معصيةُ العُصاةِ خيانةً منهم لأنفسِهم، كما جُعلت ظلمًا لها؛ لرجوع وبالِ الخيانةِ وضررِها عليهم بالفضيحةِ في الدُّنيا والعقوبةِ في الآخرةِ، ويحتملُ أنْ تكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شُبِّهتِ المعصيةُ بالخيانةِ للنَّفسِ بجامعِ الضَّرر، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وصُرِّحَ بالمشبَّه به بصيغة الفعلِ لإفادة الاستمرارِ، فسُلِكَ الكلامُ على طريقةِ الاستعارة مبالغةً في خيانتهم، وإثباتًا لها بالدَّليل.

خيانةُ الواحدِ خيانةٌ للمجتمع

وأيضًا لَمَّا كان المؤمنون متَّصلين بالدِّين، وقد يكونُ بينهم اتِّصالٌ بالنَّسبِ، فتكونُ خيانةُ واحدٍ منهم بمنزلةِ خيانة النَّفس، فالمعنى: يخونون بني قومِهم وأهلَ دينِهم؛ لرجوعِ الضَّررِ عليهم جميعًا، وهو يُشبهُ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 85] وغيرَ ذلك منَ الآياتِ الَّتي عُبِّرَ بها عنِ المجموعِ بالنَّفسِ[1].

نكتة التَّعبير بالفعل المضارعِ: ﴿يَخۡتَانُونَ﴾:

لإفادةِ استمرارِ تجدُّدِ تعمُّدِ الخيانةِ حالًا فحالًا، فمنْ خانَ مرَّةً؛ قد يعودُ، ويخونُ مرّاتٍ كثيرةً.

حسنُ التَّذييلِ في قولِه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾:

تضمَّنَت جملةُ التّذييلِ فوائدَ لغويَّة وبلاغيَّة، هي:

1. أفادت (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ للاهتمامِ بشأنِها والاعتناءِ بها.

2. جاءت (إنَّ) في مقامِ تعليلِ النَّهي عن الجدالِ عن الَّذينَ يختانونَ أنفسَهم، فبعدَ أن أومأت جملةُ الصِّلةِ بوجهِ النَّهي عن المخاصمةِ عنهم؛ جاءت جملةُ التَّذييلِ لبيانِ السَّببِ الأهمِّ والأعمِّ للنَّهي[2].

3. دلَّت الجملةُ الاسميَّةُ على ثباتِ مضمونِ الجملةِ ودوامِه.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 3/354، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/95، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/229، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/291، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/393.

4. لَمَّا كانَ الخبرُ فعلًا في قولِه: ﴿لَا يُحِبُّ﴾؛ دلَّ على تقويةِ الحكم بسببِ تكرارِ الإسنادِ وتأكيدِه بما تقوَّى به، كما دلَّ الإخبارُ بالفعلِ على تجدُّدِ انتفاءِ حُبِّه تعالى لِمَن اتَّصفَ بهذين الوصفين القبيحين.

5. أفادَ النَّفيُ بـ﴿لَا﴾ استمرارَ انتفاءِ حبِّ اللهِ تعالى لِمَنْ يتَّصفُ بهذينِ الوصفينِ.

6. عبَّرَ بـ﴿مَن﴾ الموصولةِ الدَّالَّةِ على العُموم خلافَ (الَّذي) الدَّالَّةِ على التَّنصيص في المُوصوليَّةِ[1]؛ ليشملَ انتفاءَ محبَّةِ اللهِ لكلِّ خوَّانٍ أثيمٍ، ويندرجُ فيه من نزلَت فيه الآيةُ ومن أعانَهُ اندراجًا أوَّليًّا.

7. أفادَ تعبيرُ: ﴿كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ذمَّ الوصفَين وقبحَهما وذمَّ الاستمرارِ في الاتِّصافِ بهما، وإشعارًا بظهورِ آثارِهما في النَّاسِ.

الخوَّانُ لا يحبُّه اللهُ أبدًا

8. خصَّ صيغتي المبالغة: ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ الدالَّتين على التَّكثير في الخيانةِ والإثم بالمداومة عليهما أو تعظيمِهما لشدَّة قُبحِهما بنفي المحبَّة، مع أنَّه ﷻ لا يُحبُّ الخائنَ والآثمَ أيضًا بأنْ يقعَ الفعلُ منهما مرَّةً واحدةً، فخصَّ الصيغتين للتَّعريضِ بأصحابِ النَّازلةِ الَّذين نزلَت فيهم هذه الآياتُ، وللإشعارِ بعظيمِ فعلِهم، وللتَّنبيه على أنَّ من يتحرَّى خيانةً، ولا يستمرُّ عليها بأنْ يأتيَ بها مرَّةً واحدةً، ونحوَ ذلك ممَّا يجيءُ من الخيانةِ بغير قصدٍ أو على غفلة؛ فهو مُعرَّضٌ أنْ يُقلِعَ، فيحبُّه اللهُ تعالى، ومتى استمرَّ عليها؛ صارَ مطبوعًا على قلبِه، لا يُقلِعُ، أو كانت خيانتُه عظيمةً، فلا تُرجى له المحبَّةُ، فإذًا الخائنُ قد يكونُ محبوبًا على وجهٍ، والخوَّانُ لا يكونُ محبوبًا أبدًا[2].

9. كما دلَّ التَّعبيرُ بصيغتي المبالغةِ ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ على أنَّ مراتبَ المبالغةِ في الخيانةِ والإثم متفاوتةٌ[3].

10. متى وقع الذَّمُّ على وصفٍ؛ لزمَ أن يكونَ المدحُ في ضدِّه؛

(1) الأزهري، شرح التصريح: 1/163.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1428، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/57.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/394.

مدحُ الأمانةِ والتَّرغيبُ فيها

فدلَّ على مدحِ الأمانةِ والتَّرغيبِ فيها، وأَنَّ اللّه يحبُّ أهلَ الأمانةِ والاستقامة[1].

الخيانةُ سببٌ لحصولِ الإثمِ

11. قدَّمَ الخوَّانَ على الأثيم؛ لأنَّ فيه دفعًا للضُّرِّ عنِ البريء، وجلبًا للنَّفعِ إليه؛ ولأنَّ الخيانَةَ سببٌ لحصولِ الإثم، ومراعاةً للفاصلَةِ القرآنيَّةِ، كما أنَّ صِيغةَ (فَعَّال) أكثرُ مبالغةً من (فَعِيل)، فقدَّم الأشدَّ[2].

12. في جملةِ التَّذييل بديعُ تشابُهِ الأطرافِ، فناسبَ ذكرَ الخوَّانِ والأثيم لِمَا تقدَّمَ في الآيةِ في قولِه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾، فلمَّا أرادَ أن يُخبرَ عن حالِهم؛ ختمَ الكلامَ بما يُناسبُ ابتداءَه في المعنى[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 5/325.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/313، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/58.
(3) الإسكافي، درة التنزيل: 1/352، والسبكي، عروس الأفراح: 2/234.

﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ [النساء: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إيضاحُ أوصافِ الَّذين يختانونَ أنفسَهم

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾، وكانَ فيه إجمالٌ يحتاجُ إلى إيضاحٍ وبيانٍ؛ جاءت هذه الآية بيانًا للَّذين يختانونَ أنفسَهم، ولهذا لم يعطِفْها على ما سبقَها، وأيضًا يُحتملُ أن تكون هذه الآيةُ بمنزلةِ التَّعليلِ لوصفِهم بأنَّهم يختانونَ أنفسَهم ولنفي محبَّةِ اللهِ لهُم(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾: يدور معنى الخِفْيَةِ على الاستتارِ، فيُقالُ: خَفِيَ الشَّيءُ يَخْفَى، وأَخفيتُه، وهو في خِفيَةٍ وخَفَاءٍ؛ إذا سترتَه، وأَخْفَيْتُه: أوليتُه خَفاءً، وذلك إذا سترتُه، ويقابَلُ به الإبداءُ والإعلانُ، والخَفَاءُ: اسمٌ لِما يُسترُ به كالغطاء، واستخفيتُ من فلان، أي: تواريتُ، واستترتُ(2)، ومعنى يَستخفُون في الآيةِ: يَستترُون(3).

2) ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: البيتُ هو مأوى الإنسانِ باللَّيلِ ومآبُهُ الَّذي يرجعُ إليه؛ ليسكنَ فيه، وصيغَ الفعلُ منه على معنى العملِ في اللَّيلِ، فيُقالُ: بيَّتُوا هذا العَمَلَ بَياتًا، أي: عمِلوه ليلًا، والبَيتوتةُ: دُخولُكَ في اللَّيل، تقولُ: بِتُّ أصنَعُ كذا؛ إذا كان باللَّيل، ويقال لكلِّ فعل دُبِّر فيه باللّيل: بُيِّتَ، ومنه بُيِّتَ الأمرُ؛ إذا دُبِّر ليلًا، والبَياتُ والتَّبييتُ: أنْ تأتيَ العدوَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/394، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خَفِيَ).

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 7/76.

ليلًا، كأنَّك أخذتَه في بيتِه، ومعنى ﴿يُبَيِّتُونَ﴾ في الآية: يُدبِّرون التَّدابيرَ السَّيِّئةَ ليلًا بأنْ يزوِّروا ويغيِّروا في القولِ[1].

3) ﴿يَرۡضَىٰ﴾: الرِّضا يدلُّ على خلافِ السُّخطِ، تقولُ: رضِي يرضَى رِضًى، وهو راضٍ[2].

4) ﴿يَعۡمَلُونَ﴾: العَمَلُ: كلُّ فعلٍ يكونُ ممَّن له إرادةٌ بقصدٍ، ويوصفُ به عملُ الجوارحِ كالقولِ، وعملُ القلبِ، فهو أخصُّ منَ الفعلِ من وجهٍ بسببِ اقترانِه بالقصدِ، ولأنَّ الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسبُ إلى الجماداتِ، والعَمَلُ قلَّما يُنسبُ إلى ذلك، كما أنَّ العملَ أعمُّ من الفعلِ لتعلُّقِه بالجوارحِ والقلبِ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ[3]، و﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في الآية بمعنى: تعملونَ الأعمالَ الخبيثةَ المُنكرَةَ الرَّديئةَ[4].

5) ﴿مُحِيطًا﴾: أصلُ معنى الكلمةِ: يدورُ على أنْ يكونَ الشَّيءُ طائفًا بالشَّيءِ مُحدقًا به في استدارةٍ تامَّةٍ، وتُستَعملُ الإحاطةُ في الأجسامِ، ومنه الحائطُ: وهو الجدارُ الَّذي يَحُوطُ بالمكانِ، وفي المعاني، مثل: (أحطتُ علمًا بكذا) ومنه قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النِّساء: 126][5]، و(محيطًا) في الآيةِ بمعنى: أنَّه تعالى عالمٌ بأعمالِهم مُحصِيها عليهم[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يستترونَ من النَّاسِ ممَّا أتوا بهِ من الخيانةِ؛ خوفًا من اطِّلاعِهم على أعمالِهم السَّيِّئةِ القبيحةِ، ولا يستترونَ من اللهِ تعالى، ولا يستحيونَ منه، وهو عزَّ شأنُه معَهم بعلمِه، مطَّلعٌ عليهم حينَ يدبِّرون - ليلًا - التَّدابيرَ السَّيِّئة، ممَّا لا يرضى من القولِ فيغيِّرونَه عن وجهه، ويكذِّبونَ فيه؛ لقصدِ الإخفاءِ، وكان اللهُ - تعالى - محيطًا بجميعِ أقوالِهم وأفعالِهم، لا يخفى عليه منها شيءٌ[7].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بيت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عمل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/243.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حوط).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/243.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/243، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر/96.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة التَّعبيرِ بقوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

عبَّر بـ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الَّذين يختانونَ أنفسهم كانوا يستترون من النَّاس حياءً وخوفًا؛ لِقبحِ ما يعملون، وَفي ذَلِكَ تَوْبِيخٌ عَظِيمٌ وَتَقْرِيعٌ، حَيْثُ يَرْتَكِبُونَ الْمَعَاصِيَ مُسْتَتِرِينَ بِهَا عَنِ النَّاسِ إِنِ اطَّلَعُوا عَلَيْهَا، وَدَخَلَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ مَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ، وأفادتِ الهمزةُ والسِّينُ والتَّاءُ معنى: طلبِ الاستتارِ وتحرِّيه والمبالغة فيه[1].

الخائنون يتحرَّون الاستتار من النَّاس حياءً وخوفًا لقبحِ ما يعملون

مناسبة التَّعبير بالنَّاس دون القوم:

لَمَّا كانَ لفظُ النَّاس أعمَّ من القومِ؛ لأنَّ القومَ هم أهلُ الرَّجلِ وجماعتُه؛ أشعرَ التَّعبيرُ بشدَّةِ خوفِهم وعظيم جهلِهم، فهمْ يريدونَ أنْ يَستترُوا من كلِّ النَّاسِ، فإنَّ (الـ) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجنس المفيد للاستغراق؛ للإيذانِ بأنَّ طبعَ الخوَّانِ الأثيم هو تحرِّي الاستتارِ والتَّخفِّي، ولم يقلْ: من عيونِ النَّاس، كما هو شأنُ التَّخفي غالبًا؛ للإشعارِ بأنَّهم يستخفونَ من أنْ يعلمَ بهم النَّاسُ بأيِّ طريقةٍ من طرائقِ العلم، ولهذا ناسبَه ذكرُ جملةِ التَّذييلِ كما سيأتي.

الخائنون يستخفونَ من أنْ يعلمَ بهم جميعُ النَّاسِ بأيِّ طريقةٍ من طرائقِ العلم

بلاغةُ الجمعِ بينَ الطِّباقِ والمشاكلةِ في قوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

جمعَ بين الفعلين على طريق طباق السَّلبِ؛ لبيان حالِ الخائنين أشدَّ بيانٍ وأوضَحه، لما يتَّصفون به منَ الخداعِ والحيلةِ، وسُلِكَ لفظ ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ﴾ على طريقِ المشاكلةِ للأوَّلِ في لفظه دونَ معناه؛ لوقوعه في صحبته، فإنَّ لفظَ ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾ المثبت يدلُّ على استتارهم من النَّاس، ولمَّا امتنعَ أنْ يعتقد أحدٌ يؤمنُ باللهِ أنَّه يستطيعُ أنْ يستخفيَ من اللهِ؛ لأنَّه غيرُ متصوَّرٍ؛ كان هذا الأمرُ قرينةً على

بيانُ حالِ الخائنين أشدَّ بيانٍ لكثرةِ خداعِهم وحِيَلِهِمْ

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/58، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/291.

أنَّ لفظَ ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ﴾: إمَّا كنايةٌ عنِ الاستحياءِ والخوفِ، وإمَّا مجازٌ مرسلٌ عنهما، بأنْ ذكرَ السَّببَ، وأرادَ المسبَّبَ[1].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

لمَّا كان لفظ ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ﴾: إمَّا كنايةً وإمَّا مجازًا مرسلًا؛ كان التَّعبير به في المشاكلة على طريقِ الاستعارة، للإشعار بأنَّ من لا يستحي من اللّه، ولا يخافُ منه بمنزلةِ الَّذي لا يستخفي من اللّه، وكلُّ مشاكلةٍ استعارةٌ، ولا عكسَ[2].

بلاغةُ التَّعريضِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

الاستحياء من اللـه ألَّا يـراكَ ترتكبُ القبائحَ

أفاد الإخبارُ عن أنَّ الذين يختانونَ أنفسهم بأنَّهم لا يستخفون من اللّه: التَّعريضَ بأنَّ الأحقَّ بالاستحياءِ والخوفِ منه هو اللّه تعالى، فهو أولى بالاستحياءِ منه بألَّا يراهم حيثُ يكرهون أنْ يراهم أحدٌ من خلقِه، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُستَرَ الْقَبَائِحُ عَنْهُ بِعَدَمِ ارْتِكَابِهَا[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

مقامُ الألوهيَّة يـؤذن بامتناع تـصوُّرِ الاستتارِ عنِ اللهِ

لأنَّ المقامَ مقامُ مهابةٍ وإجلالٍ وتعظيم؛ ولأنَّ مقامَ الألوهيَّة يؤذنُ بامتناعِ تصوُّرِ الاستتارِ عن اللّه، ليكونَ اللَّفظُ على الكنايةِ أو المجازِ كما تقدَّم.

بلاغةُ الجمعِ بينَ المجازِ والتَّتميم في قولِه: ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾:

سُلِكَ الكلامُ في الجملة الحاليَّة: ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ على سبيلِ المجازِ؛ لقصدِ استيعابِ الأحوالِ وتعميمها، وللمبالغةِ في المعنى، فإنَّ معيَّةَ اللّهِ لهم بمعنى: أنَّ علمَه تعالى وقدرتَه ورؤيتَه لا تنفكُّ عنهم، مقترنة بهم في كلِّ أحوالِهم، ومنها في حالِ استخفائِهم من النَّاس

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/76، والخفاجي، عناية القاضي: 3/346، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/291، والآلوسي، روح المعاني: 5/141.، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194.

(2) السبكي، عروس الأفراح: 2/239.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/191.

وتبييتهم ما لا يرضى من القولِ، وكفى بهذا زاجرًا للإنسان عن المعاصي، ولَمَّا كانت الجملةُ الحاليَّةُ مشعرةً بتأكيدِ أحقيَّةِ اللّٰه تعالى بالاستحياء منه؛ لأَنَّ حياءَ الإنسانِ ممَّنْ يصحبُهُ أَكثرُ منْ حيائِهِ وحدَه، وبالمبالغةِ في التَّهديدِ والزَّجر عن الاختيان والمعصية وفي تفظيعِ ما فعلوه، وبالإنكارِ عليهِمْ والتَّغليظِ لِقبحِ فعلهِمْ، وبالتَّعجيبِ من معصيتهم، وهم يعلمون أنَّ اللّٰه معهم؛ كانت الجملة على معنى الإطنابِ بالتَّتميم، فجمعتْ جملةُ الحالِ بين الإيجاز بالمجاز، والإطنابِ بطريقِ التَّتميم، ليبرزَ الكلامُ في معرضِ الاعتدالِ نظرًا إلى اختصارِه من وجهٍ وإلى إطنابِه من آخرَ، وكأنَّه جمعَ بينَ متنافيين في أبرعِ تعبيرٍ وألطفِه[1].

مـعـيَّـةُ الـلـهِ بمعنى أنَّ علمَه تـعـالى وقـدرتَـه ورؤيتَـه مقترنةٌ بـهـم في كـلِّ أحوالِهم

مناسبةُ التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿إِذْ﴾:

لَمَّا كان الظَّرف (إِذْ) يأتي لما فيه شأنٌ؛ ناسبَ مجيئُه هنا لبيان عِظَم ما كانوا يبيِّتونه في ذلك الوقتِ، والمعنى: يستخفون من النَّاس، ولا يستخفون من اللّٰه في وقتِ عِظَم تبييتهِمْ ما لا يرضى من القولِ، ومجيء (إذْ) للتَّعليل[2] كما يشعرُ به السِّياقُ في هذه الآية يفيدُ أنَّ المعنى: لَمَّا كانوا يبيِّتون في اللَّيلِ ما لا يرضاه ﷻ من القولِ؛ ناسبَ وصفهم بأنَّهم يستخفونَ من النَّاس، ولا يستخفونَ من اللّٰه، وأفاد مجيءُ الفعلِ مضارعًا ﴿يُبَيِّتُونَ﴾ مع أنَّ (إذْ) ظرفٌ لِمَا مضى لِتصوير حالِهم فيما مضى وقتًا فوقتًا على نحو قصد الاستمرار حالًا فحالًا.

تـعـظـيـمُ قـبـحِ تبييتِ الخيانةِ وتدبيرِها

مجاز التَّعبير في قوله: ﴿يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾:

لَمَّا كان القول باللَّفظِ؛ كان تسميةُ ما حدَّثوا به أنفسَهم من رمي البريءِ والحلفِ الكاذبِ وشهادةِ الزُّورِ قولًا من بابِ المجازِ المرسل؛

قـبـحُ تـحـديـثِ الـنَّـفـسِ برمي البريءِ والحلفِ الكاذبِ وشهادةِ الزُّورِ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم/284، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/62، والسيوطي، قطف الأزهار: 2/748.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/274.

إذ سمّاه باعتبارِ ما يكونُ؛ لعلمِه تعالى بأنَّهم سيتكلَّمون به، وقد يكون على الحقيقة بأن يكون الخوَّانُ وأصحابُه قد اجتمعوا في اللَّيل، ورتَّبوا كيفيَّةَ الحيلةِ والمكرِ، فسمَّى اللهُ تعالى كلامَهم ذلك بالقولِ المبيَّتِ الَّذي لا يرضاه[1].

سِرُّ التعبيرِ بالفعلِ: ﴿يُبَيِّتُونَ﴾:

تضمين الفعل (يُبَيِّتونَ) معاني متعدِّدة

آثرَ القرآنُ الكريمُ الفعلَ ﴿يُبَيِّتُونَ﴾؛ لِمَا يتضمَّنُه اللَّفظُ من معانٍ مجتمعةٍ، هي: أنْ يكونَ التَّدبيرُ ليلاً لِما فيه من معنى الاستتار، وأنْ يكونَ التَّدبيرُ كيدًا عظيمًا وسوءًا قبيحًا، واللَّيلُ ساترٌ له، وأنْ يكونَ في خفاءٍ عن النَّاس، وفي مكانٍ محصورٍ كالبيتِ لئلَّا يطَّلعَ عليه أحدٌ.

نكتة التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾:

ما لا يرضاه اللهُ لايحبُّه

لَمَّا كان نفيُ الرِّضا يقتضي السُّخطَ، والسُّخطُ يقتضي نفيَ المحبَّةِ، فكأنَّه قال ما لا يرضى من القولِ، وما لا يحبُّه، وأيضًا لَمَّا كانَ المقامُ هنا لبيانِ ما يُعَدُّ لهؤلاءِ الخائنِينَ منَ العقوبةِ والانتقام؛ ناسبَه نفيُ رضاه تعالى عمَّا يبيِّتون، فهم في موضعِ سُخطِ اللهِ وغضبِه.

نكتة مجيء الاسم الموصول وصلته: ﴿مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾:

للإشعار بأنَّهم يعلمون أنَّ الله تعالى لا يرضى قولهم، فإنَّ جملة الصِّلة تكون معلومة الانتساب عند المخاطبين، والمعنى: أنَّهم كانوا يبيِّتون القول عامدين له مصرِّين عليه مع علمِهم بأنَّ اللهَ لا يرضاه.

حسن التَّذييل في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾:

مكرُ الخائنين وخداعُهم ظاهرٌ في علمِ الله

تضمَّنت جملة التَّذييل فوائدَ لغويَّةً وبلاغيَّةً، هي:

1. أفادتْ جملةُ التَّذييلِ الوعيدَ للخائنين، مِنْ حيثُ إنَّهم وإنْ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/563، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/214.

كانوا يخفونَ كيفيَّةَ المكرِ والخداع عن النَّاس إلّا أنَّها كانت ظاهرةً في علمِ اللّه؛ لأنَّهُ تعالى محيطٌ بجميع المعلوماتِ لا يخفى عليه سبحانَه منها شيءٌ[1].

2. أفاد تعبيرُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ استمرارَ ثباتِ اتِّصاف اللّهِ تعالى بأنَّه بما يعملون محيطٌ، واستمرارَ ظهورِ آثارِ هذا الوصفِ الجليلِ في الدُّنيا والآخرة.

3. عبَّر بالمصدر المؤوَّل ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ دون الصَّريح؛ لإفادة تصويرِ حالهم، وهم يعملون مقترنًا بإحاطة اللّه بعملِهم؛ تحقيقًا للوعيدِ، وللإيذانِ بالعموم، والمعنى: واللّه محيطٌ بكلِّ عملٍ من أعمالِهم بأيِّ وصفٍ كان، وأيضًا لما يدلُّ عليه الفعل المضارعُ من استمرارِ تجدُّد عملهم واستمرارِ إحاطةِ اللّه به.

4. قدَّم ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، وهو معمولُ خبرِ ﴿وَكَانَ﴾ عليه؛ لإفادة الاهتمامِ والاعتناء به، لمناسبته للمقام، فإنَّ السِّياقَ في ذمِّ عملِ الخائنين.

5. في جملة التَّذييل استعارة تمثيليَّة في قوله: ﴿مُحِيطًا﴾، والمعنى: كما لا يفوت المحاط به المحيط به؛ لا يفوته تعالى أيُّ شيء من ذواتهم وأحوالِهم الظَّاهرة والخفيَّة، ويحتمل أن يكون كنايةً عن العلم بما يعملون من جميعِ جوانبه بالشَّيء وعنِ التَّمكُّن منهم، والقدرةِ عليهم وعلى إهلاكِهم[2].

6. لمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

بديع تشابه الأطراف:

مناسبةُ ختمِ الآيةِ أوَّلها

جاء ختم الآية بما يناسب الابتداء بها، فإنَّه لمَّا قال ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ دلَّ على أنَّهم كانوا غافلين عن إحاطةِ علم اللّه بهم، فجاء ختم الآية وعيدًا لهم وتوبيخًا على فعلِهم القبيحِ، فناسبَ ختمُ الآية أوَّلَها.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/214.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/58، والخفاجي، عناية القاضي: 3/347، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حوط).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإحاطة والعلم:

الإحــاطــةُ من جــهــةِ الــعــلــم والــــقــــدرة والــتَّــمــكُّــن، والعلمُ من جهة المعلومِ لا غير

ورد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٗا﴾، كما ورد في آية أخرى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النِّساء: 126]، وجاء في آية أخرى الوصف بالعلمِ، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾ [الأحزاب: 40]، فعبَّر بوصف الإحاطة مرَّةً وبوصف العلم مرَّة أخرى، والفرق بين الاستعمالين: راجع إلى مقتضى الحالِ وسياق الآيات، فإذا كان السِّياق في بيانِ كمالِ علمِ اللّه، وأنَّه يعلمُ كلَّ أفعال العباد وأحوالِهم وشؤونهم؛ آثر ذكرَ العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطَّلاق: 12]، أي: أحاطَ بها علمُه من جميع وجوهه الَّتي يصحُّ أنْ يُعلَمَ بها، كما لا يفوت المحاطَ المحيطُ، وإذا كان السِّياقُ في بيانِ إحصاءِ الأعمالِ أو حفظِها، وأنَّها بعلمِه وفي مقدروه، وأنَّه سيجازيهم بها، فهي بمنزلة ما قبض القابضُ عليه في إمكانِ تصريفِه وتمكُّنِه منه؛ آثرَ ذكرَ الإحاطة، فالإحاطةُ: تكونُ من جهةِ العلم والقدرة والتَّمكُّن، والعلم: يكون من جهة المعلومِ لا غير[1].

(1) الراغب، المفردات: (حيط)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 94.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩﴾ [النساء: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحذيرُ المؤمنين مـن مـنـاصـرة الخائنين؛ لأنَّها لا تُجديهم نفعًا

لَمَّا وبَّخَ اللهُ تعالى الخائنينَ على جهلِهم، وأوعدَهم على اختيانِهم؛ حذَّرَ المؤمنينَ من مناصرتِهم والتَّعصُّبِ لهم ولأهلِ المعاصي مبيِّنًا أنَّها لا تُجديهم شيئًا، مخوِّفًا لهم بما يكون عليه حالُهم يومَ القيامة، وأيضًا لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن المجادلةِ عن الَّذينَ يختانون أنفسَهم، كأنَّ سائلًا سأل: وهل تنفعهم المجادلةُ عنهم؟ فأجابَ بهذهِ الآيةِ بمعنى: لا تجادلْ عن الَّذين يختانونَ أنفسَهم؛ لأنَّ المجادلة لن تنفعَهم؛ لِتكونَ الآيةُ على سبيلِ الاستئنافِ البيانيِّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾: مصدرُ حيا يحيا، جذرُه اللُّغويُّ: (حيي)، والأصلُ في معناه: أنَّه قوَّةٌ ساريةٌ تتمثَّلُ في الحِسِّ والنُّموِّ، والحياة ضدُّ الموتِ[2]، ويُطلقُ لفظُ الحياةِ على القوَّةِ النَّاميةِ الموجودةِ في النَّباتِ والحيوانِ، ومنه قيل: نباتٌ حَيٌّ، قال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾، والحياةُ الدُّنيا هي الَّتي دنت، وهي مقابلةٌ للحياةِ الآخرةِ الَّتي تأخَّرت، وصارَ لفظُ الحياة؛ إذا أطلقَ علمًا على الحياةِ الدُّنيا لكثرةِ الاستعمال.

2) ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: أصلُها ما يكونُ منَ الإنسانِ منَ القيامِ دفعةً واحدةً، أُدخلَ فيها الهاءُ تنبيهًا على وقوعِها دفعةً واحدةً، وهي اسمٌ من أسماءِ الآخرةِ، وهو اليومُ الَّذي يقومُ فيه النَّاسُ لربِّ العالمينَ، وهو يومُ البَعْثِ[3].

3) ﴿وَكِيلٗا﴾: صِيغةُ مبالغةٍ على زنة (فَعِيل)، وَالوَكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ، وَالتَّوكُّلُ مِنْهُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/395، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/195.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حيي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قوم).

وهو إِظْهَارُ العَجْزِ في الأَمْرِ، وَالاِعْتِمَادُ عَلَى غَيْرِكَ فيه، وَوَاكَلَ فُلَانٌ؛ إِذَا ضَيَّعَ أَمْرَهُ مُتَّكِلًا عَلَى غَيْرِهِ، والتَّوْكِيلُ: أن تعتمدَ على غيرك، وتجعلَه نائبًا عنك[1]، والمعنى في الآية: "ومن يتولَّى عنهم في خصومةِ ربِّهم يومَ القيامة"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا أحدَ يُحاجج اللهَ عن الخائنين يومَ القيامةِ، ولا أحدَ يكونُ وكيلًا بالخصومةِ لهم

ها أنتم أيُّها المؤمنون أو هبْ أنَّكم أيُّها المؤمنونَ - حاجَجْتم عن الخائنينَ وحاولتُم تبرئتَهم في الحياةِ الدُّنيا، فَمَنْ يحاجِج اللّه عنهم يومَ القيامةِ عندَ الحسابِ أمْ مَنْ يتولّى خصومةَ ربِّهم عنهم، أيْ: فلا يمكنُ أنْ يحاجَ هناك أحدٌ عنهم، ولا أنْ يكونَ وكيلًا بالخصومةِ لهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ تصدير الكلام بـ(ها) التَّنبيه في قولِه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

التَّعجيبُ من حالِ الخائنين والنَّكيرُ عليهم بتنبيههم لقبح حالِهم

عبَّر بـ(ها) في صدرِ الآيةِ؛ لِتنبيه المخاطبين إلى أمرٍ ذي شأنٍ، وإنَّما يجيء مثلُ تركيب ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾، في موضعِ التَّعجُّبِ والنَّكيرِ والتَّنبيهِ عمَّا يضلُّ عنه الإنسانُ أو يغفلُ، فلمَّا اقترنَ بالهاءِ ضميرَ المخاطبين، وقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ كان تنبيهًا على حالِهم الَّتي غفلوا عنها، وكأنَّهم قد شُغِفوا بها، وتعجيبًا ممَّا فعلوه ونكيرًا عليهم، وهي حالةُ الجدالِ عن الخائنين والدِّفاع عنهم في الحياة الدُّنيا، ولهذا لا يقتصر في هذا الأسلوبِ على قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حتى يُضمَّ إليه حالةٌ ما، بجملةٍ تأتي بعد هذا التَّركيبِ هي في محلِّ تعجُّبٍ ممَّا غفلوا عنه، وفي التَّركيب تأكيدٌ للتَّنبيهِ والتَّعجيبِ من حالِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وكل).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/193.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 5/150.

بإعادة (ها) مع اسمِ الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾[1]، وفيه تنبيهٌ آخرُ دلَّ عليه السِّياقُ، كما سيأتي في بلاغةِ الالتفاتِ، فتتابعتْ ثلاثةُ تنبيهاتٍ؛ للإيذانِ بخطرِ ما وقعوا فيه من المجادلةِ عن الخائنين.

بلاغة الإسناد في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

مَـنْ يستقبِحْ حـالـةَ غـيرِه يـنـبـغـي أنْ يستقبحَها مِنْ نفسِه

أنتم: مبتدأ، وهؤلاء: خبرٌ، ونكتةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، بالإخبارِ عن الضَّمير باسمِ الإشارةِ، هي تقريرُ مصادفةِ المجادلينَ بالوصفِ الذي همْ عليه والمقرَّر عندَهم وعندَ المخاطبين، وتمييزُهم أكملَ تمييزٍ على سبيلِ اتِّحادِ وصفِ مجادلتِهم عن الخائنين مع المسندِ إليه (أنتم)، والمعنى: أنتم هؤلاء المعروفون بأوصافِكم، وليس غيركم، كمَن يفعلُ فعلًا قبيحًا غير مرضيٍّ، فتقول له: أنت هذا، ولتنبيههم على خطأِ مجادلتهم عن الخائنين؛ ألحق الكلام بـ(ها) التَّنبيه مع ما تدلُّ عليه من التَّعجيب من أمرِهم والنَّكير عليهم كما تقدَّم كما أنَّ الإخبارَ عن الضَّمير المخاطَبِ باسم الإشارة؛ فيهِ تنبيهٌ لِلمخاطَبِ على حالِه التي يستقبِحُها من غيرِه، بتنزيلِه منزلةَ غيرِه، فمَنْ يستقبحْ حالةَ غيرِه؛ ينبغِ أنْ يستقبحَها مِنْ نفسِه[2].

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

تعدُّدُ الجنايات يوجبُ المشافهةَ بـالـتَّـوبـيـخِ والتَّقريعِ

انتقلَ الكلامُ على أسلوبِ الالتفاتِ منَ الغَيبةِ في قولِه: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾ إلى الخطابِ، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وغرضُه: تنبيهُ السَّامعِ للإصغاء إليه للعنايةِ والاهتمامِ بما سيخبرُ عنه ولِتلوينِ الخطاب، ليكونَ أكثرَ تطريةً للكلام؛ وللإيذانِ بأنَّ تعديدَ جناياتِهم يُوجبُ مشافهتَهم بالتَّوبيخِ والتَّقريعِ[3].

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/621، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/271.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/200.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/230.

مجاز الاستعارة التَّصريحيَّة في قوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾:

الجدالُ فيه إطالةٌ للكلامِ وامتدادٌ فيه

تقدَّم أنَّ الجدال هو استعارة تصريحيَّة تبعيَّة مأخوذٌ من فتلِ الحبلِ وليّه وإبرامِه بجامعِ الإحكامِ والامتدادِ، لِمَا في الجدالِ من إطالةِ الكلامِ وامتدادِه.

مناسبة التَّعبير بقوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

لا ينبغي للمؤمنين أنْ يدافعوا عن الخائنين ومَنْ يناصرُهم

وردت هذه الجملة مستأنفةً مبيِّنةً لِمَا أُجملَ في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، فهي لبيانِ الوصفِ أو الحالةِ الَّتي وقع التَّنبيهُ عليها والتَّعجيبُ منها، وللإشعارِ بأنَّ المؤمنين لا ينبغي أنْ يدافعوا عن الخائنين ومَنْ يناصرُهم، وعبَّر بالفعلِ الماضي ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾؛ لِيؤكِّدَ وقوعَ المجادلةِ عن الخائنين ومَنْ معهم، وتحتمل أنْ تكونَ صلةً عندَ مَنْ يجعل ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمًا موصولًا؛ ليكونَ مجموعُ الاسمِ الموصولِ وصلتِهِ خبرًا عن (أَنتُمۡ)[1].

مجاز الإخبارِ في قوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

مجيءُ الخبرِ على معنى التَّهديدِ والوعيدِ للمجادلينَ عن الخائنينَ

هذه الجملة وإن كانت خبرًا عن أمرٍ مضى؛ لكنَّها تتضمَّنُ تهديدًا لِمَن يجادلُ عن الخائنين، ويدافعُ عنهم؛ لمجيءِ الجملةِ في سياقِ الإنكارِ على حالةِ الجدالِ، فهو أسلوبٌ خبريٌّ مستعملٌ في معنًى مجازيٍّ[2].

نكتة إيثار المجادلة على المخاصمة:

أيُّ دفاعٍ عن الخائنين هو بمنزلةِ أشدِّ المخاصمة عنهم

لَمَّا كانت المجادلةُ هي أشدَّ المخاصمة[3]؛ عبَّر بقوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾، للإيذان بأنَّ أيَّ دفاعٍ عن الخائنين هو بمنزلة أشدِّ المخاصمة عنهم، أو لِتنبيه المؤمنين إلى أنَّهم قد وصلوا في الدِّفاعِ عن الخائنين وأعوانهم إلى أبلغ المخاصمة عنهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/563، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/214.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/228.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/230.

مناسبةُ تقييدِ الجدالِ بقوله: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

للإشعار بأنَّه قد يكون سببُ الدِّفاعِ عن الخائنين هو ما يقعُ من أسبابِ المعاشِ في الحياة الدُّنيا، وأيضًا للتَّنبيه على أنَّهم وإنْ لم يفتضحوا بسببِ جدالِكم عنهم، ولكنَّهم سينكشفون، ويفتضحون قريبًا، وأنَّ حالَهم ستَنْجلي يومَ القيامةِ لقِصَرِ الحياة الدُّنيا وقربِ نهايتِها، وفي الآيةِ تَحذيرٌ لِمَنْ امتهنَ مهنةَ المُحاماةِ في أنْ يتَّقيَ اللّٰه في اختيارِ قضاياه، وألَّا يدافعَ عن شخصٍ ظهرَت خيانتُه لدينِهِ وأمَّتِه وبلدِه.

فضح الخائنين وانكشاف أمرهم سيكونُ قريبًا

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ﴾:

تدلُّ الفاءُ على السَّببيَّةِ، والمعنى: إنَّ مجادلتَكم عن الخائنينَ في الحياة الدُّنيا سببٌ للحسابِ عليها يومَ القيامة ووقوع الحكومةِ بينَ يدي اللّٰهِ الجليلِ، ففي الكلامِ تحذيرٌ للمؤمنين من المجادلةِ عنهم[1].

المجادلةُ عن الخائنين سببٌ للحسابِ عليها يومَ القيامة

مناسبةُ ذكر الاسم الجليل في قوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ﴾:

ذُكِرَ الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهَ﴾ لتربيةِ المهابةِ والرَّدعِ تمهيدًا لاجتنابِ الجدلِ المذمومِ، وللإشعارِ بجلالِ الموقفِ، وهيبةِ السُّؤالِ للمُجادِلين، وفيه زجرٌ لمن يحاولُ الدِّفاعَ عمَّن ظهرتْ خيانتُه، وبانَ إجرامُه.

هيبةُ الله تقتضي الانتهاء من الجدال للخائنين

نكتةُ العدولِ عن المقابلِ إلى قولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

عُدِلَ في الكلامِ عن ذكرِ مقابلِ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فلم يقلْ: (فمَنْ يجادلُ اللّٰه عنهم في الحياةِ الآخرةِ)؛ لِيكونَ على تمامِ الطِّباقِ، وألمحَ إلى الطِّباقِ بذكرِ يومِ القيامة؛ لأنَّ يومَ القيامةِ هو من الحياةِ الآخرة؛ فهو داخلٌ في أصلِ الدِّلالة[2]، فعبَّر بيوم القيامة؛ لأنَّه الاسم الَّذي يجمع كلَّ الأوصاف الأخرى الَّتي وصف بها ذلك اليوم كالحاقَّةِ والقارعةِ والصَّاخَّةِ والطَّامَّةِ، فهو الاسم الأعمُّ والأشملُ،

يومُ القيامة هو الاسمُ الَّذي يجمعُ كلَّ الأوصافِ الَّتي وُصِفَ بها ذلكَ اليومُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/395، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/228.

ولهذا أقسم ربُّنا سبحانَه بهذا الاسم دونَ غيرِه، فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ [القيامة: 1]، فتندرجُ فيه كلُّ أوصاف ذلك اليوم العظيم المَهولِ، كما أنَّ التَّعبير بيومِ القيامة فيه إشارةٌ إلى قيامِ النَّاس إلى ربِّ العالمين وانقطاعِ الأسبابِ عن الخائنين وعن جميعِ الخلقِ وإلى قصرِ مدَّة الحساب، وانكشافهم في ذلك اليوم، وهو المقصودُ من السِّياقِ، ففيه مناسبةٌ لمقامِ توبيخِ الخائنين ومناصريهم لردعهم عن استمرارِهم في الخيانة.

مجازُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

لا أحدَ يدافعُ عن الخائنين يومَ القيامةِ، فاللهُ يعلمُ حقيقتَهم

أفادَ الاستفهامُ هنا المبالغةَ في النَّفي وإنكار وقوعِ الجدالِ عن الخائنين يومَ القيامة، على سبيلِ المجازِ، ففيه مزيدٌ منَ التَّأنيبِ والتَّوبيخِ والتَّقريعِ لهم، وفيه وعيدٌ للخائنين بتعذيبِهم وعقابِهم، والمعنى: لا أحدَ يدافعُ عنهم يومَ القيامةِ، كما أفادَ الاستفهامُ الإنكاريُّ: تقريرَ أنَّ اللّه تعالى يعلمُ حقيقةَ الأمرِ، فلا يمكنُ أن يُلْبَسَ عليه سبحانَه بجدالٍ ولا غيرِه[1].

بديعُ الجناسِ في ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾ و﴿يُجَٰدِلُ﴾:

الَّذين جادلوا عن الخائنين في الحياة الدُّنيا لنْ يستطيعوا أنْ يجادلوا الجدالَ نفسَه يومَ القيامةِ

تضمَّنتِ الآيةُ بديعَ الجناسِ النَّاقصِ في قوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾ و﴿يُجَٰدِلُ﴾[2]، وفيه تزيينٌ لفظيٌّ وتحسينٌ في الكلام، وإشعارٌ بأنَّ الذين جادلوا عنهم في الحياة الدُّنيا لن يستطيعوا أن يجادلوا الجدال نفسه يوم القيامة، لمجيئه بلفظه، وسُلِكَ البديعُ في الكلام لتنبيه المخاطبِ إلى الإصغاءِ إلى الكلام، وليتشوَّف إليه.

دلالةُ ﴿أَم﴾ في قوله تعالى: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾:

تحتمل ﴿أَم﴾ أن تكون منقطعةً، فهي بمعنى: (بل) للإضرابِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/214، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/62.

نفيُ الوكيل عنهم أشدُّ وعيدًا من نفي المجادلِ عنهم يومَ القيامةِ

الانتقالي، ليكون قوله: ﴿مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ على سبيلِ التَّرقِّي في تيقُّن وقوعِ الوعيدِ والعذابِ عليهم وتقريره، بمعنى: أنَّ نفي الوكيلِ عنهم أشدُّ وعيدًا من نفيِ المجادلِ عنهم يومَ القيامةِ، فلا أحدَ يتحمَّلُ تبعاتِ جرائمِهم، كما تحتمل أنْ تكون متَّصلةً، والمعنى: تقريرُ نفي المجادلة عن الخائنين يومَ القيامةِ، وأن يكون عليهم وكيل يومئذٍ، والنَّفي على الإنكار[1].

مجازُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾:

تضمينُ الاستفهامِ معنى التَّهديدِ والوعيدِ للخائنينَ

أفاد الاستفهامُ هنا كذلك المبالغةَ في النَّفي؛ لإنكارِ أن يكون على الخائنين وكيلٌ يومَ القيامة، على سبيلِ المجازِ، ودلَّ اسمُ الاستفهام ﴿مَّن﴾ على العموم، بمعنى: لا أحدَ يكونُ عليهم وكيلًا، مضمِّنًا معنى الإنكارِ، وفي الاستفهام تهديدٌ ووعيدٌ للخائنين.

نكتة مجيء حرف الجرِّ (عَلَى) في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾:

لَمَّا كانَ الوكيلُ فيه معنى: الرِّعايةِ والعنايةِ والحفظ، فيكون فيه معنى: التَّمكُّن من الموكِّل واستعلائه عليه للقيامِ بجميعِ شؤونِه وحاجاتِه؛ عبَّر بـ(عَلَى) دون (لَهُم).

مجازُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿وَكِيلٗا﴾:

إقامةُ الحجَّةِ على نفيِ المحامي عن الخائنين من عذابِ اللهِ

لَمَّا كان الوكيلُ هنا بمعنى: المحامي الذي يحميهم من سخطِ اللّهِ ومن عذابه؛ لأنَّ من وُكِلَ الأمرُ إليه يحافظ عليه، ويعتني به؛ كان التَّعبيرُ بالوكيل بلازمِ معناه على سبيل المجاز المرسل، بعلاقةِ السَّببيَّة، لتكثير المعنى وتوسيعِه، وليكونَ بمنزلة الحجَّة والدَّليل على نفي المحامي عنهم من عذاب اللّه.

مناسبةُ عدمِ التَّقييدِ بيومِ القيامة في قوله: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾:

لَمَّا كانَ من أعظمِ المحاسِنِ كفُّ الإنسانِ عمَّا لا علمَ له به، وكانَ

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/347، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/195.

تعميمُ الإنكارِ عن مَنْ يكونُ وكيلًا عن الخائنين؛ ليشملَ الحياةَ الدُّنيا ويومَ القيامة

المرادُ تعميمَ الإنكارِ عمَّنْ يكونُ وكيلًا عن الخائنين وإطلاقَه عن التَّقييدِ؛ ليشملَ الحياةَ الدُّنيا ويومَ القيامة، وللإشعار بأنَّ المؤمنين لم يقع منهم إلَّا المجادلة عن الخائنين لإخبارِه عنها بصيغة الماضي، لأجلِ هذا كلِّه لم يقيِّدِ الجملةَ بيوم القيامةِ، كما قيَّد الجملةَ التي سبقتها، فنبَّه على قبحِ المجادلةِ عنهم بقصور علم الخلائق(1).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/396.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء: 110]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المــخــرجُ من الذّنوب بالتَّوبة من كلِّ سوءٍ

لَمَّا نهى اللّه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ عن الجدالِ عن الخائن والانتصار له، وحذَّر من الوقوعِ فيه، وتمكَّنَ الوعيدُ وقضتِ العقولُ بألَّا مُجادِلَ للّه، ولا وكيلَ يقومُ بأمورِ العُصاة عنده؛ عقَّبَ ذلك بهذه الآيةِ الَّتي تفتحُ بابَ العفوِ، وتحملُ هذا الرَّجاءَ العظيمَ، ونبَّههم إلى المخرجِ من الذَّنبِ بأنْ ندبَ إلى التَّوبة من كلِّ سوءٍ؛ ليدخلَ فيه الجدالُ عن الخائنين دخولًا أوَّليًّا[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سُوٓءًا﴾: السُّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديءٍ أو آفةٍ أو داء، وساء الشَّيءُ: قَبُح؛ فهو سيِّئٌ، ورَجُلٌ أَسْوَأُ، أي: قَبِيحٌ، وامْرَأَةٌ سَوْآءُ، أيْ: قَبِيحَةٌ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَت السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً، وَسُمِّيَتِ النَّارُ: سُوأى؛ لِقُبْحِ مَنْظَرِهَا، والسُّوء: ما يحصلُ للإنسانِ منَ الغمِّ والهمِّ من أمورِ الدِّنيا والآخرةِ، وما يَعرِضُ له منَ الأمورِ النَّفسيَّةِ كفقدِ المالِ والجاهِ وغيرِه[2]، ومعنى السُّوءِ في الآية: الذَّنْبُ أو الأمر القبيح، أي: من يعملْ ذنْبًا، أو من يعمل أمرًا قبيحًا يسوءُ به غيره[3].

2) ﴿يَظۡلِمۡ﴾: يدورُ معنى الظُّلم في اللُّغةِ على حجبِ ما يَنبغي، أو ما يُسْتَحقُّ بمنعِه أو انتقاصِه، كمَنْعِ الضَّوءِ في حالة الظُّلمةِ، وكمنعِ المطرِ عنِ الأرض المظلومةِ، فهو وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/396.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سَوَأَ).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/194.

المُختصِّ به، إمَّا بنُقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمَّا بعدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، ومن هذا يقال: ظَلَمْتُ السِّقَاءَ؛ إذا تناولتُه في غير وقتِه، ويقال فيما يكثر وفيما يقلُّ من التَّجاوز، ولهذا يستعمل في الذَّنب الكبير، وفي الذَّنب الصَّغير، ومعنى يظلم نفسه: أن يعدلَ عن الطَّاعةِ ويقترفَ الذُّنوبَ التي يُغضِبُ بها اللّه، ويستحقَّ بسببِها عقابَه[1].

3) ﴿يَجِدِ﴾: يأتي الفعل وجدَ بمعنى: الإصابةِ، وبمعنى: العِلم، أي: وجود الشَّيء على صفَةٍ أو حال، أي: العلم بوجودها فيه، فهو بمعنى الشَّيء يُلفيه، وهو المقصودُ هنا، والمعنى المحوريُّ له: هو تحصُّلُ شيءٍ ذي بالٍ في حَوْزةٍ كانت خاليةً منه، كالمالِ والضالَّةِ، والتحقُّقُ عن عدم، أو العلمُ بأمرٍ ذي بالٍ على حالٍ أو صفةٍ لم يكن عالمًا به[2]، ومعنى ﴿يَجِدِ﴾ في الآية "أي: يجدُ عِنْدَه المَغْفِرةَ والرَّحْمَةَ، فجعلَ المَغْفِرَةَ كالمَوردِ يرِدُه التَّائِبُ المُستَغفِرُ"[3].

۞ المَعنَى الإجْمَاليُّ:

الـتَّرغـيـبُ في الاستغفارِ لمَن أساءَ إلى غيرِه أو ظلَمَ نفسَه

مَنْ يعملْ عملًا سيِّئًا قبيحًا، أو يظلمْ نفسه بما يُوجبُ العقوبةَ من اللّه، ثمَّ يستغفرِ اللّه نادمًا على ما عمل، راجيًا مغفرتَه وسترَ ذنبِه؛ يجدِ اللّه تعالى غفورًا لجميعِ ذنوبِه رحيمًا متفضِّلًا عليه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الشَّرطِ ﴿وَمَن﴾:

اسمُ الشَّرط يفيدُ عمومَ الشَّرطِ وعمومَ الجزاء

عبَّر بـ ﴿وَمَن﴾ لإفادة عموم الشَّرطِ، فليس الأمرُ مختصًّا بأصحابِ الحادثةِ التي نزلت فيهم هذهِ الآياتُ، وهم ويدخلون في عمومِ الشَّرطِ دخولًا أوَّليًّا، وإذا كانَ الشَّرطُ على معنى العموم؛ كان الجزاءُ مثلَه يفيدُ العمومَ، والمعنى: استغراق الشَّرطِ كلَّ فردٍ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وجد).
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/11.

ممَّن يعملُ سوءًا، أو يظلمُ نفسَه، ثمَّ يستغفر اللّه، واستغراق وجدانِ مغفرة اللّه ورحمته وتعميمِه لكلِّ فردٍ من أفرادِ الشَّرط ممَّن تحقَّق بالاستغفار.

بلاغة التَّعبير بأسلوب الشَّرط:

لَمَّا كان الشَّرطُ بمنزلة السَّببِ لوقوعِ الجزاءِ، وكانَ الجزاءُ مقترنًا بوقوعِ الشَّرط من غيرِ مهلةٍ؛ دلَّ الكلامُ على اقترانِ مغفرة اللّه ورحمته بحصولِ الاستغفار من عملِ السُّوء أو من ظلم النَّفسِ باقتراف المعصيةِ، أي: إنَّ حصولَ مغفرةِ اللّهِ تعالى للتَّائبِ ورحمته به في وقتِ وقوعِ الاستغفار من عملِ السُّوءِ أو ظلمِ النَّفسِ.

حصولُ مغفرة اللهِ ورحمتِه في وقتِ وقوعِ الاستغفار

نكتةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾:

لَمَّا كان لفظ ﴿سُوٓءًا﴾ نكرةً، فيشملُ كلَّ قبيحٍ من المعاصي صغيرًا أو كبيرًا ممَّا يتعدَّى إلى النَّاسِ، فيورثُ الهمَّ والغمَّ، وكان ظلم النَّفس يشملُ كلَّ ذنبٍ صغيرٍ أو كبيرٍ ممَّا يختصُّ بالإنسانِ، ولا يتعدَّى إلى الآخر؛ دلَّ عمومُ الشَّرطِ على أنَّ التَّوبةَ مقبولةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ سواء كانت كفرًا أم قتلًا، أم غصبًا للأموال؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ استغرقَ جميعَ الذُّنوبِ والمعاصي، ويحتملُ أنْ يكونَ معنى السُّوء: كلَّ معصيةٍ تسوءُ صاحبَها وغيرَه؛ لأنَّ السَّيِّئَةَ تسوءُ صاحبَها أيضًا بالهمِّ والغمِّ حالًا أو مآلًا، ويكون معنى ﴿يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ فعلَ المعصيةَ الَّتي يقتصرُ ضررُها على النَّفسِ، فيكونُ العطفُ بـ﴿أَوۡ﴾ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لِيفيدَ المبالغةَ والاهتمام بأثرِ الذَّنب على النَّفسِ؛ لأنَّه منشأُ كلِّ سوءٍ وضررٍ[1]، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ السُّوءَ هو كلُّ ذنبٍ دونَ الشِّركِ، وظلمُ النَّفسِ يكونُ بالشِّركِ باللّهِ تعالى، أو أنْ يكونَ

التَّوبةُ مقبولةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ سواء كانت كفرًا أم قتلًا، أم غصبًا للأموال

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/563، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/215، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/196.

السُّوءُ للصَّغائرِ، وظلمُ النَّفسِ للكبائر، وبالجملةِ فهما متغايرانِ بسببِ العطفِ[1].

مناسبة إيثار لفظ السُّوء في الآية:

عـمـلُ الـسُّـوءِ يـــورثُ الـهـمَّ والغمَّ للآخرِ

وإنَّما خصَّ ما يتعدَّى إلى الآخر باسمِ السُّوء - سواءٌ أكانَ السُّوء بمعنى: كلِّ قبيحٍ من المعاصي التي تتعدَّى إلى الآخر أم التي تكون للنَّفس وللآخر - لأنَّ السُّوءَ يكونُ في الأكثر إيصالًا للضَّرر إلى الآخر، والضَّررُ سوءٌ حاضرٌ، ويشيرُ التَّعبيرُ بالسُّوء إلى أنَّه يورثُ الغمَّ والحزنَ للآخر، فأمَّا الذَّنب الَّذي يخصُّ الإنسان؛ فذلك في الأكثر لا يكون ضررًا حاضرًا؛ لأنَّ الإنسانَ لا يوصلُ الضَّررَ إلى نفسِه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾:

مَـــنْ عـمـلَ مـعـصـيـةً؛ انتقصَ من حقِّ نفسِه، وظلَمَها بالمعصيةِ

للإشعار بأنَّ الإنسانَ إنْ عملَ معصيةً؛ فإنَّه وضعَ نفسَه في غيرِ موضعِها، وانتقص حقَّها، فظلمَها بالمعصية، وأنَّ العدلَ مع النَّفسِ: في طاعةِ اللّه، وظلمَ النَّفس: في معصيةِ اللّه.

مناسبةُ تقديمِ ﴿يَعۡمَلۡ سُوٓءًا﴾ على ﴿يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾:

الإضـرارُ بالآخرِ أقبحُ وأشدُّ من الإضرارِ بالنَّفسِ

قدَّم ما يكونُ ضررُه على الآخر على ما يكون مختصًّا بالنَّفسِ، ؛ لأنَّ الإضرارَ بالآخر أقبحُ وأشدُّ.

مناسبةُ العطفِ في جملة الشَّرط:

الاسـتـغـفـارُ الـصَّـادقُ سببٌ لـمـغـفـرةِ الـلـه ورحمتِه

لمَّا كانَ العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ على معنى التَّشريك بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه بمعنى: اجتماعِهما؛ كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ دالًّا على أنَّ الجزاء لا يتحقَّق من دون استغفارٍ صادقٍ.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/96، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/59، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/215، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292.

رفـعـةُ مـقـام الاستغفارِ وعلوُّ مكانتِه عندَ اللهِ

دلالةُ حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾:

أفادت (ثمَّ) هنا معنى: التَّراخي في الرُّتبة والمكانةِ، للإشعار برفعة مقامِ الاستغفار وعلوِّ شأنِه عندَ اللّه تعالى.

اللهُ أكرمُ من أن يَردَّ توبةَ عبده؛ إذا لجأ إليه

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذِ استعارَ الفعلَ ﴿يَجِدِ﴾ الَّذي يكون بمعنى وجدانِ الشَّيءِ على حالةٍ ممَّا يُرغبُ فيه على سبيلِ الظَّفَرِ به ومشاهدته، وبيانُه أنَّ اللّه تعالى لَمَّا أعدَّ الغفرانَ والرَّحمةَ للمستغفرين التَّائبين؛ كانوا كالواجدين لمطلوب عظيم قد ظفروا به، وتحقَّقوا من الحصولِ عليه، وكَأَنَّ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ مُعَدَّانِ لِطَالِبِهِمَا، مُهَيَّآنِ لَهُ، مَتَى طَلَبَهُمَا؛ وَجَدَهُمَا بتحقيق الاستغفار، وكأنَّ التَّوبةَ ورودٌ على رحمة اللّه وقربٌ من اللّه، وإذا وجدهما؛ سيظفر بما يحصل عليه، فأطلق الوجدان على تحقيق المغفرةِ والرَّحمة على وجهِ الاستعارة، ومن مناسباتِ الاستعارة بـ﴿يَجِدِ﴾: الإشعارُ بمشاهَدةِ التَّائبِ لآثارِ المغفرةِ والرَّحمة مثل: كراهةِ الذَّنبِ والرَّغبةِ في الأعمالِ الصَّالحة؛ لِتكونَ مشاهدةُ هذهِ الآثارِ نعمةً زائدةً على نعمة المغفرةِ والرَّحمة، ومن فوائدها هنا: تحقيقُ مغفرةِ اللّه ورحمته للمستغفرِ وتأكيدُ حصولِهما، بطريقِ الإثبات بالدَّليلِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا لُطْفٌ عَظِيمٌ وَوَعْدٌ كَرِيمٌ لِلْعُصَاةِ؛ إِذَا اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ(1).

تعميمُ المغفرة والرَّحمة لكلِّ طالبٍ لهما ودوامهما

من لطائف الحذفِ في قوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

لَمَّا قال اللّه تعالى في جملةِ الجزاءِ: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ كان المعنى: يجدِ اللّه غفورًا رحيمًا له، فحذف قيدَ (له)؛ لدلالةِ الكلام عليه، فإنَّه لا معنى للتَّرغيب في الاستغفار إلَّا إذا كان

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/59، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230، ورضا، تفسير المنار: 5/326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/196.

المرادُ ذلك، وأيضًا لإفادةِ العمومِ وثبوتِ الوصفين ودوامِهما بما دلَّ عليه الإطلاقُ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

قبولُ التَّوبةِ من كلِّ تائبٍ بفضلِ اللهِ وإنعامِهِ

ورد الوصفان على صيغةِ المبالغةِ بمعنى: كثيرِ الغفرانِ وكثيرِ الرَّحمة، وذلك كنايةٌ عن استغراقِ الوصفين لكلِّ مستغفرٍ تائبٍ وعن تعجيلِهما وظهورِ آثارِهما، كما يدلُّ عليه السِّياقُ، فيصير المعنى: يجدِ اللّه غافرًا له راحمًا له؛ لأنَّه عامُّ المغفرةِ والرَّحمةِ، فلا يخرجُ منها أحدٌ استغفرهُ، وتابَ إليه، ولا يتخلَّفُ عنه شمولُ مغفرتِه ورحمتِه زمنًا، فكانتْ صيغةُ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مع الفعلِ ﴿يَجِدِ﴾ دالَّةً على القبولِ من كلِّ تائبٍ بفضلِ اللّهِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَعۡمَلۡ﴾ دونَ (يفعل):

المغفرةُ لمن عمل الذَّنبَ من غيرِ قصدٍ ألصقُ ممَّن عمله بقصدٍ

عبَّرَ بـ ﴿يَعۡمَلۡ﴾ دونَ (يفعل)؛ للإشارةِ إلى كمالِ مغفرتِه وعفوِه، فالعملُ: يكونُ بقصدٍ غالبًا، والفعلُ: يكونُ بغيرِ قصدٍ، فإذا كانتِ المغفرةُ تأتي لمن عملَ السُّوءَ بقصدٍ، واستغفرَ؛ فغُفِرَ له، فكيف بمن وقعَ منه الذَّنبُ من غيرِ قصْدٍ، فالمغفرةُ به ألصقُ.

سرُّ تتابعِ الفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَعۡمَلۡ﴾ ﴿يَسۡتَغۡفِرِ﴾ ﴿يَجِدِ﴾:

عبَّرَ بالمضارعِ في قولِه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا﴾؛ للإشعارِ باستمرارِ الاستغفارِ وتجدُّدِه حالًا فحالًا، كلَّما عملَ سوءًا، أو ظلمَ نفسَه، واستمرارِ مغفرةِ اللّهِ له ورحمتِه به.

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر:

المغفرةُ والرَّحمةُ وصفانِ لا يشاركُهُ فيهما غيرُهُ سبحانَهُ

ذكرَ الاسمَ الجليلَ، وأظهرَه في مقامِ الإضمارِ في قولِه: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فجاء الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ، إذ لم يأتِ بالضَّميرِ معَ قربِ ذكرِ الاسمِ الجليل، فلمْ يقلْ: (يَجِده

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/215.

غَفُورًا رَّحِيمًا)، وفائدةُ ذكرِ الاسمِ الجليلِ: التَّربيةُ بالمهابةِ لنفوسِ السَّامعين، والتَّلذُّذ بذكرِهِ سبحانه؛ لِمناسبةِ مقامِ المغفرةِ والرَّحمةِ بعدَ الاستغفار، وأيضًا لمَّا كانَ الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهَ﴾ مختصًّا به تعالى؛ آذنَ بأنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ وصفانِ لا يشاركُهُ فيهما غيرُهُ سبحانَه.

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١﴾ [النساء: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ضـررُ الإثـمِ لا يتعدَّى صاحبَه ووبـالُـه راجـعٌ إليه

ولَمَّا ندبَ إلى التَّوبةِ في الآية السَّابقة، ورغَّبَ فيها؛ بيَّنَ أنَّ ضررَ إثمِه لا يتعدَّى نفسَه، ووبالَه راجعٌ عليه لا على غيره حثًّا على التَّوبة وتهييجًا إليها؛ لِمَا جُبِلَ عليه كلُّ أحدٍ من محبَّةِ نفعِ نفسِه ودفعِ الضُّرِّ عنها(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡسِبۡ﴾: يدلُّ الكسبُ على ابتغاءِ الشَّيءِ وطلبِه والحصول عليه، ممَّا فيهِ اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، كَكَسْبِ المالِ، وقد يستعملُ فيما يَظنُّ الإنسانُ أنَّه يجلبُ منفعةً، ثمَّ استجلبَ به مضرَّةً، والكَسْبُ يُقالُ فيما أخذَه لنفسِه ولغيرِه، والاكْتِسَابُ لا يقالُ إلَّا فيما استفدتَه لنفسِكَ(2)، ومعنى ﴿يَكۡسِبۡ﴾ في الآية: يأت ذنبًا عامدًا له عالمًا به(3).

2) ﴿إِثۡمٗا﴾: يدورُ معنى الإثم: على البطءِ والتَّأخُّرِ لثقلِ الشَّيءِ أو لحملِه الثَّقيل، ومنه ناقةٌ آثمةٌ، أَيْ: متأخِّرَة، والإثمُ مشتقٌّ من ذلك؛ لأنَّ ذا الإثم بطيءٌ عن الخير متأخِّر عنه؛ لما اقترفه من الوزرِ، وكأنَّ الذُّنوبَ التي يقترفُها الأثيمُ ينوءُ بها حَمْلًا، و﴿إِثۡمٗا﴾ في الآية بمعنى: الذَّنب أو الوِزر، لثقلِ الذَّنب على صاحبه، ولأنَّه يُبطِئُه عن الثَّواب(4).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/397.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والجوهري، الصحاح: (كسب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/196.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والجوهري، الصحاح، وحسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (أثم).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وبالُ الذَّنبِ على فاعلِه وضرُّه وعارُه على نفسِه

ومن يأت ذنبًا على عَمْدٍ منه له ومعرفةٍ به، فإنَّما يجترحُ وبالَ ذلك الذَّنبِ وضرَّه وعارَه على نفسه، دون غيره، وكان اللّٰه عليمًا بأمر عباده حكيمًا في قضائِه وتدبيرِه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواو في الآيةِ:

التَّرغيبُ في التَّوبةِ والتَّحذيرُ من تركِها

عُطفتْ هذه الآيةُ على ما قبْلَها بالواو؛ لمناسبةِ الجمعِ بينهما في التَّرغيبِ في التَّوبةِ وللتَّحذيرِ من أنَّ مَنْ لا يستغفرِ اللّٰه؛ يعاقبْه اللّٰه عقابًا شديدًا، ومن مناسباتِ الوصلِ: توافق الآيتين في أسلوبِ الشَّرط.

دَلالةُ اسم الشَّرط ﴿وَمَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ﴾:

الإنسانُ لا يحملُ إثمَ غيرِه عليه

عبَّرَ بـ ﴿وَمَن﴾؛ لإفادة عموم الأشخاص في الحُكم، ولمَّا كان كلُّ إنسانٍ غيرَ حاملٍ لشيءٍ من إثمِه على غيرِه؛ لأنَّه يكسبُه على نفسه؛ دلَّ بلازمِ فائدةِ الكلامِ على أنَّه غيرُ حاملٍ لشيءٍ من إثمِ غيره عليه، لأنَّ إثمَ غيرِه يحملُه صاحبُه على نفسِه.

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾:

الإثمُ لا نفعَ فيه ولا ربحَ، لفضيحةِ الآثمِ في الدُّنيا وخزيِه في الآخرة

عبَّر بـ﴿يَكۡسِبۡ﴾ على طريقة الاستعارةِ العناديَّةِ التَّهكُّميَّة، فالأصلُ في الكسبِ ما يُجَرُّ به نفعٌ وخيرٌ، وفيه معنى الرِّبحِ، فاستعارَه لما يجلبُ ضرًّا وخسارةً، تنبيهًا أنَّ صاحبَه يُقدِّرُ فيما تحرَّاه أنَّه يكسبُ خيرًا، وينتفعُ به، والحالُ أنَّه يكسبُ شرًّا، ويكونُ وبالُه عليه عقوبةً وعذابًا في الدُّنيا والآخرةِ، فأفادَتِ الاستعارةُ التَّهكُّميَّةُ أنَّ ما يُتوهَّمُ فيه الخيرُ من الإثم ليس هو إلَّا شرًّا خالصًا وضُرًّا سيِّئًا،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/196.

فكأنَّ صاحبَ الإثم قد أُسقطَ في يديه لِمَا خابَ ظنُّه فيه من فضيحةٍ له في الدُّنيا، ومهانته بينَ النَّاسِ، ومن خزيِه في الآخرة وعظَم عقوبتِه عندَ اللهِ تعالى[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يَكۡسِبۡ﴾:

للإشعارِ بأنّ صاحبَ الإثم مستمرٌّ عليه على سبيلِ التَّجدُّدِ والحدوثِ، وكأنَّه قد تعوَّدَ عليه، لكسبِه الإثمَ حالًا فحالًا.

دلالةُ التَّنكيرِ في قوله: ﴿إِثۡمٗا﴾:

استغراقُ معنى الإثـمِ لِمَا كانَ صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا متعدّيًا ضررُه أو قاصرًا

لَمَّا كان تنكيرُ الاسمِ في سياقِ الشَّرطِ يفيدُ العمومَ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بالإثم: أيُّ إثم، كان صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا متعدِّيًا ضررُه إلى الآخر أو قاصرًا على صاحبه، فيُستفادُ من العموم في قوله: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا﴾، عمومُ الأشخاصِ والآثامِ والأحوالِ الَّتي يقع فيها كسبُ الآثام، ويندرجُ تحتَ هذا العمومِ وتوبيخِه من نزلت فيهم هذه الآياتُ[2].

بلاغةُ اتِّحادِ الشَّرطِ والجزاءِ في الآية:

التَّحذيرُ من تعريضِ النَّفسِ للعقابِ والعذابِ عاجلًا وآجلًا

لَمَّا كان الأصل في الجزاء أن يكون مغايرًا للشَّرط؛ كان الجزاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فإنَّ مَنْ يحمل إثمًا؛ يحمله على نفسه، فيكونُ المقصودُ من الجزاء لازمَ فائدته، ويكونُ للجزاءِ معنيان: أحدهما: فإنَّما يكسبُه على نفسه لا على غيره، ويقوِّيه مجيءُ لفظ (نفسه) أي: لا على غيرِه، أي: لن يحملَ غيرُه إثمَه عنه، والثَّاني أن تكونَ عاقبةُ الإثم عائدةً عليه، لا تتعدَّاه إلى غيرِه، فيكون معنى الضَّمير العائد إلى الإثم في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ﴾ مغايرًا لدلالةِ الإثم المذكور؛ لإفادته الحكمَ اللَّاحِقَ عنِ المعصيةِ جزاءً للذَّنبِ، فيكون في الضَّمير

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1423.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111.

الاستخدامُ البلاغيُّ، ونكتةُ العدولِ إلى اتِّحاد الشَّرط والجزاء: تفخيمُ الجزاءِ والمبالغةُ فيه، وكأنَّ الجزاء لا يقادَرُ قدرُه، فيذكر، والمعنى: أنَّ الجزاء هو الكاملُ البالغُ النِّهايةِ في تعظيمِ خطرِ كسب الإثم وتحمُّل عاقبتِه ووبالِه(1)

براعةُ القصرِ بـ﴿فَإِنَّمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾:

توبيخُ صاحبِ الإثمِ لعلمِه بأنَّ وبالَ إثمِه عليه

لَمَّا عبَّر بـ(إنَّما)؛ دلَّ على أنَّ تحمُّلَ صاحبِ الإثم إثمَه بأنْ يكونَ وبالُه وعاقبتُه عليه، لا تتعدَّاه إلى غيرِه حكمٌ منكشفٌ جليٌّ لا يحتاج إلى دليلٍ؛ لظهورِه في نفسِ الأمرِ، فهو بمنزلةِ الحقيقةِ الثَّابتةِ، فيعرفُه صاحبُ الإثمِ وغيرُه، ليفيدَ المبالغةَ في توبيخِه لعلمِه بعاقبةِ ما يعملُ، والمعنى: ما يكسبُ صاحبُ الإثمِ إثمَه إلَّا على نفسِه، ليفيدَ انحصارَ عقوبةِ كسبِه الإثمَ على نفسِه؛ ليكونَ من قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ على طريقة القصرِ الإضافيِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالنَّفس في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾:

كسبُ الإثمِ لتحقيقِ رغباتِ النَّفسِ وشهواتِها

لَمَّا كان الكسبُ بمعنى: جلبِ منفعةٍ أو ربحٍ إنَّما يكونُ لِلنَّفس برغباتِها وشهواتِها؛ عبَّر بالنَّفسِ لمناسبتِه للسِّياق، للإشعارِ بأنَّ مآلَ كسبِ الإثم إلى النَّفس الَّتي رغبوا في تحصيل لذَّةِ المنفعة لها، ففي الكلامِ توبيخٌ وتقريعٌ على ما أبطنوه في كسبِ الإثم.

نكتة التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾:

كسبُ الإثمِ يورثُ استيلاءَه عليه وقهرَه له

عبَّرَ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ المفيدِ لِلاستعلاءِ، على معنى: أنَّ كسبَ الإثمِ يورثُ اسْتِعْلَاءَه على صاحبِه وَاسْتِيلَاءَهُ وَقَهْرَهُ لَهُ(2).

بديعُ الجناس في قوله: ﴿يَكۡسِبۡ﴾ و﴿يَكۡسِبُهُۥ﴾:

تضمَّنت الآيةُ الجناسَ التَّامَّ في الفعل (يكسب)(3)، للإشارة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، والزركشي، البرهان: 2/369، والسبكي، عروس الأفراح: 2/246.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/62.

إلى أنَّ الَّذي يكسب خطيئةً أو إثمًا؛ فإنَّ عينَ ما كسبَه سيكونُ وبالًا عليه.

حسنُ التَّذييل في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

1. دلَّ التَّعبير بـ(كان) على دوام اتِّصافِ اللّه بالعلمِ والحكمةِ وعلى ظهورِ آثارِ علمِه وحكمتِه في النَّاس.

2. ناسبت جملة التَّذييل ما تقدَّمها في الآية؛ للإشعارِ بأنَّ اللّه تعالى يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا يَكْسِبُ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، ومجازاته بأن يكون وبالُ إثمه عليه لا يتعدَّاه إلى غيره بِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ ﷻ.

3. قدَّم ﴿عَلِيمًا﴾ على ﴿حَكِيمًا﴾ للإشارة إلى علمِه بِذَلِكَ الإِثْمِ وَإِلَى مَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ فَاعِلُهُ[1].

4. لمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيل بها.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الذَّنب والإثم:

يسمَّى الذَّنب ذنبًا اعتبارًا لِمَا يحصلُ من عاقبته

عبَّرَ في الآية الكريمة بالإثم دونَ الذَّنْبِ؛ لوجودِ فرقٍ بينَهما، فالذَّنْبُ في الأصلِ: هو الأخذُ بذَنَبِ الشَّيءِ، يقال: ذنبْتُه: أصبتُ ذنَبَه، ويُستعملُ في كلِّ فعلٍ يُستوخمُ عُقباه اعتبارًا بذنَبِ الشَّيءِ، ولهذا يُسمَّى الذَّنْبُ تبعةً، وعقوبةً اعتبارًا لما يحصلُ من عاقبته[2].

سُمِّيَ الإثمُ إثمًا؛ لأنَّه يُبطِّئ عن الخير، وفيه معنى التَّعمُّد ويشمل التعدِّيَ إلى الآخر

والإثمُ في اللُّغة معناهُ: البُطءُ والتَّأخُّرُ عنِ الخير، مأخوذٌ من قولهم: ناقةٌ آثمةٌ، أي: متأخِّرةٌ في سيرِها، فالإثمُ: يُبطِّئُ عن الخير، وفيه معنى: التّعمّد، كما تقدّم في شرحِ المفردات، ويشمل السوءَ المتعدّي إلى الغيرِ وظلمَ النّفس القاصرِ على النّفسِ، فيستحقُّ عليه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/59 - 60.
(2) الراغب، المفردات: (ذنب).

صاحبُه الذّمَّ واللَّومَ، ويُطلقُ كذلك على الفعلِ الذي تَنفرُ منه النَّفسُ، ولا يطمئنُّ إليه القلبُ[1]، فعبَّر بالإثم دونَ الذَّنب في الآية؛ لما يقتضيه السِّياق ومقامُ الكلام، وبيانُه أنَّه لَمَّا كان المرادُ تعميمَ الكلام ليشملَ السُّوء وظلم النَّفس اللَّذين وردا في الآية السَّابقة، والإيذانَ بأنَّ صاحبَ المعصيةِ يتأخَّرُ عن الثَّواب، ولن يفوزَ به، وأنَّ وبالًا عظيمًا سيصيبُه بسبب معاصيه الَّتي يقترفها عمدًا؛ عبَّر بالإثمِ دونَ الذَّنب.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/469، و4/59.

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾ [النساء: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رميُ البريءِ بالإثمِ أشدُّ عقوبةً من اقترافِه

لمَّا ذكرَ في الآيةِ السَّابقةِ ما يقترفُه الإنسانُ من إثم يخصُّه، ولا يتعدَّى إلى غيرِه؛ "أتبَعَهُ بذكر ما يُعدِّيه إلى غيرِه، فذكرَ السَّيِّئَ ثمَّ الأسوأ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطِيٓـَٔةً﴾: يدور معنى الخطيئة على تَعدِّي الشَّيْءِ، وَالذَّهَابِ عَنْهُ، ويقال: أخطأ؛ إذا فعل خلاف الصَّواب، وإذا أذنب؛ لأنَّه يترك وجهَ الخيرِ ويتجاوزُه، وَالخَطِيئَةُ: الذَّنْبُ، والجمع: الخطيئات والخطايا، ويُقالُ: أخطأ؛ إذا سلكَ سبيلَ خطأ عامدًا أو غيرَ عامد[2]، ومعنى الخطيئةِ في الآية: هي الذَّنْبُ الَّذي يكونُ بين العبدِ وربِّه[3].

2) ﴿يَرۡمِ﴾: الرَّمي: هو الإلقاءُ، ونبذُ الشَّيء باليدِ، يقالُ: رَمَيْتُ الشَّيءَ مِنْ يَدي رميًا، أَي: أَلْقَيْته، وأَرْمَى الشَّيءَ مِنْ يدِهِ أَلقاه، وكلُّ شَيْءٍ رميتَه من يدِك من حجرٍ أو سهم فهو رَمِيٌّ، فَإِذا ألقيتَ شَيْئًا عَن شَيْء؛ قلتَ: أرميتُه عَنهُ إرماءً، ويكون الرَّمي في الأعيان كالسَّهمِ والحجرِ، نحوُ: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، وفي المقالِ كناية عنِ الشَّتم كالقذفِ، نحوُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾[4]، ومعنى ﴿يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾: إلقاءُ كلامٍ يحملُ تُهمًا تُصيبُ المتَّهمَ البريء، وتُؤذيه"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/398.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خطأ).
(3) النيسابوري، إيجاز البيان: 1/255.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رَمِيَ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رمي).

3) ﴿بَرِيٓـًٔا﴾: صفة مشبَّهةٌ، ويدور معنى البراءةِ: على سلامةِ الحيِّ وخلوصِه ممَّا يكتنفُه أو ينقصُه، ومنه التَّنزُّهُ أو التَّخليصُ من الدَّيْنِ والعَيْبِ والتُّهمةِ، وكلُّ ما يظنُّ أنَّه شرٌّ، ومنه البُرْءُ: وهو السَّلامَةُ مِنَ السُّقْم، والمرضِ، والبراءةُ مِنَ الشَّيء: التَّخلُّصُ والتَّباعدُ والتَّنزُّهُ[1]، والبريءُ في الآيةِ: هو المُتَّهَمُ بالذَّنْبِ، وَلَمْ يُذْنِبْ[2].

4) ﴿ٱحْتَمَلَ﴾: يَدُلُّ الحملُ عَلَى إِقْلَالِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُهُ حَمْلًا، والحَمْلُ: مَا كَانَ فِي بَطْنٍ بما تحملُه من ولدٍ، أو مَا كَانَ عَلَى ظَهْرٍ أَوْ رَأْسٍ بما تحملُه من أثقالٍ أَوْ عَلَى رَأْسِ شَجَرٍ بما تحملُه من الثَّمرِ أو في السَّحاب بما تحمله من الماء[3]، ومعنى ﴿ٱحْتَمَلَ﴾ في الآية: تكليفُ النَّفس حمْلَ وزرِ البُهتانِ بافترائِه على البريءِ[4].

5) ﴿بُهْتَٰنًا﴾: يدور معنى البهتانِ على كلِّ قولٍ أو فعلٍ مستبشعٍ يتعاطاهُ صاحبُه ظلمًا بالقولِ أو باليدِ أو بالرِّجلِ من تناوُلِ ما لا يجوزُ، والمشيُ إلى ما يَقبُحُ بحيثُ يُتحيَّرُ منه لفظاعته وبطلانه، والبهتانُ هو الباطلُ الَّذي يُدهشُ، ويتحيَّرُ من وقوعِه وبُطلانِه، ويطلَقُ على الكذبِ الفظيعِ المبالغِ في قبحِه الذي يُحيِّرُ منه سامعُه ويدهشُه لفظاعتِه، فالبهتانُ أن ترميَ إنسانًا بأمرٍ منكرٍ، وهو بريءٌ منه، ومعنى ﴿بُهْتَٰنًا﴾ يعني: افتراءً باطلًا يُتَحَيَّرُ من بطلانِه، ففيه إثمُ ارتكابِ الخطيئةِ، وجُرْمُ رمي البريءِ مع العلمِ ببراءتِه[5].

6) ﴿مُّبِينًا﴾: اسمُ فاعلٍ منْ (أبان يُبينُ إبانة)، ويدورُ معنى البيانِ على البُعدِ والانكشافِ والظُّهورِ، ومنه بَانَ كذا؛ إذا انفصلَ وظهرَ ما كان مستترًا منه، وبانَ الشَّيءُ وأبانَ؛ إذا اتَّضحَ وانْكشفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ من فُلانٍ، أَي: أَوضحُ كلامًا منْهُ[6].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيَّنَ اللَّه في هذه الآيةِ أنَّ مَن يأتِ ذنْبًا بلا قصدٍ غيرَ متعمِّدٍ له، أو ذنْبًا قاصدًا له عامدًا إليه، ثمَّ يَجني جنايةً أُخرى، بأنْ يتَّهمَ بهذا الذَّنبِ الَّذي اقترفه من هو بريءٌ منه؛

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (برأ).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حمل).
(4) رضا، تفسير المنار: 5/327.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بهت).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بين).

تحريمُ خيانةِ غيرِ المسلمين

فقد احتملَ بعملِه ظلمًا وفريةً عظيمةً وإثمًا ظاهرًا بيِّنًا، ولمَّا كانت الآيةُ نزلت في طعمةَ الَّذي رمى اليهوديَّ بالسرقةِ، وهو منها بريءٌ دلَّ على تحريمِ خيانةِ غيرِ المسلمين[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ اسم الشَّرط ﴿وَمَن﴾ في قوله: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾:

إلقاءُ التُّهمِ على الآخرِ جريمةٌ شرعيَّةٌ ومفسدةٌ مجتمعيةٌ

عبَّرَ بـ﴿وَمَن﴾ للدَّلالةِ على العُمومِ، ويندرج فيه من نزلت فيهم هذه الآيات اندراجًا أوَّليًّا[2].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾:

عبَّر بـ﴿يَكۡسِبۡ﴾على طريقةِ الاستعارة العناديَّةِ التَّهكُّميَّة، كما تقدَّم في الآية السَّابقة، وسُلِكَ في الكسبِ هنا عطف الإثم على الخطيئة، لتشمل الاستعارة التَّهكُّميَّة ما يقترفه الإنسانُ من الخطيئة كذلك.

مناسبة العطف بـ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾:

الخطيئةُ هي المعصيةُ الصَّغيرةُ، والإثمُ الذَّنبُ الَّذي يكونُ عن عمدٍ في الصَّغائر والكبائر

لَمَّا كانَ العطفُ يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه؛ دلَّ على أنَّ الخطيئة هنا غير الإثم، وجاء بـ(أو) لاحتمالِ وقوعِ واحدٍ منهما أو وقوعهما معًا، فـ(أو) هنا مانعةُ خلوٍّ في سياقِ الشَّرط، والخطيئةُ: هي المعصيةُ الصَّغيرةُ التي تقعُ خطأً من غير عمدٍ، ويكون ضررُه قاصرًا على صاحبِه، والإثمُ: الذَّنبُ الذي يكونُ عن عمدٍ المُتعدِّي إلى الآخر كالظُّلم والقتلِ، ويكونُ في الصَّغائر والكبائر، ويحتملُ أن يكون المرادُ بالإثم هنا المعصيةَ الكبيرةَ، أو الَّتي تكونُ عن عمدٍ بقرينةِ مقابلتِه بالخطيئةِ التي يُرادُ بها المعصيةُ الصغيرةُ أو التي لا تكونُ عن عمدٍ، والمقابلةُ مخصِّصةٌ للمعنى[3].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 5/327.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/60.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/39، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/96، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/293، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/196.

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾:

التَّنكيرُ لتهويل خطرِ الخطيئةِ وتهويل خطرِ الإثمِ

أفاد التَّنكيرُ في اللَّفظين التَّهويلَ والتَّفخيمَ، بمعنى: تهويلِ خطرِ الخطيئةِ وتهويلِ خطرِ الإثم، كما أنَّ مجيءَ النَّكرةِ في سياقِ الشَّرطِ يفيدُ العمومَ، بمعنى: مَنْ يكسبْ أيَّ خطيئةٍ أو أيَّ إثمٍ.

نكتة التَّعبير بالضَّمير المفردِ في قولِه: ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ﴾:

التَّعبيرُ بالضَّمير المفردِ أوفى لحقِّ اللَّفظِ والمعنى

لَمَّا كان المعطوفُ والمعطوفُ عليه في قوله تعالى: ﴿خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾ في حكم المثنَّى؛ كان رجوع الضَّمير بالإفراد على خلاف مقتضى الظَّاهر، وفائدته إما ليكون عائدًا على واحدٍ من المذكورين من غير تعيين، لأنَّ المعطوف بـ(أو) يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ فيه عَلَى المَعْطُوفِ عَلَيْهِ وَعَلَى المَعْطُوفِ، وتذكيره لتغليبِ الإثمِ على الخطيئة، كأنَّه قيلَ: (ثمَّ يرم بأحدهما)، وإمَّا ليفيد العمومَ، وهو الأولى لظاهر السِّياقِ، بأنْ يكونَ عائدًا على أثرِ المصدرِ المفهوم من الفعلِ (يكسب)، أي: (ثمَّ يرم بما كسبَه)، ليشمل الرَّمي بأحدهما أو بكليهما معًا أو بالتَّتابع بينهما، ولو أتى بالضَّمير مثنًّى؛ لكان المراد الرَّميَ بالخطيئة والإثم معًا، وهو أحدُ الأنواعِ الثَّلاثة، لأنَّه إمَّا أن يرميَ بالخطيئة فقط، أو بالإثم فقط، أو بهما معًا، فكانَ التَّعبير بالضَّمير المفردِ أوفى لحقِّ اللَّفظ والمعنى[1].

مناسبةُ تقديمِ الخطيئةِ على الإثم:

لَمَّا كانت الخطيئةُ أقلَّ قبحًا وذمًّا من الإثم؛ قُدِّمت عليه، ولمناسبة قربِ الضَّمير المفرد المذكَّر من الإثم؛ ليكونَ أبلغَ تأليفًا ونظمًا.

نكتةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾:

عبَّر بـ(ثمَّ) دون الفاء هنا، لإفادة معنى التَّراخي في الإبعاد، لبيانِ بُعْدِ مرتبةِ البهتانِ من ارتكاب الإثم نفسه؛ ليكون على سبيلِ المبالغةِ والتَّرقِّي في الظُّلمِ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230، والخفاجي، عناية القاضي: 3/348.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 3/348.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾:

المبالغةُ في توبيخ من يرمي البريءَ بالإثمِ وتقريعِه

سُلكَ في الكلام طريقُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في التَّعبير بالرَّمي عن قذفِ البريءِ بالذَّنبِ، فأصلُ الرَّمي أنْ يكونَ باليدِ بإلقاءِ حجارةٍ أو سهمٍ ونبذه[1]، فشبَّه هذا الرَّميَ بقذفِ البريءِ بالذَّنب ونسبتِه إليه، بجامعِ نبذِ المُرمى عن النَّفسِ، ومقاربة الذَّنبِ للحجارة أو السَّهم في الأذى، وفي الإصابةِ؛ للمبالغةِ في توبيخِ الرَّامي وتقريعِه، ولبيانِ قبحِ ما يقترفُه بالإثبات والحُجَّة.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾:

الـذُّنـوبُ أثـقالٌ يتَّخذها صاحبُها حِملًا لَه

شبَّه حملَ الذُّنوبِ ووزرَها بالأحمالِ الَّتي يحملها الإنسانُ على ظهرِه أو على رأسِه، بجامعِ الثِّقلِ والإجهادِ والأذى، وكأنَّه هو الَّذي طلبها واتَّخذَها حملًا له، وتسبَّب فيها، لما تدلُّ عليه صيغةُ (افتعل) من معنى الطَّلبِ والاتِّخاذِ والتَّكلُّفِ والتَّسَبُّبِ[2]، ثمَّ حذف المشبَّه به ووجه الشبه وذكر المشبَّه؛ ليكونَ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ لتعظيمِ جرمِه وتقبيحِه[3]، ووصفُ الذُّنوبِ بأنَّها أثقالٌ يحملُها صاحبُها واردٌ في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13].

مناسبةُ العطفِ في الشَّرط في قولِه: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾:

دلَّ العطفُ بالواو بين الفعلين: ﴿يَكۡسِبۡ﴾ و﴿يَرۡمِ﴾ على قصدِ التَّشريكِ بينهما واجتماعهما، بمعنى: أنَّ ترتُّبَ الجزاءِ منوطٌ بتحقُّقِ كسبِ الخطيئةِ أو الإثمِ ورميِ البريءِ به.

(1) الزمخشري، أساس البلاغة: (رمي).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/60، والبقاعي، نظم الدرر: 5/398.

دلالةُ الفاءِ في جوابِ الشَّرطِ في قوله: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنًا﴾:

رامي البريءِ له عقوبتان تحمُّلُ البهتانِ وتحمُّلُ الإثمِ

أفادت الفاءُ ترتُّبَ الجزاءِ على الشَّرطِ بمعنى: أنَّ عقوبة البهتانِ والإثم مسبَّبَة عن اجتماعِ كسبِ الخطيئةِ أو الإثم ورمي البريءِ به، والمعنى: فله عقوبتان: تحمُّلُ البهتانِ وتحمُّلُ الإثم، وأكَّد هذا باقتران الفاء بـ(قد) الَّتي تفيدُ التَّحقيقَ، لمناسبتِه لمقامِ المبالغةِ في تحمُّل البهتانِ والإثم.

براعةُ الكلامِ بينَ اتِّحادِ الشَّرطِ والجزاءِ والمجازِ المرسَلِ:

إعادة الشَّرط في الجزاء هنا على معنى البالغِ النِّهايةَ في العقوبة

يحتملُ أسلوبُ الشَّرطِ في هذهِ الآيةِ أنْ يكونَ على سبيلِ اتِّحادِ الشَّرطِ والجزاءِ؛ لِيكونَ من بابِ تكريرِ الشَّرطِ والجزاء، وكأنَّ الجزاءَ لا يقادَرُ قدرُه، فيذكرُ لعظمِه، فهو البالغُ النِّهايةَ في العقوبةِ، كما مرَّ في الآيةِ السَّابقة؛ إذْ جُعلَ جزاءُ العقوبةِ العظيمةِ أمرًا ظاهرَ اللُّزوم لرمي البريءِ بالخطيئة أو الإثم، وهذا الأسلوبُ كثيرٌ في القرآن، وهو أسلوبٌ عربيٌّ بليغٌ، كقولِ العربِ: (مَنْ أدركَ مرعَى الصَّمانِ فقدْ أدركَ)، أي: فقدْ أدركَ المرعَى، بمعنى: ليس بعدَ مرعى الصَّمانِ مرعى[1]، ويحتملُ أنْ يكون من المجازِ المرسلِ بذكر السَّببِ الظَّاهرِ وإرادةِ المسبَّبِ؛ فإنَّه لمَّا ذُكِرَ تحمُّلُ الرَّامي البهتانَ والإثمَ؛ لزمَ له بالغُ العقوبةِ في الحياةِ الدُّنيا ويومَ القيامة، وإنَّما ذكرَ السَّبب لبيانِ استحقاق الرَّامي العقوبةَ العظيمةَ وإثباتها بالحجَّة والدَّليل.

مناسبةُ مجيءِ العطفِ في الجزاءِ في قوله: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا﴾:

معصيةُ الَّذي يرمي البريءَ معصيتان وله عقوبتان

دلَّ وقوعُ العطفِ في الجزاء على اجتماع عقوبةِ البهتانِ والإثم على من يرمي البريءَ بالخطيئة أو بالإثم، والتَّشريك بينهما؛ للتَّنبيهِ على أنَّ من يرمي بأحدهما بريئًا؛ فهو في استحقاقِ العقابِ سواء، وإن كان

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/455، والطيبي، فتوح الغيب: 3/233، والخفاجي، عناية القاضي: 3/89، 348.

ارتكابُ الخطيئةِ ليس مثلَ ارتكابِ الإثم، وعلى أنَّ من يرمي البريءَ يحصلُ له بذلك معاقبةُ مرتكبِ البهتان، ومعاقبةُ مرتكبِ الإثم، فلمَّا أراد الرَّامي تحميلَ البريءِ عقوبةَ العاجلةِ، جعلَ اللّه له عقوبتَين، وذلك تعظيمٌ لاتِّهام البريءِ بما ارتكبَه غيرُه عمدًا كان أو خطأً[1].

مناسبةُ تقديمِ البهتانِ على الإثمِ:

البهتانُ أعظمُ قبحًا وعقوبةً من الإثمِ

قَدَّمَ ٱلۡبُهۡتَ لِقُرۡبِهِ مِنۡ قَوۡلِهِ: ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾؛ ليكونَ بمنزلةِ المقابلِ له، وَلِأَنَّهُ ذَنۡبٌ أَفۡظَعُ مِنۡ كَسۡبِ ٱلۡخَطِيـَٔةِ أَوِ ٱلۡإِثۡمِ، ولأنَّ صاحبَ البُهتانِ مذمومٌ في دُنياه أشدَّ الذَّمِّ، ومعاقَبٌ في آخرتِه أشدَّ العقابِ، فقدَّم الأقبحَ على القبيحِ[2].

نكتةُ وصفِ الإثمِ بقولِه: ﴿مُّبِينٗا﴾:

وصفَ الإثمَ بكونِه مبينًا، بصيغة اسم الفاعلِ، أي: واضحًا جليًّا، بمعنى: أنَّ الإثمَ المُرمَى به البريءُ يبيِّنُ بنفسِه براءتَه، وهو مُبينٌ لمعرفة الرَّامي بخيانة نفسِه وبراءةِ المرمى به، ولأنَّ اللّه ﷻ أجرى عادتَه الجميلةَ أنْ يظهرَ براءةَ المقذوفِ به يومًا ما بطريقٍ من الطُّرقِ، ولو لبعضِ النَّاسِ[3].

نكتةُ وَصفِ الإثمِ دونَ البُهتان:

البهتانُ لا يُقادَرُ قـدرُه لعظيمِ إثمِه وعقوبته

لَمَّا كان البهتان أمرًا عظيمًا، وجميعُ العقلاء ينكرون على صاحبه، وهو كَذِبٌ محرَّمٌ في سائرِ الأديان؛ اكتُفي في بيان عِظَمِ البهتانِ بالتَّنكير التفخيميِّ، كأنَّه قيل: (بهتانًا لا يقادَرُ قدرُه، وإثمًا مبينًا)، كما أنَّ وصفَ الإثمِ بكونه مبينًا بمنزلة وصفِ البهتانِ به؛ لأنَّهما عبارةٌ عن أمرٍ واحدٍ لاجتماعِهما في الجزاء، فكأنَّه وصفَ البهتانَ بوصفين[4].

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1433.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/398.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230، والآلوسي، روح المعاني: 5/143.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: 113]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عصمةُ النَّبيِّ ﷺ بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ

ولمَّا وعظَ سبحانه وتعالى في هذه النَّازلةِ وذكرَ أعمالَ الخائنين وأوصافَهم وأحكامَهم؛ بيَّن نعمته على نبيِّه ﷺ في عصمته عمَّا أرادوه من مجادلتِه عن الخائن، وهو الحاكمُ بينَ الخصمين؛ إثباتًا لنبوَّته وتأييدًا له بالعصمة، بفضلٍ من اللهِ ورحمةٍ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضۡلُ﴾: يدورُ معنى الفضلِ على الزِّيادةِ في الشَّيء، وهو ضدُّ النَّقص، وأكثرُ ما يُستعملُ الفضلُ في الزِّيادة في الخير وفي ما هو محمودٌ، فإن كان في ما هو مذمومٌ فيُقالُ: الفُضول، والفَضْلة: البقيَّةُ من الشَّيء، والإفضالُ: الإحسانُ، والفواضل: الأَيادي الجسيمة، وهذا من المجاز، والفضيلةُ: الدَّرَجةُ الرَّفِيعَةُ في الفَضْل، وفضلُ اللهِ الزِّيادةُ في القدرِ والمنزلةِ، وكلُّ عطيَّة لا تلزم من يعطي؛ يُقالُ لها: فَضْلٌ، وفضلُ اللهِ على نبيِّه عطيَّتُه من الخيرِ في القدرِ والمنزلةِ، وما اختصَّ به ﷺ من العصمة والتَّوفيق، وهو المرادُ في الآية(2).

2) ﴿لَهَمَّت﴾: أصلُ معنى الهمِّ يدورُ على ذوبانِ الشَّيءِ، ومنه انهَمَّ الثَّلجُ، والشَّحْمُ، والبَرَدُ: ذاب، والهَمُّ: الحُزْنُ الَّذي يُذيبُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/398.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن/19، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).

الإنسانَ، وأهَمَّه: أَقْلَقه وحَزَنه، وهمَّه السَّقمُ والمرض: أذابَه وأذهبَ لحمَه، ويُقالُ: همَّ بالشَّيْءِ يَهمُّ همًّا؛ إذا أراده ونواه وعزم عَلَيْهِ، أَو حدَّث بِهِ نَفسَه[1]، ومعنى ﴿لَهَمَّت﴾ في الآية: لَجعَلَتْهُ هَمَّهَا وَشُغْلَهَا حَتَّى تُنَفِّذَهُ[2].

3) ﴿طَآئِفَةٌ﴾: جذرُه اللُّغويُّ (طوف)، وأصلُ معناه: دَوَرَانُ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ، وأَنْ يُحَفَّ بِهِ، يُقَالُ: طَافَ بِهِ، وبِالبَيْتِ، يَطُوفُ طَوْفًا وَطَوَافًا، والطَّوافُ المشيُ حولَ الشَّيءِ، ومنه: الطَّائفُ لمن يدورُ حولَ البيوتِ، والطَّائفةُ القطعةُ من الشَّيء، وتطلقُ الطَّائفةُ على الْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ، وتَقعُ عَلَى الْوَاحِدِ، كأنَّه أَرادَ نَفْسًا طَائِفَةً[3]، والمرادُ بالطَّائفةِ في الآيةِ القومُ الَّذين نزلت فيهم الآياتُ السَّابقةُ، وهم قومُ طُعمةَ بنِ الأُبيرق[4].

4) ﴿يُضِلُّوكَ﴾: الضَّلالُ: هو ضياعُ الشيءِ، وذهابُه في غيرِ حقِّه، ولهذا وُسِمَ الضَّلالُ بالعُدولِ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، والمنهجِ القويمِ عمدًا كان أو سَهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، والضَّلالُ ضدُّ الهُدى، وضلَّ في الأمرِ ضلالاً؛ إِذَا لمْ يَهتدِ لَهُ، وضلَّ في الأَرْضِ ضلالًا؛ إذا لمْ يهتدِ للسَّبيلِ[5]، ويُضلُّوكَ في الآية بمعنى: يُخَطِّئُوكَ في الْحُكْمِ الحقِّ، وَيُلْبِسُوا عَلَيْكَ الْأَمْرَ[6].

5) ﴿يَضُرُّونَكَ﴾: الضَّرَرُ النُّقصانُ يدخُلُ في الشَّيءِ، تقول: دَخلَ عليه ضَرَرٌ في ماله، أي: نقصَ ماله، والضَّرُّ والضُّرُّ لُغَتَانِ: ضِدُّ النَّفعِ، وذهب بعضُ اللُّغويين إلى التَّفريقِ: فقيلَ: كُلُّ مَا كَانَ مِنْ سُوءِ حَالٍ وَفَقْرٍ أَو شِدَّةٍ في بَدَنٍ فَهُوَ ضُرٌّ، وَمَا كَانَ ضِدًّا لِلنَّفعِ فَهُوَ ضَرٌّ، ومن الضُّرِّ سُوءُ الحالِ لنقصٍ دخل فيه، إمَّا في النَّفس؛ لقلَّة العلمِ والفضلِ والعفَّةِ، وإمَّا في البدنِ؛ لعدمِ جارحةٍ ونقصٍ فيه، وإمَّا في الحالةِ الظَّاهرةِ من قلَّةِ مالٍ وجاهٍ[7]، ومعنى إضرارِه ﷺ أن يَبتعدَ عنِ الحقِّ، وهو لم يحصُلْ، فإنَّ اللَّه ﷻ عصمَك، وما خطَرَ ببالِك كان اعتمادًا منك على ظاهرِ الأمرِ، لا مَيلًا في الحُكمِ[8].

---

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (همم).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 1/477.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (ضلل).
(6) البغوي: معالم التنزيل: 1/700.
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر).
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/96.

6) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هو القرآنُ الكريمُ[1].

7) ﴿عَظِيمٗا﴾: يدور معنى عِظَم الشَّيءِ على الكِبَرِ والقوَّةِ، وعَظُمَ الشَّيءُ أصلُه: كبُرَ عظمُه، ثمَّ استعيرَ لكلِّ كبيرٍ، فأُجريَ مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنًى[2]، ومعظم الشَّيء: أكثره، وعَظُم عِظَمًا كبُرَ، فهو عظيمٌ[3]، و﴿عَظِيمٗا﴾ في الآية بمعنى: (كبيرًا كثيرًا).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لولا أنَّ اللّه خصَّك بالفضلِ، وهو النُّبوَّةُ والتَّأييدُ بالعصمةِ، ورحمتُه لك ببيانِ حقائقِ الأمورِ وإعلامِك بها؛ لعزمتْ جماعةٌ من الَّذينَ يخونونَ أنفسَهم أنْ يُزلُّوك عن طريقِ الحقِّ وعن الحكمِ العدلِ، وما يُزلُّونَ بذلك إلَّا أنفسَهم، وما يقدرونَ على إيذائِك وإيقاعِ الضَّررِ بكَ، لعصمةِ اللّهِ لكَ، وأنزلَ اللّه عليك القرآنَ والسُّنَّةَ المبيِّنةَ له، وعلَّمَكَ ما لم تكنْ تعلمُه مِن قبلُ من أمورِ الدِّينِ والأحكامِ وغيرِهما، وكان ما خصَّكَ اللّهُ به من فضلٍ ونعمةٍ أمرًا عظيمًا[4].

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة التَّعبير بأداةِ الشَّرط ﴿وَلَوۡلَا﴾:

تحقُّقُ فضلِ اللهِ ورحمتِه على رسولِه ﷺ

دلَّ التَّعبيرُ بأداة الشَّرط ﴿وَلَوۡلَا﴾ على القطعِ بامتناعِ وقوعِ ما همُّوا له من إزالة رسولِ اللّهِ ﷺ من الحكم بالحقِّ؛ لتحقُّقِ ما خصَّ اللّه رسولَه ﷺ من فضلِه ورحمتِه بالنُّبوَّةِ والعصمةِ، والقصدُ بيانُ تحقُّقِ فضلِ اللّهِ ورحمتِه على رسولِه وإثباتِ القطعِ بامتناعِ إزالةِ رسولِه عن الحقِّ، لاستمرارِ فضلِ اللّهِ عليه ورحمتِه من غيرِ انقطاعٍ.

دلالةُ الإضافةِ على التَّخصيص:

تعظيمُ فضلِ اللهِ ورحمتِه التي خصَّها اللهُ لرسولِه

في قولِه: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ إضافةُ العامِّ: وهو ﴿فَضۡلُ﴾، إلى الخاصِّ:

(1) البغوي، معالم التنزيل: 1/700.
(2) الراغب، المفردات: (عظم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (عظم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/199، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/216.

وهو ﴿ٱللَّهِ﴾، وأفادت إضافةُ التَّخصيصِ هنا: تعظيمَ الفضلِ والرَّحمةِ التي خصَّها اللّٰه لرسولِه وكونها أمرًا إلهيًّا، ودلَّ عليه التَّقييدُ بقولِه: ﴿عَلَيۡكَ﴾، ولهذا عبَّر المفسِّرون عن الفضل بالنُّبوَّةِ أو العصمةِ وما هو في معناهما[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قولِه: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾:

عبَّرَ بالمصدرِ ﴿فَضۡلُ﴾ دونَ الفعلِ؛ للدَّلالةِ على سعتِه ولما يقتضيه من آثاره المتكثِّرة، وكونِه فضلًا ثابتًا.

مناسبةُ مجيءِ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ﴾:

استيعابُ فضلِ اللهِ المعظَّمِ على رسولِه ﷺ وتمكُّنه منه

عُبِّرَ بـ﴿عَلَيۡكَ﴾ لما يدلُّ حرف الاستعلاء (على) على معنى الاستيعاب والتَّمكُّن، وتعظيم الفضلِ لرفعتِه وما يُشعر به من نزولِه من علوٍّ، والمعنى: استيعابُ فضلِ اللّٰهِ المعظَّم على رسولِه ﷺ وتمكُّنه منه، وكُرِّرَ ﴿عَلَيۡكَ﴾ في الآية مرَّتين كما سيأتي.

نكتةُ تقديمِ الفضلِ على الرَّحمة:

لولا رحمةُ اللهِ؛ لَمَا تفضَّلَ على أحدٍ من خلقِه

لأنَّ فضلَ اللّٰهِ بسبب رحمتِه، فلولا رحمةُ اللّٰهِ لما تفضَّلَ على أحدٍ من خلقِه.

حذفُ القيدِ بينَ الإيجازِ والتَّعميمِ في قولِه: ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾:

رحمةُ اللهِ لرسولِه فيها معنى الخصوصيَّةِ والتَّعظيمِ المناسبين للمقامِ

يحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ على الإيجازِ بحذفِ القيدِ، أي: الجارِّ والمجرورِ (عليكَ) أو (بكَ) بعد قولِه: ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾، والتَّقدير: ورحمتُه عليكَ أو ورحمتُه بكَ، فحُذِفَ لِقرينةِ السِّياقِ بدلالةِ المذكورِ في قولِه ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ﴾، فتكونُ الرَّحمةُ في الآيةِ ممَّا خصَّ اللّٰه به رسولَه من رحمةٍ ليست كسائرِ النَّاسِ، ففيها معنى الخَصوصيَّةِ والتَّعظيمِ المناسبين لمقامِ نبيِّه وحبيبِه ﷺ كما يحتملُ أنْ يكونَ على معنى تعميمِ رحمتِه، فيكونُ الفضلُ ممَّا اختصَّ به رسولُ اللّٰهِ ﷺ ورحمتُه به ممَّا عمَّتْه، وشملتْه كما تعمُّ جميعَ المؤمنينَ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/199، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/16.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾:

سعيُ المضلِّين لإزالة المؤمنين عن الحكمِ الحقِّ مع علمِهم بحقيقته

عبَّر بقوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ للإشعار بأنَّهم أرادوا أنْ يُضلُّوك عن القضاء بالحقِّ، ويزيلوكَ عنه مع علمهم بكُنهِ الأمرِ وحقيقتِه، فمعنى ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾: أن يخطِّئوك في الحُكْمِ، فيكون مجيءُ لفظِ الضَّلالِ على المجاز، لتهويلِ فعلِهم ولِلمبالغة في تعظيم ما همُّوا به[1]، فالإضلالُ هنا ليس من باب الحقيقةِ، بل من المجازِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَهَمَّت﴾:

نفي تأثيرِ الهمِّ إيذانٌ بنفيه بالكلِّيَّةِ

قد يُقالُ: إنَّ الهمَّ قد وقعَ منهم، فكيف ينفي همَّهم؟ لأنَّ التَّعبير بأسلوب الشَّرط بـ(لولا) يدلُّ على القطع بامتناع وقوعِ الجزاءِ لوقوع الشَّرط، فيكون نفيُ الهمِّ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، ونكتتُه أنَّه إنَّما نفى همَّهم مع أنَّ المنفيَّ إنَّما هو تأثيرُه فقط إيذانًا بانتفاء تأثيرِه بالكلِّيَّة[2].

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ:

عصمةُ اللهِ لرسولِه تبطلُ كيدَ الكائدين وضلالَهم

أُسندَ الهمُّ إلى الطَّائفةِ، واللَّفظ على العموم؛ لِيكون على خلاف مقتضى الظَّاهر ليشملَ أهلَ النَّازلة وغيرَهم، أي: ولولا عِصمةُ اللهِ لك؛ لكانَ في النَّاس من يشتغلُ بإضلالِك، ويجعلُه همَّ نفسِه، أي: كما فعلَ هؤلاء، لكنَّ العصمةَ تُبطلُ كيدَ الجميعِ، فيَبقَى الضَّلالُ في حيِّزِهم[3].

بديعُ الجناسِ في قوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ و﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾:

مناسباتُ الألفاظِ تحدثُ ميلًا وإصغاءً وتشوُّقًا إلى الكلامِ

ورد الجناس النَّاقص في الآيةِ لتحسينِ الكلام وتزيينه؛ ليميل المخاطَبُ إلى الإصغاءِ إلى الكلامِ، فإنَّ مناسبةَ الألفاظِ تحدثُ ميلًا وإصغاءً إليها؛ ولأنَّ اللَّفظَ المشتركَ إذا حُمِلَ على معنًى، ثمَّ جاءَ

(1) الواحدي، الوسيط: 2/114.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/231.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112.

والمرادُ به معنىً آخرُ كان للنَّفسِ تشوُّفٌ إليهِ، وللتَّنبيهِ إلى أنَّهم قد أصابهم عينُ ما همُّوا به؛ نكايةً بهم وتقريعًا لهم وتوبيخًا[1].

بلاغةُ القصرِ في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ﴾:

الخائنون ليسوا قادرينَ على الإضلالِ، وما يُضلُّونَ إلَّا أنفسَهمْ

طريق النَّفي والاستثناء يُسلَك معَ مَنْ يعلمُ المتكلِّم أنَّ المخاطبَ مخطئٌ فيه، وهو مصرٌّ على خطئه[2]، وبيانُه في الآية أنَّه لمَّا كانتْ هذهِ الطَّائفةُ تعلمُ أنَّ رسولَ اللّه صلَّى اللّهُ عليه سلَّم على الحقِّ، وتعلمُ أنَّها بإلباسها على نبيِّ اللّهِ ﷺ تعدلُ عن الطَّريقِ المستقيم؛ أبرزَ الكلامَ في معرضِ مَنْ يعتقدُ أنَّهُ على الصَّوابِ؛ ليكونَ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ توبيخًا لهم وتقريعًا، فكأنَّه قيل: ليسوا قادرينَ على الإضلالِ، وما يُضلُّونَ إلَّا أنفسَهمْ.

سببُ إيثارِ النَّفي بـ(ما) دونَ غيرِها من أدواتِ النَّفي:

تأكيدُ ضلالِ الخائنين واستمرارِه

لمَّا كانت (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلامٍ أو ما نزِّلَ هذهِ المنزلةَ، وكان النَّفي بها آكدَ من غيرِها، ودالًّا على الاستمرارِ لقرينةِ السِّياق[3]؛ عُبِّرَ بها في أسلوبِ القصرِ لتأكيد ضلالِهم واستمرارِه.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يُضِلُّونَ﴾:

أفادَ مجيءُ الفعلِ بصيغة المضارعِ استمرارَهم في الضَّلال، لتجدُّدِه حالًا فحالًا، والمعنى: ازدادوا ضلالًا على ضلالِهم بما همُّوا به.

دلالةُ الاعتراض في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾:

دفعُ توهُّمِ قدرةِ الخائنينَ على الإلباسِ على رسولِ اللهِ ﷺ ونفيُ أيِّ ضررٍ عنه

وردت الجملتان المعطوفَتان على سبيل الإطناب بالاعتراض[4]، ونكتةُ مجيئِه في الجملة الأولى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ هي لدفعِ توهُّمِ قدرتِهم على الإلباسِ على رسولِ اللّهِ ﷺ ولتأكيدِ إثباتِ

(1) السبكي، عروس الأفراح: 2/282.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم/294.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/192، 194.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/231.

ضلالِهم واستمرارِهم عليه، وسببُ مجيئِه في الجملةِ الثَّانية، لِلتَّنبيه على نفي أيِّ ضررٍ يصيبُ رسولَه ﷺ منهم في الماضي أو في المستقبل، وفيه تأكيدٌ لإثبات نبُوَّته ﷺ وعصمتِه[1].

سببُ إيثارِ النَّفي بـ(ما) في قوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾:

تقدَّم أنَّ (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلامٍ أو ما نُزِّلَ هذه المنزلةَ، فعُبِّرَ بها هنا للرَّدِّ على ما كانوا يعتقدونَه من قدرتِهم على الإضرارِ بنبيِّ اللّه ﷺ كما أنَّها آكدُ من غيرِها في النَّفي، وتفيدُ هنا استمرار نفي إضرارِهم برسولِ اللّه ﷺ لدلالتها على النَّفي المطلق بقرينة السِّياق وتأكيدِ النَّفي بـ(مِن).

(مــا) آكــدُ من غيرِها في النَّفي؛ ولـهـذا لا تـزادُ (مِـن) إلَّا معها من أدواتِ النَّفي

دلالةُ (مِن) في قوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾:

لَمَّا كانَ حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ دالًّا عَلَى الْعُمُومِ نَصًّا؛ لمجيئه في سياق النَّفي بـ(ما)، وكانت (ما) دالَّةً على استمرارِ النَّفي كما تقدَّم كان المعنى: لَا يَضُرُّونَكَ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، لا في الحالِ وفي المستقبل، فيكونُ وعدًا بالعصمة في المستقبل، وفيه إعجازٌ قرآنيٌّ بعصمة رسولِ اللّه ﷺ من الضُّرِّ والأذى في المستقبل، وقد كان[2].

إعـجـازٌ قـرآنيٌّ بعصمةِ رسولِ الـلـهِ ﷺ من الضُّرِّ والأذى في المستقبلِ

مناسبةُ مجيءِ قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾:

لَمَّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾ بيانًا لعصمة رسولِه ﷺ في المستقبل؛ أفادَ ما بعدَه تأكيدَ هذهِ العصمةِ وتقريرَها، وبيانُه أنْ يُقالَ: لَمَّا أنزلَ عليك الكتابَ والحكمةَ، وأمركَ بتبليغِ الشَّريعةِ إلى الخلقِ؛ فكيف يليقُ بحكمتِه ألَّا يعصمكَ عن الوقوعِ في الشُّبُهاتِ والضَّلالاتِ، أو أنْ يصيبَك ضرٌّ يمنعُ من التَّبليغِ والإنذارِ، وأيضًا

لا يليقُ بحكمةِ الله ألَّا يعصمَ رسـولَـه عن الـوقـوعِ في الضَّلالاتِ أو أن يصيبَه ضرٌّ يمنعُ من التَّبليغ

(1) السبكي، عروس الأفراح: 1/617.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/61.

في هذهِ الجملةِ زيادةُ تقرير معنى قولِه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾، وبيانٌ لأعظمِ أنواعِ فضلِه ورحمتِه[1].

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ في قولِه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

تربيةُ المهابةِ من اللهِ في نفوس السَّامعين

فذُكرَ الاسمُ الجليلُ في بداية الآية، وكان الظَّاهرُ أن يُعبَّرَ بالضَّمير لقربِ المذكورِ، فجاء الكلامُ على خلاف مقتضى الظَّاهرِ بوضع الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ موضعَ المُضمَرِ؛ لتربيةِ المهابةِ في نفوسِ السَّامعِين، ولِتعظيمِ ما أنزلَ اللهُ، وما علَّمَ رسولَه ممَّا لم يكن يعلمُ، ولأنَّه في مقامِ الامتنانِ وتأكيدِ العصمةِ والحفظِ، فاقتضى نسبةُ الفعلِ إلى الاسمِ الجليلِ الدَّالِّ على الألوهيَّة.

مناسبةُ مجيءِ حرفِ الجرِّ (على) في قولِه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾:

تمكُّنُ القرآنِ من النَّبيِّ ﷺ والتَّنبيه على علوِّ شأنِه

عُبِّرَ بـ﴿عَلَيۡكَ﴾ لما يدلُّ عليه حرف الاستعلاء (على) على معنى الاستيعابِ والتَّمكُّنِ، فلم يقل: (وأنزل إليكَ الكتابَ)؛ لإظهار تمكُّنِ المنزَّلِ من النَّبيِّ ﷺ واستيعابِه للذَّاتِ الشَّريفةِ، وللإشارةِ إلى علوِّ شأنِ الكتابِ ورفعتِه وعلوِّ شأنِ المنزَّلِ عليه.

سببُ إيثارِ ذكرِ الكتابِ دونَ القرآنِ:

فعبِّرَ بالكتابِ الَّذي هو القرآنُ لمناسبةِ لفظِ الكتابِ للحكمةِ والعلمِ.

دلالة (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

القرآنُ هو الكتابُ الكاملُ في معانيه وأحكامِه وبلاغتِه

تحتملُ (الـ) أن تكونَ لاستغراقِ أوصافِ الكمالِ، بمعنى: أنزلَ اللهُ عليك الكتابَ الكاملَ في معانيه وأحكامِه وبلاغتِه، وكأنَّه هو المنفردُ باستحقاقِ وصفِ الكتابِ، كما تحتملُ (الـ) أنْ تكونَ للعهدِ العلميِّ، بمعنى: الكتابِ المعهودِ الَّذي يعلمُه المخاطبونَ والنَّاسُ.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/216م/ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/197.

دلالةُ (ال) في قوله: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

كمالُ الحكمةِ في السُّنَّة النَّبويَّةِ

إذا كان المرادُ من الحكمة سُنَّةَ رسولِ اللّهِ ﷺ فإمَّا أنْ تكونَ (الـ) لاستغراقِ الأوصافِ بمعنى: كمالِ الحكمةِ في السُّنَّة النَّبويَّةِ، أي: في ما كانَ في غيرِ الكتابِ أي القرآن، وإمّا أنْ تكونَ للعهد العلميِّ بمعنى السُّنَّةِ المعهودةِ عندَ المخاطَبين، وإذا كانَ المرادُ من الحكمةِ معرفةَ أسرارِ القرآنِ وحقائقِه، فتكونُ (الـ) استغراقيَّةً لأفرادِ المعارفِ والأسرارِ التي أطلعَها اللّهُ تعالى لرسوله الكريم ﷺ.

دلالة (ما) في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾:

لولا إعلامُ اللهِ رسولَهُ خفيَّاتِ الأمورِ وأمورَ الدِّينِ وأحكامَ الشَّرعِ لَمَا علمَها

تفيدُ (ما) هنا: العمومَ؛ ليشملَ أخبارَ القرونِ السَّابقةِ، وعلمَ أَسۡرَارِ ٱلۡكِتَابِ وَٱلۡحِكۡمَةِ وغيرِها من الأشياءِ والأحوالِ ممَّا خصَّ اللّه به رسولَه ﷺ من العلم، والمقامُ مقامُ تخصيصٍ، والمعنى: علَّمكَ بالوحي من خفيَّاتِ الأمورِ الَّتي من جملتِها وجوهُ إبطالِ كيدِ المنافقين، أو من أمورِ الدِّين وأحكامِ الشَّرع، ولولا إعلامُهُ إيَّاكَ إيَّاها لَمَا تعلَّمتَها[1].

دلالةُ صيغةِ الفعل ﴿وَعَلَّمَكَ﴾:

تكثيرُ المعلوماتِ الَّتي علَّمها اللهُ رسولَهُ حبًّا له ﷺ وتكريمًا

دلَّ مجيءُ الفعلِ على صيغة (فعَّل) على تكثير ما علَّمَه اللّهُ لرسولِه ﷺ، كما تُشعرُ صيغةُ الخطابِ بالتَّودُّدِ والتَّحبُّبِ والتَّقريب.

بديعُ الجناسِ في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿تَعۡلَمُۚ﴾:

وردَ في الآية الجناسُ النَّاقصُ في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿تَعۡلَمُۚ﴾، لتزيين الكلامِ وتحسينه، ليتشوَّفَ المخاطبُ إلى الإصغاء إلى الكلامِ والميلِ إلى سماعِه والانتباهِ إليه، فإنَّ اللَّفظَ المشتركَ؛ إذا حملَ على معنى، ثم جاءَ والمرادُ به معنًى آخر كانَ للنَّفسِ تشوُّفٌ إليه[2].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/62، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/231.

(2) السبكي، عروس الأفراح: 2/282.

بديعُ طباق السَّلب:

في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ طباق السَّلب، بين ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾، ليزيد المعنى حُسنًا بزيادة تنبيهٍ بما تفضَّل اللّه به على رسولِه الكريمِ ﷺ[1].

مناسبةُ التَّرتيبِ في الامتنان:

القــرآنُ منبعُ الحكمِ والعلومِ

ذكرَ اللّه تعالى امتنانَه على حبيبِه محمَّدٍ ﷺ في قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾، ونكتةُ مجيئِه بهذا النَّسقِ هو أنَّ اللّه تعالى رتَّبَ فضلَه على رسولِه ﷺ بحسبِ الأصلِ وما يترتَّبُ عليه، فبدأ بالكتابِ، وهو القرآنُ، ثمَّ ذكرَ الحكمةَ المترتِّبةَ على القرآنِ، وهي السُّنَّةُ أو معرفةُ أسرارِ القرآنِ وحقائقِه، ثمَّ ذكرَ العلم، وهو مرتَّبٌ على الحكمة؛ لِبيانِ آياتِ الامتنانِ بذكرِ الأعلى مكانةً ومنزلةً وفضلًا، ثمَّ ما يترتَّبُ عليه، فالقرآنُ منبعُ الحكمِ والعلومِ.

حسنُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾:

تضمَّنت جملة التَّذييلِ فوائدَ لغويَّةً وبلاغيَّةً، هي:

1. أفاد التعبير بـ(كان) استمرارَ فضلِ اللّه على رسولِه ﷺ وعدمَ انقطاعِه بعد موتِه؛ إذ يذكرُه المؤمنون، ويصلُّون عليه ﷺ كلَّ وقتٍ وحينٍ، وينتفعون من سُنَّتِه، فلهُ الثَّوابُ المستمرُّ الدَّائمُ، كما أفادَ التَّعبيرُ بـ(كان) ظهورَ آثارِ فضلِ اللّهِ على رسولِه بينَ النَّاس واستمرارِه.

2. لَمَّا كان أصلُ الخطابِ أن يكونَ لمعيَّنٍ، ويُترك لغيرِ معيّنٍ للحملِ على العموم؛ ليكونَ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ لنكتةِ شمولِ الخطابِ كلَّ مؤمنٍ، للإشعارِ بأنَّ كلَّ مؤمنٍ قد خصَّه اللّه بفضلٍ عظيمٍ؛ ليكونَ موجبًا لزيادةِ محبَّةِ اللّهِ وشكرِه.

---

(1) السبكي، عروس الأفراح: 2/225.

3. أفاد التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء (على) في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ تأكيدَ استيعابِ فضلِ اللّهِ على رسولِه ﷺ وتمكُّنِه منه.

4. لمَّا تصدَّر الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بما يدلُّ على إثباتِ فضلِ اللّهِ ورحمتِه على نبيِّه ﷺ كانت جملة التَّذييلِ بمنزلة ردِّ العجزِ على الصَّدر[1].

5. لمَّا جاءت جملةُ التَّذييل بعدَ بيانِ فضلِ العلم، وأنَّه مِن فضلِ اللّه؛ كانَ مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَاقِبِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللّه تَعَالَى مَا أَعْطَى الْخَلْقَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا، وَنَصِيبُ الشَّخْصِ مِنْ عُلُومِ الْخَلَائِقِ يَكُونُ قَلِيلًا، ثُمَّ إِنَّهُ سَمَّى ذَلِكَ الْقَلِيلَ: عَظِيمًا، وذلكَ يدلُّ على غايةِ شرفِ العلم[2].

6. لمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العموم والكلِّيَّة؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها، ولعلَّ هذه الجملةَ من أعظم ما يُتَمثَّلُ به في بيان امتنانِ المنَّانِ وعظيمِ فضلِه، ولاسيَّما أنَّها مُشعِرةٌ بقربِ التَّخاطبِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/197.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/217.

﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النِّساء: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أشارتِ الآيات السَّابقة إلى وجود جماعة مِنَ البشر تعمل على تدابير الشَّرِّ للاضطراب والإخلال المجتمعيِّ بسبب واقعة طعمَة بن أبَيْرق، وأنَّ الله مبطلٌ مكرهم وتدبيرَهم، ثمَّ جاءَت هذه الآية؛ لتشيرَ أنَّ الشَّرَّ لا يدبَّر إلَّا في خفاء، وطبيعة النَّاس تعلن الخير، وتخفي الشَّرَّ، وهذا التَّدبير للشَّرِّ حدث فيه تناجٍ وتسارر للكلام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا خَيۡرَ﴾: (خيَرَ) أَصله: الْعَطْف وَالْمَيْل، ثمَّ يحمَل عَلَيْهِ، فَالْخَيْر: خِلَاف الشَّرِّ؛ لِأَنَّ كلَّ أَحَدٍ يَمِيل إِلَيْه، وَيَعْطِف عَلَى صَاحِبِه[2]، فالخير: ما يرغب فيه الكلّ، كالعقل مثلًا، والعدل، والفضل، والشَّيء النَّافع، وضدّه الشَّرّ، والمعنى في الآية: لا نفْعَ[3].

2) ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾: جذر الكلمة هو: (نَجو)، نجاه نَجْوًا ونَجْوى، وأحد أصلَيِ الكلمة يدلّ على سَتْرٍ وَإِخْفَاءٍ[4]، والنَّجوى، والنَّجا: السِّرّ، والنَّجوى، والنَّجا: المتسارّون، وفي التَّنزيل: ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ [الإسراء: 47]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: 7]، يكون على الصِّفة والإضافة، وناجى الرَّجل مناجاة، ونجاء: سارَّه، وانتجى القوم، وتناجوا: تسارّوا، والجمع: أنجية[5]، فمعنى النَّجوى في الكلام: ما يتفرَّد به الجماعة والاثنان سرًّا كان أو ظاهرًا[6].

3) ﴿مَعۡرُوفٍ﴾: جذر الكلمة هو عَرَفَ: وعَرَفت الشَّيء مَعرِفَةً وعِرفانًا، وأَمرٌ عارفٌ،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1854.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).
(3) الرَّاغب، المفردات: (خير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(5) ابن سيده، المحكم: (نجو).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نجو).

معروفٌ، والعرف: المعروف[1]، و(المعروف) ضدّ المنكَر، و(العرف) ضدّ النّكر، يقال: أولاه عرفًا، أي: معروفًا[2]، والمعروف اسمٌ لكلِّ فعلٍ يعرف بالعقل أو الشَّرع حسنه، قال تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104]، والعرف والمعروف مِنَ الإحسان[3].

4) ﴿إِصۡلَٰحِۭ﴾: الصَّلاح ضدّ الفساد، وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسَّيِّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التَّوبة: 102]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، والصّلح يختصّ بإزالة النِّفار بين النَّاس، يقال منه: اصطلحوا وتصالحوا[4].

5) ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: جذر الكلمة هو (بَغَي)، وله أَصْلَانِ: أَحَدهمَا: طَلَب الشَّيْءِ، وَالثَّاني: جِنْسٌ مِنَ الْفَسَادِ، فالأَوَّل - وهو المراد هنا - بَغَيْت الشَّيْءَ أَبْغِيهِ؛ إِذَا طَلَبْته، وَيقَال: بَغَيْتكَ الشَّيْءَ؛ إِذَا طَلَبْته لَكَ، وَأَبْغَيْتكَ الشَّيْءَ؛ إِذَا أَعَنْتكَ عَلَى طَلَبِهِ[5]، والبِغيَة الحال الَّتي تبغيها[6].

6) ﴿مَرۡضَاتِ﴾: يقال: رضي، يرضَى، رضًا: فهو مرضيٌّ ومَرضوٌّ، ورضا العبد عن الله: ألَّا يكره ما يجرى به قضاؤه، ورضا الله عنِ العبد: هو أن يراه مؤتَمِرًا لأمره، منتهيًا بنهيه[7]، والمعنى هنا: رضا الله.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حذَّر الله في هذه الآية من المسارَرَة في سياق الكلام على أولئك المتناجين المبيِّتين للمكيدة، وجعل الكلام شاملًا للَّذين يرمون الأبرياء أيضًا، يغمّون النَّاس ويحزنونهم، ولذلك أخَّره، وذكره بصورة قاعدة تشريعيَّة عامَّة تشملهم وغيرهم على نهج القرآن في مثل ذلك؛ إذ لا نفع في كثير من كلام النَّاس سرًّا فيما بينهم، إلَّا إذا كان حديثًا داعيًا إلى بذل المعروف من الصَّدقة، أو الكلمة الطيبة، أو التَّوفيق بين النَّاس، ومن يفعل تلك الأمور طلبًا لرضا الله تعالى راجيًا ثوابه، فسوف نؤتيه ثوابًا جزيلًا واسعًا[8].

---

(1) الخليل، العين: (عرف).
(2) الرّازي، مختار الصّحاح: (عرف).
(3) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(4) الرّاغب، المفردات: (صلح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بغى).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، الجوهريّ، الصّحاح: (بغى).
(7) الرّاغب، المفردات: (رضي).
(8) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/123 - 124، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 97.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾:

علم الله بأحوال المتناجين

جاءَت هذه الجملة استئنافيَّة ابتدائيَّة؛ لإفادة حكم النَّجوى وحالات المتناجين، وجاءَت تعليقًا على ما سبق من أحداث واقعة أبناء طعمَة بن أبيرق - وأيضًا - لتأسيس تشريع عامٍّ للحفاظ على وحدة المجتمع، وترابط أبنائه، وللتنديد بطبيعة بعض حالات النَّجوى؛ لأنَّها لا تكون في الغالب إلَّا للشَّرِّ والإفساد، وللدَّلالة على أنَّ النَّجوى في أغلب حالاتها قليلة الخير كثيرة الشَّرِّ، وهي مظهر من مظاهر الإثم والعدوان[1].

دلالة مجيء المسند إليه نكرةً ومنفيًّا في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾:

كثيرٌ من حالات التَّناجي لا تأتي بخير

للدَّلالة على كثرة حالات التَّناجي بين النَّاس - وأيضًا - إلى ترك حالات النَّجوى كلِّها أو عامَّتها، فإن كان لابدَّ منها؛ فتكون في صدقة أو معروف أو إصلاح، فقدَّم المسند إليه ونفاه، وجاء به نكرة، فأفاد تخصيصه، وحقّ المعرَّف حَمله على وجه تقوية الحكمِ، وحَقّ المنكَر حمله على وجه التَّخصيص.

وفي دلالة النَّفي معانٍ تحفظ على المجتمع ألفته ووحدته؛ لأنَّ الكثير من حالات النَّجوى تبعث الرِّيبة في مقاصد المتناجين، وأنَّها لا تغلب إلَّا على أهل الرِّيب والشّبهات، بحيث لا تصير دأبًا إلَّا لأولئك، فمن أجل ذلك نفى اللّه الخير عن أكثر النَّجوى[2]، وقد أفردت ثلاثة أقسام من أفعال الخير: إمَّا لإيصال المنفعة، وإمَّا لدفع المضرَّة[3].

دلالة خروج النَّفي إلى معنى التَّنبيه والتَّوبيخ:

خرج النَّفي إلى معنى التَّنبيه والتَّوبيخ، لَمَّا كان قوم طعْمة قد

---

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/124 - 125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/199.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/484.

أعمال الظّاهر يلزم لها رعاية أحوال الباطن في إخلاص النِّيَّة

ناجَوا النَّبيّ ﷺ في الدَّفع عنه، فنبَّههم سبحانه وغيرهم على ما ينبغي أن يقع به التَّناجي، ويحسن فيه التَّفاؤل والتَّجاذب على وجه ناهٍ عن غيره أشدَّ نهي، بقوله تعالى: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ أي: نجوى جميع المناجين[1]، وفي فحوى خطاب الآية تنبيه شديد للنَّاس جميعًا، قد يصل إلى معنى التَّوبيخ، لمِن اعتاد هذا الفعل، وكثَّره دون اكتراث إلى فحوى التَّنبيه فيه، فقال: ﴿كَثِيرٖ﴾؛ ليشير إلى الاعتياد بلا اكتراث، وخطورة هذا الطَّبع البشريِّ.

دلالة استعمال (لا) النَّافية للجنس:

قـوَّة دلالتها في نفي الخيريَّة

استعملت في قوله: ﴿۞لَّا خَيۡرَ﴾؛ لأنَّها أقوى في الدَّلالة على نفي الخيريَّة عن كثير منَ التَّناجي، وسبب ذلك: أنَّ ما بعدها نكرة في سياق النَّفي، فأفاد العموم.

سرّ العدول عنِ التَّعبير بالشَّرِّ إلى نفي الخير:

حسن لغة القرآن تعليمٌ للدّعاة

آثر القرآن الكريم التَّعبير بنفي الخير بدلًا من ذكر الشَّرِّ في قوله تعالى: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ لفظ الخير محبوب للنَّفس، بخلاف الشَّرِّ فهو مكروه، وأيضًا فيه دعوة إلى فعل الخير، وتحذير من فعل الشَّرِّ في النَّجوى؛ لأنَّه مذموم في كلِّ أحواله.

دلالة التَّعبير بالظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي كَثِيرٖ﴾:

تَغلغل الظَّرف في المظروف

عبَّر بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ للدَّلالة على أنَّ عدم الخيريَّة في حالات التَّناجي تغلغل؛ إذ فيها تَغَلغل الظَّرف في المظروف.

سرّ اختيار لفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ دون غيره:

الكثرة تكون في الحالات والأعداد

لفظ (بعض) مثلًا لا يؤدِّي المعنى المراد؛ لأنَّه يصدق على القليل والأقلِّ، وعلى الجزء منَ الكلِّ، بخلاف لفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ في سياق الآية، فهو يشير إلى الجواب لسؤال يرد في الخاطر، كم نسبة التَّناجي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/400.

الّتي لا خير فيها ؟ فكان قوله: ﴿كَثِيرٍ﴾ جوابًا على هذا التّساؤل بأنَّ الأغلب لا خير فيها؛ لأنَّ الكثرة تكون في الحالات والأعداد.

دلالة الكناية في قوله: ﴿لَّا خَيْرَ﴾:

الاحتراس في الحكم صفة قرآنيَّة وأخلاق إيمانيَّة

معنى ﴿لَّا خَيْرَ﴾ أنَّه شرٌّ، بناء على المتعارف في نفي الشَّيء أن يراد به إثبات نقيضه؛ لعدم الاعتداد بالواسطة، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32]، ولأنَّ مقام التَّشريع إنَّما هو بيان الخير والشَّرِّ[1]، فإن لم يكن خيرًا؛ فهو من قبيل الشَّرِّ.

وقد نفى الخير عن كثير من نجواهم، أو متناجيهم، وهي كناية عن موصوف؛ إذ علم من مفهوم الصِّفة أنَّ قليلًا من نجواهم فيه خيرٌ، ولا يخلو حديث النَّاس من تناج فيما فيه خير.

وفائدة هذه الكناية: تظهر في افتراضنا أنَّه لو قال: "الشَّرّ في نجواهم"؛ لشمل ذلك كلَّ تفصيلات مناجاتهم، وكلَّ عبارة يقولونها، وجعلها كلَّها في خانة الشَّرِّ، لكنَّه لمَّا كنَّى بقوله: ﴿۞لَّا خَيْرَ﴾ منح الموضوع بعدًا آخر؛ إذ قد يضمَّن كلامهم ببعضٍ من عبارات الخير، أو ما يحقِّق نفعًا محدودًا، لكنَّ مضمون كلامهم على إجماله وفي كلِّيَّته لا يخرج منه حصيلة خير، فلو قال: "الشَّرّ في نجواهم"؛ لدلَّ ذلك على أنَّ كلَّ تفصيلات كلامهم، وكلَّ جملة يقولونها، هي من قبيل الشَّرِّ، وهذا قد يصدق، أو لا يصحّ على حالات النَّجوى بينهم.

سرّ التَّعبير بالإضمار في قوله ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾:

توظيف الحدث الخاصِّ في بناء المجتمع

اختلف في عود الضَّمير (هم) على الخاصِّ أو العامِّ في قوله: ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾؛ فذهب بعضهم إلى أنَّ الضَّمير في ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾ عائد على قوم طعمة الَّذين تقدَّم ذكرهم، قاله: ابن عبَّاس وغيره. وقال مقاتل: هم قوم منَ اليهود ناجَوا قوم طعمة، واتَّفقا معهم على التَّلبيس على الرَّسول ﷺ في أمر طعمة[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/199.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/63.

وذكر ابن عاشور أنَّ الضَّمير الَّذي أضيف إليه "نجوى" ضمير جماعة النَّاس كلِّهم نظير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: 5]، وليس عائدًا إلى ما عادَت الضَّمائر الَّتي قبله في قوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النِّساء: 108]؛ لأنَّ المقام مانع من عوده إلى تلك الجماعة؛ إذ لم تكن نجواهم إلَّا فيما يختصّ بقضيَّتهم، فلا عموم لها يستقيم معه الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[1].

وذكر أبو حيَّان الأندلسيّ أنَّ الآية جاءَت عامَّة، فاندرج أصحاب النَّازلة، وهم قوم طعمة في ذلك العموم؛ لكون الماضي والمغاير تشملهما عبارة واحدة[2].

دلالة إضافة الضَّمير إلى النَّجوى في قوله ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾:

التَّربية الفرديَّة تأسيسٌ لتربية المجتمع كلِّه

من دلالات إضافة الضَّمير: أنَّه عائد على النَّاس أجمع، وذلك من سياق الآيات الَّتي دلَّت على العموم، وفي عمومها يندرج أصحاب النَّازلة، وهذا منَ الفصاحة والإيجاز المضمَّن الماضي والغابر في عبارة واحدة[3]، وعلى هذا فالمقصود منَ الآية: تربية اجتماعيَّة دعَت إليها المناسبة، فإنَّ شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة؛ لأنَّ الصَّراحة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلِّم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلَّا في أحوال شاذَّة يناسبها إخفاء الحديث، فمَن يناجي في غير تلك الأحوال؛ رمي بأنَّ شأنَه ذميم، وحديثه فيما يَستحيي من إظهاره[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/198.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/65.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/198 - 199.

معنى حرف العطف ﴿أَوْ﴾:

تشريك المعنى في العطف

عرض العلماء لمعاني هذا الحرف، وجعلوا منها التَّقسيم، وهو على نحو قولك: (الكلمة: اسم، أو فعل، أو حرف)، ويمكن أن تكون بمعنى: الواو، كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ [الصّافّات: 147]، ومن أحسن شواهده: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرَّك، فقال رسول الله ﷺ: "اسكن حراء فما عليك إلَّا نبيٌّ، أو صدِّيق، أو شهيد"، وعليه النَّبيّ ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، وطلحة، والزّبير، وسعد بن أبي وقَّاص،[1] رضي الله عنهم.

وفي مسند الإمام أحمد ورد قوله: "اهدأْ فما عليك إلَّا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أوشهيد"[2]، ويمكن أن يكون ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ قد أفاد معنى (الواو).

وجه ذكر قوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ بعد (صَدَقَةٍ):

الاهـتـمـام بها لعظم شأنها في مصالح العباد

أتى بذلك للتَّدليل على فائدة مهمَّة تؤخَذ منَ السِّياق؛ لتدلَّ على أنَّه يجوز أن يقرن بين الخاصِّ والعامِّ، فقرن هنا المعروف، بما هو أخصّ منه فقال: ﴿۞لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النّساء: 114]، فالملاحظ أنَّ الآية في تركيبها غايرت بين المعروف والصَّدقة والإصلاح بين النَّاس، ونظير ذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45] فقد غاير بينهما، ودخلت الفحشاء في المنكَر في قوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104]؛ ثمَّ ذكر مع المنكَر اثنين في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ [النَّحل: 90]، فجعل البغي هنا مغايرًا لهما، وقد دخل في المنكر في ذينك الموضعين[3].

---

(1) مسلم، الحديث رقم: (6328).
(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (9430).
(3) ابن تيميّة، الإيمان، ص: 131.

وممَّا يذكر في هذا المقام أنَّ الصَّدقة تشمل الفرض والتَّطوع، والمعروف عامٌّ في كلِّ برٍّ، فـ(المعروف) لفظ يعمّ الصَّدقة والإصلاح، ولكن خصَّا بالذِّكر اهتمامًا بهما؛ إذ هما عظيما الغناء في مصالح العباد(1).

وفي الحديث قوله ﷺ: (كلّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلَّا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر اللّه)(2)، وحدَّث سفيان الثَّوريّ بهذا الحديث أقوامًا، فقال أحدهم: ما أشدَّ هذا الحديث! فقال له: ألم تسمع: كلّ معروف صدقة، وأنَّ منَ المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق(3).

فيندرج تحت المعروف الصَّدقة والإصلاح. لكنَّهما جرِّدا منه، واختصَّا بالذِّكر اهتمامًا؛ إذ هما عظيما الشَّأن في مصالح العباد.

فائدة العطف بـ﴿أَوْ﴾:

اللـفّ والنَّـشر فــي تـرتـيـب المعطوفات

عطف بـ﴿أَوْ﴾ مبالغة في تجريدهما، حتَّى صار القِسم قسيمًا(4)، وبحسب ذلك يظهر وجهٌ خاصٌّ من قبيل اللَّف والنَّشر، فصار المعروف لفًّا لنشر الصَّدقة والإصلاح بين النَّاس، ولكنَّه أخَّر الإصلاح، وخصَّه بالنَّاس، مع أنَّ الصَّدقة والمعروف هي للنَّاس أيضًا؛ لينتظم في فنٍّ بلاغيٍّ آخر، هو فنّ التَّرقِّي، وما يكتنفه في النَّصِّ منَ المعاني الجديدة.

دلالة التَّرتيب في هذه الأفعال:

الارتـــقـــاء في مـعـاني أفـعـال الخير هو ارتقاءٌ مجتمعيٌّ

هذا التَّرتيب على تفسير المعروف بالفرد يكون للارتقاء في معاني أفعال الخير؛ كما روي ذلك عن ابن عبَّاس ومقاتل، فارتقى في ترتيبها، وهذا هو الأولى في ذكر الصَّالح منَ الأعمال والحثِّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.
(2) التّرمذيّ، السنن، الحديث رقم: (2412)، وقال: حسن غريب.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.

عليها، فارتقى المعنى منَ الصَّدقة إلى الفرض إلى الإصلاح بين النَّاس، وذلك باعتباره أعلى درجات الأعمال الصَّالحة لما فيه من صلاح المجتمع والأمَّة، وقال ﷺ: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصَّلاة والصِّيام والصَّدقة، قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة"[1].

وبحسب ذلك - أيضًا - يمكن أن يفهم الكلام على التَّرقِّي من جهة أخرى، فقد ذكر ثلاثة أنواع لأعمال الخير، من أصغرها إلى أكبرها، ومن أدناها أثرًا إلى أعلاها شأنًا وقيمة؛ لأنَّ عمل الخير بإيصال المنفعة؛ إمَّا جسمانيًّا: وهو إعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله: بصدقة، وإمَّا روحانيًّا: وهو تكميل القوَّة النَّظريَّة بالعلوم، أو القوَّة العمليَّة بالأفعال الحسنة، ومجموعها عبارة عنِ الأمر بالمعروف، وإليه الإشارة بقوله: أو معروف[2]، وإمَّا أن يكون بدفع المضرَّة، وإليه الإشارة بقوله: أو إصلاح بين النَّاس[3].

دلالة البدء بالصَّدقة على تفسيرها بالواجب:

المجتمع النَّاهض يترقَّى أفراده في صنائع المعروف والإصلاح

دلَّ البدء بالصَّدقة على تفسيرها بالواجب، وإطلاق المعروف على ما يتصدَّق به على سبيل التَّطوّع[4]، وبحسب هذا المعنى يكون التَّدلِّي في معاني الإصلاح بحسب الكثرة والقلَّة في أفعال الخير ممَّا يفعله النَّاس؛ لأنَّ الآية وصفٌ لأعمالهم، فاقتضى أن يفعل ذلك جماعة منهم بقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ﴾، فيكون الأمر بالصَّدقة يعمل به طيف كبير منَ النَّاس؛ باعتباره الواجب، فيلتزم في أوانه النَّاس، أمَّا المعروف؛ فيكون الأقلَّ باعتبار الصَّدقة على سبيل التَّطوّع، وأمَّا الإصلاح بين النَّاس؛ فيقتصر على فئة قليلة جدًّا منَ المصلحين والعلماء.

وظاهر قوله: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أنَّه في كلِّ شيء يقع فيه اختلاف ونزاع، أو هو خاصٌّ بالإصلاح بين طعمة واليهوديِّ المذكورين[5].

(1) الإمام أحمد، المسند، وإسناده صحيح.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/33.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/597.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.

ومع حالة أخرى للتَّدلِّي: فهذه الثَّلاثة تضمَّنتِ الأفعال الحسنة، وبدأ بأكثرها نفعًا؛ وهو إيصال النَّفع إلى الآخرِ، ونبَّه بالمعروف على النَّوافل الَّتي هي منَ الإحسان، والتَّفضّل، والإصلاح بين النَّاس على سياستهم، وما يؤدِّي إلى نظم شملهم(1).

التَّناوب في اقتراح أفعال الخير كبيرها وصغيرها، من الدَّعوة إلى إصلاح العقول والقلوب

وجه ذكر العامِّ بعد الخاصِّ، ثمَّ الخاصِّ بعد العامِّ

تظهر دلالة ذكر العامِّ بعد الخاصِّ، ثمَّ الخاصِّ بعد العامِّ في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾؛ لأنَّه لمَّا خصَّ الصَّدقة لعزَّة المال في ذلك الحال؛ عمَّم بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، أيَّ معروف كان، ممَّا يبيحه الشَّرع من صدقة وغيرها، فذكر الخاصَّ ثمَّ ذكر العامَّ، وفائدة ذلك: أنَّه حينما يذكر (الصَّدقة) تتَّجه الأنظار والقلوب نحو هذا العمل الجليل الَّذي هو التَّصدّق بالمال، ولعلَّ ذلك العمل يختصّ به أهل الأموال أكثر من غيرهم، فعندما يقول: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ فقد عمَّم في ذكر أنواع الخير، فشمل المعروف النَّاسَ جميعًا، فكلّ عمل صالح هو معروف حتَّى إن كان كلمة طيِّبة يقولها، أو ابتسامة يطلقها، وقوله ﷺ مشهود في ذكر المعروف: "لا تحقرنّ منَ المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"(2)، فشمل كلَّ خير يمكن أن يقوم به الإنسان، وشمل النَّاس جميعًا من أهل المعروف والخير، ثمَّ انتقل من هذا العامِّ منَ المعروف إلى ذكر أخصِّ أنواع المعروف؛ وهو إصلاح ذات البين، ولمّا كان في إصلاح ذات البين من جلالة القدر، وعظيم الشَّأن؛ نبَّه على عظيمه بتخصيصه بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، وما ذاك التَّحوّل منَ الخاصِّ إلى العامِّ، ثمَّ منَ العامِّ إلى الخاصِّ إلَّا للتَّنبيه على عظيم الصَّدقة، والمعروف، والإصلاح، وجعلها محاور

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.
(2) مسلم، الحديث رقم: 6783.

رئيسة، وعناوين كبرى، تندرج تحتها أفعال الخير كلّها، فيكون المعنى: لا خير في كثير من نجواهم، ومن أراد الخير من أبوابه؛ فعليه بالصَّدقة، والمعروف، والإصلاح بين النَّاس.

ونجد في تحوّل الأسلوب بين العامِّ والخاصِّ؛ تنبيهًا لترك ما لا خير فيه، وإرشادًا وترغيبًا في أفعال الخير، وتعريفًا بمحاورها الرَّئيسة، وحثًّا على العمل بها، فذكر النَّاس عامَّة، فقد بيَّن ﷻ أنَّ غير المستثنى منَ التَّناجي لا خير فيه، وكلّ ما انتفى عنه الخير كان مجتنبًا[1].

وذِكْر الخاصَّ بعد العامِّ وجهٌ من وجوه الإطناب، فيذكر لما له من مزيَّة تفرّده دون سواه منَ العامِّ، وفيه منَ المزايا البلاغيَّة العظيمة الَّتي تحرِّك مكامن النَّفس، وتعيد بناء الفكرة الذِّهنيَّة بما يتوافق مع الشَّرع من عمل الخير ونبذ الشَّرِّ، فتجعل ذلك كلَّه محتوى في صورة فنِّيَّة بأسلوب بلاغيٍّ معجز.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾:

يدخل في المعروف كلّ خير، وفي المنكر كلّ شرٍّ

الإيجاز في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، أي: أمر بمعروف، ولم يقل: أمر بمعروف أو نَهَى عن منكر؛ مع أنَّ النَّهي عنِ المنكر ملازم للأمر للمعروف في مَواضِع كثيرةٍ منَ القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الأعراف: 157]، وقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، وقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التّوبة: 71]، إذ يدخل في المعروف كلّ خير، وفي المنكر كلّ شرٍّ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/400.
(2) ابن تيميّة، الإيمان، ص: 131.

بلاغة الاستثناء، وفروق المعاني:

تظهر بلاغة الاستثناء، وذلك بناء على اختلاف العلماء في المراد بالاستثناء بين الاتِّصال والانقطاع، والمعاني المترتِّبة على ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، والتَّقدير: إلَّا نجوى مَن أمَرَ بصدقة[1]، على سبيل الاستثناء المتَّصل، وهو مجمل يَصْدق على كلِّ نجوى تصدر منهم فيها نفع، وليس فيها ضرر، أو بلا تقدير، أي: لَكِن من أَمر بصدقة، أي: على سبيل الاستثناء المنقطع، إن كانتِ النَّجوى بمعنى: المتناجين، وهو مستثنى من كثير، فحصل من مفهوم الصِّفة، ومفهوم الاستثناء قسمان منَ النَّجوى، يثبت لهما الخير، ومع ذلك فهما قليل من نجواهم[2]، والمعنى: لا خير في كثير من نجواهم إلَّا فيمن أمر بصدقة، كقولك: لا خير في القوم إلَّا نفر منهم، والثَّاني: أن تجعله تبعًا للنَّجوى، كما تقول: لا خير في جماعة منَ القوم إلَّا زيد، إن شئت: أتبعت زيدًا الجماعة، وإن شئت: أتبعه القوم[3].

وقال الزَّمخشريّ: "إلَّا نجوى من أمر على أنَّه مجرور بدل من (كثير)، كما تقول: لا خير في قيامهم إلَّا قيام زيد، ويجوز أن يكون منصوبًا على الانقطاع، بمعنى: ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير"[4].

وقد نظر ابن عطيَّة إلى تقدير الكلام من جهة المستثنى منه، فقال: وتحتمل اللَّفظة في هذه الآية أن تكون الجماعة، وأن تكون المصدر نفسه، فإن قدَّرناها الجماعة، فالاستثناء متَّصل، كأنَّه قال: لا خير في كثير من جماعاتهم المنفردة المتسارَّة إلَّا من أمر بصدقة، وإن قدَّرنا اللَّفظة المصدر نفسه، كأنَّه قال: لا خير في كثير من تناجيهم، فالاستثناء منقطع بحكم اللَّفظ، ويقدَّر اتِّصاله على حذف مضاف، كأنَّه قال: (إلَّا نجوى من)، وقال بعض المفسِّرين: النَّجوى كلام الجماعة المنفردة كان ذلك سرًّا أم جهرًا[5].

---

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/199.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/33.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/597.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.

أخرج القرآن هذه الثّلاثة بطريق الاستثناء مع أنّها أخرجت ابتداءً بمفهوم الصِّفة:

التَّفصيل بعد الإجمال منهج سديد في الدَّعوة والتَّربية

أخرج القرآن هذه الثَّلاثة، وجعلها قِسمًا أخرجه الاستثناء، وهي: الصَّدقة، والمعروف، والإصلاح بين النَّاس، وهذه الثَّلاثة لو لم تذكر؛ لدخلَت في القليل من نجواهم الثَّابت له الخير في قوله: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾، فلو اكتفى بذلك لعلم أنَّ قليلًا من نجواهم هو منَ الخير، فلمَّا ذكرت بطريق الاستثناء علمنا أنَّ نظم الكلام جرى على أسلوب بديع، فأخرج ما فيه الخير من نجواهم ابتداءً بمفهوم الصِّفة، ثمَّ أريد الاهتمام ببعض هذا القليل من نجواهم، فأخرج من كثير نجواهم بطريق الاستثناء، فبقي ما عدا ذلك من نجواهم، وهو الكثير موصوفًا بأن لا خير فيه، وبذلك يتَّضح أنَّ الاستثناء متَّصلٌ، وأن لا داعي إلى جعله منقطعًا، والمقصد من ذلك كلِّه الاهتمام والتَّنويه بشأن هذه الثَّلاثة[1].

سرّ عطف قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ على ما سبق:

العمل لا يكون له روحٌ إلَّا بالنِّيَّة الصَّحيحة

لأنَّه لمَّا كان التَّقدير: فمَن أمر بشيء من ذلك؛ فنجواه خيرٌ، وله عليها أجر، عطف عليه قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمر العظيم الَّذي أمر به من هذه الأشياء، ويكون ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العمل لا يكون له روحٌ إلَّا بالنِّيَّة الصَّحيحة؛ فقال: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾، أي: في الآخرة بوعد لا خلف فيه ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[2].

دلالة الاحتباك في الآية:

الحوار الصَّريح خير وسيلة لحلِّ المشاكل

في الآية احتباك، والتَّقدير: (لا خير في كثير من نجواهم ولهم عليها إثمٌ إلَّا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النَّاس فنجواه خير ومَن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا)،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/401.

وفائدة هذا الاحتباك: الإيجاز أوّلًا، ثمَّ بيان أنَّ موضوعات النَّجوى فيها منَ التَّداخلات ما يكون أغلبها ليس في خير، وقد يكون المعنى المراد في النَّجوى أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح، لكن يداخل تلك الموضوعات كثير منَ الغيبة والقدح وغيرها، فيمتزج أحيانًا الخير بالشَّرِّ، فجاء أسلوب الاحتباك ليعكس واقع حال النَّجوى، ولبيان أنَّ أسلوب المناجاة أسلوب استثنائيٌّ، وينبغي أن يعمل المجتمع بالحِوار الصَّريح.

وقد ألزمتِ الآية في هذا الخبر الأفراد والمجتمعات تقليل هذا الأسلوب في التَّعامل، إلَّا في أحوال خاصَّة يكون في النَّجوى ما يضمن المعروف والإصلاح.

دلالة الجملة الاعتراضيَّة في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

صدق النِّيَّة لله باب القبول

دلَّتِ الجملة الاعتراضيَّة على الوعد بالثَّواب على فعل المذكورات؛ إذا كان لابتغاء مرضاة اللّه، فدلَّ على أنَّ كونَها خيرًا وصف ثابت لها لما فيها منَ المنافع، ولأنَّها مأمور بها في الشَّرع، إلَّا أنَّ الثَّوابَ لا يحصل إلَّا عن فعلها ابتغاء مرضاة اللّه، كما في حديث: "إنَّما الأعمال بالنِّيَّات"[1]، فاحترس بذكر من يفعل هذه الأفعال الصَّالحة منَ التَّصدّق والمعروف والإصلاح بين النَّاس أن يكون بنيَّة ابتغاء الثَّواب عند اللّه ومرضاته، فإنَّ اللّه سيؤتيه الأجر العظيم والثَّواب الجزيل جزاء عمله ونيَّته، ومفهوم المخالفة يدلّ على أنَّ من يفعل ذلك ابتغاء شيء دون مرضاة اللّه؛ فلن يؤتيه اللّه الأجر والثَّواب؛ لأنَّه لم يفعله طلبًا لذلك الأجر، فيعطي اللّه من طلب أجره وثوابه دون غيرهم.

سرّ تكرار ﴿مَنۡ﴾:

يفيد هذا التَّكرار التَّوكيدَ

تكرَّرت ﴿مَنۡ﴾ في الآية، فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾، وقد يفيد هذا التَّكرار التَّوكيدَ، إن كانت الثَّانية

(1) البخاريّ، رقم: (54)، ومسلم، الحديث رقم: (1907).

قصد منها الإشارة إلى الشَّخص نفسه في الأولى، فيكون مَن يفعل هو نفسه مَن أمر، وهذا هو كمال المعروف، أو كان الآمر هو نفسه المطاع في قومه، فيأتمرون بأمره، فيطلق الفعل على غير فاعله على سبيل المجاز العقليِّ، وهذا التَّغاير بين الأمر والفعل منح الموضوع مساحة واسعة في التَّفعيل والتَّطبيق.

وجه الالتفات الفعليّ بين ﴿أَمَرَ﴾ و﴿يَفْعَلْ﴾:

التَّواصل بين الأمر والفعل والانتقال منَ الأوامر إلى الأفعال

النَّاظر في الآية يجد الانتقال بين الأمر والفعل، حيث التفتَ منَ الفعل الماضي في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ إلى الفعل المضارع في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ﴾ على اعتبار أنَّ الآمر في الأولى هو الفاعل في الثَّانية، وفائدة هذا الالتفات: التَّواصل بين الأمر والفعل أوَّلًا؛ والانتقال منَ الأوامر إلى الأفعال ثانيًا؛ إذِ التفتَ منَ الأمر، وهو في الماضي؛ ليجعل المخاطب يقف على تفعيل ذلك الأمر، وجعله فعلًا مؤثِّرًا، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، ثمَّ ما في الفعل المضارع من فائدة التَّجدّد والاستمرار، فلعلَّ أمرًا واحدًا تكون نتيجته أفعالًا كثيرةً، وخصَّ من أَمَرَ بهذه الأشياء، وفي ضمن ذلك أنَّ الفاعل أكثر استحقاقًا منَ الآمر، وإذا كان الخير في نجوى الأمر به؛ فلا يكون في مَن يفعله بطريق الأولى[1].

فإن قيل كيف قال ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، ثمَّ قال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؟

وجوابه: أنَّه ذكر الأمر بالخير ليدلَّ به على فاعله؛ لأنَّ الآمر بالخير لمَّا دخل في زمرة الخيرين كان دخول فاعل الخير فيهم من باب أولى، ويجوز أن يراد: ومن يأمر بذلك، فعبَّر عنِ الأمر بالفعل؛ لأنَّ الأمر أيضًا فعل منَ الأفعال[2]، وهذا على سبيل المجاز.

ويضاف إلى ذلك أنَّ المقصود التَّرغيب في الفعل، وفيه إشارة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/34.

إلى أنَّه يجوز أن يعَبَّر عنِ الأمر بالفعل، إذ هو يكَنَّى به عن جميع الأشياء، كما إذا قيل: حلفت على زيدٍ وأكرمته، وكذا وكذا، فتقول: نعم ما فعلت[1].

بلاغة المجاز في معنى (الأمر) في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ﴾:

وتظهر بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾؛ فالمعنى: حثَّ، وحضَّ عليها[2].

يعبَّر بالفعل عنِ الأمر، كما يعبَّر به عن سائر الأفعال

فلمَّا ذكر أنَّ الخير في قوله: ﴿مَنۡ أَمَرَ﴾؛ ذكر ثواب من فعل، ويجوز أن يريد: ومَن يأمر بذلك، فيكون التَّقدير: إلَّا من أمر بصدقة... ومن يأمر بذلك طلبًا لرضا الله، فيعبَّر بالفعل عنِ الأمر، كما يعبَّر به عن سائر الأفعال، وهو على سبيل المجاز المرسَل، وعلاقته المسَبَّبيَّة، والمجاز في ﴿أَمَرَ﴾ بمعنى: القول أو الفعل أو التَّوجيه.

وجه الكناية في قوله: ﴿أَمَرَ﴾:

الدَّلالة على التَّأثير والسّلطان؛ إذ يحتاج الحقّ لإقامته إليهما

تأتي هذه المعاني من إيحاءات لفظ (الأمر) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ﴾، فالمعنى: أنَّ من يأمر له القدرة على تنفيذ أفعال الخير تلك، أو أنَّ له التَّأثير والسّلطان على جعل الآخرين يأتمرون بأمره، ويحتكمون إلى قوله، فيفهم من ذلك أنَّ النَّجوى في الخير تكون لأكابر القوم، مِمَّن يملكون زمام المجتمع، وحركة تنفيذ الإصلاح بين النَّاس، فيأمرون بالصَّدقة والمعروف والإصلاح بين النَّاس فيستجاب لهم في ذلك كلِّه، فيكون مَن يأمر، هم أكابر القوم، ومَن يفعل هم مَن يستجيبون لأوامرهم من أهل الخير والصَّلاح.

بلاغة الالتفات في القراءات:

الالتفات إلى مراءاة النَّاس انقلاب في أفعال الخير فيه مفاسد

قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾ قرأه أبو عمرو، وحمزة، وخلف بالياء التَّحتيَّة ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ على ظاهر قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾[3]، وقرأ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 5/145.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/470، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200.

الجمهور: ﴿نُؤْتِيهِ﴾[1] بنون العظمة على الالتفات منَ الغيبة في قوله: ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلّم[2]. ونكتة هذا الالتفات تصوير هذا العطاء بأعظم ما يكون عليه، واستحضار عظمة اللّه ﷻ ساعة إيتاء الأجر؛ ليناسب ما بعده من قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ﴾، فيكون إسناد الثَّواب والعقاب إلى ضمير المتكلِّم العظيم، وهو أبلغ من إسناده إلى ضمير الغائب، ومن قرأ بالياء؛ لحظَ الاسم الغائب في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، وفيه دليل على أنَّه لا يجزي منَ الأعمال إلَّا ما كان فيه رضا اللّه تعالى، وخلوصه للّه دون رياء ولا سمعة[3].

والتَّنكير والتَّنوين في قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مناسب لمقام العظمة في الآية الكريمة.

وجه الوصل في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾:

الوصل بين الجملتين لاتِّفاقهما في الخبريَّة

الواو في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ للوصل بين الجملتين لاتِّفاقهما في الخبريَّة، فلمَّا أخبر في الأولى بانتفاء الخيريَّة عن أفعال النَّجوى في مجالس النَّاس واستثنى منها ثلاثة أقسام، أو أركان، أو صور رئيسة من أفعال الخير، وصله بخبر آخر ترغيبًا في الأوَّل بما يتضمَّنه، فارتقى بتلك الأقسام، فجعلها ابتغاء مرضاته سبحانه، فقال: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وفي ذلك ما فيه من تحويلات الفكر لدى المتلقِّين، فلا يؤجر فاعل الخير إلَّا أن تكون أفعاله ابتغاء مرضاته سبحانه، فاندرج مع السّموِّ المجتمعيِّ سموًّا في النِّيَّة والنَّفس، وزاد على فعل الخير عبادة خفيَّة، هي إصلاح النِّيَّة، وابتغاء رضاء اللّه تعالى.

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 237.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.

سرّ الإشارة بأداة البعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾:

التَّشويق إلى الارتقاء إلى منازل مرضاة الله

أشار بأداة البعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ مع قرب العهد به؛ للإيذان بعلوّ منزلته، ورفعة شأنه، وترتيب الوعد على فعله[1]، ثمَّ ما في ذلك التَّشويق للارتقاء إلى منازل مرضاة اللّه سبحانه، قال مجاهد: هذه الآية عامَّة للنَّاس يريد أنَّه لا خير فيما يتناجى فيه النَّاس، ويخوضون فيه منَ الحديث إلَّا ما كان من أعمال البرِّ، ثمَّ بيَّن أنَّ ذلك إنَّما ينفع مَن ابتغى به ما عند اللّه[2]، وفي ذلك ضمانٌ للفرد وللمجتمع وحصانةٌ لهما في مسألتين: الأولى: ضمان عمل الخير، والأخرى: ضمان صحَّة التَّصرّف، واتِّباع أصول الأداء وخطواته بما يرضي اللّه سبحانه.

سرّ التَّأكيد بالمصدر في قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾:

رضاء الله هو الهدف الأسمى في حياة المؤمنين

أكَّد هذه الخيريَّة وعلَّلها بقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ مَن فعل خيرًا دون ابتغاء مرضاة اللّه؛ فليس له على اللّه شيء منَ الأجر والثَّواب؛ لأنَّه لم يفعلها ابتغاء رضاء اللّه وثوابه.

وصِيغَتِ العِلَّة بصيغة المصدر ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ لتأكيد عمق الهدى الَّذي يقصده فاعل الخير، وزاد في ذلك العمق جمع كلمة ﴿مَرۡضَاتِ﴾، وإضافتها إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، فكان الجزاء بقدر عظيم ورد وصفه في قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، وهو فوق ما يمكن تقديره عند البشر، فتوسَّع في وصفه دون ذكر تفاصيله، وأكَّد بأداة التَّأكيد ﴿فَسَوۡفَ﴾، وأتبعها بنون العظمة، ونكَّرَ في قوله: ﴿أَجۡرًا﴾ و﴿عَظِيمًا﴾؛ لتعظيم ذلك الأجر، وتشويقًا إليه، وإلى تحصيله.

والمعنى: أنَّ هذه الأقسام الثَّلاثة منَ الطَّاعات، وإن كانت في غاية الشَّرف والجلالة، إلَّا أنَّ الإنسان إنَّما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه اللّه، ولطلب مرضاته، فأمَّا إذا أتى بها رياءً وسمعةً، فانقلبت لتكون منَ المفاسد، وذلك تبعًا لفساد النِّيَّة، وهذه الآية من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/332.
(2) الواحديّ، الوجيز، ص: 289.

أقوى الدَّلائل على أنَّ المطلوب منَ الأعمال الظَّاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النِّيَّة، وعدم الالتفات إلى غرضٍ سوى طلب رضوان اللّه تعالى[1].

حكمة التَّعبير بالمفعول لأجله ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾:

أولاً: للدَّلالة على الحرص على ابتغاء رضا اللّه في الأعمال، والأفعال، والأقوال.

ثانيًا: أنَّ الابتغاء يحمل معنى: الاجتهاد في الطَّلب، والمراد هنا: بذل الجهد في البعد عنِ المناجاة والمسارَّة مهما كان الأمر؛ لأنَّها في الغالب لا خير فيها.

ثالثًا: وللحرص على بذل الجهد في الأمور الثَّلاثة المذكورة؛ لتعلّق مصالح العباد بها.

التَّعبير بالمصدر الميميّ ﴿مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ دون المصدر (الرِّضا):

تصوير المعنى واقعًا قائمًا متحقِّقًا

يصوِّر المصدر الميميّ المعنى واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجود، أمَّا المصدر غير الميميِّ؛ فيصوِّر المعنى مجرَّدًا، والمثال على ذلك: كلمة (مقال)، فإذا كانت هذه الكلمة بمعنى: (القول)؛ فإنَّ التَّعبير به يصوِّر معنًى مجرَّدًا من غير نظرٍ إلى كونه تحقَّق وجوده أم لا، أمَّا كلمة (مقال)؛ فتصوِّر معنًى وجد وتحقَّق، أو في صورة الوجود المتحقِّق، وعلى ذلك يكون معنى قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أنَّهم فعلوا هذه الأشياء طالبين رضا اللّه تعالى، واعتبروه حقيقة مؤكَّدة تصوَّروا حقيقة وجوده، فمن أجله بذلوا كلَّ الجهد في تحقيق الأمور الثَّلاثة.

دلالة استخدام ﴿فَسَوۡفَ﴾ بدلًا منَ (السِّين):

تعليم المسلمين عدم استعجال الثَّواب

آثر القرآن الكريم استخدام ﴿فَسَوۡفَ﴾ بدلاً منَ السِّين؛ لتعليم المسلمين عدم استعجال الثَّواب.

سرّ اختيار الفعل ﴿نُؤۡتِيهِ﴾ بدلًا من (نعطيه):

الـجـزاء منحة الهِبَة

آثر القرآن الكريم الفعل ﴿نُؤۡتِيهِ﴾ بدلًا من نعطيه؛ لأنَّه المناسب للسِّياق في مقام الأجر العظيم، وهو منَ المعاني العظيمة الَّتي يستخدم فيها فعل الإيتاء.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/34.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَجْوى، ومسارَّة:

والفرق بين النَّجوى والسِّرِّ؛ أنَّ النَّجوى اسم للكلام الخفيِّ الَّذي تناجي به صاحبك، كأنَّك ترفعه عن غيره، وذلك أنَّ أصل الكلمة الرِّفعة، ومنه النَّجْوة منَ الأرض، وسمِّي تكليم اللّه تعالى موسى عليه السلام مناجاة؛ لأنَّه كان كلامًا أخفاه عن غيره، والسِّرّ: إخفاء الشَّيء في النَّفس، ولو اختفى بستر، أو وراء جدار، لم يكن سرًّا، ويقال: في هذا الكلام سرٌّ؛ تشبيهًا بما يخفى في النَّفس، ويقال: سرِّي عند فلانٍ، أي: ما يخفيه في نفسه من ذلك، ولا يقال: نجواي عنده، وتقول لصاحبك: هذا سرٌّ ألقيه إِليك، تريد المعنى الَّذي تخفيه في نفسك، والنَّجوى: تتناول جملة ما يتناجى به منَ الكلام، والسِّرّ: يتناول معنى ذلك، وقد يكون السِّرّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فعل سرًّا، وقد أسرَّ الأَمرَ، والنَّجوى لا تكون إِلَّا كلامًا[1].

(لا خير) و(لا نفع):

استعمل القرآن الكريم النَّفع والخير في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: 188]، فنفى نسبة النَّفع إلى نفسه، ونسبه إلى اللّه، فقال: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا﴾ [الأعراف: 188]، ثمَّ قال: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف: 188]، فالخير معروف مقدَّر عند الإنسان بما يستعين به على حياةٍ أفضل، أمَّا النَّفع؛ فهو من قبيل الغيب، ولا يعلم مواضع النَّفع إلَّا اللّه، فالنَّفع: ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتوَصَّل به إلى الخير فهو خيرٌ، فالنَّفع خيرٌ، وضدّه الضّرّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ [الفرقان: 3][2].

ولَمَّا قال: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ بيَّن أنَّ مقاصد النَّجوى لم تكن مقاصد خير، ولو كانت مقاصد خير لمدحت كما مدحت الصَّدقة، ومدح المعروف والإصلاح.

الفعل والعمل:

الفعل كناية عن كلِّ عمل متعدٍّ أو غير متعدٍّ، مأخوذ من فعل يفعل فَعلًا وفِعلًا؛

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63.
(2) الرّاغب، المفردات: (نفع).

فالفعل هو التَّأثير في الشَّيء من جهة مؤثِّر، أمَّا العمل فمأخوذ من عمِل يعمل عملًا، والعمل: إيجاد الأثر في الشَّيء، ويأتي لما فيه امتداد منَ الزَّمن وإبطاء؛ كأن يقال: فلان يعمَل الطِّين خزفًا، ويعمل الخوص زِمّبيلًا، ولا يقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ المراد من ذلك الشَّيء هو إيجاده(1).

ومنَ الفروق - أيضًا - أنَّ العمل أخصّ منَ الفعل؛ فهو يجيء في العمل الصَّالح والسَّيِّئ.

ومنَ الفروق - أيضًا - أنَّ الفعل يكون بقصد وبغير قصد، بخلاف العمل، فهو لا يصدر إلَّا عن قصد.

الأجر والجزاء:

الأجر في اللّغة له معنيان: جزاء العمل، وجبر العظم المكسور، ويجمع بين المعنيين أنَّ أجرة العامل بمنزلة تعويض يتلقَّاه جزاء ما بذله من كدٍّ وجهد؛ فهذا التَّعويض كأنَّه شيء يجبر به، كما يجبر العظم المكسور، أمَّا الجزاء فهو المقابلة على الخير بالثَّواب، وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأصله الغَناء والكفاية، والجزاء يكون مماثلًا مساويًا للمجزيِّ عنه؛ لأنَّ أصل الجزاء في كلام العرب القضاء والتَّعويض، هذا معناهما في معاجم اللّغة، أمَّا في الاستعمال القرآنيِّ؛ فالأجر لابدَّ أن يسبقه عمل وجهد وبذل، قال تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: 47]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [العنكبوت: 27]، وقد يكون الأجر في الآخرة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: 112]، وقد يكون الأجر منَ النَّاس، كما في قوله: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ [القصص: 25]، والأجر لا يكون إلَّا في الخير غالبًا، أمَّا الجزاء؛ فيأتي ليدلَّ على ما فيه الكفاية منَ المقابلة، نحو قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40].

ومنَ الفروق أيضًا أنَّ الجزاء يكون في الخير والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البيّنة: 8]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الإسراء: 98].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 136.

المحتويات

الجزء الخامس 7

سورة النساء 9

- [النّساء: 24] 10
- [النِّساءُ: 25] 29
- [النِّساء: 26] 51
- [النِّساءُ: 27 - 28] 59
- [النساء: 29 - 31] 69
- [النِّساءُ: 32] 86
- [النساء: 33] 94
- [النِّساءُ: 34] 101
- [النِّساءُ: 35] 123
- [النِّساءُ: 36] 133
- [النِّساءُ: 37 - 39] 147
- [النساء: 40 - 42] 162
- [النِّساء: 43] 182
- [النساء: 44] 193
- [النِّساء: 45 - 46] 202
- [النِّساء: 47 - 48] 230
- [النِّساءُ: 49 - 50] 252
- [النِّساء: 51] 260
- [النّساء: 52] 265
- [النساء: 53 - 55] 273
- [النّساء: 56] 289
- [النّساء: 57] 297
- [النّساء: 58] 305
- [النّساء: 59] 313
- [النساء: 60] 323
- [النساء: 61] 337
- [النساء: 62] 343
- [النساء: 63] 350
- [النساء: 64] 357
- [النساء: 65] 364
- [النّساء: 66] 370
- [النّساء: 67] 382
- [النّساء: 68] 387
- [النّساء: 69] 392
- [النّساء: 70] 403
- [النّساء: 71] 407
- [النّساء: 72] 413
- [النّساء: 73] 421
- [النّساء: 74] 430
- [النِّساء: 75] 438
- [النِّساء: 76] 444
- [النِّساء: 77] 449
- [النِّساء: 78] 460
- [النِّساء: 79] 469
- [النساء: 80] 475
- [النساء: 81] 483
- [النساء: 82] 493
- [النساء: 83] 500
- [النساء: 84] 509
- [النساء: 85] 517
- [النساء: 86] 523
- [النساء: 87] 527
- [النساء: 88] 540
- [النساء: 89] 551
- [النساء: 90] 563
- [النساء: 91] 573
- [النساء: 92] 583
- [النساء: 93] 601
- [النساء: 94] 607
- [النّساء: 95 - 96] 623
- [النّساء: 97 - 99] 640
- [النّساء: 100] 656
- [النّساء: 101] 666
- [النساء: 102] 674
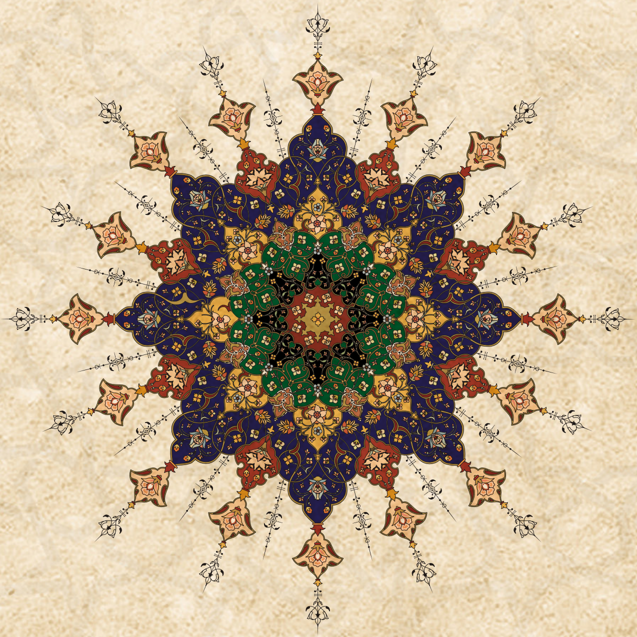
- [النساء: 103] 695
- [النساء: 104] 706
- [النساء: 105] 713
- [النساء: 106] 721
- [النساء: 107] 726
- [النساء: 108] 733
- [النساء: 109] 741
- [النساء: 110] 749
- [النساء: 111] 756
- [النساء: 112] 762
- [النساء: 113] 769
- [النِّساء: 114] 780